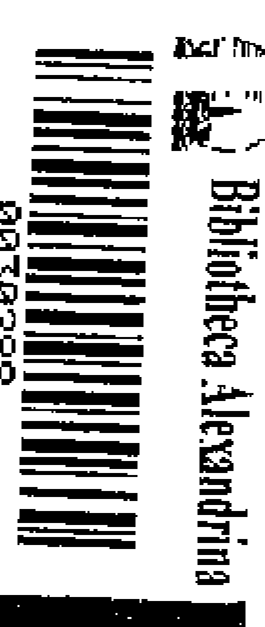
عزيز علي المصري وصحبه

بناة الوحدة العربية والاسلامية

١٩٠٠ - ١٩١٦

الجزء الأول

صبري أبو المجد



عزيز على المصرى وصحبه

بناة الوحدة العربية والإسلامية

١٩٠٠ - ١٩١٦

الجزء الأول

بقلم
صبرى أبو المجد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠

الاخراج الفني : درية محمد علي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

★ الى كل من دعا ،واتبع الدعوة بالعمل الجاد لبناء صرح القومية العربية ، لا فى أوائل سنوات القرن العشرين وحسب ، وانما لسنوات ، بل لقرون سبقت •

★ الى اولئك الذين واجهوا بقلوبهم ، وصدورهم ـ وهم العزل من كل سلاح الا سلاح الايمان ـ رصاص الحكم العثمانى الغاشم ودباباته وطائراته •

★ الى أرواح أول « وجبة » من الشهداء الأخيار الأطهار الأبرار ، الذين دفع بهم السفاح جمال باشا الى أعواد المشانق ، فاستقبلوا الموت فرحين جذلين ، لأنهم عند ربهم يرزقون •

★ الى ارواح •• عبد الكريم الخليل ، عمر حمد ، نايف تللو ، محمد نجا العجم ، جورجى موسى الحداد ، جلال الدين البخارى ، رفيق العظم ، عبد الوهاب المليجى (الانكليزى) ، أمين لطفى الحافظ ، رشدى الشمعة ، نور القاضى ، توفيق زريق ، علـى الارمنازى ، باترو باولى ، توفيق البساط ، رفيق رزق سلـوم ، عبد القادر الخرسا ، حافظ بك السعيد ، عبد القادر الجزائرى الصغير ، محمد الشنطى ، محمد ومحمود المحمصانى ، عبد الغنى العريس ، شكرى بك العسلى ، سعيد عقل ، احمد طبارة ، عبد الحميد الزهراوى ، شفيق المؤيد ، عمر بن مصطفى حمد ، عارف الشهابى ، سيف الدين الخطيب ، سليم محمد سعيد الجزائرى ، على حاجى عمر ، وغيرهم • وغيرهم ممن أشعلوا ـ باعدامهم ـ نار الثورة العربية •

الاخراج الفنى : درية محمد على

بسم الله الرحمن الرحيم

● الإهـــداء

★ الى كل من دعا ، واتبع الدعوة بالعمل الجاد لبناء صرح القومية العربية ، لا في أوائل سنوات القرن العشرين وحسب ، وانمـا لسنوات ، بل لقرون سبقت ٠

★ الى اولئك الذين واجهوا بقلوبهم ، وصدورهم ـ وهم العزل من كل سلاح الا سلاح الايمان ـ رصاص الحكم العثماني الغاشم ودباباته وطائراته ٠

★ الى أرواح أول « وجبة » من الشهداء الأخيار الأطهار الأبرار ، الذين دفع بهم السفاح جمال باشا الى أعواد المشانق ، فاستقبلوا الموت فرحين جذلين ، لأنهم عند ربهم يرزقون ٠

★ الى أرواح ٠٠ عبد الكريم الخليل ، عمر حمد ، نايف تللو ، محمد نجا العجم ، جورجي موسى الحداد ، جلال الدين البخارى ، رفيق العظم ، عبد الوهاب المليجي (الانكليزى) ، أمين لطفى الحافظ ، رشدى الشمعة ، نور القاضي ، توفيق زريق ، عـلى الارمنازى ، باترو باولى ، توفيق البساط ، رفيق رزق سلـوم ، عبد القادر الخرسا ، حافظ بك السعيد ، عبد القادر الجزائرى الصغير ، محمد الشنطى ، محمد ومحمود الحمصاني ، عبد الغنى العريس ، شكرى بك العسلى ، سعيد عقل ، أحمد طبارة ، عبد الحميد الزهراوى ، شفيق المؤيد ، عمر بن مصطفى حمد ، عارف الشهابى ، سيف الدين الخطيب ، سليم محمد سعيد الجزائرى ، على حاجى عمر ، وغيرهم ٠ وغيرهم ممن أشعلوا ـ باعدامهم ـ نار الثورة العربية ٠

★ الى عزيز على المصرى وصحبه ، الذين حاربوا فانتصرا ، أو انهزموا :
ـ دفاعا عن الاسلام ـ فى برقة وطرابلس واليمن ، وفلسطين وشبه الجزيرة العربية والعراق وسورية والمغرب العربى ومصر ، وكانوا فى جهادهم ونضالهم نعم الجنود : يعطون ولا يأخذون ، يبذلون أرواحهم رخيصة فى سبيل الله والوطن ..

الى هؤلاء ، وهؤلاء ممن رووا بدمائهم الذكية أرض الوطن من اقصاها الى أقصاها ..

أهدى هذا الكتاب الذى يعيدنا الى عصور خلت ، كان الاستشهاد فى سبيل الله والوطن من الأمور العادية الطبيعية أهم ما يحرص عليه الآباء والأبناء .

ولعلى اكون بذلك الكتاب قد أوفيت واجبا على تجاه أولئك الرواد الأوائل الذين مهدوا لنا طريق الحرية والاستقلال والأمل .

والله ولى التوفيق ،،

صبرى أبو المجد

عزيز المصرى، أو الثورة المستمرة
(مدخل عام .. وهام)

أول مرة رأيت فيها عزيز على المصرى باشا كانت فى محكمة استئناف مصر فى أوائل مارس ١٩٤٥ وكنا وقتئذ متهمين بالاشتراك فى قضية مقتل د . أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء وقتذاك ، أو كنا ــ بمعنى أدق ــ من المقبوض عليهم .

وكان عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام الذى يتولى التحقيق معنا يحترم عزيز باشا المصرى ويوقره ، فلا يجلس الطوير باشا الا اذا جلس عزيز باشا .

وكان يقوم من كرسيه اذا ما قام عزيز على المصرى باشا من كرسيه .

وكان عزيز على المصرى وقتذاك ثائرا للغاية يتهم النائب العام بالخضوع لسيطرة الحكومة فى اعتقال هذا العدد الوفير من المتهمين بالرغم من أن محمود العيسوى ــ قاتل أحمد ماهر ــ كان معترفا بالجناية .

وكان يؤكد فى كل مناسبة أنه لا صلة لأحد غيره بالتهمة .

كان الطوير باشا يخشى باستمرار حدة لسان عزيز على المصرى ويتحاشى باستمرار ثورته .

ولذلك فان التحقيق مع عزيز على المصرى لم يستغرق وقتا طويلا .

كانت كل الأسئلة تنصب على ما اذا كانت هناك علاقة تربط عزيز على المصرى باشا بمحمود العيسوى ..

يومها لم أستطع التحدث الى عزيز على المصرى اذ كانت التعليمات صريحة وواضحة بألا يتبادل المتهمون أو المقبوض عليهم الحديث أو حتى الاشارة .

غير أن الصورة التى انطبعت في ذهني وقلبي عن عزيز على المصرى انه بطل دائما حتى عندما يساق الى التحقيق مخفورا برجال البوليس فان البطل يبقى بطلا ٠

وتمنيت بعد أن خرجت من السجن ان أراه على انفراد ، أو مع بعض الشباب الذين كانوا يترددون على بيته المتواضع فى المطرية ٠

وذهبنا اليه في مجموعة تضم بعض قيادات الجامعة ، نساله الراى فيما يجب علينا اتخاذه من خطوات عملية لتحقيق آمال الشعب في الوحدة ـ وحدة وادى النيل ـ والاستقلال ٠

يومها تحدث الينا عزيز على المصرى بلهجة عنيفة تختلف الى حد كبير عن لهجة من كنا نلتقى بهم من الزعماء والقادة ، وبلغة تختلف أيضا عن لغتهم ٠

انتقد الحكام المصريين بشدة ووصفهم بأنهم أذناب للاحتلال والسراى، لا يفكرون الا بعقلية المحتل ، ولا يعملون الا وفق ارادته وتعليماته ٠٠ وصف يومها الملك فاروق ـ وكان عزيز يوما ما رائدا له عندما كان يتعلم فى لندن واختلف مع والده الملك أحمد فؤاد بشأن تعليمه وتربيته ـ وصفه يومئذ بالفسق والفجور ، والخبل والخلل العقلى ٠

وأثار حماسنا الى درجة كبيرة ٠

وتحدث حديثا عنيفا عن الاحتلال البريطانى لمصر وجرائمه ومآسيه ٠

وردد كلمة لحافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى « اننا لن نستطيع اخراج الانجليز من أرضنا ما لم نخرجهم من عقولنا وأفكارنا وأذهاننا ٠

لم يترك عزيز على المصرى يومها حزبا الا انتقده نقدا عنيفا ٠

ولم يترك زعيما سياسيا من زعمائنا الا وجه اليه أبشع التهم ٠

وذهبت اليه فى اليوم التالى بعد أن أخذت منه موعدا باسم مستعار : اسأله : لماذا يتكلم بمنتهى الصراحة والوضوح مع شباب يراهم لأول مرة٠

ألا يحتمل ـ مثلا ـ أن يكون البوليس قد دس بينهم بعض أذناب البوليس السياسى ؟

وضحك عزيز على المصرى وقتئذ لسذاجتي وقال لى : لا تخف أنا أعرف ذلك حق المعرفة ، أعرف أن البوليس السياسى قد اشترى بكل خسة ونذالة بعض الشباب ليتجسسوا على زملائهم ، أغراهم بالمال والشقق الفاخرة والعربات القيمة ، كما اشترى بعض من تطلق عليهم

زعماء وقادة ، ولكن كل هؤلاء يابنى ـ قلة ضئيلة الى جانب الغالبية العظمى من الشباب الذى لم يفسد ولن يفسد ، وهذه الغالبية تمثل هذا الشعب العظيم أصدق تمثيل ٠

وكان من بين ما قاله يومذاك ـ أيضا ـ عزيز على المصرى باشا : أنا لا أقول هذا الكلام لمن ألتقى بهم من الشباب لأول مرة ، وانما أقوله للزعماء والقادة والوزراء وكبار الموظفين ، وذلك لكى ينقلوه الى سادتهم فى قصر عابدين وفى السفارة البريطانية بجاردن سيتى ٠

اننا يجب ان نصرخ بأعلى أصواتنا ، يجب ان نعبر عن ارادتنا بقوة وعنف ، لقد فسد الحكم من القمة الى القاعدة ، ووجب علينا ان نسعى بكل قوة بما فيها قوة السلاح لتغيير نظام الحكم » ٠

★ ★ ★

وعندما فكرنا فى أوائل عام ١٩٤٧ فى حمل السلاح دفاعا عن مصر وفلسطين ، ذهبنا اليه نسأله الرأى والمشورة ، ذلك أننا كقيادات جامعية قد مزقتنا الحزبية وانهكتنا الخلافات السياسية ٠

وكان عزيز على المصرى صريحا واضحا ـ كعادته ـ اذ قال لنا : « اذا كنتم مستعدون لحمل السلاح فعلا فأنا فى مقدمة من يعمل على تحقيق رغبتكم من الغد » ٠

قلنا : والمدربون ؟ قال : حاجة بسيطة ٠ قلنا : والسلاح ؟ قال : حاجة أبسط ٠

ان فى كل قرية مصرية عشرات من قطع السلاح وفى كل مدينة المئات بل الآلاف من ذلك السلاح ويمكن شراؤها بل يمكن الحصول عليها بدون شراء » ٠

★ ★ ★

وفى اليوم التالى مباشرة ، كنا عشرة شباب فى دار جمعية الشبان المسلمين نتدرب على حمل السلاح يدربنا الصاغ محمود لبيب وهو واحد من خيرة ضباطنا الذين لعبوا أدوارا هامة فى حرب طرابلس بليبيا وكان يطل علينا من شرفة الطابق الثانى بجمعية الشبان المسلمين ، عزيز على المصرى وصالح حرب ٠

وبعد أن انتهى الدرس الأول استقبلنا كل من صالح حرب وعزيز المصري الذي قال لنا : ليست العبرة بالسلاح الحديث وليست العبرة بكثرة التدريب ، ولكن العبرة بالقلب الذي يحمل السلاح ، صحيح ان اليد هي التي تحمل السلاح ، ولكن العقل هو الذي يفكر ، والقلب هو الذي يمتلىء وحده بالايمان » ٠

« وكان بعض الشبان من الضباط الاحتياطيين في الجيش المصري قد انضموا الينا لتدريبنا بعد ان تضاعفت أعدادنا ٠



ومما يجدر بنا أن نذكره أن حملتنا للتدريب على حمل السلاح قد لقيت استجابة سريعة من كثير من طوائف الشباب ٠

وكان لتلك الحملة صداها في كثير من الدوائر السياسية الأجنبية وخاصة الدوائر البريطانية والأمريكية ، وقد حرص مندوب وكالة الاسوشيتدبرس في القاهرة ـ الزميل فيما بعد ـ محمد وجدي يرحمه الله ٠ ان يجري معي حديثا صحفيا عن فكرة التدريب والهدف منها ٠

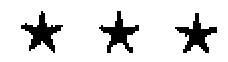
وقد نشر هذا الحديث في كثير من أرجاء العالم بصورة بارزة ٠

بل ان جريدة المصري نشرته في مكان بارز في أحد أعدادها ، وكنت وقتئذ الأمين العام لجبهة تحرير الوادي ٠

وعندما بدأت مضايقات البوليس لنا ، نقلنا التدريب الى مكان ناء في صحراء الهرم ٠

وكنا نحرص على تغيير الأماكن حتى لا يداهمنا البوليس ٠

وقد اقتدت بنا بعض الجمعيات والتيارات السياسية وراحت تدرب أعضاءها ، الأمر الذي نقل الفكرة من تدريب شباب قومي وطني لا ينتمي الى أحزاب سياسية الى تدريب شباب حزبي ، الأمر الذي ألحق بالفكرة ـ ولما توسخ تماما بعد ـ الفشل الذريع ٠



وكنت قد فكرت وقتذاك ـ في عامي ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ ـ في اصدار كتيبات صغيرة لا تزيد عدد صفحات الكتيب الواحد عن ثمانين صفحة اقدم فيها بعض الشخصيات المصرية التاريخية من كل الأحزاب والاتجاهات على أن يجري الحديث في تلك الكتيبات عن الايجابيات دون السلبيات ٠

فقد كنا وقتذاك نحرص على أن نبني أنفسنا بناء وطنيا قوميا لا يعرف التحزب ولا التعصب .

وقد اخترت شخصية محمد محمود باشا لتكون موضوعا للكتيب الأول ، رغم أنني كنت أعارضه في السياسة ولا أؤمن بمبادىء حزبه « الأحرار الدستوريين » ، ثم فكرت في شخصية أحمد ماهر ، وطلعت حرب . وكان الوحيد الذى اخترته من بين الأحياء ليكون موضوعا لواحد من تلك الكتيبات هو عزيز المصرى .

وقد فاتحته في الموضوع فرحب على أن أكتب عنه وزملائه ، وأركز على كبريات الأحداث في عصره .

وتكررت اللقاءات بعزيز المصرى ، وكلما ازداد عدد اللقاءات ، كلما تضاعف ايماني واعجابي بعظمة هذا الرجل وشجاعته ونقاء نفسيته .

واذكر أنه قال لى ذات يوم ــ وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال في سبيل استكمال تكوينها ــ أمنيتي الحقيقية ان تقوم ثورة شعبية في البلاد بقيادة الجيش الوطني المصرى .

لقد نذرت نفسي أكثر من نصف قرن لتلك الثورة ، وكنت أعمل لها في كل مكان حتى عندما انتدبت للقضاء على ثورة البلغار ، كنت أخدم تلك الثورة رغم أنني ذهبت وجيشي للقضاء عليها .

ولا يزال بعض الاخوة البلغار ، وبعض أبناء البلقان يرسلون الى كل عام عن طريق سفرائهم في القاهرة هدايا تذكارية اعترافا بدورى المتواضع في تشجيع الثورة في بلادهم .

لقد كان ضباط الخلافة العثمانية يقتلون ويذبحون كل من يقع تحت أيديهم ، كما كانوا يهدمون كل شيء في طريقهم .

أما أنا فقد كنت أعرف حقيقة مشاعرهم كشعب ينشد الاستقلال ، كنت أحفظ النظام في الوقت الذى أتيح فيه ــ أنا نفسي ــ للشعب فرصة التعبير عن ارادته » .

★ ★ ★

ومرة كان عزيز على المصرى متجليا وهو يتحدث عن ثورة البلغار فروى لى قصة غرامه بفتاة بلغارية كانت على درجة كبيرة من الجمال اسمها مترو ، وقد أغرمت به وأغرم بها .

وكان يلقاها قرب منزلها على قمة جبل عال

ومرة اهدى اليها كمية من العنب ، فلما اقتربت من الهدية قالت له ضاحكة : ألا ترى ان العنب الذى أهديتنى اياه هو من مزرعتنا وقــد حصلت عليه بدون ثمن ، وها أنت تهديه لى بلا ثمن » ·

وتضاحكا ·

ومرة ذهب للقائها فلم يجدها وانما وجد والدها الذى كان محرجا للغاية لأن ابنته تحب القائد التركى الذى يحتل بلاده ، وقد قال الأب لعزيز على بصراحة : أعرف أنك جئت لتبحث عن ابنتى ولكنها ليست هنا فقد خرجت للقاء بعض صديقاتها » ·

ولم تكن مترو قد ذهبت للقاء صديقاتها كما قال الأب ، وانمـا كانت قد اختفت الى الأبد ، لأن بعض مواطنيها ظنوا بها السوء فقاموا بقتلها ·

ولم يكن الأب بقادر على أن يروى لعزيز على المصرى قصة مقتـل ابنته خوفا من أن يقوم عزيز المصرى بالانتقام من الأب ومن البلغار ·

وعندما كان عزيز على المصرى فى التسعين من عمره ، لم يكن يذكر مترو الا وتمتلىء عينيه بالدموع وكان يـردد باستمــرار « ما الحب الا للحبيب الأول » ·

ذلك ان مترو ــ كما روى لى عزيز المصرى ــ كانت حبه الأول وحبه الأخير · لقد كان الرجل بحق عظيما فى كل شىء ، فى حربه وفى سلمه ، فى هدوئه وفى ثورته ، فى فكره وفى عمله ، حتى فى حبه الأول والأخير كان عظيما عظيما ·

أما عن قصة زواج عزيز على المصرى ·· فقد رواها لى ذات مرة عندما قال : انه كان يعيش فى بنسيون اسمه جلواز ·

وكانت صاحبة البنسيون تتعمد ان يجلس على موائد الفطـور أو الغداء أو العشاء مجموعات من النزلاء ، ومرة سألته صاحبة البنسيون ان كان يوافق على أن تجلس على المائدة سيدة أمريكية تزور مصر فرحب بذلك ·

ومنذ لقائه الأول بتلك السيدة بدأ الاهتمام المشترك والاعجــاب المتبادل ·· ولا نقول الحب ···

وفى بغداد التقت تلك السيدة مصادفة بعزيز على المصرى فاتفقا على الزواج ، وكان أهل تلك السيدة قد عارضوا ذلك الزواج ·

وقد عاشت تلك السيدة بضع سنوات مع عزيز المصرى ثم عادت الى أمريكا مع ابنها منه عمر .

وقد أبى عزيز على المصرى الفارس الا أن يحل زوجته من وعدها والا أن يعطيها الحرية فى الانفصال منه حتى لا تشعر بألم ، وقد كتب اليها خطابا بهذا المعنى ناقش فيه علاقتها بأسرتها وعلاقتها به مؤكدا أنه باق على اخلاصه لها ، وانه لم يرض أن يمنحها حرية الانفصال الا لأنه يخشى ان تسوء علاقتها بأهلها .

وقد ردت عليه قائلة : لقد آمنت بكل حرف كتبته ولم أكن أبدا أفكر فى أن ترسل لى هذه الورقة » .

ولم تتزوج من بعده بل وقفت كل جهدها على تربية ابنها . وقد سافر عزيز المصرى الى الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل عام ١٩٥٦ لرؤية ولده عمر .

وكان قد بلغ - وقتذاك - التاسعة عشرة من عمره وكان عزيز المصرى قبل تلك السفرة قد عاوده مرض قديم عجز عن علاجه .

فلما ذهب لرؤية ابنه وزوجته شفى تماما من هذا المرض .

ثم عاوده المرض بعد أن عاد الى مصر من سان فرانسيسكو حيث تقيم الزوجة والابن وكان عزيز قبل ذلك بعامين - عندما كان سفيرا لمصر فى الاتحاد السوفييتى - قد دعا ابنه هو وأمه فى مصر .

وكان عمر وقتذاك يعمل ضابطا فى الجيش الأمريكى تخصص فى عمليات الرادار وقد اشترك فى الحرب الكورية وهو - عمر - يحمل الجنسية الأمريكية .

كانت سعادة عزيز على المصرى عندما يلتقى بابنه فى القاهرة أو فى سان فرانسيسكو أو شيكاغو سعادة بالغة ، ذلك أنه اكتشف ان هناك صلة تربطه بالعالم الذى نعيش فيه تتمثل فى عمر . وكان مهر زوجته روبيتين هنديتين أى ١٤ قرشا وكان الزواج بالقاهرة عام ١٩٢٣ .

وعندما عملت بالصحافة ، كنت أتحين الفرص - كما هى عادتنا كمحررين فى المصور - لسؤال عزيز على المصرى عن رأيه فى بعض الأمور السياسية وما يراه من حلول لها .

وكنت - وكان هو أيضا - على ثقة شبه مطلقة من أن معظم أحاديثه معى لن تنشر لجرأتها ، وخروجها على المألوف .

وكنت أستأذن في أن أسجل تلك الآراء في مذكراتي التي كنت أودعها عند بعض الأصدقاء الذين لا يعرف البوليس السياسي الطريق اليهم .

★ ★ ★

وبعد أن لقي عزيز علي المصري ربه ، فكرت كعادتي ، في تخليد ذكرى العظماء التاريخيين ، في أن نخصص لعزيز عددا خاصا من المصور استغرق من جهدي الشيء الكثير ، حتى لقد طالت فترة الاعداد لذلك العدد الى أكثر من عام .

رحت أجمع كل ما لدي عنه من أوراق ومذكرات .

بدأت أتصل بأصدقائه وحوارييه واستمع منهم الى ما يحفظونه عن عزيز المصري .

وكنت ـ مثلا ـ ولأيام طويلة ـ اذهب الى المستشفى الايطالي بالعباسية لأستمع الى الأخ الفنان عبد القادر رزق الذي اعتقل عنده عزيز المصري بعد أن اختفى عدة أسابيع لفشل هربه الى الخارج وسقوط الطائرة التي كانت تقله بالقرب من طوخ .

ثم أثقلت كثيرا على اللواء سعيد الألفي وزوجته الفنانة اعتماد الطرابلسي لكي أخرج ما عندهما من معلومات عن عزيز علي المصري .

وكانا ـ اعتماد وسعيد ـ أوفى أصدقاء عزيز علي المصري حتى يوم الوفاة .

ثم اتصلت بكثير من الأصدقاء الذين أعرف صلاتهم الوثيقة بعزيز علي المصري : د محمود دياب ، كمال يعقوب ، أحمد كمال الدين المنسي وآخرين وأخريات .

ثم استكتبت مقالا من الأستاذ فتحي رضوان الذي عمل ـ متطوعا ـ لفترة من الفترات محاميا عن عزيز علي المصري .

وقد فوجئت بأن المقال تضمن اتهامات خطيرة لعزيز علي المصري من محاميه .

واتصلت بالأستاذ فتحي رضوان أكثر من مرة لأناقشه فيما أبداه في مقاله من آراء تتعلق بعزيز علي المصري .

وعبثا حاولت اقناعه بحذف تلك الاتهامات من المقال مؤكدا له أنني لا يمكن أبدا أن أوافق كمشرف على هذا العدد الخاص عن عزيز علي المصري، على نشر تلك الاتهامات

واذا كان الأستاذ فتحي رضوان قد استجاب لرجائي بتخفيف حدة الاتهامات ، الا انه عاد الى الحديث عنها فيما نشره قبل وفاته ــ وفاة فتحي رضوان ــ بأشهر قليلة .

وسوف نناقش كل تلك الآراء والاتهامات بموضوعية بالغة داخل فصول الكتاب

وأنهيت العدد الخاص بعزيز علي المصري ولم يبق الا تحديد الموعد الذي يصدر فيه ذلك .

وكنت قد اخترت موضوعا معينا يكون ــ من الناحية الصحفية البحتة ــ بداية ذلك العدد ، وكان عن علاقة عزيز علي المصري بالضباط الأحرار وفي المقدمة أنور السادات ، ووجيه أباظة ، وعبد اللطيف بغدادي ولكنني اكتشفت أن الموضوع الذي اخترته ليكون ــ لقوتــه ــ باكورة العدد ، هو الذي أدى الى وأد العدد كله .

وكنت محرجا للغاية مع كثير من الاخوة والأساتذة الذين تحدثت اليهم ، وبعض رفاقي من أسرة تحرير المصور ، وكذلك الذين استكتبتهم ، فبذلت جهودا شاقة ومضنية ــ وكانت ادارة التحرير في المصور قد تغيرت ــ لكي يتحول العدد الخاص الى جزء خاص وقد كان ..

وأبقيت عندي بقية المادة التي جمعت عن عزيز علي المصري خاصة وأنها جاءت من أعرف الناس وألصقهم بعزيز علي المصري .

وعدت الى فكرة قديمة راودتني منذ زمن وهي أن أصدر كتابا عن عزيز علي المصري وصحبه .

وعرضت الفكرة ــ فكرة اصدار الكتاب ــ على بعض أصدقاء عزيز علي المصري وحوارييه .

وفوجئت بهم يختلفون فيما بينهم اختلافا بينا حول الفــكرة .. البعض تحمس لها تحمسا بالغا ، والآخر عارضها الى حد ما ، على أساس ان عزيز علي المصري كان من الثوار المشوشين ــ بفتح الشين الأولى وكذلك فتح الواو ــ و .. و .... وزادني ذلك الخلاف اصرارا على تنفيذ الفكرة .

وبدأت العمل ، وكان ذلك منذ أكثر من ثمانية عشر عاما فأنا في مثل هذه الحالات التي لا تكون لي صلة مباشرة وطويلة بمن أكتب عنهم

أشعر بالنقص الذى أداويه بالالتجاء الى كثير من الشخصيات التى تعرف جيدا تلك الشخصية ، ثم ان الفترة الأولى من حياة عزيز على المصرى والتى بلغ فيها قمة المجد والشهرة مجهولة أو شبه مجهولة هنا فى مصر ، لم نكتب عنها الا قليلا ، واذا كتبنا تكون كتاباتنا نقلا عن بعض الاخوة فى سورية أو لبنان أو العراق أو فلسطين أو شرق الأردن •

وقد تيقنت من صعوبة المهمة عندما بدأت ـ وفق منهجى فى الكتابة ـ أدرس المرحلة الأولى من حياة عزيز •

اتجهت الى المصادر الرئيسية القادرة على ازالة الغموض الذى ران على تلك الفترة واعتمدت ـ أول ما اعتمدت ـ على بعض الزملاء الصحفيين العرب الذين أعرفهم والذين يعرفون جيدا العديد من الشخصيات التاريخية التى تملك خزائن التاريخ الخاص بتلك الفترة •

وكان فى مقدمة الاخوة الذين تحمسوا للكتابة عن عزيز على المصرى وصحبه ، الأخ الصديق صبيح الغافقى والذى وددت لو أن هذا الكتاب صدر فى حياته لولا أن المنية ـ رحمه الله ـ عاجلته •

أمدنى صبيح ـ طيب الله ثراه ـ بأكبر قدر من المعلومات عن عزيز على المصرى ورفاقه •

كما أمدنى بالعديد من المذكرات التى كتبها عراقيون لعبوا أخطر الأدوار فيما سمى بـ « الثورة العربية » الأولى ضد العثمانيين •

ثم عرفنى بكثير من الأساتذة الأفاضل الذين وجدت لديهم أنهارا من المعرفة وفى المقدمة المؤرخ العربى الكبير الاستاذ عجاج نويهض •

وكنت قد تعرفت بالكاتب العراقى الكبير الأستاذ مجيد خدورى الذى تخصص فى الكتابة عن بعض القضايا العربية وخاصة الثورة العربية •

والتقى ـ ككاتب ومؤرخ ـ بعزيز على المصرى ، فأمدنى بقسط كبير من المعرفة والتاريخ •

ثم وجدت نفسى أسعى الى بعض من كانوا يتزعمون الثورة ضد الاستبداد العثمانى فى سوريا ولبنان والى أبنائهم وأحفادهم •

كما سعيت للحصول على مذكرات الملك عبد الله والجنرال نورى السعيد واللواء عبد الجليل الراوى وغيرهم وغيرهم •

ثم أغرقت نفسى أشهرا طويلة فى الجمعيات التى كانت قد انشئت فى الخمسة عشر عاما الأولى من القرن العشرين مثل جمعيات « العهد » و « القحطانية » و « اللامركزية » و « الاصلاح » و « الجمعية العربية

الفتاة » و « الاخاء العربي » و « المنتدى الأدبي » و « العلم الأخضر » وهي الجمعيات التي كان بعض ثوار العرب قد شكلوها للتخلص من السيطرة العثمانية على الشعب العربي ، وكانت تلك الجمعيات ـ بحق ـ بؤرا للعمل الثوري الجاد لتحقيق القومية العربية •

درست كل ما يتعلق بتلك الجمعيات : أهدافهـــا ـ أساليبها ـ طرق العمل بها ـ الشخصيات التي انضمت اليها ـ الى أن بلغت الذروة في النجاح •

على انني لم أتوقف عند حدود المذكرات والمخطوطات والمطبوعات بل عمدت الى الالتقاء بكثير من الشخصيات التي توثقت الصلات بينها وبين عزيز على المصري في ميدان النضال والكفاح في الفترة من ١٩١٨ حتى ١٩٤٥ •

وكانت لقاءاتي بالرجل العظيم الشهم حسين ذو الفقار صبري الذي رافق وزميله عبد المنعم عبد الرؤوف ، وكان كل منهما يومئذ برتبة طيار أول ـ عزيز على المصري في حادث سقوط الطائرة في مايو ١٩٤١ قرب قليوب • كثيرة ومثمرة للغاية ، خاصة وأن الرجل الذي ظل مضربا عن الكلام فيما يتعلق بحادث الطائرة ، قد فتح لي وللقراء قلبه للمرة الأولى •

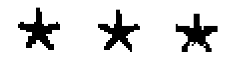
وفي موضوع علاقة عزيز على المصري بكتائب التحرير التي أنشئت عام ١٩٥١ اثر الغاء معاهدة ١٩٣٦ ـ وهو موضوع أثار الكثير من الجدل والنقاش ـ لم أكتف بما لدى من معلومات موثقـــة ، وانما سعيت الى كثيرين ممن شاركوا العمل تحت قيادة عزيز على المصري ، وقد استكتبت الكثيرين منهم فكانت شهادتهم وثائق هامة •

وبعبارة قصيرة موجزة أقول •• أنني ـ ولأكثر من عشرين سنة ـ كنت دائب البحث عن تاريخ عزيز على المصري وصحبه •

ما ترددت يوما واحدا في الجري وراء من يقول لى أنه يملك معلومات ولو بسيطة عن عزيز على المصري سواء كان ذلك الشخص مقيما في مصر أو في أي بلد عربي شقيق •

ثم لما اطمأن قلبي وعقلي الى ما لدى من معلومات ، صغتها في كتاب •

ثم تركته الى جانبي ـ كعادتي ـ أكثر من أربعة أعوام ، ثم عدت اليه من جديد ـ كعادتي أيضا ـ لأضيف اليه ماحصلت عليه من معلومات جـديدة •



لم أجد واحدا ـ كما سبق أن قلت ـ متحمسا للكتابة عن عزيز علي المصري ، كما وجدت صبيح الغافقي ٠

ما من مرة التقينا معا في بغداد أو في القاهرة ـ وكثيرا ما كنا نلتقي في العام الواحد أكثر من مرة ! الا وسالني : الى أين وصلت في كتابك عن عزيز علي ؟

وما من قصاصة ورق تحمل معلومة عن عزيز علي المصري الا وبعث بها الى ٠

بل أكثر من ذلك ، كان يحرض شخصيات عراقية وسورية كثيرة على أن تكتب لي عما تعرف عن عزيز ٠

وكنموذج لاهتمام صبيح الغافقي بموضوع عزيز علي المصرى أشير الى واحدة من رسائله الي :

بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٢

الأخ الأعز الأستاذ صبري

اعتذر لتاخري عن الكتابة ٠ فقد عادت الى نوبات القلب وارهقت صحتي ، فضلا عن أن متابعة واستقصاء تاريخ المجاهد المرحوم عزيز علي يحتاج الى جهد كبير لبعد الزمن بما كتب عنه في الصحافة العراقية منذ زيارته الأولى عام ١٩٢٥ ٠ وقد انفقت مرة ثلاث ساعات في مكتبة الآثار لاكتشف نبا صغيرا نشر في تلك السنة يذكر أنه تقدم بطلب للحصول على الجنسية العراقية وفيما يلي بعض ما اطلعت عليه في صحفنا القديمة وقد يفيد موضوع كتابك الذي تتحدث فيه عن هذه الشخصية العربية الفذة ٠

لا أدري الى اين انتهيت في كتابك الجديد عن المرحوم عزيز علي المصري الذي كان طرازا فريدا بين رجال العرب في أوائل هذا القرن وآمل أن تقدمه للمطبعة قريبا ٠

١ ـ ان العلاقة بين المرحوم عزيز علي المصري وبين العراق قديمة جدا وقد قرر هو في كثير من المناسبات أن أمه كانت من البصرة • وبعد تبلور الفكرة العربية الاستقلالية ، وقيامه بانشاء جمعية العهد في استانبول ، قبل نصف قرن اعتبره جميع الضباط العراقيين والسوريين الذين كانوا يمثلون الأغلبية في الجمعية الأب والمرشد الروحي وكانت ثقتهم باخلاصه لا حدود لها ، وظلت الصلات وثيقة بينه وبينهم بعد ذلك عشرات من السنين •

ولا أريد ان أفصل في انشاء جمعية العهد فقد استوفى هذا الموضوع المرحوم الأستاذ أسعد داغر في كتابه « مذكراتي على هامش القضية العربية الذي صدر في يناير ١٩٥٩ بمطابع جريدة القاهرة •

ولا اعتقد أن ثمة مصدرا يفي بالفترة الأولى من حياة المرحوم عزيز علي أكثر من هذا الكتاب الذي آمل وجوده عندك ، وهو في رأيي يغنيك بمعلوماته الدقيقة ذات القيمة الحقيقية •

وفي كتيب أصدره المرحوم محب الدين الخطيب عن المطبعة السلفية في القاهرة ١٣٥٥ هـ ــ ١٩٣٦ لاحياء ذكرى احد أوائل المشاركين في جمعية العهد اقتبس فيه مقابلة نشرت في جريدة المصري في ٤ نوفمبر ١٩٣٦ • جاء فيها على لسان عزيز علي المصري « ان الضباط العرب ألفوا جمعية العهد بعد أن استفحلت الحركة الطورانية التركية التي كانت تنادي بها جمعية الاتحاد والترقي •

وتحدث معي أحد ضباط العرب الممتازين في الجيش وهو سليم الجزائري ــ الذي شنقه جمال السفاح باشا اثناء الحرب العالمية الأولى ــ فيما سيترتب على انقسام الضباط العثمانيين من أمور خطيرة •

وطلب مني أن أجد حلا لتوجيه هذه الحركة الى اتجاه شريف ، فاسست جمعية العهد التي كان الفرض منها اعطاء حكم ذاتي للعناصر غير العثمانية وتكوين امبراطورية من مقاطعات متحدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو ألمانيا في ذلك العهد • على أن يكون الحكم الأعلى في عائلة آل عثمان •

وأمليت ذات ليلة على / طه الهاشمي قوانين جمعية العهد ، وأوضحت أغراض الجمعية في المادتين الأوليين منها ، فجاء في المادة الأولى ما معناه : ان الأتراك دافعوا عن الشرق منذ ٦٠٠ سنة ولازالوا يدافعون عنه في المخافر الأمامية ضد الغرب حتى الآن •

وجاء فى المادة الثانية ما معناه أن على العرب ، ان يقوموا بالاستعداد للدفاع عن تلك المشافر » •

ووصف اللواء الركن المتقاعد ابراهيم الراوى ، ياور الفريق عزيز على فى ثورة ١٩١٦ عزيز على بانه القائد العربى الذى اقض مضاجع المستعمرين طليقا ومنفيا •

واشار الى أن علاقتهما ترجع الى عام ١٩١٣ عندما كان يتلقى - أى الراوى - دراسته فى الكلية العسكرية باستانبول وفى ذلك الوقت عاد المصرى الى استانبول بعد أن شارك فى الحرب ضد الايطاليين فى ليبيا •

ويومها بدأ يعمل على انشاء جمعية العهد بعد طغيان حركة التتريك التى تبنتها جمعية الاتحاد والترقى •

وقال الراوى : ان عزيز على رفض جميع العروض ووسائل الاغراء والمناصب التى عرضها عليه الاتحاديون ، وأعلن تمسكه بمبدأ اللامركزية الذى كان يطالب بتحقيقه للعرب •

وقد أضمرها الأتراك له ذلك فاعتقلوه بتهمة الاختلاس والتمرد على أوامر السلطات •

وجرت محاكمة صورية لفقت ضده خلالها شهادات مزورة ، وصدر الحكم فى نهايتها عليه بالاعدام •

والحقيقة - كما يقول اللواء ابراهيم الراوى - أن هذا الحكم أستقبل فى العراق والبلاد العربية الأخرى باستنكار شديد •

وأرسلت الألوف من البرقيات تحتج على هذا الحكم الجائر مما اضطر السلطات العثمانية الى ابدال الحكم بالسجن المؤبد •

لكن هذا لم يرض العناصر العربية التى اعربت عن تخوفها من ان تلجأ الحكومة التركية الى اغتياله فى السجن واشتدت المطالبة باطلاق سراحه حتى هدد خديوى مصر يومذاك بالرد على هذا القرار بشكل آخر •

وقد انصاعت السلطات العثمانية آخر الأمر ووافقت على اطلاق سراح عزيز على المصرى بعد اخراجه من الجيش ، وابعاده من استانبول وفى الوقت ذاته لجأت الى اعتقال الكثيرين من الضباط العرب نكاية بموقفهم •

وتبدأ بعد ذلك المرحلة الثانية من نضاله وانضمامه الى الثورة العربية عام ١٩١٦ ويقول الراوى : ان عزيزا انضم نزولا على الأمر الواقع ولكن شكوكه بقيت قائمة فى الانكليز منذ اللحظة الأولى ٠

وكان من رأيه ـ وهذا عن عبد الرزاق الحسنى فى كتابه « العراق فى ظل المعاهدات » ـ وجوب تنظيم علاقات العرب بالانكليز وحلفائهم على أسس متينة وان تكون مساعدتهم للجيش العربى مساعدة حقيقية فيلعب دورا رئيسيا فيما يعهد اليه فى الحرب فكان من نصيبه ان نحى من الخدمة ٠ وبقيت العلاقات بين العرب والحلفاء مضطربة » ٠

ويمضى ابراهيم الراوى فى حديثه بان عزيز على انضم للثورة بعد ان تم أسر غالب باشا والى الحجاز وقائد الفرقة التركية وعين وزيرا للحرب وحدث بينه وبين الملك حسين خلاف عنيف عزز شكوكه بالانكليز والاعيبهم ومؤامراتهم ٠

وكان من رأى عزيز بقاء غالب باشا فى الحجاز وعدم ارساله الى مصر ليبقى همزة وصل مع الأتراك والألمان الذين ـ أى الألمان ـ كان عزيز يميل الى الاحتفاظ بعلاقته معهم فى محاولة لتعزيز موقف العرب اذا ما استمر الانكليز على تنفيذ مخططاتهم المبيتة ضد الثورة يومذاك ٠

وفى ذلك الوقت تبين ان واشيا وشى بعزيز على لدى الشريف على (الملك فيما بعد) زاعما ـ وهذا الكلام للمرحوم على جودت الأيوبى رئيس ركن فى الهيئة التى يرأسها عزيز على (طبعة بيروت ١٩٦٧) ـ زاعما أن عزيزا كان يريد ان يوقع الجيش العربى فى الفخ التركى والتسليم اليه ٠

وظهر بعد ذلك زيف الوشاية ٠

ولكن عزيز كان قد قرر العودة الى القاهرة ٠

ومن هناك ارغمه الانكليز على الهجرة الى اسبانيا ٠

وذكر ابراهيم الراوى : ان عزيز على كان القائد الوحيد الذى رفض ان يتقاضى أى مرتب طيلة وجوده فى الحجاز على الرغم من تخصيص ٨٠ جنيها مصريا ذهبا له وهو يعادل أكثر من ضعف مرتب أى وزير ٠

وكان يصر على الانفاق من جيبه الخاص ٠

وفى المقال الذى نشر فى جريدة الجمهورية العراقية فى ٢٤ يونيه ١٩٦٥ للواء الراوى يؤبن فيه المرحوم عزيز على ، أعاد الى الأذهان هذا الموقف ولكنه ذكر أنه كان قد عهد بثروته الى بعض اقربائه عندما اضطر للسفر الى اسبانيا وأن هؤلاء لم يكونوا أمناء مما اضطره الى مقاضاتهم فيما بعد • حتى انه تعرض لفترة طويلة الى أزمة مالية •

٢ ـ ومن الوجوه الأخرى لعلاقات المرحوم المصرى بالعراق أنه زاره أكثر من مرة •

ذكر لى الحاج احمد شوقى الحسينى المدير العام السابق للأشغال أن المصرى زار بغداد بعد تأسيس الحكم الوطنى عام ١٩٢١ • الا أنى لم أجد لهذا تاييدا أو تعزيزا •

وزار العراق فى ١٣ مايو ١٩٢٥ :

وقد لمح المشير الركن المرحوم طه الهاشمى فى مذكراته التى نشرت فى بيروت فى ابريل ١٩٦٧ لهذه الزيارة بقوله : وصل الأخ عزيز على من مصر ويظهر أنه أعلم الناس باخلاق نورى • أخذ يسعى فى جمع الكلمة وفقه الله فى ذلك الا أن القلوب متنافرة بشدة مع الأسف وهذا هو الداء » •

وتردد يومذاك أن المرحوم المصرى كان يرغب فى الحصول على عمل فى العراق ولكن نورى باحابيله ـ كما قال بعض المتابعين للأحداث ـ أوحى الى بعض الصحف بالحملة على عزيز •

وتصدى الكاتب السياسى الكبير المرحوم علـى محمود الشيخ على ـ وزير العدل فى وزارة رشيد عالى عام ١٩٤١ فيما بعد الى الرد عليه بعنف • والمرحوم على نشر فى جريدة الحارس التى أصدرها عام ١٩٥٤ تسعة فصول عن عزيز على وهو جزء من مذكراته التى ما زالت مخطوطة •

وكتبت صحيفة الاستقلال الوطنية المتطرفة عن عزيز على ـ فى ١٩٢٥/٥/١١ ق يكفى ذكر هذا الاسم المحبوب لنتمثل نهضة العرب وبطولتهم وأصالتهم• ان عزيز على هو واضع أسس نهضتنا الحاضرة ، ومتعهد شئونها والعامل على انمائها بعزم ثابت وقلب لا محل فيه للطمع والأغراض الذاتية •

وذكرت صحيفة العالم العربي المعتدلة في ١٣/٥/١٩٢٥ : (ان بعض شباب العرب قدم ادارة مجلة العالم العربي وأعلمونا أن جماعة من متنوري الشباب الناهض ينوون اقامة حفلة تكريمية لصـــاحب العطوفة عزيز على بك المصرى ويدعون الوطنيين الى معاضدتهم) ٠

وأكد لى ابراهيم الراوى ان عزيز على كان قد استهـدف من زيارته للعراق العمل فى الجيش العراقى ٠ أو أية مصلحة عراقيـــة اخرى ٠

وقال طه الهاشمى فى مذكراته ليوم ١١ آب (أغسطس)١٩٢٥ : صرح لى رؤوف الجادرجى (وزير ســابق وشقيق كامل الجادرجى والذى عين ممثلا للعراق فى مجلس شركة النفط العراقية بلندن) أنه لا يوافق أبدا على تعيين عزيز على وأنه لا يهتم بالأمر الملكى فقلت له : اذن صحت الرواية بانك راغب فى الوظيفة نفسها ٠٠

وكتبت جريدة العالم العربى فى ٣ يونيه (حزيــران) ١٩٢٥ خبرا صغيرا جاء فيه ما يلى :

تحققنا أن سعادة عزيز بك على قدم طلبا الى وزارة الداخلية للتجنس بالجنسية العراقية فأهلا وسهلا بالفضل والاخلاص » ٠

ومهما يكن من أمر بعد هذا الاستقصاء لصحف ذاك العهد فــان المرحوم عزيز على شعر بان ثمة مقاومة لتعيينه ، فغادر بغداد الى طهران ولحقت به ـ كما يقول ياوره ابراهيم الراوى ـ سيدة أمريكية تعرف اليهـا وأحبتـه حبـا جارفا انتهى بالزواج ٠ وولدت له وحيده عمـــر ٠

وكان أمين احمد من قدامى الصحفيين الذين عملوا فى جريدة الجمهورية قد عقد مقالا فى الجمهورية يوم ١٩ يونيه ١٩٦٥ وقال فى معرض اشارته الى مواقف بطولة عزيز على ٠ انه قصد العراق فى عهد وزارة المرحوم ياسين الهاشمى وقوبل بأعظم الحفاوة والتكريم وأشاع أعوان الانكليز بان الرجل جاء يطلب عملا لكن المرحوم ياسين الهاشمى نفى الاشاعة بشدة ٠ والثابت أنه اطلع على وضع العراق حينذاك وأعاد صلاته القومية بتلاميذه الذين أعربوا عن استعدادهم لخدمته مدى الحياة وشهد الكثير من معالم العراق لانه فى الأصل من البصرة » ٠

وأضاف أن عزيزا كان مثلا رفيعا للمجاهد الحر العربى الأبى والانسان القومى والعسكرى الشهم وسيظل ذكره فى طليعة البناة الخالدين للنهضة العربية الحديثة تفتخر به مهما تعاقبت الأجيال) •

واعتقد ـ صبيح الغافقى ـ ان حكم السيد امين احمد لا ينسجم مع الواقع ، فقد سالت المؤرخ الكبير عبد الرزاق الحسنى عن زيارة عزيز على عام ١٩٢٥ فاكد ما أشار اليه المرحوم طه الهاشمى فى مذكراته • وان ثمة اتجاها كان لتعيينه ممثلا عن العراق فى مجلس شركة النفط العراقية •

وهذا المنصب شغله مدة طويلة رؤوف الجادرجى فيما بعد •

٣ ـ زار المرحوم عزيز على العراق فى ٢٥ مايو ١٩٣٩ زيارة استغرقت اسبوعا اجتمع فيها الى المسئولين وجميعهم كانوا من أعضاء جمعيته « العهد » • ونشرت جريدة البلاد لرفائيل بطى صورته فى الصفحة الاولى على عامودين مرحبة بزيارته • كما نشرت بعد ذلك أنباء عن مأدبة العشاء التى أقامها له رئيس الوزراء •

ونسب الى الأهرام عن مسئول مصرى ان عزيز على لم يصل العراق فى أى مهمة رسمية وان زيارته هى شخصية محضة •

وقد قابلت المرحوم عزيز على وكنت يومذاك ـ صبيح الغافقى ـ فى أول السلم بالصحافة أتولى ادارة تحرير جريدة الهدف ، وهى جريدة اسبوعية كنت أحاول ان أضفى عليها سمات الصحف الذائعة •

وقد بدات عملى باصدار عدد خاص عن جورجى زيدان مؤسس الهلال ونجح نجاحا طيبا •

واستقبلنى عزيز على فى فندق زياد بشارع الرشيد يومذاك وكان يرتدى بذلة بيضاء • وأدلى لى بحديث قصير عن جمعية العهد ودورها فى البناء العربى •• وأكد إنه لا سبيل للعرب الا بالوحدة فهى طريق التحرر والسيادة • وسالته عن الرسالة التى يجب أن يؤمن بها العرب فقال : قبل كل شىء أن يدركوا ادراكا كاملا ماذا يريدون •• وهذا واضح •

ثم عليهم ان يعملوا والعمل صبر وتضحية وتنظيم •

وقال انه متفائل بمستقبل العرب ودورهم العالمى •

ونشرت صحيفة الجمهورية العراقية فى ٢٠ يونيه (حزيران) ١٩٦٥ مقالة لفيصل حسون رئيس تحريرها يومذاك ضمنه مقابلة

بينه وبين المرحوم عزيز علي في ربيع ١٩٥١ قال له فيها : ان العراق فقد بموت ياسين الهاشمي قائدا لا يعوض • ووصف سياسة نوري السعيد بانها سياسة مشايخ العشائر ولم يكن رجل دولة وليست له خطة أو أسلوب علمي في معالجة المشكلات •

وروى أمثلة عن انحرافات نوري وعلاقته بالانكليز وقال انه شخصيا - أي عزيز علي - حاول جهده ان يبعده عن الانكليز بتخصيص ١٠٠ ليرة ذهب له شهريا دون جدوى •

ونصح عزيز علي في الحديث بالأخذ ببعض النظم الاقتصادية الحديثة في معالجة الفقر واشاعة العدالة الاجتماعية •

ولم تكن الأفكار الاشتراكية قد تبلورت في العالم العربي وقال انني أنادي بهذه المبادئ حتى قبل ثورة أكتوبر وقبل ان يخلق الاتحاد السوفياتي •

وقد طبقتها فعلا مع جنودي في بلغاريا » •

ويشير صبيح الغافقي الى خبر نشرته صحيفة الزمان العراقية بتاريخ ١٩٤٦/١٠/١٠ وقد جاء فيه :

وقفنا على رسالة بعث بها سعادة القائد العربي عزيز علي المصري باشا من أوائل ضباط الثورة العربية الى صديقه سعادة أمير اللواء الركن المتقاعد ابراهيم الراوي تفيض بالشجن • ونقرأ في كل فقرة من فقراتها شجوا حزينا كما أن كل عبارة منها تتحدث بأسى عما تفيض به نفس الرجل الكبير الذي كان من أنبل المناضلين في حلبات الجهاد وأصدق المكافحين •

وتضيف الصحيفة ذلك قائلة : ولئن كان الزمن قد تنكر لعزيز علي المصري طيلة السنوات الأخيرة ، فان الأمة العربية وهي في باكورة نهضتها ستذكر للرجل الطيب جهاده ، وما بذله لها » وتنقل الصحيفة عبارة وردت في رسالة عزيز علي المصري :

أكتب اليكم مذكرا بعهد مضى أظنكم نسيتموه : وجهادا مشتركا رميتم قسمه النبيل في هاوية من الذل فسحقتموه واذكروا علما وضع الوانه رجل يقيم اليوم في مصر واذكروا أيضا مبادئ سامية خرجت من دمائه • ومحبة لكم وللأمة العربية تفجرت من قلبه » انتهى •

وهذه الاشارة الى العلم العربى لفتت نظرى وقد كتبت الى صديقى المؤرخ الكبير الأستاذ عجاج نويهض من سدنة التراث العربى ، أحد الكتاب البارزين الذين واكبوا النهضة العربية استطلعه رأيه فى الموضوع ·

ويبدو من عبارة عزيز المصرى انه اختار الألوان الأربعة للعلم العربى فى العشرة الثانية من هذا القرن وقد وعد بأن يكتب لك بعض الدراسات عن المرحوم عزيز على · وعنوانه اذا شئت الاتصال به : رأس المتن · لبنان · العلامة عجاج نويهض » ·

★ ★ ★

وتلقيت العديد من رسائل المؤرخ الكبير عجاج نويهض أولاها بعث بها الى من رأس النقب بلبنان بتاريخ ١٩٧٢/٨/٢٤ وأرسل صورة أخرى للأخ صبيح الغافقى مخافة ان تضيع واحدة منهما فتكون الأخرى بديلة عنها وقد جاء فى تلك الرسالة :

« كنت منغمسا فى تهيئة أشياء جديدة مهمة عن عزيز على العلى المقام فى الجنان وهى فى غاية الفائدة والكشف والوضوح فانى كنت احتفظ فى مكتبى فى مدينة عمر ـ القدس ـ ردها الله الى العمريين بنسخة من كتاب المشرقيات الشهير للانجليزى Orientalion : Sir Ronald storres الذى كان حاكما عاما للقدس من ١٩١٩ الى ١٩٢٩ ، حاكما عسكريا معظم الوقت ، وحاكما مدنيا بعض الوقت ·

وستورس صاحب وقائع ونوادر وحوادث ومفارقات مع العرب ·

جاء مصر عام ١٩٠٥ أيام كرومر وبقى بها حتى عام ١٩١٤ حيث انتظم فى المكتب العربى وكان أحد أركانه ·

وستورس استاذ لورانس وقد زار جدة لا أقل من ٤ مرات سنة ١٩١٦ بعد شبوب ما سمى بالثورة ·

وقد ظهر كتاب ستورس ١٩٣٧ وأعيد طبعه فى طبعة منقحة سنة ١٩٤٥ ومات صاحبه سنة ١٩٥٥ وقد توليت ـ عجاج نويهض ـ ترجمة كتابه « مشرقيات » الذى ورد ذكر عزيز على المصرى فيه فى مواضع عديدة ، تارة ورودا عارضا ، وطورا مسهبا اذ يكون محور الكلام عن عزيز على » ·

وقد تناول عجاج نويهض فى رسائله لى فيما بعد ما يعرفه عن عزيز على المصرى ·

وعجاج نويهض - رحمه الله - لم يكن مؤرخا وحسب وانما كان عاملا في الحقل الوطني وله نضاله المعروف ·

وكانت تعليقاته على ما جاء في كتاب « مشرقيات » تعليقات خبير ومشارك في العمل العربي العام أيضا ·

ومن بين تلك الرسائل مثلا ·· ترجمته لما جاء في كتاب « مشرقيات» لسير رونالد ستورس : « ··· وصل عبد الله حوالى العاشرة وراجعنا ما بحثناه في اليوم السابق ، واليوم انضاف الينا سعيد على باشا (كان ستورس يطلق عليه لقب وزير حربية) وعزيز على (وكان ستورس يذكره دائما بأنه رئيس أركان حرب الحجاز) ·

ويشير عجاج نويهض الى ما ذكره ستورس عن عزيز على في صفحة ١٧٥ من الكتاب - ملخصا تاريخ حياته - اذ قال انه - عزيز - عين في ١٩٣٧ رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى · وفي عام ١٩٤١ اعتقل عزيز بينما كان يحاول الفرار من مصر بالطيارة · وفك اعتقاله في ١٩٤٢ على يد النحاس باشا · ولكى تعرف المزيد من شخصيته الممتعة راجع كتاب انطونيوس الصادر ١٩٣٨ · مات انطونيوس في القدس ١٩٤٢ » ·

ثم يستأنف ستورس كلامه فيقول : قرأ علينا عبد الله برقية فيصل مفادها ان طيارتين تركيتين بدأتا العمل فاقلقت العرب الى حد الرعب ·

وقال انه اذا لم تطردا أو تصدا فالعرب سيتفرقون ·

فوافق سعيد على باشا على هذا الرأى أو هذا التنبؤ ·

ولكن من المستحيل أن تدمر الطيارتان بالرشوة لأن الأتراك لا يستخدمون عربا في ذلك القسم من نقليات الجمال - الجمال التى يأكلها الجرب - ورأى عزيز على ان لا حاجة الى لواء من الجيش البريطانى جنوده مسلمون وهذا ما كان يطلبه الهاشميون بالحاح للاستعانة بهم للدفاع عن رابغ · ولكنه لم يستطع ان يجهر بهذا الرأى بحضور عبد الله الذى في النهاية كتب نداء وطلب ان نضمنه برقيتنا التى علينا ان نبرقها وحوالى الساعة ١٢ أخذ الشريف « يتلفن » الينا مصرا كل الاصرار على اللواء والطيارات البريطانية وبقى يكرر هذا حتى الساعة ١٫٣٠ ولا أقل من ١١ مرة ، حتى اضطررت أن أذكره بأننا مع الأسف لم نستطع الاتصال بجهة الجيش المعسكرة في الحديقة الخلفية للقنصلية ·

وهنا وجدت الرجال العسكريين منا معارضين ولا فائدة منهم · فرجوت منهم ، والحالة هذه ، ان يوضحوا حقائق الموقف للكولونيل ولسون (قنصل الانجليز في جده) ·

وانا برىء من المسئولية التى تتضمنها برقيته ·

وقبل أن ينصرف عبد الله أبدى رغبته ان يراني على حدة بعد الظهر من ذلك النهار · وبعد الظهر بعد الغداء ، أخذت عدة صور ······ خرجت من البوابة الشمالية ، فلقيت عبد الله على مسافة ميل من المدينة · وقد غلطت فى حساب الوقت على الساعة العربية ، وعبد الله كان معه موعد مع « بريمون Bremona » فرافقته الى القنصلية الفرنسية ورتبت أن انتظره الى ما بعد الخامسة ·

ومما استطعت جمعه من معلومات عن مكة من مصادر مختلفة ان الحج لم يزد على عشرين إلفا في هذا الموسم ، وهذا قليل ، ولم يتوقعه الشريف ان يكون هكذا ·

أما حالة مكة من الوجهة العامة فمرضية جدا ·

وطريق جدة ــ مكة ــ الطائف آمنة كطرق مصر · وحجاج مصر والهند عوملوا معاملة حسنة جدا ، فكانوا شاكرين ، غير أنه كان هناك إثنان من الهنود : مصطفى غلام رسول ، وعبد النبى كشميرى ، فكانا يتطاولان بالكلام بحق الشريف وأظن أنهما ألصقا منشورات ضده على جدار قصره (وأعلمت حكومة الهند بهذا) ·

أما البعثة الفرنسية فكانت مرضيا عنها من الرأى العام ·

ولكن الشريف نفسه لم يكن يميل اليها ، ورأيه ألا تعلم البعثة من أمور بلاده الا ما هو ضرورى · أما شعبية الشريف فعظيمة ، وعبد الله هو الوحيد الذى لا يهاب أباه ، ويعامله بأساليب لطيفة ناعمة أكثر من أخيه الصريح الجرىء فيصل ·

أما الجيش المصرى فينظر اليه باحترام وثناء ·

والمعيشة ليست غالية كثيرا · أجود الثمار والخضروات من الطائف · والعملة الدارجة : الفضة العثمانية ، والمصرية والهندية والذهب الانكليزى ··

الحوانيت صغيرة ، وأصحابها من أهل مكة ، وهنود ، ويمانية وجاويين · وليس للشعب اهتمام بالحرب أو أية قضية خارجية ·

وأما حسن روحى وهو بهائى وكان يقيم فى مصر وتعاطى وسائل نشر البهائية فى مصر ، وكان يعمل فى المخابرات البريطانية ، ولما نشبت ثورة الحجاز ١٩١٦ ، وجعله « ستورس » يتردد على الحجاز فى الأشهر الأولى بعد الثورة لا أقل من ٤ مرات الى ختام ١٩١٦ كان حسين روحى هذا عميل « ستورس » وجاسوسه متسترا « بالاسلامية البهائية » وهى من نوع التقية ·

ولعله كان هو الذي يفربج أجوبة مكماهون الى الحسين بتعابير خاصة ، وكان ستورس يعرف من العربية ما يمكنه من الحكم على العبارة أهي في محلها أم لا ٠

وكانت جاسوسية حسين روحي في الحجاز عظيمة القيمة للانكليز ٠

وبعد الحرب أتي به الى فلسطين واحتضنه ستورس هذا وكان « حاكم القدس » فتعين حسين روحي موظفا في « المعارف » برتبة مفتش وليس له من الأهلية شيء يذكر ٠

وبقي في حكومة فلسطين حتى « تقاعد » ووصـــفه ستورس في الحاشية بأنه عنيد ، مزواج ، تزوج سيدة بهائية قوية الشكيمة ، فجاءه منها أربع بنات وصبيان فسمى البنات بأسماء القارات : آسيا وأوروبا وافريقيا وأمريكا ،رمزا الى انتشار البهائية عالميا ، وعرفنا حسين روحي في فلسطين معرفة تامة ، كما عرفنا من أولاده الأستاذ علي :

ولكي يحتفظ روحي هذا بمظهر التقوى والصلاح ، راح يكرع من ماء زمزم ما ملأ جوفه وجعله مريضا ٠ ولم يزل معتلا من ذلك الوقت ٠

ووصل عبد الله في نحو السادسة ٠ فصعدت به رأسا الى الشرفة الشمالية العالية ، المشرفة على سور المدينة ٠ فبدأ حديثه ان الوضع في رابغ هو من الخطورة بحيث يجعل كل قضية أخرى ثانوية بالنسبة الى تلك الخطورة ٠

ووجدته يشعر بعميق الخيبة لأني لم استطع أن أجلب له العشرة آلاف جنيه التي طلبها في برقيته ، وبما ان هناك مطالب أخرى لم تلب أيضا فاصبحت الحاجة اليوم ماسة جدا ٠

فبينت له بصراحة لا تحفظ فيها أننا نعتبر المعونة المالية التي نقدمها الى أبيه ، ولا تعتبر غير سخية ، ينبغي أن تكفي ما يقوم به أبناء الشريف من أعمال ٠

فأجـاب ان والده يقوم بكل جهـد يستطيع ، وأنه هو نفســه (عبد الله) قد أنفق أكثر من ٣٠٠٠ جنيه من جيبه الخاص في اسقاط الطائف فهو بحاجة الى كل قرش ترسله اليه ٠

وتوسل الى ان انقل الى المندوب السامي نداء شخصيا شديدا ان يمده بالمال بأقرب وقت دون تأخر ٠ فوعدت ان أفعل هذا وأكدت له انه سيلبى ٠

وبعد بحث مسألة الخلافة ، انتقل الى مسألة لقب « الجـــلالة » « ملك العرب » • ومن الغريب ان الجبل الأسود ـ قال عبد الله ـ يتخذ هذا اللقب واما شريف مكة فلا •

ومن عجيب الاتفاق أني سمعت مثل هذا الحديث من السلطان حسين كامل لما كنا في المفاوضة معه ٤٩ يوما قبيل اعتلائه عرش مصر ، فذكرته بأن نقولا (ملك الجبل الأسود) لما صعد الى عرش بلاده كانت بلاده كلها تحت سلطته ، والآن ، والمخاوف من رابغ والمدينة كما نرى ، أبوسع الشريف ان يفعل ما فعله نقولا ؟ وهل هناك من فائدة ترجى ، غير تقوية الشكوك بهذا العمل ؟ اذا لم نقل اثارة العداوة ، وهي ممكنة ، في امام اليمن والادريسي وابن سعود وغيرهم •

انذر كوكس القاهرة ان العراقيين قد نقموا من الشريف اتخـاذه لقب « ملك العرب » وسخروا منه •

فعلى الاشراف ان يستولوا على البلاد أولا قبل أن يغيروا من أساس وضعها ، فتظاهر بانه اقتنع بما سمع من براهين وقال انه سيأخذ بها متى اجتمع بأبيه •

ووعدني انه سيرسل الى نسخة مسودة من أول موازنـــة ماليـة لحكومة الحجاز الجديدة •

وهذه الموازنة اذا كتب لها ان تكون موجودة فمن اللذة والفكاهـة الاطلاع عليها •

وتناول عبد الله بن الرشيد فحمل عليه ونسب اليه الخيانة • ولكنه ذكر ابن سعود بخير ، وسأل أيضا : أي خير نالنا أو نناله من الأدريسي وقال عن الامام يحي « أن ضرره لا يضرنا ومساعدته تساعدنا »

وأوصيته ان يبذل جهده لترويج عمليات شراء الجمال ، وان يغير « الشيفرة » المستعملة لديه ، فهذه قد يستطيع الترك حلها •

وتناول مجرى الحديث « ولسون » وبعد انتظار طويل لسعيد علي باشا وعزيز علي بك (على التوقيت العربي) قمنا الى العشاء •

(هنا يذكر ـ ستورس ـ قصة استعارة الفرقة الموسيقية من سعيد علي لتعرف اكراما لعبد الله ، ويصف هذه الموسيقى وتفاهتها وما عرفت « نشيد الموت » فصرف ستورس المعنى الى أن هـــذا النشيد يرمز الى العـــدو) •

وفي صفحة (١٧٩) من كتاب « مشرقيات » •

أما بريمون ، المتشائم بكليته ، فقد صرح برأيه ، وهو أن الشريف يبحث شروط صلح مع الأتراك • فتعين علي أن أغتنم أول فرصة فأسأل عبد الله بهدوء : هل عملوا شيئا لجس نبض هذا الأمر ، فقال : انه وقعت محاولات عديدة بصفة غير رسمية وغير مرتبطة ، فكان أبوه يجيب كل مرة أن العرب هم اليوم حلفاء بريطانيا العظمى وليس بوسعهم بحث شروط صلح منفردين عنها وفارقني دون أن يودعني good-bye الا في صباح اليوم التالي وأنا على وشك ان أركب الباخرة « لاما » Lama قبل الساعة ١١ (١٦/١٠/١٩١٦) فانطلقت كالسهم لأودع عبد الله حول العاشرة وأخذت عدة صور للذكرى •

وودعت والده على التلفون ، وكان يدعوني « يا ابني » • وكان بن غبريط ، وشاري محسن ، وقابل ، يحومون حول الحمرة • أما بن غبريط فكان يحاول جهده أن ينفذ التعليمات المعطاة اليه من الحكومة الفرنسية وان يكتسب لشخصيته ظهورا ولمعانا •

وكان وداع عبد الله حارا • واني الآن اعتقد بصحة انطباعاتي عنه المستفادة من المرة الماضية : أنه ذو عقل ، همام ، جذاب ، ولا ينقصه الا بعض النصيحة الثابتة النيرة ليصبح عمودا من أعمدة السياسة العربية في المستقبل •

وهو الآن يعطي الانطباعة ـ الانطباعة التي تعتبر معقولة مقبولة ـ من أنه هو « المدلل » نوعا ما في البيت •

يقول الأستاذ عجاج نقلا عن ستورس : علمت فيما بعد أن عبد الله كان المختار من بين اخوته ليكون ولي عهد يخلف أباه الحسين • واذا أردنا الحكم العادل عليه ، قلنا أنه يحتاج الى تجربة في الخارج أما اليوم فلا يشغله شاغل غير خطر الترك حول رابغ •

وتحت عنوان •• عزيز علي المصري •• جاء ما يلي :

•••• وبعد أن أخذت بعض رسوم فطوغرافية للذكرى تظهر فيها « بوابة مكة » رجعت ممتطيا حصان ولسون الصغير الحرون

وأدركت الباخرة « لاما » متأخرا عن الموعد أقل من نصف ساعة وعلمت ان بوسعي أن أدرك أيضا الباخرة التجارية « بلفيو Bellvieu مقلعة من رابغ الى السويس في الحادية عشرة من اليوم التالي ، فصممت على هذا • والآن آخذ بالاستراحة مستلقيا اذ أنا متعب منهوك القوى كليا بعد الظهر •

وفي المساء كان لي حديث مع عزيز على بك المصرى ، مكنني من اكتناه شخصيته ، ومعرفة أصله ، وخرجت من هذا كله وأنا أكن له فى نفسى محبة كبيرة وطغى على الميل اليه ، وهـــو الشخص الذى اكتسب تلك الشهرة العظيمة فى ربيع ١٩١٤ بنجاته من شباك المكيدة التى حاكها له « أنور » حسدا وبغضا له ٠

وكان اللورد كتشـــنر وجريدة « التيمس » من أكبر العـوامل فى تنجيته هذه ٠ وذلك رغم الرأى المعارض الذى كان يذهب اليه فى المسألة سفيرنا فى الآستانة ٠

جد عزيز على اسمه سليم عرفات ، تاجـــر من البصرة ، وكانت تجارته تروح وتغدو فى بلاد القفقاس على البحر الأسود ٠

وكان زميل له هناك رجل جركسى يدعى حسن بك ، فزوج ابنتـــه من عرفات ثم ضمه بالولاء الى عشيرته الجركسية ٠

جرى هذا فى زمن السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩) ٠

والجيل الثالث من هذه العشيرة الجركسية انتقل الى القسطنطينية ولكن لما رأوا اعادة بيع الجوارى والسرارى فى القصور ، تحولوا الى مصر واستقروا فيها ٠

والى هذا الوقت كانت العادات الجركسية قد تغلبت على عروبتهم ، ولكنهم بقوا محتفظين بصلاتهم بالبصرة ، وهذا استبقى لهم عرى الصداقات مع العرب ، ولا سيما الذين غربى مصر ٠

وخطب عزيز على سيدة أوروبية (يلوح لى أنها ألمانية ؟) ودامت خطبته ٨ سنين ، وكان أمله ، بل أمله الأكبر ، أن يتزوجها وينهى أشواط حياته العملية ويقيم فى سويسرا ٠

ومن خطيبته هذه أكتسب عزيز على كل ما رأيت فيه من محاسن الثقافة الناعمة ٠

وهو مغرم بالموسيقى الى حد بعيد ٠

وتسكره السمفونيات ويحفظ طائفة من قصار الأغانى « لغوته » ٠

ومعجب بكرنيل اعجابا عاليا ، ولكنه ليس كذلك بهومير اذ قرأ الالياذة بالعربية ترجمة البستانى فلم تأخذ بمجامع نفسه ٠

وعن الالياذة قال الأستاذ عجاج نويهض :

ظهرت ترجمة « الالياذة » بالعربية في مصر ١٩٠٤ في ١٢٨٥ صفحة جميلة الطبع مضبوطة بالشكل الكامل ، وهو مشروع عظيم بنفسه •

وانفق سليمان البستاني من عمره في سبيل هذا المشروع أعواما عديدة :

ويقال ان السيد جمال الدين الافغاني ، لما كان آخر حياته في « قفص » عبد الحميد في الآستانة ، وبلغه مشروع البستاني ، اثنى عليه وشجعه وقال : ان هذا التراث اليوناني الذي يقوم به البستاني كان ينبغي أن ينقل زمن المأمون في بني العباس في بغداد ، فجزى الله البستاني خيرا •

ولما ظهرت الالياذة في مصر اقيم للبستاني احتفال كبير لتكريمه القيت فيه الخطب بالعربية والفرنسية واليونانية •

وتكلم في الاحتفال الدكتور يعقوب صروف أحد أصحاب « المقتطف » والسيد رشيد رضا صاحب « المنار » •

ومن الرسائل التي وردت تحمل المشاركة في الاحتفال والتكريم مع الاعتذار عن الحضور لأسباب قاهرة ، رسائل الأستاذ الامام والدكتور شبلي شميل •

وفي هذه السنة ظهرت آثار عظيمة من التراث العربي ، منها « رسائل أبي العلاء المعري وترجمتها » للمستشرق « مرجليوث » الانكليزي (وأصله يهودي متنصر) •

وكتابات في اللغة « الفلسفة اللغوية » لزيدان (اعـادة طبع) و « الخواطر الغراب » لجبر جومط في بيروت •

ويعود ستورس الى القول ـ بعد حديثه عن الالياذة ـ بالعربية ـ التي لم تاخذ بمجامع نفس عزيز على المصري ـ بانه وعده ان يرسل اليه ليكونت دي ليزل Leconte de Lisles

ويقول ستورس في الحاشية انه لما اجتمع بعزيز على في لندن ١٩٣٦ ودار بينهما حديث أكد له عزيز على انه قد وصله هذا الكتاب العظيم في الالياذة •

ويحب عزيز على الوحدة والتأمل وانطلاق النفس والخاطر في جلسات الانفراد •

وهو نابه العقيدة في دينه ، ورأيه في الأقوام العربية يستحق الايراد ، فقال ان أهل بغداد هم أذكى العرب ويمشون في الطليعة ٠

وكانت بعض نسائهم السافرات في الآستانة يساهمن في الأعمال السياسية المناوئة « للاتحاد والترقي » ويبدين من الآراء ما فيه الحكمة والسداد ٠

★★★

أما السوريون فحظهم من المعارف أوفر ولهم دماثة ٠

ويلي العراقيين والسوريين أهل طرابلس الغرب ، وهو يعلي من شأنهم كثيرا ويتوقع منهم خيرا جزيلا محتملا ، وهذا بعيد ٠ وهنا جاء ستورس بعبارة مغرضة في مساق كلامه « وهذا بعيد » كما نرى ، وكأنه لا يوافق عزيز علي ، على رأيه ، ونحن نقول : ان عزيز علي كان يتكلم بروح علمية صرف ، وستورس يقول عبارته هذه بروح سياسية ٠ وكانت « ليبيا » قد انقضت عليها ايطاليا ٠ ثم تكلم عزيز علي بغصة وحرقة عن تلك المثل العليا المبددة التي حارب من أجلها في طرابلس ، وهو يعتبر النضال هناك أشبه بجزيرة للنهضة العربية ٠

وبعد أهل طرابلس يأتي أهل اليمن الذين هم في نظره في رتبة أعلى ٠٠٠٠ ولعل السبب في هذا ـ حسب رأيه ـ ان الأغذية في اليمن خير منها في الحجاز لصحة الأبدان ٠

ولا نجد فيما أورده ستورس من آراء عزيز علي في تقييم كهذا شيئا يتعلق بمصر والشمال الأفريقي ولا نعتقد أن عزيز علي نفسه قد جاوز هذا دون ذكر ، بل نعتقد أن ستورس لم يرق له ان يورده ٠

ثم انتقل ستورس الى الوضع السياسي للثورة فقال : وكانت آراء عزيز علي في مسألة المدينة متفائلة وناقدة معا ، لطرائق الشريف حسين وأساليبه ، مع الاحترام لشخصيته ٠

وفي هذا الباب رأيت عزيز علي أقل نقدا من سعيد علي باشا ٠ وقال عزيز علي أنه يعتبر تعيينه « رئيس أركان حرب » للحجاز من الكلام الفارغ (أورد ستورس كلمة « كلام فارغ » على لفظها العربي بحروف لاتينية هكذا : Kalam Faregh

وهو متأكد ان المدينة المنورة اذا استولى عليها جيش الثورة ، فهو بعد ذلك متقدم نحو سوريا ٠

وهنا سألنى فورا ومواجهة : هل بريطانيا تريد هذا أولا ٠٠ ؟ فلم أجد نفسى قادرا على الاجابة ٠ ثم استمر هو فى الحديث فقال : انه يريد ان يرى العرب قد اجتازوا أزمة الحجاز ولكن لا يرغب مطلقا فى المغامرة معهم الى أبعد من ذلك ، اذا كانت بريطانيا تقف فى هذا موقف الضد ، لان المغامرة اذا ركبها العرب وبريطانيا ضدهم ، ستفضى بهم الى مآزق هم بغنى عنها ٠ فلذلك كانت نيته أن ينسحب العرب اذا جاءهم النذير بوقته » ، وطلب منى بالحاح الجواب على سؤاله المتقدم ، على أن يصل اليه بأية وسيلة أراها صحيحة قبل ٥ نوفمبر فى رابغ ٠ فاذا لم يبلغه الجواب الى هذا التاريخ (وأنا لا أستطيع ان أضمن له هذا) فلا يستغربن بعد ذلك ماذا سيحدث ٠

ويرجو أن نقبل معذرته ، اذا وجد محمولا بالتيار العام ٠

وأقول انه اذا انسحب من الخدمة ، فانى واثق أنـــه سينتظم فى سلك الخدمة فى حكومة مصر ، ويشغل منصب « مدير محافظة » ويكون من الطراز الأول » ٠

وفى احدى رسائل الأستاذ عجاج اشارة الى ما ورد بكتاب ستورس ووصوله الى القنصلية البريطانية بجدة حيث حل على الكولونيل ويلسون ، وكابتن جورج لويد ، الذى كان حاكما عاما لبومباى والذى أصبح ــ فيما بعد ــ معتمدا بريطانيا ساميا فى مصر ٠

وكيف علم أن الشريف حسين وصل بعده على ظهر بغلة ونزل فى بيت محمد ناصف المقابل للقنصلية ٠

ويشير ستورس الى الترتيبات البدائية التى أقيمت بمناسبة وصول الحسين ٠

كما يشير الى زيارات ثلاثة له ــ لستورس ــ لجدة من قبل ، كما يشير الى نقطة مهمة متسائلا : أيمكن بدلا من مطلب الأشراف بألويـــة بريطانية ومدافع بريطانية ان تحشد قوات عربية كافية للعمل ، أم أن ذلك غير ممكن ، ثم يشير الى أن مطالب الأشراف ١٥٠٠ جندى مسلم من الجيش البريطانى ليدافع عن رابغ وأبديت مبرراته ، مع أن الوقت قد فات لوقف التقدم التركى وحده ٠

ويقول ستورس ان ولسون قد أعاد عليـــه تفاصيل تجاربه فى مسألة عزيز على وخدماته ، ونبهنى ان المسألة جد دقيقـــة ، ولا ينبغى علاجها الا بحذر وعناية وفى مناسبات مواتية ٠

فبدأ اليأس يدب فى نفسى ، كما شعرت ٠

وبعد ساعتين من البحث والنقد وتقليب الوجوه ، لمح الشريف حسين الى خيبته فى أننا لم نرشح نحن من قبلنا جنرالا مسلما قديرا يتولى الأعمال العسكرية الحربية • فأجبته أننا نحن لم يخطر ببالنا ــ ولو فى الحلم ــ ان نتدخل فى أموره الداخلية فى مسألة كهذه ، ولكنه ما دام هو قد أثار هذه النقطة من جهته ، فليعف عن صراحتى البنوية بين يديه ــ وكان الحسين يدعو ستورس دائما : يا ابنى ، يا عزيزى ــ فى استرعاء انتباهه الى حالة عزيز علي بك المصرى •

وقلت : لقد لوحظ أنه مع تقديم ما يقرب من ستين ألف بندقية مع ذخيرتها الى الحجاز من الحكومة البريطانية ، لم يبد بعد ان هناك شيئا من انشاء جيش عربى قريب الظهور أو حتى فى طريق التكوين ، هـذا •• و « مجلس الحرب الأعلى » فى أوروبا قد بين ان دول الحلفاء قد توصلت الى ان كل دولة حددت ــ ولو تحديدا عاما مع بعض غموض ــ ما بوسع كل دولة ان يكون فى طاقتها من الاستعداد والتهيئة للحرب ، الأمر الذى يدفعنى الى السؤال : أليس يا ترى من الممكن أن يستفاد من هذا الضابط العربى الممتاز ، الغنى بالخبرة ، واشتعال الهمة ، وذلك بأن يعهد اليه فى قيادة مستقلة بموازنة معتدلة تمكنه من تدريب نواة جيش وتجهيزها بالسلاح ، وبهذه النواة المنظمة اذا لم يمكن الانقضاض على المدينة ، فعلى الأقل يمكن سد الطرق الجنوبية فى وجه القوات التركية التى تتقدم زاحفة ،والاشراف يظلون على كل حال أصحاب الكلمة العليا فى جميع الأعمال الحربية •

وإذا شعروا يوما ، وهذا من الاحتياط بأى شك أن عزيز على لم يغير بعد من أساليبه التى كان يتعاطاها مع « الاتحاد والترقى » وظهر منه أن نفسه تسول له أن يمثل دورا كدور « أنور » (أوالى حد أن يخونهم فينضم الى الأتراك) فيعلم الشريف أن بيده زمام المال وهو العصب الأول للحرب ، فيحبسه عنه فيمسى ولا حراك به •

وهنا سأل الشريف عما اذا كان عزيز على مزودا بتوصيات من الحكومة البريطانية ، فأحلته على مضمون آخر برقية وصلت من السردار حول هذا الموضوع •

فاطرق بضع ثوان ثم قال بلهجة الثبات وتوطيد العزم : « لا تظنوا أننا نضمر لعزيز على غير الاحترام وحسن التقدير لكفاياته ، وانى أعلن وأصرح لكم فى هذه الساعة أنى منذ الآن قد عينته وزير حربية بموازنة مستقلة تكفى حاجاته » •

فقلت للشريف : وانى واثق أن هذا التعيين ليس نقل عزيز على من الجبهة ، اذ فى الجبهة تظهر مقدرته الحربية • فسلم الشريف بهذا ووافق على أن يبقيه فى الجبهة ، وهو – عزيز على – يختار وكيلا عنه يكون فى مكة ينظر فى أمور الذخائر والنقل وما يتبع ، ومرتب هذا الوكيل على الشريف •

واعتبرنا هذا القرار مناسبا محققا لمقاصده ، لما فيه من الحكمة والدلالة على بعد نظر الشريف ورجاحة عقله •

وقال انه سيرسل قراره بالتعيين برقيا فى صباح اليوم التالى ، وشعرت بكامل الطمأنينة أنه فاعل هذا ومنفذه بكل حسن نية •

ونظرنا الآن فى الوقت فاذا بالساعة التاسعة ، اذ طالت جلستنا أكثر من ٣ ساعات ، ثم استأذنا بالانصراف على أن نعود فنلتقى صباح الغد •

وهذا الحديث مع الشريف ، وان كان مرضيا موفقا ، غير أن أعصابنا باتت منهوكة القوى بسبب الضجيج المستمر والضوضاء فى الخارج ثم تلك الحرارة الزائدة المنبعثة من مصباح غاز الاستلين •

***

ثم يقول ستورس : وجئت الشريف صباح اليوم التالى وحدى وجلست معه ساعتين •

واذ كان فى الليل قد تلقى من ابنائه الثلاثة رسائل مشجعة ، فوجدته الآن أكثر انتعاشا من الليلة الماضية ، فدعا بسكرتيره الخاص فورا ، وأملى عليه البرقية بتعيين عزيز على بك ، ولكى يظهر حسن نيته وتصميمه تحول بنشوة فرحته الى أوراق بين يديه ينظر فيها ويذيل كلا منها برأيه الذى سنح له ولو كان غير عملى ، وظهر لى أنه غير مرتاح الى شخص الفاروقى معتمده فى القاهرة ويريد تبديله وقال : انا لنأمل فى اختيار من نريد بديلا منه هو « محمد طاهر العمرى » ومحمد طاهر العمرى – عجاج نويهض – أحد الضباط العراقيين العاملين فى الأحزاب السياسية العربية السرية ، وفى أوائل الحرب كان فى جبهة الدردنيل وغاليبولى ثم فر من هناك وأتى مصر واتصل بالحسين أوائل الثورة ، ولكى يتأكد الحسين من شخصيته فقد كشف « العمرى » عن رموز تكفى للتعريف به وايلائه الثقة ، وجعله الحسين « معتمده » فى مصر ، وكان هذا المنصب وقتها على غاية الأهمية •

ثم دعاه الحسين الى مكة ·

وقد وضع العمرى سنة ١٩٢٥ كتابا مهما سماه « تاريخ مقدرات العراق السياسية » فى ثلاثة أجزاء مجموع صفحاتها ما يزيد على ١١٣٤ صفحة ، ومما ضمنه معلوماته عن الثورة الحجازية لما كان فى القاهرة · والكتاب ثمين جدا بمحتوياته ، وأثبت اسمه على الكتاب « محمد طاهـــر العمرى الموصلى » ·

وفى ١١/١١/١٩٦٥ نشرت جريدة « البلد » البغدادية : « ستقوم احدى دور النشر الكبرى فى بيروت بطبع كتاب « مقـــدرات العراق السياسية » وهو من أهم الكتب التى صدرت عن العراق قبل أكثر من أربعين سنة باسم المرحوم محمد طاهر العمرى (ولم تذكر « البلـــد » الموصلى كما هو مثبت فى الكتاب) · وهو فى الحقيقة من تأليف شقيقه الفريق « محمد أمين العمرى » أحد كبار ضباط الجيش العراقى الباسل·

وسيقدم الأستاذ خيرى العمرى هذا الكتاب بمقدمة مستفيضة · ولكننا ما عدنا نعلم عن هذا الموضوع شيئا ··

ويضيف ستورس الى ذلك قوله : كان الحسين يرغب بالحـاح ، كرغبة عبد الله فى آخر مقابلة بيننا أن يكون بينه وبين دار الاعتمـــاد « شيفرة » خاصة ·

وبدا لى واضحا ان هذه الرغبة منه ومن عبد الله ما مبعثا ما فى نفسيهما من الرغبة فى اتخاذ مظهر لباقة يتطلبها الموقف بيننا وبينهم مما يوحى بموقف الند من الند ، ولا يدخل فى هذا السبب شيء من قلة الثقة بالكولونيل ولسون (قنصل الانكليز فى جدة) اذ بينه وبين الشريف الثقة التامة المتبادلة ·

★ ★ ★

وقبل ان أبرح جدة المرة الأخيرة ، اتصلت بمكالمة تليفونيا لاكرر ملاحظاتى التى قلتها لعبد الله بشأن اتخاذ لقب « الملك » فأنذرته بـــان القيام بهذه الخطوة سيلقى جملة اعتراضات مختلفة ليست خفية عليه ، اذ تكون هذه الخطوة قد اتخذت من جهة الحسين دون استشارة حليفته الكبرى بريطانيا العظمى ، فيخلق ذلك ارتباكا لجميع الفرقاء ·

وما زلت بعبد الله فى الحوار التلفونى حتى أقنعته بوجوب تأجيل المسألة حتى يتسنى للحـكومة البريطـانية درسها ووزنها واعتبار جميع مقتضياتها ·

ومن ابتهاجي بهذه النتيجة الحسنة الناجحة ، فقد أبرقت بها الى القاهرة ، ثم ركبت الباخرة « نورث North » ، فلما وصلت السويس قابلتني الأنباء « السارة » ان الشريف حسينا أعلن « ملكيته » قبل ثلاثة أيام ·

والآن بالنظر الى ما بيننا من الصراحة والصداقة الوثيقة ، فقد تملكني الاستياء من هذه المعاملة · فلما جئت جدة هذه المرة الأخيرة أخبرت جلالته بغير مواربة البته عما نالني من شعور الاستياء · فوضع يده على كتفي ، وأخذ يردد المثل العربي المسجع :

ضرب الحبيب

كأكل الزبيب

وحجارتــو رمــان

ويذكر عجاج أن ستورس قد وضع حاشية لهذا الكلام بعد العبارة التالية بهـا ، نقل ألفاظ هذا الكلام بالحروف اللاتينية ، وترجمـه الى الانكليزية ، ثم علق على هذا في الحاشية فقال : « رسائل الحسين ربما كان يغلفها الغموض في تركيبها ، ولكنهـا قلما تكون خالية من الروعة والبهجة كقوله في احدى رسائله : «أما بخصوص أولادي ، فعبد الله لا يزال محاصرا الطائف محيطا بالأتراك هناك ، مفضلا هذه المطاولـة بالحصار على سفك الدماء ·

وكان عبد الله أحيانا ينفرد برأيه ، فقد كتب مرة : « اني أشكركم يا عزيزي على ما جرى من ذكر لي عندكم وأنا في « وادي العيص » ·

وقال ستورس بشأن مثل « ضرب الحبيب زبيب » : وكأنه أراد بهذا ان يراضيني مراضاة تمحو أثر ما فعل ، فلم يسعني أن أتحمل هذا وارتضيه منه تصفية نهائية لسوء التفاهم · الأمر الذي كلفه في النهاية ثمنا غاليا ·

★ ★ ★

ثم يعلق عجاج على ذلك بقوله : ولا نرى من الحكمة أن نمر بهـذه العبارة دون ان نعلق عليها بشيء · وأول ما نقول وآخر ما نقول ان هذه عبارة شماتة خبيثة جدا ·

ثم ينتقل عجاج الى بقية ما كتبه ستورس نقلا على لسان الحسين بعـد ان ذكـر : ضرب الحبيب : فليكن هم الذين يذكروننى مثلكم ، وسروركم بتوفيقى ينطبق عليه قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين البغض تبدى المساويا

وانما ذكر ستورس هذا البيت بمعناه ولم يورده بالعربية ، ولشيوع هذا على الألسنة ، فليس من أحد الا ويعلم ان هذا من الأبيات التى تسير بها الركبان • ثم ختم عبد الله بقوله : « أطال الله بعمركم ووفقـكم ، فأنتم مصدر كل المساعدة التى نالها العـرب فى نهضتهم لاستـرداد مجدهم ، ولا أزيد عن هذا شيئا » •

اننا نعلم جيدا ان ستورس هذا ، لما كان قد كرر طبعات كتابـه « مشرقيات » وكان فى كل مرة يعدل وينقح ويزيد ، فقد أراد ان يعرب بالكناية عن خسران الحسين عرشه فى النهاية ولدينا هنا أوسع مجـال لبسط الكلام المتعلق بهذا الموضوع الدقيق •

ولكننا لا نرى نفسنا بصدده والمحور هو عزيز على المصرى العربى الفريد الطراز •

وأما لورانس •• فقد كتب عنه عرب وانكليز وسـائر الافرنج كثيرون •

وأما ستورس •• وهو أستاذه ، وزارعه فى الحجاز ، وحاكم القدس ٨ سنين عسكريا ومدنيا ، فلم يعرفه العرب بعد معرفة وافية ، ولا سيما كاد ينطوى الجيل الذى عرف ستورس فى القدس ، والجيل الصاعـد لا يعرف عنه شيئا ، ومن يعرف عنه شيئا كان نزرا قليلا •

ثم ان صلات الارتباط بين ستورس ولورانس فى القـاهرة أول الحرب العامة الأولى تعطينا صورة العمل لاجتذاب العرب الى الحلفاء صورة مضحكة من ناحية ، مليئة بالعبر من مئة ناحية •

ويستأنف ستورس كلامه فيقول :

وأضاف الحسين فى حديثه لى فقال : بما ان دار الاعتماد فى القاهرة قد خاطبته فى المكاتبات الرسمية بلقب الخلافة » • وهنا وضع ستورس عبارة معترضة فى سياق الكلام ، وسيجها بحاصرتين وهى (الحسين لم يكن وقتها يطمح الى الخلافة) فهو ـ يستمر ستورس فى الكلام ـ يعتبر ان الوعاء الأكبر يستوعب ما هو أصغر أى أن « الخـلافة » تستوعب

« الملكية » فمن لزوم ما لا يلزم ان يعلمنا بعد ذلك بقراره لاتخاذ لقب « ملك » •

فقلت له ملاحظتى فورا : وهى ان جميع ما ورد عليه من مكاتبات رسمية من دار الاعتماد بالقاهرة قد مر من بين يدى ، فلم تقع عيناى على شيء من هذا النوع من المراسلات التى يشير اليها •

ثم قال ستورس : ولكنى لخبرتى بأساليبه ، وخبرتى السابقة مع عبد الله ، فقد اتضح لى أن الحسين قد يعرض على فورا أن يطلب من مكة موافاته بالمراسلات التى هى موضوع البحث ، وهى غير موجودة ، فيقع فى احراج أكون أنا قد سببته له ، وهذا على ان اتحاشاه أدبا ولياقة •

فامسكت عن متابعة الحوار ، مع علمى ان طريقة حفظ الارشيف فى حكومته شيء عقيم ، فهو يستفيد من كون الأرشيف بعيدا عنا مكانا ، استفادة تحصن موقفه الذى يدعيه ، وفضلا عن هذا فانه لا سبيل « لغير مؤمن » أن يطلع عليه •

(ان ستورس كما علق الأستاذ عجاج نويهض ، لم يستعمل هذه الكلمة « غير مؤمن » بهذه الصيغة وانما استعمل كلمة "Infidel" المعروفة ، وهذه تارة تفيد معنى « غير مؤمن » وطورا تفيد « كافر » فاستعملنا نحن هنا ما هو ألطف تعبيرا) •

ووقف ستورس فى هذا الحوار عند هذا الحد ثم قال : وزرت الشريف « فيصل » حول التاسعة وربع صباحا •

والملاحظة الوحيدة التى أبديتها له جعلته حريصا على كل موطيء قدم فى ينبع •

وأعجبت بطلعته ومحياه كل الاعجاب مما جعلنى اتخيل فيه العربى القديم الاسطورى ، النبيل الشمائل ، وبدا لى فى قامته أنحف قليلا مما كنت أتصور •

وكان معه أخوه الأصغر زيد بك ، ولما رفعت كم ذراعه لأكشف هل فى معصمه الساعة الذهبية التى أهديتها له فى حزيران الماضى ، اعترف لى بأن « جاءه من هو أقوى منه وأخذ منه الساعة بالقوة » •

وهنا ستورس حسب عاداته كثيرا ما يستعين بالعبارات المعترضة فوضع بين حاصرتين هذا : « وعلمت ان الذى أخذها هو عبد الله ، وكان عبد الله قبيل ذلك قد تزوج للمرة الثانية » •

وبعد تناول القهوة وتبادل حديث المجامـــلات ، قال لى فيصل ، وتقاسيم وجهه تنبىء عن رجل لاحقته خيبة الآمال ، وكرر بأسلوب ناعم شكاواه من تأخرنا فى تقديم المدفعية المطلوبة منذ أربعة أشهر ٠

وقال : ان لا فائدة من تكرار الشكوى ٠

فاغتنمت الفرصة التى لاحت لى الآن وقلت له : ان الانسحاب الذى انسحبه العرب أخيرا سيولد فيهم حب الانتقام ، ويعلى فيهـم روح أخذ الثأر ، وبالتالى سينالون من العدو نيلا يبسط من ذكرهم الحميد فى العالم حتى ولو كانوا فى الوقت الحاضر ، على أنه من الضرورة التى لا مندوحة عنها ، ان يتولى نهضـة العرب قيـادة واحدة عليـا مستقلة فى عملها الحربى ٠

ولما كان لا يوجد مسلم آخر يجمع من المزايا المطلوبة ما يجمعـــه عزيز على ، فأملى ان تصح الرؤية عند الشريف حسين ، فيملك الشجاعة كلها ويجعل من تعيينه هذا الضابط حقيقة ملموسة ٠

ولم يكن أحد منا يملك امـكانيات عزيز المصرى ليضطلـع بتلـــك المسئوليات

ومن وثائق المؤرخ الكبير الأستاذ عجـاج نويهض ، التى نحتفظ بها : تحت عنوان ٠٠

***

المرحـوم عزيز عـلى المصرى
وموقفه من الدستور العثمانى ١٩٠٨

١ ــ كان المرحوم عزيز على رفيقا لعم أنور باشا ــ واسمه خليل بك ــ فى المدرسة الحربية ، فتخاصما فلطمه عزيز على وهما وقتئذ طالبان٠

ومضت الحادثة ومثلها يقع فى المدارس بين الطلاب ٠

وذكر لى عبد الستار السندروسى ــ من طرابلسى الشام ــ وهو للشهيد عبد السريم قاسم ، الخليل كهف ومأمن (من ١٩٠٨ ــ ١٩١٤) أنه سمع هذا من عزيز على نفسه ٠

٢ ــ قال عزيز على لعبد الستار : أنا ضربت عمه فى المدرســـة ٠ وحين وقوع هذه الحادثة لم يكن أنور قد برز بعد فى الحياة العسكرية ،

والانقلاب الدستورى العثمانى فى ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ ٠ وهناك فرق فى السن بين عزيز على ، وأنور ٠ فعزيز على أكبر منه بمرحلة كبيرة ٠

٣ ـ قبل « الدستور » كان عزيز على قد تخرج ٠ وأخذ بالخدمة العسكرية ، وكان نصيبه فى مقاومة ثوار البلغار فى بلغاريا قبل انسلاخها عن الدولة كبيرا ٠

وكان معدودا من أهم الضباط الموجودين فى منطقة الروملى ٠ ومن أركان الجيش العثمانى ٠

٤ ـ هو أول من فكر فى الثورة على السلطان عبد الحميد ليجرى انقلابا دستوريا وذلك بصفته عضوا فى الحلقة السرية فى جمعية الاتحاد والترقى ٠

٥ ـ لما وقع الانقلاب ١٩٠٨ كان عزيز على من أول الداخلين الى الآستانة على رأس قوته العسكرية عن طريق « كلخانة » ٠٠ وكلخانة هو القسم الذى كانت فيه قصور ملوك الروم سابقا ثم انتقل اليه سلاطين آل عثمان ٠

وفى عهد عبد الحميد بنى قصر ضولمه بغجة ومعناها الحديقة الردم كانت بحرا فردمه ٠

وأخذ يلتمع اسمه وتنمو هالة حول شخصيته ، فأخذ الضباط الترك يحسدونه ويغمطونه حقه ويقللون من فضله حتى انتهى هذا الى الحقد الدفين عليه فجعل هو ينفر منهم هنا بذور الأسباب الحقيقية لقعود أنور له بمرصد لما صار أنور ذا شأن فى (الاتحاد والترقى) ولا سيما فى حرب طرابلس ١٩١١ ٠ وأنور لم ينس ان عزيز على لطم عمه فى المدرسة يوما ما ٠

٦ ـ أخبرنى السندروسى ان عزيز على أخذ من الآن يتحول بكامل تفكيره الى الاشتغال بالقضية العربية ٠ ولكنه من أول تفكيره لم يذهب الى حد هدم السلطنة بل أقصى ما ذهب اليه ان تنال الأمة العربية حقوقها على حسب مساحتها وعدد سكانها وخطورة المواقع الجغرافية فيها ٠٠ الخ وكان متنبها الى هذا حتى لا تتعرض البلاد الى أن يطمع فيها الأجانب ٠

٧ ـ لما وقعت حرب طرابلس الغرب ، ذهب عزيز على الى برقة ، وبنغازى متطوعا ٠ وكان أنور باشا القائد العام ٠ فلم يمده بالسلاح والعدد ، ولا الدولة فعلت شيئا من هذا ، ووقتئذ أنور هو الدولة ، كانت

المؤن والذخائر والأسلحة ترسل الى أنور وهو يتصرف بها كما يشاء فلم يعط عزيز على شيئا .

٨ ـ فطلب عزيز على من أنور نصيب قوته ورجاله من السلاح والمال والعتاد . فلم يرد عليه أنور . فعند ذلك هدده : انى سأترك الحرب مع الطليان وآتيك لآخذ حقى منك بالقوة .

٩ ـ فأرسل اليه أنور بعض ما طلب خوفا من تنفيذ التهديد .

ومن بعد هذا بات الأمر عداوة ... اذا كانت كامنة في المظهر فهى سافرة بالمعنى . وقال لى السندروسى « وبات أنور يضمر الشر لعزيز على ليبطش به أول فرصة ممكنة » .

١٠ ـ بعد ان عاد من برقة الى الآستانة لم يبادروه بالجفاء فورا ولا خاشنوه ، بل جعلوا يوكلون اليه واجبات ومهمات عسكرية حتى حيكت التهمة ولفقت .

فاعتقل أوائل ١٩١٤ ولكنه هو كان يشعر بالجو المسمم حوله ، وحسب انهم قد يغتالونه بمكيدة ، وكان « الاتحاديون » الى الآن قد اغتالوا كثيرين .

وكانت كل حادثة اغتيال تترك صداها في السلطنة . وفى الخارج أيضا .

١١ ـ فاشترى عزيز على مسدسين ، واحدا لصديقه عبد الكريم قاسم الخليل رئيس المنتدى العربى فى الآستانة والآخر لصديق آخر يعز عليه ، فأعطى عبد الكريم مسدسه وأوصاه بالحذر من (الاتحاديين) لأنهم قرروا اغتيال عدة رؤوس من العرب الذين فى الآستانة .

١٢ ـ قال لى السندروسى : زرت عزيز على فى محل التوقيف (الهنجر الاحتياطى) مع جماعة من اخواننا وأذكر جيدا ان كان لديه طبيب أستاذ فرنسى يعالج أضراسه باذن من السلطة ويظهر أن العلاج كان مؤلما ألما لا يطاق وهو رجل عسكرى فقال لزائريه من اخوانه : « أرجو ان تتركونى وحدى لأنى لا أريد ان ترونى وأنا اتألم » .

وقد نقد عزيز على الطبيب الفرنسى خمسين ذهبا فاستقلها هذا فأحاله على صديقه الدكتور حسين حيدر فنقده المزيد وكان حيدر من عداد الزائرين .

ويستمر السندروسى : وجاءنى نورى السعيد ـ أحد الضباط العراقيين ـ بعد زيارتنا هذه لعزيز على وطلب منى مرافقته فى عربة

لزيارة عزيز على اذا لم يكن يرغب فى أن يكون لزيارته أى مظهر لافت للنظر ، فركبت العربة معه حتى وصلنا باب السر عسكرية (هذا الاسم قبل اعلان الدستور العثمانى وهو مفرد وزارة الحربية) . ولما وصلنا الباب منعنا الحرس بالكلمة المعروفة بالتركية « يساق » أى ممنوع الدخول ،فعدنا أدراجنا .

١٣ ــ محاكمة عزيز على كانت عسكرية سرية لم يحضرها أحد ، ولم يكن له أى محام يدافع عنه . ولما أطلق سراحه نقل من السجن الى الباخرة الراسية فى « غلطة » . وكان السندروسى من اخوانه الذين ذهبوا لوداعه وكلهم ضباط عرب يلبسون البستهم العسكرية متقلدين سيوفهم .

ولما رآهم عزيز على هذه الأهبة قال لهم : هذا كثير غمرتمونى بالطافكم . فأجابوه : هذا من مقامك عندنا !!

قال السندروسى ــ وكان عربيا مدنيا لاعسكريا من طرابلس الشام توفى ١٩٥٨ ــ ولم أره بعد ذلك ، وهذا أوائل سنة ١٩١٤ .

١٤ ــ أراد الأتراك ان يتخلصوا من عزيز على بأى سبب ، فوعدوه بالترفيع (الترقية) من (بيم باشى) قائد الى قائمقام ، وان يعيدوا اليه صفة أركان حرب بدلا من (ممتاز) وهى الصفة التى كان قد استحقها بالامتحان بعد دراسة سنتين زائدتين عما يدرسه عادة الضباط . وبدلا من ان يعطوه هذه الصفة حين تخرجه حبسوها عنه وأعطوه لقب (ممتاز) وهى أقل مرتبة من (أركان حرب) مع انه يتقلد الرتبة نفسها أى يوزباشى أركان حرب . وطلبوا ان يذهب الى اليمن . فتردد فى القبول . ويقول السندروسى : ولكننا أقنعناه بضرورة الذهاب من أجل المصلحة فى اليمن .

١٥ ــ يقول السندروسى : أرسلنى فى ذلك الوقت عبد الكريم قاسم الخليل لمباحثة عزيز على فى قضية اليمن وان ادخله معنا فى جمعية الشبيبة العربية السرية اذ أمكن .. وجمعية الشبيبة العربية فى الآستانة ألفت سنة ١٩٠٦ من نفر من أخلص العاملين ومنهم الشهيد عبد الكريم قاسم الخليل الذى أعدم ١٩١٦ ومحب الدين الخطيب وثلاثة أو أربعة آخرون . وهذا فى أواخر عهد عبد الحميد .

وكانت جمعية الاتحاد والترقى تعمل فى حيزها وهى سرية ، وبعد اعلان الدستور ١٩٠٨ لم تر الشبيبة ان تكشف عنها القناع فبقيت سرية ولكنها أنشأت (المنتدى الأدبى) وجعلته وقاء خارجيا لها .

وبقي هذا الى ١٩١٤ وكانت الحفلات العربية الكبرى تقام في المنتدى الذى مثل دوره خير تمثيل وكان عدد الطلاب العرب بالآستانة المؤيدين للمنتدى لا يقلون عن ألف طالب عراقي وسورى ولبناني واردني وحجازي ويمني ٠

المؤتمر العربى في باريس دعامتاه : الشبيبة وحزب اللامركزية ، وكانت الصداقة بينهما وثيقة ، ولأمر ما لم يشأ عبد الكريم الخليل أن يفاتحه في ذلك بنفسه مباشرة وهو رئيس الجمعية والمنتدى الأدبى ٠

وكان عزيز يتردد على المنتدى ، فلما ذهبت اليه وجدته على السلم خارج بيته فدعاني الى داخل البيت ٠

١٦ ـ كنا في ذلك الوقت قد أرسلنا مكاتبة خاصة الى امام اليمن ويدعى حميد الدين مع « أحمد المجاهد » اليماني ووجهنا الرسول الى مصر الى السيد محمد رشيد رضا لينقده دراهم ٠

تمكن أحمد من الوصول الى اليمن ٠ ونتيجة الخطة التى اتفق عليها الوفد اليماني برئاسة صالح الضيلمى مندوب السيد الصحياني وفهمنا معا من اخواننا فى الأركان حربية فى الآستانة ٠ وذهب عزيز الى اليمن ولا أدرى اذا كان قد أعلمه أحد اخواننا بقصة أحمد المجاهد ورسالتنا الى الامام يحيى ؟

١٧ ـ فلما وصل الى اليمن وجد القائد أن خطة الحرب قد فشلت اذ كان الامام يحيى قد بادر الى العمل بموجب الرسالة التى وصلته فأرسل قوة هاجمت معاقل الصحياني واستولت عليها ، وكان القائد ارناؤوطي الأصل ، وهذا ما ساعد عزيز على على اقناعه بأفضلية الصلح مع الامام وهكذا كان ٠

١٨ ـ يوم اعتقل عزيز على فى الآستانة أرسلنا عمر زكي الأفيوني (هو من طرابلس الشام ومن العاملين فى القضية ، وتولى عدة مناصب رسمية وأعمال فى الأردن بعد الحرب الأولى ٠ كان أول مبعوث دبلوماسي بدرجة قنصل ثم وزير مفوض للأردن فى بغداد) الى بيروت ودمشق وطرابلس الشام ، لترسل برقيات الاحتجاج من الأهالي الى الآستانة تحمل عباراتها روح العنف والتهديد العلني فكان ذلك ٠ ومن الذين انفردوا ببرقية من هذا الطراز صالح حيدر من رجالات بعلبك فتحفظت السلطات عليه ٠

ولما جاء أحمد جمال باشا السفاح الى سوريا قائد الجيش الرابع وفي رأسه خطة الاطاحة بالرؤوس العربية عن طريق المجلس العسكرى

المعروف بالمجلس العربي بالاصطلاح التركي · اعتقل السفاح صالحـا وجاء به الى عاليه وكان من الشهداء الذين اعدموا شنقا فى بيروت ·

١٩ ـ وذهب عمر زكى الى مصر · ونزل فى بيت والد الملكة فريـدة (زوجة ذو الفقار شقيقة عزيز علي وجعل عمر يباشر نشاطه في القاهرة ، فعقدت اجتماعات كبيرة منها اجتماع برئاسة شيخ الأزهر والقيت الخطب واقيمت المظاهرات تطالب بالافراج عن (بطل برقة) عزيز على · وكان السيد رشيد رضا من لوالب الحركة ومن خطباء أحد الاجتماعات الكبرى وهو سند الحركة فى مصر ·

٢٠ ـ واخيرا رئي دفعا للمكروه عن عزيز علي ـ وأنور هو القابض على الأعنة ـ ان تطلب وساطة المندوب السامى البريطانى فى مصر ، وكان ذلك ·

وقام المندوب بالوساطة الفعالة اذ سره ذلك اكتسابا لليد الحسنى فى مصر ·

وقام سفير بريطانيا فى الآستانة فيما يلزم فى القضية وكان هذا التدخل أكبر عامل مؤثر فى اطلاق سراح عزيز على ·

ولكن العامل الأكبر بلا ريب هو الحركة الشعبية الاحتجاجية فى مصر وسورية يتوجها اجتماع الأزهر ·

أما عن زكي وكان وقتها طالبا فى المدرسة الملكية (السلطانية) فى الآستانة فرحلته هذه الى الشام ومصر فوتت عليه المدة المشروطة فى الدوام على حضور الدروس · فلما عاد الى الآستانة ووجد أن مدة حضوره الدروس ناقصة رفض قبوله للامتحان ·

قال السندروسى : فكلفنا عبد الحميد الزهراوى (من الشـهداء الذين أعدمهم السفاح) بمراجعة وزير المعارف فكلف هو الشيخ أسعـد الشقيرى (والد أحمد الشقيرى) وكان وزير المعارف يومئذ عبد الحميد شرف فذهب اليه الشقيرى وكان الوزير فى مجلس المبعوثان (مجلس النواب) فجمع فى أسلوب مراجعته بين الجد والهزل الذى يقبله الوزير من الشقيرى ·

وكان الشقيرى فى هذا الأسلوب بارعا جدا ومازال بالوزيـر حتى جعله يوافق على مطلبه فدخل عمر زكى الامتحانات ونجح ·

٢١ ـ قال لى السندروسى : روى لى الصحافى المشهور ابراهيم سليم النجار ، وكان اذ ذاك يراسل المقطم وفى الوقت نفسه يصدر جريدة الحق

فى الآستانة .. روى لى قصة عزيز على فى بلغاريا وهو يكافح العصابات البلغارية الناقمة فقال :

الف كاتب صحفى فرنسى — جورج ريموند مراسل السنتراسيون — كتابا بالفرنسية عنوانه « مترو » وهو اسم فتاة بلغارية ، وكان هـذا المؤلف الفرنسى صديقا حميما لعزيز على وهو مقيم فى الآستانة يراسل صحفه من دار السلطنة .

وكان عزيز على قد سبق له الاشتراك الفعلى فى مكافحة العصابات البلغارية واشتهرت بسالته وعالى دربته فى فنون قتال تلك العصابات . وفى أثناء هذا الكفاح حدث له أن اتصل بفتاة بلغارية اسمها « مترو » فاحبته لنبله ولشجاعته ، فكانت شمائل فروسيته تجعلها تزداد حبا له ، وهو بادلها الحب حبا شريفا ، وقد كان موقنا انهـا هى فى ميلهـا اليه صادقة مخلصة .

فعرف قومها من رجال العصابات صلتها بعزيز على فاعتـدوا عـلى عفافها .

ولما بلغ عزيز على عدوانهم هذا على مترو اشتد وازداد استبسالا فى ضرب العصابات حتى انتقم للفتاة شر انتقام .

وهو بعد ذلك طلب منها الزواج فقالت له :

كنت أريد أن أقدم الى البطل عزيز على مترو كاملة .

أما الآن فمترو باتت لا تصلح لتكون زوجة لعزيز على . ثم أبت الزواج وانتحرت .

وكانت هذه الواقعة هى مدار قصة الرواية التى ألفها جورج ريموند مراسل السنتراسيون .

جورج هذا يسعى لدى السفارة الفرنسية لتدعو باقى السفراء وكبار رجالات الأتراك كطلعت وأنور وجمال الى السفارة الفرنسية لوليمة ، وقد كان ذلك وخطب جورج ريموند مشيدا ببطولة عزيز على .

وكانت خطبته على المائدة فتأثر الجميع من كـلامه حتى حـرك عواطفهم وبدا أثر ذلك على وجوههم الا أنور باشا الذى بقى وجهه كقطعة الرخام .

ومن هذا كله احتشدت المساعي الطيبة فصدر العفو السلطاني عن عزيز علي ، على أن يخرج من الآستانة • فخرج وأتى مصر وأعطى وزارة الحربية في الآستانة عنوانه حتى اذا احتاجت اليه الدولة لبى مناداتها •

انتهى الكلام الذى رواه للسندروسى ابراهيم سليم النجار الذى هو من أبرز الصحفيين العرب في عهد القضـــية العربية في الآستانة ومصر وباريس •

قضى حياته في السياسة الصحافية متنقلا بين الآستانة وجملـــة عواصم عربية وغربية ، مدة الحرب الأولى • وجــد في باريس وأصدر هناك جريدة عربية تخدم مصلحة الحلفاء والعرب • وسنة ١٩٢٠ جـاء بيت المقدس وانشأ جريدة « لسان العرب » يومية وهى أول جريدة تصدر في فلسطين يومية •

وبعد سنين قليلة انتقل الى دمشق وعليها الانتداب الفرنسى ، فعمل مدة في صحافة الشام ثم انتقل الى بيروت واستقر فيها • وهو لبنـانى الأصل فعمل في مجلس النواب اللبنانى موظفا ديوانيا وأصدر صحيفة • وكانت وفاته بعد ١٩٥٠ بقليل •

٢٢ ـ وانى أقول تعليقا على ما تقدم من رواية النجار للسندروسى وذلك نقطة مهمة في معرفة الجهات والعوامل التى آزر بعضها بعضا في نيل العفو عن عزيز علي وقد حكم عليه بالاعدام والتهمة ملفقة وهزأ بها حتى عقلاء الأتراك والسفراء الأجانب في الآستانة الذين كانوا في مقدمة الناقدين • فقد ذكر المؤرخ العراقى أحمد عزت الأعظمى (توفى ١٩٣٦) في الجزء الرابع من كتابه « القضية العربية » المطبوع في بغداد ١٩٣٢ قصة عزيز علي من وجهة عامة ونقل من مذكرات أحمد جمال باشا ما يتعلق بالوساطة التى يقول أحمد جمال أنه هو قد قام بها لدى زميله أنور •• ويذكر أحمد جمـال مراجعة جورج ريموند له ، ونعتقد ان المقصـــود بالمراجعة ، الخطبة التى القاها جورج ريموند على مائدة السفارة الفرنسية التى ضمت السفراء وكبار رجال الأتراك •

ويذكر أحمد جمال صورة الرسالة التى أنفذها في صباح اليوم التالى الى أنور يلح عليه فيها بأن يطلب من السلطان العفو عن عزيز علي لأن ســـوء القـاله التى ستلحق أنور من هــذه التهمــة أشــد من البطش بعزيز علي •

وقد نيل العفو •

وأما جمال باشا فانه على ما نعتقد أراد ايلاء نفسه الفضل فى هذا وهو معلق العشرات ظلما فى بيروت ودمشق بعد سنتين من هذا التاريخ ليظهر انه هو حامل أنور على طلب العفو من السلطان ٠

ونكرر ما سبق قوله من قيام الحركة الشعبية الاحتجاجية فى مصر والشام ، وبرقيات التهديد الشعبى ، ومساعى السفراء ، ومأدبة السفارة الفرنسية ، وخطبة جورج ريموند ـ كل هذا تكونت منه القوة الملحة التى فازت بالعفو ٠

وكتب لنا الأستاذ عجاج نويهض أيضا السطور التالية :

« فى حياة عزيز على حوادث كبار تظهر المآزق التى اجتازها فى كل مرحلة من مراحل نضاله ٠ ونرجو ان يكون هذا العربى الكبير قد ترك مذكرات تشتمل انطباعاته ، وهو يعارك القوى المناوئة من ترك وانكليز وغيرهـــم ٠

ثم ان قصة حياته تتبع خيوطا دقيقة جدا ، وخفية جدا ، فعلينا ان نلم بطبيعة كل خيط ان أمكن ٠

وان مسالته مع « الاتحاديين » وهؤلاء يرأسهم فى الحربية أنور باشا ، ثم محاولة القضاء عليه عن طريق التهمة والمحاكمة العسكريـة السرية ، والحكم عليه طبعا ظلما صراحا بالاعدام ثم مساعى العفو كل هذه القضية نعتقد أنها الأولى خطورة فى حياته ٠

وقبل أن ننتقل الى أى خيط آخر علينا أن نوجز باطل التهمة التى ظل قادة الترك أياما وأسابيع وهم يحوكونها ٠

وخلاصتها اتهامه بانفاقه ثلاثين ألف ليرة عثمانية ذهبا سلمه اياها أنور فى طرابلس ولم يقدم عن كيفية انفاقها حسابا ٠

وأنه أساء معاملة الضباط الأتراك ولكنهم لم يأخذوه بهذه التهمـة أو أى غيرها الا بعد عودته من برقة واستقالته من الجيش ٠ فلما استقال أخذوا بحياكة المكائد له ٠ وهو كان يقظا جدا ٠ ولعلهم لو استطاعـوا اغتياله ، كما اغتالوا غيره لما ترددوا لحظة ، ولكنهم لم يجـــدوا سبيلا ميسورا الى الاغتيال ٠

والمعروف عند اخوانه وأعوانه ورفقائه ان الترك خشوا من استقالته خشية كبيرة ٠

وذلك لأنه سينصرف بعد الاستقالة إلى العمل فى الحركة العربية المناوئة للحركة التركية الطورانية وهو سيد مطاع ، وقائد مجرب ونابغة في الفنون العسكرية ·

ونعتقد ان المأزق الثاني الذى لاقاه عزيز على : اخراجه من الحجاز بعد الثورة العربية هنـاك عام ١٩١٦ : اخراجا لعبت فيه الدسائس القريبة والبعيدة والذين اشتركوا فى ثورة الحسين بن على من ضباط وسادة معظمهم من اخواننا أبناء العراق ثم أبناء سورية · ثم أبناء الأقطار العربية الأخرى · ولا ندرى مبلغ وقوفهم على الحقائق التى أذكرها الآن من ينابيعها :

الحسين بن على كان قد استدعى عزيز على من مصر وولاه القيادة · لم يلبث عزيز على أن أخذ يحس طريقة بطء الانكليز فى المساندة وفى تقديم الذخائر والأسلحة ، كما شاهد هذا (الأمير) عبد الله المسؤول وقتئذ عن المنطقة الشرقية وعلى يديه سقطت (الطائف) ·

قال لى الستندروسى : وسمعت هذا بنفسى من الملك عبد الله فى عمان ، فى مجالسه الخاصة ، ولكن مشاهدات عبد الله كانت أسبق · فصمم عزيز على على شيء ، فجمع كبار الضباط اخوانه الذين يثق بهم ويعملون معه ويعرفهم ويعرفونه معرفة تامة عبر « حزب العهد » من أيام الآستانة ، وأخبرهم بخطته وهى جمع القوات العربيـة وضرب القوات التركية فى أضعف نقطة ، واحراز الغلبة عليهم إلى حد يجعلهم يفكرون فى المصير ــ مصيرهم المقبل على الانهيار ، ومصير الثورة المقبـل على الانتصار ــ وبعد ذلك وتوطيد الوقف ، مفاتحة الترك بالصلح ·

المعلومات التى وصلتنا عن هذه الخطة لم تذكر أبعد من هذا الرأى ·

فقام أحد أولئك الضباط الذين كانوا حاضرين وأبلغ الأمير عليا نية عزيز على وخطته ومرماه ·

فجمع الأمير أولئك الضباط اليه وخاطبهم بأن هذا مضر ·

واستل الخنجر من وسطه كأنه يريد الانتحار ايثارا على تنفيذ خطة عزيز على فبادره الضباط بان أمسكوا بيده ، ومنعوه من أن يلحق بنفسه أذى وأقسموا له بالطاعة · فقبض الحسين بن على وأولاده على ناصية الحـال ·

وليس من غير المعقول ان يكون الانكليز فى معزل خفى عن هـذا كله ثم تدبير أمر اخراج عزيز على من الحجاز ، فأخرج وعاد الى مصر ·

قال لى السندروسى فى عمان سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ : هذا ما سمعته بالحرف من رشيد المدفعى فى عمان فى جلسة خاصة اشتد فيها غضبه على الانكليز .

ولما أخذنا باستعادة أخبار الماضى قال رشيد بلهفة محترقة « أنا الحق على .. ! أنا الحق على .. !! » . فسألته ماذا تعنى .. ؟ فسرد لنا ما ذكر هنا . وقال انه كان يعتقد وقتئذ أن عمل عزيز على لو نفذ لكان ضارا بمصلحة العرب .

وانه هو وقتئذ لم يكن متمرسا بحقائق الاستعمار البريطانى كما هو متمرس اليوم . وبقى رشيد المدفعى فى الأردن حتى توفى فيها واشترى بيتا فى مدينة الصلت وسكن فيه . وأما بقاؤه هنا ، وهو شخصية عراقية محترمة وكان بوسعه الرجوع الى العراق وبلوغ ما بلغه رفقاؤه من رجالات الثورة من عمل فى الحكومة العراقية فالسبب فيه كما يعتقده السندروسى وقال لى : ظن رشيد فى نفسه ان اخوانه الضباط نقموا عليه بما كان منه وكان ذلك سبب اخراج عزيز على من الحجاز بعد اقامته فيه بضعة أشهر .

للعلم .. رشيد المدفعى بعد الحرب العامة أقام فى شرق الأردن (امارة الأمير عبد الله) وشغل مناصب ادارية ، وبقى الى ما بعد ١٩٣٠ وهو ليست له صلة نسب بينه وبين جميل المدفعى من رؤساء الوزارة العراقية السابقين . ورشيد انما لقب بالمدفعى لأنه كان أيام الخدمة العسكرية يعمل على المدفع .

وهذا آخر ما دونت من أخبار عزيز على ، أخذتها من السندروسى

ومما يجب ان نذكره ان عزيز على عندما كان فى الآستانة كان يفكر بأنه من الممكن أحداث ثورة عربية تبتدىء فى جبل لبنان الكثير الأودية والمرتفعات الشامخة . وكان أصدقاؤه من لبنان يزينون له الفكرة .

واخذ بهذه الفكرة على ما يظهر لما رأى مصير بلاد العرب على أيدى الحلفاء فى نهاية الحرب ولكن بعد عقد الهدنة خريف ١٩١٨ عدل عن هذا لما رأى من موقف فريق من اللبنانيين الموقف الموالى لفرنسا .

ويمضى عجاج نويهض قائلا :

عرفت عزيز على سنة ١٩٢٥ فى القاهرة مرة واحدة عن كثب . فى تلك السنة ـ الربيع ـ صدرت الطبعة الأولى من كتابى « حاضر العالم الاسلامى » وكان الأمير عادل أرسلان فى القاهرة هو ونفر من اخوانه الذين أقصاهم الانكليز من شرق الأردن (١٩٢٣ ـ ١٩٢٤) وفيهم رشيد

طليع وخير الدين الزركلي وفؤاد سليم وسامي السراج منضمين الى اخوانهم الذين هم في مصر من قبل ٠ وكانت القاهرة وقتهـــا تضج بالنشاط السياسي المصرى على يد سعد زغلول والنشاط المصرى العربى عبر ارهاط الساسة العرب الذين انحدروا الى مصر من العراق وسوريـــة ولبنـــان والأردن وفلسطين وبعض أقطار الشمال الأفـــريقى كما كان التعبيـــر وقتئذ ٠ فكانت القاهرة ملتقى العقول العربية ٠

فقال لى الأمير عادل يوما : هلم بنا الى زيارة عزيز على ٠ فسررت أيما سرور لأني أعد هذا من الأماني ولم يسبق لى أن رأيت عزيز على من قبل ، ولكنني أعلم عنه الكثير من اخواننا ومما نشر فى كثير من الكتب ٠

ولكني ما كنت أعلم حتى ذلك اليوم ان الاخوة بين عزيز على وعادل أرسلان بالغة هذا الحد الكبير ٠ فذهبنا الى (البانسيون) الذى كـــان يسكن فيه ، ولا أستطيع اليوم أن أتذكر اسم هـــذا الحى من أحياء القاهرة ٠

فلما اقبلنا عليه أخذ هو وأرسلان في العناق وبث روح الأخـــوة كانهما لم يريا بعضهما البعض منذ سنين مع أن لقاءاتهما فى القاهرة تلك السنة كانت وفيرة ٠

ووجدت عزيز على توا شخصية اجتازت آفاقالمعتاد بمراحل ٠

أول ما لفت نظرى منه ، جمال تقاسيم وجهه ، ولياقة شاربيه ، وأناقته الظاهرة حتى في كل حركة من حركاته ، وكل كلمة من كلماته ٠

لفتت نظرى أناته المحكمة في حديثه فانه يسكب هذا الحديث سكبا كأن عبارته لا تقبل حرفا مزيدا ولا ينقصها حرف ٠

وبعد قليل ارتدى أثوابه وعجبت من انتقاله من حالـــة جلوس الى ارتداء الألبسة الى ٠٠٠ الى ٠٠٠ بطريقة نسيمية بارعة ٠

والصفة الغالبة عليه جالسا قائما ماشيا ، متحدثا ، مستمعا ٠٠ الأناقة والهدوء ٠ ولاحظت الكتب حوله هنا وهناك ، وحول سريره ، ويظهر أنه كان شديد الحب للمطالعة ٠

فهو أكثر من عسكرى نابغة ٠ هو مفكر سياسي ٠ ومتعمق فى دراسة التاريخ ، وله نظراته وآراؤه ، واستنتاجاته ٠

كان نصيبى من الكلام في الحديث الذى كان يـــدور بينه وبين الأمير عادل رسلان قليلا ٠ ولكن عزيز على ٠٠ عالى درجة التهذيب النفسى فهو يعطى لكل جالس فى مجلسه نصيبه من الشركة ٠

وبعد انصرافنا من عنده وجلوسنا أكثر من ساعة سأله الأمير عادل : أى الرجل هذا ·· !! فأخبرني عنه وعن الصحبة الجارفة بينهما ·

ويضيف عجاج في رسالته تلك قوله – نقلا عن الأمير عـــادل ارسلان :

ولما انشأ عزيز علي الحزب مرة ثانيـة في الآسـتانة من رجال عسكريين جميعا معظمهم من اخواننا أبناء العراق وكان يقال له وقتئـذ (بروسيا العرب) رمزا الى ما سيكون له من الريادة في بناء الدولـــة العربية المستأنفة – وانما فعل هذا بعد أن لاحظ أن رشاشا من أنبـاء الحزب بلغ (الاتحاديين) عن طريق أحد الأعضاء السوريين – لم يدخـل الحزب المجـدد الكيان من الرجال المدنيين سـوى الأمير عادل ارسـلان ونجيب شقير

كما بعث الى الأستاذ عجاج نويهض بنص رسالة كان قد بعث بها اليه الأمير عادل ارسلان مهد لها بقوله :

لما كنت مقيما في الأردن ١٩٥٣ (بعد اقامتى في القدس من ١٩٢٠ – ١٩٤٨) كنت معنيا بجمع أخبار الحركة العربية ، ورجالها ، وشهدائها ·

وكان كتاب انطونيوس قد ظهر في أول طبعة ١٩٣٩ (توفي جورج انطونيوس بعد ذلك بسنتين رحمه الله) وفيه تفصيلات وافيـة تصف منشأ الحركة وأوائلها · واشتمل هذا الكتاب لأنطونيوس (يقظـــة العرب) على نقاط تحتاج الى ايضاح ·

وكان الأمير عادل ارسلان رحمه الله قد انتهى من الخدمة في دولة سورية واستقر في بيروت (متقاعدا) كما يقولون

وهو – أعلى الله مقامه في عليين – لا يعرف القعود ولا التقاعد · ·

فأجابني في رسالة مؤرخة في ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر ١٩٥٣) · ولعل هذه الناحية هي آخر ما كتب بشأنه في حياته اذ توفاه الله في أواخر كانون الثاني ١٩٥٤ (يناير) أي بعد نحو ثلاثة أشهر من تاريخ رسالته ·

واني أثبت صورة رسالته هذه بكاملها لان ما يتعلق بالنقاط التي سألته عنها أمر مهم وجوابه يعتبر حجة والقول الفصل

عزيزى الأستاذ عجـــاج

جوابا على سؤالك عما ذكره انطونيوس عن الجمعية القحطانية أقول أنه صحيح ينطبق على الحقيقة والأسماء التي ذكرها هي أسماء أعضاء اللجنة المركزية التي كنت ناموسها الا أمين قوزما فلم يكن من تلك اللجنة لكنه دخل الجمعية وعهد اليه بتأليف فرع في الجامعة الأمريكية ببيروت • (هي الجامعة الأمريكية في بيروت وكانت تعرف منذ انشائها ١٨٦٦ الى ما بعد الحرب العالمية الأولى بالكلية ، وتمام اسمها هذا « الكلية السورية الانجيلية » ثم تغير اسمها الى الجامعة الأمريكية فذكرها الأمير عادل باسمها المعطى لها بعد الحرب ، وأما الوقت الذى يشير اليه من حيث تأليف الأحزاب العربية السرية فى الآستانة بين ١٩٠٩ ــ ١٩١٤ فكان اسمها الكلية) •

أما العضو الذي باح بسر الجمعية لأحد رؤساء الاتحاد والترقي تزلفا ، فكان الدكتور عزت الجندى (حمص) ولم يكن من أعضاء اللجنة المركزية •

وكذلك ما ذكره انطونيوس عن العهد العسكرى والعضو الآخر غير العسكري في ذلك الحزب هو المرحوم نجيب بك شقير • أسأل لكم التوفيق فى مشروعكم الجليل • تحياتي للأخ الأمير خالد ولكم أطيبها •

عادل ارســلان

هذه جنبات وبنيات طريق فى سيرة عزيز على رحمه الله رحمة واسعة • وأما العمل فى استيفاء سيرته كلها من جميع جوانبها فعمل كبير فيه خدمة للتاريخ والأمة العربية •

رأس المتن ــ لبنان

عجـاج نويهض

واذا كان الشيء بالشيء يذكر فان السير رونالد ستورس كان قـد زار مصر في يناير ١٩٣٨ لالقاء محاضرات علمية •

وكانت المحاضرة الثانية ــ في الجمعية الجغرافية الملكية ــ عـن لورانس في بلاد العرب •

وقد القى عزيز على المصرى في بداية تلك المحاضرة كلمة بالانجليزية قدم بها السير رونالد ستورس ، وقد جاء في تلك الكلمة : « لقد اجتمعت

بالسير رونالد ستورس لأول مرة في مصر عام ١٩١٤ في أنجح عهد في حياتي ٠

وقد كان سكرتيرا شرقيا في زمن كان ذلك المنصب على أعظم جانب من الأهمية ٠

وقد حاول بصفته موظفا بريطانيا كبيرا مخلصا لحكومته ان يدفع بي للعمل ضد تركيا ، فاستطاع بذكائه الوقاد ، وثقافته الواسعة ، ومواصلة السعي لبلوغ غايته ، أن يجعلني في يديه القويتين كالفأر في مخالب الأسد ٠

وكان يهزني بعنف ممزوج بالرقة ٠

وحاولت أن أقاوم ولكن قلبه الطيب رثى لضعفي وجهلي كما يفعل المحارب الكبير الذي يرثي لحالة خصمه الصغير ٠ فأتاح لي الفرصة لكي ازداد قوة ، وأهدى الى الالياذة وعلى غلافها العبارة الرقيقة « مع صداقة رونالد ستورس » ٠

وقرأت لأول مرة ذلك الكتاب العظيم ٠

ووجدت أن رونالد ستورس قد سلط شعاعا منيرا دافئا على جهلي المظلم البارد أبقاني دائما ممتنا له ٠

كذلك لن أنسى السهرات الموسيقية المدهشة في منزله الذي كان يلقب بمتحف قصر الدوبارة في ابان الحرب العظمى حين لم يكن من حسن التصرف ان يتمتع المرء بالموسيقى الألمانية ٠

ولكن بعد أن ينصرف كل شخص ما عدانا كان السير رونالد ستورس يذهب الى البيانو متنفسا الصعداء ويبدأ في عزف بعض ألحان «ترستان» و « ايزولت » بهدوء وكان يهمس في أذني قائلا : أيها الصديق ٠٠ هذه موسيقى ولكن في النهاية شعرت ان شخصيته العظيمة تكاد تسيطر علي٠

وخوفا من فظاعة الاضطرار الى القتال ضد جيشي التركي السابق ـ وتركيا كانت وطني ومنشأ حياتي ـ نجوت بنفسي الى أسبانيا ٠

وقد كان السير رونالد ستورس أول سياسي انجليزي اتصلت به ٠

وقد علمني التسامح العظيم الذي يبديه السياسي نحو ضابط صغير يميل الى الفريق المعادي ٠

وهذه الخطة الباهرة البعيدة النظر بذرت في قلبي أول بذور الاعجاب الذي شعرت به فيما بعد نحو الشعب البريطاني ٠

وفي الواقع كنت في أثناء الحرب في قبضة يده ولكنه لم يسمح لى قط ان أشعر بذلك ، وما أشبه هذا السلوك بالمبدأ الاسلامى القـوى (لا اكراه فى الدين) .

وبعد مضى سنين التقيت بالسير رونالد ستورس في لندن وكـان الاختبار قد أضاف قوة جديدة الى قوته وقد اتسعت دائرة مقدرته وذكائه الوقاد وازداد رصانة .

وهكذا فهمت كلمات ذلك القائد العظيم البالغ الثمانين من العمـر خير الدين بربروسه للسلطان سليمان القانونى فى مقـابلته الأولى لـه « لا تنظر الى سنى ان كل سنة من الاختبار قد اضافت قوة الى قوتى » وقد برهن على صحة ذلك بانتصاره على أسطول أندريا دوريا بعد مضى خمس سنين .

ومتى علمنا ان سن السير رونالد ستورس يسمح بأن يعد مثل خير الدين بالنسبة لذلك التركى العظيم جاز لنا ان نتوقع أعمالا أخـرى عظيمة منه .

والآن جميعنا نشعر بسعادة اذ نرى المحارب فى ميدان معاركـه الأولى .

وانى أرجو أن السير رونالد ستورس أيضا يشعر بأنه فى وطنه مصر وانه فيها مثل أحد أبنائها .

صحيح أن أعماله الأولى فى مصر كانت فى بعض الأحيان من نوع الكفاح ، ولكنى أعتقد ان الخصومة والحب هما العاملان الرئيسيان فى ترقية الحياة والنجاح .

وعن قصد أو غير قصد كان هو مع آخرين من الجانبين يضعـون أسس الصداقة التى رأينا تحقيقها والتى تزداد قوة يوما فيوما .

والآن نرى أبا الهول بعينيه اللتين تريان الى بعيد وبابتسامته ذات المغزى يرحب بالمحارب القديم والفاتح لطريق الصداقة بين الشـعبين العظيمين ، ونرى أبا الهول باسم مصر أم الحضارة يبسط ذراعيه نحو السير رونالد ستورس وكأنه يقول « أيها الابن العزيز أسمعنى صوتك »

فقابل الحاضرون هذه الكلمة بالتصفيق الحاد

ومما يجدر بنا أن نذكره أيضا .. أننى تلقيت فى ١٩٧٨/٥/١٢ من الأستاذ الكبير مجيد خدورى رسالة قال فيها .. :

« منذ أكثر من شهرين ارسلت اليك بواسطة السفارة المصرية في واشنطون بحثي المنشور في st. Antony's pupers **عن عزيز على المصرى ، وكتبت اليك رسالة اخرى ، فالرجاء ان تكون وصلتك .**

وكنت قد وعدتك بارسال اليوميات المسجلة عندى عن محادثاتي مع المرحوم عزيز على وقد منعني حينئذ بعض السفرات التي قمت بها الى قطر والعراق .. الخ .

تجد طيه هذه اليوميات وهو صور Xerox من الأصل الذى عندى للسنة ١٩٥٨

وقد دونتها في اليوم الذى قابلته كما يدل تاريخ ذلك .

أرجو أن يكون لك فيها بعض الفائدة ، وهذه الأفكار كما اعطاني اياها « عزيز على » نفسه »

أما المقابلتان اللتان أشار اليهما الأستاذ مجيد خدورى تمتا بينه وبين عزيز على المصرى فى ١٣/٤/١٩٥٨ و ١٤/٤/١٩٥٨ فهما مهمتان للغاية ذلك لأنهما كانتا آخر مقابلات من هذا الطراز أجراهما عزيز على المصرى مع شخصية تتميز بالثقافة والاطلاع وتتفوق على غيرها من الشخصيات التى اتخذت التاريخ علما أو هواية بمعرفتها لكثير من الشخصيات التى صنعت التاريخ الذى تكتب عنه ولست بحاجة الى القول بأن لى تحفظات كثيرة على ما جاء فى هاتين المقابلتين على لسان عزيز على المصرى لا لأننى ــ معاذ الله ــ أخشى حدوث تحريف فى النقل ، وانما خشيتى كلها أن تكون الذاكرة قد خانت عزيز على المصرى الذى كان قد جاوز التسعين من عمره وقتئذ .

الأحد ١٣/٤/١٩٥٨ :

اليوم صباحا ذهبت مع حسنى خليفة لزيارة عزيز على المصرى على موعد فى داره الواقعة ١٨ شارع الجزيرة . وهو شيخ لا يزال عنده حيوية كثيرة ولكنه يتكلم كثيرا ويشرد عن الموضوع الى البحث عن فلسفته فى مواضيع عامة شتى . قلت له : أود أن أساله عن بضعة أمور تتعلق ببدء الحركة العربية . قال : أنه كتب مذكراته بالفرنسية ، ولكن السلطات البريطانية حجزت عليها وأخذتها .

سألته عن تأليف الجمعيات العربية ؟

قال : أنه أسس جمعية العهد ، وقد دخلها رجـال متعددون من العرب والترك والأرمن وغيرهم من العرب كان فيها ياسين الهاشمي وجعفر العسكري ونوري السعيد وعبد الله الدملوجي وغيرهم .. وكانت فكرته في تأليف هذه الجمعية العمل على عضد فكرة امبراطورية البحر المتوسط الشرقي التي تضم الدولة العثمانية والبلاد العربية ومصر وغيرهـا من الدول البلقانية على أساس فيدرالي .

وقال ان فكرته كانت انسانية لا تستند الى فكرة قومية لأن مثل هذه الامبراطورية تضم أجناسا مختلفين أكثرهم من بقايا الروم والعناصر القديمة . وفي نظره ان الأتراك العثمانيين أصلهم من البيزنطيين نظـرا لامتزاجهم الكثير بين العنصر التركي والبيزنطي . قلت : هل كان غرضك بث الفكرة القومية العربية ؟ قال : لا أبدا أنا لا أؤمن بفكرة قومية عربية مستقلة ، لأنه لا يوجد عرب كعنصر مستقل خاص ، وانما أردت التآخي بين العرب والترك في دولة واحدة ؛ ولكن الأتراك . لا سيما أنور باشا ، نظرا للعداء الشخصي بينهما الذي نشأ في حرب الأتراك مع ايطاليا ، هو الذي أشاع عنه أنه يعمل ضد الأتراك بجانب العرب . وعمل مع العرب في حربهم ضد الطليان واستقال من منصبه في الجيش العثماني . لكن أنور باشا لفق ضده مؤامرة في قضية مالية وألقى القبض عليه ، وشاعت عنه فكرة الأشتغال ضد الدولة العثمانية ، وكان أنور وأتباعه يتهمونه انه يعمل في مصلحة العرب .

قلت : ألم تتكون بعض الجمعيات التي عملت من أجل العرب فقط ؟

قال : أسس سليم الجزائري الجمعية القحطانية ، وكان سليم رجلا طيبا ولكنه دائما كان يسأل ما هي القحطانية ولماذا اختار سليم كلمـة « قحطان » ؟ هل كل أصل العرب قحطان في جنوب جزيرة العرب ؟

وعندما سألته عن أعماله في حرب ليبيا ؟

فقال انه أبلى بلاء حسنا في حربه ضد الطليان وكان لديه مال قليل وعدد قليل من الجنود ولكنه صمد ودحر الطليان . وقال : ان العرب والسنوسيون عاونوه في هذه الحرب لكن السيد أحمد الشريف كان يدعي أنه يقاتل ولكن في الحقيقة لم يعمل شيئا جديا ، فكان يستلم الفلوس ويتزوج نساء كثيرات ولا يعمل عملا جديا في الحرب ، ولم يتفق معـه حول طريقة الحرب . أما الرجل الذي حارب باخلاص فهو عمر المختار ؛ وكان العرب يعدونه وليا وكانوا يتبركون به . فكان كثيرا ما يأتي اليه

العربان ويقطعون قطعا من ثيابه يعلقونها عليهم · كان العرب فى ليبيا متاخرين Superstitions (وأخبرنى ساطع المصرى أنهم يعتقدون كثيرا بالسحر والخرافات) ·

قال : أنه اشترك فى حرب اليمن وفاوض الامام يحيى وكان عاملا فى عقد الصلح والمعاهدة معه · اذ كان الأتراك يهددونه ويحقرونه ، ولكنه كتب اليه يخبره بأن أعداء الاسلام هم البلغار والروس وأنه يجب أن يعتبر كل الدولة العثمانية بلاده · وعامل الامام باحترام فقدر ذلك الامام — ولما عقد الصلح اتهمه الأتراك بما فيهم عصمت أنه أخذ جانب امام اليمن · لكن سعيد باشا الصدر الأعظم فهم ذلك وهو من أصل كردى وأيد المعاهدة ·

الاثنين ١٩٥٨/٤/١٤ :

اليوم عيد شم النسيم فى مصر · وهذا عيد مصرى قديم ليس بالعربى ولا بالاسلامى · والكل يأكل الفسيخ وهو السمك الصغير ، يملح ويؤكل · ذو رائحة كريهة وبما أن رمضان الآن فلا يستطيع أن يأكله المسلمون ولذا يؤجل الأكل الى الليل · وهنا شىء من التنافر بين تقليدين الواحد تاريخى قديم والآخر اسلامى · ولكن المصريين يحافظون على الاثنين ·

ذهبت اليوم لزيارة عزيز على المصرى مرة ثانية على موعد فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى شقته الواقعة فى ١٨ شارع الجزيرة ·

سالته ان يتكلم عن ذهابه الى الحجاز عند الشريف حسين حين اعلان الثورة العربية ؟

قال : انه لما قام الحسين بحركته كان نورى السعيد قد ذهب (عزيز على يقول أنه هو الذى ارسله ليعلم ما هى قصة الحركة) ثم اتصل نورى بعزيز على فى الاسكندرية ودعاه حتى يذهب ليعمل مع الحسين · عزيز على يقول : انه لم يعلم قصد الحسين فيما اذا كان يريد منع حصول حرب فى الحجاز باعتباره بلدا مقدسا حتى لا يحتله الانكليز أم التحالف مع الانكليز · فذهب عزيز على الى مكة (يقول انه باع بيته وأرضه بثلاثة آلاف جنيه وذهب الى الحجاز) (وقابل الحسين وجرت مكالمة بينهما · فقال عزيز على للحسين انه يعمل معه اذا كانت حركة الحسين لا تؤدى الى الانفصال عن الدولة العثمانية والخلافة ، وأنه يؤيده اذا كان

الغرض حصر الفرقة العثمانية بالمدينة فقط ومنع الحرب في الحجاز بين الانكليز والعثمانيين . ويظهر أنه هنا تباينت الأفكار بين جماعة الحسين وبين عزيز على . ومع هذا فقد أرسل عزيز علي مع نوري وجماعة آخرين من الضباط العرب (لا سيما العراقيين) الى رابغ وهي ميناء على البحر الأحمر . وهناك كانت سفينة حربية بريطانية راسية وبعض الحامية البريطانية جاءت من مصر . وجرت هناك مناقشات كثيرة بين الضباط العرب حول موقف الحسين . ويظهر أنهم كانوا منقسمين على أنفسهم (أو بالأحرى مترددين في عملهم) حول حركة الحسين : فالحسين كان قد تحالف مع الانكليز وهو يستلم المساعدات المالية والذخائر منهم ، وقام بحركة لمقاومة الجيش العثماني في الحجاز .

أما الضباط الذين ذهبوا للعمل هناك فكانوا يتناقشون فيما اذا كان التحالف مع الانكليز عمل يبرره الدين والوطنية . وكان عزيز على المعروف بصراحته ، ضد فكرة الثورة على الدولة العثمانية ، وكان يرغب ان تكون الحركة مجرد استقلال ضمن الدولة العثمانية . لذلك كان هناك وجهة نظر يمثلها عزيز على ترمي الى مفاوضة الأتراك للتفاهم معهم والقضاء على حركة الحسين . فلما خرجت قوة رابغ للسير شمالا لمقابلة الفرقة في المدينة كانت وجهتي النظر قد اشتدت كثيرا . قال عزيز على المصري : أنه جاءه بعض الضباط العرب وقالوا له أنهم لا يريدون محاربة الفرقة العثمانية واتفق عزيز مع هذا الفريق من الضباط أنه متى تقرب القوة الشريفية من المدينة يتصل ثلاثة منهم بشكل كشافة للمفاوضة ، ويجرى الاتفاق بأنهم ينضمون الى الفرقة العثمانية ثم تسير هذه الفرقة جنوبا الى مكة وتستولى عليها وتقضي على حركة الحسين ويجرى الصلح مع العثمانيين على أن يعترف العثمانيون بالاستقلال الداخلي للعرب . لكن هذه الأخبار وصلت نورى السعيد والأمير على وهؤلاء كانوا يمثلون وجهة نظر التعاون والتحالف مع الانكليز . قال عزيز على : أنه في اليوم التالى جاءه الأمير على يلثم يديه ويطلب منه الرجوع الى رابغ . فرجعت القوة الشريفية وفشلت فكرة الاتصال والتفاهم مع الفرقة العثمانية .

قال عزيز على : أنه كان أيضا يفكر مع بعض الضباط ان يتصل شمالا مع العثمانيين والألمان ويجرى التفاهم معهم على عقد الصلح والاعتراف بحقوق العرب . كانت هذه الأفكار تناقش ولذلك عرف عن عزيز أنه يمثل وجهة نظر التفاهم مع الأتراك لا محاربتهم . وقال : انه جرى كلام بينه وبين القائد البريطاني وحمل على باخرة حربية بريطانية وأرجع الى مصر . ومن هناك كتب رسالة الى الشريف حسين يودعه دون أن يذهب للسلام عليه في مكة .

ان الذى يتبين لي من كلام عزيز علي المصري انه كان يمثل وجهة نظر وافكار تختلف كثيرا عما كتب عنه أو قيل . يتلخص ذلك فيما يلي :

١ ـ أنه أسس جمعية العهد ودخلها عرب وغير عرب على أساس ان تكون الدولة العثمانية « دولة فيدرالية » ينال فيها العرب حقوقهم واستقلالهم الداخلي وهكذا الشعوب الأخرى . قال عزيز : ان نورى السعيد وياسين الهاشمي وآخرين أقسموا بانهم ينفذون هذا البرنامج

٢ ـ اعتقاده بالفكرة العثمانية كأساس لرابطة الشعوب التى تتكون منها الدولة ضمن خلافة اسلامية وأنه لم يؤمن بالثورة على الدولة العثمانية من أجل الدول الأخرى ـ كان يعتقد ان المدنيات القديمة والشعوب التركية والعربية والكردية والبلغارية وغيرها .. كلها شعوب طيبة يجب أن تتعاون فيما بينها ضمن الدولة العثمانية . ويظهر أنه لنشأته فى مصر تحت الاحتلال البريطانى قد اقتبس هذه الفكرة من مصطفى كامل الذى كان يدعو الى الخلافة العثمانية والولاء لها .

٣ ـ نظرا لنشأته في مصر وتأثره بتعاليم مصطفي كامل وغيره ، اقتبس فكرة معاداة البريطانيين وعدم التعاون معهم ولذلك لم يكن يأمن التعاون مع الانكليز لأنهم كانوا قد احتلوا مصر وبقوا فيها رغم أنها تعود للدولة العثمانية .

٤ ـ نظرا لتعاون الدولة العثمانية مع الألمان وعضدهم لها كان من المؤيدين لسياسة ألمانيا . وكان هو نفسه درس فى ألمانيا وتأثر بنظمها العسكرية ولذلك كان يدعو الى التعاون مع الألمان .

٥ ـ ان النزاع والمنافسة بين أنور باشا وعزيز على المصرى الذى نشأ فى الحرب الطرابلسية . والقبض على عزيز استغله العرب من ناحية لجذب عزيز على اليهم ، ومن ناحية ثانية استغله الاتحاديون للتشهير بعزيز على أنه ثورى يقود حركة عربية كوردية ضد الدولة العثمانية . فدعوته الى العثمانية كانت ضد الدعوة الى الاتحادية التركية ، وأفكاره العثمانية جعلته فى مأزق حرج مع العرب الذين قاموا بالثورة على الدولة العثمانية متحالفين مع الانكليز .

كان عزيز على اذن ـ استنتاجا من حديثه معي ـ رجلا لا يريد تأييد اى حركة قومية خاصة وانما كان يدعو الى « العثمانية » على أساس فيدرالى يمنح فيه استقلال ذاتى داخلي للعناصر المختلفة المتكونة منها الدولة العثمانية . ولذلك فكان قد نبذ من الاتحاديين الأتراك ، ونبذ من الحسين والانكليز الذين ارادوه أن يؤيد حركتهم .

كان يريد تأييد وجهة نظر معتدلة ، وهي التي كان يمثلها زعماء صغار مثل مصطفى كمال وبعض الألمان ، وكان يريد أن يحارب الى جانب ألمانيا لا الى جانب انكلترا . وهذا حدث له أيضا في الحرب العالمية الثانية . كان عزيز علي الى جانب حركات قدر لها أن تكون فاشلة فلم يمثل مركزا لها في أيام السلم بعد الحرب العالمية الأولى .

سألته : ماذا حدث له بعد رجوعه الى مصر ؟

قال : أنه تضايق في مصر حيث كان الانكليز مسيطرين . وقابل وينكيت (Wingate) وطلب منه ان يترك مصر الى سويسره ولكن لم يسمح له .

وأخيرا سمح له ان يذهب الى أسبانيا . ولما ذهب حاول ان يذهب من هناك الى ألمانيا فلم يقدر اذ لم تجب طلبه السفارة الألمانية . قال ان سبب ذلك أن أنور باشا أعلم الحكومة الألمانية بأن عزيز علي ضد الألمان والأتراك وأنه مع الانكليز . ولذلك بقي طول بقية الحرب في أسبانيا .

ذهب بعد الحرب الى هامبورغ ومنها الى برلين وميونيخ ثم رجع الى مصر بعد سنة ١٩٢٢ ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا . كان الملك فؤاد قد بلغه ان عزيز علي يتراسل مع عباس حلمي . قال عزيز علي : أنه أثناء الحرب العالمية الأولى طلب منه وينكيت قبل أن يترك مصر ان يرسله الى العراق لا الى اليمن ولكنه رفض (قال : ان الانكليز قالوا له انهم مستعدون ان يعملوه ملكا على اليمن أو على العراق ولكن يظهر ان المسألة لم تكن قضية أن يصبح ملكا بل قضية أن يعمل معهم هناك) .

سألته : ماذا عمل بعدئذ ؟

قال : انه كلما كانت تأتيه فرصة للعمل تفلت منه تلك الفرصة . فقد طلب مرة سعد زغلول مقابلته وأخبره بأنه وجد الكثير من أتباعه لا فكرة وطنية صحيحة عندهم وأنهم يريدون الحكم والوظائف . ولذلك أراد من عزيز علي أن يتعاون معه . ولكن لم يكن يمضي بضعة أيام حتى توفي سعد زغلول . ثم لما عين محمد محمود وزيرا طلب من عزيز علي أن يتعاون معه ولكن الملك فؤاد رفض وقال ان عزيز علي كان يتراسل مع عباس حلمي . وأخيرا عين مديرا لمدرسة البوليس ، فرضي بذلك عزيز علي على أمل أنه سيصلحها وقد زارها الملك فؤاد وسر منها . ثم تعاون مع جمال عبد الناصر ، وعرض عليه رئاسة الجمهورية وحرضهم على قيام الثورة قبل ذلك وكانوا يخشون الانكليز نصحهم ان لا يعملوا برلمان بل تعيين مجلس استشاري من ١٢ عضوا فقط . لكن البرلمان تكون من ٣٥٠ عضوا على غير رأيه .

الذى يظهر لى أن الرجل عنده أفكار كثيرة غير عملية : هو ثورى فى العمل الثورى ، ولكنه ينقصه الأفكار العملية فى التطبيق .

He is a sensentionary leader, but his ideas are not practical.

***

والاجماع ينعقد — بعد مزيد من الدراسة المتأنية الجادة — على أن جمعية الاخاء العربى هى أول جمعية عربية تأسست فى الآستانة بعد اعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ وانشأت ناديا لهـا وكان من مؤسسيها عارف بك الماردينى — والى دمشق فى عهد الاتحاديين — وصادق باشا المؤيد ، ويوسف بك شنوان ، وشكرى باشا الأيوبى ، وشكرى بك الحسينى ، وكانت غاية الجمعية : معاونة جمعية الاتحاد والترقى فى سبيل المحافظة على أحكام القانون « الدستور » .

وجمع كلمـة الملل العثمانيـة المختلفـة بدون تمييز بين الجنس والمذهب وتمكين الرابطة الجامعة بينهم وذلك لأجل خـدمة الدولـة العثمانية واصلاح الشئون المختلفة .. الخ .. الخ .

وقد أيد الطلاب العرب فى الآستانة تلك الجمعية التى لم تعش طويلا .

***

ثم كان انشاء المنتدى الأدبى فى ١٩٠٩ وقام بتأسيسه عبد الكريم قاسم الخليل ، ويوسف سليمان حيدر ، وسيف الدين الخطيب ، وجميل الحسينى ، ورفيق رزق سلوم ، على أن يكون هذا المنتدى مركزا لشباب العرب فى العاصمة التركية .

***

وكان شكرى بك الحسينى قد سلم لعبد الكريم الخليل ستين ليرة ذهبية عثمانية كانت باقية عنده باسم جمعية الأخاء لتنفق فى انشـاء المنتدى .؟

ومثل الطلاب العرب رواية صلاح الدين الأيوبى فى مسرح دار الفرح وأرصدوا الريع للمنتدى الذى افتتحت داره الجديدة فى « بارما قه فيو » فى حفل هائل ، وعاش هذا المنتدى حتى سنة ١٩١٥ حيث أغلقته الحكومة التركية .

وكانت تركيا قد أرسلت بعض المتخرجين من شبابها للتخصص فى باريس ، وكان من جملة هؤلاء الشباب أحمد رستم حيدر وقد اجتمع مع

توفيق الناطور حيث اتفقا على تأسيس جمعية عربية شعارها : يجب ان تكون العرب مع الاتراك كالنمسا والمجر • وكانت غاية الجمعية السعى لرفع مستوى الأمة العربية وجعلها فى مستوى الأمم الراقية •

وكان الاقبال ضئيلا على تلك الجمعية • وقد انضم اليها فى عام ١٩١٠ كل من : عونى عبد الهادى ورفيق التميمى ، وأحمد قدرى ، وجميل مردم • كما انضم اليها محمد المحمصانى ١٩١١ •

وكانت هذه الجمعية سرية ، لا يعرف العضو الذى أدخله فيها • وكانت تتألف من ثلاث هيئات : الهيئة الادارية ، والهيئة العاملة وهى التي تختار الهيئة الادارية •

وينضم الى الهيئة العاملة كل أعضاء الجمعية الذين أمضوا فترة التجربة وهى ستة أشهر •

والهيئة الثالثة وتضم الداخلين حديثا ولا يعرف بعضهم بعضا وكان للجمعية كلمات رمزية اصطلحت عليها للمكاتبات والاتصال ، منها ــ مثلا ــ بزغ فجر وطنك •

وعندما عاد مؤسسو الجمعية الى بلادهم من باريس ، جعلوا بيروت مقرا رئيسيا لها •

وتولى الدكتور أحمد قدري ادارة فرع دمشق ، ثم انتقل المركز الرئيسى الى دمشق •

وقد انضم اليها فى تلك الفترة رضا الركابى ، وياسين الهاشمى ، ونسيب وفوزى البكرى ، وبواسطة آل البكرى انضم الملك فيصل نفسه الى الجمعية وصار من كبار مؤيديها •

وعندما كان الملك فيصل فى طريقه الى الحجاز سنة ١٩١٥ اجتمع برجال الجمعية الذين أفهموه مشكلاتهم وأعلموه أنه اذا ثار الحجاز وزحف على سورية وجد أعضاءها على أتم استعداد لتأييده • وقد أعان الملك فيصل الجمعية بألف ليرة عثمانية ذهبية مساعدة لها •

وقد أحس بعض أعضاء الجمعية (عبد الغنى الغربى وعمر حمد وابراهيم الهاشم) ان الحكومة تنوى القبض عليهم فهربوا الى بغداد ثم البصرة ، ولكن الملك فيصل طلبهم فعادوا أدراجهم والتجأوا الى شيخ عرب العفيرة فى مداين صالح حيث صار القبض عليهم من متصرف الكرك بعد أن تعرف عليهم •

وقد انشئت في عام ١٩٠٩ الجمعية القحطانية ، وكانت سرية للغاية . وكانت الاشارة الرمزية بين أعضاء الجمعية ان يضغط المسلم — بكسر اللام وتشديدها — على أحد أصابع يد المسلم عليه ، ثم يضع الشاهد والوسطى على الذراع اليسرى ويخفي بقية الأصابع ، ويبدأ في تهجية « كلمة « هلال » عند المحادثة ، فاذا قال الأول « هـ » قال الثاني « لا » ، وقال الأول « أ » قال الثاني : « ل » تمت المعرفة .

وانتشرت مبادىء الجمعية بين شباب العرب وضباطهم في الجيش العثماني ، وكثر عدد الداخلين بها .

وقد اختلفت الآراء حول مؤسس تلك الجمعية وقيل ان الأرجح أنه واحد من أربعة : عبد الكريم الخليل وخليل باشا حمادة والشيخ عبد الحميد الزهراوي وسليم الجزائري . وسوف نزيح الغموض عن منشأ تلك الجمعية ومؤسسها في الفصل الخاص بتلك الجمعيات الاصلاحية والثورية .

ومن بين تلك الجمعيات أيضا : جمعية العلم الأخضر وقد أنشئت في سبتمبر ١٩١٢ لتقوية الروابط الوطنية بين طلاب العرب في المدارس العليا وتوطيد قواهم الى انتشال أمتهم من الوهدة التي سقطت فيها .

ومؤسسو تلك الجمعية : د. اسماعيل الصفار ، ود. فائق شاكر ، ود. داود الديواني ، وعلي رضا الغزالي ، وعبد الغفور البدري ، وأحمد عزت الأعظمي ، وعاصم بيهو ، ومسلم العطار ، ومصطفى الجسيني ، وشكري غوش

وقد اصدرت تلك الجمعية مجلة سمتها « لسان العرب » ثم ابدل اسمها فصارت « مجلة المنتدى الأدبي » .

وهناك جمعيات وأحزاب واندية أخرى نشأت في مصر وفي بيروت وفي البصرة وفي بغداد من بينها — مثلا — حزب اللامركزية — ومقره القاهرة — ومؤسسوه : رفيق العظم ، والسيد محمد رشيد رضا ، ود. شبلي شميل ، اسكندر عمون ، سامي الجريديني ، ومحب الدين الخطيب . ومن أهداف هذا الحزب : المطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية.

أما جمعية الاصلاح — ومقرها بيروت فقد تكونت من مجموعة من الاعيان والنواب والتجار وهدفها الرغبة في ادخال اصلاحات عاجلة حددوها في برقية طيروها الى الباب العالي في شهر كانون الأول من سنة

١٩١٢ قائلين فيها : اذا لم نأخذ بالاصلاح الصحيح فالبلاد مفلتة من أيدينا لا محالة » ، وقد أجاب الصدر الأعظم كامل باشا على هذه البرقية بأن دعا الشعب الى تقديم مطالبه للنظر فيها حيث اجتمع فى دار البلدية (فبراير (شباط) ١٩١٣) حوالى ٩٠ مندوبا حددوا مطالبهم بكل وضوح وصراحة وتفصيل أيضا ٠

وكان السيد طالب النقيب نائب البصرة فى مجلس النواب العثمانى قد انشأ جمعية البصرة الاصلاحية وانضم اليها عدد من كبار رجـــال البصرة ، كما انضم اليها أحرار العراق وسورية ٠ وصدرت جريـــدة النهضة فى بغداد لتكون لسان حال الجمعية ٠

كما أنشأ مزاحم الباجه جى فى الزوراء سـنة ١٩١٣ فرعا لحزب اللامركزية ، وكان يستظل بلواء طالب النقيب ، فلما حاول الاتحاديون القبض على مزاحم الباجه جى فر الى البصرة والتجأ الى السيد طالب ٠

وكان عزيز على قد انشأ فى ٢٨ تشرين الأول (نوفمبر) ١٩١٣ جمعية العهد بعد ما ضم اليه نخبة من ضباط العرب فى الجيش العثمانى كمحمد اسـماعيل الطباع ومصطفىوصفى وسـليم الجزائرى ، ونورى السعيد ، ويحيى كاظم أبو الشرف ، وعارف التوام ، وعلى النشاشيبى ، وياسين الهاشمى ، وطه الهاشمى ، وجميل المدفعى ، وتحســين على ، ومولود مخلص ، وغيرهم ٠٠ وغيرهم ٠

وكانت الجمعية سرية للغاية وبرنامجها كما يلى بالحرف الواحد :

١ ـ جمعية العهد سرية انشئت فى الآستانة وغايتهـا السـعى للاستقلال الداخلى لبلاد العرب على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانـة اتحاد المجر مع النمسا ٠

٢ ـ ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الاسلامية وديعة مقدسة بأيدى آل عثمان ٠

٣ ـ لما كانت الجمعية تعتقد أن الآستانة رأس الشرق ، وان الشرق لا يعيش اذا اقتطعتها دولة أجنبية فهى تعنى عناية خاصة بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها ٠

٤ ـ لما كان الترك يؤلفون من « ٦٠٠ » سنة المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب ، فعلى العرب أن يعملوا للحصول على ما يؤهلهم لان يكونوا القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر ٠

ولقد أحدث انشاء هذه الجمعية أهمية عظيمة فى دوائر الآستانـة لما عرف منشئوها من الصلابة والقوة ولأنها نشأت فى فترة من الزمن

توترت فيها العلاقات بين الاتحاديين والشبيبة العربية توترا قويا كان من أثره تأييد الشباب والضباط العرب للجمعية والتفاهم حولها ، حتى أنهم انشاؤا لها فرعا في بغداد وآخر في الموصل ، وهذا ما جعل الحكومة الاتحادية تخشاها وتحسب حسابها وتعمل على تفريق رجالها قبل اشتداد ساعدها وتبسطها ٠

وفي ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩١٤ ـ يناير ـ عقد اجتماع خاص في وزارة الحربية بالآستانة ، حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، ومحافظ الآستانة العسكري أحمد جمال باشا ـ وذلك قبل أن يعين وزيرا للبحرية ـ ومدير الأمن العام عزمي بك ، فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة وجمعية العهد عامة ، وقرروا الأمور الآتية :

١ ـ اقصاء ضباط العرب المقيميين في الآستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطا ينتمي ٣١٥ منهم لجمعية العهد الى المناطق التركية ، وهي تراقيا والأناضول فلا يعود بامكانهم الاتصال باخوانهم العرب ولا القيام بأي عمل يعزز فكرتهم ويروجها ٠

٢ ـ تولية القيادة في البلاد العربية الى الضباط الترك واقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الامكان ٠

٣ ـ الاسراع في سياسة تتريك العناصر ٠

٤ ـ يعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتتريك العناصر ٠

٥ ـ مقاومة الحركة الاصلاحية التي ظهرت في بيروت وباريس ٠

٦ ـ الغاء الأحزاب العربية كلها ، وتأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تشرف على الشئون العربية وتدبير الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وترقب حركاتهم بدقة زائدة ٠

٧ ـ اقصاء العرب الذين يعملون ضد الأتراك من الآستانة واستمالة كل من يمكن استمالته منهم ٠

٨ ـ تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العربية والاكثار من المنتسبين الى أنديتها ٠

ولم تقف الحكومة الاتحادية عند حد اقصاء الضباط العرب ـ وقد أقصوا فعلا غداة صدور هذا القرار ـ بل أصدرت في ٩ شباط ـ فبراير ـ سنة ١٩١٤ أمرا بالقبض على عزيز بك على واحالته الى المحكمة العسكرية

بتهمة أنه أساء التصرف فى ٣٠ ألف ليرة عثمانية تسلمها من أنور باشا حين مغادرته طرابلس الغرب .

بينما كان عزيز بك على بعد ظهر الاثنين ـ ٩ شباط ١٩١٤ ـ خارجا من فندق توكطليان ، دنا منه ثلاثة من رجال البوليس الملكى ودعوه الى دائرة البوليس فى استانبول ، ولما ذاع الخبر فى الآستانة ، قال له أبناء العرب وقعدوا ، وذهب كثيرون منهم الى مركز البوليس مستعلمين عن السبب ، فقابلهم مدير الأمن العام بكل بشاشة وتلطف ، وقال لهم : ان عزيز بك لم يوقف ولكنه يستجوب عن أمور لا دخل له فيها ، وسيطلق سراحه فى المساء ، وقصد المرحوم الزهراوى منزل طلعت بك ليقف منه على حقيقة الحال فقيل له أنه ليس فى منزله والحقيقة أنه لم يرغب فى مقابلته كما اتضح بعدئذ .

ولما أزفت الساعة العاشرة مساء ولم يخرج عزيز بك من دائرة البوليس طلب أحد الضباط العرب المرحوم عبد الحميد الزهراوى باسم الضباط العرب أن يبحث عن سبب اعتقال عزيز بك معلنا استياء العرب ملكيين وعسكريين من تلك المعاملة لأن عزيز بك لا دخل له فى سياسة الآستانة وشئون أحزابها وقد أبلغ الحكومة التركية بأن دماءنا يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن فلا تضطرونا الى اراقتها فى سبيل الأفراد » .

وفى ١٠ شباط عقد مندوبو الأحزاب العربية اجتماعا مهما للوقوف على الأسباب التى أدت الى القبض على عزيز بك واجراء ما تقتضيه الحال ثم قابلوا جمال باشا وطلعت بك وغيرهم فسمعوا منهم كلهم جوابا واحدا وهو أن عزيز بك أخوهم وحبيبهم وان وزارة الحربية تحقق معه فى بعض الشؤون العسكرية التى تتعلق بأمر الدفاع عن الدولة وان الحكومة قررت تعيينه واليا على البصرة ، ولكن العرب لم ينخدعوا بكذب الاتحاديين هذه المرة فقاموا بمظاهرات عديدة فى الآستانة وطلبوا من الحكومة ان تعجل فى محاكمة عزيز بك وان يضاف الى المجلس العسكرى الذى يتولى أمر هذه المحاكمة لجنة من أركان الحرب وكبار الأمراء العسكريين الخبيرين بالشئون الحربية . فلم تفعل شيئا من ذلك وألفت المجلس العسكرى من بعض صنائع أنور باشا وعبيده وبعض الذين لا يخالفون له أمرا .

وقد بدأت المحاكمة فعلا يوم الأربعاء فى أول نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٩١٤ بحضور الشهود سليمان بك العسكرى ورمزى المهداوى وضيا أفندى والملازم نور الدين أفندى ورشيد أفندى وفيما يلى ملخص

التهم التى وجهت الى عزيز بك وخلاصة أقوال الشهود كما وردت فى محضر الجلسة الرسمى .

قال سليمان العسكرى :

« ان فكرة عزيز بك تناقض المصلحة العثمانية ، فقد سعي وهو فى طرابلس الغرب فى بعث الفكرة العربية بين الأهلين وفى انشاء دولة عربية مستقلة يتولى هو ادارة شؤونها وكاد ينجح فى سعيه لولا معاكستى أنا وبعض الضباط الأتراك له » .

وقال رمزى أفندى :

« ان عزيز بك اجتمع بالايطاليين أثناء الحرب اجتماعا مهما ، ولكنى لا أعرف ما دار بينهم من الكلام » .

وقال ضيا أفندى :

« ان عزيز بك عدو للأتراك عموما وعدو لأنور باشا خصوصا ، فهو خائن للدولة التركية » .

وقال نور الدين أفندى :

« ان عزيز بك اتفق مع الامام يحيى على نهج خطة واحدة الغرض منها ضم اليمن الى مصر ، وكان يسعى وهو فى بنغازى الى تنفيذ هذه الفكرة وجعل بنغازى واليمن دولة عربية واحدة » .

وقال رشيد أفندى :

« ان عزيز بك أعرب عن سروره أمامى لما أصاب المسلمين فى البلقان » .

وفى ٤ نيسان – ابريل – عقدت جلسة ثانية لسماع شهادة العبد الماس (الذى قبض عليه فى السودان فى عام ١٩١٣) وشخص آخر يدعى قاسم كان قهوجيا عند عزيز بك فى برقة ، فقال العبد الماس : « سمعت فى برقة أن عزيز بك استلم من الايطاليين مبلغا من المال لا يقل عن ١٥ ألف ليرة مقابل تسليمهم البلاد » .

هذه هى التهم التى وجهها الاتحاديون الى بطل برقة ، وهذه خلاصة أقوال الشهود الذين شهدوا عليه .

وقد كان قصد الاتحاديين أن يعدموه بلا محاكمـة ، ولكن اهتمام الرأى العام العربى به اضطرهم الى العدول عن ذلك • ولما انتهت المحاكمه ورأوا ان هياج العرب لم يخمد بل كان يزداد شدة يوما فيومـا قرروا اغتياله فى السجن فبلغ الخبر زعماء العرب من أحد المصادر الاتحاديـه فى الآستانه ، فاجتمعوا وتداولوا فى الأمر ، ثم عرضـوا المسأله على الصدر الاعظم والمارشال فون سندرس باشا وعلى سفراء الدول العظمى طالبين منهم باسم العدل والقانون منع الاتحاديين من اقتراف جريمتهم الفظيعة ، وكانت بريطانيا العظمى قد اهتمت اهتماما خاصا بمسألـه عزيز بك على وفاوضتهم مرارا بشأنه واقنعتهم ببراءته ووجوب اطلاق سراحه فلم يمكن الاتحاديين الا اجابة هـذا الطلب ، لا سيما بعد ان أدركوا ان اعدامه يؤدى الى ثورة عظيمة فى البلاد العربية •

وبديهى ان محاكمة عزيز بك لم تكن قانونية على الاطلاق لأن التهم التى عزوها اليه تهم صبيانية مختلقة ، ولأنها اما ان تكون قد وقعت قبل معاهدة لوزان وابرام الصلح مع ايطاليا أو بعدهما • فان كانت قبلهما كان الواجب على أنور باشا القائد العام حينئذ ان يحاكمه عليها • وان كانت بعدهما فلا شأن للحكومة العثمانية فى التعرض لـه بسببها لان البلاد أصبحت بعد الصلح أما عربية أو ايطالية وخرجت عن السلطـه العثمانية • فان حسبها الاتحاديون عربية فان عزيز بك كان أميرا مستقلا فيها ولا صلة له بحكومة الآستانة وان حسبوها أيطالية فكان من الواجب تسليمه الى حكومة ايطاليا التى يحق لها محاكمته دون سواها •

وقد استعفى عزيز بك من الجيش العثمانى فى ٢٠ كانون الثانى سنة ١٩١٤ ؛ أى قبل سجنه بخمسـة عشر يومـا ؛ وهذه ترجمـة استعفائه :

الى وزارة الحربية الجليلة

« لقد تركت الجيش العثمانى من هذا التاريخ ولكن حياتى العسكرية الماضية لا تزال تربطنى به برباط متين لا تقوى الأيام على فصمه فاذا شبت حرب واحتاج الوطن الى أبنائه فلتطلبنى وزارة الحربية الجليلة من القومسيرية العثمانيـة بمصر محـل اقامتى على ان تعين لى الفرقة التى أقودها » •

الامضاء : عزيز علـى

هذا ·· ويضيف الأستاذ أبو النصر في دراساته عن الحرب العالمية الأولى الى كل ذلك الذى مضى قائلا : « كان هذا جزاء عزيز بك على خدمته الباهرة للوطن العثماني فان حياته قبل الدستور وبعده كانت حياة جهاد دائم في سبيل الحرية · وكانت صلاته بجمعية الاتحاد والترقى قوية متينه بل كان يدها اليمنى في مكدونية حيث أعلن الدستور قبل ان أعلنه نيازي ببضع عشرة ساعة ، وقد اعترفت له جمعية الاتحاد والترقى بخدمته العظيمة وأحلته موضعه من الاحترام والاكرام · ولكنه انفصل عنها بعد اعلان الدستور لاعتقاده ان سياسة تتريك العناصر التى اتبعتها لا يحمد منتهاها فنصح لرفقائه الأتراك بأن ينيلوا العناصر العثمانية حقوقها ويمهدوا السبيل الى ارتقائها بلا فرق ولا تمييز وان كان لهم عنها مشاكل وشواغل لا يخلصون منها فانكروا عليه نصحه واتهموه بالمروق والخيانة وقالوا انه يبث الفكرة العربية في الجيش العثماني وجعلوا يفسدون عليه طرقه ويقيمون العثرات في سبيله · واغتنم عزيز بك فرصة اقامته في الآستانة سنة ١٩١١ فاستدعى فريقا من العثمانيين وأصحاب الرأى السديد الى منزله وقال :

« ان اتفاق العناصر العثمانية أمر لا بد منه لاعلاء شأن الدولة » وعرض عليهم آراءه التى استحسنوها الا واحدا رومى الأصل قربته منافعه الى الترك فتزلف اليهم وكان في الحقيقة أبعد الناس عنهم · وكانت معارضة هذا الرجل سببا في القاء النفور بين عزيز بك وجمعية الاتحاد والترقى وبالتالى بين الفكرتين العربية والتركية ·

ولما شبت نار الثورة في اليمن وانكسرت العساكر العثمانية في معركة جيزان بالعسير ، وفقدت أكثر من ثمانية وعشرين مقاتل بين ضابط وجندى بالجوع والحرب وانقطعت عنهم المؤونة والذخيرة بسبب الحرب الطرابلسية رأى عزيز بصائب رأيه ان يصالح سيادة الامام يحيى فعقد معه صلحا حسنا كان موفقا للدولة فشق عمله هذا على فريق من حساده ومبغضيه واتهموه بالمروق في الوطنية بحجة أنه قدم مصلحة العرب على مصلحة الدولة العثمانية ·

ثم دفعته وطنيته الصادقة الى طرابلس الغرب حيث تمكن على قلة جنوده ونفاد يده من المال أن يوقف الايطاليين على الساحل زمنا طويلا · وقد شهد له اعداؤه بالبسالة والمقدرة والتفوق في ميادين القتال ، وكانت معركة ١٦ تموز التى انتصر فيها من أعظم المعارك من الوجهة الحربية » ·

***

ومنذ ان بدأت أسجل ـ على طريقتى الخاصة ـ أحداث التاريخ المصرى التى لم تلق ـ بعد ـ حظها من الرعاية والاهتمام · ومنذ أن بدأت ـ وفقا

لمنهجي الخاص ـ في الكتابة عن بعض الشخصيات المصرية التي حبسل لأسباب عديدة لا مجال هنا لذكرها قول كلمة الحق فيها وأنا أحرص على أن يكون ثمة حوار جاد بيني وبين القراء ·· فأنا لا استطيع أن أصـــل الى كل قارىء والى كل قارئة عن غير طريق هذا الحوار ·

وقد أفادني هذا الحوار الى حد كبير ، خاصة مع من اختلف وأياهم في الرأى وأصبحت كتبي الصحفية والتاريخيــة والانسانية تتميز ـ وهذا من نعمة الله ورضــــاء القراء ـ بأنها تضم بين دفاتها الرأى والرأى الآخر · من يؤيدني في وجهة نظرى ومن يعارضني ·

وفي سنوات ماقبل الثورة التي أرخت لها لم أشطب كلمة واحدة جاءتني من قارىء حتى ولو كانت تحمل سبا وقذفا ·

ولذلك قيل ان الشعب ـ في كتبي التاريخية ـ هو الذى يشارك في صنع تاريخه وفي كتابته أيضــــا ·

وقد أشركت القراء في كل ما نشرته عن عزيز على المصرى من مقالات ودراســــات ·

وقد كان من بين ما تلقيته من رسائل ـ أفردت لها مكانا بارزا في هذا الكتاب ـ رسالة من المواطن العربي محمد أيوب فخرى خيف ـ عمان ـ الأردن ـ صندوق بريد ٦٥٠٥ جاءت تعليقا على مقال نشرته بالمصور في ٢١ يوليو ١٩٧٢ تحت عنوان « عزيز على المصرى في ذكراه السابعة ٨٥ عاما في كفاح مستمر » وكنت قد ذكرت في مقدمة المقال ما سمعته في العراق من أسرة عزيز على المصرى ليست ـ كما كنا نعتقد قبلا ـ قوقازية وانما هي عراقية بحتة ومن مدينة البصرة بالذات وتحمل اسم « عرفات » وكانت تمتهن التجارة · وقد تزوج أحد أفرادها بعد أن نزح الى القوقاز من هناك وأنجب ابنا اسمه « على » انتقل الى تركيا ثم الى مصر وقد أيد هــذه التصريحات اللواء الركن المتقاعد ابراهيم الراوى · وكان رد الأخ محمد أيوب فخرى ـ وسوف أنشر رسالته كاملة في مكانها من الكتاب ـ أننا هنا ـ في الأردن ـ نعتز بالزعيم الراحــل عزيز على المصرى اعتزازكم به وربما أكثر : اخواني الشراكسة في الأردن ممن أطلعوا على المقال قد ساءهم ان ينقلب أصل رائد الوطنية في مصر المغفور له عزيز على المصرى بسهولة وبجرة قلم الى أصــل عراقي اســتنادا الى رواية شــخص كان لواء في الجـيش وكان ياورا لعزيز المـصرى ولم يكن عمله أو ليس عمله البحث والتاريخ مع أن هذا القول اذا كان صحيحا يجب أن يستند الى دراســـة

واقعية مترويه عقلانية لا الى مجرد عاطفة ونزعة قبلية دفينة أو تعصب أعمى ».و « يلطشني »،الأخ الشقيق على الماشي عندما يقول لى : ومن قبلك مع الأسف حاول مخرج مصرى لفيلم مصرى ان يجعل من صلاح الدين الأيوبى الكردى الاصل عربيا من قريش . فقال يومئذ قائل من الأردن : بما أنه هان على الأمة العربية تاريخها فقد هانت على التاريخ « وانى أجدنى اليوم مع الأسف أكرر هذا القول : اذا كنت تكتب لتسلية القراء أو لتعزيتهم فمرحبا بك . واذا كنت تكتب للتاريخ ولتنير الدرب للجيل الصاعد فليس هذا هو الأسلوب الصحيح » ورغم قسوة الرسالة وصاحبها على الا أننى فرحت بها للغاية ورضيت عن نفسى إذ سمحت فى اثارة هذا الشقيق الذى أفادنا الى حد كبير فى مدنا بكثير من المعلومات القيمة عن أسرة عزيز على ، أسرة شاهلبة التى هاجرت من القوقاز بعد أن تحور الاسم قليلا ليسهل نطقه وكتابته باللغة العربية ، ومعنى لقب شاهلبة : الرأس الثمين أو الفعل الثمين .

ويعطينى الأخ محمد أيوب حيف درسا عندما يقول : اننا نشعر — مع الأسف — ان اخواننا المصريين يعانون من عقدة ورثوها منذ زمن المماليك الشراكسة تلاحقهم وتؤرقهم .. الخ تلك الرسالة العنيفة والمقيدة الى حد كبير بعيد !!

من الوثائق التاريخية ذات الأهمية التاريخية . رسالة من عزيز على المصرى الى الزعيم الطرابلسى السيد سليمان البارونى جاء فيها : العيص (أمام بنى غازى) ٧ تشرين ثانى ١٣٢٨ (٢ نوفمبر ١٩١٢ : بسم الله الرحمن الرحيم : الى حضرة الفاضل الشهم الشيخ سليمان البارونى بك ، وفقنا واياه الله الى اعلاء الدين والوطن آمين : كانت العرب من الجاهلية شعبا يحارب بعضه بعضا ، الى ان من عليهم الله بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم فاجتمع المشرق والمغرب تحت طاعة العرب ودولتا الفرس والرومان فى كفتى ميزان عدلها والعرب كانوا حفاة والفرس كانوا سادة الشرق والرومان سادة الغرب بأسره .

الى ان يقول عزيز على المصرى — وأنا أنقل بالنص بعض أجزاء رسالة : وفق الله الدين والشرق بالعرب ونزل القرآن بلسانهم لانهم أقدر من غيرهم على المحافظة عليه وقال لهم سيدهم (اليد العليا خير من اليد السفلى) فحكموا وسادوا .

ثم مضى جيل أو جيلان والعرب فى ارتقاء دائم الى ان داهمهم الكسل فألهاهم عن الجديات فابتدأ دور الحسد والنفاق ومنه حدث الشقاق فتفرق الشمل ، حتى الطرق والمذاهب تشعبت مع ان الدين واحد ومع

ان النبى لم يعلم الا مذهبا واحدا وهو المذهب القرآنى ولم يزل المنتسبون للاسلام فى اضمحلال لجهلهم أمور دينهم الى ان ظهر شبان هذا العصر فاقتربوا بما وصلوا اليه من التعليم الى الصواب وباشروا فى استنهاض الهمم والنصارى لايرون لهم ذلك اذ مكسبهم هو فى اختلاف الطوائف الاسلامية فبهذا الاختلاف فتحوا السودان بمصر ومراكش والوادى بالسنغال وغير ذلك .. والمثل الذى نحن فيه هو أكبر الأمثال فان الطليان لم يقدروا على أقل القبائل أهمية فى الحرب وها قد دخلنا فى السنة الثانية من الحرب وحدود العدو لم تزل منزل الأول ودخولهم فى مصراطة لم يكن الا بواسطة ابن المنتصر ، فان شئنا فمن الممكن اقامة الاستقلال وهمة الانسان ليس أمامها محال وثباتنا سيجلب قلوب الأمم الاسلامية واعانتها ، وكم من أمم وقعت فى شر مما نحن فيه ونجت وعلت بالثبات .

فأرجوكم ان تؤسسوا المخابرة بيننا ولا تيأسوا من بعض الخائفين فينا فبعد وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) ارتد أكثر المسلمين عن الدين ، ولكن ثبات أبو بكر أعاد الأشياء الى أصلها وزادها من التمكين وتسليمنا للعدو حقارة عظمى للجنس العربى فيقولون هذا الجنس لا يصلح لأن يحكم نفسه ، يخرج من حكم سيد ليدخل تحت سيطرة سيد آخر والأجداد هم القائلون .

أنـا لقـوم لاتوسـط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

والجاهلون يتعادون من اختلاف المذاهب ومثلكم من يفهم روح الدين . أرجوكم منع الشقاق . فالعرب كالماس لا يؤثر فيه الا جنسه ، وتكفينا التجارب ، حاربنا بعضنا بعضا وكسرنا بعضنا بعضا خدمة للأجانب وأعداء الدين . وما سمعناه عنكم دفعنا مثلا الى ارسال تلغرافنا المثمر اليكم ، واليوم نرسل هذا حرصا على الجنس والدين ، وحاملها سلامة بك ، صديقنا ومعتمدنا عرفناه بكل ما يلزم : يوفقنا الله ويهدينا الى الطريق المستقيم :

قائد جيش المجاهدين وخادم المسلمين ..

عزيز المصرى

***

فى أحيان كثيرة ينتج الشر خيرا ، واذا كانت قضية عزيز على المصرى الأولى ، ومحاكمته فى الاستانة والحكم عليه بالاعدام ثم العفو عنه قد أثارت الجماهير العربية من أقصى مشارق الأمة العربية الى أقصى

مغاربها ، فقد خلفت تلك القضية فريدة من فرائد شوقي قالها مخاطبا السلطان :

شعري اذا جبت البحار ثلاثة — وحواك ظل في « فروق » ظليل
تداولتك عصابة عربية — بين المآذن والقلاع تزول
وبلغت من باب الخلافة سدة — لسفورها التمسيح والتقبيل
تلك الخطوب وقد حملتم شطرها — ناء الفرات بشطرها والنيل
قل للامام محمد ولآله — صبر العظام على العظيم جميل
ان تقعدوا الآساد من اشبالها — فالغاب من أمثالها مأهول
صبرا فأجر المسلمين وأجركم — عند الاله وانه لجزيل

***

والله يعلم ان في خلفائه — عدلا يقيم الملك حين يميل
والعدل يرفع للممالك حائطا — لا الجيش يرفعه ولا الأسطول
هذا مقام انت فيه محمد — والرفق عند محمد مأمول
بالله بالاسلام بالجرح الذي — ما انفك في جنب الهلال يسيل
الا حللت عن السجين وثاقه — ان الوثاق على الأسود ثقيل
ويقول واش ، أو يردد شامت — صنديد برقة موثق مكبول
هو من سيوفك اغمدوه لريبة — ماكان يغمد سيفك المسلول
فاذكر أمير المؤمنين بلاءه — واستبقه ان السيوف قليل

ويقول بعض الرواة – والعهدة عليهم – ان السلطان محمد رشاد ما كاد يطلع على ترجمة باللغة التركية لقصيدة أحمد شوقي حتى تأثر بها ٠

وكان تأثره لوفاء الشاعر لصديقه السجين ، كما كان لروعة معاني القصيدة ما جعل السلطان محمد رشاد يبادر باصدار عفوه السلطاني عن عزيز على المصري ٠ وهكذا نجح الشعر – بعد دنشواي – في ان يكون صوت الشعب الصادق وترجمانه الناطق ٠٠

***

ومن الآراء التي عثرت عليها في موضوع عودة عزيز على المصري من ميدان القتال ببرقة وطرابلس ٠٠ رأى للزعيم محمد فريد كان جديدا بالنسبة لي ٠

وقد جاء في هذا الرأى : ٢٧ يوليو ١٩١٣ : الأخبــار الموثوق بها التى وردت لى اليـــوم ان الخديو كانت له اليد الطولى فى التفريق بين عزيز بك المصرى والشيخ السنوسى .

وتفصيله ان الايطاليين استنصحوه فيما يفعلونه فى برقة وطلبوا منه المساعدة مقابل تسهيل مشترى سكة حديد مربوط منه . فقال لهم : ان أحسن طريقة هى مخــابرة كل من عزيز بك ، والشيخ السنوسى بشأن الصلح على حدة أى بشرط ان لا يعلم أحدهما بما يجرى مع الآخر ، حتى اذا علما فيما بعد بأن كلا منهما يخابر الطليان على غرة من الآخر يفقد الثقة فيه .

وبذلك يزول اتفاقهما وهو المطلوب فوافقوه على هذا الرأى وهو مكلف بتنفيذ بعضه .

فأوفد من مصر حسن بك حماد ومعه محام ســـورى درزى من رجــال الشيخ على يوسف ومن جواسيس المعية من سنين ، الى عزيز بك المصرى ومعه ستة آلاف جنيه مصرى بصفة اعانة مالية اســلامية وأخذ ينصحه بترك برقه مع من معه من العساكر النظامية لعدم الفائدة من استمرار الحرب بعد عقد الصلح مع الدولة العلية .

وأنه اذا كان يريد الاشتغال بمسألة استقلال العرب وتأليف سلطة وخلافة عربية فالأحسن ان ينسحب الى بيروت وهى الآن خالية من الجند بسبب حرب البلقان وهناك يمكنه اعلان استقلال سورية ، مع من معه من العساكر النظامية وفرنسا وانجلترا بمســاعداته على ان يكون أميرا مستقلا بجانب العــرب ، الى غير ذلك مما جــاء فى التقرير ، ولما كان عزيز بك هذا يشتغل منذ مدة بالمسألة العربية أصغى الى هذه الوساوس وأخذ يناوىء الشيخ السنوسى فجلد أخاه (هلالى) وأراد قتله بدعوى أنه يخابر الطليان وهو شاب لا يبلغ الخامسة عشرة من عمره فاغتاظ الشيخ وقال لعزيز بك : الأحسن بأن ينسحب هو وجنوده . فانسحب وهاجم العرب فى الطريق وقتلوا من رجاله ضابطا ونحو أربعين عسكريا وبذلك (خلا) جيش السنوسى من الضباط والنظام العسكرى وسهل على الطليان فتح بلاده ، وهذا من فعل وخيانة عباس حلمى خديو مصر » .

ويذكر محمد فريد بأن مصدر معلوماته : القاضى يحيى بك صدقى لأنه سافر الى السلوم عند وصول عزيز بك ورفاقه بدعوى ان له أقارب بين ضباطه وهو الذى نقل التفصيلات الى هنا بجنيف مشافهة » .

ويقول محمد فريد بك عن عزيز على المصرى : أما عزيز بك المصرى فهو عبد العزيز على ، ولد بمصر من أبوين شركسيين وتعلم بمصر حتى حصل على الدراسة الثانوية ودخل مدرسة الحقوق المصرية ، ثم لسبب لم أقف عليه سافر الى الاستانة ودخل المدارس الحربيــة ، ونجح فيهـا وامتاز فى الجيش العثمانى فى الحروب التى أقامها الرجعيون ضد أنصار الحرية بعد الدستور فى بلاد الارناؤود وفى بلاد اليمن وهناك كان له عمل يشكر عليه مع عزت باشا القائد العام هناك اذ ذاك ـ ناظر الحربية الآن وقائد الجيوش المحاربة للبلغار ـ فى الصلح مع الامام يحيى .

ولما نشبت حرب الطليان فى طرابلس ســـافر اليها مع أنور بك وكثير من الضباط . أما سياسته فكان ولم يزل اتحاديا .

ولكنه يفكر دائما فى مسألة تأليف سلطنة أو خلافة عثمانية بدعوى أن العنصر التركى فقد كل صفاته القديمة والحربيــة والسياسية وأنه لا « يخرج الاسلام » من حالته السيئة الا « بالاعتماد على العنصر » العربى .

وقد أتى الى مصر فى شهر رمضان الذى عقب اعلان الدستور فى الاستانة سنة ١٩٠٨ ، واجتمع بى وببعض أعضاء اللجنة الادارية مرة بمنزلى فى شبرا وأخرى بمنزل أحمد بك لطفى المحامى .

وكان معنا ـ على ما أذكر ـ محمــــود بك فهمى والشيخ جاويش وطلب منا الانضمام لجمعيتهم المسماه « جمعية شبان العرب » .

وبعد مناقشة طويلة رفضنا الاشتراك فى عمله بعد أن بينا له ضرر الانقصــــام بين عنصرى الدولة ولكن يظهر أنه أسس بمصر شـــعبة لهذه الجمعية .

★★★

ويقول الأستاذ أنيس صايغ عند كلامه على اتصال الانكليز بالقيادات العربية ـ فى مطلع الحرب العالمية الأولى ـ للثورة ضد الحكام الأتراك : حصر المسئولون الانجليز اتصالاتهم بزعماء الحركة الوطنية ، وكان معظمهم اما من ضباط الجيش أو من المثقفين الشـــــبان أو من الأثرياء الوجهاء أصحاب النفوذ الواسع . وكان ذلك عكس ما حصل فى العام ١٨٤٠ لما أثار الانجليز السوريين ضد الحكم المصرى . اتصلوا آنذاك بالأوساط الشعبية نفسها وتوددوا اليها واستعملوا كل وسيلة واغراء لاثارتها . لم يخافوا من رد فعل شعبى ضدهم لأنهم لم يكونوا يفكرون باحتلال سورية . أما فى العام ١٩١٦ فقد اختلفت الأوضاع . كانت

نيتهم احتلال البلاد العربية احتـــلالا مباشرا من بعد طرد العثمانيين • لذلك انحصر الاتصال بجماعة محدودة من العسكريين والسياسيين ممن سهل على الانجليز ، فيما بعد اســتمالة معظمهم الى جانب الاحتــــلال أو الانتداب • مكن ذلك الاجــــراء الانجليز من تنفيذ مخططهم الذى لم يخشوا عليه الا من وعى الشعب القومى •

ثم يقول : انحصر الاتصال ، مقابل عزل الشعب هذا ، بنفر من قادة الحركة الوطنية من الهاربين الى مصر ، وكانت الحكومة البريطانية تطلع على نشاطهم وتعرف أخبارهم ، وكانت العلاقات بينها وبين الأحزاب العربية « ودية » •

لم يكن موقف الوطنيين العرب مشـــجعا فى بادىء الأمر • أبدى معظمهم تمنعا وتصلبا أمام الاغراءات البريطانيـــة • وقد حرضـــهم عزيز المصرى على ذلك وتزعمهم ، وهو المناضل الذى لم تنطل عليه الحيل الأجنبية فقد خشى ان يؤدى التسرع فى موالاة الحلفـاء والثـــورة على الأتراك الى ايجاد فراغ يسده الانجليز قبل أن تسـده الحركة العربية ذاتها • وخشى ان ينزلق العرب بواسطة القيمين على شئونهم السياسية ، الى أحضان الامبراطورية دون ان يدركوا ماذا يفعلون ، بسبب عدائهم الشديد للأتراك ، وخشى ان تكون الثورة ابدال مستعمر بآخر •

أوعز المصرى الى أعوانه فى حزب العهد ، فى سورية والعراق ومصر بأن يتصلبوا أمام المفاوضين الانجليز ، والا يتعهدوا لهم بشىء مالم يحصلوا على وعد أكيد بأن يستقل العرب فى آسية ويتحدوا اسـتقلالا ووحدة كاملين • وأصدر تعليماته بهذا الخصوص أثر وصوله الى القاهرة بعد ان أفرج الأتراك عنه وأعيد الى القاهرة تحت نقمة الرأى العربى العام على اعتقاله وتدخل الانجليز وقد ظن الانجليز أن التدخـــل لصالحه قد يفيد فى استمالته • وظهر لهم بعد أشهر ان الرجل لا يساوم على أهداف الحركة التى كان من مؤسسيها •

بدأ الانجليز يجسون نبض المصرى ورفاقه فى أواخـــر ١٩١٤ بواسطة الخبيرين البريطانيين بالشئون العربيــة ، ستورز وكليتن • وأصر المفاوضون العرب على أن تتعهد الحـــكومة البريطانية رسميا بأن لا مطمع لها فى أى قطر عربى وانها لاتمانع فى استقلال العرب واتحادهم ان وقف العرب الى جانبها فى الحرب ، كمــا طالبـــوا بألا يشترك فى العمليات الحربية جنود فرنسيين فى الجبهة السورية ولا جنود بريطانيين فى الجبهة العراقية •

وقد أراد المصرى من هذا التحفظ ان يقطع الطـريق على ما توقع حصوله من مؤامرات • وعوضا عن الجنود الانجليز والفرنسيين ، تعهد المصرى بأن يؤلب أحرارا سورية والعراق ويجندهم للقضية بالاتفاق مع الزعماء الوطنيين فى البلدين • زعم المفاوضان الانجليزيان أنهما يوافقان على هذه المطالب ، وأخذ المصرى يستعد للفرار الى العراق ليحضر للثورة من هناك الى ان اذيع خبر نزول القوات البريطانية فى البصرة • ومع أن رجال السياسة البريطانية فى مصر ادعوا أنهم كانوا يجهلون الأمر ، قرر المصرى وبعض أصحابه مقاطعة المفاوضـــات مع الانجليز ، وأخذوا يترقبــون الأحداث من بعيد ، خاصة ان اعلان « الحماية » على مصر زاد فى فضح النيات البريطانية •

غير أن أغلبيــة الوطنيين السوريين فى مصر رأت تحذيرات المصرى مبالغة فى التشاؤم واعتبرت موقفه موقفا سلبيا أكثر من اللزوم • وخرج أفرادها عن نصيحته وتابعوا اتصـــالاتهم مع المسئولين الانجليز متأملين التوصل الى حل وسط يرضى الانجليز ولا يتنكر للأهداف العربيـــة • وكان هؤلاء ممن استضافهم الانجليز عند لجوئهم الى مصر هاربين من جور الأتراك وكان عداؤهم للحكم التركى يحجب عن أنظارهم مخاطر التسرع بالاتفاق مع أعداء الأتراك •

وحينما اخذ عزيز المصرى يعد رسائله الى رجال حزبى العهد والفتاة فى سورية ، يشير فيها عليهم بالتمهل قبل اتخاذ أى موقف حاسم ، كان رجـال الحركة الوطنيـــة فى سورية ، من مختلف الأحزاب ، قد بدأوا بالاتصال بالشريف حسين وأرسلوا أحد وجهائهـــم ، فوزى البكرى ، ليعرض على أمير مكة فكرة الثورة على الأتراك ، بعد أن كانوا قد فشلوا فى مباحثاتهم مع أمراء آخرين فى شبه الجزيرة • وكانت تلك المباحثات قد بدأت أثر صدور الحكم باعدام عزيز المصرى • فخشى الأحرار ان يستمر الأتراك فى تعقب المناضلين العــرب • وقرروا ان يثـوروا قبل ان يفوت الأوان • فاتصلوا بابن سعود ، وسلطان مسقط ، وعلى حيدر • ولكن محاولاتهم باءت بالفشل •

وقبل ان تصل توجيهات عزيز المصرى الى زعماء سورية كان موفدهم الى الحسين قد وصل الحجاز فى يناير ١٩١٥ وبدأ مباحثـــاته ، غير ان الحسين لم يلب الدعوة ولم يشجع الفكرة • ورفض ان يجيب الطلبات وكانت رســـائل ســـتورز ، وكتشنر قد بدأت تـرد عليـــه •• ووجد ان القضية جدية أن كلا الطرفين يدعوه لاتخاذ موقف حاســـم فقرر ازاء ارتباكه ان يرسل ثالث أنجاله الى دمشق والاستانة ليدرس

الموضـــوع فيهما من ناحيتيه المتناقضتين وليطلع على وجهتي النظر العربية والتركية ٠

ثم يلخص الأستاذ أنيس الصايغ الاتصالات البريطانية بقوله : ان الانجليز فعلوا جهدهم للحصول على تأييد الحسين دون أن يتنازلوا عن مصالحهم فى المنطقة ، بل انهم فعلوا ذلك لحماية مصالحهم ٠ وأخذوا الى جانب اتصالاتهم مع الحسين ، يضغطون على أحرار العرب فى مصر ، وجلهم من السوريين ، ليتفاهموا معه ومعهم وليتفقوا على الثورة ٠ وواجه كل من ستورز وكليتون وماكماهون وكولوكس صعوبة فى اقناع عدد من هؤلاء المناضلين ممن لم يبرأوا من شكوكهم بالحسين والانجليز ، من أصدقاء عزيز المصرى أو زملائه فى حزب العهد وبينهم أسعد داغر وعبد الرحمن شهبندر ومحمد شريف الفاروقى ٠ وقد دعا هؤلاء الى مساعدة العراقيين والسوريين ليثوروا على الأتراك دون فرض ثورة معينة عليهم من خارج البلدين قيادتهم الاسمية فى أيدى عائلة لا تشترك بالجهاد قبلا ، وقيادتها الفعلية فى أيدى الطامعين بالبلدين طمعا مفضوحا ٠

هنا يظهر نوري السعيد على مسرح الأحداث من باب مجهول ليقوم بدور رئيسى ٠ كان ذلك الضابط العراقى فى ذلك الحين عضوا فى حزب العهد السورى ، وواحدا من عشرات الضباط العرب الناقمين على الأتراك٠ وكان عضوا عاملا فى معظم المشاريع التى قام بهـــا الضباط لتحقيق المطالب القومية ٠

وما ان أذيع نبأ اعتقال عزيز على المصرى ، مؤسس العهد ورئيسه ، حتى هرب السعيد الى العــراق ، ونزل فى حمى طالب النقيب ٠ وأخذ يتصل بأمراء شبه الجزيرة من البصرة يطلب تأييدهم للنضال العربى ولابد أن عاملا ما دعا السلطات البريطانية الى الوثوق به والتعاون معــه بالرغم من قيام المسئولين فى الهند باعتقال وطنى البصرة أواخر ١٩١٤ ٠ فبينما نفى طالب النقيب الى ســـيلان خوفا من ميوله التحررية تـرك نورى السعيد حرا وسمح له بمزاولة نشاطه الســياسى ، ثم استضافه الانجليز فى الهند عدة أسابيع ضيفا مكرما الى ان حملته احدى سفنهم الحربيــة الى مصر حيث أقام عدة أشهر برغد وبحبوحة ينفق المال على أصحابه المناضلين السوريين والعراقيين بسعة ٠

وســوف نعود بطبيعة الحال الى تكملة وجهة نظر الأستاذ أنيس صايغ فى الفصل الخاص بنشاط عزيز على المصرى فى أوائــل الحرب العالمية الأولى ٠

★★★

من بين مالفت نظرى فى كتـابات عزيز على المصرى عن رحلته الى ايران والعراق وسورية ٠٠ ومما يدل على فكر عزيز على المصرى الثورى الذى لم يهدأ قوله : تلك هى خـواص من خصـــائص الأمة الايرانيـة أظهرناها فى الاستعراض التاريخى المتقدم : بعد كل كبـوة يتحطم فيها الفاصل والوجه تحطما ، أرى الجواد الايرانى المهشـم قد قفز الى الهواء بقوة وخفــة وعظمـة وجـلال ، من قوة الشعب كانت تســتحدث تلك القفزات ومن خـور الشـعب أيضـــا كانت الكبـوات ، ذلك لأن الأمة الايرانيـة كانت دائمـا أمة ملوك ٠ ويشـــير المصرى الى تلك العبـــارة العجيبة « صـــار التاريخ فراغا والعرش أصـــبح خاليـــا ومرت عصـــور كان ملوك ايران ما كانوا.» فالأبهة والعظمة والاحتفالات لهـا سـلطان عظيـم على روح الأمة الايرانيـــة ، وهذا السلطـان جعل فيها كثيرا من التسامح مع استبداد الملوك ، والتســـامح مقـدمة الاستعباد : الملوك المؤسسون الذين نشأوا من قوة الشعب بقوا مسلحين بهذه القوة الى آخر أيام ملكهم فكانت أيامهـم مجيـدة ولكن أولادهم ــ الا النادر ممن شملتهم الطبيعة بعطفها ــ فقد نشأوا مطلقى الحكم فى قصور وحدائق ، بين خدم وحشم وعظمة وجلال وخلق وتفان ، وذلك مستنقع مملوء بجرائم الأنانيـة والترب والجهل والظلم والاستبداد ، تذبل حوله القوة ، وتنطفىء الحياة ٠ ربما أرى ان اشتراك الأمة اليوم فى الحكم قد يكون فيه الدواء لهذا الخور فى الروح الايرانية ٠٠

ما حـك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميـــع امـــرك

وتذكرنى مقالات الرحالة عزيز على المصرى ، بمقالات أخرى لم أسمع عنها الا من خلال حديث لعزيز على المصرى وهو يروى كيف كان يكتب تلك المقالات على النحو التالى :

« وكنت فيما مضى أكتب المقالات محترفا ، للصحف الأمريكية ٠٠ فكانت زوجتى تغلق على الباب وتخرج وهى تقول لى : لن أفتح لك الباب حتى أتسلم ١٦ ورقة (فولسكاب) مكتوبة من تحت عقب الباب ٠٠٠ !! وكنت أكتب وأواصل الكتابة ، ثم ألقى بالورق لزوجتى من تحت عقب الباب حتى اذا أتممت مقالى ، فتحت لى لنقضى سهرة ممتعة ٠٠٠

وكنت أعتبر المشى مع زوجتى من القاهرة الى حلوان يوميا ، رياضة بسيطة واجبة ! فكنت أحمل (زادى) على ظهرى وزوجتى معى ، ثم نسير حتى حلوان ثم نقفل راجعين سيرا على الأقدام ! ٠٠٠

وكنت أقطن شقة صغيرة فى (جاردن سيتى) خالية من الأثاث الا من (كنبة) تتحول فى الليل الى سرير للنوم ٠ وكنت أدعو أصـدقائى

لتمضية السهرة عندى على ان يحضر كل صديق معه كرسيا و (ترابيزه) يحملهما معه آخر الليل عند عودته الى منزله ! ٠٠ انها أيام جميلة ذهبت ، ولا أظن أن الزمان يسمح بمثلها ٠ وكان الله فى عوننا على هذا الجو القاتم المظلم الذى نعيش فيه ٠٠٠

أما التقرير الذى سبق أن أشرت اليه والذى كتبه عزيز على المصرى مدير مدرسة البوليس المصرية الملكية عن زياراته لبعض مدارس البوليس والادارة فى ايطاليا وباريس ولندن وبرلين وجنوب بوتسدام ، وهى الزيارات التى قام بها فى صيف عام ١٩٣٢ ٠٠ هذا التقرير يصلح اليوم ان يكون مجالا للدراسة ذلك أن رؤية عزيز على المصرى فى سنة ١٩٣٢ لم تذهب بها الأيام فيما بعد لأنها كانت رؤية مستقبلية جدا ٠

وقد قدم عزيز على المصرى تصريره هذا الى رئيس الوزراء ووزير الداخلية اسماعيل صدقى ٠ وقد قال فى مقدمة التقرير انه لضيق الوقت لم يمر الا بروما وباريس ولندن وهامبورج وبرلين وأنه خصص معظم وقته لبرلين لأن نظم البوليس فى ألمانيا أحدث منها فى البلاد الأخرى ولأن التصريح بزيارة اسكوتلانديارد استلزم عشرة أيام فى لندن ، وأيضـــا لأن نظم البوليس الانجليزى والفرنســاوى معلوم عنها الشىء الكثير فى مصر ٠ وقد رأيت ــ عزيز على المصرى أن أضرب صفحا عما يشبه ما عندنا أو مما لا ينفعنا ، واقتصرت على عرض ما يهمنا أو قد تهمنا معرفته » ٠

وقد اقترح عزيز على المصرى فى نهاية تقريره ، أن يتخذ الكونوستابل أساسا للبوليس المصرى بدل عسكرى البوليس الحالى الذى اتفقت كل الجهات على عدم كفاءته وقلة لياقته لحالة مصر الحديثة خصوصا فى مدنها الكبرى ٠ ورأى ــ عزيز على المصرى ــ ان يجعل عدد الكونستبلات نصف عدد عساكر البوليس الحالى لأن متعلما واحدا أفضل بكثير من اثنين من الجهال على الأقل ، وفى هذه الحالة لا تتأثر الميزانية لأن مرتب اثنين من عساكر البوليس يساوى مرتب كونستابل واحد ٠

وقد حرصت على نشر التقرير الذى كتبه عزيز على المصرى بخط يده والتى لم تبل جدته كما يقولون ٠ والجدير بالذكر أن عزيز على المصرى قد أوجد ثورة فى مدرسة البوليس ٠ فلقد كان أول من أدخل المصــــارعة اليابانية فى المدرسة ، وقد استدعى المصارع اليابانى المشهور «ابساجورا» ولاعب الشيش الدولى فياندو للتدريس بصفة دائمة فى الكلية ، وهو عزيز على المصرى أول من أدخل نظام الكـلاب البوليسية فى مدرســة البوليس ، كما أنه ــ عزيز على المصرى ــ أول من أدخل الحمام الزاجل فى مدرسة البوليس ٠

وكان يدعو الطلبة الى العمل العام ، وينظم محاضرات يدعو لالقائها العديد من الأســاتذة أمثــال د · طه حسين ، ومصطفى عبد الرازق ود · منصــور فهمى ود · محجوب ثابت ، وعبد الرحمن عزام · وكان يمتحن الطلبة ـ شفهيا ـ فى المحاضرات التى تم القاؤها ·

وكان أول من دعا الطلبة ـ طلبة المدرسة ـ الى أهمية التشــجير ، وفتح أمامهم مجال تشجير منطقة المقطم · وكان يفرض على الطالب فى الأجازة السنوية عددا من الكتب التى يجب قراءتها ومعظمها كتب تاريخ وسياسة ، وكان يسأل الطلبة فى هذه الكتب ليتأكد من استفادتهم أو عدم استفادتهم منها ·

وكان أول من دعا الى تدعيم العلاقات بين طلبة مدرسة البوليس وجماهير الشعب ، بعد ان كانت جماهير الشعب لا ترى فى ضابط البوليس الا ذلك الذى يستخدم الهراوة أو المسدس فى تفريق المظاهرات ·

★★★

على أننى لم أكتف بكل ذلك رغم غزارته ووفرته وجدته ··· وانما سعيت الى منابع أخرى مستعينا بها لعلى أجد عندها معلومات جديدة ··· اتجهت مثــلا الى كثير من الجهات التى ولد وعاش فيهــا عزيز على أيامه الأولى ، تتبعته فى مدرسته الابتدائية ، وفى مدرسته الثانوية ، وفى شهور من دراساته العليا ـ فى مصر ـ التى لم تكتمل · وأشهد أننى وجدت الكثير من الحواجز التى حالت بينى وبين تحقيق ما أبتغيه وما أرتجيه ·

فى مقدمة تلك الحواجز ان عزيز على ـ أو عبد العزيز على ـ نفســه قد وضع العديد من الستائر السميكة حول فترة الطفولة التى لم تكن سعيدة بالنسبة اليه فيما بعد · أى كان باستمرار يمر عليها مرور الكرام دون أن يعطى عنها أية تفاصيل ·

وربما كانت لى وجهة نظر خاصة فى الموضوع تتلخص فى : أن ثمة خلافات أو اختلافات نشأت بين عزيز على وبين بعض أهله الذى عاونوه فى الصغر دفعته الى تجنب الحديث عن تلك الفترة حتى لا يشير الى هؤلاء الأهل من قريب أو بعيد ·

ثم تتبعته طالبا عسكريا فى الاستانة الى أن شب واصبح علامة بارزة فى العسكرية العثمانية الشابة التى كانت قد بدأت رغم صغر السن وقلة التجارب تفرض ارادتها فى بعض الأوقات على بعض المسئولين الكبار ·

وفى اليمن ـ بعد أن نضج وطار اسمه بين الخافقين ـ تتبعته مقاتلا

شجاعا ثم مفاوضــا بارعا نجح فى الحيلولة دون اراقة دماء العثمانيين واليمنيين وتوصل الى عقد صلح نموذجى بين امام اليمن وبين ممثلى جيش الترك فى اليمن ٠

ثم تتبعته منذ أن أصيب بالكوليرا فى اليمن حتى رحلته الى برقة وطرابلس وتعيينه قائدا لقوات غير نظامية مؤيدة ــ من بعيد ــ من الحكومة التركية التى كانت تخشى الدخول فى معارك علنية مع الحكومة الايطالية تلك التى كانت قد نزلت بقوات ضخمة فى برقة وطرابلس ٠

وحول الحرب فى برقة وطرابلس وعودة عزيز على المفاجئة من ميدان القتال ، توقفت طويلا وطويلا جـدا عند العديد من الروايات والوثائق والمذكرات بل والأشخاص الأحياء الذى شهدوا تلك الحرب ، واستطعت ــ دون مبالغة ــ أن تكون لى رؤية كاملة عن هذين الحدثين الكبيرين : القتال فى برقة وطرابلس والعودة المفاجئة من ميدان القتال للقائد عزيز على المصرى ٠

ثم أغرقت نفسى بحق فى أكوام الوثائق والمذكرات وأضابير الصحف القديمة المتهالكة التى يصعب تجميع بعض صفحاتها ٠ ومن حسن حظى أننى وجدت ضمن مخلفات الكاتب الصحفى القدير أمين الرافعى رئيس تحرير العلم ، والشعب ــ وقتئذ ــ بعض ما أشبع رغبتى الجارفة فى الحصول على أكبر قدر من المعلومات وربمـا كان من الأمور التى أوليتها اهتمامى ــ فيما بعد ــ القبض على عزيز على ومحاكمته فى الاستانة ٠٠٠ أننى لم أكتف بما جـاء الى القـاهرة من معلومات وانمـا نقلت نشاطى الى تركيا ــ وكان ذلك فيما أرى سبقا أعتز به ــ بغية الحصول على ملفات المحاكمة وشهادة الشهود ضد عزيز ، ومع عزيز ٠

وقد تراءى ان أخرج كل هذا ــ حرب برقة وطرابلس ، والخلاف بين عزيز ورفاقه فى الميدان ، والقبض على عزيز على ومحاكمته ، ثم العفو عنه وعودته الى القاهرة بعد ان ثار الشعب العربى فى كل مكان ــ وخاصة فى مصر ــ مطالبا بالافراج عنه ٠٠٠ تراءى ان أخرج ذلك كله فى كتاب مستقل ، ولكننى فى النهاية فضلت عدم تجزئة الكتـاب مهمـا امتدت صفحاته ٠

وظللت ــ فى صبر وتؤدة ــ أتتبع عزيز على فى مصر هاربا أو متهربا من العمل السياسى وفى الجزيرة العربية جنديا من جنود الثورة العربية ووزيرا لحربيتها ٠ ثم انتقلت معه بعد أن اختلف والحسين بن على الى مصر وأسبانيا بعد أن رفضت المانيا أن يدخلها فى زمن الحرب العالمية الأولى لأن بعض أعدائه من الأتراك أوغروا صدور الألمان ضده متهمين أياه بأنه انجليزى ضد الألمان ٠

ثم توقفت طويلا أمام الرحالة عزيز على المصرى الذى قضى شهورا فى بلاد العجم والعراق وسوريا ، وكيف أحال الرحالة تلك الرحلة الطويلة الى مقالات نشرتها صحيفة السياسة الأسبوعية وكان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين والتى كانت ـ السياسة الأسبوعية ـ بحق فتحا جديدا فى دنيا الصحافة المصرية والعربية .

وقد كانت مقالات الرحالة عزيز على المصرى من الأسباب التى لفتت الى عزيز على المصرى نظر محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين الذى اختاره مديرا لمدرسة البوليس الملكية بعد كثير من الاعتراضات البريطانية والملكية التى سبقت صدور قرار التعيين .

وعن الفترة التى قضاها عزيز على المصرى مديرا لمدرسة البوليس ، قضيت أياما ، بل أسابيع استمع الى كثير من تلاميذ عزيز على المصرى فى تلك المدرسة وفى مقدمتهم اللواء سعيد الألفى . كما تفضل الأستاذ محمد متولى الذى كان أحد مدرسى المدرسة أيام عزيز على ، فأمدنى بقسط وافر من المعلومات عن السنوات التى قضاها عزيز على المصرى مديرا لتلك المدرسة .

وعن الانقلاب الخطير الذى أحدثه فى تلك المدرسة حيث عمد ـ مثلا ـ الى الغاء المراقبة على طلبة المدرسة فى الامتحانات ، فكيف لا نثق بأمانة طلاب مدرسة البوليس فى الامتحانات بينما الدولة ستعهد اليهم بحماية أمنها واستقرارها » .

عن هذا الانقلاب تحدثت الى كثير من ضباط البوليس . وقد وصلت ـ بعد جهد ـ الى تقرير كان أعده عزيز على فى أكثر من عشرين صفحة ، عن رحلة قام بها الى بعض الدول الأوربية زائرا لمدارس البوليس هناك وقد سعدت بعد العثور على هذا التقرير التاريخى سعادة بالغة .. ففى هذا التقرير يبدو عزيز على المصرى على طبيعته .

ونظرة جديدة الى هذا التقرير تؤكد لنا أن أفكار عزيز على المصرى ـ مثلا ـ فى عام ١٩٣٢ تبدو اليوم ـ فى عام ١٩٨٥ حيث أكتب هذه المقدمة ـ انها مقدمة لم تتحقق كلها رغم مرور السنوات .

وتتبعت عزيز على المصرى رائدا للملك فى بعثته التعليمية الى لندن ، التى لم تحقق أهدافها ، لخشية فؤاد على الطفل فاروق ولى العهد من آراء عزيز على المصرى وثوريته ، وللخلاف العنيف الذى نشب هناك فى لندن بين عزيز على من ناحية وأحمد حسنين وعمر فتحى من ناحية أخرى .

وربما أزعم أنني وصلت الى صورة يمكن أن تكون واضحة حول تلك المهمة التى كان عزيز على المصرى يعلق عليهـا آمالا كبيرة لمصلحة مصر ولمصلحة ولى العهد الذى سيرث ــ فيما بعد ــ العرش ٠

وأزعم أيضا ــ أننى حققت ــ بحيدة كاملة كل ما قيل من جميع الأطراف حول البعثة التعليمية لفاروق فى لندن ، تلك البعثة التى كانت بلا جدال مقدمة لفساد الصبى اليافع فاروق ولى العهد ٠

وتتبعت عزيز على فى قاعة « ايوارت » التذكارية محاضرا عن موقفنا العسكرى والحربى بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ والتى بدأ فيها ــ فى المحاضرة ــ عزيز على المصرى عسكريا وأديبا وكاتبا وعاشقا للشعر القديم من الدرجة الأولى ٠

ثم تتبعته مفتشا عاما للجيش المصرى ، ورئيسا لأركان الحرب ٠ تتبعت العقبات التى اعترضت طريقه حتى أنهم ــ فى وزارة الحربية ــ الدفاع ــ لم يسمحوا له تماما بالقيام بمهام وظيفتيه الكبيرتين ، بل لم يخصصوا له مكتبا يجلس فيه ٠

وقد حاولت الرد على سؤال اعترضنى وأنا أبحث هاتين الفترتين : الفترة التى شغل فيها عزيز على المصرى منصب مفتش عام الجيش ، والفترة التى شغل فيها وظيفة رئيس أركان حرب الجيش المصرى : اذ كان عزيز على المصرى متعاطفا مع الانجليز الذين ساعدوا ــ كما يقولون ــ على افراج السلطان عنه بعد الحكم عليه بالاعدام ، والذين رشحوه للعمل مع الحسين ابن على ليكون وزيرا لحربية الثورة العربية اياها ٠٠ فكيف يمكن تقبل معارضة البعثة العسكرية البريطانية فى مصر والسفارة البريطانية فى مصر لعزيز على المصرى والحرص الشديد من جانبيهما على ألا يتولى أية اختصاصات عسكرية أيا كان شكلها ومضمونها ٠

وأذكر ان شعب مصر كله كان متعاطفا الى أبعد حدود التعاطف مع عزيز على المصرى عندما سقطت به وزميلاه الطائرة ليـل ١٦/١٥ مايو ١٩٤١ ، وأذكر أننـا كنا وقتذاك صبيانا غير مجربين ولكننا كنا نتابع الصحف منذ الصباح الباكر لنعرف هل قبضوا على عزيز على المصرى ، أم لم يقبضوا عليه ٠٠ ؟ وكنا ندعو الله ألا تتمكن الحكومة منه ، وان يمكن هو من الهرب خارج الديار ٠ فلما عرف البوليس السياسى مقره فى امبابه والقى القبض عليه كان ذلك بمثابة كارثة عنيفة منى بها الشعب . ذلك ان قائده العسكرى الشجاع قـد أصبح أسيرا ٠٠ ثم تتبعنـاه فى محاكمته ، وأعجبنـا بشجاعته ورجولتـه اعجـابا لا حد له ٠ وما أكثر

ما حاولنا الحصول على تذاكر لحضور بعض جلسات المحاكمة ولكن أين لنا ـ ونحن فتيان قرويون ـ بمن يعطينا تلك التذاكر وكنا نفخر بعزيز على المصرى عندما كان يدخل الجلسة واضعا يديه فى جيبه متسائلا فى سخرية بالغة : أين هى الأمة المصرية التى تشهد المحاكمة ؟ أين طلبة البوليس ، وطلبة كلية الحقوق ليشاهدوا هذه القضية وليروا ان ادعاءات البوليس لا أصل لها ٠٠ ثم تمضى به السخرية الى أبعد مداها ليقول : هل صحيح أنا متهم بسرقة طيارة ولا بسكليت كما يقولون ؟ ثم يخفف آلامه بأحاديث عابرة مع محاميه وكانوا وقتئذ خيرة محاميى مصر : حافظ رمضان ، عبد العزيز الشوربجى ، حماده الناحل ، فتحى رضوان ٠ لقد كانوا فى المحكمة لا يترافعون كمحامين وانما كانوا فرسانا يتبارزون ٠

ثم نجحت فى الحصول على أوراق المحاكمة ومذكراتها ، وعدت الى ما كنت قد سجلته عن عزيز على المصرى نفسه من أقوال حول تلك المحاكمة ، وسوف أبقى مدينا بحق للرجل الطيب العظيم قائد الجناح حسين ذو الفقار صبرى الذى سعى الى بعد ٣٥ عاما من وقوع الحادث ليروى لى تفصيلا كل أسرار قضية الطائرة ٠٠ ولن أنسى أبدا ذلك الرجل الذى سعى الى دون معرفه سابقة ليزيح الستار عن كثير من الأسرار التى كان يعرفها عن عزيز على باعتبارهما أخلص صديقين ، وأعنى به د٠ عبد الغفار الساعى الذى نجح فى ان يضع أمامى الكثير من النقاط على الكثير من الحروف ٠

☆☆☆

ولن أطيل فى الحديث عما قمت به ، أو سعيت اليه ، كما لن أطيل الحديث عمن التقيت بهم وأنا بسبيل الى اعداد هذا الكتاب فان الحديث فى هذا المجال قد يطول ويطول ، ولكن الذى أحب أن أقوله هنا ـ وبأمانة بالغة ـ ان كل جهد بذلته فى هذا السبيل ، لم يكن أبدا جهد باحث مدقق يجرى وراء الحقيقة ٠٠٠ وانما كان جهد عاشق يسعى للقاء عشيقته ٠٠ كنت أعمل فى هذا العمل كمحب لا كمؤرخ ، كعاشق لا ككاتب ٠ وأخيرا وليس آخرا كانسان يبحث عن ضالته المنشودة ، عن حبيبته أو معشوقته ٠ ولذلك فاننى لم أكن أبدا أحس بأى تعب أو نصب أصابانى فى هذا السبيل ، انه يهذا المدخل بالاشارة الى رءوس موضوعات هامة أرى أنها ضرورة لمن يريد أن يتعمق فى موضوعات الكتاب ، أو كما أسميها باستمرار المفاتيح التى تمهد الطريق لا لفهم الكتاب وانما للتعايش معه ، فما أطمع فيه بحق الا يوجد لمثل هذه الكتب قراء وحسب ، وانما يوجد كما هو الحال عندى بالضبط ـ عشاق ومحبون يعيشون ويتعايشون حقيقة لا مجازا مع أبطال الكتاب ٠

يقول الأستاذ أحمد بهاء الدين في أول كتبه السياسية وأحلامسا «فالوق ملكا» : كانت تربية فاروق الأولى تحت اشراف أبيه الملك فؤاد . ولم يكن الملك فؤاد من الديمقراطية في شيء ، فقد عرف عنه انه صارم سخيف في حياته الخاصة وأنه يعامل موظفيه معاملة ارهــابية تجعلهم يرتعدون أمامه .. حتى قال المرحوم محمود شوقي باشا سكرتيره الخاص لي : كنا أمام الناس باشوات ، أما معه فلم نكن الا خدما .

وكان شديدا في رقابته على فاروق فلم يسمح له بأن يكون له أصدقاء من الأمراء مثلا أو الباشوات بل أحاطه بطائفة من الخدم فشب دون أن يعرف صداقات الند للند ، ومجالسة الذين يخدمون أنفسهم بل اعتاد أن يجالس الخدم الذين يتسابقون الى ارضائه بأي ثمن ، الى آخر تلك التأثيرات الأولى في تكوين فاروق . وقرر فؤاد ـ أحمد بهاء الدين ـ ان يرسل ابنه الى انجلترا فاختار له بعثة من ثلاثة : أحمد حسنين وعزيز على المصري وعمر فتحي .

وكان عمر فتحي مجرد حارس خاص . أما أحمد حسنين وعزيز علي المصري فأي تناقض .. عزيز المصري الثائر القديم المتعصب لوطنه ودينه الذي يكره الانجليز بالذات كراهية خاصة . وأحمد حسنين . ذو الثقافة الانجليزية والعادات الانجليزية ولاعب الشيش الأنيق الذي يعرف كيف يظهر بمظهر الجنتلمان في أحاديثه ومناوراته .

وكان لابد أن يختلف الرجلان ...

فعزيز المصري بطبيعته الحارة وتاريخه الذي يفخر به ، لا يمكن أن يقبل رئاسة حسنين رجل البلاط البارد الأعصاب . وعزيز المصري يريد ان ينشيء فاروقا تنشئة عسكرية خشنة وأن يحدثه عن جده ابراهيم بالذات وعن عراقة الشعب المصري وكفاحه وأبطال الحرية في تاريخ الشرق .

أما حسنين وهو رجل طموح ، فقد أدرك بذكاء الانتهازي ان مستقبله معلق بأقدام سيده فعمل على ان يرضيه ليستحوذ عليه ... وعرف فاروق على يد حسنين مغامرات الليل .

وكان حسنين وفاروق يداوران عزيز المصري ، ويتركانه ينـام ثم يخرجان الى الليل والمدينة ، وضبطهما عزيز مرارا ، وكان يثور ويهدد بشكواهما ثم يهدأ .

وقد تشاجر عزيز المصري مرة مع حسنين على المائدة أمام فاروق حين قادهما الحديث الى أحمد عرابي وسعد زغلول : كان عزيز يريد ان

يلقن فاروقا أنهما رجلان وطنيان حاولا أن يؤديا لوطنهما خدمات جليلة ٠ أما حسنين فلا يلفت نظر فاروق الا الى ان عرابى أراد خلع توفيق والى ان سعد هو عدو أبيه ٠

وكان فاروق — يقول بهاء الدين — فى أخطر سنى المراهقة فمال الى حسنين بحكم طبيعته المدللة التى تأبى ان تتعلم او يفرض عليها رأى أو تسير بتوجيه ٠٠٠٠ ونفر من عزيز المصرى الذى كان يريد ان يوجهه قسرا ٠ « وذهب عزيز المصرى ، وبقى معه حسنين » ٠

تلك صورة من الصور التى رسمت للبعثة التعليمية لفاروق ، والتى أظهرت الصراع بين أحمد حسنين وعزيز على المصرى ٠٠٠ ولكن ماذا قال عزيز المصرى عن ذات الموضوع ٠٠ ؟ قال عزيز المصرى للضابط الشاب أنور السادات : بدأت الدسائس منذ زمن ٠٠ منذ كنت فى انجلترا أشرف على تربية فاروق ٠ وكنت — عزيز على المصرى — أحب أن تحسن تربيته لأنه شاب ، سواء كنت أنا الذى أربيه أم غيرى ، ولكن يد الخيانة والدسائس امتدت اليه وكانت أقرب الى قلبه من يده ٠٠٠ دسائس أحمد حسنين وعمر فتحى ، هذان الاثنان تآمرا على فاروق ، وتآمرا على شعب مصر فى شخص ملكه ٠

ويقول عزيز على المصرى : هل تتصور أنى كنت أدخل غرفته صباحا فأجده نائما بملابس السهرة والخمر تفوح من فمه ٠ هذا الشاب الذى كنت أريد له الصلاح والتقوى والوطنية ، كانا هما يريدان له الفساد والتهتك والاستهتار ٠٠ كانا يقودانه الى دور الفساد فلا يعود الا فى الرابعة صباحا ويعود مخمورا فينام ويلقى بنفسه القاء على أقرب مقعد أو وسادة ٠

وكنت أحاول ان أنهاه عن ذلك فيخجل ، ولكنهما ينفردان به من بعدى فيزيلا كل أثر لنصائحى ٠ ولقد أدخل هذان المغامران فى ذهن فاروق أننى مدسوس عليه من أبيه ، وكان فاروق يكره والده من كل قلبه ويقدس أمه تقديسا شديدا ، كما ألقيا فى وهمه أننى أشيع الأقاويل عن أمه وأنى أريد ان أزيلها من الوجود لكى ينفرد أبوه بحبه ، واننى اعمل الآن على دس السم لها ٠ ولقد عرفت ذلك يوم أرسل فاروق الى أبيه خطابا باكيا يهدده فيه ان لم يسحبنى فورا من مهمتى — وقد سحبنى فعلا — وتركه فعلا لهذين المفسدين يفسدانه على نفسه ، ويفسدانه أيضا على وطنه ٠

والجدير بالذكر ٠٠ ان عزيز على المصرى قد ذكر فى تلك المناسبة ان الدسائس والمناورات قد تلاحقت لتقصيه — أى عزيز — عن كل مكان

يستطيع فيه ان يوجه الشباب لأن فاروق يعرف كيف أوجه أنا الشباب ؟

★★★

وكان اتحاد الجامعة ، واتحاد كلية الحقوق قد نظما في قاعة ايوارت التذكارية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة سلسلة محاضرات بعنوان : واجبنا بعد معاهدة ١٩٣٦ · وكانت اللجنة التي نظمت هذه السلسلة مكونة من الطلبة (وقتذاك) عبد الحميد حسلاوة ، وعلى كريم ، وعبد حلمى ، وعبد الحميد الشواربى (كلية الحقوق) وحامد عبد المجيد (كلية الآداب) الخ الخ ·

وقد تحدث أحمد لطفى السيد باشا عن واجب الجامعيين بعد المعاهدة ·

وتحدث أحمد نجيب الهلالى (بك) وزير المعارف الأسبق وعضو مجلس النواب عن واجب الشباب بعد المعاهدة ·

وكان حديث اللواء عزيز على المصرى ـ وقد ألقاه في مساء ٧ ديسمبر ١٩٣٦ ـ عن : فكرة عامة عن منشأ الحروب وواجبنا الحربى بعد المعاهدة ·

وألقى حسن باشا نشأت وزير مصر المفوض ببرلين محاضرة عن واجبنا الاجتماعى بعد المعاهدة ·

أما محاضرة د· طه حسين ـ وكان وقتئذ عميدا لكلية الآداب ـ فقد كانت تحت عنوان : واجبنا الأدبى بعد المعاهدة ·

ومحاضرة الدكتور مصطفى مشرفة (عميد كلية العلوم) عن واجبنا العلمى بعد المعاهدة ·

وحسن عنان بك (سكرتير عام وزارة الزراعة) عن واجبنا الزراعى بعد المعاهدة ·

ومحمد طاهر باشا رئيس اللجنة الأهلية للرياضة البدنية ورئيس نادى الطيران والسيارات الملكى عن واجبنا الرياضى بعد المعاهدة ·

وكانت محاضرة د· عبد الرزاق السنهورى بك عميد كلية الحقوق عن واجبنا القانونى بعد المعاهدة ·

أما فريد زغلول فقد كانت محاضرته عن واجب الطلبة بعد المعاهدة ·

واختار الأستاذ أنطون الجميل عضو مجلس الشيوخ ورئيس تحرير الأهرام موضوع « واجبنا الصحفى بعد المعاهدة » ·

واختارت الآنسة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطيء » وأجبنا نحو الفلاح بعد المعاهدة وتحدثت السيدة استر فهمي ويصا عن واجب المرأة بعد المعاهدة ٠

وتحدث د٠ محمد زكى الشافعى مدير المكتب الفنى بوزارة الصحة عن واجبنا الصحى بعد المعاهدة ٠

وكان عزيز على المصرى فى محاضرته تلك ككل محاضراته ، كاتبا ، واديبا ، بل وذواقة للشعر العربى القديم ، وقد عاد المصرى فى بداية محاضرته الى الأيام الأولى للاغريق والفرس حيث كانت الجندية أساس تربيتهم ٠ وقد نبه المصرى فى محاضرته الى ظاهرة لم يكن قد اهتم بها أحد من قبل هى ان مشاهير اللاعبين والمصارعين فى أمريكا وأوروبا من اليهود ٠ ودعا المصرى الى ازالة الرماد المتراكمة من أجيال عن تلك الجذوة التى كانت وهاجة فى القرون الوسطى أمام المنصورة حيث أسر جنود مصر ملك فرنسا ، وفى عين جالوت بفلسطين حيث أفنى الجيش المصرى جيش المغول الذى أرسله هولاكو من بغداد والذى لم يكن يعرف هزيمة من قبل ، قتال الجيش المصرى الشرف الاسمى لانقاذ مدنيات متراكمة فى هذا الوادى من عدو لا يعرف الرحمة جبل على حب الخراب والدمار ٠٠ تلك الجذوة التى اقتلعت من شفتى تيمورلنك الغاشمتين مقدار الجيوش المصرية فى سورية حيث قال : خير الجيوش جيوش مصر ، هى تفوق الترك ، ولكن تنقصها القيادة ٠

الطريف ان عزيز على المصرى طعم (بتشديد العين) محاضرته الحربية بأبيات من الشعر من بينها ٠٠

اليس عظيمـــا ان تلـم ملمـــة	وليس علينـــا فى الحقوق معول
فان نحن لم نملك دفاعا بحادثـ	ـتكم به الأيام فالمـوت أجمـــل

وبأبيات أخرى تقول :

وقلـدوا أمركـم لله دركمـــــو	رحب الذراع بأمر الحرب مطلعـا
لا تترفوا أن رخـاء العيش فارقـه	ولا اذا عض فكـروه به خشـعا

ويلخص عزيز المصرى محاضرته ـ وسنعود اليها فى الوقت المناسب ـ بقوله : أقول للطلبة ان كنتم تحبون الجيش وتودون أداء واجبكم نحوه فاعلموا ان الجيش :

تنظيم : ظاهرة العقل فى الجيش ـ العقل المنطقى المرتب .

بطولة : وهى ظاهرة قوة الايمان بفكرة سامية ممزوج بقوة من الروح .

جلد : وهى ظاهرة تحمل المشاق بدون شكاية ومع ضبط النفس واخفاء الآلام .

ويؤكد عزيز على المصرى ان هذه الملكات لا تنشأ فى الانسان بالكلام أو الخطب وانما بالقراءة والتمرين . والطريف ان عزيز على المصرى طلب من الشباب توجيه مشروع القرش من صناعة الطرابيش الى صناعة الكمامات الواقية .

وقد كنت جد مشتاقا الى معرفة رأى أستاذنا عبد العزيز على ، أحد رواد المدرسة الفدائية فى مصر والذى كان ضلعا فى كل الأعمال الفدائية التى وقعت فى الفترة من ١٩١٠ حتى ١٩٥٢ ، أو غالبيتهما اذا شئنا الدقة ... كنت جد مشتاقا لمعرفة رأى عبد العزيز على ، فى عبد العزيز على المصرى ! أو عزيز على ، وقد تحدثنا سويا فى تاريخ عزيز على . وقد روى لى أستاذنا عبد العزيز على أنه أغرم غراما شديدا بسيرة عزيز على نضاله منذ بداية التحاقه بالمدارس الحربية فى الاستانة وأنه تتبع جهاده فى البلقان واليمن وحرب طرابلس وذكر عبد العزيز على ان عزيز على كان معروفا بالعطف على العرب وتأييد مطالبهم فى وجود دولة الخلافة العثمانية ، وأنه ـ عزيز على ـ من أبرز الثوار على مظالم دولة الخلافة وفساد الأوضاع فيها .

وقال عبد العزيز على : ان عزيز على عندما عين مديرا لمدرسة البوليس جدد أنظمتها وأضفى على تلاميذه فيها من روحه الوثابة وأنه عنى عناية خاصة برفع المستوى العلمى والثقافى والعسكرى للطلبة ـ وأنه ـ عزيز على المصرى ـ نجح فى تخريج جيل جديد من رجال البوليس يتميزون بالوطنية والعلم والايمان بالعدالة وحب النظام .

ويشير عبد العزيز على الى مشاركة عزيز على فى الاشراف على تربية ولى العهد فى لندن والى الخلاف الذى استحكم بين أحمد حسنين رائد فاروق لانحرافه عن الطريق السوى ، والى نجاح أحمد حسنين وفشل عزيز على فى الاستمرار فى تلك المهمة بعد أن عمل الجميع ضده : القصر ، السفارة البريطانية فى القاهرة ، السفارة المصرية فى لندن . لقد كان عزيز على المصرى يريد لفاروق دنيا أخرى تعتمد على الأخلاق والعلم

والاستقامة ٠٠ وكانوا جميعا يريدون له دنيا أخرى : بارات ، وكباريهات ، وخمور ، ونساء لكى ينتهوا منه صغيرا حتى يسيطروا عليه كبيرا ، وقد كان ٠٠٠ !

ويروى عبد العزيز على أنه بدأ يتصل بعزيز المصرى بعد أن عين مفتشا عاما للجيش المصرى ، وكانت بداية اتصاله به عن طريق طالب بمدرسة الفنون الجميلة اسمه محمد علوى ، وأن الثقة توطدت بينهما (بين عزيز وعبد العزيز) ثم رحت ـ هكذا يقول عبد العزيز على ـ أتردد عليه من وقت لآخر فى مسكنه مع الاخوة محمد علوى ويوسف كمال وعبد المعطى عطية من شباب الحزب الوطنى ، ولم تنقطع تلك اللقاءات حتى بعد ان انتقل الى سرايته بعين شمس التى كانت ملتقى الشبان الضباط يفيدون من حنكته وحسن توجيهاته ويستمعون منه الى صور الجهاد وألوان البطولة ودروس وعبر التاريخ ٠

وعندما استقال أو أجبر على الاستقالة لشدة مناوأة الانجليز له ـ نفس التعبير الذى استخدمه السياسى الفدائى المحنك عبد العزيز على ـ لزم منزله مما أفسح المجال أمام الشباب عسكريين ومدنيين المحظوة بلقائه والافادة من آرائه ٠

واذا كنت جد مشتاقا الى معرفة رأى عبد العزيز على فى عبد العزيز على المصرى فلنقتنى المطلقة فى كل كلمة يقولها عبد العزيز على الذى كان لا يتحدث الا قليلا جدا ، وكان يزن كل كلمة بأدق ميزان ، ثم انه ـ عبد العزيز على ـ كان يتحدث وأمامه بانوراما سياسية ليست لأحد ، يعرف فيها لنصف قرن ، الناس والحوادث ٠

ويصف الملازم أول محمد أنور السادات آثار اصدار الانجليز الأوامر باعطاء الفريق عزيز على المصرى أجازة اجبارية من رئاسة أركان حرب الجيش فيقول : كان معلوما لنا أن وراء هذه الفعلة أيدى الانجليز ، وكان مجرد العلم بهذا كافيا لاثارة نفوسنا ودفعنا الى أى عمل قد يراه الكثيرون فى مثل ظروفنا من أعمال الجنون ٠ فقد كنا نعرف ما أراده عزيز المصرى لجيش مصر من قوة ، ومنعة ، وكنا قد بدأنا ننتعش بالنهضة الفعلية التى فعلها الرجل فى الجيش ، وكنا نسمع كثيرا من القصص التى تروى عن محاولات عزيز المصرى الاصلاحية والمشاكل والعقبات التى توضع أمامه والأحابيل والشراك التى تنصب له ، والتى عرفت بعد ذلك للأسف الشديد أن الذى كان ينصبها هم كبار ضباط الجيش المصرى نفسه ٠ وكنا قد تحققنا من الشرك الأخير ، شرك الخيانة الحقيقية تقع من ضباط كبار

فقد جمع الفريق عزيز المصرى لواءات الجيش ليسألهم عن مدى حاجتهم فى أسلحتهم الى جهود البعثة الانجليزية ومدى ما حققته هـــذه البعثة من الاصلاح ، وكان الجيش كله ماعدا هذه الفئة يتمنى اليوم الذى تزول فيه وصمة البعثة الانجليزية من وحداته وأسلحته • وتكلم عزيز المصرى مع الضباط كلام مصرى لمصريين ، وكلام قائد لضباطه ولكنهم خرجوا من هذا الاجتماع ، لا ليفكروا ولا ليبحثوا ولا ليسكتوا ، ولكن ليذهبوا الى السادة الانجليز ويقصوا عليهم حديث قائدهم ، وعادوا اليه فرادى ، عاد كل منهم وطلب مقابلته لكى ينهش فى لحوم الآخرين ولعل كل واحد كان يرمى من وراء ذلك الى الظهور بمظهر الوطنى نفيـــا للشبهة عن نفســه والصاقها بالآخرين اذ حدث ان وقعت الواقعة وعلم الرجل حديث الخيانة ولكن عزيز فهم كل شىء وأدرك أنه بين جماعة من اللواءات لا يفضل واحد فيهم أخاه الا فى خسة النفس وبطلان الضمير • ولم تكن خيانات اللواءات هى كل ما أحاط بعزيز المصرى من الشراك ، فقد كان الانجليز أحرص من الا يرصدوا عليه كل حركة من حركاته فاستطاعوا بأساليبهم المختلفة ان يملأوا وظائف مكتبه بجماعة من الضباط الحاصلين على شهادات دراسية عليا والحاصلين على شهادة انجليزية قذرة فى نوعها ، شهادة التخصص فى أعمال التجسس للانجليز •

كل هذا كنا قد بدأنا نسمع عنه ، وكل هذا قد تحققنا منه بعد ذلك•

وجاءت الأجازة الاجبارية لعزيز المصرى ، كناقوس كبير يدوى فى آذاننا ، لكى نبدأ العمل •

وقد روى السادات قصـــة أول لقاء له بعزيز على المصرى ، وكيف ذهب الى عيادة الدكتور/ابراهيم حسن وكيل جماعة الاخوان المسلمين ، وكان عزيز المصرى فى مكتب ملحق بحجرة الكشــف • كنت ــ أنــور السادات ــ بحاجة الى أن أقدم نفسى (للفريق) الذى آمنت بوطنيته ، وكنت أريد ان أقول له كلاما كثيرا وأكسب ثقته ، لكن رغم كل شىء •• رغم الطريقة التى تم بها اللقاء بينى وبينه ، كنت أشعر ان فى قلب الرجل ندوبا عميقة من خيانة الأصدقاء الكبار والشبان على السواء • ولكن النفس الصافية أبت أن تحملنى هذه المشقة •

وفى الدقائق الأولى كان عزيز المصرى يحدثنى حديث رفيق الجهاد ، كان يائسا من الحكومات ، يائسا من الأحزاب ، يائسا من الملك ، يائسا من البرلمان ، ولكنه كان مؤمنا بالشباب •

عيب هذا البلد أنه ضعيف وأنه لا يجد العناصر التى تغذيه ••

وسألته : وكيف تأتي بالقوة ؟

فنظر وقال : انتم شباب الجيش ماذا تنتظرون ؟ ومتى تعرفون مسئوليتكم الحقيقية ؟ ومتى تبدأون فى الاضطلاع بها ؟

وعدت أسأله : وهل تظن أننا فى ظل الأوضاع القائمة نستطيع أن نفعل اليوم شيئا ؟

فأجاب : تستطيعون كل شيء ، وغيركم لا يستطيع شيئا . تنتظرون توجيها منى ، من لواءاتكم ، من حكام البلاد ؟ . وسكت وهو يتمتم : كلام فارغ .

ثم نظر الى فى عزيمة شابة وقال : لقد كان نابليون فى سن السابعة والعشرين من عمره فقط ، وكان مثلك هكذا شابا صغيرا ، ولكنه استطاع ان يكون فى تلك السن المبكر نابليون بونابرت القائد واستطاع ان يقود بلاده وجيشه ولم يكن يتلقى توجيها من أحد » .

وبعد لحظات قال فى عمق : التوجيه الوحيد الذى كان نابليون يستلهمه فى كل خطواته هو الايمان الذى كان ينبعث من نفسه ، فابحثوا عن الايمان ولا تعتمدوا على أحد الا على أنفسكم .

وقلت له : لقد عشت أنت مؤمنا بهدفك ، وعشت لا تعتمد على أحد ، وتغلبت عليك مع ذلك هذه القوى ونحن نريد أن نعمل ... وقاطعنى بقوله : اعملوا وحدكم ، واعتمدوا على شبابكم والذى يستطيع أن يقصى عزيز عن توجيه الملك ، والذى يستطيع أن يقصيه عن توجيه الجيش ، لايستطيع أن يقصى شباب الجيش عنه » .

وقد كان قائد السرب حسن عزت الذى كان من أوائل الضباط المصريين الذين عملوا فى الحقل الوطنى ضد الاستعمار البريطانى وحوكم ، وفصل من الجيش ، وسجن واعتقل ، من أبرز تلاميذ الفريق عزيز على المصرى الذين ظلوا على الوفاء له الى ان لقى عزيز المصرى ربه .

وقد أصدر حسن عزت فى أوائل ثورة ١٩٥٢ كتابا سماه « أسرار معركة الحرية » شارك عزيز باشا فى تقديمه والشيخ الباقورى ، وقائد الجناح عبد اللطيف بغدادى وأنور السادات ، وخالد محيى الدين ، وفتحى رضوان . واختفى الكتاب ــ فجأة ــ من السوق ، كما اختفى صاحبه ولم يظهر الا فيما بعد . ظهر حسن عزت واحدا من كبار رجال الأعمال فى النقل البحرى ــ يتخذ مقره مدينة تورينو الايطالية .

جاء على لسان حسن عزت بعد أن روى قصة العلقة التي أخذهـا وزميليه الطيارين أحمد سعودى وسعيد ثابت من أجل فاروق . وكان الثلاثة عائدين من شارع عماد الدين الى مطار الماظة للمبيت وكان المترو مكتظا بجنود الحليفة وهم فى حالة سكر ، وكان الجنود ينشدون نشيدا عدائيا ضد فاروق ٠

وكان فاروق – حسن عزت – فى تلك الأيام عند مفترق الطرق بالنسبة لموقفه من المصريين ولم يكن أحد يعرف من نقائصه ومباذله شيئا ، بل كان يتردد على المساجد كل يوم جمعة ، وكان قد أطلق لحيته ليضلل الناس أو ليمهد لمشروع الخلافة ٠

على أى حال لم نكن نكرهه – وقتئـذ – وعلى أسوأ الفروض كان ملكنا ورمزنا ، وأخذ الانجليز يغنون بصوت مرتفع بأغنيتهم التى لا تصلح للنشر ، اعتبرنا الأغنية اهانة ونحن ضباط ونرتدى ملابسنا العسكرية وفاروق على رأس الجيش فى تلك الأيام . وهاج المرحوم الطيار سعودى وقال : لابد أن نؤدبهم ، وكان يتمتع بقوة جسمانية وعضلات مثالية . وكان سعيد ثابت بطل مصر فى الزانة ٠

ويتحدث حسن عزت عن المعركة التى نشبت بينهم الثلاثة وبين جنود الاحتلال وكان وقتئذ حوالى مائة وخمسين ضابطا وجنديا ، وأبلى الزميلان سعودى وثابت بلاء حسنا ، ولكن القوة غلبت الشـجاعة ، وقد ألقانى الجنود البريطانيون من نافذة المترو فى الشـارع ٠٠ وبعد لحظات والقانى سعودى وسعيد عبر نوافذ المترو ٠٠٠ !! ٠

وذهبنا الى المطار يومها فى تاكسى بعد أن ضمدنا جروحنا فى احدى الصيدليات ٠ الى ان يقول حسن عزت :

وكان على رأس الجيش فى تلك الأيام بطل قديم ومحارب باسل هو الفريق عزيز المصرى ، وكنت يومها على رأس سرب من أسراب القتال من طراز جلادييتر وكانت هنـاك سـتة أسراب للقتـال وعلى رأس السرب المرحوم سعودى ، وكان الطيـاران عبد اللطيف بغدادى ووجيه أباظة برأسان السربين الثالث والرابع وجمعتنـا نحن الأربعة زمالة السرب واتفاق الآراء من الناحية السياسية و ٠٠ و ٠٠

ولم يكن لدى بريطانيا وقتئذ سوى ثلاثة أسراب قتال بمصر هى كل ما لديهم فى هذه المنطقة ، وكانوا فى أشد الحاجة لطائراتنا ٠

وذات يوم حضر كبير ضباط البعثة البريطانية وهو يكاد يبكى لأن المقاتلات الألمانية انقضت على مطاراتهم فى الصـحراء الغربية وأسقطت

٢٠ طائرة مقاتلة انجليزية فى يوم واحد ، وبقيت ثمانى طائرات صالحة بخلاف الطائرات التى ضربت على الأرض ٠

وهكذا ــ حسن عزت ــ انكشفت القوات الانجليزية من الجو وتعرضت لهجمات طائرات المحور العنيفة وجاء الرجل يطلب النجدة من المقاتلات المصرية ٠ وهنا وجدنا الفرصة سانحة للانتقام فرفضنا باباء ان نقاتل معهم ٠٠ وبعد ثلاثة أيام نجح الضباط فى الحصـــول على أمر اشتراك المقاتلات المصرية معهم فى الحرب من مدير عمليات الجيش المصرى المرحوم همت باشا ٠

وكان الأمر يرمى الى تحريك الأسراب الثانية والخامسة قتال الى الصحراء للتعاون مع بقايا السرب الانجليزى لحماية القوات البريطانية من الجو ٠

ووجدنا الفرصة سانحة ٠

فقلنا لهم : نحن مستعدون للقتال ولكن أين الطيارين المدربين ٠٠ ؟ ان ربع قواتنا فقط مدربة متمرنة على القتال ، ولكن ثلاثة أرباع الطيارين لا يقاتلون بالليل و ٠٠ و ٠٠

وهنا فتحوا لنا مخازنهم على مصراعيها ٠ وذهبنا أنا ووجيه أباظة سرا لمنزل الفريــق عزيز على المصرى لنطلعه على حقيقة الموقف بالنسبة للطائرات والطيارين أيضا ٠٠ وأطلعناه على موقف البعثة البريطانية وعلى أمر العمليات الذى صدر ٠

وفكر السياسى العجوز طويلا بعد أن أطرق برأسه ثم قال : خذوا منهم اللى انتم عاوزينه ، ومرنوا طياريكم كويس قبــل ما تســـــافروا للصحراء ٠٠ وبعد كده أنا عندى ترتيب ٠

وتساءلنا يومها ٠٠ ماذا يخبىء لهم الداهية العجوز ؟

وفى صباح اليوم التالى فتح الانجليز مخازنهم على مصاريعهـا لنا واغترفنا منها بكل شراسة و ٠٠ و ٠٠ وذهبنا ــ مرة أخرى ــ الى عزيز على لنطلعه على الحال فقال لنا : روحوا يا أولاد بقى خلوهم يمرنوا طياريكم ، ويدوكو جبخانه لتتمرنوا ، وكمان خدوا اد عشرين مليون طلقة احتياطى أو خمسين و ٠٠ و ٠٠

ويذكر حسن عزت ان جميع الطائرات قد جهزت فى الساعة السادسة من صباح أحد الأيام ومعبأة بالجبخانة ، وقد وقف كل طيار أمام طائرته ،

وكل قائد سرب أمام أسرابه ، وكان كل منهم يحمل تعليمات وأوامر تحرك أخذت بدقة وعناية • اتصل قائد المحطة بمدير السلاح ليستأذنه قبل سفر الطائرات • وذهب مدير السلاح بدوره ليستأذن رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، فقد كان الطيران يتبع الجيش فى تلك الآونة •

وتساءل عزيز المصرى بدهشة : ومن أصدر الأوامر ؟ قيل له : ان الأوامر صدرت من ادارة العمليـــات وقال : ولكن أنا ما عنديش خبر بالأوامر دى •• وكيف تشترك طائراتنا فى الدفاع عن القوات البريطانية فى الصـــحراء ونحن لســنا فى حالة حـــرب مع الألمان • فلما أخبره مدير السلاح بأن الأوامر التى لديه صادرة من ادارة العمليات ، استدعاه عزيز باشا لمقابلته (مدير الســـلاح) هو ومدير العمليـــات ، ولما تمت المقابلة أعطاهما عزيز المصرى درسا فى الوطنيـــة ، وكيف ان مدير العمليـــات يجب ألا يتلقى تعليمات من الانجليز بل من رئيس أركان حرب الجيش •

وجـاء مدير السلاح للمطار ونحن متأهبـون للسفر ، جـاء ليعطينا الأمر بالانصراف بل والعودة بالطائرات الى السويس وحلوان للدفاع عن الأراضى المصرية فقط •

وطرنا لأول مرة بجميع قوة الأسراب وهى صالحة للاستعمال ، وجن جنون الانجليز ، ولكن ماذا يصنعون لقد أثروا على مدير العمليات وخضع لأوامرهم ، ولكن هيهات ان يخضع عزيز على المصرى لأوامر الانجليز •

وحصلنا ــ حسن عزت ــ بسبب (استعباط) عزيز المصرى على كل ما نريده من قطع الغيار والمحركات والمدافع والذخيرة الحية دون أن ندفع مليما واحدا ، كما نجحنا فى تدريب الطيارين تدريبا ممتازا •

ويذكر ــ حسن عزت ــ ان الفريق عزيز على المصرى كان يمر ذات يوم على ســلاح الفرســان وكنا قد استلمنا من انجلترا دبابات خفيفة ، وأخذ رئيس البعثة الانجليزية يعدد منـاقب وقوة دروع هذه الدبابات الخفيفة وكيف أن الرصاص لا يخترقها وأن صلبها من نوع ممتاز ، فأمر عزيز على المصرى أحد الضباط بالابتعاد بالدبابة ١٠٠ ياردة وخرج منها هو ورجاله ، وتناول الفريق عزيز المصرى بندقية من يد أحد الجنود وأطلق رصاصة على صلب الدبابة الذى لا يخترقه الرصاص ، وأثبتت التجربة عكس ما تغنى به رئيس البعثة البريطانية ، وذهب الجميع ليروا نتيجة التجربة العملية لصلب شيفلد فرأوا ثقبـا كبيرا • وقال عزيز المصرى ساخرا : يظهر أنهم أضافوا خشبا على الصلب ••• !!

وهكذا كان دائما عزيز المصرى « خميرة عكننة » للسادة الانجليز

★★★

يقول الأستاذ محمد صبيح : فى أغسطس ١٩٣٩ كلف الملك فاروق ، على ماهر باشا بتأليف وزارة جديدة . وأراد على ماهر ان يعطى وزارته الحيادية مظهر قوة باختيار وجوه يحبها الشعب لنضالها ومواقفها الوطنية فكان من وزرائه ، عبد الرحمن عزام ، وعبد القوى أحمد ، وصالح حرب .

الا ان ضربة المعلم - كما يقولون - التى قام بها على ماهر كانت فى تعيين عزيز المصرى باشا (وكان قد أخذ رتبة اللواء والباشويه فى عهد وزارة محمد محمود الأخيرة) مفتشا للجيش المصرى فى المنصب الذى خلا بخروج الجنرال سفنكس الانجليزى من هذا المنصب .

وكانت توجد فى الجيش المصرى بعثة عسكرية بريطانية يرأسها الجنرال مكريدى . وفى أول اجتماع له مع رئيس البعثة قال له : ان مهمته ان يجيب على ما تستشيره القيادة المصرية فيه . وقد أزعج هذا التحديد لمهمة البعثة التى كانت تتدخل فى كل شىء من تلقاء نفسها السلطات البريطانية فسكتت على مضض ، وكان بعض ضعاف النفوس يهرعون الى ماكريدى هذا ، ويخبرونه بكل عمل يعمله عزيز المصرى .

وبدأ عزيز المصرى ... فهجر مكتبه فى وزارة الحربية ، واختار له مكتبا فى وسط الثكنات ليكون قريبا من الجيش الذى يعمل مفتشا له .

وهذه أيضا كانت خطوة مزعجة جدا للقيادات المصرية المتهالكة القديمة التى كان كل ما يهمها الزراير اللامعة والعلم الذى يرفرف على السيارة دالا على الرتبة الجليلة .

وما لبثت الحرب العالمية الثانية أن أعلنت ، وراح الانجليز يكدسون معداتهم فى مرسى مطروح ويتأهبون ليوم تدخل فيه ايطاليا الحرب لعله ليس بعيدا وكان من بين القوات هناك وحدات مصرية .

وخطر لعزيز خاطر فأوعز للملك فاروق أن يزور مرسى مطروح ليفتش على القوات المصرية هناك ... وسافر مع الملك رئيس الوزراء على ماهر باشا ووزير الدفاع صالح حرب باشا ، وكان قواد الجيش الانجليزى فى استقبال الملك وعلى رأسهم قائد القوات البريطانية الجنرال ولسون .

وعقد مؤتمر عسكرى أحضرت له خرائط المنطقة ، وراح ولسون يشرح للملك خطة الدفاع عن مصر اذا هوجمت من الغرب ، وكيف ان مرسى مطروح أصبحت قلعة مسلحة . وكان عزيز المصرى كثير التدقيق

فى الخريطة المبسوطة أمامهم ، واذا به يقول : ما اسم هذا الموقع ٠٠ ان نظارتى ليست معى ؟ فرد الجنرال ولسون بعد ان قرأ الخريطة : اسمه العلمين ٠ فرد عزيز المصرى : يا جنرال ٠٠ هنا يمكن الدفاع ضد أى غزو يأتى من الغرب ، فهذا عنق زجاجة يمكن تحصينه جيدا ويصعب بل يستحيل اختراقه ٠

أما مرسى مطروح فيمكن تطويقها مهما كان استعدادها أو حماية الأسطول لها ، وتنطلق القوات المعادية دون ان تتلقى منها أو نطلق عليها طلقة واحدة ٠

وساد على القاعة صمت عميق ، فقد بدا المنطق واضحا فيما قال ٠ ورد الجنرال ستون : ان وجهة نظرك لها وزن خطير ويجب دراستها ، وعلى كل حال لقد حاربت يا باشـا فى ليبيـا سنة ١٩١١ ٠٠ وعنـك نتلقى الدروس ٠

وضجت القاعة بالضحك ٠ وقال عزيز المصرى : لم أكن وحدى ، كان معى صالح حرب باشا وزير الحربية ٠

وفى جلسة ثنائية التقى ويلسون مرة ثانية بعزيز المصرى ومعهم خرائط مكبرة لمنطقة العلمين ٠٠ فهنا هضبة الرويسات ، وهنا منخفض القطارة ، وهنا ٠٠ الخ وبعد أيام تلقى عزيز المصرى رسـالة خطية من الجنرال ولسون اطلعت عليهـا ، وفيهـا اشـادة بعزيز المصرى واعتزاز بمشورته ، ووصفه له بأنه لا يقل فى عبقريته العسكرية عن عظماء العالم العسكريين من أمثال ولنجتون ، وبيتان ٠

وضحك عزيز المصرى وقتها وقال : ما دام الانجليز أسرفوا فى المدح ، فلابد أنهم مبيتون شيئا ما ، وهكذا فعلوا عندما عدت من الحجاز سـنة ١٩١٦ ٠

وقد صدق حسه ، فما لبث على ماهر ، ان تلقى رسالة من السفير البريطانى يطلب عزل عزيز المصرى وقد أزعج القريبـون من الرجـل هذا الطلب ، ورحنا نسأل على ماهر : ماذا نصنع ؟ فأجاب برد سخيف : لقد قال على ماهر : ان عزيز المصرى لا يستحق (أزمة) وقرر اعطـاء المصرى أجـازة طويلة ٠

★★★

وحول قصـة قرار عزيز على المصرى وزميليه ذو الفقـار صبرى ، وعبد المنعم عبد الرؤوف فى ١٩٤١/٦/١٥ أشير الى زاوية هامة أفصح عنها د ٠ حسين هيكل باشا فى مذكراته ٠ وقد جاء ضمن ما قاله د ٠

هيكل باشا : « زاد سرى (باشا) شعورا بدقة الموقف حادث وقع وأثار فى البلاد دويا وضجة : سافرت فى الأيام الأخيرة من شهر مايو ١٩٤١ الى رأس البر أهيىء مكان اصطيافى ، وقضيت بها ثلاثة أيام ، وفى صباح اليوم الذى اعتزمت فيه العودة الى القاهرة ، أبلغنى الحاجب المرافق لى أنه سمع أن عزيز على المصرى باشا سافر خفية بطائرة حربية يريد الذهاب الى الألمان • ولم أصدق الخبر أول ما سمعته ، واتصلت تليفونيا من رأس البر بمحافظ دميـاط أستوثق منه • وأخبرنى الرجل أنه بلغه مثل هذه الأنباء وأنه سيتصل بالقاهرة للتثبت منها •

وأنبأنى ــ المحافظ بعد أن لقيتـه ان عزيز باشـا المصرى وضابطا طيـارا اسـتقلا ليلا طائرة عسـكرية من القاهرة وقاما بها يريدان جهة غير معلومة وان الطائرة اصطدمت بأسـلاك التليفون عند قليوب فهبطت الى الأرض واضطر راكباها لمغادرتها وللفرار هربا الى حيث لا يعلم أحد ، وان مجلس الوزراء منعقد بعد الظهر من هذا اليوم ليتداول فى الحادث ، وأنه خوطب من القاهرة كى ما يتصل بى لأحضر اجتماع مجلس الوزراء •

وعدت مسرعا الى القاهرة وحضرت اجتماع المجلس ، فألقيت سرى باشا والوزراء جميعا فى حيرة ورأيتهم يخشون ان يكون لما حدث نتائج بعيدة الأثر ، فعزيز على المصرى هو الذى تولى رياسة اركان حرب الجيش المصرى فى وزارة على ماهر باشا وكان متهما بميله الواضح للألمان • فلما تولت وزارة سرى باشا أعفته من منصبه وكان طبيعيا وذلك الرأى بعد ان يراقب مراقبة دقيقة • فكيف استطاع مع ذلك ان يدبر وسيلة للفرار من غير ان يعلم بهذا التدبير أحد ؟ وأين ترى يكون قد اختفى ؟ وما هى الاجراءات التى يمـكن أن تتخذ فى شـأن من يردد الدعايات لمصلحة المانيا ••؟

تداول المجلس فى هذا كله وفى مثله ، وانتهى بأن ترك الأمر لرئيس الوزارة بوصفه السلطة القائمة على اجراء الأحكام العرفية يتصرف فيه بحكمته وحسن تدبيره •

ازداد سرى باشا بعد هذا الحادث اقتناعا بضرورة تدعيم الوزارة ، لكنه لم يكن يستطيع أن يفاتح أحدا فى هذا التدعيم قبل ان يعثر على عزيز باشا المصرى وان يتخذ معه اجراء يعيد الطمأنينه الى مقدرته على معالجة شئون الدولة فى الأوقات العصيبة المحيطة بالحزم والحكمة •• لهذا وجه

كل جهده للبحث عن الفارين واعتقالهما ، ولم يكن هذا يسيرا كما يقول هيكل باشا .

فقد كان ـ وأنا هنا انقل كلمات هيكل باشا بنصها ـ يحيط عزيز باشا بعطف يتعذر معه الاستعانة بمعلومات هذا الجمهور لاقتفاء آثار الرجلين ومعرفة المكان الذى اختبأ فيه . وبعد أسابيع استطاع البوليس السياسى أن يتأكد أنهما موجودان بمنزل بامبابة وان يحيط بالمنزل وأن يقبض عليهما . وأصدر سرى باشا أمره باعتقالهما .

ولست أدرى لماذا أصر هيكل باشا على ان يعتبر الهاربان (عزيز باشا وزميله) رغم أن البيان الرسمى بالفرار والبيان الرسمى الآخر الخاص بالاعتقال قد أكدا (البيانان) أنهما ثلاثة لا اثنين .

★★★

أقتطف لقطات من مذكرات اللواء محمد ابراهيم امام مدير البوليس السياسى سابقا ، وأحد تلاميذ عزيز المصرى . والمقتطفات هى :

١٦ مايو ١٩٤١

فى منتصف ليلة أمس فوجىء الرأى العام باذاعة نبأ هرب الفريق عزيز على المصرى باشا على طائرة حربية وقد رافقه فيها الطيار حسين ذو الفقار صبرى والطيار عبد المنعم عبد الرؤوف . وقال النبأ . ان الطائرة لم تستطع مواصلة الرحلة الى الغاية التى كانت تقصدها ، بل هبطت اضطرارا فى أرض زراعية على مقربة من قليوب وأصيبت بتلف وعطب بسبب اصطدام أجنحتها بالأسلاك التليفونية وهى تهبط ، واختفى الرجال الثلاثة وبقيت الطائرة مكانها .

وللفريق عزيز المصرى مكانة خاصة فى قلوب المصريين لاعتزازهم به كقائد عالمى ، ولما أظهره من قوة وكفاءة وهو رئيس لهيئة أركان حرب الجيش المصرى منذ فترة غير بعيدة .

وقد اهتمت كل أجهزة الدولة بالبحث عن ركاب الطائرة ، وألقى العبء الأكبر على عاتق البوليس السياسى والمباحث الجنائية ، ووقع على الاختيار ضمن الضباط الذين اختيروا من البوليس السياسى ، ولم يقتصر الأمر على أجهزة الأمن فى القاهرة وحدها بل شمل كل الأجهزة فى المحافظات والمديريات كلها وحتى فى القرى الصغيرة والعزب .. ان المهمة خطيرة والعبء قاس على كاهل ضابط صغير مثلى برتبة اليوزباشى فشخصية بطل القضية شخصية كبيرة وطنية وشعبية والرأى العام له تقديره فى

نتيجة هذه المهمة اذا ما كتب لى النجاح فيها : هذا من وجهة نظر العامة . ومن وجهة النظر الخاصة .. فان عزيز باشا المصرى كان أستاذى بكلية البوليس ، وكان أستاذا فوق الممتاز ، وأنا وكل تلاميذه مدينون له ، بتربية صلبة قاسية لا تعرف الهوادة أو التراخى فى سبيل الواجب . وقد قررت خطة للبحث سأنفرد بها ولأجرب .

وتحت عنوان ٢٠ مايو : كتب محمد ابراهيم امام يقول :

اجتماعات للمسئولين فى وزارة الداخلية تعقد ليلا ونهارا بصفة مستمرة لاصدار التعليمات وتكتيل الجهود للبحث ، وقد وعدوا جميع القوات بترقيات ومكافآت سخية لمن يوفق فى القبض على الرجال الثلاثة .. الصفحات الأولى من الجرائد تصدر يوميا بها مانشيتات كبيرة بوعود الحكومة بهذه المكافآت وتشجيع الرأى العام على الاشتراك فى البحث عن الهاربين . وقد علمت ان الموقف تأزم بين السلطات الحربية والحكومة بسبب الحادث ، وذهبت الاشاعات الى القول بأن الوزارة فى طريقها للاستقالة . ولم يدل رئيس الوزراء حسين سرى باشا بأى تصريح .

وتحت عنوان ٢٤ مايو : كتب امام بك :

عمل تحقيق ادارى أسفر عن مسئولية البوليس السياسى وتقصير مدير الأمن العام حمدى بك محبوب وتقرر اعفاء محمد عزمى بك سكرتير عام وزارة الداخلية من جميع مشاكل منصبه ليتفرغ لهذه القضية وحدها وخولت له سلطات واسعة . وقد هددنا نحن رجال البوليس السياسى من المسئولين واستمر تهديدنا وأنذرنا حتى بالاعتقال اذا فشلت جهودنا فى القبض على المختفين . وقد زاد الضغط علينا بعد ما ثبت من تقارير سلاح الحدود وقصاص الأثر أن المختفين لم يبارحوا القطر ، ونحن نواصل الجهد ليل نهار فى البحث ، والدافع لنا هو حماية أنفسنا لا اغراء المكافآت السخية . وقد أصبحنا نخاف من ان ينتهى الأمر بمحاكمتنا فى ظل الأوامر العسكرية القاسية التى كانت لا ترحم وأقلها اوامر الزج فى المعتقلات .

٣٠ مايو :

رجاله الأمن ينطلقون فى كل مكان ويبحثون ، وقد ضربت ادارة المباحث الجنائية رقما قياسيا فى عدد المنازل التى فتشها رجالها مشتبهين فى وجود المختفين ، وكانت حملة التفتيش هذه سببا فى أن انهالت على ادارة المباحث الجنائية وعلى المحافظات والمديريات بلاغات مجهولة عديدة يؤكد مرسلوها وجود عزيز باشا ورفاقه فى أماكن تشير اليها هذه البلاغات .

والضباط الذين يقومون بعملية التفتيش يعلمون بعدم جدية هذه البلاغات لأنها لو كانت صحيحة لكشف أصحابهـــا عن أنفسهم ونالوا المكافأة · ولكن خوف الضباط من المسئولية جعلهم لا يترددون في اجراء التفتيش · والحق يقال ان ما حدث كان محنة قاسية بالنسبة لمن فتشت منازلهم دون مبرر ·

١٣ يونيـو :

ان طريقتي التي انفردت فيها بالبحث لم أفتش خلالها منزلا واحدا بل ان اعتمادي كله على مراقبة الأشخاص الذين كنت أعلم وجود صلة بينهم وبين عزيز باشا ·· أي صلة ومن أي نوع كانت سواء في حاضره أو في ماضيه مهما بعد هذا الماضي ·

وقد اقتضت مني هذه المراقبة وقتا طويلا ، وجهدا ليس بالهين ، وتسللت فانتقلت بهـا بين عدة أشخاص ولكنني لم أصل بعد الى هذه الشخصية الشجاعة التي كان لها شرف ضيافة الرجال الثلاثة المختفين في هذا الوقت ·

١٦ يونيـو :

اهتديت منذ أربعة أيام الى الشخص الذي يتركز فيـه اشتباهي بصورة لم تسبق مع غـيره من الرجال الآخرين الذين اشتبهت فيهم ، ولكنني في اللحظة التي اعتقدت فيها أنني أمسكت بطرف الخيط ، أفلتت مني هذه الشخصية ، ومع ذلك لا بأس وسأستمر في البحث والمراقبة ·

ان هذا الشخص هو الفنان عبد القادر رزق الأستاذ بكلية الفنون الجميلة ، وكانت أهم ملاحظة استرعت انتباهي وأنا أراقبه وأتابعه ، أن رأيته في ثلاثة أيام متعاقبة يشتري كميات كبيرة من الأطعمة الفاخرة من محلات جروبي وأنا أعلم أنه رجل محدود الدخل ·

وفي اليوم الرابع (أمس) اختفى عبد القـادر رزق ولم أسـتطع الاهتداء الى محل اقامته حتى الآن فقد كان عنوانه في الكلية قديما ، وعنوانه الجديد غير معلوم فيها · وندمت بيني وبين نفسي لأنني لم أتابعه منذ اليوم الأول وانتظرت لأكتشف جديدا بالمراقبـة وأزداد وثوقا من اشتباهي · ولكن كما قلت لا بأس ·

أول يوليو :

بالأمس فقط عثرت على الخيط الذى ضاع منى ، رأيت عبد القادر رزق وهو يشترى كمية كبيرة من الأطعمة الفاخرة من عدة محلات ، ويظهر أنه كان غير يرجوبى حتى لا يثير شبهة وتتبعته الى بيته فى آخر امبابة عند طرف المزارع فى الطابق الثانى ، وتبين لى ان عبد القادر أعزب ٠٠ فلمن يشترى هذه الكميات الضخمة من هذه الأطعمة الفاخرة ٠ وأصبح يساورنى اليقين أكثر من الشك فى ان عزيز المصرى ورفيقيه يختفون فى هذا البيت ، ورجل البوليس أحيانا يستوفى من عقله الباطن مع ما يستقرئه من الوقائع المادية التى أمامه ٠ وتبينت من مراقبة الشقة أن نوافذهـا تظل مغلقة نهارا ولا تفتح الا ليلا ، وهذا من الأدلة الكبرى على وجود سر بداخلها يخشى نور النهار ولا يطمئن الا مع ظلام الليل ٠

٦ يوليـو :

لم أشأ أن أطيل فترة المراقبة ، واختمرت عندى فكرة التفتيش ، وقد فكرت طويلا فى كيفية التفتيش على ضوء الظروف المحيطة بالشخصيات الثلاث المختفيـة ٠ وكنت واقعـا تحت تأثير أنهم كرجال عسكريين لن يستسلموا ، وانتهيت الى أنى لو استعنت بقوة فسأسبب كارثة ٠

ولصلتى بعزيز باشا المصرى كأستاذ لى فى كلية البوليس : أستاذ فى الرجولة والشجاعة والصلابة ٠ رأيت ان أذهب وحدى وبدون قـوة وأعالج الموقف من وجهة النظر النفسية ، وكنت أعتقد عن يقين بأن عزيز المصرى باشا ورفيقيه الذين قاموا بهذا العمل الوطنى لابد أن يروا أننى فى سبيل تأدية واجبى ٠

وعزمت على التنفيذ ٠

وانتقلت الى البيت ، وصعدت الى الشقة وحدى ، وكانت الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وقد ساعدتنى الظروف فكان باب الشقة نافذته من الزجاج أمكننى أن أدفعها وأفتحها بسهولة ، ومددت يدى وفتحت مزلاج الباب من الداخل ٠

ودخلت الشقة ٠٠ شقة صغيرة ، وكانت حجراتها كلهـا مفتوحة ماعدا حجرة واحدة مقفلة الباب وتقدمت الى هذه الحجرة وأدرت أكرة الباب فانفتح ٠٠ ورأيت أمامى عزيز المصرى باشا ورفيقيه وكانت مفاجأة لهم ٠

وبدت علامات الدهشة على وجوههم ، اقترنت بهدوء وثبات كاملين ٠

قلت : السلام عليكم ·

وأجابونى فى صوت واحد : وعليكم السلام ·

وأضاف عزيز باشا بصوته الجهورى العميق : أهلا وسهلا ·

قلت : آسف ·

وأجاب عزيز باشا : لأ ، مافيش حاجة · كيف ؟ أنت تؤدى الواجب ، وقد علمتكم فى كلية البوليس كيف تؤدون الواجب ! ...

قلت : انك أستاذى ولهذا أشعر بحرج كبير ·

وكيف : ان الأستاذ لا يسعده شيء مثل ما يسعده نجاح تعاليمه وعلى الأخص فيما بينه وبين تلميذه أخلع طربوشك يا امام ·· !! الدنيا حر ·

وكان اليوم شديد الحرارة من أيام يوليو القائظة الملتهبة : وكان عزيز باشا ورفيقاه يلبسون بنطلونات البيجامات والفانلات فقط ، وخلعت طربوشى · وقال لى عزيز باشا : اقعد يا امام ·

وجلست معهم ··· ومضى عزيز باشا يسألنى :

آمال فين باقى القوة اللى معاك ·

أنا جيت لوحدى ·

ازاى ·· عجيبة ··

لأنى يا أفندم عارف كويس ان رجالا مثلكم يقدرون واجبهم نحو وطنهم حق قدره ·

برافو ، يا امام ، أنا فخور بك · حقيقى انك تلميذ جدع · اتفضل طبنجاتنا أهى ، وسلمونى مسدساتهم الثلاثة التى كانت الى جانبهم ·

ومضى عزيز باشا يقول لى : قوم فتش زى ما انت عاوز ·

لا ·· يا أفندم ·

قلتها فى حياء وحرج شديدين ، ولكن عزيز باشا صاح فى وكأنه يلقى أمرا عسكريا من الأوامر التى كان يلقيها علينا ونحن تلامذة فى كلية البوليس ·

قوم شوف شغلك ··

وامتثلت ولم أجد غير مبلغ كبير من المال ، على ما أذكر فى دولاب فى الحجرة ·

وبينما كنت أفتش كان عزيز باشا ورفيقاه يتحدثون حديثا عاديا يغلب عليه المرح وكأنما ليس في الأمر ما يثير اهتمامهم ·

وكان أبرز ما يبدو عليهم أمارات الشجاعة والقوة النادرة وذلك الحديث الذى يتبادلونه ولا يتفق مع الموقف كما اعتدناه مع غيرهم ·

لقد كان عزيز باشا ورفيقاه يؤمنون كل الايمان بأنهم بصدد عمل وطنى بعيد عن الجريمة ، وكانت أمارات الشجاعة والارتياح تغمر وجوههم وتعلن أنهم قوم قد أرضوا ضمائرهم بعمل لخدمة وطنهم ·

وأخيرا ·· قال لى عزيز باشا :

تسمح لنا بلبس هدومنا علشان ننزل معاك · وهضى يكمل ·· ولا ناوى تسيبنا وتمشى ·

وقهقه ضاحكا ، ثم استطرد فى دعابته ·· يجوز جاى لنا زيارة وبس ·

قلت بلهجة الحياء والخجل والحرج التى كانت تغلب على حديثى معهم فى ذلك اليوم : يا أفندم ·

وقاطعنى عزيز باشا قائلا : وهو يربت على كتفى فى حنان : يا راجل أنا باضحاك معاك · حالا حنكون جاهزين ·

طيب ·· اسمحوا لى يا أفندم أتكلم فى التليفون علشان أخطر الجهات الرسمية ·

● للأسف يا امام ماعندناش تليفون هنا فى البيت ·

●● انزل أتكلم من أقرب تليفون وارجع عبال ما تلبسوا ·

● مافتكرش ح تلاقى تليفون قريب من هنا ·

●● اتكلم من المركز ·

● ما المركز بيننا وبينه كيلو من هنا ·

●● ما باليد حيلة ·

● وتسيبنا لوحدنا ؟

●● وماله ·

● موش خايف لنهرب ·

● تكفى كلمة الشرف ·

برافو يا امام التلميذ متفوق على أستاذه • روح بلغ وارجع تلاقينا في انتظارك مستعدين للنزول كمل الواجب اللى عليك للآخر •

وذهبت الى مركز امبابة وأخطرت الجهات المختصة ودللتهم على العنوان وعدت الى البيت فوجدت عزيز باشا ورفيقيه وقد ارتدوا ملابسهم وأعدوا حقائبهم وكتبهم وجلسوا ينتظروننى • وقال لى عزيز باشا وهو مبتسم : ايه رأيك ؟ أدى احنا ماهربناش •• وصمت لحظة ثم استطرد يقول : كلمة الشرف تخوف أكثر من أورطة بحالها •

ولم يلبث ان وصل وكيل الداخلية ومدير الأمن العام والمحافظ والحكمدار ، ودعوا عزيز باشا ورفيقيه المتوجه معهم الى سجن الأجانب •• وبينما كنت أهبط السلم الى جانب عزيز باشا المصرى همس فى أذنى قائلا : لى ملحوظة واحدة بس يا امام •

أفنـدم •

كان لازم تخبط على باب الأوضه قبل ما تفتحه •• !!

★★★

وتبقى رءوس موضوعات أخرى هامة وخطيرة :

● عندما احتفى أساتذة وخريجو مدرسة البوليس والادارة — ٢٨ فبراير ١٩٣٨ — بعزيز على المصرى ألقى عزيز على المصرى الكلمة التالية التى تنم عن جرأة متناهية وعن ثورة عنيفة ارتجلها عزيز على المصرى كلمة •• فجاءت من القلب ، لتدخل القلوب مباشرة ••

« أدرك ان الغرض من اجتماعنا هذا هو اظهار شعور متبادل بينى وبين الذين تخرجوا فى مدرسة البوليس والادارة مدة اقامتى فيها ، وأدرك أيضا ان وسيلة هذا الاجتماع هو تعيينى فى وظيفة مفتش عام الجيش المصرى بواسطة الرجل القائم على رأس الحكم الآن ، والذى كان على يده أيضا تعيينى الأول لرئاسة مدرسة البوليس والادارة ، وذلك اذ رأى رغبة جلالة الملك قوية جدا فى اعداد جيش يضمن سلامة مصر واستقلالها ، ويحيى آمال أمة ترى فى عهده الذى بدأ ربيعه مع ربيع استقلالها فألا ساطعا لتحقيق أمانيها • ربما أنكم تريدون اعادة ذكريات محاضرات مدرج المدرسة ، تلك المحاضرات التى كانت ترمى الى البحث عن الحقائق لاستنباط نتائج كامنة منها — فسأحدثكم بصراحة كفرد من أفراد العائلة المصرية يعاتب أخوته لخير العائلة خصوصا وأن أخبارا كثيرة متضاربة تناثرت على الألسنة والجرائد ، أرى

من المستحق وضع حد لها فأقول : ان هذا التعيين الذى تفضل به جلالة مليكنا المحبوب لم تظهر له عواقب عمليــة بعد ، وذلك لامتعاض البعض داخل الجيش وخارجه ، كما حصل امتعاض يشبهه عند اختيارى لرئاسة مدرسة البوليس ســابقا ، فبعضكم يذكر كيف قابل حضرات ضباط البوليس العظام هذا الاختيار بوجوم اذ رأوا فيه عقبة فى أمل وصولهم الى ذاك المنصب ، وكيف قابله حضرات القانونيين أيضــا الذين كانوا يعتبرون هذا المنصب حقا لهم لأن القانون هو الأساس الأول للدراسة البوليسية ــ فقال الأولون : كيف يسند منصب كهذا لرجل جاهل بالنظم المصرية ، لا يدرك من وظائف البوليس شيئا ٠٠٠٠٠ وقال الآخرون : كيف يجلس على رأس المعهد رجــل عسكرى جاهل بعيد عن كل نواحى الثقافة ، عدو للقانون بطبيعة مهنته ، وحتى زاد بعضهم وقال : قاطع طريق وسفاك ٠ ثم تتذكرون كيف تبدل الحال بعد ذلك فأصبح المعهد بفضل سعة صدور ومدارك حضرات الضباط والمدرسين عائلة تسودها المحبة المتقابلة والاحترام المتبادل والعمل المتواصل ، وكلكم يتذكر السرور المتلألىء على وجه الملك المعظم الراحل ــ وكان خبيرا مدركا للحقائق ــ عند زيارته وقتئذ لمعهدكم لما رآه من ظهور تلك العوامل بجــلاء ووضوح فقال لحضرات الوزراء : هل يوجــد فى العــالم معهــد أحسن من هذا ٠ رحمه الله وعوضنا عنه فى ولده العزيز خيرا وتوفيقا ٠

فهم هواة كهواة التنس أو البولو (يعنى سبور) وأظن أن سواد الأمة بدأ يسأم من وجود هذا النوع من الرياضة الأخلاقية الغريب فى البلاد ، وكأنى أرى جيوش النور زاحفة على هذه الطبقة فى معسكرها المظلم وكأنى أرى طلائعها مؤلفة من جيل جديد لشباب تثقف وتعلم فى عهد كفاح نبيل متواصل يقودها ملك شباب قلبه مملوء محبة واخلاصا لوطنه ٠

ان الجيش يجب أن يكون معرضا للقوى العقلية والمعنوية والانشائية للأمة ، وأن يكون مدرسة توحيد بين أجناس الأمة وطبقاتها ، فيعمل لتجانس الطباع ولتجانس التفكير ولتجانس الذوق ، وعمل مثل هذا محتاج الى ضباط راقين يدركون أهمية تلك النواحى ٠

فأنتم الضباط الحــديثون فى الجيش وفى البوليس ، وأنتم شباب الجامعة الذين أود أن تكونوا النواة المفكرة فى مستقبل الجيش ، يقع على عاتقكم القيام بهذا العمل الجسيم ، فتآخوا فيما بينكم وتعرفوا بأنواع الكتب ، ولتكن أحاديثكم مناقشة فى محتوياتها ، فالكتاب والسيف هما الرمزان اللذان يجب أن ينقشا على راية الرقى ، ولا تتباهوا على الأقدمين منكم ، فان خير ميراث يجب علينا حفظه فى الشرق هو هذا التواضع النبيل أمام الشيوخ الطيبى القلب ٠

لا يمكنكم ان تدركوا درجة سروري اذ أراكم تجرونني اليكم وتجبرونني على ان أتحدث اليكم كما كان يجرني ولدي وهو صغير يجبرني على ان أقص عليه شيئا . والشمس في الطفل تفرح اذ ترى الشمس في الضحى فيظن الشيخ أنه أصبح شابا ، وكم تبعد الحقيقة عن هذا ، ولكن كل القوى الطبيعية جميلة وما أجملهـــا اذا اجتمعت كما نحن مجتمعون اليوم .

كلمتي الأخيرة أن تتأملوا في صفحات التاريخ ، تجدون أنه ما من رجعية عاكست الرقي الا وانتهى أمرها بالهزيمة ، لأن نظام الله يقضي بالحركة الدائمة في سبيل التجدد والرقي . فالوقفة المعادية لهذا التقدم المندفع بقوة الطبيعة نصيبها التدحرج في الهاوية ، وأن مصر التي منحتني الله الحياة على يدها مرتين ، مرة عند مولدي ، وأخرى اذ أنقذتني من شرك صديقي وعدوي أنور رحمه الله . مصر التي قابلتني عند عودتي اليها سنة ١٩٢٤ عقب تصريح ٢٨ فبراير بمظاهرة بريئة مرحبة بشخصي بشخصه تعرفني وأنا نازل من الباخرة الى الجمرك ، والتي رحب بي رأيها العام الذي رحب بي عند اسناد رئاسة مدرسة البوليس الى والذي عاد اليوم يبتسم ، ابتسامة أم مطمئنة فرحة . مصر هذه لها الحق أن تأمرني بأن أقضي بقية حياتي ســاهرا على حدودها مع جيش من بنيها قادر على صد المكاره عنها ، لتعمل هادئة لعودتها الى زعامة المدنية ونفع الانسانية .

والآن نرى المأساة تتكرر .. فمن قائـل أنـه تدرب في جيش أجنبي ، ولا علم له بالنظم الانكليزية التي فضلناها نحن والتي تحتمها علينا المعاهدة . ومن قائل .. أنه لم يتدرج في الجيش المصري حتى يتمكن من قيادته ، وهذا أخف والطف ما قيل وما يقال ، وبما أني لم أستلم زمام القيادة التي بدونها لا أتمكن من العمل ، رجحت .. مراعاة للظروف أن أمتنع عن الذهاب الى الوزارة الى أن يقضي الله أمره . على ان الرسائل التي ترد الي من أنحاء القطر ومن كافة طبقاته ، أراها مستبشرة ، حاثة ، بل ملحة على تنظيم الجيش بسرعة ، وما أقرأه في وجوه الناس من السرور المتوقع عن وجدان مدرك للحقائق .

واجتماعنا اليوم — كل هذا يجعلني أشعر ان في مصر رأيا عاما . وأن هذا الرأي العام مدرك أن جيشا منظما قويا هو الضمان الوحيد للاستقلال ، ومدرك أيضا ان الجيش ليس معناه السلاح والمعدات فقط ولكن هنالك عوامل أخرى قد تكون أدق كثيرا من العوامل والنظم اللازمة لتشكيل حكومة ، وانه ان كانت الأسلحة والعربات المصفحة فقط هي الجيش ، لكانت أدوات الجراحة هي كل شيء في الطب ، ولما كانت الناس تهرع الى كبار الجراحين .

نعم ٠٠ ان الرأى العام الذى أراه عندنا لا يشبه نظيره المنطقى فى لندن مثلا ، ولكنه موجود فى مصر وجودا صادرا أكثره عن العقل المنطقى ، قد يخطىء أحيانا لأنه يبنى حكمه على ما يسمعه ويراه ٠ وكم من كذب فى شكل صدق نسمعه ٠٠ وكم من غش فى شكل حقيقة نراها ٠ ولكن العقل الباطنى قل ان يخطىء لأنه ملهم من أسس الخلقة الثابتة ٠ » ٠٠ الى أن يقول عزيز باشا :

فى الواقع ان فهم مصر ليس بالشىء الهين حتى على كثير من المصريين ، فكما أن أسرارها التاريخية هى سواء أكانت فى العصور الأولى أو المتوسطة لم يزل الكثير منها مدفون فى أعماق أرضها وتحت أكداس من التلال ٠ كذلك شعور سكانها تراه بعض العيون مدفونا فى قرارات وجدانها تحت تلال الخوف من الطبقة المتغلبة أو الهيئة الحاكمة ، أو لقلة الاهتمام بالأمور العامة ، فالرأى العام الفطرى هنا أشعر أنه يرحب بهذا التعيين ٠ على أنه توجد فى مصر أيضا طبقة ممتازة من المتعلمين الذين يدركون الحقائق والسياسة العالمية أكثر من غيرهم فى الأمة ، هذه الطبقة تقابل هـــذا التعيين بوجهين مختلفين ٠

فالنزيهون المخلصون منهم — وهم الأكثرية بحمد الله — منضمون للرأى العام ويرحبون بهذا الأمر ، بل أظن أنهم هم الذين ارادوا أن أقوم أنا باصلاح الجيش وقيادته لأنهم يعتقدون — صوابا أو خطأ — أنى لا أقبل عملا الا اذا كنت قادرا على فهمه وانجازه ٠

والآخرون ، وأريد ان أسميهم — ما دام موضـــوعنا الجيش — حملة الألغام المهلكة فى طريق كل مصلح يظهر فى هذه البلاد ، فهم فى حزن شديد لهذا التعيين ، وبعض هؤلاء متطوع للأذى » ٠

***

وكان الحفل الذى أقيم فى فندق هليوبوليس بالاس بمصر الجديدة ٠ وكان خطباء الحفل بترتيب القاء كلماتهم هم : الأستاذ عبد الله شعيب المدرس بمدرســـــة البوليس ، والملازم أول لبيب قوص والملازم أول عبد الهادى محمد أفندى الضابط ببوليس الأقاليم ، والملازم ثانى يوسف غراب أفندى ، والملازم أول يوسف القفاص أفندى ، والأستاذ عبد الحميد متولى أستاذ القانون بالمدرسة ،

وقد أجمع الكل على أن عزيز باشا من خيرة الرجال الذين تولوا ادارة مدرسة البوليس لأنه دفع بها الى الأمام دفعات قوية ما زال أثرها واضحا الى الآن فى اضطراد نهوضها وارتقائها ٠

● وقد كان الأستاذ أحمد حسين المحامي ، ورئيس حزب مصر الفتاة ورئيس الحزب الاشتراكي فيما بعد في مقدمة غلاة المعجبين بعزيز على المصري ومؤيديه وحوارييه • وقد كانت صحف حزب مصر الفتاة • والصرخة ، وغيرها ، وغيرها لسان حال عزيز على المصري منذ منتصف الثلاثينات وحتى نهايتها • فكانت تتبع دائما نشاطات عزيز على المصري ، في المنافي أو في الوظيفة الحكومية ، وكانت دائمة الدفاع عنه ودائمة الاشادة بمواهبه • وقد أفادتني تلك الصحف في دراستي عن عزيز على المصري الى حد كبير خاصة ولم تكن هناك صحف أخرى وقتذاك تؤمن بعبقرية عزيز على المصري كما تؤمن صحف مصر الفتاة • وعندما كان عزيز على المصري مفتشا عاما للجيش المصري ، وعندما كان رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصري كانت تلك الصحف تتابع نشاطه اليومي ، رغم أنها صحف أسبوعية ، وكانت تنشر بتوسع أحاديثه ومحاضراته وخطبه •

وأجد لزاما على ، في هذا المدخل ، أن أشير الى ذكريات الأستاذ أحمد حسين ، كصديق ونصير لعزيز على المصري ، وكلها ذكريات جديدة تؤكد مكانة عزيز على المصري في نفوس الشعب ، ومكانة عزيز على المصري في نفس أحمد حسين ورفاقه •

يقول الأستاذ أحمد حسين : كان عزيز على المصري يحثنا دائما على الايمان بالله وحده ، والادمان على المطالعة والتثقف ، والتدرب على اطلاق النار ، لتخليص البلاد من الخونة وأعداء الشعب •

وأخرج ويخرج غيري من لدن عزيز المصري يتنازعنا دائما — هذان العاملان المتجاوران المتلازمان الاعجاب الذي يصل الى حد الذهول بهذا الرجل الأسطوري الذي لا تغيره المناصب أو الرتب أو الجاه ولا يزيده تقريب السلطان له ، الا اصرارا على ثورته على الأوضاع الفاسدة وتمرده •

وعامل آخر هو •• الانكار لهذا التهور الذي يبديه في أحاديثه وعدم الأخذ بأي سبب من أسباب الحذر أو الاحتياط •

الى ان يقول أحمد حسين •••

وقبيل اندلاع نيران الحرب جاءت وزارة على ماهر وكان وزير دفاعها صالح حرب فجعلت من عزيز المصري رئيسا لأركان حرب الجيش ، منحته رتبة الفريق وأطلقت يده في اصلاح الجيش •

وهكذا وصل عزيز المصري أخيرا الى أرفع الرتب العسكرية ، وكان مجرد التلفظ باسمه كافيا لاشاعة روح الحماس وسط الجنود قبل الضباط حتى ولو لم يعرفوا شيئا من تاريخه •

ودخلت لأول مرة فى تاريخ حياتى الى مكتب رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى وزارة الدفاع ، لأقابل عزيز باشا المصرى . كما دخلت لأول مرة فى حياتى الى مدرسة البوليس لأقابل عزيز المصرى ٠وفوجئت بنفس الظاهرة التى تميز هذا الرجل من دون العالمين ، وهو أن المناصب مهما كانت خطورتها ، أو علو مكانتهـا لا تستطيع ان تغير فى أسـلوب الرجل ، أو حديثه أو طريقة تصرفه ، لقد راح يحدثنى وكانت الحرب العالمية الثانية قـد اشتعلت بالفعل ، كيف ان هـذه الحرب ستشهد نهـاية الامبراطورية الانجليزية والفرنسية وكيف أن طلاب الكلية الحربية وبعض ضباط الوحدات قد طلبوا منه ان يشرح لهم المعارك الدائرة فى أوروبا فراح يشرحها بما يظهر عجز الانجليز وفشلهم وقرب اندحارهم ٠

وأنظر للرجل – رغم صحبتى الطويلة له – فى ذهول أكثر من أى وقت مضى ، أنظر اليه وهو فى بزته العسـكرية واشارات رتبه تزحم كتفيه ، وهو جالس فوق مكتب ضخم مزدحم بالتليفونات والأجهزة ، التى قد يكون فى أى منها ما يسجل كل كلمة تخرج من فمه ، وأهتف بالرجل فى شيء من الحدة ونفاد الصبر ٠٠٠ – ما هذا يا باشـا ٠٠ أتتصـور أن باستطاعتك ان تستمر فى هذا المنصب وأنت تتحدث عن الانجليز بهذه اللهجة ، وهم فى حالة حرب ، ألا ترى أنه من الخير أن تصنع شيئا من الكياسة والمداورة والمصانعة ، حتى تتمكن ، وحتى تجمع الجيش حولك ٠ فينظر الى فى ابتسامته الوديعة الرقيقة اللينة بعطف الأب وحنوه على ابن صغير مدلل ويقول فى سخرية :

– ان الانجليز يعرفون من هو عزيز المصرى ، ولو قلت غير ذلك ما صدقونى ولظنونى أتآمر عليهم ولذلك فلا يمكن الا أن أكون كما أنا ٠٠ ان نهاية الانجليز قد قربت ، وعليك أن تقول للشباب ان يستعدوا وأن يجمعوا السلاح ويتدربوا على ضرب النار ٠٠ ان الساعة آتية لاريب فيها ٠

وكان من المحقق ان يصح ما توقعت ٠٠ فبعد أسابيع كان الانجليز يثيرون أول أزمة مع وزارة على ماهر حول شخص عزيز المصرى وضرورة استبعاده ، ويركن عزيز المصرى مؤقتا ، ولكنه ينتهز هذه الفرصة ليزيد من اتصالاته بالعناصر الشابة فى الجيش والتى سيكون مقدرا لها بعد حين ان تحقق حلم حياته ٠

ثم يقول الأستاذ أحمد حسين :

وأبت الأقدار الا أن تربط بينى وبين الرجل فى مناسبة مؤسفة ، فقد كان الانجليز قد أصدروا أمرا بمجرد نشوب ثورة العراق واشتراك

أخى الشهيد مصطفى الوكيل فيها ، يقضى باعتقالى أنا وجميع اخوانى ، ولأول مرة فى حياتى قررت أن أهرب من وجه الاعتقال الذى لم أكن أعرف مداه وكان يتم لحساب الانجليز ، فانطلقت قوى الأمن فى جميع أنحاء البلاد تبحث عنى بضعة شهور دون أن توفق فى القبض على وفى هذه الأثناء كان عزيز المصرى قد استقل طائرة حربية بمساعدة اثنين من الطيارين المصريين ليلحق بالألمان فى ليبيا ليشترك فى محاربة الانجليز ، فسقطت الطائرة عند مدينة قليوب وتحطمت ولكن عزيز المصرى ومعه زميلاه نزلوا الى الأرض سالمين وبهدوء أعصاب وبرود لا يقوى عليه سوى أبطال الأساطير ، اتصل عزيز المصرى برجال البوليس فى المنطقة وطلب منهم سيارة لتنقله وصاحبيه الى القاهرة ، ولم يتصور البوليس أنه يساعد عزيز المصرى وصاحبيه على ارتكاب جريمة الهرب بعد فشل أخطر مؤامرة . فقدم له العون اللازم لنقلهم الى القاهرة ..

وفى القاهرة اختفوا عن أعين البوليس والسلطات فى منزل أحد اصحابنا فى الدقى .

وعندما اكتشف ما حدث فى الصباح قامت الدنيا ولم تقعد ، وهاج الانجليز وماجوا ، وكان فى الحكم رئيس حكومة جديدة هو حسين سرى الذى هدد بوليس مصر السياسى بالحل والالغاء اذا لم يتمكن من القبض على عزيز المصرى .. ولكن جميع الجهود ذهبت سدى .

وحدث ان كان الضابط المكلف بالقبض على لاينى عن البحث عن خيط يوصله الى ، فوجد واحدا من اخوانى يشترى طعاما من جروبى فقرر أن يتبعه فأوصله التتبع الى حيث يقيم عزيز المصرى دون أن يتصور الضابط الا أنه يقتفى أثر أحمد حسين ، وجمع قواته وحاصر البيت ثم هجم عليه شاهرا سلاحه ولكنه بدلا من أن يجد أحمد حسين وانما وجد عزيز المصرى باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى السابق وعدو الانجليز رقم (١) .

وتقرر السلطات ان تحاكم عزيز المصرى وان تضع نهاية لأسطورته وتزيح من الوجود عدو الانجليز الأكبر ، ولكن المحاكمة لا تكاد تبدأ حتى تتحول الى مهرجان وطنى لعزيز المصرى الذى وقف موقفا رائعا هز النفوس ، فعندما اعترض المحامون على تشكيل المحكمة العسكرية لأنها مؤلفة من ضباط يصغرون عزيز المصرى فى الرتبة ، أعلن عزيز المصرى أنه مع احترامه لدفاع المحامين فانه قابل المحاكمة أمام أى محكمة حتى ولو كانت مشكلة من صغار الضباط والجنود وكل الذى يشترطه ان يكونوا

من الوطنيين الشرفاء ـ وعندما وجد القاعة فارغة من الجمهور قال لرئيس المحكمة : ليس يهمني ما تنتهي اليه هذه المحاكمة مت أو عشت ، ولكن الذى يعنيني في الدرجة الأولى ، هو ان تفتحوا الأبواب للشعب لكي يأتي الى هنا ويسمع ويتعلم ، استدعوا طلاب الحقوق والكلية الحربية والبوليس ٠٠ ليحضروا هذه المحاكمة ويتعلموا ٠

ولو ان المحاكمة استمرت واستجيب لطلبات عزيز المصرى لسجل التاريخ أروع ما يقوله انسان فى مثل هذا الوقت ٠٠٠ ولكن الانجليز والحكومة المصرية رأيا من حسن السياسة أن يغلقوا هذا الباب ويسدلوا الستار على المحاكمة ٠٠ فأوقفوها وحفظوا الاتهام ، وأفرجوا عن عزيز المصرى ليعود الى الحرية من جديد ٠٠٠٠

وعاد يندد بالملك والطبقة الحاكمة والفساد ٠٠ ويدعو الشباب أى شباب يقترب منه ان يؤمن بالله ٠ ان يداوم على الاطلاع والقراءة ، ان يتدرب على ضرب النار لقتل الخونة وأعداء الشعب » ٠

★★★

● ومن بين الشباب الذين تأثروا بعزيز المصرى ، وكانوا من خير تلاميذه ، المهندس كمال يعقوب أحد الشبان الوطنيين الذين لعبوا أدوارا هامة فى الأربعينيات وخاصة فى مجال العمل الفدائى السرى ، وكان كمال يعقوب ـ كما قال ـ قد تأثر فى البداية بعزيز المصرى كواحد من غلاة المعجبين به ، ثم تحول التأثر الى اعجاب ، والاعجاب الى نوع من علاقة العمل :

بدأت ـ هكذا يقول كمال يعقوب ـ أتردد على عزيز على المصرى بعد الافراج عنه فى أواخر عم ١٩٤٥ ، وقد ذهبت اليه فى البداية بصفتى مهندسا لاصلاح منزله الذى تهدم بعض أجزائه من جراء وجود جند الحراسة خلال فترة اعتقاله فى بيته فى عين شمس ، وقد استمرت العملية مدة شهرين ٠

ويروى كمال يعقوب ، الكثير ، الكثير ، عن حرص عزيز المصرى على التخلص من الخونة ، «وقد أوحى الينا بالتخلص من عبد العزيز الشافعى الشاهد الأول فى قضية اغتيال أمين عثمان ، وقد أخرج عزيز المصرى مسدسه الخاص وأعطاه لنا ، وبعد شهور نفذت عملية التخلص من ذلك الشاهد ، وكان الذى نفذ العملية محمود فهمى السيد وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم افرج عنه بعد قيام الثورة » ٠

وكان عزيز على المصرى باشا حريصا على مشاركتنا بعض ما نقوم به من أعمال وكنا - كمال يعقوب - حريصين على ابعاده عن الأخطار حتى يبقى لنا رمزا نستمد منه القوة ، والعلم ، والمعرفة ٠

وكان عزيز على المصرى باشا حريصا على ان نكون فى تنظيمات وخلايا ، والمعروف أن تنظيمات كثيرة كانت كلها فى يده ، وظلت كذلك حتى النهاية ٠

ويذكر كمال يعقوب ، أنه قبل سقوط الطائرة التى كانت تقله ، قد أخبره أنه ذاهب الى العراق ٠

وعن طريقة لقائه بعزيز المصرى ٠٠ يقول كمال يعقوب : عندما كنت أريد أن أقابله ، أكلمه فى التليفون ، وكان يعرفنى باسم مستعار هو « السباك » : أقول له : أنا السباك ، أحضر امتى علشان أصلح الحنفيات . ويتم تحديد الموعد ٠ كانت المقابلات تتم فى بيته فى عين شمس وغالبا فى الليل أو فى بيته فى القبة بعدما انتقل اليه عام ١٩٤٧ وبقى فيه حتى عام ١٩٥٢ ثم انتقل الى شارع المطار فى مصر الجديدة فى شقة ، ثم انتقل الى عمارة زبيدة الحكيم فى شارع محمود عزمى بالزمالك ٠ وحين عاد من موسكو انتقل الى شقته أمام نادى الجزيرة ٠

وكان عزيز على المصرى ، يحرص على ألا يرى أحد ضيوفه - فى بيته - ضيفا آخر ، مبالغة منه فى الحفاظ على سرية المقابلات : مرة جاءه خالد محيى الدين - وهو قريب لى - لكن عزيز المصرى كان حريصا على أن يبقيه فى حجرة ، وأجلس أنا فى حجرة أخرى حتى لا نلتقى ٠

وكان عزيز المصرى - والحديث لا يزال للمهندس يعقوب - حريصا على التعرف الى الشباب وكنا نقدم للباشا عناصر الشباب الذين نلمس فيهم الوطنية الصادقة والشجاعة والفداء ٠ وبهذا الأسلوب كانت الخلايا والتنظيمات تتكاثر ٠

ومن ناحيتى - كمال يعقوب - حين كنت اعتقل ، كان الباشا حريصا على الاتصال بى فى السجن وكان الوسيط بينى وبينه أحد ضباط البوليس وهو عبد الفتاح رياض ٠ فالسجن هو المكان المناسب لاعادة النظر فى التشكيلات واختيار العناصر الجديدة للخلايا ٠

وكان عزيز على المصرى باشا يتميز بهدوء الأعصاب وبالبساطة مع القوة والتركيز ، ولم يكن يثيره شيء الا الأحداث التى كانت تدور فى

البلد واحساسه باستسلام الشباب وعدم مقاومته المقاومة الكافية مثلا ـ أيام مفاوضات صدقي / بيفن ـ ضايقه ان هذه المفاوضات تجرى وتباع فيها مصر للانجليز والشباب بعيد عن الأحداث ، ولذلك كان يدفع الشباب الى العمل حتى يتأكد المفاوض المصرى وكذلك المفاوض الانجليزى ان الأمة ليست ساكتة ، أو غير منتبهة الى ما يجرى وراء الكواليس .

وكان من بين نصائح عزيز المصرى للشباب باستمرار .. عليكم بالقراءة والاطلاع ، لا تخافوا شيئا ، التزموا بالأمانة بكافة أشكالها » .

وما يقوله أحمد كمال الدين منسى عن عزيز على المصرى ، لا يختلف كثيرا عما قاله كمال يعقوب وان كان أحمد كمال منسى يضيف الى ما قاله كمال يعقوب ـ وللعلم فان أحمد كمال منسى كان ضمن الواقفين حول عزيز على المصرى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٦٥ ـ ان عزيز على المصرى قابل سعد زغلول عندما عاد عزيز الى مصر قادما من المانيا سنة ١٩٢٤ ، وقد عرض عزيز على المصرى على سعد زغلول ان يقود عزيز المصرى عمليات سرية من داخل حزب الوفد ، ولكن سعد زغلول خشى من آراء عزيز المصرى الثورة لأن سعد باشا كان لا يؤمن بالأعمال السرية والعسكرية منها بصفة خاصة .

ويقول أحمد كمال الدين منسى ان عزيز على المصرى كان ينظر الى الأمة العربية كوحدة واحدة وكان همه الوحيد وانتظاره الدائم بل تمنياته الخالصة : أن تجتمع كلمة العرب .

وكان عزيز المصرى يقسم الأمة العربية الى قسمين : المجموعة الشرقية : وتضم البلاد التى تقع شرقى مصر ، والمجموعة الغربية : وكانت تضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب . وكان يرى أن مصر بين المجموعتين بمثابة القلب ، فأن توحدت عناصر الأمة فى مصر ، كان ذلك خطوة لتوحيد العالم العربى ونمو القومية العربية .

ولقد كان عزيز المصرى يعمل دائما للوحدة العربية ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان شغله الشاغل أن يخلق شبابا عربيا متعلما ، وداعيا : يفهم الواجب نحو نفسه ونحو مصر ونحو وطنه العربى الكبير هذا على أساس أن الحضارة العربية من أعظم الحضارات بالنسبة للعالم. ومن أجل ذلك كان ينادى أنه لابد من خلق جيش وطنى قومى يكون أداة لهذا الاتحاد والوحدة يحققها ويحميها .

ويضيف أحمد كمال الدين منسى الى رؤيته لعزيز على المصرى قوله : الناس عند عزيز المصرى كانوا مثل الأدوات الا الذين وضع فيهم

ثقته ، ولم يكن عزيز المصرى يثق بأى انسان الى أبعد الحدود : أنا ــ مثلا ــ كانت علاقتى به فى غايــة المتانــة ، وكانت بينى وبينــه علاقات ثقة ، يعتبرنى كابنــه ، ولكننى كنت أحس أنــه يضللنى فى بعض المواقف ٠ وبالطبع فأن عزيز على المصرى لا يؤاخذ عليه حذره الشديد وانما يحسب له ، فهو فى طبعه قد ناضل الحذر الشديد ، وحياته الأولى فى تركيا هى التى دربته وعلمته ذلك : كانت تركيا أيام السلطان عبد الحميد ، الحياة فيها تحتاج الى شدة الحــذر ، أى خطأ فى التقدير كان من نتيجته ان يثقل الانسان بالحديد ويرمى به فى البوسفور ، حتى ولو حمل كتابا من الممنوعات ، هذه هى الحياة فى تركيا دربته ، وعلمته ، وأنضجته ، وهى التى جعلته ينجح فى أن يدبر الانقلاب العثمانى وأن يطيح بالسلطــــان عبد الحميد السلطان الأحمر من كثرة الدماء التى أراقها ٠ ونحن اذا عرفنا ــ أحمد كمال الدين منسى ــ ان عزيز المصرى حين قام بالانقلاب ونجح ، كان عمره حوالى ٢٦ عاما ، فان هذا يدل على عبقريته المبكرة ٠

ويضيف أحمد كمال الدين منسى الى ذلك قوله : كان عزيز عــلى المصرى يعلم كل شبر من الأراضى المصرية ، كان قاموسا أو موسوعة عن جغرافية مصر وجيولوجيتها ، وفضلا عن ذلك فقد كان يعرف كل الأراضى العربية خاصة الجغرافيا والتضاريس ٠

والى جانب أنه هو ذاته كان موسوعة الا أنه كان يحتفظ بالعشرات من الخرائط والموسوعات بكل اللغات خاصة الألمانية والتركية والانجليزيه والفرنسية والأسبانية ، وقد أهلته معرفته الجيدة بتلك اللغات للاستفادة من كل هذه الموسوعات ، ولذلك فان كثيرين ممن يعرفونه جيدا كانوا يقولون عنه : أنه كان أكبر مثقف عسكرى فى عصره ، وقد كانت كل الكتب العسكرية ترد اليه من جميع أنحاء العالم ، أما مهداة من أصحابها أو من دور النشر التى تقوم بطبعها ، أو كان يحرص على شرائها ، وقد كان يستوعب تلك الكتب بسرعة ، وفى أحيان كثيرة كان يعلق عليها ٠

★★★

● ومن الأسرار التى وقعت عليها ، وأعتقد أنها جديدة للغاية ، وتنشر هنا للمرة الأولى ، ما كتبه بخط يده الدكتور عبد الغفار الساعى الذى كان وثيق الصلة بعزيز على المصرى ، وكان موضع سره فى كثير من الأمور، ورغم ثقتى المطلقة فى الدكتور عبد الغفار الساعى الا اننى كالعهــد بى دائما فى مثل هذه الحالات التى لا تكون بين يدى فيها دلائل قاطعة على صدق الرواية ، أنقل الرواية على مسئولية وذمة صاحبها مع تسجيــل تحفظى الى أن تؤكد تلك الرواية بما لا يقبل الشك والجدل ٠

جاء فيما كتبه لى الدكتور عبد الغفار ، ان القائد الألمانى روميل كان يريد الاستعانة بعزيز على المصرى ، وبخبرته فى المناطق الصحراوية بصفة عامة ، وفى الصحراء الغربية بصفة خاصة ، وكان روميل يعتبر عزيز على المصرى من أعاظم قواد العصر ويرى أنه لو أتيحت للرجل ـ لعزيز على المصرى ـ الفرص ووضعت تحت يده الأسلحة والقوات ، لصنع الأعاجيب ، وكان روميل يعرف جيدا ان عزيز على المصرى هو الذى شارك فى تحصين منطقة العلمين ، كما كان روميل يعرف جيدا أيضا ان الانجليز لا يطمئنون اليه بل يعتبرونه من خصومهم وأعدائهم ، ويستدل على ذلك بان الحكومة الانجليزية هى التى طلبت تنحيته عن رئاسة أركان حرب الجيش المصرى لأنها لا تطمئن اليه ٠

ويقول د٠ عبد الغفار الساعى ، أيضا : كنت مقيما ببرلين وعندما عدت اتصلت بالفريق عزيز المصرى فكان أول كلماته لى أنه يهدف الى الوصول الى المانيا للتعاون مع الجيش الألمانى بقيادة روميل ٠٠ والذى أتى لمصر لطرد الانجليز ٠٠ وفى هذه الأثناء اتفقت معه على أن أسافر الى بلد محايد فى أوروبا ومنه يمكننى الاتصال بالألمان وتدبير خطة حضور طائرة ألمانية لمصر لنقل الفريق عزيز المصرى خارج البلاد وفى هذا الوقت لم تكن ايطاليا قد دخلت الحرب ، فاستطعت السفر لليونان ومنها الى الآستانة ، وهناك اتصلت برجال المخابرات الألمانية ودبرت معهم تنفيذ طريقة لحضور طائرة ألمانية لنقل عزيز المصرى ، ومن هناك عدت عن طريق البر الى بيروت أيضا وتقابلت هناك برئيس لجنة الهدنة « فون روزر » (الألمانية) مع حكومة فيشى بفرنسا ، وأخبرته بمشروع نقل عزيز المصرى من القاهرة بطائرة يتفق على مكانها بعد ذلك ، وأخبرتهم بأننى سأعود الى مصر للاتفاق مع عزيز المصرى على الطائرة وميعاد وصولها والمكان الذى تصل فيه ، فكان عندهم الاستعداد والرغبة لهذه العملية والاستعانة بالفريق عزيز المصرى ٠

وحينما عدت الى مصر أخبرت عزيز باشا المصرى بكل الاتصالات وما تم فى ذلك ، فكان رأيه وأخبرت عبد المنعم عبد الرؤوف الطيار المصرى بتفاصيل العملية ، فاهتم بتفصيلات العملية ، وبعد مدة حضر لى الطيار عبد المنعم عبد الرؤوف وأخبرنى أنه سيحضر لى يحيى البدراوى على أنه سيسافر الى استانبول عن طريق البر لبيروت ومنها لاستانبول لزيارة والدته التى هى من أصل تركى ، ويمكن أن أعطيه عنوان « فون روزر » فى بيروت وفى استانبول يتم الاتصال بالقنصلية الألمانية فى استانبول والسفارة الألمانية فى أنقرة ويخبرهم باتصالاتى بهم لتنفيذ عملية حضور الطائرة الى مصر ، فأعطيته كافة البيانات لكى يثق فيه

الألمان ويتعاونوا معه · وسافرت مع يحيى البدراوى قبل ذلك الى رأس البر لتحديد مكان يمكن للطائرة ان تهبط فيه وتم تحديد مكان لذلك ·

وحينما سافر يحيى البدراوى الى استانبول كانت الجيوش البريطانية قد دخلت لبنان واحتلتها وحدث أن يحيى البدراوى كان معه سكرتيره الخاص محمد باشا البدراوى وحدث بينهما خلاف فى استانبول وعاد سكرتيره بعد الخلاف وأخبر الانجليز فى بيروت بما قام به يحيى البدراوى من اتصالات ، وحالة عودته لمصر قبض عليه من الانجليز ·· وبما أنه كان شقيقا لزوجة فؤاد سراج الدين الذى كان وزيرا للداخلية فى ذلك الحين ·· اتصل به فى السجن فى محل اعتقاله وأخبره ان يقول لهم ما حصل حتى يستطيع السعى للافراج عنه ·· وقامت السلطات الانجليزية فى مصر بالتحقيق معى كما قامت وزارة الداخلية باعتقالى وايداعى سجن الأجانب للتحقيق ·· وفى هذه الأثناء تولت هيئة المخابرات الانجليزية فى التحقيق معى فى سجن الأجانب ، وكان ذلك فى عهد وزارة مصطفى النحاس ، وحينما سئلت أخبرتهم أنهم اذا كانوا أتوا باذن من النحاس باشا فليس له ان يعطيك اذن لأنه كان يجب أن يقوم بالتحقيق معى مصرى ·

وحكيت لهم ·· أننى كنت مسافر لبلد محايد لأنه كانت لى بضائع مصادرة كنت أرسلتها للسويد وصودرت ·· كنت أريد الاطمئنان ، ولذا كانت اتصالاتى ·· وليست اتصالات عسكرية ·· وبعدها أخذونى لمعتقل الزيتون ·

***

● فى ١٩٤٩/١١/٢٢ نشرت أخبار اليوم تحقيقا صحفيا تحت عنوان « ازاحة الستار عن سر عزيز المصرى » : كان يريد ان تكون مصر ، ضمن الدومنيون البريطانى ، ويقول انه ضد القتل والارهاب · وقد جاء فى ذلك التحقيق ما يلى :

« قبضت النيابة على الفريق عزيز المصرى باشا بتهمة الاشتباه فى أن تكون له علاقة بحوادث الارهاب التى ضبطت أخيرا ·

وليست هذه أول مرة يقبض البوليس فيها على عزيز المصرى ، فقد قبض عليه فى أثناء الحرب لمحاولته الهرب بطائرة عسكرية مصرية · وقبض عليه لمناسبة مقتل أحمد ماهر باشا · وقبض عليه لمناسبة مقتل أمين عثمان باشا ·

وقبض عليه أخيرا بعد مقتل النقراشي باشا . فقد كانت حياة المغامرات ، التي عاشها الفريق عزيز المصري باشا توحي الى بعض الشبان المتحمسين أن يحاولوا الاتصال به ، لكي يتزعم أمثال هذه الجمعيات الارهابية ولكن عزيز باشا يقول أنه ضد القتل والارهاب . ونحن ننشر اليوم لأول مرة فقرات من التحقيق السرى الذى جرى في هذه المناسبة .

عندما حاول عزيز باشا المصرى الهرب ، باحدى طائرات سلاح الطيران المصرى فى ١٥ مايو سنة ١٩٤١ ، وسقطت الطائرة فى قليوب ، بعد طيران دام عشر دقائق ، اختفى عزيز باشا ، واختفى معه الطياران المرافقان له ، وهما : عبد المنعم عبد الرؤوف ، وحسين ذو الفقار .

وقد ظل الثلاثة مختفين حتى يوم ٦ يونيو سنة ١٩٤١ . اذ استطاع البوليس مراقبته للأستاذ أحمد مرزوق المفتش بوزارة المعارف ، ان يقبض على عزيز باشا وزميليه فى امبابة ، وكانوا فى منزل الأستاذ عبد القادر رزق الأستاذ بمدرسة الفنون الجميلة العليا .

ثم تولى عبد الرحمن الطوبر باشا ، النائب العام ، وقتئذ التحقيق معهم ، وكان يدور بصفة سرية وكانت الأحكام العرفية قائمة ، فلم يستطع الرأى العام ان يطلع على الأسباب الحقيقية لهرب عزيز باشا المصرى فمن قائل انه كان ذاهبا الى الألمان ، ليساعدهم على دخول مصر على رأس جيش عربى . ومن قائل انه هارب من الانجليز فى مصر ، خوفا من بطشهم وبطش الوزارة القائمة ــ وزارة حسين سرى باشا ــ التى كانت على علاقة غير ودية مع عزيز باشا بعد ان أحالته على المعاش .

وقد استطاعت أخبار اليوم أن تحصل على الأسباب الحقيقية لهرب عزيز باشا فى سنة ١٩٤١ ، وهى مستقاة من الأوراق الرسمية والتحقيقات .

فقد سأل المحقق فى (ص ١٤) المسيو جوزيف كردبات صاحب بنسيون فينواز بشارع الانتكخانة وهو البنسيون الذى كان يقيم فيه الباشا قبل هربه .

س : هل كان يزوره (أى عزيز باشا) أحد فى أثناء وجوده فى المدة الأخيرة (أى قبل الهرب) ؟

ج : أنا رأيت ضابطا انجليزيا وهو من ضباط هيئة أركان الحرب على ما أظن ، وعلى قبعته شريط أحمر ، ولما دخل كنت موجودا وسأل عن عزيز باشا وأجبته بالانجليزية أنه موجود وأحضرته الى هنا وكان موجودا بالغرفة شخص آخر ، وأعتقد أنه أقرب الى القصر ، وفى سن الخمسين ،

وكان يلبس ملابس مدنية ولم استطع تبين ملامح هذا الشخص جيدا ، وأظن ان هذا حصل يوم الأربعاء الماضي أى قبل الهرب بيومين ·

وقد دهش المحققون ، ودهش السياسيون فى ذلك الحين لهذا الاتصال بين ضباط هيئة أركان حرب الامبراطورية البريطانية وبين رجل كعزيز باشا الذى أحيل على المعاش بناء على طلب الانجليز ·· وظلت السلطات المصرية فى حيرتها حتى تقبض على عزيز باشا فسئل عن أسباب هربه فقال : انه كان يفكر فى مغادرة البلاد المصرية ، فقد أحيل الى المعاش وكان يشعر بان مجال العمل قد أغلق فى وجهه · وان هذه الحالة كانت تسبب له اضطرابا عصبيا غير طبيعى . كما أن الاشاعات كانت تتواتر فى هذه الأثناء بان الحكومة ستقبض عليه وتعتقله ، ولذلك فكر فى أن يذهب الى بلد محايد ·

ولما كانت أقرب البلاد الى مصر هى لبنان ، فقد اتجه تفكيره الى أن يسافر الى هناك ، وخاصة أن الطائرات المصرية فى ذلك الحين لم تكن تستطيع أن تطير الى أبعد من أربع ساعات ·

وقد استوضحه المحقق (فى ص ١٣٣ من التحقيق) :

س : هل لك غرض آخر بعد وصولك بيروت ؟

ج : لا شك ·· وهذا الغرض ظهر من حادث حل بينى وبين جهة أجنبية انجليزية ، لو كان قد تم لأدى الى خير عظيم للشرق ·

وسأله المحقق ثانيا فى ص ١٨٢ :

س : قلت لنا فى دفاعك ان ضابطا انجليزيا قد حضر اليك فى البنسيون وتكلمتم فى موضوع التوسط فى الصلح بين العراقيين والانجليز فهل نريد أن تقول لنا اسم هذا الضابط ؟

ج : أنا لا أعرف اذا كان هو نفسه يريد أن يذكر اسمه أم لا واذا كنتم تريدون معرفة ذلك فانى أروى لكم أنه فى يوم القبض على أحضرنى الى هنا الأميرالاى فيتز باتريك بك وكيل الحكمدار ، وقال لى فى أثناء الطريق ان الأميرالاى الفلانى تكلم معى عن حديثكم معه ، وذكر اسم الضابط العظيم الذى نوهت عنه ويمكن لفيتزباتريك ان يسأله اذا كان يحب أن يذكر اسمه أم لا ·

س : نريد تفصيلا أوفى عن هذا الغرض وهذا الحادث ؟

ج : أرجو أن يسمح لى أن لا أزيد على قولى بأنه كان بخصوص اجراء صلح بالعراق لصالح الطرفين وربما توسع لصالح حلف عربى ·

س . : من هؤلاء الذين كنت تريد النزول عنـــدهم اذا وصلتم الى بيروت ؟

ج : نبيه بك العظمة أو الأمير عادل أرسلان أو شكرى بك القوتلى · وكثيرون غيرهم ·

وقد ازداد رجال النيابة ورجال السياسة حيرة فوق حيرتهم لهذا الاتصال الانجليزى بعزيز باشا المصرى ، وسألت السلطـــات المصرية ، السفارة البريطانية عن معلوماتها فى هذه الواقعة . فقال الانجليز : أن هذا الاتصال قد وقع فعلا بين الكولونيل ثورنهيل من ضباط المخابرات وبين عزيز باشا المصرى ، وهنا صرح عزيز باشا بانه قد اتصل بهـــذا الكولونيل ليعرض عليه أن تنضم مصر مع بعض البلاد العربية الى جامعة الأمم البريطانية تحت نظام الدمنيون ، وقـــد قدم الكولونيل المذكور ، لرجال التحقيق مذكرة أفضى فيها بما دار فى هذه المقابلة فأودعته فى ملف التحقيق ·

وتنشر أخبار اليوم — فى ١٩٤٩/١١/٢٢ — مذكرة خاصة بحديث جرى بين عزيز المصرى باشا وبين الكولونيل ثورنهيل جاء فيها :

فى صباح ١٢ مايو سنة ١٩٤١ أخبرنى شخص له معرفة بالطرفين ان لدى عزيز المصرى باشا مقترحات معينة ليعرضـــها على البريجـادير كلايتون · ونظرا لغياب هذا الأخير عن القاهرة فقد طلب الى أن أقابـل الباشا ·· وتناولت معه طعام الغداء فى بانسيون فينواز ·

سألت الباشا بيانا للمقترحات التى أراد ان يقدمها للبريجاديـــر كلايتون فبسط آراءه فيما يختص بنظام الدمنيون للشعوب العربية قائلا : ان الشعوب الصغيرة التى تضم بضعة ملايين قليلة كمصر مثـلا لا يمكن أن تامل مقاومة العدوان منفردة ، وان خير حال لها ان تنضم الى جامعة الأمم البريطانية تحت نظام الدمنيون وقال انه يجب البدء بعرض هذا على العراق ، حيث يعرف جنرالا ذا نفوذ يستطيع الاتصال به — وقال أنه يرى ان الاقتراح قد يقبل — وفى هذه الحالة ينتهى فورا القتال ، الذى كان يدور وقتئذ وسألته كيف يمكن ايصال الاقتراح الى هذا الجنرال فأجاب : اما بدعوته الى مصر أو الى بلد محايد ليتناقش معى · وأما بارسالى شخصيا بصفتى وسيطا وسألته ان كان أفضى لأحد آخر بأى شىء عـن مشروعه الخاص بنظام الدمنيون للشعوب العربية فقال : ان الشيخ ضياء الدين طباطبائى رئيس وزراء ايران سابقا وسكرتير الجامعة الاسلاميـــة حاليا يحبذها وكان يريد الاتصال بالجنرال سمطس لينال تأييده له ·

وقد ادمج الباشا فى نطاق مشروعه مملكة آل سعود ومصر وشرق الأردن وسوريا وفلسطين وبلاد الكرد والأرمن ، واستعلمت منه عما اذا كان يريد أن يكون لكل منهما نظام دمنيون قائم بذاته فأجاب قائلا : كلا بل يجب أن يندمج شرق الأردن وسوريا وفلسطين فى دمنيون واحـــد ولكن يجب أولا اخراج اليهود من فلسطين . فأخبرت الباشـــا ، بأنى ساعرض اقتراحاته على البريجادير كلايتون لدى عودته الى القاهرة ، ولم اقل شيئا يمكن أن يؤوله الباشا بأنه موافقة على اقتراحه ، كما انه لم ببدر منه ما يدل على أنه كان ينتوى العمل طبقا لمقترحاته بالعراق .

ولدى عودة البريجادير كلايتون فى ١٣ أو ١٤ مايو نقلت له الحديث فقال : انه لا يرى المشروع عمليا وترك الأمر عند هذا الحد .

وقد سئل عزيز باشـــا المصرى عما جـــاء فى مذكـــرة الكولونيـــل ثورنهيل فأيد ما جاء بها . وقال : ان هذا هو رأيه تماما وان ما جاء بالمذكرة هو نص الحديث الذى دار بينه وبين الكولونيل ثورنهيل أحـد كبار موظفى المخابرات البريطانية .

★★★

وعندما قبض البوليس على عزيز باشا فى قضية مقتل أمين عثمان باشا ، دارت المحاورة التالية بينه وبين الأفوكاتو العمومى .

استدعينا عزيز المصرى باشا وسألناه بالآتى :

عزيز المصرى باشا ـ اسمى عزيز المصرى ، سن ٦٥ ، رئيس هيئة اركان حرب الجيش سابقا ، مولود بمصر ومقيم بعين شمس .

س : هل تنتمى الى حزب أو جماعة سياسية ؟

ج : لا .

س : هل تتصل بأحد المشتغلين بالمسائل السياسية ؟

ج : الهيئة الراقية الحكومية فى مصر مشتغلة بالمسائل السياسية ومعارفى منهم .

س : ألا يكون من رأيك تحبيذ استعمال وسائل العنف من الداخل للوصول الى تحقيق فكرتك فى الاستقلال الداخلى للبلاد ؟

ج : كنت حبذتها وأنا شاب فى الثورة القومية العثمانية حين كنت ضابطا فى الجيش العثمانى وكانت الثورة نتيجة عمل هذا الجيش ، ومع ذلك لم يعرف عنى فى ذاك الوقت أنى سمحت لأحد اخوانى ان يقتل أى رجل حتى من الذين كنا نعتبرهم أعداء للوطن ، وكان منهم قائـــد

الحامية التى كنت فيها ، وكانت حجتى أن هذا الرجل قليل الادراك ولكن له ولد نابغة يدرس فى استنبول والولد هو المستقبل وقتل والده يضر بالمستقبل •

س : وهل هذه هى آراؤك الحالية ؟

ج : والى أن أموت •

س : وهل هناك ممن تتصل بهم من يعتنقون هذه المبادىء ؟

ج : لم أجد بعد فى مصر فردا واحدا مؤمنا ايمانا حقا راسخا فى أى مبدأ من المبادىء العامة بل وجدت فى بعض الأوساط نبلا فى الأخلاق وميلا الى الرقى وحبا شديدا للوطن وكراهية للاحتلال وآمالا عاليـــه للاستقلال : ولكن لم أجد برنامجا عمليا أو شبه برنامج موصـــول أو لرسم طريق تصل به البلاد الى تلك الأهداف •

س : ورد فى التحقيق ان بعض الذين يريدون تحقيـــق أغراض سياسية معينة اتجهوا الى الاتصال بك لمساعدتهم على تنفيذ أغراضهم ؟

ج : أنا ماعنديش حزب أساعد أحد ومفيش عندى غير ارشادات ، والزيارات متوالية عندى من يوم خروجى من الاعتقال ومنهم شيب ومنهم شباب وأكثرهم لا أعرفهم ، وأنا دائما كنت أبدأ حديثى معهم بأن نصفهم من القلم السياسى ونصفهم ثوريون ، فكيف تنتظرون ان أعطى مثل هذه الطوائف أسرارا أو آراء شاذة مثل قتل أحمد ماهر ، أو اتجاهات عنيفة أيا كانت بل بالعكس حصل كثيرا ان أعطيت جماعـــات توسمت فيهم الذكاء والفطنة كتبا لتلخيصها بعد فهمها وابداء آرائهم وهى كتب تاريخ وأدب •

س : هل من تذكر حضورهم لك كانوا يحضرون بصفتهم أفراد أو أعضاء لجماعات ؟

ج : لا دول ناس ميعرفوش بعض •

س : هل لم تكن تتحرى أن تكون من بين هؤلاء أو غيرهم جماعـة أو جماعات لتنفيذ أغراض معينة ؟

ج : لا •

س : أليس لك اتصال بضباط متقاعدين من الجيش المصرى بقصد تنفيذ خطة سياسية معينة ؟

ج : لا •

س : هل تعرف وجود جماعات سرية غرضها ارتكاب جرائم القتل والاعتداء على أشخاص عموميين ؟

ج : ما أعرفش جماعات ولكن الحوادث تدل على وجودها ٠

س : أليس لك صلة باحدى هذه الجماعات ؟

ج : لا ٠

س : هل تعرف أحدا من بين الضباط المتقاعدين يشتغل بالمقاولات الحكومية ؟

ج : نعم أعرف « ولد » اسمه السادات وأعرفه من الجيش لأنه كان ضابط كويس فى سلاح الاشارة وكنت انبسطت منه وأنا أفتش الجيش وزارنى فى يوم جمعة فى الغالب بعد انفصالى من الجيش ثم كان يتردد على فى الأعياد وكنت أسأله أين هو فيقول : نقلونا هنا أو هنا ، وأنا لى حادثة معه لأنه هو السبب فى اعتقالى فى المرة الثانية لأنه كان قد قبض على جاسوس المانى وقال ان أنور السادات وزميله الذى يدعى حسن عزت وهو ضابط لم أكن أعرفه من قبل قد عرفاه بى فلما ووجها بى انكرا ما قاله الجاسوس وقال أنور السادات أنه يعرفنى وهذان الضابطان طردا من الجيش لاتصالهما بالجاسوس الألمانى وهذه الحادثة من ثلاث سنوات ونصف ومثبوته فى التحقيق ٠

س : هل تعرف أنه يمكن الحصول على أسلحة من أسلحة الجيش المصرى أو البريطانى بطريقة غير مشروعة ؟

ج : ممكن وكل الصعيد مليان أسلحة ويبلغنى من ضباط البوليس وغيرهم ان الحالة أصبحت لا تطاق وأنه تحصل معارك مع المهربين ويستعملون فيها مدافع التومى ٠

س : وهل تعرف أشخاصا يتمكنون من الحصول على قنابل يدوية ؟

ج : يجوز التهريب والعساكر الانجليز يتصرفون فى السلاح للحصول على زجاجات ويسكى ٠

س : هل تعرف وقائع معينة من هذا النوع ؟

ج : لا ٠

تمت أقواله : امضى

المحامى العام (امضاء)

وأقفل المحضر على هذا فى تاريخه الساعة ١٥ر٨ مساء وأعدنا المتهمين الى السجن وقررنا حبس عزيز المصرى باشا أربعة أيام احتياطيا ٠

المحامى العام

(امضاء)

● وفى قضية الاغتيالات السياسية ، قضية مقتل أمين عثمان باشا وآخرين ، اعتقل عزيز على المصرى لأن بعض المتهمين اعترفوا بأنهم كانوا يتصلون بعزيز على المصرى لمساعدتهم فى تنفيذ أغراضهم ٠

وفى ٢١ يناير ١٩٤٦ ، وأمام الافوكاتو العمومى يحيى مسعود بك جرى التحقيق مع عزيز على المصرى سأل يحيى مسعود بك ، عزيز على المصرى باشا عن مدى نشاطه السياسى فى العهد الأخير فأجاب قائلا :

ـ لم يكن لى منذ دخلت أرض مصر أى نشاط سياسى ، لأنى عدت اليها حوالى سنة ١٩٢٤ وكانت أحزابها مشكلة ولم أدخل فى حزب منها ، وكل الطبقات تشتغل بالسياسة وخصوصا بعد الحرب وفى الانقلابات ، وأنا عند الكلام فى السياسة أبدى رأيى كأى انسان آخر ٠

وسأله المحامى العام : هل لك رأى معين فى الاتجاه السياسى الحالى ؟

ـ رأيى أولا اتمام دراساتى العالية باستانبول وبعد مشاهداتى لشئون الشرق المسمى بالشرق المتوسط وتاريخ هذا الشرق وتفكيره وتكوين شعوبه يجعل أن أحسن فكرة لهذا الشرق أن تكون أمما متحدة ومستقلة فى شئونها الداخلية مع الاجتماع فى التجارة والسياسة الخارجية والدفاع ٠ وهذه هى السياسة العملية حسب رأيى ومازلت على هذا الرأى للآن ، وليس هذا قاصرا على الأمم الاسلامية بل يشمل اليونان والبلغار والصرب وتركيا ، أى مجموعة أمم شرق البحر الأبيض المتوسط ٠

ـ وهل لك رأى خاص فى السياسة الداخلية لمصر ؟

ـ رأيى الخاص للسياسة الداخلية فى مصر نتيجة لهذا الرأى العام ويقضى باستقلال مصر ، اذ لا يمكنها أن تكون عضوا حسرا فى هذه المجموعة ، وهى فى حالة تشبه القاصر ٠

ـ هل لك نشاط عملى لتنفيذ هذه الآراء ؟

ـ لا ، كل آرائى أقولها شفهيا كما أقولها الآن وفى محاضرات فى الجامعة وفى المحال العامة وبين اخوانى ٠

ـ هل لك اجتماعات خاصة لابداء هذه الآراء ؟

ـ مع الأسف لم يحصل هذا بعد لان هذا لا يفيد الا اذا كان العدد وفيرا ، والفكرة انتشرت من نفسها نتيجة توسع الثقافة في الشرق ، وقد بدأت تظهر تباشيرها بفكرة الجامعة العربية الحديثة ٠

ـ وهل فيما يختص بالاستقلال الداخلي ترى اتباع وسيلة معينة للوصول اليه ؟

ـ لا توجد فى رأيي وسيلة معينة للوصول الى تكوين قومي أو فكرة سياسية ، وانما هي الاستفادة من الظروف والأحوال ، بمعنى أن الرأى العالمى يدرك أن خير البشر انما هو بالتعاون والاحترام المتبادل وعمل الخير المتقابل حتى تطمئن القلوب الى بعضها فيسود الأمن ٠

ـ ألا يكون من رأيك تحبيذ وسائل العنف للوصول الى تحقيق فكرتك فى الاستقلال الداخلي ؟

ـ كنت حبذتها وأنا شاب فى الثورة القومية العثمانية حين كنت ضابطا فى الجيش العثمانى وكانت الثورة نتيجة عمل فى هذا الجيش ، ومع ذلك فلم يعرف عنى فى ذلك الوقت أنى سمحت لأحد اخوانى أن يقتل أى رجل حتى من الذين كنا نعتبرهم أعداء للوطن وكان منهم قائد الحامية التى كنت فيها ، وكانت حجتى ان هذا الرجل قليل الادراك ، ولكن له ولد نابغ يدرس فى استنبول ، والولد هو المستقبل وقتل والده يضر بالمستقبل ٠

ـ وهل هذه هى آراؤك الحالية ؟

ـ والى أن أموت ٠

وأجاب عن سؤال آخر أنه لم يجد فى مصر فردا واحدا يؤمن ايمانا حقا راسخا بأى مبدأ من المبادىء العامة ولكنه وجد حبا شديدا للوطن ، وكراهية للاحتلال ، وآمالا عالية للاستقلال ، ولم يجد برنامجا أو شبه برنامج عملى للوصول أو لرسم طريق تصل به البلاد الى تلك الأهداف ٠

وقال أيضا أنه لم يجد طريقا للاصلاح وللفوز بهذه الأهداف الا طريقين وهما الصدق والعلم وأنه شهد انهيار دولة وهى الدولة العثمانية ويرى ان الاستناد الى القوة لا يؤدى الا الى الانهيار وأن أكبر سلاح هو المحبة بين الناس ، وأن القتل السياسى مثل حادث مقتل أمين عثمان باشا والقاء القنبلة على النحاس باشا وحادث المرحوم أحمد ماهر باشا ، انما مرجعها معاملة الانجليز الخاطئة لمصر والحكم الاستعمارى لأنه يهيىء أذهان الشبان الذين ليس لديهم من سنهم الصغيرة الا العواطف كمحرك عنيف مما يدفعهم الى مثل هذه الأعمال ٠

ونفى عزيز باشا اتصاله بأية جمعية سياسيـة أو أى أحـــد من المتهمين ٠

ورد على سؤال آخر بأنه يعرف أنور السادات وأنه كان معجبا به عندما كان رئيسا للجيش وكان أنور هذا ضابطا فى سلاح الاشارة ٠ وبعد خروج عزيز باشا من الجيش ظل أنور يتردد عليه فى بيته فى الأعياد ٠ وكان هو السبب فى اعتقال عزيز باشا ، وان أنور وحسن عزت طردا من الجيش لاتصالهما بجاسوس ألمانى ، وأنه لا يعـــرف شيئا عن ميولهما السياسية ٠

★★★

● أشـــير الى مفاتيح أخـرى تتعلق بشخصية عزيز على المصرى ، وآرائه ، وأفكاره التى يتميز بها عن غيره :

قال مرة عزيز على المصرى لعلى ماهر ، وكان رئيسا للوزارة : انس يا باشا أننى عسكرى واسمح لى أن أمارس مهنة أخرى غير العسكرية ٠٠ اسمح لى أن أدرس التاريخ لأبناء بلدى ٠٠ فدراسة التاريخ هى الكتاب الأول فى الوطنية الحقة ، والمعلم الأول فى الوطنية لشعب لا يعرف تاريخه المجيد ، ولا يعرف المسىء اليه من المحسن ٠٠

ولكم أود أن أدرس التاريخ فى كل مكان فى مصر لكل انســـان مصرى ٠٠ ولكن ، من ذا الذى يتيح لى هذه الفرصة ويمكننى من أداء هذا الواجب ؟

وفى الحقيقة كان عزيز على المصرى مهتما جدا بدراسة التاريخ وكان ينصح كل من يطلب نصيحة من الشباب أن يقرأ أول ما يقرأ تاريخ الشعوب كلها ، ويركز على تاريخ الشعب المصرى ٠

سئل عزيز على المصرى مرة : كيف تقضى أيامك الآن يا باشا ؟ فصمت برهة ثم قال : هل تستطيع ان تجد لى وظيفة اننى الآن (عاطل) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ! ٠٠ عاطل لا عمل لى ، وهذا ما يحيرنى ويبعث الضيق الى نفسى ! ٠٠ لقد تعودت منذ خمسين عاما الى اليوم ، أن أعمل يوميا خمس عشرة ساعة ، أما الآن فلا عمل لدى ٠٠ اننى أشعر بالقوة والقدرة على العمل والتفكير ٠٠ ولكن فيم أفـــكر الآن ؟ ومـاذا أعمـــل ؟

أقسم لك أننى على استعداد لأن أدفع نقودا لمن يشغلنى بعمل أقتل به وقتى ٠٠ وقتى الذى كان موهوبا طيلة السنين الماضية لخدمة بلادى ، أما اليوم فهو موهوب للفناء والعدم شأن كل شىء صالح لهذا البلد ٠٠

وكنت من قبل أقضى بعض الوقت فى كتابة مذكراتى ، ولـــكن نفسى كرهت الكتابة فى هذا الموضوع بعد أن أصاب ما كتبته التلف والضياع والمصـــادرة على أيدى رجـال القلم السـياسى الذين يحلو لهم كثيرا أن يزوروا منزلى ويفتشوه ، ويلقوا بكتاباتى وثمرات أفكارى الى لهيب النار طعاما سائغا ... !!

أذكر أنه كان من زملائى فى المدرسة الحربية فى تركيا ، مصطفى كمـال ، وأنور باشا ، وعصمت اينوتو وغيرهم ممن اشتهروا كأقطـاب للعالم الاسلامى . لأن هؤلاء الرجال عملوا باخلاص لبلادهم التى ضحوا بكل ما يملكون فى سبيلها : لقد أتاحت لهم بـــلادهم فرص العمـــل لخدمتها : لم تضح بهم وانمـا تركتهم يضـحون من أجلها ... أما فى بلدنا مصر ، فأظن ان العكس هو الصحيح .. !!

فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥١ وكانت مصر قد الغت معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ وتاهبت البلاد لمعركة تحرير كبرى ، أجرت مجلة الاثنين ، التى كانت تصدر عن دار الهلال حديثا سريعا مع عزيز على المصرى ، قدمت له بالعبارة التالية :

ـ عزيز المصرى باشا أحد الذين سلطت عليهم الأضـــواء هـــذا الأسبوع . فانه القائد الذى يعمل له الانجليز ألف حساب لأنه لم يدخل حياته أبدا فى حساب . والانجليز لا يهابون الا هؤلاء الفـــدائيين .. ونذهب اليه فيلقانا بابتسامة ، هى الهدوء الذى يســـبق العواصف . ونطلب رأيه فيقول :

وتنشر المجلة ـ الاثنين ـ ما قالـه عـــزيز المصرى تحت عنوان (فلنقطع لسان من يفكر فى ابداء رأيه) وقد كان نص الكلمة كما يلى :

ـ ليس لى رأى .. وليس لمصرى رأى .. فلنتجمع ، ولنتكتل ، وهذا كل ما يجب .. فان فى تجمعنا ولو حـول « لا شىء » مكسب لنـا وخسارة لأعدائنـا . فما بالك والدعوة الى التجمع سبقتها هذه الخطوة الشعبية التى لم تقدم عليها الحكومة الا لعلمها أنها وزارة الشعب ، وان الشعب وضع للوفد امتحانا فى قضيته الوطنية فاجتازه بتفوق مع تقدير لجنة الممتحنين .

« فليحتفظ كل برأيه لنفسه ، فليس فى ابداء الآراء الا تشتيت لقوى الشعب ، وبلبلة لأفكاره .. فلنكن واقعيين فى هذه المعركة الفاصلة ولنتجرد من أنانيتنا ، فـــان الموقف لا يتطلب آراء بقـــدر ما يتطلب تضحيات .. فعلى من يريد التضحية ، ان يتقدم الصفوف ، وعلى من يريد الكلام أن يضع لسانه فى فمه ، والا قطعنـاه ، فقد شبعنا كلاما سبعين

عاما طويلة حافلة بالكلمات الرنانة ، والخطب الحماسية ٠٠ الى العمل ولا شيء الا العمل ! » ٠

وتعقب « الاثنين » على كلمة عزيز على المصرى بما يلى :

لقد دخل عزيز المصرى الحجرة فى بطء وتثاقل وقال أنه مريض ٠٠ وبدأ يتحدث وديعا هادئا ، وكلما اقترب من نهاية كلامه اعتدل فى جلسته ، ورفع رأسه وأبرقت عيناه ، ولم تعد كلماته حروفا ، بل طلقات مدفع ٠٠ فقلت له :

ـ أمازلت مريضا متعبا ؟

فقال الرجل وهو يضحك :

ـ لقد أفادتنى جرعة الحماس هذه ، فارتحت ، بل شفيت !

وواقعة الحديث ٠ كيف بدأ ، وكيف انتهى تدل دلالة قاطعة على شخصية عزيز على المصرى الذى كان يمرض لانه كان لا يجد عملا ، والذى كان يشفيه العمل ويسعده الكفاح والنضال ٠٠ !

★★★

● سئل عزيز على المصرى عما يأمله فى جيشنا ، فقال : ان يكون قويا ومنظما ٠ ونطلب منه رأيه فى جيشنا زمان ، فيقول : بلاش زمان ٠ وعن أمنياته التى يتمناها للجيش المصرى يقول : ان يكون أحسن جيش فى العالم ٠

وعن الاصطدامات التى كانت تحدث بينه وبين الانجليز عندما كان مفتشا عاما للجيش المصرى ورئيسا للأركان : كانت الاصطدامات كثيرة ، وكانت تحدث نتيجة أى رأى أبديه ، فقد كانوا يبدون معارضتهم لكل ما أراه ، ثم تطورت الأحداث ولم تتح وقتا للعمل ولا لجزء من العمل وحسب وانما راحت تتيح سجنا واعتقالا وكل ما يخطر على البال من متاعب » وعن اللغات الأجنبية التى يجيدها يقول : الانجليزية ، والالمانية ، والتركية ، والفرنسية ٠ ويسأل : هل أنت راض عما قدمته لبلادك من خدمات ؟ ويعترض عزيز على المصرى على السؤال قائلا : ان ما يقدمه المواطن لبلده لا يسمى أبدا خدمة ، انه واجب ٠ وعن منزله الكبير فى عين شمس ، وعن سيارته التى كان يفضل ركوبها ، وأين ذهبا يقول : البيت كان مبنيا على ٣٠ ألف متر ، اشترته الحكومة منى ليكون مدرسة بـ ١٠ آلاف جنيه ٠ أما السيارة فقد بعتها مضطرا بالثمن الذى كنت اشتريتها به وهو ٦٠٠ جنيه ٠ وعن قراءاته : قال انه قرأ حتى الآن ـ قبل أن يرحل بست سنوات ـ قرأت حوالى ١٦٠٠ كتاب ٠ وعن أحب الشعراء

اليه فيقول : امرؤ القيس فى العصر القديم وأحمد شوقى في العصر الحديث • وعن الحب يقول : ان الحب الصادق أقوى أساس للحياة ، ولولا الحب لما كانت الحياة •• !! وعن ذكرياته القديمة جدا فى الجيش التركى يقول : كنت أقاسم مراسلتى مرتبى وامتيازاتى •• كنت اذا تناولت الطعام أعطيته مثل ما آخذ لنفسى ، وكنت دائما أطلب ٢ قهوة ، واحد لى وواحد له •• كنت أشعر دائما أنه مثلى له كرامته وحقوقه ، وكان متفانيا فى الاخلاص لعمله ، ولى • مضرب المثل : ان العلاقة بين الضابط والجندى فى الجيش يجب ان تكون طيبة للغاية ، مبنية على الحب ، والاحترام والنظام •

★★★

● وعن السيدة زينب خير الله ـ وهى نوبية الأصل ـ وكانت قد بدأت تعمل عند عزيز على المصرى منذ أن كانت فى العاشرة من عمرها من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٥ ، ثم انقطعت عن خدمته عشر سنوات وعادت فى عام ١٩٤٥ لتعمل عنده عشرين سنة ، الى يوم رحيله •• وعندما عادت له عام ١٩٤٥ كانت حالته المالية سيئة للغاية ، وقد قبلت زينب خير الله أن تعمل عنده بدون مرتب • تقول زينب : ان الاسم الحركى لعبد المنعم عبد الرؤوف كان « نبيل » وتذكر زينب أن قادة الثورة جاءوا لعزيز باشا فجر ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فى الخامسة صباحا • وتقول زينب : ان رياضة عزيز باشا المفضلة هى المشى ، وأنه كان يعشق لعب الطاولة والشطرنج وقالت زينب : ان عزيز باشا تعب يوم ٢٩ مايو ١٩٦٥ ، وكان عنده التهاب ، وكان يعالجه الدكتور مصطفى قناوى ، وقالت انه قبل ان يموت بيوم ـ ليلة الثلاثاء ١٤ مايو ـ قال : ودينى عند التليفون علشان أكلمهم فى القيادة عشان يحضروا كل شىء • ومات الباشا فى ١٥ مايو وحوله نادية بنت أخيه ، ود• مصطفى قناوى ، وصلاح دسوقى ، واللواء سعيد الألفى ، وكمال منسى •• !!

★★★

● كتب عزيز على المصرى تعليقا على صورة للرسام فائق نشرها المصور فى ٤ مارس ١٩٥٤ : كتب معلقا على الرسم : وللمرة الأولى يكتب عزيز على المصرى بخطه كلمة عن شخصه :

« خطوط متضاربة ، ومتقاطعة ، وأحيانا متوازنة ! هذه شقوق محراب الزمن ، مرتسمة فى كل جهة من وجهى ، وبجانب كل شق نتوء يمثل وثبة سبقتها كبوة • انها سلسلة معارك حامية مع الزمن •• فأنت ترى فى الوجه سكرة النصر ، وألم الهزيمة ، ولكنك تلمس أيضا قوة الأمل فى أن ينهض الشرق من جديد لوثبة جديدة ومجد جديد •

واذا جاز لى أن آسف على شىء ، فهو أننى لن أعيش لأشهد هـذا اليوم الذى أذوق فيه نشوة النصر ·· ولكننى حينما أرى الشباب تبرق فيه بعض الآمال ترتاح نفسى ·· ففى ذلك بعض الجزاء لما جاهدت فى سبيله ، وان كنت أود أن أرى النتيجة أتم وأكمل ·

● كتب سير رونالد ستورز عن عزيز المصرى : كنا نستعد للغداء لما قيل لنا ان عزيز على المصرى بك قادم فانتظرناه ، وقد تأخـر طويلا ، ثم حضر ومعه فرقة موسيقية أحضرها من الطائف وقال لى : أن الفرقة تجيد عزف قطعة مشهورة أسمها « الصدى » وأخذت الفرقة تعزف عزفا طرب له الموجودون ··

وسألنى سعيد على باشا : أليست هذه الموسيقى موسيقى جنائزية؟

وقال الأمير عبد الله بن الحسين : ان عزف هذا النوع الحزين فأل سيىء !

وعلق عزيز على بك على كل هذا بهزة من رأسه صحبتها ابتسامة !

وعزيز المصرى ـ يضيف سير رونالد ستورز ـ يحب العمل ، وقد ظل عزيز ـ ستورز ـ يحب زوجته الأجنبية ثمانية أعوام ، ثم تزوجها ، وهو ـ عزيز المصرى ـ يحب الموسيقى ويحفظ بعض أغانى جوته ، وهو معجب بالشاعر الفرنسى كورنيل ، ويكره هومر ، وقد طالع سيرته فى مؤلفات البستانى ·

● كان لعزيز على المصرى آراء هامة فى الاصلاح الداخلى ، وكان من رأيه ان الاصلاح الداخلى يجب أن يبدأ أولا من القرية ، وأول اصلاح فى القرية ، يجب أن يكون بعلاج البلهارسيا · وكان من رأيه أيضا ـ أن الاصلاح الداخلى يجب أن يعتمد على النظام التعاونى بدءا من صناعـة الألبان ، وانتهاء بزراعة القطن وتصنيعه ، ومرورا بكـل المحاصيـل الزراعية ·

● وكان مـن رأى عزيز المصرى ان منصب العمـدة ، لا يجب ان يتولاه الا شاب جامعى ، وكذلك يجب ان تكون زوجته ، وذلـك لتكون مرشدة وهادية للفلاحات · وقد كان فى مقدمة آراء عزيز الاصلاحية أنه لا داعى لتخصيص بنود فى الميزانية لردم البرك والمستنقعات ، وما عـلى العمدة ـ اذا ما كان منقفا ـ الا أن يتواعد مع أبناء قريته على يوم محدد يخرجون فيه جميعا بعد صلاة الجمعة ومع كل واحد منهم ـ والعمدة فى المقدمة ـ فأسه ومقطفه لينقلوا جميعا أكوام التراب الى البركة أو المستنقع للمساهمة فى ردمها أو ردمه أو ردمهما معا ، اذا كان فى القرية بركـة

ومستنقع .. وبعد الانتهاء من عملية الردم تبدأ عملية الزراعة . وينصح عزيز المصرى بان يزرع العمدة والفلاحـــون الأرض التى نتجت عن ردم البرك والمستنقعات زهورا ، وفواكه حتى تصبح قريتهم جنة صغيرة .

● ويقول عزيز المصرى انه شخصيا سيختار أرضا على الكورنيش بين القاهرة وحلوان وسيبنى عليها قرية مصرية نموذجية صغيرة ، يجعل منها جنة ، ويحج اليها السائحون من جميع أنحاء العالم لينعموا بظلال النخيل وليطلوا على النيل ، وليركبوا القوارب الشراعية ، ويشرحوا صدورهم بشروق الشمس وغروبها عبر أمواج النيل ، ويأكلون الفطير المشلتت ، وطواجن الحمام ، والبلح ، ويشربوا اللبن الرائب .

ويدعو عزيز على المصرى أن يمتد به الأجل لتحقيق مشروعه الكبير هذا لأن الأجل عنده مرتبط بالعمل ونهايته فى توقف احدهما . ولم يمكنه الأجل من تحقيق هذا الحلم .

● وكان لعزيز على المصرى آراء فنيـة جديدة للغاية أختار منها مناشدته ـ ذات يوم فى ١٩٥٣/١١/١٢ الأدباء والكتـاب والمؤرخين أن يكونوا صادقين عندما يقدمون الشخصيات التاريخية عى الستار وقد جاء فى هذا الرأى :

« حسن أن يفكر السينمائى المصرى فى عرض شخصيات التاريخ الخالدة وأن يتجه الاتجاه التثقيفى الذى لا يفتقر الى عنصرى الطرافـة والتشويق اللازمين للعمل السينمائى الناجح .

ولكننى أريد من المخرج الذى يتصدى لاحدى الشخصيات التاريخية ان لا يكتفى بعرض ملامحها الظاهرة وسيرها المعروفة فى كتب التاريخ القصصية ، بل يجبأن يتعمق فى تصـــويرها وتحليلهـــا على أن يكون الصدق والأمانة ديدنه ولا يحاول أن يقدم البطولة شخصية مثالية يتفق فى رسم خطوطها مع قواعد الأخلاق والآداب والسياسة والدين ، فـــان الشخصية العبقرية قد لا تكون مثالية فى كل نواحيها . ويجب أن يغتفر الرأى العام للعبقرى بعض ما قد يعتبره المتحفظون المتزمتون هنات يؤاخذ عليها صاحبها . فلا نحاول أن نخفيها عن العين . كالمصور الذى يضـع الرتوش فى الصورة مخالفا بذلك حقيقة الصورة ذاتها .

واذا كان فى نية السينمائى المصرى تقديم شخصية البطل العربى خالد بن الوليد . فلابد أن يكون عارفا لتاريخ جزيرة العرب دارســـا آدابهم وعوائدهم ، قارئا للمعلقات وغيرها من أشعارهم وقصصهم . وان

يتفهم الحالة الاجتماعية والسياسية التى كانت عليها الجزيرة ابان ظهور خالد • لان البطولة لا تنشأ طفرة بدون تهيئة من البيئة التى تحيط بها• ولا أريد ان تقدم شخصية خالد بن الوليد كمحارب شجاع مغامر فحسب• بل أن يصل السينمائى الى أغوار الشخصية وسماتها من مشاعر وذكاء وقوى روحية وطبائع المروءة والشرف والوطنية والقومية فيها •

وحتى يتحقق النجاح فى تقديم خالد بن الوليد فلا بد أن يتعاون على تنفيذ ذلك أربعة • خبير عسكرى يحلل خططه الحربية ومواقعه ، وعالم نفسى يشرح مكنونات النفس العربية بصفة عامة ، وأديب يتـذوق الأدب والشعر فى عصره ،وعالم تاريخي يبسط كل ما ينصل بعهـده من عقائد واجتماع وسياسة •

وانى أعتقد ان خالد بن الوليد من أصعب شخصيات التاريخ الاسلامى فى دراستها وتفهمها ولذلك لم يفهم خالدا تمام الفهم الا محمد الرسول وأبو بكر الصديق •

★★★

● ومرة ــ فى ١٩٥٧/١٢/٢٧ تحدث عزيز على المصرى عن ذكريات ابن السابعة والسبعين فقال : انه ما زال يعيش بعضلات وأعصاب قلب ابن العشرين •• يسير على قدميه حول الجزيرة ثلاث ساعات ويستيقظ مع الفجر ، ويقرأ ست ساعات خلال اليوم متابعا أحدث ما تخرجه المكتبه العالميـــة من كتب فى مختلف العـلوم والفنون •• » وعزيز ــ المعـلم ــ ويتحدث حديث العالم المدقق المحقق المحيط ، بلســـان لا يتلعثم وذاكرة لا تخطىء فعزيز المصرى مشغول اليوم بالبحث عن مسكن جديد غير مسكنه الحالى فى الزمالك •• وقد اســـتقر به الرأى على السكن فى حلوان •• فهو من عشاق الصحراء أو المدن التى تطل على الصحراء •

وهو يشكو مع ذلك من نوبات ضيق صدر تطارده من حين لآخر وتجعله يضيق بالدنيا ويتبرم بالحياة فيقول :

ــ ان الدنيا رحلة طويلة أو قصيرة الى الفناء ، وقد يكون طريق هذه الرحلة سهلا معبدا فلا يحس الانسان بتعب أو جهد فيه ويتمنى أن تطول وتبعد نهايتها وقد يكون الطريق شاقا فيكد فيه الانسان ويشقى ويستعجل النهاية ، وأنا فى حياتى كان طريقى هو الطريق الوعر ••• ولكن الوصول الى النهاية ليس بيدى بل بيد منظم الرحلة •• سبحانـه وتعالى •

★★★

● فى أواخر عام ١٩٥١ أدلى عزيز على المصرى بحديث صحفى الى وكالة الأسوشيتد برس قال فيه : « اننا لا ندرب كتائب التحرير ، فاننا لا ندرب قتلة وانما نعد للكفاح والنضال عن الحياة الحرة الكريمة ... اننا نعدهم اعدادا عسكريا وخلقيا وروحيا .

وسئل عزيز المصرى باشا عن عدد قوات كتائب التحرير ومدى تسليحها ، فرفض الادلاء بتصريح قاطع واكتفى بأن ذكر بعض ما صرح به معالى فؤاد سراج الدين باشا من أن الحكومة المصرية لا تزود هذه الكتائب بالسلاح » .

وقال عزيز المصرى باشا : « ان السلاح متوافر فى مصر ، وان فى وسع قوات كتائب التحرير الحصول عليه بدون الاستعانة بالحكومة » .

وقال : « ان الكتائب سوف تقف الى جانب الحكومة مادامت الحكومة تقف الى جانب حقوق مصر » .

وتحدث عن حجة بريطانيا القائلة بضرورة بقاء القوات البريطانية فى منطقة القناة لصد أى عدوان يقع على مصر فقال « ليست هذه الحجة بنظرية استراتيجية تصلح فى الوقت الحالى ... فقد شاهدنا فى الحرب الماضية وفى الحروب السابقة قلاعا وخطوطا محصنة تسقط أمام هجمات عسكرية وضعت خطتها باحكام واذا استولى الروس على فلسطين فان قنال السويس تسقط أمامهم .. وليس فى العالم كله موقع واحد يمكن القول بانه معزز جدا ولا يمكن غزوه . فالمعتدى يجد دائما بعض الوسائل للقضاء على مثل هذا الموقع وغزوه » .

وقال المصرى باشا : انه كان فى وسع بريطانيا ان تكسب صداقة المصريين لو أنها ساعدتهم على التقدم ، ولكنها بدلا من ذلك سارت على سياسة أذكت الكراهية فى نفوس الشرقيين جميعا ، وتسلك الآن القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس مسلك العصابات ، فهى تقتل المدنيين العزل من السلاح والنساء والأطفال وتسلب الفقراء .

.. فكيف يمكن بذلك أن يقول الانجليز أنهم يدافعون عن الديمقراطية والمدنية !

وسئل عزيز المصرى باشا عما اذا كان يحبذ عقد ميثاق عدم اعتداء مع روسيا فقال : اننى أحبذ عقد مواثيق عدم اعتداء مع الجميع . ولكن اذا حاولت روسيا أو أية دولة أخرى ان تسحق كرامتنا ومثلنا فان المصريين لن يترددوا فى محاربتها حتى النفس الأخير .

وأخيرا قال المصرى باشا : ان سياسته وسياسة المصريين جميعا ليست « سياسة حرب » وانما هى « سياسة سلام » • وان الجميع يتطلعون الى جعل مصر « ندوة دولية » يجتمع فيها رجال الفكر والعلماء من جميع العالم للمساهمة في تقدم الحضارة والانسانية •

ويختتم عزيز المصرى باشا تصريحه للوكالة الأمريكية بقوله :

« يجب على أمريكا التى كافحت من أجل الكرامة الانسانية والاستقلال ، وحاربت بريطانيا من أجل ذلك ، أن تتزعم كفاحا يهدف الى توحيد الشعوب المنتجة فى العالم بأسره ، وان تحرر كل شعوب العالم من العبودية التى تفرضها السياسة الاستعمارية الانجليزية والفرنسية ، وان تشجع التقدم العلمى فى العالم كله •• واننى أومن بكل ثقة بأنه فى الامكان تحقيق مثل هذا التعاون الدولى » •

وقال عزيز المصرى باشا لمراسل الاسوشتدبرس أثناء الحديث : أنه من عشاق الثقافة الألمانية وأنه معجب بحضارتها وعلومها •

ونفى المصرى باشا أنه كان يتعاون مع المحور أثناء الحرب الماضية • ثم شرح الظروف التى أدت الى اعتقاله فقال :

« فى عام ١٩٤٠ قبل ان تدخل ايطاليا الحرب ، عقد اجتماع فى مرسى مطروح • وحضرت هذا الاجتماع بوصفى رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى ، وكذلك حضر الاجتماع رفعة على ماهر باشا رئيس الحكومة المصرية حينذاك ، والقائد العام للقوات البريطانية فى مصر (الفيلد مارشال ميلاند) وبعض كبار الضباط المصريين والانجليز • وقلت للمجتمعين أننى أرى أن مرسى مطروح لا تستطيع أن تصمد أمام أى هجوم ألمانى ثم نصحت بتعزيز وتحصين العلمين •• وبالفعل اجتاحت القوات الألمانية مرسى مطروح بعد ذلك بعامين ثم توقفت عند العلمين ••• قلت ذلك ولكن رأيى لم يعجب الضباط الانجليز ، ويبدو أن غيرة الضباط الانجليز منى جعلتهم يعتبروننى رجلا خطرا ، وبالفعل فصلت من منصبى على أثر انذار من اللورد هاليفاكس وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت ولم أعد رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصرى ، ولما كنت رجلا فقيرا ويجب ان أعمل لكى أعيش ، فقد طلبت جواز سفر الى تركيا عسانى أجد عملا لى هناك ، ولكن السلطات المسئولة لم تمنحنى جواز سفر ، ففكرت فى الهروب بالطائرة ولكن عطبا أصابها ، فلم أفلح فى محاولتى • وعلى أثر ذلك قبض البوليس على وأودعت المعتقل •

★★★

● فى يوليو ١٩٤٨ ـ وفى المصور ـ تحدث عن الأسباب الخفية للحرب الكورية . فقال عزيز على المصرى باشا :

« لكل حرب أسباب ظاهرة ، وأخرى خفية .. فاذا وقعت الحرب العالمية من جراء مسألة « كوريا » فتكون هى السبب الظاهر لهذه الحرب . أما الأسباب الخفية المستترة فكثيرة ، تتلخص فى السعى للسيطرة على العالم لتأمين الحالة الاقتصادية فى كل من انجلترا وأمريكا، وروسيا نفسها ..

وللمرة الثانية فى التاريخ يجابه العالم حربا فكرية لا مادية .. فالمرة الأولى كانت فى عهد الاسلام الذى حرر النوع البشرى وساوى بين الناس ، فكان لكل من اسلم حق التدخل فى سياسة الدولة ، على أساس اقتداره ، ودرجته العقلية والخلقية . فرأينا « طارق بن زياد » الذى كان أبوه لا يتكلم العربية ، يخلف فى القيادة « موسى بن نصير » ويفتح أسبانيا باسم العقيدة أو المبدأ ، ويوفد أعرابا ظاهروا الدين ونبع الدين منهم .. ونرى « جوهر الصقلى » النورماندى الأصل ، يقود جموعا اسلامية عربية ومغربية لفتح مصر ، ويؤسس الجامع الأزهر ولم يكن قط عربيا .. !!

والمرة الثانية هى تلك الحركة التى ظهرت فى العالم منذ حوالى ثلاثين عاما وأعنى بها **الحركة الشيوعية ...**

وكما أن الدين الاسلامى اصطدم مع « بيزنطة » و «روما » الأوتوقراطية ، كذلك نرى الشيوعية تتصادم مع الرأسمالية ، ونراها تعلم الصينى والكورى ، وتعمل على اقناعهما بالنظرية الجديدة وتساعدهما فى تنظيم شئونهما واعداد جيوشهما ثم تمنحهما حق حكم نفسهما بنفسهما وبذلك ستهيئهما لان يحاربا من أجل الوطن والفكرة ، بغير تدخل فعلى من جانب روسيا !

ولا عبرة بما يقال من ان روسيا تتدخل بامداد كوريا بالسلاح .. فان تجارة الأسلحة متاحة للجميع ولما كان أقرب الشعوب الى الصين هم الروس ، بل ان هناك اختلاطا جنسيا بينهما من قديم الزمن ، فان من الطبيعى ان تولى الصين وجهها شطر روسيا تستفيد منها علميا وماديا .. وهذا ما حدث بالنسبة لكوريا أيضا ، وكوريا بلد فقير ، لا يعرف عن مناجمه أو طرق استغلالها شيئا ، لذلك كان من الطبيعى ان يمد يده لأقرب الأسواق التى تعرض ما يحتاج اليه من ذخائر وأسلحة ، وهى روسيا ! ..

ولا ريب أن هذه الحرب كانت منتظرة كما قدمت ، وكان الطرفان

يتوقعانها من زمن بعيد • ولكن الذى أوقد نارها فى هذه المرة هو الذى تقدم الى حدود الآخر دون مسوغ •• فوجود أمريكا فى كوريا ـ التى هى بعيدة عنها جغرافيا وفكريا وجنسيا ـ يعتبر تحديا ظاهرا ، بل تهديدا مباشرا لروسيا •• ولذلك عندما احتلت أمريكا القسم الجنوبى لكوريا ، كان الرد الوحيد لدى الروس هو احتلالهم للقسم الشمالى • لان احتلال أمريكا لكوريا هو بمثابة انزال جيش أمريكى فى روسيا الشرقية ! •• ولا ريب عندى ان وضع روسيا فى نظر العدل الدولى هو أقرب للحق من وضع أمريكا والحلفاء ! •• وتدخل أمريكا وانجلترا على هذه الصورة يعتبر اعلانا ضمنيا وغير صريح للحرب على روسيا ، واذا ظهر لروسيا ان هذه القوات ستستولى على كل كوريا وتصبح بذلك متاخمة لمنشوريا فسترى أنه لا مناص لها من التدخل لنحول دون هذا الخطر الذى يهددها•

على أن اهتمام الدول الكبرى بمسألة كوريا يرجع الى وجود بحر اليابان الواقع بين اليابان وكوريا الذى اذا استولى عليه الروس استطاعوا أن يسلوا حركات الأسطول الأمريكى تجاه سيبيريا ومنشوريا •• وروسيا حريصة من جانبها على أن تكون البلاد الواقعة على هذا البحر موالية لها ، حتى تأمن الهجمات الأمريكية المفاجئة على شرق سيبيريا ومنشوريا ، لان سيطرة أمريكا على هذا الجزء معناه خنق الفكرة أو المبدأ الشيوعى ومنعه من الانتشار ، ويعتبر الحلفاء كوريا وايران وتركيا واليونان وألمانيا الغربية بمثابة حبل المشنقة الذى يلف عنق العالم الشيوعى ليقتله ! •••

★★★

● كانت صحيفة المصرى قد زجت باسم عزيز على المصرى فى الحديث عن حرق القاهرة (وقد تولى عزيز على المصرى الرد على ذلك ببيان قال فيه : (الأخبار ٢٧ أغسطس ١٩٥٢)

« اعتادت بعض الصحف أن تذكر اسمى ، وتتكلم عن اشتراكى فى بعض الحركات ، وتنشر نبذا مدعية أنها تمثل بعضا من تاريخى ، وأكثر ما تنشره هذه الصحف سخافات ، لا ظل لها من الحقيقة •

وكنت فى كل مرة أمر عليها من غير تكذيب ، نظرا لتفاهتها ، ولكن جريدة « المصرى » طالعتنا منذ ثلاثة أيام بمقال تحت العناوين التالية :

أسباب حرق القاهرة يوم ٢٦ يناير •

••• ٢٠٠٠ بندقية و ٥٠ مدفعا ، ومليون طلقة كانت ستسلم للكتائب يوم ٢٦ يناير •

وجاء فى هذا المقال ان الأستـــاذ فؤاد سراج الدين أمر محمود البدينى ، محافظ العاصمة بتسليم الأسلحة فورا الى الكتائب ، وأن وزارة الداخلية قدمت المساعدات للكتائب ، وخصصت لكل منها عددا من ضباط البوليس يكونون دائما فى خدمة أغراضها وتلبية مطالبها ، ومن هــؤلاء الضباط من دفعته حماسته الى الاشتراك الفعلى فى المعارك التحريرية مع قوات الكتائب ، وان هذا حدث مع الكتيبة التى كان يشرف عليها الفريق عزيز المصرى والأستاذ عبد الوهاب حسنى ٠٠ الخ ٠٠ الخ » ٠

وانى أعلن أن كل ما جاء فى هذا البيان ليس فقـــط خاليا من الحقيقة ، ولكنه ضد الحقيقة على خط مستقيم ٠

كما أنى أعلن أنه اتضح لى بجلاء ان حركة الكتائب ، التى أسندوا الى تشكيلها ، فى اجتماع ضم بعض الشخصيات المعروفه بفضلهـــــا ووطنيتها واخلاصها للبلاد ، اتضح لى أن حركة الكتائب هذه كانت تنظر لها الحكومة الوفدية بعين الاحتراس ، وعدم الاطمئنان ، وكانت الحكومة الوفدية ممثلة فى هذا بالأساتذة فـــؤاد سراج الدين وزير الداخلية ، وعبد الفتاح حسن ، وعبد المجيد عبد الحق ٠

وكانت السراى تنظر اليها كذلك بعين الاحتراس وعدم الاطمئنان ، وكان يمثلها فى ذلك الفريق محمد حيدر ، قائد القوات المسلحة فى ذلك الحين ٠

ولهذا قررت الحكومة الوفدية ان تحل هذه الكتائب ، وان يكـون حلها بطريقة تخفى على الرأى العام ، ولذلك لجأت الحكومة الى أن تدس على الحركة فئة من رجالها ، وأرادت أن توهم الكتائب أن وظيفة هـــذه الفئة ان تمثلهــا عند الحـكومة ، حتى تســـهل مهمة الكتائب وأختارت الحكومة الرجال الذين يمثلوننى عندها ، وهم الأساتذة عبد الوهـــاب حسنى وتوفيق الملط وجمال عزام ٠

واذا بى اكتشفت أن مهمة الفئة التى فرضتها الحـكومة علينا هى تخريب حركة هذه الكتائب وحلها ٠ وكنت أنا الذى عرضت تأليف هذه الكتائب على هيئة مكونة من بعض الوزراء ، وكانت فكرتى أن يعم تشكيل هذه الكتائب كل البلاد ، وأن تتألف كل كتيبة بتشكيل خاص ، بحيث يجعل قوة الكتيبة الواحدة ما يعادل قوة « أورطة » عسكرية ، وطلبت أن يضاف الى وظيفة هذه الكتائب العسكرية وظيفة اجتماعية ، القصد منهـا رفع شأن القرية المصرية ومستواها ٠

وكنت أطلب الى هذه الهيئة الحكومية ان تتولى الحكومة تسليح هذه الكتائب من أسلحتها المتوافرة فى المخازن !

ولكنهم كانوا يسوفون ، وكانوا يشترون الأسلحة من الاعانات التى كانت الأمة ترسلها الينا بسخاء فى البداية . ثم لما حول الأستاذ عبد الوهاب حسنى هذه الاكتتابات على عنوان مكتبه بدأت التبرعات تقل وتتضاءل .

ولم تزد التبرعات على أربعة آلاف جنيه .

وكانت اللجنة التى فرضتها الحكومة علينا هى التى تشترى الأسلحة !

ولما عرضت هذه الأسلحة على وجدت أكثرها تالفا ، ولا يصلح للاستعمال ، وكان ثمنه فوق التصور فقد كان الثمن مبالغا فيه !

ولما اكتشفت هذا التلاعب ، وهذه الدسائس ، وتبينت ما يراد بحركة الكتائب ، عندما قدم الى مكتبى أفراد احدى الكتائب يشكو من هذه اللجنة المفروضة علينا ، ولما أبلغونى عن تصرفاتهم الخطيرة فى شأن الكتائب ، وكيف أنهم عينوا للاشراف عليها ضابطا ظهر فيما بعد أنه متصل بالقلم السياسى ، وظهر أن فؤاد سراج الدين هو الذى فرضه على الكتيبة ، ثم أوهموا أعضاء الكتيبة أننى أنا الذى عينته مندوبا عنى ، بينما أنا لم أعين هذا الضابط ، ولم أعلم بتعيينه ، بل لم أر وجهه حتى الآن ...

لما اكتشفت هذا كله واجهتهم به أمام أحد ضباط الجيش ..

واعترفت اللجنة المفروضة بكل ما قلته ، واعترفت أنها تسلمت مبالغ بدون علمى من وزارة الداخلية لشراء أسلحة وتوزيعها على كتائب أخرى باسم فؤاد سراج الدين !

وعندئذ فصلتهم جميعا على الفور ، وانقطعت علاقتهم بنا ، فخرجوا من حركتنا ، ولكن بعد أن خربوا كل أعمال الكتائب ، وجعلوها تفشل .

★★★

● فى ٢٨ مايو ١٩٥٧ نشرت صحيفة الحارس العراقية ، التى كان يصدرها صبيح الغافقى ــ من الصحفيين العراقيين البارزين ، والتى كان يقوم الأستاذ ناظم بطرس المحامى ــ من أبرز المحامين العراقيين أيضا ، بمهام المدير المسئول ــ نشرت كلمة لمعالى الأستاذ على محمود الشيخ على بعنوان : التاريخ فى سير أبطاله : عزيز على ومحنته بقومه .. خدم العرب كالأبطال ولكنه جوزى جزاء سنمار .

وقد جاء فى تلك الكلمة ..

(٢٨ مايو ١٩٥٧) :

ان الشقاء الذى أصاب عزيز على المصرى ـ كما أوضحت مرارا ـ انما كان شقاء قد أقدم عليه برضى منه وبارادته . وكان فى وسعه أن يتجنبه لو كان ممن تغرهم متع الحياة ولذائذها .

وعزيز على عمل لقضية العرب ، وأخلص لها . وذب عن حياضها كما يذب الأبطال المخلدون ولكن الشعب العربى لم يجزه الا جزاء سنمار .

فهو ان تبرم به ، وتبرم ببعض تلامذته الذين انحدروا الى الهاوية فمن حقه ان يتبرم . وانه ان أرسل الصيحة تلو الصيحة فمن حقه أن يعمل ذلك . وليس تبرمه ، ولا صيحاته دليل اليأس والقنوط بالعكس فانها دليل الحيوية والفتوة والنشاط . ذلك لان القصد منها استفزاز الهمم وتجديد القوى وشحذ العزائم .

لقد دعا موسى ربه حين ضاق ذرعا ببنى اسرائيل فى صحراء التيه ان يقبض نفسه اليه أو أن يعينه على قومه وينزل على قلبه السكينة ، وخاطب المصطفى محمد ربه يوم « أحد » قائلا : ان نصرتهم ـ ويعنى قريشا ـ فلن يعبدك عابد ، وكلاهما وثق فى رسالته ، وكلاهما صار فى جوار ربه وهو قرير العين ، رضى النفس مطمئن القلب .

ومرارة الخيبة وان كان العظماء لا يخجلون منها ولا يجزعون فانها لا بد وان تترك فى نفوسهم أثرا . خذ مثلا يوليوس قيصر لما هوى تحت سيوف قاتليه وخناجرهم ، ولمح بروتس بين قاتليه وهو ربيبه المحسن اليه غطى وجهه بردائه المخضب بدمائه حياء وأشاح عنه وجهه وندت عنه تلك الصيحة الداوية التى مازالت الآفاق ترددها « وأنت أيضا يا بروتس» فكيف لا تذعن وجدان عزيز على مثلها وأعلى منها حين يرى تلامذته وهم مناط رجائه ، وموضع أمله ، يدهسون المبدأ بأرجلهم ، وينهشونه بأسنانهم ويمزقونه بخناجرهم ؟ وهل هذا المبدأ القتيل غير عصارة قلبه، وجوهر روحه ، وخلاصة وجدانه .

فمحنة عزيز على بقومه كانت وما تزال شديدة ، على أن محنته بتلامذته كانت وما تزال أروع وأشد .

لعله لا يأسو على حياته ، وما تحملته من شقاء بقدر ما يأسو على مبدأ منحه من روحه ، وانتزعه من سويداء قلبه . لقد كان وما يزال

يحرق نفسه من أجل قومه ، كالشمعة يشرب على ضوئها الشاربـون ، ويأكل الآكلون ، ويسمر السامرون ، ويرقص الراقصـون • حتى اذا ما عبوا من متع الحياة ، ونهلوا وتحلوا من رحيق لذائذها ، ولوا وجوههم نحو فراشهم ليرقدوا هانئين تاركين وراءهم الشمعة تحترق وحيدة • والشمعة ما تزال تحترق وهى منكورة النصيب من الوفاء ، وهى محجورة التقدير على أن هيكلها بحمد الله ما زال سمحا وضوؤها مازال ساطعـا يغمر الحزن والسـهل والله نسـأل أن لا يرينـا يومها الأليم ، وساعتها المذهلة ولكن كل كائن صائر الى نهاية فاذا خبا ضياؤها وهى منكـورة النصيب من الوفاء ، واذا زال هيكلها وهى مجحودة التقدير والتعظيم •• فالويل للعرب من حكم التأريخ • والويل لهم من أنسالهم وذراريهم حين يفتحون عيونهم للنور ويقرأون مأساة هذا الشهيد •

★★★

● وأستأذن أخيرا فى التوقف فى هذا المدخل عند صفحة من مذكرات قائد الأسراب حسن ابراهيم نائب رئيس الجمهورية الأسبق وأبرز قادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقد جاء فى تلك الصفحة) ان صلته ترجع بعزيز على المصرى الى عام ١٩٣٩ وكان وقتها حسن ابراهيم طـالبا بالكليـة الحربية ، وكان عزيز على المصرى رئيسا لهيئة اركـان حـرب الجيش المصرى ، وكانت نذر الحرب فى كل مكان ، والصـدام بين الألمـان وحلفائهم وانجلترا وفرنسا وحلفائهم يوشك ان يقع بين لحظة وأخرى • وكان عزيز المصرى يأتى الى الكلية ليحاضر فى طـلابها • ولأول مرة سمعت منه ــ من عزيز على المصرى ــ نقدا لاذعا موجها الى ضباط الكليـة وقادتها كما سمعت منه لأول مرة هجوما على قيادات الجيش التى تبنى منشآت سلاح الصيانة فوق الأرض فى وقت حرب مما يجعلها أهدافا سهلة للعدو • وكان بناء هذه المنشآت قد تقرر قبل ان يرأس عزيز على المصرى هيئة أركان حرب الجيش ، وكان اعجابنا به قد تضاعف عندما سمعنا عن نقده اللاذع للبعثة العسكرية البريطانية التى كانت تشرف على بناء هذه المبانى والتى كان كبار قادة الجيش يتملقونها •

ويقول حسن ابراهيم : ان محاضرات عزيز على المصرى قد أصبحت بالنسبة لنا شيئا هاما ومقدسا نحرص عليها ، وكانت مشيته المهيبـة تنير فينا شعورا قويا بالثقة والعزة والمثل العليا •

كان عزيز المصرى ، رئيس أركان حـرب الجيش بذهابه الى الكلية لالقاء محاضرات هناك يعطى نموذجا رائعا للمعلم والقائد والرائد ، كان يربى جيلا من الضباط الأحرار ، وكان عزيز على المصرى منتظما فى القاء محاضراته لا يتأخر أبدا عن واحدة منها مهما كانت موجبات التأخير ،

وتخرجت ، وأصبحت ضابطا بالقوات الجوية ، وزاد اعجابنا بعزيز المصرى كما ازداد تعلقنا بشخصيته » •

الى أن يقول حسن ابراهيم ، وفى أحد الأيام وكنا بالسويس تعرف بى وجيه اباظة ، وكان يسبقنى فى السرب وكنت أسمع منه تلميحات ضد القصر ، وضد الانجليز ، وضد الأوضاع الفاسدة : فى البداية كان يقذف بالعبارات وهو يعلم أنى أسمعه ويتصرف دون أن يرى تأثير كلامه ودون أن يورط نفسه فى شىء ، فقد كانت قوى الظلم والفساد تسيطر على كل شىء فى بلادنا حتى ان الأخ لم يكن ليثق بأخيه فى هذا الوقت بالذات • ولكننى كشاب متحمس سعيت الى وجيه أباظة الذى عرض الانضمام الى تنظيم سرى كان يرأسه فى ذلك الوقت عزيز على المصرى •

ومرت الأيام وتعرفت بالأخ عبد اللطيف البغدادى كأحد أعضاء التنظيم •• وتعرفت بكل من أنور السادات وخالد محيى الدين أيضا وكانا من خارج الطيران ••

وفى سنة ١٩٤٢ تقرر الاتصال بقيادة الألمان فى العلمين •• للاتفاق معهم على ضرب الانجليز وكانت الخطة أن يطير أحدنا بطائرة حربية الى هناك يحمل معه صورة من مواقع الانجليز فى مصر •• ويحمل معه خطة العمل بالاتفاق مع الألمان •• وتقضى بأنه فى حالة تقدم الألمان للزحف على مصر •• فان التنظيم السرى الذى يرأسه عزيز المصرى سيكون مستعدا لمنع تراجع الانجليز الى الدلتا ومحاصرتهم بين الصحراء الغربية وفرع رشيد •• فبينما يضربهم الألمان المتقدمون من الصحراء ، تقوم المقاومة السرية المصرية من الخلف بنسف الكبارى والجسور لمنع التراجع، وهنا يصبح الانجليز بين طرفى كماشة •• الألمان فى الشمال الغربى والمصريون على طول خط رشيد يمنعون عبورهم الى داخل البلاد •

فى هذه الأثناء •• وقع اختيار القيادة السرية على ، لكى أقوم بقيادة الطائرة التى ستهرب الى العلمين •• وجاء صباح يوم ابلغنى فيه وجيه أباظة •• أن عزيز المصرى اختارنى لهذه المهمة •• وان على ان أرتب ظروفى لهذا وان أكون مستعدا ابتداء من اليوم التالى ••

وما أن سمعت هذا حتى شعرت بسعادة غامرة •• فقد كنا نكره الانجليز •• ونريد ان نخرجهم من بلادنا •• ولأن الألمان وعدونا فى حالة كسر الجيش البريطانى •• ان يتركوا البلاد فورا وان يعطوا مصر حريتها واستقلالها •

وفى المساء ذهبت لكى أودع أهلى (أخى وأختى فى هذا الوقت) ويبدو أن عزيز المصرى أبلغ وجيه رغبته فى رؤية الضابط الذى وكلت اليه هذه المهمة ·· لأنه تقرر القيام بالعملية فى فجر اليوم التالى ·

فقام وجيه بالبحث عنى ·· ولسوء حظى لم أكن موجودا فى البيت فى هذا الوقت ·· فأبلغ القائد أننى غير موجود وكان رد عزيز المصرى ·· ابعثوا الى المرشح رقم ـ ٢ ـ فورا ·· وفعلا ذهب اليه الزميل سعودى حسين أبو على ، وهو من أبناء مدينة الاسكندرية وكلفه القيام بالعملية التى كنت مكلفا بها ·· وقد شعرت بجرح عميق وأسى شديد لأننى تخلفت عن هذه المهمة المقدسة وحاولت جاهدا ان أنصح عزيز المصرى بالتراجع عن قراره الأخير ·· ولكن دون جدوى ·

وما زلت أذكر أنه ساعتها قال لى ·· « خلاص الحكاية دى خلصت ·· فيه حاجات كثيرة جايه ، من هنا ورايح مادام وهبت نفسك لخدمة بلدك يجب أن تكون على استعداد فى كل وقت وجاهز فى كل دقيقة ·· وعلشان ما تزعلش احنا قررنا انك تعطى سعودى طيارتك حتى لا تحرم من شرف المهمة ، وتكون أنت نمرة اثنين فى مسئولية تنفيذها » ·

وطار الزميل سعودى بطائرتى ·· ولم نعرف عن أخباره شيئا حتى هذه اللحظة ، والمرجح أن الألمان أسقطوه خطأ لأن الطائرة انجليزية الصنع ولذا فقد حسبوها من طائرات الأعداء (الحلفاء) ·

وأضاف حسن ابراهيم نائب رئيس الجمهورية قائلا ·· ما علينا ·· المهم ان هذه الواقعة أعطتنى مدلولا جديدا فى كشف أحد الجوانب المشرقة لشخصية القائد عزيز المصرى ·· وهو عزيز القائد الحازم القوى الذى لا يتردد والذى يحكم خطته ويضع الاحتياطى الذى لو تغيرت الظروف يستخدمه ·

وتتابع كثير من الحكايات ·· وحسن ابراهيم يحكى ·· وأصابعه تداعب مسطرة صغيرة على مكتبه وخلفه صورة كبيرة للرئيس جمال عبد الناصر ·· ومن بعيد كانت الشمس توشك ان تسقط فى البحر الواسع الممتد امام بيته فى منطقة رشدى بشارع سوريا بالاسكندرية ·

يقول حسن ابراهيم ···

وعقب فقد طائرة الزميل سعودى أدرك الانجليز ان هناك محاولة للاتصال بالألمان أعدائهم فى الحرب ، وأدركوا أن هناك تنظيمات سرية تعمل ضدهم فى سلاح الطيران وغيره من أسلحة الجيش ، فطلبوا التخلص

من بعض ضباط الطيران بنقلهم الى أسلحة غير محاربة بالجيش تشتيتا لهم (وكنت ضمنهم طبعا حيث نقلت الى سلاح المهمات) ·

كما عملوا على منع الطيران للضباط الطيارين وحددت كميات الوقود للطائرات بحيث لا تصل الى خطوط الألمان ونزعت بعض أجزاء الطائرات مساء حتى لا تهرب ·

كما تقرر محاكمتى عسكريا بحجة أن سعودى اخذ طائرتى ولم يكن فى استطاعتهم أن يعلنوا على العالم فى ذلك الوقت خلاف ذلك ···

وعندما طلبت للمحاكمة ، شعرت ان الانجليز طلبوا مجازاتى بجزاء رادع قد يصل الى طردى من الجيش أو ايداعى بأحد السجون ·· وعندئذ انتابنى شعور بالكآبة ·· ولم يكن ذلك بسبب ما سيلحق بى من أضرار لأن ايماننا وعقيدتنا الراسخة كانت أقوى من التضحيات مهما عظمت ، ولكن كآبتى كانت لسببين :

الأول : هو كيف لى أن أدافع عن نفسى أمام قسوة الانجليز وصنيعتهم القصر وأنا رجل معدم ليس لى القدرة على توكيل أحد كبار المحامين للدفاع عني ، واذا فرض انى تمكنت فمن هو ذلك المحامى الذى يأخذ مثل هذه القضية على عاتقه ·

أما السبب الثانى : فهو ان خروجى من الجيش سوف يضيق أمامى الفرصة للاستمرار مع زملائى فى العمل الوطنى الذى وهبنا أنفسنا له ·

ووسط هذه الدوامات ·· دق جرس التليفون ·· وكان المتحدث عزيز المصرى ·· وقال لى : تعال أنا منتظرك هنا فى بيتى ·

وشعرت على الفور براحة غريبة ·· تصور أن عزيز المصرى يستقبلنى فى بيته ·· رغم أنه يعلم أننى مراقب وان الانجليز يطلبون محاكمتى ·· وان الانجليز أكثر من ذلك يعرفون مواقفه ويريدون أن يتخلصوا منه لمجرد ظهور أية بادرة تدينه ·· لأنهم كانوا يعرفون قيمته ودوره فى الحركة الوطنية ، ودعوته لى تشير مباشرة الى ارتباطه بالتنظيم السرى الذى أدرك الانجليز وجوده ·

واستقبلنى عزيز المصرى فى بيته وطمأن خاطرى ورأيته فجأة يدير قرص التليفون ويطلب المحامى حماده الناحل ·· ويستدعيه على الفور ··

وجاء حمادة الناحل ·· وقال له عزيز المصرى ·· الأخ حسن ابراهيم مطلوب للمحاكمة ·· لأنه قام بعمل وطني وأنت ستدافع عنه وما تخدشي منه فلوس لأنه لا يملك شيئا » ·· ولم أتمالك نفسى فقد رأيت

عزيز الانسان فى أكبر صورة من صور الوفاء فى هذا الوقت بالذات ، رأيته معرضا نفسه للخطر لينقذنى من أيدى الانجليز ٠

واستمرت صلتنا بعزيز المصرى ٠٠ السنوات تروح ٠٠ وتجيىء ، وعهـود الظلم تترى على مصر ، الانحـلال والفوضى والاستغلال والقصر والأحزاب ٠٠ كلها تتكالب على شعبنا الطيب ٠٠ وفى سنة ١٩٤٩ ٠٠ وهى سـنة لا أنساها ٠٠ فقد عـاد جيشنا من فلسطين بعـد أن لعبت الخيانة دورها المعروف فى ارسال الأسلحة الفاسدة ٠٠ وكيف تآمر الملك مع العصابات التى تحكم مصر فى هذا الوقت لاذلال الجيش وتمريـغ سمعته فى الوحل ٠٠٠٠

فى ذلك الوقت كنت فى التشكيل الذى يرأسه جمال عبد الناصر ، وكنا نحاول ان نعمل شيئا لنقضى على هذا الفساد ونزيل عن أنفسنا هذا العار ، وذات يوم قررنا ــ جمال عبد الناصر وأنور السادات وأنا ــ ان نذهب نحن الثلاثة الى عزيز المصرى نأخذ رأيه ومشورته فى أحـوال البلاد ٠٠٠

وعرض الرئيس جمال عبد الناصر عليه الموقف بالتفصيل ٠٠ وكان عزيز ينصت فى صمت شديد ٠٠ وفى نهاية المقابلة سألناه المشورة ، وفى هدوئه الشديد قال لنـا ٠ لابـد أن تقرأوا كثيرا ٠٠ القراءة هى السبيل الوحيد لاخـراج البلاد من هذه المحنة ، اقرأوا فى الديموقراطية وفى الاشتراكية وفى الرأسـمالية وفى الشيوعية ٠٠ اقرأوا ، بلا حدود ٠٠٠ وبلا تقييد لأى شىء ٠٠ وسوف تجدون فى النهاية الحل لجميـع مشاكلكم » ٠٠

★★★

● يقول جورج فوشيه فى كتابه « عبد الناصر ، وصحبه » : كان أنور السادات يقوم بالاتصال بين الضباط الأحرار والمرشد العام للاخوان المسلمين ٠ وحسن البنا هو الذى مهد له الاتصال بعزيز باشا المصرى الذى أقاله رئيس الوزراء حسين سرى باشا بناء على طلب الحكومـة البريطانية من رئاسة أركان حرب الجيش المصرى ٠

أثار عزيز المصرى استياء الانجليز عندما طبق فى الجيش المصرى نظام الاشارة الألمانى وانتقد نشاط البعثة العسكرية البريطانية ، ولاحظ فيما لاحظ ، أن البنادق الرشاشة « برت » التى تشترى من انجلترا كانت تباع بأسعار جد مرتفعـة عن أسـعار تشيكوسلوفاكيا ، وصرح للضباط البريطانيين قائلا : انكم بعثة تجارية لا بعثة عسكرية ٠

ولم يكن ما أبداه رئيس أركان حــرب الجيش المصرى من كــره للانجليز وولاء للألمان ، هو وحده الذى أثار سخط الرؤساء العسكريين البريطانيين اذ كانوا يظنون فعلا أنه متواطىء مع العدو ، وتأيدت هـذه الظنون فى ديسمبر ١٩٤٠ عندما شنت القوات الحليفة هجومها المفاجىء على الايطاليين فى سيدى برانى التى انشغلوا فيها بتنظيم دخولهم وادى النيل دخول الظافرين · وهناك وضع الانجليز يدهم على أرشيف هيئـة أركان الحرب الايطالية ووجدوا فيه خطة الدفاع عن الصحراء الغربيـة التى كان الجنرال ميتلان ولسون قائد العمليـــات فى مصر تحت امرة المارشال ديفيل قد نقلها بنفسه الى الفريق عزيز على المصرى ·

هل كان رئيس أركان حرب الجيش المصرى أو رئيس الوزراء أو الملك فاروق نفسه أو مؤتمر بأمره هو المسئول عن افشاء السر أو عـدم التبصر فى تسليم العـدو الخطط البريطانيـة : انه من الصعب تحديد ذلك ، ولكن ما ورد فى قصة أنور السادات بعد ذلك فى كتابه « ثورة على ضفاف النيل » يدفع الى الظن بأن الانجليز لم يخطئوا فى ظنونهم ، واذ خلا عزيز المصرى من العمل بعد احالته الى المعاش ، راح يلهب فى نفـوس الضباط الشبان المشاعر الوطنية عندما كانوا يتصلون به سرا ، وفى حيطة عظيمة لكى لا يقتفى آثارهم رجال المخابرات البريطانية أو الشرطة السياسية المصرية ·

لقد قابله أنور السادات فى بادىء الأمر فى المكتب الملحق بعيادة أحد الاطباء بحى السيدة زينب الشعبى ، وبعد ذلك كان من اليسير على الضباط والشبان المتقدين حماسا أن يرفعوا حائط حديقة عـين شمس الواسعة حيث كان عزيز المصرى يقيم فى قصر تحيط به أشجار المانجـو والنباتات المتشعبة ، واذ أبعد عن الجيش راح يعتمد على الضباط الشبان ليقوموا فى مصر بالانقلاب العسكرى ليحـرروا بلادهم من الوصـاية الانجليزية ·

ويمضى جورج فوشيه قائلا : كان أنور السادات قد اتصل بالقيادة الألمانية فى ليبيا ، ورئى ان تلتقى القوات المصرية الثائرة وقوات المحور ، وفكر الألمان بارسال عزيز المصرى الى العراق لقيادة القوات العربية وتذليل العقبات السياسية والعسكرية التى كانت تواجه حركة رشيد عالى ، وفى هذه النقطة بالذات لم يشارك القائد العجوز الضباط الشبان فى تفاؤلهم ، وكان يجيب المتحمسين التواقين الى رؤيته يهب الى نجدة ثوار بغـداد قائلا : انكم لا تعرفون الساسة العراقيين كما أعـرفهم وراح يكشف للمتآمرين الشبان عن أمور مذهلة تتعلق بالأخلاق السياسية للزعمـاء

العرب الذين سنحت له فرصة التعرف اليهم فى عهد الأتراك وكان بطبيعة الحال يتكهن بطعنة الخنجر التى أصابت الكيلانى فى ظهره ٠

★★★

● ومن رسالة خاصة بعث بها الى اللواء محمد حسن محمد التهامى من ضباط ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ المعروفين ، أنه عندما أسرف الملك فاروق فى تحدى الشعب بسلوكياته واعتداءاته ، وانبرى رجـاله فى الجيش يتصدرون للدفعة الوطنية التحررية التى ظهرت فى أعقاب حرب فلسطين (١٩٤٨) حتى قيام الثورة وأصبح لها رجالها ، وتيــــارها الفكرى ، وتحدياتها لما يريده الملك والحكومة من كبت للروح الوطنية والتصدى لها دار حديث ولقاءات مع الفريق عزيز المصرى ، بينى أنا وكمال رفعت وبينه وبين جمال وعبد الحكيم ، وعضو آخر من مجلس قيادة الثورة حيث كانت هذه المجمــوعة تشكل الخليــة الأولى القائمــة على تنفيذ برنامج الثورة ومخططاتها واثبات وجودها وقوتها ٠

واتفق الجميع ــ بناء على ايحاء عزيز المصرى لنا ــ بوجوب التصدى للملك ورجاله بالعنف لترتفع الروح المعنويــة للضباط الأحرار ويعلموا أن تنظيمهم قادر على المواجهة وعلى بضعة رجال الملك فى الجيش كما أن مثل هذا العمل سيرهب أعوان الملك ويلزمهم الحذر وقد يجبرهم عــلى التراجع عن المساندة اللا محدودة للملك ورغباته وسطوته ٠

ومن خلال هذه الصورة القاتمة ، صورة التحدى الدموى واصرار كل جانب على انفاذ مخططه ورغباته نبتت فكرة عزيز المصرى فى التصدى للملك وأعوانه بالعنف ٠ وكان ــ رحمه الله ــ يقول : ان هؤلاء خونة لمصر ولشعب مصر ولتاريخ مصر وكان دائما يردد لنا لتثبيت عزائمنــا على المواجهة فيقول : ان الخائن خائف وكذلك كل من اللص والمتهور ، وان اظهار روح الشجاعة فى محل جرىء واحد ، كفيل بأن يحدث بهؤلاء الخونة صدمة واقعية لا يمكنهم أمامها الا التراجع ٠

وكان عزيز المصرى فى عنفوانه هذا ، وخبرته الطويلة فى الكفاح يميل دائما لهذا الفكر ولا يحسب حسابا جديا لرد الفعــل الانتقــامى احتسابا منه أنهم جميعا جبناء جبلوا على الخضوع لسادتهم ٠

وفى هذا الجو من التفكير كان امام عبد الناصر ومجموعتنا فكــر محدد ، وهو ضرب أقرب المقربين للملك لكى يفقد توازنه ويفقد مخططه للسيطرة ويبعد عنه كل من كان يفكر فى التصدى للحركة الوطنيــة بوقوفه الى جانب الملك ٠ وكان هناك شخصان : أما الفريق محمد حيدر باشــا وهو ســنده الأول حتى ذلك التاريخ واما اللواء حسين سرى عامر

الذى كان فى طريقه لان يحل محل حيدر فى الحظوة والسلطة على الجيش ومعروف ان حيدر باشا قريب لصيق لعبد الحكيم عامر وكان الرجل أيضا فى طريقه للاختفاء • وقد اجمعت الآراء على التصدى لحسين سرى عامر فهو الأوقع والأكثر تأثيرا والأشد وطأة على الملك وجهاز الحكم » •

★★★

● وأنقل هنا رواية وردت فى كتاب « الرئيس » بقلم « روبرت سان جون » ، لا لشيء الا للاشارة الى مكانة عزيز المصرى أو اللواء العجوز ـ كما يسميه روبرت سان جون ـ لدى الضباط الأحرار : فى أحد أيام مارس وصل الى علم عبد الناصر ، عن طريق اشاعة خبر مؤداه أن عميلا نازيا تسلل عبر خطوط الأعداء ووصل فى ليلة ما الى بيت اللواء عزيز المصرى حاملا خططا لرئيس أركان حرب الجيش المطرود ليتعاون مع الألمان ، لم يكن هناك داع للعجلة ، ولكن العميل شرح للمصرى كيف يستطيع ابلاغ رده عندما يصل الى قراره •

وبينما كان اللواء العجوز يناقش العرض ، وصلت اليه رسالة جديدة من النازيين تقترح عليه ارسال طائرة ، ووافق اللواء وأحيط علما بأن الطائرة ستحمل هذه العلامة وهى (ر• أ• ب) وأنها ستصل فى فجر السبت وأنها أذا تسلمت العلامات المميزة الصحيحة من الأرض فأنها ستهبط فى مكان محدد بالقرب من طريق الواحات فيستقلها اللواء بسرعة وهناك يهبط منها خلف صفوف الألمان بعد دقائق قليلة •

وحوالى منتصف الأسبوع تلقى السادات الذى كان من المفروض ان يراقب تنفيذ هذه الخطة أمرا بنقله الى الصحراء الغربية ، وحتى يتجنب تنفيذ الامر ، تصنع بالمرض ولكنه بالغ فيه ، كان مرضه مقنعا لدرجة أنه وضع فى مستشفى عسكرية فى القاهرة تحت الملاحظة •

وفى يوم السبت وقبل الفجر تماما حامت الطائرة تحمل علامات (ر • أ • ب) حول طريق الواحات على ارتفاع منخفض ، ولما لم تستقبل أية علامات مميزة عادت الى قاعدتها ، لم ينس اللواء عزيز المصرى موعده ولكن عربته تعطلت فى طريقه للموعد •

وبعد عدة أسابيع ـ روبرت سان جون ـ حصل ناصر فى العلمين على معلومات أكثر أهمية وهى أن اللواء عزيز المصرى بعد أن وضع فى موقف حرج نتيجة لما حدث قرر الخروج من مصر ، على طائرة مصرية وأن يكون طياراها عاملين فى السلاح الجوى المصرى دربهما البريطانيون ولكنهما أصدقاء للمحور ، كان أحدهما هو عبد المنعم عبد الرؤوف وهو ضابط طيار شاب متهور ، كان صديقا للسادات وعن طريق السادات

أصبح صديقا لناصر وكان عضوا مسجلا فى جماعة الاخوان المسلمين وكان يقوم مقام السادات فى غيابه كرابطة رئيسية بين ناصر والبنا • وكان الطيار الآخر هو حسين ذو الفقار صبرى ، وهو قائد كتيبة ، حديث السن ، صغير ونحيف ، كان زميل السادات وزكريا محيى الدين فى الكلية وكان فى ذلك الوقت مساعد قائد طائرة الملك فاروق الخاصة وسمع اشاعة فى العلمين بان الملك فاروق علم برغبة المصرى فى اللحاق بالنازيين وأنه هو الذى كلف صبرى بنقله اليهم •• كان الطيار الصغير طيارا كفء ولكنه صدم الطائرة بعامود فتحطمت و ••• و •• » •

وأبادر فأسجل تحفظى على كل ما قاله روبرت سان جون مؤكدا ، أن حرصى على نشره ليس الا محاولة من جانبى لاعطاء صورة للعلاقة بين عزيز المصرى والضباط الأحرار من وجهة نظر كانت غير مصرية •

★★★

● وفى مكان آخر من كتاب الرئيس The Boss كتب روبرت جون ، أفرج عن اللواء المصرى ولذلك قام ناصر بزيارته : كان اللواء فى أوائل السبعينات من عمره ولكن متاعب الفترة التى قضاها فى السجن زادته كبرا ، ومع ذلك لقى ناصر الشاب ، الرجل العجوز مستاء وثائرا ، وكانت له مشاعر قوية عبر عنها دون تحفظ وكانت كراهيته نحو البريطانيين الذين أصبحوا فى الجانب المنتصر بعد الحرب ، أشد مما كانت عليه فى الوقت الذى حاول مساعدة النازيين •• الذين كانوا منتصرين تقريبا (ومن تعبيراته المفضلة التى كان يطلقها عليهم قوله : بأنهم زبد الحثالات) •

ناقش ناصر مع اللواء الفكرة التى ظل يعلنها وهى وجوب تعاون الضباط الأحرار بصورة أوفق مع الاخوان المسلمين •

تساءل المصرى بصوت أجش : الاخوان المسلمون ، الاخوان المسلمون ، هؤلاء ليسوا الا متعصبين أبعد عنهم » •

وفى المرة الثانية التى حضر فيها ناصر لمقابلة اللواء نظر اليه المصرى ببطء من شعر رأسه المجعد الى حذائه اللامع وقال له : ان كل ما أعرفه هو أنك قد تكون ضابطا من البوليس السرى تحاول أن توقعنى فى المصيدة لاتهام نفسى • وعندما بدأ ناصر فى الاحتجاج أمسك اللواء بيده وقال له مبتسما : حسنا ، حتى ولو كنت كذلك فانى أحب ان أتحدث معك •

وخلال السنوات السبع التالية ، كان ناصر يجتمع كثيرا باللواء ، وتحدث معه الرجل العجوز فى كثير من الأمور مثل : الحب والثورة

والسياسة : كان ذكيا ومتعمقا في تاريخ الشرق الأوسط ، وفي أغلب الأحيان كان ناصر ينصت اليه لعدة ساعات .. وبالتدريج أصبح اللواء العجوز راعى الضباط الأحرار ، وكما يقول ناصر : زعيمهم الروحى .

وبعد ان قامت الثورة ظلت العلاقة قائمة بين الأب الروحى وأبنائه الثوار الأحرار . ويروى روبرت سان جون قصة تدل على مدى العلاقة التى كانت تربط بين الضباط الأحرار والأب الروحى وتدل أيضا على استقلالية جمال عبد الناصر والضباط الأحرار .

كان ناصر يتحدث من القاهرة الى مندوبه بالاسكندرية وكان المندوب يقول : قائد الطابورين العسكريين المتجهين الى الاسكندرية ينصح بأن ننتظر حتى الصباح لنبدأ عملياتنا العسكرية كرجال لم ينـاموا ثلاث ليال ، كما أن بعض دباباته تعطلت فى الطريق الصحراوى .

ويقول ناصر : زكريا محيى الدين هو المسئول عن العملية وقراره هو النهائى ، وتقول الاسكندرية أو بمعنى أدق مندوب القيادة بالاسكندرية ـ اننا نعتقد ان فاروق ذهب الى قصر رأس التين فى الطرف الآخر من المدينة حتى يستطيع الهروب من طريق البحر بسهولة أكثر .

ويقول ناصر : لا بد من مهاجمة قصر رأس التين ، وقصر المنتزة غدا . وتقول الاسكندرية : لقد انتهى السادات من اعداد الانذار لرئيس الوزراء على ماهر ليقوم بتسليمه للملك غدا .

ويقول ناصر : بلغ السادات بأن يسلم الانذار الى رئيس الوزراء فى وقت مبكر من الصباح بقدر الامكان لتسليمه الى الملك .

وتقول الاسكندرية : جمال سالم لا يوافق على الخطة التى أعدت للغد فهو يرى ألا يسمح لفاروق بالافلات بل يجب ان ينزل عليه أقصى عقاب بأسرع وقت ممكن .

ويسأل ناصر : هل يعتقد بضرورة شنقه .. ؟

وتقول الاسكندرية : نعم . ويصمم السادات على ان تنفذ أوامرك المعدة للغد .

ويقول روبرت سان جون : ان زكريا محيى الدين ظل على الحياد فيما يتعلق بمصير فاروق ، وان محمد نجيب لم يشترك فى هذا الخلاف القائم بين السادات من ناحية وبين جمال سالم من ناحية ، حيث يصر جمال سالم على شنق فاروق ، بينما يصر السادات على أن تنفذ الخطة التى وضعت باشراف عبد الناصر وهو أن يتم الابقاء على حياة فاروق .

ثم يقول روبرت سان جون :

حوالى الساعة السادسة صباحا استيقظ البكباشي ناصر فى موعده المحدد في القيادة العامة ووصل جمال سـالم بالطائرة من الاسـكندرية ليناقش معه موت فاروق ·· أنصت ناصر له بهدوء وعنـدما انتهى سالم من كلامه قال ناصر : عندى فكرة سأذهب لأقابل اللواء المصرى ومما يخجلنى ان أوقظ الرجل العجوز مبكرا فى الصباح ولكن دعنا نرى ماذا سيقول :

وارتدى ناصر ملابسه بسرعة ، واستقل عربة ·

ضم الرجل العجوز (اللواء المصرى) صوته لصوت جمال سـالم وقال : ان رأسا مثل رأس فاروق لا تهمني الا عندما تسقط ·· وينبهه ناصر الى أنه قد يستعصى الأمر ، وقف سيل الدماء عندما يبدأ اراقتها · ويرد المصرى : يجب أن تقتل وتقتل وتقتل · يجب ان تطيح برقـاب الآلاف لتنظيف البلاد ·

وبعد وقت قصـير اجتمع خمسة أعضاء من اللجنة فى القيادة العامة وتحدث اليهم جمال سالم حديثا فصيحا · ثم تحدث ناصر برزانة قائلا : اذا شنقنا فاروق فان عامة الشعب فى اليوم التالى ستقتل على الأقـل ثلاثمائة من حشيته · وهذا سيؤدى الى أعمال قتل أخرى ولن يكون هناك من سبيل لوقفها ·

وتحدث كثيرون غيره ، ثم أخذت الأصوات وكانت الاغلبية فى صف ناصر ··

ولأن الصورة التى رسمها روبرت سان جون الخاصة برحيل فاروق، جميلة وجذابة وممتعة (الصورة فقط) فقد آثرت هنا ان أنقل مجملا لها·

الاسكندرية تقول : اننا على اتصال لاسلكى برجالنا فى كـل من القصرين (المنتزة ورأس التين) وبولكلى ، وطائرات الميثور ، والفامباير النفاثة تطير خلف القصرين وأمامهما وفوقهما تطير قاذفات قنابـل من أربعة محركات تحمل ذخيرة من القنابل ·

وهناك طائرات هوكر فيوريز المقاتلة على استعداد للضرب فى حالة محاولة الملك الهرب عن طريق الجو ، وقد أطلق النار على رجالنا من برج فى رأس التين ، ورد على النار بالمثل ·

أوقف الآن اطلاق النار بين كلا الجانبين ، واستسلم الحرس الملكى وجرح ستة أشخاص ·· ذهب اللواء نجيب وأنور السادات الى القصر

الصيفى للحكومة فى بولكلى لتقديم الانذار ٠٠ وافق فاروق على النزول على العرش بشروط سبعة ٠ ويسأل ناصر ما هى ؟

أولا : ان يتم النزول عن العرش بطريقة تحفظ كرامته ٠

ناصر : ليس هناك من سبب لئلا يحدث ذلك ٠

الاسكندرية : وثانيا : ان يسمح له بالذهاب الى نابولى على اليخت الملكى (المحروسة) ٠

ناصر : هذا اليخت كلف الشعب المصرى قدرا كبيرا من المال ، يستطيع أن يبحر عليه ، ولكن لابد من رجوعه بعد توصيله الى شاطىء نابولى ٠

الاسكندرية : وثالثا : ان تطلق له المدفعية ٢١ طلقة تحية له ٠

ناصر : هذه التحية لا مانع منها ٠

الاسكندرية : ورابعا : أن يحضر نجيب رحيله حتى يضمن سلامته حتى آخر دقيقة ٠

ناصر : لا مانـــع ٠

الاسكندرية : وخامسا : ان يسمح لأنطونيو بوللى الكهربائى السابق فى قصره ــ وهو الذى عادة ما يصحبه فى مغامراته الليلية ــ ومحمد حسن، ووصيفته ، بمصاحبته ٠

ناصر : هذا الطلب مرفوض ٠

وسادسا : ان يسمح له بأخذ مجموعات الطوابع والعملات معه ٠

ناصر : هذه الطوابع والعملات تقدر بملايين الجنيهات المصرية وهو اشتراها بأموال الشعب ٠ هذا الطلب مرفوض ٠

الاسكندرية : رغبته الأخيرة : هى ان تدار ثرواته وثروات اخواته فى داخل مصر لحسابهم ٠

ناصر : لا نستطيع أن نعد بذلك ٠

ويتم احصاء بعدد الحقائب التى أخذها فاروق معـه ٢٠٤ حقائب ، بالاضافة الى بعض صناديق الشمبانيا ، والنبيذ من المخازن الملكية ٠

ارتدى فاروق الزى الأبيض لأمير البحر فى الأسطول المصرى ، وودع الناس فى الصالون الكبير فى قصره ، وكان من بينهم أختان له ــ من أخواته الخمس ــ مع زوجيهما ٠

أرسل فاروق ناريمان ، وبناته الثلاثة وابنه الطفل الى اليخت وكذا مربية الطفل الانجليزية وثلاثة حراس ألبانيين ، ومدرب كلاب ، وظهر في عملية التوديع على ماهر رئيس الوزراء والسفير الأمريكى كافرى·

وقد تحدثنا مع الملك الى أن غادر فاروق القصر عن طريق سلالم تؤدى الى منصة مرتفعة قليلا ثم ذهب الى المحروسة ·

ويسأل ناصر : أين اللواء نجيب ·· !

الاسكندرية : لقد وجد صعوبة في شق طريقه عبر الجموع المحتشدة ، ولكنه الآن يستقل زورقا صغيرا آخر وفاروق يقف على ظهر المحروسة في انتظاره ·· وعلى ظهر المحروسة الآن اللواء نجيب ومساعده جمال سالم ، وحسين الشافعي ، والبكباشي أحمد شوقى ·· والآن صافحه الضباط الأحرار وغادروا اليخت ·

ويسأل ناصر : ماذا كانت الكلمات الأخيرة لفاروق ؟

الاسكندرية : قال لنجيب : ان ما فعلته بى ، كنت سأفعله بك · ثم قال : ان مهمتك ستكون شاقة ، ليس من السهل حكم مصر ·· تؤدى المدافع تحيتها ·· بدأت المحروسة تتحرك الى البحر ·

ناصر : شكرا لله ·

★★★

هذا ·· وقد رأت الثورة – فيما بعد – ان تستعين بعزيز على المصرى فى مهمة خطيرة للغاية فأوفدته سفيرا فوق العادة لمصر الى الاتحاد السوفييتى ·

وكانت الثورة منذ انطلاقها تعلق أهمية خاصة على العلاقة المصرية السوفيتية وضرورة كسر الحصار الذى فرض على مصر فيما يتعلق بشراء أسلحة الجيش من الغرب فقط ·

وأستطيع أن أقرر هنا فى هذا المدخل – وسوف نعطى لذلك الجانب حقه فى الكتاب – ان عزيز على المصرى نجح فى أداء مهمته الخطيرة نجاحا هائلا ·· لم يكن عزيز على المصرى مجرد سفير عادى لدولة ما فى دولة ما ، ولكنه كان مبعوثا شخصيا للقيادة السياسية فى مصر ، الى دولة عظمى ، يرجى ان تكون دولة صديقة ·

وكما كان عزيز المصرى موضع ثقة القيادة المصرية ، وموضع احترامها ، فقد كان موضع ثقة القيادة السوفيتية وموضع احترامها أيضا

وقد نجح لكل تلك الأسباب ولغيرها في أداء مهمته المهمة بل الخطيرة للغاية ٠

***

تلك هي بعض رؤوس الموضوعات أو بعض الخطوط الرئيسية التي آثرت أن أركز عليها في تلك المقدمة ، أو ما أحرص باستمرار على تسميته بالمدخل الذي آمل أن يكون كشافا ينير الطريق أمام قارىء الكتاب أو دارسه ٠ أو كما أسماه بعض الزملاء الكبار « بفاتح الشهية » الذي يسبق أكلة قد تكون خفيفة أو دسمة ، فليس هذا المهم ، وانما المهم في آرائهم ان يكون فاتح الشهية يحتوى على العديد من الأصناف المقبولة أو المرغوب فيها اذا آثرنا الدقة ٠

وأحب ان أوضح ـ والحديث لا يزال عن رؤوس الموضوعات ، أو الخطوط الرئيسية التي اخترتها لتكون مدخلا الى كتابي ـ أنني في كثير من الأحيان ، أطيل في الحديث عن تلك الرؤوس ، أو تلك الخطوط ، لا رغبة في الاطالة فلست ـ يعلم الله ـ من هواتها ، ولا من أنصارها ، وانما رغبة في أن أعطى القارىء أو الدارس جرعة مركزة شبه متكاملة يمكن أن تكون صورة صادقة للأحداث ، أو للأشخاص الذين سأتناولهم في ذلك الكتاب ٠

وأحب أيضا أن أوضح ما سبق أن أوضحته أكثر من مرة ، أنني لست مؤرخا فهذا شرف لا أدعيه كما أنني لست مصورا فوتوغرافيا ، أنقل صور الأحداث ، أو الأشخاص كما هي ٠

ولست في نفس الوقت كاتب مذكرات أو ذكريات لما عشته أو لما عايشته أو اشتركت فيه من أحداث ٠

ولست بطبيعة الحال راوية ، ينقل ما سمع من شخصيات كبيرة أو صغيرة ، كان لها دورها الهام أو المتواضع في مسيرة التاريخ ٠

كما أنني لست كاتب قصة أو رواية طويلة أو قصيرة ، أضفى عليها من خيالي ما أريد ، عندما أريد ٠٠

لست والله واحدا من كل أولئك ، وانما أنا ـ في كتاباتي تلك التي أعتقد أنها مستحدثة الى حد ما ـ وقانا الله شر الغرور ـ مجرد مواطن عشق الكتابة وقبلها عشق الوطن والمواطنين ووجد أن من صميم واجباته تجاه وطنه ومواطنيه ان يقدم لهم ما يرى أنهم بحاجة الى تقديمه فقد يستفيدون منه ٠

ولذلك لا أولى أهمية كبيرة للأفراد وحتى عندما يكون موضـــوع الكتاب شخصية تاريخية معروفة أو غير معروفـــة ، ففى أحيان كثيرة توجد شخصيات تاريخية ولكن غير معروفة ، كما يوجد شخصيات كثيرة معروفة ومعروفة جدا ، ولكن ليس لها فى الحقيقة وواقع الأمر من ثقل أو أهمية تاريخية ٠٠ لا أكتفى بتقديم الشخصية مجردة عما حولها ٠٠ وانما أحرص على تقديم العصر الذى ولدت وعاشت ونمت فيه ، والناس الذين ولدوا وعاشوا ونموا مع تلك الشخصية ٠٠ الظروف الاجتماعيـة والاقتصادية والفنية بل والانسانية ، الى جانب الظروف السياسية التى عاشت فيها تلك الشخصية ٠

أى أننى أنتهز فرصة الكتابة عن شخصية تاريخية معروفة أو غير معروفة لأقدم مرحلة زمنية محددة بكل ايجابياتها وسلبياتها ٠٠ بكـــل مفاخرها ومثالبها ، بكل ما بها من نضج أو ضحالة ، أقدمها كما لو أننى عشتها ، ليعيش فيها القارىء كما عشتها أيضا ٠

وقد لا يعلم القارىء أن دراســـة تلك المرحلة ، ومعظم أحداثهـا ، أو التغلغل فيها ، وتفهم الظروف المحيطة بها ، قد يأخذ منى ذلك الجهد أضعاف أضعاف ما كان يمكن أن أبذله للكتابة عن فرد ما ٠

فما أسهل أن تكتب عن فرد : متى ولد ، وفى أية بيئة ولد ، والظروف التى بدأ فيها حياته ، والمعوقات التى اعترضته ، ثم تقـديم أعماله ، وفهم رسالته ، وتحليل تلك الرسالة ، ومحاولة اثبات ما فقد منها ، وما لم يفقد ، بعكس الكتابة عن حركة مجتمع ٠٠ مسيرة دولة ٠٠ أو شعب ، وما يتعلق بتلك الحركة أو تلك المسيرة من معوقات ، ومثبطات ومحاولات لدفعها الى اتجاهات أخرى ٠

فمن أراد أن يقرأ ما أكتبه فى هذه الرحلة بالذات على أنه ســـير وتراجم لبعض الشخصيات على النحو المألوف ، فليكن على ثقة مطلقـة ـ منذ البداية ـ أننى لن أقدم له كل ما يريد ، أو بعض ما يريده ٠

ومن أراد أن يقرأ ما أكتبه فى هذه المرحلة بالذات ، على أنها كتابة تاريخية محضة يمكن أن تضم الى الدراسات التاريخية المحضة ، فانى أقول له ومن الآن ، أنه لن يجد بغيته فيما أكتبه ٠

لقد اخترت مثلا ـ عزيز على المصرى ـ لأكتب عنه وعن صحبه ، وعن عصره كتابا مستقلا ٠

وقد عارضنى كثير من أنصار عزيز على المصرى فى اختيارى فوجهة نظرهم ـ ولها احترامها ـ ان شخصية عزيـز عـــلى المصرى وان كانت

اسطورية فى بداياتها الا أنها اتسمت بالديماجوجية فى بعض الأحيان ، لم يكن للرجل فكره الثابت الواضح المستقر الذى تستطيع ــ ككاتب ــ ان تدرسه ٠٠ كل ما يمكن ــ هكذا قال الكثيرون أنصار عزيز على المصرى ــ أنّ تقوله عن عزيز على المصرى أنه كان ثورة مستمرة ، ولكنها متنقلة ، ثورة نشاط تشع على من حولها روح الثورة ، ولكنك عندما تتعمق فى مفهوم هذه الثورة ، فى أهدافها ، فى مضامينها ، لا تجد الا خطوطـــا رئيسية كبيرة ، طويلة ، عريضة ٠

وقال هؤلاء أكثر من ذلك ولكننى أصررت على الكتابة عن عزيـز لاعتبارات كثيرة ٠٠ اننى لا أرى كل ما يرونـــه ، واذا كنت أرى بعض ما يرونه فاننى فى كثير من الأحيان ــ وأنا بطبعى قنوع للغاية ــ وفى وقت انحسر فيه أو كاد روح التضحية العامة ، أقنع من الزعيم أو من القائد بان يـكون شمعة تضىء ما حوله ٠٠ بان يكون داعية لمثل ، ليس مهما ان تتحقق فى عهده أو لا تتحقق ، وانما المهم ــ فى نظرى ــ أن هذا الداعية مؤمن بما يدعو اليه ، ليس ممثلا لدور الداعيـــة ٠٠ ليس متاجرا بدعوة ٠ والمقياس العملى الوحيد الذى اعتمد عليه ــ وقد يكون مقياسا علميا وقد لا يكون ــ ان هذا الزعيم ، هذا الداعية لم يستفد مــن زعامته ، أو دعوته ، وأن ظل طيلة حياته مخلصا لها ، يفيدها ولا يستفيد منها ٠

ثم ان حياة عزيز على المصرى حياة عريضة تشمل مرحلة هامـــة وخطيرة من مراحل حياتنا ، لم تجد بعد اهتماما منا فى دراستها ، بل لم نحاول أبدا الاقتراب منها ، لأننا نخشاها باستمرار ٠ لقـــد انطبع فى وجداننا بسبب تأثيرات وايحاءات كثيرة ، لم نكلف أنفســـنا حتى عناء دراستها ٠ انها فترة سيئة وحسب حتى أننا لم نحاول ان نعرف هل هى سيئة حقا ؟ بل لم نحاول أن نعرف لماذا هى سيئة ؟

لقد وقر فى اذهاننا منذ بدايات الاحتـــلال البريطانى ان عهـــد الاستعمار التركى كان أسوأ وأشد عهـــود الاستعمار ، وان الخلافـــة العثمانية كانت أسوأ نظام مر بأية دولة من الدول ٠ وقد وجد فينا ــ بكل أسف ــ من قارن بين الحكم العثمانى لمصر أو الاحتلال التركى لمصر ، وبين الاحتلال البريطانى لمصر وخرج من مقارنته تلك ان الاحتلال البريطانى أهون وألين ٠٠ و ٠٠ و ٠٠

وقد ســاهم عدد كبير من الأخوة العرب وخاصة من سورية ولبنان والعراق فى تشويه ســمعة الخلافة العثمانية ، وفى محاولة اعطاء صورة وردية للاحتلال البريطانى ، ذلك لأنهم كانوا يعيشون فى ظروف قاسية

فى أقطارهم العربية الخاضعة للاحتلال العثمانى الرهيب ثم هربوا منه الى مصر ، ليتعموا بالاحتلال البريطانى وليكونوا أبرز دعاته وأنصاره .

وفاتهم أنه اذا كانت أقطارهم تقاسى الأمرين من الاحتلال العثمانى الرهيب ، فان مصر منذ بداية عهد محمد على قد شفيت الى حد كبير من وباء الاحتلال العثمانى الرهيب ، وقد سارت فى طريق الاستقلال الداخلى بل والخارجى خطوات هامة بعكس أقطارهم التى لا تزال تحت وطأة ذلك الاحتلال .

وفى عام ١٨٨٢ كانت مصر قد شفيت تماما من كل أمراض الاحتلال العثمانى ، قد بليت باحتلال أقسى وأمر وأعنف ويكفى أنه من دولة لا تعتنق الاسلام ، هو الاحتلال البريطانى الذى أعاد البلاد الى الوراء مئات السنوات ، والذى فعل فى بضعة أعوام ما لم يفعله الاحتلال العثمانى فى مئات السنين .

انقسم العالم الاسلامى بدءا من ثمانينات القرن التاسع عشر فيما يتعلق بالموقف من دولة الخلافة العثمانية الى ثلاثة أقسام :

ــ قسم يقيم تحت وطأة احتلال تلك الدولة ويلقى منها أعتى صنوف الاضطهاد والارهاب وخاصة فى مرحلة احتضارها ويمثل هذا القسم سوريا ولبنان والعراق وفلسطين .

ــ وقسم لا يرتبط بدولة الخلافة العثمانية الا برباط روحى باعتبارها دولة الخلافة ، وبرباط آخر هو حكم دولة الخلافة لبلدان ذلك القسم ، كما هو الحال بالنسبة للجزائر وتونس ، ثم أضيفت اليهما ــ فيما بعد ليبيا .

ــ وقسم ثالث تمثله مصر ، لا يزال مرتبطا بنوع من السيادة الاسمية لم يستطع الاحتلال البريطانى ــ الذى ابتليت به مصر فى عام ١٨٨٢ ــ قطع تلك العلاقة الا فى عام ١٩١٤ عندما أعلن ذلك الاحتلال الحماية على مصر .

واختلفت وجهات النظر ، نظر كل تلك الأقطار ، الى دولة الخلافة العثمانية .

القسم الأول يرى أنها لا تزال دولة محتلة ، ينبغى العمل على التحرر من أسارها المفروض .

والقسم الثانى يعتبرها ــ لقسوة ما يعانى من استعمار فرنسى أو ايطالى لا مثيل له فى تاريخ الاستعمار ــ أملا ، لأنها دولة مسلمة ترفع راية الخلافة الاسلامية ..

أما القسم الثالث الذى تمثله مصر ، فقد كان يرى ان مصلحته فى عدم المحاربة فى جبهتين ٠٠ جبهة دولة الخلافة ٠٠ وجبهــة الاحتـــلال البريطانى وان مصلحته أيضـــا ــ فى أن يحارب احتلالا قائما بدلا من أن يحارب احتلالا اسميا لا يهش ولا ينش كما يقولون !! ثم ان تلـــك المرحلة التى يجب أن نعيد النظر فيها ، كانت من أهم مراحل بناء القومية العربية ، وعزيز على المصرى ، يرتبط تاريخه ــ وخاصة منذ أن تخرج فى الكلية العسكرية التركية حتى عام ١٩١٤ ــ مرتبط بتاريخ الدولة العلية ، دولة الخلافة العثمانية ثم انه هو أيضا ، من أبرز دعاة القومية العربية ، بل من أبرز المحاربين فى صفوفها ، وهذه الفترة من عمر عزيز على المصرى ومن عمر الأمة العربية لم تقدم ولم تدرس من وجهة النظر الجديدة تلك كما ينبغى ، وتلك زاوية من الزوايا التى دفعتنى الى الكتابة عن عزيز على المصرى وعصره وصحبه ٠

وانها لفرصة جديدة أن نعيد فيها النظر فى عـــلاقتنا ــ كمصر ــ بدولة الخلافة العثمانية على أساس علمى ثابت يتسم بالعدالة المطلقة ، دون تحيز لهذا الطرف أو ذاك ٠ وعندما نعيد النظر بموضوعية فـــان مسلمات كثيرة « عشعشت » فى أفكارنا ووجداننا ، يمكن ان تتلاشى !

★★★

وربما كان فى مقدمة الأسباب التى حرضتنى على الكتابة عن عزيز المصرى وصحبه وعصره ، أننى وجدتها فرصة طيبة للنظر الى ما سمى بالثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى ٠٠ لقـــد كتب عن هـــذه الثورة عشرات من الكتب ، كتبها اخوة شاركوا فى تلك الثورة ، أو كانوا على مقربة من المشاركين فى تلك الثورة ٠ كما كتبها بريطانيون كثيرون حاولوا وضع بصمة بريطانية على تلك الثورة ٠ وبكل أسف فاننا لم نقرأ بعد ، ولعلنا نقرأ فيما بعد ، وجهات نظر موضوعية ، بعيدة عن الذاتية فى تلك الثورة ٠

على أننى قد طرحت فيما كتبته فى هذا الكتاب وجهة نظر خاصـــة أرجو ان أكون قد وفقت فيها وهى ليست أكثر من وجهة نظر مصرى عربى يحاول دائما وأبدا ــ قدر استطاعته ــ ان يعيد الأمور الى أصولها ، وأن يبحث المشاكل من جذورها وان يخرج على الأحكام الموضوعة فى صورة قوالب ثابتة غير متحركة متى وجد أسبابا معقولة للخـــروج على تلـــك القوالب الأحكام ، أو الأحكام القوالب ٠

وهى بالقطع وجهة نظر تختلف عن وجهات نظر بعض الاخوة الذين شاركوا فى تلك الثورة من الاخوة العراقيين أو الســـوريين أو اللبنانيين

أو الذين كانوا يشـــاركون فى حكم الحجاز وقتـذاك : لقد قامت تلك الثورة بدعم انجليزى ضد دولة الخلافة العثمانية فى وقت كانت مصر كلها تقاوم الاحتلال الانجليزى وترنو بابصارها الى يوم تنتصر فيه دولة الخلافة العثمانية • وأحب هنا ان أوضح فكرة أرى أنها هامة وضرورية للغاية ، وهى أن تأييد شعبنا للأتراك وللألمان فى الحرب العالمية الأولى ، وتأييد شعبنا للألمان فى الحرب العالمية الثانية ، لم يكن أبدا من منطلق معاداته للديمقراطيات أو مناصرته للدكتاتوريات ، لم يكن أبدا عن عمالة لهذه الدولة أو تلك ، وانما كان من منطلق كراهيته للاحتلال البريطانى الجاثم فوق أرضه منذ عام ١٨٨٢ •• واذا كان هذا هو رأينا فى تأييدنا للأتراك وللألمان ، فاننا لم نحجر أبدا على رأى لمن وقف الى جانب الانجليز بصفة خاصة والحلفاء بصفة عامة من بنى جلدتنا ، لم نتهمهم بالعمالـة للانجليز أو الحلفاء ، وانما نعتبر الأمر ، مجرد اختلاف فى وجهات النظر فى تقييم الأمور •

وقد قلت ـ أكثر من مرة ـ : لقد استولى الحلفاء على كل شىء فى ألمانيا أثر هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وفى الحرب العالمية الثانية •• استولوا فجأة على كل الوثائق والأوراق التى كانت فى حوزة الحكومتين الألمانيتين •• حكومة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وحكومة ما بعد الحرب العالمية الثانية ودرس الحلفاء هذه الوثائق والأوراق بدقة بالغة واستغرقت عملية الدراسة تلك سنوات وسنوات •

ويسعدنى ـ وهذا ما اقرره اليوم ـ أنهم ـ الحلفاء ـ لم يجدوا مصريا واحدا تعامل مع الأتراك أو الألمان فى خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية ، كعميل ! كل المعاملات والمقابلات كانت على أســـاس سـياسى وطنى قومى لا دخل للمادة فيه على الاطلاق •

ولذلك كانت تلك المعاملات والمقابلات التى ثبت وجودها تصـطدم فى كثير من الأحوال بالعديد من العقبات ، كاصرار هؤلاء المتعاملين من المصريين على ضرورة الاعلان المسبق لاستقلال مصر استقلالا تاما من قبل الأتراك ومن قبل الألمان •

وأذكر أننى قضيت أياما عديدة فى وزارة الخارجيـة الألمانية عام ١٩٧٦ فى ادارة هائلة تتميز بالدقة والنظام اسمها « الأرشيف الألمانى » وبها قسم هام وخطير عن العلاقات الخارجية الألمانية وعلاقات ألمانيـا بالخارج ، دولا ، وأحزابا ، وأفرادا فى الفترة من ١٩١٤ حتى ١٩٤٥ ولم أجد اسما لمصرى واحد تعامل مع ألمانيا خلال هذه الفترة كلها ، كعميل !

وهذه الرؤية الجديدة القديمة سوف تلغى أيضا أحكاما كثيرة أصدرها البعض منا على بعض الشخصيات ـ منا أيضا ـ متهمينها بالعمالة على غير أساس وبدون أي سند تاريخي أو قانونى ٠

وجزء كبير من نساط عزيز على المصرى سواء فى الحرب العالمية الأولى أو فى الحرب العالمية الثانية يخضع للتقييم الجديد ٠

***

ولست أذيع سرا اذا ما قلت : ان من بين الأسباب التى دعتنى الى التعجيل بنشر تلك الدراسة عن عزيز على المصرى وصحبه وعصره أننى وجدت ـ من قبل البعض ـ تحاملا على عزيز على المصرى بعد أن ذهب للقاء ربه ٠

وقد بذلت قصارى جهدى لدى هؤلاء المتحاملين أو لدى كبيرهم لاقناعه بعدم عدالة تلك الشكوك التى يطرحها ويطرحها تبعا لطرحه ، بعض أفراد يعدون على جزء من أصابع اليد الواحدة ٠٠

وقد نجحت فى مسعاى لسنوات عديدة ثم فوجئت فى عام ١٩٨٧ بطرح تلك الشكوك فى بعض الصحف التى تصدر فى بعض العواصم الأوربية باللغة العربية ، الأمر الذى فرض على تفنيد تلك الادعاءات بالحق، والعدل والمنطق ، وقبلها وبعدها أحداث التاريخ التى لا تكذب ، ولا تنافق ، ولا تجامل ٠

من بين تلك الشكوك ـ مثلا ـ كيف يمكن لصحيفة التيمس البريطانية ـ وهى الصحيفة الاستعمارية العجوز ـ ان تطالب بالافراج عن عزيز على المصرى ، بعد ان اعتقلته السلطات التركية وشرعت فى محاكمته ٠

كيف يمكن ـ مثلا ـ لرجال الاحتلال البريطانى فى مصر ، ولوزارة الخارجية البريطانية أن تضغط على الحكومة التركية فى استانبول لكى تفرج عن عزيز على المصرى ؟ ألا يمكن أن تعتبر كل ذلك من المؤشرات ـ هذا من وجهة نظر المشككين والمتحاملين ـ التى تؤكد ان عزيز على المصرى انجليزى النزعة ، ان لم يكن عميلا للبريطانيين ؟

ثم ماذا يعنى مشاركة عزيز على المصرى فيما سمى بالثورة العربية على الدولة العثمانية ، باقتراح من الجانب البريطانى وبرعايته منه ٠٠ ألا يعنى ذلك ، أنه بريطانى النزعة ان لم يكن عميلا للبريطانيين ؟

ثم ماذا يعنى تعيين عزيز على المصرى مديرا لمدرسة البوليس والادارة ومفتشا عاما للجيش المصرى ورئيسا لأركان حرب ذلك الجيش ؟

وماذا يعني ما قيل من ان سيف الله يسري ـ وهو الرجل الانجليزى النزعة في رأى كبير هؤلاء المشككين ـ سعى لأجل ايقاف محاكمة عزيز على المصرى ، وهى رواية سماعية نقلا عن ، عن ، عن ، عن الى آخر تلك العنعنات ـ ألا يعني ذلك الاقتراح من سيف الله يسرى ان عزيز على المصرى بريطاني النزعة ان لم يكن عميلا للبريطانيين ؟

ويحمل رأيي الذى فصلته في ثنايا هذا الكتاب ، ان الأمور لو كانت تقاس بهذه البساطة ولا أقول السذاجة في التفكير ، لما سلم أحد من الشكوك والافتراءات التي يمكن ان تطرح بسهولة ويسر وبدون تعمق على الاطلاق ، اتهام مواطن في وطنيته ـ وأى مواطن ـ من الأمور الخطيرة ، والخطيرة التى لا يجب أبدا أن تلقى هكذا ، لمجرد خواطر جالت في بال مواطن قد تكون رؤياه الشخصية ، وقد تكون له انطباعاته النفسية وراء تلك الخواطر .

ثم ان مثل هذه الآراء الخطيرة والخطرة لا يجب أبدا أن تطلق اعتباطا وبدون دراسة كموضوع طلب العفو عن عزيز على المصرى ، يجب أولا أن يدرس من يرغب في الحديث عن ذلك الموضوع ، العلاقة بين بريطانيا وبين تركيا ، الجو الذى كان يسيطر على مصر المحكومة بالحراب الانجليزية وقت محاكمة عزيز على المصرى ، الأهداف القريبة والبعيدة لذلك الاحتلال في مصر ، ثم يجب أن يدرس من يرغب في الحديث في ذلك الموضوع الظروف الخاصة بعزيز على المصرى ، ومناشدة شقيقته الكبرى التى علمته ورعته بعد وفاة والديه ، السلطات البريطانية في مصر وفي بريطانيا ـ وهى تعلم أهميتها لدى السلطات التركية ـ التوسط لدى الباب العالى لانقاذ شقيقها .

ثم يجب أن يبحث الباحث موقف بريطانيا وموقف السلطات البريطانية في مصر من الحركة التركية الايطالية . وكان عدم مشاركة عزيز على المصرى فيها حتى النهاية وانسحابه منها ـ على ما روت السلطات العثمانية ـ من الأسباب التى أدت الى محاكمة عزيز على المصرى : موقف بريطانيا والسلطات البريطانية في مصر من هذه الحرب من العوامل التى يجب أن تدرس جيدا ، اجماع الشعب المصرى والشعب العربى من أقصى المشرق الى أقصى المغرب على اعتبار قضية عزيز على المصرى قضية قومية ، وعلى أن الافراج عنه مطلب شعبى جماهيرى لا للمصريين جميعا وحسب وانما للعرب كلهم .

هذا الاجماع قد يكون من بين الأسباب التى دفعت السلطات البريطانية للسعى ـ مجرد السعى ـ للافراج عن عزيز على المصرى ..

بالاضافة الى استغاثة شقيقته ، على أمل استرضاء الشعب المصرى وبقية أجزاء الشعب العربى فى كل مكان .

والقول بأن عزيز على المصرى عندما قبل المشاركة فى الثورة ضد الاحتلال العثمانى يجعل ميوله انجليزية ، قول يتسم بالتسرع .

فقد كان عزيز على المصرى قد أيقن أن دولة الخلافة العثمانية قد قطعت ــ بعد أن علقت زملاءه قادة العرب على أعواد المشانق وبعد أن استخدمت كل صنوف الارهاب فى مقاومة حركة تحرر العرب من السيطرة العثمانية ــ كل أمل فى الاصلاح ، ووصلت العلاقات العربية التركية الى نقطة اللا عودة .

عزيز على هذا رأى أن يستغل الأمة العربية فى الثورة على الاحتلال العثمانى وليس معنى مساعدة الانجليز لزعماء هذه الثورة على الثورة أنها أصبحت ثورة انجليزية . فقد وضع تشرشل يده فى يد ستالين عدوه اللدود لمحاربة هتلر ، ولم يصبح تشرشل شيوعيا ، ولم يصبح ستالين رأسماليا ، بدليل ان هذا التحالف السوفيتى البريطانى انتهى عقب انهيار النازية الألمانية .. التجاء قادة الثورة العربية الى معونة الانجليز ، لا يخرج عن كونه تطبيقا لمبدأ ، عدو عدوى صديقى » .

وقد كانت مصر ــ أثناء الحرب العالمية الأولى ــ على أحر من الجمر وهى تنتظر دخول القوات التركية أرض مصر لمقابلة جنود الاحتلال البريطانى .. لم تكن مصر بطبيعة الحال راغبة فى دخول قوات غزو تركى تستبدل بها قوات غزو بريطانى ، وانما كانت راغبة فى تحقيق الاستقلال فبعد القضاء على قوات الغزو البريطانى يصبح ــ هكذا قدر زعماء مصر ــ فى الامكان الاتفاق مع تركيا على خروج قواتها من أرض مصر ، وكان حصول مصر على استقلالها من أهم شروط موافقة المصريين على المشاركة فى الحملة التركية الذاهبة الى مصر لاخراج الانجليز .

أما سكوت بريطانيا عن تعيين عزيز على المصرى مديرا لمدرسة البوليس والادارة وفى منصب المفتش العام للجيش المصرى وفى منصب رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، فما من أحد قال بسكوت الجانب البريطانى ، كل ما فى الأمر أن من أصدر قرار التعيين فى هذا المنصب أو ذاك لم يكن ينتظر تصريحا بموافقة بريطانيا على هذا التعيين .

ودليلنا أن المشاكل بدأت بمجرد تعيين عزيز على المصرى مفتشا عاما للجيش المصرى ثم رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى .

وان البعثة العسكرية لم تتعاون معه وأنه حرم من مباشرة اختصاصاته وأنهم ـ بعد الفشل فى استقطابه ـ أحالوه الى المعاش فى المرة الأولى ، ثم أحالوه الى سلاح الحدود فى المرة الثانية ٠

ولو كان عزيز على المصرى من ذوى الميول الانجليزية لظل فى منصبه كمفتش عام أو كرئيس لأركان حرب الجيش المصرى ، ثم لترقى الى ما هو أعلى من هذين المنصبين ٠

وموضوع ايقاف محاكمة عزيز المصرى لا يجب أبدا أن يعالج بمثل هذه السطحية ٠

فالايقاف لم يكن نتيجة لوساطة سيف الله يسرى باشا على الاطلاق، وانما كان نتيجة لان عزيز على المصرى هدد بتحويل المحاكمة الى محاكمة للاحتلال البريطانى وللتدخل البريطانى فى شئون مصر ٠

كما أنه هدد باذاعة أسرار خطيرة كان اذاعتها وقت الحرب يمكن ان يلحق الضرر الكبير بمركز بريطانيا فى مصر ٠

ثم ان بريطانيا وجدت ان استمرار محاكمة عزيز المصرى سوف يجعل منه بطلا أسطوريا فقد كان مستفيدا على المستوى الشعبى من كل جلسة ٠

وقد استغل محاموه ـ وهم خير محامى مصر ـ المحاكمة استغلالا رائعا لفضح الاحتلال البريطانى ٠

وللتأكيد على أن بعض القوانين العسكرية التى يحكم بها الجيش ويحاكم بمقتضاها عزيز المصرى قوانين باطلة بطلانا مطلقا ٠

ولو جرى التركيز على بطلان هذه القوانين لأصيب النظام داخل القوات المسلحة المصرية بتصدع شديد ٠

هذا بالاضافة الى أن ايقاف المحاكمة قد تم لارضاء شباب ضباط الجيش المصرى الذين كانوا يعتبرون عزيز على المصرى أبوهم الروحى ، وقد كان الاحتلال البريطانى فى تلك الفترة فى أمس الحاجة لارضاء شباب ضباط الجيش المصرى ، أو على الأقل العمل على تخفيف سخطهم ٠

ومذكرات لورد كيلرن ـ سير مايلز لاميسون ـ السفير البريطانى فى مصر ووثائق وزارة الخارجية البريطانية تؤكد ان ايقاف محاكمة عزيز على المصرى تم تمهيدا للافراج عنه هو وزميليه ، كان الهدف منها محاولة استرضاء الجماهير المصرية وشباب ضباط الجيش المصرى فى المقدمة ٠

وكانت ثورة الجماهير المصرية وشباب ضباط الجيش المصرى بعد اقالة وزارة على ماهر باشا ، ومبالغة كل من وزارتى حسن صبرى باشا وحسين سرى باشا فى السير فى الفلك البريطانى قد وصلت الى القمة التى جعلت الانفجار متوقعا بين لحظة وأخرى ٠

ولا ينبغى لى فى النهاية ـ نهاية هذه البداية ـ الا أن أعتذر اذا كنت قد أطلت ، الا أن أشكر كل من سبقونى فى الكتـابة عن عزيز على المصرى وصحبه فقد استعنت بكتاباتهم الى حد كبير ٠ وأخص بالذكر الأستاذين : محمد صبيح ، والدكتور / محمد عبد الرحمن فرج ، فقد كانت دراسة كل منهما عن عزيز المصرى هامة للغاية ٠٠ وكانت لى ـ بالذات ـ خير عون ، وكذلك دراسات أساتذة كثيرين وان لم تكن مستقلة عن عزيز على المصرى، الا أنها أضاءت أمامى الطريق وعوضتنى عما كنت أشعر به من نقص لعدم متابعتى ـ بصفة شخصية ـ كل مراحل حياة عزيز المصرى ٠

وأخيرا ، وليس آخرا كما يقولون ، استسمح القـارىء الكريم فى ان يغفر لى أى خطأ أكون وقعت فيه ، أو فى أى تقصير قمت به ٠

فما أردت ـ ويعلم الله ـ الا تقديم كتاب وطنى ، قومى أتمنى أن يساهم فى اعطاء صورة حقيقية لصفحات رائعة من تاريخـنا الوطنى القومى ٠٠ وان يكون ذخيرة لأبناء امتنا العربية والاسلامية ٠

وفيما بعد الظروف التى نشأ وترعرع فيها عزيز على المصرى وقبلها لابد من كلمة عن العلاقات المصرية العثمانيـة وهى ذات دلالة هامة فى السنوات الأولى من حياة عزيز على المصرى ٠

الباب الأول

الفصل الأول

● وجهة نظر جديدة فى العلاقات المصرية العثمانية

● فى بداية نهاية الامبراطورية العثمانية ولد ، وتربى ، عبد العزيز على زكى (المصرى)

تحديد العلاقة بين دولة الخلافة العثمانية ومقرها القسطنطينية وبين الدولة المصرية ، وخاصة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، والثمانية عشر عاما الأولى من القرن العشرين : هذا التحديد ضرورى وهام لكل من يدرس ، أو يحاول ــ مثلى ــ ان يدرس التاريخ المصرى على حقيقته .

ومن وجهة نظر جديدة تختلف عن وجهات النظر القديمة التى ورثناها ــ وكانت عملية التوريث تلك لأسباب فوق ارادتنا ــ دون أن نقوم بتمحيصها ، وان نبحث جميع جوانبها وسلبياتها وايجابياتها .

وعندما أقول أن عملية التحديد تلك ضرورية وهامة فلدى الأسباب الضرورية التى تدعونى الى المطالبة بعملية التحديد تلك ، بل والبدء بمحاولة جديدة فيها فان كثيرا كتبوا عن تلك الفترة ، مؤرخون ، أو غير مؤرخين ، حزبيين ، أو غير حزبيين ، محترفون كانوا أم هواة ، كانوا يخطئون عندما لا يتعمقون فى تأصيل تلك العلاقة من الزوايا الرسمية والشعبية : انهم ــ مثلا ــ يسيئون الظن بكل من له علاقة طيبة بدولة الخلافة ، أو كان من الداعين لها ، بل المدافعين عنها ، ناسين أو متناسين أن « مصر الدولة » ــ من الناحية الرسمية البحتة ــ كانت ترتبط بروابط قانونية ، دولية بدولة الخلافة .

ورغم ابتلاء مصر بالاحتلال البريطانى فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١ ووجود جيش احتلال بريطانى كبير يجثم فوق صدور العباد ، وفى كثير من نواحى البلاد ، ورغم أن السلطة كلها كانت فى أيدى المعتمد البريطانى ، وقشور منها هى التى يمنحها للخديو أو للحكومة المصرية .. رغم كل ذلك فان مصر كانت تدفع الجزية لدولة الخلافة .

وكانت مصر — من الناحية الرسمية أيضا — لا تزال معتبرة جزءا من دولة الخلافة الاسلامية لأن السيادة العثمانية لا زالت قائمة من ناحية القانون الدولى · وكان الدعاء للسلطان فى صلاة كل جمعة ينطلق من كل مساجد مصر · ولم تستطع انجلترا حتى بعد ان أعلنت حمايتها على مصر فى ديسمبر ١٩١٤ أن تحول دون القيام بالدعاء للسلطان ·

كل ما فعلته انجلترا بجيشها ومعتمدها وكل سلطاتها ، أن تغير الدعاء للسلطان الذى يخوض حربا ضارية ضد بريطانيا والحلفاء ، تغير من الدعاء له بالنصر ، الى الدعاء له بالتوفيق والسداد ·

ثم ان غموض هذه العلاقة ، ومحاولة الهرب منها باستمرار من قبل الكثيرين لا تفيد البحث العلمى فى قليل أو فى كثير ، بل تلحق به وبالدارسين أبلغ الضرر ·

وقد لاحظ كثير من أعضاء ملتقى الفكر الاسلامى الذين كانوا يجتمعون كل عام بالجزائر — وأتيح لى أن أحضر بعض تلك اللقاءات ابتداء من صيف عام ١٩٧٣ — ان ظلما بينا وقع بدولة الخلافة العثمانيـــة ، وقد اتخذ المؤتمرون — فى أكثر من دورة — توصيات بضرورة مراجعة الموقف من دولة الخلافة — الموقف التاريخى بطبيعة الحال — والنظر اليها من زاوية منطقية بدلا من التمادى فى ذكر السلبيات ، دون أية اشارة الى الايجابيات ·

لقد وقر فى ذهن الكثيرين ان دولة الخلافة الاسلامية ، كانت دولة الشر على طول الخط ، بينما الحقيقة تقول ، أنه كان الى جانب شرور تلك الدولة أعمال طيبات كثيرة فطن الى بعضها — عمليا — المسلمون ، بعد ان زالت دولة الخلافة ، ولم يعد للمسلمين راية واحدة يسيرون خلفها ، الأمر الذى أدى الى تفرق المسلمين ، وضياع دولهم ، ونفوذهم ، وعدم اتفاق كلمتهم ·

وكنت من أوائل الذين أيدوا فكرة مراجعة الموقف التاريخى من دولة الخلافة العثمانية ، خاصة وأن الدولة قد انتهت ، ولم يعد لها من نفوذ على الاطلاق ، بل لم يعد لها من دعاة أو مريدين أو حتى أنصار ·

وكلمة الحق عن مراحل تاريخية مضت ، ضرورة لانصاف الراحلين ·

كما أنها ضرورة أيضا لمن هم على قيد الحياة الذين يجب أن تقدم اليهم الوقائع التاريخية بحيدة وانصاف وعدالة ·

هذا بالاضافة الى عامل جوهرى ، هام ، يدعونا فى هذا الكتاب ، الى محاولة تحديد تلك العلاقة ·

ذلك ان الكتاب عن عزيز علي المصرى وصحبه وعصره .. والسنوات الأولى المثمرة للغاية في حياة عزيز علي المصرى قضاها ضابطا فى الجيش العثمانى ، والعديد من المعارك التاريخية البطولية التى خاضها عزيز على المصرى خاضها وهو ضمن قيادات القوات المسلحة التركية .

ثم ان عزيز على المصرى كان — وخاصة فى مراحل حياته الأولى — متأثرا الى حد كبير بالعلاقة العثمانية المصرية ، فقد ولد فى مصر ، وتربى وتعلم سنواته الأولى فى مصر ، ثم انتقل كما ينتقل أى مواطن عادى داخل دولته الى العاصمة ليدرس العسكرية فى مدارسها .

وعندما رغبت دولة الخلافة العثمانية عن القتال فى برقة وطرابلس ضد الاحتلال الايطالى لاعتبارات خاصة بها .. وأباحت لقوادها الكبار حرية الانتقال الى برقة وطرابلس للقتال على رأس جنود غير نظاميين ، كانت نقطة الانطلاق الأولى لعزيز علي المصرى من مصر ، وكانت غالبية قواته من مصر ، وكل سلاحها من مصر ، وعندما عاد عزيز علي المصرى من جبهة القتال عاد الى مصر .

وعندما قامت حكومة القسطنطينية بمحاكمته والحكم عليه بالاعدام ، كانت مصر كلها ، بعلمائها ، وزعمائها ، وأحزابها ، وصحافتها ، هى التى حملت العبء الأكبر فى الدفاع عن عزيز على المصرى واجبار الحكومة التركية على العفو عنه واعادته الى مصر .

وذلك يعنى ان الكلام عن جهاد عزيز على المصرى وخاصة فى مراحل حياته الأولى دون الحديث عن العلاقة التي تربط مصر بدولة الخلافة العثمانية ، بل دون الحديث عن دولة الخلافة ذاتها ، انما هو كلام مبتور .

ولذلك كان أول ما فكرت فيه وأنا أكتب الفصل الأول من فصول هذا الكتاب ان أكتب — وبايجاز شديد حتى لا يتحول هذا الفصل كما تحول الفصل الذى سبقه الى ما يشبه كتابا مستقلا قائما بذاته — عن العلاقة الرسمية والشعبية بين مصر وتركيا .

وان أكتب — وبايجاز أشد — عما كانت عليه دولة الخلافة العثمانية بعد أن تحولت من دولة عظمى الى رجل اوروبا المريض — كما أسماها أحد قياصرة روسيا — الذين كانوا يرنون دائما الى الدردنيل وكانت تركيا تقف دون تحقيق أحلامهم .

وقد أعجبتنى للغاية كلمات للرئيس جمال عبد الناصر — طيب الله ثراه — قدم بها كتابا من كتب « اخترنا لك » شارك فى اعداده الأساتذة

سعيد العريان ، امين شاكر ، محمد مصطفى عطا ، عن «تركيا والسياسة العربية من خلفاء آل عثمان الى خلفاء أتاتورك » ٠

قال عبد الناصر :

مهما يكن الأمر بيننا وبين تركيا في الماضى أو فى الحاضر فهى منا ونحن منها ٠

كان أبونا وأبوها أخوين فى التاريخ ، تشاركا فى سراء الحياة وضرائها ، وتقلبا معا فى نعماها وفى بؤسها ، وحاربا جنبا الى جنب فى ميدان واحد قرونا عدة لنصرة المثل العليا ٠

وحين تكالبت قوى البغى والعدوان لتزحزحنا عن مكاننا فى التاريخ كانت تركيا هى الهدف الأول لكل رام من أهل البغى والعدوان ٠

وكنا نحن من ورائها ٠٠ وطننا ووطنها قطعتان من هـذا الشرق العربى فهى دولة من آسيا وان كان وجهها لأوروبا ٠

لغتنا ولغتها لفظان في قاموس مشترك فهى كلام من كلامنا وان كتبت باللاتينية ٠

وقرآننا وقرآنها واحد نزل به الوحى الأمين على محمد فى مكة والمدينة وفسره مفسره فى بغداد والشام ومصر ٠

وكتبه كاتبه بقلم النسخ فى استنبول ٠

وما زال يتلوه بلساننا أو بلسان غير لساننا قراء مسلمون فى أطنة وفى أنقره وفى ديار بكر وفى أزمير ٠

وماضينا وماضيها فصلان فى كتاب واحد فى تاريخ العرب والاسلام ، بدأ ، وبدأنا معه فى بخارى وسار وسايرناه الى بغداد والموصل ٠

واوى وأوينا جواره فى سهول الأناضول ٠

وتفيأ ظل أسوار القسطنطينية ٠

وتفيأنا معه ظلها ضيوفا على أبى أيوب ٠

ويوم وطئت أقدام الترك أرض أوروبا لتقيم امبراطورية عثمانية على أنقاض امبراطورية قسطنطين كان شعار المحاربين من الترك والعرب يومئذ واحد على كل لسان هو « الله أكبر » :

يهتف به المصلون في « أياصوفيا » فيتردد صداه على مآذن المسجد الأموى بدمشق ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، وجامع الزيتونة في القيروان ، ومساجد أخرى في بغداد ، والكوفة ، وصنعاء ، وفي غرناطة ، وفاس ، وعلى شاطئ المحيط الأطلسى .

ثم كانت محنتنا الغربية ومحنة تركيا على يد عدو واحد نظر الينا نظرة العدو فلم يفرق بين عربى وتركى ، فاذا جيوشه تطأ بلادنا وبلاد الترك ، واذا احتلاله يجثم على صدورنا وصدور الترك .

واذا المستعمر في أزمير والمستعمر في دمشق والمستعمر في القاهرة يتواعدون جميعا الى مائدة مشتركة من طعامنا وشرابنا .

والعرب والترك واقفون جميعا وراء الأبواب لا يؤذن لهم بالدخول .

ونحن الى كل ذلك أنسباء وأقرباء وأصهار ..

في كل دار من دور العرب على اتساع بلادهم ، عربى يمت الى الترك بخئولة .

وفي كل دار من دور الترك – برغم اعتزالهم في ديارهم – تركى ينسب الى العرب بعمومة .

فقد اختلطنا نسبا وصهرا ومواريث ثابته ومنقولة ، وان قامت بيننا الحدود والسدود والأسلاك الشائكة ونحن اليوم من تركيا كما كنا في الماضى .

اخوة مخلصون لأخت خالصة العرق والنسب فرقت بينها وبينهم الأيام وحتى لا تبقى على شمل مجتمع ، لكن في قلبها على البعد حنين الأخت البارة ، وفي قلوب أخوتها اليها مثل ذلك الحنين » .

★★★

وأضيف الى ما قاله عبد الناصر : ان كل صراع بين العاصمتين المصرية والتركية – وكل منهما ركيزة اسلامية قوية ان لم نقل أقوى الركائز الاسلامية – لم يكن يوما لصالح مصر ، ولا لصالح تركيا وانما كان ضد مصالح مصر وتركيا وضد مصالح الأمة الاسلامية ولو ان كلا من العاصمتين وضعت يدها في يد الأخرى لما نجح أعداء الاسلام والمسلمين في النيل من الاسلام والمسلمين .

ولست بحاجة الى القول بأننا ظلمنا دولة الخلافة العثمانية ، ولم نذكر لها الا سيئاتها والا مثالب بعض سلاطينها . وهل كان سلاطيننا

بدون منازع ؟ لقد نجحت الدولة العثمانية فى نشر الاسلام ، فى كثير من الأرجاء كما لم تنجح أية دولة اسلامية أخرى .

ومنذ اقام عثمان بن أرطغرل ـ مؤسس تلك الدولة ـ دولته من أجل الدفاع عن الاسلام ورفع رايته فى مشارف آسيا الصغرى ومنذ أن قضى على الدولة البيزنطية التى كانت تهدد المسلمين فى ديارهم ، كان زعيم هذه الدولة ـ كما جاء فى الكتاب الذى قدم له عبد الناصر ـ يلقب بالغازى أى المجاهد فى سبيل الله ، وكان يتلقى هذا اللقب فى حفل مشهود يتسلم فيه راية الجهاد من شيخ الصوفية ، وقد استجاب لمؤسس هذه الدولة ـ السلطان عثمان ـ الكثير من المؤمنين الصابرين ، ومن الأقوياء المغامرين من الترك وغيرهم تحدوهم جميعا رغبة شديدة فى الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية .

هذه الدولة هى التى فتحت أزمير وأنشأت فيها أول جامعة عثمانية وهى التى عبرت بقواتها الدردنيل الى شبه جزيرة تراقيا وهى التى دعمت سلطانها فى آسيا الصغرى .

ورفعت راية الاسلام فى أوروبا الشرقية حتى لقد أسرع قيصر البلغار لتزويج ابنته للسلطان مراد ليوقف مطامعه عند حد .

هذه الدولة هى التى تغلبت على المجر والبلغار والبشناق والصرب ووصلت الى حدود استوريا هذه الدولة التى فتحت القسطنطينية وكانت مطمحا للخليفة عثمان (٣٤ هـ) ومعاوية واليه على الشام والتى سبق ان توحدت أيام المهدى والرشيد أربع مرات .

دخلها محمد الفاتح فى ٢٩ مايو ١٤٥٣ وصلى الجمعة فى كنيسة آياصوفيا وحولها الى جامع .

وبهذا الفتح المبين ـ أمين شاكر ، سعيد العريان ، ومحمد مصطفى عطا ـ تحقق حلم ظل يراود العرب والمسلمين أكثر من ثمانية قرون ، وكان تحقيقه على يد بطل عظيم من أبطال الترك هو محمد الفاتح بن مراد ، أو محمد الثانى .

الدولة العثمانية هى التى أخضعت شبه جزيرة المورة (بلاد اليونان) كما أخضعت البنادقة ورودس وانتصرت على المجر فى موقعة « دوهاج » .

وكما يقول سير ادوارد كريزى : لقد ترك السلطان سليمان القانونى امبراطورية لم يتيسر لأحد من خلفائه اعتلاء مثلها ، ثراء ، وقوة ،

ونجاحا ، فقد دانت له معظم المدن الشهيرة المقدسة عدا روما وسراقوسه ، وبيرسيبولس .

لقد كانت امبراطورية تشغل أكثر من أربعين ألف ميل مربع وتضم أغنى المناطق وأجملها فى العالم .

استطاع أحفاد عثمان بن طغرل اخضاعها فى ثلاثة قرون وكان جدهم الأكبر يهيم فى البلاد على رأس خمسمائة محارب من طلاب الجيش .

وكانت مصر وقت ازدهار الدولة العثمانية هى عاصمة الاسلام الكبرى .

بكفاحها انكسرت حدة التتار وهزمت جيوشهم وبددت جيوشهم فى الفلوات ولم تقم لهم قائمة بعد وكانوا خطرا جانحا يهدد الحضارة الانسانية كلها بالدمار .

فلم ينهزموا قط فى معركة قبل ان تهزمهم الجيوش المصرية فى عين جالوت .

ولم يحاولوا معركة جدية لا مع المصريين ولا مع غيرهم بعد انهزامهم فى معركة عين جالوت .

وبكفاح مصر عادت للمسلمين وحدتهم الرمزية بعودة الخلافة بعد ان حطم التتار عرشها وتاجها فى بغداد ..

وفى رحاب مصر ازدهرت الحضارة العربية والاسلامية بعد ان أصابها الوهن والانحلال فصارت موئل العرب والمسلمين وموئل العروبة والاسلام ، وموئل خليفة المسلمين ، ومقر سلطانه .

كانت الامبراطورية المصرية - تركيا والسياسة العربية - تمتد جذورها فى ذلك الزمان بين الموصل وحدود ليبيا وتضم الجزيرة ، والشام بكل أقسامه ، وشبه الجزيرة العربية الى حدود اليمن .

وتمتد فى أفريقية الى باب المندب .

وكانت طريق التجارة الوحيد بين الشرق والغرب وكان أسطولها البحرى بين البحرين الأبيض والأحمر وتجوب سفائنه المحيط الهندى الى مدى بعيد من الشرق الأقصى .

وكانت هى القوة المهيمنة المرهوبة التى يحسب حسابها كل ذى مطمع من الغزاة الصليبيين .

وكان اسمها يملأ الدنيا فلا مطمع لأحد فيها ولا فيما وراءها من بلاد العرب والمسلمين .

وبدلا من أن يستمر خلفاء آل عثمان في مد نفوذهم الى داخل أوروبا قامت عوامل عندهم من مكانة مصر ، فاتجهوا اليها على غرة في وقت كانت مصر تتوقع الخطر من أية جهة في العالم الا من الخلافة العثمانية .

ونشبت المعارك بين مصر ودولة الخلافة وانتهت بتحطيم السلطان العثماني سليم الأول لقوة مصر في ابريل ١٥١٧ .

انتهت المعارك بشنق طومنباى آخر سلاطين المماليك فى ١٤ ابريل على باب زويلة .

ثم حمل الخليفة العباسى (المتوكل على الله) الى القسطنطينية ليتنازل عن الخلافة للسلطان سليم .

وبذلك دخلت مصر فى حظيرة الدولة العثمانية .

وانفتح الباب على مصراعيه أمام أوروبا للنيل من تركيا ومن مصر معا .. !

وحكم العثمانيون مصر عن طريق وال يعينه السلطان نظير رشوة تدفع له ولحاشيته .

يدفع الرشوة بعض المستفيدين ممن يراد تعيينه واليا .

وقد وصل ثمن منصب الوالى فى مصر الى أربعة آلاف كيس .

ويرى أمين شاكر ، وسعيد العريان ، ومحمد مصطفى عطا ان المصريين لعبوا دورا هاما فى الابقاء على الدولة العثمانية اذ ناصروها بمالهم ورجالهم فى أحلك أيامها وقت ان كانت تنوشها سهام الصليبيين وفتكات الايرانيين وامتعاض الانكشارية وثورات جيوش الاقطاع .

وقد ظلت ــ نفس المصدر السابق ــ علاقة مصر بتركيا لا تتجاوز التبعية الاسمية المتمثلة فى تعيين الوالى التركى المكتوف اليدين ودفع الجزية السنوية .

وظلت هذه الحالة قائمة حتى كانت الحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر .

وبعد الحملة الفرنسية واطلاع المصريين على حال العالم الغربى والنهضة التى أخذنا بأسبابها وعودة ثقة المصرى بنفسه وأنه أهل

للاضطلاع بالحكم وتصريف الأمور ، وان حيويته الكامنة قليل من النفخ يزيل الرماد عن جمراتها وان الضعف الذى سيطر على نفوس المصريين من جراء الاضطهادات التى لم ير لها التاريخ مثيلا قد أخذ يتبدد وتظهر الزعامات الشعبية أمثال السيد عمر مكرم والجداوى والمحروقى وغيرهم ٠

ومن أجل هذا لم يرتض المصريون حكم الولاة الذين تفرضه عليهم الدولة العلية من كل طامع ، لا هم له الا الحصول على المال من اى طريق بأى وسيلة ٠

وكانت أول خطواتهم فى هذا السبيل أنهم خلعوا الوالى التركى أحمد باشا لما حدث فى عهده من المآسى والمظالم ٠

ثم حقق المصريون نجاحا آخر بتعيين محمد على واليا على مصر بشروط حددها ممثلو شعب مصر ٠

وهكذا أصبح الشعب هو الموجه لأحداث مصر والقابض على ناصية الأمور فيها ٠

***

وليس صحيحا أن محمد على من الألبان ، كما وقر فى كثير من الأذهان ، وانما هو أحد العثمانيين ، أقام والده فى قرية قولة الألبانية ٠ وقد أكد الأستاذ شفيق غربال بأدلة قاطعة تلك الحقيقة ٠

وليس صحيحا ــ أيضا ــ أن محمد على كان يستهدف القضاء على دولة الخلافة العثمانية كما ادعى البعض ، فقد كان محمد على وفيا لدولة الخلافة بقدر ما كانت محافظة على وده ٠

وما من مرة استنجدت دولة الخلافة بمحمد على الا وسارع لنجدتها كما حدث بالنسبة للثورة فى بلاد اليونان ٠

ولكن دولة الخلافة لم تقدر تلك المساعدات حق قدرها وانما خشيت ــ كما خشيت الدول الأوربية ــ من تنامى القوة العسكرية المصرية فعمدت دولة الخلافة وكثير من الدول الأوربية ذات الميول الاستعمارية الى تحجيم تلك القوة ٠

وكان ما كان من قيام مصادمات بل حروب بين محمد على وبين دولة الخلافة انتهت بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ التى حددت ــ تماما ــ العلاقة بين محمد على باشا ودولة الخلافة العثمانية ٠

ولأهمية هذا الفرمان وكونه الأساس للعلاقة المصرية التركية أحرص على نقله بنصه ـ وهو للعلم صادر من الباب العالى بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٤١ واعتذر عما به من أغلاط لم أستطع تصحيحها حتى لا أتعرض للنص:

.. متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرا .

واذا انقرضت ذريتكم الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أيا كان فى الولاية وارثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور الى الآستانة لتقليده الولاية المذكورة على أن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا لقبا أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه وجميع أحكام خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كلخانة وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بها فى ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضـــا وكلمـــا .. أى كل هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا الملوكى .

ولكى لا يكون أهالى مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للمضار والأموال وللضرائب غير القانونيـــة يجب ان تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية وربع الايرادات الناتجة من الرســوم الجماركية ومن باقى الضرائب التى تتحصل فى الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شئ .

ويؤدى الى خزينة بابنا العالى العامرة والثلاث أرباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنويا الى البلاد المقدســة (مكة والمدينة) .

ويبقى هذا الخراج مستمرا دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أى من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ ومن الممكن ترتيب حالة أخرى بشأنهم فى مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التى ربما تجد عيها.

ولما كان من واجبات بابنا العالى الوقوف على مقدار الايرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب وكان الوقوف

على هذه الأحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة فى تلك الولاية فينظر فى ذلك فيما بعد ويجرى ما يوافق ارادتنا السلطانية ٠

ولما كان من اللزوم ان يعين بابنا العالى ترتيبا لصك النقود لما فى ذلك من الأهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف من جهة العيار ولا من جهــة القيمــة اقتضت ارادتى السنية ان تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى ضربخانتنا العامرة بالآستانة سواء كان من قبيــل عيارها أو من قبيــل هيئتها وطرزها ٠

ويكفى ان يكون لمصر فى أوقات السلم ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة في داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولايتكم هذا العدد ٠

ولكن حيث ان قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالى كأسوة قوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ ان يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقا فى ذلك الحين على أنه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد أن تخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون سواهم من العساكر الجديدة فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضا فى مصر بحيث ينتخب من العســاكر الجديدة الموجودة فى الخــدمة حالا عشرون ألف رجل ليبدأوا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر ألف رجل فى مصر وترسل الألفان لهنا لأداء مدة خدمتهم وحيث أن خمس العشرين ألف واجب استبدالهم سنويا فيؤخذ سنويا من مصر أربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط أن تستعمل فى ذلك مواجب الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى من الجنود الجديدة والأربعمائة يرسلون الى هنا ومن أتم خدمته من الجنود المرسلة الى هذا الطرف ومن الجنود الباقية فى مصر يرجعون الى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية ومع كون مناخ مصر ربما يستلزم أقمشة خلاف الأقمشة المستعملة لملبوسات العســاكر فلا بأس من ذلك فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التمييزية ورايات الجنود المصرية على مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضباط وملابس الملاحين وعســاكر البحرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجالنا وسفننا ٠

وللحكومة المصرية ان تعين ضباط برية وبحرية حتى رتبة الملازم أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين اليها راجع لارادتنا الشاهانية .

ولا يسوغ لوالى مصر ان ينشىء من الآن فصاعدا سفنا حربية الا باذننا الخصوصى وحيث أن الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه فعدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه للحال وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكى كى تقدروا أنتم وأولادكم قدر احساننا الشاهانى فتعتنوا كل الاعتناء باتمام الشروط المقررة فيه وتحموا أهالى مصر من كل فعل اكراهى وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم مع التحذر من مخالفة أوامرنا الملوكية وأخبار بابنا العالى عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم اهـ .

ولقد منحه الباب العالى أيضا ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنار مدة حياته بدون أن تنتقل الى ورثته كمصر بمقتضى فرمان شاهانى أصدر فى اليوم الذى أصدر فيه الفرمان الأول أعنى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ هذا نصه :

« ان سدتنا الملوكية كما توضح فى فرماننا السلطانى السابق قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة وقد قلدناكم فضلا على ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث فبقوة الاختبار والحكمة التى امتزتم بهما تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين وترسلون فى كل سنة الى بابنا العالى حاوية بيان الايرادات السنوية جميعها .

وحيث أنه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرى المقاطعات المذكورة فيأسرون الفتيان من ذكور واناث ويبقون فى قبضة يدهم لقاء رواتبهم وحيث أن هذه الأمور مما تفضى معها الحال ليس فقط لانقراض أهالى تلك البلاد وخرابها بل انها أمور مخالفة للشريعة الحقة المقدسة وكلا هاتين الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقودوا بخفر الحريم ذلك مما لا ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادىء العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا على عرش السلطنة العلية فعليكم مداركة هذه الأمور بما ينبغى من الاعتناء لمنع حدوثها فى المستقبل ولا يبرح عن بالكم ان فيما عدا بعض

أشخاص توجهوا الى مصر على اسطولنا الملوكى قد عفوت عن جميع الضباط والعساكر وفى المأمورين الموجودين فى مصر نعم أن بموجب فرماننا السلطانى السابق تسمية الضباط المصريين لما فوق رتبة المعاون تستلزم العرض على أعتابنا الملوكية الا أنه لا بأس من ارسال بيان باسم من رقيتم من ضباط جنودكم الى بابنا العالى كى ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم فى رتبهم هذا ما نطقت به ارادتنا السامية فعليكم الاسراع فى الاجراء على مقتضاها هـ » .

فقبل محمد على باشا كل هذه الشروط ولو عن غير رضاء تام ثم طلب من الدول ان تساعده فى تخفيف بعضها وتغيير البعض الآخر فقبلت ذلك وأرسلت الى الباب العالى لائحة بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٨٤١ طلبت منه بها أن يعامله على حسب ما هو مدون بملحق معاهدة ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ وبلائحة ٣٠ يناير سنة ١٨٤١ فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى لائحة أرسلت للدول بتاريخ ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ عن بعض الحقوق وتولت تحوير فرمانها الصادر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ على النحو التالى .

ان الحضرة السلطانيــة الفخيمة تلقت ما تعطفت عليهـا به الدول المتحالفة من النصائح هذه الدفعة أيضا وبمناسبتها قد منحت محمد على باشا احسانا جديدا هو التكرم منها باعطائه الامتيازات الآتية ولكنها قد اشترطت عليه الانقياد التام الى جميع الوثائق والمعـاهدات المبرمة حالا والتى ستبرم استقبالا فيما بين الباب العالى والدول المتحالفة وعلى ذلك أصبحت ولاية مصر تنتقل بالارث لمحمد على باشا وأولاده الذكور الأكبر فالأكبر . وقد تنازل الباب العالى عن استيلائه على ربع واردات مصر . وقد رخص محمد على فى موضــوع منح الرتب العسكرية المصرية ـ أن يمنحها من نفسه حتى رتبـة الأميرالاى فقط ـ أما التسمية لما فوق تلك الرتبة فيجب عليه أن يعرض شأنه الى الباب العالى .

وتقرر فى فرمان ٢٠ يوليو ١٨٤١ أن تدفع الحكومة المصرية الى الدولة العلية ســنويا ثمـانين ألف كيسه زيدت الى ١٥٠ ألف كيسه (يعنى ٧٥٠٠٠٠ جنيه عثمانى) فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ .

وقد تعهد الخديو توفيق بالنيــابة عن نفسه وعن خلفائه فى الحال والاستقبال بأن تدفع الحكومة المصرية ـ ابتداء من ١٠ ابريل ١٨٩١ ـ للخواجات روتشيلد وأولاده بلوندره وروتشيلد اخوان بباريس والبنك الملوكانى العثمــانى من أصل (الويركو) الواجب على الحكومة المصرية

بنس شلن جنيه انجليزى
للحضرة الشاهانية مبلغ ٤ ١٨ ٢٨٠٦٢٢ ... وينتهى هذا التعهد فى ١٠ ابريل سنة ١٩٥١ أى بعد ستين سنة ... !

ولا أعتقد أبدا أن المجال يسمح أو يتسع للحديث بالتفصيل عن العلاقات المصرية التركية بعد أيام محمد على ·

وحسبناهنا أن نشير وبايجاز شديد ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، الى بعض قضايا رئيسية تتعلق بتلك العلاقات :

كان عباس باشا متغيبا بالحجاز عندما عاجلت المنية البطل ابراهيم باشا ·

وقد استدعى عباس باشا على عجل ليخلف ابراهيم باشا تنفيذا لنظام التوارث الذى يجعل ولاية مصر للأرشد فالأرشد من نسل محمد على ·

وقد تولى عباس باشا الحكم فى ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨ ·

وقد استنجد الباب العالى بمصر لمساعدتها فى حرب القرم التى خاضتها تركيا ضد روسيا ·

وقد أعد عباس باشا قوة عسكرية قوامها عشرون ألف مقاتل مصرى بقيادة سليم باشا فتحى أحد كبار قواد مصر الذين حاربوا تحت قيادة ابراهيم باشا فى حروب سوريا والأناضول ·

وقد أبلت تلك القوة بلاء حسنا فى جبهة ـ استريا ـ أهم جبهات القتال ·

وعندما قتل عباس فى قصره ببنها فى ١٤ يوليو ١٨٢٤ بسبب واحدة من مؤامرات القصور ، تولى سعيد باشا مكان عباس باشا ولم تكن هناك أزمة حكم ، فلقد صدر الفرمان الخاص بتولية سعيد باشا دون أية أزمات أو عقبات ·

وعندما توفى سعيد باشا فى ١٨ يناير ١٨٦٣ بعد أن حكم مصر ثمانى سنوات وتسعة أشهر وستة أيام وخلفه اسماعيل باشا ·· بذل اسماعيل باشا جهودا شاقة ومضنية ودفع للباب العالى وللصدر الأعظم ولكثير من الوزراء والخدم والحشم ملايين الجنيهات لتجديد شكل العلاقة التى تربط بين مصر والباب العالى ·

وكان أول ما فعله اسماعيل باشا فور تسلمه أعباء الحكم ذهابه الى الآستانة لتقديم فروض الولاء للسلطان عبد العزيز ولدعوته الى زيارة

مصر رسميا ، تلك الزيارة التى تحققت فى ابريل ١٨٦٣ ، وكانت أول زيارة قام بها سلطان عثمانى لمصر .

وقد نجح اسماعيل باشا فى استصدار فرمانات جديده غير أحدها نظام وراثة الحكم فى مصر من الأرشد للأرشد الى الابن الأكبر للوالى .

وقد كان السلطان عبد العزيز تواقا الى احداث ذلك التغيير فى وراثة الحكم بتركيا فرحب بتلك الخطوة فى مصر .

كما نجح اسماعيل باشا فى استصدار فرمان آخر بمنح اسماعيل باشا لقب خديو بعد ان كان واليا فاقترب اسماعيل باشا من مراتب الملوك والسلاطين .

وقد كانت جريدة « لوبروجريه اجيبسيان » تحمل على اسماعيل باشا لاسرافه فى رشوة الباب العالى ومن هم الى جانب السلطان الذين أفسدت ضمائرهم الرشوة وكانت تصارح الخديو - من واقع محبتها له - بأنه قد أخطأ خطأ فاحشا اذا اعتقد أنه سيصل الى الاستقلال عن طريق القسطنطينية فتركيا لا تقبل أن تتخلى ذات يوم بمحض ارادتها عن واحدة من أجمل الزهرات اليانعات التى تزين تاجها ، وأن مصر يجب أن تصنع استقلالها بنفسها وحدها .

وقد تساءلت الصحيفة ذات مرة عما اذا كان الحصول على لقب وزير ولقب مشير يستحق ما أنفقه الفلاحون المصريون ثمنا للرحلات الثلاث والتى قام بها اسماعيل باشا الى القسطنطينية ودفع فيها كل تلك الملايين ؟

وتجيب الصحيفة بأن المصروفات والرشاوى فى تلك الرحلات كانت باهظة للغاية وبينها وبين النتيجة التى وصل اليها الخديو تفاوت كبير .

وتنهى الصحيفة « لوبروجريه اجيبسيان » حملتها بقولها : يجب أن تعلم الحكومة ان المنح التافهة التى نعطيها للقسطنطينية تكلفنا كثيرا ، وكثيرا جدا .

ويجب ألا تعلق مصر مصيرها بامبراطورية ينخر فيها السوس ويقودها الروتين والجهل الى الخراب ، بل وتحمل بين جنبيها كل عوامل الفناء .

ورغبة منا فى اعطاء نموذج لحرية الصحافة وقتذاك نذكر أن « لوبروجريه اجيبسيان » قد علقت - فى ٢٢ سبتمبر ١٨٦٨ - على عودة الخديو اسماعيل من الخارج بعد أن هنأته بسلامة العودة وتمنت له دوام التوفيق فى تدعيم حياة البلاد الزراعية والتجارية والصناعية بعد عودته .

بعد التهنئة والدعاء بالتوفيق عبرت الصحيفة الحرة عن سخريتها البالغة بالمظاهر الفخمة التى أعدتها الحكومة فى الاسكندرية لاستقبال الخديو من أقواس نصر الى بوابات الى رياض وورود الى طرق مفروشة بالرمال والخضرة ، فى الوقت الذى تحتاج فيه البلاد الى كل قرش صرف فى هذه المظاهر » .

ان هذا الاسراف يتم فى وقت تتناقص فيه الثروة العامة وتنخفض باستمرار ، وفى وقت يرتفع فيه الدين العام ، وتتفاقم فيه الفوضى ، وتبلغ الضرائب قمة الفداحة والظلم ..

ان الادارة الحكومية فى مصر ـ صحيفة لوبروجريه اجيبسيان ـ ٢٢ سبتمبر ١٨٦٨ ـ قد أصبحت جاهلة ، ارتجالية ، وكأنها ادارة حكومية معادية ... » .

★★★

وكان اسماعيل يخشى من مزاحمة أخيه من أبيه مصطفى فاضل ومن عمه عبد الحليم على العرش ، ولذلك فقد بذل جهودا شاقة ومضنية لابعاد مصطفى فاضل ، وعبد الحليم عن وراثة العرش وجعلها محصورة في ذريته.

ولينال اسماعيل ما يستطيع نيله من امتيازات ، وليحقق المزيد من الانفصال عن تركيا عمد الى التأثير على السلطان وحاشيته عن طريق الرشاوى الكبيرة .

وقد دعا الخديو اسماعيل السلطان لزيارة مصر ، فتمت الزيارة بعد شهور من تولية اسماعيل باشا منصب الخديوية . ونجح اسماعيل فى عام ١٨٦٦ فى تغيير نظام الارث بالنسبة لمنصب الخديوية وقيل أن الخديو اسماعيل قد أنفق لاسترضاء الباب العالى ما لا يقل عن اثنى عشر مليونا من الجنيهات .

ونجح اسماعيل فى الحصول من السلطان على ميزات كثيرة مثل زيادة عدد الجيش الى ثلاثين ألف جندى ومنح الرتب والنياشين .

ثم كان الفرمان الذى حصل به (١٨٦٧) على لقب « خديو » فارتقى بهذا اللقب السامى الى ما يقرب من مرتبة الملوك والسلاطين .

وأقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية ، واستقلالها فى ادارة شئونها الدولية والمالية وحقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ، ومرور البضائع فى داخلية البلاد وشئون الضبط للجاليات الأجنبية ..

وعندما علم السلطان ان الخديو اسماعيل ينوى المناداة باستقلال مصر فى حفلات افتتاح قناة السويس ، عاد الباب العالى ليقيد سلطات الخديو .

وكان الخديو اسماعيل قد عرف الطريق جيدا ـ طريق التأثير على السلطان وحاشيته .. المزيد من الرشوة والهدايا الثمينة ـ فقد ضاعف اسماعيل الرشوة والهدايا ونجح فى الحصول على ما سمى « بالفرمان الجامع » الذى ثبت لمصر جميع الحقوق والمزايا التى اكتسبها اسماعيل باشا من حيث نظام الوراثة واشتمال أملاك مصر على السودان وسواكن ومصوع وحق مصر فى سن القوانين وزيادة الجيش الى أى عدد وبناء السفن ما عدا المدرعات التى لا تبنى الا باستئذان .

وقد جعل هذا الفرمان الجامع لمصر من الحقوق ما جعلها تقترب من الدولة المستقلة التى لم يعد يربطها بدولة الخلافة الا دفع الجزية وقدرها ٧٥٠ ألفا من الجنيهات ، وما عدا عقد المعاهدات السياسية ، واقامة التمثيل الخارجى .

والجدير بالذكر ان الدولة الاستعمارية التى كانت تتآمر ضد مصر وللتخلص من اسماعيل كانت باستمرار تحرض الباب العالى على خلع الخديو اسماعيل اذا لم يقبل هو ـ اسماعيل ـ التنازل عن العرش من تلقاء نفسه وعاد اسماعيل الى أسلوب الرشاوى والهدايا فبعث الى الآستانة طلعت باشا أحد رجال حاشيته ليستميل السلطان وحاشيته الى جانب الخديو .

ويظهر ان قلة المال المفروض ـ فقد كان اسماعيل يعانى من أزمة مالية عنيفة ـ جعل السلطان يتخلى عن الخديو .

وأخيرا نجحت انجلترا وفرنسا والمانيا فى اقناع السلطان بأن يرسل فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ الارادة السلطانية الخاصة بعزل الخديو بسبب الصعوبات الداخلية والخارجية التى وقعت فى مصر أخيرا .

ولما تبين أن بقاء الخديو فى الحكم يزيد المصاعب الحالية ، فقد أصدر جلالة السلطان ارادته ـ بناء على قرار مجلس الوزراء ـ باسناد منصب الخديو الى الأمير توفيق باشا .

وفور تسليم اسماعيل الارادة الخاصة بعزله بعث الى ابنه الخديو الجديد مناديا اياه : بأفندينا ..

وكان موقف الباب العالى من الثورة العرابية مذبذبا للغاية .. فى البداية شجعها ، لعلها تكون منطلقا ليعود الى مصر فيسترد امتيازاته ، التى ضاعت منه بحصول مصر ، على قدر من الاستقلال .

ثم عاد مؤيدا الخديو باعتباره السلطة الشرعية ولأنه وجد جموحا من الثورة الى الاستقلال لا الى التبعية .

وهذا الموقف المذبذب من الباب العالى لم يعد بالخير .. لا على الثورة العرابية ، ولا على الخديو ولا على الباب العالى ذاته ، وانما عاد بالخير على بريطانيا والدول الأوربية التى كانت تسعى لاضعاف الباب العالى واضعاف مصر فى نفس الوقت .

والذى يقرأ ما كتبه لورد كرومر عن الثورة ودور السلطان فى اخمادها يتأكد أن السلطان ـ الباب العالى ـ لم يكن الا مجرد شطرنج تلعب به بعض الدول الأوربية التى تلعب بها فى نفس الوقت بريطانيا .

وفى أقوال كرومر أمور جديدة وهامة يحسن الوقوف عندها لا لشىء الا لتوضيح التآمر الأوربى الذى كانت تحركه بريطانيا ضد مصر بصفة عامة وضد ثورتها الوطنية (ثورة ١٨٨١) بصفة خاصة .

يقول كرومر أنه عقب ضرب الأسطول البريطانى للاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨١ عرض السلطان اقتراحا بعزل الخديو توفيق ووضع الأمير حليم محله باعتبار أن هذا الأمير أفضل من يصلح لمركز الخديوية وان تعيينه يحول دون اراقة الدماء ويرضى جميع الميول فى الحال .

وقد رفضت بريطانيا ـ على الفور ـ هذا الاقتراح .

ويقول كرومر أن السلطان وافق بعد تردد كثير على ارسال قواته الى مصر بشروط منها ان تكون تلك القوات تحت مراقبة الدول الأوربية .

ولكن بريطانيا فرضت شروطا جديدة على ارسال هذه القوات فتعذر تحركها الى مصر .. !

ويذكر كرومر ان السلطان كان يصر ـ فى البداية ـ على ألا يصدر منشورا ضد أحمد عرابى باشا الا بعد أن تنزل قواته الى مصر .

ولكن بريطانيا والدول الأوربية السائرة فى فلكها كانت تريد اصدار منشور السلطان بعصيان أحمد عرابى قبل نزول تلك القوات .

ويتحدث كرومر أيضا عن تذبذب السلطان ، ففى الوقت الذى كان يساير فيه الدول الأوربية تدخلها فى شئون مصر رفضت حكومة تركيا

الموافقة على ترحيل شحنة من البغال اشتريت لحساب جنود بريطانيا بمصر وتقرر شحنها من ميناء أزمير الأمر الذى جعل بريطانيا رسميا ترى فى عدم موافقة الحكومة التركية على الشحنة عملا غير ودى .

ويرسل السلطان أحد ياورانه (منير بك) الى سفير بريطانيا فى الآستانة مؤكدا أن السلطان أمر برفع الحجر عن الصفقة أثبـاتا لحسن نواياه .

وتعلن الحكومة البريطانية انها لن تسمح بنزول أى جندى تركى الى شواطىء مصر الا بعد توزيع منشور عصيان عرابى من الباب العالى فعلا .

وعلمت الحكومة البريطانية أنه رغم تأكيدات منير بك للورد دوفرين بأمر السلطان برفع الحجر على صفقة البغال .

وبالرغم من الأمر الذى أصدره رئيس الوزارة التركية باطلاق سراح الرعاة وخدم البغال الذين تعاقد المتعهدون على ارسالهم الى مصر لخدمة المواشى والدواب المشتراة للقوات البريطانية فى مصر من أودسا وأزمير ، فان أمرا آخر صدر من قصر السلطان بالغاء أمر رئيس الوزارة التركية بل لقد أصدر السلطان أمرا جديدا بالتهديد بانزال عقوبات صارمة على الصناع الذين تعهدوا بتوريد ستمائة صندوق مشحونة بالسروج اللازمة للشـوار .

وهذا ما أكد للثوار ان السلطان لن يتعاون مع بريطانيا ولن يبيعهم أبدا للاستعمار البريطانى .. !!

ويقول لورد كرومر ان تركيا طلبت — الى لورد دوفرين — موافقة الحكومة الانجليزية على نزول قوات تركية بالاسكندرية على ألا تقيم بها بل تخترق شوارعها وتمضى توا الى ضاحية أبو قير .

وان السلطان ركع على ركبتيه أمام السفير البريطانى ليستجيب الى هذا الطلب .

وقد بعث السفير البريطانى — فى القسطنطينية — برقية الى حكومته للعمل على تحسين علاقة بريطانيا بالباب العالى قائلا :

لقد وعد السلطان بعمل كل ما يمكن عمله لارضاء الحكومة البريطانية فيما يتعلق بمنشور عصيان عرابى ، واتخاذ ما يلزم لتغيير لهجة الصحافة التركية .

وقد عارض الخديو توفيق (باشا) وحكومته نزول القوات التركية الى مصر مرحبين بنزول القوات البريطانية ‥ !!

***

وحول منشور العصيان الذى وقعه السلطان فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ ونشر فى الصحف قبل تقديمه للورد دوفرين : كما كان متفقا من قبل ٠

كتب السفير البريطانى الى حكومتــه قائلا : أبلغت وزير خارجية تركيا فى الحال ازاء هذا التصرف الغادر الذى تخطانى بمقتضاه وأذاع منشورا تختلف صيغته عن المتفق عليه بيننا ، لا يسعنى الا الامتناع عن توقيع الاتفاق العسكرى وابلاغه أننى لم أدهش مطلقا اذا انتهى الأمر الى وقف المفاوضات » ٠

وقد بادر سعيد باشا الى الاعتذار معترفا بأنه هو المخطىء المسئول عن عدم سلامة عبارات المنشور وان كان خطؤه ناشئا عن رغبته فى تقديم أفضل خدمة ممكنة بدليل ان عبارات انتقاص عرابى فى المنشور المذاع أقوى منها فى المنشور الأصلى ٠

وقد تعهد الوزير التركى بنشر تصحيح رسمى فى جريدة « وقت » يشمل جميع العبارات الواجبة اضافتها الى المنشور ورجانى فى النهاية أن أعمل على تخفيف الغضب الذى نتج عن خطئه لدى حكومة بريطانيــا ووافقت تركيا وبريطانيا على أن تأخذ السفن التركيــة طريقهــا صوب بور سعيد للدخول منها الى القنال ٠

وبينما كان لورد جرانفيل يتأهب للموافقة النهائية على الاتفاق ‥ وبينما كان الباب العالى متلهفا على التوقيــع اقترف السلطان عملا جديدا من أعماله الغادرة التى تزعزع كل ثقة فى وعوده ــ كما يقول كرومر ــ لقد أمر اللورد ولسلى قائد القوات البريطانيـــة فى مصر بتعيين بعض الحمالين لخدمة قواته ، واذا بأمر يصدره الباب العالى باعتقالهم وسجنهم ثم لا يطلق سراحهم الا بعد احتجاج شديد اللهجة من جانب اللورد دوفرين الذى أعطته حكومته سلطة مطلقة لقطع العلاقات السياسية مع الباب العالى ، اذا شاء ‥ !!

وهكذا أكملت بريطانيا لعبتها ، فضحكت على الباب العــالى حتى أصدر منشور عصيان عرابى وهو المنشور الذى كان من أهم أحد عوامل الحاق الهزيمة بالثوار والذى أدى الى اضعاف الروح المعنوية للجيش كما أدى الى انشقاق فى قيادة الجيش دفع أحمد بك عبد الغفــار ــ قومندان الفرسان ــ وعبد الرحمن حسن بك ــ حكمدار الآلاى الثانى ، وعلى بك

يوسف ـ أميرالاى الآلاى الثالث من المشاة الى الانقلاب على أحمد عرابى ..!!

وهكذا نجح الباب العالى فى الحاق الهزيمة بالثورة العربية لصالح الاحتلال البريطانى بمصر الذى تحقق فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ .. !!

أما منشور عصيان عرابى الصادر من الباب العالى ، فاننا نثبته هنا لأهميته القصوى نصسه : معلوم عند الجميع ان خديو مصر ، بموجب الفرمانات العالية والامتيازات المقررة مودعة من جانب الخلافة العظمى الى عهده حضرة فخامتلو محمد توفيق باشا ، فهو فى ادارة الأمور المصرية وكيل مطلق من طرف السلطنة السنية فأوامره مطاعة ومخالفته توجب على عاملها طائلة المسئولية .

ومع ذلك فعرابى باشا ارتكب ذنبا بتعرضه لوظائف الحكومة مما هو مخالف صريحا للأحكام القانونية ، فسلب الراحة ، وأخل بالأمن فى المملكة ، وأضاع عددا من الأنفس ، وأضر بالأموال ، ولم يقف عند هذا الحد . بل سبب تداخلا عسكريا أجنبيا لأنه أجبر دولة انجلترا المخلصة الوداد مع السلطنة السنية ، على أن تطلق مدافع سفنها على استحكامات ثغر الاسكندرية ، وكان ذلك ناجما عن زيادة التجهيزات ووضع المدافع العديدة فى طوابى الاسكندرية ، حتى أمست سفن الدولة المشار اليها هدفا لهذه التعرضات ، فتسبب عنها عدم أمنية الدولة المذكورة .

ومع قطع النظر عن البحث فى ما يترتب على مرتكب هذه الأمور من العقاب ، فالشريعة الغراء لم تصرح بوجوب المدافعة الا بشرط الاستطاعة . فلو تفكر لهذا الشرط الشرعى . لما قام بتنفيذ مآربه باراقة الدماء واتلاف النفوس ، وادخال القطر المصرى تحت مخاطرة مداخلات عسكرية أجنبية .

والذى زاد فى المشكل ارتباكا ، هو أنه بعد انهزامه من الاسكندرية ، حاصر سراى الحضرة الخديوية مرة ثانية ، فاضطر الأميرال الانكليزى الى اخراج عساكره للبر للمحافظة على الأمنية ، فكانت هذه الحالة مبدأ المداخلات العسكرية البرية .

وكان القصد من ارسال وفدنا السلطانى ، المؤلف من دولتلو درويش باشا وكل من عطوفتلو قدرى أفندى ولبيب أفندى وحضرة الشيخ أحمد أسعد أفندى ، اجراء التبليغات والتنبيهات الى عرابى باشا بأن يحضر الى دار السعادة ، ويرجع عن مسلكه المعوج ، الذى سلكه على غفلة من الأهلين ، وذلك حتى لا تكون الدولة العلية ، مضطرة لاجراء الحركات العسكرية العنيفة ، فى حق الأفراد من الأهالى الذين يتبعون قوله لجهلهم وعدم معرفتهم الخير من الشر .

أما الوفد ، فقد أبدى ما بوسعه من النصائح الدينية والشرعية والعقلية المناسبة لظروف الحال ، ولم يكن جواب عرابى لذلك كله الا ثباته فى سلوكه المعوج ، وتماديه فى تمرده ، الى أن قال البيان : ان كل من أتى القطر المصرى من أجنبى وغيره ، حتى ذات العساكر العثمانية ، فهو يقابلها بالقوة ، ولا يرضى بدخولهم البلاد وقد عرض لدينا ذلك الوفد العثمانى بتقرير رسمى موقع من الجميع •

ولا يخفى ما يحصل من وخامة العاقبة ، عن تعدى المومأ اليه لتشكيل هيئة لادارة البلاد ضد الحكومة للشرعية •

وما أجراه عرابى باشا قبل التهديدات التى حصلت له من الانكليز كتنويهه بمقاومة العساكر الشاهانية بالسلاح ، واطلاق حركاته الأخرى ، كلها أمور تتطلب معاقبته بأشد العقاب • ومع ذلك • كما استعطف الحضرة الخديوية الجليلة ، فطلب العفو والتجأ الى المراحم السنية ، وأعطى التأمينات الى دولتلو درويش باشا رئيس الوفد عنه وعن العساكر المصرية ، كما جرى الاعلان فى أوراق الحوادث ، نال التعطفات ولأجل تأمينه وتوثيق صداقته ، أحسن اليه بالنيشان العالى طبقا لاقتراح درويش باشا المشار اليه • أما عرابى فلم يعرف قدر تلك الألطاف ، وجهل مزيتها ، فأصر على أفكاره السقيمة وحركاته المضادة للشرع المنيف • ببث واعلان البغى والعصيان وعليه فهو باغ عاص •

وليعلم الجميع • أن الجناب الخديوى هو أمين السلطنة ومعتمدها ، وهو أعظم أركان الدولة العلية فحفظ حيثيته الذاتية ، وما حازه من الامتياز والاقتدار ، انما هو الأمور الملتزمة •

وما أجراه عرابى باشا وتجاسر عليه من أجراء تلك الحركات ، مغاير للرضا العالى ، فبغيه وعصيانه ، هما نتيجة أفعاله وأعماله ، أما الحضرة الخديوية فنفوذها مؤيد وامتيازها مقرر من الدولة العلية » •

والجدير بالذكر أن السفارة الانجليزية فى الآستانة ابتاعت من جريدة « الجوائب » التى كانت تصدر باللغة العربية هناك ، والتى نشرت منشور العصيان ، مليون نسخة من العدد الذى نشرت فيه ترجمة « الارادة السلطانية » التى أعلن فيها عصيان عرابى لكى توزعها ــ كما قال أحمد شفيق باشا ــ فى الهند وتستعين بالأثر الذى تحدثه على اخماد حركة التشيع للعرابيين ، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر انجلترا بشر العواقب •• !!

وعندما توفى الخديو توفيق باشا وخلفه ابنه الأكبر عباس حلمى ، كان عباس حلمى هذا لا يزال يتلقى العلم فى فيينا عاصمة النمسا - كلية النرزيانوم - فبادر بالعودة الى مصر وقد تأخر وصول الفرمان السلطانى المنبىء باسناد الخديوية المصرية الى عباس حلمى الثانى لأن الباب العالى انتهز الفرصة - فرصة وفاة توفيق وتولية عباس - لتعديل الحدود بين مصر وتركيا ٠

ودارت مباحثات بالغة السرية بين الجانب التركى والجانب المصرى ، وافق الجانبان على تخلى مصر عن العقبة لتركيا كانت فى الأصل تابعة لولاية الحجاز وقد أعارتها تركيا لمصر فى عهد اسماعيل ورخصت لها - كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى - بوضع حاميات من الجند فى « الوجه » و « المويلح » و « ضبا » و « العقبة » وشبه جزيرة سيناء لتأمين الحج والحجاج بطريق البر وقد استعادت تركيا الوجه وضبا والمويلح ثم أرادت استعادة العقبة ، وقد قبل الخديو الجديد ما أرادته تركيا حتى لا يبدأ عهده بأزمة مع دولة الخلافة العثمانية ، فضعف موقفه مع دولة الاحتلال (بريطانيا) ٠

وقد ظلت المفاوضات المصرية التركية قائمة من منتصف يناير ١٨٩٢ حتى أوائل ابريل من نفس العام الى أن انتهت الأزمة ووصل المندوب السلطانى فى ١٤ ابريل ١٨٩٢ الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة ومعه الفرمان الشاهانى الذى لم ينص على أن يتولى الخديو ادارة شبه جزيرة سيناء ، فصدرت ارادة شاهانية ملحقة باسناد ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو عباس حلمى الثانى كما كانت لأسلافه من قبل وكما يحددها - شبه الجزيرة - الخط الممتد من شرقى العريش الى رأس خليج العقبة ، وعندما قامت أزمة بين الخديو الجديد وبين المعتمد البريطانى فى مصر - لورد كرومر - فى منتصف يناير ١٨٩٣ - لقيام الخديو باقالة وزارة مصطفى فهمى وتعيينه وزارة جديدة برئاسة حسين فخرى دون استشارة لورد كرومر ، وهى الأزمة التى تراجع فيها الخديو فلم تستمر وزارة حسين فخرى باشا ، وانما تم تعيين وزارة جديدة برئاسة رياض باشا ٠

وقد احتجت تركيا على تدخل بريطانيا فى الشئون الداخلية لمصر ، وكان للاحتجاج التركى أثره الطيب لدى الجماهير المصرية ٠ ولم يأخذ حامل الفرمان ما كان يأخذه كل حامل للفرمان من قبل (اثنى عشر ألف جنيه فقط) من الخزينة وانما أخذ فى هذه المرة - خمسة آلاف جنيه هى رسوم الفرمان ، وكانت رسوم سفر حامل الفرمان على نفقة الخزينة السلطانية ٠

ونعود الى الحديث عن الامبراطورية العثمانية في سنواتها الحرجة :

سنوات الاحتضار :

كانت الامبراطورية العثمانية ككل امبراطورية هرمة ، تحمل فى داخلهـا كل عوامل الفنـاء والدمار ، وكانت الدول الأوروبية التى تحاول وراثتها وهى على قيد الحياة تستعجل اليوم الذى ستعلن فيه نهاية تلك الدولة الهرمة ، وقد وصل الحال بتلك الدولة الهرمة ان شيخ‌الاسلام الشيخ حسن خير الله أصدر ثلاث فتاوى خاصة بثلاثة سلاطين تستوجب عزلهم .

وتكاد تكون الفتاوى الثلاثة بعبارة متشابهة .

أول فتوى خاصة بهذا الموضوع ، كانت على النحو التالى : اذا كان « يزيد » الذى هو أمير المؤمنين مختـل الشعور وليس له المام فى الأمور السياسية وما برح ينفق الأموال الميرية فى مصارفه النفسانية فى درجة لا طاقة للملك والملة على تحملهـا وقد أخـل بالأمور الدينيـة والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضرا بها فهل يصح خلعه ؟ .

الجواب يصح : كتبه الفقير حسن خير الله .

وتم خلع السلطان عبد العزيز بناء على تلك الفتوى ــ كما تم فى ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ الموافق ٢٩ مايو ١٨٧٦ مبايعة السلطان مراد الذى أطلق عليه السلطان مراد خان الخامس .

وفى ١٠ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ الموافق ٣٠ أغسطس ١٨٧٦ أصدر نفس شيخ الاسلام : الشيخ حسن خير الله ــ فتوى هذا نصها : اذا جن أمام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الأمانة فهل يصح حل الأمانة من عهدته . الجواب : يصح والله أعلم . كتبه الفقير حسن خير الله ، عفى عنـه ؟ .

وتم خلع السلطان مراد وتولى بعده العرش السلطان عبد الحميد خان .

أما الفتوى الثالثة فقد كتبت فى ٧ ربيع الأول سـنة ١٣٢٧ هـ الموافق ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ وقد تم بمقتضاها خلع السلطان عبد الحميد وتولية السلطان « محمد رشاد خان » العرش . وكان نص تلك الفتوى على النحو التالى :

« اذا اعتاد زيد الذى هو أمام المسلمين أن يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة الشرعية وان يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها وان يبذر ويسرف فى بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ

شرعي ، وأن يقتل الرعية .ويحبسهم وينفيهم ويعذبهم بغير سبب شرعي وسائر أنواع المظالم ، ثم ادعى أنه تاب وعاهد الله وحلف أنه مصلح حاله ثم حنث ، وأحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المسلمين كلها مختلة وأصر على المقاتلة وتمكن منعة المسلمين من ازالة تغلب زيد المذكور .

★★★

ووردت أخبار متوالية من جوانب بـــلاد المسلمين أنهم يعتبرونه مخلوعا وأصبح بقاؤه محقق الضرر وزواله محتمل الصلاح ، فهل يجب أحد الأمرين : خلعه أو تكليفه بالتنازل عن الأمانة والسلطنة على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد وأولو الأمر من هـذين الوجهين ؟ الجواب : يجب . كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عفى عنه » .

★★★

ويوضح الكاتب الألماني « داجوفون ميكوش » في كتابه عن مصطفى كمال المثل الأعلى في عبارة رقيقة كيف كانت الأمور تســـير في الدولة العثمانية في سنواتها الأخيرة بدءا من عزل السلطان عبد العزيز الى وفاته ومرورا بدستور ١٨٧٦ الذى وضع في أيام السلطان عبد الحميد على الرف الى آخر تلك التطورات التاريخية السريعة المتلاحقـــة : عن قصر يلدز ـ مثلا ـ يقول داجوفون ميكوش :

« بنى السلطان عبد الحميد مقره الملكي في ضواحي استنبول ، وكان قصر يلدز مملكة قائمة بذاتها متعددة المباني والقصور ، منها الكبير ومنها الصغير ، مصنوعة من الأحجار والرخام وتحيط بها الأشجار الباسقة .

وكان السلطان قد خصص لموظفيه ، وضباطه وخدمه قصورا خاصة تفصلهم عن العالم الخارجي .

ولا يؤذن لهم بالخروج الا باذن خـاص من جلالته ، حتى ان الاتراك انفسهم كانوا يجهلون ما يجرى وراء هذه الأسوار العالية .

وكان السلطان قد أعد القصور اعدادا كاملا بحيث أصبحت مستوفية كل وسائل وأسباب النعيم والرفاهية . هنالك صـناع للسلطان يزاولون شتى الصناعات ، وفي مزارعه وحدائقه واسـطبلاته الخاصة الحاوية مئات الخيول الأصيلة ، ألوف من الزراع والخدم وكان شديد العناية بالحيوانات مولعا بها كل الولع .

وكان تحت أرض يلدز سراديب ملأى بالكنوز والتحف الأثرية الثمينة كما كان للسلطان مرصد خاص .

وكان عدد الطباخين الذين يشتغلون فى قصره الملكى فحسب ثمانماية طباخ ٠٠ !!

وكان جلالة السلطان نفسه ـ ظل الله على الأرض ـ يسكن هذا المعقل الحصين سجينا بمحض ارادته وكانت دلائل الشيخوخة قد ظهرت عليه بعد ان مر عليه فى الحكم أكثر من ثلاثين سنة ٠

لقد كان هذا السلطان ـ فيما مضى ـ يحمل جسما صلبا مستقيما ، ولكن هذا الجسم قد ذوى ومال الى الانحناء ٠

وعندما كانت تجرى الاستقبالات الرسمية كان السلطان يسند يديه الصغيرتين ـ وكان يغطيها بقفاز أبيض ـ على سيف عثمان ، وكانت قبضة هذا السيف تكاد تلامس لحيته ، وأنفه كان أشبه بمنقار الطائر ، أما رأسه فكان يظهر ضخما نظرا لضخامة لحيته التى كان يخضبها بالحناء ٠

وكانت عيناه فى أيام الشباب واسعتين متقدتين ، تشعان ذكاء وفطنة فرقدت على مر السنين فى أعماق تجاويفهما ٠

وكانت نظراته تدل على الاضطراب والقلق كما تدل على الحذر والريبة وابتسامته الضعيفة لا تخفى أحزانه وهمومه ٠

وكان حتى ذلك الحين يفوق معظم الدبلوماسيين الأوربيين ، ورجال السياسة المتفننين ، أجل كان يفوقهم دهاء ودسا ويقودهم من أنوفهم ٠٠ !! ولكنه لم يجن من وراء خداعه واحتياله غير تأجيل ساعة موت الامبراطورية ، وتأخير ساعة الموت ولفظ النفس الأخير ، شأنه فى ذلك شأن الجنود الذين يجالدون رغم جراحاتهم حتى يغلبوا على أمرهم بعد طول الكفاح ٠

وكان السلطان عبد الحميد قد فقد بعض ولاياته الأوربية وأفلتت منه مصر وتونس ، كان الفرنسيون قد بدأوا يستوطنون مراكش ، والنمسا تتوغل فى البلقان ، والشبح الروسى مخيفا يضع شتى العراقيل فى طريق الأتراك ٠

***

٠٠٠٠ وعن جواسيس السلطان عبد الحميد يقول الكاتب الألمانى فون ميكوش :

كان هذا الحاكم الحذر يود الوقوف على كل ما تفعله رعيته ، ويريد لو نفذ الى قلب كل منهم ، واطلع على مكنوناته وخفاياه ، فكان من الطبيعى ان يحتاج الى عدد من الجواسيس والمخبرين ، ولم يمض وقت طويل حتى

تضخم عدد جيش جواسيسه الذين صاروا يتتبعون له كل شاردة ، وواردة ، ويعدون على الأهلين أنفاسهم ٠٠ !!

وبلغ بهؤلاء الجواسيس ان كانوا يتنكرون بأثواب الشحاذين الممزقة ، ويقضون الساعات الطويلة فى التجوال ، علهم يظفرون بشيء يرضون به ولى نعمهم ٠٠ !! وكان البعض منهم يتخصص فى الخدمة فى دور الأشراف فيؤدون الأعمال « الصغيرة » ولكنهم يفوزون بالأخبار « الكبيرة » حتى فقدت الثقة بين الناس ٠

★★★

وكان اذا دخل رجل مجهول أحد المقاهى التركية انقطع الناس فيها ، عن الحديث الجارى بينهم بأصوات خافتة الى ان يتأكد هؤلاء من نيات ذلك « الضيف » الذى دخل على غير معرفة سابقة ، ولا تعود اليهم طمأنينتهم الا بعد أن يوقنوا أنه ليس من عيون السلطان ولا من جواسيس القصر ٠٠!!

وكانت حقائب الأخبار تحمل كل يوم الى السلطان فيفرغ ما فيها من التقارير ، وينصرف الى دراستها بدقة ، وكان هؤلاء الجواسيس اذا أعيتهم الحيل ، وفشلوا فى اصطياد الأخبار ، ونبش الخبايا عمدوا الى الخيال و « فبركوا » ما شاءوا ويأتون فى آخر النهار بتقارير كلهـا تلفيق واختلاق منسوجة نسجا دقيقا ، وكان السلطان لا يضيع « أتعابهم » سواء أكانت هذه التقارير صحيحة أو مزورة فيكافئهم ويجازيهم فاذا سئل فى ذلك قال : « لا بأس فى ان يسرقوا مالى ما داموا فى خدمتى وأنا أثق بهم » ٠

والواقع ان الذين كانوا يعملون تحت امرة السلطان كانوا يثرون سريعا وكان بسخائه يجبرهم على الاخلاص والتفانى فى خدمته ٠

وكان من الطبيعى أن تبتلع رواتب آلاف الموظفين والهبات المبذولة بسخاء للرعايا المخلصين جميع واردات الدولة ، وان تكون سببا فى فراغ الخزينة واحلال الفوضى المالية فى ادارات الحكومة ، ان عبد الحميد كان تركيا من حيث فن الاقتصاد والتركى لا يجيد هذا الفن ، فلم يمض زمن حتى اضطربت شؤون تركيا المالية ٠

والواقع ان خزانة الدولة كانت لا تعرف الامتلاء فى أى وقت من الأوقات ، بل كانت فارغة على الدوام ، فاضطر الأتراك ان يسمحوا بدخول رؤوس الأموال الأجنبية الى بلادهم ، ثم ضاعت ثقة الماليين فى باريس وبرلين بالدولة العثمانية فكانوا لا يقدمون لها أموالهم الا بفوائد فاحشة ، بعد ان يستولوا على واردات الضرائب والجمارك ٠

وهذا كان فاتحة التدخل المالى الأجنبى الذى جلب الى تركيا الخراب الجديد فوق خرابها القديم ٠

وكانت الرقابة على ادارة البريد شديدة والسلطان يحرم على الأهلين في استنبول الانتفاع بالتليفون لشدة خوفه من المخابرات السرية وتدبير المؤامرات ٠٠ !!

كما ان الصحافة التركية كانت خاضعة للمراقبة الصارمة لا يجوز لها ذكر شيء عن الاعتداءات على الملوك حتى أنها كانت تنشر أخبار موتهم بكل ايجاز وتحفظ ٠

★★★

وبأسلوبه الأدبى المتميز يصف « فـون ميكوش » كيف تم خلع السلطان عبد الحميد :

انتشرت الاشاعات بأن العســاكر تركوا مقدونيــة متوجهين الى العاصمة ٠٠ !!

واستطاع بعض الفارين من أعضاء تركيا الفتاة الوصول الى سلانيك يتقدمهم « رضا بك » ٠

والواقع أن هذا الرجل كان جريئا فى (القول) جبانا فى (العمل) ٠

وقف مرة يصرح أمام أعضاء المجلس التشريعى بأنه قد صمم على السير على جسر غلطة مغطيـا رأسه بقبعة طويلة ، ولكن هـذه الجرأة التى أظهرها فى تلك الجلسة لم تسفر عن شيء ، فان الجسر والمارة على الجسر لم يشاهدوا صاحبنا فى قبعة طويلة ولا قصيرة ٠٠ !!

وتطوع للفصيلة الثالثة بعض البلغـاريين واليونانيين أما الفصيلة الثانية فقد عسكرت بين « مقدونية » و « استنبول »وكانت كثيرة التردد فى بادىء الأمر ، ولكنها على وجه العموم كانت موالية للسلطان ، ثم عادوا فوعدوا بمساعدة رفقائهم فى مقدونية بعد أن تأكدوا من الوفد الذى أرسلوه الى العاصمة أن الاشاعات الرائجة عن اغتيال الضباط كانت صحيحة ٠

وكان قائد « جيش الانقاذ » أو « جيش الخلاص » محمود شوكت باشا وهو عربى المولد طويل القامة دقيق الوجه ، عيناه غارقتـان فى محاجرهما وقد قال عنه الجنرال فون در جولتز ما يلى :

« لم أعرف رجلا فى تركيا كلها يشبه محمود شوكت باشا فى بعد نظره وثاقب فكره » ٠

ولما كان مقربا من عبد الحميد كان من الطبيعى ان يرتفع فى درجات الترقى السريع حتى وصل الى وظيفة حربية رفيعة ، كما سنحت له

الفرصة الطيبة للسفر الى الخارج في مهام حربية ، فدرس النظريات الحرة وتشبع بالمبادىء الحرة التى كانت رائجة في أوروبا ، وحاول نقلها بعد عودته ٠

لم يكن يعرف الخوف ٠٠ فهو صادق العزيمة كجندى ، ولكنه كان جبانا متذبذبا فى الشئون السياسية على نقيض مصطفى كمال الذى كان قائدا باسلا وسياسيا باسلا ٠

ومع ان الظروف وحدها هى التى خدمت محمود شوكت ومكنته من أن يلعب دورا باتا الا أنه ظل على الدوام مترددا ٠

وأخيرا وجد نفسه فى موقف لا يسمح له بالتردد أو الاختيار بين شيئين ، فكان الطريق المفتوح أمامه هو طريق الدكتاتورية فسلكه وذهب ضحيته ، فقد أغتيل كما تنبأ هو لنفسه ٠

وكان الطوق الحديدى الذى علق فى رقبة استنبول يزداد ضيقا على مر الأيام ٠

★★★

وانعقد البرلمان فى تلك الأيام المضطربة ، وأخذ الأعضاء يتباحثون فى ملاءمة تلك الظروف لاجراء التفاهم مع الجيش فى سلانيك ، ولكن حدث أن الأعضاء أثناء استغراقهم بالجدل قوطعوا بصـورة مفزعة فقد حاصر البرلمان ٢٠٠٠ جندى وتقدم بعضهم يطلبون مقابلة رئيس المجلس ٠

وليتصور القارىء حراجة موقف هذا الرئيس فانه قطع الأمل من الحياة وأدرك أنه مائت حتما ، ولكنه أبى أن يتقهقر فتقدم اليهم ولشد ما كانت دهشته اذ وجد أن الجنود الذين جاءوا هم أبعد ما يكونون عن التفكير فى استعمال العنف ، وأنهم قد أنابوا عنهم خطيبا مفوها فى الستين من عمره ، وكان الضابط الوحيد الذى رافقهم ، ليحدث الرئيس وليبين له أن الحامية فى « خادم كوى » قد جاءت كلها لتستقصى عما تم فى قضية الدستور ، وعما اذا كان فى خطر كما أشيع أخيرا ٠

وتنفس الرئيس الصعداء ، وعادت اليـه الطمأنينة فأخذ يرتجل خطابا يدل على الذكاء استطاع به أن يعيد اليهم الطمأنينة التى فقدوها ويؤكد لهم ان الدستور بخير لم يمسه أى ضرر ٠

وما أن انتهى الخطيب من خطابه حتى اهتزت أعصاب الجنود اهتزازا عنيفا فاستسلموا للهتاف ، وهتفوا ما شاءوا من أعماق قلوبهم للبرلمان ، ولرئيس البرلـــان ، ثم انصرفـوا وســلم عنق الرئيس وأعنـــاق الأعضاء معه ٠٠ !!

أجل ، انصرف الجنود في هدوء ، وعادوا الى المحطة ليؤموا استنبول ولكنهم بدلا من أن يركبوا القطار الخاص الذى جاءوا فيه عائدين الى معسكرهم احتلوا المحطة ، وكان احتلالهم الفجائى سببا لذعر الأهلين الذين حاولوا أن يفهموا السر فى هذه الحركة فلم يدركوا له معنى ولم يفقهوا مرمى ٠

أما حوانيت المدينة فأغلقت فورا وساد الهرج والمرج وضعفت الحركة التجارية ، ونصب الجنود الخيام قرب المحطة وظل الأهلون الى ساعة متأخرة من الليل حتى عرفوا المقصد الحقيقى من هذه المناورة العسكرية واليك البيان :

★★★

تقع « خادم كوى » على بعد ٢٠ ميلا من استنبول وقد اختار قادة « جيش الخلاص » هذا المكان ليكون ملتقى الجيوش ومن ثم يسنولون عليه دون اراقة دماء ذكية ٠

ورأوا أن يجعلوا الحامية المخلصة تنتقل من هذا المكان بالحيلة ، وكان ضباطهم قد اتصلوا سرا بسلانيك وجعلوا يموهون على الجنود ان البرلمان والدستور فى خطر ، وان عليهم أن يذهبوا بلا ابطاء الى استنبول ، وأن يدافعوا عن حقوقهم المهضومة ، وان تدخلهم الفعلى فى هذه القضية الوطنية هو من الأمور المستحبة ، بل من الأمور المحتمة الواجبة ، وأن الأمة لن تغمض عيونها عن أفعالهم وتضحياتهم بل ستجازيهم أحسن الجزاء ، ثم أعد لهم قطار خاص الى استانبول ٠

وبعد أن انتهت مهمتهم الوطنية ! ٠٠ وانتصروا للدستور ودافعوا عنه ! ٠٠ رغبوا فى العودة الى خادم كوى فبلغهم أنه حدث فى أثناء غيابهم ان فرقا من سلانيك جاءت الى معسكراتهم واحتلتها ، وان عودتهم فى الوقت الحاضر هى من الأمور غير المرغوب فيها حقنا للدماء ، فوجدوا ان خير وسيلة هى أن يبقوا فى استانبول ٠

وقد شمل قصر يلدز الحزن والكآبة طول المدة التى كانت الفرق المعادية للسلطان تتقدم وتتوغل فانقطع السلطان عن اصدار « الارادات » وكان حتى ذلك الحين فى اطمئنان على حياته ٠

وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ اجتمع زوار السلطان فى السلاملك كالعادة ، وصلى منهم من صلى فى مسجد الحميدية القريب من قصر يلدز ، وكان السلطان يذهب كل يوم جمعة الى هذا المسجد والناس يترقبون زياراته هذه ليحظوا برؤية الخليفة ٠

وكان الجنود يصطفون على الصفين ترحيبا بعظمته ٠

واختفى الضباط فلم يشاهد الناس واحدا منهم ، وفرغت الأماكن ٠

وفي مساء يوم السبت دخلت فرق سلانيك الى العاصمة اسمانبول في هدوء تام ٠٠ !!

ووجد الجنود أن لا فائدة من المقاومة التى تتطلب تضحية غير ضرورية ٠

وفي منتصف الأحد كان محمود شوكت باشا قد احتل العاصمة وملأ السجون متحاشيا الاقتراب من قصر يلدز ، ومهاجمة الجنود التى تحميه ، ولكنه استطاع بطرق الاستمالة والاغراء أن يجتذبهم اليه ويستميلهم بشتى الطرق ، فانسحبوا في هدوء وتخلوا عن السلطان ٠

وكانت البلاد تترقب قرار شيخ الاسلام ، واجتمع أعضاء مجلسى النواب والشيوخ وأخذ الناقمون يعددون مساوىء السلطان وجرائمه واحدة واحدة فقام أحد الأعضاء وقد هالته كل هذه المخازى يرتكبها رجل على رأس الدولة فألقى على شيخ الاسلام السؤال التالى :

« هل لممثلى الشعب في ظروف كهذه ان يخلعوا الخليفة ؟ »

فلم يكن من شيخ الاسلام الا أن أجاب في عبارة هي آخر ما وصلت اليه الأجوبة في البت في مصير الحكام : « نعم » ! ٠٠٠

★★★

وفتحت أبواب يلدز في المساء وساد صمت الموت في أبنيته العديدة أما رجال البلاط والخدم فقد تركوا مولاهم في حيرته وهربوا بعد أن حملوا ما يمكن من الغنائم والأسلاب ٠

وأخذ عبد الحميد ينتظر وطال به الانتظار ، وكان ابنه الأصغر — عبد الرحمن — لا يفارقه لحظة واحدة ٠

٠٠٠ وعبد الرحمن هذا صبى في العاشرة كان السلطان قد أبقاه بجانبه في أيامه الأخيرة على أمل أن يصونه فان المسلم الحقيقى يردد طويلا قبل ان يلحق أى أذى بالأولاد الصغار ٠

ودخل ثلاثة نواب وأبلغوا سكرتير السلطان الذى ظل أمينا لجلالته حتى الساعة الأخيرة ، أنهم جاءوا يحملون في جيوبهم أماني الشعب وقراراته ٠

فطلب السكرتير منهم تقديم الأوراق التى معهم فقدموها فأخذهـا توا الى السلطان الذى لم يسمعه الا ان تأوه وقال :

« لا مرد لقضاء الله ٠٠ ! ان هذا القضاء ليملأ قلبى غما لأنى قد عشت طول حياتى لا أبغى غير مصلحة شعبى ولكن ارادة الأمة فوق كل ارادة ٠٠٠ نعم ينبغى أن أخضع لارادة الأمة فهى فوق كل شيء ٠٠ !

★★★

وبعد ساعات كان السلطان يودع قصر يلدز وينتقل تحت الحفظ الى سلانيك حيث وضعه الثوار فى « قصر الاتينى » ٠

واصطحب السلطان عددا من حريمه اللواتى وجدن فى هذه الرحلة شيئا من العزاء والراحة ٠

وكان السلطان قد بلغ السادسة والسبعين ولكنه كان لا يزال يشعر بالقوة والنشاط ٠

وسار السلطان بين الجنود الذين هتفوا له هتافا أعلى من هتافهم فى أى وقت مضى ٠

« بادشاهم جوق باشا » ٠

★★★

وكان الاتحاديون قبل ذلك بزمن قصـير قد ساروا الى العاصـمة محتمين بالجنود ، وأخذوا يطالبون بعزل عبد الحميد ، ولم يبتوا فى هذه القضية الا بعد مجادلات طويلة حارة ٠٠٠ أما الضباط فقد طلبوا قتل عبد الحميد ولكن بقية المجتمعين أبوا مجاراتهم فى هذا العمل الطائش ٠

وفى يوم الجمعة ذاته أذيع بيان على سكان استانبول بامضاء محمود شوكت باشا زعيم « جيش الخلاص » جاء فيه :

« ان الاشاعات التى راجت عن خلع السـلطان لا أساس لها من الصحة بتاتا » ٠

ويظن ان مصطفى كمال هو الذى وضع هذا المنشور تهدئة للأعصاب وتطييبا للخواطر ، وكان يتوخى من وراء عمله هذا اخفاء نياته الحقيقية وجذب الجماهير اليه ٠

وسمع السلطان ونساؤه أصوات المدافع تعلن بجلاء تولى شقيق السلطان على العرش ٠٠ !!

٠٠ وكيف لا يشعرن بعزاء وقد عشن الى تلك الساعة سجينات ولم يكن قد ركبن قطارا بعد ٠٠ !!

أجل ، كان السلطان الجديد محمد رشـاد قـد قضى الثلاثين سنة الأخيرة من حياته سجينا في قصر شقيقه وكان السلطان يجزل للجواسيس العطاء لكي يأتوا اليه بكل صغيرة وكبيرة ٠

وكان من جراء ذلك ان اعتل جسم محمد رشاد وانحلت قواه وقوست رجلاه نظرا لثقل جسمه وغلاظته ٠

وكان وجهه الأسفنجي أصفر اللون ٠

وكانت عيناه تدلان على ميل فطرى للاحتيال والمكر ، ولكنه كان خجولا يهلع لأقل شيء ٠

وأخذ هذا الكهل المطمئن على حياته يحتفظ بمهارته وشرفه طوال سنى الأسر ٠

وكان يدهش الذين يخالطونه بوفرة معلوماته وغزارة مادته العلمية التي كانت تبدو جلية من حديثه ٠

هذا هو الرجل الذى عرف بعد تتويجه بالسلطان محمد الخامس ٠

★★★

٠٠٠ وأقام بعد تتويجه فى قصر « ضولمة باغجة » الواقع على شاطىء البسفور ، ولابد أن يكون قد لاحظ ان الخدم قد تبدلوا بعد هذه السنوات الطويلة التى قضاها فى الأسر وأن رجال البلاط قد تبدلوا ، وأنه اذا كان سجين شقيقه فيما مضى ، فقد أصبح سجين تركيا الفتاة التى كانت رقابتها عليه أشد من رقابة الشقيق ، والتى كانت السلطة كلهـا قد انتقلت ليدها » ٠

★★★

ونفتح قوسا ، لنقول ان الصحافة قد شهدت فى السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانيـة أنكى صـنوف الاضطهـاد والرقابة فى كثير من العواصم العربية التي تصدر صحفا بالعربية أو بالفرنسية أو حتى بالتركيـة كانت الصـحف تلاقى الأمرين من ذلك الرقيب الذى كانوا يسمونه « المكتوبجى » ، فما أن تنشر احدى الصحف مقالا يثير الرقيب حتى يلقى صاحب امتياز الصحيفة تلك الاخطار التالى : « من حيث أن جريدتكم قد نشرت فى عدد كذا مقالة مخالفة للرضى العالى فقد أوجبت (تخديش الأذهان) فاقتضى اخطاركم ، اذا عدتم الى مثل ذلك تجرى بحقكم المعاملات القانونية » ٠

وفى ذلك الحين كانت الجريدة التى تخطر ثلاث مرات على هذه الكيفية يصدر الأمر بتعطيلها ٠

وفى سورية — مثلا — لم يكن يسمح لأية صحيفة بالصدور الا بعد أن ترسل مسودتها قبل الطبع الى ميشال أفندى لمراقبتها ، وكان المكتوبجى فى « ولاية سورية » اسمه جمال بك وهو تركى ، لا يعرف كلمة عربية واحدة ٠

وقد خلفه جابى زاده سعادتلو حسين فائز افندى من أهالى دمشق فشدد الرقابة على الجرايد حتى كادت تزهق أرواحها ٠

ثم آل الأمر الى سعادتلو عبد الله نجيب ، ثم عهـد بالمراقبة الى عبد الرحمن أفنـدى الحوت وكان المعروف بالنسـبة لمحررى الجرائـد العثمانية ان الجريدة ترتب حروفها ويصحح أخطارها حتى تصير جاهزة للطبع والتوزيع ، تبعث ادارة تلك الجريدة نسختين الى المكتوبجى وعلى المطبعة أن تنتظر رجوع المسودة ، وعادة ما ترسل المسودة فى الساعة العاشرة صباحا ، وقد تبقى المسودة عند المكتوبجى حتى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ٠

وعندما تصل المسودة الى سراى الحكومة يأخذها العسكرى الملازم ، ويضعها على طاولة أمام المكتوبجى الذى يتنازل فيرسل المسودة الى أحد خلفائه عبد الرحمن أفندى الحوت ليطالعها قبله ٠

فان رأى الحوت أفندى عبارة يمكن أن تغضب المكتوبجى حذفها بحبر أسود ٠

وأحيانا يضع علامة مستطيلة بحبر أحمر أمام العبارات التى أشكل عليه فهمها ثم يكتب « تقدم » عبد الرحمن ٠

وأحيانا تمكث الجريدة فى حضرة عبد الرحمـن أفنـدى الحوت ١٠ ساعات ، ولذلك فكر أصحاب الجرائد فى تقديم مبلغ من المال من كل صاحب جريدة لمحاولة استرضائه ليعجل بقراءة الصحف ٠

وعندما يكتب عبد الرحمن أفندى « تقدم » ويوقع تذهب المسودة الى المكتوبجى الذى لا يعرف حرفا واحدا من اللغة العربية ولكنه يأخذ بقلمه ويشطب كل عبارة عليها علامة مستطيلة ثم يكتب فى ذيل النسخة « كور لمشور » وهى كلمة الاجازة للادارة ، التى لا يمكن بدونها أن تطبع الجريدة ، وتعدل ادارة الصحيفة اعداد الجريدة فتوقع كل مشطوب وتحل محله مادة أخرى فترسل الى المكتوبجى ليجرى عليها ما جرى أولا وهكذا ٠

وللمكتوبجى ورجاله أفكار بالغة الغرابة ، أعدت جريدة الصباح البيروتية اعلانا على النحو التالى : ان قطعـة الأرض المشتملة على بيت

مؤلف من ٤ أوض ومطبخ ودار ملك محمد على الطرابلسى معدة للأجرة وعلى الراغبين مخابرة أصحابها • ولايعجب المكتوبجى كلمة (ملك) فلا ملك الا الذات الشاهانية، وتستبدل لفظة « ملك » بلفظة « امبراطور » فيفسر الاعلان ان دار الامبراطور محمد على الطرابلسى معدة للأجرة •

وأعدت جرائد بيروت ان أحمد أفندى سلطانى زايل الثغر لزيارة شقيقه محمد أفندى سلطانى المقيم فى الآستانة ، فحذف المكتوبجى (الرقيب) النون والياء من « سلطانى » لتظهر محمد وأحمد أفندى سلطا بدلا من سلطانى •

وعندما أعدت الصحف خبرا خاصا بمقتل المسيو كارنو رئيس الجمهورية الفرنسية فى ليون من خنجر كازارمو الشقى ، أصر المكتوبجى على حذف خبر قتله ، واذا كان ولابد من نشر الخبر فليكن « انتقل الى رحمة ربه » •

وقد جرت العادة ان ينشر الناس اعلاناتهم : نعلن لحضرة الجمهور أننا قد أنشأنا مدرسة فيقوم المكتوبجى بشطب « نعلن لحضرة الجمهور » لأن كلمة جمهور من الجمهورية تخدش الأذهان ولابد من أن تكون الاعلانات الخاصة بمثل هذه الموضوعات : نعلن لحضرة العموم لا الجمهور •

★★★

ويحدث أن يعود أحد أبناء بعلبك الى مدينته بعد ان قضى مدة فى استراليا وكان اسمه يوسف أفندى ملوك ، فاذا بالمكتوبجى يحتج على كلمة « ملوك » ويصر على شطبها لينشر الخبر باسم يوسف أفندى فقط فلما قيل له ان فى سورية مائة ألف يوسف قال ان الملوك لا يكونون فى بعلبك فلما قيل اسمه « ملوك » بتشديد اللام ، ولكنه خشى من ان لا يبدو تشكيل الكلمة واضحا ، فاذن بأن ينشر يوسف أفندى مالوك •

ومرة أراد أحد كبار الصحفيين ان يملأ الفراغ بعد الشطب بقصة من كتاب « اعلام الناس فيما جرى للبرامكة مع بنى العباس » ولكن المكتوبجى رفض الا بعد ان استبدل كلمة أمير المؤمنين بالحاكم وكذلك الخليفة والاعرابى يغير اسمه الى الرجل وحذف اسم المأمون من كل القصة واستبداله بأحد الحكام •

وفى بعض الأحيان كان بعض الصحفيين يلجأون الى نشر « كلام فارغ » ليضحكوا القراء على المكتوبجى وفهمه لما ينشرونه •• نشر أحدهم مقالة سياسية تحت عنوان « الأحوال الحاضرة » وقد جاء فيها : عم السلم الأرض وقام الملوك والوزراء يعلنون مقاصدهم السلمية فذهب حشبمتلو

الامبراطور كارنو قيصر روسيا الى أمريكا والقى هناك خطبة لا تختلف عن تلك الخطبة التى القاها المستر بسمارك رئيس وزراء انكلترا فى شيلى ثم عقد التحالف مع حضرة الامبراطورة أوجينى ملكة فرنسا والارشيدوق رودلف امبراطور البرازيل على ضم امبراطورية سويسرا الى جمهورية المانيا والاتفاق على مد خط حديدى تحت بحر البلطيق يساعد على تسهيل التجارة بين أفريقية والقوقاس ٠٠ وهكذا فالعالم السياسى اليوم فى راحة تامة ، وقد ذيلت المقالة مع كلمة « كور لمشور » وطبعت فى لسان الحال وانتشرت المقالة بين الناس ٠ والمعروف ان بسمارك لا علاقة له بوزارة انكلترا ، وكانت الامبراطورة أوجينى منفية من بلادها ، والامبراطورية ملغاة من فرنسا ، والأرشيدوق رودلف كان قد مات منتحرا والبرازيل صارت جمهورية وسويسرا جمهورية والمانيا امبراطورية ٠

★★★

ومرة عندما توفيت زوجة يوسف بك مطران فى القاهرة ، وصفت لسان الحال المأساة ببيتين من الشعر هما :

لابد من فقد ، ومن فائته فليس بين الناس من خالد
كن المعزى ، لا المعزى به ان كان لابد من الواحد

وحذف المكتوبجى كلمة « خالد » لأن والى بيروت اسمه خالد ، ولا يجوز ايراد اسمه فى سبيل الحزن والتعزية ووضع المكتوبجى كلمة « كائد » بدلا من « خالد » ٠

وقد استشهد أحد الشعراء ببيت للشاعر الأخرس قال فيه :

وان الليالى لم تزل بورودها تسل علينا بالأهلة خنجرا

ولكن المكتوبجى لم تعجبه كلمة « خنجر » فحذفها واستبدلها بكلمة «تكدرا » ٠

وطبع يوسف أفندى حرفوش كتابا فى الأمثال باللغتين الفرنساوية والعربية ومن بينهما المثل المعروف « الحركة فيها بركة » وأمر المكتوبجى بشطب هذا المثل لأن لفظ « الحركة » يفيد « الثورة » ٠

وأقفل القوس ٠٠ بعد ان كاد الحديث عن الرقابة والمكتوبجى فى الأيام الأخيرة للدولة العثمانية يكاد يطول ٠٠ !!

على أن معظم ما جاء فى هذه الكلمة عن مجلة المشير التى كان يصدرها الصحفى اللبنانى سليم سركيس فى (سبتمبر ١٩٠٨) ٠

وقد كنت باستمرار تواقا ، الى معرفة الرأى الآخر ، الذى يعبر عن وجهة نظر السلطان عبد الحميد الهدف الأكبر لكل تلك الحملات الضارية التى استمرت سنين طويلة ، حتى تكتمل الصورة وحتى يصبح الرأى والرأى الآخر معا فى دفة كتاب واحد ، الى ان وقعت فى يدى مذكرات السلطان عبد الحميد التى ترجمها د· محمد حرب والتى نشرها فى سلسلة كتاب الهلال (أكتوبر ١٩٨٥) وقد قدم د· حرب كتابه بقوله : ان دعاة القومية العربية ، يعتبرون عبد الحميد رمزا للقضية الديكتاتورية وان القوميين الأتراك يدينون عبد الحميد لأنه اهتم بالعرب اهتماما فاق اهتمامه بالأتراك ، وهنا ضرب ــ المترجم ــ مثالا واحدا وهو أن أول برقية تهديد للجيش الذى زحف لاسقاط عبد الحميد كانت من العرب وبالذات من شريف مكة ولم يهدأ الشريف الا عندما خدعه قائد الجيش المذكور ببرقية قال له فيها : اننا نزحف على استانبول لحماية السلطان عبد الحميد ·

***

وعلى الساحة الفلسطينية نجد أن الفلسطينيين يذكرون السلطان عبد الحميد الثانى بكل تقدير وبكل احترام ، ذلك لأنه حمى بلادهم ، ولم يفرط فيها فهى فى نظره الأرض المقدسة التى ينبغى أن يحميها كخليفة للمسلمين · كذلك اليهود أبغضوه بعد ان حاولوا تقديم مساعداتهم المالية له · وعلى الساحة اليهودية لا يخلو كتاب يهودى من ادانة عبد الحميد بأنه عرقل الفكرة الصهيونية ، وعندما فشلوا فى اقناعه أيدوا معارضيه سواء من العثمانيين أنفسهم : الاتحاد والترقى ومن شابههم ·

وأيدوا المحافل الماسونية فى الجيش العثمانى وفى الدولة · «وأقاموا» فى أوروبا قيامة الصحافة حتى جعلوا من عبد الحميد السلطان الذى ينفر منه المثقفون الآن ·· !!

ونشير ــ اجمالا ــ الى بعض ما جاء فى مذكرات السلطان عبد الحميد من أنه أصدر فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٩٠ وفى ٧ يوليو من نفس العام ارادتين سلطانيتين بعدم قبول الصهاينة فى الممالك الشاهانية (الأراضى العثمانية) واعادتهم الى الأماكن التى جاءوا منها ·

وأبلغ عبد الحميد أوامره الى نظارة الشئون العقارية بعدم بيع أراضى للمهاجرين الى فلسطين ·· !!

ويقول السلطان فى مذكراته ، أنه كان مشفقا على الأدباء الذين هاجموه ، وأنه لو كان عدوا للأدب لكان قد منع عن نامق كمال بك راتبه الذى كان يدفعه له من جيبه الخاص حتى يوم وفاته ·

« ولما كنت أوظف ابنه في الحكومة ، ولو كنت عدوا للأدب ولفن التاريخ لما تحملت صفاقة مراد بك (المؤرخ) الذى عمل فترة ضد تاجى وضد عرشى ·

ولما رحبت بأن يبقى فى خدمة الدولة فى آخر لحظة لى فى سلطنتى وبمرتب مريح » ·

***

ويقول ان الذين أقصوه عن الحكم لم يعملوا حتى عشر ما عمله ، وان الديون فى عهده هبطت الى ٣٠ مليون ليرة من ٣٠٠ مليون ليرة ·

وعن مدحت باشا يقول السلطان : أنه وال جيد وسياسى فاشل ، وان مدحت باشا ينادى بالديمقراطية ولكنه ــ فى الحقيقة ــ مستبد ، وأن الأحرار بقيادة مدحت باشا كانوا يدمنون الخمر ، ويعربدون ·

ويذكر عن مدحت باشا أنه بعد أن سكر سأل زوج أخته طوسون باشا : يا باشا ·· من يستطيع الآن بعد ما وصلت اليه ان يبعدنى عن منصبى ؟ من ، قل لى ؟ كم عاما سأظل فى الصدارة العظمى ؟ وان طوسون باشا رد قائلا وهو يدفع مدحت دفعا الى جناح الحريم : اذا بقيتم على هذا الحال فليس أكثر من أسبوع » ·

وقد بلغنى ــ السلطان ــ هذه الواقعــة فى نفس الليلة من أحد « الأحرار » الذين كانوا مشاركين فى تلك السهرة الحمراء ·

***

ويثير السلطان الشكوك ضد مدحت باشا فيقول : ان أجانب حاولوا تهريب مدحت باشا من الطائف الى مصر وأن بارجة انجليزية فى البحر الأحمر كانت متأهبة للمشاركة فى عملية التهريب تلك ·

ويقول السلطان أنه فى احدى السهرات بمنزل مدحت باشا حيث كان حاضرا كمال بك وضياء بك ورشدى باشا وآخرين من رفاقهم يعاقرون الخمر · قال مدحت باشا : ليس فى الأسرة العثمانية الملكية خير يرجى ولم يبــق الا الانتجاء نحو الجمهــورية ، ترى : كيف هذا ؟ · ان عدة أشخاص مثلكم يفهمون المسألة الآتية : يوجد فى العالم حتى الآن ما يسمى بآل عثمان · ماذا يحدث لو ظهر ما يسمى بآل مدحت ؟ · !!

وقد علمت ــ السلطان ــ بهذا من أحد الذين حضروا هذه الجلسة ·

ويقول السلطان « ان مدحت باشا ماسونى ، وقد احتجت انجلترا على عزلى لمدحت باشا » ·

. ويقول السلطان أنه عندما تقرر محاكمة مدحت باشا لاشتراكه فى قتل عمى فوجئت بمدحت باشا يتصرف تصرفا يظهره كمجرد رابط الجأش .

لقد إتجه مباشرة الى القنصلية الانجليزية ليحتمى بها .

ووجد أن القنصلية فى عطلة ، فلجأ الى القنصلية الفرنسية واحتمى بها .

ولم يكن هناك ثمة دليل أكثر ادانة . فان وزير عثمانيا وواليا يفكر فى اللجوء الى سفارة أجنبية ، خوفا من أن يمثل أمام المحكمة لدليل واضح ووثيقة أكيدة تدمغه تماما .

هذه الحادثة أحنت رأس العثمانى أمام الصديق وأمام العدو .

وقد اغتممت نفسى وأحسست بالمهانة عندما علمت بهذه الحادثة ذلك لأن هذا التصرف الذى أقدم عليه أثقل وطئا من الجريمة المدعى عليه فيها .. انه تصرف لا يمكن الصفح عنه .

ومع ذلك خففت حكم الاعدام على مدحت باشا بعد أن ثبت اشتراكه فى قتل عمى السلطان عبد العزيز .

ولكننى لا أستطيع العفو عن وزير وصدر أعظم عثمانى يتعاون مع دولة أجنبية .

لابد أن موقفه أثناء القبض عليه ورغبته فى اللجوء الى القنصلية الانجليزية ، جعلاه يفصح بوضوح عمن يثق به ، وعمن يخونه ، ومع كل هذا تذكرت خدماته التى قدمها للدولة أثناء كان واليا وخففت حكم الاعدام الصادر ضده الى السجن » .

★★★

ويذكر السلطان ان الشاعر نامق كمال كان على علاقة طيبة به وأنه ـ نامق كمال ـ نقل اليه ما قاله مدحت باشا ذات ليلة . ماذا يحدث لو حل آل مدحت محل آل عثمان .

وأن نامق كمال كان يخشى من القانون الأساسى ومن تشكيل مجلس المبعوثان من عناصر مختلفة .

وقد دعانى الى اليقظة من أخطار هذا القانون الأساسى بالصورة التى انتهى اليها .

ويقول السلطان : ان نفيه لكمال لم يكن للاساءة الى قلمه ووطنيته . وانما خوفا من أن يشترك فى أعمال توجب توقيع أنواع من العقاب أكثر فعلا عليه .

لقد نفيته الى (باغوســا) لكن محبتى له لم تنتقص فى يوم من الأيام ·

ليكن فى أى مكان ، لكنه هو وأسرته ، كانوا يعيشون مرفهين ·

والخطابات التى أرسلها لى تعبر عن امتنانه وشكره وهى محفوظة بين أوراق يلدز ·

لقد كان كمال نامق انسانا وطنيا ·

كان يرى ان بقاء الملك فوق كل شىء ·

ولقد ساعدت المعارضين ·

بذلت ـ مثلا ـ مســاعدات مادية كبيرة لهم بحجة شراء صــحفهم وأغمضت عينى عن ارسال بعض الأشخاص نقودا اليهم لكى لا يكونوا أداة للأجانب ·

وكنت أقول ان معارضتهم ـ رغم خطئها ـ فانهــا يجب ان تظل شريفــة ·

***

ويطيل السلطان عبد الحميد فى الحديث عن التآمر الأوروبى ضده : فقد وجهوا الى اللوم لأننى قصرت فى مشكلتى تونس ومصر ·

ولكنى ـ فى الواقع ـ كنت ضد الحرب ، ولو كنت اندفعت للمقاومة فى تونس فربما تسببت فى ضياع سورية ، ولو وقفت بعتاد فى مصر ، لكنت بالتأكيد فقدت فلسطين والعراق ·

ويقول ان الانجليز كانوا دائمــا أعداءه وأن سر عسكرى (وزير الحربية ـ السر عسكر) عونى باشا قد أخذ من الانجليز أموالا ·· « ان رجلا من رجال الدولة يأخذ أموالا من دولة أخرى ، لابد وان يكون قد قدم لها خدمات : معنى هذا أيضا أن خلع المرحوم عمى السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد العرش بدله ، لم يكن حقدا فقط من حسين عونى باشا ولكنه مرضاة لدولة أخرى أيضا ·

لقد أخبرنى سفيرنا فى لندن موسوروس باشا أن حسين عونى باشا تقاضى مالا كثيرا من يد أجنبية فى انجلترا ، ولم يعلم سفيرنا بهذا الا فى وقت متأخر جدا ·

وعندما وصل الى الخبر كان حسين عونى باشا قد مات ·· ولكن مسألة أن قائدا عثمانيا يقبل نقودا من دولة أجنبية عمل لا يستهان به ؛

لم يهزني ـ السلطان عبد الحميد ـ شيء في حياتي هزا ضخما قدر شخص يرتفع الى مقام قيادة الجيش أو الى مقام الصدارة ، ويقبل نقودا من دولة أجنبية ٠

هذا شيء أكثر من أن احتمله ٠

مدحت باشا مثل حسين عوني أتبع سياسة مؤيدة للانجليز ولكن واضح للعيان ان للانجليز يدا في عزل عمي السلطان عبد العزيز خان ٠

وان كان ليس عندى دليل على اتهام مدحت باشا ٠

ويقول السلطان : ان أعدائي من تركيا الفتاة كلهم من أعضاء المحفل الماسوني الانجليزى وكانوا يتلقون ـ بعد تحقيقات دقيقة أجريتها ـ معونة مادية من هذا المحفل ٠

★★★

لقد سادت لديهم رغبة في اسقاطي من فوق عرشي وتنصيب أخي مراد مرة أخرى ، هل لأن أخي السلطان مراد كان مثلهم ماسونيا ٠٠ ؟ أم لأن التفكير أفضى بهم الى أن أخي مراد يمكن أن يكون آلة في أيديهم ينفذ كل شيء ٠

ولقد أثارت انجلترا مسألة الأرمن لابعاد الرأى العام عن أعمال تدخلها في مصر ٠

وكانت ـ انجلترا ـ تعمل جاهدة على تركيز انتباه العالم على تركيا ٠

وقد وقفت الصحف الأوربية كلها ضدى بشكل دائم ٠٠٠٠٠ هاجمتني ٠٠ لقبتني بالسلطان الأحمر ٠

وألبت الرأى العام العالمي ضدى ٠

ولم أدهش لهيام الأرمن بحب الاستقلال وخاصة بعد معرفة اثارة الدول الكبرى لهم بلا توقف ٠

لكنني اندهشت لأن بعض أفراد تركيا الفتاة الذين هربوا الى أوروبا وأصدروا هناك صحفا ضدى كانوا يتعاونون مع أعضاء المنظمات والجمعيات الأرمنية ٠

كما دهشت لأنهم كانوا يأخذون منهم أموالا ٠ كانوا يقولون أنهم يريدون انقاذ الدولة العثمانية من التمزق ٠

ثم يتعاونون مع الذين يعملون على تفتيت الدولة ، ويتعاهدون معهم ٠

انهم لم يهدموا عبد الحميد وانما هدموا الدولة العثمانية » .

وبعبارة صريحة وواضحة يقول السلطان عبد الحميد ـ وهذا كلام يجب أن يكون موضع دراسة متأنيـــة ـ كم هو أمر غريب أن يصل العثمـانيون الجـدد الذين هربوا الى أوروبا الى مرامهم باسـقاط عمى عبد العزيز خان . سقط عبد العزيز خان ، وقامت من بعده فورا الحرب الروسية العثمانية ١٩٠٣ فاخذت نصف منطقة الروملي .

ومثلهم تماما الأتراك الشبان ـ تركيا الفتاة ـ الذين هربوا الى أوروبا لاسقاطي ووصلوا الى مبتغاهم باسقاطي ثم دخلوا الحرب العـامة فاضاعوا الامبراطورية العثمانية .

كل من الفريقين تعلم داخل البلاد .

كل من الفريقين كان ـ أيضا ـ معجبا بالغرب .

كل من الفريقين كان يرى الخلاص الوحيد للبلاد يتركز في المشروطية (القانون الأساسي) .

كل من الفريقين اتخذ جزءا من الجيش العثماني لتحقيق آماله الذى اعتمد عليه كل من الفريقين ، فتمزقت الأوصال من الداخل .

نعم كم هو نجل غريب جدا أنني عشت أحداث الحادثتين : جربت بالصبر ما لم يستطع عمي عمله بالغضب وعملت أنا على الصفح والعفو ، فيما لم يستطع عمي النجاح فيه بالعقاب .

★★★

انظر الى أمر أكثر غـرابة : العثمانيون الجدد ، وتركيـا الفتاة ، كانوا يؤازرون جميعهم الدول الكبرى التي ترغب في تمزيق أوصال الدولة العثمانية وتفتيتها ، كان هؤلاء الشباب أمل الدول الكبرى ، لو نفذوا ما تشاؤه هذه الدول فان في هذا خلاص الدولة العثمانية ، واذا لم تكن آذانهم صاغية لأقوالهم فان في هذا زوال الدولة العثمانية . وفي المرتين انهزمنا مع أننا نفذنا ما أرادوه ، فعلنا ما قالوه ، فهل تفتحت بعد كل هذا أعين الذين يعيشون في آخر حفنة من تراب الوطن .. ؟ أرجو الله هذا . أولادي .. هم هؤلاء الذين أعدهم الوطن وقد جابوا هذا العالم الكبير فكيف لم يفطنوا الى الحقيقة التي رأيتها وأنا في قصري بين أربعـة جدران .

ويقول السلطان عبد الحميد : ان الانجليز والفرنسيين والروس وحتى الألمان والنمسويين ـ أي كل الدول الأوربيـة الكبرى ـ وجدت

مصلحتها فى تقسيم الدولة العثمانية وتفتيتها ، والمشاهد أن هذه الدول الكبرى تنهش فى بعضها البعض لكنهـا سرعان ما تتفق وتتحالف اذا ما تعلق الأمر بمقاتلة العثمانيين ·

ويعود السلطان الى حكاية المحافل الماسونية ، فيقول : رأيت خطابا تسلمه احمد جلال الدين باشا من على كمال بك فى مصر يذكر فيه أسماء ومصادر التمويل اسما اسما ·

وفى هـــذا الخطاب يذكر ان الدكتور عبد الله جودت ، والدكتور اسحاق سكوتى ، والدكتور بهاء الدين شاكر ، والدكتور ناظم ، والدكتور ابراهيم تيموا ينتسبون الى المحافل الماسونية الفرنسية والايطالية ، وان هذا المحافل تسلم عائلات الثوار ضدى الموجودة داخل البلاد النقود يدا بيـد » ·

هذا ما كتبه على كمال بك وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات ان الماسونية جعلت من المتسكعين اعلاما ·

ثم يقول السلطان · سيقولون لى : أنت تعلم كل هذا ، ومع ذلك لم تتصـــد له ، ولم تمنعه ، لمـاذا أغمضـت عينسك عن خراب الدولة وانهيارها ·· حاشا :

ليست المسألة مسألة اغماض عين ، لقد كنت يقظا فى كل لحظة ولكننى لم أكن أستطيع منع هذا ·

وكنت وحـدى بمفردى ، وكان معهم كل عالم العدو ·· لم تكن طبيعتى وظروفى تساعدنى الا بهذا القدر ·

يديننى أصدقائى بأننى متساهل ، أما أعدائى فيقولون أنى ظالم غدار ·· والجانبان مخطئان فلا أنا كنت السلطان سليم الأول ، ولا بلاد السلطان سليم الأول كانت تحت امرتى ·· الاطاحة فورا بعدة رؤوس كلام من السهل قوله ·· من الصعب تنفيذه ، وكل رأس انسان تفتح أمام الانسان هوة ·

ولو استطاعت أن تملأ هذه الهوة فسيخافون منك وتستطيع عندها أن تهدد ، وكل ما تهدد به سينفذ ·

وفى حالة عدم تنفيذ هذه الهوة فليس هناك شىء يمكن عمله ·

وأنا انسان رحيم منذ ميلادى ولكننى أعلم ان الدولة لا يمكن ان تدار بالرحمة ·

اديت واجبى ، سعيت وراء الصالح .

حرصت على الا أؤذى الأهالى .

عارضت سفك الدماء فى كل مكان .

ولكن عبثا ما فعلته .. ليس ما قدمته لأعضاء تركيا الفتاة شفقة فبلادى مثلا أصبحت ضحية لغفلة هؤلاء الأتراك الشبان ، وانها لغفلة لا يمكن الصفح عنها .

ويقول السلطان عن جمال الدين الأفغانى أنه مهرج وعميل للانجليز ، وكان هو وبلبينت يعملان على أقصاء الخلافة عن الأتراك .

واقترحا على الانجليز اعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين .

ويقول : كنت أعرف جمال الدين الأفغانى وقد اقترح على ان يثير جميع مسلمى آسيا الوسطى .

وكنت أعرف أنه قادر على هذا وكان رجل الانجليز .

ومن المحتمل جدا أن يكون الانجليز قد أعدوا هذا الرجل لاختبارى وقد استدعيته عن طريق أبى الهدى العبادى الحلبى .

وعندما جاء الى استانبول لم أسمح له مرة أخرى بالخروج منها .

ومن بين ما كان يحرص عليه السلطان ، أن جنديا شريفا ارتقى فى مناصب الدولة الى رتبة الباشا لا يصح أبدا ان يقبض عليه وتقيد يداه مهما كان ذنبه طالما أنه لم يخن بلده ، ولم يتعاون مع العدو ، أو يحرض الجيش على الفرار .

ويقول أنه كان كالبستانى ، يحمى أزهاره من الحشرات الضارة .

ولقد قمت بحماية شعبى من الأفكار التافهة . وينفى السلطان عبد الحميد تدخله فى أحداث ٣١ مارس ويؤكد أنه رفض ايقاف الجيش الزاحف لاسقاطه وأكد أنصاره أنه كان سيتنازل عن العرش بمحض ارادته .. « لم أرغب فى أن أريق دماء جنودى ، كنت أرى أن الأمة لم تعد تثق بى ، وكنت سأنسحب من تلقاء نفسى وأدع مكانى عندما تسكن الأمور وتهدأ » .

ولكن .. ماذا قال السلطان عبد الحميد عن آخر أيامه في قصر يلدز : لعلها المرة الأولى التي نسمع فيها رواية السلطان نفسه عما حدث له : منذ أن وقع حادث ٣١ مارس بدأ القلق يساورني من الخلع ويزعجني كثيرا ، الا أنه من الغريب أن الفترة من ٣١ مارس الى اليوم الذي صدر فيه قرار المجلس القومي هي أكثر الأيام هدوءا واطمئنانا بالنسبة لي لأنني كنت واثقا من تصرفاتي .

هدمت جمعية الاتحاد والترقي نفوذ الحكومة في نظر الشعب ، وهدمت حادثة ٣١ مارس أيضا قوة الجمعية ولو لم أكن قد أحسنت استعمال مقام الخلافة ونفوذ السلطة لكان الدم يسيل مدرارا سواء في استانبول أو في الولايات .

صور أعدائي وكأنني طلبت من النمسا أن تحميني شخصيا وتحمي استمرار سلطتي .

كما صوروا الأمر وكأنني قدمت تنازلات للنمسا في مسائل أخرى غير مسألة البوسنة والهرسك .

اني أرفض بكل اشمئزاز هذه الفرية ، فانني لم أقدم حتى أطلب لنفسي حماية دولة وأشخاص أجنبية .

وقد كان بامكاني ان أمنع قرار عزلي قبل اصداره . ولكن لم أتوق لهـذا .

كنت أستطيع الفرار حتى الساعة الأخيرة ، فلو كنت سافرت الى أوروبا مدة من الزمن لكنت أعود مرة أخرى قبل أن يمر وقت طويل وفي الوقت الذي أعرف فيه هذا ، لم أنحط ولم أتدن الى درجة الفرار .

ثرت جدا بالطريقة التي أبلغوني فيها قرار خلعي أكثر من الخلع نفسه .

فقد انتخبوا وفدا من الأعيان ، والمبعوثان جاءوا بضجة وضجيج حتى وصلوا الى غرفتي ... واجهني أحدهم بتصرف قبيح غير مهذب وهو تيرانلي أسعد باشا وقال لي : عزلتك الأمة . لقد كانوا في غاية السفالة عندما واجهوني بكلمة العزل في الوقت الذي كان لابد ان يضعوا بدلا منها كلمة الخلع . (وفي المصطلح العثماني .. الخلع للسلاطين ، العزل للموظفين) مسكينة هذه الأمة أو لو تعلم النتيجة التي تنتظرها .. !!

ويقول السلطان عبد الحميد أنه وجه كلامه لعارف حكمت باشا ــ من الوفد ــ قائلا : انني أنحني للشريعة ولقرار مجلس المبعوثان .

انى مستريح الضمير ، وانما أريد أن يكون معلوما جيدا أنه لم يكن لى أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالأحداث التى تفجرت فى ٣١ مارس وعلى أمتى أن تبحث عن هؤلاء الذين كانوا السبب فى هذه الأحداث وعليها أن تحاسبهم ٠

ويعبر السلطان عن آخر رغباته بأن يسمح له بقضاء أواخر أيامه مع أولاده فى قصر جراغانه الذى أقام فيه أخاه السلطان مراد ٠

اضمنوا لى هذا الأمر ، وغدا أعبر الحديقة واقيم فى دائرتى وقال عارف حكمت باشا : ان هذا الأمر خارج عن صلاحيات الوفد وسيعرض رغبته الشاهانية على المجلس ٠

وطلب السلطان من على جواد كبير الأمناء متابعة الأمر وأخباره بالنتيجة ، كما يقول أن ابنه عبد الرحيم كان بجواره يبكى ، والصراخ يعلو من ناحية مكان الحريم ٠

وكانت أصوات الجنود قادمة من فناء القصر ، كما كانت أصوات المدافع آتية من خارج القصر ، وهى تعلن مراسم جلوس السلطان الجديد محمد رشاد ٠

وكان أولادى وبناتى والمرافقين يدخلون ويخرجون من عندى ، وكل منهم يتحدث حديثا مختلفا أو يبكى أو يواسينى ، وكنت أعرف ان هذا عيب ، ومع هذا كنت أعمل بكل جهدى على مواساتهم ٠

وأخيرا أبلغنى على جواد بك أننى سأقيم فى قصر صغير فى سلانيك ٠

ويكرر السلطان آخر رغباته دون جدوى ويقول السلطان فى سخرية بالغة : كان كبير أمنائى يحاول أن يبدو عذب المظهر تجاه أصحاب السلطة الجدد حتى لا يفقد سلطته ٠

وقد جاء بعد برهة ليخبرنى بصوت عال هذه المرة : انت مجبر على الذهاب الى سلانيك ، وأن وفدا برئاسة الفريق حسنى باشا ينتظرنى كى يخرجنى من القصر ٠

وطلب السلطان أن يدخل الوفد فملأ الغرفة بضجيجه ٠

وكرر السلطان رغبته الأخيرة ، ولكن حسنى باشا أكد للسلطان ان المجلس يرى أنه من المحظور اقامته فى استانبول ٠

وأنه يمكنه اصطحاب من يريد من أفراد عائلته ٠

وان سلامة حياته وحياة كل من اصطحبه معه يكفلها الجيش الذى تعهد بشرفه على هذا .

ثم قال حسنى باشا مخاطبا السلطان : يا جلالة السلطان : اذا لم تقتنع جلالتكم بكلامى هذا ، فتفضل ها هو ذا مسدسى أقدمه لك وسأجلس أمامكم تماما فى العربة طوال الطريق .

واذا أحسستم جلالتكم بذرة من عـدم الأمن فاقتلنى ووجدت ـ السلطان ـ الا فائدة من التشبث بالاقامة فى استانبول حتى لا يرتابون فى ، لم أتفوه بشيء آخر ثم قلت : حسنا . وخرجنا فقط بما علينا من ملابس فلم يكن هناك وقت يسمح لنا بأخذ أشياء معنا .

وتقول الأميرة شادية ـ ابنة السلطان ـ وقد عاصرت تلك الأحداث : عندما قال جواد بك لوالدى السلطان لماذا لم تفكر فى كل هذه المصائب من قبل ؟ أجابه والدى بقوله : الله المستعان فى وقت المحنة .

واغرورقت ـ فى نفس هذه اللحظة ـ عينا والدى بالدموع ، لحظتها لو أدخل أحدهم خنجرا فى قلبى ما كنت أحس به من فرط الحزن والذهول.

وعندما أحاط الجنود المسلحون بالمكان أخبرونا بضرورة الاسراع فى الركوب .

لم يكن والدى راغبا الكلام ، وعندما تكلم قال : يا أولاد أقيموا مع أمهاتكم .

فاطمة فقط هى التى ستأتى معى لأن ليس لديها أطفال .

وتوجهت شادية لتقول لوالدها : سيدى ووالدى . اننى أعتذر فانى لن أستطيع تنفيذ أمرك هذا فى هذه اللحظة .

اننى يا سيدى استودعت الله أمى .

وأنا لا أريد شيئا الا أن أكون بجوارك حتى آخر لحظة من عمرى .

سأكون بجوارك يا أبى مهما كان المقدر علينا .

قلت ـ شادية ـ هذا لجلالته وأسرعت الى احدى العربتين المنتظرتين لنقل السلطان الى منفاه .

وتركت ـ شادية ـ قصر يلدز ـ فى الظلام ، والظلام كان يسود القصر منذ أسبوع قطعوا فيه التيار عنا وعن القصر .

وركبنا القطار الى محطة سيركجى ونحن برفقة الضباط ٠

وكان أبى لا يبدو عليه أى اضطراب وكدر وعندما نظر الى قال : كل ما يشغلنى ينبع من التفكير فى احتمال تعرض البنات والفتيات فى القصر للاعتداء عليهن أما عنى فلا قيمة لحياتى ٠

لقد قدم أجدادي خدمات جليلة للدولة وللأمة ومع ذلك كانت نهاياتهم مفجعة ٠

وأدركت ـ شادية ـ فى تلك اللحظة ولأول مرة فى حياتى كم كان والدى عظيما قويا صبورا ٠

ثم أيقظونا فى منتصف الليل وأنزلونا الى أرض فضاء فى ضوء مصابيح اليد وأخذوا بأيدينا حتى نستطيع النزول من القطار ٠

وسرنا بين أعشاب طويلة وصل بعضها الى ركبنا حتى وصلنا الى مكان فيه عربات تنتظرنا ٠

وركبنا وسارت الرحلة بنا بين الموت والحياة ٠

وكان أخى الصغير فى منتصف عامه الثالث وكان يبكى جوعا وكلما بكى وضعت له امه بعض نقاط ماء حملته معها ٠

ووقفنا أمام باب كبير وقال لنا فتحى بك أوقيار رئيس حراستنا ان هذا هو قصر الأنيبى الذى ستقيمون به ٠

ولم يكن بالقصر سوى مائدة وبعض كراسى موجودة فى قاعة الطعام وقد اختار أبى غرفة فى الدور الأول وكان يضع كرسيين متجاورين ويتخذ منهما سريره ٠

وخوفا من أن يستولى الهم والحزن على والدى اتجهت نحوه وضحكت متظاهرة بأنى فرحة ٠

وقبلنى فى خدى وقال لى : يا بنيتى اذا لاحظت أننى أفكر فلا تظنى أنى حزين ولا تنزعجى ٠٠ من سيخلد فى الدنيا ٠٠ ان الموت هو عاقبتنا جميعا ٠٠ !!

وأقمنا جميعا فى الغرفة المجاورة لغرفة أبى وظلت الغرفة الأخرى خاوية ، وأصبح من المفهوم أننا نخضع لنظام اعتقال فى سجن ٠

لم يكن فى القصر ـ مثلا ـ صابون ، وكنا نستخدم ما كان يستخدمه أصحاب القصر من صابون ٠

وكانت المياه قذرة ، ولم يكن مسموحا لنا بأن نفتح شيش النوافذ ٠

ولذلك كنا محرومين من الشمس والهواء ، وكنت أخلع ملابسى التى أرتديها ثم أغسلها وأنتظر عارية حتى تجف لكى ألبسها ٠

وكذلك كان الآخرون يفعلون نفس الشيء ٠

والجدير بالذكر ان الذين قرروا عزل السلطان عبد الحميد حرصوا على أن يكون من بين أعضاء الوفد الذى سيبلغ السلطان قرار العزل أحد اليهود ــ نائب سالانيك ــ كما أنهم حرصوا على أن يعتقل السلطان فى قصر أحد اليهود ــ فى سالانيك ، وهو قصر الأتينى الذى سبق الاشارة اليـــه ٠

آخر ما اتخذه الجيش الثالث من اجراءات ضد السلطان عبد الحميد أنهم أجبروه على ان يتنازل عن أمواله فى المصارف الأوربية ٠

وتحت الضغط وقع على التنــازل ، ولكن مديرى تلك البنوك لم يقتنعوا بهذا التوكيل فجاءوا الى السلطان عبد الحميد ــ فى قصر الأتينى ــ ومعهم الأموال كلها فى عديد من الحقائب طالبين ان يتسلمها على انفراد ٠

وبعد أن يتسلمها ، يسلمها لمن يريد تسليمها اياه ٠

وبعد أن تسلم السلطان عبد الحميد الحقائب قام بتسليمها لمبعوثى الجيش الثانى والثالث ٠

وأقول ان ما جاء بمذكرات السلطان عبد الحميد وبمذكرات ابنته شادية قد أذهلنى الى حد كبير فلم أكن أتــوقع ، أن يعامل الســلطان عبد الحميد ٠٠ وشقيقه لا يزال متربعا على عرش الخلافة ، بمثل هـــذه الدرجة من القسوة والعنف ٠

ولم أكن أتصور ــ مجرد تصور ــ أن الأحرار الجدد الذين رفعوا ــ كما قالوا ــ رايات الحرية ، وثاروا كما قالوا على الفساد والظلم يمكن أن ينزلوا الى هذه الدرجة من البغى والطغيان ٠

لقد كان بامكانهم ان يحاكموا ذلك السلطان ٠

وكان بامكانهم ــ لو شاءوا ــ أن يعدموه ٠

وقد كان البعض يجد لهم العذر لو أنهم لجأوا الى تلك الطريقة التى يلجأ اليها كل من نجح فى أحداث انقلاب أو ثورة ٠

أما ان يعاملوا هذا الشيخ الكهل بمثل تلك الدرجة من الفظاعة والاجرام ٠

أما ان يعاملوا أهله ومنهم فتيات وأطفال صغار ـ لم يرتكبوا اثما ولم يقترفوا جريمة ـ كما يعامل عتاة المجرمين ٠٠٠٠ فأمر غريب حقا لا يتفق أبدا والشعارات التى رفعوها ٠

ونتهى الحديث فى هذا الموضوع الحيوى الهام بما جاء فى كتاب « موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية » لمؤلفه الأستاذ حسان على حلاق والذى أذاع فيه بعض الوثائق الجديدة الخاصة بدور الصهيونية والماسونية فى خلع السلطان عبد الحميد الثانى والذى استعان فيه بالعديد من المؤلفات العربية الهامة التى تناولت هذا الموضوع ، وخاصة « حول الصهيونية واسرائيل » (هانى الهندى) ، « تاريخ سوريا ، ولبنان وفلسطين » (فيليب متى) « الدولة العثمانية والشرق العربى » (د٠ محمد أنيس) « سورية والعهد العثمانى » (يوسف الحكيم) « الاسلام وبنو اسرائيل » (جواد رفعت تلخان) « الانقلاب العثمانى وتركيا الفتاة » (روحى بك الخالدى المقدسى) وكان حسان على حلاق ، قد خصص الفصل الخامس من كتابه من دور اليهود فى خلع السلطان عبد الحميد الثانى ، مشيرا فى البداية الى رفض السلطان عبد الحميد اعطاء أية امتيازات خوفا من خطر الصهيونية ٠

وقد كان السلطان عبد الحميد قد عبر عن أسباب رفضه اعطاء اليهود أية امتيازات فى فلسطين أو فى أى جزء آخر من الدولة العثمانية قائلا : ان دولا أوروبية كثيرا ما أرادت التخلص من اليهود وأيدت هجرتهم الى فلسطين ولكن فى دولتنا عدد كبير من اليهود فاذا كنا نريد أن يستمر العنصر العربى الاسلامى متفوقا فى فلسطين يجب ألا نسمح بهجرة اليهود اليها واذا كان الأمر عكس ذلك وسمحنا بالهجرة فانهم بعد فترة قصيرة ، يسيطرون على الحكم ، وتصبح فلسطين تحت سيطرتهم ونكون بذلك قد قضينا بأيدينا على عنصر ديننا بالموت الأكيد !!

ان الصهيونية لا تريد أراضى زراعية فى فلسطين لممارسة الزراعة فحسب ، ولكنها تريد أن تقيم حكومة ، ويصبح لها ممثلون فى الخارج ٠ اننى أعلم أطماعهم جيدا ، واننى أعرض هذه السفالة Saflik لأنهم يظنوننى انى لا أعرف نواياهم أو سأقبل بمحاولاتهم ٠ وليعلموا أن كل فرد فى أمبراطوريتنا كم يكن لليهود من الكراهية طالما هذه نواياهم ، وأن الباب العالى ينظر اليهم مثل هذه النظرة ٠ واننى أخبرهم أن عليهم أن يستبعدوا فكرة انشاء دولة فى فلسطين لأننى لازلت أكبر أعدائم ٠

وكان من الأسباب التى أدت الى رفض السلطان عبد الحميد اعطاء أية امتيازات لليهود تجنب اثارة العرب من جهة ولتجربته مع الأقليات اذ هو لا يريد ـ هانى الهندى ـ أقلية جديدة تتعبه وعندما تيقن زعماء الصهيونية من اصرار السلطان على رفض اعطاء أية امتيازات لليهود اتجهوا الى الدول الأوروبية الكبرى علها تساعدهم فى تحقيق أهدافهم وفى الفترة التى اظهرت الصهيونية عداونها للموقف العثمانى ظهرت نقمة يهود الدولة العثمانية على السلطان عبد الحميد فاستغلوا كل خلل فى الدولة للاستفادة منه ورأت الصهيونية العالمية مع بعض الدول الأوروبية وبالاتفاق مع يهود الدونمة حتمية انهاء حكم السلطان عبد الحميد لأن اطماع الصهيونية فى فلسطين لا يمكن تحقيقها طالما بقى فى الحكم .

وقد لعبت ـ حسان على حلاق ـ المحافل الماسونية مع يهود الدونمة دورا مؤثرا فى التخطيط لخلع السلطان وكانت بمثابة العقل المدبر كما كانت الدول الأجنبية بمثابة الممول لأنه كان لها نفوذ كبير فى أوساط الباب العالى وبين الأتراك الشبان وكان السلطان عبد الحميد يشك دائما فى المحافل الماسونية ونشاطاتها لما كانت تقوم به من نشر للشقاق والتمرد فى مملكته وفى صفوف الجيش وقد تأسست محافل ماسونية عديدة فى الآستانة وازمير بعضها تابع للشرق الأعظم الانجليزى ، وبعضها للفرنسى أو الايطالى الى أن أنشأ « الأخ الكلى الاحترام » كما يقال فى الشعارات الماسونية المعترف عليها ـ حليم باشا ـ مجمعا وطنيا ترأسه ، وتعددت محافله ، بحيث أصبح عدد الماسون الأتراك المسلمين عام ١٨٨٢ نحو عشرة آلاف شخص من بينهم الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار المسئولين وكان من بين ما جاء فى وثائق مؤتمر بال الأول ١٨٩٧ « الى أن يأتى الوقت الذى نصل فيه ـ أى الصهيونيين ـ الى السلطة سنحاول أن ننشىء ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار فى جميع أنحاء العالم ، وسنجذب اليها كل من يكون معروفا بأنه ذو روح عامة وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التى سنحصل فيها على ما نريد كما انها ستكون افضل مراكز الدعاية .

والماسونية كما تقول دائرة المعارف الأمريكية عام ١٩٠٦ ودائرة المعارف اليهودية من افرازات الحركة الصهيونية .

وقد ذكر الحاخام اسحق وايز فى مجلة اسرائيلى أمريكا « ٣ آب ـ أغسطس ـ ١٨٦٦) أن الماسونية مؤسسة يهودية فى تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وتوضيحاتها .

انها يهودية من البداية حتى النهاية .

وقد قرر الشرق الأعظم الفرنسي في عام ١٩٠٠ • ازاحة السلطان عبد الحميد وضرورة جذب حركة تركية الفتاة منذ بداية تكوينها ـ ارنست راموزور ـ (تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨) وقد اثرت المبادىء اليهودية والماسونية على منتسبي صحيفة الاتحاد والترقي وقد بدأ عدد اليهود يتضاعف في تلك الجمعية ثم ازداد خطرهم بعد دخول يهود الدونمة المتسترين Cryptic jew المقيمين في سلانيك ولما كانوا بحاجة الى المال ـ أي جماعة الاتحاد والترقي ـ فقد أمدهم اليهود بالمال بالاضافة الى الأماكن الماسونية التي كانوا يباشرون نشاطهم من داخلها •

وقد أكد Seton Waston أن أصحاب العقول المحركة لثورة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ كانوا يهودا ومن الدونمة وأما المساعدات المالية فانما كانت تأتيهم عن طريق الدونمة ويهود سالانيك المتجولين » •

ومما يذكر أنه عندما خرجت الجماهير ثائرة ـ في شوارع سالانيك ـ ٢٣ (يوليو) تموز ١٩٠٨ واجتمعت في ميدان أولمبيبوس كان أول الخطباء من « فندق أوليمبوس بالاس » غالب أفندي وقد خطب بالتركية ثم مانويل قرصوه وقد خطب باليهودية الأسبانية ثم روصو افندي وخطب بالفرنسية •

وتؤكد صحيفة التايمز البريطانية (١١ (يوليو » تموز ١٩١١) ان لجنة سالانيك قد تكونت تحت رعاية ماسونية بمعاضدة اليهود والدونمة وكان مركزهم سالانيك وأن يهودا مثل قارصوه وسالم ، وساسون ، وفارجي ومازلياخ ومن الدونمة مثل جاويد واسرة بالخي قد لعبا دورا بارزا في تنظيم اللجنة المذكورة وبعد ثورة ١٩٠٨ ازداد النفوذ اليهودي في أوساط السلطات العثمانية ليس في تركيا وحسب وانما في فلسطين أيضا وبدأ تدفق المهاجرين ومن بين ما ذكره راموزور ـ وهو من مواليد كاليفورنيا وكان نائبا للقنصل الأمريكي في استمبول في الفترة من ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ ـ أنه يمكن القول بكل تأكيد أن الثورة التركية تقريبا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية •

ويعترف رفيق بك ـ احدى الشخصيات البارزة لجمعيه الاتحاد والترقي ـ لمحرر جريدة تايمز « الباريسية » في ٢٠ أغسطس ١٩٠٨ من أنه كان للمحافل الماسونية اصبع في ثورة ١٩٠٨ التركية •

وقد وجدنا سندا معنويا من الماسونية وخاصة الماسونية الايطالية فالمحفلان الايطاليان La bort lux, Maredona Ristora قد قدما لنا خدمة حقيقية ووفرا لنا الملاجىء فكنا نجتمع لتنظيم أنفسنا كما اننا اخذنا

معظم رفقائنا من هذين المحفلين اللذين ساعدا لجنتنا كغربال نظرا لما كانا يبديانه من دقة فى الاستفسار عن الأفراد ٠

وكان فى مقدمة ما آلم السلطان عبد الحميد أن الهيئة التى كلفت باعلامه محتوى الخلع فى ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ (٧ ربيع الآخر ١٣٢٧) كانت مكونة من عارف حكمت باشا رئيس الوفد وعضوية كل من أسعد طوقباني باشا وغالب باشا وارام الهندى الأرمنى ومن زعماء اليهود قارصوه ٠

وقد أشار السلطان الى قارصوه قائلا : ما هو عمل هذا اليهودى فى نظام الخلافة ٠

وسأل رئيس الوفد بأى قصد جئتم بهذا الرجل أمامى ٠

وكان قارصوه هذا قد اعتقل بتهمة التجسس (١٩٠٨) فى قصر يلدز وسيق الى السجن وقد عفا عنه السلطان عبد الحميد وكان السلطان يجد فى اشتراك عمانوئيل قارصوه فى الوفد اهانة لمقام الخلافة وقد حرص الاتحاديون على وضع السلطان المخلوع وحريمه وحاشية صغيرة فى فيلا ألاتينى وهى تخص أحد اليهود الأغنياء فى جمعية الاتحاد والترقى ووضع شقيق رمزى بيه (كولونيل من الدونمة) حارسا على السلطان عبد الحميد وقد وقعت معركة يدوية بين نصير بك أحد نواب الأحرار ، وممثل ألبانيا فى مجلس (المبعـــوثان) وحسين جاهيد بك صـــاحب صحيفة طنين وقد نشرت صحيفة نهضة العرب فى باريس ١٤ مايـــو (آيار) ١٩٠٩ مقالا لكاتب مجهول تحت عنوان : الاسرائيلية فى جمعية الاتحاد والترقى ٠

وقد جاء فى هذا المقال ٠ تناقل العارفون من الناس ما كان من أمر الاسرائيليين والماسون مع جمعية الاتحاد والترقى واشتراكهم فى نهضتها وقيامهم بمناصرتها حتى ذهب البعض الى أن فوزها كان ثمرة مساعيهـــم ثم توسعوا فى البيان فقالوا : ان اليهود لما قنطوا من تحقيق أمانيهم فى عهد الحكم السالف باستملاك أراضى فلسطين ٠ وتشييد مملكة اسرائيلية فيها كما هو معلوم عنهم لدى الخاص والعام عمدوا الى الماسونية ولهم فيها اليد الطولى كما لا يخفى ، فاتخذوها آلة لترويج مقاصدهم فى تلك الأرجاء وجروا فى هذا السبيل على خطتهم المعروفة فى التسلط عـــلى الحكومات الأوروبية فاستعانوا بالماسونية واستتروا وراءهـــا ، ودفعت الماسونية جمعية الاتحاد والترقى ومدتها بالرأى والمال ، وجعلت أنديتها لها ملجأ فامتنع على أعوان السلطان المخلوع ولوجها وانضم اليها أمراء العسكرية وأخذوا مع الجمعية بنشر مبادئهم وأفـــكارهم فى الولايات

المكدونية واستمالوا اليها الكثيرين وفازوا بالقوة التى مكنتهم من قلب الحكم المطلق وتبديله بالدستور » ٠

ويتابع الكاتب قوله : « ومعلوم أن اسم الجمعية « الاتحاد والترقى» هو اسم اللوج الماسونى فى سلانيك ٠ فاشتراك الماسونية فى نهضة الأحرار أمر ثابت لا يختلف فيه اثنان ، وما كان ذلك ليدعو الى التخوف والتوجس ما دامت نتيجته تأييد الحرية والمساواة وخير الأمة والبلاد ؛ ولكن الذى جعل الأمر موضوعا للتأويل والاشتباه انما هو الحركة الاسرائيلية الكامنة وراءه وغاية اليهود من السعي بالفتنة في الدولة والعمل على دمارها ليشيدوا على خرائب آل عثمان المملكة الاسرائيلية التى ما برحوا يحلمون بها ٠ أما اللائحة التى بنوا عليها هذا التدبير فهى فى اعتقادهم أن المتمسكين بالدين من مسلمى العرب والترك لا يرتاحون الى الحرية والمساواة فى دولة هى قاعدة الخلافة الاسلامية فيقومون على الأحرار ويقع بينهم الشقاق والنزاع وتضطر الدول الأجنبية الى وضع يدها لحماية مصالحها الكثيرة وتحقيق مطامعها الكبيرة ٠ ويزيد فى توسيع الخرق ما هى عليه العناصر العثمانية من التباين والتنافر فيستحكم البلاء ويفضى الشر الى تشتيت شمل الدولة وهدم أركانها وبذلك يبلغون القصد ويتم لهم المراد ٠

أنه لم يكن ليصدق هذا القول « حتى وقفت فى الجرائد آخرا على التفاصيل المتعلقة بالجيش المكدونى وفيها أن معظم العساكر التى تألفت منها حملة سلانيك كان من اليهود ، وكان الضباط يولونهم الأفضلية على عساكر المسلمين فأدهشنى هذا الخبر ، ثم ما لبثت ان طالعت عن الوفد الذى حمل للسلطان عبد الحميد فتوى الخلع ، وقد تألف من أربعة أعضاء بينهم اسرائيليان عمانويل قره سو رئيس اللوج الماسونى فى سلانيك وسلمون ابران ٠ وعثرت فى جريدة « النيويورك هرالد » و « البرلينر تاجبلاط » وغيرهما من جرائد العالم الكبرى أن زعماء جمعية الاتحاد والترقى من عسكريين وملكيين انما هم تلامذة قره سو فى سلانيك ٠ وقرأت أيضا فى عددكم الأخير ذكر الاسرائيليين فى وفد الخلع وحملكم ذلك على محمل التساهل وحرية الضمير عند جمعية الاتحاد والترقى ، فلم يعد عندى مجال للتردد ورأيت فى ذلك غير ما رأيتم ، ولا يسعنى بعد كل ما ظهر وثبت أن أخالف القائلين بمآرب اليهود ودسائس سياستهم الخفية » ٠

وأضاف الكاتب مستنكرا على الاتحاديين توكيلهم اليهود بتنفيذ فتوى الخلع للسلطان بقوله « متى كان الأئمة تعهد الى اليهود بتنفيذ الفتاوى الشرعية وتندبهم سفراء الى خلفاء الاسلام يتلون عليهم نص

الشرع الشريف ويبلغونهم ارادة الأمة بخلعهم عن كرسى الخلافة ؟ بل ما الذى اضطر جمعية الاتحاد والترقى يا ترى الى تأليف الوفد على هذه الصورة ، وكيف رضى الاسرائيليان بأن يكونا ممثلى الاسلام فى هذه المهمة ؟ أفانهم ما يكون من تأثيره على المسلمين ، أم أيقنوا بالفوز العاجل فظنوا انهم قبضوا على عنان الدولة وقريبا ينشرون فوقها راية اسرائيل ؟ ولعمري لا أرى هناك الا استدراجا فى الخطة التى آلوا على أنفسهم اتباعها، وقد ناصروا أصحاب الاتحاد والترقى حتى ولو هم الحكم بالسيف ومكنوهم من العرش فخلعوا سلطانا ونصبوا سلطانا واستأثروا بحق يختص بالمسلمين ، ثم باهوا به وافتخروا وقالوا : جمرة نلقيها فى صدر الاسلام فتتلظى على فتيان الترك فنصليها بينهم نارا حامية تلتهم الدولة وتقوض أركانها فنقيم على بقاياها هيكل أورشليم » .

ويحمل الأستاذ حسان على حلاق وجهة نظره فى ذات الموضوع قائلا :

ان محاولة السيطرة على فلسطين جرت عمليا منذ عام ١٧٩٨ وليس أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ذلك حينما قام نابوليون بحملته على الشرق وتوجيهه نداء الى اليهود لمؤازرته فى السيطرة على الأراضى المقدسة واسكان اليهود فيها . وكان اليهود فى عداد الممولين الأوائل للحملة الفرنسية ، كما أن يهود الدولة العثمانية قاموا بتقديم العون وتيسير سبل الحملة وان كانوا قد انكروا هذا العون . وبعد فشل أهداف الحملة الفرنسية بدأت بريطانيا تعلن حمايتها لليهود بواسطة أول قنصلية بريطانية فى القدس عام ١٨٣٨ ، وقد أرسل يومذاك « بامستون » ــ وزير الخارجية البريطانية ــ تعليماته الى القنصل « وليم يونغ » W. Young بضرورة منح الحماية لليهود فى فلسطين . وبدأت وزارة الخارجية البريطانية تسعى لدى الباب العالى لاقناعه بقبول اليهود كمستوطنين فى الأراضى المقدسة ، وطالبت بريطانيا الحكومة العثمانية عام ١٨٤٥ بطرد المسلمين من فلسطين الى مناطق أخرى فى آسيا الصغرى ، واحلال اليهود مكانهم ، الا أن الباب العالى والحكومة العثمانية رفضا هذا المسعى وهذه المقترحات البريطانية .

وتدعى بعض المصادر الصهيونية من أن حاكم مصر محمد على باشا قد اتفق مع اليهودى البريطانى « مونتفيورى » على استيطان يهودى فى فلسطين بما يترتب على ذلك من وجود حاكم يهودى فى دولة يهودية مستقلة ، الا أن الوثائق المعاصرة لبلاد الشام وفلسطين أثبتت عكس هذا الادعاء ، ولعل وثائق « الأصول العربية لتاريخ سوريا فى عهد محمد على باشا » خير دليل بأن الحاكم المصرى ما كان ليرضى باقامة دولة يهودية

في فلسطين فكان طوال سنى حكمه متجاوبا كل التجاوب مع مطالب أهل فلسطين ٠

أما تسوية لندن عام ١٨٤٠ ، فلم يكن هدفها ضرب محمد على فى مصر والشام وتقليص قدراته الصناعية والحربية والاقتصادية فحسب ، بل كان لهذه التسوية أسباب استعمارية أخرى تتعلق مباشرة بمستقبل فلسطين ، لأن اقامة وحدة عربية اسلامية بين مصر وبـــلاد الشام من شأنها أن تحول دون تحقيق المطامع اليهودية والأوروبية ، ولأن قيـــام دولة عربية واحدة ستقطع الطريق على امكانية انشاء دولة يهوديـــة فى فلسطين تحت الرعاية البريطانية ٠ ولطالما حرك اليهود الفتن الداخليـة فى بلاد الشام ولا سيما فى عام ١٨٦٠ ، وثبتت ادانتهم فى تردى الأوضاع الأمنية فى المنطقة ، مما اضطرهم وقتذاك الى طلب الحماية البريطانيـة وتدخل السير « مونتفيورى » لأنقاذهم مما اتهموا فيه ، ومما يدل عـلى ذلك ما عثرت عليه من وثائق فى مجموعة «المحررات السياسية والمفاوضات الدولية فى سوريا ولبنان عام ١٨٦٠ » ٠

واستمر النشـاط الصهيونى ــ البريطـــانى وتزايد نتيجـة لشراء بريطانيا أسهم قناة السويس عام ١٨٧٥ ٠ وبالدليل القاطع فان أموال هذه الصفقة لم تكن أموالا بريطانية بقدر ما كـانت أموالا يهودية ، لأن عملية الشراء تمت بواسطة دزرائيلى رئيس الوزراء البريطانى اليهودى، وبأموال عائلة روتشيلد اليهودية أيضـا ، وقد اعترف « دزرائيلى » بأن الهدف من هذه العملية لم يكن السيطرة على مصر فحسب وانما السيطرة على فلسطين أيضا . وفى عام ١٨٨٠ ، صرح بأن من يملك فلسطين يمكنه أن يهدد منطقـة القناة ٠ وفى عام ١٨٨٢ قـال « ادوارد كوزليت » : ان احتلال مصر قد وحد بين مصالح الامبراطورية البريطانية فى الشرق وبين مصالح اليهود فى فلســطين ٠ وأكد « زانغويل » ــ الزعيم الصهيونى ــ هذه الحقيقة بقوله : الآن وليس فى وقت آخر هى فرصة أسرائيل ، لن نصبر لا اليهود ولا فلسطين بعد أن نقلت قناة السويس العالم الى أبواب فلسطين ٠

وكان يقابل النشاط السياسى الصهيونى نشاط آخر تمثل بالهجرة اليهودية الى الأراضى المقدسة ، ففى منتصف القرن التاســع عشر بدأت الهجرة اليهوديـة تتخذ طابعـا خطرا على البلاد لمـا أظهرتــه من أهداف استيطانية ولكن عدد اليهود حتى عام ١٨٣٩ كان لا يتجاوز ســتة آلاف مقابل ثلاثماية ألف عربى أى بنسبة ٢٪ من السكان ٠ وبتزايد الهجرة اليهودية تزايد خطر القادمين فقد بلغ عددهم بين عام ١٨٨٢ وأوائل القرن العشرين حوالى مائة ألف مهاجر ، مما حدا بالحكومة العثمانية فى اصدار

عدد من القوانين الخاصة بالهجرة التى استطاعت بها أن تقلص من عددهم حينا ، وتحد من سيل الهجرة المتدفق حينا آخر .

وكان مؤتمر بال عام ١٨٩٧ قد أقر بضرورة انشاء وطن للشعب اليهودى فى فلسطين ، رغم معارضة عدد كبير من اليهود ، ولكن المنظمة الصهيونية استمرت فى مساعيها مع الدولة العثمانية والدول الاستعمارية والأوروبية لتحقيق مشروعها ، غير أن القوانين العثمانية والفرمانات السلطانية منعت الى حد كبير تدفق المهاجرين اليهود نظرا لخطورة هجرتهم على مستقبل فلسطين ، ونظرا لتسببهم في تأخر فلسطين اقتصاديا واجتماعيا وصحيا . ولكن يلاحظ أنه رغم اصدار القوانين العثمانية فان المتصرفين والحكام المرتشين لعبوا دورا مؤثرا فى انجاح الهجرة اليهودية ، بالاضافة الى فساد الادارة الضرائبية العثمانية وطرح أراضى الفلاحين الفلسطينيين بالمزاد العلنى استيفاء للضرائب ، كما أن الاقطاع اللبنانى والسورى والفلسطينى قد ساهم الى حد كبير فى عملية بيع الأراضى الفلسطينية الى القادمين اليهود .

★★★

والجدير بالذكر أنه بالرغم من الواقع الأليم الذى عاشه الفلاح الفلسطينى فقد استمر متمسكا تمسكا شديدا بأرضه وعمله وجعلها تدر خيرات وفيرة ، لكنه فى الوقت الذى شعر فيه أن حياته أصبحت مهددة بالخطر نتيجة لسلب أرضه أو طرده من عمله أبدى معارضته الشديدة واحتجاجه المستمر على الواقع الجديد . والحقيقة أن ردود الفعل الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية ، تعود الى بداية الهجرة ، ويمكننا أن نستخلص من تقرير « أسعد خياط » القنصل البريطانى فى يافا عام ١٨٥٨ أن ردود الفعل العربية لم تبدأ فى أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين كما كان يعتقد ، بل تعود عمليا الى منتصف القرن التاسع عشر عندما كان يقوم العرب بهجمات مستمرة على اليهود والأجانب بقصد ارهابهم ومنعهم من الاستيطان فى فلسطين . واحتج القنصل على أن القاضى عندما أمر بعدم تسجيل صكوك بيع وشراء عقارات ومزارع للأوروبيين والأميركيين على السواء ، انما كان يخالف الاتفاقات المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية . ويمكن القول أن الاضطرابات قد ازدادت فى فلسطين بعد سلب أراضى الفلاحين أو شرائها قسرا من قبل الحكومة العثمانية « والمقاطعجية » ـ الاقطاع ـ اللبنانيين أمثال عائلات : توينى ، سرسق ، مدور وغيرها ، والفلسطينيين أمثال عائلات : كسار ، روك ، خورى ، وحنا وغيرها . ففى عام ١٨٨٦ هاجم الفلاحون الخضيرة وملبس ـ وهى القرى التى كانوا يملكونها فى الأساس ـ مما أجبر الدولة عام ١٨٨٧ على فرض قيود على الهجرة اليهودية . وفى

عام ١٨٩٠ قدم وفد من وجهاء القدس عريضة احتجاج للحكومة العثمانية بسبب تساهل رشاد باشا وعدم تقيده بتنفيذ قوانين الهجرة القاضية بمنع دخول اليهود الى فلسطين ، وطالبوا باصدار فرمان سلطانى يمنع استيطان اليهود بصورة نهائية ، وقد وقع على هذه العريضة ٥٠٠ من الاهالى مما يدل على وعى ويقظة الشعب الفلسطينى • وفى عام ١٨٩٧ ترأس محمد طاهر الحسينى لجنة عربية للوقوف فى وجه الاستيطان اليهودى ومراقبة تسجيل وبيع وشراء الأراضى •

***

ومن الأهمية بمكان القول ، أنه اتضح لى من خلال دراستى لمواقف الزعامات العربية أنها لم تكن على مستوى الخطر الصهيونى ولا على مستوى يقظة الشعب الفلسطينى الذى لمس بنفسه مدى هذا الخطر على مستقبل بلاده • فكانت هذه الزعامات تنقسم الى قسمين رئيسيين : القسم الأول كافح من أجل انهاء السيطرة العثمانية على البلاد العربية ، والقسم الثانى كافح من أجل انهاء السيطرة الأوروبية ـ وبالذات البريطانية ـ على هذه البلاد ، ودعا الى دعم الدولة العثمانية • وبينما تمثل الزعامات الشامية القسم الأول ، تمثل الزعامات المصرية القسم الثانى • والواقع أنه بالرغم من وعى هذه الزعامات سواء على مستوى السيطرة العثمانية أو السيطرة الأوروبية ، غير أننى لم أجد أن هذا الوعى قد تعدى حدود ذلك رغم ان الخطر الصهيونى كان ماثلا للعيان ، بدليل أن بعض الزعامات العربية مثل « أمين أرسلان » ـ وهو مثال للزعامات الشامية ـ و « مصطفى كامل » ـ وهو مثال للزعامات المصرية ـ لم تتحرك بفعالية ونشاط ، بل لم تبد اهتماما يذكر بالحركة الصهيونية وأخطارها على مستقبل الأراضى المقدسة ، وربما يعود سبب ذلك الى انشغال هذه الزعامات اما بالاستعمار البريطانى كما هو فى مصر ، أو الانشغال بالسيطرة العثمانية كما هو فى بلاد الشام ، على أن ذلك لا يبرر الصمت التام عن الخطر الصهيونى حينا ، والتأييد للمنظمة الصهيونية أو الاعجاب بها حينا آخر • وبالاضافة الى ذلك فقد اتضح لى من خلال البحث بأن الصحافة العربية لم تكن كلها أيضا على مستوى الخطر الصهيونى ، ولكن شذت عن هذه القاعدة مجلة « المنار » ووعى صاحبها رشيد رضا هذا الخطر الذى نبه اليه منذ عام ١٨٩٨ • وتلت « المنار » فيما بعد صحيفة « الكرمل » التى عبرت فى الفترة ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ عن وعى سياسى ناضج برئاسة صاحبها نجيب نصار • كما أن « المشرق » بدأت بعد الثورة على السلطان عبد الحميد ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ تبين أهداف الحركة الصهيونية على فلسطين• وينبغى أن نذكر فى هذا المجال أن بعض الزعامات الفلسطينية كانت تحى

الخطر الصهيوني وتظهره منذ عام ١٨٩٩ مثال : يوسف ضيا الخالدى ، كما أن بعض المفكرين اللبنانيين أشاروا الى أهداف الحركة الصهيونية منذ عام ١٩٠٥ مثال : « نجيب عازورى » .

ويلاحظ بأنه بعد ثورة ١٩٠٨ وخلع السلطان ١٩٠٩ تبدلت السياسة العثمانية ازاء فلسطين والبلاد العربية وازدادت موجة الهجرة اليهودية . بينما كانت الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد تعمل ما بوسعها لمنع الاستيطان اليهودى في الأراضى المقدسة . وكان هذا الموقف قد أبداه السلطان منذ بداية عهده عندما جاءه « أوليفانت » (Oliphant) المبعوث اليهودى لمطالبته بانشاء كيان لليهود في فلسطين ، فكان رد السلطان بأن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية منطقة من المملكة الا في فلسطين ، لأن الدولة ترحب بالمضطهدين ولكنها ترفض مساعدة اليهود في اقامة دولة لهم في فلسطين يكون أساسها الدين .

★★★

والجدير بالذكر أن سياسة عبد الحميد الثانى ازاء الاتحاديين والصهيونية ودول أوروبا قد أدت الى اتفاق هذه العناصر مجتمعة للقيام بثورة ١٩٠٨ . وبواسطة المحافل الماسونية تمكن ضباط الاتحاد والترقى من التحرك بفعالية أكثر ، لأن وجودها في سلانيك كان يضمن لها الحماية الدولية على اعتبار انها احدى الولايات الثلاث الخاضعة للمراقبة الدولية . وعلى هذا يمكن ان نستخلص من دراسة الوثائق التى بين أيدينا أن ثورة الاتحاد والترقى هى ثورة يهودية ـ دولية قبل أن تكون ثورة تركية أو عثمانية ، لأن لجنة سلانيك الاتحادية تكونت تحت رعاية ماسونية دولية وبتأييد من اليهود ويهود الدونمة ، وان عناصر يهودية مثل : قارصوه وسالم وساسون وقارجى ومازلياح وجاويد وبالجى ، قد لعبوا دورا أساسيا في تنظيم هذه اللجنة وفى انجاح الثورة . كما وأن معظم اليهود قد أظهروا حماسا متزايدا في ضرورة التقدم وبسرعة نحو العاصمة لاحتلالها ، وكان الجيش الزاحف نحوها أيضا بقيادة الكولونيل رمزى بيه هو أحد يهود الدونمة . وبالاضافة الى ذلك فان الصهيونيين في فلسطين أظهروا اهتماما بالغا بالثورة على أمل تحقيق ما عجزوا عن تحقيقه أثناء حكم السلطان عبد الحميد وقد أكد مثل هذه الحقائق جميع الدبلوماسيين البريطانيين أمثال : لوثر وبلش ومارلنغ .

★★★

وتؤكد الوثيقة السلطانية الحميدية المرسلة الى الشيخ محمود أبو الشامات ـ والتى ثبت صحتها ـ بأن السلطان ما خلع عن العرش الا لأنه رفض عرض (١٥٠) مليون ليرة ذهبية مقابل انشاء وطن قومى

لليهود • ولذا فقد حرصت المنظمة الصهيونية فى عهد السلطان محمد رشاد على الحصول على قانون يسمح لليهود بالهجرة والتملك والغاء الجواز الأحمر ، كما أن النفوذ اليهودى والصهيونى ظهرا بوضوح فى أوساط الحكومة الجديدة ، لا سيما وأن وزير المالية جاويد بك كان أحد اليهود الذين كان لهم الدور البارز فى قرار خلع السلطان ، مما أدى الى قيام حركة معارضة ضد سياسة الحكومة وضد سياسة وزير المالية بشكل خاص ، وتمثلت هذه المعارضة بممثلى المبعوثان صادق بك ومفيد بك ، ونواب فلسطين الثلاثة : روحى الخالدى ، سعيد الحسينى ، وحافظ السعيد • وبالاضافة على تأكيد الوثائق البريطانية لدور اليهود فى ثورة ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ وتزايد نفوذهم فى العهد الاتحادى ، فقد أكدت أيضا الصحف المعاصرة هذه الحقائق ومنها صحف : المشرق ، والمنار ، والعصر الجديد ، ونهضة العرب • ولعل فى دراسة مقال : « الاسرائيلية فى جمعية الاتحاد والترقى » لأحد العثمانيين المسلمين فى باريس هو خير شاهد على ما جرى من ملابسات وظروف الثورة والخلع ، الذى ورد فيه تأكيد على كل الحقائق التى سبق وتناولتها فى هذا البحث ليأتى مقالا ملما بكل أسباب ونتائج ثورة الاتحاديين • ولا بد لى أخيرا من ذكر نتيجة من نتائج البحث ، وهى أن المسئولية تلقى فى هذه الفترة على جهات أربع هى :

١ ـ الادارة العثمانية الفاسدة المرتشية والتى كانت فى كثير من الأحيان تخالف قرارات السلطان والحكومة •

٢ ـ الاقطاع اللبنانى والسورى والفلسطينى الذى ساهم الى حد كبير فى تردى أوضاع الفلاح الفلسطينى وسهل عمليات بيع الأراضى للمهاجرين اليهود •

٣ ـ الزعامات العربية التى لم تلعب الدور الفاعل فى توعية الشعب العربى بأخطار الحركة الصهيونية ، رغم أن شعب فلسطين لم يتوان فى اظهار ردود فعله المستمرة • كما وأن تلك الزعامات لم تظهر معارضتها لحركة الهجرة اليهودية ، وكل ما فعلته هو تركيز جهودها فى معارضة الدولة العثمانية أولا وبريطانيا ثانيا •

٤ ـ الدول الاستعمارية التى ساعدت الحركة الصهيونية بأسلوب أو بآخر لتحقيق أهدافها الأولية فى القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٠٩ •

★★★

وأستأذن فى الاستطراد مرة أخرى فى موضوع دور الصهيونية والماسونية والاستعمار الأوروبى فى تدمير دولة الخلافة الاسلامية بأيدى أبنائها : أبناء دولة تلك الخلافة بطبيعة الحال لا بأيدى أبناء الصهيونية

والماسونية والاستعمار الأوروبي ، معتمدا على كتاب عن « السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده » للأستاذ أورخان محمد على ويوميات هرتزل ـ باعث الصهيونية ، في عهدها الجديد ـ وبعض وثائق هامة كانت بحق جديدة على وهي بلا شك جديدة على كثير من الدارسين في مصر والبلدان العربية الشقيقة .

ومن خلال يوميات هرتزل تتجلى سياسة المنافع التي هي لب الصهيونية فلقد عرضت الصهيونية بلسان هرتزل وبواسطة رفيقه نيولنسكي الذي كان صديقا للسلطان عبد الحميد مساعدته في المسألة الأرمينية التي كان الرأي العام الأوروبي ثائرا على السلطان بسببها مقابل موافقة السلطان على انشاء وطن قوى لليهود في فلسطين فماذا كان رد السلطان عبد الحميد على العرض الذي تقدم به نيولنسكي :

اذا كان هرتزل صديقك بقدر ما انت صديقي فانصحه ان لا يسير ابدا في هذا الأمر . لا اقدر ان ابيع ولو قدما واحدا من البلاد ، لانها ليست لى بل لشعبي لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية باراقة دمائهم ، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا : لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفي فلسطين ، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر في « بلفنه » لأن أحدا منهم لم يرض بالاستسلام ، وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال : الامبراطورية التركية ليست لى وانما للشعب التركي . لا أستطيع ابدا أن أعطى أى جزء منها : ليحتفظ اليهود ببلايينهم ، فاذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل انما لن تقسم الا على جثثنا ، ولن أقبل بتشريحها لأى غرض كان » .

★★★

وعندما تحدد موعد لمقابلة السلطان لهرتزل نبه فابيرى صديقه هرتزل بان يكون حذرا عند مقابلة السلطان ولا يتحدث عن الصهيونية لأنه يكرهها وكان قول فابيرى بالحرف الواحد كما جاء في يوميات هرتزل : اياك أن تحدثه عن الصهيونية ، القدس مقدسة عند هؤلاء الناس مثل مكة .

« أوضح لى في هذه المقابلة السلطان أنه على استعداد لأن يفتح امبراطوريته أمام اللاجئين اليهود بشرط أن يصبحوا رعايا عثمانيين بكل ما يفرضه ذلك عليهم من واجبات من حيث القانون والخدمة العسكرية » .

وعليهم ـ على اليهود ـ قبل أن يدخلوا بلادنا ان يتخلوا عن جنسياتهم السابقة ويصبحوا رعايا عثمانيين .

وبهذه الطريقة يستطيعون سكنى أية مقاطعة في البلاد عدا فلسطين في بادىء الأمر مقابل ذلك أن يؤلف اليهود وكالة لتصفية الدين العام وللقيام باستثمار مناجم معادن الامبراطورية كلها .

ويضع السلطان فيما بعد شروطا أخرى هي الا يكونوا جميعا في مكان واحد ، بل يفرقوا في أماكن تعينها لهم الدولة ، كما أن الدولة التركية هي وحدها التي ستحدد الرقم المحدد لقبول المهاجرين اليهود .

وقد كان السلطان عبد الحميد أبعد الحكام المسلمين والعرب نظرا فيما يتعلق بخطر الصهيونية على المسلمين والعرب .

لقد أصدر ثلاثة فرمانات وجدت نسخة مكتوبة منها بخط السلطان نفسه كتبها في ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ ذي القعدة لسنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩١) نصوصها ما يلي :

الفرمان الأول :

ان قبول الذين طردوا من كل مكان ، في الممالك العثمانية سيؤدي في المستقبل الى تشكيل حكومة موسوية ، لذا فان اجراء هذه المعاملات غير جائز وبخاصة أن الممالك الشاهانية ليست من قبيل الأراضي الخالية والمتروكة ، ولما كان من المفروض ارسال هؤلاء الى أمريكا ، لذا فلا يقبل هؤلاء ولا أمثالهم ، بل يجب وضعهم في السفن فورا لارسالهم الى أمريكا ، وان يتخذ مجلس الوزراء قرارا قطعيا بخصوص تفاصيل هذا الأمر وعرضه علينا ، اذ ما الداعي لقبول من طردهم الأوروبيون المتمدنون ولم يقبلوهم في ديارهم . وفضلا عن ذلك فان هناك دسائس كثيرة ، لذا فان هذا الأمر غير جائز على الاطلاق .

وبناء على ذلك ، وحتى لا يبقى هناك اي مجال بعد الآن لأية معروضات أخرى في هذا الخصوص ، تعاد هذه المذكرة للصدارة العظمى لاتخاذ قرار عام في هذا الموضوع .

***

الفرمان الثاني وكان بعد سبعة أيام من الفرمان ونصه :

ان قبول هؤلاء الموسويين واسكانهم أو اعطائهم حق المواطنة شيء ضار جدا فقد يتولد عن هذا في المستقبل مسألة حكومة موسوية . لذا يجب عدم قبولهم ، وان يؤخذ هذا في الحسبان عند عرض المسألة ، وان يعرض هذا القرار بسرعة هذا اليوم ، وان تعطى المعلومات للصدارة العظمى من السكرتارية الخاصة .

الفرمان الثالث وكان اصداره فى اليوم التالى لاصدار الفرمـــان الثانى وهذا نصه :

لا يحق لأية دولة أن تعترض على عدم قبولنا الموسويين الذين طردتهم دولة متمدنة ولم تقبلهم الدول المتمدنة الأخرى ، وهؤلاء الذين يحتجون ويعترضون علينا كان الأحرى بهم الاحتجاج على الدول التى طردتهم ورفضت قبولهم •

وبناء عليه فان هؤلاء الموسويين لو أسكنوا فى أى مكـــان (من أجزاء الامبراطورية) فانهم سوف يتسللون الى فلسطين شيئا فشيئا مهما أتخذت من تدابير ، وسيسعون لتشكيل حكومة موسوية بتشجيع وحماية الدول الأوروبية ، ولن يعمل هؤلاء فى الزراعة والفلاحة ، بل سيحاولون الاضرار بالاهالى كما فعلوا فى البلدان التى طردوا منها • وما دام هؤلاء كانوا بصدد الهجرة الى أمريكا ، اذن فان من المناسب أن يهاجروا الى هناك ، ونرى وجوب المذاكرة بشكل مفصل فى هذا الموضوع فى اللجنة العسكرية •

★★★

وحول زيارة اليهود للقدس أصدر السلطان سنه ١٩٠٠ تعليمات تأكيدا لما كان قد أصدره من تعليمات سابقة عام ١٨٨٧ كانت فى صيغة قانون نافذ :

المادة الأولى :

لابد للموسويين ــ سواء أكانوا من رعايا الدولة العلية أو من الممالك الأجنبية ــ الذين يذهبون لفلسطين لأجل الزيارة أن يحملوا معهم تذكرة مرور ــ أو جواز سفر ــ تتضمن صفة وغاية السياحة وتابعية حاملها •

المادة الثانية :

على جميع هؤلاء الزوار الموسويين الذين يصلون ولاية بيروت أو الى أى ميناء من موانى ولاية القدس الشريف ايداع تذاكر مرورهم أو جوازات سفرهم لدى موظف الجوازات ، والحصول ــ مقابـــل قرش واحد ــ على تذكرة زيارة أو اقامة مؤقتة لمدة ثلاثة أشهر فى فلسطين ، ولتيسير تمييز هذه التذاكر عن غيرها يجب أن تكون بلون وشكل متميز ، ويجب ابراز هذه التذكرة لموظفى الدولـــة وللشرطة عند الطلب فى أثناء السياحة أو الاقامة ، ويخرج بقـــوة الشرطة أو بوساطة قنصل الحكومة المنتسب اليها كل من يتجاوز هذه الأشهر الثلاثة •

المادة الثالثة :

يجب تنظيم قائمة بمدرجات وتواريخ تذاكر الاقامة المؤقتة للزوار الموسويين المذكورة في المادة السابقة ، وتنظم هذه القوائم في نهاية كل شهر ليتسنى اخراج الذين يتجاوزون هـذه المدة ، وكذلك معاقبة الموظفين الذين يتهاونون في هذا الخصوص .

المادة الرابعة :

اذا ظهرت في الجداول المنظمة لأمور السياحة والاقامة أية مخالفة لدى الزوار الذين يكملون المدة المسموحة لاقامتهم أو سياحتهم ويتركون أرض فلسطين أو يأتون ميناء بيروت لركوب البواخر أو ينهون مدة اقامتهم ، أو الذين يزودون بوثائق المرور ووثائق الاقامة فيجب اتخاذ اجراءات حازمة ضد المخالفين وضد الموظفين المسئولين عن تطبيق هذه التعليمات .

ولكي تزداد الصورة وضوحا نركز على ما ذكره الأستاذ أورخان محمد على عن جمعية الاتحاد والترقي وعزل السلطان عبد الحميد :

***

يقول الأستاذ أورخان ان انشاء جمعية الاتحاد والترقي تم في ٢١ مارس ١٨٨٩ أثر اجتماع عقده طالب البانى اسمـه ابراهيم تيمو كان يدرس في المدرسة الطبية العسكرية السلطانية مع بعض أصدقائـه من الطلاب طارحا عليهم فكرة انشاء جمعية سرية تسعى الى عزل السلطـان عبد الحميد وتشكلت من هؤلاء الطلاب نواة جمعية الاتحاد والترقي .

وكان تنظيم تلك الجمعية ـ كما يؤكد مؤلف كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ د. ارتست ا. رامزور ـ على غرار جمعية الكاربونارى الايطالية التي تشكلت في القسم الأول من القرن التاسع عشر ففي العطلة الصيفية ـ تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ـ لعام ١٨٨٨ ـ اى في العام السابق لانشاء جمعية الاتحاد والترقي ، كان تيمو قـد توقف في برنديزى ـ الميناء الايطالي المعروف . عندما كان في طريقه الى بلاده (البانيا) .

وقد زار خلال اقامته في برنديزى ونابولى محفلا ماسونيا يرافقه أحد أصدقائه وتعلم شيئا كافيا عن دور الكاربونارى في التاريخ الايطالي وقد تأثر بتنظيماتها فيما بعد لما قرر أن ينشىء في تركية جمعية سريـة تشبهها .

وكان ـ كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ـ أثر الكاربونارى في جمعية الاتحاد والترقي واضحا من حيث ان المفروض في أعضـائها أن

يعرفوا بعضهم بعضا بأرقام كسرية ، وتتكون هذه الأرقام الكسرية من ترقيم كل خلية جديدة فى المنظمة ثم باعطاء رقم لكل عضو فى تلـــك الجماعة ، فكان رقم الخلية أو الفرع هو المقام ورقم العضـــو البسط ، ولتوضيح ذلك نقول ان العضو الخامس فى الخلية السابعة كان يدخل فى قائمة الجمعية برقم « ٧/٥ » وكان رقم ابراهيم تيمو منشىء الحركـــة « ١/١ » .

اذن أورخان محمد على ـ منشىء جمعية الاتحاد والترقى تدرب على أيدى الماسونيين الايطاليين وكان المنتسبون الأوائل لتلك الجمعية هم :

اسحق سكونى وشرف الدين مغمومى وعبد الله جودت ومحمـد رشيد الشركسى واسساف درويش وهرسكلى على رشدى ومحمد غيريد وحسن زاده على وحكمت أمين واسماعيل ابراهيم وكريم سيباطى ومكلى صبرى وسلانيكلى ناظم ونجيب دراغا وطلعت بك وشطين بك كقوصوالى ابراهيم وكريتلى شفيق وجودت عثمان .

وربما كان فى مقدمة أخطاء السلطان عبد الحميد بل خطاياه انه كان باستمرار يعفو عن زعماء الجمعية عندما يقعون فى قبضـــته وكان باستمرار يقول : انهم يدفعوننى لكى اسلك طريق الشدة والعنف ولكنى لا أســتطيع ذلك لاننى لا أملك نفس المـزاج العنيف الذى كان يملـكه جدى السلطان محمود : كان السلطان عبد الحميد لا يكتفى بالعفو ، عن زعماء تلك الجمعية وانما كان يعمد الى استمالتهم بمنحهم مناصب عالية أو يدفع مبالغ معينة اليهم أو نفيهم وتحديد اقامتهم هنا أو هناك مـع مخصصات مالية أكبر من رواتبهم الأصلية ولم يؤذ أى واحدمنهم خارج هذا أى ايذاء لذلك فقست بيضات الأفاعى تحت جناحى رحمته وكبرت ونمت وانتشرت فى كل جحر ثم خرجت الى الميـادين والساحات : وقد بدأت الدولة الأجنبية ـ تركيا الفتاة ـ تمد يد المساعدة الى الاتحاديين ووضـعت دوائر بريدهـا لخدمة ومســاعدة توزيع جرائد ومنشورات الاتحاديين وايصالها ، وتوزيع داخل الدولة العثمانية .

★★★

وحول انكشاف المؤامرة الأولى لقلب نظـام الحكم والمؤامرة الثـانية التى القى فيها ـ مرة أخرى ـ القبض على معظم رءوس الاتحاديين فى استامبول (اسحاق سكرنى ـ كريم سيباطى عبد الله جودت ، شرف الدين مغمومى ، الشيخ نائلى ، عبد القادر أفندى وأحمـــد بك يقول الأستاذ أورخان محمد على :

« وأمام سماحة السلطان وعدم أخذه اياهم بعقاب رادع فقد استمرت الجمعية في الداخل والخارج بنشاطهـــا استنادا الى مساعـدات الدول الأوروبية الطامعة في أملاك الدولة العثمانية وعلى رأسها انكلتره وفرنسا، والى مساعدة الجمعيات الماسونية التي كانت ولا تزال جمعيات تهيمن عليها الصهيونية الدولية ، لذا فاننا نرى أن الجمعية تخطط لحركة انقلابية في آب ــ أغسطس ــ سنة ١٨٩٦ ، أي بعد سـنة واحدة فقـط من حركة الاعتقالات الثانية والتي انتهت بعقوبات خفيفة كما ذكرنا ، وقد افتضحت المؤامرة قبل يوم واحد فقط من ساعة الصفر فألقي القبض على جميـع المشتركين في المؤامرة وأودعوا السجن ٠

ما هو المنتظر الآن من السلطان تجـــاه جمـاعة يضبطهم متلبسين بمؤامرات ، الوحدة تلو الأخرى للاطاحة به ، من حاكم فردي أشاع عنه نفس هؤلاء المقبوض عليهم بانه قاتل سفاك ، وأنه في وسوسة دائمـة على عرشه وعلى حياته ؟!

وللمرة الثالثة يصدر السلطان أحكاما مخففة جدا ، اذ يكتفي بنفي جماعة منهم وتحديد اقامتهم في مدن مختلفة من البلاد ، وتبديل وظائف جماعة أخرى ، ولم يعدم أي شخص منهم ٠

★★★

ويشرح أرنست رامزور حادثة كشف المؤامرة والحكم على الاتحاديين كما يلي :

(٠٠٠ ولم تنقض الليلة الا وكان كل المشتركين بالمؤامرة قد ألقي القبض عليهـم ، وأدى هـــذا الى نفي المتـــآمرين الى أجـــزاء نائية من الامبراطورية ٠ وقد شملت قائمة المنفيين الزعماء جميعهم : كاظم باشـا وحاجي أحمد وشيخ نائلي مع أخويه حقي بك وعيني بك ، وثمانية عشر آخرين من أفراد أسرته ، والشيخ عبد القادر وعشرين من أفراد أسرته ، ومكلي صبري وزهدي بك رئيس ديوان المحاسبة ، وكمال بك المدعي العام لمجلس الدولة وعددا آخر كبيرا وضعوا جميعا على ظهر سفينة ووزعوا على المنـاطق التي عينته لمنفاهم ٠ أما الذين كانوا يعدون أخطر العنـاصر فقد ارسلوا الى ليبيا ٠ وهكذا أقام الشيخ نائلي وأقاربه في أماكن كحمص وبنغازي بينما أجبر حاجي أحمد على الأقامة في فزان ، أما مكلي صبري فقد أرسل الى الموصل ، غير أنه استطاع بعد بضع سنوات الهرب ، ثم استقر في باريس ، اما المقدم شفيق بك فقد ذهب الى عكا ، لكنه استطاع الهرب بسرعة وذهب الى باريس حيث أصبح أحد الزعماء في الحزب) ٠

★★★

وعندما حاول السلطان استمالة زعماء جمعية الاتحـــاد والتـرقى وارسل اليهم ـ فى أوروبا ـ رئيس استخباراته محمد جلال باشا ـ سارع هؤلاء الزعماء بقبول الصلح واعلنوا حل جمعيتهم واغلاق جريـدة الميزان ورجع زعيمهم مراد بك الى استانبول وتبعه زملاؤه وقبل مراد بك منصب عضو فى احدى لجنة شورى الدولة · وعين أحمد بك (باشا) وشريف بك ملحقين عسكريين وعين اسحاق سكوتى فى سفارة روما ، أما عبد الله جودت فقد عين طبيبا فى السفارة العثمانية فى فيينا ·

ولكن هل يقنع خصوم دولة الخلافة العثمانية وأعداؤها بذلك ؟ كلا : لقد بدأوا من جديد ينفخون فى الرماد وكان هرتزل قد قطع آخـر أمل فى أن يجيبه السلطان عبد الحميد الى أى مطلب من مطالبه وراحت الماسونية تغير من خططها واوراقها وجنودها واتفق الجميع ، على أن نقطة الارتكاز للعمل على تدمير دولة الخلافة يجب ان تكون فى مدينة سلانيك مركز الدونمة (المرتدين) وهم أتباع حاخام يهودى ظهر فى أزمير وادعى انه المسيح المنتظر وانه سيخلص اليهود ويؤسس لهم دولتهم وقد اسلم أو تظاهر بالاسلام وسمى ـ أورخان محمد على ـ باسم محمد عزيز أفندى وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود الى الاســـلام فسمح له بذلك ، وسلانيك أيضا ـ مركز يهودى هام كما ان للماسونية فيها نشاط كبير ثم ان سلانيك ـ وهذا هو المهم ـ كانت مقر الجيش التركى الثالث والذى يوجد به كثير من القيادات المتزعمة لجمعية الاتحاد والترقى ·

***

ويقول المؤرخ التركى نظـام الدين نظيف فى كتابه اعـلان الحرية والسلطان عبد الحميد الثانى :

(··· عندما رد طلب الوفد اليهودى ـ المسند من قبل الامبراطور ويلهم ـ فى الحصول على وطن لهم ، أى عندما خاب هرتزل فى مسعاه اشتد العداء ضد « يلدز » وهذا ما كان يتوقعه عبد الحميد ، لأن اليهود قـوم يتقنون العمل المنظم ، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجـــاح فى مسعاهم ، فالمال متوفر لديهم وكانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية ، وكانت صحافة أوروبا فى قبضتهم ، فكان فى مقدورهم اطلاق العواصف التى يريدونها لدى الرأى العالمى متى شاءوا ··) ·

الى أن يقول نظام الدين نظيف :

(ـ بدأوا أولا بتحريك الصحافة العالمية ، ثم أخذوا بتوحيد وتجميع كل الشروط المعادية لعبد الحميد فى المجتمع العثمانى ، فاذا بنا نجد أن أنصار المشروطية يتخذون طابعا منظما وهجوميا ، علما بانهم كانوا حتى

ذلك الوقت متفرقين ويعملون دون نظام ودون تنسيق ، اذ لم يكن صعبا عليهم توحيد أعداء عبد الحميد الذين نشأوا فى ذلك المجتمع العثمانى الخليط « الكوزموبوليتى » فيمقدور مثل هذه المنظمة « الكوزموبولوتية » القيام بهذه المهمة . وقد أخذ « المشرق الأعظم الماسونى الايطالى على عاتقه هذه المهمة فى التوحيد والتنسيق لأنه كان أقرب مركز ماسونى للامبراطورية العثمانية . ولعب محفل Macedonia Risorta ومحفل labos lux الايطاليين وخاصة محفل « ريزورتا » فى « سلانيك » دورا ملحوظا ..) .

ويقول الدكتور رامزور مبررا سرعة انتشار جمعية الاتحاد والترقى فى سلانيك : ربما كانت سلانيك آنذاك أكثر المدن تقدما فى الامبراطورية العثمانية لأن الأوروبيين فى سكانها المنوعين كانوا أكثر من العثمانيين ، وكان نصف سكانها تقريبا من اليهود السفارين الذين لقوا منذ زمن بعيد فى تركية الاسلامية تسامحا دينيا لم توفره لهم اسبانية المسيحية ، وفى القرن السابع عشر . أسلم عدد منهم مع رئيسهم شبتاى سيوى ، الذى عد نفسه مسيح ازمير ، ثم صاروا يدعون منذ ذلك الحين الدونمة . وبالاضافة الى ذلك كانت توجد جماعات كبيرة تمثل كل قومية فى البلقان . وكان مستوى التربية العام أرقى بالتأكيد من مستواه فى تركية الأسيوية .

ان قرب مكدونية من أوروبة ، وتعقد مشاكلها التى تنعكس آثارها فى كل الأمم البلقانية ، وبصورة غير مباشرة فى جميع الدول الكبرى بشكل من الأشكال ، كان من الأسباب التى جعلت هذه الدول الكبرى تضعها تحت الرقابة ، فقد فرضت على السلطان الموافقة على قوة من الجندرمة بأمرة ضباط أوروبيين كمحاولة لابقاء الحالة الراهنة القلقة ، وهذا زاد من الصعوبات فى وجه عبد الحميد فى محاولته وقف انتشار الأفكار فى سلانيك وبقية أنحاء مكدونية ، أو فى أن يمنع بأساليبه الدقيقة المعتادة التنظيم الذى كان يعمل بنشاط ضده . كما أن السهولة النسبية للاتصال بالعالم الخارجى كانت أيضا مهمة) .

★★★

ويضطر الدكتور رامزور للاعتراف بدور الماسونية فى حركة الاتحاد والترقى ، فيقول :

(لم يمض وقت طويل على المتآمرين فى سلانيك ، وهى مركز النشاط حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى وهى الماسونية ولما كان يصعب على عبد الحميد أن يعمل هنا بنفس الحرية التى كان يتمتع بها فى الأجزاء الأخرى من الامبراطورية ، فان المحافل الماسونية القديمة فى تلك المدينة

استمرت تعمل دون انقطاع ـ بطريقة سرية طبعا ـ وضمت الى عضويتها عددا ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع عبد الحميد ٠

لذلك وجدت الجمعية العثمانية للحرية أن المحافل الماسونية فى سلانيك تلائم أغراضها بصورة رائعة ، ويبدو أن الجمعية استعملت بعض المحافل أو ربما جميعها لتكون محلات للاجتماع ، وضمت كثيرا من أعضائها واستخدمت الفن الذى نماه الماسونيون فى اختيار المرشحين للعضوية ، ومن المحتمل أيضا أن عمل الجمعية سار بسرعة تثير التقدير بسبب هذا الاتصال مع ماسونية سلانيك) ٠

(ويؤكد لنا دارس آخر للحالة أنه فى حوالى سنة ١٩٠٠ قرر « المشرق الأعظم » الفرنسى ازاحة السلطان عبد الحميد وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركية الفتاة منذ بداية تكوينها ٠ ثم ان محللا آخر يلاحظ : « يمكن القول بكل تأكيد ان الثورة التركية كلها تقريبا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية ») ٠ ويشير الكاتب فى الصفحة نفسها الى أن النشرة الماسونية الفرنسية « لاكاسيا Lacacia » تبدو مقتنعة بأهمية الماسونية لحركة تركية الفتاة ٠

★★★

الى أن يقول د٠ رامزور :

(اتخذت هذه الصلة بين الماسونية وأعضاء تركية الفتاة طابعا شبه رسمى بعد الثورة مباشرة ، لما قابل مراسل صحيفة باريسية شابا من تركية الفتاة اسمه رفيق بك ٠ويبدو أن اجابة رفيق بك توضح أن المحافل الماسونية كانت مفيدة جدا للحركة ، وقد اتخذ هذا أيضا كدليل على ثورة عالمية فقد قال :

« حقا اننا وجدنا سندا معنويا من الماسونية وبخاصة الماسونية الايطالية فالمحفلان الايطاليان Labor et lux, macedonia Risorta قدما لنا خدمة حقيقية ووفرا لنا الملاجىء ، فكنا نجتمع فيهما كماسونيين ، لأن كثيرين منا كانوا ماسونيين غير اننا فى الحقيقة كنا نجتمع لننظم أنفسنا، كما أننا اخترنا معظم رفقائنا من هذين المحفلين ، اللذين ساعدا لجنتنا كغربال ، نظرا لما كانا يبديانه من دقة فى الاستفسار عن الأفراد ، فكان العمل السرى الذى يجرى فى سلانيك قلما يثير الشكوك فى القسطنطينية كما أن عملاء الشرطة حاولوا عبثا دخوله ٠ يضاف الى ذلك أن هذه المحافل التمست من « الشرق الأعظم » فى ايطاليا أن تتدخل السفارة الايطالية عند الحاجة ، وقد وعد « الشرق الأعظم » بدوره بضمان ذلك » ٠

(أما فيما يتعلق بأعضاء تركية الفتاة فى أوروبا فيبدو أن عددا منهم ارتبط بالمحافل الماسونية لما كانوا فى المنفى ، الا أنه لا يمكننا تعيين

عند الذين فعلوا ذلك ، بل يمكن القول بالتأكيد أن اثنين على الأقل من أبرز قوادها لم ينضما قط للماسونية وهما أحمد رضا والدكتور (سلانيكى) ناظم .

ويورد الأستاذ أورخان محمد على ادلة ووثائق تكشف ـ كما يقول بشكل قاطع ـ بان المؤامرة التى أطاحت بالسلطان عبد الحميد كانت مؤامرة يهوديه وماسونية وان الشعارات التى رفعت من قبل جمعية الاتحاد والترقى وهى الحرية والاخوة والمساواة لم تكن الا شعارات كاذبة مزيفة ولم تكن الا قناعا وستارا وغطاء للمؤامرة اليهودية الذى استخدمه أعضاء جمعية الاتحاد والترقى كأدوات فى هذه المؤامرة التاريخية الكبرى .

تقول « ناستا هـ . ولستر Nasta H. Welster مؤلفة كتاب « الجمعيات السرية والحركات الهدامة » .

"Secret Societies and Subversive Movement"

حول علاقة حركة الاتحاد والترقى بالماسونية ما يلى بالحرف الواحد :

(ان حركة تركيا الفتاة نشأت من المحافل الماسونية فى سلانيك التى كانت تدار من قبل « الشرق الأعظم » الايطالى) .

★★★

ويقول سيتون واطسون فى كتابه « نشأة القومية فى بلاد البلقان » The Rise of Nationality in the Balkans ما يلى :

« ان أعضاء تركيا الفتاة ، الذين كان غرب أوروبا على اتصال دائم بهم ـ كانوا رجالا منقطعين وبعيدين عن الحياة التركية وطراز تفكيرها لكونهم قضوا ردحا طويلا من الزمن فى المنفى وكانوا متأثرين وبشكل سطحى بالحضارة الغربية وبالنظريات غير المتوازنة للروح الوحشية للثورة الفرنسية .

كان كثير منهم اشخاصا مشبوهين ولكنهم كانوا دون استثناء رجال مؤامرات لا رجال سياسة ، ومدفوعين بدافع الكراهية والحقد الشخصى لا بدافع الوطنية ، والثورة التى أنجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة وهى مدينة « سلانيك » اذ نمت وترعرعت فيها وتحت حماية المحافل الماسونية « جمعية الاتحاد والترقى » وهى المنظمة السرية التى بذلت لنظام حكم عبد الحميد .

ان العقول الحقيقية للحركة كانت عقولا يهودية أو يهودية ـ مسلمة ، وقد جاءت مساعداتها المالية من أغنياء « الدونمة » ومن يهود سلانيك ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين فى فينا وبودابست وبرلين وربما فى باريس ولندن أيضا .

★★★

ويقول فخري البارودي وهو يصف وضع دمشق بعد نجاح الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد :

(وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوح الماسوني الذي كان مغلقا قبل الدستور) ٠

ثم يقول :

(وبعد الانقلاب فتح المحفل أبوابه ، وجمع الأعضاء شملهم وأسسوا محفلا جديدا أسموه محفل « نور دمشق » وربطوه بالمحفل الاسكتلندي) ٠

ويعترف أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بما يلي :

(كان هناك نوعان من الأعضاء في الجمعية : أحدهما مرتبط بالمحفل الماسوني وهذا كنا نطلق عليه اسم « الأخ من الأب والأم » وآخر غير مرتبط بالمحفل الماسوني فكنا نطلق عليه اسم « الأخ من الأب » فقط) ٠

ويعلق الكاتب التركي المعروف « نجيب فاضل » على هذا الاعتراف بتساؤل مرير :

(أكان الضباط الاتحاديون في الجيش الثالث تحت أمرة الدولة يا ترى أم تحت امرة وخدمة اليهودية ؟!؟) ٠

والأدهى من ذلك أن هذه المؤامرة التي كانت الأيـدي اليهودية تنسجها من وراء الأستار كانت تتم باسم الاصلاح وباسم مقاومة الظلم والاستبداد وتحت شعارات براقة مثل : الحرية ، الاخاء ، المساواة ٠

ولا ينكر الماسونيون الذين أصدروا كتابـا لهم في تركيا باسم « الماسونية في تركيا والعالم Diinyadave Turkiyede Masonluk » دورهم في هذه المؤامرة اذ نقرأ فيه ما يلي :

***

(لم يستطع عبد الحميد الثاني السماح للحركة الماسونية بالعمل لأنها كانت تحمل مبادىء الحرية ، فقام باغلاق محافلها ، ومع ذلك فقد استمرت الحركة الماسونية بشكل سري في عملها طيلة السنوات ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ ٠ وتأسس المحفل التركي الكبير المرتبط بالمحفل الايطالي الكبير المسمى بمحفل « ريزورتا » في سنة ١٨٨٤ من قبل « سافا باشا ») ٠ و (٠٠٠ وقد انتشرت الماسونية بشكل خاص في سلانيك وحواليها ، ومع أن عبد الحميد حاول أن يحد ويشل الحركة الماسونية هناك ، الا أنه لم يوفق في مسعاه) و (٠٠٠ وقد قامت هذه المحافل ، لا سيما محفـل « ريزورتا » ومحفل « فاريتاس » بدور كبير في تاسيس وتوسيع حركة جمعية الاتحاد والترقي ٠ كما كان للماسونيين دورهم في اعلان الحرية سنة ١٩٠٨) ٠

وقد كان السلطان عبد الحميد على وعى كامل بان خيوط المؤامرة المحاكة ضده هي فى أيدى اليهودية العالمية لعدم استجابته لبيع القدس وفلسطين اليها ·

ويقول « حسام الدين ارتوك » وهو أحد رؤساء الأمن القومى السابقين فى تركية فى كتابه « ما وراء الأستار فى عهدين "iki Devrin perde arkasi" ما يلى :

(قال لى مرة صديقى ملازم أول خيالة « زنون دبره لى » :

★★★

عندما كنت فى حراسة السلطان عبد الحميد شكا لى السلطان المخلوع فى أحد الأيام قائلا :

« ان أشد ما آلمنى هو تبليغى قرار الخلع من قبل ذلك اليهودى الماسونى ، فأنا لا أستطيع نسيان « عمانوئيل قره صو » من بين وفد المبعوثين (النواب) الذين جاءوا الى يلدز · لقد كان هذا اهانة لمقام الخلافة · ونحن جميعا نعلم مدى الحقد الذي يكنه اليهود منذ زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) للاسلام ولمقام الخلافة ، وعندما كنت على عرش السلطنة العثمانية جاءنى فى أحد الأيام « تيودور هرتزل » مؤسس المنظمة اليهودية العالمية مع رئيس الحاخاميين وذلك من أجل غاية صهيونية ، وقبلت الزيارة للاستماع اليهم لمعرفة مقاصدهم فكان طلبهم هو وطن لليهود ، وكانوا يقترحون القدس لذلك ، حتى أن تيودور هرتزل ، قال بلا خجل :

ــ أحب أن أعرض لجلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التى ترونها مناسبة من الذهب حالا من أجل القدس ·

شعرت بأن الدم يطفر الى رأسى ·· تأمل ! لقد وصلت الجرأة بهذين اليهوديين الى عرض الرشوة فى مقام سلطنتنا صرخت بهما ــ اخرجا من هنا حالا ·· ان الوطن لا يباع بالمال ·

وعندما دخل رجال القصر أمرتهم باخراجهما ·

ومنذ ذلك الوقت ناصبنى اليهود العداء ، وكل ما أقاسيه هنا فى « سلانيك » هو جزاء عدم اعطائى وطنا لليهود ·

وينشر الأستاذ سعيد الأفغانى فى مقالة له بمجلة العربى (١٩٧٢) العدد ١٦٩ حملت العنوان التالى : كانت الصهيونية هى خالعة السلطان عبد الحميد · وسقوط المملكة العثمانية : ينشر رسالة كان قد بعث السلطان عبد الحميد ــ فى منفاه ــ الى الشيخ محمود أفندى أبى الشامات يقول فيها بعد المقدمة ·

(.. بعد هذه المقدمة أعرض لرشادنكم والى أمثالكم أصحـــاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ :
انني لم أتخل عن الخلافه الاسلامية لسبب ما سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم « جون تـــورك » وتهديدهم ـ اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة الاسلامية . ان هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا على أن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة ـ فلسطين ـ ورغم اصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف. وأخيرا وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهبا . فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا ، وأجبتهم بالجواب القطعي الآتي : انكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا ـ فضلا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهبا ـ فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي . لقـد خدمت الملة الاسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلن أسـود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين . لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضا .

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي ، وأبلغوني أنهم سيبعدونني الى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الأخير . هذا وحمدت المولى وأحمـده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامي بهذا العـــار الأبدي الناشيء عن تكليفهم باقامة دولة يهودية في الأراضي المقدســـة فلسطين . وقد كان بعد ذلك ما كان . ولذا فانني أكرر الحمد والثناء لله المتعالي وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع المهم وبه أختم رسالتي هذه .

ألثم يديكم المباركتين وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي، سلامي الى جميع الاخوان والاصدقاء : يا أستاذي العظيم : لقد اطلت عليكم البحث ولكن دفعني لهذه الاطالة أن نحيط سماحتكم علما وتحيط جماعتكم بذلك علما أيضا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في ٢٢ ايلول ١٣٢٨

خادم المسلمين
عبد الحميد بن عبد الحميد

★★★

وتبقى وثيقة هامة بعث بها السفير البريطاني في استانبول السير جيرارد لاونز بتاريخ ٢٩ مايو « ايار » ١٩١٠ الى وزير خارجية بريطانيا شارل هاردينج ، نشرها ايلي كيدوري أستاذ علم السياسة بجامعة لندن في كتاب له صدر بلندن عام ١٩٧٤ ورقم الرسالة في وثائق الخارجيـة البريطانية F.O. 8111/93 A وقد ترجمها الى العربية د. محمد توفيق

حسين ونشرت في العدد التاسع من مجلة آفاق عربية (ايار) مايــو ١٩٧٨ وفيما يلي نص تلك الوثيقة الخطيرة ٠

سري

من السير ج٠ لاونز الى السير ش٠ هاردينغ

(شخصي وسري)

القسطنطينية ٢٩ أيار ١٩١٠

عزيزي شارل

برقية غورست بتاريخ ٢٣ نيسان ، وبرقيتكم بتاريخ ٢٥ نيسان حول شائعة تعيين محمد فريد مندوبا في مصر عن الماسونيين في القسطنطينية « الذين يقال انهم على علاقة وثيقة مع جمعية الاتحاد والترقي » حملتني على أن أكتب اليك بشيء من التفصيل عن الماسونية الأوروبية المسيطرة على حركة تركيا الفتاة ٠ وأنا أكتب اليك بصورة شخصية وسرية لأن هذه الماسونية الجديدة في تركيا ، على خلاف الماســونية في انكلتره وأمريكا ، هي الى حد كبير سرية وسياسية ، ولا يمكن الحصول على أية معلومات عن الموضوع الا بمنتهى السرية ، لأن الأشخاص الذين يكشفون عن أسرارها السياسية يخشون الانتقام على أيدي زبانيتهــا السريين ٠ وقبل بضعة أيام هدد فعلا أحد الماسونيين المحليين ، الذي كشف عــن رموز الماسونية بأن يقدم للمحكمة العرفية الموجودة بموجب ظروف حالة الطوارىء ٠

ولا يخفى عليك أن حركة تركيا الفتاة في باريس كانت مستقلة عن حركة تركيا الفتاة في سلانيك ، وكانت تجهل معظم تنظيماتها واجراءاتها الداخلية ، ويسكن في سلانيك حوالي ١٤٠٠٠٠ نسمة ، منهم ٨٠٠٠٠ يهودي من أصل اسباني ، و ٢٠٠٠٠ من طائفة سبط لاوي (كذا) أو من اليهود المتظاهرين بالاسلام (الدونمة) ومعظم هؤلاء اليهود الأسباني الأصل قد حصلوا في الماضي على الجنسية الايطالية ٠

وهم ماسونيون ينتمون الى المحافل الايطالية ٠ فاليهودي ناثان رئيس بلدية روما يحتل مركزا رفيعا في الماسونية ٠ واليهوديــان لــوزاتي وسونينو ، من رؤساء الوزارة ، وغيرهما من أعضاء مجلسي الشــيوخ والنواب ، هم أيضا ، فيما يظهر من الماسونيين ٠ وهم يزعمــون بــأن محافلهم الماسونية هي فروع من المحفل « الاسكتلندي القديم » ٠ وتتبع طقوسه ٠

وقبل بضعة أعوام أسس عمانوئيل كاراسو ـ وهو يهودي ماسوني من سلانيك ويمثل الآن مدينة سلانيك في مجلس المبعوثان التركي ـ بالتعاون مع الماسونية الايطالية محفــلا في سلانيــك سمي بمحفــل

« ماسيدونيا ريزوررتا » . ويبدو أن كاراسو أقنع رجال تركيـا الفتاة ضباطا ومدنيين ، بالانتماء الى الماسونية . وهدفه من ذلك فرض النفوذ اليهودى غير المستساغ على الأوضاع الجديدة فى تركيا ، وان كان يتظاهر بأنه انما يريد مساعدة رجال تركيا الفتاة فى تضليل جواسيس السلطان عبد الحميد ، ومنحهم الأمن فى محفله الماسونى ، لأن هذا المحفل الماسونى الذى ينعقد فى بيت أجنبى يتمتع بالحصانة الممنوحة للأجانب فى الدولة العثمانية ضد الملاحقة والتفتيش . وقد علم جواسيس عبد الحميـد بالحركة ويظهر أن اسماعيل ماهر باشا عرف بعض أسرارهم ونقلها الى قصر يلدز . وبعد مدة قصيرة من قيـام الثورة سنة ١٩٠٨ ، اغتيـل اسماعيل ماهر باشا فى ظروف غامضة . ووضعت السلطات العثمانية جواسيس خارج مقر المحفل الماسونى يسجلون أسـماء من يرتاده من الضباط والمدنيين . ورد الماسونيون على هذا الاجراء باجراء معاكس فأدخلوا فى الماسونية عددا من الشرطة السرية ، واعتبروهم من « الاخوة » ويظهر أن المخططين لحركة تركيا الفتاة فى سلانيك كانوا بالدرجـة الأولى من اليهود . كانت شعارات أعضاء تركيا الفتاة : « الحـرية ، العدالة ، والتآخى » من ابتكار الماسونيين الايطاليين ، وكانت ألوان علم الحركـة الأحمر والأبيض هى نفس ألوان علم الماسونية الايطالية . وبعد مـدة قصيرة من ثورة ١٩٠٨ وحالما انتقلت جمعيـة الاتحـاد والترقى الى القسطنطينية أصبح من المعروف بأن عـددا كبرا من قادتهـا كانـوا ماسونيين ، وأخذ كاراسو يلعب دورا كبيرا ، ومن ذلك نجاحه فى السيطرة على فرع جمعية الاتحاد والترقى فى البلقان . وقد لوحظ أن اليهـود المحليين والأجانب على اختلاف انتماءاتهم كانوا مؤيدين متحمسين للعهد الجديد . لقد أصبح كل يهودى ، كما عبر عن ذلك أحد الأتراك ، جاسوسا بالقوة للجمعية الخفية ، وبدأ الناس يقولون : ان الحركة انما هى حركة يهودية أكثر مما هى ثورة تركية .

★★★

وعينت الحكومة الايطالية يهوديا وماسونيا يدعى بريموليفى ، الذى لم يكن موظفا فى السلك القنصلى ، قنصلا عاما لها فى سلانيك . وعين أوسكار ستراوس سفيرا للولايات المتحدة فى القسطنطينية . وكـان أوسكار ستراوس هذا ، بالتعاون مع جاكوب شيف ، قد أثر على اليهـود فى الولايات المتحدة وجعلهم يحبذون هجرة اليهـود الى العراق بدلا من الخطط الاقليمية الأخرى ، باعتبار ذلك صيغة موسعة من الصهيونية .

★★★

ولا يخفى عليك بأن المسلم المستقيم العقيدة يكره الماسونية كراهية شديد ، ويراها أسوأ من اللادينية والالحاد . وقد برز هـذا الشعور

العدائي للماسونية بوضوح في الحركة المناهضة لجمعية الاتحاد والترقي والتي بلغت ذروتها في التمرد الذي وقع يوم ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩ ٠ ولم تفسر هذه الحوادث ، لحد الآن ، تفسيرا مرضيا ، ولكن لم يغب عن المراقب في ذلك الوقت أن يلاحظ بأن الافواج الأربعة التي أرسلت خصيصا من سلانيك الى العاصمة ، والتي كان كامل باشا يود أن يعيدها الى الجيش الثالث ، هي التي بدأت التمرد أو ما يسمى ب « الحركة الرجعية » وكانت تحت امرة اليهودي المتظاهر بالاسلام والماسوني من سلانيك العقيد رمزي بيك ، الذي بدلا من أن يحاكم أمام المحكمة العرفية العسكرية بسبب تصرف العساكر الذين كانوا تحت امرته عين رئيسا لأركان حرب السلطان محمد الخامس وكان كاراسو أحد الرجال الذين حملوا الى السلطان عبد الحميد رسالة خلعه من السلطنة ، وقد نقل عبد الحميد الى سلانيك ، وحبس عند صيرفي جمعية الاتحاد والترقي اليهودي الايطالي ، في حين عين أخ لرمزي بك مشرفا عليه ٠ وبعد أن تم خلع السلطان عبد الحميد أخذت الجرائد اليهودية في سلانيك تزف البشائر بالخلاص من « مضطهد اسرائيل » الذي رفض مرتين أن يستجيب لطلب الزعيم الصهيوني هرتزل ، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا (أي في بريطانيا ٠ المترجم) قانون الأجانب ، ضد المهاجرين البولونيين اليهود ، وغير ذلك من الأعمال التي حالت دون تحقيق الحلم الصهيوني في فلسطين ٠ وأعلن المؤتمر الصهيوني التاسع المنعقد في همبرغ في شهر كانون الأول سنة ١٩٠٩ بأن انقسام العالم اليهودي بين الصهيونيين ودعاة الهجرة الى مناطق أخرى غير فلسطين قد انتهى ٠

★★★

وعاد اليهود موحدين بفضل « معجزة الثورة التركية » ٠ وفي نفس الوقت عين جاويد بك ، نائب سلانيك ، وزيرا للمالية ، وهو يهودي الأصل وماسوني ، بارع الذكاء ، موهوب ٠ بينما أصبح طلعت بيك ، وهو أيضا ماسوني ، وزيرا للداخلية ٠ وقدم حلمي باشا ، الصدر الأعظم ، طلبا للانتماء الى المحفل الماسوني ولكنه لم يلاحق طلبه ٠ وأعلنت الأحكام العرفية لمدة سنتين ، وكان معظم الضباط في المحاكم العرفية العسكرية من الماسونيين ٠ و « أمر » مجلس النواب أن يصدر قانونا صارما للمطبوعات ، وعين رجل يهودي الأصل وماسوني من سلانيك مديرا للمطبوعات ٠ وكان مدير المطبوعات يتمتع بسلطات واسعة ، حيث كان يستطيع أن يوقف أية صحيفة عن الصدور « اذا وجهت الى العهد الجديد أي نقد شديد » وكان انتقاد النظام يوصم ب « الرجعية » كما كان بامكانه أن يوصل صاحب الجريدة ومحررها الى المحاكم العرفية العسكرية ٠ وأنشئت وكالة أخبار تلغرافية شبه رسمية لتقدم رأي جمعية الاتحاد

والترقى فى الأحداث الداخلية والخارجية ، ووضعت تحت ادارة يهـودى بغدادى • وكادت المساعى تنجح فى تعيين محام يهودى وصهيونى من سلانيك مستشارا لوزارة العدلية •

وكان يرأس الفرع الرئيسى لجمعية الاتحاد والترقى فى القسطنطينية رجل يهودى الأصل وماسونى من سلانيك • وقام رجل يهودى الأصـل وماسونى من سلانيك بمحاولات مجهدة ليتعين فى منصب أمين العاصمة فى القسطنيطنية ولكنه لم ينجح لحد الآن ، مع أن الأمير سعيد حليم ، وهو ماسونى مصرى قد أصـبح نائب أمين العاصـمه • ويتمتع أمين العاصمة فى استانبول بسلطات واسعة وخاصة فى القضايا المتعلقـة بالانتخابات البلدية ، وانتخاب ممثلى مدينة القسطنطينيـة فى مجـلس المبعوثان (مجلس النواب • المترجم) وفى الوقت نفسه أبدلت وزارة الشرطة القديمة بمديرية « الأمن العام » التى تسيطر على الشرطة والدرك (الجندرمة) ووضعت تحت امرة ماسونى من سلانيك • وأمر « مجلس النواب » أيضا بسن « قانون الجمعيات » الذى مكن جمعية الاتحاد والترقى من حل جميع الجمعيات المماثلة لها أو المنافسة لها بين البلغار واليونان

★★★

وبعد أن قامت جمعية الاتحاد والترقى بعملية تكميم الأفـواه هـذه ، تظاهرت كذبا وزيفا بتحويل نفسها من جمعية ثورية سرية الى « حـزب سياسى وجمعية اجتماعية » ذات نظام داخلى معلن • على أنه لوحظ فى الوقت نفسه أن المحافل الماسونية أخذت تظهر بكثرة ، كما ينبثق الفطر من باطن الأرض ، فى جميع المدن الرئيسية والصغرى فى مقدونيا وفى العاصمة كذلك ، حيث تم انشاء اثنى عشر محفلا ماسونيا خلال العـام المنصرم • ولا يحتاج المرء الى كثير من التحرى والتحقيق ليعلم أن سريـة المحافل الماسونية قد استخدمت ، جزئيا ، لاخفاء الاجراءات الداخليـة للجمعية التى أعلنت أنها لم تعد جمعية سرية ويبدو أن الجمعية مازالت تقـوم بدعاية سرية • كمـا يبدو أن الموظفين وغيرهم من ذوى المناصب المهمة قد أفهموا بأن مناصبهم ، وترقياتهم ، وبالتالى مـوارد رزقهم ، تتوقف على دخولهم فى المحافل الماسونية حيث يصبحون اخوة • وأخبر بعضهم بأنهم اذا ما أصبحوا ماسونيين فان قضية مصر وكريت ، وغيرها من القضايا التى تؤثر فى عظمة البلاد القومية ستحل لصالح تركيا ، وان أسرار العالم السياسية الكبرى ستتكشف لهم ، وأنهم سيصبحون اخوان ملك انكلتره ، وأن بامكانهم ان يصافحوه ، ويتبادلوا معه الرموز عندما يزور القسطنطينية ••الخ • وقام كثيرون من هؤلاء الماسون الجدد بزيارة المحفل الماسونى البريطانى المؤسس منذ مدة طويلة تحت اسم « تركيا » •

★★★

وقد نجح بعضهم فعلا فى الانتماء الى هذا المحفل • وقد بذلت الجهـــود المكثفة لحملهم على الاعتقاد بأنهم باعتناقهم الماســـونية انما ينتمون الى مؤسسة انكليزية • وهذه المحافل الماسونية الجديدة ، شأن مثيلاتها فى مصر ، تدعى بأنها تنبع « الطقوس الاسكتلندية العتيقة » كما تدعى كذبا بأنها تحمل بصورة غير مباشرة ، براءة من المحفل الاسكتلندى الأعظم ، الذى يعمل تحت رعاية ملك انكلتره • وهدفهم من ذلك استثارة الثقة التى تقترن باسم انكلتره فى نفوس طبقات العثمانيين كافة • ولكى تشدد الجمعية قبضتها على الجيش أدخل عدد كبير من الضباط ، وخاصة من الضباط ذوى الرتب الصغيرة ، فى محفل ماسونى يسمى « ريسنا »نسبة الى مسقط رأس نيازى بك فى مقدونيا • وكان يرأس هذا المحفل الماسونى النقيب عثمان فهمى بك وهو أخ نيازى بك • ودخل الماسونية معظم نواب الجمعية فى مجلسى المبعوثان والأعيــان ، وأصبحوا أعضـــاء فى المحفل الماسونى « للدستور » والذى كان من كبـار رؤسائه طلعت بك وزير الداخلية ، وجاويد بك وزير المالية • ولما أدرك بعض نواب المعارضة ، وخاصة العرب منهم ، بأنهم أصبحوا مبعدين عن مصادر السلطة ، وخارج تيار الأسرار السياسية والمؤامرات المحلية ، بدأوا ينشئون لهم محافـل ماسونية خاصة بهم ، أو ينضمون الى المحافل القائمة • فأنشـــأوا مثلا « التآخى العثمانى » و « أصدقاء الحرية » وبالاضافة الى ما تقدم أظهـر أبناء طائفة البكتاشية ، المنشقون عن أهل السنة والجماعة ، والذين يبلغ عددهم نحو مليــون شخص يسكن معظمهم فى جنــوب ألبانيا ومقـدونيا ويمارسون طقوسا دينية سرية تشبه الطقوس الماسونية ولهم تنظيم يشبه تنظيمها ـ أظهروا رغبتهم فى الانتمـــاء الى الماســونية • وكان هؤلاء البكتاشيون مدفوعين بروح الماسونية الحقة التى تختلف عن الماسونيـــة السياسية والالحادية التى يصادفها المرء فى بعض الأقطار الأوروبية •

★★★

وبالاضـافة الى المحافل الماسونية التى ذكرناها فيما تقدم أنشأت المحافل التالية أسماؤها فى المدة بين سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٠ : « الوفاء الشرقى » و « الأصدقاء الحميمون للاتحاد والترقى » و « نهضة بيزنطة » و « الحقيقة » و « الوطن » و « النهضة » فرع من محفـل « نهضـــة مقدونيا » و « الفجر » وهو اسم لا يخفى على البــاحثين فى السياسات السرية المصرية • ويبدو أن جميع هذه المحافل الماسونية ، مثل شبكـة المحافل الماسونية فى سلانيك ومقدونيا ، كان يقودها ، أو يخطط لها ، اليهود ، اذ كان الأرمن واليونانيون وغيرهم من المسيحيين المحليين غير ممثلين فيها تماما تقريبا ، ان لم يكونوا مبعدين عنها • وسبق وذكرت فيما تقدم الأمير سعيد حليم المصرى ، فقد قام هذا الأمير ، وأخوه عباس

حليم ، والأمير عزيز حسن ، وغيرهم من المصريين الذين دفعتهم كراهيتهم العنيفة لسمو الخديوى الى العمل مع جمعية الاتحاد والترقى والى تقديم المساعدات المالية لها . والطريقة التى تم بها ارتباط ماسونية أعضاء تركيا الفتاة والتى أدخلت الى العاصمة بوساطة سلانيك ، بالماسونية المصرية عرضة للتيارات المتعارضة التى تسود السياسة على سواحل البسفور ، وهى لا تخلو من غموض واضطراب . والماسونيون أنفسهم يقدمون روايات متناقضة عما حدث بالفعل .

كان ادريس بك راغب ، رئيس المحفل المصرى الأعظم ، الذى يقال بانه معترف به من قبل المحفل الاسكتلندى الأعظم ، المؤسس والمهيمن على عدد من المحافل الماسونية فى مصر وسورية وفلسطين ولبنان ، وفى لبنان تطالعنا ظاهرة غريبة ألا وهى انتماء عدد كبير من الروم الكاثوليك الى الماسونية .

★★★

وكذلك أسس محمد أورفى باشا عددا من المحافل الماسونية فى مصر والقدس وجنوب سوريا ، وكان يطمح الى ادخال المحافل الماسونية فى « منظومته » ، وقدم الى القسطنطينية فى ربيع سنة ١٩٠٩ لهذه الغاية ولكنه اصطدم ببعض الصعوبات ، فلما حدث تمرد وحدات الجيش فى ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ اعتراه الخوف ، فعاد مسرعا الى مصر . وقبل مدة من وقوع تلك الأحداث خول ادريس راغب الأمير عزيز حسن ، الذى كان قد بلغ المرتبة السابعة عشرة فى المحفل الماسونى الايطالى فى الاسكندرية أن يسعى لضم المحافل الماسونية فى القسطنطينية الى المحفل المصرى الأعظم . وقد بدأت المفاوضات بعد مدة من دخول العساكر المقدونية التى كان يقودها ويوجهها الماسونيون ، الى العاصمة ، والتى تم على يدها خلع السلطان عبد الحميد الذى كان يعارض الماسونية معارضة شديدة لأنه كان يعدها جمعية سرية سياسية خطرة . وقد استحصلت الموافقة الضرورية من محفل الشرق الأعظم الايطالى فرفع الأمير عزيز حسن بفضل موافقة خاصة صدرت عن المجلس الماسونى الأعلى البلجيكى بوساطة يوسف بك السكاكينى الى الدرجة الثالثة والثلاثين ، وخول الصلاحيات لانشاء محفل الشرق الأعظم لتركيا . حدث هذا فى شهر تموز أو شهر آب « أغسطس » فى سنة ١٩٠٩ ، وجعل محمد طلعت بك ، وزير الداخلية ، الرأس الأعظم لهذا المحفل . ويتبين مما تقدم أن انتصار القوات المقدونية على عبد الحميد فى آذار (مارس) ١٩٠٩ ، واحتلالها القسطنطينية ، كان يعنى انتصار الماسونية المستوحاة من ايطاليا على المحفل الماسونى الأعظم فى مصر المعترف به من قبل بريطانيا . وقد انضمت جميع المحافل الماسونية فى القسطنطينية بالتدريج اليه ، وكذلك فعلت المحافل

الماسونية في مقدونيا • وتقرر أن تخضع جميع المحافل الماسونية العثمانية في سوريا ومصر وغيرها لمحفل الشرق الأعظم العثماني • وعاد الأمير حسن ، وبرفقته يوسف السكاكيني ، الى مصر لتحقيق هذه الغاية • ولكن ادريس بك راغب ، وآخرين ، كانوا يعارضون الفكرة ويرون أن مصر ولبنان ، بما أنهما اقليمان يتمتعان بامتيازات خاصة ، يجب أن يكونا مستقلين كذلك حتى فيما يتعلق بالماسونية (السياسية) • وعلى هذا انفصل الأمير حسن عن ادريس راغب ، الذى كان قد أرسله الى القسطنطينية ، وعين محمد فريد الزعيم الوطني المصري ممثلا في مصر لمحفل الشرق العثماني الأعظم ، وذلك وفقا للتعليمات التي زوده بها طلعت بك الأستاذ الأعظم لمحفل الشرق العثماني الأعظم • وأقيمت حفلة التنصيب في محفل ماسوني في طنطا ، وقد عارض بشدة تعيين محمد فريد في هذا المنصب الماسوني الرفيع خليل حمادة باشا ، وشاهين مكاريوس صاحب جريدة المقطم ، وغيرهما من الماسونيين المصريين البارزين ، الذين لم يكونوا يتعاطفون مع الوطنيين • وشجب سمو الخديوى كذلك هذه الخطوة التي تربط برابطة الماسونية الوطنيين المصريين بجمعية الاتحاد والترقي • ولكن تعيين محمد فريد بعد أن تم لم يعد بالامكان الغاؤه • واقترح خليل حمادة باشا علاجا للمشكلة وذلك بانشاء محفل الشرق الأعظم العثماني خاص بمصر ، مستقل عن المحفل في القسطنطينية ، مع النص صراحة على أن لا يكون فيه محمد فريد لا أستاذا أعظم ولا أستاذا موقرا • وبانشاء محفل الشرق الأعظم العثماني في مصر ، وتنصيب رئيسه الأعظم ، يصبح تعيين محمد فريد ممثلا في مصر لمحفل الشرق الأعظم العثماني الذى مركزه القسطنطينية ملغيا في الواقع • وخليل حمادة باشا هو الآن في القسطنطينية يحاول اقناع كراسو ـ النائب اليهودى (في البرلمان العثماني) والأستاذ الموقر في المحفل الماسوني الايطالي في سلانيك ـ باستخدام مساعيه الحميدة مع طلعت بك للحصول على موافقته على الخطة المبينه فيما تقدم • والأمير عزيز حسن ومحمد فريد هما أيضا في طريقهما الى القسطنطينية • وعندما نفى طلعت بك صحة خبر تعيين محمد فريد ممثلا في مصر عن محفل الشرق العثماني الأعظم ، وعندما صرح بأنه وزملاءه في جمعية الاتحاد والترقي لا يمكن أن يرتكبوا مثل هذه الحماقة ، فالظاهر أنه كان يكذب متعمدا ، وربما كان ذلك تحت ضغط المواثيق المأخوذة من أعضاء الجمعية بعدم افشاء أسرارها •

★★★

وفي الوقت نفسه وصل يوسف السكاكيني الى القسطنطينية ، بعد أن سافر من مصر الى سوريا حيث أمضى فيها بعض الوقت يعمل على ضم المحافل الماسونية الى الشرق العثماني الأعظم • واذا ما تحقق لمحفل الشرق

الأعظم فى تركيا التابع لجمعية الاتحاد والترقى أن يسيطر على المحافل الماسونيه في مصر ويملأها بالوطنيين المصريين فلا شك في أن هذا الاتجاه سيكون نحو العمل السرى والخفى بهدف تحقيق انفجار غير متوقع في يوم من الأيام كذلك الانفجار الذى باغت العالم في سلانيك فى تموز سنة ١٩٠٨ ٠

وبهذه المناسبة أود أن أشير الى حادث لا يخلو من الغرابة ٠ قبل مدة من الزمن زار السفارة حاخام الطائفة اليهودية الأكبر الجديد في تركيا ٠ وهو رجل ذكى ، نشط ، عالى الثقافة ٠ وكان زميل دراسة لعدد من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى البارزين ٠ وكان في العهد القديم (العهد الحميدى) قد قام بعدة محاولات ليعين مديرا للمكتبة في قصر السلطان عبد الحميد والتمس هذا الحاخام من السفارة أن تستخدم مساعيها الحميدة في مساعدة ماسوني يهودى يدعى فينتورا ، من التابعية الايطالية ، وكان قبل عدة سنوات يدعى بأنه من الرعايا العثمانيين ، بدأ يشتغل في التجارة في السودان ، فنفاه السودان على أساس أنه (أى فينتورا) كانت له علاقة بتهريب التبغ بوساطة اثنين من اليهود في السواكن يعملان لحساب المدعو العريف هوايت ٠ وقد عرض فينتورا قضيته أمام المحكمة الحربية ٠ ولكن محكمة الاستئناف نقضت الحكم ٠ وقدم الحاخام الأكبر مذكرة تحتوى على ٢٠٠ صفحة شرح فيها تفاصيل الظلم المزعوم الذى يدعى أنه وقع على فينتورا ورجانى أن أعطى فينتورا رسالة توصية الى السير جى٠ غورست أسأله فيها أن يستخدم نفوذه لصالح قضية فينتورا ٠ التى ستعرض أمام المحاكم المصرية مجددا ٠ فأوضحت له بأنه يستحيل على أن أقوم بأى عمل من هذا القبيل لأنه يشكل محاولة للتأثير على سير العدالة ٠ ثم أن الرجل ، بالاضافة الى ذلك ، يدعى الرعوية الايطالية ٠ وبعد مدة من الزمن تعرف يهودى ماسونى هنا (في القسطنطينية) يدعى الدكتور فارحى ، بوساطة المحفل الماسونى البريطانى المحلى ، على أحد موظفى السفارة ٠ وطلب هذا الرجل أيضا باصرار ، وبلهجة شبه آمرة ، توصية بفينتورا الى غورست ٠ ولما فهم بأن مثل هذا الاجراء مستحيل ، حتى في حالة مواطن بريطانى ، أخذ يستخدم لهجة متحديه وأعلن بأن هذه القضية هى ظلم صارخ ويجب أن تعالج ، وأن أعلى السلطات نفوذا في العالم ستجد لهذا الأمر بما فى ذلك الأعضاء اليهود في مجلس اللوردات البريطانى ، واذا اقتضى الأمر فسوف تتخذ الاجراءات لاسقاط الحكومة المصرية ، وهذا ما سيلحق الضرر بمركز بريطانيا ٠ لم يكن الرجل مجنونا ، وكان يتكلم بغاية الرصانة والاتزان ٠

***

ان طلعت بك ، وزير الداخلية ، وهو رجل من أصل غجرى وموطنه

كيورجالى فى منطقة ادرنة ،وجاويد بك ، وزير المالية ، وهو من أصل يهودى ، هما التجسيد الرسمى للسلطة الخفية للجمعية ، وهما الوزيران الوحيدان فى مجلس الوزراء اللذان يحسب لهما حساب فى الحقيقة ٠ وهما يمثلان أيضا قمة الماسونية فى تركيا ٠ وان استخدام هذين الرجلين عميلا من طراز السكاكينى بما له من ماض مشبوه لأمر يدعو الى الريبة الشديدة ٠ ومنذ أن أصبح وزيرا للداخلية قبل ما يقرب من سنة عمل طلعت بك على نشر شبكة الماسونية التابعة للجمعية فى جميع مناطق الدولة حيث أخذ يسند الوظائف الكبرى فى الاقاليم الى ولاة ومتصرفين ٠٠ الخ من الماسونيين ، أو الى رجال تثق بهم جمعية الاتحاد والترقى ، أو من كلا هذين الصنفين من الرجال ٠ وهدف هذين الرجلين من ذلك هو أنه فى حالة قيام الأكثرية فى البرلمان ، صدفة أو على الرغم من الارهاب المنتشر بسبب حالة الطوارىء ، بالمعارضة الى حد يهدد وزارتى طلعت وجاويد ، فان هذين الأخيرين سيردان بانقلاب معاكس ، وذلك بأن يحلا مجلس النواب ، ويجريا انتخابات جديدة توجهها نوادى جمعية الاتحاد والترقى والمحافل الماسونية فى الأقـــاليم ، وتأتى بنواب أكثر طاعـــة للحكومة ، وأشد مسايرة لرغباتها ٠ يتبين من هذا أن الحكومة الخفية لتركيا انما هى محفل الشرق الأعظم الماسونى وعلى رأسه الأستاذ الأعظم طلعت بك ٠ يصف يوجين تافرنييه فى مقاله المنشور فى عدد شهر نيسان من مجلة « القرن التاسع عشر » الجمهورية الفرنسية بأنها : « بنت محفـــل الشرق الأعظم » ٠ وهذه الصفة نفسها يمكن أن توصف بها جمعية الاتحاد والترقى العثمانية ، ولما كان الماسونيون هم الذين يؤلفون أعضاء جمعية الاتحاد والترقى وأنصارها ومؤيديها ، فان غير الماسونيين ، أى الغالبيـــة العظمى من السكان ، هم معارضون فى السر لحـــكم الجمعيـــة ٠ ومثل الجمهوريين والماسونيين فى فرنسا فان الكلمات التى لا تفـــارق شفاه مؤيدى الجمعية هى : « الرجعية » و « الكهنوتية » ٠ ولم يكن اتجاهها الأول نحو تعديل وتحديث الشريعة الاسلامية (القانون المحمدى المقدس) وانما نحو هدم أسس الشريعة وتحطيمهـــا ٠ وفى حين أن معظم قادة الجمعية هم صراحة علمانيون وعقلانيون فانهم يسعون كذلك ، ويالها من مفارقة ، الى استخدام حماسة الجماهير الاســـلامية كســـلاح سياسى ويحولونها الى أقنية شوفينية ، على غرار الجامعة الاسلامية ، أى الوطنية الآسيوية ٠ والجمعية لا تقبل أى نقد مهما كان ٠ واحدى الطرق التى تستخدمها لسحق خصومها هى أن تدفعهم الى اعلان المعارضة الصريحة ، ومن ثم تسحقهم باعتبارهم « رجعيين » ٠ وقد أقنع عدد من رجال الدين بالانتماء الى الماسونية ، فاتخذتهم الجمعية أمثلة للتغلب على شكوك الشعب بالماسونية ، وكراهيته لها ٠ وقد وصف أحد الأتراك هذه الطريقة بأنها عملية « تخدير الشعب بحشيشة يهودية » ٠

يظهر مما تقدم ، كما يتبين من أية ملاحظة دقيقة لحركة تركيا الفتاة في مرحلتها الراهنة ، أن هذه الحركة هي في جوهرها وأساسها حركة يهودية وتركية ، تعارض العناصر الأخرى كالعرب ، واليونان ، والبلغار والأرمن ... الخ ان التركي في جوهره جندي ، وهو يسعى تحت الأشكال الدستورية للحفاظ على تفوق عنصره . هذا التفوق هو الشيء الذي لا يستطيع تحقيقه الا بوساطة الجيش ، وهو ينفق على الجيش نصف دخله ، ويستخدمه لابقاء العناصر الأخرى في حالة رعب وخضوع أبكم . والدستور من بعض النواحي ، يتضمن التقدم الاقتصادي ولكن الكيان الاقتصادي التركي ضعيف جدا ، ولا يستطيع أن يقف وحده ، دون سند أسبوعا واحدا . وكان المؤمل في البداية أن يؤلف الأرمن والبلغار واليونان واليهود العثمانيون الدعامة الاقتصادية للبلاد . ولكن يظهر أن جمعية الاتحاد والترقي قد تحالفت فقط مع اليهود العثمانيين والأجانب وعادت العناصر الأخرى .

وتشاهد الحالة نفسها في بلاد المجر حيث ان المجري ، وهو من العنصر التركي ، فاقد للغرائز التجارية الحقيقية ، تماما مثل التركي ، ولهذا وقع تحت السيطرة الاقتصادية والمالية لليهود ، سيطرة تكاد تكون تامة . ويظهر أن اليهود قد أربكوا التركي الذي لا يعرف العقلية التجارية في جهوده .

***

ولما كانت الدولة التركية تضم الأماكن المقدسة عند اسرائيل ، فمن الطبيعي أن يسعى اليهودي جاهدا ليحتل مركز نفوذ ينفرد به وحده ويستخدمه لتحقيق مثله العليا ألا وهي اقامة دولة مستقلة في فلسطين او في بلاد بابل (يقصد الكاتب العراق . المترجم) كما أوضح ذلك زانغفيل في مقاله المنشور في عدد شهر نيسان من مجلة « فورت نايتلي ريفيو » وهو سيصيد عصفورين بحجر واحد اذا استطاع أن يحصل من الاتراك على السماح بهجرة غير مقيدة الى تركيا ، وهذا هدف ما فتىء يسعى لتحقيقه من سنوات عديدة ، فينقل الى ميزوبوتاميا (العراق . المترجم) بضعة ملايين من اخوته في الدين اليهودي يرزحون تحت نير العبودية في روسيا ورومانيا . وفي مقابل « الهجرة غير المحددة » هذه لليهود الأجانب عرض على جمعية الاتحاد والترقي أن يستبدل لغته الوطنية باللغة التركية ، بل انه على استعداد لتحمل جميع ديون الدولة التركية . وقد قام الدكتور ناظم ، وهو من أبرز أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك ، ويقال انه من أصل يهودي ، يرافقه صديقه الحميم المدعو فائق بك تولاليدو وهو من أصل يهودي من سلانيك ، بزيارة فرع الوكالة اليهودية في باريس . ومنذ تلك الزيارة تبنى فكرة ادخال ٢٠٠٠٠٠ ،

يهودى رومانى الى مقدونيا ، وبضعة ملايين من يهود روسيا الى العراق ٠ وقد عبر اسرائيل زانغفيل ، في مقاله المنشور في عدد نيسان في مجلة « فورت ناتيلى ريفيو » الذى تقدم ذكره ، عن الأمل في أن يكون حقي باشا ، رئيس وزراء تركيا الحالى « مؤتمنا على تقديم المشورة الصحيحة عن الموضوع الى « الباب العالى » أى أن يكون مؤيدا لقيام دولة يهودية مستقلة في العراق ٠ وقد وضع في خدمة حقي باشا سكرتير شخصى يهودى ، وهو يتردد على أحد البيوت اليهودية أكثر مما يزور أى بيت آخر ٠ ولكن المشروع اليهودى لم يتحقق الى الآن ٠ ومما لا شك فيه أن حكومة تركيا الحالية ، وهى تتحمل نفقات عسكرية ثقيلة ، بحاجة الى قروض مالية ، مما سيمكن المقرضين اليهود من استخدام ضغوط جديدة عاتقا ٠ وقد رفض السلطان عبد الحميد عندما كان يعانى أزمة شديدة ، مثل هذه العروض التى تقدم بها اليه هرتزل الزعيم الصهيونى ٠ ويبدو أن زانغفيل كان يعبر عن الفكرة نفسها عندما كتب : « فاذا لم يكن حظ أعضاء جمعية الاتحاد والترقى من الادراك السليم أقل من النقود في خزائنهم فانهم سيدركون ولا شك أية فائدة عظيمة ستحصل عليها دولتهم بسماحهم بالتغلغل السلمى في بلادهم لسكان من الجنس الابيض ذوى كفاءة صناعية ، ومثابرة في العمل ، وغير عسكريين » ٠

★★★

يقول زانغفيل : ان النواب اليهود الأربعة في البرلمان العثمانى هم « خصوم الداء للصهيونية » ٠ قد يتظاهر هؤلاء النواب اليهود الأربعة بعدائهم للصهيونية فيما يختص بالصهيونية الداعية الى هجرة اليهود الى فلسطين ، ولكنهم وبكل تأكيد ، لا يعادون الصهيونية الداعية الى هجرة اليهود الى العراق ٠

★★★

هذه الناحية من سياسة تركيا الجديدة لا يمكن أن يتجاهلها أولئك الذين لهم علاقة بالمشاريع والخطط المقترحة في العراق وسوريا ، بل وحتى في مصر ٠ فان جريدة « شفق » وهى جريدة صهيونية أنشئت منذ سنة في القسطنطينية ، ما زالت تذكر قراءها ، وتعيد وتكرر تذكيرهم دون كلل أو ملل ، بأن السيطرة على مصر ، أرض الفراعنة الذين أجبروا على بناء الأهرامات هى جزء من ميراث اسرائيل في المستقبل ٠ قد تبدو هذه النظرية خيالية ، بعيدة عن الواقع ٠ ولكن عددا من المثاليين يعتنقونها، ويدعون اليها ، ويبشرون بها ٠ على أن فلسطين والعراق هما هدف اليهود النهائى البعيد وأما الهدف المباشر القريب الذى يسعى اليهود الى تحقيقه، فهو السيطرة الاقتصادية التامة على تركيا ، واقامة المشاريع الجديدة

فيها • وقد تبين فيما تقدم أن اليهود قد تمكنوا حتى الآن من احتلال جميع النقاط الرئيسية فى الحكومة التركية الجديدة ، أو من السيطرة عليها ، على الرغم من أن وزارة الأشغال العامة ، التى بامكانها أن تؤثر فى منح الامتيازات مازالت بيد أحد الأرمن « حلاجيان أفندى » • وعندما عزل سلفه من هذه الوزارة ، وهو أرمنى ، حاول اليهود بكل الوسائل أن يعينوا فى هذا المنصب يهوديا ، أو شخصا يوافق عليه اليهود • ولكن ارتأى ، وبخاصة بعد مذبحة الأرمن فى « أدرنة » أنه من الضرورى أن يكون للأرمن وزير واحد فى مجلس الوزراء • وقبل شهرين كان حلاجيان أفندى على وشك السقوط ، ولكنه حصل على فرصة جديدة للبقاء ، وذلك بأن أصبح ماسونيا ، وانتمى الى نفس المحفل الذى ينتمى اليه طلعت بك وجاويد بك ، وما يزال مركزه الآن قلقا مهزوزا ، ومعظم الهجوم المستمر عليه ، والنقد القارص له ، يصدر عن جريدة يمولها اليهود تسمى « تركيا الفتاة » هذا وتردد شائعات بأن خلفه فى الوزارة سيكون يهوديا ، أو تركيا يوجهه اليهود من وراء الستار •

★★★

من الواضح أن اليهودى ، الذى يهتم أعظم الاهتمام بالاحتفاظ بنفوذه المطلق فى مجلس وزراء تركيا الجديدة ، ليس أقل اهتماما بابقاء شعلة الفرقة والخصام بين الأتراك وبين خصوم اليهود المحتملين كاليونان والأرمن ••• الخ بينما يمكننا الاستنتاج بأن اليهودى لا يرى غضاضة بأن يزيد العهد الجديد من اقتراضه الأموال من المولين اليهود • لقد أطلت الحديث عن هذه الناحية من الثورة التركية لأنها ، بالاضافة الى أهميتها التاريخية ، لا تخلو من أهمية مباشرة وغير مباشرة على مشكلات ثانوية فى الشرق الأدنى • ان اليهودى يكره روسيا وحكومتها ، وحقيقة كون انكلترة هى الآن صديقة روسيا ، حسنة العلاقات معها ، قد أدت الى جعل اليهود ، الى حد ما ، يقفون ضد بريطانيا فى تركيا وايران • وهذا أمر لا أظنه يخفى على الألمان •

★★★

الى ان يقول السير ج• لادر : ود اليهود ان يساعدوا رجال تركيا الجديدة بأدمغتهم ومشاريعهم التجارية ،وبنفوذهم الهائل فى الصحافة الأوروبية ، وبتقديم الأموال مقابل الحصول على مكاسب اقتصادية ومقابل التحقيق لأهداف اسرائيل العليا فى المستقبل — بينما تريد تركيا الجديدة أن تستعيد استقلالها الوطنى وتؤكده وتحرره من وصاية أوروبا عليها ، كجزء من نهضة اسيوية عامة ، وبوتيرة ، لا بد وأن تظهر للغربى العادى، وطنية شوفينية مسرفة فى التطرف ، لقد قدم اليهود الأموال الى الأتراك

الشبان ، وبهذا أحكموا سيطرتهم عليهم ولكن حتى يحافظ اليهود على هذه السيطرة لابد لهم أن يتظاهروا على الأقل بأنهم يوافقون على تحقيق الاتراك الشبان لاحلامهم « القومية » والسرية ، والطرائق الملتوية أمران أساسيان لكلا الفريقين • واليهودى الشرقى متمرس فى التعامل مع القوى الخفية • وقد اختبرت الماسونية السياسية فى الطراز الأوروبى كأكبر الروابط فعالية والعباءة التى تستر الأعمال الداخلية للحركة •

ذكرت فيما تقدم أنه فى البداية « تآخى » هذا الشكل الجديد من الماسونية فى تركيا مع أعضاء المحفل البريطانى ، أى المحفل الاسكتلندى المؤسس فى القسطنطينية قبل خمسين سنة ، ولكن المحفل الاسكتلندى الأعظم سرعان ما أخذ يكتشف بأن تصرفات المحافل الماسونية المحلية ، التى يسير معظمها اليهود ، ليس الا تشويها واستغلالا مشينا للماسونية الحقة ، فاعلن أن هذه المحافل المحلية انما هى محافل « مزيفة » وكانت نتيجة ذلك أن المحفل الانكليزى أغلق أبوابه فى وجه جميع الماسونيين الجدد ، ومن ضمنهم أعظم الوزراء سلطة ونفوذا : طلعت بك وجاويد بك ، وهذان الوزيران اللذان يسيطران على جيوش تركيا ، وعلى ماليتها ، والأحكام العرفية ، والبرلمان • وبكلمة واحدة يسيطران على مقدرات الدولة بصورة عامة • من الطبيعى ان يستاءا من هذه « الصفعة الانكليزية» كما تقول الاشاعات التى انتشرت فى ندوات الهمس والوشوشة • ولعلهما أصبحا أقل ميلا لبريطانية نتيجة لهذا الأمر • ولقد وصفا بانهما « جنا من الغضب لهذه الاهانة » • ولكن لا يوجد أى دليل على الافتراض أن هذه الاهانة قادتهما لتغيير سياسة الصداقة التى يسير عليها مجلس وزرائهما نحونا بصورة جوهرية • ولعلنا نفسر الأمر لصالحهما فنفترض بأنهما لا يعرفان الا القليل ، أو ليست لديهما أية معلومات مؤكدة ، عن الآراء المتطرفة ، وعن سياسة بعض أعضاء المحافل الماسونية المحلية الذين هم على اتصال بالماسونيين المصريين ، ويتعاطفون معهم ، ويعملون بنفس الطريقة السرية فى القاهرة والاسكندرية •• فبعض الماسونيين من المغالين فى الوطنية هنا يعملون مع الأحزاب المناوئة للخديوى وللانكليز فى مصر، وقد صرح نائب فى البرلمان عربى وماسونى بأن لديه أسبابا كافية ليفترض بأن أحد الأهداف المضمرة التى يسعون لتحقيقها هى ان يثيروا البلبلة فى مصر بوساطة الدعاية واستعراض الأسطول العثمانى بين فترة وأخرى فى الاسكندرية ، والبلبلة تقود الى القلاقل والاضطرابات حيث يمكن التخلص من سمو الخديوى بوساطة « اليد السوداء » وتعيين احد أفراد أسرة الأمير حليم وصيا على ابن الخديوى على غرار التغييرات الحديثة التى وقعت للأسرة المالكة فى ايران ، ومما لا شك فيه أن جمعية الاتحاد والترقى شجعت الايرانيين ، وتعاونت معهم على احداث تلك التغييرات فى الأسرة

الحاكمة • ويدور الحديث الآن حول البدء بانشاء محفل الشرق الماسونى فى ايران ، وفرج الله خان ، القائم بأعمال السفارة (الايرانية) الجديد فى القسطنطينية قد انتمى الى الماسونية حديثا •

★★★

ان أنموذج عضو جمعية الاتحاد والترقى الذى يحمل مثل هــذه الأفكار هو « وطنى آسيوى » • وأيا ما يكون شعوره بالشكر لأية دولة أوروبية تقدم أية خدمة لبلاده ، فانه يعد من واجباته « الوطنية » مساعدة أبناء الشعوب الشرقية الأخرى الذين « يناضلون بحق ليكونوا أحرارا » ويجاهدون فى مصر وفى الهند لكسب حريتهم من « العبودية الأوربية » • ان سياسة جمعية الاتحاد والترقى لا توجهها الاعتبارات العاطفية ، وأية دولة تتوقع الاعتراف بالجميل لخدمات تؤديها للدولة التركية انما ترتكب خطأ جسيما • يقال ان اسماعيل حقى بك بابان زاده ، نائب بغداد ، وأحد خبراء جمعية الاتحاد والترقى فى الشئون الخارجية ، له أخ اسمه حكمت بك ويعمل تحت رئاسة رؤوف باشا فى الوكالة العثمانيـــة فى القاهرة • ويظهر أن لحكمت بك هذا معاملات مريبة ، بوساطـــة بعض السوريين ، مع محمد فريد وغيره من الوطنيين على الرغم من سلوك رئيسه المستقيم • وتقوم جريدة « تركيا الفتاة » التى يمولها اليهود كما يمولون عددا آخر من الجرائد فى العاصمة العثمانية ، بين الحين والحين بنشر مقالات شاب من جزيرة كريت اسمه نورى ، عضو فى جمعية الاتحـــاد والترقى وأبوه عضو فى مجلس الأعيان عن جمعية الاتحـــاد والترقى • وكاتب آخر من كتاب الجريدة بولندى مرتد اســـمه سيف الدين ت• غاستوت كانت له فى وقت من الأوقات علاقات مالية مع أوبنهايم ،اليهودى الألمانى المعروف جيدا فى القاهرة منذ حادثة العقبة • وقد قام غاستون حديثا ، مع مصرى يدعى حسين حسيب ، بانشاء جريدة تعمـــل لنشر الدعوة للجامعة الاسلامية ، باللغتين التركية والفرنسية اسمها : « منبر الشعوب » وهدف الجريدة الصريح هو ايقاظ المـــلايين من الاخـــوة «المضطهدين» فى الهند ، ومصر ، وروسيا ، وتونس ، والجزائر ••• الخ وتنبيههم للتضـــامن مع مسلمى تركيـــا الجديدة • وتصرح هـــذه الجريدة بأن سياسة أوروبا ضد الاسلام وضد الآسيويين ، وأن الأتراك يجب ألا يصدقوا ما يعلنه الأوربيون ، كذبا ونفاقا ، من صداقة ، وأما عن انكلترة فالجريدة تقتبس عبارة أحمد رضا بك التالية : « ان تهديم الامبراطورية العثمانية سوف يزيد من قوتها (أى بريطانيا) ، ويثبتها فى مصر وبلاد العرب » وحسين حسيب بك أشبه ما يكون بممثل للوطنيين المصريين فى القسطنطينية ، وقد اهتم بادخال بعض الشـــبان الوطنيين فى المـدارس التركية ، وله أخ يعمل مع محمد فريد •

ما هي ، اذن ، اتجاهات تركيا الفتاة المحتملة ؟

ان ممثليها المدنيين هم : طلعت بك الذي كان كاتبا في دائرة البرق ويقبض ثلاث ليرات تركية في الشهر ، وجاويد بك ، وزير المالية ، كان معلما يكسب نحو عشر ليرات تركية في الشهر . وحسين جاهد بك ، وهو نائب في البرلمان ، ومحرر جريدة « طنين » ، وقد ترجم في وقت من الأوقات روايات للسلطان عبد الحميد بسعر ٤ بنسات للصفحة الواحدة . كانت غرائز هؤلاء الأشخاص الطبيعية ، ومازالت ، تدفعهم الى أن يهبطوا بمستوى الناس الآخرين الى نفس مستواهم هم .

***

ان العنصر التركي يبلغ ستة ملايين نسمة في امبراطورية عـــدد سكانها نحو ثلاثين مليون نسمة . وهذا العنصر التركي ، في ظل حكم دستوري حقيقي يسمح بشيء من العدالة ويتيح فرصـــة العمل للعناصر الأخرى ، لا بد وأن يضيع في أكثرية السكان (العرب ، واليونان ، والبلغار ... الخ) خاصة وأنه أدنى مستوى في هذه الأكثرية في الذكاء والتعليم والكفاءات المالية والقابليات التجارية . وهـــو لا يستطيع أن يحافظ على مركزه عنصرا سيدا متغلبا الا بصفاته القتالية ، أي بالجيش فقط . ان الاتراك يسيطرون على العاصمة وعلى البرلمان بوساطة الأحكام العرفية . وقد أرهب الأرمن بمذابح أدرنة ، وأرهب اليونانيين واضطروا الى التزام الصمت ، وسحقت الحياة السياسية للبلغاريين بغلق نواديهم وجمعياتهم بالقوة ، هذا ما جرى للعناصر المسيحية التي يخشى الترك من تمردها المحتمل . ويقوم الجيش التركي باخضاع الألبانيين المسـلمين الذين لم يعرفوا الخضوع لأحد . وربما سيعاني الأكراد والعرب ، بدورهم نفس المعاملة . وبما ان العنصر التركي لا يستطيع أن يتألق بالانجازات الفكرية أو التجارية ، فان غريزته تقوده الى أن يظهر تفوقه ب « نشاطه » العسكري .. واذا نجح العنصر التركي في ايصال الامبراطورية الى حالة الخضوع الصامت داخليا ، فمن المحتمل أن يندفـــع الى تبني سياســـة شوفينية نشطة تجاه ايران ، ومصر ، واليونان وربما بلغـــاريا . وفي اللحظة الراهنة لا يغامر بانتهاج هذه السياسة لاعتبارات يفرضها الحذر والتعقل ، وذات علاقة بمسألة كريت حيث يتطلب الأمر حسن نوايا أوربا للحصول على الحل الملائم . واذا حصل الأتراك على ما يريدون في كريت فلابد وأن يحرك ذلك شهيتهم للحصول على نجاحات مماثلة في مصر .. الخ على أن كل هذا يتوقف على المولين الأوربيين ، ومعظمهم من اليهود الذين يزودونه بالمبالغ المطلوبة للابقاء على جيش لا يتناسب حجمه مع الحالة الراهنة لتطوره الاقتصادي . في الوقت الحاضر النظام الدستوري التركي مظهر كاذب . ولكن اذا نظرنا الى المستقبل وكيف سيتمكن العنصر

التركي من المحافظة على تفوقه بالقوة فقط في ظل حكم دستوري حقيقى فمسألة تكاد تكون غير قابلة للحل ، ومهما يكن من شيء فان تركيا الفتاة نفسها تجد نفسها طليعة آسيا المستيقظة ، وتتخيل نفسها مسوقة بحكم الواجب لحماية الحريات الوليدة في ايران « التي تتهددها الآن سياسة روسيا وانكلترا الانانية المتغطرسة » ومن هنا سياستها المغامرة في أذربيجان الغربية ، وارتباطاتها السرية بجمعيات ايران الفنية ، وبجهود الألمان في التدخل في ايران ، كما في مراكش سنة ١٩٠٦ ،وبثورة القفقاس . وكذلك علاقات الأتراك بالثوريين اليهود والأرمن (الطاشناق) في روسيا ، التي تأمل في اضعافها وجعلها غير قادرة على الضرر ،وذلك بتشجيع القلاقل والاضطرابات ، وتقوية تيار الثورات والانتفاضات الداخلية . والأتراك يغازلون ، بمعونة اليهود ، اخوانهم الهنغاريين ، الذين ينتمون مثلهم الى العنصر الطوراني ، ويحاولون أن يوجدوا تيارا يتعاطف معهم في أفغانستان وبين مسلمي الهند . ويقلد الأتراك الاتحاديون (أعضاء جمعية الاتحاد والترقي) الثورة الفرنسية وأساليبها اللادينية وطريقتها في خفض مستوى الأغنياء الى مستوى الفقراء ، ويعود ذلك الى توجيه الماسونية اليهودية من ناحية ، والى حقيقة كون اللغة الفرنسية هي اللغة الأوربية الوحيدة المنتشرة أوسع انتشار في الشرق الأدنى . وقد أدى تطور الثورة الفرنسية الى العداوة بين انكلترة وفرنسا . واذا تطورت الثورة التركية على نفس النهج فأغلب الظن انها ستجد نفسها كذلك في حالة عداء لمصالح بريطانيا ولأهدافها العليا .

★★★

ان سياسة الاتحاديين ، حتى الآن ، قد أبعدت تماما العثمانيين ، وبخاصة السوريين والعرب الذين فقدوا ، كما فقد اليونانيون والبلغار ، كل أمل في تأسيس نظام دستوري حقيقي في تركيا ، وأصبحوا يخشون بطش الأتراك الشديد ، وأخذوا يفتشون عن مركز تجمع للدفاع عن المصالح العربية ، وهم يكرهون الأتراك ويحتقرونهم ، ويعدون أنفسهم أرفع منهم ثقافة ، وأعلى حضارة ، ويقاومون كل حركة لتتريكهم ، وهم كذلك يخشون الغزو الصهيوني واليهودي لبلاد الشام والعراق . على أن العرب تفصل بينهم بواد وصحاري ، واختلاف في اللهجات المحلية ، وعدم قابلية للالتحام والتماسك متأصل في عنصرهم ، وكثيرون منهم ، من النواب وغيرهم ، يوجهون أنظارهم سرا الى الدولة الخديوية في مصر ، لأنها الدولة العربية الوحيدة التي يأملون أن تلم في يوم من الأيام ، تحت رعاية الانكليز ، شمل العرب الخاضعين للدولة العثمانية . وقد اتخذت هذه الفكرة عند الكثيرين منهم شكلا محددا ، ولكنها مازالت عند الآخرين غامضة أو شبه غامضة . ولكن هؤلاء العرب

جميعا لا يحملون أى عطف على الوطنيين المصريين المتطرفين ، ولا يوافقون على أساليبهم فى العمل السياسى • ويقترح بعضهم أن يحاول المحفـــل الأعظم فى مصر الذى تعترف به الماسونية البريطانية ان يجمع تحت جناحه المحافل المصرية غير الشرعية للماســـونيين السياسيين • وهذا الرأى ، بطبيعة الحال سخيف • وهو يدل بوضوح على خطأ تصورهم للمبادىء الحقيقية للماسونية البريطانية ، التى هى بطبيعة الحـال غير سياسية ، والمفروض أنه يتوجب على الماسونيين المصريين الذين تعترف بهم بريطانيا أن يتقيدوا بتعليمات المحافل العظمى فى بريطانيا واسكتلندا والتى تقضى بقطع كل علاقة مع « الأخوة غير الشرعيين » ، الذين يستخدمون الماسونية مجرد غطاء لخططهم ومؤامراتهم السياسية • ان جميع الحقائق والتصورات المذكورة أعلاه المتعلقة بالماسونية المحلية قد حصلنا عليها من ماســـونيين محليين بصورة سرية تامة • ولكن هذه الماسونية المحلية شأن كل منظمة سياسية سرية من هذا النوع ، مراوغة ، وتلجأ الى المزيــــد من التخفى والسرية والكتمان عندما تشعر بأن أسرارها أصبحت معرضة للافتضاح والانكشاف • ولهذا أرجو ان تحافظ على سرية هـــذه الرسالة كـــل المحافظة • وبما أن معظم ما ورد فيها يتعلق بمصر خاصة فافترض بأنك سترسل نسخة منها ، بصورة سرية ، الى غورست • ولعله من المفيد أيضا أن تبعث بنسخة منها الى ايران ، بل والى حكومة الهند أيضا • لانه عندما يفهم وجهاء المسلمين فى الهند بان حركة تركيا الفتاة متأثرة تأثرا عظيما بالماسونية السياسية اليهودية والاتحادية ، فسيكون هـــذا ردا على ما يحتمل أن يقوم به الاتحاديون الشوفينيون من دعاية للجامعة الاسلامية موجهة ضد بريطانيا • ولدى من الادلة ما يحملنى على الاعتقاد بأن زميلى السفير الألمانى يدرك مدى توجيه الماسونية اليهودية واللاتينية (أى الايطالية والفرنسية) لجمعية الاتحاد والترقى ، وأنه قد أطلـــع حكومته بصورة سرية على هذه الناحية من سياسة الاتحاديين •

صديقك المخلص

جيرارد لاوثر

ملاحظــــة :

ورد أعلاه أن المحفل الاسكتلندى الأعظم رفض الاعتراف بـ « محفل الشرق العثمانى الأعظم » وأعلن أن ماسونيته غير شرعية ، ولكننى علمت بان الجهود تبذل للتغلب على هذه الصعوبة بطريقة غير مباشرة ، وذلك باقناع المحفل البريطانى الأعظم بالاعتراف بالمحفل العثمانى المشكل حديثا • وبالنظر للتطورات الغريبة فى الماسونية المصرية فسيكون من المرغوب فيه أن يسير المحفل البريطانى الأعظم على نهج أخيه المحفـــل الاسكتلندى الأعظم فيرفض الاعتراف بمؤسسة مصطبغة جدا بالصبغة السياسية •

وقبل ان انتقل الى الحديث عن مولد عزيز على المصرى ، أحرص على أن أكرر هنا ، ما أقوله باستمرار فى كل مناسبة من أننى فى كتاباتى الأخيرة أولى اهتماما بالغا بالعصر ، لا بالفرد ، بالشعب لا بالحاكم بالأجواء العامة التى يتنفسها الناس ٠٠ بالسياسة ، بالاقتصاد ، بالاجتماع ، بالعادات ، بالتقاليد ، بالقيم الروحية ، بكل ما يمكن أن يؤثر على الانسان من قريب أو من بعيد ٠

وفى أحيان كثيرة اهتم بمشاكل الناس ، بآلامهم ، بمتاعبهم ، وبطرق تفكيرهم ، فى حل تلك المشاكل والآلام والمتاعب ٠ وفى أحيان كثيرة أيضا لا أولى بفترات البداية بالنسبة للفرد ٠٠ والطفولة والصبا الا بقدر تأثير ذلك فى الشخصية التى أكتب عنها ٠

فقد درج كثير منا على أن كل شخصية بارزة احتلت فى صفحات التاريخ مكانا عاليا كانت فى طفولتها عبقرية للغاية ٠ وكان الناس ــ كل الناس ــ يتنبأون لها ــ لتلك الشخصية ــ بالعبقرية والتميز والتفرد ٠

وكانت ملامح النبوغ تبدو وهى ترضع لبن أمها ، وهى تنتقل من بيتها الى الشارع ومن الشارع الى الكتاب والى المدرسة ٠

بل فى أحيان كثيرة يحاول البعض تصوير تلك الشخصيات فى طفولتها أنها كانت متميزة عن غيرها ، تكاد الأصابع تشير اليها باستمرار٠

ولو أن الأمر كان كذلك لكان فى الامكان أن تعرف كل شخصية من الصغر ما مستقبلها ، ومكانها فى التاريخ وان يعرف ذلك من يحيطون بها وبذلك يصبح الطريق ممهدا أمام تلك الشخصية لكى تحتل ما تريد من مناصب ٠

وربما كان ذلك غير صحيح فى كثير من الأحوال ففى أحوال كثيرة تبرز شخصيات لم تكن قد ظهرت عليها فى طفولتها مخايل النبوغ والتفوق والعبقرية ٠

كما توجد شخصيات تتفوق فى طفولتها وتتميز ، ولكن هذا التفوق وهذا التميز لا يستمران مع الطفل وانما ينتهيان عند فترة من بداية الحياة تطول أو تقصر ٠

لا اهتم عادة بالحديث عن النبوغ المبكر ، فى الشارع أو فى المدرسة أو فى الحى الا ان تكون هناك وقائع ثابتة مؤكدة ٠

واذا كنت أهتم بالشعب لا بالحاكم ، بالمجموع لا بالفرد ، فاننى وأنا أكتب عن هذا الفرد ــ حاكما كان أم غير حاكم ــ لا أكتب عنه على

أساس أنه خلق وحده شيطانيا ، وعمل وحده كل شيء ، وصنع بيده كل مجد ، وحقق ـ وحده دون شريك ـ كل ما حققه من أمجاد ٠

أنا لا أتصور أبدا أن شخصية ما مهما كان نصيبها من العبقرية ، ومهما تميزت به من النبوغ ، لا يمكن أبدا أن تكون وحدها هي صانعة الأمجاد التاريخية التي نسبت اليها ٠

لا يمكن ـ مثلا ـ فيما يتعلق بالثورات أن يكون فرد ما هو الذي فكر في الثورة وهو الذي خطط لها ، وهو وحده صاحب فلسفتها ، وهو وحده الذي قام بها ، ونفذها ، وحقق لها النجاح ٠

لا بد وان يكون لهذا الشخص مساعدون من الزملاء والأنصار لا بد وان يكون الى جانبه في مرحلة التفكير وفي مرحلة التخطيط وفي مرحلة التنفيذ عقول وسواعد أمدته وغمرته وقوته ومكنته من ان يحقق الانتصارات التي تنسب اليه ٠

ان المسألة ليست مسألة بطولة في رفع الأثقال حتى نقول ان البطل الفلاني قد نجح في أن يرفع كذا كيلو ، بل أنه حتى في تلك البطولة ، لا بد من ان يعود الفضل الى من دربوا ذلك البطل ٠٠ الى من ساهموا في خلق الجو المناسب لحصوله على تلك البطولة ٠

ولذلك تراني لا أهتم ، بالبطل وحده وانما اهتم بمن حوله من الزملاء والانصار ٠

★★★

نقطة أخرى أحب أن أتحدث عنها قبل الحديث عن بداية عزيز على المصري ٠٠ ان هذه المرحلة من حياة هذا الرجل غير معروفة تماما ، بل ان تاريخ مولده لم يتأكد تماما ، فمن قائل أنه ولد في عام ١٨٧٢ ، ومن قائل أنه ولد في ١٨٧٧ ٠ ومن قائل ـ وهو الأرجح ـ أنه من مواليد ١٨٨٠ ، ولقد بذلت جهدا شاقا ومضنيا ، لكي أعرف المدرسة أو المدارس الابتدائية التي تعلم فيها عزيز على المصري دون أن أصل الى ما أردت الوصول اليه ٠

بل ان خلافات واختلافات كثيرة كانت حول الفترة التي سبقت دخوله المدارس الحربية العثمانية ، هل دخل ـ كارها ـ مدرسة الحقوق الخديوية وقضى بها عاما أو بضعة أشهر ، تركها الى الآستانه ؟ هل اتجه الى باريس وقضى بعض الوقت في أحد المعاهد الفرنسية هناك قبل ان يلتحق بالمدارس الحربية العثمانية ٠

بل ان خلافات واختلافات كثيرة قامت حول اسم عزيز على المصرى ووالده ، فمن قائل ، بأنه من أسرة شاهلبة وأن اسمه عبد العزيز زكى الجركسى الأصل ·

ومن قائل : أنه عبد العزيز بن الشيخ على المصرى من أعيان البحيرة ومن كبار مزارعيها · وقيل ان والده سمى بالمصرى تمييزا له عن جار تركى كان اسمه الشيخ على · ومن قائل : بان الوالد ــ والد عزيز على المصرى ــ كان اسمه زكريا افندى على ·

★★★

وربما كان عزيز على المصرى نفسه هو المسئول الأول والأخير عن الغموض الذى واكب بداية حياته فقد كان عزيز المصرى ضنينا بالحديث عن طفولته ، بل كان دائمــا وأبدا غير راغب فى الحــديث عنه ، وعندما أردت تقديم شخصيته فى كتاب الشباب ــ وهو مشروع فكرت فيــــه وقمت بتنفيذه فى عام ١٩٤٧ ــ أى تقديم كتيبات صغيرة موجزة عــن حياة كثير من شخصياتنا البارزة سواء تلك التى نتفق أو نختلف معها ، حاولت أن أعرف منه بعض ذكريات عن أيام طفولته ، فما رحب بما طلبته منه ، الأمر الذى جعلنى استنتج ــ وقد يكون استنتاجى خاطئا ــ ان تلك الأيام لم تكن سعيدة بالنسبة له ، خاصة بعد ان فقد والده وفقد والدته وعاش فى كنف أخته الكبرى من أمه لا من أبيه زوجة على باشا ذو الفقار، ورغم ما عرفته منه أن أخته وزوجها على باشا ذو الفقار كانا يرعيانــــه بأفضل ما ترعى الأم ابنا عزيزا لها ،وكانا يوفران له كل وسائل الحياة المرفهة حتى انه كان يذهب الى مدرسته الثانوية فى شبرا (التوفيقية) فى « دوكار » ــ عربة يجرها حصانان مطهمان ــ وكانا يستقدمان العديد من المدرسين الى المنزل لتربيته وتعليمه · لم يكن عزيز على المصرى ــ عبر تاريخه الطويل ــ يتحدث عن أيام طفولته وصباه الا حديثا عاما عابرا دون دخول فى التفاصيل ·

★★★

كل الذى نعرفه منه ــ مثلا ــ أنه سمى بعبد العــــزيز نسبة الى السلطان عبد العزيز ، وأنه ولد فى شارع عبد العزيز (عابدين) وكان يسكن فى قصر منيف يطل على ما كان يسمى بحدائق شريف والتى كانت تمتد من شارع عبد العزيز حتى شارع محمد على ، وأن والدته كانت سيدة شركسية تتميز بالجمال والأناقة وانها ــ أمه ــ هى التى علمته ــ منذ الصغر ــ اللغة التركية كما كان الحال بالنســـبة للأسر الكبيرة والعريقة فى مصر وقتذاك ·

★★★

وعن خصال عبد العزيز على – فى تلك المرحلة – أنه كان منطويا على نفسه للغاية ، وربما كان قصر قامته وضآلة حجمه ، من الأسباب التى أدت الى ذلك الانطواء ، ولكنه كان ذكيا للغاية مغرما بعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسعد بن أبى وقاص ، وبنابليون بونابرت ، ومحمد الفاتح ، ومحمد على •• بل أنه كما ذكر ذات مرة كان يحفظ خطب نابليون باللغة الفرنسية ويلقى أجزاء منها على بعض رفاقه وزملائه القريبين منه جدا •

وأذكر – والحديث عن مولد عزيز على المصرى – أننى نشرت كلمة عن أسرة عزيز على المصرى عندما كتبت عنه فى المصور – مقالا – بعنوان « عزيز على المصرى فى ذكراه السابعة ٨٧ عاما من كفاح مستمر » وقد تلقيت رسالة عاتبة بل غاضبة للغاية من أحد الأخوة السراكسة – فى الأردن – محمد أيوب فخرى – عمان الأردن – ص•ب ٦٥٠٥ ، أحرص على نشرها بنصها ، وفصها – رغم قسوتها – وذلك لأهميتها البالغة – من وجهة نظرى ••• :

« حضرة الاستاذ الفاضل صبرى أبو المجد المحترم

تحية طيبة وبعد ••

اطلعت على مقالكم المنشور فى مجلة المصور (العدد ٢٤٨٨ تاريخ ٢١ يونية ١٩٧٢ تحت عنوان (عزيز المصرى فى ذكراه السابعة – ٨٥ عاما فى كفاح مستمر) •

لقد لفت نظرى العبارة التالية التى وردت فى المقال (لقد كنا الى فترة قريبة للغاية نعتقد أن عزيز على المصرى ينتمى الى أسرة قوقازية تحمل اسم شاهلية ، ومعناه الرأس الواسع أى الذى يرى كل شيء ، وان اسمه عزيز زكريا شاهلية ، غير أننى عندما كنت بالعراق فى ابريل الماضى وواصلت البحث عن كل ما يتعلق بعزيز المصرى اكتشفت ان أسرة عزيز المصرى ليست قوقازية ، وانما هى عراقية بحتة ومن مدينة البصرة بالذات وتحمل اسم « عرفات » وكانت تمتهن التجارة وقد تزوج أحد أفرادها بعد ان نزح الى القوقاز من هناك وأنجب ابنا اسمه على ، انتقل الى تركيا ، ثم الى مصر ، وقد أيد هذه القصة تماما اللواء الركن المتقاعد ابراهيم الراوى ••• الخ) •

هذا هو السبب الذى دعانى لأن أكتب اليكم •••

ولا أنسى بهذه المناسبة ان أحيى فى مجلة المصور وفاءها لذكرى الرجل العظيم والمجهد الذى بذلتموه فى الكتابة عنه احياء لذكراه •

وبما أننا هنا في الأردن نعتز بالزعيم الراحل عزيز المصرى اعتزازكم به ، وربما أكثر • وبما أنني وزمرة من اخواني الشراكسة في الأردن ممن اطلع على المقال قد ساءنا ان ينقلب أصل رائد الوطنية في مصر المغفور له عزيز المصرى بسهولة تامة وبجرة قلم الى أصـل عراقي استنادا الى رواية شخص ، كان لواء في الجيش ، وكان ياورا لعزيز المصرى ، ولم يكن عمله ، أو ليس عمله ، البحث والتأريخ ، مع أن هذا القول اذا كان صحيحا يجب ان يستند الى دراسة وافية متروية عقلانية ، لا الى مجرد عاطفة ، ونزعة قبلية دفينة ، أو تعصب أعمى •

★★★

هذا ما يمليه الواجب ، بعد كل هذه الأعوام الطويلة ، وبعد ان استقر في أذهان الناس جميعا القناعة التامة بأن عزيز المصرى هو من أصل شركسى ، وهو الواقع فعلا لا جزافا ، وهو ما أثبته المؤرخـون للحركة الوطنية في مصر وهو ما نقل عن المرحوم عزيز المصرى ، أو على الأقل أيده ، ولم يقم بنفيه في يوم من الأيام ، وهذا يمكن اعتباره أهم مصدر من المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في تقرير أصـــل عزيز المصرى ان كان عربي الأصل أو قوقازيه • وأين كان اللواء المتقاعد طيلة هذه الأعوام ، ولماذا كان يخفي هذه الحقيقة ؟ ويؤسفني القول أن الأسلوب الذى أوردتم فيه هذا الاكتشاف الجديد لأصل عزيز المصرى كان يدل على فرحتكم كمن يزف البشرى للأمة العربية بهذا الاكتشاف لتقرعينا ، لأن هذا البطل الرائد الذى أفنى عمره يضيء للأجيال العربية سواء السبيل هو من أصل عربى ، وبذلك تكتمل صورة البطل في أذهان الجماهير العربية والا بقيت الصورة مشوهة وهو يرتد بأصله الى القوقاز •

★★★

ومن قبلك مع الأسف حاول مخرج مصرى لفيـــلم مصرى أن يجعل من صلاح الدين الأيوبى الكردى الأصل عربيا من قريش ، فقال يومئذ قائل من الأردن (يا أمة هان عليهـا تاريخها فهانت عـلى التاريخ) • واني أجدني اليوم مع الأسف أكرر هذا القول •

اذا كنت تكتب لتسلية القراء أو لتعزيتهم ، فمرحبـا بك ، واما اذا كنت تكتب للتاريخ ، ولتنير الدرب للجيل الصاعد فليس هذا هو الأسلوب الصحيح ، وما هكذا يا سعد تورد الأبل ••

لان الحقيقة التاريخية أعلى من أن تشوه بمثل هذه السرعة ، وانحرافا مع عاطفة •

ان ما نقلتموه عن اللواء المتقاعد الذى كـــان ياورا ، يخالف ما نعرفه نحن بالتأكيد ، ويخالف ما كتبه عنه مؤرخو الحركة الوطنية فى مصر ، ومؤرخو سيرة عزيز المصرى ، وما كان هؤلاء يكتبون دون سند من حقيقة ، انهم على الأقل لم يكونوا من جيل الهزيمة والضياع، كانوا يتحلون بروح الجدية ، كانوا يدرسون ويحققـــون قبـــل أن يتصدوا للكتابة • كما يخالف ما ورد فى تاريخ الأسر الشركسيـــة وأسمائها المدونة •

عزيزى الأستاذ ،

أرجو ان يتسع صدرك لما سأقوله ، ان ما اقدمتم عليه ليس مستغربا فى عصرنا ، وليس جديدا علينا ، فماذا أبقى الأدباء العرب وسياسيوهم مما نعتز به ، ثم يحاولون حرقه ، والنيل منه ، والطعن فيه دون رحمة ؟

هل وصل الى علمكم ان الاعلام العربى متهم بالعهر ، أو ان الأدب الجاهلى مختلق مزور ، وأن طه حسين شيخ أدباء العصر متهم بالنقل والسرقة الأدبية ، هل تركتم قبر عظيم لم تحاولوا نبشه ، هل قرأت أبحاثا عن خلق القرآن الكريم ، هل سمعت يوما عربيا يقول ان الاسلام هو (فقط) رافد من روافد القومية العربية •

أما فى السياسة فأنت أدرى بما يحدث فى العالم منذ ربـــع قرن ، فكل فريق من العقائديين العرب يتهم الفريق الآخر بالخيانة ، واذا لم يجدوا سببا للنزاع لان العقيدة واحدة ، أو المفروض أنها واحدة انقسموا الى يسار والى يسار اليسار ، ثم الى اليمين ويمين اليمين ، والى معتدلين ، ومعتدلين متطرفين • الزعيم الخالد الذكر جمال عبد الناصر لم ينج من التهمة ، وصانع النهضة العربية الحديثة، ورأس الثـــورة العربيـــة الـــكبرى الحســـين بن عـــلى ما تركـــه الكاشحون الذين فى قلوبهم مرض ينام فى قبره بسلام ، ولو نبـــغ رجل مثله فى غير هذه الأمة لجعلوا من قبره مزارا يطوف حوله ابناء أمته صباح مساء ، الا أنه ليس لينين ولا أتاتورك ولا ديغول ، ولسنا روسا أو أتراكا أو فرنسيين ، اننا عرب • وهكذا الى أن يهدينا الله الى السبيل السوى ، ويجعل فى قلوبنا الرحمة وفى السنتنا الصدق وفى أقلامنا تقوى الله •

أخي الأستاذ ..

نحن الشراكسة ، وغيرنا من مهاجري القوقـــاز من الأجناس الاخرى ، هاجرنا في سبيل الاسلام والأراضي المقدسة واستقرينا في البلاد العربية متخذين منها وطنا ثانيا ، وخاصة في الأردن وسوريا وفلسطين والعراق وقد قدمنا الكثير في سبيل الاسلام والعروبة .. اننا لا نعرف بالضبط متى هاجرت أسرة شاهلية من القوقاز والى أى بلد عربي ، وليست لدى معلومات أكيدة اذا كانت هاجرت الى العراق أو هاجر بعض أفرادها الى العراق ومن العراق الى تركيا ثم الى مصر ، انما نعلم بالتأكيد أن التاريخ المدون للأسر الشركسية في القوقاز أورد اسم « شاهلية » مع تحريف بسيط طرأ عليه عند نقل الاسم الى اللغة العربية ليسهل نطقه وكتابته باللغة العربية ، وهذا شيء نعرفه نحن الشراكسة ممن جربنا الكتابة باللغة العربية لألقـابنا الشركسية ، وليبق اللقب علامة مميزة ، أما معنى اللقب « شاهلية » فهو الرأس الثمين ، وليس الواسع ، والرأس الثمين أو العقل الثمين هو الذى يرى أشياء كثيرة . وما كان لعزيز المصرى ، وهو الرجل القوى الواثق من نفسه ، ومكانته ، وقدراته ، ان ينكر أصله الشركسي ، وهو لم يفعل ذلك ، بل الصحيح أنه كان يعتز بأصلـــه الشركسي اعتزازه بدينه وعروبته ومصريته ، والرسالة التى كرس نفسه من أجلها ، وقد قابله أناس من شراكسة ، فقابلهم مقابلـــة القريب للقريب أو لبعض أهلـــه .

★★★

اننا نحن الشراكسة اذا نبع منا رجل مثل عزيز المصرى فاننا نعتز ونفخر به ، نعتز بمن كان أصله شركسيا وهو رائد من رواد الحركة الوطنية في البلاد العربية ونبراسا يهتدى الناس به ، ذلك أننا نعتبر ذلك دليلا على أسهامنا في رفعة هذا الوطن العربى الذى أظلنا بسمائه هذه الحقبة الطويلة من الزمن وأصبح مصيرنا مرتبطا بمصيره ، ولو شئت أن استطرد لزودتك بقائمة طويلة ممن أصلهم شركسي وقدموا الخدمات الجلى لهذه الأمة العربية .

ان محاولات اخواننـــا العرب لطمس هـــذه الآثار تسيء الينا كثيرا ، وتشعرنا بأن غيرنا لسبب أو لآخر يحاول هدم ما بنيناه .

ولا أدرى هل يضار العرب والاســـلام اذا كان صلاح الدين الأيوبى من أصل كردى ، أم اذا كان عزيز المصرى من أصل قوقازى شركسي ؟ أم أن هـــذه المحاولات وراءها مع الأسف شعور بالضعف والضياع ؟ حتى بات أصحابها يتمسكون بالقشور .

اننا نشعر مع الأسف ان اخواننا المصريين يعانـون من عقدة ورثوها منذ زمن المماليك الشراكسة ، تلاحقهم وتؤرقهم ، هذا مـع العلم أيضا ان المنصفين الذين أرخوا لحكم المماليك ، في مصر قـد ذكروا لدى حساب السيئات والحسنات ، ما قدمه هؤلاء من خدمات جلى للاسلام والعروبة ، أليسوا هم الذين ردوا الغزاة التتار عن هذه الديار ؟

انني أتمنى أن ينشر الرد هذا ، ليطلع القراء على التصحيـح فيما يتعلق بأصل المغفور له عزيز المصري ورائدي البحث عن الحقيقة واثباتها ، وقد أوردت الحقيقة كما أعرفها ٠

وشكرا لكـم ٠٠٠٠٠٠

★★★

وقد عذرت الأخ محمد أيوب فخري نيف لنورته العنيفة ، ونشرت ملخصا لتلك الرسالة الثائرة مؤكدا للأخ محمد أيوب أنني لم أفرح أبدا بهذا الذى سمعته في العراق فأنا لا أهتم عادة بمثل هذه الأمور خاصة وان الاسلام وحد بيننا ، وأزال تلك الرواسب القديمة وجعل منا اخـوة لا فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى ٠

ثم اننا نعرف ان كثيرا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا من الأحباش والفرس وقد من الله عليهم بالاسلام فضحوا في سبيل الاسلام بكل مرتخص وغال ٠

كما ان العشرات بل المئات من غير العرب ، ممن أفاء الله عليهم بنور الاسلام كانوا من أعاظم القواد الذين فرضوا ارادتهم على التاريخ ٠٠ وليعرف الأخ محمد أيوب فخري وزملاؤه أنه لم يدر في خلد أي مصرى أو أى عربى الانتقاص من قدر أي شركسي أو قوقازي أو فارسي فنحن العرب المسلمين ننظر اليهم كاخوة أعزاء يجمعنا ديننا الحنيف ٠

ونحن واياهم اخوة لأب هو الاسلام واخوة لأم من ناحية هذا الوطن الكبير الذى اجتمعنا على خير فوق أرضه ، ولن يضار الاسلام أبدا بكردية صلاح الدين ولا بشركسية عزيز المصرى فكلنا من الاسلام أبناء ٠ واذا كان بعض الاخوة المؤرخين ينتقص من قدر المماليك الشراكسة ، فما أكثر المؤرخين الذين انتقدوا الحكم الفاطمى والحكم الأخشيدى بل والحـكم العثمانى ، وليست أبدا لدى المصريين ما يسمى بعقدة كراهية الشراكسة، عقدة من العقد ، نحن ننظر الى الأمور نظرة موضوعية ، ونحـن نؤرخ للحكام دون تمييز من ناحية الجذور أو الأصل ، بدليل أننا نوجه اشنع

النقد لاخواننا المصريين ولو قرأ الأخ محمد أيوب فخرى تيف بعض ما كتبه بعض المؤرخين المصريين ، عن مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول من نقد عنيف لما وجه مثل هذا الاتهام ٠

***

ولأننا نرجح ميلاد عزيز على المصرى فى عام ١٨٨٠ لأنه لو كان من مواليد ١٨٧٢ لكان تخرجه فى عام ١٨٩٦ فى البكالوريا أمرا غير مقبول فالأسرة التى كان ينتمى اليها وظروفه الاجتماعية وتخرجه من المدرسة التوفيقية تفترض أن يكون صغير السن ، وهو يحصل على البكالوريا ، ثم ان أحدا لم يقل بمولد عزيز على المصرى فى عام ١٨٧٢ الا قلة ضئيلة لم تعتمد فى قولها على أى دليل ٠

لأننا نرجح ميلاد عزيز على المصرى فى عام ١٨٨٠ فاننا نستحسن ان نشير اشارة عابرة الى تلك السنة وما جرى بها من أحداث على أساس ان الظروف المحيطة بالمولد ، تؤثر من قريب أو من بعيد فى شخصيه الفرد فالذين ولدوا ــ مثلا ــ وكما سبق ان قلت ــ فى ثورة ١٨٨١ أو قريبا من هذا التاريخ هم الذين شاركوا فى اشعال ثورة ١٩١٩ والذين ولدوا فى ١٩١٩ وما حولها هم الذين شاركوا فى اشعال ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ٠٠٠ عام ١٨٨٠ سبق ثورة أحمد عرابى بعام بل لقد كان عام ١٨٨٠ هو عام ارهاصات لثورة ١٨٨١ ٠

***

شهدت بداية ذلك العام ــ ١٤ يناير ١٨٨٠ ــ كارثة وطنية هامة اذ تم التنازل عن أرباح مصر فى قناة السويس وكانت تلك الأرباح ١٥٪ من مجموع أرباح قناة السويس ٠

وكانت الايرادات فى ميزانية عام ١٨٨٠ ــ وقد صدر بتقريرها مرسوم فى ٢٠ يناير ١٨٨١ ــ بلغت ٨ر٥٦١ر٦٢٢ جنيها بينما المصروفات ٥٤٤ر٦٤١ر٣ جنيها يضاف اليها ٦٨١ر٤٨٦ جنيها قيمة الجزية السنوية التى كانت تؤدى لحكومة الآستانة والباقى ومقداره ٥٩٢ر٢٣٨ر٤ جنيها كان مخصصا لسداد الديون ٠

وكانت أموال الأطيان ٣٨٨ر٢٢٧ر٥ جنيها ، وعوائد الأملاك ١٩٦ر٦٢ جنيها وكانت ضريبة أصحاب الحرف ٠٩٣ر٢٠٨٠ جنيها ، وعوائد الأغنام والماعز ١٢ر٦٧٤ جنيها ٠

وكان ايراد السكك الحديدية ٥٠٠ر٠٥٠ر١ جنيه ، وايراد التلغراف ٠٠٠ر٢٩ جنيه ٠

وكانت مصروفات نظارة المعارف ٥٩٫٤٥٢ جنيها ومصروفات وزارة الداخلية ٤٨٠٫٨٨٣ جنيها ، بينما مصروفات المحاكم المختلطة ١٣٢٫٠٤٣ من ٢٤٤٫٣٠٠ ج مصروفات ديوان عموم نظارة الحقانية ، والمحاكم الشرعية والمجالس (المحاكم) المحلية ٠

وكانت مصروفات المتحف (الانتكخانة) ٤٫١١٠ جنيهات والتياترات ٧٣٥ جنيها ٠

وفى نفس العام (١٨٨٠) تم الغاء السخرة أى تسخير الأهالى فى العمل بغير أجر كاقامة الجسور وشق الترع وتشييد دور الحكومة ، وخدمة مصالح الخديو والأمراء والكبراء ٠

كما أبطل الضرب بالكرباج فى تحصيل الضرائب ٠٠

★★★

وكان الحزب الوطنى قد تأسس ونشر أول بيان سياسى له فى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ وقد بلغ نشاط ذلك الحزب أوجه فى عام ١٨٨٠ ٠

ثم كانت بدايات الثورة العرابية فى أول ١٨٨١ واقعة قصر النيل ومحاولة اعتقال ـ عن طريق مكيدة خبيثة ـ أحمد عرابى ، وعلى فهمى بك وعبد العال حلمى وقد حدث هجوم من الضباط بقيادة البكباشى محمد عبيد أفندى لاطلاق سراح الضباط الثلاثة وأعقب ذلك عزل عثمان رفقى وزير الحربية ، وتعيين محمود سامى البارودى ـ وهو من الأحرار ـ بديلا له فى نظارة الحربية ٠

وقد بلغت الثورة العرابية أوجها فى واقعة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١) وكانت الهزيمة المرة المنكرة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١ ودخول القوات البريطانية العاصمة المصرية (القاهرة) بعد ان سلم عرابى سيفه، وتم اعلان انكسار الثورة ٠

★★★

وعن الدراسة بمدارس الآستانة العسكرية ـ وأقول مدارس لأنها كانت أكثر من مدرسة ـ اكتفى ببعض الروايات الموثوق بها ٠٠ يقول ـ مثلا ـ الأستاذ محمد صبيح فى كتابه عن عزيز المصرى « بطل لا ننساه » : دخل فتانا عزيز المصرى المدرسة الحربية ، ثم كلية أركان حرب ، وكان أول دفعته ، ممتازا بين أقرانه ، فى الفنون الحربية الى جانب شغفه بالقراءة والاطلاع ، كما أعطى وقتا كافيا لاتقانه اللغات الأجنبية ولا سيما الانجليزية والفرنسية والألمانية التى كانت معظم دروسه العسكرية تدون بها الى جانب اللغة التركية ٠

وقد تميزت فترة دراسة عزيز العسكرية ـ محمد صبيح ـ بتعرفه على عدد كبير من الضباط العرب الذين سلكوا نفس طريقه ونشأت بينهم ألفة حقيقية فى الرأى والفكر والأمل فى عمل شىء جاد يحقق للبلاد العربية حرية أوفر ويدفع فى نفس الوقت عن الامبراطورية العثمانية عوامل الانهيار .

وكان « أنور » أحد هؤلاء الزملاء ، وعلى الرغم من المناقشات الحامية الطويلة التى كانت تدور بين الشابين الا أن كل منهما ـ عزيز وأنور ـ كان يظهر اعجابه وتقديره لزميله لما بين الاثنين من طباع مشتركة فواحد يتعصب لفكرة التتريك ـ أى مزيد من السلطة المركزية على شعوب الامبراطورية ـ وكان هذا أنور .. أما عزيز فكان يرى أن العثمانية تكون شعارا فقط وتترك الشعوب المنضمة تحت هذا الشعار ، تنمو ، وتزدهر، وفى ذلك حياة أوفر وقوة طبيعية يستند اليها الوجود العثمانى .

أحدهما ـ أنور ـ كانت تطوف برأسه سيرة جنكيزخان ، وتيمورلنك . والثانى ـ عزيز ـ كان يتجه بمثله العليا الى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه .

وقدر لكل من هذين الشابين أن يتزعم مدرسة فكرية تدور فيها أحلامه وان تصطدم المدرستان . وكان هناك شاب ثالث هو : مصطفى كمال لم يعبأ كثيرا بهذه المناقشات وان كان يصغى اليها فقط .. !!

★★★

رواية أخرى جاءت فى المؤيد ـ أول يونيو ١٩١٣ ـ عندما أثيرت قضية عزيز المصرى أثر عودته المفاجئة من برقة وطرابلس : بعد أن أخذ عزيز البكالوريا من المدرسة التوفيقية ١٨٩٦ أشار عليه سعادة على ذو الفقار باشا ـ زوج أخته من أمه ـ بدخول مدرسة الحقوق ، فدخلها كرها ، وكانت الحرب بين الدولة العلية واليونان قد بدأت ، فزادت الحرب ميوله الى الجندية ، وصمم سرا على سلوكها ، فلما أتم السنة الأولى فى مدرسة الحقوق شرع فى انفاذ عزمه ، فتعلم اللغة التركية فى شهور الأجازة وذهب الى الآستانة ودخل مدرستها الحربية وتلك كانت كل أمانيه .

★★★

ويضيف د. محمد عبد الرحمن برج فى دراسته الموجزة والمفيدة جدا عن عزيز على المصرى والحركة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩١٦ ـ أن المدارس العسكرية فى الوقت الذى دخل فيها عزيز كانت تموج بالدعوة الى الحركات الاصلاحية ففى عام ١٨٨٦ أسس طلبة المدرسة الطبية العسكرية فى القسطنطينية (المكتب الطبى العسكرى) جمعية سميت باسم الاتحاد

التركى تعمل على عزل السلطان عبد الحميد الثانى وكانت هذه الجمعية النواة الأولى السرية لحركة تركيا الفتاة ·

وكان من الطبيعى أن تكون بدء الحركة الثورية ضد السلطان عبد الحميد فى المدارس العسكرية ومرجع ذلك أن التعليم العسكرى كان أفصح أنواع التعليم وأكثره صلاحية فى الدولة العثمانية ، فالمعروف أن محاولات الاصلاح التى شهدتها الدولة العثمانيـــة بدأت أول ما بدأت بمحاولة اصلاح الجيش منذ عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ ــ ١٧٧٤) حين أصلح أمور البحرية والمدفعية وتجنب اصلاح الانكشارية ثم كان عهد محمود الثانى (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩) وفى عهده تم القضاء على الانكشارية كمحاولة لاصلاح الجيش فى تلك الواقعة التى عرفت باسم الواقعة الخيرية ١٨٢٦ ·

وفى عهده انشئت مدرسة للطب وأكاديمية العلوم العسكرية ·

ومنذ ذلك الحين كان من الطبيعى ان تكون المدارس العسكرية هى النواة لاصلاح حال الدولة العثمانية كانت هذه المدارس تسير أولا على النظام الفرنسى · ومع التقارب الذى ظهر واضحا فى أواخر القرن التاسع بين السلطان عبد الحميد وألمانيا بدأ اتبـــاع الأسـلوب الألمـانى فى المدارس العسكرية · فمن أيام السلطان عبد الحميد والروابط بين ألمانيا وتركيا تزداد والعلاقات التركية الألمانية تقوى سنة بعد أخرى · ففى عام ١٨٨٢ وصلت بعثة عسكرية ألمانية برئاستى جولتز ورروستو باشا لتنظيم الجيش العثمانى وقدمت لهذا الجيش مدافع كروب ·

ولاعطاء صورة أوضح للحياة فى استانبول عامة ·· وفى المدارس العسكرية العثمانية خاصة : يذكر داجوبرت فون نيلوش فى كتابه عن مصطفى كمال ، أن مصطفى كمال رغب فى الحربية لتكون مهنة يخـدم وطنه من ورائها لا ليلهو بالملابس الزاهية ·

وكان الأستاذ (حافظ) الذى سبب خروج مصطفى من المدرسـة الثانوية هو الذى مهد لمصطفى هذا المصير ــ من غير قصد طبعا ــ فقد دفع مصطفى الى التصميم على دخول المدرسة الحربية ، وقد قصـد الفتى ــ مصطفى كمال ــ الذى لم يكن قد تجاوز من العمر الثانية عشرة من عمره أحد أصدقاء والده واستعان به على الدخول المدرسة الحربية ، وكان صديق والده مصطفى ضابطا من الضباط الذين أحيلوا على التقاعد فاظهر له عطفا أكيدا وقصد رؤســاء الكلية الحربية فى سلانيـك وتمكن من اقناعهم بقبول مصطفى فقبلوه بعد أن نجح فى الإمتحان ·

وكانت الكلية الحربية من المعاهد التى ينفق عليها السلطان من ماله الخاص ويشرف على التعليم فيها بنفسه وكان الطالب الذى يكثر من الألاعيب والمجون أو ينصرف الى الأهمال والكسل يرسل الى الجيش ليكون نفرا عاديا ويقضى فى الجيش عددا من السنين كالتى قضاها فى المدرسة ليعوض عن الأموال التى صرفت عليه وقد يتاح له أحيانا أن يكون ضابطا غير حامل للبراءة ٠

ثم انتقل مصطفى الى معهد أكبر فى « مناستر » وهى من مدن مقدونيا الجميلة ، ثم انتقل الى المدرسة الحربية فى استانبول ، وكانت استانبول فى مطلع هذا القرن العشرين لا تزال راقدة تستمتع بشمس شهرتها القديمة المائلة الى الغروب ٠ كانت المدينة كما صورها الكاتب الفرنسى بيرلوتى ، لاتزال زاهية مشرقة فاتنة خلابة ، كانت مدينة الأسرار الغامضة ، والمتناقضات العجيبة ، والانقلابات الفجائية ، كانت مدينة الزهو والأبهة والجلال ، كما كانت مدينة العوز والفقر والفاقة وكانت ترى فيها القصور الشامخة والفيللات البديعة الى جانب الأراضى الخربة والأطلال الدائرة ، كانت الأحياء المنفردة مدنا قائمة بذاتها فى مظهرها الخارجى ، كما ان سكان كل حى كانوا يعيشون عيشة تختلف كل الاختلاف عن عيشة سائر الأحياء ٠

★★★

كانت استانبول القديمة مجموعة دور خشبية تحيط بها المساجد ذات أبهة وجلال وكانت « بيرا » مدينة المسيحيين والسفارات الأجنبية وكان القرن الذهبى ملتقى الشرق والغرب ولكن الشرق كان يفصله عن الغرب جسر الأمم أو جسر غلطة الذى كان يتطلب الاصلاح والترميم على الدوام ، وكان يومذاك مزدحما بحشد مختلف من الأتراك والعرب والأرمن واليونان والألبانيين والمقدونيين والأكراد والسوريين والدروز والشراكسة ٠

وكان الطربوش غطاء الرأس الرسمى يعتمر به الناس جميعا وبه يميز الأتراك عن سواهم وكان هو شعار التركى الظاهر ٠

وكان من الممكن أن ينتقل الرجل بين يوم وآخر من نعيم موفور الى فقر مدقع ففى الصباح يرى مبتهجا فى قصره لاهيا كالأغنياء المترفهين ، فاذا أظلم الليل نزعت عنه أوسمته ونياشينه وصودرت وجرد من خيوله وعرباته ومن أثاث بيته وأملاكه ثم يرسل الى المنفى ، وكانت الأقطار الشرقية هى التى ينفى اليها الأتراك عادة ٠

وهكذا كان التركى فى قلق متواصل لا يعرف ماذا يضمر له الدهر الغدار ، وكان بعض الأتراك يتعاطون الأفيون والحشيش ، فغدت هذه العقاقير المخدرة السامة مصدرا من مصادر البلاء للأتراك وغير الأتراك ٠

فى هذا الجو العام والخاص عاش عزيز على المصرى ثلاث سنوات من عمره كانت مدة الدراسة في الكلية العسكرية . وكان الطالب فى الكلية العسكرية كأى كلية عسكرية فى العالم لا يخرج من مبنى المدرسة الا فى نهاية الأسبوع . واذا كان عزيز على المصرى قد تعرف فى مرحلة الدراسة العسكرية بأنور ، ومصطفى كمال من الطلبة الأتراك فأنه تعرف الى نورى السعيد وجعفر العسكرى وجميل المدفعى ، وعلى جودت من الطلبة العرب.

ويذكر زملاء عزيز على المصرى فى تلك المدرسة أن عزيز كان معجبا بالمدارس العسكرية الألمانية أثناء دراسته فى المدرسة العسكرية العثمانية وقد ظل هذا الاعجاب ملازما له طيلة حياته كما نعرف جميعا .. !!

وكانت المانيا قد أهتمت أهتماما بالغا بالمدارس العسكرية العثمانية وكانت تنتقى لها أفضل العسكريين البروسيين الذين كانوا يقومون بالتدريس فى مدرسة أركان الحرب العثمانية ، وكان كثير من طلبة المدارس العسكرية العثمانية ، قد أكملوا دراستهم فى مدارس المانيا العسكرية ، كما أن كثيرين منهم قد حضروا دورات تدريبية فى مدارس المانيا العسكرية .

★★★

وبعد أن تخرج عزيز على المصرى من المدرسة العسكرية بتفوق ، بل بامتياز ، دخل كلية الأركان ليتلقى الدراسات العليا فى العلوم العسكرية . وقد وصف كمال أتاتورك - د . برج - كلية الأركان آنذاك بأنها كانت واحدة من المراكز الرئيسية للمعارضة السرية ضد الحكم الحميدى القائم على الاستبداد .. كان الطلاب - كما ذكر مصطفى كمال - يقرأون بالرغم من التدابير الانضباطية الشديدة أعمال وكتابات نامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨) وهو أديب تركى تزعم الحركة الانقلابية الوطنية وظهرت مسرحيته (الوطن) التى كان لها تأثير كبير فى أوساط المتعلمين الأتراك لا سيما طلبة المدارس العسكرية ، وخوفا من رقابة السلطان عبد الحميد كان الطلبة يتداولونها سرا ..

وكانت صحيفة الانقلاب الناطقة بلسان جمعية الاتحاد والترقى والصحف الأخرى التى يجرى تهريبها سرا الى العاصمة من الأقطار العربية عن طريق البعثات الدبلوماسية تجد طريقها الى يد الطلبة . وقد قطع الطلاب - مصطفى كمال - شوطا أبعد من ذلك بنشرهم صحيفة خاصة بهم تدافع عن مطالبهم وتدعو الى الاصلاح الجذرى .

وحول تخرج عزيز على المصرى يذكر محمد طاهر العمرى فى كتابه « تأريخ مقررات العراق السياسية » ان عزيز المصرى تخرج برتبة

يوزباشي قبل اعلان الدستور العثماني بأربع سنوات (أى حوالى سنة ١٩٠٤). فعين فى الجيش الثالث فى مقدونيا وتقلد هناك مرارا عدة مفرزات للتنكيل بالعصابات البلغارية واليونانية والالبانية وأوقـــع بهم الضرب الشديد حتى أن معظم العصابات كانت تهرب وتخاف عند سماعها اســم عزيز بك ٠

ويذكر جمال باشا فى مذكراته التى ترجمها أحمد شكرى أنه تعرف بعزيز على بك وقت تخرجه من المدرسة الحربية حوالى١٩٠٤ برتبة يوزباشي وقد أظهر همة شديدة فى مطاردة العصابات فى أقضية : « بترك ، وعثمانية، ومقدونيا ٠ وقد انضم عزيز المصرى لجمعية الاتحاد والترقى قبل اعــلان الدستور فخدمها خدمات جليلة » ٠

ويقول محمد صبيح عن بدايات حياة عزيز على المصرى العسكرية : ان الضابط العثمانى عزيز كان يقود قوة عثمانيـــة كلفت باخضـــاع تحركات ثورية فى الجبل الأسود ومرة فى البانيا ٠ وفى خلال أربعـة أعوام اكتسب الخبرة العملية فى مواجهة التحركات الثورية ٠

ونمت شخصية عزيز المصرى ، وعرضته المخاطر التى واجهها لنوع من الفطنة النادرة التى أخرجته من مآزق كثيرة ، ومن ذلــك ــ محمــد صبيح ــ حادثان :

أحدهما عندما وقع فى أسر قـــوة للثوار وقد كلفـــوا اثنين منهم باصطحابه الى قاعدة عملياتهم ، فاستطاع فى الطريق ان يتغلب عليهمـــا بحركة سريعة من نوع الجودو وان يركب حصانا ينطلق به الى وحدته ٠

والحادث الثانى : أنه قــرر أن يواجه مجموعة ثائرة فاذا به يضع كمائن فى الطريق الى مقرها ويتوجه اليها ويقدم نفسه الى قواد هـــذه الثورة ويأخذ فى مناقشتهم ويتحدث اليهم حديثا انسانيا يذيب ما بينهم وبين القوات التركية من جليد ويقول لهم انه لم يجئهم خوفا منهم فــان قواته منتشرة فى المنطقة كلها ولو ان أحدهم ذهب الى موقع كذا والآخر الى كذا ، وسيجدان ما ذكره صحيحا ٠

وأقتنع الثوار وتوقف القتال وسلموا سلاحهم وتعهدوا بان يقلعوا عن ثورتهم مادامت حكومتهم فى طريقها الى اعطائهم الحكم الذاتى ٠

وكانت تأتى تقارير عزيز الى قائده محمود شوكت باشا فيعجب به ويشجعه كثيرا حتى أصبح عزيز من أقرب الضباط الشبان الى نفسه ٤

وكان محمود شوكت باشا (البغدادى) قائد الجيش الثالث وثغر سالانيك متعاطفا مع الأفكار الحرة (تركيا الفتاة ، ثم الاتحاد والترقى) .

★★★

وقد استطعت ان أقوم بتجميع بيانات أخرى عن هذه الفترة سمعتها من عزيز على المصرى وبعض رفاقه وقامت مجلة مصر الفتاة بنشر بعضها أوجزها فيما يلى :

تخرج عزيز على المصرى من مكتب أركان الحرب — كان يسمى مكتبا — برتبة يوزباشى سنة ١٣١٩ هـ ثم أرسل الى جبال برين على حدود بلغاريا ، لتعقب العصابات البلغارية فى تلك الأرجاء .

وقد تغلب عليها فى عدة مواقع ، ومثل بالثوار — كما قيل — فارتاح رؤساؤه الى ما فعله وأحلوه موضعا رفيعا .

تقلد عزيز على المصرى منصب مفتش عام لمنطقتى اشتيب ورادو فنيسيا سنة ١٣٢٢ هـ فقضى عاما آخر يتعقب اثر العصابات هناك الى ان سد عليها المسالك ، وأوقع بها — كما قيل — المهالك .

عين سنة ١٣٢٣ هـ مفتشا عسكريا فى كوتشابا للمليشيا وكان — كما روى أحد زملائه — يقضى الأيام بلياليها على متن الجبال متحملا نفحات الحر ، وثلوج الشتاء وكانت درجة الحرارة ١٥ تحت الصفر وهو يطارد العصابات لا يستقر فى مكان حتى أنهك قوى تلك العصابات ونكل بها تنكيلا وكان قد انتظم عام ١٣٢٤ فى جمعية الاتحاد والترقى فى بدء تأليفها وقد أنشأ لها فرعا فى مقاطعة أوفريدا ، وقد سلم زمام ذلك الفرع الى أمين أفندى الأرناؤوطى المشهور .

فى سنة ١٣٢٤ عين مفتشا عسكريا لكستوريا ولوجيا ، وقد أنشأ أيضا فروعا عديدة لجمعية الاتحاد والترقى فيها ، ووفق بين بعض العصابات الثورية الألبانية وبين جمعية الاتحاد والترقى .

ولما انضم نيازى بك الى العصاة سعى للتوفيق بينه وبين بيرم بك زعيم الألبانيين الثائرين .

وقد أعلن عزيز بك الدستور فى مناستر ولستوريا يوم ٧ تموز — يوليو — قبل اعلانه فى سلانيك أو غيرها بيوم أو يومين .

قال أحد الضباط الذين رافقوا عزيز على المصرى فى مقدونيا أو مكدونية كما ينطقونها ، أن أهم العصابات التى قضى عليها عزيز على المصرى فى مكدونية : عصابات اطناس فريتور البلغارية .

(٢) عصابات داميان غرادون الذى رشح نفسه ليكون أميرا على مكدونية ٠
(٣) عصابة ساندرو كيتافوف ٠ (٤) عصابو ناجو. نوتبويدا ٠
(٥) عصابة ستافريكوكوف ٠ (٦) عصابة لدزوف ٠ (٧) عصابة فيرانيكوف ٠ (٨) عصابة لوزحين وغيرها من العصابات التى كان أمرها قد تعاظم ٠

زار عزيز على المصرى سورية ومصر بعد اعلان الدستور ثم عاد الى الآستانة فعين قائدا لفرقة الأرجى الثالثة ٠

وبعد وصوله الى الآستانة بعشرين يوما حـدثت ثورة ٣١ مارس فاشتركت فيها العساكر المرابطة فى الآستانة الا فرقة عزيز بك فقد ظل منتظرا الأوامر لتأديب العصاة ٠

ولكن الأوامر لم تصدر لسقوط الوزارة فى ذلك الحين فحـاصر العصاة بفرقته في طاش قلعة فى ٤ ابريل ٠

وكان عزيز بك قد سار بقسم منها الى خادم « كوى » وانضم الى جيش الحرية ، ولما دخل هذا الجيش الآستانة كان عزيز بك فى طليعته فاسترجع الطوبخانة والجهات المجاورة ٠

وما أن انقضى على هذه الحالة شهران حتى حاصر الأروام العثمانيون العسكر الذين فى أبوالق وقتل عددا كبيرا من ضباطه وجنـوده وأعلنوا انضمامهم الى اليونان ٠ فزحف عزيز بك عليهم بحرا واقتص منهم وسلم الأهلون سلاحهم وعاد الى الآستانة بعد ما استتب له الأمر ومعه خمسة آلاف بندقية وألف أقة ديناميت ٠

فى سنة ١٣٢٥ عين معلما للتعبئة فى مكتب أركان الحرب وفى تلك الأثناء ثارت العصابات البلغارية واليونانية مرة ثانية فندب لمطاردتها وأبلى بلاء حسنا ، ثم عين مفتشا لولاية سلانيك ٠٠ و ٠٠ و ٠

رواية أخرى رواها مصطفى لطفى « جمعية الاتحاد السلانيكية » فى بنى غازى نشرتها الأهرام ١٩١٣/٢/١٧) جاء فيها : برزت شجاعة عزيز فى البلقان وكان اسمه وحده يقطع قلوب رؤساء العصابات ، وقد سعى عزيز قبل اعلان الدستور سعيا كبيرا لاعلان الحرية قبل هـؤلاء الذين اغتصبوا اليوم الاسـم والشهرة وبفضـل هذا السعى الحر الذى قام به جعل ألوفا من اخوانه يعشقون اخلاصه ويفاخرون به ٠

فلما حدثت فتنة ٢١ مارس - الرواية لمصطفى لطفى أيضا - فى الآستانة بقى طابوره وحده حافظا النظام بخلاف كل الطوابير الأخرى حتى أن هذا الحادث كان عبارة عن أعجوبة يومئذ فى الآستانة ، فأرسلته الحكومة بعد ذلك الى « أبوالق » لتسكين الحركة التى حدثت فيها فقام بالمهمة التى عهدت اليه خير قيام وكسب ثناء وشكر جميع الأروام والأتراك بما قام به من الخدمات فى تلك الحادثة ٠

ولما حدثت ثورة الارناؤوط سنة ١٣٢٦ (الرواية أيضا لمصطفى لطفى) وفق بطابور واحد أن يسكن تلك الثورة لا بقوة السلاح بل بقوة النصائح الحكيمة والعقل والحكمة واثارته المشاعر الدينية ٠

رواية أخرى نشرت بعد أن القى القبض عليه فى حادث سقوط الطائرة ١٩٤١/٦/١٥ وقد جاء فى تلك الرواية ، أن عزيز على المصرى كان قد انضم الى جماعة تركيا الفتاة وتفاهم مع زعمائها على القيام بثورة ضد السلطان عبد الحميد للمطالبة بالدستور ، وقد اجتمع القواد أنور ، وعزيز المصرى فى البانيا وأرسلوا من هناك برقيتهم المشهورة الى السلطان عبد الحميد يطالبونه باعلان الدستور ، فأرسل اليهم السلطان جيشا قويا للقضاء على مركزهم ولكن الثوار تمكنوا من قتل قائد الجيش قبل وصوله الى البانيا ٠

وفى المؤامرة التى قيل ان السلطان دبرها فى استنبول فى ٣١ مارس ١٩٠٨ حيث حاول الجنود التخلص من الضباط الشبان وقتلهم جميعا ، نجا عزيز المصرى يومئذ باعجوبة اذ لم يكن موجودا فى ثكنته وقت تنفيذ المؤامرة وقد استطاع أن يفر الى سان استيفانو حيث احتشد جيش محمود شوكت باشا ٠ وشارك عزيز فى احتلال استنبول ٠

وبعد الثورة التى أدت الى خلع السلطان عبد الحميد الثانى تولى السلطان محمد رشاد مكانه ٠٠ وكان عزيز على يمنى نفسه بتقلد منصب كبير ، ولكن القادة الأتراك أغفلوا تعيينه فى المنصب الذى يريده وذلك لانهم وحتى الجدد منهم والذين كانوا أصدقاء وزملاء لعزيز المصرى لم يكونوا يطمئنون الى عزيز على المصرى اذ كانوا يرونه دائما غريبا عنهم باحساسه العربى وبمولده المصرى ٠

ونعود الى رواية أخرى للمؤيد (أول يونيو ١٩١٣) تشير الى تسمية عبد العزيز على بلقب والده فى الآستانة ، فمن عادة الأتراك أن يقولوا عزيز بدلا من عبد العزيز ، وحميدا بدل من عبد الحميد فصار اسمه عزيز على ٠

وكان أهل الآستانة يطلقون عليه قاهرة لى عزيز على آى عزيز على المصرى نسبة الى وطنه الذى ولد به ٠

ويقول المؤيد انه كان فى مقدمة الدستوريين الذين دخلوا الآستانة يوم اعلان الدستور وله فى ذلك حيلة تتلخص فى انه رتب عساكره فى قطار بضاعة وغطى القطار بحيث أصبح ظاهره كمن يحمل بضاعة حقيقية فسار القطار ولم يشعر الناس الا وعزيز وجنوده فى قلب العاصمـــة يؤيدون الدستور ٠

ومتابعته للعملية المعروفة باسم طاش تنسلة معلومة ٠٠

ويشير المؤيد الى تعيينه أستاذا فى الجيش فى المدرسة الحربية والى أنه لم يمكث أكثر من ستة شهور فى تلك الوظيفة ٠

ولكن الأستاذ محمد طاهر العربى يذكر ان عزيزا أرســـل سنة ١٩١٠ الى آبوالق جنوب خليج أوزين على شواطىء الأناضول لتأديب احدى عصابات الأروام هناك حيث قام بمهمته خير قيام ٠

ويقول جمال باشا أنه لما زحف الجيش على الآستانة بعد الثورة الرجعية فى ١٣ ابريل كان عزيز بك على رأس احدى فصائله فهاجم ثكنة تويهوس بعد الاستيلاء على كوبرى غلطة وأظهر مهارة عظيمة فى مطاردة الثائرين ولم أكن الى تلك اللحظة أعرف ان له صلة بالعرب واينما قابلنى ، ـ جمال باشا ـ بكل وقار وخاطبنى بلهجة الأدب ٠

والجدير بالذكر ان يحيى طاهر العمرى فى كتابه « مقومات العراق السياسية » قد أشار الى جماعة الاتحاد والترقى وانضمام عزيز المصرى اليها قبل اعلان الدستور ، « وكان عزيز من أركانها نظرا لما قدمه من الخدمات العظيمة للاتحاد والترقى » فى ماكدونيا ٠ ولما زحف جيش محمود شوكت باشا من الردمللى على الآستانة بعد حادثة ١٣ نيســـان ١٩٠٩ الارتجاعية لتأديب العصاة ضد الدستور ، وقد أبلى عزيز على بلاء حسنا وكان استيلاء عزيز على كوبرى غلطه قد مكن الاتحاديين من السيطرة على العاصمة فهذا الطريق هو الذى جاءت منه قوات شوكت باشا ٠ وقد كان بامكان قوات الدراويش ان تعزل القسطنطينية وتستولى على السلطـة ـ د٠ محمد عبد الرحمن برج ـ ولم يكن دور عزيز المصرى قاصرا على ذلك فحسب بل انه بادر بمحاصرة احدى ثكنات الوحدات المتمردة ، وكانت أهم ثكنة آنذاك وهى ثكنة ثويهوس ٠

وربما كانت آخر الروايات حول هذه الموضوعات رواية الأستاذ أسعد داغر وقد نقلها الأستاذ محمد صبيح وقد جاء فيها « .. وضع الجنرال محمد شوكت باشا وأركان حربه خطة الزحف على استانبول بدقة تامة فعهد الى أنور ، بمحاصرة قصر يلدز ومنع السلطان من تنفيذ تهديده بضرب « حى بك أوغلى » - حى السفارات والأجانب - من المدفعية الموجودة فى مرتفع يلدز اذا تحرك جيش شوكت الى العاصمة . وعهد الى مختار بك باحتلال ثكنة « تقسيم » وقد قتل هذا القائد فى المعركة » .

وكانت مهمة عزيز على احتلال محطة اسطنبـول (السركجى) والاستيلاء على كوبرى غلطة والثكنات القائمة على جانبيه والمنتشرة على طول الطريق الى قصر ضولمه بغجة .

وقد وفق عزيز الى احتلال الكوبرى والمحطة والثكنات المجاورة للكوبرى دون أن يطلق رصاصة أو تراق نقطة دم وظل ينتقل من ثكنة الى ثكنة ويأسر ضباطها وهم فى أسرتهم الى أن بلغ الثكنة الواقعة على مقربة من قصر ضولمه بغجه . وكان القتال قد بدأ فى جهات « تقسيم » وفى شمال المدينة فتنبهت حامية الثكنة وبادرت الى المقاومة فاضطـر عزيز على الى احتلالها بالقوة وقد أتم المهام التى نيطت به كلها ثم سار لمعاونة أنور فى شمال المدينة واشترك بعد ذلك فى الاستيلاء على ثكنة « تقسيم » التى كان الدفاع عنها شديدا .

لقد شارك عزيز على فى الثورة لخلع السلطان عبد الحميد ولاعادة الدستور الذى كانت شعوب دولة الخلافة العثمانية تتطلع اليه ، ولو لم يقم عزيز على بدوره فى تلك الثورة لما قيض لها أن تنتصر وربما لو كانت قد انتصرت بدون مجهوداته لخسرت الكثير من الضحايا .

ولكن الثوار لم يعرفوا لعزيز على المصرى هذا الدور ولم يقدروا له كل مجهوداته لا لأنه لم يكن ضابطا عظيما مثل قواد تلك الثورة وانما لأنه كان عربيا بتفكيره واتجاهاته ، ولم يكن طورانيا مثلهم يريد للعنصر التركى أن يسود ويقود وتكون بقية العناصر الأخرى فى خدمته ، ولذلك رأينا عزيزا يهرب من اضطهاد القواد الجدد له الى اليمن السعيد .

الفصل الثاني

عزيز المصري في اليمن السعيد : مقاتلا ، ومفاوضا

كانت اليمن عقبة فى طريق التوسع العثمانى ، ورغم ما بذلته دولة الخلافة العثمانية من جهود شاقة ومضنية لاحتلال اليمن ، ورغم ما سيرته من جيوش وأساطيل للسيطرة على الأرض اليمنية ، الا أنها لم تنجح الا فى احتلال سواحل اليمن وبعض المدن القريبة من السواحل .. وقد كانت أول حملة عسكرية أوفدها العثمانيون الى اليمن ـ على ما روى الأستاذ أمين سعيد ـ بقيادة سليمان باشا الأرناؤوطى أحد مماليك السلطان .

وقد استولى جيش الأرناؤوطى على عدن ـ فى ٣ أغسطس ١٥٣٨ ـ بالغدر والخيانة . وقد أناب سليمان باشا على ادارة عدن ، أحد ضباطه ويدعى « بهرام » بينما أقلع هو ـ بأسطوله ـ باتجاه الهند لمواصلة القتال ضد البرتغاليين .

ثم عاد سليمان باشا الى عدن ، ومنها الى مخا ، ثم عسكر فى ميناء صليف اليمنى ، وتم اخضاع اليمن ـ ظاهريا ـ الى السيادة العثمانية .
وقد بدأت قبائل اليمن ثورتها ضد الأتراك فى اليوم التالى لاستيلائهم على عدن ، وكان فى مقدمة الأسباب التى أدت الى تلك الثورة ، غدر العثمانيين بأمير عدن عامر بن داود الطاهرى ، وضاعف الأتراك من ارسال حملاتهم الى اليمن بغية اخضاع شعبها .

وكانت الحروب ـ كما يقول الأستاذ أمين سعيد ـ سجالا ، فيوما ينتصر اليمنيون فيطردون الترك من بلادهم ، ويوما ينتصر الأتراك ويكرون على البلاد لاحتلالها من جديد بعد عناء ومشقة . ومن المتفق عليه أنهم ـ أى الأتراك ـ لم يبلغوا « صعده » ـ قاعدة الامامة ـ ولم يجوسوا خلال المناطق الشرقية التى استعصت عليهم . وقد ظلت سلطة الامامة باقية

يتوارثهـــا القوم من آل زيد بن علي ــ زيد العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ــ كابرا عن كابر ·

ولسنا فى مجال الحديث هنا عن العلاقات بين الأتراك وبين اليمنيين ولا عن الحروب التي أشعلها بعض أئمة الزيدية فى اليمن ضد الاحتلال التركى ، فذلك يخرج عن نطاق بحثنا ، ولكننا نذكر أن يحيى بن محمد حميد الدين بويع فى ١٩٠٤ بالامامة لاستجماعه الشروط المطلوب توافرها بالامام بموجب أحـــكام المذهب الزيـدى وقد اتخذ لنفســــه لقب « المتوكل على الله » ·

وخاف الأتراك من ازدياد نفوذ الامام يحيى فبدأوا يضيقون عليه الخناق ، ويثيرون عليه جيرانه ، ونادى الامام بالجهـــاد لطرد الأروام (الترك) من البلاد ولبى الناس دعوته ، ونجح الامام بجيوشــــه فى محاصرة صنعاء ــ قاعدة الترك الكبرى ــ لمدة ســـتة أشهر ، انتهت بتسليمها ·· وهنا ثارت دولة الخلافة وجهزت حملة عســـكرية كبرى وصلت الى الحديدة فى ١٩٠٦ وكانت بقيادة المشير أحمد فيضى باشا ــ أشهر قادة الترك وقتئذ ــ ثم واصلت الحملة ــ أمين سعيد ــ التقدم الى صنعاء فاستولت عليها وأخرجت الزيود منها ، فعاد الامام الى صـــعده مقره القديم ·

★★★

وأشير هنا الى دراسة جيدة للغاية للدكتور فاروق عثمان أباظة عن الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ ــ ١٩١٨ ــ وما أحوجنا حقيقة الى مثل تلك الدراسات الجيدة ــ التى تسلط الأضواء على الأحداث التاريخيـــة الهامة التى لم يسبق الاهتمام بها منذ فترة طويلة ، ونزيح الســـتار عما خفى علينا من أسرار ·

وأبادر فأقول ·· ان ما يعنينى من أمر العلاقات اليمنية التركية ، هى الحملة التى سيرتها دولة الخلافة العثمانية الى اليمن وشارك فيهـــا « البكباشى عزيز على المصرى » والصلح الذى انتهى اليه اليمنيون والأتراك ولعب عزيز على المصرى دورا هاما فى الوصـــول اليه · يقول د · فاروق عثمان أباظة ــ مستندا الى ما جـاء فى مجـلدات : المنـــار ، واللواء ، والأهرام ، والمؤيد · والى ماكتبـــه الواسطى ، وســـعد المصرى ، وأمين الريحـانى ، والعقيلى وآخرين : تزعم الامـام يحيى الجهاد ضــد الأتراك فى جبال اليمن وأصدر نداءه للقبائل اليمنية بالانضمام اليه ، كما شاركه السيد محمد الادريسى (أمير عسير) فى محاربة الأتراك فى عسير واعلان الثورة عليهم ·

وقد بدأ الثوار اليمنيون يفتكون بعساكر الأتراك فتكا ذريعا بين الحديدة وصنعاء ، واستولوا على الأسلحة والمدافع والذخيرة التى كانت فى أيديهم وذلك ليتخلصوا من دفع الضرائب لحكومة الولاية وطالبوا بحكام وطنيين وبالحكم بموجب الشرع الاسلامى .

***

وكان اليمنيون يهتمون بتطبيق الشريعة الاسلامية ويركزون عليها أهمية خاصة الى درجة ان المحاكم الحكومية الرسمية لم يكن يتقدم اليها أحد ، انما كان السكان يلجأون الى القضاء الذى كان الامـام يقيمه هو بوساطة قضاة يعتمدهم لذلك . وقد دارت المعارك الداميـــة بين الثوار اليمنيين والعســاكر العثمــانية وتفاقمت الأمور بحيث اضــطرت الدولة العثمانية الى أن تسحب جيوشا من البانيا كانت قد استقدمت معظمهــا أو ما يبلغ سبعة آلاف منها من طرابلس الغــرب لقمع ثورة الألبانيين ، ولم تكف هذه القوات ، فاستقدمت الدوله العثمانية البقية الباقية من جندها فى طرابلس الغرب ثم ضمت اليهم ثلاثة أفواج من الاستانة ، علاوة على الاحتياطى الذى دعته للخدمة من ولاية اسكوب (البانيا) ان ما مجموعه ٣٥ طابورا أزمعت ارسالها الى اليمن وأرسلت دولة الخلافة الفريق محمد على باشا واليا جديدا لليمن وقومندانا للفيلق الســـابع لاخضاع الامام يحيى وزميله محمد الادريسى والقيام بالاصلاحات الواجب ادخالها فى تلك البلاد وفى الفيلق ، وقد خول صلاحيات واسعة فى العزل والتعيين ، فاختار عددا من الضباط البارعين ليرافقوه (الأهرام ٦ مايو ١٩١٠) وقد مال محمــد على باشــا الى العنف واشــاعة الخوف والرهبــة فى نفوس اليمنيين ليضمن استسلامهم للادارة العثمانيـــة ، مما أغضب الأتراك ، ومكن الامــام يحيى من تحريض اليمنيين ضد الحكم التركى ، وقامت القبائل بحصار جميع مراكز اليمن : صنعاء ، وغيرها حصارا شديدا .

***

ولم يكن الامام يحيى ، ولا الادريسى راغبين فى معاداة دولة الخلافة الاسلامية اذا ما اعترفت لكل واحد منهما بوضعه الخاص فى بلاده ، وما أكثر المحاولات التى بذلاها فى تجنب اراقة الدماء وفى عقد صـلح مشرف مع الدولة دون جــــدوى . بل ما أكثـر ما نصـح الامــام يحيى

والادريسى دولة الخلافة بان توفر جنودها الذين يموتون فى بطاح اليمن وغيرها لقتال المتآمرين ضد دولة الخلافة من غير المسلمين ٠٠ !!

وكانت دولة الخلافة متمسكة ـ وقتها ـ بما يمكن تسميته بالكبرياء الكاذب أى الحفاظ على سلطات اسمية غير فعلية ٠ وكان الرأى العام اليمنى ، والرأى العام العربى يأخذ ـ باستمرار ـ على دولة الخلافة اهمالها لمصالح الشعب فى اليمن ، وعمان ، وقد عبرت المؤيد عن ذلك الموقف عندما قالت (٢٦ يناير ١٩١١) : ان المسئولين فى الدولة لا يرسلون للعرب الا السيف والنار لاخضاعهم ، بدلا من أن يقدموا لهم يد المعونة والمساعدة المادية والمعنوية ، وان القائمين بادارة الدولة العلية لايسجلون عن العرب الا كلمة السوء فنراهم اذا أرسل لهم امام اليمن ـ مثلا ـ وفدا ليتفاهم معهم ويناقشهم فى الحل المعقول الذى يمكن ان ينفع المسألة اليمانية يضعون أصابعهم فى آذانهم ويتملقونهم بالكلام الفارغ الى أن يعييهم الانتظار ، فيقفل راجعا من حيث أتى ٠

★★★

وتنقل جريدة المؤيد ـ عن جريدة الطان الفرنسية فى عددها الصادر فى ٢٤ يناير ١٩١١ رأى أحد الأساتذة فى جامعة فيينا ـ وهو من المهتمين بالمسائل العربية ٠ ان الامام يحيى صاحب النفوذ العظيم فى البلاد الجنوبية تحت أمره على الأقل ٥٠٠٠٠ رجل ، وأن السيد الادريسى جمع (فى أول يناير ١٩١١) ٤٠٠٠٠ من الفرسان وأن جميع هؤلاء الرجال مسلحون بالبنادق الحديثة ، بالرغم من المجهودات التى تتخذها الحكومة فى السهر على منع تهريب الأسلحة ٠ وقد وهنت عزيمة الدولة (العثمانية) نظرا لشدة بأس العرب وصعوبة بلادهم وان الجنود التركية تفر من الحرب فرقا فرقا ، وأن تلك الفرق الفارة يتراوح عدد أفرادها بين العشرين والخمسين تاركين سلاحهم وذخائرهم الحربية للثائرين ٠

كما نقلت المؤيد (٦ فبراير ١٩١١) ـ عن السير وليم مكسويل ـ ما ذكره فى الديلى ميل البريطانية ـ من أنه بسبب خصوبة أرض اليمن تختلف أخلاق أهلها عن أهالى باقى العرب فانهم سكنوا الدور وهم يحقدون على سادتهم الأتراك الذين لم يأتوا اليمن للعمل لما فيه فائدتهم ونفعهم ولكن لاستنزاف مافى أيديهم ٠ واليمنى ككل عربى يخفى فى نفسه احتقاره للتركى وينظر اليه كالهمجى حيث جرد بلاده من مدنيتها ، واذا جلست الى جانب اليمنى يذكر لك عن بلاد العرب أنها كانت مركزا للعلوم والمعارف كما هى اليوم للدين ، وقد جرى أكثر من جيلين وهما فى تنازع ، وما سمعت أروبا بأعمالهما الا همسا ، ولم تحول نظرها التفاتا

حتى فى هذا الوقت التى أرسلت فيه الحكومة العثمانيـة ثلاثين طابورا وتتساوم فيهم مع ألمانيا على أجرة نقلهم ٠

ولا جدال فى أن مقالى « الطان » و « الديلى ميل » يحملان الكثير من المبالغـــة وخاصة فى أعداد قوات الامام يحيى والســيد الادريسى الا أنهما — المقــالان — يوضحان جيدا نظرة اليمنيين الى الأتراك ، كمــا يدل المقال الأخير — الديلى ميل — على عجز دولة الخلافة عن نقل قواتها الى اليمن ولجوئها الى ألمانيا لتتولى ذلك عنها نظير أجر ٠٠ !! هذا الموقف فى حد ذاته يؤكد العجز المطلق لدولة الخلافة ، فلم يعرف أبدا أن دولة مستعمرة — بكسر الميم — لا تتمكن من نقل قــوات الاحتلال الى حيث تريد أن تحتل ٠٠ !!

★★★

هذا وقد تجددت ثورة اليمنيين ضد الحكم العثمانى بصورة عنيفة قاسية ، اثر تولية الوالى العثمانى محمد على باشا ٠ وقد نقلت جريدة المؤيد — عن وكالة رويتر — ٢١ يناير ١٩١١ — أن الامام يحيى أشـــهر الحرب على الأتراك وقطع أسلاك التلغراف بين صنعاء والحديدة ، وينتظر ان تنوز اليمن ثورة ضارية وأصبح المتصرف والجنود فيها كمسجونين من أول ديسمبر ١٩١٠ والعصابات الثائرة تتحرك فى كل جهة من جهات اليمن وان متصرف عسير الجديد ، لا يزال مقيما فى الحديـدة لأنه عاجز عن متابعة سفره الى مقر متصرفية عسير ٠

★★★

وتنقل المؤيد عن جريدة طنين (التركية) ان السلطنة سترسل لهم دشا باردا كالذى أرسلته الى الألبان فى مقدونيا ، فضلا عن أن تقارير قناصل الدول الأجنبيــة فى الحـديدة أيدت نداء الأنبــاء القائلة بأن الامام يحيى زحف برجاله نحو صنعاء وهو الآن — يناير ١٩١١ — أوشك ان يصل الى صنعاء ، وقد وقعت بينه وبين العساكر عدة مصـادمات ولم يعرف حتى الآن — ٢٤ يناير ١٩١١ — عدد الجرحى من العثمانيين ٠٠ وقررت دولة الخلافة العثمانية ارسال ٣١ أورطة ، ٨ بطاريات مدفعية الى اليمن رغم العجز المالى الذى تشكو منه ميزانية الدولة العلية ٠ فى نفس الوقت بدأت عمليات تسوية : زحفت القبائل الى المدن التى كانت بحوزة الادارة التركية ، وقيل ان عدد الجنود الذين كانوا يحاصرون فى صنعاء كان يتراوح بين عشرة آلاف وخمسين ألف مقاتل ، وكان باستطاعة الثوار دخول المدينة عنوة لأن حاميتها وكانت مؤلفة من نحو خمسة آلاف من المشاة وبعض الفرسان ونحو ٣٠ مدفعا ، ما كان باستطاعتها الدفاع

عن السور الذى يبلغ محيطه اثنى عشر كيلومترا • وكان عدد كبير من القوات التركية ـ معظمهم من المجندين العرب فى الجيش العثمانى ـ قد هربوا وانضموا الى الثوار • وكان الوالى قد فرض على ابنـــاء صنعاء المحاصرين معونة مالية قدرها سبعون ألف ريال للانفاق منها على جنوده المحاصرين مما ضاعف من غضب أولئك الأهالى •

وكان الوالى التركى قد بث الألغام حول صـنعاء لابـادة القبائل المهاجمة و •• وكانت القوات العثمانية تخرج من صنعاء لملاقاة بعض القبائل ثم تعود ومعها رؤوس بعض القتلى العرب الى المدينة لتبث الارهاب والفزع فى قلوب أهالى صنعاء •• !!

***

وقد تعرضت مدينة « بريم » أيضا لحصار من قبائل ذى محمد وذى حسين ـ فرعان من قبيلة بكيل ـ وقد حصل منهم أفعال مشينة من النهب والقتل ثم الحرب •

وقررت دولة الخلافة ارسال حملة جديدة الى اليمن بقيادة عبد الله باشا الذى توفى وهو فى طريقه من الحجاز الى اليمن نتيجة لما كان يعتريه من النزلات الصدرية ، فعين الباب العالى عزت باشـا الذى كان رئيسا لأركان حرب الجيش العثمانى لقيادة هذه الحملة بدلا من زميله الراحل • ومنح عزت باشا صلاحيات واسعة ، يولى ، ويعزل ، ويحـاكم ، ويجرى الاصلاحات اللازمة ، وقد تميز عزت باشا القائد الجديد عن غيره من القادة العثمانيين بحنكته السياسية ، وفصاحته وحذقه ، وكريم أخلاقه ، وكان لجهوده المثمرة أكبر الأثر فى عقد الصلح بين الأتراك والامام يحيى •

ومما يذكر ان السلطان عبد الحميد عندما نفى عزت باشـــا الى سورية ـ وكانت سورية منفى للمغضوب عليهم من القادة الأتراك ـ وزار الامبراطور « غليوم » سورية قال فى حديث له الى والى بيروت اذ ذاك : اذا كان الجيش العثمانى يستغنى عن عزت باشا فان الجيش الألمانى فى حاجة اليه » •

***

وقد اضطر السلطان عبد الحميد ان يرقيه رتبة وان يرسله الى اليمن فريقـــا على الفرقة الرابعة عشرة المقيمة بالحديدة ، ثم عـاد السلطان عبد الحميد فأعاده الى منفاه مرة أخرى فى سورية • وقد اختير عزت باشا رئيسا لأركان حرب الجيش العثمانى باجماع رجال الدولة • وقد أبدى عزيز بك على المصرى ـ وكان حينئذ برتبة بكباشى ـ رغبته فى مرافقة هذه

الحملة وقد تكونت من عشرات الطوابير ، نقلتها البواخر ومعهــا كساحة وطرادة • وقد أجيب ــ كما جاء فى مذكرات جمال باشا ــ الى طلبه •

وقد اشتبك عزت باشــا فى معارك عنيفة مع قوات الادريسى التى عرقلت طريقه الى اليمن • وعمدت ــ الأهرام أول أغسطس ١٩١١ ــ فى كثير من الأحيان الى قطع ميــــاه الشرب عن المدن والقرى التى نزلت فيها القوات العثمانية فسببت لهـــا متاعب ومشــــاكل كثيرة عرقلت سرعة تقدمها •

وقد زحفت القوات التركيــة بقيــادة عزت باشا بعد ان تجمعت فى ميناء الحديدة الى داخل البلاد اليمنية وقد واجهت مقاومة شديدة • وقد أشاد عزت باشا ببطولة وصلابة المقاتلين العرب فى قرية شعبان التى يسميها الأتراك سنان باشا قائلا : لو كان للدولة ألف رجل من هؤلاء الرجال لأخذنا أوروبا بأسرها •

وقد منى الجانبان بخسائر فادحة ، وقدوضع الامام يحيى خطــة التراجع أمام القوات التركية حتى يستنفد قواهم وحتى يبعدهم عن مراكز تموينهم ، وحتى يفرقهم داخل المناطق الوعرة • ونجحت القوات العثمانية فى طرد القبائل اليمنية الثائرة من « متاخه » ووصلت تلك القوات الى سوق الخميس ، وفى ٥ ابريل سنة ١٩١١ تركت القبائل اليمنية الثائرة مراكزها حول صنعاء ، منسحبة نحو الشمال ، وتمــكن عزت باشا من دخول صنعاء فى مساء نفس اليوم (١٥ ابريل) •

***

وفى ١٦ ابريل ١٩١١ أقيم استعراض كبير للحامية ولجيش النجدة العثمانى وقد تمكن عزت باشا من السيطرة على المدن والمراكز اليمنية فى الطريق من الحديدة الى صــــنعاء ، وظــل الامام يحيى يتمتع بنفوذه فى منطقة الهضبة ويتزعم قبائل تلك المنطقة التى تتوسطها « صعده » مركز الامامة الزيدية فى اليمن •

كما بقى للادريسى قوته وقواته بعــد ان اعتصــم فى أبها عاصمة جبال عسير •

وكان انتصار القوات العثمانية من أهــــم الأسباب التى أدت الى تجمع قوى اليمنيين وحلفائهم ، فسرعان ما اختفت الخلافــات المذهبية والقبيليـــة حيث تعاون الامــــام يحيى الزيدى مــع الادريسى السنى وحيث انضمت اليهما قبائل الشافعية فى الهضبة وفى عسير وفى المنطقة الساحلية •

وقد كان عزت باشا دائم البحث عن حل للخلافات اليمنية العثمانية وكان باستمرار يخشى من الكمائن التى ينصبها الثوار اليمنيون دائما لقواته والتى كانت تضبج مضاجعهم وتفنى طلائعهم فى بعض الأحيان عن آخرها . وللأمانة التاريخية فان عزت باشا لم يكن متعصبا لوجهة النظر التركية الرسمية من استمرار السيادة الاسمية على اليمن ، وانما كان يبحث عن حل يرضى الطرفين (الأتراك واليمنيين) وكان يرى ان الصلح الى جانب أنه لمصلحة الجانبين فانه يبقى على العلاقات التاريخية والاسلامية ذات الجذور العميقة بينهما فى وقت تألبت فيه بعض الدول الأوربية ضد دولة الخلافة العثمانية ، ولذلك رحب عزت باشا بفكرة الصلح واختار للتفاوض مع الامام يحيى وفدا على مستوى عال كان على رأسه عصمت باشا (الذى أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية التركية : عصمت اينونو باشا) ، كما كانت هيئة المفاوضات (الجانب التركى) تضم عضوين من خيرة الضباط العرب فى الجيش العثمانى هما : عزيز على المصرى ، وسليم الجزائرى .

***

وعلى الجانب الآخر .. كانت هناك ظروف خاصة تدفع الامام يحيى الى الاتفاق على عقد الصلح بينه وبين الأتراك ، فقد استنزف القتال الضارى المستمر بين الطرفين كل ما تملكه الامامة من أموال الى جانب الأموال التى كان من المفروض على الامام يحيى اعطاؤها – شهريا – لزعماء القبائل المتحالفة معه ضد القوات التركية ، فاذا أضفنا الى ذلك رغبة الامام يحيى فى الالتفات الى الداخل والاهتمام بمصالح شعبه بعيدا عن الحروب المستمرة فضلا عن وعد عزت باشا ومن ورائه الحكومة العثمانية بالحرص على اجراء اصلاحات جوهرية فى نظام الحكم العثمانى فى اليمن . وقد نجح بعض الوسطاء – وسطاء الخير – مثل الشريف حسين أمير مكة فى اقناع الطرفين – عزت باشا والامام يحيى – بضرورة اتخاذ خطوات سريعة نحو اتمام الصلح بينهما .

وقد كان بالامكان أن يتخذ السيد الادريسى الموقف الذى اتخذه الامام يحيى من رغبته فى الصلح الا أنه كان قد اتفق مع الايطاليين على أن يمدوه بالمساعدة – وخاصة العون العسكرى – للاستمرار فى نضاله ضد دولة الخلافة العثمانية .

***

وقد لعب أيضا أحمد العبدلى سلطان لحج دورا هاما فى اقناع الشريف حسين بمضاعفة اهتمامه بأمر الصلح ، وفى اقناع الأتراك

بضرورة تفهمهم للأوضاع القائمة فى اليمن والنزول للامام يحيى عن بعض الأمور التى كانوا يعتقدون أنها ضرورية للحفاظ على سلطتهم الاسمية فى اليمن ، وقد قبل هذا أحمد العبدلى رغم معارضته الشديدة للامام يحيى ، ورغم ايمانه بضرورة اسقاط أسرة الامام يحيى .

وكانت ايطاليا قد نزلت بقواتها الى سواحل ليبيا (طرابلس الغرب ، وبرقة) الأمر الذى أضعف دولة الخلافة العثمانية ودعاها الى استقدام جيوشها فى طرابلس الغرب وبرقة الى اليمن .. و ..

وهناك رواية للأستاذ توفيق على برو (العرب والترك فى العهد الدستورى) يقول فيها أنه استنتج من حديثه مع عزيز على المصرى أن سيادته تمكن من اقناع الامام بعد مقابلات كثيرة معه بوجوب عقد الصلح من خلال التأثير عليه بالعاطفة الدينية التى استثارها فى نفسه . وبالمناسبة فان توفيق على برو ذكر أن عزيز على المصرى حدثه طويلا خلال مقابلة له معه فى القاهرة ، عن ضراوة اليمنيين فى القتال واستبسالهم وفتكهم بالجند العثمانى وألح بصورة خاصة على قضية قطع المياه عنهم اذ كان لها أثرها الحاسم على موقف الجيش .

★★★

ومن مقال نشرته جريدة الشعب التى كان يصدرها ــ بالقاهرة ــ أمين الرافعى والذى أوقفها فيما بعد (ديسمبر ١٩١٤) حتى لا ينشر اعلان الحماية البريطانية على مصر (والمقال بتاريخ ٢٣ مارس ١٩١٤ ــ ٢٦ ربيع الثانى ١٣٣٢) : كانت اليمن دائما من عهد السلطان سليمان القانونى مصدر اضطراب ونقطة ضعف فى جسد الأمة العثمانية من حروب حافلة قامت بين الجنود الشاهانية واليمانيين وكم من الآلاف المؤلفة من زهرة الشبيبة العثمانية واليمانية ضاعت فى هذه المعارك المستمرة .

★★★

فلما زالت دولة عبد الحميد وقامت على انقاضها الحكومة الدستورية كان من بين الاصلاحات الخطيرة أنها فكرت فى أن تصالحه على شروط تفيد الطرفين وتضمن بقاء سيادة السلطان على هذه البلاد الاسلامية الغنية من جهة ، والانتفاع بنفوذ الامام وسطوته وخبرته فى ادارة شئون هذه البلاد من جهة أخرى فأناطت وزارة حقى باشا الاتحادية هذه المهمة الخطيرة بوفد تحت رياسة القائد عزت باشا وكان من بين أعضائه عزيز بك . ولقد حصل بعض المتاعب العديدة والصعوبات الجمة على

الغاية التى كان يرجوها وأدرك الأمنية الغاليـــة التى كان يتمنـــاها .
ولم يكن عزيز واســطة التفــاهم بين الامام ورئيس الوفد فقط بل شهد عزت باشا نفسه بأنه كان وسيطا عاقلا ، حكيما ، رشيدا ، فانه تأكد أنه لا ضمانة لبقاء الاتفاق الا اذا كان فى مصلحة الطرفين ، وعلى ذلك فكان دائما ينصح الطرفين بالتساهل المتبادل وواصل معهما المباحثات الى ان تم هذا الاتفاق التاريخى الذى سيكون نقطة بيضاء فى صحيفة الحكومة العثمانية الدستورية التى ضمنت بقاء اليمن لها ووفرت الآلاف من أبنائها والملايين من نقودها .

لولا هذا الاتفاق الذى كان الفضل الأكبر فيه لعزيز لاتفق امام اليمن مع الادريسى وأعلن استقلال اليمن أيام كانت تحارب الدولة الطليـــان أو اليونان ولم يكن اذ ذاك فى الامكان ارسال جندى واحد أو خرطوشة واحــدة الى اليمن ، بل لولاه لكانت حامية اليمن الكبيرة أسيرة فى يد الامام الذى كان يطعمها من خيراته طول مدة الحصار .. لولا هذا الاتفاق لما أعلن سيادة الامام مرارا وتكرارا أنه من أخلص رعايا السلطان وأنه مستعد لتقديم مائة الف جندى مسلح اذا استطاعت الدولة أن تنقلهــم الى أى بلد » .

ولو اكتفى عزيز المصرى بمـــا تم على يديه ــ جـريدة الشعب ــ وبواسطته فى اليمن لكفاه فخرا أبديا وشرفا دائما .

***

وتنشر صحيفة المقطم (١١ ابريل ١٩١٤) رسالة لأحد قرائهـــا « عزيز بك المصرى » وقد جاء فيها :

لما حدث الانقلاب العثمانى هاجت اليمن هياجا شـــديدا وخـرج امراؤها من طاعة الدولة العلية ، وعصفت فيها روح الفتنة بعـد خلع السلطان عبد الحميد ، وكانت الجنود العثمانية تقاتل الثائرين وأنصار الامام يحيى على غير جدوى وتلقى أشد المصاعب فى نظامها وزحفها وتدبير ذخيرتها وسوقياتها وسـوء تصرف قوادها حتى بات الفشـــل حليفها والانخذال نصيبها ــ وتوالت أخبار الانكسار حتى قلقت خواطر أقطاب الدولة العلية ، وبعد أخذ ورد فى القرار على اسـتبدال القواد العثمانيين فى اليمن بقواد من ذوى الكفاءة ، وعقد المجلس الحربى الأعلى برئاســة المرحوم محمود شوكت باشا ناظر الحربية فى ذلك الحين .. فأجمعت الآراء على تعيين الفريق ناظم باشا قائدا عاما لليمن ، وعزيز بك المصرى قائدا ثانيا واطلقت يداهما فى التصرف وكان ذلك فى سنة ١٩١١ فذهب

هذان القائدان الى اليمن وتحت قيادتهما عشرة آلاف جنـــدى نظامى .
ولما بلغاها شرع الفريق ناظم باشـا يفـاوض مشايخ القبـــائل وزعماء الثائرين وأفهمهم ان لديه أوامر مشددة من جلالة الخليفة الأعظم بانزال أشد العقاب بكل من يخالف أوامره ويجرؤ على شق عصا الطاعة . وكان مركز القيادة العامة في صنعاء ، وناظم باشا وعزيز بك يقيمان في منزل واحد ويعملان في دائرة واحدة ، فلم ينقض بضـعة أشهر على وصولهما حتى استتب الأمن فى ربوع اليمن وعادت المياه الى مجاريها .

ثم بدأت المفاوضات مع الامام يحيى بواسطة عزيز بك فذهب الى حيث يقيم الامام وعقد معه صلحا واتفـــاقا شريفـا ، وقد قال عزيز بك لناظم باشا قبل ذهابه للاجتماع بالامام : سأعقد صلحا شريفا مع الامام ان شـــاء الله وأعــود اليـكم سالما ، فان قتلت فحسبانى تكون فدى للأمة والوطن .

فخاطر بروحه ودمه واخترق بلاد العدو وعاد ظافرا فائزا ، وقد كنت أقف على هذه الأمور وسواها بنفسى فانى كنت موجودا فى ذلك الحين فى صنعاء فكنت أجتمع بمبعوثى اليمن وأزور الدوائر الرسمية .
واتفق ذات يوم ان كنت في دار القيادة العامة فقابلت عزيز بك فهش لى وبش وسألنى : هل لى مصلحة أريد قضاءها ؟ فشـكرته وأفهمته أننى جئت زائرا . .

***

هذه شهادتى بما رأيته بنفسى ولم أنقله عن الرواة وقبل أن أختم هذه العجالة اسمحوا لى أن أذيلها بذكر ما لعزيز بك من الفضل على تنويها بقدرة وشهامة ورغبة فى انصاف الرجال واحقاق الحق ، فقد كنت ذات يوم بعد الذى تقدم جالسنا فى صنعاء ، فاذا برجال البوليس طلعوا على ودعونى الى الذهاب الى مركز القيـــادة العـــامة لمحاكمتى أمام المجلس العسكرى ، فذهبت فى الحال وهناك قابلت عزيز بك وقصصت عليــه ماقيل لى فأجاب : لقد بلغ ناظم باشا انك جاسوس مصرى وتعبت فى اقناعه بخطئه ، وساعدنى فى ذلك مبعوثو اليمن فانهم شهدوا لك فعدل عن محاكمتك ، ثم نصحنى بمغادرة البـلاد ، فاطعت ، شاكرا له فضله والثناء عليه » .

***

وهناك صور عديدة لعقد الصلح ، اخترت الصورة التى ذكرها عزيز على المصرى فى احدى مقالاته فى السياسية الاسبوعية ، وقد سمى صلح « دعان » ، ودعان هذه قرية تقع فوق قمة جبل فى الشمال الغربى لمدينة

عمران ، وقد اختيرت « دعان » هذه لتوسطها بين منطقتى نفوذ الامام فى الشمال فيما حول صعدة ونفوذ الأتراك فى الجنوب ٠

وقد جاء فى بداية الصلح أنه لابد من تصديق المرجع العالى على ذلك العقد ، والهدف من عقد الصلح اصلاح أحوال اليمن واقرار السلام والأمن وانتظام الأمور ٠ وقد تم عقد الصلح بين حضرة سمو الامام المتوكل على الله رب العالمين يحيى بن حميد الدين ، وبين حضرة صاحب العطوفة رئيس أركان الحرب وقومندان القوة اليمانية عزت باشا ، المأذون من طرف الحكومة السنية وينص العقد على ما يلى مع الحرص على بقاء كلمات العفو كما هى رغم ما يبدو فيها من عدم توازن أو اختلال فى المعنى ٠

أولاً : جبال اليمن التى تجرى فيها الآن ادارة الحكومة العثمانية هى :

١ لواء صنعاء وما يحويه من أقضية صنعاء : عمران وحجة وكوكبان وحراز ماعدا صعفان وبنى مقاتل ثم آنس وذمار وبريم ورداع ومن لواء تعز من الزيديين ان كانوا نصف الناحية فصاعدا ٠

٢ ـ يكون اجراء مالأحكام الشرعية بين المتحاكمين ممن يسكن البلدان المذكورة آنفا فى جميع المواد واقامة الحدود على كل مرتكب لأسبابها كل ذلك على المذهب الزيدى ويكون تعيين الحكام وتبديلهم من طرف الامام وذلك بأن يكتب الامام الى الولاية كتابا بتعيينه وتطلب الولاية تصديق ذلك من الآستانة على أن لا تتأخر مباشرتهم الوظيفية من عند أن يكتب الامام ، وتنفذ الحكومة جميع الأحكام التى تصدر من حكام الشرع ابتداء ٠٠ ومن حكم الاستئناف ان لم يقنع المحكوم عليه بطلب الاستئناف٠

٣ ـ اذا تظلم أحد من محكمة الاستئناف واشتكى الى الامام ، فيسأل سمو الامام الحكومة عن حقيقة ذلك واذا ظهر صدقه على صحة تظلمه أعيدت المحاكمة ٠

★★★

٤ ـ محكمة الاستئناف تشكل فى مركز الولاية من رئيس وأعضاء ينتخبهم الامام وكما يصدق على تعيين الحكام يصدق على تعيينهم ٠

٥ ـ اذا حكمت محكمة الاستئناف المشكلة على الوجه المتقدم ، وذلك بالقصاص الشرعى الذى هو اعدام شخص قاتل قد استحق الحكم عليه بالاعدام شرعا فعلى الحاكم السعى أولا فى طلب العفو عن القاتل من ورثة المقتول أو ارضائهم بقبول الدية من القاتل ، فان لم يساعدوه رفعت المحكمة الاستئنافية الأمر الى الآستانة وطلب الاذن باعدام القاتل بعد

التصريح بأن الحاكم قد بذل مجهوده عند الورثة فى طلب العفو أو قبول الدية فلم يعفه بشرط ان لا تزيد مدة صدور الارادة فى ذلك على أربعة أشهر من عند ارسال تقرير المحكمة المذكورة ٠

٦ ـ عند ظهور ما يستوجب تبديل أحد الحكام من سوء حاله ، فعلى الولاية ان تخبر الامام بذلك مع تبيين الأسباب الموجبة لتبديله والدلائل الشرعية ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

٧ ـ للحكومة أن تنصب قضاة يحكمون بمذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان بين من كان ضيفا من غير أهل جبال الشمن ٠

٨ ـ اذا حصلت دعوى بين زيدى وآخر من أهل المذاهب الأخرى الاسلامية من غير أهل الجبال يكون الرجوع فى تلك الدعوة الى محكمة مختلطة تتألف من زيديين وحنفيين واذا اختلف القضاء فى الحكم فالمعتبر حكم القاضى الذى من جهة المدعى عليه ٠

٩ ـ للقضاة المعينين فى النواحى والاقضية ان يتخذوا لهم معاونين ممن يثقون بهم يستخدمونهم فى أمورهم وفى احضار الخصوم على شرط ألا يزيد عددهم على ستة رجال في النواحى وثلاثة في الأقضيــة وعــلى الحكومة أن تؤدى لهم رواتبهم بصفة مباشرة ٠ أما اذا كان هؤلاء غير كافين فالحكومة تمدهم برجال الضبط بحسب ما يقتضيه الحال ٠

١٠ ـ ولاية الأوقاف والوصايا على الامام ٠

١١ ـ تعفو الحكومة السنية عن كل ما سبق من أهل الجبال المذكورة من الجرائم والبقايا المتبقية الى تاريخ هذا المقرر والمقصود من الجرائم هى السياسة التى وقعت فى أثناء الحرب وتفرعاتها ٠

١٢ ـ تعفو الحكومة مثل عفوها على أهل الجبال عن جميع سوابق وجرائم وبقايا « خولان » و « نهج » و « أرحب »مطلقا وتعفو عن مقطوعينهم الى مدة عشر سنين بشرط توقف أهل هذه الجهات عن كــل ما يورث نقصا له جانب مأمورى الحكومة وعن التعرض لما يخل بالأمن العام فى الطرقات وان حصل من أحد منهم أو جماعة منهم مخالفة مما ذكر أدب المخالف بخصوصه بما يستحقه شرعا واذا صدرت المخالفة من أهل بلد أو جهة بالاتفاق وثبت ذلك عليهم كــان تأديبهم وسقطوا من حريـة استحقاق العفو فيما بعد ٠

١٣ ـ لا يطالب أحد من أهالى الجبال المذكورة بشىء غير التكاليف الشرعية الاعشار بالخرجي والأغنام وبقية الأنعام بالنصاب الشرعى ٠

١٤ ـ اذا وقعت شكاية الى الحكومة أو الى حاكم الجهة المعين ينصب الامام من ظلم الجباة والخارجين أو تبين من هؤلاء شيء من سوء الاستعمال، لزم أولا تحقيق الأمر من جهة الحاكم وأكبر موظف فى الحكومة المحلية ، وما ثبت بوجه شرعى كان الحكم به من الحاكم والاجراء من الحكومة .

١٥ ـ لا مانع لمن أراد أن يعطى الامام شيئا بطيبة من نفسه وذلك بأن يسلمه الى سمو الامام رأسا أو الى مأمورى الأوقاف أو أمناء الأراضى المرتبطة بالامامة بواسطة مشايخ الدولة المختارين من الأهالى أو بواسطة الحكام .

١٦ ـ للامام أن يأخذ بواسطة من يأتمنهم حاصلات الأراضى المرتبطة بالامامة وتأخذ الحكومة السنية أعشارها الشرعية .

١٧ ـ ناحية « جبل الشرق » التابعة لقضاء آنسى المؤلفة من الغول التى هى جبل الشرق وبنى قشيب وبنى أسعد والماردينى خالد وبنى سويد، تعفى من جميع التكاليف مدة عشر سنين وبعد انقضاء هذه المدة فعليها ان تؤدى للحكومة الأعشار وسائر التكاليف الشرعية مثل غيرها من محلات الجبال .

١٨ ـ يطلق الامام من عنده من رهاين وحراز صنعاء وهى بلى الحارث وبنى حشيش وهمدان وبلاد الحبشان وسنمان وبلاد الروس وبنى بهلول وكذلك رهاين حراز أهل عمران .

١٩ ـ تأمين أصحاب الامام وأصحاب الحكومة وسائر الناس فى ذهابهم وايابهم للتجارة وغيرها واذا اتهم أحد من الذين يدورون لاكتساب المعيشة بالسعى بما يسلب راحة العموم قبض وسلم الى حاكم الشريعة لتحقيق حاله .

٢٠ ـ بعد امضاء هذا الائتلاف لا يتعدى طرف على الآخر فيما هو فى ادارته الآن .

حرر فى يوم سابع وعشرين شوال سنة تسع وعشرين وثلاثماية وألف عربية . وفى سابع تشرين الأول سنة سبع وعشرين وثلاثماية وألف رومى .

***

وكان عزت باشا قد توجه الى « دعان » حيث وجد الوفا من الجنود الزيديين يهتفون فى مظاهرة عسكرية بحياة امامهم ، وكان الامام قد جهز منزلين فى « دعان » أحدهما لاقامته والآخر لاقامة عزت باشا فى أثناء المفاوضات .

وقد صحب عزت باشا معه أركان الدولة من العرب والترك ومن بينهم القاضي عبد الله بن حسين العمرى وكان الامام قـد وصـل الى « دعان » قبل أن يصلها عزت باشا • وقـد بعث الامام ـ كمـا يقول الواسطى ـ لجملة من رؤساء القبائل والمشايخ لاستقبال عزت باشا وقد استقبلوه وهم يطلقون بنادقهم فى الفضاء علامة التحية وينشدون ـ كما يقول الواسطى ـ فى تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ـ الأناشيد الحماسية وفيها المدح للامام وللدولة وللوطـن وتسمى بعرف اليمن (الزحل) والشجاعة تلوح على وجوههم ، وقد عم الناس الفرح والسرور كما رأوا فى الصلح ما فيه من حقن للدماء وحفظ الأموال وتأمين السبل ودفع الأهوال •

وكان وصول عزت باشا فى يوم الجمعة ، وكانت خطبة الامام تدعو الى جمع الكلمة وحث الناس على الاتفاق وعدم الافتراق •• وبعد ساعتين من وصول عزت باشا اتجه الى المنزل الذى يقيم به الامام وبعد السلام وتبادل التحية وطيب الكلام وقع الطرفان على شروط الصلح •

***

وكان عزت باشا عقب وصـوله الى صنعاء أمر بأن يجتمع سكان المدينة فى الميدان الفسيح الواقع أمام مقر حكومة الولاية ، وأذيع عليهم نبأ عقد الصلح بين الامام يحيى والدولة العثمانية وتوقيع الاتفاق الخاص بذلك وقد ألقى مفتى الولاية الشيخ على بن حسين المغربى خطابا هاما فى جموع الأهلين من سكان المدينة أشاد فيه باتفاق عزت باشا صاحب الدولة الأفخم وملاذ العز الشامخ الأشم مع مولانا الامام يحيى المتوكل على الله رب العالمين ونجم آل رسول الله ، لا يبرح بدرا لا يعتريه أفول •

***

وقد استقبل أهالى صنعاء خبر الصلح بالفرح والابتهاج وقد أذيع فى سنة ١٩١٣ الفرمان السلطانى بتحالف الامام يحيى مـــع الدولـــة العثمانية •

وقد كان وقع الاتفاق على السيد الادريسى سيئا للغاية ، وقد بادر السيد الادريسى بالكتابة الى الامام مؤكدا له أنه حاول كثيرا الصلح مع الدولة العلية ولكنها ـ الدولة العلية ـ لم تكن أبدا جادة فى عقد الصلح • ويشير السيد الادريسى الى مقابلة عزيز عـــلى المصرى بك أكثر من مرة ولا ينسى الادريسى الامام يحيى بأنه ـ الادريسى ـ الصاحب القديم والخل الوفى الذى هو على العهد الى الممات مقيم ، وقد انفصل الحليفان القديمان

(الامام يحيى والسيد الادريسى) وقد ضعف نفوذ الامام يحيى بعد توقيع عقد الصلح ، بينما قوى نفوذ الادريسى حتى أنه كان يهدد الامام يحيى فى عقر داره فى صعده .

ومما يجدر بنا أن نذكره أنه فى نوفمبر ١٨٦٥ أرسل اسماعيل باشا والى مصر ، الى الوالى فى منطقة الحديدة — من أعمال ولاية اليمن — ما يفيد أنه قد اتصل بعلمنا أنه فى منطقة الحديدة من أعمال ولاية اليمن بعض الأماكن الغنية بالفحم الحجرى ، ونظرا لأن وجود الفحم الحجرى على هذا الوجه سيكون له أبعد الأثر فى انعاش البلاد ودر الخير الجزيل على الخزينة الجليلة ، فتحقيقا لهذه الغاية ، وللتأكيد بادىء الأمر من صحة وجود الفحم الحجرى هناك ، قد أرسلت الى الحديدة على باخرة خاصة بعثة برئاسة أمين بك مهمتها التنقيب والبحث عن هذا النوع من الفحم حتى اذا ما تأكد للبعثة صحة هذا الخبر أمكننا الاتصال بالباب العالى توطئة لاتخاذ الاجراء اللازم لاستخراج هذا الفحم واستلامه لصالح الدولة .. فالمرجو من جنابكم الشريف أن تسهلوا لهذه البعثة مهمتها ، وأن تسدوا اليها جميع معونتكم .

وقد أمر اسماعيل باشا بتخصيص بلوكين من الجند النظامية المصرية ليكونا بمعية أمين بك . وهـذا دليل ما بعده من دليـل على دور مصر الحضارى فى اليمن منذ منتصف القرن التاسع عشر .

بقى أن نشير الى ان صحيفة النهار (١٩١٢/٢/١٨) قد نشرت مقالا عن صحيفة المفيد البيروتية حديثا دار بين أحد صاحبيها مع الأميرالاى احسان بك الذى كان رئيسا لأركان الحرب لفيـالق اليمن عند مروره ببيروت عائدا الى اليمن . قال محرر جريدة المفيد : قلت : هل لاحسان بك معرفة بعزيز بك ؟ وقال احسان بك : نعم هو من أعز أصدقائى وهو الرجل الذى جمع الى همة الشباب حكمة الشيوخ . قلت : وماذا عندك من نبئه ؟ قال : انه بطل هذا الاتفاق . قلت : وكيف كان كذلك ؟ قال : ان عزيز بك غيور ، أنوف فخور ، يعز عليه أن يستمر القتل بين الجنود العثمانيين وبين عرب البادية — هكذا فى الأصل — وقد أتى هـذا القطر والتحق بحملة اليمن وفى النيـة أن يوفق بين عزت باشـا والامام يحيى حقنا للدماء ، وقد نجح مسعاه لدى قائد الحملة فان عزت باشا لم يكن ممن يحبون سفك الدماء دون طائل ، ولا ممن يقودون الجيوش بغرض التخريب والتدمير .

. . . .

هذه العاطفة التى وجدها عزيز بك فى قلب عزت باشا سهلت عليه سبل الاتفاق مع الامام . قلت : ان عزيز بك هو بطل هذا الاتفاق ،

وأؤكد لكم ان هذا البطل هو من أصدق الرجال الذين خدموا الدولة والأمة معا ، فان خوفه على دولته من الانقراض لانشغالهـا عن الأمـور الخارجية بتجريد الحملات على أبنائها وحبه بقـاء العرب ذخرا للدولـة تستنصرهم عند الحاجة حملاه على عقد الاتفاق ، وقد تمكن بطلاقة لسانه من اقناع الامام بأن القتال اذا استمر بينه وبين الدولة ، فان الأجانب الذين يتربصون بنا الدوائر سوف يستولون على هذه البلاد ·

على هذه الفكرة بني أساس الاتفاق بين عزت باشا والامام يحيى ·· ومن ذلك يظهر ان عزيز بك هو بطل هذا الاتفاق ·

ويذكر احسان بك ما طرأ من تغييرات على نظام الحكم فى اليمن بعد توقيع الاتفاق : لقد كان للامام قبل الاتفاق ختم كبير نقش عليه « نصره الله » ومن تحتها صورة هلال السيد يحيى بن محمد حميد الدين وتلى ذلك كلمة أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين ·

أما بعد الاتفاق فقد أصبح كذلك : امام الزيود ، السيد يحيى بن محمد حميد الدين ·

ويقول احسان بك : ان الامام وزع منشـورا على جميع القبـائل الموالية له ، يحذرهم من الخروج على الدولة والتعدى على الجنود النظامية ، والانصراف عن مناوأة الدولة الى الاهتمام بزراعة الأرض ·

ونتائج هامة أخرى حققها عقد الصلح الذى تم بين الدولة العلية وبين الامام يحيى فى مقدمتها ــ بلا جدال ــ الموقف المشرف الذى وقفه الامام يحيى ازاء المحنة القاسية التى مرت بها الدولة العلية فى الحرب الطرابلسية الايطالية ·· !!

البـــاب الثـــانى

الفصل الأول

فى الحرب الطرابلسية الايطالية :
عزيز المصرى ، أبرز قواد تلك الحرب

أسباب كثيرة تلك التى دفعت ايطاليا الى احتلال طرابلس الغرب ، برقة (ليبيا) • من بين تلك الأسباب ـ وعلى سبيل المثال لا الحصر ـ ان ايطاليا كانت تعتبر طرابلس الغرب وبرقة امتدادا طبيعيا لها ، وكانت فى أحيان كثيرة تراود الايطاليين فكرة وراثة أجدادهم الرومانيين الذين احتلوا لقرون عديدة تلك الأرض •• كما ان الروح الاستعمارية التى سادت بعض الدول الأوروبية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد وجدت عند الشعب الايطالى ثم ازدادت تلك الروح قوة فى القرن التاسع عشر وخاصة عندما احتلت فرنسا الجزائر ، وبدأ السياسيون الايطاليون من كل الاتجاهات يعملون على احتلال ايطاليا لتونس ، وكانت تركيبة الدول الأوربية وبعض التحالفات التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع أكبر مشجع لايطاليا كى ترنو بعينيها الى الشمال الافريقى • ففى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ اقترحت النمسا والروسيا على ايطاليا أن تبسط حمايتها على تونس ، ولكن ايطاليا رفضت هذا العرض حتى لا تجرح مشاعر جارتها فرنسا •

وكان نابليون الثالث قد اقترح ـ فى سنة ١٨٦٥ ـ على ملكة انجلترا ـ الملكة فيكتوريا ـ اعطاء طرابلس الى ايطاليا ، وفى مايو ١٨٩٤ أشار البارون بلانك وزير خارجية ايطاليا الى ذلك العرض فى مجلس النواب الايطالى •• وكان الايطاليون قد أعدوا العدة لغزو تونس فى عام ١٨٨١ ثم تراجعوا عن فكرة الغزو ، بعد ان حمل الاسطول الايطالى جنودا ايطاليين لانزالهم فى تونس ، وكان تراجع الايطاليين عن ذلك الغزو حرصا على مشاعر الايطاليين تجاه فرنسا التى نجحت فى ١٢ مايو ١٨٨١ فى عقد معاهدة « باردو » مع باى تونس والتى مكنتها من أن تحتل تونس بدون قتال •• !!

وكانت انجلترا قد سكتت على تلك المعاهدة لأن فرنسا تغاضت عن احتلال بريطانيا لقبرص ٠

وكانت الظروف الاقتصادية المريرة التى مرت بايطاليا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد تسببت فى انتشار الفاقة فى كثير من البلدان الايطالية ، الأمر الذى دفع الكثيرين من الايطاليين الى الهجرة الى أمريكا كما ضاعفت من ازدياد الضغط الشعبى على الحكومات الايطالية لايجاد منفذ يخرج ايطاليا من ضائقتها الاقتصادية ٠ وكان الايطاليون مؤمنين الى أبعد الايمان بأن لدى طرابلس الغرب وبرقة من الامكانات الزراعية والمعدنية مما يساعد الشعب الايطالى على العيش برخاء حتى لقد انتشرت فى ايطاليا الكثير من الأقاصيص والأغانى التى تتغنى بثروة طرابلس وكونها الجنة المرتقبة للشعب الايطالى ، وكيف أن احتلال ايطاليا لطرابلس وبرقة سيكون مصدر الخير العميم والرزق الوفير لايطاليا٠

وقد كان أيضا فى مقدمة العوامل التى شجعت ايطاليا على أن تفكر فى احتلال طرابلس وبرقة ، الضربة القاصمة التى منى بها الايطاليون فى معركة عدوة المشهورة حيث أنزل الأحباش بالايطاليين فى أول مارس ١٨٩٦ هزيمة كبرى زلزلت الحكم الايطالى ٠

★★★

وكانت بريطانيا قد حسنت علاقاتها بايطاليا ومكنتها من احتلال مصوع على شاطىء البحر الأحمر الافريقى الأمر الذى جعل ايطاليا تعيش الوهم الخاص بتأسيس امبراطوريتها فى ارتيريا ، فجاءت معركة عدوة لتقضى على ذلك الوهم ٠

★★★

وقد أطال د٠ محمد فؤاد شكرى فى كتابه المتميز عن « السنوسية دين ودولة » ، الحديث عن الأسباب التى دفعت الايطاليين الى القيام بغزو طرابلس الغرب وبرقة ، وكان من بين ما قاله : انه ازاء الفشل الايطالى الذريع فى الحبشة انهارت آمال الايطاليين فى انشاء امبراطورية أحلامهم فى أفريقية الشرقية ، اتجهت أنظارهم من جديد الى أفريقية الشمالية ، ولايمان الايطاليين بأن الفرنسيين ينافسونهم فى ذلك ٠٠ ولأن الايطاليين أيقنوا أنهم لا يمكن لهم أن يمدوا نفوذهم الى أية بقعة من الشمال الأفريقى ما لم يكونوا على وفاق مع فرنسا ٠

رأى الايطاليون — فى عام ١٨٩٨ أن يوقفوا حربهم الجمركية مع فرنسا — ورأت فرنسا — فى نفس الوقت انه — لابد لها من الاعتراف — من

ناحيتها ـ بادعاءات ايطاليا على طرابلس الغرب ، فأصبح ظاهرا ـ د. فؤاد شكرى ـ أن الدولتين اللاتينيتين تعيشان فى وئام كامل . وعلى ذلك عقد الفريقان ـ ايطاليا وفرنسا ـ فى ديسمبر ١٩٠١ اتفاقا تناول شئون البحر الأبيض المتوسط أصبحت بمقتضاه طرابلس وبرقة منطقة نفوذ ايطالية وتعهدت فرنسا بالتزام خط الحدود الذى أوجده تصريح لندن فى ٢١ مارس ١٨٩٩ فاصلا بين منطقى نفوذهما ومملكاتهما فى افريقيـة الغربية ، وفى نظير ذلك وافقت ايطاليا على اطلاق يد فرنسا فى مراكش. وكانت ايطاليا فى المدة الأخيرة تظهر شيئا من النشاط المضر بمصـالح الفرنسيين فى المغرب الأقصى ، ثم لم يلبث هذا الاتفاق أن تقرر فى بداية عام ١٩٠٢ عندما أعلن السفير الفرنسى فى خطاب ألقاه بروما ان قيام نضال بين الأمتين اللاتينيتين قد أصبح مستحيلا ، واستطاعت ايطاليا فى فى ذلك الوقت ان توجه كل اهتمامها الى الأراضى الليبية ، وعندما وقف السنيور تيتونى فى مجلس الشيوخ الايطالى فى عام ١٩٠٤ معلنـا أن الدول قد اعترفت بالوضع الممتاز الذى تتمتع به ايطاليا فى طرابلس ، لم تعترض على قوله دولة من الدول وطالب تيتونى الباب العالى أن يمنح الايطاليين تسهيلات تشجعهم على المضى فى نشاطهم التجارى والاقتصادى فى هذه الولاية العثمانية .

***

وبعد تغير الأوضاع فى دولة الخلافة عام ١٩٠٨ وازدياد قوة النفوذ الألمانى عقب حوادث الانقلاب الدستورى ، راحت ايطاليا تتشكك فى نوايا دولة الخلافة ، فادعت أن البـاب العـالى يعرقل امتلاك الايطاليين لعقارات ثابتة فى أنحاء الدولة ثم لم تلبث الحكومة الايطالية أن قامت بمظاهرة بحرية مكنتها من تسوية مشاكلها ـ مع الدولة العلية ـ بطريقة تكفل لها مصالحها فى النهاية ، ومن ذلك اعتراف تركيا بمكتب البريد الذى أنشأته ايطاليا تحت حماية أساطيلها .

وفى فبراير ١٩١٠ اعتبرت ايطاليا طرابلس الغرب أرضا ايطالية فأثير فى البرلمان الايطالى موضوع اعتداء فرنسا على الحدود الطرابلسية واحتجت ايطاليا فيما بعد ـ وكان هذا طريفا حقا ـ على الحكومة العثمانية لارسالها نقالات عسكرية الى طرابلس عند تفاقم الحالة .

***

وكانت ايطاليا بمعونة بعض الايطاليين قد أنشأت فى طرابلس طائفة من المدارس التى علمت لغتهم وديتهم ونشرت ثقافتهم وعـاداتهم ، ثم لم يقصروا التعليم بهذه المدارس على الذكور بل اشركوا الاناث وجعلوه بالمجان.

والى جانب المدارس أنشأوا المستشفيات والملاجىء الصحية للمرضى.وأرسل الايطاليون الى طرابلس الغرب وبرقة بعثات علمية كان آخرها تلك التى رأسها الكونت سيفوزا للتنقيب عن معدن الفوسفات وانضم اليها ضباط من هيئة أركان الحرب الايطالية و ٠٠٠ و ٠٠٠

وكان الايطاليون فى عام ١٩٠٥ قد حصلوا من الحكومة العثمانية على امتياز بانشاء فرع لبنك دى رومه فى طرابلس وبرقة ، كانت مهمته نشر الدعاية الايطالية والتجسس • وكان الايطاليون قد أنشأوا فى ايالة طرابلس الغرب (فى بنغازى) مكتبا للبريد يرسلون بواسطته ما يريدون من رسائل وتقارير بدون رقابة • وقد اعترفت الحكومة العثمانية رسميا بهذا المكتب ، وكان نظام الحكم الجديد ـ بعد انقلاب يوليو ١٩٠٨ ـ قد أهمل أمور طرابلس الغرب وبرقة اهمالا شديدا ، وقد نشرت صحيفة « طنين » ان ولاية طرابلس الغرب من الولايات التى لا تفيد الدولة فائدة مالية يعتد بها فيجب على الحكومة العثمانية الاقتصاد فى الانفاق عليها •

★★★

وعندما تسلمت أزمة الحكومة باستانبول وزارة ابراهيم باشا حقى ـ الضعيفة ـ ويعتقد كثيرون أنه كان متواطئا مع أعداء الدولة وخصوصا الطليان الذين ربطهم به روابط عديدة منها زواجه من ايطالية وشغفه بلعب الورق مع أصدقائه الايطاليين وخضوعه ـ د• محمد فؤاد شكرى ـ لسلطان الذهب ـ ضاع كل أمل فى أن تنال ولاية طرابلس الغرب شيئا من عناية الدولة واهتمامها بها •

وكانت السلطات التركية السابقة ـ أيام السلطان عبد الحميد قد اهتمت ـ وخاصة فى أيام الوالى رجب باشا ـ بشئون الولاية الادارية والعسكرية ، فمرن أهلها على الأصول الحربية ووزع على شبانها وشيوخها البنادق ومرنهم على استعمالها ، وملأ المستودعات العسكرية بالذخائر حتى أصبح عدد الجيش المرابط فى طرابلس حوالى الخمسة عشر ألفا وهذا غير الفرق غير النظامية « قول أوغلى » من الأهلين العرب وهؤلاء بلغوا الأربعين والخمسين ألفا ومهمتهم معاونة الجيش النظامى ، وقد أبطل الاتحاديون هذه الاستعدادات وشرعوا ينزعون البنادق من الأهلين •

وقد سحبت حكومة حقى باشا معظم جيشها النظامى من طرابلس ، وكان أهالى طرابلس وبرقة يطالبون بالانتظام فى سلك الجندية ، ولكن لم تستجب حكومة حقى باشا الى طلبهم ، بالاضافة الى أنها سحبت حوالى الأربعين ألف بندقية كانت الدولة قد درجت على حفظها بالبلاد حتى

يستخدمها الأهلون عند الطوارىء .. ثم لم تفعل شيئا من أجل اصلاح الاستحكامات ومركز الدفاع بالبلاد ، أو تمدها بالمدافع والذخيرة اللازمة للسهر على سلامتها . وظل الحال على ذلك حتى قبيل وصـــول الانذار الايطالى بأيام قليلة اذ أرسلت الدولة احدى النقالات العسكرية ــ درنة ــ تحمل كميــة من البنادق والخرطوش الى ميناء طرابلس وهى النقالة التى احتج الايطاليون على ارسالها .

ويضيف د. فؤاد شكرى الى كل ذلك قوله : يحمل المعــاصرون مسئولية ضياع طرابلس الغرب وبرقة وزارة حقى باشا التى عمدت ــ فوق كل ما سبق الاشارة اليه ــ الى تجريد البلاد من الموظفين الأكفاء واستدعاء القواد العثمانيين المحنكين الذين كانوا يشرفون على استحكامات الولاية ونظام الدفاع عنها . وأكثر من ذلك اســتدعى حقى باشــا والى طرابلس ابراهيم باشا بدعوى أنه كان يقسو فى معاملة الايطاليين حتى استحق سخطهم ولم يعين حقى باشا بديلا حتى لقد بدأ الهجوم الايطالى على طرابلس وبرقة دون أن يكون فى البلاد وال أو مسئول يسوس أمرها ويدبر شئونها .

***

وعندما وجدت ايطاليا أن الظروف مواتية تماما لصالحها .. فولاية طرابلس الغرب خالية من الجيوش النظامية والأسلحة والقواد والموظفين الأكفاء ... وجهت فى ٢٧ سبتمبر ١٩١١ الانذار التالى الى الصــدر الأعظم حقى باشا :

يا صاحب الدولة

ما انفكت الحكومة الايطالية منذ سنين تذكر الباب العالى بضرورة وضع حد لسوء الادارة والنظام فى طرابلس الغرب وبنى غازى ، وانالة هذه البلاد ما تتمتع به جميع أقسام أفريقيا الشمالية من أمن ورخاء .

وهذا التغيير الذى يقتضيه التمدن بجعل المصالح الحربية بحسب ما تستلزمه مصلحة ايطاليا فى أول درجة لقصر المسافة بين تلك البلاد وشواطىء ايطاليا وبالرغم من حسن مسلك الحكومة الايطالية التى كانت دائما موالية ومعاضدة لتركيا فى كثير من المسائل السياسية فى العهد الأخير ، وبالرغم من اعتدالها وصبرها حتى الآن كانت الحكومة العثمانية تجهل رغائبها فى طرابلس وفوق ذلك كانت جميع مشروعات الطليان فى تلك الأصقاع تصادف دائما مقاومة مضطردة لا تحتمل .

وكانت الحكومة العثمانية حتى الآن تبدى عداء نحو الحركة الايطالية الشرعية فى طرابلس وبنى غازى وما زالت كذلك حتى الآن . وقــد

اقترحت الحكومة الملكية الايطالية أن تتفاهم معها وأعلنت أنها ميالة الى أن تمنح أى امتياز اقتصادى يتفق والمعاهدات النافذة وشرف تركيا ومصالحها ولكن الحكومة الملكية الايطالية لا تشعر الآن بأنها فى أحوال موافقة للدخول فى مفاوضات بهذا الموضوع بعد أن برهن الاختبار الماضى على عدم نفعها وهى لا تشتمل على ضمانة للمستقبل ولن تكون الا سببا للاحتكاك والنزاع ٠

ومن جهة أخرى وردت أنباء الى الحكومة الملكية الايطالية من قنصلها فى طرابلس وبنى غازى تفيد أن الحالة هناك خطرة جدا بسبب التحريض العام على الرعايا الطليان ، ذلك التحريض الذى زاده الضباط وسائر موظفى الحكومة خطرا لا على الرعايا الايطاليين وحدهم بل على سائر الأجانب على اختلاف جنسياتهم حتى أصبحوا يخشون على حياتهم وشرعوا يهجرون البلاد بسرعة ، ثم ان وصول القوات العسكرية العثمانية الى طرابلس زاد الحالة خطرا وحرجا مع أن الحكومة الملكية الايطالية نبهت الحكومة العثمانية الى هذه النتائج السيئة ولهذا فالحكومة الملكية الايطالية مضطرة الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة دفعا للخطر ٠

ولما رأت الحكومة الايطالية نفسها مضطرة الى الحرص على شرفها ومصالحها ، قررت أن تحتل طرابلس وبنى غازى احتلالا عسكريا ٠

والحكومة الملكية تنتظر ان تصدر الحكومة العثمانية أوامرها حتى لا تصادف ايطاليا فى الاحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانية ولا تجد صعوبة فى الأمر ، وبعد ذلك تتفق الحكومتان على تقرير الحالة ٠

وقد صدرت الأوامر للسفير الايطالى فى استانبول ، بأن يلتمس جوابا حاسما فى المسألة من الحكومة العثمانية ، فى خلال ٢٤ ساعة منذ تسليمه هذا الانذار فاذا لم تجب عليه اضطرت الحكومة الايطالية الى تنفيذ الخطة المدبرة للتأمين على الاحتلال وترجو أن يبلغ جواب الباب العالى المنتظر فى خلال ٢٤ ساعة على يد السفير العثمانى فى روما ٠

★★★

(ووزير خارجية ايطاليا الذى وجه هذا الانذار اسمه : سان جوليانو) وقد ردت الحكومة العثمانية على ذلك الانذار بالرسالة التى وجهتها الى السفارة الايطالية فى الآستانة :

ان سفارة جلالة الملك تعلم حق العلم الأسباب التى دعت ولاية طرابلس وبنى غازى ألا يكون لهما من الرقى والتقدم النصيب المرغوب ، ولكن المرء اذا نظر بانصاف الى الحقيقة أنه لا يمكن اعتبار الحكومة الدستورية

مسئولة عن حالة هى نتيجة الحكم الماضى ولكن بالرغم مما تقدم فقد بحثت حكومة الباب العالى فى أعمال السنوات الأربع الدستورية فلم تر فيها معارضة للأعمال الايطالية النافعة ٠

ان اشتراك رؤوس الأموال الايطالية فى ترقية شئون هذه الولاية العمرانية أمر طبيعى فى نظر الحكومة السلطانية ، وقد قابلت بكل ارتياح المشروعات التى تقدمت بها ، ونظرت بعين الرعاية الى الأعمال التى أشارت اليها سفارة جلالة الملك فهى لم ترجع أبدا عن هذه الأفكار وعن توثيق حسن الصلات بين الحكومتين فى دائرة الثقة المبادلة والمودة والاقتراح الأخير الذى اقترح على السفارة الايطالية وهو رغبة الحكومة العثمانية فى اعطاء امتيازات للحكومة الايطالية توسع ادارة حركة ايطاليا الاقتصادية فى الولاية هو أكبر دليل على ذلك ، والحكومة العثمانية التى تعلم حق العلم ما توجبه عليها الاتفاقات الدولية المعقودة مع الحكومات الأخرى والتى لا يمكن الغاؤها بمجرد رغبة أحد المتعاقدين ترى أنها تساهلت كثيرا فى اجابةرغبات الحكومة الايطالية الاقتصادية ، ودللت على رغبتها فى المسالمة ٠

أما فيما يتعلق بالأمن العام فالحكومة السنية تصرح الآن بما صرحت به من قبل ، وهو أنه ليس هنالك أثر للقلق والهياج على الاطلاق سواء أكان ضد الايطاليين أو ضد الأجانب المقيمين فى طرابلس الغرب وليس ثم أثر للهياج والقلق فقط بل ان رجال البوليس يقومون بأعمالهم بكل أمانة ودقة ٠

ولا ترى الحكومة فى ارسال الباخرة التى أرسلت قبل ٢٣ الجارى ، دون أن تحمل جندا ما يدعو الى القلق والهياج ٠

فيظهر مما تقدم ان الخلاف ينحصر الآن ، فى عدم الضمانات الكافية لرؤوس الأموال الايطالية فى طرابلس وبنى غازى ، فحكومة الباب العالى تبلغ الحكومة الايطالية استعدادها للاتفاق معها ما دامت لا تلجأ الى الاحتلال العسكرى ، وبناء عليه تطلب من الحكومة الايطالية ان تقدم بيانا بمطالبها التى تقبل بلا شك ما دامت لا تمس سيادة الدولة العلية الفعلية على الولايات المذكورة » ٠

***

وبالرغم من ان الباب العالى قد تعهد بألا يحدث أى تغيير على الأوضاع فى بنغازى وطرابلس الغرب فى أثناء المفاوضات الا أن ايطاليا ــ وبعد يومين فقط من توجيه انذارها الأول الى الحكومة العثمانية ــ وفى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ ــ وجه ممثل ايطاليا فى الآستانة الى الصدر الأعظم الرسالة التالية : ــ

« ترابيا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١

« صاحب الدولة

« بناء على أمر حكومة مولاى الملك ، يتشرف القائم بأعمال السفارة بابلاغكم ما يلى :

« ان المدة التى عينتها حكومة جلالته أخيرا للحكومة العثمانية لتحقيق الوسائل التى أصبحت لازمة قد انقضت دون أن تبلغ حكومة جلالته ردا مرضيا ، وتأخر اعطاء هذا الرد يؤيد عدم ارادة الحكومة أو السلطة المحلية وعجزها اللذين كثرت الدلائل عليهما عن تأييد الحقوق والمصالح الايطالية فى طرابلس الغرب وبنى غازى ، ولذلك ترى حكومة جلالة الملك نفسها مضطرة الى اتخاذ الوسائل للمحافظة على حقوقها ومصالحها وصيانة شرف الحكومة واعتبارها ، ويجب عد الحوادث التى ستجىء وان كانت مؤلمة ــ نتيجة لسوء المسلك الذى سلكته الحكومة السلطانية منذ زمن بعيد ، ولما كانت صلات الود والسلام قد انقطعت بهذه الصفة بين البلدين فحكومة ايطاليا تعد نفسها محاربة منذ الآن للحكومة العثمانية .

« ولذلك يتشرف موقعه أن يخبر فخامتكم أن أوراق اعتماد وكيل سفارة الدولة فى روما قد سلمت اليه ويلتمس منكم تسليمه أوراق اعتماده بدون تأخير ، وقد كلفتنى حكومة جلالة الملك أن أبلغ فخامتكم ان الرعايا العثمانيين يستطيعون البقاء فى البلاد الايطالية مصونة أملاكهم وأشخاصهم .

ج . دى مرتينو

واستأذن فى الاكتفاء بوجهتى الأستاذ أمين سعيد ، ود. محمد فؤاد شكرى فى بدايات الحرب الايطالية الطرابلسية ونهايتها لأنهما يكملان بعضهما .

★★★

يقول الأستاذ أمين سعيد فى ٣٠ سبتمبر ١٩١١ : ظهرت بوارج الأسطول الايطالى فى مواجهة طرابلس ، وبدأت فى ٣ أكتوبر تضرب قلاعها بالقنابل بعد أن رفضت طرابلس ونزلت بعض القوات الايطالية الى المدينة واستولت عليها بعد انسحاب القوات الحكومية المحلية .. كانت القوات الايطالية بقيادة الجنرال كانيفا .

استولى الايطاليون على درنة يوم ٨ أكتوبر وعلى « خمس » يوم ٢٠ منه وعلى طبرق يوم ٢ نوفمبر وقد نجح الايطاليون فى السيطرة على

الساحل من السلوم حتى حدود تونس لعدم وجود قوة بحرية تقاوم الغزو الايطالى ٠

دارت معركة عنيفة بين المجاهدين الليبيين وبين الايطاليين فى المنشية فى الجنوب الشرقى لمدينة طرابلس ونجح المجاهدون الليبيون فى الفتك بالقوة الايطالية ، فجن جنون الايطاليين وبعثوا بقوات جديدة نكلت بسكان المنشية وذبحت الشيوخ والأطفال وبقرت بطون النساء ٠ وتكررت المعارك بين المجاهدين من أبناء طرابلس وبين الايطاليين فى بنغازى ودرنة وطبرق ، ونجح المجاهدون الليبيون فى وقف الزحف الايطالى ٠

وفكرت ايطاليا فى التأثير على الدولة العثمانية عن طريق آخر غير طريق الحرب فى طرابلس الغرب فبعثت جانبا من اسطولها لغزو السواحل العثمانية ورحبت الدولة الأوروبية بالغزو البحرى الايطالى لشواطىء الدولة العثمانية ٠

وبدأت الدول الأوربية تضغط على تركيا (مارس ١٩١٢) لقبول الصلح ، وقد اتجه سفراء انجلترا وفرنسا والمانيا والنمسا الى وزير خارجية ايطاليا للبحث معه ـ مع المعتدى ٠٠ !! ـ فى أمر الصلح ، وتفضل الوزير الايطالى فقبل الصلح مع تركيا اذا ما اعترفت بضم ليبيا اليها ، واسترداد جيوشها منها فى مقابل ان تتعهد ايطاليا بالتساهل مع تركيا فى الأمور المدنية والمالية وفى التعريفة الجمركية وأن تعلن عفوا عاما وتوافق على ابقاء الامتيازات القنصلية فى الدولة العثمانية ٠ وقد رفضت الآستانة ـ بالطبع ـ هذه الشروط المجحفة بالأتراك ٠

وفى ١٩ ابريل ١٩١٢ حاول الأسطول الايطالى اقتحام الدردنيل والوصول الى الآستانة واحتلالها فردته القلاع العثمانية على عقبيه ، وهاجم الأسطول الايطالى جزيرة رودس يوم ٥ مايو ١٩١٢ واستولى عليها كما استولى على الجزر النائية التابعة لتركيا وأعلن ضمها لايطاليا ٠ وردت تركيا على ذلك بطرد الايطاليين الذين كانوا يعيشون فى دولة الخلافة ٠٠ !!

***

كان موقف تركيا ضعيفا للغاية فيما يتعلق بالحرب فى طرابلس الغرب وبرقة ، وقد رحبت بمفاوضات صلح مع الايطاليين بدأت يوم ١٢ يوليو ١٩١٢ فى سويسرا ، واستمرت حتى سبتمبر بدون تقدم ، لتشدد الطرفين وانتهزت دول البلقان (اليونان ـ بلغاريا ـ صربيا ـ الجبل الأسود) فرصة ضعف الدولة العثمانية فعقدت حلفا لمهاجمة الولايات

المتحدة فى مقدونيا (البلقان) وطرد الترك منها .. وأعلنت تلك الدول الحرب على الاستانة فى ٥ أكتوبر ١٩١٢ فما كان من الحكومة العثمانية الا أن بعثت بتعليماتها الى مندوبيها فى سويسرا بان ينهوا المسألة مع ايطاليا ويوقعوا معاهدة الصلح. وقد تم توقيع الصلح فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ على ما سمى بمعاهدة أوشى .

***

ونستأذن فى ان ننقل وجهة نظر الدكتور محمد فؤاد شكرى - وهو حجة فى موضوع السنوسية والحرب الطرابلسية الايطالية وما جرى فيها - ونعتذر اذا أسرفنا فى النقل ، فان المصادر العلمية الموثوق بها والخاصة بهذا الموضوع قليلة .. بل نادرة . وربما كانت المصادر الايطالية أكثر من المصادر العربية .

***

فى البداية .. يقول د . محمد فؤاد شكرى ان الذى دفع ايطاليا الى الاسراع فى احتلال طرابلس الغرب ، رواج اشاعة بأن دولة ثالثة سوف تفيد من توسطها بين الأتراك والفرنسيين من أجل الوصول الى تسوية مسألة الحدود بين تونس وطرابلس بالطرق السلمية . وتفصيل ذلك ان تركيا وافقت على تشكيل لجنة فرنسية تركية لبحث هذه المسألة نتيجة لتوسط الحكومة الألمانية التى طمعت ان تنال مكافأة على توسطها واستخدام نشاطها فى مصلحة العثمانيين (مرسى طبرق) أو أى مرفأ آخر فى طرابلس الغرب يصلح لأن يكون محطة لتزويد السفن الألمانية بالفحم والوقود فى البحر الأبيض المتوسط ، فلمست ايطاليا فى ذلك خطرا يقضى على مصالحها ، وادعاءاتها فى طرابلس ، وقررت العمل فورا وقبل خروج هذه البلاد من دائرة نفوذها نهائيا ، وعندئذ أرسلت ايطاليا انذارها الى الباب العالى وحددت أربعا وعشرين ساعة فقط لوصول جواب الباب العالى على هذا الانذار عن يد السفير العثمانى فى رومية (روما) .

ويتحدث الدكتور محمد فؤاد شكرى عن الجرائم العديدة التى ارتكبها الايطاليون فى هذه الحملة ويركز على أشهر تلك الجرائم وأسوئها ذكرا ما فعله الايطاليون بأهل المنشية شرقى مدينة طرابلس فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩١١ فقد أعمل الايطاليون فى الأهلين السيف وأوقعوا بهم مجزرة كبيرة لم ينج منها طفل أو شيخ أو امرأة ، وأباح الجنرال كانيفا قائد الحملة البلدة ثلاثة أيام لجنوده حتى يبيدو منها العرب .

وامتدت فظائع الطليان الى غيرها وتعود الجند اطلاق الرصاص

عبثا ولهوا على الأهلين أينما صادفوهم لا ينجو من أيديهم عربى ، حتى ضجت الانسانية من أعمالهم •

***

وعن موقف الأتراك يقول د • محمد فؤاد شكرى : لقد رأى الأتراك انه لامناص لهم من القتال ـ بمجرد وقوع الحرب ـ فى النهاية من أجل الدفـاع عن القطر الذى أهمل أول الأمر منهم زمنا طويلا ، فقد شرعوا يرسلون الى طرابلس الغرب نخبـــة من ضباطهم الترك والعرب لتنظيم الدفاع ، فكان من بين هؤلاء أنور بك الذى تولى القيادة العامة فى برقة ، ومصطفى كمال بك (كمال أتاتورك) كما تطوع عدد من الضباط والشبان العرب الذين أنشأوا فى الآستانة بعد اعلان الدستور العثمانى الجمعيات والنوادى السياسية لاعلاء شأن الأمة العربية فى نطـــاق الامبراطورية العثمانيـــة •

***

وكان من بين هؤلاء المتطوعين ، تحسين العســـكرى الذى تخـرج ضابطـا برتبـــة ملازم ثان فى مارس ١٩١٢ وعين فى الفيلق الأول فى الاستانة ، ويقول تحسين بك العســـكرى فى مذكراته « ولما شـاهدنا الاعتداءات المتوالية على البلدان العربية قائمة على قدم وساق فى الداخل والخارج ، رأت الشبيبة العربية وفى مقدمتها عزيز المصرى ان الفرصة سانحة لها لارسالها من يمكنه التطوع من الضباط الى حرب طرابلس الغرب لمساعدة الشيخ أحمـــــد (الشريف) السنوسى رئيس القبائل العربية الافريقية بمنطقة طرابلس الغرب وحثه على تأسيس دولة عربيه هناك تحت لواء سيادته واعلان استقلالها لتكون أول دولة عربية مستقلة فى افريقيا التى كانت ولا تزال تئن تحت نير المستعمرين ، فتطوع عزيز بك المصرى وسافر متنكرا الى جهـــة طرابلس الغرب ، فعين قائدا لمنطقة بنى غازى ، وحذا حذوه كثيرون من الضـــباط الطرابلسيين والسوريين والعراقيين من جمعية العهد وهم : الملازم صبحى الطرابلسى ، والملازم محمـــود حلمى ، والملازم الســـيد عيسى الوترى البغدادى ، والملازم اســـماعيل الطرابلسى ، وتطوعت أنا وغيرى من الضـــباط للالتحاق بقوة بنغازى •

***

ومع هذا وقع عبء القتـــال ضد الطليـــان على كواهل المجاهدين الأوائل الذين ظلوا حتى نهاية الحرب الليبية يصمدون للطليان فى كل ميدان ومعركة ، وهم السنوسيون الذين تدفقوا من داخل البلاد زرافات

ووحدانا لمؤازرة الحاميات العثمانية الضعيفة فى الشواطىء فى برقة ثم فى طرابلس أيضا ، فنجحوا فى احياء آمال القوات العثمانية النظامية وفى امكان الدفاع عن البلاد بعد ان كاد التردد يفضى الى هزيمتها فانه بمجرد ان بلغ استانبول خبر الهجوم الايطالى على طرابلس أصدرت الوزارة أوامرها الى نشأت بك الذى كان نائبا عن الوالى فى حكومة البلاد بعد ان سحبت وزارة حقى باشا والى طرابلس ، ونشبت الحرب قبل أن ترسل لها غيره بأن يخلى طرابلس ويقاوم فقط خارج المدينة ثم ينسحب جنوبا الى سهول غربان • وعندما وصلته هذه التعليمات عقد نشأت بك مجلسا من الضباط الموجودين وثلاثة من زعماء العرب فقرروا جميعا ماعدا الضابط التركى نظمى بك اخلاء المدينة فورا والانسحاب • فخرجت الحكومة من طرابلس ومعها الجند بقيادة نشأت بك قاصدين جهات غربان « وكانوا ينتظرون الأوامر من الباب العالى بالتسليم ، وكانت ايطاليا تنتظر ذلك لعدم تصور العقل امكان أدنى مقاومة » • فلم يغير ذلك سوى قيام الزعماء الطرابلسيين « يهددون العسكر المنسحب الى خارج طرابلس بالقتال ان لم يصد الطليان الحرب » •

ويقول د • محمد فؤاد شكرى :

دارت رحى الحرب فى ميدانين : أحدهما فى طرابلس والآخر فى برقة •

ففى طرابلس بدأت المقاومة ضد الطليان ، قبل اعتداءات هؤلاء على ميناء طرابلس بمدة طويلة ، وكان مهد هذه الحركة فى الخمس ، عندما أخذ متصرفها العثمانى الدكتور رشيد ينبه الأذهان الى حقيقة نوايا الطليان ، ويحذر الوطنيين من نشاط (بنك دى رومه) ورغبة هذا البنك فى ان يوقع الأهلين فى شراك الديون ، حتى يتخذ الطليان من ذلك ذريعة لادعاء المحافظة على مصالحهم المالية فى البلاد •

وكان أول من شعر بهذا الخطر المحدق بطرابلس أحد أبناء البلاد الغيورين ، بشير بك السعداوى وكان وقتئذ رئيسا لكتاب مجلس الادارة فى الخمس ، ولقى معاونة كبيرة من الشيخ عبد الرحمن الزقلعى رئيس كتاب المحكمة الشرعية ، وعمل الاثنان على تعطيل الجهود التى كان يبذلها بنك دى روما لشراء الأرض وأقراض الأهلين الأموال •

★★★

وعندما حضرت بعثة (سفوزا) ووصلت فى تنقيبها عن الفوسفات « ودراسة الآثار القديمة » الى مدينة خمس ، اشتدت حركة المقاومة فى

الخمس ، بقيادة متصرفهـا بشير بك السعداوى والشيخ عبد الرحمـن وغيرهما وقد اتفقوا جميعـا على عقد مؤتمر يحضره مندوبـون عن كل الأقضية ، فى مصراته وسرت وزليتن ومسلاته وغيرها للاحتجاج على نشاط الطليان عموما ، وعندما انعقد هذا المؤتمر فى الخمس اتخذ الحاضرون عدة قرارات منها منع كل معاملة مع بنك دى رومه وبيع الأراضى لهذا البنك أو اقتراض الأموال منـه • ولما كان لهذا البنك سـفينة تحضر للعمل بالسواحل أكثر من مرة كل شهر فقد قرر المؤتمر مقاطعتها •

كما طلب الأعضاء أن يأتى بريد الاستانة على ظهر سفينة عثمانية بدلا من السفينة الايطاليـة التى كانت تحضره فى العـادة • ثم أبرق المجتمعون بهـذه القرارات الى ابراهيم باشا والى طرابلس والى الصـحف الأوربية كالطان الفرنسية والتيمس الانجليزية • ثم طالب بشـير بك واخوانه بتجنيد الطرابلسيين بكل سرعة واسـتبقاء الأسـلحه بأيدى الأهلين حتى يكون لدى البلاد قوة كافية تستطيع الدفاع عنها • وكانت وزارة حقى باشا قد سحبت معظم القوات العسكرية من طرابلس بسبب ثورة اليمن وشرعت فى نزع الأسلحة من الأهالى • على أنه كان من أثر هذا النشاط الظاهر من جانب بشير السعداوى واخوانه الوطنيين فى الخمس ، أن صارت ايطاليا تخشى ذيوع حركة المقاومة ضدها • وبادرت بالاعتداء المسلح على طرابلس قبل أن تستكمل البلاد استعدادها فكان اطلاق القذائف من بوارجها على ميناء طرابلس وغيره فى أكتوبر ١٩١١ دون أى انذار سابق •

★★★

وكان من أثر اعتداء الطليان على طرابلس • ان زاد زعماء المقاومة فى الخمس ، اصرارا على الجهاد فقامت الاسـتعدادات فى كل مكان ، واتخذ بشير السعداوى (ساحل آل حامد) مركزا له يرسل منه الدعوة الى القبائل ويحثهم على الجهاد ، وذهب نورى بك السعداوى شقيقه ومعه الشيخ عبد الرحمن الزقلعى الى مسلاته لايصال الدعوة الى داخل البلاد•

احتشدت أعداد عظيمة عند الساحل ، وأنذر الطليان بشير باطلاق القذائف على الخمس اذا امتنعت حكومتهـا عن التسليم ، وفى الموعد المضروب ، أطلقت مدافع الأسطول قنابلها على البلدة ، وحاول الطليان النزول الى البر ، ولكنهم عادوا ادراجهم ، وظلت المقاومة مدة أربعة أيام كاملة ، ثم استطاع الطليان النزول الى البر ، ومع ذلك فقد ثابر المجاهدون على القتال مع ضآلة عددهم ، وعندئذ كانت قد تالفت جبهة للقتال فى موانى بنياوم برئاسـة القـائد العثمانى نشأت بك ، الذى تولى القيادة فى ميدان طرابلس •

وكان أول ما فعله نشأت بك ان أخلى مدينـــة طرابلس . فاحتلها الطليان فى فى ٤ أكتوبر ١٩١١ ، ثم انسحب قاصدا غريان . وكان انسحاب الأتراك أولا الى (قرقارش) الواقعة غربى مدينة طرابلس ، وفى اليوم التالى وصلوا الى (عين زاره) فى الجنوب . ولما كانت مدافعهم من النوع القديم والثقيل ويتعذر على الجنود أخذها معهم فقد تركوها وراءهم، واستولى عليها الطليان الذين بادروا باتخاذ مراكزهم فى خط من الخنادق يمتد من القلعة السلطانية غربا الى القلعة الحميدية شرقا فى جبهة طولها عشرة أميال تقريبا .

★★★

وحدث أول اشتباك بين الايطاليين والأتراك أمام (بومليانه) فى أكتوبر ١٩١١ وكانت مناوشـــة صغيرة وأما العثمانيون فقـد واصلوا انسحابهم جنوبا الى (العزيزية) وعندئذ ظهر فى ميدان الجهاد زعيمان من كبـار زعماء الطرابلسيين ، كان لما أبدياه من الهمة والنشـــاط فى استنفار العرب للجهاد الفضل فى وقف هذا الانسحاب نهائيا ، والتصميم على القتال . وهذان الزعيمان كانا سليمان البارونى وفرحات بك .

★★★

على أن أهم الزعمـاء الذين ظهروا فى هذه الآونة فى طرابلس كان بلا مراء الشيخ سليمان البارونى من أهل (فصاطو) فى منطقة الجبل . ولد فى سنة ١٨٧٠ وتلقى علومه فى تونس والجزائر ومصر وبينما كان فى مصر التحق بجمعية سرية ثورية تعمل ضد السلطان عبد الحميد فوقفت السلطات على حقيقة أمره وحكم عليه بالأشغال الشاقة مدى الحياة . وبعد قليل صدر العفو عنــه ، ولكن الجواسيس ظلوا يراقبونه فقبض عليه ثانية وحكم عليه بالسجن عامين على أن يبقى بعد ذلك سنة أخرى تحت المراقبة فى مدينة طرابلس .

وعندما وقع اعتداء الطليان على طرابلس كان البارونى يقضى عطلة بين أهله وعشيرته فى فصاطو واتصل البارونى فى الحال بقائد الحامية نشأت بك ثم حضر بعد ذلك الى العزيزية على رأس خمسين شيخا من شيوخ الجبـل فبحث الموقف مع نشأت بك ثم وعده بامداده بالمتطوعين لمواصلة الحرب وعاد من فوره الى الجبل وحث حوالى الألف على الخروج معه الى ميدان القتال .

★★★

ويطيل د . محمد فؤاد شكرى فى الحديث عن وقائع الحرب فى

كل الميادين مركزا على دور السنوسيين فى القتال وعلى جرائم الايطاليين فى تلك الحرب ، كما يشير الى المنشور (التاريخى) الذى شاء قائد الحملة كارلو كانيفا أن يحذو فيه حذو نابليون بونابرت عندما جاء بجيوسه يغزو مصر فى أواخر القرن الثامن عشر فقد أرسل كانيفا منشورا باللغة العربية الى أبناء طرابلس على أثر احتـــلال جيشـــه لمدينتهم بدأه : بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على كافة الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليهم أجمعين • وراح كانيفا يبرر حملته على طرابلس مؤكدا أنها كانت أمرا مقدرا من الازل بارادة المولى ســـبحانه وتعالى ومشيئته وان مقاومة الحملة الايطالية معناه مخالفـــة هذه الارادة الالهية ، الى جانب تعهداته ــ تعهدات كانيفا ــ التى لم يلتزم بها بطبيعة الحال ، ببسط الأمن والسلام ، وحفظ الأرواح والأعراض والأموال واحترام الدين العميدة •

وكان من بين ما جاء فى منشور كانيفا •• أن العساكر الخاضعة لأمرى لم يرسلها جلالة ملك ايطاليا (فكتور عمانويل الثالث) حماه الله لاضعاف واستبعاد ســكان طرابلس والقيروان والفزان والبــلاد الأخرى التابعه لها والتى توجــد الآن تحت ســيادة الأتراك ، بل لنعيــد اليهم حقوقهم وتقتص من المعتدين عليهم سواء كان الأتراك أو أى شخص كان يريد استرقاقهم • وعليه •• فأنتم ياســكان طرابلس والقيروان (؟) والفزان والبلاد الأخرى التابعة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل اليهم ان يقضوا بينكم بالعدل والرأفة عملا بقوله تعالى « واذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل » •

★★★

وطفق (كانيفا) يعــد باحترام الشرائع الدينية والمدنية واحترام الأشخاص والأملاك والنساء والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأماكن العبادة والبر ، كما ضمن لهم حرية العبادة وعدم ارغام أحد على الانخراط فى سلك الجندية ، وتوعد بانزال العقوبة الصارمة بكل امرىء « لا يحترم الشرائع أو لايعتبر الأشخاص ويمس النســـاء أو يخرق حــرمة الملك أو يقاوم أو يثور على ارادة العنــاية الالهيــة التى أرسلت ايطاليـــا الى هذه البلاد » •

ثم اختتم المنشور بقوله : « فياسكان طرابلس والقيروان والمقاطعات التابعة لها ، أذكروا أن الله قد قال فى كتابه العزيز « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » •

★★★

وقد جاء أيضا « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكيل على الله » ٠

وجاء أيضا « لقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون » ٠ أى الذين يصلحون الأرض ويمنعون منها الفساد وينشرون فيها العدل والعمران ٠

وجاء أيضا ، « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » أى لاتفسدوا فى الأرض ان توليتم أمور الناس ولا تقاتلوا بعضكم بعضا ، ان الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصممهم ويعمى أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم ٠

وجاء أيضا « اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشـــاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشـــاء وتذل من تشـــاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » ٠

وجاء أيضا « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ٠ فارادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا ان تحتل ايطاليا هذه البلاد لأنه لا يجرى فى ملكه الا ما يريد فهو مالك الملك وهو على كل شىء قدير فمن أراد ان يظهر فى الكون غير ما أظهر مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته فى ملكه الذى لا شريك له فيه فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من المفترين ٠

وبناء عليه يلزم على كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الارادة الربانية وأبرزته القدرة الالهية فالملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء ٠ فايطاليا تريد السلام وتريد أن تبقى بلادكم اسلامية تحت حماية ايطاليا وملكها المعظم ويخفق فوقهـا العلم المثلث الألوان « أبيض ـ وأحمر ـ وأخضر » اشارة الى المحبة والايمان والعشم فى وجه الله » ٠

ولم ينفذ الايطاليون ما وعدوا به أهل طرابلس وبرقة ، لم يكونوا رسل سلام وأمن واطمئنان كما قالوا وانما كانوا قتلة وسفاحين من طراز لم يعرف فى تاريخ الحروب مثيلا له من قبل ٠

★★★

يقول د٠ فؤاد شكرى ٠٠٠

فقد ضرب الطليان بمدافعهم من البحر الموانى البرقاوية فى الوقت الذى اعتدوا فيه على ميناء طرابلس الغرب ، والخمس واستطاعوا فى يوم ٢٤ أكتوبر ١٩١١ أن يحتلـوا طبرق ـ أى قبـل نزولهم فى طرابلس بأسبوع تقريبا ـ ثم نزلوا فى درنة يوم ١٧ أكتوبر ، ونزلوا فى بنغازى

بعد ذلك بيومين • ومن أول الأمر قاومهم العرب مقاومة شديدة ، فالتحموا معهم فى الليلة الثانية من نزولهم الى بنغازى وهزموهم فى محلة يقال لها الصابرى •

وأما العثمانيون والعرب فقد اتخذوا (الرجمة) مقرا لهم • وكان كذلك فى مقدمة الذين خفوا لنجدة العثمانيين والالتحام مع العدو فى برقة : السيد عمر المختار ، فقد كان رحمه الله يزور شيوخ السنوسية وزعيمهم السيد أحمد بالكفرة ، وفى أثناء رجوعه من هذه الزيارة الى زاويته (القصور) بلغه نبأ نزول الطليان فى بنغازى واحتلالهم لها ، وكان وقتئذ بواحة (جالو) ، فلم يلبث بمجرد وصوله الى (القصور) ان أمر قبيلة العبيد المنتسبة لزاوية القصور بالاستعداد للحرب ، ثم تبع السيد عمر بقية شيوخ الزوايا ، واستمر السنوسيون بقيادته بعد ذلك يضيقون الخناق على العدو وخصوصا عند (بنينه) حتى جاء أنور الى معسكر القيادة العامة فى درنة وعزيز بك المصرى الى بنغازى •

وقد اهتم أنور بك منذ وصوله الى برقة بالطواف بالقبائل وزيارة الزوايا السنوسية ودعوة الجميع للجهاد وذلك حتى يكتمل لديه جيش قوى يستطيع ان يدفع به غائلة الطليان •

وفى ٢٨ نوفمبر ١٩١١ رجع أنور بك الى معسكر درنة بعد ان جمع فى طوافه حوالى الخمسة آلاف مقاتل من العرب مشاة وفرسانا • كما أحضر معه الجند العثمانيين الذين كانوا متفرقين بالصحراء للمحافظة على الأمن وعددهم (٦٠) جنديا •

وقد استطاع أنور مناوشة العدو بنجاح طول شهر ديسمبر ١٩١١ وفى أواخر هذا الشهر استقدم (مدفعين) من بنغازى ، وفى ٢٧ و ٣١ التحم المجاهدون مع الطليان فى معركة كبيرة اشتركت فيها قبائل (الحسا) و (الدرسة) وعائلة منصور وقبيلة النواعر الى جانب الجند النظامى واستولوا على غنائم كثيرة • وقتل من الأعداء ما يزيد على الألف بينهم كثيرون من الضباط •

ويقول الأمير شكيب أرسلان : « أما بعد وصول أنور فان الطليان امتنعوا عن الخروج مدة واعتصموا باستحكاماتهم وأخيرا خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة بواقعة (الضبط) وألحوا على معسكر أنور ولكن العرب هزموهم وتركوا مئات من القتلى والجرحى ، وغنم العرب ١٣ بغلا موقرة ومئات من البنادق واستشهد من العرب ٤٠ مجاهدا • وكانت هذه المعركة فى ٣١ ديسمبر ١٩١١ » •

★★★

ويقول د. محمد فؤاد شكرى : ومن تاريخ هذه المعركة فى الحقيقة ازداد وفود العرب على معسكر درنة حتى قدرهم أحد المعاصرين الذين اشتركوا فى هذه الوقائع بسبعة عشر ألف مقاتل هذا عدا الأتراك المشاة ورجال المدفعية وكانوا حوالى الخمسمائة .

وبعد حضور عزيز على بك المصرى قائدا لمنطقة بنغازى جرت وقائع كثيرة ، فهجم العرب على استحكام (شويليك) وقضـــوا على الحامية الطليانية به (١٥ يناير ١٩١٢) .

وفى اليوم التالى هاجموا استحكام (الفويهات) . وفى ١٨ يناير اشتبك المجاهدون مع العـــدو فى واقعة (الزريعية) واشترك الأســطول الطليانى فى المعركة .

وفى ٢٢ فبراير هم العرب (السنوسيون دائما) على استحكامات الطليــان عند (اللثامة) وعندما حاول الطليان بعد أربعة أيام احتلال (غريونس) على شاطىء البحر وزحفوا اليهــا من جهة استحكامهم فى (شويليك) صدهم العرب عنها والحقوا بهم الهزيمة . وفى ١٢ مارس التحم الفريقان فى معركة (سوانى عبد الرانى) المشهورة عند الطليان باسم معركة النخلتين .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : « وفى ١٢ مارس جرت واقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربى دخلوا بين استحكامى الفويهات والبركة فثار فى وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بهذه المائتى مجاهد من العرب . وقصد عزيز بك المصرى ومن معه من العرب امداد هؤلاء العرب فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابل التى كانت تتساقط كالمطر من البر والبحر فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين الى الظلام وعند ذلك نجا بعضهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد قتال استمر طـول النهار ، ويقال أنه نجا ٨٠ رجلا من المائتين .

★★★

وأما الطليــان فقتل وجرح منهم ألف وخمسمائة مقــاتل منهم ٢٨ ضابطا برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك الوقعة ، وكانت هذه الوقعة قد شقت كثيرا على العرب وقامت النوادب تندب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليــان دون امكان نجدتهم . وبينما العرب فى مآتم على قتلاهم وردت برقية من أنور القائد العام فى درنة الى عزيز على المصرى قائد مجاهدى بنغازى عن برقية من الآستانة عن برقية من برلين عن برقية من روما تفيد آن واقعة الفويهات

هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفا وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم » ٠

في ١١ و ١٢ فبراير شن المجاهدون بقيادة أنور بك غارات ليلية على استحكامات الطليـان في (لباردیا) و (كابريا) ، وفي ٣ مارس وقعت معركة أخرى هامة في (سيدى عبد الله) ثم استمرت المناوشات والمعارك الصغيرة الى نهاية مارس ٠

***

ويصف توزيع القوات العثمانية والعربية المجاهدة في ميادين القتال في هذه الآونة السيد تحسين العسكرى بك فيقول عن الوضع الحربي في ٢٢ حزيران (يونية) سنة ١٩١٢ م ــ كانت جميع معسكرات الجيش العثماني تبعد عن السواحل مسافات تتراوح من ١٥ كيلو مترا الى ٢٠ كيلو مترا نحو الجنوب ، وذلك لتكون مصونة من قنابل مدافع الصحراء الطويلة المدى ومدافع الأسطول الايطالي ، وأما الخطوط الأمامية فلم تبعـد عن معسكرات العدو أكثر من ٥ كيلو مترات ٠ وينقسم ميدان بنغازى الى ثلاث مناطق وكان قائدها العام المقدم ضابط الركن أنور بك وهي : ــ (المنطقة الأولى) : بنغازى بقيادة المقدم ضـابط الركن عزيز على بك المصرى ، (المنطقة الثانية) درنة ٠ بقيادة المقدم ضابط الركن مصطفى كمـال بك (رئيس جمهورية تركيا الغازى مصطفى كمـال باشا) ، (المنطقة الثالثة) طبرق : بقيادة ناظم بك ضابط الركن ، وكان الرئيس الأول وسليمان عسكرى بك رئيسا لضباط الركن في بنغازى ٠

وعن حديث الصلح ٠٠ يقول د٠ محمد فؤاد شكرى : ان أهل برقة وأهل طرابلس قرروا المضى في القتال ورفض الصلح ٠ وقد أرسل سليمان الباروني برقية الى مجلس النواب العثماني يعارض فيها باسمه وباسم اخوانه المجاهدين عقد أى صلح مع ايطاليا لا يكفل جلاءها عن البلاد البلاد التي أغارت عليها ٠

ولم تكن الحكومة التركية على استعداد لقبول فكرة الاستمرار في القتال خاصة بعد أن نقلت ايطاليا الحرب الى الأراضي العثمانية ذاتها فقد حاول د٠ محمد فؤاد شكرى ــ الأسطول الايطالي في شهر ابريل ١٩١٢ ان يقتحم مضيق الدردنيل ولكن نيران العثمانيين لم تلبث أن ردت الطليان على أعقـابهم ، وعندئذ انصرف هؤلاء الى الهجوم على جزر الدود كانيز فاحتلوا رودس وبقية الجزر القريبة منها في مايو ٠

وساءت حالة الدولة وزادها سوءا وجود الانقسامات الداخلية والمنازعات بين الائتلافيين من خصوم الوزارة والاتحاديين أنصارها وسقطت وزارة حقي باشا و ٠٠ و ٠٠

ووقعت الحكومة التركية على معاهدة أوشي دون أن تستشير زعماء العرب ثم أرسلت نائبا للسلطان - الى طرابلس - شمس الدين باشا الذى أظهر - فور تسلمه عمله - ميلا واضحا نحو ايطاليا حتى لقد راح يدعو أهالى برقة وطرابلس الى القاء السلاح وقبول التعايش مع الايطاليين ٠

★★★

وقد أرسلت الحكومة التركية تعليماتها الى قواد الجيش فى برقة وطرابلس حتى يكفوا عن القتال ويعودوا الى تركيا ، وقرر أنور عندما اعتزم مغادرة البلاد تنفيذا لتعليمات حكومته أن يسلم القيادة العامة الى عزيز على المصرى قائد منطقة بنغازى ، وأن يزور السيد أحمد الشريف الذى انتقل عندئذ من الكفرة الى الجغبوب فأما تسليمهم القيادة العامة لقائد آخر من الذين اشتركوا فى النضال ، فكان معناه أن (ممثل) الدولة فى الأقطار الليبية ما كان يرى فى عقد الصلح سببا يدعو فى الحقيقة الى وقف القتال فى ليبيا ، بل ان هناك من يقول ان أنور باشا عندما استقدم اليه عزيز بك المصرى (وكان عزيز المصرى وقت نشوب الحرب الليبية - الايطالية فى أرض اليمن) ، انما كان يريد ، اذا اضطرت الحكومة العثمانية الى قبول الصلح مع ايطاليا فى آخر الأمر ، أن يبقى عزيز المصرى فى الميدان لادارة الأعمال العسكرية ، ويدعو وجوده فى الوقت نفسه ، وهو مصرى الجنسية الى اقبال مصر على مساعدة العرب الذين يتولى قيادتهم ٠ ومع أن مصر أقبلت بالفعل على مساعدة الطرابلسيين فى جهادهم مدفوعة بعاطفة العروبة القومية ورغبة الانتصار للمظلوم على الظالم المعتدى ، فقد تبدل موقف حكومتها بعد عقد الصلح ، بينما ظل عزيز المصرى يدير دفة الحرب فى منطقته ويشجع أهل طرابلس المجاهدين بزعامة سليمان البارونى على المقاومة حتى اضطر هو الآخر - أى عزيز المصرى - الى الانسحاب من الأقطار الليبية ٠

★★★

وعلى كل حال فانه لما كانت رغبة الدولة واضحة عند عقد معاهدة (أوشى) فى عدم التخلى عن ليبيا وكانت لا تزال مترددة فى خطتها وتريد أن تستمر المقاومة ضد ايطاليا بزعامة السنوسية العتيدة فقد رأى أنور باشا من واجبه زيارة أمير السنوسية لتبليغه ما صح عليه عزم الخليفة

والسلطان العثمانى • فقرر الذهاب الى الجغبوب ، وعلى ذلك استقل أنور باشا سيارته فى يوم ١٩ نوفمبر ١٩١٢ ، وكانت هذه أول سيارة دخلت الصحراء ، فبلغ الجغبوب فى اليوم التالى وقوبل بحفاوة عظيمة وكان السيد أحمد الشريف مع الاخوان وأهل جغبوب ينتظرونه للترحيب به خارج الزاوية • وأقام أنور فى ضيافة السيد ثلاثة أيام عاد بعدها الى فى معسكر درنة ثم غادرها بسيارته الى السلوم ومنها الى الاسكندرية ، ثم الى روما متنكرا ومنها الى الآستانة كى ينظم جيوش الدولة استعدادا لحرب البلقان •

***

ولما كان السيد أحمد الشريف فى هذه المقابلة مع أنور قد وافق على تسليم القيادة العامة فى برقة الى عزيز المصرى بك ، فقد ذهب القائد الجديد الى الجغبوب حتى يشكر السيد على تعيينه ، وصحبه فى هـذه الرحلة السيد عمر المختار •

وعلى ذلك لم يتوقف الجهاد ضد الايطاليين فى ليبيا على الرغم من توقيع تركيا معاهدة (أوشى) بل ظل يشرف عليه السيد أحمد الشريف ، ويقود عملياته العسكرية عزيز المصرى • وعبثا حاول الطليان أن يثنوا القائد العام الجديد عن مواصلة الكفاح عندما أبلغوه نبأ عقد الصلح ودعوه الى التسليم ، فقد أبى عزيز بك أن يسلم اليهم وقرر الجهاد الى النهاية ، وأظهر فى هذا الكفاح السيد عمر المختار بسالة نادرة ومقدرة كبيرة

وكان القتال فى هـذه الآونة يدور فى ميدانين : طرابلس الغرب وبرقة • أما فى طرابلس فقد تطورت الحال بعد استسلام تركيا وقبولها الصلح فى (أوشى) ، وكان هذا التطور لمصلحة استئناف الجهاد بكل همة عندما عقد زعماء المجاهدين والوطنيين جملة اجتماعات فى لـواء الجبل العربى ولواء فزان ورفله ، وقرروا الاستفادة من منشور السلطان الملحق بالمعاهدة ، والذى يقرر فيه السلطان « بما له من حق السيادة على سكان طرابلس الغرب وبرقة » منحهم « استقلالا داخليا مطلقا وتاما » • فاجتمعت كلمتهم على قبول هـذا الفرمان والرضـاء به ، وكلفوا الشيخ سليمان البارونى باعلان اسـتقلالهم وتبليغه الى من يلزم التبليغ اليـه ، وتولى سليمان البارونى رئاسة الحكومة وقام بتبليغ ذلك الى الدول والى شمس الدين باشا نائب السلطان فى طرابلس وأرسل وفدا الى أوروبا بغية الحصول على اعتراف الدول الأوربية بالحـكومة الجديدة ، ولكنه فوجىء بنائب السلطان ينقلب عليه مؤيدا الطليان •

***

وقد حاول البارونى التأكيد لنائب السلطان أن تشكيل الحكومة الجديدة لا ينفى الاعتراف به كنائب للسلطان فى بنغازى وطرابلس ٠

وقد حدثت اشتباكات مع الايطالين فى معركة زنزور الثانية ، وبالرغم من استيلاء الايطاليين على غريان فان البارونى ظل يقاوم ويعمل على جمع كلمة العرب حوله وتأليف جيش كبير فى منطقة الجبل القريبة وقد خاض جيشه العديد من المعارك واحتل الايطاليون « اصابة » فى ٢٣ مارس ١٩١٣ كما احتلوا منطقة الجبل حتى « نالوت » والحدود التونسية ، ثم زحفوا بقواتهم على (واحة غدامس) فاحتلوها فى ابريل وعلى « مزده » فاحتلوها فى يوليو ، ثم جهز الطليان حملة لاحتلال « الفزان » وقد تم لهم ذلك بعد معارك قادها ضدهم محمد بن عبد الله فى سرير الشيب ، وشيده ، ومحروقه بين ١٠ ، ١٤ ديسمبر ١٩١٣ ٠

وأمام هذه الصعوبات ، وجد البارونى أنه من الأفضل اذا استطاع العمل على أن تنال طرابلس استقلالا اداريا وداخليا تحت سيادة ايطاليا ، ولكن الايطاليين راحوا يساومون فى ذلك تراجع البارونى بقواته الى يفرن، وبدأت المفاوضات بين البارونى والايطاليين التى فشلت بعد الانتصارات التى حققها الايطاليون ٠ وكانت النتيجة عفوا أصدرته ايطاليا وانسحاب فريق من رجال البارونى الى بلادهم أو الى فزان لمواجهة العدو ٠ ورحل البارونى الى الآستانة عن طريق مرسيليا فى أواخر عام ١٩١٣ ٠

وفى جهة برقة كان القتال بين الايطاليين والمجاهدين العرب عنيفا للغاية : فى ١٤ سبتمبر ١٩١٢ دارت معركة سيدى عبد الله الثانية ، وفى معركة قصر رأس اللبن (١٧ سبتمبر) انهزم أنور بك ٠ كما انهزم أنور بك فى معركة سيدى عبد الله الثالثة فى ١٨ أكتوبر ٠ وعندما تم صلح أوشى رأى أنور بك ــ فى البداية ــ أنه لن يقبله ، كما رأى أن ينسحب بقواته من برقة ٠

وبعد أن قرر أنور بك العودة أصر على أن يترك بالبلاد مقاومة منظمة ضد الايطاليين بقيادة عزيز على المصرى ٠ وقد استأنف عزيز بك المصرى العمليات العسكرية بكل جد وهمة ، وقد اشترك السيد أحمد السنوسى مع قبائل العبيدات والبراعصة ، والدرسة ، فى واقعة يوم الجمعة المشهورة القريبة من درنة وقد ارتد الايطاليون الى درنة ٠

وفى شهر مايو ١٩١٣ اشتبك الايطاليون والعرب فى معركتى القيقب ومرسى سوسه أو « أبولونيا » واحتل الطليان القيقب فى ٢٦ مايو ثم زاوية

الفيدمه ثم البويرات خميس، ووقعت معارك فى تكنس وتلجازه الى أن احتل الطليان الزاوية البيضاء ٠

★★★

فى ٢٧ سبتمبر وفى أكتوبر ١٩١٣ كانت معركة عين بوشمال ٠ هذا عن القتال فى برقة وما حولها ٠

بيد أن الصعوبات الشديدة سرعان ما أحاطت بالمجاهدين من كل جانب لانقطاع الموارد عنهم من أسلحة وذخائر وغير ذلك ٠ ثم د ٠ محمد فؤاد شكرى ـ بسبب ما نجم عن الضغط الشديد الذى استخدمته ايطاليا على الدولة العثمانية حتى تأمر هذه الأخيرة بقية القوات التى ظلت تحارب فى برقة بالرغم من عقد الصلح وحتى تكف عن مساعدة المجاهدين اطلاقا ٠

أضف الى ذلك ما فعلته ايطاليا حتى تصرف الحكومة المصرية عن امداد المجاهدين فى برقة بما يحتاجونه من أسلحة وذخائر ومؤن ٠

ونشير هنا الى ما ذكره بعض شهود العيان ، والى بعض ما نشرته الصحف ، عن تلك المعارك التى خاضها المجاهدون العرب الأبرار ضد الايطاليين المستعمرين الأشرار عن موقعة الفويهات ـ مثلا ـ :

★★★

يقول الأمير شكيب أرسلان : « وفى ١٢ مارس جرت واقعة الغويهات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربى دخلوا بين استحكامى الغويهات والبركة فثار فى وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بالمائتى مجاهد من العرب ٠ وقصد عزيز بك المصرى ومن معه من العرب امداد هؤلاء العرب فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابل التى كانت تتساقط كالمطر من البر والبحر ، فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين الى الظلام ٠ وعند ذلك نجا معهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد قتال استمر طول النهار ٠ ويقال أنه نجا ٨٠ رجلا من المائتين ٠ وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطا برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك الواقعة ٠ وكانت هذه الواقعة قد شقت كثيرا على العرب ٠ وقامت النوادب تندب لأولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون امكان نجدتهم ٠ وبينما العرب فى مأتم على قتلاهم وردت برقية من أنور القائد العام الى درنة الى عزيز على المصرى قائد مجاهدى بنى غازى عن برقية من الآستانة عن برقية من برلين من روما تفيد أن واقعة الغويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا

فيها ألفا وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم » .

★★★

برقية بعث بها أنور بك نشرتها القومسيرية العثمانية فى القاهرة جاء فيها :

نبشركم أنه في صباح (٣ ابريل) توجهت كتيبة من معسكرنا الذى فى بنى غازى نحو حصون (الغويهات) وأطلقت النار على حصن (لثامة) فقابلها بالمثل حاميته الايطالية المؤلفة من آلاى مشاة وبلوك متراليوز وبطارية مدفعية وكتيبة فرسان . ثم تقدمت هذه القوة الايطالية نحو كتيبتنا فاضطرتها الى التقهقر . ووجهت المدرعة الايطالية قنابل مدافعها الى الوراء لتمنع المدد عن كتيبتنا . وفى الساعة السادسة ــ بالتوقيت العربى ــ نهارا تقدمت من الجبهة تحت قنابل المدافع قوة امداد عثمانية مؤلفة من جناح مشاة مهاجمين ومن كتيبة فرسان ومشاة فأجرت هذه القوة حركة احاطة عسكرية شتتت جيش العدو وألجأته الى الفرار واستولت على ثلاثة مراكز للايطاليين الواحد بعد الآخر . وخسائر العدو ١٥٠ قتيلا بينهم ٧ ضباط وغنمنا غنائم كثيرة . ويقدر عدد القنابل التى صرفها الايطاليون فى هذه الواقعة بأكثر من ألفين . الا أنهم بالرغم من ذلك لم يحملونا غير شهيدين وستة جرحى . وخسائرنا هذه لا تعد شيئا مذكورا كافية للاستدلال على مبلغ القوة المعنوية فى نفوس العدو الذى تقدم الينا من حصونه فى سهل مستو ، لا تعترضه غير أكمات رملية صغيرة . وأصيب بجرح خفيف الملازم ابراهيم أفندى من ضباط الطابور الأول من الآلاى ١٢٤ الذى ثبت فى هذه الواقعة ثباتا شريفا .

أنـور ــ درنة

★★★

ونختار برقيتين فقط مما نشرته المؤيد عن وقائع تلك الحرب : الأولى نشرت فى ٥ يونيو سنة ١٩١٣ وكانت عن معركة يقبق وقد جاء فيها :

فى هذه الأثناء خرج كثيرون من أهالى بنى غازى مولين وجوههم شطر الجيش العثمانى المحيط بالبلد ومنذ ثلاث ليال توجهت منهم فرقة لمرابطة الطليان الأمامية فقتلوا أربعة عشر طليانيا من السوارى . وأمس خرج طليانى مسلما نفسه للعرب وفهمنا منه ان كثيرين من

اخوانه كانوا على عزم التسليم ٠ ومن جملة ما روى أن القتلى الذين وقعوا فى آخر معركة كانوا نحو ٤٥٠ منهم ضابط برتبة كولونيل وعدة ضباط ، وهو عدد يفوق كثيرا ما قدره البطل الباسل عزيز بك قومندان جيش بنى غازى ٠ وقد نفى الطليان منصور أفندى الكخيا والد عمر منصور باشا وأرسلوه الى ايطاليا ٠

***

والبرقية الثانية من مراسل المؤيد فى بنغازى وكانت بتاريخ ١٥ يونيو ١٩١٢ وقد جاء فيها :

بنى غازى : ١٢ يونيو يكثر فى هذه الأيام طيران الطيارات الايطالية فى جو ميدان القتال ولكن الخوف لا يزال الميزة الواضحة التى يمتاز بها الطيارون الايطاليون ٠

تقابلت دورية عربية مع دورية الايطاليين فى بساتين بنى غازى٠ وهناك تبادل الفريقان اطلاق الرصاص وكان العسكر العثمانى قد هيأ قوة مؤلفة من ثلاثة آلاف فارس على أمل أن الايطاليين يخرجون من حصونهم لانجاد دوريتهم فيقع ما يرجوه العثمانيون من الاشتباك مع الايطاليين بمعركة تستحق الذكر ٠

ولما وصل الثلاثة آلاف من الفرسان العثمانية الى محل الواقعة رأوا أن الدورية الايطالية انهزمت الى الحصون والجيش الايطالى لم يجسر على الخروج لا للدورية العثمانية ولا للفرسان الذين جاءوا بعد ٠٠ وانتهت الحادثة بقتل بعض نفر من دورية الايطاليين والضابط الذى يقودها كان فى جملة القتلى ٠

ويشير داجو فون ميكوش ـ مؤرخ مصطفى كمال (أتاتورك) ـ الى الحرب الايطالية الطرابلسية أكثر من مرة٠ومرة يشير الى كلمة قالها أنور : لقد تركتنا الدول الأوروبية وشأننا ، ويقول : ان مصطفى كمال سافر مع بعض رفقائه الى طرابلس واضطروا للذهاب عن طريق مصر ، وكانت انكلترا هى الحاكمة عليها ، فأرادت أن ترضى ايطاليا بملازمتها لخطة الحياد التام ٠ فاتخذت التدابير الشديدة لمنع مصطفى كمال ومن معه من دخول البلاد ٠

ووصل مصطفى كمال وجماعته الى الاسكندرية فقبضت السلطات على اثنين من رفقائه مع أنهما كانا متنكرين فى ثياب بدوية ٠

وحاولت السلطات القبض على مصطفى كمال ولكنه استطاع الهرب

بفضل مساعدة ضابط مصرى عرفه من شعره الأشقر وعينيه الزرقاوين وبعض الأوصاف الأخرى التى كانت قد وصلته عنه ٠

***

وكان المصريون يعطفون على الأتراك عطفا خاصا ، ولهذا لم يستطع الضابط تنفيذ الأوامر التى صدرت اليه ، وهربه بحيلة لطيفة ، فسافر مصطفى الى طرابلس الغرب التى طالما تمنت نفسه الذهاب اليها ٠

ووجد مصطفى نفسه في موقف يدعو لليأس ، فان القلاقل كانت لا تزال مستمرة وقد أيقن أنه عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئا ، وأنه قد قطع كل علاقة بينه وبين السياسيين السابقين ، وان أعضاء تركيا الفتاة لا يقربونه منهم لانتقاده الشديد لأعمال الشخصيات البارزة بينهم ، ولأنهم كانوا يتركون القيادة لعدد كبير منهم كانوا لا يثقون به ولكنهم فى الوقت عينه كانوا لا يستطيعون جذبه اليهم ٠ وكان هو من ناحيته لا يحاول البروز فى الطليعة ، بل كان يتعمد أن يكون دائما « فى الذيل » ٠٠ أجل ٠ لم يرغب فى منافستهم على مراكزهم التى كانوا يحتفظون بها احتفاظا شديدا ٠

***

وأخذ مصطفى كمال يتمنى العودة لبلاده فى أقصر وقت ممكن ، ولكن الطريق المختصر كان موصدا ، ولهذا كان عليه ان يختار طريقا آخر ، وهكذا كان ، فوصل الى ايطاليا ومنها الى تركيا بعد أن بقى مدة طويلة يتنقل فى قطارات السكة الحديدية ، مارا فى رحلته على النمسا ، فهنغاريا ، فرومانيا ٠

ولما دخل استانبول فى نهاية تشرين ثانى سنة ١٩١٢ ورأى أنه قد تم انهزام الجيش العثمانى فى أسبوعين الأمر الذى أدهش العالم بأسره ، كان « ناظم باشا » القائد العام للجيوش التركية ، وزيرا للحربية وكان فى ذلك الحين فى أوج مجده ، وكان يحاول تخليص أرض الآباء وأن يتحدث الناس عنه انه القائد الحربى الذى انتشلها من وهدتها ، ولكن خدعة الحربية قد فشلت كلها ، وكانت نتيجتها ان اضطر الى الهرب والفرار ووصل الأعداء الى أبواب العاصمة ٠

وكان الجوع يفتك بالأهلين أكثر من فتك الرصاص ٠٠ !!! بينما تقع استانبول الغنية بالخيرات على مقربة منهم ٠٠ !! وكانت الكوليرا تحصد الجماعات المتلاحمة حصدا ٠٠ !!!

والتقى مصطفى كمال بأمه وشقيقته بين الفارين من مقدونية

وسالونيك وقد عثر عليهما بعد بحث طويل واستطاع أن يضعهما فى مكان حريز ، ثم تقدم مصطفى كمال الى شبه جزيرة غاليبولى وانضمت اليه عدة فرق جديدة كانت قد وصلت من الأناضول ·

وكان « كامل باشا » رئيســا للحكومة فى ذلك الحين ، قد قارب التسعين ، وكان « الداماد فريد باشــا » الذى أصبح فيمــا بعد عدوا للكماليين ـ لأول مرة فى تاريخ حياته ـ رئيسا لمجلس الشيوخ ، ينتصر للملكية ويدافع بحماس عنها ، وقد تلقى علومه فى اكسفورد ، ولا يختلف فى مظهره الخارجى عن « الجنتلمان » الانكليزى وفى الوقت عينه كان ينتظر معونة الانكليز ومساعدتهم ، ولكن أصدقاء الانكليز وجدوا أن آمالهم قد خابت ·· !!

فقد طلبوا من تركيا ـ اذا استثنينا ركنا صغيرا فى شمال العاصمة ـ ترك أملاكها الواسعة فى البلقان كلها ، وأهم جزيرة فى بحر ايجة الواقعة أمام الدردنيل ·

ولم يبق فى حيازة الأتراك من الأراضى الأوربيــة غــير استانبول والمضايق ·

***

وكان العالم العربى والاسلامى قد تأثر بتلك الحرب الى حد كبير ، وكانت ايطاليا قد حاولت فى البداية ـ فى أوروبا ـ أن تثيرها حــربا صليبية لتجمع الدول الأوربية حولها ، وبالرغم من ادعاءات الايطاليين بأن تلك الحرب من جانبهم ـ ليست حربا دينية ، الا أن كل تصرفاتهم فى تلك الحرب كانت تؤكد عكس ذلك تماما ·· ونجحت ايطاليا الى حد كبير فى استنفار كثير من الدول المسيحية ، ضد دولة الخلافة الاسلامية حتى من كانت تتظاهر بأنها من حليفات تلك الدولة ، واستخدمت ايطاليا لاثارة الرأى العام الأوربى ، حملات عنيفة من بينها ـ مثلا ـ ان هناك فى برقة ، وطرابلس ، وبنغازى اضطهادا للمسيحيين ، كما هى الحال فى كل أنحاء الامبراطورية ، واستغلت ايطاليا مقتل بعض الرعايا الايطاليين (الأب غوسمينيو ، ومارغاسنون ، ونيرينى «١٩٠٨») وادعت أن القضاء العثمانى يطيل أمد النظر فى القضايا الخاصة بمصرع أولئك (الضحايا) متعمدا بسبب سوء نوايا القضاة العثمانيين ، وقد أشارت بعض المذكرات الايطالية ـ التى كانت الصحف الايطالية والصحف الأوربيــة الكبرى تنشرها ـ الى ما سمى بقضية نرينى الذى قيل أنه انتحر ، ولم تأت الحكومة العثمانية بدليل على أنه انتحر ، والى ما قيل عن الاعتــداء على

الصحفى الايطالى غوستا توارنيب ، والى اهانة « قنصولانو » ايطاليا عندما حاول التدخل لمنع ذلك الاعتداء ٠

كانت ايطاليا فى كل بياناتها ــ أو معظمها ــ وخاصة تلك الموجهة الى الشعوب الأوربية تؤكد أنها تخوض حربا ضد التعصب الاسلامى . ولذلك وجدت دولة الخلافة الاسلامية والبلدان الواقعة تحت أجنحتها أنها مواجهة بحرب صليبية شرسة ٠

***

ورغم وجود صراع قوميات فى تلك البلدان اتخذ شكلا عنيفا هدد العلاقة بين العرب والترك ، الا أن ذلك الصراع توقف فجأة وبدون اتفاق مسبق ، وحل محله ضرورة العمل على مقاومة الاحتلال الايطالى لتلك البلدان الاسلامية (بنغازى وبرقة وطرابلس) خاصة بعد ان ارتكب الايطاليون العديد من المجازر الوحشية التى لم يعرف لها العالم ــ كما سبق أن قلنا ــ مثيلا من قبل ٠

***

من بين مظاهر الوحدة العربية الاسـلامية التى تجلت كرد فعل للحرب الايطاليـة الطرابلسية ــ مثلا ــ التلغراف الذى بعث به الامام يحيى ــ اليمن ــ الى الباب العالى : بسم الله الرحمن الرحيم ، علمت أن بعض الأجانب يهاجمون الحديدة ــ وكانت السفن الايطالية قد هاجمت ميناء الحديدة اليمنى ــ لنقل المعركة من طرابلس الى اليمن ٠ وطرابلس الغرب وانى مستعد للقيام بمائة ألف جندى تحت قيادتى بين محارب ومتطوع واننى أقدم نفسى فداء فى سبيل الله ٠

المتوكل على الله ، امام اليمن : يحيى

وقد كان فى تلك البرقية الكثير من المعانى الجليلة الجميلة التى تؤكد أننا وان اختلفنا بل وتحاربنا كمسلمين ، فاننا سرعان ما نلتقى ونتحد فى مواجهة العدو المشترك ٠٠ عدو ديننا الحنيف ٠

***

وقد أرسل الامام « عبد العزيز بن سعود » أمير مقاطعة نجد تلغرافا الى الصدر الأعظم فى ١٥ أكتوبر ١٩١١ يقول فيه : ان صداقتى لمقـام الخلافة العظمى ، وخدمتى للحكومة السنية معروفا لدى دولتكم وعند رجال الحكومة وأن مقاطعة نجد تفتخر اليوم بكل جوارحها أنها مقاطعة عثمانية ، وقد بلغنا اعتداء الايطاليين الطغاة أعـداء العثمانيين على تراب وطننـا

العثمانى الظاهر ، وأنا وجميع القبائل التى تحت أمرى مستعدون للزحف ـ فى ظل الأعلام العثمانية ـ الى حيث تأمرنا الدولة العلية ، وها نحن منتظرون هذه الأوامر بفارغ الصبر ...

وقد كان صدى تلك الحرب فى مصر ، مختلفا عنه فى أية بقعة اسلامية أخرى ، فالعلاقات التى تربط مصر بأبناء طرابلس الغرب وبرقة وطرابلس أكثر من علاقات الاخوة والجيرة .. ان معظم القبائل التى تقطن تلك البلاد جذورها فى مصر ، أو أن معظم القبائل التى تقطن مصر بصفة عامة والصحراء الغربية بصفة خاصة جذورها فى ليبيا ، وبمعنى أكثر دقة ، أن أبناء برقة وطرابلس وبنغازى أو الكثيرين منهم لهم أقاربهم فى مصر ، بل ان جزءا كبيرا من أهليهم فى مصر ، والعكس صحيح ، ثم ان أى عدوان على ليبيا هو عدوان على مصر ، فى نفس الوقت كما ان أى عدوان على مصر ، هو عدوان على ليبيا . لقد سبق لى أن قلت أكثر من مرة فيما كتبته عن التاريخ المصرى فى أوائل القرن العشرين ، وفيما كتبته عن التاريخ الليبى فى تلك الفترة بالذات .. بعد توقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا ١٩٠٤ الذى تم بمقتضاه الاتفاق بين الدولتين الكبيرتين (انجلترا وفرنسا) على اقتسام شمال أفريقية الذى كان خاضعا للحكم التركى ، بحيث تكون تونس والجزائر والمغرب من نصيب فرنسا ومصر من نصيب انجلترا ، وبعد الاتفاق بين الدولتين الأوربيتين (ايطاليا وفرنسا) فى مؤتمر الجزيرة ١٩٠٦ على أن تطلق فرنسا يد ايطاليا فى ليبيا ، وتطلق ايطاليا يد فرنسا فى الجزائر وتونس .

★★★

كانت مصر ـ رغم ما قاسته من الاحتلال العثمانى ـ تقف الى جانب تركيا فى أية محنة تمر بها ، بل كانت مصر ـ وهى الدولة الفقيرة التى يستغلها الاحتلال البريطانى الى آخر قطرة من دمها ـ تقدم كل ما تملك من عون مادى وأدبى الى تركيا ـ دولة الخلافة ـ عندما تتعرض قواتها المسلحة لأى عدوان من أية دولة استعمارية أوروبية .

ولن أنسى ما حييت عبارات عزيز على المصرى ، وصالح حرب ، ومحمود لبيب ، يرحمهم الله جميعا ـ ترن فى أذنى عندما كانوا يتحدثون عن اشتراكهم فى مقاومة الاستعمار الايطالى فى ليبيا ـ برقة طرابلس وعن التضحيات التى قدمها الشعب المصرى للشعب الليبى وللقوات التركية التى كانت تحارب الاحتلال الايطالى فى ليبيا .

لقد هاجمت ايطاليا الشعب الليبى الأعزل فى ١٩١١ بمائتى ألف جندى بالاضافة الى الاسطول الايطالى القوى ، ولم يكن عدد القوات

التركية المدافعة عن ليبيا يزيد عن ثلاثة آلاف جندي ، وقد دافعت تلك القوات التركية دفاعا مجيدا الى أن أوشكت ذخيرتها على النفاد فاعتصمت بالصحارى والجبال في انتظار المدد الذي يأتيها من تركيا ·

وقامت المظاهرات في مصر تطوف بالشوارع والميادين ودور السفارات تعلن استنكارها للاستعمار الايطالي وتعلن وقوفها الى جانب الشعب الليبي الشقيق ، وخصصت الصحف المصرية كل صفحاتها من أجل استنهاض همم شعب مصر للمساهمة في تخفيف ويلات الحرب عن الشعب الليبي ، وتكونت لجان قومية لجمع المساعدات المادية والعينية والذخيرة ، ونهض شعراء مصر ـ وكانوا في ذلك الوقت سباقين للاشتراك في كل معركة وطنية ـ يترنمون بالقصائد الوطنية الرائعة التي تؤيد شعب ليبيا في نضاله ضد الاستعمار الايطالي ·· أذكر من بينها قصيدة لحافظ ابراهيم كان مطلعها :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق ياشرق واحذر أن تناما

وكان من بين أبيات حافظ : مخاطبا قائد قوات الغزو الايطالي :

حاتم الطليان قد قلدتنا منة نذكرها عاما فعاما

أنت أهديت الينا عدة وعتادا وشرابا وطعاما

وسلاحا كان في أيديكمو ذا كلال فغدا يفري العظاما

★★★

ومما كتبه الصاغ محمود لبيب في مذكراته عن تلك الحرب : قام الحزب الوطني في هذه الآونة بالدور الأول في اذكاء الحماسة والوطنية في قلوب الشعب ، كما فتح رجالاته أبواب منازلهم يؤوون فيها قواد تركيا البواسل الذين بعثت بهم أمتهم الى ليبيا لتنظيم الجهاد ، ومواصلة القتال ضد المستعمرين الايطاليين لقد حضر مثلا القواد : أنور ، ومصطفى كمال (أتاتورك) ، وعصمت ، والضابطان الألمانيان فون جوتنبرج وفون بندنهايم ، وعزمي ، وجمال ، وغيرهم وغيرهم عن طريق الصحراء الشرقية واستقروا في مصر في بيوت هؤلاء الأحرار من رجالات الحزب الوطني ، فنزل بعضهم ضيوفا مكرمين في منازل أصهار الشيخ عبد العزيز جاويش ، كما نزل عاهل تركيا الخالد مصطفى كمال أتاتورك بعوامة محمد باشا يكن بواسطة حافظ رمضان وقد حفظ عاهل تركيا هذا الصنيع في نفسه ، حتى اذا سافر حافظ باشا الى مقابلته في أنقرة رد الى مصر في شخصه هذا الصنيع ، وكلف مندوبه عصمت اينونو في مؤتمر لوزان بالاعتراف

الصريح بتنازل تركيا عن سيادتها الى شعب مصر ، لا انجلترا ، كما كان يسعى الانجليز ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٣ ٠

***

ومما جاء فى مذكرات الصاغ محمود لبيب ٠٠ أن أنور ومصطفى كمال وعصمت اينونو والضابطان الألمانيان وغيرهم قد قضوا خفية أياما في لوكاندة عصفور على ضفاف الميناء الشرقية بالقرب من محكمة استئناف الاسكندرية وأنه في غرفة من غرف تلك اللوكاندة وضعت أهم خطة حربية عرفها تاريخ المغرب العربى ـ خطة مقاومة الغزو الايطالى لليبيا ـ وان المعتمد البريطانى فى مصر ، قد أصدر قرارا بتشديد العقوبة على من تطاوعه نفسه ويعمل على تهريب أو مساعدة القواد الأتراك الذين نزلوا بمصر أو يشترك في تهريب السلاح أو الذخيرة الى ليبيا وان كل من يقبض على واحد من قواد تركيا ـ وبالذات أنور باشا ـ يمنح على الفور خمسمائة جنيه ذهبا ٠٠ !!

وقد روى لى الصاغ محمود لبيب : أن أنور باشا عندما بلغه ذلك الفرمان قهقه ضاحكا ثم قال : لقد بخسونا حقنا ، خمسمائة جنيه فقط ثمنا لكل رأس واحد منا ، لعنة الله عليهم ٠

***

وكان فى مقدمة الذين أبلوا بلاء حسنا في مد يد المعونة للمجاهدين العرب في ليبيا الأمير عمر طوسون والشيخ على يوسف بالاضافة الى الحزب الوطنى ، الذى حمل راية الجهاد ، ومن الأطباء الذين سافروا الى الميدان وأبلوا بلاء حسنا ، د٠ حافظ عفيفى وزملاؤه ٠

وليس صحيحا أبدا أن الاحتلال البريطانى وقف موقف الحياد فى تلك الحرب بالرغم مما أشاعه وأذاعه لورد كتشنر المعتمد البريطانى ، ذلك ان الاحتلال البريطانى كان متعاطفا الى حد كبير مع الطليان وان لم يفصح عن ذلك التعاطف ، حتى لا تشتد معارضة شعب مصر له ، وقد رفض المعتمد البريطانى ارسال بعض أورط من الجيش المصرى لمساعدة الأتراك ، كما رفض انضمام بعض الضباط المصريين النظاميين الى الجيش التركى وقد كان الاحتلال البريطانى يخشى من انتصار المجاهدين العرب على الأتراك حتى لا يحرض ذلك المصريين على حمل السلاح ضد الاحتلال البريطانى ٠

***

وكان موقف الشعب المصرى موقف المعاضد لتركيا ، فشكلت — أحمد شفيق باشا — اللجان بكثير من أنحاء البلاد لجمع التبرعات للدولة العلية ، ففى ١٤ أكتوبر سنة ١٩١١ شكلت لجنة عليا برئاسة الأمير عمر طوسن وبلغت قائمة التبرعات الأولى ١٦٩٢ جنيها والثانية ٣١٣٧ جنيها ثم توالت التبرعات من جميع النواحى حتى بلغت أول يناير مبلغ ٨٥٤٦٨ جنيها ، أخذت تزداد كل يوم ·

وتألفت جمعية الهلال الأحمر برياسة الشيخ على يوسف وقررت تأليف عدة مستشفيات ميدان ، وسافرت البعثة الأولى يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩١١ ، كما سافرت ثلاث بعثات يوم ١٤ ديسمبر ، وتوالت البعوث الطبية ·

وفى ١٨ يناير سنة ١٩١٢ أعدت سوق خيرية فى حديقة الأزبكية لقبول تبرعات المتبرعين للهلال الأحمر تحت رعاية دولة الوالدة ، وضربت عليها السرادقات والزينات البديعة وعرضت فى السوق معروضات من بعض المحال التجارية وخصصت أرباحها للجمعية · وقد توالت التبرعات بالحلى والجواهر والأوانى الفضية والذهبية من أميرات البيت الخديوى وزوجات الكبراء والعظماء وسواهن ·

★★★

وقد كان الشعور لدى الأهالى بالغاء حد الانتباه لكل حركات الحرب وتفصيلاتها ووردت الأنباء مبدئيا بانتصار الأتراك ، فقامت مظاهرة ابتهاج فى الاسكندرية ، فعز ذلك على الجالية الايطالية فيها فاشتبكت مع المتظاهرين وأطلق بعضهم عيارات نارية أصابت المصريين وانتهى الحادث قبل استفحاله ·

وكان اللجنة التنفيذية المنبثقة عن اللجنة العليا التى كانت برئاسة الأمير عمر طوسون باشا قد عقدت اجتماعها الأول بمنزل شواربى باشا ، وقد انهالت عليها التبرعات من كل جانب وكان الحزب الوطنى قد شكل بعثة طبية لمعاونة الجرحى من المجاهدين وقد أقيمت لهؤلاء الأطباء حفلة وداع بفندق شبرد فى ٣ نوفمبر ١٩١١ ، وقد تحدث فى هذا الحفل محمد فريد ، فندد بعدوان ايطاليا وتبعه عبد الملك حمزة ، ووقف الشيخ عبد العزيز جاويش فارتجل كلمة بليغة ربط فيها بين عيد الأضحى (١٣٢٩) الذى صادف حلوله الوقت الذى تقرر فيه سفر الوفد الطبى الى ميدان القتال ، وبين التضحية التى يقدم عليها أطباؤنا لنجدة اخوانهم فى حربهم ضد الدولة المعتدية ·

★★★

وكان من بين ما قاله الشيخ عبد العزيز جاويش : يقولون ان حضرات الأطباء سيغادرون بلادهم الى ساحة الشرف والمجد فى أيام العيد ، مما يزيد فى مقدار التضحية التى يضحونها فى سبيل الانسانية ، وفى سبيل الله ، ولكن أى عيد يجوز لنا ان نحتفل به وأن نفرح بقدومه ، وبلادنا فى مشارق الأرض ومغاربها ينازعها الأعداء ، فيما بينهم كما تتنازع الوحوش فرائسها ٠٠ والله يا اخوانى اننى لم أسر منذ فقهت ، بعيد من الأعياد ، ولم ألبس له جديدا ، ولا أخذت لموسم ما يجب له من مراسم ، اعتقادا منى بأن المسلم ، وهو فرد من أمة مغلوبة على أمرها ، بعد أن كانت هى الغالبة ، لا يدخل الفرح الى قلبه الا فى اليوم الذى تسترد فيه أمته عزها السابق ، ومجدها القديم ، فاذا سافر أطباؤنا الى طرابلس وشاركوا اخوانهم من المجاهدين فى سبيل الله للذود عن بيضة الوطن الاسلامى ، والدفاع عن حماه ، فذلك هو العيد الذى يرتضيه كل مسلم ، فطوبى لمن لاحظته العناية فضرب فى هذا الجهاد الاسلامى بسهم » ٠ وقال : « هذه طرابلس أيها الاخوان ، من كان يؤمل انها تقاوم تلك الجيوش الجرارة والأساطيل القوية ، وهى ولاية منعزلة لا ماء فيها ولا زرع ، اذا لم يتشبع أهلها بتلك المبادىء السامية التى بثها الاسلام فى بنيه من ايثار الموت على حياة الرق والعبودية ، والانضمام تحت لواء واحد للدفاع عن بلد اسلامى ، يهاجمه عدو أجنبى ، لا يرعى ذماما ، ولا يراعى للحق احتراما » ٠

***

والأمانة تقتضينا الاشارة ، بل الاشادة بموقف الشيخ عبد العزيز جاويش وأخويه عبد اللطيف وأحمد فى مساعدة المجاهدين الليبيين ـ وان كانت قد نشرت روايات كثيرة عن استفادة هذين الأخوين من عملية المساعدة ، لم أتيقن ـ وقد بذلت جهدا كثيرا فى البحث وراء تلك الروايات ـ من صدقها : كان عبد اللطيف جاويش على علاقة طيبة بل وثيقة للغاية فى المنطقة التى تمتد من غرب الاسكندرية حتى بنغازى ، وقد استغل عبد اللطيف وشقيقه أحمد تلك العلاقة فى تهريب الأسلحة الى المجاهدين المقاتلين فى برقة وطرابلس وبنغازى ٠ وقد ذكرت جريدة المؤيد (١٥ ابريل ١٩١٤) أن أنور باشا أعطى عبد اللطيف جاويش تحويلا للقومسيرية العثمانية بالقاهرة بمبلغ من المال لشراء ما يحتاج اليه المجاهدون من مؤن وذخيرة ٠

***

ويقول محمد صالح فى كتابه عن المذكرات الحلمية فى الحرب

الطرابلسية ، أنه كانت لعبد اللطيف جاويش مكانة عند القادة العثمانيين ، وقد كان عبد اللطيف أحد أعضاء المجلس العسكرى الذى حاكم بعض من قبض عليهم من الخونة الذين زودتهم ايطاليا بالمال لاغراء القبـــائل وحثهم على عدم المقاومة ، وقد كان عبد اللطيف جاويش مرافقا مستديما لأنور باشا فى الميدان لخبرته التامة بلهجة البدو وطباعهم وهو الذى كان يقوم بتوزيع ما يستولى عليه المجاهدون من المخازن التابعة لبنك دى روما وكان قد أنشىء فى عديد من مناطق طرابلس الغرب وبرقة لكى يفتح باب التعامل مع الأهالى ويقوم بالدور الذى قام به الصهيونيون فى فلسطين فيما بعد ٠٠ يحرض البنك الأهالى على التورط فى الاستدانة والتى كان يسهلها لهم ، وبعد ان يورطهم فى الديون يستولى على أراضيهم ٠

وعندما بدأت الحكومة المصرية بايعاز من قوات الاحتلال البريطانى تعمل على الحيلولة بين وصول المساعدات المصرية الى برقة وطرابلس وبنى غازى ، وعندما بدأت تمنع مرور المجاهدين المسلمين عبر أراضيها الى ميدان القتال فى ليبيا ، وصرح الشيخ عبد العزيز جاويش ــ وكان من غلاة المتحمسين للمساهمة فى تلك الحرب ــ لمجلة الهداية (يناير ١٩١٢) قائلا : أليس من المؤلم ان بلادا اسلامية كمصر تفصل بين ولايتى طرابلس الغرب وسورية تكون حجر عثرة فى سبيل وصـــول الامداد الى الغزاة المسلمين فى الأصقاع الطرابلسية كانما هى بلاد أجنبية ومسيحية معا لأنه لا يعقل أن بلادا اسلامية ذات حكومة اســلامية تكون حائلا دون وصول القوات العثمانية من الحدود السورية الى الحــدود الطرابلسية ، ولكننا رأينا أنفسنا أمام حيدة غريبة مرت عليها فترة من الزمن كادت تنقلب الى شدة ، ومصادرة للحرية ويزج فيها قوم فى السجون ، ونفى آخرون لا ذنب عندهم ســوى اتهامهم بايصـــال الامداد والذخائر الى المجاهدين فى طرابلس الغرب ٠

***

ومع ذلك وجد فى مصر من رفع شعار « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » ، وعن هذا الشعار قال د٠ محمد حسين هيكل فى مذكراته : فى صيف عام ١٩١١ وقع حادث دولى كان له فى مصر دوى عظيم ، وفى السياسة المصرية أثر بالغ ٠٠ فقد أعلنت ايطاليا الحرب على تركيا فى برقة وفى طرابلس الغرب وكأننا يومئذ ولايتين تركيتين تحكمهما السلطة العثمانية حكما مباشرا ، ما عسى ان يكون موقف مصر من هذه الحرب ؟ انها داخلة فى نطاق السيادة التركية مع تمتعها بالاستقلال الداخلى : أتسير قواتها المسلحة الى جانب القوات التركية للدفاع عن هذا الجزء من

الامبراطورية العثمانية ؟ أم تقف على الحياد • انه ليس لها من وراء هذه الحرب مغنم ؟ واذا وقفت على الحياد وأرادت الجيوش العثمانية أن تمر بأراضيها •• فماذا يكون موقفها ؟ أتمنع هذه الجيوش من المرور بحجة حيادها حتى لا تتعرض لعمل عدائى من جانب ايطاليا • أم تقتضيها تبعيتها الاسمية للسلطان العثمانى ان تفسح الطريق لهذه الجيوش من غير أن نخرج عن هذا الحياد ؟ وانجلترا ما موقفها وهى محتلة لمصر ؟ هل تسهل للجنود التركية المرور ، أم تقف فى طريقها فتصدها ان هى حاولت هذا المرور ؟

***

كان موقف الحكومة المصرية فى هذا الظرف الدقيق سلبيا صرفا : تركت الأمر لانجلترا ولممثلها فى مصر لورد كتشنر تتصرف فيه السياسة البريطانية بما تشاء ، أما السياسة البريطانيـة فى مصر فكان موقفها يومئذ عجيبا غاية العجب •

أبدى لوردكتشنر فى وضوح وصراحة ان ايطاليا معتدية على تركيا من غير حق ، وقامت فى مصر حركة لجمع التبرعات لتركيا ، اعانة لها على نفقات الحرب ، فشجع لورد كتشنر هذه الحركة وشارك بالتبرع •

وكان أمراء البيت العلوى على رأس الوفود التى تتنقل فى الأقاليم لجمع التبرعات ، فكان هذا دافعا للناس على البذل بسخاء ولأنهم رأوا الحكومة لا تعارض وأمراء البيت المالك يشجعون ويتبرعون والمعتمد البريطانى نفسه يشجع ويشترك ، ولقيت الدعوة لمعاونة دولة الخلافة يومئذ آذانا صاغية من الجميع •

ويذكر د• هيكل : ان الأمير عمر طوسون ذهب مع الهيئة القائمة بجمع التبرعات الى المنصورة فجمع فى أقل من نصف ساعة مائة ألف جنيه وستة آلاف ذهبا • وحدث مثل هذا فى غير الدقهلية من مديريات مصر ، والناس ينظرون الى موقف انجلترا من هذه الحركة دهشين ، كيف تشجع دولة اسلامية على دولة مسيحية ؟

***

على أن السياسة البريطانية لم تذهب الى أبعد من ذلك ، ولم تسمح بمرور الجيوش التركية من الأراضى المصرية محتجة فى هذا وفى ذاك بـأن مصر مستقلة داخليا عن تركيا ، فاذا اشتركت الحكومة المصرية فى هذه الحرب لم يقف هذا الاشتراك عند الجنـاية على استقلال مصر بل أدى بانجلترا ــ ولها فى مصر مركزها الخاص بحكم الاحتلال ــ الى أن تتهم بالخروج عن الحياد وبالاشتراك فى حرب ضد ايطاليا ليس له مسوغ •

بينما كان الناس فى الطفرة الأولى من هذا الاندفاع القوى لمعاونة دولة الخلافة اذا بلطفى بك السيد يطالبهم فى « الجريدة » بثلاث مقالات فى ثلاثة أيام متعاقبة عنوانها جميعا « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » يدعو فيها المصريين الى التزام الحياد المطلق فى هذه الحرب الايطالية التركية والا دفعوا بأموالهم أن تبعثر فى سبيل قل ما تفيد بلادهم منه ، ويذكرهم بأن من الخير أن يبذلوا هذه الأموال لخير مصر ولانشاء المرافق المصرية النافعة لأبناء الوطن ، فلشد ما يحتاج أبناء مصر الى انشاء هذه المرافق ولشد ما تفتقر مصر الى الاصلاح ٠

أثارت ـ د٠ هيكل ـ هذه المقالات الثلاث على لطفى بك عاصفة هوجاء لا أقول من تقدير بل من طعن جارح ٠ اتهمه بعضهم بمناوأة دولة الخلافة الاسلامية ، واتهمه آخرون بالالحاد ٠ وحملت عليه الصحف على اختلاف ألوانها حملة شعواء ٠

ومع ايمان لطفى بك بهذا الرأى الذى أبداه ايمانا لا يتطرق اليه شك ومع ما عرف عنه من قوة الحجة وشدة المعارضة لم يستطع اقناع أصدقائه السياسيين من أعضاء حزب الأمة بمناصرته فى موقفه ، بل اندفع الحزب فى الطريق الذى اندفع فيه الرأى العام ، أو قل ما شئت ان الحزب خشى مواجهة الرأى العام فنكص ولم يؤازره واضطر لطفى بك الى الانسحاب من الميدان والى السفر الى برقين وترك الجريدة يتولى أمرها غيره من محرريها ٠

والجدير بالذكر أن د٠ هيكل بدأ يكتب فى الجريدة أثناء انقطاع لطفى بك عنها وذلك بعد أن اقترح ذلك عليه عمه صالح بك سالم هيكل وكان وقتئذ محررا بالجريدة وطلب من د٠ هيكل ان يراعى موقف الرأى العـــام ٠

وقــد أيد هيكل فى مقــالاته الافتتاحية (الجريدة) موقف الحياد الذى وقفته مصر وسخر من ايطاليا التى اعتبرت غزو برقة وطرابلس نزهة بحرية ، فلما نزلت الى الأرض لقيت من المقاومة ومن الهزائم ما جعل هذه النزهة وبالا عليها ٠

وقد نجح هيكل فى أن يرضى الرأى العام وينجى الجريدة من سخط الرأى العام من غير أن يخالف ما دعا اليه لطفى بك فى كثير ولا فى قليل ٠

★★★

ولابد فى رأينا ـ لكى تكتمل صورة الحرب الايطالية الطرابلسية ـ من أن نشير الى موقف الخديو عباس حلمى من تلك الحرب ، فقد كان عباس

حلمى واحدا من الحكام الذين عينتهم دولة الخلافة الاسلامية وكان عباس حلمى فى نفس الوقت الحاكم الشرعى لمصر الجارة الشقيقة لليبيا ـ طرابلس الغرب وبرقة ـ وكان اعتماد المجاهدين العرب على شعب مصر سواء فيما يتعلق بالسلاح أو المؤن أو المتطوعين ، بالاضافة الى ما كانت تقدمه مصر من رعاية طبية للمجاهدين ٠٠ وقد سبق ان أشرنا اشارة عابرة الى موقف بريطانيا ـ وبالتالى المعتمد البريطانى فى مصر ، أداة الاحتلال البريطانى بمصر ـ من تلك الحرب ، فقد كانت بريطانيا فى البداية ـ من الناحية الرسمية ـ تحاول الظهور بمظهر الحياد من الدولة العثمانية بينما كانت بريطانيا ـ قلبا ، وعملا ـ مع ايطاليا رغم ما بين الدولتين من خلافات واختلافات ، ولكن عندما يكون الخيار لبريطانيا بين مصلحة تركيا الدولة الشرقية الاسلامية ، وبين مصلحة ايطاليا الدولة الأوربية المسيحية ، فان بريطانيا تختار ـ بدون تردد ـ أن تكون مع ايطاليا ، وقد كان المعتمد البريطانى فى مصر ينفذ سياسة بلاده : الحياد الاسمى ، بين الدولتين المتحاربتين ، الاكتفاء بالمساعدات الطبية والمالية ـ دون الأسلحة ـ التى يقدمها شعب مصر لأشقائه الليبيين ، ولكن عندما ظهر ان موقف الشعب المصرى من تدعيم المجاهدين العرب ، يمكن ان ينعكس آثاره على الداخل فى مصر ، فيتحول الى مقاومة للاحتلال البريطانى لمصر ٠ وبعد توقيع معاهدة أوشى بين دولةالخلافة الاسلامية وبين ايطاليا ، واصدار الآستانة أوامرها الى قوادها فى طرابلس الغرب وبرقة بالانسحاب والعودة الى تركيا ، تغير موقف انجلترا ـ والمعتمد البريطانى فى مصر تبعا لذلك ـ من موقف الحياد الاسمى الى موقف المؤيد لايطاليا المعارض للمقاومة الليبية وبشدة ٠

***

وقد كانت تركيا ـ بسبب غياب الوعى السياسى ، عند بعض قياداتها ـ تعتقد ان انجلترا صديقة حميمة لها ، وقد أرسل السلطان رشاد أكبر أنجاله أحمد ضياء الدين أفندى ليكون فى استقبال ملك انجلترا وملكتها عند مرورهما ببورسعيد فى ١٩ نوفمبر ١٩١١ ٠ وصلت الباخرة « عثمانية » تقل حضرة صاحب الدولة والنجابة أحمد ضياء الدين أفندى ومن معه ، وكان الخديو فى استقبالهم ، وكانت المدافع تطلق اجلالا وترحيبا ، وانتقل الوفد الشاهانى الى بورسعيد ـ فى اليوم التالى ـ بعد ان انضم اليهم الخديو والبرنس محمد على باشا واللورد كتشنر والسير ريجنالد ونجت سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسوذان والسير جون مكسويل قائد الحامية الانجليزية فى مصر ، ومحمد محمود سليمان بك محافظ القنال ، ووصل ملك انجلترا وملكتها فى مساء ٢٠ نوفمبر وتشرف

اللورد كتشنر بمقابلتهما ثم نزل الخديو وضياء أفندى وضيائى أفندى مدير تشريفات الباب العالى والبرنس محمد على باشا ، ومحمد سعيد باشا ، وحسين رشدى باشا فى زورق بخارى وصعدوا الى الباخرة التى تقل ملك بريطانيا وملكتها تحييهم الفرقة الموسيقية بالسلام الخديوى أولا ثم بالسلام العثمانى ثانيا ، وبعد التعارف أبلغ ضياء الدين أفندى الى جلالة ملك بريطانيا تحية والدة السلطان ، ثم قدم له مكتوبا رقيقا منه ، وتبادل الملك والملكة والخديو وولى العهد وكتشنر الغداء مع الملك والملكة ، ثم عاد الخديو وضيوفه الى القاهرة بينما واصل اليخت الملكى البريطانى اجتياز القناة تتبعه سفن الأسطول السائرة فى حراسته وعاد ـ كما يقول أحمد شفيق باشا ـ الوفد الشاهانى الى الآستانة ٠

وتفضل السلطان محمد الخامس فأهدى صـورته الفوتوغرافية الى الخديو عباس حلمى ، وقد ازدانت الصورة باسم جلالته مرقوما بالألماس على الطراز الكوفى الجميل ووضـعت فى اطار بديع الصنع يعلوه التاج الشاهانى من الألماس والياقوت ٠

ومما يذكر ان ثابت بك «أثوابجى باشى» السلطان قد حاول أن يزوج ضياء الدين أفنـدى من احـدى كريمات الخديو عباس حلمى ولم تنجح المحاولات لوجود ذرية لضياء الدين أفندى من محظية له ٠

★★★

تلك كانت « صور » العلاقات الرسمية بين الدولة العثمانية وبين بريطانيا وبين الخديو عباس حلمى الثانى أما العلاقات الفعلية ، فكانت ذات صورة مختلفة ٠٠٠ !!

عندما تأزم الموقف بالنسبة لتركيا فى الحرب الايطالية الحبشية راح السلطان يستعين بملوك أوروبا ـ وفى المقدمة ملك انجلترا ـ ولكن لا حياة لمن تنادى ، حتى امبراطور ألمانيا الذى كان متحمسا للوقوف الى جانب تركيا ، وكان يبدى من العواطف الرقيقة لتركيا أكثر مما تبديه أية دولة حليفة ، لم يتحمس للوقـوف الى جانب تركيـا ضـد التدخل الايطالى : أليست تركيا دولة شرقية مسلمة ، وايطاليـا دولة أوروبية مسيحية ؟

وعن موقف الادارة الانجليزية ـ فى مصر ـ أشارت انجلترا على مصر بأن يكون موقفها من تلك الحرب موقف الحياد الرسمى ، وقد أبدل ـ أحمد شفيق باشا ـ بالمأمورين المصريين فى الحدود الغربية بمأمورين انجليز ، ومنع أهالى المغرب من الدخول للأراضى المصرية ، وأعدت الزوارق

التابعة لمصلحة خفر السواحل لمراقبة الحدود الغربية والشرقية حتى قطعت التجارة الطرابلسية المصرية وردت كل قافلة تجارية آتية من تلك البلاد ، وعندما ذهب وفد من كبار المسلمين ــ أحمد شفيق باشا أيضا ــ الى اللورد كتشنر طالبين منه ارسال بعض أورط من الجيش المصرى لمساعدة الأتراك ، فأجابهم قائلا : هذه فكرة صائبة ولكن لما كان من الصعب أن نجد جنودا آخرين ليحلوا محل الجنود المطلوب سفرهم ، فانى سأضطر فى هذه الحالة لأن أطلب من حكومتى أن ترسل لمصر جنودا من الانجليز ، فانصرف الوفد دون الحاح ٠

★★★

وفى ذات يوم ذهب أيضا جماعة من الضباط المصريين وطلبوا منه السماح لهم بالتطوع فى الجيش التركى فقال لهم : لا أرى مانعا من أجابة هذا الطلب ، ولكننى أقول لكم مقدما بأنكم اذا سافرتم فمن الضرورى ملء مراكزكم فى الجيش بصغار الضباط فعند عودتكم تجدون أنفسكم بطبيعة الحال فى كشف الاستيداع » ٠

وجاء أيضا وفد من مشايخ العربان واستأذنوه فى جمع المتطوعين لكى ينضموا الى الجيش التركى فقال لهم انه يهنئهم على ما أظهروه من الشجاعة والبسالة بتقديم هذا الطلب ، ولكن من الحرام أن تفقد مصر رجالا مثلهم ذوى شجاعة وبسالة فان حكومة مصر ستضطر عند عودتهم ان تطبق عليهم قانون القرعة العسكرية المعافين منه الى الآن ٠ وبعد المشاورة انصرفوا من عنده ولم يرجعوا اليه مرة ثانية ، وبذلك تخلص اللورد من اجابة هذه الطلبات تخلصا من مسئولية حياد مصر ٠

★★★

ويقول أحمد شفيق باشا ــ بصراحة ــ أن انجلترا ومعتمدها فى مصر ، رغم ادعاءات الحياد بين الدولة العثمانية وبين ايطاليا ، كانت تفعل كل ما من شأنه خدمة ايطاليا ، كما أن انجلترا ــ ومعتمدها فى مصر ــ لما تعمل عملا واحدا فى مصلحة دولة الخلافة العثمانية ٠

ومع موقف الخديو ٠٠ يقول أحمد شفيق باشا : راجت اشاعات من البرنس فؤاد باشا فى المسألة الطرابلسية تتلخص فى أن ملك ايطاليا وعده بامارة طرابلس بعد احتلالها ، وأنه بسبب هذا الوعد ، عمل على التقريب بين سمو الخديو وجلالة ملك ايطاليا فتمت زيارة الخديو لايطاليا فى العام الماضى يرافقه البرنس (فؤاد باشا) وقد رددت هذه الاشاعات بعض الصحف الفرنسية والالمانية ، فأرسل البرنس تكذيبات لها نشرت

فى ١٠ يناير ١٩١١ ، وقد سهل الخديو عباس حلمى فى أول الأمر ارسال الاعانات والبعثات ومنهـا ما كان يحمل مدافع مفككة وسـلاحا وذخيرة ومؤونة بعـد أن أرسل رشـدى باشا الى كتشنر للتفاهم معه قبل منح التسهيلات اللازمة بدون مسئولية عليه أو على حكومته ٠

***

ولما توالت انتصارات الايطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب ، وتغير موقف الخديو ، عاد فطلب من كتشنر بواسطة حسين رشدى باشا وقف المساعدات ، فامتنع عن اتخاذ خطة صريحة بذلك بعد ما سمح بارسالها أولا ، وانتهى الأمر بأن يقال ان البعوث الأخيرة ضلت الطريق وقد منعت بعوث الهلال الأحمر العائدة من الدخول بالمرضى ، وأرسال الخديوى عبد الحميد بك شديد ، للسيد ادريس السنوسى ليغريه بالاتفاق مع ايطاليا حسما للحرب على أن يسعى الخديوى فى الحصول له على امتياز من ايطاليا وتنصيبه على السنوسيين بدلا من عمه الشيخ أحمد السنوسى الكبير ، وفى نظير ذلك يتحصل سموه على وعد بمبيع سكة حديد مربوط لأحد بنوك أيطاليا بثمن يرضـيه ٠ ولكن المساعى التى كـان عباس يبذل الجهد فيها للوصول الى ذلك قد فشلت ، لأن كتشنر ضربها ضربة قاضية ٠

ويمضى أحمد شفيق باشا قائلا : لما توالت أنتصارات الايطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب ، وتغير موقف الخديوى عاد فطلب من كتشنر ــ بواسطة حسين رشدى باشا ــ وقف المساعدات وكان قد سمح بارسالها أولا ، وانتهى الأمر بأن يقال ان البعوث الأخـيرة ــ الخاصـة بمساعدة المجاهدين ــ قد ضلت الطريق وقد منعت ــ أحمد شفيق باشا ــ مبعوث الهلال الأحمر العائد من الدخول الى مصر ٠

وللعلم ، فان كتشنر قد خشى ــ ومنذ بداية الحرب ــ من حرارة مشاعر المصريين تجاه اخوانهم الأتراك والليبيين ، وقد أوعز الى الحكومة المصرية بأن توقف الصحف المصرية الحملة على ايطاليا ، ففى نوفمبر ١٩١١ أصدر وزير الداخلية محمد سعيد باشا بلاغا جاء فيه :

« تنشر بعض الجرائد عبارات عن الحرب بين الدولة العلية ، والحكومة الايطالية من شأنهـا تهييج الأفكار ، والقـاء النفرة بين سـكان القطر والنازلين ، مما يترتب عليه تكدير النظام ، فلهذا استلفت أنظار حضرتكم الى اجتناب كل ما من شأنه تشويش الأفكار وتهييجها بالتثبت من صحة الأخبار قبل نشرها ، والاعتدال فى لهجة التعليق عليها وشرحها » ٠

محمد سعيد/ ناظر الداخلية

***

وقد نشرت الصحف ـ كل الصحف ـ ذلك البلاغ فى ١٥ نوفمبر ١٩١١ وكان أول ضحية لذلك البلاغ بل ذلك الانذار صحيفة العلم اذ قررت وزارة الداخلية ـ فى ١٩ ديسمبر ١٩١١ تعطيل « العلم » ثلاثة أشهر لأنها ـ كما قال البلاغ الخاص بالتعطيل ـ سلكت مسلك الطعن فى الحكومة بما يحمل الناس على كراهيتها ولأنها نشرت ـ فى ١٨ ديسمبر ١٩١١ مقالة نسبت فيها الى الحكومة النكاية بتركيا فى الحرب الطرابلسية ، وانتقدت الاحتلال واتهمته بأنه أوعز الى الحكومة بالامتناع عن تبليغ البرقيات التى كانت القوة المحاربة فى طرابلس ترسلها الى الآستانة عن طريق مصر ٠

★★★

وكان أحمد شفيق باشا قد أشار الى اشاعة مؤداها أنه بعد عقد الصلح بين الأتراك والطليان بثلاثة شهور ـ أى فى أوائل عام ١٩١٣ ، وفى أثناء استمرار القتال فى طرابلس والبلقان أن الخديو باع سكة حديد مريوط الى بنك درسدن الألمانى ، ولكنه لم يلبث أن اتضح بعد ذلك ان عقد البيع قد أمضى فى الحقيقة مع بنك ايطالى ٠ ورخص له الخديو بأن يمد هذا الخط الى نهاية حدود طرابلس فى السلوم ٠ فأثار عقد هذه الصفقة اهتمام الانجليز ، وتدخل اللورد كتشنر فى الأمر « وصدد (عباسا) وأحرج مركزه » فاضطر الخديو الى العدول عن بيعها لايطاليا ، والغى عقد البيع مع البنك الايطالى وباع السكة الى الحكومة المصرية ٠

وزيادة على ذلك فقد وسط الايطاليون (الخديو) أيضا حتى يقنع السنوسيين بضرورة الاخلاد الى السكينة ويجزل لهم الوعود الطيبة اذا هم قبلوا الأمر الواقع عن مواصلة الجهاد ، فقبل سموه الوساطة وأرسل الى السنوسيين وزعيمهم السيد أحمد الشريف بالجبل الأخضر فى أواسط عام ١٩١٣ وفدا يتألف من السادة المأمون والسنوسى ومصطفى أنجال السيد عبد المتعال الادريسى ومعهم عبد الحميد بك شديد من رجال المال فى مصر ، يحملون كتابا خاصا من الخديو الى السيد أحمد الشريف ، فرجع الوفد الى القاهرة وأخفقت هذه الوساطة ٠

ونشير الى ما رواه الأمير شكيب أرسلان ـ وهو شاهد عيان ـ عن التحول الذى طرأ على موقف الخديو من الحرب الايطالية الطرابلسية بعد ما شاع ان الدولة العثمانية راغبة فى التساهل فى موضوع طرابلس الغرب وانها حريصة على تحقيق صلح مع ايطاليا ٠

وكان الأمير شكيب أرسلان قد بعث ـ من جنيف فى ١٨ سبتمبر ١٩٣٦ ـ برسالة الى الشيخ محمد الأخضر العيساوى يشرح له فيها ما وقع

عندما قابل الخديو فى أثناء سفره من طرابلس الغرب ومروره بمصر فى طريقه الى الآستانة للبحث فى مصير طرابلس الغرب مع الوزارة العثمانية الجديدة . وقد جاء فى رسالة الأمير شكيب ..

***

وعندما جئت من طرابلس الى مصر فى شهر أغسطس ١٩١٢ وذهبت من مصر الى الآستانة مسرعا كان السبب فى ذلك أنى علمت بأن الدولة قررت الصلح مع ايطالية فخفت ان تهمل طرابلس تماما فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفيفة عن يد الأمير عمر طوسون وغيره حتى يستمر الجهاد ولا تذهب طرابلس .

ولما وصلت الى السلوم قال لى رجال الحكومة المصرية هناك ، ان سمو الخديوى أرسل يسأل عنى وأمر بأن الباخرة التى تأتى الى مرسى السلوم تأخذنى وجماعتى الى الاسكندرية .

وانتظرتنى الباخرة فتأخرت عن الورود فرجعت بدونى . فبقيت سائرا حتى وصلت الى المكان الذى ينتهى فيه سكة الحديد خاصة الخديوى وكان يقال له رأس التركيب . فقالوا لى هنـاك أيضا ان الخديوى جاء بنفسه وسأل عنك وقد أمر أنك عند وصولك تعرض له . ففرحت أنا بهذه الأخبار ظانا ان الخديوى متشوق الى أخبار الجهاد يريد أن يعرفها منى فيلح فى وصولى . فلما وصلت الى الأسكندرية وجدت صديقى أحمد بك العريس البيروتى أحد أعوان الخديوى فى انتظارى ، فقال لى : ان أفندينا أرسلنى لاستقبالك ولأذهب بك الى سراى رأس التين لتنزل ضيفا عنده. فذهبت ودخلت عليه وأنا بثياب السفر بحسب ارادته ، وكنت أظن أن أول سؤاله يكون عن المجاهدين وحالة الجهاد ، وكان مرداى أن أقول له ان كل شىء جيد لولا قلة علف البواريد لعله يساعد بطريقة فنزيح هذه العلة . فما راعنى الا كون الخديوى سأل عن كل شىء ما عدا الجهاد . فبرد وجهى وخرجت منقبض الصدر وكاشفت أحمد العريس بما وجدته فى نفسى ، فقال لى اذا سالك أفندينا عن الحرب فلا تقل له انه يلزم جبخانة وانها قليلة . قلت له لماذا ؟ قال : يجوز ان أفندينا يقول ذلك لأحد بدون قصد فمن واحد الى آخر يصل الخبر الى الطليان . والحقيقة التى علمتها فيما بعد ان الخديوى كان اتفق مع ايطالية على أن يبيعها سكة حديد مريوط بثمن عظيم وبمقابلة ذلك يساعدها على اخماد الحرب . ولكن أحمد العريس لم يكن يقدر ان يبوح بالسر وهو مسلم مخلص فنبهنى حتى لا أقول للخديوى أن المجاهدين فى احتياج الى الجبخانة . ثم كنا على الافطار لأن الوقت كان رمضان ، وكان على المائدة الخاصة بسمو الخديوى

بجانبه حسين باشا رشدى ، ثم قاضى مصر وكان تركيا ، وهذا العاجز والشيخ على يوسف • وكانت بقية الموائد مصفوفة وعليها مفطرون كثيرون •• وبدأنا بالحديث على الأكل ، فقال الشيخ على يوسف : ان الدول قررت عدم اقراض مال لتركيا اذا كانت لا تزال ترفض الصلح مع ايطاليا • فقلت له : ان تركيا مضطرة أن تتابع الحرب حفظا لشرفها • فقال : ومن أين تأتى بالمال ؟ فقلت له : كل ما تنفقه تركيا على حرب طرابلس هو ٧٠ ألف جنيه كل شهر والحال أن ايطاليا تنفق فى الشهر مليون جنيه • فقال الشيخ على : الا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة لتركيا كالمليون جنيه بالنسبة الى ايطاليا فالدولة لا تقدر على متابعة الحرب • فقلت له : اذا عجزت الدولة فالعالم الاسلامى يقدر على مساعدة طرابلس • فقال : أما نحن أهالى مصر فلا نقدر ـ اذا ـ صالحت الدولة على طرابلس ـ أن نستمر على مساعدة الطرابلسيين اذ يكونون حينئذ رعية ثائرين على ايطاليا » •

« هذا كله كان يقوله الشيخ على يوسف لا الخديوى • بل الخديوى كان ساكتا وقد علت وجهه الحمرة وفيما بعد فهمت أن الشيخ على كان مقصده بهذا الكلام التزلف للخديوى لأنه كان مطلعا على الدسيسة • فأنا لم أكن أعلم شيئا من هذه الدسيسة • ولم أكن لأبالى بها على فرضت أنى علمت بها • فلما سمعت جدال الشيخ على هذا غضبت ، وقلت له بحدة : لا تساعدوا أهل طرابلس فالله يغنيهم عنكم • فانقطع الكلام على أثر هذه الحدة ووجم الخديوى وصار قاضى مصر يبتسم • وقمنا عن السفرة الى الصلاة ، فأخذنى الخديوى بيدى لأنه شعر بكونى تأثرت جدا ، وما زال حتى وصلنا الى السجادة الخاصة به فتنحى قليلا الى اليمين حتى أن السجادة تسعه وتسعنى • وكل هذا يقصد به تلطيف خاطرى ، وأنا لا أعى من التأثر ، فلما بدأ الامام بالصلاة ولم يكن الامام حاضرا مجلسنا ولا سمع شيئا مما دار بينى وبين الشيخ على ألهمه الله أن يقرأ بعد الفاتحة قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا) •

★★★

وقبل أن ننتقل الى آخر النقاط الهامة فى هذا الفصل نشير الى معاهدة « أوشى » التى سبق الحديث عنها •• المعاهدة وقعت بين الحكومة العثمانية وبين ايطاليا فى أوشى (لوزان) بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩١٢ وفيها تعهدت الدولتان ـ تركيا وايطاليا ـ بايقاف الحرب ، وبصفة خاصة تعهد الأتراك بأن يستقدموا ضباطهم وجنودهم وموظفيهم المدنيين من طرابلس•

ومن ملاحق معاهدة أوشي ـ ولها ثلاثة ملاحق ـ أن يمنح السلطان العثماني سكان طرابلس الغرب وبرقة ، بما له عليهم من حقوق السيادة ، استقلالا داخليا مطلقا وتاما ـ ولست أدرى كيف يمكن أن الاستقلال الداخلى مطلقا وتاما ـ وان يعين ممثلا فى بلادهم يمنحه لقب نائب السلطان لحماية المصالح العثمانية ثم يحتفظ بحق تعيين القاضى الذى يتولى تعيين نائبين عنه من العلماء وأبناء البلاد حتى يقضوا بين الأهلين طبقا لأصول الشريعة الغراء ٠

***

والملحق الثانى من ملاحق معاهدة أوشي يتضمن منشورا التزم به ملك ايطاليا موجها الى سكان طرابلس الغرب ، وقد جاء فى مقدمة ذلك المنشور : عملا بالقانون رقم ٣٨ الصادر فى يوم ٢٥ فبراير ١٩١٢ والذى يجعل طرابلس الغرب وبرقة خاضعتين خضوعا تاما مطلقـا للسيادة الملوكية الايطالية ، ورغبة فى التعجيل باعادة السلم الى هاتين المقاطعتين ، أصدرت الحكومة الايطالية مرسوما أهم ما فيـه الى جانب العفو العـام للطرابلسيين والبرقاويين وعد ايطاليا بالمحافظة على الشـعائر الدينية الاسلامية ، بما فى ذلك ذكر اسم جلالة السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين فى الصلوات العامة ٠

وأما آخر الملاحق ـ الملحق الثالث من معاهدة أوشي ـ فقد تعلق بمنح سكان جزيرة ايجه الذين اشتركوا فى الأعمال العدائيـة ضـد العثمانيين فى أثناء الحرب عفوا عاما ٠

وهكذا ٠٠ أنهت تركيا العلاقة بينها وبين مقاطعتى طرابلس الغرب وبرقة بعد ان قدمتهما هدية متواضعة الى ايطاليا ، واحتفظت تركيا فقط بالدعاء للسلطان الأعظم على المنابر ٠

وقد حافظت تركيا على وعودها وعهودها فى تلك المعاهدة والتزمت بملاحقها التزاما تاما ، بينما أجهضت ايطاليا تلك المعاهدة بعد دقائق من التوقيع عليهـا ، وبدأ العرب والمسلمون يتبينون وجـه ايطاليـا الاستعمار القبيح ٠

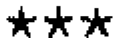
ولا يبقى أمامنا فى هذا الفصل سوى الاشارة الى أهم أحداث الحرب الطرابلسية الايطالية ونعنى به انسحاب القائد العام لقوات المجاهدين عزيز على المصرى من ميدان القتال وعودته مع رجاله وأسلحتهم (الأتراك) الى تركيا ٠

***

وفي هذا المقام نعود الى ما كتبه د . محمد فؤاد شكري عن هـذا الموضوع الهام . يقول د . شكري : بيد أن متاعب السنوسيين والمجاهدين في أثناء هذا النضال ولم يكن مقدرا لها أن تنتهي عند ذلك ، فانه سرعان ما تعكرت العلاقات في معسكر المجاهدين بين القائد العام (عزيز بك المصري) وبين العرب ، ونجم عن ذلك حوادث يؤسف لوقوعها . فقد صادف أن جاء الحصاد في عام ١٩١٣ في أثنـاء اشتداد المقاومة ضـد ايطاليا ، فاضطر أغلب المجاهدين العرب الى ترك الجيش والذهاب للحصاد فعلم الايطاليون بذلك ، وانتهزوا الفرصة للهجوم على الجيش على غرة ، ولم يكن وقتئذ (عزيز المصري) موجودا ، فانسحب الجيش بمعداته الحربية الى معسكر درنة ، واشتبك عزيز المصري مع الايطاليين في معارك دامية وانتصر المجاهدون على العدو في جملة وقائع ، وألحقوا به خسائر فادحة خصوصا عند قدوم السيد أحمد الشريف من الجغبوب ، وأخذ المجاهدون أسرى كثيرين بعثوا بهم الى (زاوية العزيات) لبعدها عن ميدان القتال . وأراد عزيز المصري أن يطلق سراح بعض هؤلاء الأسرى فعارض السنوسيون وكان هذا مبدأ سوء التفاهم بينهم وبين عزيز بك المصري ، وازداد سوء التفاهم هذا عندما وصلت الى عزيز المصري بعد ذلك برقية من الحكومة العثمانية تأمره بالانسحاب بمن معه من الضباط والجنود من برقة الى السلوم . حيث يجدون في انتظارهم باخرة عثمانية لنقلهم الى تركيا . فشرع عزيز المصري يتجهز للانسحاب بما كان لديه من قوة وسلاح وذخيرة ، نحو الحدود المصرية . وكان غرضه من الانسحاب بجنده النظامي وأسلحته أن يكون مستعدا لمقابلة الطوارىء في أثناء انسحابه الى السلوم .

ولكن هذا التصرف من جانب القائد العام لم ينل رضاء المجاهدين الذين عولوا على مواصلة القتال ضد جند ايطاليا ، فساءهم أن يخرج عزيز المصري بجنده النظامي ، وأن يحرم المجاهدون الأسلحة والذخائر الذين كانوا بحاجة شديدة اليها بسبب انقطاع الموارد عنهم . فطلبوا الى القائد المنسحب أن يسلمهم الأسلحة والذخيرة ولكنه رفض لأسباب منها — كما قيل — ان تسليم الأسلحة التي مع عسكره الى العرب لا تتفق مع الأصول الحربية التي تقضي بعد انعقاد الصلح بين تركيا وايطاليا بألا يسلم العسكر العثماني أسلحته لأعداء ايطاليا ، زد على ذلك انه كان فيما يفعل يذعن للأوامر التي وصلته من حكومة الآستانة . بيد أن ذلك كله لم يكن ليقنع المجاهدين الذين عندما يئسوا من تسلم الأسلحة سلما ، أرسل السيد أحمد الشريف لأخذها عنوة السيد عمر المختار . ولكن قبل وصول السيد عمر كان المجاهدون من قبله قد أطلقوا الرصاص على الجند المنسحبين ، وكان هؤلاء قد خيموا في (دفنه) غربي السلوم فصـمدوا لهم ومن ثم

نشبت معركة حامية فسقط من العرب أكثر من الستين قتيلا ، وتقاطرت جموعهم من كل جهــة بغيــة الانتقام من (عزيز المصرى) وعســكره فى (دفنة) و (البطنان) وكاد يحدث الصدام كبير ، لو أن (عزيز المصرى) استطاع الوصول الى السلوم وفى ١٦ يولية ١٩١٣ بلغ الاسكندرية ومنها ذهب الى الآستانة ٠



وهكذا أحاطت الصعوبات بالمجاهدين فى طرابلس وبرقة من كل جانب ٠ فانه الى جانب قطع الموارد عنهم من جهــة تونس ومصر ، فقد انسحبت القوة التركية العاملة فى برقة والجبل الأخضر بكامل معداتها ، وبقيت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة لهجوم العدو ٠ وفى هذه الظروف الشديدة صمد السنوسيون فى وجه الطليان ، ثم أسندت قيادة المجاهدين الى السيد عمر المختار ولم يتردد هذا المغوار فى قبولها فشكل جيشا وطنيا جعل من خطه التزام الدفاع والتربص بالعدو حتى اذا خرج الطليان من مراكزهم انقض المجاهدون عليهم فأوقعوا بهم شر مقتلة وغنموا منهم أسلابا كثيرة أمدتهم فى الحقيقة بأكثر الأسلحة والعتاد ودواب النقل مما كانوا فى حاجة ملحة اليه جميعه) ٠

ولأهمية موضوع انسحاب عزيز على المصرى من طرابلس الغرب وبرقة ، نفرد له الفصل التالى ٠

★★★

الفصل الثانى

لماذا انسحب عزيز على المصرى من الحرب

كانت جريدة الشعب ـ لسان حال الحزب الوطنى ـ أول من أثار ، وعلى نطاق واسع ، موضوع انسحاب عزيز على المصرى من ميدان القتال فى طرابلس الغرب وبرقة ، وكان ذلك فى مقال للأستاذ أمين الرافعى ، رئيس التحرير ، وقد أشار فى بداية مقاله الى أن البعض كان يرى أن عزيز بك ، ما كان له أن يعود من الميدان مهما تشددت تركيا فى أمر عودته • وكان عزيز على المصرى ـ فى رأى هذا البعض ـ يستطيع أن يكتفى بارسال الجنود النظامية التى معه ويبقى هو مع العرب كما أشار أن البعض من رجال السياسة ، كان يذهب الى أن مصلحة تركيا تقضى عليها بأن يبقى عزيز بك وجنوده النظامية فى طرابلس لأن بقاءهم فيها يحمل الايطاليين على ابقاء ـ بعض جزر البحر الأبيض المتوسط فى أيديهم وعدم قبولهم طرح مسألتها على مؤتمر السفراء لأن المؤتمر اذا نظر فى أمر هذه الجزائر أيضا وقرر اعطاءها لليونان كان هذا بمثابة القاء ايطاليا سلاحها الذى تهدد به تركيا فتصبح هذه وقتئذ فى حل من مخالفة أحكام معاهدة أوشى المتعلقة بالنقطة التى نحن فى صددها •

ولا يخفى أن الحكومة الايطالية والرأى العام الايطالى كانا يعارضان أشد المعارضة فى أن تكون الجزائر التى فى أيدى الايطاليين من اختصاص مؤتمر السفراء •

ويشير الأستاذ أمين الرافعى فى مقاله الى منشور أذاعه الحزب الوطنى الايطالى بخصوص الجزائر ، التى احتلتها ايطاليا وكانت تحت يد تركيا ، وكيف أن مسألة هذه الجزائر يجب أن تحل على قاعدة معاهدة أوشى وتبعا للمصالح الايطالية بدون أن يسمح للدول الأجنبية الأخرى بالتداخل فيها •

ويعتبر الحزب الوطنى الايطالى أن تنازل ايطاليا عن الاثنتى عشرة جزيرة يعتبر خطأ أكبر من الخطأ الذى ارتكبته بتنازلها عن كسلا لانجلترا ٠ ويقول الأستاذ أمين الرافعى معقبا على ذلك البيان : فمصلحة ايطاليا اذن فى ابقاء هذه الجزائر فى يدها أى عدم طرحها على بساط البحث فى مؤتمر لوندره ما دام مثل عزيز بك وجنوده النظامية فى طرابلس أما اذا تركها فهناك تعيدها لتركيا فيكون شأنها شأن بقية الجزائر محلا للبحث فى مؤتمر السفراء ٠

وعلى ذلك يكون الرأى القائل بأن تركيا هى التى أرغمت عزيز بك على ترك طرابلس قبل ان ينتهى مؤتمر لندره من مهمته قابلا لنسك عقليم لأن هذا الارغام ليس فى مصلحتها كما بينا ٠

***

وهناك فريق يرى أن سفر عزيز بك كان نتيجة لمخابرات دارت بينه وبين قائد الجيوش الايطالية فى درنة ولقد أشارت الطان فى ٢١ الجارى الى ذلك حيث قالت ان مكتبها فى روما أرسل اليها تلغرافا قال فيه : « انجلى الأتراك عن برقة حقيقة فمنذ عدة أيام دارت مخابرات بين عزيز بك القائد التركى لجنود البدو وبين الجنرال سلسا قائد درنه الايطالى بخصوص سفر الضباط والجنود العثمانيين الذين فى برقة وقد نجحت المخابرات ففى ١٨ الجارى ترك خمسون ضابطا و٧٠٠ جندى تركى معسكر (بطانجى) (كذا) تصحبهم قافلة كبيرة ووجهتهم السلوم ومنهـا يذهبون الى مصر ليبحروا الى سوريا » ٠

***

ذلك ما قالته الطان فى سبب سفر عزيز بك وهو قول يجب ألا يتردد الانسان فى تكذيبه لان العارفين لعزيز بك والمطلعين على جهاده هناك فى هذه الحرب يرون فيه رجلا شريفا لا تؤثر فيه كلمات أعدائه الذين كان يضحى بكل شىء فى سبيل مقاومتهم ولقد كان يحدث نفسه بالاستمرار على محاربتهم الى الأبد فغير معقول أن يعود ويمد يده الى واحـد منهم ٠٠ !! ولا نظن أن هذه الاشاعة تجد مجالا للذيوع ٠٠

ويقول فريق ثالث ٠٠ ان عزيز بك رأى نفسه غير مسموع الكلمة ووجد أن عدم تنفيذ بعض أوامره يجعل موقفه الحربى حرجا فلم يجد مندوحة عن الرحيل لاعتقاده ان استمرار هذه الحال تحول بينه وبين القيام بمهمته ويفسر أصحاب هذا الرأى رأيهم بقولهم : ان عزيز بك وجد بين العرب بعضا من الخونة الذين كانوا عيونا للايطاليين وقد أثبت ذلك عليهم ،

فلما أراد معاملتهم بما تقتضيه القوانين العسكرية حيل بينه وبين ذلك وقد تكررت معه هذه الحوادث فمن ذلك ان الجنود الأمامية التى كانت فى بنغازى ضبطت مرة رجلا عربيا آتيا من المدينة « بنى غازى » فقادته الى عزيز بك فوجد معه جوابا من القائد الايطالى يوصى فيه حراس المدينة بأن يتركوا هذا الرجل يمر دون أن يلحقوا به أذى لعلاقته بالايطاليين .

وعلم فى الوقت نفســه ان لهذا الرجل علاقة بالخائن الذى أدخل الايطاليين مصراطه بدون مقــاومة فلم يجد عزيز بك بدا من الحكم عليه بالاعدام . ولكنه لم ينفذه فى الحال بل أبقاه ثلاثة أيام فى احدى الخيم تمكن فيها كثير من العرب من تهريبه فأهاجت هذه الحادثة عزيز بك الى درجة أنه قرر مغادرة ميدان القتال لولا ما بذل وقتئذ من المساعى التى حملته على العدول عن رأيه .

ولا يبعد أن يكون تكرار هذه الحوادث ذات النتائج الخطرة مما حمل عزيز بك على السفر لا سيما وقد سمع أنه طالما سعى فى اقناع العرب بخيانة رجل كبير من بينهم وكثرة تردده على ايطاليا فلم يقبل العرب أن يسمعوا لهذا الكلام لاعتقادهم ان ذلك الرجل ما كان يذهب الى ايطاليا وانما كان يذهب الى المدينة المنورة كما كان يشيع عن نفسه .

***

وشاع أيضــا أخيرا أن رجلا آخر ذا شأن بين العرب ضبطت معه رسائل تفيد أنه يستطيع أن يحمل العرب على مسالمة الطليان اذا دفعوا اليه مالا طائلا ولابد أن يكون عزيز بك ــ اذا صحت هذه الاشاعة ــ قد طلب اعدام هذا الرجل فلم يسمح له العرب أيضا لما لذلك الرجل من المكانة الكبيرة لديهم فاحتدم الخلاف بين الفريقين حتى أدى الى ما رأيناه .

***

وقصــــارى القــول أن الأقوال متضــاربة والاشاعات مختلفة فمنها ما لا يمكن الانسان الجزم بصحته ومنها ما يحتمل الشك ومنها ما يقتضى التكذيب .

والذى يهمنا الآن ألا يكون لسفر عزيز بك وجنوده تأثير فى مقاومة العرب وأن يظلوا على جهادهم تحت قيادة السيد السنوسى مستبسلين فى الدفاع عن وطنهم ودينهم مستمعين لصوت الله ولصوت الواجب والضمير لان البلاد بلادهم وهم أول المطالبين بالدفاع عنها وعلى العالم الاسلامى أن يشد أزرهم بالمال والرجال ما استطاع الى ذلك سبيلا .

واذا كان ينقص قوة المجاهدين ضباط يحسنون قيادة هذه القوة فبين المسلمين من يستطيع القيام بهذه المهمة فيبادر بالانضمام اليهم قياما بواجب مقدس هو الدفاع عن وطن اسلامى لا يجوز أن يتحكم فيه الأعداء أو يستولوا عليه لقمة سائغة .

***

وفق الله الغيورين على دينهم الى القيام بهذه المهمة الشريفة » .

ويعود الأستاذ أمين الرافعى ـ فى الشعب أيضا وبتاريخ ٣٠ يونيو ١٩١٣ ـ الى الحديث عن موضوع عودة عزيز بك ..

وقد قدم أمين بك المقالة الثانية تلك بقوله : ان هناك أنباء جديدة قد تواترت وأنه لم ير بدا من ايرادها لان فيها شرحا وافيا لما ذهب فيه الناس مذاهب مختلفة .

وكان الرافعى قد قال ـ فى مقدمة مقاله أيضا : سيرى القارىء ان مصائبنا ليست الا من أنفسنا وان داءنا فينا ، فاذا ظللنا على هذه الحال بقى مستقبلنا مظلما لان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... الى أن يقول : لقد مرت على المسلمين أجيال عديدة كانوا فيها خاضعين لسنة واحدة ولقاعدة واحدة ففى أدوار نهضتهم ، كنت تراهم متحدين ، يخلص بعضهم لبعض ولا يركن أحد منهم للأجنبى فاذا تنكبوا هذا السبيل وولجوا سبيلا غيره تمكن منهم الأجنبى ونال منهم بأيديهم ما لم يكن يحلم به لو بقيت كلمتهم متحدة لا يمد جماعة منهم أيديهم للعدو الواقف على الأبواب .. !!

***

قلب صحف التاريخ وتنقل دولة فدولة وعصرا فعصرا تر أن أعداء الاسلام ما أفلحوا فى مناهضة المسلمين بأنفسهم وانما أفلحوا باستخدام الخائنين منا البائعين دينهم بدنياهم والذين يشترون الضلالة بالهدى والعاجلة بالآجلة .

هاجم الايطاليون طرابلس على غرة من أهلها ومن الحكومة العثمانية فظنوا أنهم لا يلبثون يوما أو بعض يوم حتى يستولوا عليها ولكن اتحاد كلمة المسلمين أراهم كذب ظنهم فقاومت هذه الولاية مقاومة أكبرت أوروبا من شأنها وخلدت لها فى بطون التاريخ صحفا بيضاء تحسدها عليها كثير من الأمم القوية ذات الأساطيل الضخمة والجيوش الجرارة .

عجزت ايطاليا عن أن تنال بغيتها من هذه الولاية ولم تفدها مخترعاتها

الحـديثة ولا جيوشها النظامية ولا أسلحتها الفاتكة فلجأت الى موضـع الضعف في أعدائها الذى كان ولا يزال سببا فى تدمير الممالك الاسـلامية الواحدة تلو الأخرى ، لجأت الى المال تشترى به نفوس الخونة ، وقد وجدت في شيخ زاوية طلميته (وهو الشيخ التواتى الكابلى) أكبر نصير لها فى تحقيق رغبتها ٠

وطلميته هـذه هي ميناء جهـة « المرج » التى كانت تعد بالنسبة للايطاليين أصعب منالا لهم من « عدوة » ٠

ولقد شعر عزيز بك المصرى منذ زمن طويل ما طويت عليه نفس شيخ هذه الزاوية فأبعده عن ميناء طلميته ووضعه تحت المراقبة الشديدة ولكن هذا الشيخ تمكن بدهائه من مساعدة الايطاليين وكان يعاونه فى ذلك أخوه الشيخ عبد الله وآخـر اسمه الشيخ بشير بوكتف وبفضل هـؤلاء وأتباعهم أخذ الايطاليون يتقدمون الى الأمام فلما بلغ عزيز بك أنباء هذه الخيانة قدم من معسكر بنى غازى الى جهة المرج وجمع مشايخ القبائل وخطب فيهم مقبحا عمل الشيخ التواتى مشجعا اياهم على الدفاع عن بلادهم حتى يفشل تدبير الخائنين ٠

★★★

وبينما عزيز بك يعد للدفاع عدته اتصل به نبأ هجوم الايطاليين على جيش بنى غازى المعسكر فى عزيزية فبادر بالتوجه الى تلك الجهة حتى اذا أدرك فى طريقه جهة تسمى (الأبيار) وجد ان الخونة نجحوا فى ارتكاب جريمتهم اذ رأى القوة المجاهدة متقهقرة منهزمة فما زال بها حتى تمكن من ردها مرة ثانية حتى وصل الى قمة جبل تسمى (الرجمة) وهى تبعد مسافة ساعة من موقع العرب القديم ومسافة ست ساعات من (الأبيار) التى كانوا ارتدوا اليها أى ان عزيز بك تمكن من التقدم بالجنود الى الأمام مسافة ست ساعات وهناك حدثت الموقعة التى انتصر فيهـا المجاهدون بقيادة عزيز بك ٠

★★★

وعقب ذلك انتقل الأخير الى زاوية القصور عملا بخطة حربية رسمها لنفسه وشيخ هذه الزاوية من السنوسية ويدعى سيدى عمر المختار وهو من الرجال العاملين اشتهر بشجاعته ووطنيته وتمسكه بدينه وقد نصح لعزيز بك بعدم الثقة بمن فى هذه الجهة من مشايخ القبائل وعلى أثر ذلك انتقل القائد الى موقع القيقب (الجيجب) بصحبة ذلك الشيخ وعلى بك عبيدة قائمقام المرج حتى وصلوا الى (مراوة) وطن قبيلة البراعصة ونزلوا

عند شيخ تلك القبيلة ابتغاء نفوذه لتشجيع العرب على المقاومة وللدفاع عن هذا الموقع لما له من الأهمية ولكونه طريق الطليان الى داخلية البلاد ٠

ثم رأى عزيز بك بعد أن تعذر عليه تكوين جيش للدفاع عن تلك الجهة أن يرجع الى معسكر درنة خشية أن يستولى عليه الطليان فى غيبته فيقضوا على حركة المقاومة القضاء الأخير ٠

وقد كان من وراء خلو الجو للايطاليين ومساعدة بعض الخونة لهم أن تمكنوا من التقـــدم الى المرج ثم الى (مراوة) ومنها الى (تكنس) و (سيره) و (سلنطه) و (شحات) و (سوسه) ٠

★★★

استولى الايطاليون على هذه المواقع بغير مقاومة فاستولوا بذلك على نصف دائرة من داخلية البلاد يبتدىء طرفها الأول عند جهة المرج (التى خرجوا منها بمساعدة شيخ زاوية الطلميثه الذى أتينا على ذكره آنفا) وينتهى عند سوسه ٠

وفى تلك الأثناء وصل سيدى أحمد الشريف السنوسى الى ميـدان القتال فكان ذلك سببا فى تشجيع العرب فوقعت تلك الموقعة المشهورة (بواقعة الجمعة) التى اعترف الايطاليون بخذلانهم فيها ، وكان لعزيز بك يد طولى فى ذلك الانتصار الذى انتهى بغنيمة أربعة مدافع وعدد كبير من البنادق والذخائر حتى كان العربى يعود من ميدان القتال وهو حامل عشر بنادق ٠ وقد بلغ عدد أسرى الطليان ٢٣ بينهم ضابط واحد فأرسلوا الى زاوية العزيات بناء على اتفاق بين عزيز بك والسيد السنوسى ٠

ولقد كانت خيانة شيخ زاوية الطلميته وما أدت اليه هذه الخيانة من الجنايات الكبرى باعثا لعزيز بك على التشدد فى مراقبة مشايخ الزوايا الآخرين فطلب من سيدى أحمد الشريف السنوسى أن يخوله سلطة عزل وتعيين من يريد من هؤلاء المشايخ فقبل السيد السنوسى ذلك ٠

فساء المشايخ هذا الأمر وحقد بعضهم على عزيز بك ووجد جواسيس الطليان من العرب والراغبون فى ايقاع النفرة بين القلوب مجالا لدسائسهم وسعاياتهم فنجحوا لسوء الحظ اذ ساعدتهم الظروف على ذلك ٠

بدأت حوادث سوء التفاهم من يوم أن انتقل السيد السنوسى الى جهة (بشارة) وتفصيل ذلك أن القائد عزيز بك لما لحقه للتشاور معه وكل أمر القيادة بالنيابة عنه فى معسكر درنة الى ضابط اسمه صالح أفنـدى ٠

★★★

فما لبث هذا الضابط فى مركزه قليلا حتى أصدر الأوامر بالتقهقر من موقع المعسكر والاتجاه الى (بشارة) فلم يقبل العرب ذلك فقال لهم ان عزيز بك هو الذى أوعز اليه تلغرافيا بهذا الأمر فهاج المجاهدون لذلك وبدأ الشك يتطرق اليهم بالنسبة لعزيز بك وللجنود النظامية ولكن عزيز بك بادر بالرجوع وهدأ الخواطر وأصلح ذات البين ، بيد أن سوء التفاهم بقى له أثر فى النفوس لان عزيز بك لم يخض فى مسألة ما اذا كان هو الذى أمر الضابط صالح أفندى بالتقهقر أو لم يأمر ٠

وكان قد نما الى عزيز بك أن هناك مكاتبات دائرة بين سيدى هلال أخى السيد السنوسى (وهو شاب فى العشرين من عمره) وبين الايطاليين (بدون علم السنوسى) فأصدر أمره الى ياوره الضـــابط رمزى أفندى بمراقبة الكتب الواردة باسم سيدى هلال فتمكن بهذه الوسيلة من ضبط كتب تفيد أن فى استطاعة ذلك الشخص حمل العرب على التسليم فى مقابل مكافأة مالية ذات شأن ولما علم الأخير بأمر هذه المراقبة أمر بسجن الضابط رمزى أفندى بمعسكر (الجيجب) ولكن عزيز بك طلب الافراج عنه من السيد السنوسى الكبير فأجيب الى طلبه ٠

لم تقف الحوادث عند هذا الحد بل أبت الظروف أن تزيد ســوء التفاهم بين الفريقين اذ طلب عزيز بك من شيخ زاوية العزيات أن يرسل اليه أسرى الطليان الذين عنده فأبى الشيخ ذلك وقبض على من حضر لاستلامهم منه فغاظ هذا التصرف عزيز بك وأرسل قوة نظامية حاربت شيخ الزاوية فقتل فى هذه المناوشة جندى وجرح اثنان وقتل من رجال الزاوية ثلاثة فاتخذ مشايخ الزوايا وسيدى هلال هذه الحادثة وسيلة لتنفير السيد السنوسى من عزيز بك وقد وصلوا الى شىء مما سعوا اليه وأخذ سوء الظن يعظم شأنه بين الفريقين حتى انصرف كل فريق الى مراقبة الآخر واتهامه بأنه يريد التسليم واتســع مجال العمل لمأجورى الطليان الذين نجحوا فى توسيع دائرة الخلاف ٠

***

فضاق عزيز بك ذرعا ورأى ان يعقد مجلسا عاما يجمع مشايخ العرب ليضع حدا لهذا الأمر فعقد المجلس بمعسكر درنه وأجاب السيد السنوسى دعوة عزيز بك اذ أرسل سيدى عمر المختار نائبا عنه وقد كانت أقوال السنوسية دائرة حول الاستفسار عن تجسس رمزى أفندى فى الجيجب وعن صدور أمر الضابط صالح أفندى برجوع الجيش الى بشارة وعن طلب عزيز بك وحدة أسرى الطليان من العزيات مع أنهم سجنوا هناك بأمر السنوسى وعزيز بك معا ثم التجاء الأخير الى القوة فى طلب هؤلاء الأسرى ٠

وقد كان في استطاعة عزيز بك ان يظهر الكتب التى ضبطها لا سيما ما يختص منها بسيدى هلال ولكنه رأى ان المسألة يكبر شأنها لأن اتهام مثل أخي السيد السنوسي بما ورد في كتبه مما لا يصدقه أحد من السنوسيين لأنه طالما أثبت لهم ان أحد الخونة كان يذهب الى ايطاليا ويمكث فيها زمنا طويلا لوضع التدابير اللازمة فما كانوا يصدقونه بل كانوا يصدقون ذلك الخائن الذى كان يدعى أنه آت من المدينة فى حين أن بعض السنوسيين ذهبوا الى المدينة فى الوقت الذى كان يدعى أنه ذهب اليها فيه ولم يجدوه وشهدوا بذلك ٠

رأى عزيز بك أن مثل هذا الاتهام يوغر عليه صدور جميع السنوسيين فيؤدى ذلك الى مالا تحمد مغبته فاقتصر على المطالبة بأن يضمن السيد السنوسي تدبير المؤن والذخائر للجيش المحارب ولا سيما للجند النظامى فرفض طلبه واشتد الهرج وانفض الاجتماع على غير طائل ٠

***

فوجد عزيز بك ان بقاءه على هذه الحالة مستحيل ما دام سوء التفاهم بلغ بينه وبين العرب الى هذا الحد وصمم على الرحيل ولقد طلب العرب ان يبقى الضباط معهم ولم ير عزيز بك فى ذلك ضيرا ولكن الضباط أبوا الا أن يرحلوا مع رئيسهم فرحلوا تاركين ما فى مخازن الجيش من مئونة وذخيرة وأسلحة ٠

ولقد صادف عزيز بك فى الطريق شيئا من الصعوبات لأن بعض العرب اعتقدوا أنه ما دام حصل خلاف بينه وبين رئيسهم فلابد أن يلحقوا به أذى فكانوا يطلقون على جنوده بعض طلقات متقطعة حتى اذا وصل الى دفنه حدثت بينه وبين العرب المقيمين هناك معركة لأن شيخ الزاوية هناك معروف بكراهيته لعزيز بك وقد قتل فى هذه المعركة ضابط من ضباط عزيز بك وسبعة عساكر وجرح ثلاثة ضباط و ٢٦ جنديا أما العرب فقد قتل منهم مائة ٠

***

تلك بعض الأنباء التى اتصلت بنا عن سبب الخلاف بين السيد السنوسي وعزيز بك تتلخص فى أن الطليان تمكنوا من استئجار بعض الخونة فكانت هذه الخيانة دافعة لعزيز بك على اتخاذ بعض تصرفات رآها ضرورية باعتباره قائدا حربيا فأدت هذه التصرفات الى ايجاد سوء التفاهم بين الفريقين فوجد المأجورون مجالا للاستفادة من هذه الظروف وما زالت أيديهم تعمل حتى تمكنت النفرة من النفوس وأدت الى ما نراه الآن ٠

على أن هذا لا يمنعنا عن ان نأمل فى استمرار المجاهدين على المقاومة تأدية لواجبهم وانا نعتمد على حكمة السيد السنوسى فى تحقيق رغبة المسلمين فى أن تبقى تلك الأراضى اسلامية كما كانت ولا تزال اسلامية ·

وعسى ان يبعد السنوسيون من بينهم كل من لا يجوز التصاقه بهم ·

كما نكرر الرجاء الى من يستطيع من ضباط المسلمين طالبين منهم ان يكونوا فى مقدمة المؤازرين لقوم يدافعون عن دينهم واستقلالهم · وان عدم اتفاق عزيز مع السنوسى فى آخر الأمر لا يمنع اتفاق غيره وكفى عزيز بك ما قام به فى أثناء تلك المدة الطويلة ·

ولتكن لهم قدوة حسنة فى الضباط الذين قضوا عامين فى تلك البقاع وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ·

وتنشر الشعب — فى ١٨ يوليو ١٩١٣ — حديثا لوكيلها بالاسكندرية مع عزيز بك ، كان أول حديث أجراه عزيز بك حول انسحابه ، من الميدان ، أو حول رجوعه من برقة · وقد جاء فى مقدمة ذلك الحديث ما يلى :

★★★

« ما كاد يذاع خبر عودة عزيز بك المصرى من ميدان القتال حتى كثر القيل والقال واختلفت الروايات بشأنه وحامت الظنون حول الأسباب التى دعت الى رجوعه بعد ان كان مقررا أنه سيبقى فى برقة أميرا مستقلا يدير حكومتها العربية على نظام عصرى يأتلف وعادات العرب بالاتفاق مع السيد السنوسى · ولقد كان هذا التضارب فى الروايات منتظرا بعد أن شاع أن محاميا شرعيا له صلة ببعض الصحفيين المسلمين قصد الى برقة بمهمة قيل انها من قبل الوكالات القنصلية وقيل انه مكلف بها من بعض المقامات ، وأن هذا المحامى يمنى نفسه بالغنى اذا هو استطاع اقناع عزيز بك بأن يطوى صحيفة الآمال الكبار التى يعلقها المسلمون على جهود مجاهد مثله بين البدو فى برقة · من أجل ذلك كثرت الأقوال وتباينت وما كان أحد يستطيع أن يجزم بالصحيح منها ·

ولقد جاءتنا رسالتان منذ يومين احداهما من سعادة الأمير شكيب أرسلان كتبها فى بيروت اعتمادا على معلوماته يوم كان مع عزيز بك فى برقة يعملان على صد الطليان مع المجاهدين من العرب السنوسيين ، والثانية موقع عليها من مكاتبنا فى السلوم حضرة حامد أفندى شاكر ومصدق عليها من حضرة الملازم الثانى شوقى أفندى أحد الضباط المجاهدين فلم نشأ أن ننشر الرسالتين الا بعد ان تقابل وكيلنا السكندرى مع عزيز بك وسمع أقواله » ·

★★★

وتنشر الشعب نص الحديث كما رواه عزيز المصري لوكيل الشعب السكندري : قصدت عزيز بك في منزل أحد أصهاره (أسرة ذو الفقار باشا برمل الاسكندرية) فتفضل بمقابلتي على انفراد وهو في نحو الخامسة والثلاثين ، متوقد الذهن ، عصبي المزاج ، يتأثر كثيرا اذا سمع شيئا مما ينسب اليه من الروايات ، ولهجته مصرية يخالطها شيء من لهجة البدو ، وقد شكرته على دفاعه عن البلاد العربية فقال : هذا واجبنا نحو انفسنا ، وكنا نود أن توجد نتيجة يصح معها القول بتكليل مسعانا بالنجاح ولكن هذه ارادة الله ... قلت : وهل يمكن التفضل باعطاء بعض التفاصيل عن أحوالكم مع العرب والسنوسية ؟ فصار يحدثني وأنا أصغي الى كل موضوع وألقى كل آونة بنظرة على مذكرة جمعتها من مصادر مختلفة عن تلك الأحوال التي قصدتها بسؤالي . وكلما حاولت أن أقرب بين حديثه وما هو مدون عندي أرى هوة الخلاف تتسع بينهما حتى لم يسعني غير طي تلك الصحيفة التي كانت كلها متناقضات وايداعها في جيبي . ولما لاحظ ذلك قال : قد قرأت في « الشعب » كثيرا من حوادث الحرب وما يدور حول رحلتي من درنة ، فكنت آسفا لوصول الحقائق اليكم مشوهة بل ومعكوسة تماما ، على أني وقد تعودت الصراحة في القول - ويعلم الله قدر اخلاصي في مهمتي - كنت أضيق ذرعا من وصول الأمر الى هذا الحد من التشويه خصوصا في مسألتي مع السيد السنوسي والعرب ، لا أرى ما يشفي الغليل الا أني اتفرغ لكتابة شيء من ذلك وهذا ما أرجوه عندما تساعدني صحتي التي تأثرت مع المشاق والأسفار » .

قلت : وما الذي ترغب مني أن أجعله خلاصة حديث اليوم تمهيدا لما سيأتي بعده اذ لا أجد من الوقت أيضا أن أكتب الليلة كل ما سمعته منك مع التفصيل الجدير به .

★★★

قال : يمكنك أن تقول ان رحلتي كانت لابد منها بعد ان تبين لي من بعض مشايخ السنوسية بل والسنوسي أيضا عدم تقدير مجهودي أنا ورجالي النظاميين وعدم الاعتداد بملاحظاتي عن تقصير بعض قبائل العرب في واجبهم نحو بلادهم وكثرة الخونة من بينهم على أني لا أغمط حق قبائل كثيرة في حسن الاخلاص كذا بعض مشايخ السنوسية ، ويمكنك أن تقول أيضا ان الاسلام في حاجة قصوى الى رجال مستنيرين بنور العلم الصحيح حتى يعملوا على هدى في أمورهم ولا يتطرق الخلل الى أعمالهم .

ويقول وكيل « الشعب » السكندري ان زوارا آخرين دخلوا علينا فانقطع الحديث .

وقد اتهم عزيز بك مندوب « الشعب » السكندري — في المؤيد — بأنه نشر الحديث دون موافقته — موافقة عزيز بك — على النشر .

***

أما رسالة الأمير المصلح والكاتب العثماني الكبير — كما قالت « الشعب » — فقد كانت بعنوان « الجهاد مستمر » . وقد نشرت في يوم الجمعة ١٤ شعبان ١٣٣١ — ١٨ يوليو ١٩١٣ وقد جاء فيها : « سواء كان عزيز بك المصري مخطئا أو مصيبا في الخلاف مع السيد السنوسي أو كان مصدر الشقاق هو من قرناء الاثنين وكان قد شك في حسن نية كل منهما ، فاننا في هذه القضية لملتزمون حكمة ..

واول التشاجر الذي ورد ‎ ‎ ‎ ‎ أن خضت فيه واجتنب داء الحسد

ونقول أيضا في شأن الذين سقطوا قتلى من جنود عزيز بك ومن جماعة السنوسي في مسألة رد الأسرى الى الطليان في زاوية القريات ومن أجل السلاح في موقع دفنة ، ما قيل في المتشاجرين من السلف الصالح ان كلهم مجتهد وكلهم صالح وكلهم له أجر .

***

والمهم عندنا ان لا يتطرق الخلاف إلى العرب ولا نشق عصا الجماعة في هاتيك البقعة اذ من المعلوم ان الطليان لم يقدروا ان يزحفوا الى المعسكر العربي في الغيض أمام بني غازي الا على طريق الفتنة بين القبائل ، وانهم ابتدأوا أولا باستمالة البراغشة بواسطة عائلة نجم وبذلك تمكنوا من احتلال قرية الكويفية ، ثم سعوا في فض أكثر الجموع العربية التي كانت مخيمة في صحراء الغيض ، ولما لم يبق هناك سوى ألف وخمسمائة مجاهد وعرفوا خفة الجيش وأرسل اليهم أحد الضباط الخائنين من أهل تلك البلاد بأن الفرصة سانحة تقدموا على غفلة فأخذوا المعسكر وأباحوا ما شايعهم من العرب نهب السوق وهكذا عبروا الى غايتهم من تلك الناحية على جسر الخلاف بعد أن كانوا لا يتصورون أصلا أخذ هاتيك المواقع بالقوة وكانت المعارك تقع بينهم وبين العرب في الفويهات وسواقي عثمان وقريونس وغيرهما مما لا يبعد عن نفس مدينة بني غازي أكثر من نصف ساعة ومما هو تحت مرامي المدافع الهائلة من الستة عشر استحكاما التي اداروها حول تلك البلدة، وكان الجنرال أمليو وغيره من قواد الطليان يقولون لحكومتهم ان تقدم الطليان الى الأمام من جهة بني غازي هو محض جنون فالذي كانوا يريدون محاولته جنونا وهو رمي العرب الى الوراء بقوة قد تحقق لهم فيما بعد بدون قوة على أهون سبب بعزيمة الأصفر الرنان ، وبسحر الوشاية الفتان وبايقاد الحمية الجاهلية بين القبائل وكما أنهم استولوا على

ضواحي بني غازي بفساد بعض متابعيهم من المسلمين وبالفتنة بين فرق العواقير وكذلك استولوا على قصبة المرج والهاء بعض أهليها من الخونة ومهد لهم الطريق اليها التواتي شيخ زاوية طلميشه الذي أنزلهم ساحل طلميشه ووفق بينهم وبين أعرابها فكان دخولهم المرج البعيدة نحو خمس ساعات عن البحر واستيلائهم على قصرها الذي كان أنور وعزيز رمماه وشيدا فيه المباني هو بدون حرب تقريبا مع ان الطليان لم يكونوا يحلمون في منام بوصولهم الى المرج ، وقد كانت عليهم أمنع من عقاب الجو بمكانها وتوسطها بين العرفا ، والعبيد من جهة وبين العواقير من جهة أخرى وكنت مرة أنهى عزيز بك المصرى عن وضع المؤن فى المرج لقربها من البحر وامكان السير اليها من طليمشة فأوضح لى أنه اذا كان الطليان بعد حرب حول كامل عجزوا عن أخذ قرية الكويعية التى هى فى آنف بني غازي فما بالك بالمرج هذه وهى فى الجبل الأخضر الا ان المنون أثمر ما لم تثمره الأسياف والمفاسد جنت ما لم تجنه المدافع ، فدخلوا المرج بدون قتال الا بعض طلقات أطلقها الخارجون من أهلها والستون جنديا الذين كانوا فيها ولولا خيانة التواتي شيخ طليميشة وبعض ضباط من العرب وبعض الشيوخ الخاسرين من أهل المرج لكانت خيالات الطليان لا تحوم على المرج فى ظلام ولكانت أمانيهم لا تتناول المرج ولا فى الأحلام .

***

ولقد شجع الطليان فوزهم في نواحي بني غازي بواسطة التفريق والفتنة أن يهاجموا معسكر درنة الذي هو مركز القوة العربية مقدمين بين يدى جيشهم الحربى الذى أنزلوه فى عدة مواقع جيوشا من المفاسد وجحافل من الغوايات من شأنها استنزال أثبت العقول على حكمهم واستدراج الأحلام الى الوقوع فى أشراكهم فألفوا عداوات وآثاروا ضغائن وبثوا أشراكا وتصبوا خطاطيف كادت أن تزل بها الأقدام وتتدهور القوائم واذ ذاك طلع بدر السيد أحمد الشريف من ثنايا الصحراء مبادرا الى استدراك الأمر وعاملا على سد الخلل وازاحة العلل واجتمع لديه ولدى عزيز بك المصرى سببان رجحا غيرهما مذهب سحب العساكر النظامية الباقية هناك أولها قطع حجة ايطاليا من جهة الجزر ورفع أعلام الدولة التى لم تفتأ تطالب عزيز بك بالانصراف مع عساكره ، والثانى رفع ما ثار بين جماعة كل منهما من غبار الخلاف الذى أدى الى سفور ما بينهما وآل الى الشقاق فى الصف الذى ينبغى ان لا يبرح كالبنيان المرصوص فاختار عزيز بك الرحيل وانصرف الجند النظامى من ساحة الحرب وأهاب السيد السنوسى رضى الله عنه بطوائف العرب ونادى بيالثارات الاسلام فثبت قلوبا وصحح عقائد وقوم مسالك وأرسى قواعد وعادت الحرب أشد

مما بعث وتكاثرت جيوش الطليان وتكاثرت بازائها صفوف المجاهدين وتتابعت الوقائع واحمر البأس وصــدق المسلمون في الحملات على قلة ذخائرهم ونزور مادتهم فكشفوا الطليان من أماكن عديدة كانوا احتلوها ووردت الأخبار وانجلى الغبار عن هزائم فتت في أعضادهم ومعارك لاحت فيها بوارق الاقرار من بين غمام الأفكار مما تلبد في أفق جلادهم وقد زعم بعض المفسدين ان العرب استسلموا للعدو وبأن السنوسي سيرضى بالكفرة وجغبوب وقضاء جالرو ويعقد الصلح مع الطليان ويأخذ جانباً من المال ٠

***

ووصل الافتراء بالمفسدين الى ان وضعوا هذه الأحاديث على لسان عزيز بك نفسه وفضلا عن كون عزيز بك علي هو أجل وأشرف من أن يعزو مثل هذه المآرب للسيد السنوسي الذي لم يختلف اثنان عن صفاء جوهرة وزكاء عنصره فقد رأينا بأعيننا برقيات من أمير برقة السابق الى بعض اخوانه صادرة عن السلوم يقول لهم فيها أن الجهاد مستمر تحت امرة سيدي أحمد الشريف وان الحالة تتبدل ، ولعمري ان من يظن كون الشحناء تصل بعزيز بك علي الى ذلك الحد فانه يجهل من هو عزيز بك وما هي منازعه وما هو غرامه برفع شأن العرب وما هو عشقه لمحاسنهم وما هو مبــــده على ســــيئاتهم حتى أن المســيو ريمون مكاتب مجلة (الايكواستراسيون) الفرنسية الشهيرة قال : انه بينما يكون عزيز بك في أقصى درجات الضجر من مراجعات العرب الذين يريدون ان ينهوا اليه كل شيء وهو في معسكرهم كالذي كان فيه وبينما تجده يتبرم ويتأوه من معاشرتهم اذ تجده لأقل انتقاد يتوجه عليهم قام يناضل عنهم ويفيض بذكر محاسنهم ويلتمس وجوه المعاذير عن هفواتهم مما يدل على تمكن النزعة العربية من نفسه ، وانني لا أذكر له يوما شــعر فيه بمداخلة المفسدين من بني غازي من عائلة سليمان كبار العواقير فتوجس خفية من اتجاه العواقير الى الطليان بما لهؤلاء من المكانة في قومهم فجمع مشايخ العرب كلها وقام فيها خطيبا فقال لهم : انني أنبهكم الى مداخلات بعض المفسدين لا تجعلوا لها زيحا في ضمائركم اذا تخاذلتم وقعتم وقعة لا يقال بعدها لعلو وندمتم حين لا ينفع الندم وحل البوار بدينكم ومالكم وعزكم وشرفكم ، أقــول لكم ذلك وان كنت أعلم ان قلوبكم والحمــد لله ملأى بالاسلام وأن خواطركم معمورة بالألفة والاباء وذكر مجد الأجداد والآباء » ٠ فوالله لقد وجدته ذلك اليوم خطيبا فريدا كما عرفته في الميدان بطلا صنديدا ، وها هو يدعو من أراد أن يسمع بقوله ان الجهاد لا يزال مستمرا ولذلك فما دام الميزان هناك منصوبا والسيد السنوسي ومن معه يأبون

طاعة الطليان المعتدين على بلادهم القادم لأخذ ثاره منذ ١٢٠٠ عام فان الواجب المحتم على كل من فيسه ذرة من العربية أن يهب لنصرة اخوانه الذين يصطلون تلك النيران بصدور منشرحة وآمال في الله متفتحة حتى يعلم الطليان أنهم لا يتمكنون من الاستيلاء على تلك الديار الا اذا فنيت رجالات العرب بأسرها ، وسالت بجداول الدماء أباطح سهلها وأهاضيب وعرها ، فانه ان كان الطليان آتين لاقتضاء ثارات من أحداث وقعت منذ الف ومائتي عام فنحن معاشر العرب أشهر من الطليان في القيام بالثأر مما وقع منذ سنة وسنتين لا من ألف ومائتين .

مواطن اخوان ثملوا من الردى كئوسا تساقوها بملء الحلاقم
دفاعا عن الأوطان ان حفاظها لدى كل عصر كان أولى المكارم

(بيروت في ١٢ يوليو شكيب أرسلان)

★★★

وكان تعليق الشعب على رسالة الأمير شكيب ارسلان بما يلي :

لعل سعادة الأمير الكاتب بنى هذا الفصل على معلومات وصلت اليه متأخرة فكتب في هذا المقال ما كتب . أما وقد وصل عزيز بك الى مصر بعد ترك القتال فلابد أن يصرح بما اختلف به الرواة .

وتجرى جريدة النوفيل (الفرنسية) حديثا طويلا مع عزيز المصرى تنشر المؤيد ترجمته في ٢٤ يوليو سنة ١٩١٣ . وقد جاء الحديث ومقدمته على النحو التالي :

« استهل عزيز بك تصريحاته فأشار الى الأقوال المتضاربة التى نشرت عنه وقال : انه تحادث مدة خمس دقائق مع مكاتب جريدة الشعب ورجاه ألا يشير الى هذه المقابلة لأنه يرغب في كتابة كل ما جرى له مدة اقامته في برقة بنفسه .

غير ان جريدة الشعب استرسلت في الأوهام والخيالات ونشرت أقوالا لا تتفق مع تصريحه لمكاتبها ، ثم صرح أنه كان يود البقاء في برقة ليفت في ساعد الايطاليين ويلحق بهم الضرر ، لكن لابد له من الذخائر الحربية والأموال والمؤن وهذه المواد الجوهرية الثلاث التى يعول عليها في كل حرب كانت مفقودة تماما . وفيما يلي ما جرى بين محرر جريدة النوفيل وبين عزيز علي :

المحرر : أصحيح ان العرب خانوا عهدكم ؟

عزيز بك : كلا ان العرب لم ينكثوا العهد معى بتاتا ، ولو أنى أجد الأموال اللازمة التى لا غنى لى عنها لا أتردد في العودة الى ربوع برقة .

المحرر : ما قولكم فى السنوسيين ؟

عزيز بك : السنوسيون دراويش يشتغلون ليقتاتوا · وقد كان قسم منهم عقد الصلح فى أيام أنور بك وأحجم الباقى عن القتال منذ مدة · ثم لما كفت قبائل العرب التى كانت تكافح الايطاليين بقيادة البارونى فى طرابلس الغرب عن القتال حول الايطاليون كل قواتهم ضدى فأصبح القتال مستحيلا ·

المحرر : هل ترغبون فى الذهاب الى الآستانة ؟

عزيز بك : اذا أعلنت دولتى الحرب على بلغاريا ذهبت بلا شك الى الآستانة ·

المحرر : أصحيح ان كثيرا من العرب انضم الى الايطاليين ؟

عزيز بك : انضم عشرة آلاف عربى الى الايطاليين واندمجوا فى جيشهم لمقاتلتنا بسبب قلة المياه والقحط الذى ضرب أطنابه فى السنتين الأخيرتين ·

المحرر : ما قولكم فى الجنود العثمانية ؟

عزيز بك : ان الجوع قد عضهم بنابه وأصبحوا بلا مؤونة ولا أصدقاء ولم يبق فى طاقة أحد تقديم القوت اللازم لهم · على أن السياسة الخرقاء التى أتبعها السنوسيون اضطرتنى الى التنازل عن القيادة للشيخ السنوسى الكبير وقد نفدت كل ذخائرنا فى المعركة التى نشبت فى ١٦ يونيه وانتهت بانتصارنا الباهر مع أن جيشنا كان لا يتجاوز الف جندى أمام ٧٠٠٠ ايطالى ·

★★★

المحرر : اذن كان رجوعكم واجتيازكم الحدود بسبب عدم وجود الأموال اللازمة لكم وعدم اتفاقكم مع السنوسيين ؟

عزيز بك : شكلت نظاما اداريا صغيرا يمكننى من جباية ما أستطيع به مواصلة القتال وخولت سلطة واسعة لرؤساء المناطق فامتعض السنوسيون عندما رأوا ان زمام الأمور أصبح فى قبضة رؤساء القبائل فاضطررت والحالة هذه الى تعيين مشايخ الزوايا أعضاء فى ادارة حكومة المناطق ، لكنهم بدلا من شد أزرى صاروا يذيعون بين الأهالى ان الباب العالى يواصل ارسال الأموال اللازمة لى وحسنوا للأهالى حبس أموالهم عنى ، فأصبحت صفر اليدين بينما الأموال كانت تنهال كالسيل من أيدى الايطاليين وهذا ما حمل العرب على التخلص من الضيق والالتحاق بالايطاليين ·

المحرر : ماذا كان نصيبكم من المعركة التى انتهت بدخول الايطاليين فى معسكر بنى غازى ؟

عزيز بك : استولى الايطاليون على معسكر بنى غازى بلا قتال لعدم وجود مقاتلين أمامهم ٠ لأنه لم يبق من الأربعمائة والخمسين ضابطا الذين كانوا فى أيام الحرب سوى ١٢ ضابطا وكنت ذهبت عندما سقط معسكر بنغازى الى الجهة الشرقية بالقرب من السلوم لتنظيم وسائل الدفاع على الشواطىء ٠ وقد أكد بعض الصحافيين الايطاليين أنى كنت مع المقاتلين مع أن هذا القول لا نصيب له من الصحة ٠ وبعد سقوط المعسكر انتقلت حالا من الجهة الشرقية الى الجهة الغربيـة وقاتلت فرقة ايطالية فى (منج) فالحقت بها فشلا هاما وكان العرب قد تواروا عن الأنظار ولم يبق منهم سـوى ٧٠ شخصا وعهدت بتنظيم الدفاع فى الجهة الغربية الى أحد مشايخ زواره اسمه عمر المختار وهو السنوسى الوحيد الذى اشترك فعلا فى الدفاع عن وطنه ٠ ثم عدت الى معسكر درنه لتحصينه فصادفت سيدى هلالا شقيق الشيخ السنوسى الكبير قادما من جغبوب وهو شاب عمره ٢٥ سنة مأجور للايطاليين وتمكنت من القبض على المكاتيبات التى يتبادلها مع الأعداء فسجنته ساعتين ثم أمرته بالعودة الى جغبوب ٠

***

ومن ذلك اليوم صار الشيخ السنوسى يضمر العداء لى ؛ بعد ذلك بمدة اتصل بى خبر وصول الشيخ السنوسى الكبير ٠ وقد كان فى ١٦ يونيه على مسافة ست ساعات من المعسكر فانتظرنى حتى المساء ، ولما ذهبت لمقابلته لقيت عواطفه نحو قـد تغيرت عن ذى قبل فبشرته بخبر انتصارنا فكان جوابه (ليس لكم فضـل فى شىء بل الفضـل فى نجاح جيشنا عائد الى قوة سيدى المهدى الروحية) ولم يرق بعين السنوسى الهتاف الذى لقيته من قبل العرب وذهبت فى نفس ذلك اليوم الى زاوية بشارة فى الجنوب ٠ وفى ذلك الوقت حدث أن انحازت قبيلة بشـارة الى الايطاليين ٠ وقد بلغنى أن الايطاليين دخلوا القيقب بلا مقاومة ٠ فذهبت وقابلت الشيخ السنوسى حالا فالفيته لا يقر قراره على شىء فصرحت له بأن المقاومة أصبحت لا طائل تحتها ما دامت البلاد تسلم الى الايطاليين عن طيب خاطر ٠

واستنهضت همته على الاستعانة بنفوذه لارجاع الأهالى الى صوابهم فقال لى : لا أستطيع ان أعمل شيئا (فاستعلمت منه عما اذا كان يوجد لديه فى الكفرة مؤن وذخيرة أو أموال ، فقال لى جوابا مبهما : الله أعلم) ٠

***

وما كان ينتهي حديثي معه حتى طلب مني ان أكتب الى الايطاليين وأطلب منهم ارسال منصور كخيا شقيق عمر منصور باشا (الأصح : والد عمر منصور باشا) وأحمد المنتصر • فدهشت لهذا القول لعلمي ان هذين الشخصين من أكبر أنصار الايطاليين فسألته عن سبب طلبهما • فقال : ليتوسطا لي في المخابرة مع أعدائنا علهم يمنحونني بعض امتيازات •

فخيل لي أنه يقول الصدق نظراً للحالة الحاضرة وعدم تأثير سائر الوسائل • وكان معي بعض الضباط لتنظيم قوات جديدة في أحشاء برقة أمام القيقب • وكان العرب يساعدوننا بصعوبة لأنهم قوم عضهم الفقر الشديد بنابه ، وقد أحجم السنوسيون عن مساعدتهم على أنني تمكنت من حشد ٣٠٠٠ رجل في مدة يومين •

وبينما كان الأمر كذلك اذ جاءني بالتليفون من درنة بأن الجزع الشديد دب بين العرب وأن جميع من في المعسكر قد ولى الأدبار • فعهدت بقيادة الجيش الى كثير من الضباط وتوجهت حالا الى درنة • وعند وصولي وجدت أن الجزع الذي دب في صفوفهم خارق للعادة • وكانت بعض الفلول قد وصلت الى طبرق على مسافة ثلاثة أيام من درنة فتمكنت من لم شعثهم وخطبت فيهم واتصل بي أن جاسوساً أذاع عنه انبثاق فجر يوم الفرار أن الايطاليين سيخرجون في ذلك اليوم بقوات عظيمة من درنة •

ولما كانت جعبات جنودنا قد فرغت من الخرطوش ، وكان بعض الجواسيس اندس بينهم وأبلغهم خبر ذهابي الى جغبوب آثروا الانسحاب على الهزيمة التي قد تمحو أثر انتصارهم في ١٦ يونيه •

والتف الضباط حولي بعد ذلك وبسطوا لي حالتهم وقالوا لي انه السنوسيين قد انقلبوا ضدنا وقد نفذت ذخائرنا ومؤننا ولم يبق عندنا سوى مؤنة خمسة أيام ولا يمكننا أن ننتظر أي مساعدة من الخارج وقالوا أنه يتعذر علينا معالجة جرحانا ومرضانا فلابد لنا من السفر الى الآستانة على بواخر ايطالية •

وفي ذلك الوقت ندب الايطاليون رسلا من قبلهم ليفاوضوني بشأن ارسال عمر كخيا وعمر المنتصر الى السنوسيين فلم أر بدا من بسط أحوالي لهم بكل حرية وصراحة وانه يستحيل علي من الوجهة المادية مقاومة الوسائل الاستعمارية التي اتخذوها •

★★★

ولذلك رأيت أن مهمتي في برقة قد انتهت واني أترك هذه البلاد معتمداً على التجارير التي جاءتني من شوكت باشا وزملائي في الجيش الذين

اخبرونى ان ايطاليا تساعد الدولة العثمانية فى شدتها الحاضرة أكثر من غيرها وهذا ما شجعنى على مبارحة البلاد وطلبت ان تترك لى الحرية الكاملة فى اختيار البلد التى أبحر منها مع جيشى وان تكون السفينة التى أركبها مع جنودى عثمانية وأن ترسل لى نظارة الحربية جوازا . فلم تلق هذه الشروط قبولا لدى الايطاليين بل اقترحوا على الذهاب مع جنودى الى درنة حيث تكون الأسلاك التلغرافية تحت تصرفى التام ليتسنى لى مخابرة شوكت باشا والوزارة العثمانية فلم يرق هذا الاقتراح بعينى لأنه بلغنى أنه يدور فى خلد الايطاليين ان يزيلوا آثار فشلهم فى ١٦ يونيه وينتهزوا فرصة مرورى فى درنة ليعلنوا أنى وقعت أسيرا فى قبضتهم . ويهدئوا خواطر الايطاليين التى ثارت على أثر فشل جيشهم .

وقد اتصل بى وتأكد لى ان الشيخ السنوسى يرغب فى التخلص منى لبعض أسباب ولذلك استعان بحيلة وأرسل الى كتابا قال فيه : ان غبار فدائيتك زهرة فى تاجى لأنك أكبر من يذود عن حوض الاسلام ، وبما ان لدى سرا أود أن أبثه اليك فأرجوك القدوم وحدك مع الأشخاص الذين أرسلتهم اليك بشرط أن لا يصحبك حرسك العادى) .

وقد أرسل الشيخ السنوسى الكبير فى نفس ذلك الوقت كتابا آخر الى قائد طبرق قال له فيه (عزلنا عزيز بك على نظرا لما ظهر من عدم اخلاصه لنا وعيناك خلفا له) .

وكانت المسافة التى تفصلنى عن السنوسى يوما واحدا أما المسافة التى تفصلنى عن قائد طبرق فكانت ثلاثة أيام .

وعمل الشيخ السنوسى حسابا بأنى ساقع أسيرا فى قبضته قبل أن يصل كتابه الى طاهر بك قائد طبرق . وقد اتفق أنى أحجمت عن الذهاب لمقابلة السنوسى فى نفس ذلك اليوم ، وفى اليوم الثانى بينما كنت أتأهب لمقابلته بالرغم مما بلغنى من مقاصده اذ تلقيت كتابا من بعض حواشى السنوسى ينصحنى فيه بعدم الذهاب .

★★★

وفى اليوم الثالث وصل كتاب السنوسى الكبير الى طبرق فجاءنى من القائد اشارة تليفونية قال لى ان وفدا من قبل السنوسى قد وصل الى درنة وأعلن خبر عزلى وتعيينه (أى قائد طبرق) خلفا لى ، فاستاء زعماء العرب من هذا التغيير ولم يقبلوا استبدالى وجاءنى وفد من قبل أهالى طبرق قدم لى الطاعة ، وقد رأيت من الجنون الصرف بقائى فى برقة ومواصلتى المقاومة وأنا مطوق من كل الجهات بالأعداء مجرد من الأموال

والذخيرة خصوصا وان ضباطي وجنودي كانوا يشددون على فى الرحيل بعد أن أنهكت قواهم عقب مقاومة دامت سنتين • وقد عزمت على الاسراع بالرحيل لئلا تلطخ سمعتي وسمعة جنودي وخوفا من أن يقطع الايطاليون على طريق طبرق •

خدعتهم وكتبت اليهم أن ينتظروني في اليوم الثاني أو الثالث فاوقفوا استعداداتهم وباشرت مع جيشي الزحف الى الجهة الشرقية وقد أراد الجنود الوطنيون الذين مرنتهم وحشدتهم ان يسيروا معى فنصحتهم أن يدافعوا عن وطنهم الى النهاية ولو بأعقاب بنادقهم وأشرت عليهم أن يعينوا عليهم رؤساء من الشاويشية العرب وتركت لهم كل الأمتعة واستنهضت همة الجميع بالقيام بالواجب الملقى على عاتقهم الى النهاية وأكدت لهم بالعودة اليهم للاشتراك معهم في الدفاع عن أراضي برقة عند وصول الجنود العثمانيين الى بلادهم • وكان وداعنا مؤثرا جدا وكنا جميعا نذرف الدموع السخينة •

وقد وصل الايطاليون فى اليوم الثانى خبر زحفى الى الشرق فأوعزوا الى احدى البوارج الحربية بمنعي من أخذ المياه من عين (تميمي) وما كدت أصل فى صباح ذلك اليوم الى هذه الميناء حتى ظهرت مدرعة ايطالية وأخذت ترمينا بقنابلها فجرح منا جندي واحد وقتل جمل • ثم انسحبت في المساء ووصلت الى طبرق في اليوم الثاني •

وأرسل الشيخ السنوسي الكبير ثلاثة مشايخ من الزاوية مع ٢٠٠ فارس ليقتفوا أثرى ويحضوا الأهالي على مهاجمتي • فبادرت والحالة هذه الى جمع العرب وبسطت لهم الحالة فاستصوبوا رأيي وقالوا لي : قد قمت بالواجب الملقى على عاتقك وقد حان الوقت للشيخ السنوسي أن يواصل أعمالك •

★★★

أما المشايخ الثلاثة فقد ضاقوا ذرعا ودب اليأس في قلوبهم فذهبوا تحت جنح الليل وحرضوا قبيلة المنوفة الكبرى التي هجمت علينا مدة بضع ساعات ففزع جنودنا لكنني تمكنت من جمع فريق منهم وقاتلت قبيلة المنوفة فقتلت منهم شخصا واحدا وبينما كنت أواصل سيرى مساء اليوم الثاني هوجمت من ثلاث جهات فلم أحفل بهذه الهجمات وتقدمت عن الجنود مسافة كيلو متر فسمعت دوى البنادق فالتفت فاذا بمعركة دنيئة قد ابتدأت •

وجلية خبرها أن السنوسي الكبير حرض قبيلة المنوشة وقبيلتين

غيرهما على قتالنا ووعدهما بالذهاب الى الجنة اذا أخذونا أحياء أو أمواتا فتألب منها ٥٠٠ رجل اعتصموا بالمضايق والمرتفعات وهاجمونا بشدة ، فأمرت الذين كانوا ينقلون الأمتعة بمواصلة السير ، وهجمت على المهاجمين مع الفرسان والمشاة ، ولم تمض ساعتان حتى فقدت هذه القبائل ٥٠ قتيلا وجرح ٥٠ جنديا واسرنا منها ١٨ رجلا ، وخسرنا نحن ضابطا وأربعة جنود وجرح منا سبعة جنود ٠

ثم استأنفنا السير وهجم علينا الفرسان مرة رابعة فرددناهم بلا خسارة من الفريقين ووصلنا الى السلوم منهوكي القوى مجردين من الذخيرة ٠ فطلبت من الحكومة المصرية المؤن والماء فلبت طلبنا وقد أطلقت البوارج الايطالية قنابلها علينا ـ أثناء اقامتنا في السلوم في انتظار السفينة العثمانية ـ لتمنعنا من أخذ المياه » ٠

ورأيي ٠٠ أن عزيز على المصرى قد رد بصراحة تامة على السؤال الذى ظل مطروحا فترة طويلة : لماذا ترك عزيز على المصرى الميدان ميدان القتال ضد ايطاليا فى طرابلس الغرب وبرقة ؟ أجابه عزيز على المصرى لجريدة النوفيل الفرنسية تتسم بالوضوح والصراحة والصدق أيضا ٠ كما أعتقد ٠

تبقى ملاحظة ٠٠ جوهرها أننى فيما نشرته من مقالات حول هذا الموضوع وحول ما قيل عن عودة عزيز على المصرى من الميدان ، اعتمدت على تلك المقالات بصفتها وثائق فقد كتبت والأحداث ساخنة ، كما أن أحد كتاب تلك المقالات ـ أمين الرافعي ـ معروف عنه أنه موسوعة سياسية وانه لا يتناول موضوعا الا اذا كان قد استوعبه دراسة وفهما ٠

واذا كانت الضجة التى أثيرت حول انسحاب عزيز على المصرى من الميدان ، قد هدأت بعض الوقت ، فان ضجة أخرى أقوى وأشد قد ثارت بعدما اعتقلت السلطات التركية ـ فجأة ـ عزيز على المصرى وقدمته للمحاكمة العسكرية على ما سيتضح فيما بعد على أننا نرى أن من الضرورى لتسلسل البحث أن نتحدث ـ وباسهاب عن الجمعيات العربية التى قامت فى مواجهة الجمعيات الطورانية (العثمانية) ودور عزيز على المصرى فى انشاء الجمعية القحطانية وجمعية العهد ، كما يتضح بجلاء فى الباب التالى :

البـاب الثـالث

الفصـــل الأول

- دولة الخلافة الاسلامية في طريقها الى الانهيار ·
- منظمـــات وأحزاب عثمانية ، في مواجهة منظمـــات واحزاب عربية
- عزيز على المصرى والجمعيـة القحطانيـة وجمعية العهد

في كتابه « حاضر العالم الاسلامى » أزاح الأستاذ «لوثروب ستودارد» الستار عن بعض الأسباب التى أدت الى **انهيار دولة الخلافة الاسلامية** ، والى الصراع الذى نشــأ بين العديد من الجنسيات داخل الدولة وقد أفاض لوثروب ستودارد فى كتابه القيم الذى ترجمه الى العربية الأستاذ عجاج نويهض وأضاف اليه فصولا وتعليقات وحواشي للأمير شكيب أرسلان ، في الحديث عن ظهور مبــدأ القوميات أو « العصبيات الجنسية » كمـا أسماها ·

وكان من بين ما ذكره لوثروب ستودارد في مقدمة بحثه عن العصبيات الجنسية « القوميات » أن الجامعات الجنسية المتعددة ليست بجامعات جنسية صحيحة باعتبار أنها ترجع الى أصل الأرومة خالص من الاختلاطات وبرىء من شوائب الالتحامات النسبية ، اذا ما هى فى الواقع ســوى عصبيات قومية متطورة ظاهرة مظهرا عصريا ·

ويقول لوثروب : ولكن ما دامت أمم أوروبية وشعوبها مشتعلة بنار هذه العصبية فانى لها أن تعرف كون هذه الجامعات ليست هى الجامعات الجنسية الخالصة التي لا ريب فيها ·

ويرى لوثروب ان السياسة العملية فى هذا الدور الجديد للعصبية كانت مغشاة الظاهر بأغشية جامعات يخالها أربابها مشتملة على عروق سليمة التحدر على حين أن هذا ليس بالصـــحيح · كما يرى لوثروب أيضا أن مظهر الدور الجديد للعصبية الجنسية (دور تألب عروق الجنس) كان أفقه فى بدء التطور شاملا للبلاد الأوروبيــة المعدودة أنهــا الوطـن

القـديم للحضـارة ، ثم ما لبث أن اخذ أفـق هـذا المضـطرب ينمو ويتسع بانتشار الأفكار والآراء والروح الغربية حتى غدا بالغا أقصى الأقطار الأرضية مشرقا ، ومغربا فى البلقـان مثـلا تولدت الجامعة الاغريقيـة أو اليونانية والجامعة السربية وغيرها • ونحو منتهى القرن التاسع عشر جازت العصبية الجنسية حدود أوروبا وبلغت الأقطار الآسيوية وانتشرت فيها انتشارا سريعا فنشأت حركة تركيا الفتاة ومصر الفتـاة وحركات وطنية أخرى فى أقطار متباعدة الأقاليم كالجزائر وايران والهند •

وما كاد القرن العشرون •• حتى أيدت صادقات الأدلة وواقعات الحال ان العصبية الجنسية فى آسيا كما فى البلقان من قبل ذلك ، فقد اجتازت مخاضها ودخلت في دورها الثاني أعني دور عصبية التئام العروق وتالبها الجنسي ، فنشأت جامعات جنسية عديدة « كالجامعة الطورانية » و « الجامعة العربية » وأخـرى غاية في الخطورة هى « جامعة العصـبيات الجنسية الاسلامية » التى ترمى الى وحدة المعمور الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وانضوائه تحت لواء اسلامى عام •

***

وعن النهضة التركية •• يقول لوثروب : بدأت النهضة التركية كما بدأ غيرها من نوعها فى أوروبا ، وذلك على الجملة باحياء الذكريات القومية التاريخية ، والكشف عن أسفار العز والمجد ، وبتجديد اللغة على مقتضى حاجة العصر •

ولما انبرى رواد الاصلاح من أرباب النهضـة يوقظون أبناء قومهم ، ويرددون على مسامعهم أنباء مجدهم التاريخى وذكريات عزمهم الخالى ، استيقظت الأمة التركية بأسرها وأخذت تنتشى رائحة العزة القومية ، وتنظر الى أفق المستقبل بعين طموحة •

ومعظم السبب في النهضة التركية المفضية الى ظهور العصبية الجنسية القائمة على التئام العروق العنصرية انما كان جور أوروبا على تركيا جورا سياسيا شديدا ، لذا كان الترك كلما ازدادت الحملات الأوروبية على الأقطار العثمانية تقتطع منها ما استطاعت ، ازداد الترك حبا لوطنهم وتفانيا فى سبيله ، وكأنما كان ذلك الاعتداء على الترك مستحثا يسوقهم فى سبيل الاستماتة لصيانة استقلالهم المهدد • وقد كان من غاية الترك فى عصبيتهم الجنسية تتريك جميع العناصر التى تتألف منها الرعية العثمانية على اختلاف الملة والدين والعرق ، بحيث يكون من ذلك كله مجموع ممتزج بعضه ببعض هو الأمة التركية صبغة ولسانا وتفانيا فى الوطنية التركية •

فاصطدمت اذ ذاك غاية العصبية التركية اصطداما كبيرا بالعصبيات الجنسية النصرانية المنافسة لها (وهذه أسبق ظهورا) في المملكة ، وبالعصبية الجنسية العربية التي كانت قد شرعت تظهر ظهورا بينا لا مراء فيه في هذا العهد ٠

على أن ثورة سنة ١٩٠٨ قد دكت أركان الاستبداد الحميدي دكا ، فانطلقت العصبية الجنسية التركية من عقالها وأنشأت تشتد وتستقوى ، وبات جميع رجال « تركيا الفتاة » على اختلافهم في شئون أخرى ، يدعون الى هذه العصبية وهم في سبيلها مغامرون مستبسلون ٠ غير أن تلك الاستماتة الكبرى التي قام بها الترك لتأييد عصبيتهم كانت السبب الأكبر في حلول ما حل بساحتهم من البلايا التالية وحاق بهم من الفواجع اللاحقة ٠ فقد اندفع رجال «تركيا الفتاة» اندفاعا كانوا فيه بعداء عن التروى والحكمة يسوقهم سائق التعصب الجنسي الأعمى ، محاولين تتريك المملكة قاطبة في فترة من الزمن يسيرة ٠ فهاج هذا الأمر الهائل أبناء العصبيات الأخرى هياجا كبيرا حملهم على التنكر لثورة سنة ١٩٠٨ ٠

***

وحقيقة الواقع ان العصبية الجنسية التركية انما كانت تنتشر في أفقها ، وتبتغي أن تمور في مضطرب غير مضطربها فكان بينها وبين سائر العصبيات مصطدم هائل ، فاشتعلت نار العداء بين العنصر التركي من جانب والعناصر النصرانية والاسلامية غير التركية من جانب آخر ٠ وفي هذا العهد كانت العصبية التركية قد بلغت من التطور دورها الثاني ، دور العصبية الرامية الى تألب العروق المتشعبة من أورمة واحدة ، فبعد أن كان مضطربها لا يجاوز حدوده نطاق المملكة ، وغايته تتريك سائر العناصر غير التركية في المملكة فحسب ، باتت ترمى الى غاية أرحب مجالا وغرض أبعد مدى ، وتنزع الى فروع الجنس وعروق الأرومة ، فنشأت على اثر ذلك « الجامعة التركية » ثم وليتها « الجامعة الطورانية » ٠

وبعيد أن أنشأت تباشير اليقظة القومية والعصبية الجنسية تتبدى في الترك ، أنشأت أيضا تباشير مثل تلك تتبدى في العرب ، فيقظوا يقظة كان شأنها شأن كل يقظة يبتغيها شعب محكوم ٠٠ ثارت الأقطار العربية ضد الترك ، لان أهلها العرب وهم من أمة الرسالة قد بات من شق الأنفس عندهم أن يظلوا خاضعين لنير الحكم التركي الغريب وهو في عينهم مثال الغطرسة ٠

وقد وصف الكاتب الفرنسي فيكتور برار في كتابه
(Le Sulten : l'Islem et le Ruissence 190)

مبلغ ما هما عليه ـ العربي والتركي ـ من اختـلاف المزاج والسجية بقـوله : « هكذا ترى شـقة البون بعيـدة بين اللغتين كمـا بين العنصرين ، كالبون بين ابن رومية وابن الجزائر المغربية • فالتركي من أدرنة أو أطنة يظل بعيدا أقصى البعد شمالا ويظل العربي في سائر الأقطار وعلى مختلف الحالات بعيدا أقصى البعد جنوبا فهما ضـدان لا يجتمعان ونقيضان لا يأتلفان • فأين العربي الدمث الخلق اللين العريكة ، الرحب المدارك ، المتفنن في شأنه ، النزاع الى الديموقراطية ، المغرق في احتفاظ حرينه الفردية الى حد الفوضى ، من التركي البطيء المتثاقل ، الميال الى رقابة النظام ، عاشق الروح العسكرية • لذلك ظل التركي الحاكم المتسلط يحتقر على الدوام العربي ويزدريه لما هو عليه من حب الفن والابتكار والرشاقة ، ويكره فيه اباءه لرقابة النظـام ، من حيث ظل العربي يرى التركي هجعا جلفا ، ويحسب هـدوءه واطمئنانه بلادة وجهلا وخمولا ، واحترامه القانون ذلا ، وانغماسه في الرخاء المادي ، فجورا ووحشية • وما انفك العربي يزري على التركي وينعي عليه فقدانه الميل للفن والابتداع ، ولا سيما بعد أن أخذ ما أخذ عن الصينيين والفرس والعرب واليونان فظل على كل هذا كما كان أحمق جاهلا غبيا » •

وكان السائح الألماني بركهردت قد قال في عام ١٨٢٠ كلمة أصبحت ذات دلالة تاريخية هامة : متى أخذ الحكم التركي يولي ويتحل ويتضعضع في الحجاز ، يهب العرب آخذين بالثأر •

***

وفي عام ١٨٤٠ قال شريف مكة لسائح فرنسي ـ فيكتور برار ـ ما أشقها علينا من حال أن نكره اكراها ونحن فروع الشجرة النبوية المباركة على أن نحني رؤوسنا لهؤلاء الباشوات الأدنياء الذين قد كان غالبهم من قبل عبدانا نصارى فما استطاعوا بلوغ كراسي الحكم وتقلد دفة الأعمال الا بأحط الذرائع ، وأشين الوسائل » •

وما من قطر عربي الا وقام بثورة ضـد الحكم التركي كمـا يقول لوثروب •

ودامت الحال هكذا حتى منتصف القرن التاسـع عشر ، من توالي الثورات غير المنتظمة التي لم تعد نطاق الانتقاضات والاختلافات في موضع حملت عليهـا النعرة الدينيـة أو عـوامل الوراثة والاقليـم ، أو شعور ثائر ولكن سببه غير عام ، اذ لم يكن هناك من خطة جلية مقررة عقد عليها الرأي ، ووضعت لتنظيم العمل في سبيل قومية ومطمح جنسي •

ورن صدى الثورة العربية المشبوبة النار سنة ١٩٠٥ رنينا هائلا فى أندية السياسة الخارجية · فانتبه العالم اذ ذاك لشأن « القضية العربية » وعند ذلك افترص رجال العرب المنفيون القائمون بالحركة الوطنية الفرصة فأخذوا يجهدون ما استطاعوا فى تقوية دعوتهم ببثها ونشرها فى جميع الممالك العربية · ومنذ ذلك الحين بدأت القضية العربية تكتسب شأنا خطيرا فى عالم السياسة ، اذ وقفت دول أوروبا حق الوقوف على يقظة « الأمة العربية الفتاة » وأدركت جليا آمال العرب والمظالم اللاحقة بهم · وكان من خير الوسائل لاسماع الدول الغربية صوت العرب وايقافهم على حقيقة أمرهم وصفة حالهم ، كتاب قيم موسوم « بيقظة الأمة العربية » باللغة الفرنسية أخرجه للناس أحد قادة الحركة الوطنية نجيب عازورى فكان له كبير وقع وتأثير فى المقامات السياسية الغربية ·

ونشرت « الجمعية الوطنية العربية » فى باريس سنة ١٩٠٦ منشورا موجها الى الدول العظمى بينت فيه الجمعية تبيينا غايات العرب وأغراضهم التى يبتغونها ، وقد جاء فيه :

« ان انقلابا سلميا هائلا حادث عما قريب فى تركيا · والعرب الذين لم ينفك الترك آخذين فى ارهاقهم وتفريق حزمتهم تفريقا دينيا ليتسنى لهؤلاء حكمهم ، قد استيقظوا وجعلوا يشعرون بائتلاف بعض عناصرهم مع بعض ائتلافا وطنيا وقوميا وتاريخيا ، وهم يرغبون الآن فى الانسلاخ عن الأورمة العثمانية النخرة لينشئوا لهم دولة مستقلة ، وهذه هى الامبراطورية العربية التى تكون تامة بحدودها الطبيعية من وادى دجلة والفرات الى قناة السويس ، ومن بحر الروم حتى بحر عمان ، ويرأسها سلطان عربى ذو حكومة دستورية حرة · وأما ولاية الحجاز الحالية ، وفيها المدينة المنورة فيتألف منها مملكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكا وخليفة جميع المسلمين ، وبهذا تحل العقدة الكبرى فى الاسلام وهى التفريق بين السلطتين المدنية والدينية » ·

★★★

وفى المنشور كلام موجه الى العرب هذا بعضه : « بنى وطننا الأعزاء ، كل منا يرى بأم عينه عظم ما صار يلقاه العربى الشريف الكريم من المذلة والزراية حتى غدا اسمه موضوع المهزأة عند الأجانب ولا سيما الترك · وكل منا شاهد لما قد وصلنا اليه من البؤس والجهل ، فى عهد ظلم هؤلاء البرابرة الذين طموا على بلادنا من آسيا الوسطى · فبلادنا ، وهى جنة الله فى أرضه ، قد أصبحت اليوم خاوية على عروشها فلما كنا أمة حرة فتحنا العالم بأقل من عشرة عقود من السنين ونشرنا فى أمم الأرض مختلف

الفنون والعلوم والآداب ، وظللنا عدة قرون حماة الحضارة ومهدى سبل العمران . ولكن منذ أنشبت مخالب ارطغرل فينا واغتصبت الخلافة منا ، غدونا نقيم على القهر والذل ، فخربت بلادنا واقفرت أرضنا وتضعضعت حالنا تضعضعا ما رأى مثله شعب آخر فى الأرض » .

فلما كانت ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ تغيرت الحال تغيرا كسب القضية صورة جديدة ، فتهللت الأقطار العربية كسائر أقطار المملكة العثمانية فرحا وحبورا بانهيار صرح الاستبداد وتقوضه حتى الأساس . ونظر العرب الى المستقبل بعين الرجاء الكبير ابتغاء تحقيق الأماني وصدق الآمال . وكان نواب العرب وممثلوهم فى « البرلمان » العثمانى ليسوا بالقوم القليلى العدد ، فطلبوا أن يمنحوا قسطا معلوما من الاستقلال الداخلى « اللامركزى » ، فرفض رجال تركيا الفتاة مطلب نواب العرب رفضا باتا دون أن يجيبوهم الى شىء منه ، ذلك لشدة ما كانوا موطنين أنفسهم عليه من القيام بتتريك العناصر فى جميع المملكة . فكانت نتيجة الأمر أن أدرك العرب وأيقنوا محق آمالهم واستحالة نيل مبتغاهم ، فاشتد السخط اشتدادا بالغا فى الأقطار العربية ، وعاد الاضطراب يقع ويشتد ، راميا الى الانفصال . على أن هناك أمرا حريا بالاعتبار التام وهو أن جميع الحركات والمساعى التى طفق العرب يجهدون فى القيام بها فى سبيل الاستقلال بعد سنة ١٩٠٨ غدت متمشية على خطة أوسع مجالا ونطاقا ، وأبعد أفقا ومرمى ، وأصبح الآن رجال النهضة القومية والعصبية العربية فى أقطارهم الخاضعة لتركيا على صلة وثيقة تصل بينهم وبين أمثالهم من رجال النهضة القومية فى مصر وافريقيا الشمالية الخاضعة لفرنسا ، تلك الأقطار العربية التى أقل ما يقال فيها ان بعض ساكنيها هم عرب دما وعرقا وأصلا . لذلك بعد أن كان ذكر العصبية العربية همسة تفرغ فى الأذن أو سرا يتناجى ، صار صوتا عاليا وصرخة جوابة الآفاق رنانة الأصداء ، كيف لا وقد اشتملت خطة العرب على مطمح كبير وهو امبراطورية « الجامعة العربية » مؤلفة من جميع أقطار العالم العربى شاملة شمال افريقيا وجنوبى آسيا ، وممتدة من الأوقيانوس الاتلنتيكى حتى الأوقيانوس الهندى . وهنا شرعت العصبية الجنسية العربية كالعصبية الجنسية التركية ، تجتاز دورها الثانى دور العصبية النزاعة الى تألب العروق الجنسية المتحدة الأرومة .

***

وفى الحين الذى أثار فيه الاعتداء الغربى سنة ١٩١٠ ـ ١٩١٢ ـ لوثروب ستودارد ـ العاطفة الدينية ، للجامعة الاسلامية ، كان الشعور القومى العربى يهتاج اهتياجا شديدا متواليا دون انقطاع بسبب ما انشأت

تركيا الفتاة تقوم به من مختلف الذرائع والوسائل لتتريك العناصر ، فثار ثائر الاستقلال في العـرب ولكن كان رائعا هائلا ، تمثلت فيه عصبيتهم الجنسية أكبر تمثيل ٠

ويوصل مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ـ لوثروب ستودارد ـ حركة العصبيات الجنسية التى اجتازت دورها الأول ، وبلغت دورها الثانى فى الشعوب الآسيوية ولا سيما فى الأمتين التركية والعربية فيقول ان العصبية الجنسية للترك قد اتسع نطاقها الاتســاع الأكبر وامتــد أفقها الامتداد الأعظم حتى أدركت أرقى أطوارها وأسمى حالاتها ، متخذة شكلين بينين جليين يعرفان « بالجامعة التركية » و « الجامعة الطورانية » ٠ وقد أتينا فيما تقدم من الكلام على بيان اجتياز العصبية التركية لدورها الأول وهى اذ ذاك لم تجاوز نطاقها العثمانى المحدود كما علمنا ذلك فى موضعه ٠ وظلت كذلك حتى ختام الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ ـ ١٩١٣ ٠ ومنذ ذلك الحين بدأت العصبية الجنسية التركية تدخل فى دورها الثانى ، دور العصبية النزاعة الى عروق الأرومة ، وطفقت تشغل مكانها الخطير الهائل فى العالم ٠

***

وكان ظهــور الطـــورانية بادىء الأمـــر فى مركزين منفصـــلين : القسطنطينية التركية على ضفاف البوسفور وبلاد التتر الروسية على ضفاف الفولكا ، وكان التتر ـ فيما مضى ـ سادة روسيا وحكامها وكان تبدى تباشير اليقظة القومية واستماتة العصبية الجنسية فى تتروسية سنة ١٨٩٥ ومنذ ذلك الحين أخذت النهضة الجنسية تنمو نموا هائلا عجيبا ٠ وكان من شأن الثورة الروسية سنة ١٩٠٤ أنها حطمت الأغلال الاستبدادية ، فكانت من بعد ذلك حقبة زاهرة أشرقت فيها شموس الآداب أيما اشراق ٠ فكثر نشر الكتب والنشرات وانشاء الصحف والمجلات العديدة مما ساعد النهضة التترية على النمو المطرد ، فاعتزت اعتزازا كبيرا ٠ ولما كان التتر فى روسيا على جانب كبير من الاثراء فقد كان من السهل اعداد جميـع ما يقتضى من الوسائل والذرائع المادية فى سبيل النهضة ٠ وحقا قد قام المتمولون التتر ذوو الملايين فى باكو بقسط وافر عظيم من العمل لتنمية العصبية فكان لهم بذلك شأن خطير ومنزلة علية ، اذ ما عرفوا التردد قط فى بذل المقادير العظمى من الأموال عن جود وسخاء فى سبيل الغــاية المباركة ٠ وقد أبدى التتر الروسيون حنــكة ومهـــارة فائقتين فى عالم السياسة ٠ فغدوا للحال موضع ثقة أبناء أعمامهم التركمان فى أواســط آسيا الروسية الذين كانوا قد دبت فيهم أيضا نشوة العصبية الجنسية ،

واشتمل مجلس « الدوما » الأول في روسيا على عدد كبير من المسلمين الذين كانوا في جهادهم السياسى عصبة متحدة متعاضدة يشد بعضها بعضا ، لا يني لها جهد ولا همة لاعزاز النهضة التترية ، فغالبوا الصعاب مغالبة غاية فى بذل النفس والدهاء والحنكة ، حتى غدا الرأى العام الروسى على خشية منهم فأخذ يحمل الحكومة الروسية على أن تقل من النواب المسلمين التتر كيما يقل بذلك نفوذهم فى دور الحياة الدستورية الجديدة » ٠

***

وقد كان المسلمون فى روسـيا حكماء فى السعى وراء مبتغـاهم فصارحوا الدولة الروسية باخلاصهم لها ومحضهم اياها صادق الطاعة ، غير ان بعضهم كانوا أشداء الغيرة شدة كشفت معها المطامع التترية الخفية وصرحت عن الآمال التى كان التتر يدأبون جاهدين فى سبيل تحقيقها ، ذلك انهم أخذوا فى السعى وراء الغاية سعيا حرا فى جو أنقى هواء وبيئة أخصب مرعى وأرحب منزلا أعنى فى القسطنطينية حيث قيض حقا لتتر روسيا أن يكون لهم شأن عظيم فى أفق الجامعة التركية والجامعة الطورانية داخل الامبراطورية العثمانية وفى الواقع أن أول منشىء لجمعيـة الجامعة الطورانية الأولى من نوعها فى القسطنطينية هو يوسف بك اقشورة أوغلى ، المسلم التترى من أهالى الفولكا ، وكتابه القيم المشهور الموسوم ب « الأنظمة السياسية الثلاثة » غدا أساسا عند معشر الكتاب المسلمين يعولون عليه ، ومنارا يهتدون به فى جميع ما كتبوا الى اليوم فى شأن الجامعة الطورانية ولم يكن رجال الجامعة الطورانية قبل نزول الاضطهاد بهم ليلقوا شيئا من الحظوة عند السلطان عبد الحميد . فلما ظهرت العصبية الجنسية التركية ظهورها الجلى من القوة الى الفعل بعد انقضاء الدور الحميدى ، تبدلت الحال غير الحال ، فغدا رجال الحكومة الجديدة وهم عشاق عقيدة تتريك العناصر فى المملكة ، يصيخون كل الاصاخة لدعوة الجامعة الطورانية ويجدون فى سبيل شرها والتبشير بها انجيلا جديدا ، حتى خرج منهم بالتالى أبطال وقادة يدعون الى هذه العصبية ٠ وجدير بنا فى هذا المقام أن لا ننسى أن تتر روسيا قد استمروا على جهادهم الأكبر فى سبيل العصبية ، فكان زعيم الدعوة للجامعة الطورانية الكاتب القدير المشهور أحمد بك أغايف ، مسلم من تتر الفولكا ، وله جريدته الذائعة الصيت (ترك يوردى) ـ « الوطن التركى » ، التى انتشرت فى كل بقعة من بقاع العالم الطورانى ، وحازت أكبر شأن حتى غدت مسئولة عن نفوس قرائها نازلة منزلة المقيم المقعد ٠

***

على أن قادة الدعوة الطورانية مثل أحمد بك أغايف وأضرابه الذين

امتدت أطماعهم ووضعوا خطتهم لتوحيد العالم الطوراني طرا من فنلندا الى منشورية توحيدا تاما ، وأخذوا يجهدون الجهد الكبير في سبيل نشر الدعوة للجامعة الطورانية ، انما كانت جهودهم العملية مقصورة في بادىء الأمر على توثيق العرى بين الترك العثمانيين والتتر الروسيين والتركمان في أواسط آسيا وايران • ولما كانت هذه الشعوب جميعها اسلامية فلم يكن من الغريب أن الدعوة الطورانية كان لها ـ ماعدا صفتها الجنسية ـ صفة دينية أيضا تجعلها متجهة نحو الجامعة الاسلامية في اعتبارات عديدة • ولكننا على وسع لنقول ، مع عدم اعتبار هذا العامل الديني ، ان الحركة التي كانت حاصلة بالفعل عهدئذ بالقياس الى نظرية الجامعة الطورانية لم يعد امتدادها نطاق الجامعة التركية الا قليلا » •

★★★

وقد ذكر الأساتذة : سعيد العريان ، أمين شاكر ، محمد مصطفى في كتاب لهم عن « تركيا والسياسة العربية » من خلفاء آل عثمان الى خلفاء أتاتورك » ان الدعوة الى الجامعة الطورانية كانت تعنى سيادة الجنس الطوراني أو المغول الذي هاجر من شرق آسيا ، وكان من الأتراك السلجوقيين ، والأتراك العثمانيين ، والتتر في جنوب روسيا وعبر القوقاز والمجر ، في هنغاريا ، والفنلنديين في فنلندا وولايات البلطيق ، وقبائل السكان الأصليين في سيبيريا ، والمغول في شرق آسيا • وقد لقيت تلك الدعوة تأييدا من الشباب التركي المستنير الذي درس في الخارج على أساتذة غربيين والذي رأى تمزق بلاده وغربتها أمام الهجمات العنيفة من الروسيين والهنغاريين •

وقد كان في مقدمة الترك الذين بشروا بالطورانية ، ومجدوا كل ما هو طوراني ، وكرهوا كل ما هو عربي عبد الله أفندي الذي ألف كتابا أسماه « يوم جديد » رمى فيه الى تنفير الترك من الدين الاسلامي ، ومما انتقده فيه وضع أسماء الصحابة الكرام في المساجد فقال في هذا الصدد ما يلي : « ما هذا الجهل وما هذه الغفلة التي استولت عليكم ، تعلقون أسماء خلفاء العرب في مساجدكم ولا تذكرون بالاحترام أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية الكثيرة » (كذا) •

★★★

وقال في مكان آخر : « ان الشبيبة التركية لا تنكر الصوم والصلاة والحج والزكاة وكلمة الشهادة ، ولكنها لا تعدها من أركان الدين التي استخرجتها من أحكام القرآن والأحاديث » •

ومثل هذه الآراء المؤسفة لم تكن لتساعد على التفاهم بين العرب والترك ، لأن الغرض ظاهر منها ، فهي تعمل لتحقير جميع ما هو عربي ، وتقديم كل ما هو تركي ، ومن الحق أن نقول أن الذين كانوا ينادون بهذه الفكرة أقلية لا تذكر ، وأما الأكثرية التركية فكانت اسلامية بكل ما في الكلمة من معنى ، ولذلك فان انتقادنا ينحصر في هذه الجماعة التي مزقت الدولة فمزقها الله ومن بقي منهم مزقه الغازي مصطفى كمال باشا ...

وألف جلال نوري بك الكاتب التركي الشهير كتابا عنوانه « تاريخ المستقبل » جاء فيه :

« ان المصلحة تقضي على حكومة الأستانة باكراه السوريين على ترك أوطانهم ، وان بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلهما الى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التي يجب أن تكون لغة الدين ، ومما لا مندوحة عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية الى أقطار تركية ، لأن النشء العربي الحديث صار يشعر بعصبية جنسية وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها من الآن » .

وقال أحمد شريف بك في جريدة « طنين » :

« لا يزال العرب يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلا تاما كأنهم ليسوا تحت حكم الترك ، فمن واجبات الباب العالي في هذه الحال أن ينسيهم لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم ، فاذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى الى حتفه بظلفه لأن العرب ان لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فانهم سيعملون عاجلا أو آجلا على استرجاع مجدهم الضائع وتشييد دولة عربية جديدة على أنقاض دولة الترك » .

وقد أوضح الكاتب التركي المشهور مطامع الجامعة الطورانية في كتاب له حمل اسم « التركي ، وغاية الجامعة التركية » وقد نشره عام ١٩١٥ وقد جاء فيه :

« متى ما سحقت الجيوش الألمانية والأوسترية والتركية الاستبداد الروسي الغاشم سحقا ، استطاع ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ الى ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الطورانيين نيل الاستقلال والحرية ، ثم يضاف الى هذا العدد ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الترك العثمانيين ، بحيث يتألف من المجموع أمة يبلغ عددها ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ تتقدم نحو حضارة عظيمة ربما تستوي مع الحضارة الألمانية فتغدو هذه الأمة اذ ذاك شديدة القوة والبأس ، مستسهلة كل صعب لتوالي الصعود بمعراج الارتقاء ، وستفوق هذه الحضارة الحديثة في بعض صفاتها الحضارتين الفرنسية والانكليزية المنحطتين » .

***

وربما كان أهم ما لفت نظري في مذكرات السلطان عبد الحميد التي ترجمها عن التركية الأستاذ الدكتور محمد حرب ، ما جاء خاصا بصلات بعض الأحرار الأتراك - بعض رجال تركيا الفتاة ، وحزب أو جمعية الإتحاد والترقي - ببعض الدول الكبرى وببعض التنظيمات أيامها كالماسونية وغيرها ٠

وفي بداية تلك المذكرات وحول هذا الموضوع الهام ، يقول السلطان حسين : ان بعض الأجانب من الانجليز حاولوا تهريب مدحت باشا « أبو الأحرار » ومحمود باشا الى مصر ، وان الشريف عبد المطلب الذي كتب الى السلطان عريضة خاصة بهذا الموضوع قد منع هذا التهريب ، وكل ما لاقاه الشريف عبد المطلب من معاملة سيئة ومن عزل ، كان بسبب هذا ٠

وكانت بارجة حربية انجليزية قد كلفت بتنفيذ عملية التهريب ، وكان مدحت باشا سجينا بقلعة الطائف ٠ ويعلق السلطان عبد الحميد على ذلك بقوله : أنه لم يصدق كلمة واحدة من كلام الشريف عبد المطلب ولا أي تصرف من تصرفاته ، ومع هذا فان ادعاءه لم يكن خاليا من الأهمية بالقدر الذي يحدوني الى اهماله ٠

ويقول السلطان أنه أعطى تعليماته « أنه في حالة هروب مدحت باشا ومحمود باشا ، فاني سأسائل الحرس شخصيا ، واني لن أقبل في هذا الأمر عذرا ، أو تعليلا » ٠

ويقول السلطان عبد الحميد : ان الانجليز قاموا برشوة السر عسكر عوني باشا قائد جيشه : لقد أخذ عوني باشا من الانجليز أموالا : ان رجلا من رجال الدولة يأخذ مالا من دولة أخرى لابد وأن يكون قد قدم لها خدمات ٠٠ يعني هذا ان خلع المرحوم عمي السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد العرش بدله لم يكن حقدا فقط من حسين عوني باشا ؛ ولكنه مرضاة لرغبة دولة أخرى أيضا ٠

***

ويقول السلطان : أنه لا يعرف كيف ارتمى عوني باشا في أحضان الانجليز : هل اتصل بالسفارة الانجليزية وقت ان كان هنا ؟ أم أن الخارجية الانجليزية أحست بهمهمات حقده عندما وصل الى أوروبا فأوقعته في المصيدة ؟ لا أدري ٠٠ وانما بعد فترة من الزمن أخبرني سفيرنا في لندن موسوروس باشا ان حسين عوني باشا تقاضى مالا كثيرا من يد أجنبية في انجلترا ، ولم يعلم سفيرنا بهذا الأمر الا في وقت متأخر جدا ، وعندما وصل الى الخبر كان حسين عوني باشا قد مات ٠ ولكن مسألة ان قائدا

عثمانيا يقبل نقودا من دولة أجنبية لم يكن يستهان به .. وقفت طويلا أمام هذه المسألة مدحت باشا مثل عوني باشا اتبع سياسة مؤيدة للانجليز وكان دائما يفصح عن ثقته في الانجليز : لقد أحطت بجو تنعدم فيه الثقة : ليس عندي دليل على اتهام مدحت باشا ، ولكن واضح للعيان أن للانجليز يدا في عـزل عمي السلطان عبـد العزيز خالد . لم يهزني - السلطان عبد الحميد - هزا عنيفا قدر شخص يرتفع الى مقام قائد الجيش أو الى مقام الصدارة العظمى (مدحت باشا) ويقبل نقودا من دولة أجنبية ، هذا شيء أكبر من أن أحتمله . اذا كان مدحت باشا عابرا نفس الطريق ، فان هذا يعني أن الدولة وقعت في الشرك » والطريق الذي يشير اليه السلطان هو طريق العمالة للأجانب .

ويذكر السلطان - في مذكراته - ان انجلترا قد احتجت عندما عزل مدحت باشا من وظيفة الصدر الأعظم : لقد قامت الدنيا وقعدت في انجلترا بعد عزل مدحت باشا وكتبت الصحف هناك بأنه لا يمكن توقع شيء من اصلاح الدولة العثمانية بعد ذلك على الاطلاق .

ويقول السلطان : ان الانجليز احتجوا عقب ابعاد مدحت باشا عن الحكم ، ذلك أنهم يعتبرونه - مدحت باشا - رجلهم ، كما يعتبرون أن ابعاده - مدحت باشا - يعتبر موتا للدولة العثمانية .

ويقول السلطان ان مدحت باشـا الذي اتهم بالاشتراك في قتـل عمي نسي أنه وزير عثماني وتصرف تصرفا يظهره كمجرم رابط الجأش ، لقد لجأ مباشرة الى القنصلية الانجليزية فلما وجد أن القنصل البريطاني في عطلة لجأ الى القنصلية الفرنسية واحتمى بها ، ولم يكن ثمة دليل أكثر ادانة فان وزيرا عثمانيا وواليا يفكر في اللجوء الى سفارة أجنبية خوفا من أن يمثل أمام المحكمة لدليل واضح ووثيقة أكيدة تدمغه تماما .

***

وقال السلطان أيضـا - في مذكراته - ان انجلترا أثارت المسألة الأرمنية لابعاد الرأي العام عن الاحتلال البريطاني لمصر .

وكانت الصحف الأوروبية تهاجمني بشكل دائم وتلقبني بالسلطان الأحمر ، وكانت تحرض الرأي العام العالمي ضدي .

وينفي السلطان عبد الحميد أنه تدخل في حوادث ٣١ مارس ويقول أنه لم يشأ أن يستفيد من هذه الفرصة التي جاءت من تلقاء نفسها « ولو كان لي دخل فيها ، ولو أردت الاستفادة منها ما كنت يوما منفيا في قصر

بيلرلى وانما كنت سأكون فى السلطة فى قصر يلدز . تصورت جمعية الاتحاد والترقى ان حسن معاملتى لهم عندما كانوا ضعفاء جدا فى ١٠ تموز ، تصورت أن هذا ضعفا منى أو أننى لم أستطع الافادة من قوتى . فبدأت تتحفز للانقضاض على من أعلى : اعتراض كامل باشا على اقامة مأدبة ضيافة لباكستون اعتراضا وجيها وفى مكانه . وقد تسبب هذا فى حدوث أزمة بين الباب العالى والمركز العام للجمعية . ان استدعاء طوابير القناصة من الجيش الثالث لكى تحمى المشروطية وقيام طابور من الفرقة الثانية التابعة لطوابير القناصة هذه بحملة تأديبية فى عدة أماكن أحزن الجنود الموجودين فى استانبول وضايقهم .

كانت جمعية الاتحاد والترقى تتردى شيئا فشيئا ويوما بعد يوم ، أما مطبوعات كل جانب فقد كانت تنال من اسلام الجانب الآخر : قال كامل باشا بضرورة اتخاذ التدابير الحاسمة وان هذا وقتها . كان الفريق ناظم باشا قائد الجيش الثانى الموجود فى أدرنة حانقا على تدخل جمعية الاتحاد والترقى فى كل الأمور وعلى تصرفات الضباط التابعين للجمعية . وكان يخطرنى أيضا كتابة بأن لابد من اتخاذ التدابير الحاسمة ، وكنا قررنا اعادة طوابير القناصة وتهدئة الجنود الموجودين هنا وخفض عددهم .

★★★

ومع ان على رضا باشا ناظر الحربية كان جنديا مقتدرا الا أنه كان رجلا حليما جدا . وغير هذا . فقد كان خانعا للجمعية أيضا ، وكان لناظم باشا فى ذلك الوقت مكانته فى الرأى العام كذلك .

ونفى على رضا باشا فى وقت من الأوقات الى أذربيجان ولم يكن هذا النفى بسبب سياسى . وتسبب هذا النفى فى حب الشعب للباشا . وكان أملى اعادة الأمان واعادة الموقف لما كان عليه من هدوء . وتأمين الجو المناسب للمنافسة الوطنية . نسيت كل المغامرة التى حدثت مع ناظم باشا ووافقت على تعيينه لمنصب نظارة الحربية . وكان ناظر البحرية من الذين مالوا الى الجمعية ووافقت على تعيين حسنى باشا فى هذه النظارة وتصور بعض أعضاء مجلس « المبعوثان » ومجلس الأعيان وبعض الصحف ان هذا التعيين ضربة موجهة للمشروطية . وانسحب على الفور النظار والاتحاديون من وزارة كامل باشا .

★★★

كان مانياسى زاده رفيق بك ناظر العدلية مقيما فى بيته ، راقدا على فراشه نتيجة للمرض الذى أصيب به والذى أدى الى موته بعد ذلك بقليل .

وكنت أسمع أنه على خلاف مع بعض كبار رجال الجمعية وخاصة مع رحمى بك السلانيكى ٠

كان مانياسى زاده يميل فكريا الى كامل باشا ومع أنى لم أود الاستفادة من ميله هذا فقد توجه اليه فى بيته كل من سامى باشا زاده سزائى والبكباشى أنور بك (وهما من كبار الاتحاديين) حيث جعلاه يوقع على استقالته وهو على فراش الموت : حاول ناظم باشا فى البداية أن يستخدم طوابير حراس المشروطية ولكن كل محاولاته ذهبت سدى لأن مجلس « المبعوثان » الذى انعقد فى ذلك اليوم اتخذ قرارا باسقاط حكومة كامل باشا ومعروف ما حدث فى هذه الجلسة وماذا كان شكلها ، فى البداية سيطر أنور باشا على داخل مجلس « المبعوثان » بمجموعة من الضباط والجنود بملابسهم العسكرية والمدنية ٠ وأتى بمصفحة وجعلها بحذاء مجلس « المبعوثان » ٠

ابلغنى بقرار مجلس « المبعوثان » رئيسه أحمد رضا بك ٠ وأضاف اليه - فى سذاجة بالغة - ان الأمة وهى تبلغكم رغبتها هذه فانه من الموفقيات التاريخية ان هذه المحادثات والمناقشات والقرارات المشبعة بحب الحرية من شأنها اضفاء الشرف على عهد جلالتكم العظيم ٠

لا أدرى مدى الرغبة الحقيقية للأمة فى هذا الأمر ، لكن اسقاط كامل باشا على هذه الصورة لم يكن خيرا ولم يعد ذلك من الخير فى شىء أيضا ٠

***

كانت الجمعية وهى تستند الى أكثرية مجلس « المبعوثان » تريد حسين حلمى باشا صدرا أعظما فقبلت حتى لا أزيد المشكلات ولم يكونوا يثقوا بى ٠ ولهذا السبب عهدوا الى حسين حلمى باشا أيضا - وهو محل ثقتهم الكبيرة - بنظارة الداخلية - والتزم كثير من الذين لم يرضوا هذا الوضع جانب كامل باشا وبدأت المخاصمة صريحة بين الطرفين ٠ أما الصحافة فلم تكن تفكر فى المشروطية وانما كانت تفكر فى مدى الافادة التى تعود عليها من كل أعضاء الاتحاد والترقى أو من كامل باشا ومؤيديه ٠ وكشفت الحرية تماما عن مدى استعدادنا وقابليتنا لها ٠ وبفضل المشروطية عرفنا تماما فى ثلاثة أو أربعة أشهر مدى قدرتنا ومدى عجزنا فى أمور كثيرة وظهر الخطر بجلاء واضح فى هذه الأثناء تشكلت جمعية الاتحاد المحمدى ولم يكن لها داع أن مؤسسها الدرويش القبرصى كان معتوها وكان منفيا فترة الى الأناضول ٠

***

كان لسعيد باشا ابن كامل باشا فى هذه الأثناء نشاط ضخم وكان معه كثير من المعارضين للجمعية وكذلك كان معه اسماعيل كمال بك أيضا ٠

وعلمت ان خلافا كبيرا حدث بين الجنود ورأيت أنه من الخطر الكبير غير العادى على وعلى الدولة حدوث ثورة وبشكل خاص تدخل الجنود فى اعمال مثل هذه الأعمال ٠ أخبرت حسين حلمى باشا بالموقف بل واستدعيت فى احدى الليالى وزير الحربية والغازى مختار باشا زاده محمد باشا قائد القوات الخاصة الى السراى وكان معنا الصدر الأعظم وتباحثنا فى الأمر بحثا طويلا ٠

قالوا انهم يقدرون خطـورة الموقف وانهما سيتخذان فورا التدابير اللازمة ولكن عندما اتخذت هذه التدابير كان الموقف قد اختلط وتغير وتعقد تماما ٠ عجز السلطة كان واضحا فقد أعلنت الصحف والجمعيات والنوادى وبشكل مثير عن حريق ٣١ مارس ٠

★★★

لم أتدخل حتى لا أكون شريكا فى مسئولية الواقعة ٠ كان يمكن لحكومة حسين حلمى باشا قمع هذه الفتنة خلال ساعتين لو كان لديهـا العزم الصادق على هذا ٠ يقول رجالى بعد أن حققوا فى الأمر أن هذه الواقعة بدأت بعدد قليل من العسكر ٠ وكان سعيد باشا ابن كامل باشا هو الذى اتى برجل ألبانى اسمه الجاويش حمدى وأمده بالمال اللازم ودفعه لتحريض هؤلاء العسكر ٠

لم أقابل سعيد باشا الا مرة واحدة وكانت بعد المشروطية وسبب هذا كان تذكيرى لوالده ــ الذى كان صدرا أعظم فى ذلك الوقت ــ بمنع الحكومة رسميا نشر هجوية ضدى بعنوان المحكمة الكبرى نشرت وبيعت فوق الكبرى ٠ منع نشرها وغيرها مما شاكلها ٠ وقد استدعيت سعيد باشا بصفته ياورا لى وكلفته بابلاغ الصدر الأعظم أمرى وارادتى فى هذا الشـــأن ٠

طبعت المحكمة الكبرى قبل ذلك فى أوروبا ٠ وقد علمت بعد التحقيق ان كاتبها بكباشى ــ لا أستطيع تذكر اسمه ــ من معلمى المدرسة الحربية فنفيته ٠ لقد أخبرنى ابنى أحمد الأمير وهو يبكى وهو فى أشد حالات التأثر انها طبعت فى استانبول أيضا بل وتوزع علانية ٠ وبدافع من هذا التأثر فقد كنت استدعيت ابن كامل باشا هذا ٠ ومن كان مثلى وفى مثل هــذا الموقف كان من واجبه ومن حقه الطبيعى أن يتصرف بمثل هذا التصرف

فلقد كنت سلطانا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كنت أمام عملية اهانـة علنية موجهة الى شخصى مليئة بأقذع السباب •

★★★

اننى أسامح أمتى مسامحة تنطوى على الصدق والاخلاص ولكن ليست حياة ثلاثة أشخاص أو خمسة هى حيـاة أمتى التى أكن لها الحب وروح بلادى المخلصة ، لا تسب ولا تشتم سلطانها التى تعود شعبها اعتباره أبا وذلك منذ ستمائة سنة •

فلنعد الى موضوعنا لو لم يتردد حسين حلمى باشا ورفاقه ولولا أنهم تقاعسوا عن أداء واجبهم لانتهت حادثة ٣١ مارس فى سـاعة واحدة • استقالت وزارة حسين حلمى باشا بعد أن أحاط الحريق بالمدخنة •• طالب المجتمعون فى ميدان آيا صوفيا بصدارة كامل باشا وأن يكون ناظم باشا وزيرا للحربية ونظرا لانهم لم يكونوا حذرين فانى أوصيت بتعيين توفيق باشا وهو محايد • فى الصدارة العظمى وبتعيين الغازى أدهم باشا وزيرا للحربية •

كنت أعلم أين يختفى كبار رجال الاتحاد والترقى (بعد هروبهم) وأصدرت أمرى الى رجال أثق بهم بأن يحافظوا على أحمد رضا بك الذى نقل ليلا وخفية من الباب العالى الى منزله الكائن فى مقرى كوى •

قرأت في الصحف بعد ذلك أن لى يدا فى مقتل على قبولى بك ، رفضت هـذه الفرية باشمئزاز ، حتى لو كانت هنـاك ضرورة للانتقام وأسففت بنفسى ، وتدنيت بها الى هذه الدرجة الحقيرة ، فهل أقتل رجلا مثل على قبولى بك ، وهو لم يكن له دور فى الانقلاب لا من الدرجة الرابعة ولا حتى من الدرجة الخامسة أو بمعنى أصح كنت أقتل رجلا لم يكن له أى ذنب مطلقا فى هذا الأمر ؟

★★★

وفى مجال اتخاذ الجمعية من الاجراءات الاحتياطية ضدى كانت مسألة تعيين محمود باشا ابن الغازى مختار باشا قائدا للقوات الخاصة • ومع هذا فانى أنا الذى أنقذت حياة محمود باشا هذا • من الموت أثناء ضجيج ٣١ مارس ويثبت هـذه الحقيقـة وثائق دار البـرق فى كل من يلديز وقاضى كوى •

ساعدت جمعية الاتحاد والترقى ، وعدم خبرة الحكومة التى استندت اليها هذه الجمعية وبسوء تدبيرها على أحداث ٣١ مارس ولقد أفاد من هذا

مجموعة من معارضي الاتحاد والترقي وعلى رأسهم سعيد باشا ابن كامل باشا واسماعيل كمال بك ولم تكن هذه المجموعة على دراية بالصحافة وتجهل الاحساس بالخطر وكذلك كانت تزيد النـــار اشتعالا • قامت الصحافة الصادرة في أول نيسان وبشكل عام بامتداح القائمين بهذه الحركة وذهب مراد بك في جريدته الميزان الى أبعد من ذلك • فقد أطلق على الجنود الذين قاموا بقتل ضباطهم لقب « الغزاة » وقارىء الميزان في ذلك الوقت كان مقتنعا بأن مراد بك هو منظم هذه الحركة بالاضافة الى هذا فان مراد بك محرر الميزان لم يكن عنده حتى أدنى خبر عن ان حركة كهذه ستحدث •

★★★

انه هكذا وضع نفسه في هذا الاطار وجمله وأخذ يكيل المديح في هذه المسألة ، مثلما يفعل في كل أمر آخر ، ولو كانوا زجوا بمراد بك ضمن المصلوبين في هذه المسألة ، فان ذلك ليعد ذنبا كبيرا •

لم أحب مراد بك في أي وقت من الأوقات . انه رجل كان يثق بخياله أكثر من ثقته في الحقائق التي يثبتها الآخرون : لقد تقرب الى عن طريق يوسف ضيا باشا رئيس لجنة المهاجرين ، وذلك عندما أصدر جريدته ـ الميزان ـ لأول مرة في استانبول •

كان يوسف ضيا باشا غريما لكامل باشا الصدر الأعظم وقتذاك • وكان مراد بك يرضي ـ ولأقصى حـد ـ رغب رضا باشا ، بذلك الهجوم الشديد الذي كان يشنه على كامل باشا (في جريدته الميزان) •

وفي أشد أوقات المسألة الأرمنية حرجا ، قدم (مراد بك) لي مذكرة عن طريق الحاج علي بك رئيس البلاط • قابلته وتحدثت معه طويلا • كنت قابلته عدة مرات قبل ذلك • وكان يبدو من تصرفاته في ذلك المساء انه كأن يريد الظهور أمامي بمظهر المرشد والموجه لي • كان له معروضات أخرى، غير تلك المذكرة التي نشرها أخيرا • ليته كان نشر معروضاته هذه ، لكان ظهر بوضوح بالغ صعوبة تنفيذ اقتراحاته لأنها من الخيال ، المحال تطبيقه وفي هذه الحالة كان لابد من احقاقي في رأيي فيه •

★★★

مراد بك رجل حسن النية ، لكنه كان يثق في نفسه كثيرا ومغرم أيضا وبدرجة مفرطة بالجمال • وكان الاحسان يأسره الى أقصى درجة • وعيوبه هذه كانت تجعله فاشلا في كل ما يقوم به •

لم تكن معركة ٣١ مارس هي التي دفعت مراد بك اليها ، لكنه هو الذي زج بنفسه فيهـا ، كان قد جلب على نفسه عـداء الدنيا بمهاجمته

للأوضاع ، وللضباط الذين قدموا من الجيش الثالث ، ثم مهاجمته للجنود والمدنيين الذين انضموا للجمعية بعد ذلك ٠

كان لابد أن تنفجر هذه المواد المشتعلة التي كانت الأحداث والادارة غير المقتدرة ، تعدها كل يوم وبشكل متغير ، حتى ان تأخر انفجارها الى ٣١ مارس لأمر يبعث على الحيرة ٠ وفي الوقت الذى لم أكن فيه مجبرا على تقديم حساب لأحد ، أقسم وأؤكد بأنني عملت ما في وسعي لقمع الشر وأظن أن لمساعي الأخيرة دخلا في مسألة تأخر انفجار الخطر ٠

كلما زادت اهتزازات أعصاب أمة ، كان أعضاء الاتحاد والترقي يزدادون استعلاء وتهديدا ، وأعلن أحمد رضا بك رئيس مجلس «المبعوثان» في مأدبة بلغت أقصى غايات الضخامة أقيمت في فندق « بيرا بالاس » قبل حادثة ٣١ مارس بشهرين ، أعلن في خطابه المهول وبصراحة بالغة ، أن جمعية الاتحاد والترقي ستقهر وتنكل بكل معارضيها ٠ أفلم تكن حادثة ٣١ مارس رد فعل مؤلم للضجة التي أثارتها الصحافة حول هذا الخطاب ؟

***

كانت صحف الجمعية تخيف الدنيا بالموت والحريق ، هؤلاء الواثقون بأنفسهم لم يتدنوا في أي وقت من الأوقات الى درجة التأثر بهذا التخويف٠ أما هؤلاء السادة الذين تحكموا فجأة في مواقع السلطة فقد أعلنوا مرة أخرى عن ضعفهم مع كل تخويف بواسطة أدب التخويف الذين اتبعوه ٠

لو تركنا جانبا الأحداث الصغيرة والعديمة الأهمية فان العوامل والأسباب الرئيسية لواقعة ٣١ مارس هي ما كتبته ٠

ان عدم وجود أي شخص مطلقا من ذوي الصلة بالقصر سواء من قريب أو من بعيد ، بين القائمين بالحركة ليثبت ألا دخل لي في هذه المسألة ٠ يظهرون ان وجود تقرير أو تقريرين من تقارير المباحث بين أوراقي بعد ١٠ تموز يكفي لاثبات أنني اشتركت بعد (اعلان) المشروطية في أعمال مثل هذه الأعمال ٠٠ حقيقة هذه المسألة أن توتون قيبيجسي مصطفى أفندي « أحضر لي مرة أو مرتين بعض أوراق وقبلتها لمحض الاطلاع على مجرى الأمور فقط ٠ وسمعت أن رئيس الكتاب جواد بك قد أخذ مصطفى أفندي لشغله السلطان بأشياء مثل هذه الأشياء ، بل وأخطره ألا يعود الى مسألة كهذه مرة أخرى ٠ وقد أحققت جواد بك على هذا ٠

كان البنك العثماني هو أول من أخبر بتحريك جيش الحركة من سلانيك ، ولم يصعب على فهم ما وراء هذه القوة القادمة من اختلال للأوضاع ، كذلك لم يصعب على فهم مضمون هذه القافلة التي يحمل قوادها

لقب الفدائيين كان جنود جيش الخاصة الذى يعسكر فى العاصمة على أكمل وجه من الاستعداد وكانوا جنودا منتخبين مخلصين لمقام الخلافة ولشخصى ٠

وقد أوصانى مجموعة من رجال الدولة وفى مقدمتهم ناظم باشا بايقاف جيش الحركة فى الطريق قبل وصوله لكنى رفضت ٠ أخبرونى بأن جزءا من الجيش المعسكر فى أدرنة انضم الى جيش الحركة ، ولم أضطرب اطلاقا لأن ليس من بين أعمالى شىء أخاف منه ٠

طلبت ، ونبهت بشدة ، ألا يخرج الجيش الموجود فى استانبول من ثكناته ، أثناء تحرك جيش الحركة من أيا سطفانوس الى استانبول ، وألا يشتبك معه ٠ ألم يكن فى امكان جنود استانبول فى حالة خروجهم من ثكناتهم وانتشارهم على أعالى كاغدخانة أن ينتصروا على ذلك الجند القادم من سلانيك وهم فى حالة يعوزها النظام ٠

★★★

لم أرغب فى أن أريق دماء جنودى ٠ كنت ارى أن الأمة لم تعد تثق بى ٠ وكنت سأنسحب من تلقاء نفسى وأدع مكانى عندما تسكن الأمور وتهدأ ٠ كنت أبديت رغبتى هذه من قبل ولكنهم عارضونى عندما التقيت لأول مرة مع أحمد رضا بك قال لى معارضى هذا القديم :

« سيدى ، ليس ثمة اختلاف قط بينكم وبين شعبكم ، فمنذ سلطنة جلالتكم على البلاد ، فانكم ستتفضلون ببذل خدماتكم للمكم كتلك التى بذلها ميقادو لليابان » ٠

وتحت عنوان : « تركيا الفتاة تتعاون مع الأرمن فى الخارج ضدى » قال السلطان عبد الحميد فى مذكراته : لم أكن أدهش لهيام الأرمن بحب الاستقلال وخاصة بعد معرفة اثارة الدول الكبرى لهم بلا توقف لكننى أدهش لان بعض أفراد تركيا الفتاة الذين هربوا الى أوروبا وأصدروا هناك صحفا ضدى كانوا يتعاونون مع أعضاء المنظمات والجمعيات الأرمنية ، كما أدهش لأنهم كانوا يأخذون منهم أموالا أيضا ٠

★★★

كانوا يقولون أنهم يريدون انقاذ الدولة العثمانية من التمزق ، ثم يتعاونون مع الذين يعملون على تفتيت الدولة ويتعاهدون معهم ٠

ترى : الى أى مدى كان يصل بهم الأمر لو لم أوقع بينهم ؟ هل قيام دولة أرمنية فى بطن الأناضول شاهد اثبات على وطنيتهم ؟!

أسجل هذا للاعتبار به ، ولمعرفة من يكون صديقا لمن ناصبوني العداء .

وبينما يبكي الوطن اليوم : أجد التفكير فيهم أمرا يؤذيني ويغمني .

ويقول السلطان عبد الحميد تحت عنوان : انهم لم يهزموا عبد الحميد ، وهاهم قد هدموا الدولة العثمانية » كم هو تجل غريب : أن يصل العثمانيون الجدد ـ الذين هربوا الى أوروبا ، الى مرامهم باسقاط عمي عبد العزيز خان . سقط عبد العزيز خان ، وقامت من بعده فورا الحرب الروسية ـ (العثمانية) عام ٩٣ ، فأخذت معها نصف منطقة الروملي . ومثلهم تماما ـ الأتراك الشبان ـ (تركيا الفتاة) الذين هربوا الى أوروبا لاسقاطي ووصلوا الى مبتغاهم ، ثم دخلوا الحرب العامة فأضاعوا الامبراطورية العثمانية .

★★★

كل من الفريقين تعلم في داخل البلاد . كل من الفريقين أيضا كان معجبا بالغرب . كل من الفريقين أيضا كان يرى الخلاص الوحيد للبلاد بتركيز في المشروطية . كل من الفريقين اتخذ جزءا من الجيش لتحقيق آماله والجيش الذى اعتمد عليه كل من الفريقين متمزق الأوصال من الداخل .

نعم ، كم هو تجل غريب جدا أنني عشت أحداث الحادثتين ، جربت بالصبر ما لم يستطع عمي عمله بالغضب . وعملت أنا على الصفح والعفو فيما لم يستطع عمي النجاح فيه بالعقاب .

انظر الى تجل أكثر غرابة : العثمانيون الجدد وتركيا الفتاة كانوا يؤازرون جميعهم الدول الكبرى التي ترغب في تمزيق أوصال الدولة العثمانية وتفتيتها . كان هؤلاء الشباب أمل الدول الكبرى . نفذوا ما تشاؤه هذه الدول ، فان في هذا خلاص الدولة العثمانية واذا لم تكن آذانهم صاغية لأقوالهم ، فان في هذا زوال الدولة العثمانية !!!

وفي المرتين انهزمنا ، مع أننا نفذنا ما أرادوه فعلنا ما قالوا . فهل تفتحت بعد كل هذا أعين الذين يعيشون في آخر حفنة من تراب الوطن ؟ أرجو الله هذا .

أولادي !! هم هؤلاء الأبناء الذين أعدهم هذا الوطن ، وقد جابوا هذا العالم الكبير ، فكيف لم يفطنوا الى الحقيقة التي رأيتها وأنا في قصري بين أربعة جدران !

ويتساءل السلطان عبد الحميد .. كيف لم يفطنوا الى أنهم أغرقوا بأيديهم بلدا عظيما هائلا روته دماء الأجداد ؟

***

لا أجرم أحدا ، ولكن ، كانوا بأنفسهم يرون ان الانجليز والفرنسيين والروس ، وحتى الألمان والنمساويين أى كل الدول الأوروبية الكبرى ، وجدت مصلحتها في تقسيم الدولة العثمانية وتفتيتها كانوا أعداءها والمشاهد أن هذه الدول الكبرى تنهش فى بعضها البعض لكنها سرعان ما تتفق وتتحالف اذا ما تعلق الأمر بمقاتلة العثمانيين ، أما ما لا تتفق هذه الدول فيه فهو : من سيحصل على نصيب أكبر من أراضى الدولة العثمانية .

ويقول السلطان : انه لا يتصور أبدا أن شباب تركيا الفتاة قد خدعوا وكان رجال تركيا الفتاة – فى البداية – لا يزيدون في الأصل على ثلاثة أشخاص أو خمسة عملوا ضدى عدة سنوات في أوروبا : تكلموا ، خطبوا ، ألهبوا ، كل ذلك قبل أن يفكروا فى أن العمل ضدى معناه أيضا العمل ضد الوطن ، كانت صحفهم التى يصدرونها تأتى خفية الى البلاد عن طريق البريد الأجنبى وتوزع بواسطة الأجانب . مضت أعوام ولم تحدث اثارة جدية هامة لهذا ، لانها لم تكن أعمالا تنبع من أفكار جدية هامة .

ورغم هذا ، فانى كنت على صلة بهم ، وحتى لا يتورطوا فى شىء نتيجة لافلاسهم – وهم فى بلاد أجنبية – فقد بذلت لهم مساعدات مادية كبيرة بحجة شراء صحفهم ، وأغمضت عينى عن ارسال بعض الأشخاص للنقود الى البلاد ، لكى لا يكونوا أداة للأجانب ، وكنت أقول أن معارضتهم – رغم خطئها – فانها يجب أن تظل شريفة .

***

هناك أيضا بعض الأسباب التى دفعتنى لذلك . أحمد رضا بك – وكان مديرا للمعارف في بورصة – سافر الى أوروبا بحجة الدعاية للمنتجات الحريرية البورصوية فى معرض باريس الذى أفتتح بمناسبة مرور مائة عام على الثورة . فذهب ولم يعد ومن هناك أرسل لى – لائحة اصلاحية – قرأتها ولم يكن فيها شىء فهو لا يعرف البلاد ، ولا يعرف ما يمكن أن تفعله هذه المقترحات أهملتها .

***

وتحت عنوان : « أعدائى من تركيا الفتاة كلهم من أعضاء المحفل الماسونى الانجليزى » يقول السلطان عبد الحميد فى مذكراته : لم أستطع

أن أفهم كيف سارت رغبة اسقاطى من فوق عرشى وتنصيب أخى مراد مرة أخرى . هل لأن أخى السلطان مراد كان مثلهم ماسونيا ؟ أم لأن التفكير أفضى به الى أنه من السهل عليه أن يضغط على أخى مراد ويجعله آلة ينفذ كل شيء ؟ . حتى الآن لا أستطيع تقدير هذا .

لابد للتاريخ يوما أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم . استطعت أن أعرف من تحقيقاتي ان كلهم تقريبا من الماسون وأنهم منتسبون الى المحفل الماسونى الانجليزى . وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل ، ولابد للتاريخ أن يفصح عن هذه المعونات وهل كانت معونات انسانية أم سياسية .

وكما قلت من قبل ، ان ذهاب كمال بك الى ماغوسا (منفيا) ثم ارساله الى (جزيرة) ميديللى ، كان بسبب عدم قدرتى على الاساءة الى قلمه ووطنيته والا فانه كان سيشترك فى أعمال توجب توقيع أنواع من العقاب أكثر ثقلا عليه .

كان محظور أن يبقى (نامق كمـال) فى استانبول فالمحيطـون به يحرضونه ويستخدمونه كما يريدون ، ولذا حبسته . نفيته لكن محبتى له لم تنتقص فى يوم من الأيام ، ليكن فى أى مكان ، لكنه هو وأسرته كانوا يعيشون مرفهين والخطابات التى أرسلها تعبر عن امتنانه وشكره ، وهى محفوظة بين أوراق يلديز ، ولابد أن توجد اذا ما بحث عنها ، كان المرحوم يدرك ويعرف نقطة ضعفه جيدا .. عليه رحمة الله .

***

ويمضى السلطان عبد الحميد ـ فى مذكراته ـ قائلا :

يقال ان مدحت باشا ساومنى قبل جلوسى على العرش فى نهاية هذه المساومة جلست على العرش . كما يقال ان مدحت باشا تحدث معى فى ارتقائى العرش أثناء تولى أخى السلطنة ، وأنه اشترط على بعض الشروط لكى أستطيع أن أصبح سلطانا ، ويقال أيضا ان هذه الشروط هى : اعلان القانون الأساسى (الدستور) وتعيين ضيا بك وكمال بك فى السراى ، ويقال ان تنازلى عن العرش فى حالة شفاء أخى من ضمن هـــذه الشروط . ومع ذلك فلم يكتف بذلك بل أخذ على كما يشاع تعهدا بتنازلى عن العرش فى حالة شفاء أخى مراد ، وحتى أنه قيل أن اضطهادى لمدحت باشا كان من أجل حصولى على هذا التعهد منه .

لا أصل لهذا ، والحقيقة هى ان كلا من الصدر الأعظم رشدى باشا ومدحت باشا أجريا معى ـ أثناء مرض أخى ـ محادثة ، لكن أحدا منهم لم

يتحدث معي في أي شرط ، كذلك لم يجعلا في موضوع الحديث شرطا من هذه الشروط في هذه المحادثة · لم يتحدثا عن مرض أخي بشيء · ولم يذكر أشياء عن ارتقائي العرش وكل ما هناك أنهما أخبراني بأن مدحت باشا قال انه وجد من أخي السلطان مراد رغبة في القانون الأساسي ، وأن بعض الاستعدادات قد حدثت في هذا السبيل ، وحاولت أن أعرض عليهما أفكاري في الموضوع ، وقلت لهما انني حريص على اعلان القانون الأساسي (الدستور) ·

والحقيقة أنني كنت أفكر في هذا في تلك الأعوام ولا سيما انني أعلنت القانون الأساسي بعد ابعاد مدحت باشا ، ودعوت المجلس للانعقاد عند دخولنا الحرب ، وأمرت أن تستمر أعمال المجلس طوال وقت الحرب ·

أما الباقي فكذب فكيف أكون سلطانا وأوقع على مستند يأخذه على وزيري ؟ وكيف يجن وزيري ويجرؤ على وضع شرط على سلطانه ؟

انها أشياء استحسنها ـ من بعد ـ أشخاص مخبولون · مدحت باشا كان وزيرا حريصا وجسورا ، ولكنه لم يكن أيضا مجنونا ···

تقييد سلطان يرتقي العرش بتعيين ضيا بك ونامق كمـال بك في السراي غير معقول ، فليس الأمر أمر سلع مختلفة هل تعيين كل من ضيا بك وكمال بك في السراي يقيد يدي وذراعي ؟ ألم أكن أستطيع بكلمـة واحدة مني فصلهما من عملهما ؟ انه شرط يصعب على العقول تصوره ·

★★★

يأتي الكلام ببعضه ، فاقول : ان ضيا باشا كان رجلا لا يشبع من نعمة ولا من منصب وعلى قدر ما كان نامق كمال بك مخلصا كان ضيا بك جشعا محبا للمادة · فعندما عينته واليا على سوريا بدرجة وزير لم يمتن لهذا لأن عينه كانت مركزة على منصب الصدارة العظمى · كان شبيهها بمدحت باشا في كل ناحية فكما أرسل مدحت باشا ـ بعد ابعاده الى أوروبا ـ الهـدايا والنقود الى أصـدقائه في استانبول عن طريق بعض الأرمن : أرسل أيضا ضيا بك (باشا) من سوريا ، وكان حريصا على ظهور مقالاته التي يكتبها بدون توقيع في صحافة استانبول ، لا أستطيع أن أعرف بالضبط مدى الحد الذي كان يباشر به أعماله في ولاية سوريا ، لكنني أعرف يقينا أنه كان يرسل الى بعض الأشخاص في استانبول من عشرة الى خمسة عشر خطابا في اليوم ·

ذات يوم وصل ضيا باشا الى ازمير وأدلى بحديث الى محرر احدى

الصحف الأجنبية قال فيه ، وبطريقة مستهترة ، كلاما خارج حدود الأدب قال : السلطان فى البلاد التى تدار بالقانون الأساسى خادم للأمة ٠

أعرف ان الحاكم فى كل أمور الحكم يكون فى خدمة أمته وليس (خادما) لها ٠ والحاكم فى البلاد التى تحكم بالقانون الأساسى (الدستور) يحيل قسما من اختصاصاته الخاصة بالأمة الى المجلس الذى أقامه وليس فى هذا عمل من أعمال الخدم ٠

***

وضيا بك هذا الضال المتغطرس يقول هذا ويعمل على تحقير السلطنة ويتطاول عليها ٠ والمعروف أن السلطنة حرصت الدولة العثمانية حرصها على انسان عينها ٠ وكان الصدر الأعظم فى ذلك الوقت هو مدحت باشا أغمضت عينى وبدوت كأنى لم أسمع شيئا حتى لا تتصعد المشكلة ٠

ولكن عندما وجدت أن ضيا بك (باشا) من خلال صحف استانبول — يجمع عن طريق مؤيديه عدة آلاف من التوقيعات لكى يصبح نائب أمة — أخطرت الصدارة العظمى بمذكرة جاء فيها : اننى لا أجد من الصواب أخذ شخص فى المجلس سبق له أن أساء بتصرفاته الى حاكمه » ٠ يريدون اتخاذ هذه المذكرة وثيقة على استبداد يا ترى لو أن شخصا فى انجلترا حقر الملك الذى يثق به مدحت باشا ورفاقه ، وحقر الملكية فهل يقابل هذا الشخص بالتصفيق أم بالاعتراض عليه ؟

***

ويذكر السلطان عبد الحميد أن المحافل الماسونية كانت تساعد أسر وعائلات الثوار ضده فيقول :

رأيت خطابا تسلمه أحمد جلال الدين باشا من على كمال بك فى مصر وغالبا ما يكون هذا الخطاب بين محفوظات قصر يلديز ٠ فيه أسماء ومصادر التمويل اسما اسما ٠ وفى هذا الخطاب أيضا يذكر ان الدكتور عبد الله جودت ٠ والدكتور اسحق سكوتى ، والدكتور بهاء الدين شاكر ، والدكتور ناظم والدكتور ابراهيم تيمو ، ينتسبون الى المحافل الفرنسية والايطالية وان هذه المحافل تسلم عائلاتهم الموجودة داخل البلاد النقود يدا بيد ٠ هذا ما كتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات ٠

***

ويقول السلطان عبد الحميد أيضا عن الماسونية : ان الصحف التى صدرت فى أوروبا ومصر بمختلف أسمائها ورجال الجمعية الذين كانوا

يتنزهون في هذه البلاد لم يخرجوا للبلاد كاتبا جادا واحدا ، ولكن محافل الماسونية ـ رغم تعقبنا لهم ـ جعلت من هؤلاء المتسكعين أعلاما ، عندما حركوا الضباط من أعضاء الاتحاد والترقى · وتلك هى قصة تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقى ·

نعم ، هذه هى الحكاية ، حكايتهم ولكن النتيجة نشاهدها اليوم بكل اسف أمام أعيننا ·

سيقولون لى : انك تعلم كل هذا ، ومع ذلك لم تتصد له ولم تمنعه . لماذا أغمضت عينيك عن خراب الدولة وانهيارها ؟ حاشا !!

ليست المسألة مسألة اغماض عين ، لقد كنت يقظا فى كل لحظة لكنى لم أكن أستطيع منع هذا · كنت بمفردى وكان معهم كل عالم العدو · لم تكن طبيعتى وظروفى تساعدنى الا بهذا القدر ·

يديننى أصدقائى بأننى متساهل ، أما أعدائى فيقولون انى ظالم غـــدار ·

والجانبان مخطئان ، فلا أنا كنت السلطان سليم الأول ، ولا بلاد السلطان سليم الأول كانت تحت أمرتى ·

الاطاحة فورا بعدة رؤوس كلام من السهل قوله ، من الصعب تنفيذه وكل رأس انسان تفتح أمام الانسان هوة ، ولو استطعت أن تملأ هذه الهوة فسيخافون منك ، وتستطيع عندها أن تهدد ، وكل ما تهدد به سينفذ · وفى حالة تغطية هذه الهوة فليس هناك شيء قط يمكن عمله ، وأنا انسان رحيم منذ ميلادى ولكننى أعلم أن الدولة لا يمكن أن تدار بالرحمة ·

كل ما استطعت عمله عملته ، ولو كان السلطان سـليم الأول فى عصرنا لكان يمكن أن يعمل مثلما عملته أنا ·

أديت واجبى ، وسعيت وراء الصالح ، وحرصت ألا أؤذى الأهالى ، عارضت سفك الدماء فى كل مكان ولكن عبثا ما فعلته » ·

***

وتضيف الأميرة شادية الى ما قاله والدها السلطان فى هذه النقطة قائلة : كانت جميع شعب الاتحاد والترقى سـواء تلك التى تكونت فى العاصـمة (استانبول) أو فى المراكز ، والبلدان الأجنبيـة فى حمـاية الدول العظمى ·

***

ومن مذكرات السلطان عبد الحميد ما كتبه عن شخصية نامق كمال بك :

« يعد نامق كمال بك من بين الذين لم ينالوا مني حقهم كاملا ، ربما يكون في هذا بعض الحقيقة · كان كمال بك أكثر من لفت انتباهي من بين عدة أشخاص أطلقوا على أنفسهم اسم (العثمانيون الجدد) · كان انسانا منضبطا جدا ، لا تتوافق حياته العائلية مع حياته الخاصة ، ولا تتوافق حياته القلمية مع حياته الفكرية ، يمكن والى حد كبير أن نجزم بان انسانا ما يستطيع عمل أمر ما أو لا يستطيع ، لكنك لا تستطيع القطع بهذا بشكل من الأشكال وأنت تفكر في كمال بك ، ذلك لانه هو نفسه لا يعرف نفسه ، تستطيع أن تقول أنه واحد من الأشخاص النادرين الذين يحيون حياتين مزدوجتين في حياة واحدة ، تختلف الواحدة عن الأخرى حسب مزاجه ، من يعرفوه عن قرب يعرفوا أنه عندما كان على وئام مع السراى ألف كتابه (التاريخ العثماني) ، وبمجرد أن فسدت هذه العلاقة ، يعرفون أنه قطع رأس التنين بقوله : (كلب هو الذى يأمن لخدمة صياد غير منصف) انه انسان متقلب ، ربما كان انسانا مخلصا جدا ، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكر مثلك ، ولا يمكنك معرفة عدد الساعات أو الأيام التي سيحمل فيها هذه الأفكار ·

★★★

عند كتابة القانون الأساسي (الدستور) تولى هو أيضا اعداد مشروع له ، كان مختلفا مع مدحت باشا في هذا الموضوع رغم صداقتهما الحميمة · في البداية كنت أدهش له كثيرا ، لكنى بعد ذلك فهمته كان يجل الأسرة العثمانية كثيرا ويريد لكل أفكار الاصلاح أن تتم في اطارها ، وكان في هذا على عكس مدحت باشا الذى كان يفكر في تحين فرصة من الفرص ينهي فيها حكم آل عثمان ويحل هو محلها ·

★★★

ما أعجب هذا ·· !! مدحت باشا يقول ذات ليلة : ماذا يحدث لو حل آل مدحت محل آل عثمان وفي اليوم التالي يأتي الى نامق كمال بك ويخبرني بذلك ·

في الأيام التي كانت اللجنة (الدستورية) تدرس وتبحث فيها القانون الأساسي (الدستور) أتى نامق كمال بك الى السراى وطلب سرعة مقابلتي ، أخبرني بهذا سعيد باشا ، وكان عندى بعض المشاغل ، فرغبت أن يقابلني في يوم آخر ، أصر على مقابلتي وقال : يجب أن أراه بسرعة فما لدى أهم · وقابلته ·

كان في أشد حالات الاضطراب ، وجهه أصفر ، يداه ترتعشان ، أدى الاحترامات الواجبة وقال :

ـ لابد أن تتدخلوا في القانون الأساسي الذى يعد الآن ، والا فمعاذ الله ستنتهى الدولة العثمانية ·

***

هدأت من روعه قليلا ، وحكى لى ان مدحت باشا يضغط عليه بدافع من الصداقة الوطيدة بينهما · لكنه أصر على رأيه ، وقد تم التفاهم مع سليمان باشا ، ويبدو أنهم سينقلون كل حقوق السلطان الى المجلس ·

لو نجحوا فيما يقولونه فمعاذ الله ستنتهى الدولة ، فكرت فيما يجب عمله ، وجدت أن لابد لى من الاعتراض على هذه المحاولات ·

***

ما قاله نامق كمال بك كنت أعرفه ، فقد كان عندى خبر به ، وتتبعت هذه المحاولات وأنا أحس ببعض الأسى في تلك الأيام : كنت مخلصا في مسألة اعلان القانون الأساسي (الدستور) كان والدى المحترم السلطان عبد المجيد الأول هو الذى أقنعني بهذه الفكرة ، ولم أكن أختلف مع مدحت باشا اطلاقا فى هذا الموضوع ، لكنني كنت أرى أن يعاون السراى المجلس ، ومدحت باشا يريد أن يضع السراى على الهامش ·

فى ذلك اليوم رأيت ان نامق كمال بك يفكر مثلى ولا أستطيع أن أخفى أننى كنت ممتنا جدا لذلك ·

ومع هذا · فاننى لكى أجعله يتكلم أكثر سألته عن أى مادة من المواد ورد فيها هذا ، اتسعت عيناه دهشة وحيرة ، وقال :

ـ يا سيدنا ، هذا المجلس سيشكل من عناصر مختلفة ، وعلى قدر ما يلزم من التفكير فى الجانب الحسن في أمر من الأمور على قدر ما ينبغى اتخاذ التدابير لجوانبه السيئة ، الدولة العثمانية موحدة في شخصكم وأنت اليد الأمينة لصاحبها الحقيقى وهو جناب الله · فاذا كان فى سلطتكم واقتداركم عقد المجلس فى حالة ضرورة فانه من حكمة الدولة ضرورة أن يكون من سلطتكم تعطيل هذه اللجنة (الدستورية) ·

فهمت مم يخاف · واعترف أنه كان انسانا وطنيا · كان يرى أن بقاء الملك فوق كل شيء ·

***

ويعلق مترجم مذكرات السلطان عبد الحميد ، د٠ محمد حرب بترجمة كتبت من قصيدة نامق كمال المشهورة ، وهي أول عمل أدبي في اللغة التركية العثمانية حملت أول بذرة للفكرة القومية في الأدب التركي والمقصود هنا أن الشاعر هجا السلطان عبد الحميد بهذه القصيدة ، وبذلك باعدت القصيدة بين السلطان وبين نامق كمال ٠ (حرب) ٠ والجدير بالذكر ان نامق كمال نفسه كان وصف السلطان عبد الحميد ، في عريضة قدمها اليه بقوله :

« أنت أيها السلطان ، الامام الرباني لهذا الزمان ، وانك حقا سلطان العالمين » ٠

وفي عريضة أخرى قدمها نامق كمال للقصر ، مدح السلطان عبد الحميد بقوله :

« ان مقصد سلطاننا هو راحة الشعب والأهالي لذلك فالاحترام واجب لهذا السلطان العظيم أنه جدير بأن نلتزم الموت في سبيله ٠

وكان نامق بك قد هاجم السلطان بقوله : في عهده ، ذهب الدين وذهبت الدولة ٠

★★★

ويقول السلطان عن شخصية أخرى من شخصيات الاتحاد والترقي ٠٠ الدكتور ناظم بك السلانيكي : انه اتحادي حقود وكان يعمل ضدي مع أحمد رضا بك (أحد أعضاء مجلس الأعيان وقد أصبح رئيسا له) وكانوا يقولون لي ــ للسلطان ــ ان الطبيب السلانيكي ناظم بك أحد أركان الاتحاد والترقي المتعصبين كان معجبا بنفسه ولا يعجبه أحد : كان رجلا لا يصادق فلا مودة فيه ، وكنت ــ السلطان عبد الحميد ــ أتعقب أحيانا من مكاني في القصر حياة وحركات المخالفين لي ، كما أعرف أن الدكتور ناظم بك لا يعمل بمهنته الأصلية وهي الطب وانما يشتغل بالسياسة ، ولكن ما هي السياسة التي كان يشتغل بها ؟ هذا ما لم يكن واضحا فقد كان يشتغل بسياسات مختلفة ، لكنهم قالوا : انما كانت له ميزة واحدة : انه كان متميزا بين رفاقه بحرصه الشديد على رفضه أية مأمورية يكلف بها صغيرة كانت أم كبيرة » ٠

★★★

لن أتحدث هنا عن شخص الدكتور ناظم بك ، ذلك الرجل الذي وجد في نفسه الصلاحية لتجريد اسمي حتى من اللقب الذي حملته عن ارث

وجدارة ، وانما سأتحدث عن هذا السبب المبتذل الذى وجهه الى وهو جالس فى احدى القمرات الجانبية فى باخرة قاضى كوى ....

هل أشعل عبد الحميد حريقا أم لم يشعل ؟ وهل كانت المواد المساعدة على الاشتعال موجودة أم لم تكن موجودة عبر فترة تشتت بلغت الثلثمائة عام السابقة على عهد عبد الحميد ؟!!

ليس هنا مكان مناقشة هذا ، لأنه تاريخ ، والدكتور ناظم بك ورفاقه سيدخلون التاريخ ذات يوم .

★★★

وكان السلطان عبد الحميد يشير الى حوار جرى بين بعض الأشخاص قال أحدهم : ان هناك حريقا فى البلد ، وان الفقر ضارب أطنابه فى هذه الأيام . وعقب أحدهم (ناظم بك) على هذا بقوله : هذا الحريق تركه لنا عبد الحميد انه سجن مدحت باشا ثم قتله ، واتبع طريقا كان ولابد أن يؤدى بنا الى هذا الحال .

ويقسو السلطان عبد الحميد على جمال الدين الأفغانى فيصفه بأنه مهرج ، وعميل للانجليز ، جاء فى مذكرات السلطان عبد الحميد ، عن جمال الدين الأفغانى ما يلى :

« وقعت فى يدى خطة أعدها فى وزارة الخارجية الانجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغانى وانجليزى يدعى بلنت قالا فيها باقصاء الخلافة عن الأتراك ، واقترحا على الانجليز اعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين .

كنت أعرف جمال الدين الأفغانى عن قرب . كان فى مصر . وكان رجلا خطرا ، اقترح على ذات مرة — وهو يدعى المهدية — أن يثير جميع مسلمى آسيا الوسطى ، وكنت أعرف أنه قادر على هذا ، وكان رجل الانجليز ومن المحتمل جدا أن يكون الانجليز قد أعدوا هذا الرجل لاختبارى ، رفضت فورا ، فاتحد مع بلنت .

استدعيته الى استانبول عن طريق أبى الهدى الصيادى الحلبى ، الذى كان يلقى الاحترام فى كل البلاد العربية ، قام بالتوسط فى هذا كل من منيف باشا ، حامى الأفغانى القديم ، والأديب الشاعر عبد الحق حامد . جاء جمال الدين الأفغانى الى استانبول ولم أسمح له بالخروج منها مرة أخرى .. !!

★★★

وعن مشروع الخلافة وسعى الانجليز لتحقيقه ، قال السلطان عبد الحميد فى مذكراته :

« ليست هذه آخر محاولة انجليزية فى موضوع الخلافة ، فالانجليز يحكمون مائة وخمسين مليونا من المسلمين فى آسيا وللخلافة نفوذ كبير على هؤلاء المسلمين ، ولأنى كنت أعرف هذا ، كنت ــ ودون أن أثير شكوك الانجليز ــ أرسل السادة الأشراف ، وشيوخ الطرق الصوفية ، والدراويش، الى مسلمى آسيا الوسطى ، وكنت أعرض عناية خاصة بربط مسلمى آسيا معنويا بالخلافة ، وانى أذكر بشكل خاص وبكل امتنان ، الخدمات التى أداها فى هذا السبيل الشيخ سليمان أفندى البخارى بين مسلمى روسيا . ورأيت فى هذا فوائد جمة ، ورأى الولاة العموميون « المندوبون الساميون » الانجليز فى الهند أن مسلمى الهند على رباط وثيق بالدولة العثمانية فكتبوا الى حكوماتهم بضرورة التعايش فى سلام مع العثمانيين ولهذا سهل عملنا قليلا .

★★★

أصابت انجلترا الوساوس والشكوك من حملة الاستعدادات العظيمة التى تبذلها ألمانيا فى أسطولها وان من الخطر العظيم لوجود ألمانيا قوية فى البحار المفتوحة ، فى تلك الأيام اقترح الانجليز على الروس اقتسام الدولة العثمانية . كانوا يريدون ضرب عصفورين بحجر واحد : منع تقدم الروس فى آسيا ، واكتساب حليف لهم ضد ألمانيا . لم يرغب الانجليز فى أى وقت من الأوقات فى نزول الروس فى البحر الأبيض ، لكنهم ظهروا وهم يضعون نصب أعينهم هذه التضحية ، لأن منافعهم فى آسيا كبيرة ومخاوفهم من ألمانيا تتضخم .

★★★

رفض الروس هذا الاقتراح السرى الانجليزى ، لأنى كنت من ناحية أقترب من القيصرية ، ومن ناحية أخرى أقترب من الألمان ، ومعنى اقترابى من الألمان يعنى اكتساب الألمان فرصة الحركة فى مساحة تمتد حتى الهند وهذا لا يريده الروس ولا يرضى الانجليز به فكان أن بدأ كل من الروس والانجليز فى التصرف تجاهى تصرفات تتسم بمزيد من الود معى .

لم يكن فى نيتى التحالف مع الألمان ، الظهور بمظهر المتحالف سيجعل اتفاقى مع دولة تسود البحار العالمية اتفاقا غاليا له وزنه وكان على انجلترا ــ لكى تطمئن على أمنها فى الهند وآسيا ــ أن تسلك أحد طريقين اما الاستيلاء على أراضى الدولة العثمانية ، أو الاتفاق معها ، وهى لم تكن

تستطيع الاستيلاء على أراضى الدولة العثمانية ، فالدنيا كانت ستقف ــ فى هذه الحالة ــ على قدم وساق . ونظرا لرفض الروس اقتراحهم أى اقتراح الانجليز فى التقسيم ، كان لابد لهؤلاء الانجليز أن يتفقوا معى ، ولهـذا السبب أيضا سلكت انجلترا طريقين : الأول التقارب معنا فى السياسة . والثانى استخدام المحافل الماسونية وسيلة للاستيلاء على الحكم من داخلنا لصالحهم هم .

***

وكما استغل الانجليز غفلة أعضاء تركيا الفتاة ، عن طريق المحافل الماسونية ، بدأ الألمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر من هؤلاء الأعضـاء ، وعن طريق المحافل الماسونية أيضا ، وبهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة فى سلانيك ، وسيطر الانجليز على تشكيل تركيا الفتاة فى مناستر .

ولكى أجبر الانجليز على اتفاق معى عهدت بعملية انشاء سكة حديد بغداد الى ألمانيا ، وكان غضب الانجليز عظيما ، ولهذا أيضا جروا علينا مصيبة مقدونيا . لم أهتم لهذا . فقد كانت كل الخيوط فى يدى ، ومهما كان الأمر ، فانهم كانوا سيقدمون الى الاقتراحات التى كنت أنتظرها .

***

كان الانجليز يثيرون على اتحاديى مناستر ، ويثير الألمان على اتحاديى سالونيك ، كانوا يعملون على قيام انقلاب للاستيلاء على الدولة من الداخل . ونجاح الانجليز باستخدام اتحاديى مناستر كان مصيبة بالنسبة لى لأنهم كانوا سيزيلوننى ويصلون الى مرادهم . ولم أكن أخاف من اتحاديى الألمان لأن نجاحهم كان سيزيد من خوف انجلترا .

اتحاديو سـلانيك الواقعون تحت تأثير المحافل الماسونية الألمانية تحركوا بكل من أنور ونيازى . أغتيل شمس باشا ، وأضاع اتحاديو مناستر المحاولة .

بدأ الانجليز محادثات سرية عن طريق الرجل الذى أثق به أبى الهدى الصيادى ، واستطاع الروس أن يلاحظوا فى ذلك الوقت فقط أنهم قد خدعوا بسهولة .

نكبة آسيا فوقهم ، والمخربون مثيرو الاضطرابات فى داخلهم ولذلك كان على حكومتهم القيصرية أن تظل مفتوحة العين يقظة .

ـ ورغم كل ذلك فقد كتب لى القيصر رسالة خاصة يطلب فيها منى معـــلومات •

ولسبب ما أوقف الانجليز مباحثاتهم السرية ، وأصبحت أرى أن الحرب الكبرى التى أنتظرها وشيكة الوقوع ولكن لم يكن أمامى الا أن أترك الأحداث تسـير حسبما تسـير ، ولم يكن أمامى غير منع اراقة دماء الاخـــوة •

وما حدث بعد ذلك معلوم ويعرفه كل شخص •

أسقطنى اتحاديو سـلانيك عن العرش • وتوصلوا الى اتفاقية مع الانجليز • ودخلوا الحرب كحليف مع دولة تسود البحار ، وكأن المسألة حـلم •

★★★

واختار فقرات من مذكرات السلطان عبد الحميد يركز فيها على الدفاع عن نفسه •• من بين هذه الفقرات : فقرة يقول فيها متهكما على الثوار من تركيا الفتاة : لقد سلمت الحكومة الى هؤلاء المجاهدين سنة ١٩٠٨ وفى ابريل من السنة التالية (١٩٠٩) سلمت السلطة الى صاحب الشوكة والجلالة أخى ، كانت حدودنا (العثمانية) فى عهدى ممتـدة من أشقودره الى خليج البصرة ، ومن البحر الأسود الى صحارى افريقيا • واذا عقدنا مقارنة بين (تقويم) المالناق دو غوطه الصادر عام ١٩٠٨ والعدد الصادر هذا العام ، فسيتضح لخلفائى أننى لم أخلف حريقا ، وانما تركت منطقة هائلة تضم أكثر من ثلاثين مليون نسمة كما تركت جيشا •••

مضى على هذا (منذ تدخلهم فى الحكم) عشر سنوات ، فهل استطاعوا عمل ثلث ما عملته أثناء مدة سلطنتين ؟!! دعنا من الثلث فالثلث كثير ، فلنقل • العشر • فهل استطاعوا ؟!! » •

فقرة ثانية يقول فيها السلطان عبد الحميد : لقد كنت أوحد الأكراد والأرمن والأتراك مع العرب واليونان من البلغار والذين تملكوا زمام الحكم من بعدى أزالوا الخلاف بين العنـاصر المعادية لنا وأوجدوا الشقاق بين العناصر التى تقف بجوارنا وتؤيدنا ••••

★★★

فقرة أخرى جاءت فى مذكرات السلطان عبد الحميد :

وكما يحمى البستانى أزهاره من الحشرات الضارة ، حميت أنا أيضا بلادى من الأفكار التافهـة ولم أسـمح لها بقرص دولتى • عاملت هؤلاء

الشبان وهم أصحاب أفكار خاطئة ، عاملتهم بشفقة ولم أعاملهم بظلم ، ولقد حاولت مع الكثير جدا منهم كل على حدة ، أن أرشدهم الى الطريق القويم وعملت على تحويل نيران حماسة شبابهم الى خير البلاد ٠ نجحت مع بعضهم وأخفقت مع البعض الآخر ٠ حلال عليهم ما بذلته من جهد ، لم أستخدم همتى هـذه فى سبيل شراء ضمائرهم لكننى استخدمته لتنوير ضمائرهم ٠

اننى أتحدث بصراحة تامة فى هذه الأيام التى ارتبطت فيها بالدنيا برباط النفس ، وبالآخرة برباط النفيس ، وأقول ليس من أحد من الذين تملكوا الدولة من بعدى عرفوا احترام الفكر قدر ما عرفته ٠ سيطروا على الدولة ورددوا كلمة الحرية وبمجرد شروعهم فى الحكم ظهر أنهم لا يريدون الحرية الا لأنفسهم فقط ان الحرية التى فهموها هى التى تبدو بانها حرية السب فى ، وشتمى ، والتصفيق لهم ، ويدخل ضمن هذا أيضا حرية قتل الكاتب المعارض لهم فوق الكوبرى ٠

ليحم الله بلادى من هذه الحريات المختلفة ٠

***

ويقول د٠ محمد حرب الذى ترجم مذكرات السلطان عبد الحميد عن جمعية الاتحاد والترقى :

«الاتحاد والترقى هو أول حزب سياسى فى الدولة العثمانية ، كان ظهوره عام ١٨٩٠ وكان سريا مكونا من خـلايا طلبة الحربية والطبيـة العسكرية ، وكان تأسيسه يهدف الى معارضة حكم عبد الحميد والتخلص منه ٠ فى عام ١٨٩٧ تم اكتشاف هذا الجهاز فنفى عديد من أعضائه وفر بعضهم الى باريس ، وأرسل السلطان عبد الحميد مدير الأمن العام الفريق أول أحمـد جلال الدين باشا الى باريس لاستمالة أعضـاء المعارضة من الاتحاديين فنجح فى استمالة أكثرهم ومنحهم عبد الحميد مناصب كبيرة فى الدولة ٠ الا أن المعـارضين وعلى رأسهم أحمد رضـا بك ظلوا على معارضتهم ٠

***

وفى المدة من ٤ ـ ٩ فبراير ١٩٠٢ عقد فى باريس مؤتمر للأحرار العثمانيين حضرته كل العناصر المعارضة لحكم عبد الحميد وعلى رأسهم الاتحـاد والترقى ٠ وكان من ضمن قرارات هـذا المؤتمر تقسيم الدولة العثمانية الى حكومات مستقلة استقلالا ذاتيـا على أساس عرقى قومى ٠ وظهر المعارضون لهذا ومنهم أحمد رضا بك نفسه ، الا أن الأغلبية كانت لها قوتها فى تأييد هذا القرار ٠ ٠ ٠

طالب المؤتمرون من الدول الأوروبية التدخل لانهـــاء حكم السلطان عبد الحميد واقصائه عن العرش وفى داخل البلاد العثمانية وبالذات فى سلانيك ومناستر افتتح الاتحاد والترقي فروعا له التحق بها الضـباط الشبان من رتبتى ملازم ويوزباشي ، ثم بدأ دخـول الضباط من الرتب الكبيرة ، حتى أنه يتردد ان كل ضباط الجيش العثمانى الثالث (فى البلقان) كان عام ١٩٠٨ منضمون الى الاتحاد والترقى • وكان منهم أركان حرب قول اغاسي مصطفى كمال أفندي (أتاتورك فيما بعد) الا أنه انسحب فيما بعد من الاتحاد والترقي •

وفي مذكرة لجمعية الاتحاد والترقى الى قناصل الدول الأجنبية فى الدولة العثمانية طالبت الجمعية تدخل دول هؤلاء لانهاء حكم عبد الحميد ، وتحالفت الجمعية مع الثوار البلقانيين ضد السلطان •

***

اعتقد الاتحاديون انهم بازالة عبد الحميد يستطيعون تقريب العناصر المختلفـة في الدولة أو أن دول أوروبا ستكف عن مضـــايقاتها للدولة العثمانية ، وتصور الاتحاديون ان هذه الدول الأوروبية ستتعهد بحماية الدولة العثمانية اذا انتهى حكم عبد الحميد الفردى غير المشروطى (غير الديمقراطى) • والذى حدث أنه عقب المشروطية فقدت الدولة العثمانية البوسنه والهرسك مما أصاب الاتحاديين بالهلع •

فى ٢١ يوليو ١٩٠٨ م اضطر عبـد الحميد اضطرارا الى اعـلان المشروطية (الثانية) وتولت جمعية الاتحاد والترقى الحكم وأعلنت تمثلها لمبادىء الثورة الفرنسية « الحرية ــ العدالة ــ المساواة ــ الاخوة » •

***

أما فى ١٥ أكتوبر من نفس العام ١٩٠٨ م فقد استقلت عن الدولة العثمـانية كل من بلغـاريا وكريت التى أعلنت انضمامها لليـونان فى ٦ أكتوبر ، واستقلت ــ كما ذكرنا ــ البوسنه والهرسك • وفى ١٣ ابريل ١٩٠٩ دبر الجيش العثمانى حادثة عرفت باسم حادث ٣١ مارس ثم نسبوها الى عبد الحميد وقالوا أنه أراد ثورة العناصر الرجعية ضد جمعية الاتحاد والترقى واتخذ الجيش هذا ذريعة للتحرك لعزل السلطان عبد الحميد الثانى وندبوا لابلاغه بقرار العزل وفدا مكونا من أربعة أشخاص لم يكن منهم تركي ولا عربى واحد وانما : كان على رأس الوفد يهودى والثلاثة الآخرون : أرمنى وألبانى وجرجى • واليهودى هو ايمانويل قراصو الذى لعب فيما بعد دوره المشئوم فى الاحتلال الايطالى لليبيا •

***

وتنازل السلطان عبد الحميد عن العرش لأخيه السلطان محمد رشاد في ٢٧ ابريل ١٩٠٩ م وكان على السلطان عبد الحميد أن يركب هو وأسرته القطار الى منفاه في سالانيك (وهي مدينة يغلب عليها الطابع اليهودي) وكان مقر منفى السلطان عبد الحميد في هذه المدينة ذات الطابع اليهودي في قصر يمتلكه يهودي يسمى ألاتيني ، امعانا في اذلال عبد الحميد .

وفي ١٠ فبراير ١٩١٨ مات السلطان عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبد المجيد ، عن ست وسبعين عاما واشترك في تشييع جنازته « كل شعب استانبول تقريبا » .

★★★

ويقول مؤلف كتاب « مصطفى كمال المثل الأعلى » الكاتب الألماني داجوبرت فون ميكوش : ان الذين يقاومون روح العصر ويحاولون أن يوقفوا سرعة الحوادث المتحركة تتحول مساعيهم – وان كانوا لا يرجون من ورائها الا الخير – الى نكبات وتنقلب مساعيهم الاصلاحية الى مجهودات ضائعة لوجه الشيطان ان لم تكن تجلب لأصحابها شدة العناء والفشل .. والسلطان عبد الحميد – هذا – لا ننكر أنه كان يريد انقاذ بلاده كما أننا لا ننكر حسن نيته ورغبته الحارة في اصلاحها ، ولكنه برغم ذلك قد عرضها الى الخطر كما قادها الى الخراب . وكان الرجل محقا عندما ارتأى بأن الامبراطورية العثمانية يمكن أن تحفظ من التجزء وتصان من التقطيع الا عن طريق الحكم الأوتوقراطي في أوسع معانيه وأتم أشكاله . ولكن الظروف القاسية جعلت أوتوقراطيته الحكيمة المعتدلة تنقلب الى استبداد مطلق صارم » .

★★★

وكانت فكرة القومية قد بدأت تتسرب من الغرب فتقضى على « شبه الاتحاد القائم بين الأمم المتباينة التي تؤلف الدولة العثمانية » وكان من المنتظر أنه متى تأصلت فكرة القومية وتغلغلت في النفوس ينهار هذا البناء الشامخ وهذا ما حدث فعلا .

★★★

وعن جمعية الاتحاد والترقي يقول داجو برت فون ميكوش : تأسست جمعية الاتحاد والترقي في باريس – في بادىء الأمر – وكانت تضم المنفيين الى هذه العاصمة الفرنسية سواء كان باختيارهم أم جبرا وكانوا من الكتاب

والصحفيين والأساتذة والطلبة الذين لم يكونوا قد اختبروا الشئون السياسية وما تتطلبه من حيطة وحذر ومراوغة ، فكانوا يصرحون بآراءهم المتطرفة وميولهم الثورية دون أن يتسرب الخوف الى قلوبهم أو يقيموا للسلطان أى وزن أو قيمة فأصبحت هذه الجمعية أقوى جمعية قام بتأسيسها الشبان الأتراك الذين تشربوا بفلسفة « أوغست كانت » وتشبعوا بالديمقراطية الفرنسيا وأمعنوا فى دراسة الثورة الفرنسية فأرادوا أن يسلكوا السلوك الذى يسلكه الثوار الفرنسيون وان يستعيروا منهم أسلحتهم السياسية ، وكانوا يثقون من نجاحهم اعتمادا على نظرية التطور وان البلاد لا يمكن أن تظل على حالتها الراهنة من الضعف • وكان زعيم هذه الجماعة الثائرة أحمد رضا بك وهو من الشخصيات المحترمة عند الناس •

كان أحمد رضا بك من طبقة الأعيان ، يتقد ذكاء ، وعلى جانب كبير من الثقافة ، ولكنه كان قد قضى ردحا طويلا من الزمن بعيدا عن وطنه ، وعلى هذا ضعفت فيه النزعة القومية ، وكان يحاول أن ينقل الحضارة الغربية وكان فرع باريس هذا منظما تنظيما دقيقا وكان برنامجه متطرفا • وكان لهم جريدة باسم « الأنباء » تهرب الى إستانبول مع البريد الأوروبى فيتلقفها جماعة الأتراك ويتعهدون بتوزيعها سرا الى أصحابها •

وكانت النشرات السياسية تهرب أيضا بالطريقة عينها •

★★★

وكان يرأس فرع برلين البرنس صباح نجل شقيقة عبد الحميد وكان هذا الفرع مؤلفا من المعتدلين ومن وزراء الدولة السابقين وكان كل قصدهم أن يدخلوا الاصلاحات للبلاد وأن تنظم شئون الدولة على نحو الحكم الألمانى • وأخيرا انتصر فرع سلانيك وكانت الأغلبية الساحقة من أعضائه من الضباط المتعلمين أصحاب النفوذ القوى فى الجيش ، وكانوا قد تلقوا علومهم على أيدى أساتذة ألمان أمثال الجنرال فون دير جولتز وكان الفرع الباريسى يصدر الروح والنظريات الدستورية والآراء العصرية الى الفرع السلانيكى •

وكانت المحافل الماسونية ــ وعلى الأخص المحفل الايطالى الأكبر فى سلانيك ــ ترحب بأعمال هذه الجمعية وتنتصر لها انتصارا أدبيا •

وكانت الجلسات تنعقد فى غرف المحافل الماسونية ، التى يستحيل على الجواسيس أن يصلوا اليها مهما بذلوا من جهد • وكان كثير من أعضاء هذه المحافل مندمجين فى جمعية الاتحاد والترقى •

وبهذه الوسيلة ـ داجوبرت فون ميكوش ـ استطاعت الجمعية أن تضاعف عددها وتقوى نفوذها بفضل المعونة التى كانت تتلقاها من الأحرار . كما أن أعضاء الاتحاد والترقى كانوا ينتفعون بالأساليب الماسونية فى الاتصال باستامبول بل فى التقرب من القصر ذاته . وكان العضو الجديد لا يقبل الا اذا كفله عضو قديم ثم يجرى له فحص دقيق ، وكان العضو لا يعرف من أعضاء الجمعية أكثر من أربعة .

كان زعماء الاتحاد والترقى يعملون دائما من وراء الستار . وكانت أوامر الجمعية وقراراتها تطاع بلا قيد ولا شرط وكان لابد من القسم بالقرآن الكريم على أن يظل العضو أمينا لجمعية الاتحاد والترقى حتى النهاية . وكان الخونة يحاكمون محاكمة سرية .

ويمضى ـ داجوبرت ـ فى الحديث عن جمعية الاتحاد والترقى منذ أن آلت اليها السلطة يقول : كانت القوة الادارية فى أيدى حزب تركيا الفتاة وكان قد بلغ عددهم ثلاثمائة عضو ومازال فى نمو بعد اعلان الدستور حتى أنه فى شهور قليلة أصبح عدد الأعضاء يزيدون على مائة الف .

والواقع أن الحزب لم يكسب أعضاء جددا فحسب بل ان الأموال باتت تصب فى خزينته باستمرار ، وقد قدم السلطان ذاته للحزب من ماله الخاص ٧٥٫٠٠٠ ليرة وعين نفسه رئيس شرف لجمعية تركيا الفتاة .

★★★

ويقول داجوبرت : ان كثيرين من الذين كانوا منفيين الى الخارج قد عادوا ، وقد انخدعوا بالأفكار الغربية النزوقية والآراء الخلابة البعيدة عن العالم الحقيقى الذى تعيش فيه ، فكانت نتيجة الانخداع بالظاهر حتى أن أحد الدبلوماسيين وصفهم بأنهم كثيرا ما يخطون الخطوة الثانية قبل الأولى ، وسرعان ما أصبح لهؤلاء اليد العليا فى حزب تركيا ، ووجد الذين أشعلوا نيران الثورة أنهم أصبحوا فى المؤخرة وفى ذيل الحزب وكان منهم ضباط غير راضين عن وجودهم بالمراكز الحكومية فنيازى بك قد اعتزل بين التلال ، وقصد أنور بك برلين كمرافق حربى .

★★★

وأيقن أعضاء حزب الاتحاد والترقى أن من يملك الجيش فقد ملك القوة كلها ، فسعوا حتى أصبحت السلطات ترجع فى التعيينات الجديدة الى سياسة حزبية ، فكل الضباط حزبيون أكثر منهم فنيون أو حربيون .

★★★

واستأذن أحد أعضاء المؤتمر الرئيس أن يعرض سؤالا ، فسمح له فقال :

ــ هل من مبرر لوجود جمعية الاتحاد والترقى ؟

ثم استطرد :

« لقد كانت فى الأصل جمعية ثورية ، والثورة قد انتهت وفزنا بالدستور بعد الكفاح الشديد ، وعلى هذا فالسيطرة قد خرجت من يد الحزب وانتقلت الى السلطات الدستورية الشرعية ، وأن ديكتاتورية الحزب لم تكن أفضل من الاستبداد الحميدى .

وعلى هذا فقد أصبح بالامكان الاستغناء عن الجمعية ولم يبق من حاجة اليها ، واقترح العضو بأن تحل الجمعية فهتف له الأعضاء هتافا عاليا » .

أما هذا السائل فلم يكن غير « مصطفى كمال » (أتاتورك فيما بعد) .

ويقول ــ داجوبرت فون ميكوش ــ أنه بعد أن اتسعت أعمال حزب الاتحاد والترقى (تركيا الفتاة سابقا) كان لابد من وجود لجنة مركزية ثابتة لمراقبة أعمال الدستور ، وقد انتخب مجلس السبعة بطريقة شديدة التعقيد وبقيت أسماء هؤلاء السبعة مكتومة عن بقية أعضاء الحزب ، ثم اصطدمت السفينة باعلان من النمسا والمجر ، ان البوسنه والهرسك ينبغى أن تعد من أملاك الامبراطورية النمسوية المجرية . وفى عبارة موجزة انهار صرح البلقان حتى البرنس فرديناند البلغارى الذى كان حتى ذلك الحين تابعا للسلطان فقد اغتنم الفرصة وأعلن استقلال بلاده ، بينما بلاد اليونان وضعت يدها نهائيا على كريت ، ولم يكن فى وسع تركيا وهى تعانى أوجاع الثورة وآلام الانقلاب أن تعترض أدنى اعتراض على ما جرى ، فاكتفت بمقاطعة البضائع النمسوية .

***

وكان مصطفى كمال ــ داجوبرت ــ من بين الضباط الذين قاوموا سياسة حزب تركيا الفتاة وسعى للتأثير على سير الحوادث ولكن مساعيه لم تكلل بالتوفيق . وكان أغلبية أعضاء الاتحاد والترقى يلقبون بالاتحاديين تمييزا لهم عن الأحرار ، وكان مبدؤهم الأساسى أن كل فرد من رعايا الامبراطورية يخوله القانون كل الحقوق التى يتمتع بها الأتراك ، وعليه ما عليهم من الواجبات .

ويضيف ـ داجوبرت فون ميكوش ـ وهو يصف الأحوال فى الامبراطورية بعد سقوط السلطان عبد الحميد : كانت البلاد لا تخلو من أناس يرون أن البلاد فى حاجة الى الهدم والبناء من جديد ٠ ويذكر أنهم ـ فى النظام الجديد ـ كانوا يخفضون درجة الجنرال الذى سلخ ٣٠ سنة من عمره فى الجيش الى درجة ملازم بسيط امعانا فى القضاء على القديم ، وكان محمود شوكت باشا وزير الحربية يرى أن الجيش ينبغى أن يكون تحت امرة الدولة لا تحت تحكم الأحزاب ، وقد أصدر أوامره المشددة التى حرم فيها تحريما باتا انضمام أى ضابط بهيئة من الهيئات السياسية ، ولكن هذه الأوامر لم تنفذ وظلت حبرا على ورق ٠ كانت أشبه بالأصداف الفارغة التى لا قيمة لها ٠٠ !!

***

ويذكر ـ داجوبرت فون ميكوش ـ ان شقة الخلاف اتسعت بين العسكريين والمدنيين ، وبدلا من تحسين الحالة بعد اعلان الدستور كانت الحالة تزداد سوءا على سوء ، كانت هناك سلطة منظورة واحدة هى التى تتصرف فى الأمور ولكن بعد اعلان الدستور ضاعت هيبة هذه السلطة وأصبحت الفوضى تتفشى فى البلاد وعادت عناصر الجيش المتجزئة الى التناحر والتنابذ ٠

وكان حزب الاتحاد يزداد قوة معتمدا على الجيش يقرب من يود تقريبهم ويدفع بهم الى الوظائف العالية ليشغلوها وانتعشت حركة التآمر والدس من جديد ٠

وعن جمعية تركيا الفتاة التى انبثقت منها جمعية الاتحاد والترقى يقول الأستاذ جورج أنطونيوس الرجل الذى تمثل فى شخصه ـ كما جاء فى كلمات لابراهيم اليازجى ـ الجيل العربى الجديد العامل على تحطيم الأصنام ، الجيل الذى لا يحدد بالسن ، بل بالفكر الواضح والحجة السليمة والمثالية العريقة الواعية يقول : ان السلطان عبد الحميد منح شعبه دستورا فى ٢٤ يوليو ١٩٠٨ بعدما استولى عليه الذعر نتيجة قيام الثورة العسكرية ٠ وفى اليوم التالى الغى الرقابة وأفرج عن المعتقلين السياسيين وسرح جيش الجواسيس التابع له والبالغ مجموعه ثلاثين ألفا وهكذا ...

***

وكانت الثورة من عمل جمعية (الاتحاد والترقى) وهى جمعية سرية غايتها القضاء على استبداد السلطان وقد شكلها رجال (تركيا الفتاة) فى سالونيك ٠ ولم يكن بين أمانيها وأمانى الحركة العربية أية صلة اللهم

في الاشتراك بكره الاستبداد الحميدى ٠ ومع أن جمـــاعة من العرب وأكثرهم من ضباط الجيش انتسبوا للجمعيـــة وتعاونوا مع زعمـــائها تعاونا وثيقا الا أنهم فعلوا ذلك بصفتهم رعايا عثمانيين لا بصفتهم عربا قوميين ٠ كانت جمعية (الاتحاد والترقي) خليطا من الأجناس والأديان يسوده الترك ويأتي بعدهم فيه اليهود مباشرة وقد قطروا وراءهم عثمانيين آخرين من أبناء الملل الأخرى بينما وقف اللاجئون السياسيون والمنفيون في الخارج في الصف الخلفي ٠ كانت الجمعية تسير بقوة خليط من الدوافع يماثل فى تنوعه الخليط الذى تتألف منه ولكنها مع ذلك كانت متحدة فى السعى لتحقيق هدفها الأول وهو القضــاء على حــكم عبد الحميد الفردى والتوصل الى حكم صالح للامبراطورية على أساس دمج الأجناس المختلفة فى بوتقة واحدة على نحو ما أراده دستور عام ١٨٧٦ ٠ كان الرأى الأول فى جلسات الجمعية للأعضاء العسكريين وهذا أمر طبيعى فى جيل نشأ على تمجيد التعليم العسكرى تمجيدا كبيرا ، ولعل لجوءها فى ايقاع ضربتها المفاجئة الى ثورة يقوم بها الجيش كان أمرا لابد منه فهى الثورة التى كان عبد الحميد يخشاها أكثر من سواها ٠

***

وفى مجال انصاف رجال تركيا الفتاة يقول جورج أنطونيوس :
ان التراث الذى خلفه العهد الحميدى لم يكن تراثا معيبا بذاته وحسب ، وانما ورثوه فى وقت غير ملائم البتة ، لقد كانت القوى الانفصالية التى تعمل فى الولايات البلقانية متغلبة ، وقد منيت الامبراطورية — فى عهدهم — بفقد جميـع ولاياتها الأوروبية ماعدا تراقيا الشرقية بالاضافة الى أنهــا — الامبراطورية — فقدت ليبيا — طرابلس الغرب — وبرقة — وكريت وجزر الدودكان ٠

وكانت الخسائر فى الأراضى قد أثقلت النفقات العسكرية التى أثقلت بدورها كاهل الخزانة فناءت بها موارد الموازنة ٠

***

وقد كان رجال تركيا الفتاة مسئولون أيضا عن فشلهم ، فلقد ساروا مثلا على سياسة مركزية استعاروها كما استعاروا غيرها من مبادىء وعقائد الثورة الفرنسية ، ولكنهم حين استعاروها لم يلتفتــوا الى وجود فارق أساسى بين فرنسا ١٧٨٩ وبين المملكة العثمانية ١٩٠٨ ٠

***

ولابد من أن نشير هنا الى ما قاله الأساتذة : آمين شاكر ، سـعيد

العريان ، ومحمد مصطفى عطا فى كتابهم « تركيا والسياسة العربية » من أن مطلع القرن العشرين شهد تحولا ظاهرا فى فكرة الجامعة الاسلامية التى كان يدعو لها فى قوة والحاح السلطان عبد الحميد الثانى ، اذ ان البلاد العربية التى كانت تابعة للسلطنة العثمانية بدأت تضج من حكم الأتراك وأخذت تعمل على الخلاص من هذا الفساد المستشرى وتلك المركزية المسيطرة والتى لا هم لها الا سيادة الجنس العثمانى وغلبته على المناصب الرئيسية سواء فى عاصمة الأتراك أو فى البلاد التى تخضع لها ؛

ففى مصر كانت ثورة عرابى وكان من ضمن أهدافها ضرورة التحرر من سيطرة طبقة الضباط الأتراك الذين استأثروا بالسلطة وبالمناصب الرفيعة دون المصريين .

وفى سوريا والعراق وغيرهما كانت تجيش فى قلوب العرب ضد الحكم العثمانى الذى كان أقرب الى الاذلال منه الى السلطان ، وكان أول مظهر من مظاهر الوعى العربى ذلك المؤتمر الذى انعقد فى باريس ١٩١٣ معبرا عن القوة الغاشمة التى كانت تعصف بكل حر يبدى رأيا مخالفا .

ويشير الكتاب الثلاثة الى أنه فى الوقت الذى يحدث فيه ــ فى البلاد العربية ــ ما سبقت الاشارة اليه كانت هناك دعوة أخرى فى تركيا الى الجامعة الطورانية « أى سيادة الجنس الطورانى » .

وقد كان للدعوة الطورانية صداها العميق فى نفوس العرب الذين كانوا يحرصون حتى اللحظة الأخيرة على الاستمساك بعروة الجامعة الاسلامية والوقوف من وراء الخلافة العثمانية مخافة أن تنهار فتكون نهايتها المحتومة ، وقد تطورت الدعوتان : الدعوة العربية ، والدعوة الطورانية ، وكانت كل دعوة تتمنى لنفسها الغلبة .

***

ويكاد ينعقد الاجتماع على أن جمعية الاخاء العربى هى أول جمعية عربية تأسست فى الآستانة بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ، وأنشأت ناديا لها .

وكان مؤسسوها من كبار الموظفين العرب فى العهد الحميدى ، أمثال : عارف بك الماردينى ــ والى دمشق فى عهد الاتحاديين ــ وصادق باشا المؤيد وشفيق بك المؤيد ويوسف بك شنوان وشكرى باشا الأيوبى وشكرى بك الحسينى ، وكانت غاية الجمعية « معاونة جمعية الاتحاد والترقى فى سبيل المحافظة على أحكام القانون « الدستور » وجمع كلمة الملل العثمانية المختلفة بدون تفريق فى الجنس والمذهب ، وتمكين الرابطة

الجامعة بينهم ، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية واصلاح الشئون المختلفة ، ثم السعي لاعلاء شأن اللغة العربية ، واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار المعارف والعلوم بين أبنائها كتأسيس مدارس وجرائد وغير ذلك وبذل النصائح والارشادات اللازمة لتأسيس معامل وشركات زراعية ، والاجتهاد باقناع أهل البداوة بالاقلاع عن عاداتهم المستهجنة وعدواتهم المستمرة بينهم ، واسكانهم في محلات ثابتة وتعـويدهم على مزاولة العوائد والحرف الحضرية ، وتنوير عقولهم بالعلم وصيانة حقوق أبناء العرب جميعا من الاعتساف والغدر ، وتبليغ شكاياتهم الى مراجعها الرسمية اذا لم تلق حسن القبول عند المأمورين المختصين بالنظر اليها ، والسعي في تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الدولة العثمـانية وازالة الضغائن وسوء التفاهم بينهم » .

***

وقد أيد الطلاب العرب في الآستانة هذه الجمعية في أوائل عهدها مدفوعين بالشعور الوطني العربي لأنه ساءهم تحامل الاتحاديين على العرب تحاملا لم يكن له ما يبرره .

ولكن هذه الجمعية لم تعش طويلا ، فقد كان التجانس مفقودا بين أعضائها ، وحل محلها المنتدى الأدبي .

***

وقد صار انشاء المنتدى الأدبي في سـنة ١٩٠٩ ، وقام بتأسيسه عبد الكريم قاسم الخليل ، ويوسـف سليمان حيـدر ، وسيف الدين الخطيب ، وجميل الحسيني ، ورفيق رزق سلوم ، على أن يكون مركزا لشباب العرب في العاصمة التركية ودارا لهم يجتمعون فيها ، ويختلفون اليهـا للمطالعة واستماع المحاضرات ، ومن كان من طلاب العـرب فقيرا لا يستطيع النوم في فندق من الفنادق ، فقد كان بمقدوره أن يقصـد النادي وينام فيه أيضا .

وسلم شكري بك الحسيني لعبد الكريم الخليل ستين ليرة ذهبية عثمانية كانت باقية عنده باسم جمعية الاخاء ، لتنفق في انشاء المنتدى ، كما سلمه كل ما كان من أثاث ورياش .

ومثل الطلاب العرب بعد ذلك رواية صلاح الدين الأيوبي في مسرح دار الفرح ، وأرصدوا ريعه لها ، وصار افتتاح داره الجديد في « بارماق قبو » في حفلة حافلة

وعاش هذا النادى حتى سنة ١٩١٥ حيث أغلقته الحكومة التركية ، وكان الاتحاديون لا يشكون باخلاص رجاله ، وكثيرا ما كانوا يزورون داره ، ويحضرون حفلاته ٠

★★★

ومن المؤكد أن الكلية الأزهرية لرئيسها المرحوم الشيخ أحمد عباس الأزهرى عملت كثيرا على الهاب روح الحماسة والوطنية العربية فى نفوس طلابها ، ولا أدل على ذلك من رواياتها العربية التى مثلتها كداحس والغبراء وغيرها ، فقد كانت هذه الروايات حديث الناس وكانت من الأسباب الفعالة فى بث روح القومية فى نفوس الشباب المنتسبين اليها ، واثارة عواطفهم وتذكيرهم بماضيهم المجيد الرائع ٠

وفى سنة ١٩٠٩ أرسلت تركيا قسما من الشباب المتخرجين من مكاتبها للتخصص فى باريس وكان من جملة هؤلاء الشباب أحمد رستم حيدر ٠

واجتمع أحمد رستم حيدر مع توفيق الناطور أحد طلاب العرب فى باريس ذات يوم فى احدى حدائق باريس الجميلة ، وذلك فى سنة ١٩٠٩ وصار الاتفاق فيما بينهما على تأسيس جمعية عربية فى باريس يكون شعارها : « يجب أن نكون ـ نحن العرب ـ مع الأتراك كالنمسا والمجر » وكانت غاية الجمعية السعى لرفع مستوى الأمة العربية وجعلها فى مستوى الأمم الراقية ٠

وكانت هذه الجمعية صغيرة أول أمرها ، والظاهر أن الذين فكروا فى انشائها لم يوفقوا الى زيادة عدد أنصارهم الا بعد سنتين من تاريخ انشائها ، فنرى أن عونى عبد الهادى ورفيق التميمى وأحمد قدرى وجميل مردم وابراهيم مردم لم يدخلا هذه الجمعية الا فى سنة ١٩١٠ ، وانضم اليها محمد المحمصانى سنة ١٩١١ ٠

★★★

والمصادر التى لدينا تدل على أن هذه الجمعية كانت سرية لا يعرف الداخل فيها غير الذى أدخله وكانت تتألف من ثلاث هيئات : الهيئة الادارية ، وقوامها ٩ أعضاء وتدير شئون الجمعية ٠ والهيئة العاملة وهى التى تختار الهيئة الادارية ، وتتألف من أعضاء الجمعية الذين أمضوا مدة التجربة وهى ستة أشهر ٠ والهيئة الثالثة تضم الداخلين حديثا ، ولا يعرف بعضهم بعضا ٠

وكان للجمعية كلمات رمزية اصطلحت عليها للمكاتبات والاتصال ، منها : بزغ فجر وطنك ...

ولما وقعت الحرب البلقانية كانت هذه الجمعية من العوامل الفعالة في اقرار مؤتمر باريس .

وانتقل مركز الجمعية الى سوريا بعد عودة مؤسسيها الى بلادهم سنة ١٩١٢ ، واتخذت بيروت مقرا رئيسيا لها ، وتولى الدكتور أحمد قدرى ادارة فرعها فى دمشق فاتسع نطاقها وكثر عدد الداخلين فيها وضاعفت نشاطها بعد اعلان الحرب العظمى ، خصوصا بعد انتقال مقرها العام من بيروت الى دمشق بسبب الهجرة ولأن معظم رجالها أصبحوا فى عاصمة أمية .

ومن المؤكد اليوم أن أعضاء الجمعية المذكورة وهم فى دمشق أخذوا يبثون فكرة التحرر الثورى ، وأخذوا يتحدثون الى بعض ضباط العرب بالثورة ، وانضم الى عضويتها فى هذه الأثناء رضا الركابى وياسين الهاشمى ونسيب وفوزى البكرى وبواسطة آل البكرى أنفسهم انضم « الملك » فيصل الى الجمعية وأخذ يؤيدها .

وكان « الملك » فيصل — سنة ١٩١٥ — فى طريقه الى الحجاز من الآستانة ، فاجتمع فى دمشق برجال الجمعية ، وأفهموه تشكيلاتهم ، وأعلموه أنه اذا ثار الحجاز وزحف على سورية وجد أهلها على استعداد لتأييده ، فأيد المرحوم الفكرة ، ونفح الجمعية بألف ليرة ذهبية مساعدة لها فى عملها .

وفى هذه الأثناء شعر عبد الغنى العريسى وعمر حمد وابراهيم الهاشم بأن الحكومة تحاول القبض عليهم ، فهربوا قاصدين بغداد فالبصرة ، ولكن « الملك » فيصل طلبهم اليه فعادوا أدراجهم والتجأوا الى شيخ عرب العفير فى مداين صالح ، حيث صار القبض عليهم من متصرف الكرك الذى عرف أحدهم

★★★

وقد أنشئت جمعية العلم الأخضر فى الآستانة فى شهر أيلول من سنة ١٩١٢ وغايتها تقوية الروابط الوطنية بين طلاب العرب فى المدارس العليا وتوجيه قواهم الى انتشال أمتهم من الوهدة التى سقطت فيها .

ومؤسسو هذه الجمعية الدكتور اسماعيل الصفار ، والدكتور فايق شاكر ، والدكتور داود الديوانى ، وعلى رضا الغزالى ، وعبد الغفور

البدري ، وأحمد عزت الأعظمي ، وعاصم بسو ، ومسلم العطار ، ومصطفى الحسيني ، وشكري غوش ، وأصــــدرت هذه الجمعية مجلة « لســــان العرب » لتكون لسان حالها ، ثم أبدل اسمها فصـــارت مجلة المنتدى الأدبي وعاشت حتى الحرب العظمى .

وجمعيات أخرى تألفت في الأستانة لخدمة الفكرة العربية وتعزيزها من سنة ١٩٠٩ حتى أواخر سنة ١٩١٢ ، ولما انهزمت الدولة العثمانية في حرب البلقان ظهرت جمعيات جديدة عملت على تعديل كثير من خططها وأساليبها .

***

وقد تبدل موقف الساسة العرب بعد الحرب البلقانية وخروج الدولة العثمانية منها مهيضة الجناح ، مضطربة الأطراف ، مقسمة الحدود ، بحيث أهابت هذه النازلة بالدول الأوروبية الى التفكير تفكيرا جديا باقتسام تركيا وصرح المسيو بونكاريه وزير خارجية فرنسا في ذلك الحين « بأن لفرنسا مصالح تقليدية نريد أن نجعلها محترمة » .

***

كل هذا أهاب بالساسة العرب الى تبديل موقفهم الأول من السياسة العثمانية ، فأنشأوا حزب اللامركزية العثماني في القاهرة ، وتأسست الجمعيات الاصلاحية في بيروت والبصرة ، وأخذ العرب يفكرون في تنظيم سياستهم تنظيما جديدا ، وفاقا للاتجاهات الدولية العامة .

وكان الغرض من انشاء حزب اللامركزية في مصر أن تتولى كل ولاية ادارة شئونها الداخلية ، وأن تترك السياسات العامة للسلطات السياسية في الأستانة .

ومؤسسو حزب اللامركزية هم : رفيق العظم ، والسيد محمد رشيد رضا ، والدكتور شبلي شميل ، واسكندر عمون ، وسامي الجريديني ، ومحب الدين الخطيب .

وأعلن الحزب الجديد برنامجه للناس ، فاذا فيه أن الغاية من تأليف هذا الحزب بيان حسنات الادارة اللامركزية في السلطة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغــات وأديان وعادات مختلفة والمطالبة بكل الوســائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية ، في جميع ولايات الدولة العثمانية .

***

وعن جمعية الاصلاح فى بيروت ـ مثلا ـ أنه عندما انتقل القلق من القاهرة الى بيروت اجتمع أعيان بيروت وكبارها ونوابها وبحثوا الموقف وأبلغوا الوالى العثمانى أدهم بك رغبتهم فى ادخال اصلاحات عاجلة فرفع أدهم بك مطالبهم الى الباب العالى ببرقية طيرها فى شهر كانون الأول عام ۱۹۱۲ وقال فى تلك البرقية : اذا لم نأخذ بالاصلاح الصحيح فالبلاد مفلتة من أيدينا لا محالة ٠ وقد رد الصدر الأعظم كامل باشا بأن يدعو الشعب الى تقديم مطالبه للنظر فيها فاجتمع ۹۰ مندوبا فى دار بلدية بيروت فى يناير ۱۹۱۳ ووافقوا على بعض المطالب التى أبلغوها الى الوالى لارسالها الى الآستانة ٠ وقد جاء فى تلك المطالب ان الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية وان تقسيم أعمال الولاية الى قسمين الأول يشتمل على الأعمال المتعلقة بكيان الدولة وشئونها الأساسية كالمسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبوستة والتلغراف وسن القوانين ووضع المكوس ٠٠ والقسم الآخر ما يتعلق بالشئون الداخلية للولاية ٠ القسم الأول تقوم فيه الحكومة المركزية والقسم الآخر منوط تقريره بمجلس الولاية ٠

***

وقد نصت تلك المطالب أيضا على أن للوالى صفتين قانونيتين أولاهما تمثل الحكومة المركزية وبهذه الصفة يتولى اجراء جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الأول طبقا لقرارات الحكومة المركزية ، والصفة القانونية الأخرى تمثيل حكومة الولاية التى يرأسها ٠ وحقوق الوالى كما جاء فى المطالب تنفيذ قرارات المجلس العمومى والاعتراض على قراره طبقا للشروط التى حددتها اللائحة الخاصة بتلك المطالب ، وتعيين المتصرفين ، والقائمقامين ، والمديرين بعد عرض أسمائهم على الحكومة المركزية وفقا للنظام الذى يضعه المجلس العمومى ، والاطلاع على لوائح المشاريع التى تعدها لجنة المجلس العمومى لابداء ملاحظاته عليها قبل تقديمها الى المجلس ويؤلف ـ المادة الثالثة من لائحة المطالب الشعبية ـ فى الولاية مجلس عمومى من ثلاثين عضوا ينتخب نصفهم من المسلمين ، والنصف الآخر من غير المسلمين لمدة أربع سنوات بالاقتراع السرى ، أما سائر الانتخابات العمومية فتبنى على قاعدة التمثيل النسبى العددى فى دوائر الانتخاب ٠ وقرارات المجلس نافذة ما لم يعترض عليها الوالى بمصادقة مجلس المستشارين ٠٠٠ الخ ٠

***

ولعل أهم ما فى هذه المطالب ان عزل الوالى يكون بناء على قرار المجلس العمومى بأكثرية ثلثى مجموع أعضائه وتعيين خلفه فى مدة أربعين يوما بقرار من الحكومة ٠ وادارات الولاية نوعان : أحدهما يعود برمته الى

مركز السلطة وهو : حاصلات الجمارك والبوستة والتليغراف والبدلات العسكرية ، وما عدا ذلك يعود برمته الى الولاية ·

وقد نص في تلك المطالب على أن تعتبر اللغة العربية اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضا رسمية ــ كاللغة التركية في مجلس النواب والأعيان ·

وقد حرصت على الاشارة بتوسع الى تلك المطالب للتأكيد على أن قطاعات كثيرة من شعبناالعربى الذى كان يعيش داخل حدود دولة الخلافة العثمانية ، كان يود باستمرار اسعاد تلك الدولة وازدهارها وليس أبدا هدمها والوقوف على أطلالها ·

★★★

وهناك ــ من بين تلك الجمعيات ــ جمعية البصرة الاصلاحية وقد انشاها السيد طالب النقيب نائب البصرة فى مجلس النواب العثمانى وأحد زعماء حزب الائتلاف المناوىء للسياسة الاتحادية ، وقد انضم الى تلك الجمعية كثير من كبراء البصرة ، وأحرار العراق وشبابه ، وأصدرت الجمعية ــ من بغداد ــ جريدة النهضة لتكون لسانا لحالها ، وقد أبرق رئيس الجمعية الى مؤتمر باريس مؤيدا ومشجعا · وقد خشى ــ الدراسات التى نشرها عمر أبو النصر ــ الاتحاديون منه وخافوا من موقعه فانتدبوا أحد رجالهم لاغتياله فاغتاله رجال السيد طالب ، وعاد الاتحـاديون الى سياسة الملاينة وتمكنوا من اكتساب عطفه فأذاع بيانا أعلن فيه انهاء سوء التفاهم الذى كان بين رجالات العراق المخلصين وبين الحكومة العثمانية التى وعدت باعطاء البلاد حقوقها ·

★★★

ومن تلك الجمعيات : النادى الوطنى العلمى وقد أنشىء هذا النادى فى الزوراء سنة ١٩١٣ بعد انشاء حزب اللامركزية فى مصر ليكون فرعا له وكان رئيسه مزاحم الباجه جى وقد دخل فيه كثير من الشبان ، وقد نجح هذا النادى فى نشر القومية العربية ، وعندما حاول الاتحاديون القبض على مزاحم الباجه جى فر الى البصرة والتجأ الى السيد طالب ، وقد توثقت العلاقات بينى وبين مزاحم الباجه جى منذ عام ١٩٤٧ وأحببت فى الرجل صراحته ووضوحه ومعاداته للسياسة الاستعمارية ، وخاصة تلك التى كان يمثلها فى العراق نورى السعيد ·

★★★

وتبقى بعض تفاصيل أخرى هامة وضرورية يرويها الأستاذ عمر أبو النصر ــ بيروت ــ عن الخلاف بين العرب والترك وبعض الأسرار الخاصة بجمعية الاتحاد والترقى • وعن الجمعيات السياسية السرية والعلنية التى أنشأها كثير من الشباب العرب ــ ومن بينهم بل فى مقدمتهم عزيز على المصرى ــ لانقاذ الخلافة العثمانية من الانهيار الذى كانت تقف على هاويته فى العقدين الأولين من القرن العشرين ، ومما يدل على أن سياسة تركيا كانت متقلبة للغاية منذ ثورة ١٩٠٧ ما جاء فى مذكرات طلعت باشا وزير الداخلية التركية ، من أنه لم يكن لنا ــ لحكومة تركيا بعد ثورة ١٩٠٧ ــ سياسة خارجية منتظمة ، فكانت تارة تخطب ود انجلترا ، وطورا تتقرب من ممثل ألمانيا حسب أحوال السياسية التى لا تستقر على حال » •

ويوضح طلعت باشا أنه بعد حروب البلقان وخسارة الدولة التركية لولاياتها فى أوروبا لتقلب سياستها الخارجية ، الأمر الذى جعل تركيا بدون أصدقاء تعتمد عليهم فى وقت الشدة • بدأنا نعمل على حل أهم مشاكلنا السياسية وجميعنا تواقا لاصلاح البلاد اقتصاديا وسياسيا • واذا كان هذا هو موقف تركيا من الدول الأوروبية : الموقف الذى لا يثبت أبدا فكذلك كان موقفها من الشعوب التى تخضع لحكمها : سياسة مذبذبة لا تستقر على حال ، وفى مثل هذه الأجواء تنبت دائما الدعوات الانفصالية، وتتوالى الضربات من الخارج للاجهاز على الدولة المريضة •• !!

★★★

فى واحدة من الدراسات كان الموضوع الرئيسى : « أسباب الخلاف بين العرب والترك : الاتحاديون ينادون بالطورانية ويدعون الى العنصرية القومية وهم أقلية فى البلاد العثمانية : جواب العرب على هذه الدعوة واشتداد الخلاف بين العنصرين » يضح تعريف المسالة العربية بأنها نزاع شديد بين الترك الذين استأثروا بالسلطة فى الزمان الماضى ، وعقدوا النية على أن يستأثروا بها فى المستقبل أيضا ، مع جهلهم وفقرهم وقلة عددهم ، والعرب الذين يطلبون المساواة باسم الحق والقانون والقوة ، واهتمام أوروبا بهذا النزاع ودخولها فيه ترويجا لأطماعها وتحقيقا لأمانيها •

★★★

واذا كان العرب فى عهد السلطان عبد الحميد لم يتلطفوا فى البحث بشدة فى حقوقهم ، فمرد ذلك ما سرى فى ذهن المسلمين فى عهده من أن تأييده تأييد للاسلام ، وتعزيز الخلافة أمر يأمر به الدين ، ويدعو اليه

داعى الوحدة الاسلامية ، خصوصا لما نظر العرب الى مطامع أوروبا فى البلاد العربية ، فخافوا أن تتخذ أوروبا من حركتهم هذه وسيلة لاقتسام تركيا ، وتركيا كانت تمثل الخلافة ، ففضلوا السكون والصبر ريثما يقضى الله أمرا كان مفعولا ·

فلما خلع الاتحاديون السلطان عبد الحميد ، ضعفت فكرة الجامعة الاسلامية ضعفا ظهر أثره فى قيام العرب يطالبون بحقوقهم ويدعون الى انصافهم ، وانصرف الاتحاديون من جهة أخرى الى الدعوة للجامعة التركية وتأييد العنصرية التركية ·

★★★

وقد قال أحد زعماء الترك يصور رأى أنصاره ومن يدين بقوله : « لا أمل لنا بعد اليوم فى أن نحكم البلاد العثمانية كمستعمرة تركية ـ لا سيما البلاد العربية ـ لان حكومتنا أصبحت دستورية لسوء الحظ ، ولأننا نحن الأقلية فى الدولة ، فاذا خضنا غمار حرب أوروبية وحالفنا النصر قضينا على العناصر غير التركية وكفلنا الحكم لعنصرنا زمانا طويلا · واذا انكسرت جيوشنا وضاعت بلادنا فلا نخسر شيئا لأن مستقبل الدولة ليس لنا ، ولان الحكم ذاهب من يدنا على كل حال ، ومن بعدنا الطوفان » ·

★★★

والواقع أن موقف العرب تبدل تبدلا محسوسا بعد قيام الاتحاديين فى الآستانة ، فقد كان العرب كما قدمنا أولا ، ما يبرحون يحسنون النظر بالسلطان عبد الحميد لاسلاميته ولأنه كان يمثل دولة الخلافة الاسلامية واذا أنكروا على السلطان المرحوم شيئا فقد كانوا ينكرون عليه ظلمه واستبداده ، وكانوا فى هذا الظلم سواسية مع الترك لا يفرق السلطان فى البطش بين خصومه ، وقد أيد كثيرون من العرب تركيا الفتاة لما كانت تحاول اقرار النظام البرلمانى فى الدولة ، ولكن الاتحاديين تبدلوا جماعة أخرى لما تولوا مقدرات البلاد ·

★★★

ومن الحق أن نعرض لظاهرة أخرى فى هذه الفترة ـ وهى فى الواقع على جانب عظيم من الخطورة ـ فان شباب الترك لما لجأوا الى مصر هربا من جور السلطان عبد الحميد ، دبروا مكيدة لارهاب عبد الحميد رحمه الله على اعادة الدستور ، وكانت هذه المكيدة عبارة عن تخويفه بخلافة عربية ، وتصوير تلك الخلافة له فى صورة الحقيقة فلما نجح الاتحاديون فى ثورتهم كانت هذه الفكرة أوقع فى نفوسهم ، وأشد ايلاما ، حتى لقد ذهب بعضهم

يترحمها أمرا واقعا ويدعو قومه لمقاومتها والقضاء على كل من ينادى بها ٠٠ ولو فكر الاتحاديون لأدركوا أن العرب ما كانوا يفكروا فى هذه الخلافة لو أحسنوا سياستهم نحوهم ، ولا أدل على موقف العرب وحبهم للعمل مع الترك يدا واحدة من موقفهم يوم اعلان الدستور ، فقد طبلوا له وهللوا أكثر ما هلل له الترك ، ولو كان الاتحاديون جماعة يعملون لخير الدولة وللمصلحة العامة لتلطفوا فى الاستفادة من الشعور الحسن الذى عم كل طبقات الشعب العربى ، وأحسنوا سياستهم مع العرب وأعطوهم ما يطلبونه من حقوق ، فينتهى كل شىء وتتصافى الجماعتان وتعملان سويا لما فيه الصالح العام على الوجه الأكمل والاحسن ٠

***

ولكن الاتحاديين كانوا يريدون دولة تركية وهم أقلية فى وسط يعج بالعنصريات المختلفة ، فكان ما كان من انفصالهم عن مجموع الأمة ، وكان ما كان من تمزق الامبراطورية العثمانية وفشل الاتحاديين فى سياستهم فشلا مريعا قطعيا ٠

لقد كان الاتحاديون يقاومون السلطان عبد الحميد باسم الحرية ، وباسم الحرية أيدتهم بقية العناصر التى تؤلف الدولة العثمانية ، فلما تولى الاتحاديون الحكم عمدوا الى سياسة البطش والشدة فى اقرار مشيئتهم وسياستهم على هذه الشعوب المختلفة ، وأخذوا يعقدون القروض فى أوروبا لانفاقها على الجيش المكلف بالبطش بهذه العناصر ، ولا ذنب لهذه العناصر فى نظر الاتحاديين الا أنها كانت تريد الاصلاح ، وترغب فى الحرية ، وتريد أن تعامل وفاقا لأحكام الدستور والحق والانصاف ٠

وهذه الأغلاط الكبيرة انتقدها جماعة من الاتحاديين أنفسهم كالدكتور رضا توفيق الفيلسوف التركى الذى صرح فى سنة ١٩١٠ بما يأتى :

« أنا على اتفاق تام مع الجمعية على أن البلاد بحاجة الى حكومة قوية، ولكنى أخالفها فى استخدام القوة ، واذا كان وجودى فى المجلس قد قضى على بأن أنتقد طلعت بك الممثل الأكبر للجمعية ، وزميلى ورفيقى منذ الساعة الأولى فى جمعية الاتحاد والترقى ، فذلك لاعتقادى بأن الواجب على بأن أفعل ما فعلت ، ولو سكت كغيرى لكان ذلك خيانة منى لوطنى ، ان الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها اذا لم تحترم الحرية السياسية ، والحقوق الأساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، وإذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة وفاقا لأحكام الدستور » ٠

***

والواقع أن السياسة الاتحادية هي التي أثارت الفكرة القومية في العناصر العثمانية ، فمن المؤكد لنا اليوم ووفاقا لما لدينا من المصادر والوثائق نستطيع أن نقول ان العرب كانوا أقرب شعوب الامبراطورية العثمانية الى التفاهم مع الترك لو أحسن الترك سياستهم ، وأعربوا عن اخلاصهم ، ولكن الاتحاديين أرادوا سياسة خاصة وذهبوا يعملون لدولة تركية يسيطر فيها العنصر التركي كل السيطرة دون ما نظر الى حقوق غيره وواجباته نحو سواه ، ومضوا يعملون لمقاومة الفكرة العربية وكل ما هو عربي ، وكانت أول البوادر اغلاق نادى « الاخاء العربي العثماني » الذي أسس بعد اعلان الدستور في الآستانة ٠

★★★

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان الشر هينا ، ولكنه تعداه الى ما هو شر منه ، فقد استدعت الحكومة العثمانية الضباط العرب من أوطانهم الى الآستانة ، ومنعتهم من الالتحاق ببعثة الضباط العلمية في ألمانيا ، ولم تسمح بادخال العرب المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقي في اللجنة المركزية ، وعزلت الموظفين العرب ، وغير ذلك من الأمور التي كانت تعمل على توتر القلوب ، وقتل الثقة ٠٠٠

وكانت شكاوى العرب في سنة ١٩١٠ تنحصر فيما يلي :

أولا : اقصاء عدد كبير منهم عن الوظائف التي كانوا فيها في الآستانة ، ولا سيما في وزارتي الخارجية والداخلية بحكم قانون « التنسيق » وقد تناول هذا « التنسيق » كل المامورين العرب عمدا ، فكان الاتحاديون يكتبون في جداول التنسيق حرف (ع) – أي عربي – أمام كل اسم مأمور من أبناء العرب ، ليعرف المنسقون جنسيته ٠

ثانيا : عدم دعوة أبناء العرب الى أي اجتماع غايته التأليف بين العناصر العثمانية ٠

ثالثا : عدم ادخال عربي من أعضاء الجمعية الاتحادية في اللجنة المركزية في سلانيك حتى الضباط العرب الذين كانوا أول من أعلن الدستور ٠

رابعا : عدم قبول أي عضو عربي من أعضاء الجمعية في المذاكرات السياسية التي كانت الجمعية تجتمع لأجلها في الآستانة ٠

خامسا : عدم قبول عربي في اللجان المركزية الاتحادية وتحويل جمعية الاتحاد والترقي من جمعية عثمانية الى جمعية تركية بحتة ٠

سادسا : انتزاع وزارة الأوقاف من وزير عربى واسنادها الى وزير تركى بحيث لم يبق أحد من أبناء العرب فى الوزارة ٠

سابعا : استبدال الولاة والمتصرفين والقضاة من أبناء العرب بولاة ومتصرفين وقضاة من الترك وعدم تعيين موظف عربى أو عارف باللغة العربية فى سوريا والعراق ٠

ثامنا : معارضة الاتحاديين لكل مشروع علمى أو أدبى فى البلاد العربية ، مثال ذلك أنهم عمدوا الى حل جمعية « النهضة السورية » الأدبية التى تألفت فى دمشق ، وألغوا الشركة التى تألفت فى طرابلس لانشاء مدرسة منظمة فيها ٠٠٠

تاسعا : مناهضتهم للغة العربية مناهضة غريبة فى بابها ، فقد نشر سفير الدولة فى واشنطن سنة ١٩٠٩ اعلانا حظر فيه على العثمانيين المقيمين فى أمريكا مخاطبة السفارة بغير اللغة التركية مع علمه بأن الجالية السورية هناك لا يقل عددها عن نصف مليون ، ليس بينها رجل واحد يحسن اللغة التركية ٠

***

وكان القائمقامون وبعض رؤساء المحاكم فى سوريا والعراق فى ذلك الحين يتفاهمون مع الأهلين بواسطة الترجمان ، وقد قال أحد المستشرقين النمساويين فى حديث له مع جودت بك صاحب جريدة اقدام : « انه سمع بأذنه شكوى أحد اليمنيين الى الوالى بواسطة المترجم فعكسها المترجم عكسا » ٠

ولا ريب فى أن هذا الخلاف كان يسهل حسمه فى تلك الأثناء لو أظهر الاتحاديون أقل اخلاص نحو العرب ، لأن حقوق العرب لم تكن كلها مهضومة كما صارت بعد سنة ١٩١٣ ، ولأن استياء الأمة العربية نشأ معظمه بعد ذلك عن شدة حب الاتحاديين للاستئثار بالسلطة وتورطهم فى النعرة الجنسية تورطا أدى الى مناهضة العرب واقصائهم عن المراكز السياسية والادارية ، وغل يدهم فى الأعمال النافعة ، والعمل على القضاء على لغتهم ومدنيتهم وعاداتهم ٠٠٠

***

وفى أواخر سنة ١٩٠٩ دعا بعض ضباط العرب وزعمائهم أصحاب الرأى من جمعية الاتحاد والترقى الى اجتماع طويل فى الآستانة للبحث فى التدابير التى يجب اتخاذها لحسم هذا الخلاف بين الترك والعرب

نهائياً . وكاد هذا الاجتماع يسفر عن نتيجة مرضيةلولا دخول بعض غلاة الترك كأحمد أغايف ، ويوسف أقشوره وغيرهما في الأمر وتفوههم بما يمس العرب ويزيد نفورهم منهم ويقضي على آمالهم فيهم .

***

وكانت الحال ساكنة في السنوات الأولى التي عقبت ثورة ٣١ مارس، وظلت كذلك الى أن ظهرت نيات الاتحاديين لبعض العرب واضحة جلية بارسالهم الحملة تلو الحملة على البلاد العربية ، ولكن تلك الحوادث المؤلمة لم تؤثر كثيرا في الرأي العام العربي لما أبداه الاتحاديون من الدهاء في ذلك الحين ، فقد عينوا سامي باشا الفاروقي قائدا للحملة التي أرسلوها على حوران ليرضوا العرب بهذا التعيين ويقنعوهم بأنهم لا يضمرون لهم شرا ، ولكنهم من جهة أخرى أحاطوا هذا القائد العربي بضباط معظمهم من غلاة الترك فغلوا يده بهم ونفذوا خطتهم باسمه ثم تنصلوا أمام العرب من تبعة الأعمال التي عزوها اليه وكان هو بريئا منها .

***

وعينوا عزت باشا قائدا للحملة التي أرسلوها على اليمن وعزيز على بك في أركان حرب تلك الحملة وأولهما محبوب من العرب والثاني من صميمهم وكبار زعمائهم ، فلم ير العرب في ذلك ما يسوؤهم ، لا سيما وأن عزيز على بك تمكن من حقن الدماء بما أبداه من المهارة وحسن السياسة ، فأبرم اتفاقا مع سيادة الامام يحيى جاء في مصلحة الفريقين .

ولم تكن حالة العرب في تلك الأثناء قد ساءت كثيرا ، فكان نوابهم في مجلس المبعوثان من أفاضل النواب وكلمتهم مسموعة فيه وحالة بلادهم هادئة وصلاتهم بالاتحاديين حسنة في الظاهر ، لان فريقا من زعمائهم لم يكونوا قد انفصلوا رسميا عن جمعية الاتحاد والترقي في ذلك الحين ، ولان هذه الجمعية كانت في حاجة ماسة الى من يؤيدها ويتميل العناصر العثمانية اليها فتمسكت بأحرار العرب وتظاهرت بالميل اليهم تحقيقا لآمالها .

على أنه لما استتب الأمر للاتحاديين ورأوا نفوذهم في البلاد العثمانية أماطوا اللثام عن حقيقة حالهم فأعلنوا خطتهم الجديدة على رؤوس الأشهاد، وعدلوا برنامج جمعيتهم تعديلا جعلها تركية بحتة ، فانفصل عنها حينئذ كل أحرار العرب والألبانيين والأرمن وبعض الترك الغيورين على مصلحة وطنهم ، وجاهروا بمقاومتها بعد ما استلم زمامها شبان من غلاة الترك لا خبرة لهم ولا وطنية ولا دين ، وأنشأ أحرار الترك « الحرية والائتلاف »

التى كانت غايتها منح الولايات العثمانية استقلالا اداريا وادارة شئون المملكة على أساس اللامركزية ، فانتظم فى سلك هذه الجمعية عظماء الترك ككامل باشا والبرنس صباح الدين وصالح باشا ورضا نور ولطفى فكرى وعلى كمال وصادق بك وغيرهم ومعظمهم مبعوثو العرب والأرمن والألبان والأروام وفريق كبير من القواد والضباط ، وكان ذلك فى ابان ثورة ألبانيا، فقامت هذه الجمعية بمظاهرة ثورية فى الآستانة أسفرت عن سقوط وزارة الاتحاديين وحل مجلس المبعوثان وتعيين وزارة ائتلافية برئاسة مختار باشا ثم برئاسة كامل باشا ، فسر العرب بهذا الانقلاب ورأوا فيه خيرا لهم ونفعا للبلاد .

***

وكانت الأزمة الخارجية شديدة جدا فى تلك الأثناء ، فحرب مع ايطاليا ، وثورة مع ألبانيا ، واتحاد فى البلقان ، ومؤامرات واستياء فى الداخل ، وفراغ فى الخزينة ، وارتباك فى الادارة ، وفساد فى الجيش ، كل ذلك من الارث الذى تركه الاتحاديون لوزارة الائتلافيين فى سنة ١٩١٢ فتفاقم الخطب واتسع الخرق على الراقع ، ولكن الوزارة الائتلافية الجديدة لم تستسلم لليأس والقنوط بل جعلت تعمل بهمة لا تنى وعزم لا ينفد على اصلاح الحال الداخلية والخارجية .

***

ولما رأى البلقانيون أن البـاب العـالى نهج فى سياسته الداخليـة والخارجية منهجا قويما قد يفقدهم ثمرة المعاهدات التى أبرموها فيما بينهم بعد عناء عظيم انتهزوا الفرصة وطلبوا من الحكومة العثمانية مطالب عديدة بشأن مكدونية ثم عززوا ذلك بتعبئة جيوشهم وحشدها على حدود الدولة ، وقد قر قرار الباب العالى بعد مفاوضات طويلة مع الدول العظمى على أن يسوى مسألة مكدونية بما يوافق مصلحة سكانها ، ويرضى الدول البلقانية ويحفظ حقوق الدولة العثمانية ومنزلتها اجتنابا لحرب لم تكن الأمة على استعداد لها ، وقبل أن يبلغ قراره هذا الى الدول العظمى قام الاتحاديون بمظاهرات عظيمة فى شوارع الآستانة وأمام الباب العالى طالبين اعـلان الحرب فى الحال وقابل وفد منهم مختار باشا الغازى الصدر الأعظم فى ذلك الحين وقال له : « لقد حاربت يا باشا وصرت غازيا فدعنا نحارب نحن أيضا فاما أن نصير غزاة أو شهداء ... » .

وكان من تشديد جمعية الاتحاد والترقى وفروعها وأنصارها من ضباط وملكيين على الوزارة الائتلافية انها اضطرت الى محاربة الدول البلقانية

رغبة في تسكين الخواطر واجتنابا لحرب داخلية مع علمها بسوء حالة الجيش وحاجة الأمة الملحة الى السكينة والاصلاح .

★★★

وأعقبت الحرب البلقانية الحرب الطرابلسية فاشرفت الدولة العثمانية على الهلاك وكثرت الأطماع في بلادها ، وعرضت المسألة الشرقية على بساط البحث في الصحف الأوروبية والأندية الرسمية وغير الرسمية ، فرأى زعماء العرب أن الخطر على الدولة أقوى وأسرع مما كانوا يخشون ، وأن الدولة التي عجزت عن حفظ الروملي وهو سياج الدولة وحصنها أمام البلقان ، ستعجز حتما عن الدفاع عن البلاد العربية اذا هجمت عليها دولة قوية ، اذ ليس فيها حصون ولا سلاح ، وكان هذا الأمر منبها لكثير من أصحاب الوطنية من العرب الى ما سبقهم اليه بعض أذكياء الترك وهو الدعوة الى وجوب جعل ادارة الدولة على أساس اللامركزية ، لان ذلك أدعى الى عمران كل قطر واستعداده للدفاع عن نفسه حين الحاجة ، فألفوا الأحزاب المعروفة والجمعيات التي لا يعرفها الا القليلون لقلة انتشارها وانحصارها في فئة خاصة من شباب العرب ، وهذه الأحزاب هي : حزب اللامركزية ومركزه في القاهرة ورئيسه رفيق بك العظم ، وجمعية الاصلاح وقوامها نخبة من أعيان سوريا والمنتدى الأدبي وقوامه خيرة شبان الحق ، وجمعية البصرة الاصلاحية ورئيسها السيد طالب بك النقيب وأحزاب وجمعيات أخرى ملكية وعسكرية .

ومن الحق أن نذكر هنا مواقف الصحافة التركية التي نشأت بعد الدستور ، فقد كانت تدعو بصراحة الى تعزيز القومية الطورانية وتتحامل على القوميات الأخرى ، وتحض الحكومة على مقاومتها والقضاء عليها ، ولذلك نستطيع أن نقول ان الخلاف بين العرب والترك كان أول مظاهره التنسيق والوظائف ، ثم بلغ أشده عن طريق الصحافة ، لان الصحافة العربية في الوقت نفسه لم تقف موقف المتفرج بل أخذت تدافع عن القومية العربية وتنادي بها وتطالب بالحقوق المهضومة ، وتندد بسياسة التحامل والظلم والاستبداد .

★★★

تفاصيل أخرى ، ووجهات نظر أخرى من بينها ــ مثلا ــ ما جاء في كتاب « أسرار الثورة العربية » لمؤلفه الأستاذ أمين سعيد : ان اعلان الجيش العثماني الثورة على السلطان عبد الحميد وارغامه على الأخذ بالنظام البرلماني

خلق جوا جديدا ، تنفست فيه الفكرة العربية وارتاحت مما كانت تعانيه من ضغط وكبت ، وقد اغتنم بعض أدعياء الترك فى الأستانة فرصة انهيار عهد السلطان عبد الحميد وقرار رجاله ، وكان بينهم عدد من أبناء العرب فهاجموا منازل هؤلاء ، واعتدوا عليهم دون زملائهم الترك مما تألم له أبناء الجالية العربية في الآستانة ورأوا فيه عدوانا مقصودا مدبرا يراد به الاساءة الى أبنـاء العنصر العربى الذين بدأوا فى عقـد سلسلة اجتماعات اتفقت كلمتهم فيها على انشاء جمعية الاخاء العربى وأتموا تأسيسها فى سنة ١٩٠٩ وكان شعورها : تعاون العرب على اختلاف أقطارهم ، وأمصارهم فى الدفاع عن كرامة الأمة العربية فيشد بعضهم أزر بعض • وكان من أوائل أعمال تلك الجمعية ، الاحتجاج على ما نزل بالموظفين العرب من اضطهاد •

***

ومع ذلك ازدادت الجفوة بين العنصرين : العربى والتركى ، وقد ضاعفت من شدة الجفوة الحملة الصحفية التى قامت بها صحيفة « طنين » لسان حال حكومة الاتحاد ، وكذلك صحيفة « اقدام » • وقد رمى ـ مثلا ـ أحمد شريف المندوب المتجول للصحيفة الأولى « طنين » العرب بكل نقيصة • ورد الشباب العربى الذين كانوا يتلقون العلم فى الآستانة على تلك الوقاحة بالهجوم على مقر تلك الجريدة ومكاتبهـا ، وانتشرت فكرة انفصال العرب عن الترك • وتضاعفت الجمعيات العربية السرية والعلنية التى تعمل لتحقيق تلك الفكرة ، وكانت من أبرز تلك الجمعيات : جمعية الاخاء العربى ، والمنتدى العربى ، والجمعية القحطانية ، وجمعية العهد ، والعلم الأخضر ، و •• و ••

عن أول جمعية عربية « جمعية الاخاء العربى العثمانى » يقول جورج أنطونيوس : انهـا افتتحت فى اجتمـاع كبير عقـدته الجالية العربية فى القسطنطينية وحضره أعضاء « جمعية الاتحاد والترقى » وذلك وسط مظاهر الابتهاج العظيم • أما أهدافها الرئيسية فهى حماية الدستور وتوحيد جميع الأجناس فى ولائها للسلطان وتحسين حالة الأجزاء العربية على أساس من المساواة الصحيحة بين العرب والملل الأخرى فى الامبراطورية ونشر التعليم باللغة العربية وتشجيع المحافظة على العادات العربية • وكان باب الانتساب مفتوحا أمام العرب من جميع الأديان كما تقرر انشاء فروع للجمعية فى جميع المقاطعات العربية وقد شرعت فعلا باصدار جريدة غايتها بث آراء الجمعية •

***

ويرى جورج أنطونيوس : ان تعطيـل الاتحاديين لجمعيـة (الاخاء العربي) دفع بالزعماء العرب الى العمل السري فتشكل عدد من الجمعيات السرية دون أن يتوصل الترك الى معرفة بعضها البتة • ومن ذلك الحين أصبح نشر الأفكار القومية العربية خاضعا لأسلوبين : الأول علني بواسطة النوادي والجمعيات المعترف بها ، والثاني سري وهو الذي كانت تقوم به منظمات سرية ترتب المؤامرات • وتشكل عددا من هذه الجمعيات وأخذ يعمل بنشاط بين عام ١٩٠٩ و ١٩١٤ ولكن أربع جمعيات منها تستحق اهتماما خاصا : اثنتان علنيتان واثنتان سريتان • كانت أعمال كل جماعة متممة لأعمال رفيقاتها الى حد بعيد ولعلنا نوفق الى اظهار هذا الارتباط فيما بينها بوضوح •

★★★

كان (المنتـدى الأدبي) أقدم الجمعيتين وقد قام بتأسيسـه في القسطنطينية في صيف عام ١٩٠٩ جماعة من الموظفين والمبعوثين والكتاب والطلاب ليكونوا مركزا يلتقي فيه العرب من زوار العاصمة والمقيمين فيها وقد استقر (المنتدى) في منزل يحوي مكتبة ودارا للضيافة وحقق الغاية التي أنشيء من أجلها فأصبح مركزا فعالا ونافعا • وقد سكت الاتحاديون عن وجوده وشملوه برعايتهم مدة من الزمن لأن أهدافه المعروفة لم تكن سياسية ولكنه في الواقع كان يتمتع بنفوذ سياسي كبير حتى اعترف في وقت من الأوقات بلجنته الادارية كوسـيط بين العرب والاتحـاديين في المفاوضات التي جرت لتسوية الخلافات بين الطرفين • وعلى كل حال كان (المنتدى) مصفاة للأفكار لا مصنعا لها وهذا هو عمله الحقيقي فانحصرت مساهمته بالحركة العربية في تنميته الدعوة لها وتوسيع مداها لا في خلق دافع جديد يحركها • كان عدد أعضائه كبير جدا حتى بلغ مجموعهم الآلاف وكان أكثرهم من التلامذة كما أنه أنشأ فروعا له في مدن مختلفة من الشام والعراق وكان من أكبر ميزاته أنه أوجد مراكز يلتقي فيها العرب من كافة أنحاء المملكة وهم اذ شعروا أنهم في بيوتهم تحدثوا بحرية في جو ترتاح اليه الأذهان وتجد فيه الأفكار واسطة للانتقال •

★★★

ومن أبرز مؤسسي (المنتدى العربي) عبد الكريم الخليل « مسلم من لبنان » ، صالح حيدر « مسلم من بعلبك » ، رفيق سلوم « مسيحي من حمص » ، جميل الحسيني « مسلم من القدس » ، يوسف مخيمر « مسلم من بعلبك » ، سيف الدين الخطيب « مسلم من دمشق » •

★★★

أما الجمعية العلنية الهامة الأخرى فقد أسست في القاهرة في أواخر عام ١٩١٢ واتخذت اسم (حزب اللامركزية الادارية العثماني) وكانت أهدافها ذات شقين : اقناع حكام تركيا بضرورة ادارة المملكة على أساس لامركزي من جهة ومن جهة ثانية توجيه الرأي العام العربي نحو المطالبة باللامركزية . وكانت الكثرة من مؤسسيها مؤلفة من رجال ذوي خبرة ومكانة .

ومن مؤسسي حزب اللامركزية العثمانية : رفيق العظم « مسلم من دمشق » ، رشيد رضا « مسلم من طرابلس » ، اسكندر عمون « مسيحي من لبنان » ، فؤاد الخطيب « مسلم من لبنان » ، سليم عبد الهادي « مسلم من جنين » ، وحافظ السعيد « مسلم من يافا » ، ونايف تللو « مسلم من دمشق » ، علي النشاشيبي « مسلم من القدس » . قوانين تجعلها صالحة .

★★★

وقد برز أعضاء هذه الجمعية في الحياة العامة ، وقد سنت الجمعية قوانين تجعلها صالحة لايجاد آلة حزبية كبيرة ، على أن الأشراف والتوجيه كانا منحصرين في لجنة قوية مؤلفة من عشرين عضوا من المقيمين في مصر . ويشكل ستة منهم الهيئة التنفيذية . وقد أسست لها فروعا في كل مدينة من مدن الشام ، كما أسست وكالات صغيرة في بعض الأماكن الأخرى وأقامت صلات وثيقة جدا بينها وبين الهيئات السياسية العربية في الشام والعراق ولا سيما (المنتدى الأدبي) في القسطنطينية . لم يمض سنة على تأسيس (حزب اللامركزية) حتى أصبحت لجنته تنطق بلسان العرب وتعرب عن أمانيهم وقد امتازت بحسن تنظيمها وقوة نفوذها .

★★★

تعود قيمة هذه الجمعية في تاريخ الحركة العربية الى أنها أول تجربة تقوم بها الحركة في حقل المجهود المنظم فقد مضى ثلاث سنوات على المعركة بين الاتحاديين ، والعرب الساعين الى الحصول على حكم ذاتي ، وهي ماتزال متقطعة ومبعثرة شأن معارك العرب جميعها فاسست هذه الجمعية لكي تسعى الى تنسيق الجهود وتوحيدها ولتكون أداة لضغط شديد مجتمع ومستمر .

★★★

وعن المنتدى الأدبي والجمعية القحطانية يقول جورج أنطونيوس :

ثم تأسيس الجمعيتين السريتين خلال هذه المرحلة ، فشكلت

(الجمعية القحطانية) في أواخر عام ١٩٠٩ بعد تأسيس (المنتدى الأدبي) بقليل وقد امتاز مؤسسوها بإقدامهم كما امتاز هدفها بأنه يرمي الى تحقيق مشروع جديد وجريء وهو تحويل المملكة العثمانية الى مملكة ذات تاج مزدوج ، فكان هذا الهدف محاولة جديدة لمعالجة المشكلة التى خلفتها سياسة الاتحاديين المركزية .. ويتلخص المشروع فى أن الأجزاء العربية تشكل مملكة واحدة ذات برلمان خاص بها وادارة محلية خاصة كذلك وان تكون العربية لغة مؤسساتها وتكون هذه المملكة جزءا من امبراطورية تركية وعربية تشبه فى تكوينها امبراطورية النمسا والمجر ، وعلى هذا يضع السلطان العثمانى فى القسطنطينية على رأسه تاج المملكة العربية بالاضافة الى تاجه التركى على غرار امبراطورية آل هابسبورغ فى فيينا الذى وضع على رأسه التاج المجرى . وبهذا التفريق تتوصل الامبراطورية الى تكوين وحدة حقيقية توحد مصير الترك والعرب على أساس ثابت لأنه يستند الى الواقع .

***

أمامنا اذن مشروع ملموس فكرته واضحة معينة وقد أوجدته جماعة من الرجال العمليين ذوى العزم الأكيد الذين أدركوا أن تحقيقه عن طريق الدعوة له علنا أمر مستحيل . كان زعيمهم عزيز على المصرى وهو ضابط فى الجيش التركى ، وكان أعضاء (الجمعية القحطانية) ينتقون بدقة وحذر فلا يقبل الا من كانت وطنيته فوق كل شك ومن يستوثق من قدرته الأكيدة على كتم السر .

وقد ضمت الجمعية عددا من الضباط العرب ذوى الرتب العالية فى الجيش التركي ومائتين من مؤسسى (المنتدى الأدبي) وكان لها كلمة سر واشارة للتعارف وأنشيء لها فروع فى خمسة مراكز بالاضافة الى القسطنطينية واستمدت الجمعية قوتها من قوة شخصية بعض أعضائها ، أما قيمتها فى تاريخ الحركة فهى ناشئة عن كونها قامت بأول محاولة معروفة لكسب الضباط العرب فى الجيش التركى والفوز بموازرتهم الفعالة للحركة القومية .

***

كانت الجمعية كبيرة النشاط فى السنة الأولى من حياتها الى أن وجد المؤسسون بعض الدلائل التى جعلتهم يخشون الخيانة . وبالرغم من أن الأشخاص كانوا لا يقبلون فيها الا بعد اجراء تحقيق دقيق فقد تبين أن أحد الأعضاء قد أفشى السر فأثار ذلك قلق الباقين . لم يعمد الأعضاء الى حل

جمعيتهم فعلا ولكن رؤساءها وجدوا أنه يستحيل عليهم الاستمرار في العمل وبينهم رجال يرتابون في شأنه فماتت كنتيجة لاهمال مقصود .

ومن أبرز أعضاء تلك الجمعية : سليم الجزائري (ضابط في الجيش ومسلم من دمشق) والأميران عادل وأمين أرسلان (درزيان من لبنان) وخليل حمادة (مسلم من بيروت) وأمين كزما (مسيحي من حمص) وصفوت العوا (ضابط في الجيش ومسلم من دمشق) وعلى النشاشيبي (ضابط في الجيش ومسلم من دمشق) وشكرى العسلي (مسلم من دمشق) .

★★★

أما الجمعية السرية الثانية فهي جمعية (العربية الفتاة) التي أسست في باريس عام ١٩١١ ولم تلعب أية جمعية أخرى الدور الذي لعبته هذه الجمعية في تقرير مصير الحركة القومية . كان مؤسسوها سبعة من العرب ، وكلهم مسلمون ، كانوا يتابعون دراستهم العالية في العاصمة الفرنسية فسار عملهم باتحاد وقوة بفضل ما امتازوا به أنفسهم من فتوة ورغبة أكيدة في العمل ووحدة في الرأي . ويذكرنا تأسيس الجمعية من هذه الناحية بتشكيل جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥ والفارق بين الحالتين ان العمل في هذه المرة انتقل الى أيدي المسلمين أما أهداف الجمعية فكانت : تحقيق استقلال البلاد العربية وتحريرها من الحكم التركي وأية سيطرة أجنبية أخرى ، ونحن نلحظ في هذا تقدما ذا مغزى على البرامج السابقة التي كانت تطالب بالحكم الذاتي ضمن المملكة كما نلحظ عودا غير مقصود الى المثل العليا التي اعتنقتها جمعية بيروت السرية .

★★★

وسنحصر اهتمامنا بنموها الذي كان نموا حذرا ولكنه سريع أدى الى جعلها أكثر الجمعيات العربية العاملة فعالية . وكانت تمتاز لا بأهدافها وأساليبها فحسب بل وأيضا بالنظام الشديد السائد بين الأعضاء والذي يدعو الى الاعجاب فكان الانتساب لا يتم الا بعد أن يمر الراغب بدور تجربة طويل ويتوقف على نتيجة هذه التجربة وكان لكل مرشح جديد عضو محلف قديم يتولى تقديمه فلا يعرف المرشح غيره من الأعضاء ويظل يجهلهم حتى يجتاز دور التجربة بنجاح وعندئذ يدعى الى خلف اليمين فيقسم أن يعمل على تحقيق غايات الجمعية ولو أدى ذلك عند اللزوم الى بذل حياته في خدمتها .

★★★

بقيت باريس مركزا للجمعية مدة سنتين فبقي عدد الأعضاء قليلا ، فلما تخرج أعضاؤها وعادوا الى أوطانهم انتقل المركز الى بيروت عام ١٩١٣ ثم الى دمشق في العام الذى تلاه فبلغ مجموع الأعضاء المائتين وكلهم من المسلمين باستثناء عدد ضئيل من النصارى ، وبقى سر وجودها مكتوما حتى النهاية ولم يعرف بها أحد الا بعد أن تحررت البلاد العربية من الحكم التركى . وعندما كان الترك يلاحقون القوميين العرب بتهمة الخيانة أثناء الحرب العالمية حاول أحد أعضاء (الفتاة) الانتحار لما وصلوا فى تعذيب جسمه حدا لا يطاق كما فضل عضو آخر المشنقة على افشاء سر الجمعية . واذا كان القسم الذى فرض على الأعضاء يذكرنا بالروايات المسرحية العنيفة فلا نرى بأسا في ذلك ما دام فى هذا الشكل ضمان للولاء .

★★★

كانت هذه الجمعيات الأربع ، وغيرها من الجمعيات التى تقف دونها فى الأهمية ، فى الوجود حين ارتطمت موجة جديدة من موجات الحركة العربية بصخرة المقاومة التركية وقد بدأت الموجة فى الأيام الأخيرة من عام ١٩١٢ ثم حملها التيار نفسه الى باريس حيث انعقد مؤتمر عربى بعد ستة أشهر .

★★★

نهضت بالعمل فى بيروت فئة اتخذت لنفسها اسم (جمعية الاصلاح) وعدد أعضائها ستة وثلاثون يمثلون جميع الأديان فأعدوا مشروعا يقضى بمنح المناطق العربية فى المملكة العثمانية حكما ذاتيا وقد حملهم على القيام بهذا الأمر الدوافع نفسها التى أدت الى انشاء حزب (اللامركزية) فى القاهرة وكانت الروابط بين الهيئتين وثيقة كما أن مشروعهم كان بمثابة التعبير العملى عن المبادىء التى بشر بها دعاة الحكم الذاتى على أساس اللامركزية .

كان المشروع منطبقا على الهيكل الادارى وتقسيماته القائمة كما أنه اعترف اعترافا تاما بالسيطرة التركية ولكنه فرق تفريقا واضحا ما بين المسائل ذات الصفة الامبراطورية العامة كالشئون الخارجية والدفاع والمواصلات البعيدة ومالية الدولة ، وبين المسائل ذات الصفة الاقليمية كادارة المقاطعات ومواردها والدوائر المحلية كما أنه قضى بانتقال جميع المصالح الاقليمية فى ولاية بيروت الى أيدى هيئات تمثل الأهالى . ومن جملة الاصلاحات التى أتى بها المشروع الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية واستعمالها فى البرلمان على قدم المساواة مع اللغة التركية . أما فى موضوع

الخدمة العسكرية فقد قضى المشروع بلزوم العدول عن تجنيد الجند للخدمة وقت السلم خارج مناطقهم · ونحن نتبين في هذه البنود الأخيرة صدى لصيحات جمعية بيروت في عام ١٨٧٥ ·

★★★

نشرت جمعية (الاصلاح) مشروعها في أواسط شهر فبراير عام ١٩١٣ فاستقبل بمظاهر الاستحسان العام لا في أنحاء الشام فحسب بل أيضا في العراق وعقدت اجتماعات عامة في دمشق وحلب وعكا ونابلس وبغداد والبصرة وتدفقت البرقيات على القسطنطينية مرحبة بالمشروع ومعلنة أنه يعرب عن رغبات جميع الناس في الأجزاء العربية · على أن الاتحاديين وهم في الحكم كانوا خصوم فكرة اللامركزية ولهذا اتخذوا التدابير للقضاء على هذه الحركة ، ففي اليوم الثاني من شهر ابريل وأثناء انعقاد جلسة من جلسات جمعية (الاصلاح) حضرت الشرطة وأعلنت الأعضاء أن الحكومة قررت حلها وإغلاق مركزها الرئيسي فولد هذا العمل فزعا مشبطا للهمم وغضبا عامين فأضربت جميع الأسواق والمتاجر في بيروت وظهرت الجرائد وقد أحيطت صفحاتها بشارة الحزن السوداء ولم تنشر شيئا سوى الأمر القاضي بحل الجميعة · وتابعت السلطات التركية سيرها في سياسة الشدة التي تعشقها الحكومات المكروهة فاعتقلت الرؤساء البارزين وعطلت الجرائد ولكن الهياج ازداد وأدى الى قيام المظاهرات التأييدية في جهات أخرى من بلاد الشام فلجأت الحكومة الى اجراء حل وسط : فأطلقت سراح الزعماء المسجونين وأعلنت أنها ستقوم بالاصلاح بشكله المطلوب ثم في اليوم الخامس من شهر مارس نشر الحاكم العام بالفعل قانونا جديدا للولايات من شأنه أن يمنح الهيئات التي تمثل السكان في المقاطعات سلطات أوسع من ذي قبل ولكن هذا الحال قصر عن مشروع الجمعية بشكل جعل الناس ينظرون اليه ، وهم على حق في نظرتهم ، كخطوة مقنعـــة نحو مركزية متزايدة نتيجتها تقوية الساعد الذي تمده القسطنطينية لتطبق على العرب بقبضة يدها وتخنق الحريات ·

★★★

انتقل في ذلك الوقت مركز الحركة الى باريس · فقد كان الشباب الذين أسسوا (جمعية الفتاة) يفكرون منذ زمن بعرض القضية العربية بايجاد حل لها فاختاروا أسلوب عقد مؤتمر عربي وبعد أن ترددوا قليلا في أمر المكان الملائم للاجتماع بين سويسرة وفرنسا وقع اختيارهم على باريس ولهـذا كتبـوا بتـاريخ ٤ ابريل عام ١٩١٣ الى لجنة (حـزب

اللامركزية) في القاهرة يدعونه والجمعيات التابعة له لحضور المؤتمر ٠ ومن المهم أن نذكر هنا أن الدعوة أتت في رأس الأسباب المبررة لعقد المؤتمر ٠ على ذكر الحجة القائلة بأن انكار المطالب العربية أدى الى تعميم الفوضى في الولايات العربية وتعريضها الى التدخل الأجنبي ، أي الأوروبي٠ فوافق الأعضاء على الفكرة ولبوا الدعوة فورا كما أن (جمعية الاصلاح) في بيروت ، التي كانت تئن من أثر مساعي الاتحاديين لقمع حركتها ، أرسلت تعلن انضمامها للمؤتمر بحرارة وقد بلغت السرعة التي لبى الناس فيها الدعوة حدا اضطر معه القائمون على العمل بأن يعدوا عدتهم في أقصى السرعة حتى ان الدعوة لم تصل الأجزاء العربية البعيدة الا قبيل التئام المؤتمر الذي عقد جلسته الافتتاحية في يوم ١٨ يونيو في قاعة بشارع سان جرمان ٠

***

ضمت قائمة الممثلين المعتمدين خمسة وعشرين شخصا حضر منهم أربعة وعشرون ممثلا وكان تمثيل النصارى في المؤتمر مشابها لتمثيل المسلمين مشابهة تكاد تكون تامة وكانت الأكثرية الغالبة من الحاضرين من أهل الشام ومثل العراق عضوان كما حضر ثلاثة أعضاء لتمثيل الجاليات العربية في الولايات المتحدة وكانت نسبة تمثيل المناطق العربية باستثناء الشام ضئيلة ٠ استمر انعقاد المؤتمر أكثر من ستة أيام عقد فيها أربع جلسات رسمية واتخذ عددا من القرارات باجماع الآراء ، وحضر الجلسات حول المائتين من العرب بصفة مستمعين وفي اليوم الأخير فتحت الأبواب لجميع الزائرين بدون قيد وجرت المناقشات باللغة الفرنسية ٠

تمتاز أبحاث المؤتمر بصراحتها ولهجتها المسالمة كما أن مقرراته تدل على ميل نحو الاعتدال وكانت هذه المقررات بمثابة ترديد مجدد للمبادىء التي سبق أن أعلنها (حزب اللامركزية) وللمقترحات المعينة التي تقدمت بها سابقا (جمعية الاصلاح) في بيروت مع الاصرار على طلب العرب الحصول على حقوقهم السياسية الكاملة وعلى نصيبهم الفعلي في ادارة شئون الامبراطورية وأشارت الأبحاث جميعها الى أن التدخل الأجنبي محتمل الوقوع ويجب صرفه بعزم أكيد لما ينطوي عليه من خطر الا أن هذه الاشارة كانت دوما تصاغ في قالب حكيم لما لها من صلة بأطماع فرنسا ٠ ولم يأت المؤتمر البتة على ذكر الانفصال أو الانشقاق بل بالعكس كان الخطباء يبذلون الجهد لاظهار الرغبة العامة في المحافظة على وحدة المملكة على شرط الاعتراف بحقوق العرب كشركاء فيها وفسح المجال لأمانيهم الفكرية بأن تتحقق ضمن الشكل اللامركزي للحكم ٠ وامتازت بعض الخطب بما دلت

عليه من ادراك سياسى واع عميق ، فاستعرض أحد الخطباء أسباب الخلاف وأصاب صميم المسالة اذ كشف النقاب عن التضليل الذى ينطوى عليه مبدأ المركزية الذى يتمسك به الاتحاديون وقد أخذوه عن مبادىء الثورة الفرنسية كما قام بتحليل واضح أثبت فيه أن العرب اذا قبلوا بهذا المبدأ فهم اذن مقدمون على الانتحار ٠

★★★

كانت السلطة يومئذ فى يد الاتحاديين فكان من الطبيعى أن يقفوا من المؤتمر موقفا عدائيا فقاموا بتوجيه حركة ، غذتها جرائدهم وأيدتها المظاهرات المدفوعة ، غايتها تشويه المؤتمر وبذر بذور الخلاف بين القائمين عليه فلما فشلوا فى هذه المحاولة أرسلو أمين سر (حزب الاتحاد والترقى) الى باريس وزودوه بالتعليمات التى تخوله حق الدخول فى مفاوضات مع زعماء المؤتمر فنجح فى تنفيذ هذه التعليمات وتوصل الطرفان الى الاتفاق على المبادىء التى اعتبرها الزعماء العرب صالحة كأساس للقيام بمفاوضات أخرى فسافر ثلاثة منهم الى القسطنطينية للوصول الى تنفيذ ما فازوا به ٠

★★★

كان الاتفاق الذى تم فى باريس فوزا للعرب فى ظاهره لأنه منحهم ما طلبوه فى مواضيع كثيرة كالخدمة العسكرية ضمن الاقليم وجعل اللغة العربية رسمية فى الولايات العربية وادخالها كأداة للتعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية ٠ ونص الاتفاق على ضرورة تعيين مفتشين أوروبيين يشتركون فى اصلاح الادارة ٠ أما فى موضوع اللامركزية فان تساهل الاتحاديين كان ظاهريا لا حقيقيا ، وذلك ان الاتفاق منح الهيئات المحلية فى الأقاليم سلطات فى بعض المصالح الثانوية كما حفظ للعرب بعض المناصب فى دوائر الدولة العالية وعلى هذا نال العرب الحق بأن يكون منهم ما لا يقل عن الخمسة من الحكام العامين بصورة دائمة وما لا يقل عن الثلاثة من الوزراء فى أية وزارة عثمانية تأتى للحكم ٠

★★★

لسنا نعلم ما اذا كان موفد الاتحاديين توصل الى هذا الاتفاق بناء على التعليمات التى يحملها أم أنه حاول تهدئة العرب بلعبة من صنعه ولعله كان يفعل الأمرين معا فقد تبين فيما بعد ، عندما مسخت مواد الاتفاق بشكل لم يعد لها معه أدنى قيمة ، أنه لم يكن فى نية زعماء الاتحاديين ابرام الاتفاق فى وقت من الأوقات ومع ذلك فقد استمروا يمثلون الدور مدة

شهرين فاستقبلوا زعماء العرب الثلاثة لدى وصولهم من باريس وأقيمت على شرفهم الحفلات والمآدب كما كان رجال الترك البارزين موضع الحفاوة في (المنتدى الأدبي) وبهذا تجدد الاخاء الرخيص الذي ظهر عام ١٩٠٨ محاطا بهالته اللفظية القديمة ٠

★★★

نشرت في ١٨ أغسطس ارادة سنيه ترمي في ظاهرها الى اعطاء اتفاق باريس الشكل القانوني ولكنها في الواقع اختصرت الى حد بعيد الحقوق التي اعترف بها الاتفاق كما أحاطت ماتبقى منها بالتحفظ والغموض فقد ورد في الارادة نص يفرض استعمال اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية ولكنها نصت كذلك على أن المدارس الثانوية في العواصم الاقليمية تثابر على استعمال اللغة التركية وكانت المدارس الثانوية جميعها في تلك العواصم ٠ أما الخدمة العسكرية فيتأيد حقها بالشكل ذاته ، ولم تشر الارادة البتة الى ضرورة اعتبار العربية لغة رسمية أو الاعتراف بها كاحدى اللغات الرسمية في المناطق العربية كما أنها لم تأت على ذكر المناصب التي يجب أن تخصص للعرب في الوزارة وبين الحكام العامين ٠

★★★

كان ظهور الارادة السنية سببا لانتشار الفزع الذي ما لبث أن تحول الى يأس حين أخذ العرب المتنبهون يدركون أنها هي أيضا لعبة وان الاتحاديين يرمون من ورائها الى قتل القضية الكبرى ٠ وقد وجهت الى بعض الولاة في المناطق العربية تعليمات لا يرافقها أي حماس تطالبهم بأن « يمهدوا السبيل لتنفيذ الارادة السنية العظيمة في المستقبل » وفي الوقت ذاته أخذ رسل الاتحاديين يتصلون ببعض رجال العرب البارزين ويعرضون عليهم المناصب ثمنا لرضاهم فقبل خمسة منهم أن يعينوا أعضاء في مجلس الأعيان وكان أربعة من هؤلاء غرباء عن الحركة القومية بينما كان الخامس ، وهو عبد الحميد الزهراوي ، من أكبر أساطينها وهو الذي ترأس مؤتمر باريس ٠ وقد ادعى أن قبوله هذا المنصب ما كان الا مناورة سياسية لأنه شعر بأن المؤتمر ، وقد انعقد مباشرة بعد الحملة التي بدأت في بيروت ، وقد أوصل العلائق بين الترك والعرب الى نقطة خطرة تشرف فيها على الانقطاع وأنه بحكم منصبه الجديد قد يتاح له أن يعمل عملا نافعا فيبذل نفوذه لتحسين تلك العلائق واقناع الاتحاديين بلزوم السير في سياسة تنطوي على مبلغ أكبر من التسامح والحرية ٠ ويخيل لنا من قراءة بعض رسائله التي نشرت بعد وفاته أنه كان صادقا في هذا الزعم وأيده بعض زملائه المقربين في هذه الخطة وان شذت عنه أكثريتهم ، على أن جمهرة

المشتغلين بالحركة القومية عدوا قبوله المنصب بمثابة الخيانة وقد نشر أمر تعيينه في الجريدة الرسمية فى ٤ يناير عام ١٩١٤ فولد نفورا عاما يمكننا اعتباره كنقطة تحول فى الحركة • لقد فشلت كل من الحركة التى قامت فى بيروت ومؤتمر باريس فى تحقيق أغراضهما الرئيسية فأصاب موجة الشعور التى حملتها رجس جر فى أثره الألم واليأس ولم تبذل أية محاولة للاتفاق مع الاتحاديين بعد ذلك • ومما زاد فى خطورة الأمر أن هؤلاء ، بعد أن ربحوا المعركة بلعبتهم واحتيالهم ، عملوا على متابعة ظفرهم بتصرف جديد يمتاز بحماقته وعنفه •

***

ولا يفوتنا أن نشير الى أن الشيخ رشيد رضا ــ صاحب المنار ــ د• ابراهيم أحمد العدوى ــ كان قد أنشأ جمعية سماها جمعية الشورى العثمانية ، وكانت ترسل منشوراتها السرية الى سائر أرجاء البلاد العثمانية حتى أقضت مضاجع السلطان عبد الحميد وأنزلت الرعب فى نفسه •

***

وكانت جمعية الاتحاد والترقى قد أنشئت وجاء مندوب عنها الى رشيد رضا بالقاهرة يقترح ضم الجمعيتين معا ، ولكن رشيد رضا اعتذر بلباقة لان جمعية الاتحاد والترقى كانت تعتمد على شباب العثمانيين وحدهم دون سائر العناصر الأخرى وخاصة العرب •

وبعد استيلاء جمعية الاتحاد والترقى (تركيا الفتاة) على الحكم وجد رشيد رضا أنها تسير على نفس السياسة القديمة سياسة التنكيل بالعرب، بل لقد وجد الشيخ ان جمعية الاتحاد والترقى أكثر تعسفا بالعرب من السلطان عبد الحميد ، وكان الاتحاديون قد بدأوا يحاربون اللغة العربية ويفرضون اللغة التركية حتى فى محاكم الدرجة الأولى • وقضى رشيد رضا عاما بالآستانة يدرس سياسة الحكام الجدد ،وعاد مؤمنا بأنهم يعمدون الى الخديعة •

وفشلت دعوة رشيد رضا ، كما فشلت دعوة عزيز على المصرى فى ازالة الجفوة بين العرب والأتراك •

***

ولابد بعد الحديث عن الجمعيات والأحزاب العربية من التركيز أكثر على المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس ، وكان أصحاب فكرته

عبد الغني العريسي ، ندره المطران ، شكري غانم ، عوني عبد الهادي ، جميل مردم بك ، شارل دباس ، محمد المحمصاني ، جميل مردم • وقد أرسل هؤلاء الجماعات العربية الكبرى واتفقوا معهم على عقد المؤتمر وتحديد زمانه • وفي ٤ نيسان (ابريل) ١٩١٣ أرسلت اللجنة التي شكلت من الأسماء التي سبقت الاشارة اليها الى حزب اللامركزية في مصر ، اقترحت عليها ، أن تقوم هي بأعباء هذا المؤتمر وأن تعمل على انفاذه وانجاحه ، وجاء في كتابها الى حزب اللامركزية ما يأتي :

« نحن الجالية العربية في باريس نقدم اليكم عواطف الشكر لتاليفكم حزب اللامركزية الادارية ، فقد جمعتم في برنامجكم الأماني التي يرتادها أبناء العرب لسعادتهم وترفيههم وترقيتهم في كل حين ، ولذلك أوقفنا أنفسنا لخدمة غايتكم النبيلة واعتبرناكم مصدرا لما نتوقع أن نقوم به في هذه الديار ازاء مناظرات الجرائد ومغامز الخطباء في الأندية السياسية ومجرى المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية ، وهذا ما حمل الجالية العربية على الاجتماع والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب من الطوارىء واصلاح أمور بلادنا على أساس اللامركزية ، وبعد المناقشات ارتأت أن تعقد مؤتمرا للعرب تظهر فيه للأجانب أن العرب يدرءون عادية الاحتلال من أية دولة كانت ، ويحتفظون بحياتهم الوطنية ، ويصارحون الدولة العثمانية بوجوب تطبيق الاصلاحات اللامركزية في بلاد العرب •

وبعد المناقشات ارتأت الجالية أن تعقد مؤتمرا للعرب يقوم به السوريون في هذه المدينة ، فانتخبت لجنة ادارية مؤلفة من شكري غانم ، ومحمد المحمصاني ، وندره مطران ، وعوني عبد الهادي ، وجميل معلوف ، وشارل دباس ، وجميل مردم ، وعبد الغني العريسي ، وتقرر أن تدور مباحثات هذا المؤتمر حول ما يأتي :

الحياة الوطنية ••

حقوق العرب والمملكة العثمانية ••

ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية ••

المهاجرة من سوريا الى سوريا ••

وفي ١١ نيسان ـ أبريل ـ كتبت اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر الى لجنة باريس شاكرة عواطفها وأبلغتها أنها قررت ارسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر على أن يكون لهم المشاركة والنظر في موضوعاته حتى تكون موافقة لمبادىء الحزب وبرنامجه •

وعلى الأثر أذاعت لجنة باريس بيانا عاما بسطت فيه غايتها وفكرتها، وطلبت « من كل من يخفق قلبه لأمة العرب صغيرا أو كبيرا أن يلبى داعى الوطن لا سيما أرباب الزعامات فى مقاعد الجمعيات فعليهم تعتمد واليهم نتجه ، فاما أن ينضموا الى وفود المؤتمر واما أن يبعثوا الينا بالرسائل البرقية أو الكتابية يظهرون فيها ارتياحهم لنيل الغاية واشتراكهم فى شريف القصد حتى يدلى المؤتمر لدى الأمم بحجته وتتوقد قوته بقوة أمته ، وهناك ينبثق الغبن فيطل على هذه الأمة فجر الحياة من اتساق الغسق وركام الظلمات .

« سلام على كل من تلقى هذا النور فغشاه وعرف واجبه فأداه ... »

★★★

وقد افتتحت جلسات المؤتمر فى ١٨ يونية (حزيران) ١٩١٣ — فى الجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان برئاسة السيد عبد الحميد الزهراوى الذى قال فى خطبة الافتتاح :

« ان العرب كانوا قد ألفوا الترك وهؤلاء قد ألفوا العرب ، وامتزج الفريقان امتزاجا عظيما مضى عليه أكثر من عشرة قرون ، ولكن كما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة أيضا ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم الا رابطة بين بعض العرب وبعض الترك ، وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معا ، ولكنها مع عزتها فى نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت قبلا . ومعلوم أن السياسة في هذه المملكة في يد الترك ولذلك تعرفها أوروبا بأنها حكومة الترك . فلما رأى العرب الآن ما وصلت اليه هذه المملكة بتلك السياسة التى مضى العمل عليها حتى الآن ، وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة ، تنبهوا الى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعـا غير مهتمين به كما ينبغي وهو اشتراك الفريقين بسياسة البلاد ، فانه قد تبين واضحا أنه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب اضاعة البلاد ، ولا الترك انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعة ذلك العبء الثقيل . وبديهى أن هذا الاشتراك لا ينافى الاخاء بل الذى ينافى الاخاء هو عدم هذا الاشتراك » .

★★★

وجاء فى خطبة اسكندر بك عمودن ، أحد مندوبى حزب اللامركزية :

« الأمة العثمانية على شفا جرف هار ، فهى بين ذلك الماضى المؤلم والمستقبل المظلم تنظر الى أمسها بعين الحزن والأسف وترمق غدها بعين الخوف والوجل .

« فى مثل هذا الموقف ، موقف الخطر على الحياة ، تمر على ذهن الأمم كما تمر على ذهن الأفراد حوادث حياتها الماضية حلقات آخذ بعضها برقاب بعض فترى بينها من الارتباط ما لم تره وهى رهن الحوادث أيام وقوعها ، وتنكشف الأسرار التى ساقتها الى حيث صارت فتستعين بما عرفت من ذلك لتهتدى الى سبيل النجاة ان كان ثم الى النجاة سبيل . ذلك الخطر الذى أصبحت الأمة فيه هى الباعث على اجتماعنا من كل حدب وصوب فى هذا البلد الآمين ، وهذا هو الغرض الذى نرمى اليه من هذا الاجتماع » .

***

وقال اسكندر بك أيضـــا : توهم بعض أنصار النظام المركزى من اخواننا الأتراك ان الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة ، وهو أمر بعيد عن الصحة فان الأمة العربية لا تريد الا تغيير شكل الحكم الفاسد ـ الذى كان يؤدى بالدولة ـ بالحكم الذى كان يرجى منه وحده الصلاح والنجاح لنا ولهم ، وهو الحكم على قاعدة اللامركزية . ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معهم نفس موقفنا هذا » .

وجاء فى كلمة ندره بك مطران ، ان القضية العربية لا تستوجب منهم طيشا يجهلون معه مواضع الضعف من أمتهم وبلادهم ، فيتصورون أن يتسنى لهم جزافا الانقطاع عن ولاء الدولة العثمانية ، وما من أحد ينكر على الاطلاق ارتباطنا بهذه الدولة واتصال علاقاتنا بالأمة التركية أسلم عاقبة وأنتج خيرا للعرب من أى ارتباط سواه .

***

وتكلم نجيب أفندى دياب مندوب المهاجرين السوريين فقال : « ويتمنى المهاجرون السوريون البقاء فى حضن العثمانية والاحتفاظ بالوطنية بشرط أن تحفظ حقوق اخوانهم المتخلفين فى الوطن من نصارى ومسلمين ، وأن تكون أعراضهم مصونة وأموالهم فى مأمن ومدارسهم تضاء بكهرباء الوطنية وأفئدتهم تلتهب بحب الوطن » .

***

وكان قد شهد جلسات المؤتمر : عبد الحميد الزهراوى واسكندر عمون عن حزب اللامركزية فى مصر .. سليم على سلام وأحمد مختار بيهم وأحمد حسن طباره والدكتور أيوب ثابت عن الجمعية الاصلاحية فى بيروت .

توفيق السويدى وسليمان عنبر عن العراق .

محمد حيدر وابراهيم حيدر عن بلعبك .

عبد الكريم الخليل عن جالية الآستانة .

نجيب ديان ونعوم مكرزل والياس مقصود عن المهاجرين السوريين في الولايات المتحدة .

عباس بجاني عن المهاجرين في المكسيك .

شكري غانم ، وعبد الغني العريسي ، وندره مطران ، وعوني عبد الهادي ، وشارل دباس ، وخير الله خير الله ، وجميل مردم ، ومحمد المحمصاني عن جالية باريس .

★★★

وعن الأسباب التي أدت الى عقد هذا المؤتمر قال رئيس المؤتمر « الزهراوي » لمراسل جريدة الطان الفرنسية : « ان ما حدث في ولايات الدولة العثمانية في أوروبا من الحوادث الخطيرة الشأن دعانا الى التفكير في الحالة الجديدة التي دخلت فيها واتخاذ الوسائل الضرورية لاتقاء نتائجها . ذلك من جهة ومن جهة ثانية فان العرب يؤلفون عنصرا مهما بعدده ان لم نقل عنه أنه أهم العناصر العثمانية كلها ، ولهذا العنصر مزية على العناصر الأخرى بوحدة لغته وعاداته وميله ، وقد أحدثت له هذه الصفات حقوقا كانت مهملة حتى الساعة ، ولذلك جئنا لنطلب بصفتنا عثمانيين أن نشترك بالادارة العامة وأن نعرض على الحكومة بصفتنا عربا مطالب خاصة بقوميتنا »

★★★

ويقول الزهراوي أيضا : « ان حوادث بيروت الأخيرة (أي اضطهاد الجمعية الاصلاحية وسجن فريق من أعضائها) برهنت لنا على قدر الحرية التي يمكن أن يتمتع بها مؤتمر يعقد في سوريا ، وقد رأينا من جهة أخرى أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا لأوروبا التي تزداد مصالحها أهمية في البلاد العثمانية يوما بعد يوم ، وفضلنا باريس على غيرها من عواصم أوروبا لان الجالية العربية فيها أكثر من سائر العواصم » .

★★★

وقد اتخذت في المؤتمر القرارات التالية :

أولا : ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب أن تنفذ بوجه السرعة .

ثانيا : من المهم أن يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا فى الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا ٠٠

ثالثا : يجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية ادارة لامركزية تنظر فى حاجاتها وعاداتها ٠

رابعا : كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها فى ٣١ كانون الثانى سنة ١٩١٣ باجماع الآراء ، وهى قائمة على مبدأين أساسيين وهما توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب ، فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين ٠

خامسا : يجب أن تكون اللغة العربية معتبرة فى مجلس النواب العثمانى ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية ٠

سادسا : تكون الخدمة العربية محلية فى الولايات العربية الا فى الظروف والأحيان التى تدعو الى الاستثناء الأقصى ٠

سابعا : يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل ماليتها ٠

ثامنا : يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية ٠

تاسعا : سيجرى تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية ٠

عاشرا : وتبليغ هذه القرارات أيضا للحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية ويشكر المؤتمر الحكومة الفرنسوية شكرا جزيلا لترحابها الكريم بضيوفها ٠

★★★

ملحق بقرارات المؤتمر :

أولا : اذا لم تنفذ القرارات التى صادق عليها هذا المؤتمر فالأعضاء المنتمون الى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أى منصب كان فى الحكومة العثمانية الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها ٠

ثانيا : ستكون هذه القرارات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد من قبل بتنفيذ هذا البرنامج وطلب تنفيذه ٠

★★★

وكان لعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس آثاره السيئة للغاية عند الأتراك ..

علقت جريدة « طنين » لسان حال حزب الاصلاح والترقى على عقد هذا المؤتمر بقولها :

« لما كررنا القول وأعدنا التصريح بان الفئة التى تتظاهر تارة فى سوريا وتارة فى مصر والعراق وباريس بالغيرة على مصالح العرب وعشق العربية والهيام بأمثال ذلك هى فئة ليست من العربية فى شىء وما هى الا آلة للفساد وعبارة عن طائفة عجيبة فى أطوارها ، لما قلنا ذلك حملت علينا بعض الصحف العربية حملة شعواء ، فبينما نحن لا نتكلم عن العرب والعربية الا بما يشف عن الميل الشديد واذ تلك الصحف تلقبنا بأعداء العـرب الألداء ولا تتردد فى تسميتنا « المعول العظيم لهـدم كيان الأمة العربية » .

وأما الجمعية الاتحادية فقد أرسلت الى فرعها فى دمشق بأن يمطر الحكومة وابلا من تلغرافات الاحتجاج فلبى طلبها وانهالت البرقيات على الباب العالى بعضها بامضاء وبعضها من غير امضاء وكلها على النسق التالى :

« ان القائمين بفكرة الاصلاح فئـة من المتشردين الفارين من وجه الحكومة السنية ، فجميع أهل سوريا مسلمين ومسيحيين يكذبون افتراءاتهم ويظهرون للحكومة امتنانهم وسرورهم من طرز الادارة الحاضرة التى أعلت شأن الدولة ورفعت منار الدين » .

***

وقالت طنين أيضا فى ٦ مارس سنة ١٩١٣ بعنوان « مؤتمر غريب » ما معناه : « ان موقعى بيان المؤتمر دخلوا فى الجنسية الفرنسية ولم يبق لهم أقل صلة بالعربية الاسلامية ، فمؤتمرهم الذى يعقد فى باريس على ما جاء فى بيانهم عار من كل أهمية ، واذا كان موقعوه يسعون حقيقـة باسم العرب فلماذا لا يدعون مندوبين من كل البلاد التى ينطق سكانها بالضـاد ؟ » .

***

وقالت جريدة « تصوير أفكار » : « يجب علينا أن نفتح البلاد العربية من جديد » .

وجعلت الحكومة تفكر فى أمور شتى تمهيدا لضرب العرب ضربة قاضية ، منها :

أولا : تعيين الشريف حيدر شريفا على مكة المكرمة ، فلم تتمكن من ذلك .

ثانيا : ارسال حملة على العراق بقيادة جاويد باشا وحسنى باشا ووهيب بك ، فأمطرها العراقيون وابلا من برقيات الاحتجاج على هذا التعيين وأظهروا من الشدة ما جعل الحكومة تدرك أن ارسالها حملة عليهم مفتاح ثورة يستطار شررها ولا تؤمن عاقبتها فاضطرت الى العدول عنها .

ثالثا : السعى لارسال حملة على البلاد العربية تقضى على الفكرة القومية فى سوريا والعراق ثم تستأنف الزحف الى شبه الجزيرة لمحاربة السيد الادريسى وغيره من أمراء العرب ولكن الاتحاديين وقع بينهم الخلاف بعد وصول جاويد باشا قائد هذه الحملة الى سوريا ، فقال فريق منهم بوجوب الزحف توا على السيد الادريسى وقال فريق آخر بوجوب تأديب السوريين وفضل آخرون ارسال الحملة على العراق لاغراء القبائل والأمراء بالمال وتأديب العرب بالعرب .

رابعا : عزم الحكومة على اقفال المنتدى الأدبى فى الآستانة والكلية العثمانية فى بيروت ومنع الصحف العربية المصرية وغير المصرية من الدخول الى البلاد العثمانية ، وذلك اكراما لصنائع الاتحاديين الذين جاءوا الآستانة بدعوة من الحكومة المناهضة الاصلاح .

خامسا : اتجاه الاتحاديين الى اغتيال زعماء العرب وقادة الرأى فيهم كطالب بك النقيب ، وكانت الحكومة قد عينت لهذا الغرض ضابطين من كبار الاتحاديين فى وظائف كبيرة فى البصرة وهما فريد بك الذى جعلته قائدا لموقع البصرة وعاكف بك الذى عينته قومندانا للجندرمة فيها وأرسلت معهما عددا كبيرا من الفدائيين فما استلموا زمام وظيفتهم حتى جعلوا يبعدون ضباط العرب الى الأناضول ليتسنى لهم تنفيذ أوامر الحكومة ولكنهم وقعوا فى الشرك الذى نصبوه لزعماء الاصلاحيين فى العراق فسلم طالب بك وأصحابه وقتل فريد بك وتشتت شمل أعوانه وأنصاره وفشلت خطة الاتحاديين فشلا تاما فى البلاد العربية .

★★★

وكانت الحكومة التركية قد بذلت قصارى جهدها لمنع عقد ذلك المؤتمر ، واتصلت بالحكومة الفرنسية حتى لا تسمح بعقده فى باريس ، غير ان تلك الجهود قد فشلت ... فرأت الحكومة ـ أخذا بسياسة المداجاة

والنفاق التي تحبذها ـ أن تتودد الى العرب ، فأرسلت مدحت بك شكرى أمين جمعية الاتحاد والترقى الى باريس لمفاوضة زعماء المؤتمر للاتفاق على ما من شأنه اعادة الوئام الى العرب والأتراك وقد اتفق مدحت بك مع هؤلاء الزعماء على تنفيذ العديد من الأمور من بينها ـ مثلا ـ أن يكون التعليم فى الابتدائى والثانوى فى كل البلاد العربية باللغة العربية ويكون باللغة التركية فى القسم العالى ، وأن يعين عدد من العرب فى مجلس الشيوخ والأعيان بنسبة اثنين عن كل ولاية ، وأمور كثيرة أخرى لا مجال لتفصيلها هنا .

وقد حمل مدحت باشا الاتفاق الى الآستانة ، ومعه عبد الكريم الخليل أحد أعضاء المؤتمر للاشراف على الحالة عن كثب ، وفى ذلك ما فيه من التراجع السريع بالنسبة للحكومة التركية ، وقد أعلنت الحكومة الاتحادية عن عزمها على ادخال الاصلاحات المطلوبة فاستصدرت يوم ٣ أغسطس (آب) ١٩١٣ مرسوما سلطانيا تناول اصلاحات جذرية فى أمور الوقف وفى الخدمة العسكرية وفى التدريس باللغة العربية .

وقد سعد الاخوة العرب ـ كما هى عادتهم دائما ـ بصدور ذلك المرسوم ، وقصد الى الباب العالى للشكر وفد ضم الشريف حيدر ونجليه محيى الدين وعبد المجيد ، ومحيى الدين باشا الجزائرى ، وبديع بك المؤيد وابراهيم بك صوصه والد سنيور شريم ، وشكرى بك الأيوبى وشكرى بك الحسينى ونجيب بك شقير ، ومعروف الرصافى ، والشيخ عبد العزيز جاويش وسامى بك العظم ود . حسين حيدر ، وعبد الكريم الخليل .

★★★

وقد ألقى الأمير حيدر فى حضرة الصدر الأعظم خطبة عصماء ، كما ألقى باللغة العربية الشيخ جاويش كلمة جاء فيها : أنه لا قوة فى المستقبل تستطيع أن تفرق بين العرب والترك » . وتحدث عبد الكريم الخليل باسم الشبيبة العربية : فهنأ الحكومة التركية باسترجاع أدرنة وشكرها على هذه الاصلاحات وعلى وعودها باعطاء الحقوق المدنية والسياسية للأمة العربية واشراكها فى أمور الحكومة . وكان مما قاله عبد الكريم : ان بقاء الادارة العربية فى بيروت منذ سنتين يدعو الى الأسف واننا نلتمس رفعها ونرجو رفع المنع عن الصحف المصرية والسماح بنشر الجرائد المحلية الفعالة .

★★★

وقد استقبل هذا الوفد من الحكومة التركية استقبالا طيبا وأولمت له الولائم التى حضر بعضها جمال باشا وطلعت بك وأنور باشا • وقد تكلم طلعت بك فقال : انه وجمعيته وزملاءه الوزراء يخدمون العرب باخلاص منذ زمن بعيد » • وقد تكلم أيضا ــ فى واحدة من تلك الحفلات ــ اسماعيل حقى بك وزير المعارف فحث عناصر الأمة على الائتلاف والاتحاد • واستهل سليمان أفندى البستانى خطبته بهذا البيت :

واذا تآلفت القلوب على الهوى فالناس تضرب فى حديد بارد

★★★

وكان من الجمعيات التى احتفت بهذا المؤتمر جمعية الاتحاد والترقى، وقد زار الوفد ولى العهد وكثير من الشخصيات البارزة فى الحكومة وفى جمعية الاتحاد والترقى •

وكان أصرح المتحدثين من الوفد ، الشيخ أحمد طباره وقد تحدث باسم وفد المؤتمر العربى اذ ردد المثل العربى القائل « صديقك من صدقك لا من صدقك » ، بفتح الدال الأولى وتشديد الدال الثانية • والدولة العلية باتت فى أشد الحاجة الى رجال يصدقون فى أقوالهم وأعمالهم وحسبنا ما تجرعناه من مرارة هذه السياسة الخرقاء قبل الدستور وبعده •• الخ •

على أية حال فقد تثاقلت الحكومة التركية فى تنفيذ الاصلاحات التى وعدت بها العرب وكانت قد أصدرت ارادة سنية بتعيين عبد الحميد الزهراوى ، وعبد الرحمن بك اليوسف ، ومحمد أفندى بيهم ، ويوسف أفندى سرسق ، ومحيى الدين النقيب وأحمد أفندى الكخيا أعضاء فى مجلس الأعيان العثمانى فكان ذلك التعيين ضربة قاصمة لآمال القادة العرب الداعين الى الاصلاح خاصة وان هذا التعيين قد استغلته الحكومة التركية لصالحها ، فصدرت مثلا الصحف التركية وفى مقدمتها تصوير أفكار وطنين مزينة بصورة للزهراوى والى يمينه رمز الجيش العثمانى والى يساره رمز للأسطول العثمانى ورسوم صغيرة لأنور باشا وطلعت بك وجمال باشا مع الكلمة التالية : بمثل هؤلاء الأبطال يعتز الملك ، وعلى مثل هذا الاتحاد تشيد الدولة العثمانية مستقبلها العظيم •

★★★

وكانت ثورة الشبيبة العربية أشد ما تكون على الزهراوى حيث تبرأت الشبيبة منه وأبدى الزهراوى استعداده للاستقالة من هذا المنصب

الذى ما قبله الا لمساعدة الحكومة على الاصلاح ، وقد قطعت الشبيبة كل صلاتها بالزهراوى ٠٠ وكما جاء فى مطبوعة عمر أبو النصر :

« رأت الشبيبة من جهة أخرى ان المرحوم عبد الكريم الخليل لم ينهج منهجا يوافق خطتها فى مفاوضاته مع الحكومة فاستدعته لاستيضاحه عما جرى فى أمر الاصلاح الى ذلك التاريخ وعن موقفه ازاء الحكومة والجمعية وعدم ممانعته فى قبول المرحوم الزهراوى بمنصب الأعيان ، فوافاها الى دار المنتدى الأدبى فى الموعد الذى ضربته له ، وكان بانتظاره هناك ما يزيد عن ألف رجل من أعيان العرب وأدبائهم وشبانهم ، وبعد المداولة أعلن رحمه الله أنه لا يستطيع أن يبوح بأسرار سياسية تتعلق بالمسألة العربية أمام مئات من الناس ، فقر القرار حينئذ على انتخاب نجيب بك شقير صاحب جريدة بيام التركية وسيف الدولة الخطيب وأسعد داغر والمرحوم جلال البخارى وصبحى بك حيدر ليجتمعوا به فى جلسة سرية ويقفوا على مجرى الأحوال السياسية فاذا وجدوا ما تم فى جانب الأمة العربية فيه والا أعلنوا عدم اعتماد الشبيبة له ٠

★★★

وقد اجتمع هؤلاء المنتخبون بالمرحوم عبد الكريم الخليل فى ٧ شباط سنة ١٩١٤ فى جلسة سرية فى بيرا (بك أوغلى) دامت من الساعة الثالثة بعد الظهر الى الساعة الثالثة والنصف بعد نصف الليل ومما قاله رحمه الله فى تلك الجلسة أن قبول المرحوم عبد الحميد الزهراوى الانتظام فى سلك الأعيان خير من عدم قبوله ، لأنه يفعل فى المجلس ما لا يقدر على فعله فى خارجه اذ يكون له الكلمة النافذة والقوة على الاقناع فى الجمعية الاتحادية ما يبلغ به أبناء العرب المطالب التى يرمون اليها « وعصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة » وان سيادته لم يقبل هذا المنصب الا لأن الاتفاق السرى الذى أبرمه باسم الاصلاحيين مع جمعية الاتحاد والترقى يحتوى على فوائد عظيمة للعرب لا سبيل الى الحصول عليها الا بالتدريج ومع الزمن خوفا من هياج العنصر التركى وسائر العناصر العثمـــانية على الحـــكومة ومطالبتها بمثل ما نال العرب منها ، فمثل هذه الفوائد العظيمة يجب أن نجاهد فى سبيل الحصول عليها ردحا من الزمن ، وأن لا نتألم من الانتظار لان جمعية الاتحاد والترقى أخلصت لنا ووضعت يدها فى يدنا ٠ الى أن قال :

★★★

« ولا أنكر عليكم أن اهم الأسباب التى اضطرت عبد الحميد أفندى

الى قبول منصب الأعيان واثبات الاتفاق العربي التركي بأدلة جلية واضحة عظم أطماع الأجانب في بلادنا العربية ورغبتهم في انتهاز اختلافنا مع الترك لتحقيق آمالهم فيها ، وهذا السبب وحده يكفي لتبرئة السيد الزهراوى فى نظركم فضلا عن ثقتنا التامة باخلاص الاتحاديين لنا وارتباطهم معنا بعهود رسمية فى مصلحة جمعية الاتحاد والترقى أن تبر بها اذا شاءت أن تظل الحكومة فى قبضة يدها » ٠

ولم تكن تصريحات عبد الكريم أفندى الخليل مقنعة بالاجمال ولكن رغبة أعضاء اللجنة فى اجتناب كل ما يؤول الى اسنداد الأزمة بين الترك والعرب جعلهم يصدرون القرار التالى الذى أعلن في ٩ شباط في صحف الآستانة وفى ١٠ منه فى صحف بيروت وفى ٢٤ منه في صحف مصر ، وهـذا نصـــه :

★★★

« اجتمعنـــا نحن الموقعين أســماءنا أدناه بمعتمد الشبيبة العربيـــة عبد الكريم أفندى الخليل اجتماعا طويلا فى جلسة خصوصية ٠ وبعـــد المفاوضة معه وجدنا مبادىء الاصلاحات العمومية الأولى حسنة على ما يظهر ولكن أمر التنفيذ لم يصل الى الدرجة المطلوبة وليس فيه ما يوجب السرور ولكننـــا نرى ان الوقت الحاضر لا يساعدنا على اظهار الاستياء من سير الأحوال لأنّ ذلك يشوش على المصلحة العامة وربما يقف عقبة فى طريقها فلا يجوز الآن اعتماد عبد الكريم أفندى بل يجب انتخاب لجنة استشارية من أربعة أشخاص تشد أزره ويستشيرها فى مفاوضاته استشارة خاصة ٠ ولا صلة لهذه اللجنة بالحكومة وانما صلتها بعبد الكريمأفندى الذى يبقى الرسول الوحيد بين الشبيبة والوزارة وجمعية الاتحاد والترقى لان ذلك أقرب الى المصلحة العامة » ٠

« الامضـــاءات »

وجعلت الحكومة بعد ذلك تتزلف الى الشبيبة العربية وتعمل على ارضائها واقناعها بحسن نية الاتحاديين فكثر تردد الوزراء وزعماء جمعية الاتحاد والترقى على المنتدى الأدبى وكثرت خطبهم فيه ٠ فكان لا يمضى أسبوع أو بعض الأسبوع الا ويزوره طلعت وأنور وجمال ومدحت شكرى وغيرهم فيتبادلون الخطب الحماسية وعبارات الوداد والاخاء مع الأعضاء ٠ وكان آخر ما سمع من طلعت بك في هذا الصدد فى خطبة ألقاها يوم احتفال المنتدى الأدبى بذكر المولد النبوى الشريف بقوله : « واذا فر العرب منا

فاننا نتمسك بهم ونلتزمهم ونضمهم الى صـــدورنا ونصافحهم مصافحة الأخ لأخيه » .

***

وتلقت لجنة اللامركزية العليا في مصر ــ ١٩ شباط « فبراير » بيانا من جمعية الاتحاد السورى فى نيويورك ــ حول تلك التعيينات جاء فيه :

« ان جمعية الاتحاد السورى فى نيويورك الممثلة للسواد الأعظم من العثمانيين المهاجرين فى الولايات المتحدة تحتج بلسانها ولسان فروعها والجمعيات المشتركة معها فى المبدأ احتجاجا قويا على تعيين بعض أعضاء اللجان الاصلاحية فى سوريا ومصر لوظائف مختلفة فى الحكومة ، وعلى قبولهم هذه الوظائف في الأحوال الحاضرة ، وفى أثناء عمل رجال الحكومة بكل ما فى وسعهم من الوسائل غير المشروعة والمخالفة لروح الدستور لقتل الحركة الاصلاحية فى سوريا والبلاد العربية ، وتعتبر الجمعية هذا العمل مخالفا لروح النهضة ومضرا بمصلحة الشعب والأمة ذلك لأن المقصود منه ذر الرماد فى أعين البسطاء وايهامهم ان قبول بعض أعضاء اللجان المعروفين فى بلادهم وظائف فى هذه الحكومة وهى على شكلها الحاضر ، يعنى وجود التفاهم بينها وبين المطالبين بالاصلاح ، وقد يكون المقصود من هذه الحركة ما هو أفظع من ذلك أى استمالة بعض من يظن فيهم الزعامة لفصلهم عن حظيرة الاصلاحيين » .

***

وختمت الجمعية احتجاجها قائلة « بضرورة مراعاة منطوق ما تقرر فى مؤتمر باريس العربى فيما يتعلق بقبول أو نبذ الوظائف قبل تنفيذ اللائحة الاصلاحية ولا سيما البند القائل بوجوب تعيين المستشارين الأجانب تنفيذا قطعيا وعدم الاكتفاء بالقول والوعود .

« وترجو هذه الجمعية من شقيقاتها اللجان الاصلاحية التصريح بهذا المبـدأ علانية واعتبار من يخالفه منفصـلا عن جسمها ليوقن المصلحون المخلصون في كل قطر ومصر أن النهضة الوطنية لا تزال على حالها ولا يؤثر فى مرماها الشريف تصرف أفراد فلا تثبط العزائم الشديدة ، ولا تخور القوى العاملة فى هذا الجهاد المقدس الشريف !! » .

وقد رد رفيق بك العظم رئيس اللجنــة العليـا لحزب اللامركزية بالجواب الآتى :

« ان من جملة قرارات مؤتمر باريس أن لا يقبل احد من أعضــاء الجمعيات الاصلاحية وظيفة الا برضى جمعيته ويظهر أنه بناء على هذا القرار قبلت بعض الجمعيات ما عرضته الحكومة من تعيين أفراد من الاصلاحيين في بعض المناصب العليا اعتمادا على ضرورة وجود المصلحين في الوظائف لتطبيق قوانين الاصلاح التى تصدرها الحكومة ، سواء وافقت مطــالب الاصلاحيين أو كانت دونها ، وسواء صح رأى هذه الجمعيات أو لم يصح فان جمعية اللامركزية في مصر لم تشترك في هذا الرأى الا في أمر واحد وهو الرضى بتعيين السيد عبد الحميد الزهراوي عضوا في مجلس الأعيان، ولهذا سبب لا نخال منصفا يخالفنا فيه · واليكم البيان :

« رأت الحكومة أن الحركة الاصلاحية في سوريا وبلاد العرب صميمة لا ريب فيها ، وسواء علمت أن الاصلاحيين انما يريدون مصلحة الدولة نفسها ، وانهم حسنوا النية والقصد أو لم تعلم ، فانها راغبة في التفاهم مع جمعيات الاصــلاح وطلابه وهم كثيرون في سوريا وبلاد العرب وفي الآستانة نفسها ، تفاهمت مع مندوب الشبيبة العربية في الآستانة ومع غيره في غيرها ، ثم أرادت التفاهم مع جماعتنا الذين يديرون معظم الحركة العربية ، فاستدعت الى الآستانة السيد عبد الحميد الزهراوى ، فكانت اللجنة العليا بمصر تلح عليه بالبقاء خارج البلاد ريثما يستوثق من وعود الحكومة ولما استوثق منها سافر الى الآستانة وأخذ بالتفاهم مع الحكومة فوضعت بعض مواد اتفاق باريس موضع الاجراء كمسألة الجندية ومسألة التعليم ومسألة وجوب معرفة الموظفين اللغة العربية ، وبقيت هناك مواد وعدوا بتنفيذها تدريجيا فكان بقاؤها ضروريا لأجل المطالبة بتنفيذ بقية مواد الاصلاح ، ولما عرضت مسألة الوظائف على بساط البحث وأرادت الحكومة أن تعين السيد الزهراوى في الأعيان رأت اللجنة العليا أن ترضى بهذا التعيين ليكون واسطة لدوام التفاهم بينها وبين الحكومة ، وما عدا هذا ، فانه لم يعين أحد في وظيفة من أعضاء اللجنة العليا بلا ولا من الحزب كله في سائر البلاد وليس بين أعضاء اللجنة من يرضى بدون اصلاح قط » ·

على أننا ما دمنا طلاب اصلاح عنت أو وظائف فلا نرى من حيث الرأى أن تطلبنا الحكومة للتفاهم وتلين لنا القول وتعترف لنا بكثير من الحقوق التي لم تك ترضى أن تصغى لمطالبها منذ سنين ، ويرميها بالكذب وتبــاعد بيننا وبينها بغير سبب ما لم يقم لنا دليل قاطع على أنها تفعل ذلك رياء لأصدقاء ، وانها تفعل في الغد ضد ما تقوله اليوم ·

« ومتى قام لنا الدليل على ذلك كان لنا معها شأن غير شأننا اليوم ، وليس في قرارنا على تعيين السيد الزهراوى في الأعيان مانع يمنعنا من

الاستمرار فى الخطة الصالحة لقومنا ووطننا متى ثبت لنا أنها تريد الوقوف عند هذا الحد من الاصـلاح ، كما أنه ليس فى تعيين السيد الزهراوى ما يوجب ريب اخواننا أعضاء جمعية الاتحاد السورى ، فيمن تظهر فيهم الزعامة كما جاء فى مذكرة احتجاجهم المذكورة ... » .

وكتب السيد الزهراوى كتابا بهذا المعنى الى صديقه الأستاذ رشيد رضا ، ولكن الذى نريد أن نلفت اليه الأنظار الآن ، هو أن الاتحاديين ذهبوا يعتقدون بعد هذه التعيينات ، وبعد ما رأوه من غضب الشباب العربى انهم فرقوا بين الأحزاب والجمعيات العربية ، وقضوا على اتحادها وحماستها وأنهم خدعوا العرب كما خدعوا بعض زعمائهم واخمدوا الحركة نهائيا فى بلادهم فرغبوا فى انتهاز الفرصة للقضاء على فكرتهم القومية ورسموا لذلك خطة لم يوفقوا الى اقرارها الا فيما بعد .

ولكنهم عمدوا فى هذه الأثناء الى ابعاد ضباط العرب عن الآستانة الى غاليبولى والأناضول وتراقيا حيث قلدوهم وظائف اسمية سامية ولما انتهوا من عملهم هذا قرروا الفتك ببعض كبار زعماء العرب ، وكان أول من بدأوا به القائد عزيز على المصرى .

★★★

ولما انهارت الدولة الروسية بعد الثورة البلشفية ختام سنة ١٩١٧ ثارت المطامع الطورانية وامتدت فى كل جهة جائزة كل حد . وبات رجال الدعوة الطورانية موقنين أشد الايقان باستطاعتهم نيل مبتغاهم حتى غدوا من شدة ذلك يصعرون خدودهم على حلفائهم الألمان وسائر الأوروبيين ، كاشفين بهـــذا عن حفائظ صدورهم ، تلك الحفائظ التى يكنونها أبدا للغربيين .

وقد ذكر ضابط المانى من أركان الحرب ، حديثـا جرى على المائدة بينه وبين خليل باشا قائد الجيش التركى فى جهـة الحرب العراقية ، وهو عم لأنور باشا ، وقد جاء فى ذلك الحديث : « يجب فى المقـــام الأول أن يغدو كل عرق يتكلم احدى اللغات التركية أمة ذات وحدة مستقلة ويجب أن تكون قاعدة العنصرية والعصبية الجنسية مقدسة ، فلذلك يبيت فتح تركستان ضربا من الضرورة التى لا منتدح عنها ، وهى فوق ذلك مهد القوة التركية ومنبت المجد ، فاذا ما تم هذا كان أساسا منيعا يبنى عليه صرح فخم ، ثم تنشأ العلاقات الوثقى بين تركستان وقبائل « الياقوت » فى سيبيريا ، الذين انما يعـدون بسبب نسابتهم اللغوية أبعـد العروق التركية الضاربة شرقا ، ويجب على قبائل التتر الغربية اللصيقة المجاورة

فى القوقاز أن تندمج فى الأمة التركستانية اندماجا تاما • وذلك يتم بطبيعة الحال • ويجب على الأرمن والكرج الذين منهم تتألف الأقلية فى كل قطر من قطريهم أن ينمدجوا أيضا فى هذه الأمة ، سواء كان ذلك منهم عن طوع أم كره • فان امبراطورية تركية ، ضخمة منيعة ، مترامية الأطراف مثل هذه ، ولها سيادة على جميع العالم الاسلامى يكون فى استطاعتها حينئذ أن نسيطر بنفوذها وتأثيرها على أفغانستان وايران ••• وفى كانون الأول سنة ١٩١٧ لما اشتدت رحى الحرب فى الجهة العراقية وضويق الجيش التركى مضايقة شديدة حتى بات على وشك التسليم ، قال لى خليـــل باشا : وافرض مزحا اننا نحن الترك قد غادرنا هذه الصحراء المتهالكة وتخلينا عنها فجاء الينا الانكليز ، وذهبنا نحن الى تركستان حيث منشأنا القديم وحيث نستطيع أن ننشىء امبراطورية جديدة •

وعن القبض على عزيز وبدء محـــاكمته تذكر أنه فى ١٠ فبراير عقـــد مندوبو الأحزاب العربية اجتماعا مهمـــا للوقوف على الأسباب التى أدت الى القبض على عزيز بك واجراء ما تقتضـــيه الحال ثم قابلوا جمــــال باشا وطلعت بك وغيرهم فسمعوا منهم كلهم جوابا واحـــدا وهو أن عزيز بك أخوهم وحبيبهم وان وزارة الحربية تحقق معه فى بعض الشئون العسكرية التى تتعلق بأمر الدفاع عن الدولة وأن الحكومة قررت تعيينه واليا على البصرة ، ولكن العرب لم ينخدعوا بكذب الاتحاديين هذه المرة فقاموا بمظاهرات عديدة فى الآستانة وطلبوا من الحكومة ان تعجل فى محاكمة عزيز بك وان يضاف الى المجلس العسكرى الذى يتولى أمر هذه المحاكمة لجنة من أركان الحرب وكبار الأمراء العسكريين الخبيرين بالشؤون الحربية ، فلم تفعل شيئا من ذلك وألفت المجلس العسكرى من بعض صنائع أنور باشا وعبيده وبعض الذين لا يخالفون له أمرا •

وقد بدأت المحاكمة فعلا يوم الأربعاء فى أول نيسان سنة ١٩١٤ بحضور الشهود سليمان بك العسكرى ورمزى المهداوى ، وضيا أفندى والملازم نور الدين أفندى ورشيد أفندى •

وقد جاء فى المحضر الرسمى للمحاكمة أن أقوال الشــــهود وردت كما يلى :

قال سليمان العسكرى :

« ان فكرة عزيز بك تناقض المصلحة العثمانية ، فقد سعى وهو فى طرابلس الغرب فى بث الفكرة العربية بين الأهلين وفى انشاء دولة عربية مستقلة يتولى هو ادارة شؤونها وكاد ينجح فى سعيه لولا معاكستى أنا وبعض الضباط الأتراك له » •

وقال رمزى أفندى : « ان عزيز بك اجتمع بالايطاليين أثناء الحرب اجتماعا مهما ، ولكننى لا أعرف ما دار بينهم من الكلام » .

قال ضيا أفندى : « ان عزيز بك عدو للأتراك عموما وعدو لأنور باشا خصوصا ، فهو خائن للدولة التركية » .

وقال نور الدين أفندى : « ان عزيز بك اتفق مع الامام يحيى على نهج خطة واحدة الغرض منها ضم اليمن الى مصر ، وكان يسعى وهو فى بنغازى الى تنفيذ هذه الفكرة وجعل بنغازى واليمن دولة عربية واحدة » .

وقال رشيد أفندى : « ان عزيز بك أعرب أمامى عن سروره لما أصاب المسلمين فى البلقان » .

وفى ٤ نيسان عقدت جلسة ثانية لسماع شهادة العبد الماس (الذى قبض عليه فى السودان فى العام الماضى) وشخص آخر يدعى قاسم كان قهوجيا عند عزيز بك فى برقة ، فقال العبد الماس : « سمعت فى برقة ان عزيز بك استلم من الايطاليين مبلغا من المال لا يقل عن ١٥ ألف ليرة مقابل تسليمهم البلاد .

★★★

وقد كان قصد الاتحاديين أن يعدموا عزيز المصرى بلا محاكمة ولكن اهتمام الرأى العام العربى به اضطرهم الى العدول عن ذلك . ولما انتهت المحاكمة ورأوا أن هياج العرب لم يخمد بل كان يزداد شدة يوما فيوما قرروا اغتياله فى السجن فبلغ الخبر زعماء العرب من أحد المصادر الاتحادية فى الآستانة ، فاجتمعوا وتداولوا فى الأمر ، ثم عرضوا المسألة على الصدر الأعظم والمارشال فون سندرس باشا وعلى سفراء الدول العظمى طالبين منهم باسم العدل والقانون منع الاتحاديين من اقتراف جريمتهم الفظيعة ، وكانت بريطانيا العظمى قد اهتمت اهتماما خاصا بمسألة عزيز بك على وفاوضتهم مرارا بشأنه وأقنعتهم ببراءته ووجوب اطلاق سراحه فلم يمكن الاتحاديون الا اجابة هذا الطلب ، لا سيما بعد أن أدركوا أن أعدامه يؤدى الى ثورة عظيمة فى البلاد العربية .

★★★

وبديهى ان محاكمة عزيز بك لم تكن قانونية على الاطلاق لأن التهم التى عزوها اليه تهم صبيانية ومختلقة ولأنها اما أن تكون قد وقعت قبل معاهدة لوزان وابرام الصلح مع ايطاليا أو بعدهما ، فان كانت قبلهما كان الواجب على أنور باشا القائد العام حينئذ ان يحاكمه عليها .. وان

كانت بعدهما فلا شأن للحكومة العثمانية فى التعرض له بسببها لأن البلاد أصبحت بعد الصلح اما عربية أو ايطالية وخرجت عن السلطة العثمانية فان حسبها الاتحاديون عربية فان عزيز بك كان أميرا مستقلا فيها ولا صلة له بحكومة الآستانة ٠ وان حسبوها ايطالية فكان من الواجب تسليمه الى حكومة ايطاليا التى يحق لها محاكمته دون سواها ٠

★★★

هذا كان جزاء عزيز على بك على خدمته الباهرة للوطن العثمانى فان حياته قبل الدستور وبعده كانت حياة جهاد دائم فى سبيل الحرية ٠ وكانت صلاته بجمعية الاتحاد والترقى قوية متينة بل كان يدها اليمنى فى مكدونية حيث أعلن الدستور قبل أن يعلنه نيازى ببضع عشرة ساعة ، وقد اعترفت له جمعية الاتحاد ان سياسة تتريك العناصر التى أتبعتها لا تؤمن عقباها ولا يحمد منتهاها فنصح لرفقائه الأتراك بأن ينيلو العناصر العثمانية حقوقها ويمهدوا السبيل الى ارتقائها بلا فرق ولا تمييز وان كان لهم عنها مشاكل وشواغل لا يخلصون منها فأنكروا عليه نصحه واتهموه بالمروق والخيانة وقالوا انه يبث الفكرة العربية فى الجيش العثمانى وجعلوا يفسدون عليه طرقه ويقيمون العثرات فى سبيله ٠ واغتنم عزيز بك فرصة اقامته فى الآستانة سنة ١٩١١ فاستدعى فريقا من العثمانيين وأصحاب الرأى السديد الى منزله وقال :

★★★

« ان اتفاق العناصر العثمانيـة أمر لابد منه لاعلاء شأن الدولة » وعرض عليهم آراءه التى استحسنوها الا واحدا روسى الأصل قربته منافعه الى الترك فتزلف اليهم وكان فى الحقيقة أبعد الناس عنهم ٠ وكانت معارضة هذا الرجل سببا فى القاء النفور بين عزيز بك وجمعية الاتحاد والترقى وبالتالى بين الفكرتين العربية والتركية ٠

ولما شبت نار الثورة فى اليمن وانكسرت العساكر العثمانية فى معركة جيزان بالعسير ، وفقدت أكثر من ثمانية وعشرين مقاتلا بين ضابط وجندى بالجوع والجرب وانقطعت عنهم المؤونة والذخيرة ، بسبب الحرب الطرابلسية رأى عزيز بصائب رأيه ان يصالح سيادة الامام يحيى فعقد معه صلحا حسنا كان موفقا للدولة فشق عمله هذا على فريق من حساده ومبغضيه واتهموه بالمروق فى الوطنية بحجة أنه قدم مصلحة العرب على مصلحة الدولة العثمانية ٠

ثم دفعته وطنيته الصادقة الى طرابلس الغرب حيث تمكن على قلة جنوده ونفاذ يده من المال أن يوقف الايطاليين على الساحل زمنا طويلا ٠ وقد شهد له أعداؤه بالبسالة والمقدرة والتفوق في ميادين القتال وكانت معركة ١٦ تموز التي انتصر فيها من أعظم المعارك من الوجهة الحربية ٠

وقد استعفى عزيز بك من الجيش العثماني في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩١٤ ، أي قبل سجنه بخمسة عشر يوما ٠

★★★

لعل الاتحاديين كانوا يرتابون بوجود (جمعية العهد) حين أمروا بالقبض على عزيز علي ولكنهم لم يكونوا واثقين من ذلك وثوقا تاما فلما وجهت اليه التهم لم تذكر من بينها تهمة الاتصال بجمعيات سرية ، بدأت محاكمته في ٢٥ مارس أمام محكمة تاديب عسكرية وكانت سرية ولكن عرف الناس بان لائحة الاتهام حوت تهمة اختلاس أموال الجيش ، وتهمة تسليم برقة الى الايطاليين لقاء رشوة تناولها » وتهمة محاولة تأسيس دولة عربية في شمال أفريقية ، وكلها تهم بعيدة عن التصديق بعدا تاما فعم الغليان الذي ولده اعتقاله جميع الأنحاء ، وفي مصر وهي مسقط رأسه ارتفعت أصوات الجماهير بالاحتجاج الشديد معلنة سخطها وعقدت اجتماعات عامة وقامت حملة شديدة في الصحف كما شكلت لجنة برئاسة شيخ الأزهر ، وزارت وفود عديدة اللورد كتشنر المعتمد البريطاني في القاهرة وطلبت اليه ان تتدخل بريطانية دبلوماسيا ٠

★★★

وفي أوائل ابريل أصبح من المعروف أن عزيز علي قد حكم عليه بالاعدام سرا فأدى ذلك الى اشتداد الهياج فراح الضباط العرب اينما وجدوا يحلفون الايمان على أن يثأروا لدمه ، وكان من حسن حظ عزيز علي أن صوت أوربة ولا سيما انكلترا انبعث في الدفاع عنه فقد حمل كتشنر وزارة الخارجية البريطانية على أن تتدخل وقام السير لويس ماليت بمساع في القسطنطينية كما قامت جريدة (التايمز) بكتابة سلسلة تتألف من أربع مقالات افتتاحية استمر نشرها ستة أسابيع وتولت فيها الدفاع عنه بصراحة وقوة ٠

★★★

وفي اليوم الخامس عشر من الشهر ذاته أعلنت الحكومة أن حكم الاعدام قد صدر بحق عبد العزيز الا أن السلطان أبدل العقوبة بالسجن

خمس عشرة سنة مع الأشغال الشاقة فارتاح الرأى العام لذلك الا أن الغليان الناجم عن وقوع الظلم فى هذه القضية استمر الى أن صدر العفو عنه أخيرا فى ٢١ ابريل وأطلق سراحه فأبحر فى اليوم التالى الى مصر حيث استقبل بحماس شديد • ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا بأن الهزة التى أصابت العالم العربى من جراء محاكمته كانت أعمق من أية هزة أخرى سببها الترك بأعمالهم المستبدة كما أنها شحذت عزائم العرب فقرروا المضى فى كفاحهم من أجل الحرية لأن الهزة فى هذه المرة حركت الجماهير العامة بالاضافة الى المفكرين •

***

فى بيان آخر اذاعته الجمعية الثورية العربية ما يلى :

« مرت أمامنا منذ عهد قريب حادثة اشتهر أمرها ، وعرفها القاصى والدانى ، الا وهى مسألة الحكم على عزيز المصرى الذى يجدر بكل صاحب نظر ان يتأمل فى مكان العبرة منها » •

« نحن الذين قررت جمعيتنا أن تخاطب أمتنا المحبوبة ، بكلمتنا هذه ، نعترف على رؤوس الأشهاد بأن غاية ما يمكن للمتصف بالتابعية العثمانية أن يخدم به هذه الدولة ، لا يمكن أن يزيد على ما خدمها به عزيز المصرى وكان الانصاف والمجاملة يقضيان على الأتراك بألا يقدموا ابنهم أنور عليه • لأنه لا يفضله بشىء •• ولكنهم على خلاف مقتضى الانصاف والمجاملة ، رفعوا أنور من رتبة ضابط الى رتبة ناظر حربية وبلغ بهم الحقد والحسد والبغض لفتى مصر ، عزيز ، الى حد أنهم لم يكتفوا بحرمانه من المراتب العليا ولا بعدم مكافاته على ما أحسن اليهم به مدة عشرين سنة ، بل هم رفعوا برقع الحياء ، وصرحوا بما تضمره قلوبهم من البغض لأبناء العرب فحكموا على هذا الشهم بالاعدام ، رغم توسل أكبر شيخ فى الاسلام ، ورغم رجاء أعظم العظماء فى مصر ••• » •

***

ونشرت جريدة التيمس الانجليزية مقالات عنيفة ضد الحكم باعدام عزيز المصرى ، قالت فى واحدة منها : « ••• اذا أعقب الجور الذى أصاب هذا الضابط العربى الباسل ، تدبير ، لا يمكن وصفه الا بأنه جريمة قتل مرتدية رداء القانون • فان ذلك سيؤثر تأثيرا خطيرا فى العلاقات بين الحكومة العثمانية ومصر ، ولعل هذا التأثير لا يقتصر على العلاقات بين تركيا ومصر وحدها » •

كان القبض على عزيز المصرى فى ٩ فبراير سنة ١٩١٤ ، وصدر الحكم باعدامه فى ١٥ ابريل من نفس السنة ثم خفض الى السجن ١٥ سنة. ولكن زئير الرأى العام العربى ، والاسلامى (آلاف البرقيات للسلطات من الهند وايران والسودان وكافة البلاد العربية) ، والرأى العام الأوروبى ، كل ذلك حمل الحكومة التركية على الغاء هذه الأحكام فى ٢١ ابريل سنة ١٩١٤ ، على أن يترك عزيز تركيا فى اليوم التالى .

يروى أسعد داغر الذى شاهد ساعة الافراج عن عزيز قائلا :

« أعلن أنه سيطلق سراحه بعد الظهر . فانطلقت الى وزارة الحربية وهناك وجدت موكبا مؤلفا من نحو ستين عربة فى انتظار خروجه من السجن . وفى الساعة الرابعة مساء أفرج عنه بشرط ألا يمكث فى اسطنبول سوى ليلة واحدة ، ثم يغادرها حيث يشاء .

واجتمعنا معه فى تلك الليلة ، فى مأدبة حضرها معظم أصدقائه . وفى اليوم التالى سافر الى مصر .

وخمدت الحركة بعد سفره ، واشتد الخوف من أن ينتقم الاتحاديون من أصدقائه ، واتجهت النية الى الشروع فى عمل جدى فى البلاد العربية » .

ونشطت الدعاية العربية نشاطا عظيما بعد خروج « عزيز على » من اسطنبول ، وساد الاعتقاد بأن ساعة العمل الجدى قد أزفت فقرر الاخوان مضاعفة الجهود لاستعجال هذه الساعة ، وتهيئة الجو لها وجعلوا يقضون أيامهم ولياليهم فى كتابة الرسائل ، وتوزيع القصائد الحماسية ، وتبادل الآراء والمعلومات وقد فتح خليل حمادى باشا ــ الوزير المصرى الذى كانت الحكومة العثمانية قد استعارته لاصلاح وزارة الأوقاف العثمانية ــ باب داره على مصراعيه لشباب المنتدى العربى ، فاتخذوا منه ناديا سريا لهم . وأذكر أنى : نقلت ووزعت فى يوم واحد أكثر من مائة نسخة من قصيدة الرصافى التى جاء فيها :

« سنطلب هذا الحق بالسيف والقتال »

***

واذا كان هناك رجل واحد مسئول عن دخول تركيا الحرب العالمية الأولى فهو « أنور » . ولنزد شخصيته وضوحا ، وقد رددنا اسمه كثيرا قبل ذلك فنذكر أنه ولد عام ١٨٨١ (يصغر عزيز المصرى بعام واحد) وتخرج من كلية أركان الحرب عام ١٩٠٣ ، والتحق بجمعية الاتحاد والترقى

واشترك فى اسقاط السلطان عبد الحميد ، وكوفىء على دوره بأن عين ملحقا عسكريا لتركيا فى برلين · وقد بهره الجيش الألمانى ، وما كان عليه من نظام وحسن تسليح ·

وفى سنة ١٩١٣ ، قرر أقطاب جمعية الاتحاد والترقى . ومنهم أنور أن يحكموا سافرين ، وكانت الوسيلة الى ذلك التخلص من الرجل الذى قادهم الى الاستانة عام ١٩٠٨ وهو شوكت باشا الذى تولى رياســة الوزارة ·· رصاصات وتزول العقبة · وقتل شوكت باشا ، وأسرع أنور الى وزراة الحربية ، فقد كان وزيرها الجديد ، وأنعم عليه بلقب باشا · وما لبث أن تزوج احدى أميرات البيت العثمانى ـ بنت السلطان محمد رشاد مباشرة · وصاح أحد الأتراك : ما أغرب ما نرى ، لقد قتل أنور « باشا » الجديد ، أنور الذى كنا نعرفه ! ·

★★★

ولم يكن أحد من أقطاب هذا الحكم ، من كبار المعجبين بســـياسة بريطانيا ، وكانت روسيا عدوة تقليدية للأتراك · واذن فلم يكن هناك سبيل الا الى دول الوسط ·· ألمانيا بالذات ·

والسؤال : لماذا لم تختر تركيا طريق الحياد ؟ ·· وهو نفس السؤال الذى يوجه متأخرا ثلاثين سنة لموسولينى : لماذا يختار فى الحرب العالمية الثانية طريق الحياد · صحيح ان كان كل فريق من المتحاربين كان يبذل أقصى جهده ليجر معه حليفا ·· ولكن أين هى المصلحة فى الاشتراك فى معركة بعيدة ؟ ان خطأ واحدا فى الحساب قد يجر الوطن كله الى كارثة محققة · ويجر الذين دخلوا الحرب بغير روية ، ولا بصيرة الى مصــير مفزع ·

لقد هرب أنور بعد هزيمة ألمانيا وتركيا الى بلاد القوقاز ، ثم الى روسيا ، فالتركستان ، محاولا تأليف جيش ينتزع به هذه المناطق من روسيا · وقتل فى معركة خائبة على أيدى القوات الشيوعية التى كانت قد تولت الحكم ، ودفن فى بخارى حيث كانت تدور معركته وكان ذلك فى أغسطس سنة ١٩٢٢ ··· دفن غريبا ، مجهولا ، لم تدمع عليه عين ، ولم يأس عليه انسان ·· وكذلك الحال بالنسبة لموسولينى ، فقد علق بعد هزيمة ايطاليا من قدميه كما تعلق الذبيحة ··

★★★

واجتمع مجلس حربى عال تكون من أنــور ، وطلعت ، وجمــال ،

وتدارسوا الموقف ، ووجدوا ان فى استطاعة عزيز أن يقلب حكومتهم فى أى وقت ما دامت وراءه هذه القوة الخطرة ، فقرروا ان يعملوا بسرعة ... وفى اجتماع موسع آخر ، عقد على جناح السرعة ، حدث ما يأتى :

فى يوم ٢٤ يناير سنة ١٩١٤ عقد اجتماع خاص فى دار وزارة الحربية بالآستانة حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ومحافظ الآستانة العسكرى أحمد جمال باشا وذلك قبل ان يعين لوزارة البحرية ومدير الأمن العام عزمى بك فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة وجمعية العهد عامة وقرروا المواد الآتية :

١ ـ اقصاء الضباط العرب المقيمين فى الآستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطا ينتمى ٣١٥ منهم للعهد الى المناطق التركية ، وهى تراقية والأناضول فلا يعود فى امكانهم القيام بأى عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك .

٢ ـ تولية القيادة فى البلاد العربية الى الضباط الترك واقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الامكان .

٣ ـ الاسراع فى تنفيذ سياسة تتريك العناصر .

٤ ـ يعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتتريك العناصر .

٥ ـ مقاومة الحركة الاصلاحية التى ظهرت فى بيروت وباريس .

٦ ـ الغاء الأحزاب العربية كلها وتأليف شعبة سياسية فى وزارة الداخلية تشرف على الشئون العربية وتدبر الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وترقب حركاتهم بدقة زائدة .

٧ ـ اقصاء العرب الذين يعملون ضد الترك من الآستانة واستمالة من يمكن استمالته منهم .

٨ ـ تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقى فى البلاد العربية والاكثار من المنتسبين الى أنديتها .

***

وتم فعلا نقل أكثر من ٣٠٠ ضابط عربى من الموالين لعزيز الى الأناضول وتراقية وغاليبولى . أما الضباط الذين توسموا فيهم عدم الولاء لعزيز وكانوا أيضا مجموعة كبيرة ، فقد منحوهم ترقيات استثنائية وأرسلوا الى سورية والعراق لتعزيز الولاء للسلطة التركية .

يقول أسعد داغر في مذكراته : ان عزيز على المصرى فى يوم الاثنين ٩ فبراير ١٩١٤ بينما كان خارجا من فندق توكتليان دنا منه ثلاثة من رجال البوليس الملكي وطلبوا منه أن يصحبهم الى مركز البوليس باسطنبول ٠

وما كان هذا الخبر ينتشر في العاصمة حتى قام له العرب وقعدوا وذهبت وفود كثيرة منهم الى مركز البوليس مستعلمين ٠ فقابلهم المدير بكل اهتمام ، وأفهمهم ان عزيزا غير معتقل ، وانما هم يبحثون معه بعض الشئون العسكرية التى قد يستغرق بحثها النهار بطوله ٠٠٠

وذهب الزهراوى الى منزل طلعت باشا ليقف منه على الحقيقة ، فقيل له أنه غير موجود فى المنزل ٠٠

ولما لم يفرج عن عزيز فى المساء قصد أحد الضباط العرب ، وأذكر أنه جميل المدفعي الى المرحوم الزهراوى فى فندق كروكر وطلب اليه معرفة السبب فى اعتقال عزيز على ومما قال له : « ابلغ الحكومة ايها الأستاذ ان دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن ٠ ولا تضطرنا الى اهراقها فى سبيل الأفراد » ٠

وفى ١٠ فبراير عقد مندوبو الأحزاب العربية وزعماؤها ومفكروها اجتماعا كبيرا بحثوا فيه الأسباب التى أدت الى اعتقال عزيز على ، والوسائل التى يجب التوسل بها لانقاذه ٠

وذهب وفد منهم فقابل جمال باشا وطلعت بك وغيرهما ، فسمع الوفد جوابا واحدا من الجميع هو ان عزيزا أخوهم وحبيبهم ، وان وزارة الحربية لا تبغى منه سوى استجلاء بعض المعلومات العسكرية التى تتعلق بشئون الدفاع الوطنى ٠ وان الحكومة قررت تعيينه واليا على البصرة ٠

ووضع عزيز على فى غرفة فخمة بوزارة الحربية وسمح بزيارته النهار بطوله ٠ وكانت غرفته والغرفة التى أمامها غاصتين دائما بالضباط وغير الضباط من أصدقائه ٠ وقد اتصل بهم أن عزيزا سيحاكم وتلصق به تهم ملفقة استعان الاتحاديون على اثباتها ببعض من كانوا فى طرابلس الغرب ، وان غرضهم الحقيقى هو التخلص منه ٠ فقامت قيامة العرب حينئذ فى كل مكان وانهالت الاحتجاجات على الباب العالى من كل صوب ٠ وأبدى الشريف حسين امتعاضه ، وأنذر السيد طالب النقيب بأنه سينقض على الحكومة فى جهات البصرة بالتعاون مع ابن السعود ٠ وقامت فى مصر حركة قوية للمطالبة بالافراج عن عزيز ٠ فرأى الاتحاديون تجاه ذلك كله أن الاستمرار فى محاكمته سيثير مشاكل هم فى غنى عنها ٠

***

وحدث يوما أني كنت في فندق كروكر مع نجيب شقير والدكتور سعد الخادم ، وقد جاء مع شقيقه عزيز الى اسطنبول للعناية به ، واذا بالدكتور ثابت مقبل علينا يخبرنا بأنه آت من زيارة السجين . وأنه رآه على أحسن حال من الصحة والسرور ، وبعد ان مكث معنا نحو نصف ساعة هم بالانصراف فسأله الدكتور سعد : هل عزيز فى حاجة الى شىء ؟ فذكر الدكتور ثابت ان عزيزا اعطاه رسالة وأوصاه بأن يسلمها الى يوسف ذو الفقار ليشترى له العلاج المذكور فيها ويبعث به اليه .

وما ان وقع نظر الدكتور على ما سطر فى الورقة حتى امتقع لونه وتولاه الاضطراب ثم ناولنا اياها فقرأنا فيها ما خلاصته .

« زارنى اليوم صديق من كبار الاتحاديين وأسر الى أنه قر القرار على اغتيالى الليلة ، وسلمنى مسدسا لادافع به عن نفسى » .

وفى الحال ذهب كل منهم الى جهة للاجتماع بأصدقائه واتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الحالة . وقد اجتمعت أنا بسليم الجزائرى وغيره فعهدوا الى ان أكتب الى السفارات الأجنبية والجنرال فون ساندرس المفتش الألمانى فى الجيش العثمانى ان فى النية اغتيال عزيز فى تلك الليلة والادعاء بأنه انتحر . كما عهدوا الى البعض بمحاولة تهريب عزيز من السجن ووضعوا سيارة تحت تصرفهم لهذا الغرض ، وقد ارسلوا رسولا الى بخارست للابراق الى الشريف حسين وطالب النقيب بالأمر . وذهبت أنا الى غرفتى لتحرير الرسائل التى كلفت بكتابتها ، وقابلت فائز الخورى صدفة فى الطريق ، وكنت اعتمد عليه ، فأوضحت له الحالة وطلبت اليه أن يعاوننى فى الكتابة ، واننا لكذلك ، واذا بالباب يفتح فجأة ويدخل علينا الأمير عادل أرسلان ، فلما اطلعناه على ما نحن فيه أقبل على مساعدتنا . ولكن فائزا رأى الاكتفاء بقلمى وقلم الأمير عادل ، وأخذ الرسائل التى كتبها هو وأحرقها كلها . وأخذت أنا الرسائل التى كتبتها والتى كتبها الأمير عادل وألقيتها فى البريد .

وفى تلك الليلة نفسها ذهب سفير انجلترا بعد اجتماعه بالدكتور سعد الخادم ويوسف ذوالفقار الى الباب العالى وقابل الصدر الأعظم مقابلة طويلة بشأن عزيز .

وفى تلك الليلة أيضا أقيمت حفلة عشاء ساهرة فى سفارة فرنسا وكان خبر عزيز قد تداولته الألسن ، وانتهى الى مسمع السيدات فى جملتهن كريمة السفير . فلما أقبل جمال وأراد أن يسلم عليها أبت أن تبسط له يدها للتحية قائلة :

ـ أنا لا أمد يدى الى يد قاتل ...

فقطب جمال جبينه واتجه نحو الباب قاصدا الخروج ، ولكنه التقى بأنور باشا داخلا فتبادلا بعض كلمات ثم عادا معا ٠٠ »

ولا أستطيع أن أبت فى صحة الخبر الذى نقله الضابط الاتحادى الى عزيز بشأن اغتياله ، ولكننى أعلم أنه لو كان صحيحا لاضطر الترك الى العدول عن تنفيذه ٠ بعدما رأوا أن جميع المقامات الرسمية فى اسطنبول قد اهتزت له وأنه أثار ثائرة العرب فى كل مكان ٠٠٠

وزرت عزيزا فى السجن عقب هذه الحادثة وأخبرته بما جرى ٠ ولما ذكرت له خبر الكتب التى أرسلت الى السفراء والى المفتش الألمانى للجيش العثمانى اغروقت عيناه بالدموع وقال :

ـ كنت أفضل ألف مرة أن أقتل على أن يدعى الأجانب الى التدخل لمصلحتى ٠

ثم قال : قد لا أعيش طويلا بعد الآن ٠ واذا كان يشق على ان أموت فذلك لأنى لم أوفق الى الخدمة التى أريدها ٠

★★★

كان هذا يحدث فى الآستانة ٠ ولكن القاهرة لم تكن بعيدة عن مسرح الأحداث ٠ فقد استغل الانجليز حادث القبض على عزيز المصرى ، والحكم عليه بالاعدام استغلالا بارعا جدا ٠٠ فعزيز بعد تدخله فى حرب اليمن ، وبعد جسارته وقدرته التى تجلت فى حرب ليبيا ضد ايطاليا ، أصبح بطلا قوميا ٠ وكان الاتجاه الوطنى المصرى فى ذلك الوقت ، هو مقاومة الاحتلال الانجليزى بالنفوذ التركى ، وكان الحزب الوطنى والخديوى عباس الثانى من هذا الرأى ٠ وعامة المصريين يعتنقونه ٠

وما أن سقطت حكومة الاتحاديين هذه السقطة بازماعها اعدام بطل مصرى ، بغير جريرة ، فمن الممكن تحويل العواطف القومية ضد الاتراك ٠ ولهذا لا نعجب اذا علمنا ان أكبر منبر كان يدافع عن عزيز المصرى هو جريدة المقطم ، الوثيقة الصلة بالسلطات البريطانية ، وهى التى افتتحت اكتتابا لجمع أموال تساعد فى الدفاع عن البطل المصرى السجين فى تركيا ، والذى يوشك ان يفقد حياته ٠٠٠

★★★

ولكن سماح الانجليز ، برفع صوت المصريين والعرب عاليا دفاعا عن « عزيز » لا يعنى تشويه هذه الحركة الشريفة ، التى عبرت عن نفسها بأقوى أساوب ٠ والتى فصلت نهائيا فى موضوع التبعية لتركيا ،

والتي كان الدين ومركز الخلافة ستارا لها .... أصبح العرب جميعا طلاب استقلال عن الأتراك في سورية والعراق وشبه الجزيرة وعن الانجليز في مصر ، وعن الايطاليين في ليبيا ، وعن الفرنسيين في المغرب الكبير ..

وقد سجل لنا « سفاحنا » جمال باشا في ايضاحاته بعض البيانات النافعة ، عن اتجاه التيار القومي العربي ، الذى كان يعده جريمة الجرائم، والذى نصب من أجله المشانق كما سنرى فيما بعد ..

أرسل رفيق العظم رئيس جمعية اللامركزية ، التي أصبحت جمعية ثورية استقلالية هذا الكتاب الى أعوانه في سورية :

« عزيز لا يزال رهين السجن ، ونحن نواصل السعي هنا لانقاذه. وقد اقمنا اجتماعا ثانيا ، وقررنا مراجعة اللورد كتشنر (المعتمد البريطاني في مصر) والتمسنا منه أن تتدخل الدول الانجليزية في المسألة ، وتصون حياة بطل برقة ، والرجاء منكم أن تشيعوا بين الناس بقدر الامكان ، أن قصد الحكومة أن تقتل الرجل لانه عربي ، يجاهر بضرورة الاصلاح في بلاد الناطقين بالضاد » .

وجد عزيز المصرى ان علاقته بالجيش العثماني لن تعطيه الوقت الكافي ، ولا حرية العمل السرى في جمعية العهد وتنظيماتها . فأرسل الى قيادة الجيش الرسالة التالية :

الى وزارة الحربية الجليلة

« لقد تركت الجيش العثماني ، ابتداء من هذا التاريخ . ولكن حياتي العسكرية الماضية لا تزال تربطني به برباط متين . فاذا نشبت حرب أو احتاج الوطن الى أبنائه ، فعلى وزارة الحربية الجليلة أن تطلبني من القوميسارية العثمانية بمصر محل اقامتي ، على أن تعين لى القوة التى أتولى قيادتها » .

وما أن تلقى أنور ـ وقد أصبح أصبح باشا ـ هذه الرسالة ، حتى أدرك ان غريمه العنيد يوشك ان يفر من القفص ، ويذهب للقاهرة حيث يتسع له مجال العمل ، دون قيد أو رقابة . أو جواسيس أتراك . وهذا لا يمنع أن يكون في القاهرة جواسيس آخرون ، يعملون لحساب الانجليز فهم السادة في أرض النيل !! .

استدعى أنور باشا زميله القديم عزيز المصرى الى ديوان وزارة الحربية . فأشار عليه أصدقاؤه بألا يذهب فلا سلطان لهم عليه ، مادام

قد استقال . ولكنه قرر الذهاب لأن استقالته لم تقبـــل . وشاع نبأ الاستدعاء بين الضباط العرب . وما ان دخل عزيز الوزارة ، حتى كـــان اكثر من ثلثمائة ضابط عربي يرابطون في عقر داره فأخذ يتحدث حديثا لينا مع عزيز ، ويطلب منه الرجوع عن استقالته ، ولكنه أصر ، فاصر أنور باشا بدوره على رفضها !!

وحرج عزيز ، ليعلم بما حدث من زملائه . وقد سره هذا كثيرا بغير شك . ولكنه أدرك ان العاصفة تجمعت وانها على وشك ان تهب .

الباب الرابع

الفصل الأول

فى الآستانة : عزيز على المصرى
أمام مجلس عسكرى عال

فى ١١ فبراير ١٩١٤ وردت على القاهرة أنباء من الآستانة تفيد بالقاء القبض على عزيز على المصرى بك وتنشر الصحف المصرية تلك الأنباء معلنة عطفها الشديد على عزيز على المصرى ، وقد أجمعت الصحف المصرية على التعاطف مع عزيز بك ، وتحدثت عن بطولاته ومميزاته مما يدل دلالة قاطعة على المكانة الرفيعة التى وصل اليها البطل المصرى العربى عزيز على المصرى فى أذهان وقلوب وعقول المصريين والعرب ٠

تساءلت ـ مثلا ـ المؤيد فى ١٢ فبراير ١٩١٤ فى عنوان بارز : هل هذه مكافأة عزيز المصرى ؟ وتحت هذا التساؤل قالت :

« انتشر فى القاهرة ليلة أمس خبر ورود تلغراف من الآستانة بالقاء القبض فيها على البطل المصرى عزيز بك على ٠٠ على البطل الشجاع (عزيز على المصرى) الذى قضى سنى شبابه فى ذلك الفنون العسكرية والتمرن على مشاق الجندية من غير حاجة اليها فى معاشه مدخرا مواهبه ومداركه بل وحياته ليوم عصيب يقوى فيه الدولة العثمانية بهذه الحياة والمدارك والمواهب العزيزة عليه ٠

قبضوا على (عزيز على المصرى) الذى لم تكن خدمته للدولة العثمانية فى العمل على اعلان الدستور بأقل من خدمة المرحوم نيازى بك وناظر الحربية العثمانية ، الا ان أنور باشا لولا أنه كان فى هذا الحادث المظيم فى صف الرجال الذين عملوا لينقذوا الحكم العثمانى من خطر الفوضى والاستبداد لا لتطنطن الصحف باخبار ما عملوا ٠

أجل ، على (عزيز على المصرى) الذى هاله تطاير الألوف المؤلفة من الترك والعرب فى صحارى اليمن وجبالها وتبديد مئات الألوف من الجنيهات فى هذا السبيل فكان واسطة خير فى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية وفى جبال (شهاره) و (صعده) مركز الامام يحيى الى أن تم الصلح بين هاتين الفئتين الاسلاميتين بواسطة هـــذا الجنـــدى المصرى الباسل . هذا الجندى المصرى الباسل فضل تعريض صـــدره لرؤوس الحراب وحنايا ضلوعه لشظايا القنابل على أن تبتعد هذه الدولة العثمانية عن جوار وطنه مصر يوم حدثت الغارة الايطالية على طرابلس فعمل وهــو ساكت صامت ، كل ما يستطيع ان يعمله الجندى البطل ، وكان مـــع ما لقيه من معاكسة ومشاكسة آخر ضابط عثمانى فارق برقة بالحــاح ناظر الحربية الأسبق المرحوم محمود شوكت باشا بتشديد الباب العالى فى طلب انسحابه من ميدان القتال مجاملة للحكومة الايطالية .

★★★

وكنا نحسب ان تنحيته عن الجيش العثمانى كما تنحى من قبلــه الغازى شكرى باشا قائد درنه ، وهادى باشا الفاروقى رئيس أركـــان حرب الجيش العثمانى ، وانما هو آخر ما يسوؤنا من أخبار ابن مصر البار حتى جاءنا خبر أمس بالقبض عليه واحالته على المجلس العسكرى . لا لذنب جديد ارتكبه هذا العربى المصرى المســـلم المخلص بل ليجازى جزاء معكوسا على خدمته للدولة العثمانية تلك الخدمة التى لا تتم باللعب والكلام ، بل بتعريض الحيــاة للموت فى ميدان الحرب والقتال ، زد على ذلك ان كل عمل عمله عزيز بك المصرى فى المملكة العثمانية من أول نشأته الى اليوم كان مجيدا وشريفا ومنتجا للخير والنفع العام .

★★★

الدولة العثمانية تعترف لمصر باخلاص الحب لها ، وكذلك مصر وقد برهن عزيز على المصرى على اخلاصه للدولة العثمانية فى كل مواقفه من يوم كان صبيا تلميذا يفتخر بمصر والدولة العثمانية الى هذا اليوم الذى صار فيه بطلا تفتخر به مصر والدولة العثمانية .

وفى اعتقادنا أنه اذا كان ما يكافأ به ابن مصر من الآستانة مـــع خدمته لها ، لا يبعد أن يكون أثر ذلك فى العالم الاســـلامى غير مسر . فنرجو من رجال الدولة ان يكرموا مصر والاسلام فى شخص هذا البطل الكبير » .

وتحفظت الأهرام ، كعادتها ، فنشرت — فى ١٢ فبرايــر ١٩١٤ — النبأ تحت عنوان : عزيز بك المصرى والقبض عليه فى الآستانة . وقد جاء تحت العنوان ما يلى :

« ورد نبأ من الآستانة العلية على أحد عظماء الوطنيين فى مصر ، مفاده أن عزيز بك المصرى المشهور قد قبض عليه فى عاصمة السلطنة بسبب لم يذكر فى هذا النبأ • كما ان النبأ لم يثبت بعد ، وفى ودنا ان لا يثبت لأن لعزيز بك المصرى مقاما عظيما فى نفوس المصريين خاصة ، وفى نفوس العثمانيين عامة وهو الذى خدم وطنه ودولته وأمته الخدمات الكبرى الجليلة فى برقه ، حيث دافع دفاع الأبطال عن حقوق دولته وشرفها وكرامتها وسار ذكره خفاقا بالفخر ، لا له وحده ، بل لأمته كلها ، وفخرت مصر به وكان ذلك من حقها لأنه من أبنائها • ولقد حدث لعزيز بك ما حدث وعاد الى الآستانة كما هو معلوم ، وكان الراسخ فى الأذهان أنه يكون فيها فى صف الأفراد المعدودين من رجال الحرب الذين يعتمد عليهم فى زمن المحن والشدائد ، ويدخرون لأوقات الحوادث الكبرى ، فخبر القبض عليه اذا صح لا بد من أن يكون وقعه شديدا فى النفوس ، فنأمل ان لا يكون صحيحا » •

★★★

لم يكد الشعب يتأكد من القبض على عزيز على فى الآستانة حتى نشر فى ١٢ فبراير كلمة لأمين الرافعى رئيس التحرير تحت عنوان : « عزيز المصرى أمام الديوان العرفى » جاء فيها :

« ورد على بعض المصادر تلغراف من الآستانة يفيد أن الديوان العرفى ألقى القبض على عزيز بك المصرى بتهم تخص حرب طرابلس • فلما نما هذا الخبر الينا قابلناه بالدهشة ولم نكن نصدقه لأننا نعهد فى بطل بنى غازى ان له أعمالا مجيدة من شأنها أن تخلد له فى تاريخه صفحة بيضاء ناصعة تفخر بها مصر أيضا لأنه من أبنائها البررة •

ومن كانت هذه صفاته لا يعقل أن توجه اليه تهم تمس شرفه العسكرى •

شب هذا البطل من صغره ميالا بفطرته الى خدمة الدولة العلية وما كاد يتم تعليمه الثانوى حتى التحق بالمدرسة الحربية بالآستانة وبقى بعد تخرجه منها واقفا حياته فى سبيل خدمة دولة الخلافة يتنقل من أقصى البلاد العثمانية الى أدناها حاملا بين جنبيه قلبا لا يعرف سوى الاخلاص لحكومته ودولته وتضحية كل شىء فى سبيل رفعتها ومجدها •

ومن الغريب ان تكون التهمة الموجهة اليه خاصة بأكبر عمل قام به وهو الذود عن طرابلس ذودا رفع شأنه وجعل كل مصرى يفتخر بأن القائم بهذا العمل من مواطنيه •

اننا نعرف كثيرا من المصريين الذين لبثوا ردحا من الزمن جنبـــا لجنب مع عزيز بك فى بنى غازى ، فما سمعنا منهم فى وقت من الأوقات الا تحدثا بشهامة ذلك البطل وشجاعته والمشاق التى كابدها والمتاعب التى تحملها والتضحيات التى كان يضحيها حتى عاد منها وقـــد أثقلت الأمراض كاهله .

الا ان من الصعب على كل مصرى ان يبلغه بعد ذلك ان هذا الرجل الذى أبلى ذلك البلاء الحسن فى خدمة الدولة والذى قضى الى الآن أكثر من خمسة عشر عاما فى سبيل رفعتها يقدم الى الديوان العرفى بتهمـــة يشهد ماضى عزيز بأن ليس لها ظل من الصحة .

قد يكون بعض الواشين وشى بذلك البطل المصري ، ولكن هل يكون من نتائج هذه الوشاية أن تساء مصر فى شهم من أبنائها ؟ هل يكون من نتائج هذه الوشاية أن تصدم تلك الصدمة الشديدة وان ترى ذلك الذى كانت تفخر بأعماله المجيدة مقدما الى المحاكمة فى موقف المجرمين الخائنين الذين لم يعرف عنهم فى حياتهم الا السعى فى الاضرار بالدولة ؟

***

ولقـد قرأنا فى بعض الصحف أن فى النية عقـد اجتماع فى حديقة الأزبكية ، واننا لا ندرى ما هى الغاية الحقيقية من هذا الاجتماع ، وما هى المصلحة التى تعود على عزيز من عقده . فعسى ان لا نسمع فيه من يوقد نار التفريق ويشعل لهيب الفتن .

أرى خلل الرماد وميض نار   وأخشى أن يكون لها ضرام

هذه صيحتنا الثانية نذكر بها من نسى صيحتنا الأولى التى حذرنا بها المصريين والمسلمين والعثمانيين مما يدبر لهم فى الخفاء ، والعاقـل من اعتبر بما رأى وسمع .

***

وخرجت الأهرام فى ١٩١٤/٢/١٤ عن تحفظها الاعتيادى فنشرت تحت عنوان « محاكمة عزيز بك على فى الآستانة ، وساطة الأمة المصرية » وقد جاء تحت ذلك العنوان ما يلى :

« وقع خبر القبض على الضابط الباسل عزيز بك المصرى أشد وقع على المصريين لأن هـذا الشاب الباسل خـدم الدولة منذ عشر سنين بكل ثبات وبسالة وتفان فى الروملى ومقدونيا واليمن وبنى غازى ، فعز على أمته المصرية ان يحال على المجلس العرفى فى الآستانة فى ساعة كانت تنتظر فيها مكافأته على ما أداه من الخدمات ، فتألف أمس وفد من العظماء

قابل ولاة الأمور وبسط لهم أماني الأمة بان يطلق سراح ذلك الضابط الباسل ليعود الى أهله وذويه بعد ان تم جهاده وقضى حق الوطنية والدولة عليه • فوعدوهم ببذل الوساطة لدى الباب العالى وأرسل دولة البرنس عمر طوسون باشا تلغرافا الى فخامة الصدر الأعظم يبسط له فيه أمنية الأمة المصرية ولا شك عندنا بان الوزارة العثمانية تصغى الى طلب المصريين وتبشر غدا باطلاق سراحه وبزوال ما أحدثه خبر القبض عليه من التأثير ، وقد أرانا سعادة الهمام اسماعيل حقى بك سكرتير القوميسيرية العثمانية همة تذكر مع الشكر ، وخدمة للدولة وسياستها تستحق كل مدح فنحن ننتظر منه أن يكون العامل الأول فى اجابة أمنية الأمة المصرية عاجلا » •

***

ويكون لمسألة اعتقال عزيز على المصرى ردود فعل متباينة : البعض يحاول الوساطة وعدم تقديم عزيز على الى المحاكمة • والبعض الآخر انتهزها فرصة للهجوم على العثمانيين • وآخرون لاذوا بالصمت حتى لا يغضبوا أيا من الأطراف ذات العلاقة الوثيقة بتلك القضية •

ومن بين ردود الافعال تلك •• ان المؤيد ــ فى ١٥ فبراير ١٩١٤ ــ كتبت كلمة تحت عنوان « عزيز بك المصرى والعثمانيون » جاء فيها :

« دخلت مسألة القبض فى الآستانة على عزيز بك المصرى فى طور شديد جدا بكل أنحاء هذا القطر لغرابة هذه الحادثة من جهة ، ولان عزيزا هو فى الحقيقة عزيز على قومه المصريين خاصة والعثمانيين عامة ، ولعل تعدد الحوادث التى من هذا القبيل كان من دواعى ازدياد الاستياء •

وقد علمنا فى الليلة البارحة أن أبناء الولايات العثمانية المقيمين فى القاهرة خصوصا السوريين منهم يوقعون على عريضة تلغرافية سيرفعونها اليوم الى جلالة مولانا السلطان والى فخامة البرنس سعيد باشا حليم الصدر الأعظم يترجمون فيها عن استياء العثمانيين فى مصر من هذه الحال السيئة ويرجونهما أن يقفا فى سبيل الأحقاد الشخصية فى الآستانة العلية تخفيفا للأثر السيىء الذى أحدثته مسألة القبض على بطل بنى غازى ، ونحن مع استغرابنا سكوت الآستانة حتى الآن عما أرسل اليها من دولة الأمير الجليل شقيق الجناب العالى ورئيس الهلال المصرى ومن دولة الأمير الكبير رئيس اللجنة العليا لاعانة الدولة العثمانية ومن القوميسيرية العثمانية وأعيان مصر وعظمائها •• اننا مع استغرابنا سكوت الآستانة عن كل ذلك نرجو أن تكون كرامة مصر مرعية فى الآستانة مهما حصل من التأخر وان يبادر القائمون بالحل والعقد على ضفاف البوسفور الى تطمين الخواطر فى وادى النيل بالافراج عن بطل هذا الوادى بل والى تكريمه بما تستحقه

خدماته الكبرى حتى نعلم انه هو أيضا كان ابن الدولة العثمانية فى نظر الدولة العثمانية » ٠

وينشر المؤيد تلغرافا بعث به سرور يحيى جاء فيه :

« أرسلنا احتجاجاتنا الشديدة بسبب القبض على عزيز المصرى للصدارة ، ونرجو نشر هذا التلغراف بجرائدكم تعبيرا عن استيائنا » ٠

***

ويظهر الخلاف واضحا بين وجهة نظر كل من الشعب والمؤيد : الشعب يحاول الاحتفاظ بالعلاقات الحسنة مع تركيا ، والمؤيد ينتهزها فرصة للهجوم على تركيا (دولة الخلافة الاسلامية) ٠

وينشر ــ مثلا ــ الأستاذ أمين الرافعي فى الشعب ــ ١٧ فبراير ١٩١٤ ــ مقالا تحت عنوان : مسألة عزيز بك المصرى وحملة بعض الصحف ٠ وقد جاء فى ذلك المقال ما يلى :

« لما اتصل بنا نبأ القاء القبض على عزيز بك المصرى بادرنا بكتابة ما يجب علينا حيال مصرى عثمانى خدم دولته نحو خمسة عشر عاما أجل الخدم واستبعدنا صحة التهمة الموجهة اليه لما نعلمه ويعلمه غيرنا عن ماضيه وطالبنا الحكومة العثمانية ان لا تعير الوشايات أذنا صاغية واذا كانت ثمة وشايات لا برهان عليها ٠

ولو كانت لدينا الآن معلومات جديدة لتوسعنا فى هذا الموضوع ولكننا بالرغم من البحث والاستقصاء لا نزال نرى الروايات مختلفة فى صدد التهمة الموجهة الى عزيز بك فبعد ان سمعنا أنها تتعلق بطرابلس قيل لنا غير ذلك وآخر ما اتصل بنا من هذا القبيل ان عزيز بك تحت التحقيق ليس الا ٠

فلا يمكننا والحالة هذه ان نخوض فى موضوع التهمة مادامت مجهولة لنا ولكن الذى يمكننا أن نقوله ونكرره هو أن الحكومة العثمانية تتريث فى هذه المسألة تريثا يستوجبه ما عرف عن عزيز بك من الماضى الطيب فضلا عن نسبته لمصر تلك الشقيقة الصغرى للدولة العلية ٠

هذه هى الدائرة التى يجب ان يكتب فيها والتى كنا نود من الصحف المصرية ان لا تتخطى حدودها ولكننا مع الأسف الشديد رأينا بعض الأقلام قد اندفعت فى تيار آخر واتخذت من هذه الحادثة تكأة لخدمة أغراضها السياسية ٠

رأينا بعض الصحف تضرم عمدا نار التفريق بيننا وبين اخواننـــا وتعمل كل يوم على اطعام تلك النار بما تزداد به اشتعالا ٠

وليس غرضها من ذلك خدمة عزيز بك واظهار غيرتهـــا عليه اذ لا يقول عاقل بان مثل تلك الكتابات المحرجة للصدور من شأنها ان تفيد عزيز بك شيئا وانما هذه الأقلام تكتب لغرض آخـر ولاظهار ما تكنه صدورأربابها من الحقد والحفيظة على الدولة ٠

نعم ان الذين يكتبون بهذه الطريقة العوجاء لا تعنيهم مصلحة عزيز بك بل انهم يرغبون تضحيته على مذبح أغراضهم ليتسع أمامهم ذلك المجال الذى يريدون ان يدخلوا اليه من أى طريق شاءوا ٠

★★★

لقد أكثر أولئك الكتاب من الامتنان على الدولـة بالاعانـــات التى تدفعها مصر وأخذوا يتهددونها بحبس تلك الأموال عنها حتى أخجلـــوا المصريين الذين ما عرف أحد عنهم أنهم يمتنون بما يقدمونه عن طيب خاطر باعتبار أنه واجب لا مندوحة عن القيام به ٠

نرى العالم الاسلامى بأسره يمد دولة الخلافة بما تجود به نفـوس الكرماء وما سمعنا أن صحيفة في قطر من هذه الآقطار فكرت فى أن تمتن على الدولة بما يمتن به المؤيد والمقطم ٠

أليس ذلك لأن هاتين الصحيفتين ومن يضرب على نغمتهما لا يريدان بحملتهما الا استئناف تلك السياسة العدائية التى عرفا بها حيال الدولة ؟

ولقد بلغ من تبجح المؤيد (الاسلامى !) أنه دعا الى عدم الاحتفاء بالطيارين العثمانيين قائلا عنهم « انهم ما جاءوا الى مصر الا لاســـتنزاف المال من جيوب أهلها » ٠

ينادى المؤيد الاسلامى بهذه الدعوة وهو الذى دعا الى تكريم الطيارين الأجانب ولم يجرؤ أن يقول عن واحد منهم أنه جاء لاستنزاف أموالنا ٠

ينادى المؤيد الاسلامى بهذه الدعوة بينما جريدة البروجريه المسيحية الأجنبية تدعو أعضاء لجنة الطيران المسيحيين الى الاحتفاء بالطيـــارين العثمانيين وبينما مدير محل الطيران الأجنبى يقدم محله مجانا للجنـــة الاحتفال ٠ فياللعار ويالخزى هذا الموقف المزرى بصاحبه ؟

اللهم ان الأمة المصرية لتبرأ من كل كاتب يتخذ حادثة عزيز بـــك وسيلة لنفث السموم بين أمتين عاشتا أمد الدهر عيشة وئام وســـلام واتفاق وصفاء ٠

انها تبرأ من كل من يظهرها مظهرا لا يليق بأية أمة فى الوجود أن ترضاه لنفسها فخير لأولئك الكتاب أن لا يكشفوا الغطاء عن نياتهم الى هذا الحد • وما يكون لأحد ان ينخدع بقولهم أنهم يغارون على كرامة مصر والا فلماذا لم نر عشر معشار هذه الغيرة عندما نشرت الطان مقالتها ؟

ألكون الدولة العثمانية هى الدولة الاسلامية الباقية على سطح الكرة ؟ أين كانت تلك التهديدات التى نسمعها الآن ؟ أين كان ذلك الوعيد وهذه المطاعن ؟ أين كانت تلك الانذارات وهذه البلاغات ؟

لقد عجزت الأقلام عن شىء من ذلك عندما كانت الحادثة تتعلق بفرنسا ، أما والحادثة تتعلق بالدولة العلية فلا عجب اذا شطت الأقلام عن عقالها واندفعت تتسابق فى هذا المضمار •• !!

***

والخلاصة مما تقد أننا لا ننكر الدفاع عن عزيز بك فقد كنا أول من رفع صوته بذلك الدفاع ولا نزال ندافع عنه وانما نحن نطلب أن يكون الدفاع فى دائرته المعقولة التى يستفيد منها مواطننا •

لقد طلبنا من الدولة العلية ان تلحظ فى هذه الحادثة علاقتها بمصر ويجب أن نطلب من أنفسنا أن نلحظ فى كتابتنا علاقتنا بالدولة أيضا •

والذى نرجوه الآن هو أن لا يكون لكتابات تلك الصحف ذلك التأثير السيىء الذى نخشاه على رابطتنا بالدولة وعلى عزيز بك •

وعسى ان تبادر الحكومة العثمانية باخلاء سبيل مواطننا اذا لم تكن هناك تهمة موجهة اليه واذا كان ثمة تهمة مبنية على أدلة قوية فلتعلنها حتى يقف المصريون على الحقيقة •

ولنا الثقة فى انصاف ولاة الأمور العثمانيين الذين نعرف عنهم أنهم يقدرون من عرف فى ماضيه بخدمة الدولة والاخلاص لها مثل عزيز بك كما يقدرون عواطف المصريين حق قدرها •

وأملنا كبير فى أن يخرج عزيز بك من هذه الحادثة مرفوع الرأس بريئا » •

★★★

وكان شيخ الجامع الأزهر ، قد بعث ببرقية الى أنور باشا ناظر الحربية العثمانية يلفت فيها نظره الى عـزيز بك المصرى وقضيته لأن خدماته للدولة والملة تقضى بمراعاة جانبه وألا يعامل معاملة شديدة • وقد تلقى شيخ الجامع الأزهر – فى ١٧ فبراير ١٩١٤ – برقية من أنور باشا يقول فيها : ان التهمة الموجهة الى عزيز بك المصرى تتعلق بادارته

فى بنغازى واننى – أنور باشا – لا يمكن أن أطلق سراحه قبل الحكم ببراءته ولربما بعد براءته يسمح له بالسكن فى منطقة معينة غير القطر المصرى » . وقد استدل من تلغراف ناظر الحربية أن الحكومة العثمانية معولة – حتى بعد الحكم بالبراءة على أبعاده ونفيه .

★★★

وكانت شقيقة عزيز بك قد بعثت رسولا من القاهرة الى الآستانة للوقوف على حالته في سجنه . وقد جاءها من هذا الرسول – في ١٧ فبراير ١٩١٤ – تلغرافا يقول فيه ان صحته جيدة . كما وردت أنباء من الآستانة تفيد أن هيئة التحقيق قد سألت بعض الضباط العرب عن علاقتهم بعزيز بك .

★ ★ ★

وتنشر الأهرام – في ١٨ فبراير ١٩١٤ – أن عزيز بك كان قد عين قومندانا للبصرة ثم عدلت الحكومة عن تعيينه وعينته في جهة بعيدة من جهات الأناضول بوظيفة صغيرة فأبى السفر وقدم استعفاءه من الجيش وبعد ذلك قبض عليه .

وقد أحدث القبض عليه هذه الضجة فى مصر ، كما أحدث القبض عليه – الأهرام – ضجة أكثر فى سوريا وبين العرب فى الآستانة ذاتها .. الى أن يقول الأهرام .. « فاذا كنا ممن يحترمون القانون وممن يحبون أن تترك للمحاكم الحرية فأنا لا نستصوب المعاملة التى عومل بها هذا البطل الباسل والضابط النشيط ولا نستصوب احالته علـى المجلس العرفى وأملنا برجال الحكومة في الآستانة ان يرضوا العدل وأن يرضوا الانصاف وأن يرضوا الشهامة والمروءة فى معاملة عزيز بك فكفى الأمة ما رأت من المحاكمات والنفى والتهم واقفال الصحف فنحن بحاجة الى الراحة فى الداخل بعدما انتهت الحرب وكذا نرتاح فى الخارج » .

★★★

ونستأذن فى الوقوف عندما نشرته جريدة المقطم ذات الصلة الوثيقة بالاحتلال البريطانى لمصر عن موضوع عزيز على المصرى منذ البداية ، ذلك أن المقطم كان يتلقى معلوماته – مباشرة – من دار المعتمد البريطانى فى مصر ، ولم يكن يهمه بطبيعة الحال مصلحة عزيز المصرى ، أو مصلحة مصر ، أو مصلحة دولة الخلافة العثمانية :

فى ٢ فبراير ١٩١٤ وتحت عنوان : عزيز بك المصرى ، بطل برقة : استعفاؤه من الجيش العثمانى – حياته العسكرية ، علاقته بجمعية الاتحاد والترقى ، جهاده فى سبيل الدولة والوطن . وقد جاء تحت ذلك

العنوان رسالة من مندوب المقطم الخصوصى فى الآستانة العليا كتبت فى ٢٥ يناير ــ ك ث ــ أى كانون ثانى ــ ما يلى :

« استعفى عزيز بك على المصرى بطل بنى غازى من الخدمة العسكرية منذ أيام فكان لاستعفائه وقع سيىء فى الأندية العثمانية لما اشتهر به من البراعة فى فنون القتال والشجاعة والاستبسال وحميد الخصال • وعد العقلاء تركه الجيش العثمانى فى الأحوال الحاضرة خسارة عظيمة على الدولة والوطن ، أنا لا أطرى بطلنا أو أزيد القراء علما به ، فقد جرى ذكره على كل لسان وسارت به الركبان حتى تمثل للناظر وجال فى الخاطر ، وحسبه فخرا ان صحف الغرب قالت فيه كل كلمة ثناء واعجاب أثناء الحرب الطرابلسية وعدته من أعاظم رجال الحرب ، فدونت له فى التاريخ ذكرا يتأوج عرفه كلما ذكرت تلك الحروب • وانما يعز على العثمانيين كافة أن يختم هذا القائد الباسل حياته العسكرية بالاستغناء • واذا كان الغرب يفتخر بأعاظم رجاله فلا نذم نحن رجالا كبطلنا عزيز بك بل نفتخر بهم ونعجب بمقدرتهم وكفاءتهم • ولقد حادثت كثيرين من الشباب الواقفين على سيرته العسكرية المملوءة مخاطر وأهوالا وجرأة واستبسالا وثباتا فى مواطن القتال حين اشتداد الهيجاء واقتراب الآجال• فرأيت ان اذكر ما وقفت عليه منهم ليعلم العثمانيون أى رجل اضاعوا باستغناء بطل بنغازى قال أحد رفاقه فى مكتب أركان الحرب •

***

ويشير المقطم الى ذهاب عزيز المصرى بتكليف من الحكومة العثمانية لحقن الدماء وابرام الصلح بين تلك الحكومة والامام يحيى • كما يشير الى نجاح عزيز المصرى فى عقد اتفاق صلح بين الحكومة العثمانية والامام يحيى ، كما يشير الى اصابة عزيز بك ــ أثناء اقامته باليمن ــ بالكوليرا واشتداد وطأتها عليه فأراد السفر الى أوروبا تبديلا للهواء بعد شفائه منها ولكن نشوب الحرب الطرابلسية حال دون ارادته فسافر الى طرابلس الغرب متنكرا وظل فى برقة من سنة ١٣٢٧ الى سنة ١٣٢٩ • وأظهر هناك من البسالة والاقدام فى محاربة الايطاليين والبراعة فى تنظيم العسكر ما استوجب اعجاب أوروبا به وتقديرها افعاله حق قدرها • ولولا دخول المفسدين النمامين بينه وبين السيد السنوسى لقاوم الايطاليين زمنا طويلا وجعلهم يرضون بالصلح بشروط تلائم مصلحة البلاد الطرابلسية • ولما عاد الى الآستانة منذ أيام قابلته بالحفاوة والاكرام وقررت نظارة الحربية ترقيته ومكافأته ولكن أعداءه حالوا دون ذلك ولقى فى معاملتهم له تحقيرا تأباه عزة نفسه وشهامته فاستعفى أول أمس وهذه ترجمة استعفائه •

« لقد تركت الجيش العثماني من هـــذا التـاريخ ولكن حياتى العسكرية الماضية لا تزال تربطنى به برباط متين لا تقوى الأيام عـلى فصمه . فاذا شبت حرب ورأت الدولة أن تستفيد منى بشرط أن تعين الفرقة التى أقودها فلتطلبنى من القوميسيرية العثمانية فى مصر مكـان اقامتى » .

(الامضاء) عزيز على

***

وفى ١٢ فبراير ١٩١٤ ينشر المقطم نبأ القبض على عزيز على المصرى بتهمة تتعلق بخدمته فى بنغازى ـ ويلاحظ ان المقطم هـــو وحده الذى انفرد بنشر التهمة التى ألقى القبض على عزيز على المصرى بسببها . وقد أشار المقطم ـ فى نفس الخبر ـ ان عزيز بك وســائر الضباط الذين قاتلوا فى بنغازى بعد معاهدة « أوشى » كانوا متطوعين ولم يكونوا معدودين من الجيش النظامى .

***

وفى اليوم التالى ـ ١٣ فبراير ١٩١٤ ـ ينشر المقطم ما يلى : قضينا النهار أمس وأعيان المصريين يتعاقبون على ادارة المقطم زرافات ووحـدانا يسألوننا عن أخبار عزيز بك المصرى ويظهرون شديد عتبهم واستيائهـم من قبض بوليس الآستانة عليه ومحاكمة الديوان العرفى له . فقد وقع هذا الخبر الذى نشرناه أمس أسوأ وقع فى نفوسهم وأهاج القبض عليه خواطرهم هيجانا عظيما ، لأنهم كانوا يباهون به على استبساله فى الدفاع عن دولته وعلى شجاعته التى فاق بها الأقران فى قتال الطليان ويقولون أنه البطل الذى افتخـــر به المصريون ووثق عـــرى الحب بينهم وبين العثمانيين ، فقيام الذين قاموا عليه اليوم فى الآستانة واتهامهم له بأمور يدعون أنها جرت فى بنغازى ليسا مما كان المصريون ينتظرونه جـزاء اخلاصه وخدمته واخلاص أمته وخدمتها لا سيما وأنه غادر بنغازى منذ زمان طويل ثم قضى فى الآستانة شهورا كثيرة ولم يتهمه أحدا فيها بمثل هذه التهمة ، فماذا جرى الآن ؟ وأى جريمة سياسية ارتكب ، حتى يحاكم أمام الديوان العرفى ؟ لانه لو ارتكب جريمة عسكرية لحوكم أمام مجلس عسكرى بل أى حق لخصومه فى محاكمته وهو قد ذهب الى بنغازى متطوعا لا ضابطا مقيدا بقوانين ونظامات عسكرية الى غير ذلك من عبارات العتب التى تغادر العثمانى حائرا فى أمره يصغى اليها وهو مطرق الى الأرض صامتا حياء وخجلا . فالرجاء ان حكومة الآستانة تراعى خاطر الأمة المصرية فى هذه المسألة وتطلق سراح ذلك البطل المصرى ، كفا للعتب عنها وحرصا

على العلاقات الوثيقة التى بين مصر وبينها · وقد اتصل بنا ان هـــذا الخبر طيره رجل كتم اسمه على جناح البرق من قسطنجه وذكر فيه أنهم طلبوا من الديوان العرفى اطلاق عزيز بك بضمان فأبى نرجو أن لا يكون هـــذا الخبر صحيحا بل يكون خبر القبض على عزيز بك من الأراجيف الباطلة ·

وفى ١٦ فبراير ١٩١٤ ينشر المقطم تحت عنوان « عزيز بك المصرى وهيجان الرأى العام فى مصر » وقد جاء فيما نشره ما يلى :

« يزداد الرأى العام المصرى هيجانا على هيجـــان من يوم الى يوم بسبب قبض حكومة الآستانة على عزيز بك على ووضعه تحت المحـاكمة لاقناع المصريين بأن الباعث على ذلك انما هو أحقـــاد كامنة لا الأسباب الظاهرة · فوفود المصريين متوالية لحض ولاة الأمور على الاهتمام بأمر ذلك الهمام وعدم تركه فريسة تمزقها مخالب البغض والانتقام ، وعرائضهـم التلغرافية متواصلة تقرع تارة أبواب القاهرة وطورا أبواب الآستانة ، وتلغرافات المكاتبين الأوروبيين تصدر الى جرائد أوروبا من ساعة الى ساعة ولا يعلم الا الله عند أى حد تقف هذه الحركة المتعاظمـــة لا سيما وان الشبيبة المصرية العصرية تضرم نارها وتثير غبارها حاسبة أن مد يد الأذى الى بطلها الذى ترفع به رأسها يكون أعظم اساءة لها وأشد هوانا عليها ·

***

وقد علمنا عن ثقة من الأخبار البرقية التى وردت على بعض المقامات الرسمية هنا ان فخامة الصدر الأعظم قال فى سياق كلامه لمن راجعه فى مسألة عزيز بك هذه ان الحكومة العثمانية لم تقبض عليه لتحاكمه عـلى أمور جرت فى بنغازى بل لتحاكمه على عدم امتثاله للأوامر العسكريـة التى صدرت اليه من رؤسائه وعلى سعيه فى مضادة الحكومة الحالية فعلا والتنديد برجالها قولا · فلما علمت مجالس مصر الخصوصية هذه الأقوال التى قالها الصدر الأعظم ازداد سخطا واستنكارا وأيقنت أن القصد من تلك المحاكمة ليس تأديب عزيز بك المصرى على وزر ارتكبه أو مخالفـــة بدرت منه بل القصد الانتقام منه لما هو معلوم عند أهل القطر منذ حرب الدولة وايطاليا فى بنغازى من المنافسة والمناظرة بين عزيز بك وبعض انداده وأقرانه من رفاقه الترك فى الجيش العثمانى ·

وحجة المصريين اليوم هى هذه : ان بطلنا عزيز بك قضى فى الجيش العثمانى ما يزيد على خمســة عشر عاما وهو يبــذل كل قوته فى سبيل الدفاع عن دولته ، وكان قبل أن شنت ايطاليا الاغارة على طرابلس الغرب

يقاسي الشدائد والأهوال فى بلاد اليمن حتى يرد تلك القطعة العربية الى الحظيرة العثمانية فوفق الله مسعاه وأصلح ذات البين بين الحكومـــة العثمانية والامام يحيى وأتم عقد الاتفاق بينهما • ولم يكد يفرغ من ذلك حتى هاجت الحرب بين الدولة وايطاليا فى طرابلس فسافر فى الحـــال قاصدا برقة متطوعا للقتال وفعل فيها أفعالا تشيب الأطفال وتحل عزائم الأبطال • ونصر الدولة بكل ما أوتى من بأس وقوة ونفوذ وسطوة وجعل القبائل تقاتل تحت ادارته مستبسلة مستقلة وعاد بعدما رفـــع لمصر والمصريين راية المجد والفخار وأظهر للعالم ان مصر لم تنجد الدولة فقط بالمال بل تصونها أيضا برجالها الأبطـــال فبات المصريون ينتظرون بعـــد ذلك ان حكومة الآستانة تكافيء بطلهم عزيز بك كما كافأت بطلها أنور بك فتجعله عزيز باشا كما جعلت أنور بك أنور باشا وتقلده منصبـــا ساميا كما قلدت نده منصبه السامى • وكانوا يسرون ويشكرون كلما سمعوا ان فى نية الآستانة ان ترسله واليا على احدى ولاياتها أو قومندانا لفيلق فيها •

★★★

ولكن مضت الأيام ولم يصبح حلم من تلك الأحلام حتى سمعوا أخيرا أن رئيسه العسكرى الذى كان بالأمس نده فى بنغازى أمر بتعيينه فى وظيفة صغيرة ببلدة بعيدة حقيرة فكبر هذا الأمر عليهم وعدوه هوانا على بطلهم وبالتالى عليهم ولم يسعهم الا استصواب ما فعله عزيز بك حينمـــا جاءتهم الأخبار بأنه اعتذر عن قبول الوظيفة واستقال من الجيش • ولم يدر فى خلدهم أن ذلك يتخذ حجة عليه بعدم اطاعة الأوامر العسكريـــة وبوجوب محاكمته تأديبا له لا سيما وأنه يحق للضابـــط الذى يقضى ما فوق الخمس عشرة سنة فى الجيش العثمانى ان يستقيل فى أى ساعة شاء بلا خوف ولا مراء •

★★★

وقد سمعنا جماهير المصريين تتأفف أمس واليوم من تعريض احدى الصحف بان عزيز بك ابن جركسى كأنها تريد أن تقول انه ليس بمصرى مع أن الخاصة والعامة يعلمون ان عزيز بك ولد فى هذا القطر فهو يعـــد مصريا فى عرف ممالك العالم كلها لا سيما وأنه لم ينتم قط الا الى مصر ولم يدع ان له قوما غير المصريين ، وقد قضى العمر وهو يجاهر بأنـــه مصرى عربى ويطلب بأعلى صوته معاملة العرب معاملة الترك وغيرهم من العناصر العثمانية ويسعى فى الدفاع عن العرب والتأليف بينهم وبين الترك ويندد بكل سعى فى التفريق بين هذين العنصرين وبكل تمييز للترك على العرب فى عهد الدستور • فالمصريون خصوصا والعرب عموما يعدون

عزيز بك بطلهم ويفاخرون ببسالته ويباهون بشجاعته ويحسبون الاساءة اليه اساءة اليهم والاعتداء عليه اعتداء عليهم . ولو حضر من الآستانة بعض الذين رحلوا اليها من هذا القطر بدعوى أنهم يقصدون تقريب العرب من الترك والتأليف بين قلوب الفريقين ـــ لو حضر هؤلاء اليوم الى مصر وسمعوا عتب المصريين عليهم بل لومهم وتعنيفهم لهم على تقصيرهم فى ما يدعون السعى فيه وتحريضهم على عزيز بك عوضا عن دفاعهم عنـه لأدركوا ان هذه المسألة يخشى أن تهيج القطر من أقصائه الى أقصائه وانه تتركه خصما شديدا لحكومة الآستانة لا صديقا صدوقا لها .

***

هذا ولما كان المقطم مصريا وعثمانيا معا وكان أقصى مرامه أن تظل مصر ـ وطنه الحالى ـ أعظم الأوطان حبا لدولته وأشدها اخلاصا لها فهو يرجو من فخامة الصدر الأعظم الذى هو ابن مصر أيضا ومن سائر رجال الحكومة فى الآستانة أن يتدبروا هذه المسألة بالتأنى والحكمة ولا يكدروا كاس الصفاء بين مصر والآستانة ولا يكسروا قلوب العثمانيين ولا سيما العرب بمد يد الأذى الى بطلهم المصرى العربى ولا يفتحوا بابا للخـــلاف والأشكال مع دولة ترى الدفاع عن المصريين خارج قطرهم من الأمور الواجبة عليها بل يقبلوا استعفاء عزيز بك ويردوه الى وطنه اذا لم ترضهم اقامته فى عاصمتهم وبذلك نراعى عواطف اخواننا المصريين فى الحال ونصـون كرامة تاريخنا مع أبطالنا فى الاستقبال .

ألف وفد من حضرات أصحاب السعادة والعزة عبد الخالق باشـا مدكور ، وحسن باشا رضوان ، وابراهيم باشا نبيه ، والسيد أحمـــد محسن ، والدكتور سعد بك الخادم ، ورشوان بك الزمر ، وعلى بـــك حافظ وغيرهم وقصدوا سراى عابدين العامرة ليلتمسوا من الجانب العالى ان يتوسط فى مسالة عزيز بك المصرى فرفعت أمنيتهم الى الجناب العالى فى المنتزه . وقد أرسل سموه حضرة حسن حلمى بك من رجال التشريفات الخديوية فابلغ حسن باشا مدكور شكر الجناب العالى لحضرات أعضاء هذا الوفد على احساسهم الشريف ووعد بابلاغ أولى الحل والعقد فى الآستانة شعور المصريين وأمنيتهم فى هذه المسالة . أتانا هذا التلغراف بأمضـــاء « لفيف من الجيزة » وهو أرسلنا احتجاجنا الشديد الى الصدارة العظمى بسبب القبض على عزيز بك المصرى نرجو من الوفد مداومة السعى ونشر هذا التلغراف بجريدتكم أعرابا عن استيائنا . وأتانا هذا التلغراف من طهطا وهو : رفع أعيان طهطا ووجهاؤها وفى مقدمتهم حضرات محمد بك رفاعة ، وأحمد بك على ، ومحمد بك عمر عبد الآخر ، والسيد أحمد عابدين نقيب الاشراف ، والسيد عبد العزيز أحمد الانصارى ، والسيد عبد الرحيم

عيد تلغرافا الى فخامة الصدر الأعظم ، اعربوا فيه عن أسفهم للقبض على البطل عزيز بك المصرى وأظهروا فيه سوء وقع الخبر فى نفوس المصريين والمسلمين ، وأتانا هذا التلغراف من كفر عمار وهو « ساءنا القبض على عزيز بك المصرى » ٠

***

وينشر المقطم فى ١٩١٤/٢/١٧ وتحت عنوان « الاشاعات وحقيقة الحال » : توقيف عزيز على بك المصرى وتأثير ذلك ٠ وقد جاء فيما نشره المقطم :

« اشاعت صحف الغرب هذه الأيام أخبارا مقلقة عن الآستانة فذكرت المؤامرات التى اكتشفتها حكومتها الحالية واسهبت فيها اسهابا كثيرا حتى خيل الى قارئها ان محررها فى عداد المتآمرين ٠ وكنت قد ضربت صفحا من ذكر تلك الاشاعات لاعتقادى أنها مختلقة لا صحة لها ولا أساس وأن ذوى الأغراض والغايات أذاعوها تمهيدا لسبل الانتقام من خصومهم السياسيين ٠ أما وقد تغيرت الحال وتوهم قوم ان وراء الاكمة ما وراءها فلم أجد بدا من ذكر ما شاع وذاع على علاته ٠ يقول قوم ان الاستياء فى الجيش شديد عام من احالة فريق من كبار القواد على التقاعد ونفى فريق آخر منهم الى سينوب والقبض على جميع المعارضين فهذا كله أقام الجيش وأقعده وحرك فى الأفئدة عوامل الانتقام ولو وقف الأمر عند هذا الحد لسهل وهان وقلنا ان الخطر بعيد لأن حزب جمعية الاتحاد فى الجيش قوى لا يستهان به ٠ ولكن عدم اعطاء الضباط الضباط رواتبهم منذ خمسة أشهر فى بعض الفيالق والمعاملة الاستثنائية التى يعامل بها فريق كبير من العسكريين بثا فى الجيش فكرة لا تؤمن عواقبها ولا يحمد منتهاها ٠

***

فقد أخبرنى ثقة بأن كثيرين من الضباط المنتسبين الى الجمعية انتحروا بسبب الحاجة والفاقة وبأن أكثر المعدودين من فدائى الاتحاديين قطعوا كل علاقة لهم بالجمعية هذه الأيام فأدرك قادة الأمور حرج موقفهم وجعلوا الشدة والضغط دينهم وعاقبة الضغط الانفجار ٠ وقد نفى ياور باشا ، وخورشيد باشا الى سينوب ويقال ان نظارة الحربية فكرت أيضا فى نفى عبوقى باشا من كبار الضباط ٠ وان أنور باشا ناظر الحربية وضع بيانا بذلك أوجب تنفيذه قريبا وسافر الى أدرنه لأسباب لا تزال مجهولة ، فتباينت الأقاويل فى سبب سفره وأشاعوا أمورا كثيرة أضرب الآن صفحا عن ذكرها ٠ وسمعت أمس أنهم ألقوا القبض على ضباط كثيرين لم تعلم أسماؤهم ولا التهم التى اتهموا بها ولا ما يكون من أمرهم فى المستقبل وبين هؤلاء الضباط عزيز بك المصرى بطل برقة ٠ وتحرير الخبر أنه كان

خارجا أمس بعد الظهر من فندق توكتليان واذا ثلاثة من البوليس دنوا منه بكل احترام ودعوه الى دائرة البوليس فسار معهم الى اسطنبول ٠

★★★

ولما ذاع الخبر في الآستانة قام له أبنـــاء العرب وقعدوا ، وذهب كثيرون منهم الى دائرة البوليس مستعلمين عن سبب توقيفه فقال لهم مدير البوليس وهو يتلطف معهم : ان عزيز بك لم يوقف ولكنه دعى لاستجوابه عن أمور لا دخل له فيهـا وسيطلق سراحه في المســاء ٠ وقصد السيد عبد الحميد الزهراوى منزل طلعت بك ليقف منه على طبيعة الحـال فلم يجده ، ولما آزفت الساعة العاشرة مساء ولم يخرج عزيز بك من دائرة البوليس توجه ضابط الى عبد الحميد أفندى الزهراوى وطلب منه أن يبحث عن السبب ويخبره به اليوم بعد الظهر وأبلغه استياء العـرب جميعهم من عسكريين وملكيين من تلك المعــاملة لأن عزيز بك لا دخل له فى سياسة الآستانة وشئون أحزابها وهذا أمر يعلمه خصومه قبل أصدقائه ، فلأى سبب قبض عليه ٠

ويذهب فريق آخر من اخواننا الضباط العرب ، ان الانتقام الشخصى كان العامل الوحيد فى توقيف عزيز بك وأنهم لابد لهم من منع يد الانتقام من الوصول اليه مهما تكن العواقب ٠

★★★

وجملة القول أن الحكومة تحسن صنعا اذا أطلقت سراحه فى القريب العـاجل لأنهـا تعلم جيـدا أنه لا ضلع له من حزب من أحزاب الآستانة ولا دخل له فى شأن من شئونهـا ٠ وسيعقد مندوبو الأحزاب العربيـة اجتماعا مهما اليوم بعد الظهر للوقوف على تلك الأسباب التى أدت الى القبض عليه واجراء ما تقتضيه الحال ٠

ولا يسعنى المقام الا أن أقول ان ما جرى يجب تلافيه بالعقل والحكمة سواء كان عزيز بك هو الذى عومل تلك المعاملة أو غيره من القواد والضباط لأن النتائج غير مأمونة ٠٠ والله أسأل ان يلهم ولاة أمورنا سبيل الرشاد ويحمى السلطنة والأمة من عواقب الاستبداد ٠

★★★

وينشر المقطم ـ فى ١٧ فبراير ١٩١٤ ـ تلغرافا من أبناء مديرية بنى سويف جاء فيه :

« ساءنا خبر القبض على عزيز بك المصرى فأبلغنـا البـاب العالى استياءنا واحتجاجنا » ٠

كما ينشر المقطم تلغرافا آخر من القاهرة جاء فيه :

« ما حدث للبطل عزيز بك المصرى جاء على حقد ما كنا نرجوه فلذلك اجتمعنا نحن أعيان وتجار قسم السيدة بمنزل حسن بك حسني الورداني وقررنا نشر استيائنا على صفحات الجرائد أولا ثم انتخاب وفد لمقابلة سمو ولى النعم والمندوب العثماني السامي وولاة أمورنا متوسلين بهم للسعى فى الافراج عنه وثقتنا فى دولتنا أنها لا تؤذى المصريين فى رجلهم العزيز » ٠

★★★

وينشر المقطم — فى ١٨ فبراير ١٩١٤ — أن مندوبه الخصوصى فى الآستانة زار أمس عزيز بك المصرى فى غرفـة قومندان السر عسكرية الخصوصية ليقف منه على حقيقة التهم الموجهة اليه ، فرأى عنده جمهورا من أعيان العرب فلم يتمكن من محادثته على خلوة ، ولكنه علم ان أنور باشا ناظر الحربية أرسل تلغرافا الى رئيس الديوان الحربى يأمره فيه باخلاء سبيل عزيز بك ضمن دائرة القانون فرفض الرئيس ذلك لأسباب لم تعلم بعد ٠ قال : وقد مضى على عزيز بك أربعة أيام ولم يعلن بعد رسميا بالسبب الذى دعا الى توقيفه ، فساء ذلك أبناء العرب وخاضوا ولاة الأمور محتجين على هذه المعاملة السيئة ٠ ويشاع ان الحكومة تكفلت لهم باخلاء سبيله ومعاملته بالعدل بعد عودة أنور باشا من ادارته ٠

★★★

وينشر المقطم أيضا — فى ١٨ فبراير ١٩١٤ تحت عنوان : عزيز بك المصرى ، تأثير حادثته بين الترك والعرب فى الآستانة ٠

« وكتب الينا فاضل من أبناء العرب يقول : حضر طلعت بك وجمال بك الى المنتدى الأدبى يوم المولد النبوى الشريف وخطبا خطبا رنانة صفق لها الحاضرون تصـفيقا صـم الأذان ، وبالغوا كل المبـالغة فى اظهـار الاستحسان ، وشكرهما حضرة السيد عبد الحميد الزهراوى باللغة التركية لا بلغته العربية فعتب عليه أبناء هذه اللغة عتبا شديدا ولاسيما ضباط الجيش من أبناء العرب يتحدثون بأقوال طلعت بك التى تشف عن شديد الوداد وعن العزم على انجاز جميع الوعود التى وعدوا بها العرب وعن وجوب الامتزاج والاتحاد بين العرب والترك حتى لا يقال بعد الآن هذا عربى وهذا تركى اذا حدث أمر لم يكن فى الحسبان ، ومحا تأثير تلك الأقوال فى طرفة عين وترك كل ما صفق له أهل المنتدى الأدبى فى خبر كان ما مس الاثنين ٠

★★★

في ٩ فبراير قبل الساعة الأولى بعد الظهر خرج صديقنا عزيز على بك المصرى من مطعم طوقاتليان هو والدكتور ثابت ، واذا ببوليس سرى سأله عن اسمه ثم كلفه أن يرافقه الى مدير البوليس بدرى بك وأخبركم العربى الفصيح أنهم قبضوا على عزيز بك المصرى وزجوه فى السجن مكافأة له على خدماته العظيمة فى الروملى واليمن وبنغازى • وقد بات ليلة هناك فى دائرة البوليس ، فلما علم بذلك شبان العرب وضباطهم وخصوصا البغداديون منهم هاجوا هيجانا عظيما حتى خفنا ان يخرج كثيرون منهم على حد الاعتدال ويتسع الخرق على الراقع ، وأراد بعضهم ان يذهبوا الى سجنه ويبيتوا الليل معه ، وقضى آخرون الليل يطوفون فى شوارع الآستانة وحول دائرة البوليس خوفا من ان يخرج البوليس به ليلا على غير علم منهم • واتفقوا كلهم على أن يعقدوا اليوم اجتماعا عظيما ويقرروا الخطة التى يسيرون عليها •

★★★

وكتب الينا آخر يشرح بعض ما تنويه الشبيبة العربية ولا سيما ضباط العرب اذا ــ لا سمح الله ــ أصاب عزيز بك المصرى أذى أو نفى الى سينوب كما نفى غيره من الضباط • فاغفلنا نشر ما شرحه لنا لأنه مما نكره نشره ولا نحب ذكره وقال فى ختام كتابه « ونحن فى أشد الاستياء هنا من هذه الحادثة التى كدرت كأس الصفاء بعدما هنا بعضنا بعضا بزوال أكدارها أثر الخطبة العظيمة التى خطبها طلعت بك فى المنتدى الأدبى فكانت بلسما لجروحنا وأوشكت ان تزيل كل جفاء بيننا وبين الترك اخواننا • فاذا كان الترك يقصدون ان ينفذوا بالفعل ما أكده لنا طلعت بك بالقول فليبادروا بالافراج عن عزيز بك المصرى والاعتذار عما أصابه ، لأن عزيز بك ليس من الذين يتعرضون للاتحاديين فى سياستهم ولا دخل له فى شئونهم ولا ضلع له مع خصومهم » •

★★★

واطلعنا عربى سورى فى هذه العاصمة على كتاب جاءه من صديق له فى الآستانة يشرح فيه حادثة عزيز بك المصرى بمعنى ما ذكر فى الرسائل السابقة ثم يقول : فى هذا الاسبوع (الماضى) تجتمع الهيئة العربية المحالفة للاتحاد والترقى فى المركز العمومى ويتذاكر رجالهـــا والاتحاديون ويتداولون فى مسائل الانتخاب لمجلس المبعوثان ويسمون من يريدون ، وقد علمت أنهم يقصدون ان يكون المنتخبون هم الآتية أسماؤهم (بلا ألقاب) رشدى الشمعة وبديع المؤيد وشكرى الأيوبى وأسعد حيدر عن الشام •• وسامى الصلح وعبد الكريم الخليل عن بيروت •• وسعد

الدين دمشقية وشكيب أرسلان عن حوران ٠٠ وتوفيق الجمالي عن الكرك ٠٠ ووصفي الأتاسي وعبد القادر الحصني عن حمص وحماه ٠

★★★

هذا وقد علمنا أنه ورد تلغراف من الصدارة العظمى على القوميسير السامي العثماني يقال فيه : انه وان يكن قد بدا للديوان العرفي العسكري توقيف عزيز بك على فللآن لم يصدر منه قرار بشأنه ٠ فاختلف الناس في مفاد هذا التلغراف ، بعضهم رأى أنه جواب بسيط لا يفيد شيئا جديدا مما كان ينتظر وروده بعد تلغراف القوميسيرية السامية الذي شرحت فيه ولابد حقيقة الحالة في هذا العاصمة وفي سائر أنحاء القطر ٠ وبعضهم رأى أنه يفيد وجوب الاطمئنان وتسكين روع أقرباء عزيز بك وأصدقائه عليه لأنه ما دام الديوان العرفي العسكري لم يصدر قرارا بشأنه بعد مضى أيام على توقيفه فتهمته ليست من التهم الكبرى التي تقتضى مزيد من الاهتمام في الحال أو التي تقلق البال ، والذين يؤولون عبارة الصدر الأعظم هذا التأويل الأخير ، هم العارفون للغة التركية وأساليبها الخصوصية ، نفسى ان تصبح هذه الأقوال وتحقق الآمال لتسكن الخواطر ويستريح العثمانيون من سماع القيل والقال ٠

★★★

وفي ٢٤ فبراير ١٩١٤ نشر المقطم تحت عنوان : عزيز بك المصري يقول : « ورد أول أمس تلغراف من السفارة البريطانية بالآستانة على الوكالة البريطانية هنا ، أن عزيز بك المصري بطل برقة بخير وعافية وأنه حاصل على وسائط الراحة والعناية بشأنه في المحل الذي هو موقف فيه ٠٠٠ وقد توالت علينا التلغرافات من أنحاء القطر المصري وكلها تعرب عن رغبة مرسليها في اذاعة مقال عزيز بك وطلب معاملته بالحسنى والافراج عنه منها تلغراف من الجيزة بامضاء « لفيف من الوطنيين » قالوا فيه أنهم كتبوا الى ولاة الأمور طالبين الافراج عنه ٠ وتلغراف من المواصلة قال مرسلوه أنهم اجتمعوا وقرروا ابلاغ استيائهم الى ولاة الأمور من جراء القبض على عزيز بك ٠

وتلغراف ثالث من واقد أمضاه أربعون من أهل واقد وكفر بولين وزاوية البحر بمركز كوم حمادة وقالوا فيه انهم يرفعون أصواتهم الى رجال الحكومة العثمانية ملتمسين الافراج العاجل عن البطل عزيز بك المصري وذاكرين ما له من الخدمة العظيمة للدولة العلية والاسلام ولاسيما في الحرب الايطالية ببنغازي ٠

★★★

وتلغراف آخر من بولاق الدكرور قال مرسله : انهم اجتمعوا فأعربوا عن أسفهم لعدم الافـراج عن عزيز بك فأرسـلوا احتجاجا الى الصدارة العظمى ٠

وأتانا فى تلغراف من شبرا بمصر ان جمهورا من سكانها اجتمعوا وقرروا رفع الاحتجاج الى الباب العالى وأتانا فى تلغراف من امبابة ان جمهورا اجتمع فيها واتفقوا على ان يبلغوا استياءهم الى ولاة الأمور ٠

***

وأرســل مكاتب التيمس من القـــاهرة تلغرافا الى جريدته فى ١٤ فبراير الجارى قال فيه : ان الاستياء من عمل الحكومة العثمانية بالقائها القبض على عزيز بك المصرى بلغ أشده فى جميع الدوائر وان الدوائر المعروفة بصبغتها التركية مستاءة أيضا من هذه الأمر وغير موافقة عليه ، وان الصحف الوطنية حتى الصحف التى انتقدت عزيز بك لما انسحب من بنغازى اشتركت فى هذا الاستياء العام ٠ أما القبض على عزيز بك فيعزى الى ما بينه وبين أنور باشا من المنافسة والضغائن التى اشتهر أمرها وحده دون سواه ٠ والناس يعدون هذه المعاملة التى عومل بها هذا الضابط المصرى الذى اشتهر فى الحرب الطرابلسية وحق لمصر أن تباهى به وبأعماله بعيدة عن حسن السياسة والمجاملة بعدا شاسعا » ٠ وعلقت التيمس على هذا التلغراف تعليقا لطيفا أطرت فيه عزيز بك على أفعاله فى بنغازى وما أظهره فيها من البسالة والكفاءة والمهارة فى تنظيم صفوف العرب ومقاومتهم للايطاليين ٠

***

وقد أرسل الينا حضرة مندوبنا الخصوصى فى الآستانة العليا برسالة طويلة عن سجن عزيز بك المصرى بطل برقة نذكر منها اليوم ما يأتى : « ان تأثير المعاملة التى عومل بها عزيز بك بطل برقة فى البلاد العربية اضطر حكومة الآستانة الى التفكير فى عاقبة الأمر ، فوعد طلعت بك أبناء العرب هنا باخلاء سبيله فى القريب العاجل ، وأرسل اليه أنور باشـــا ناظر الحربية تلغرافا طويلا من أدرنة أظهر فيه استياءه من سجنه وأخبره بأنه أصدر أمره الى رئاسة المجلس العسكرى باخلاء سبيله ٠٠ هذا ولما وصل أنور باشا الى الآستانة أرسل عمه خليل باشا الى عزيز بك لاقرائه سلامه وأخباره برغبته فى مقابلة طويلة تزيل سوء التفاهم من بينهما وبترضيته عن اساءة الحكومة اليه ٠ قال مندوبنا : وقد علمت أن عزيز بك يصر على ان يحاكم ليس على مسألة بنغازى فقط بل على جميع ما فعل منذ انتظم فى سلك الجيش العثمانى الى اليوم ولكنه يشترط أن يضاف

الى المجلس العسكرى لجنة من أركان الحرب وكبار الأمراء العسكريين الخبراء فى الشئون الحربية ولا يعلم ما يكون جواب نظارة الحربية على طلبه هذا ٠

★★★

وتحت عنوان : « ما وراء الستار بطل برقة فى محكمة الرأى العام » ، نشر المقطم لمندوبه الخاص فى الآستانة (٢٦ فبراير ١٩١٤) ، وكان قد كتب بتاريخ ١٧ فبراير ١٩١٤ ما يلى :

★★★

« لم يعلم بعد السبب الذى من أجله وقف عزيز بك المصرى بطل برقة ولا عرفت التهمة التى ألقيت عليه ، أتحاكمه نظارة الحربية أم تطلق سراحه معتذرة عن اساءتها اليه بما عاملته به مما لا يستحقه ولا يليـق بمقامه وجليل فعاله ٠ فالآراء متضاربة فى هذا الشأن والحقيقة لا تزال طى الكتمان ٠ فمن قائل ان بعض خصومه من ذوى الكلمة والنفوذ رغبوا فى تحقيره واذلاله فوصموه بتهم ما أنزل الله بهـا من سـلطان ٠ ومن قائل ان نظارة الحربية لا تقصد الا استجوابه عن أمور يعلمها ومهما يكن الأمر فان أبناء العرب فى الآستانة خاصة وفى البلاد العربية عامة أظهروا مزيد الاستياء والكدر مما عومل به وحذروا الحكومة من عاقبة الأمر حتى ان طلعت بك وعد باخلاء سبيله وأنور باشا أرسل تلغرافا اليه من أدرنة معتـــذرا عما كان ، ولكن عزيز بك أبت عليـه عزة نفســـه الا أن يحاكم ليعلم الملأ العثمانى كافة أنه برىء مما يعزونه اليه وان خدمته فى الجيش العثمانى لا شائبة تشوبها ولا غبار عليها ٠ ولا يعلم ما يكون جواب نظارة الحربية عن طلبه هذا لا سيما وأنه اشترط أن تضاف الى المجلس العسكرى الذى يتولى محاكمته ، لجنـة من أركان الحرب وكبـار الأمراء العسكريين الخبراء بالشئون الحربية ٠

هذا ولما كان بطل برقة يطلب ان يحاكم مشترطا تلك اللجنة الى المجلس العسكرى لم أجد بدا من ذكر حقائق يهم المصريين والعثمانيين ان يقفوا عليها ليصدروا حكمهم على بطل بنغازى الشهير على أن تبتدىء محاكمته السرية فى مجلس عسكرى لا ترتاب فى عدله وانصافه ٠

★★★

وفى ٧ مارس ١٩١٤ ـ كما قالت الأهرام ـ حدد المجلس العرفى يومي الخميس والاثنين من كل أسبوع لمقابلة عزيز بك المصرى بعد أن

كان قد منع الزوار من مقابلته ، على أن الأوامر صدرت بكتابة أسماء جميع الزوار ، وعناوينهم ، ومحلات اقامتهم ، وغير ذلك من البيانات • أما توارد الزوار في ذلك السجن فحدث عنه ـ كما تقول الأهرام ـ ولا حرج لأنه لم يقعد عربى واحد فى الآستانة عن زيارته وتكرار الزيارة مرارا فى الأسبوع •

***

وتحت عنوان : مصير عزيز بك المصري ، تنشر الأهرام (١١ مارس ١٩١٤) ما يلى : « ان الضابط الباسل عزيز بك المصرى ذو مكانة فى قلوب جميع العثمانيين لما عرفوا عنه من البسالة والاقدام فى خدمة دولته وأمته فليس ولا سيما العرب لأنهم يفخرون بأنه عربى ولا سيما المصريين لأنه مصرى ممتاز بالشجاعة والبسالة والاقدام •

ولكن هذا الاعجاب به وببسالته ما كان يحمل الجمهور على طلب الافراج عنه بعد حبسه لو لم يحط سجنه والقبض عليه بدسائس ضده عرفت واشتهر أمرها بين الخاصة فى القطر المصرى قبل ان تلفظ كلمة واحدة ضده فى الآستانة بل ان الحكومة السلطانية كانت تعرض عليه والدسائس تدس فى مصر أعلى المناصب وأرقى المهام كقيادة حامية البصرة •

***

فلما انعكس الأمر فجأة وتحولت الدولة من توليته المناصب الى زجه فى السجن أخذتهم الدهشة وتولتهم الحيرة ولم يرد من الآستانة نبأ جلى عن التهمة الموجهة اليه بل ظلوا حتى اليوم لا يوجهون اليه تهمة وهذا هو الخطأ الأكبر فى معاملته لأنه كان يجب أن يقبض عليه بتهمة وان تعلن حالا سريعا تلك التهمة ليقف الجمهور على الحقيقة ولا تأخذ رجال الدولة الظنون ولا تحوم حولهم الشبهات كما قالت جريدة التيمس ونحن العثمانيين وحكومتنا أيضا بحاجة الى الصراحة بالعمل والقول الى اظهار الحقائق والحقوق حتى يقتنع العالم بأن نريد عدلا ونريد حقا ونريد انصافا ونخدم قانونا • واذا قلنا نحن أحرار فى ديارنا نفعل ما نشاء كنا على خطأ لأننا فى عصر تضامنت فيه الانسانية كلها وهـذه حادثة بايليس الاسرائيلى فى « كييف » من أعمال روسيا واتهامه بأنه قتل فتى مسيحيا ، أقامت العالم وأقعدته على دولة الروس ، فكلمة ماذا يعنى الناس منا لا تقال ولا يقبلها الرأى العام فى بلد من بلاد الله فى هذا الأوان •

وهناك أمران آخران كان يجب اعتبارهما وهما خاطر للأمة التى ينتسب اليها عزيز بك للدولة من الأمم العثمانية أى الأمة المصرية ذات

الفضل والحب الخالص الصادق للدولة العلية ، وخدمة عزيز بك للدولة فى مقدونيا واليمن وبنى غازى خدمة لا يستطيع أحد انكارها وهى أكبر شفيع لأكبر مجرم ، فكيف ببطل نعرف فضله ولم نعرف حتى هذه الساعة ذنبه •

★★★

ولقد حبسنا القلم عن الكلام فى هذه القضية لاعتقادنا بأى محاكمة المتهم واجبة وبان الشفاعة التى تقدمت من علماء مصر وأمرائها كانت كافية ولكن الآن نقول كلمتنا ليقلع الذين يواصلون النفخ بالنار فى هذه الديار فانهم اذا استطاعوا بعزيز بك وبأن يرضوا نزوات رؤوسهم من اتهامه ومحاكمته والحكم عليه فانهم يؤلمون نفوسا ارضاؤها خير للدولة من ارضائهم ورضاهم أفضل لها من سخطهم وثقتها أنفع من مجاراتهم فليكفوا عن اللعب بمصالح الدولة وبسمعتها وليدعوا رجال الدولة يدبرون أمورها ولا يشغلوهم بمثل هذه الدسائس الصبيانية فان أيامنا معدودة علينا فحرام بل ألف حرام وأشد جناية أن يضيع رجال الدولة لحظة فى الانشغال بهم وبمجازاتهم بالاصغاء الى أصواتهم •

★★★

وكان الأستاذ اسماعيل بك لبيب صهر الزعيم محمد فريد وخطيب الحركة الوطنية المصرية المعروف موجودا بالآستانة وقت القاء القبض على عزيز على المصرى بك ، فلما عاد فى ١١ مارس ١٩١٤ جرى بين جريدة الشعب وبينه الحديث التالى ، الذى نشرته الشعب فى ١٢ مارس ١٩١٤ :

سألناه : ما الذى تعلمونه عن عزيز بك المصرى ؟

فأجابنا : الذى أعلمه هو أن الحكومة العثمانية القت القبض عليه وأودعته السجن وقد مضى عليه نحو الثلاثين يوما ولم نعلم لغاية مبارحتى الآستانة التهمة الموجهة اليه رسميا غير ان الاشاعات كانت كثيرة بهذا الشأن بالخارج وفى كل يوم كنا نسمع نبأ جديدا •

سألناه : ما هى هذه التهم التى تسمعون عنها كل يوم ؟

فأجابنا : سمعنا يوما أنه متهم بقتل أشخاص من العرب نسب اليهم اليهم أنهم كانوا يتجسسون فى برقة • وقال البعض : ان تهمته تنحصر فى أنه خالف أوامر الحكومة عندما أرسلت اليه تطلب منه ترك ميدان القتال والعودة الى الآستانة ، فلم يفعل وبعث اليها يقول انه مستقيل من الجيش •

وأذاع آخرون أنه متهم باختلاس نقود من الأموال التى كانت ترسل الى طرابلس ٠٠ وقيل بل أنه كان متهما بالتآمر مع بعض الضباط لاسقاط الحكومة الحاضرة ٠٠ وأشاع فريق بأنه عضو فى عدة جمعيات سرية ٠

***

وما سمعناه ان ايطاليا اشترطت فى مقابل تسليم الجزر الخاضعة لتركيا فى البحر الأبيض المتوسط للدولة محاكمة عزيز بك وتجريده انتقاما منه بسبب ما كبدها من الخسائر فى الحرب الطرابلسية ٠

على ان أهم ما أسيع فى هذا الصدد ـ وأظن أنه بيت القصيد ـ هو أن عزيز بك متهم بأنه يعمل للمسألة العربية الأمر الذى اضطر الحكومة الى القاء القبض عليه حتى لا يغادر الآستانة لأن أعداءه حذروا الحكومة من ان يفلت من يدها وصوروا لها أنه اذا ترك حرا أصبح ادريسيا آخر بل أشد وطأة وخطرا ٠

فسألناه : هل الرأى العام فى الآستانة يصدق هذه الاشاعات ويعتقد بادانة عزيز بك ؟

فأجابنا : كلا فان الرأى العام هناك سواء كان فى الجيش أو خارجا عنه يعتقد كل الاعتقاد فى براءته من تلك التهم التى يلصقها أعداؤه للحط من كرامته والكل مجمع على تقدير كفاءته وتفوقه وأمانته وحرصه على تأدية واجباته ٠

***

تأثير الوشايات ٠٠ ثم قال ان الكثيرين يؤكدون أن السبب الحقيقى لهذا الحادث هو ان يدا أثيمة دبرته بسعيها وتهويلاتها وصورت للحكومة ان هذا الشخص خطر لا يجوز تركه حرا ، وقد ظن أولئك الساعون أنهم بذلك يتظاهرون بتقديم خدمة كبرى لرجال الدولة يستحقون عليها الحظوة عندهم ، ولكن فاتهم ان الرأى العام قد حكم على أعمالهم هذه وهو يرجو من الحكومة أن تبعد هذا النفر المتوقد غيرة كاذبة لأنهم كانوا سببا فى تنفير بعض محبى الدولة وابعادهم عنها ابتغاء أن يخلو الجو لهم وينالوا ما يبتغون من الوظائف ذات المرتبات الضخمة وغيرها ٠

فسألناه : لم لم تسأله الحكومة كل هذه المدة ؟

فأجابنا : ان أعداء عزيز بك الذين ابتدأت حملاتهم ضده عقب عودته الى الآستانة انتهزوا فرصة تقديم استقالته وأخذوا يكبرون الأمر ويوهمون

رجال الحكومة أنه يريد بالاستقالة هذه مغادرة الآستانة لأجل ان يكون على رأس حركة هائلة ضد الحكومة • وقد صادفت هذه الدسائس تصديقا من رجال الدولة فألقوا القبض عليه فجأة ثم أخذوا من ذلك التاريخ يبحثون فى أعماله القديمة والحديثة •

★★★

فسألناه : هل يعتقد الرأى العام فى الآستانة ان الحكومة ستوقع عقابا على عزيز بك ؟

فأجابنا : ان الرأى العام هناك يعتقد ان الحكومة بحثت فى أعمال عزيز الماضية فلم تجد ما يدعو لمحاكمته •

★★★

ولكن الدسائس التى شرحنها لكم جعلت رجال الدولة يتخوفون من عزيز بك خصوصا وان أعداءه صوروه للحكومة تصويرا مرعبا ولذلك أشيع أنه ربما تقرر ابعاده الى احدى مدن الأناضول اتقاء لخطره الذى قال عنه من سعى فى حقه ، غير ان هذه الاشاعة لم يصدقها أحد رجال الحكومة الحاضرة مشهورون بالحكمة والعدالة ولابد ان يكون قد تبين لهم حقيقة ما انطوت عليه صدور أعداء عزيز ، واذا كانت الحكومة قد أعارت كلام أولئك السامعين التفاتا فى أول الأمر فلا يحمل هذا طبعا الا على أنها رأت أن تحتاط للأمر فى ابانه خوفا من أن يكون ما نقل اليها صحيحا ، أما الآن وقد ظهر الحق فالأمل كبير فى خروج عزيز بك من هذه المسألة عالى الرأس ولا سيما انه لا يوجد بين رجال الدولة من يريد بعزيز سوءا أو من كان يفكر فى اساءته ولكن أولئك الواشين ، لغاية فى نفوسهم ، وحبل الوشاية قصير كما يقولون ، لذلك أتوقع قرب انتهاء المسألة بسلام •

★★★

وتستكتب جريدة الشعب الدكتور حافظ عفيفى مقالا عن عزيز على المصرى تنشره فى ٢٣ مارس ١٩١٤ وذلك باعتبار حافظ عفيفى من أقرب أصدقاء عزيز على المصرى الى قلبه ، ولأنه كان واحدا من أبرز أطباء البعثة المصرية الطبية التى كانت تعمل فى برقة عندما كان عزيز المصرى يحارب فيها •

وقد استهل د• حافظ عفيفى مقاله بموجز عن تاريخ عزيز المصرى ثم توقف عند ذهابه الى طرابلس قائلا : ما كادت تعلن حرب طرابلس حتى جاء عزيز على المصرى متخفيا من اليمن الى مصر وذهب منها الى

بنغازى الذى كان يسبقه اليها بأيام صديقه وزميله البطل أنور فتقابلا فى « درنة » فاتفقا ان يبقى أنور فيها وان يذهب عزيز الى بنى غازى ، واختار أنور البقاء فى درنة لتوسطها بين المراكز الحربية ، واختار عزيز بنى غازى وهى أصعب المواقع الحربيــة لطبيعة هــذه المنطقــة ولوجــود أقوى جيوش الطليـــان أمامها لأنها عاصمة برقة ولأن التوغل فيهــا الى الداخل أسهل من غيرها ، اختار عزيز هذا الموقع لأنه يثق فى كفاءته كثيرا وفى ميزاته العسكرية أيضا ، واعتقاد أنور فى كفاءة عزيز الحربية ودرايته وشجاعته لم يكتمه على أحد وأذكر ان عزيزا تضايق مرة لعدم حصوله على بعض طلباته فقدم على العودة الى الآستانة ، فقام وفد فى الحال مؤلف من سيدى عمران شيخ زاوية المرج وسيدى محمد على شيخ زاوية الخضراء من بنى غازى • وذهبا الى درنة لمقابلة أنور ليخبراه بعزم عزيز فقال لهم أنور : انكم اذا تهاونتم وتركتم عزيزا يرجع فانه لا يجد ضابطا فى كفاءة وشجاعة عزيز لتولى قيادة هذا الموقع الخطير ، فعاد الوفد وبقى عزيز قائدا لجيشه ببنى غازى حتى أعلن الصلح وعاد أنور وكان جيش العرب فى طول هذه المدة مرابطا على مرأى من مدينة بنى غازى المحتلة بالطليان • وعلى مرأى من ساحل البحر ، ولم يتمكن الطليان رغما من المحاولات الكثيرة أن يتقدموا من هذه الجبهة خطوة واحدة الى الأمام مما ألهج ألسنة الجرائد الافرنكية التى أرسلت لها مكاتبين الى تلك الجهات بالثناء الزائد على عزيز بك وما كتبته جريدة الالستراسيون الفرنسية ليس بعيدا عن الأذهان •

★★★

وضعت الحرب الرسمية أوزارها وعاد أنور الى الآستانة للاشتراك فى حرب البلقان بعدما ساءت الحالة هناك ولو عاد عزيز لما انتقده أحد ولكان عمله العظيم فى بنى غازى مضافا الى عمله فى اليمن وفى حركة الدستور وفى الرد على من أحسن ما يفتخر به ضابط باسل وجندى شجاع وسياسى ماهر ، الا ان عزيزا واسع الأمل يلتهب وطنية وحماسا ونشاطا فانه صعب عليه أن يترك هؤلاء العرب الشجعان لأعدائهم الطليان فصمم على البقــاء معهم مدافعا ما استطاع الى ذلك سبيلا •

انقطعت عنه أموال الدولة ولم يرسل له من أموال الاعانات فى سنة مضاها هناك بعد الصلح الا نصف ما كان يصرف فى شهر واحد قبل الصلـح •

وازدادت آمال الطليان فى قرب فشله لقلة ماله فازدادت همتهم فى

صرف الأموال واطلاق الجواسيس وانتهى الأمر بأن فقد عزيز تعضيد السنوسى رئيس المجاهدين لأسباب طويلة ٠

★★★

وفي نظرى أن أهم أسباب الخلاف بين عزيز والسيد السنوسى ، ترجع الى أن السيد أعطى عزيزا بخطاب منه اظهار الثقة به ورضائه عنه حقا فى فصل وتعيين مشايخ الزوايا واستعمل عزيز هذا الحق فى فصل شيخ زاوية دفنة وشيخ زاوية الطلميته لأسباب خطيرة وجدهـا مزرية بمركزهما ، فاستاء هذان الشيخان أشد الاستياء وأخذا يدبران الحركات ضده ، واستاء معهما بعض مشايخ الزوايا الذين كانت لهم سلطة غير محدودة مع أنور ٠

استاء مشايخ من هذه السلطة الكبيرة التى منحها السيد السنوسى لعزيز الذى أصبح فى امكانه أن يعزلهم ويولى بدلهم بعد ان كانوا هم أصحاب الكلمة والنفوذ على جميع الضباط وخشوا عاقبة هذه السلطة فأخذ بعضهم يعمل سرا وجهرا فى دس الدسائس لعزيز وأخذوا يتداخلون فى أعماله الحربية كان يمنع أحدهم وهو شيخ الزاوية البيضاء عزيزا من ان يرسل مدفعا من مدافع درنة الى طبروق كل هذا أحداثا للمشاكل مع عزيز ٠

★★★

وأخيرا نجحوا فى ايقاع النفور بين السيد وعزيز مما كان سببا فى اعتقاد عزيز ان استمراره فى العمل غير ممكن فعاد الى مصر ومنهـا الى الآستانة حاملا رايات الفخر وشارات الانتصارات ٠

كيف لا ٠٠ وهو الذى حمل الطليان تلك الخسائر الفادحة فى واقعتى ١٢ مارس ١٩١٢ فى بنى غازى و ١٧ مايو ١٩١٣ فى درنة تلك الوقائع التى قامت لها قيامة الطليان فى مجلس نوابهم ٠

عاد عزيز بك الى مصر بعد سياحة شهر على ظهور الجمال فسبقت الى جرائد مصر وشايات بعض الضباط الذين كانوا تحت قيادته ولم يقبل ارضاء أطماعهم ودسائس بعض أهالى مدينة بنى غازى الذين سلموا مدينتهم للطليان بلا حرب ولا قتال وصاروا بعد تسليمها أكثر من الطليان سعيا فى نهاية الحرب فى مصلحة ايطاليا سبقت عزيز الى مصر دسائس هؤلاء وأكاذيب أولئك وقام بعض مشايخ الزوايا الذين عزلهم عزيز يكتبون هم وانصارهم أيضا الى بعض الجرائد فى مصر كتابات كلها كذب وبهتان ووشوا فى حقه للسيد السنوسى الجليل ونقلوا اليه أنباء كاذبة عليه ٠

ولقد رأيت مرة خطابا الى أحد أعيان مصر بامضاء السيد هلال أصغر أشقاء السيد السنوسى يشكو هو أيضا من عزيز فوجدت الجواب مكتوبا بلغة وبخط أقرب الى التركية منه الى العربية ففيها (فضليت) و (حضرت) و (بلدت) و (شجاعت) و (شكايت) ٠٠ الخ فقلت بعد ذلك انه كتب بقلم ضابط يدعى حسين الكردى من أهالى مدينة بنى غازى الذين تربوا فى مدرسة العشائر بالآستانة وقد كان ثبت على هذا الضابط أنه بينه وبين الطليان مخابرة لوجود عائلته وأقاربه فى مدينة بنى غازى فسجنه عزيز ولم يخرج من السجن الا بعد رجوعه ٠

هذا هو الكاتب لأغلب هذه الخطابات التى نشرتها الجرائد المصرية ٠

لم ير عزيز فائدة من تكذيب كل ما قيل عنه واختلق عليه من الأكاذيب لأنه ضابط السيف له اقناعه ، وحسنا فعل الا أنه استحسن أن يسأل حكومة الآستانة بواسطة القومسيرية اذ كانت ترغب فى اعادته الى خدمته فى الجيش فورد اليه الرد بنفس الواسطة بأن الحكومة العثمانية تقبله بكل ارتياح لأن جيشها فى احتياج الى أمثاله من الضباط الأكفاء ٠

★★★

وهكذا ذهب عزيز والتحق بجيشه فقابله عزت باشا ناظر الحربية السابق معانقا وشاكرا له خدماته الجليلة فى بنى غازى بعد ان أرسل وفدا له من أكابر الضباط لمقابلته وتحيته عند نزوله من المركب وطلب له النيشان المجيدى الثانى ورتبة القائمقام ٠

ثم استقال عزت باشا وتولى نظارة الحربية بعده أنور باشا صديق عزيز فقام بعمل تنسيقات أهمها الاستغناء لعنصر الشباب عن العنصر الشيخ وعين عزيز قومندانا لفرقة فى ولاية قونيه فوجد عزيز ان هذه الوظيفة لا تناسب فى نظره الخدمات التى أداها فاستقال واراد ان يختم بذلك حياته فى الجيش العثمانى العامل مع تعهده بالرجوع الى هذه الخدمة الخدمة اذا اشتبكت الدولة فى أية حرب ٠

الدكتور/حافظ عفيفى

ويمضى د٠ حافظ عفيفى فى الكتابة عن عزيز على المصرى — فى الشعب ١٤ مارس ١٩١٤ ويتساءل د٠ حافظ عفيفى فى بداية مقاله : بماذا تسمون عزيزا ؟ ثم يتولى الاجابة على تساؤله بقوله : مضى على عزيز نحو الأربعين يوما وهو مسجون أو (موقوف) كما يقولون وليس فى استطاعة أحد ان يعرف حقيقة التهم الموجهة اليه ٠

فلم تنشر الحكومة كلمة واحدة عن حقيقة هذه التهم وكل ما يروى أخبار يقولون أنها غير رسمية • أما التهم (غير الرسمية) التى يروجونها اليه فهى كثيرة ، بعضها خاص بطرابلس ، وبعضها خاص على ما يظهر بعلاقته مع أنور باشا والاتحاديين ، أما عن طرابلس فيقولون :

١ ـ انه أتى منها بغير ترخيص •

٢ ـ وأنه استعمل القسوة مع العرب •

٣ ـ وأنه أساء التصرف فى استعمال النقود المرسلة اليه •

فأما عن رجوعه بدون ترخيص •• فلأنه بقى فى طرابلس بعد الصلح بدون ترخيص أيضا أى بمجرد رغبته ولأنه طلب اليه المرحوم شوكت باشا الصدر الأعظم السابق بتلغراف رسمى العودة بأسرع ما يمكن لأن الأحوال السياسية تستدعى ذلك • فرد عليه عزيز بأنه مستقيل من الجيش العثمانى •

وأما عن استعماله القسوة عند رجوعه •• لأن بعض العرب هجمت عليه وعلى جنوده وهو راجع وبدأوا باطلاق الرصاص عليه وعلى جماعته ولم يأمر جنوده باطلاق النار عليهم الا بعد أن قتلوا ضابطا وأبوا السكوت بعد ان أرسل اليهم مندوبا من قبله لاقناعهم بوجوب ألا يطلقوا رصاصا وقد جرح من جنوده ٦ جنود عولجوا فى مستشفى الاسكندرية وسيثبت التحقيق صحة ذلك •

★★★

وأما عن سوء استعمال النقود •• فانى أعرف أن المبالغ التى وصلت اليه من لجنة الاعانة بمصر هى ثمانية عشر ألف جنيه ويمكنه ان يؤدى عنها حسابا للجنة الاعانة المصرية وقد صرف هذا المبلغ من سنة تقريبا وكان ينقد كل جندى راجل من العرب جنيها ، وكل فارس ثلاثة جنيهات شهريا ، وكان يعطى من هذا المبلغ مرتبات الضباط والجنود النظاميين وغذائهم ومصاريف الموظفين الملكيين أيضا ، وسيثبت ذلك التحقيق مع العلم بأنه كان يصرف شهريا قبل الصلح على هذه المنطقة ٢٥ ألف جنيه •

ان عزيزا عاد من بنى غازى فى نهاية شهر يوليو ١٩١٣ فمضى على ذلك الآن ثمانية شهور ولست أفهم لماذا ترك للآن • بل لماذا عين أخيرا قومندانا لفرقة • ثم لماذا اتهم بهذه التهم عندما استقال من الجيش وصار حرا •

★★★

هذا ما يصعب علي وعلى الكثيرين فهمه . أما تهمة عداوته لأنور باشا وللاتحاديين فهي أوهى من التهم الأولى . فعزيز لم يكن في وقت من الأوقات عدوا لأنور باشا وهو يعتقد أنه صديقه وكثيرا ما أطرى أمامي صفاته النادرة وكفاءته الكبيرة . وكذلك أنور باشا يعتقد أن عزيزا على جانب عظيم من الكفاءة والشجاعة وكثيرا ما تكاتبا في بني غازي بخطابات اطلعت عليها وكلها تشف عن صداقة طيبة واخلاص متبادل . وكل ما أشيع وشاع عن علاقتهما التي توترت لدرجة ان عزيزا قرر الزحف على أنور باشا الذي طلب اليه ان يزحف بجنوده على الطليان لا عليه ، فهي ترهات وأباطيل وسخافات لا يصدقها الا عقل قائليها وناشريها .

★★★

حقيقة حصل خلاف بل حصلت خلافات ولكنها لم تكن لتتعدى مناقشة تليفونية حادة أو تلغرافا خلوا من المجاملة أو خطاب عتاب ، وكان دائما بفضل حكمة أنور واخلاص عزيز ينتهي كل خلاف ، ولقد سعى الكثير من المفسدين في بذر بذور الشقاق بينهما فلم يفلحوا وعاد أنور باشا وهو أتم صفاء مع عزيز .

★★★

ومن يقرأ تاريخ عزيز في المركب الدستورية لا يشك لحظة في أنه اتحادي صميم فان عاب عليهم أمرا أو عاتبهم في شيء فليس معنى ذلك خروجا عنهم أو عداوة لهم . وان تاريخه وأعماله وتصريحاته تدل على أنه صديقهم وأنه منهم وأنه يعمل معهم ولمصلحتهم ولمصلحة الدولة والاسلام .

أنا لست عدوا للاتحاديين بل اعتبر نفسي من أصدق أصدقائهم ، وأعرف جيدا الصفات الممتازة والكفاءات النادرة التي يتحلى بها أنور ، وأقدر أكثر من أي انسان الخدم الجليلة والأعمال العظيمة التي أداها ولاسيما في برقة .

أعرف فيه أنه رزين حكيم ، لذلك أعتقد اعتقادا راسخا أنهم لو تركوا مسألة عزيز لأنور باشا بدون أي تأثير خارجي طلت المسألة على أحسن شكل وخرج عزيز على الرأس .

★★★

أعتقد ان أنور باشا لا يشك في شرف عزيز واخلاصه للدولة وحبه لها ، أعتقد أنه يعرف جيدا أننا نطالب بالعدل لعزيز لاعتقادنا أن ذلك

فى مصلحة الدولة أولا ولثقتنا ببراءة عزيز ثانيا · نحن لا نطلب لعزيزا أن يطلق سراحه الآن بدون محاكمة بعد أن الصقت به (بطريقة غير رسمية) تلك التهم المزرية بشرفه بل نحن نطلب محاكمته وهذا ما يطلب هو أيضا لتبيين براءته أمام الملأ ويظهر كذب التهم الموجهة اليه ويقيننا أن هذه المحاكمة تسير سيرها الطبيعى فيجرى العدل فيها مجراه ·

انهم يخشون أن يخرج عزيز بعد هذه الحادثة عدوا للحكومة الحالية أو للدولة ويصرحون بأنه ربما صار ادريسيا آخر ·

★★★

خطأ يتوهمون فان من يعرف عزيزا لا يمكنه أن يصدق عنه خروجا على بلاده أو أى موقف فيه شبهة أو شبه ضرر على الدولة من الخارج أو من الداخل ·· من يعرف كم بكى وكنت معه بالسلوم يوم جاءنا تلغراف مشئوم من مصر يخبرنا بسقوط أدرنة ، وكم كان يتألم عندما علم ان الحكومة الكاملية منعت المرحوم شوكت باشا من تولى قيادة أى جيش فى حرب البلقان يعتقد أنه من أشد المخلصين لدولته · ان عزيزا سليم النية طاهر القلب لا يحمل حقدا أو ضغينة لأحد · وأنا أختم كلامى بتكرار طلب العدل ففى هذا القول مصلحة الدولة ومصلحة الحكومة الحالية ومصلحة المسلمين ومصلحة العثمانيين ومصلحة المصريين ·

الدكتور/حافظ عفيفى

★★★

وفى عدد ـ ٢٤ مارس ١٩١٤ ـ الذى كان يحمل المقال الثانى عن عزيز على المصرى بقلم صديقه د· حافظ عفيفى · ينشر الشعب كلمة بعنوان « نحن ومسألة عزيز » جاء فيها :

« يرى القراء فى غير هذا المكان خلاصة ما دار فى الاجتماع الذى أقيم لأجل عزيز بك المصرى وهم يعلمون خطتنا فى هذه المسألة من يوم أن ظهرت فى عالم الوجود الى الآن اذ أننا نادينا ولا نزال ننادى بالدفاع عن عزيز وبضرورة انصافه ولكن هذا النداء كما قلنا مرارا يجب أن يكون فى دائرته المعقولة التى تقتضيها علاقتنا مع الدولة العلية ورابطتنا مع الخلافة الاسلامية ، ولقد دفعتنا هذه الخطة الى انتقاد الكتاب الذين اتخذوا هذه المسألة وسيلة لترويج أغراضهم السياسية ·

على أننا لم نراع فى اتباع هذه الخطة علاقتنا مع الدولة وحدها وانما راعينا أيضا مصلحة عزيز اذ أن مسألته لا تحل بالطعن فى الدولة

والتشهير برجالها والتفريق بين شقيقتين عاشتا وستعيشان ان شاء الله في وئام ووفاق ٠

★★★

نقول هذه الكلمة الآن بمناسبة ما اقترح في اجتماع أمس من تأليف لجنة وجدنا اسمنا بين أعضائها وتكون مهمة هـذه اللجنة طلب وساطة الجناب العالي والقوميسيرية العثمانية وقناصل الدول المتحابة مع الدولة العلية ٠ ولو كنا في هذا الاجتماع لرددنا على الجزء الأخير من الاقتراح اذ لا نفهم مطلقا ان مسألة داخلية أو بالحرى عائلية بيننا وبين دولتنا العلية توسط فيها الدول المتحابة أو قناصل هذه الدول ٠٠ !!

★★★

نحن نشكو كل يوم من تداخل الدول الأوروبية في شئون دولتنا لما جره هذا التداخل من المصائب والارزاء التي لا تخفى على أحد منا فهل يجوز مع هذه الشكوى أن نسعى بأنفسنا في ايجاد مجال لهذا التداخل ؟ هل من المعقول أننا نفتح الباب لذلك التداخل ؟

أروني أيها المقترحون لذلك الاقتراح أمة التجأت الى حكومة أجنبية توسطها لدى حكومتها للحصول على رغبة من الرغبات ؟

ان كاهل الدولة ينوء تحت أثقال التداخل الأجنبي فهذه تطلب أن يكون لها شأن في أرمينيا والأخرى تريد أن يكون لها رأي في العراق فعلام تتسابق في حمل الدول على الاستمرار في هذه السياسة الظالمة ؟

ماذا يرجو المقترحون من وساطة القناصل ؟ أيريدون أن تحرك الدول جيوشها لمحاربة دولتنا أم يرغبون منها القيام بمظاهرة عدائية ضدها ؟

ان لدى الدول كثيرا من الوسائل التي تخلقها للتداخل في شئون دولتنا فلا تساعدوها على ما تكيد به للخلافة ودافعوا عن عزيز بالطرق المعقولة التي تفيده ولا تضره ٠

ان في وساطة الجناب العالي والقوميسيرية خير مؤد للغرض المطلوب فقفوا عند هذا الحد تجدوا الرأي العام بجانبكم أما اذا أردتم أن تجعلوا للدول الأجنبية يدا في المسألة أسخطتم عليكم كل العالم الاسلامي والأمة المصرية ٠

هذه نصيحتنا الى أصحاب الاقتراح فعسى أن يعيروها أذنا صاغية اذا أرادوا مصلحة عزيز الذى ندافع عنه وننشر كل يوم مقالات الانتصار له ولكن لا بتلك الطرق العقيمة التى تظهرنا بمظهر لا نرضاه لأنفسنا وتؤدى الى نتائج سياسية غير محمودة ٠

وعن الاجتماع الذى تم فى دار اللواء القديمة فى مساء ٢٣ مارس ١٩١٤ والذى دعا اليه صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر ٠٠ نقول : ان الذى افتتح هذا الاجتماع كان الشيخ سليمان العبد ، نيابة عن الشيخ البشرى ٠ وننشر هنا ما نشره الشعب فى ٢٤ مارس عند ذلك الاجتماع ثم ما نشره المؤيد فى نفس اليوم عن ذلك الاجتماع حتى تكون الصورة مكتملة ٠ جاء فى الشعب :

« اجتمع عدد كبير من أفاضل المصريين أمس فى دار اللواء القديمة تلبية لدعوة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر وقد افتتح الاجتماع فضيلة الأستاذ الشيخ سليمان العبد نيابة عن فضيلة صاحب الدعوة وأعرب عن أمله فى فائدة الاجتماع وتفريج الكرب عن عزيز بك ثم وقف حدة رفيق بك العظم وأفاض فى الكلام عن تاريخ عزيز بك وأظهر أمله فى أن يخرج عزيز بريئا من المحاكمة وقال اننا نلجأ الى مراحم أمير المؤمنين ونطلب منه العفو عن رجل خدم الدولة خدمات جليلة ٠ وقام بعده الشيخ محمد رشيد رضا وقال ان عزيز بك وشى به وعظماء الرجال تغتفر لهم هفواتهم ان صح انه ارتكب غلطة ما ٠ وقام بعده حضرة محمد افندى لطفى جمعة ودافع عن عزيز بك ونصح بعدم اتخاذ مسألة عزيز بك وسيلة للحط من كرامة الدولة ثم وقف أبى شادى بك وقال : ان عزيز بك اتهم بتهمة لا تزال مجهولة ، وقد بحثنا طويلا عن هذه التهمة فلم نعرفها وهو بصفته من رجال جمعية الهلال الأحمر الطرابلسية يقول أنه يعرف عن عزيز أكثر مما يعرفه سواه ثم أخذ يفيض فى الكلام على أعمال عزيز بك فى طرابلس « انه ترك للسنوسيين ألف صندوق مشحونة بالجبخانة عند خروجه من برقة الى أن وصل الى أن الذى جنى على عزيز بك انما هو التحاسد الذى بينه وبين أنور باشا يوم كانا فى حرب طرابلس » ٠

★★★

وهنا قاطعه حضرة محرم بك رستم قائلا : ان أمثال هذه الأقوال لا تنفع عزيزا ونحن انما جئنا لمنفعته لا لضرره ٠ فارتفعت أصوات المعترضين على أبى شادى بك من عدة جهات من الحاضرين واضطرب نظام الاحتفال وكثر المتكلمون وسكت الخطيب ٠ فوقف محمود أفندى محمد

وقال : أنا وكيل الضبط أقول أنه يجب أن لا يتكلم أحد ولا يقاطع الخطيب ومن كان عنده اعتراض فليصعد على منبر الخطابة ويبدى رأيه . ورغما عن ذلك القول استمر الهرج والمرج حتى وقف سعادة حسن باشا رضوان وكيل الاحتفال وقال : ان الخطيب سحب جميع الكلام الذى لم يرضكم . فهل قبلتم ذلك ؟ فقالوا : نعم . وبعد ذلك عاد السكون ثم قال ... أبو شادى بك : أنه من المعجبين بأنور باشا وأنه لم يتهمه بخصومة عزيز ويجوز أن يكون هناك قواد عند أنور باشا يحسدون عزيزا وقال : أننا اجتمعنا لنكون رأيا عاما ينادى (لتحيى الدولة ويفرج عن عزيز المصرى) .

***

ثم وقف حضرة ابراهيم بك الهلباوى المحامى فأعرب عن أسفه لما تبادر الى أذهان بعض السامعين مما دعا الى مقاطعة الخطيب السابق ثم أفاض فى شرح الضمانات التى تكفل عدم حدوث شىء فى هذا الاحتفال يمس كرامة الدولة التى نقدسها سرا وعلانية ومن الضمانات الكبرى أن يرأسها أكبر امام للمسلمين فى هذا البلد وينضم اليه سعادة الوطنى الكبير حسن باشا رضوان . ثم قال : اننا ما جئنا الى هنا الا لاظهار عطفنا على عزيز المصرى . اننا حضرنا الى هنا لاظهار عاطفة الأسى كما يظهر الوالد عطفه على ولده وتلك العاطفة مقرونة بالضراعة الى صاحب الشوكة والدولة وأمير المؤمنين .

***

اجتمعنا لأننا رأينا قائدا عظيما كان من أكبر مؤسسى الحرية فى الحكومة العثمانية الجديدة ، سلبت حريته وهو عزيز المصرى فاذا كان ركن من أركان الحرية قد هيض جانبه فلنا كل الحق وكل القدر أن نجتمع متسائلين عن السبب الذى حدا به الى السجن .. الى أن قال : ان من أكبر المسائل التى استفزتنى الى الآن أنى لم أعرف التهمة ولا لأى سبب ، وعلى أى غرض من الأغراض ، ألقى الرجل فى السجن ، وهذا وحده يبرر أسفى ثم تكلم عن القوانين العسكرية وأحكامها وقارن بين حالة عزيز والضباط البلغاريين الذين يحاكمون فى صوفيا عن تهم معروفة منسورة ، متدرجا الى الكلام عن عزيز عن أعماله فى الحربية وفى طرابلس الى أن ألقى فى سجنه .

وبعد ذلك ورد ما أشيع من أن الحكم صدر عليه من المجلس العسكرى وأنه بقى سرا مكتوما ، واستبعد صحة هذا الخبر ، وأشار الى ما قيل عن دولة البرنس عزيز من هذا القبيل ثم ظهور كذب هذه الأخبار ، ثم آمل

ان دعوة المجتمعين تنال الحظوة لدى مولانا الخليفة الأعظم · ثم ختم عبارته بأنه ينضم إلى آراء من حضروا ويطلب الحرية لمن دافع عن الحرية ، ويطلب العدل لمن دافع عن العدل ، ثم اقترح ارسال تلغراف للصدارة العظمى وتأليف لجنة مكونة من فضيلة شيخ الجامع الأزهر وفضيلة الشيخ حسونة النواوى ، وصاحب السعادة حسن رضوان باشا وحسن مدكور باشا وحضرات محمد بك أبي شادى والدكتور فارس أفندى نمر ، وأمين أفندى الرافعى لتطلب وساطة الجناب العالى والقوميسيرية العثمانية وقناصل الدول المتحابة مع الدولة العلية · وهذا نص التليغراف الذى وافق الحاضرون على ارساله :

« صاحب الدولة الصدر الأعظم بالآستانة

فى يوم ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٣٣٢ قبيل العصر عقد بالقاهرة اجتماع برياستنا حضره جمهور كبير فوق العشرة آلاف نفس من جميع الطبقات من الأمة المصرية ، وبعد المشاورة ورأيهم على أن يرفعوا الى الصدارة العظمى لرفعها الى الأعتاب الشاهانية بأن تأمر بالافراج عن أخيهم عبد العزيز بك المصرى آملين تحقيق رجاء الأمة المصرية الصادقة الولاء للدولة العلية ·

شيخ الجامع الأزهر

سليم البشرى

★★★

وعن نفس الاجتماع ·· كتب المؤيد يقول :

« كان الاجتماع الذى عقد بعد ظهر أمس فى دار اللواء (سابقا) للنظر فى مسألة عزيز المصرى غاية فى الأبهة والجلال ، وما انتصفت الساعة الرابعة حتى كان السرادق الفخم الذى أقيم فى فناء تلك الدار الواسعة غاصا بنحو ستة آلاف من علية القوم وأهل الفضل والوجاهة فى مصر وكان على السدة المرتفعة من صدر السرادق حضرات أعضاء لجنة الاجتماع وخطباء الحفلة يتقدمهم فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وعلى يمينه فضيلة الأستاذ الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر السابق وصاحب السعادة حسن مدكور باشا وحسين باشا واصف وعن يساره فضيلة شيخ السادة الشافعية سليمان العبد وفضيلة الشيخ الأصبعى وحضرة الأستاذ السيد رشيد رضا ، وسعادة الفريق حسن رضوان باشا ، وسعادة رفيق بك العظم والأستاذ ابراهيم بك الهلباوى ·

ولما أخذ القوم مجالسهم ، وكانوا جميعا كأن على رؤوسهم الطير قام فضيلة شيخ السادة الشافعية الشيخ سليمان العبد نائبا عن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ سليم البشرى فافتتح الجلسة بكلام جميل قوبل بالتصفيق .

ثم تلا حضرة القارىء المجيد الشيخ منصور بعض آيات من كتاب الله الحكيم ، وقام بعده سعادة الفريق حسن رضوان باشا فقدم للجمهور سعادة رفيق بك العظم ، فتكلم رفيق بك عما للرأى العام الراقي من الأثر الصالح فى احقاق الحق والانتصار للحرية والعدل ومثل قضية (عزيز) بقضية (دريفوس) وأنه اذا كان الفضل فى انقاذ (دريفوس) البرىء من العقاب - حتى بعد الحكم عليه - عائدا لغضب الرأى العام الفرنسوى للحق والعدل ، فان الرأى العام المصرى والعثمانى ليس أقل غيرة على الحرية والحق والعدل وأبطال الوطن من غيره .

★★★

ثم أخذ يعرض على السامعين صفحات من تاريخ عزيز واحدة واحدة الى أن وقف تجاه صدر السرادق حيث توجد صورة (عزيز القائد) و (عزيز السجين) فقال : وان البطل الشهم الذى عرفتم طهارته فى ماضيه وبراءته فى حاضره هو هذا الأسد الهصور الذى يتدفق وجهه حمية وشهامة . يوم كان يملك حرية نفسه وهو هذا الضعيف الهزيل الذى ترونه فى زاوية السجن لا يعرف هو ولا يعرف غيره أى تهمة موجهة اليه بعد حبس شهر ونصف .

★★★

ثم قال : نحن لا نشك بعدل أى محكمة تحاكمه وانما نخاف عليه من الوشايات والسعايات لذلك نلجأ الى مراحم أمير المؤمنين أن يأخذ بيد أحد رجال سيفه والرجال عندنا قليل ، وما أجمل ما قاله شاعر مليك مصر مخاطبا أمير المؤمنين بعواطف الرأى العام المصرى وبعد أن جلس بين التصفيق الطويل ، قام حضرة الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا فقال : ان رفيق بك وشاعر الأمير قد أعربا عن اقتناعنا جميعا بأن صنديد برقة السجين برىء ولكن هبه ذا زلة فمن منا المعصوم ومن من الناس يقدر أن يقول أنه أكثر منه براءة . ثم على فرض أنه هنا فان كبار رجال الجيش الاسلامى من الصحابة بل أعظم أمراء المؤمنين فى الاسلام بل نبينا صلى الله عليه وسلم كانوا لعلمهم بأن العصمة للأنبياء ولله فقط يغتفرون الهفوة والزلة لعظماء الرجال . وهذا سعد قائد جيش القادسية قد أسقط حدا عن ابن محجن لأنه أنقذ جيشه من بلاء وقع فيه . وهذا عمر بن الخطاب

قد اغتفر لزهرة بن حوية هفوة وقعت منه لأنه انتصر على قائد الفرس ·
بل ان النبى صلى الله عليه وسلم غفر لابن أبى بائعة هفوة كبرى لسابق تعزيزه الاسلام يوم بدر ·

وفى رأيى أن يكتب مولانا شيخ الأزهر تلغرافا لمولانا أمير المؤمنين يقول له فيه : ان الناس يعتقدون البراءة فى عزيز وعلى فرض أنه هفا فان سابقة خدمته لدولة جلالتكم تجعل لكم أسوة فى الصحابى الجليل سعد ابن أبى وقاص وفى أمير المؤمنين العظيم عمر بن الخطاب وفى نبى هذه الأمة محمد صلى الله عليه وسلم لذلك نرجو من أمير المؤمنين أن يعيد لبدله الشهم المخلص عزيز على المصرى حريته والسلام ·

★★★

وجلس بين التصفيق الحاد ، فتلاه حضرة لطفى أفندى جمعة فالقى بحثا فى الذيول هو نتيجة درس حضرة الخطيب للدفاتر المالية والأوراق الحربية والسياسية خاصة بعزيز والحرب الطرابلسية ففصل فى بيان الأرقام عن الأموال التى وصلت الى برقة وكيفية توزيعها والأشخاص والجهات التى وزعت عليها وعليهم ونفى كل ما يمكن أن يزعمه الزاعمون عن التهم المتعلقة بعزيز من هذه الجهة بما لا يدع مقالا لقائل ثم عطف على ما يقال من خدمة عزيز للفكرة العربية فذكر مركز العرب فى المملكة العثمانية والنهضة الاسلامية والمدنية البشرية وقال : ان شعبا هذا شأنه وتلك مزاياه جدير بأن يساعده عزيز ونساعده نحن ويساعده جلالة مولانا السلطان وحكومته حتى تظهر مواهب العرب وتنجلى مزاياهم ويتبوأوا مكانتهم من الحضارة وهذا لا يكون الا باعطائهم حقوقهم من التعليم والتنوير والارتقاء والعمران · أما ترقية شعب دون شعب فى السلطنة العثمانية فهو ضار بالسلطنة نفسها لذلك كان ما يسمونه تهمة لعزيز من هذه الجهة مما يحمد عليه اذا صح صدوره منه · ثم قال : على أن الصدر الأعظم وناظر الحربية العثمانية وغيرهما من رجال الدولة صرحوا ببراءة عزيز ونحن أيضا نعتقد ببراءته والمسألة ليست الا سوء تفاهم ، ثم تذكر المرحوم مصطفى باشا كامل بالرحمة فصفق الحاضرون ·

وتلاه حضرة الأستاذ محمد بك أبو شادى فقال : اننا لا نقصد من هذا الاجتماع احتجاجا ولا ابداء انتقاد أو عداء ولكننا جئنا متألمين لألم شريان من شراييننا وهو عبد العزيز على المصرى الذى نعتقد جميعا كما يعتقد رجال الدولة أنه برىء · لذلك نعجب كيف يبقى هذه المدة فى غياهب السجن بدون محاكمة لا سؤال ولا جواب مع ان الواحد منا اذا أخذه بوليس

الى القسم وأوقفه خمس دقائق بدون أن يعلم السبب يقيم الدنيا ويقعدها ويرفع القضايا على المتسبب فما بالنا برجل له تلك الخدم العظمى وقد حبس خمسين يوما لا خمس دقائق ، ولقد حار الخطباء كما حار الناس فى معرفة سبب حبسه لا سيما بعد تصريح رجال الدولة باعتقاد براءته فلم يبق من سبب فيما نظن غير ما يقع عادة بين الزملاء والمعاصرين من التنافس على قاعدة (المعاصرة حجاب) وهنا قال أحدهم ان الخطيب يضر عزيز بك بهذا فقال أبو شادى بك انى لم أعن أنور باشا وقد نبهت على ذلك فى أول خطابى وليس أنور باشا كل قواد السلطة ، وقطع الكلام فى وسطه ليس من آداب الاجتماع وهو أشبه بمن يؤاخذ قارىء آية ..

(ولا تقربوا الصلاة) قبل أن يقرأ **(وأنتم سكارى)** ..

★★★

ولما انتهى من خطبته قام الأستاذ هلباوى بك فأفاض فى الموضوع بفصاحة وذلاقة لسان ثم ختم خطبته بقراءة التلغراف الذى تقرر اصداره الى الصدارة العظمى فى الآستانة . وتألفت لجنة من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهـر وفضيلة الشيخ حسونة النواوى وصاحبى السعادة الفريق حسن رضـوان باشا وحسن مدكور باشا وحضرات محمـد بك أبو شادى وفارس أفندى نمر وأمين أفندى الرافعى للذهاب الى قصر مولانا الجناب العالى الخديوى والقوميسيرية العثمانية ووكالات الدول المتحابة مع الدولة العلية وطلب وساطة هذه المقامات لدى الدولة العلية فى ابلاغ آمانى حاضرى هذا الاجتماع الذين مثلوا الرأى العام المصرى نحو قضية البطل عزيز بك على ، وبعد أن وقع بعض الحاضرين على دفتر خاص انفض الجميع فى الساعة السابعة راجين أن تتحقق آمال مصر فى الآستانة » .

★★★

ونختـار بعض ما نشر عن محاكمة عزيز على المصرى أمام المجلس العسكرى : الأهرام (٢٧ مارس ١٩١٤) قال : « بدأت محاكمة البكباشى عزيز على بك أمام المجلس العسكرى فى الآستانة ، فأعلنت ـ اذن ـ التهمة أو التهمة الموجهة اليه بعد أن خفى أمرها عنه وجهلها العالم كله ٥٠ يوما كاملا فكان اخفـاؤها سببا للقيـل والقـال وهياج الرأى العام فى مصر وغير مصر . فاليوم يحاكم عزيز على واليوم تعرف التهم الموجهة اليه وغدا تعرف حكم المجلس العرفى الذى لا نريد أن نشك ولا أن نرتاب بعـدله وانصافه ونزاهته لان ضباطنا الكرام الذين يؤلف منهم المجلس قد برهنوا

في مواقف كثيرة عديدة على استقلالهم وحريتهم وكفاءتهم فلم يحكموا على كل متهم تقدمه الحكومة للمحاكمة كما يظهر للأكثرين ولم يحكموا على متهم لأنه متهم أو لأن الحكومة تتهمه ٠

***

ولكن اتهام عزيز على ليس كاتهام سواه ، لا لأنه ضابط باسل لا يجوز اتهامه ، ولا لأنه مصري الأصل لا يجوز لحكومته أن تحاكمه ، بل لأن تاريخه ناصع البياض ملآن بالأعمال المجيدة ، ولأنه جاهد في الحرب الطرابلسية بعد أن وهنت قوى جميع المجاهدين ولم يبق في ميدان القتال سواه من الضباط العظام ، ولأنه سجن ولم يقل له لماذا سجن ، ولان الظنون والريب حامت حول اتهامه ٠

***

فالشيء الوحيد الذى كان يجب عمله هو اعلان تهمته قبل القبض عليه وسؤاله عن تلك التهمة حتى يبرىء نفسه بعد القبض عليه والسير بمحاكمته على الطرق المألوفة والأساليب المعروفة ، لا لأن يظل فى سجنه معتقلا لا يعرف هو ولا يعرف أحد لماذا اعتقل ، ولا أن يرسل الرسل الى مصر لينشروا ضده الرسائل ويغيروا النفوس عليه ويذيعوا بين الأفراد ما يحول ميل الأمة عنه ٠ فالمسألة مسألة ضابط اتهم بتهم معينة تريد حكومته أن تحاكمه عليها فليس لأحد أن يحول دون ارادة حكومته وليس للحكومة الا أن تثبت هذه التهمة أمام قضاته وليس لأولئك القضاه الا أن يحكموا بما توحى اليهم ضمائرهم وأنفسهم ٠ الأمة المصرية فخورة بعزيز على لأنه بطل وهى عطشى الى رؤية الأبطال من أبنائها وفخورة به لأنه خدم دولته خدمة صادقة وهى تود أن يقوم أبناؤها بأجل الخدمات للدولة وللخليفة فلهذين السببين ولهذين فقط هالها أن يتهم هذا البطل المصرى الممتاز وهالها أن يحاكم هذا الفتى المصرى النابغ لأنها شعرت بأن فخرها بعمله وبسالته واقدامه وخدمته زائل بالمحاكمة ، ضائع بالتهمة ، ممحو بالحكم ، فهى اذن لا تلام على قلقها لأنها قلقت على ذهاب فخارها فى خدمة الدولة بيد أحد فتيانها خدمة صادقة ومن كان هذا الشعور شعوره وهذا الميل ميله وجب على رجال الدولة أن يشكروه عليه وعلى العثمانيين المخلصين الصادقين أن يمتدحوه لأجله ٠

***

وقد سمعنا الخطباء الذين اجتمعوا منذ ثلاثة أيام برئاسة شيخ الاسلام يقولون هذا القول فهل يخبون عزيزا لأجل الدولة وهم يدافعون

عن عزيز لأنه خدم الدولة ، وهم يرومون اعلان التهمة تطهيرا لسمعة الدولة وهم بعد ذلك كله يتوقون الى العفو عن عزيز بك لأنهم يقدرون خدمته للدولة حق قدرها ويودون أن تقدر الدولة هذه الخدمات أيضا فهو امتلك لهم معاقل وحصونا ولم يسلم معقلا وحصنا ، وهو فتح لها فى اليمن فتحا سلميا عجزت عنه الجحافل مدة ٥٠ سنة ، وهو جاهد فى طرابلس ومقدونيا والآستانة ذاتها حق الجهاد ، فمهما كانت الهفوة التى نسبت اليه كبيرة فان الخدمة التى أداها كانت أكبر وأجل ، فبحق الخدمة تغفر الهفوة ، هذه هى آراؤهم وهذه هى آراء الأمة كلها وهذه هى فى نظرنا السياسة الحكيمة الواجب اتباعها ٠

***

والذين يقولون للدولة غير هذا القول لا يتولون لها الحق ولا يقولون الحقيقة وانما هم فى قلوبهم مرض والغرض مرض ان الأشخاص تفنى فى المصلحة العامة والمصلحة العامة تتطلب مراعاة خاطر المصريين والعرب عامة ومن ورائهم جميع العثمانيين والمسلمين كافة حقيقة نعلنها بكل صراحة حبا فى الدولة ، حبا مجردا عن كل قصد وغاية ٠

واذا قال قوم بالقوة وبالقوة دائما فى كل مسألة وفى كل قضية وفى كل أمر فنحن نقول أن السير على هذا المذهب يقضى بنا الى الخراب لأن القوة فى الأمم وفى سياسة الشعوب تعد لصد الأعداء فقط لا لمقاومة ارادة الشعب ولا لاكراه الشعب على ما لا يريد ولا لانفاذ السياسة بالعنف ، وقد رأينا فعلها فى سياسة حوران والكرك واليمن والآستانة ذاتها ٠

***

وانا نضرب الحكومة الفرنساوية مثلا ، فانها قبضت على ضابط مصرى فى صف المغاربة وحكمت عليه فذهب وفد من بعض أدباء مصر الى الوكالة الفرنساوية فى هذه العاصمة وطلبوا العفو عنه فأبلغت أمنيتهم لحكومة الجمهورية ففعلت ما تمنوا وأطلقت سراح السجين ، فاذا كانت حكومة جمهورية فرنسا راعت خاطر نفر من الأدباء فلا نظن الحكومة العثمانية لا تراعى خاطر الأمة المصرية كلها وعلى رأسها فضيلة شيخ الأزهر وطائفة الوجهاء والصحافيين والأدباء ٠

وبعد كتابة ما تقدم وقفنا على نص التلغراف الذى رد به ناظر الحربية العثمانية على عريضة فضيلة شيخ الأزهر وهو ان ديوان الحرب فى كل الحكومات مستقل الفكر لا تأثير لأحد عليه ولا للرأى العام ، بل هو تحت

تأثير العدالة والقانون : فثقوا أنه لا يجرى غير العدالة ، أما من حيث المودة الشخصية فانا نسأل الله تعالى براءته .

وينشر المقطم رسالة بتوقيع طارق بن زياد عن محاكمة عزيز المصرى كتبها فى ٣١ مارس ١٩١٤ ونشرها المقطم فى ١٧ ابريل ١٩١٤ وقد جاء فيها

« بدأ استنطاق عزيز بك يوم الأربعاء الماضى بحضور الشهود سليمان الحربى العسكرى ورمزى أفندى الهداوى والدكتور ضيا أفندى من درنة والملازم نور الدين أفندى ورشيد بك ، فأمر الرئيس أولهم بالكلام فقال : ان فكرة عزيز بك تناقض المصلحة العثمانية فهو سعى وهو فى طرابلس الغرب فى بث الفكرة العربية بين الأهلين وفى انشاء دولة عربية مستقلة يتولى هو ادارة شئونها . قال : وكاد عزيز بك ينجح فى سعيه لولا معاكستى أنا وبعض الأتراك له :

وقال رمزى بك : اجتمع عزيز بك بالايطاليين فى أثناء الحرب اجتماعا سريا مهما ، فتبسم عزيز بك وقال : زدنا بيانا وايضاحا ، ولكن الشاهد مع رغبته فى تكييف شهادته بحيث يوقع ببطل برقة لم يستطع اخفاء الحقيقة التى ظهرت للمجلس العسكرى وتبين المنصفون منها أن بطل برقة زاد عن حوض الدولة وشرف عسكره ومستقبل السنوسى الذى ناصب عزيزا العداوة ، وان هذا البطل كان مستبسلا فى قتاله مزيدا فى تدريب جنوده وحسن قيادته .

وقال الدكتور ضيا بك : ان عزيز بك هو عدو الأتراك عموما وعدو أنور باشا خصوصا ، وهنا رجا عزيز بك منه أن لا يدخل الشخصيات فى المحاكمة . وقال : ان حياته العسكرية لأكبر حجة قاطعة على كذب هذا الادعاء الباطل فانه خدم مصلحة الترك أكثر مما خدم مصلحة العرب فى قتله وحملاته على الأعداء .

★★★

وقال نور الدين بك : ان عزيز بك اتفق مع الامام يحيى على اتباع خطة الغاية منها ضم اليمن الى مصر وكان يسعى وهو فى بنى غازى الى تطبيق هذه الفكرة وجعل بنى غازى واليمن ومصر دولة عربية واحدة . فكذب عزيز بك ذلك مقيما الأدلة على صدق قوله .

★★★

وقد أظهر مصطفى رمزى باشا رئيس الديوان الحربى فى أثناء

المحاكمة انحيازا وتحزبا لا يخطر على بال فكان يوافق على أقوال الشهود ويصحح لهم أقوالهم المتناقضة ويجيب عن عزيز بك أجوبة تلحق به الأذى وعزيز بك يتعجب ويدهش من تشيعه هذا ٠

وقد احتج عزيز بك أكثر من مرة على ان المجلس العسكرى لا يحق له أن يستجوبه على أمور تتعلق ببنى غازى بعدما سلمتها الدولة الى ايطاليا ولكن احتجاجه لم يجد نفعا لأن المجلس أصر على استنطاقه ولم يعبأ بأقواله ٠

***

كانت جلسة يوم السبت غاية في الغرابة فقد سمع المجلس فيها شهادة رشيد أفندى والعبد الماسى وآخر اسمه قاسم افندى وهو موظف صغير رافق عزيز بك من الاسكندرية الى الآستانة وقد جاءت أقوالهم متباينة متناقضة ٠ قالوا ان عزيز بك أظهر سروره وارتياحه الى ما أصاب المسلمين فى البلقان في أعز شيء عليهم وذكروا ان الجناب الخديوى المعظم ارسل حسن بك حمادة لمفاوضة عزيز بك فى تسليم البلاد الى الايطاليين واستشهدوا على صحة ادعائهم بمقابلة عزيز بك لسموه بعد عودته من بنى غازى ٠ وهنا قال عزيز بك ان مقابلته للحضرة الخديوية لم تكن لغاية سياسية بل كانت لتقديم فروض شكره الى سمو عزيز مصر المحبوب الذى بذل قصارى جهده فى سبيل مساعدته وجعل السلوم مرفأ حرا ليسهل نقل المؤون والذخائر الى مجاهدى طرابلس الغرب ٠

***

وكذب ما قاله الشهود من ان الجناب الخديوى قال له بواسطة حسن بك حمادة : « اذا كان عزيز يحبنى فليترك بنى غازى » ٠ وأثبت تكذيبه لهم بأنه بعد رجوع حسن بك حمادة الى مصر حدثت موقعة ١٦ حزيران (يونيو) وقال العبد الماسى : ان عزيز بك عاد من معسكر الايطاليين وفى خرجه مبلغ لا يقل عن خمسة عشر ألف ليرة ٠ وهنا دحض بطل برقة هذا الافتراء وقال : لو كنت اتفقت مع الأيطاليين لأرسلت العساكر من درنة الى الآستانة ووفرت على نفسى وعلى الضباط الذين تحت قيادتى مشاق الطريق وكل أحد يعلم ما عانيته من التعب فى أثناء سفرى من حدود بنى غازى الى الاسكندرية ٠

***

وقد اتضح كذب العبد الماسى لبعض اعضاء المجلس العسكرى ، ولكن

رئيس المجلس وأحد القائمقامين العسكريين برهنوا على انحياز لم يسمع بمثله فكانوا يظهرون استياءهم علنا لما يقوله عزيز بك ولا يبالون فى طعنه فى أقوال الشهود ولا يذكرون الأدلة التى يقيمها لتجريح شهاداتهم ٠

تلك هى التهم التى وجهت الى بطل برقة ، وأوجبت معاملته تلك المعاملة السيئة ، هذا وقبلما يصدر المجلس العسكرى كلمة عليه ، ترك الحكم لأعدائه وخصومه وأشدهم كرها له ، ليس للرأى العام ولا لأصدقائه فهل يرى أعداؤه أن التهم التى اتهم بها وظهر فسادها وبطلانها تقتضى تلك المعاملة الجائرة ٠

ومما يقضى بالغرابة والعجب فى هــذه المحاكمة أن الشهود كانوا يجتمعون بعضهم ببعض قبل أداء شهادتهم وفى أثناء أدائها فى قاعة خاصة مع ضباط آخرين ويلقنونهم ما سيقولونه ، وهؤلاء يعيدون ما يلقنون كالببغاء بلا زيادة أو نقصان ٠

وأما بطل برقة فقد منع من الاختلاط بزائريه ووضع تحت المراقبة الشديدة منذ بدأت المحاكمة الى اليوم ٠

وقد انتهت المحاكمة صباح الأحد ، فاتهم بالســعى فى رفع راية العصيان فى اليمن وسائر جزيرة العرب ولكن أعداءه لم يتمكنوا من اقامة دليل واحد يثبت ادعاءهم الكاذب ٠

وجملة القول أن المعاملة التى عومل بها بطل برقة فى أثناء المحاكمة كانت معاملة استثنائية لم تجر الى حق أحد من قبل ، وكان كلما أراد الطعن فى أقوال شاهد أو تجريح شهادته يسكته الرئيس بقوله : هــذا مسلم ومن خيرة المسلمين فلا يقول الا الصدق ولا يفترى كذبا ٠

فعلى الرأى العام أن يتدبر ما دار فى هذه المحاكمة بالانعام والاهتمام وأن يحكم بما يرتاح اليه قبلما يصدر المجلس العســـكرى حكمه الذى نجهله الآن ٠

وقد سمع أحدهم عزيز بك وهو خارج من المحاكمة يسأل الضباط المكلفين بمرافقته ومراقبته ، هل المجلس العسكرى خصم له أو هو حكم فى مسألة ؟

هذا واننا نرى أن الوسيلة الوحيدة لتخليص هذا البطل من أيدى أعدائه هى أن تهتم الأمة العربية اهتماما فعليا وتسعى سعيا عظيما فى رفع هذا الظلم عن أعز أبنائها عليها يتطلب المحافظة على القانون ونشر بنود العدل والانصاف فى عهد الدستور ٠

وينشر الشعب فى ٢٩ مارس ١٩١٤ مقالا لأمين الرافعى تحت عنوان : مصر وانجلترا ومسألة عزيز المصرى وقد جاء فيه : « كتبنا طويلا فى مسألة عزيز طالبين انصافه باعتباره رجلا خدم الدولة خدمات معروفة وأفسحنا أعمدة الشعب لمن يريد رفع صوته بالانتصار له والدفاع عنه مادام ذلك لا يتعدى الغرض الأساسى للموضوع .

فلما أقيم الاجتماع الأخير أنكرنا ما تقرر من توسيط قناصل الدول فى المسألة لأن هذا التوسيط ليس له معنى الا حمل الدول على التداخل فى شئون الدولة العلية ، ذلك التداخل الذى لا نظن أحدا من ذوى الغيرة الدينية والحمية العثمانية يقره بأى حال من الأحوال لأن المصائب التى حلت بالاسلام والمسلمين ونزلت بالبلاد العثمانية والعثمانيين ما جاءت الا من وراء تداخل أوروبا بتلك الحجج الواهية التى سطرها التاريخ فى صفحاته .

أنكرنا هذا العمل لأسباب كثيرة أتينا على بعضها وتركنا البعض الآخر جانبا حتى لا نفتح بابا يجب أن يبقى مغلقا .

***

ولكن جريدة التيمس أبت الا فتح ذلك الباب فقامت تقول : « ان بريطانيا العظمى مسئولة عن حفظ النظام فى مصر وأنها لا تستطيع أن تبقى غير مكترثة حيال حادثة تقع فى الخارج ويكون لها تأثير فى اثارة عواطف المصريين » (انظر تلغرافاتنا الخصوصية) .

وان هذا بلا شك نتيجة طبيعية للقرار الذى صدر فى الاجتماع الأخير . فهل يسر من قرروا توسيط قناصل الدول أن تصل المسألة الى هذه النتيجة ، هل يسرهم أن يكون من وراء عملهم قيام الصحف الانجليزية بحملة تثبت بها ان المصريين ما هم الا رعايا دولة بريطانيا !! .

لقد أرسل لنا حضرة السيد حسن موسى العقاد كتابا يقول فيه : « وبما أنى كنت من ضمن الجمعية التى قررت عرض قرارها على الأعتاب الخديوية وعلى القوميسارية العثمانية وعلى بعض معتمدى الدول فأعترض على اعتراضكم وأزيد بأنه يجب على المصريين ان لا يكتفوا بتظاهرهم بالاستياء العام من تصميم الدولة على استمرار سجن عزيز بك المصرى بل يفكرون فيما هو أبعد من ذلك حفظا لكرامتهم أمام الأمم الراقية » .

فماذا يقصد بذلك حضرة السيد ؟ أيريد ان يحافظ على كرامتنا

بالالتجاء الى انجلترا لمطالبتها بارغام الدولة العلية على الافراج عن عزيز ياسم المصريين قائلا : اننا من رعاياها الانجليز فيجب أن لا تبقى بريطانيا غير مكتوفه حيال حادثة يكون لهـا تأثير فى عواطف المصريين وأنهـا المسئولة عن حفظ النظام فى مصر كما تردد ذلك جريدة التيمس ؟

ولا اذا كنا أخطأنا فهم غرضـه فما الذى يريـده بعبارة « أبعد من ذلك ؟ » .

ان انجلترا تسر ياحضرة السـيد من كل حركة تكون نتيجتها اظهار المصريين مظهر الذين يرمون بأنفسهم فى أحضانها وما أمثل تلك الحركة الا ضربة قاضية على استقلالنا .

أننا نخشى أن تكون عبارة « بعض معتمدى الدول » لم يقصد منها الا ذر الرماد وأن الغـرض كان دولة واحـدة هى دولة انجلترا فهـل يجدر بنا أن نرى ذلك ونسكت ؟ هل يجوز لنا أن نرى قوما يقدمون للانجليز سلاحا ماضيا ضد استقلالنا ونلتزم الصمت ؟

كلا يا حضرة السيد فان واجبنا يقضى علينا بالاعتراض ألف مرة لا مرة واحدة والا كنا مقصرين أشد التقصير فى المهمة التى نقوم بها ولا نظن ان أحدا يجرؤ على تخطئتنا وهذه مقالة التيمس تكشف الغطاء عن مصـير تلك الحركات التى يندفع البعض فى تيارها بقصد أو بغير قصد .

***

نحن لسنا من رعايا انجلترا ولذلك لا نوسطها فى عمل بيننا وبين دولتنا واذا أردنا أن نشـكو الدولة فلتكن شـكوانا اليها وحدها لا للانجليزالذين يهمهم ان يحصلوا على حجة يتذرعون بهـا للقول باننا نطلب حمايتهم من كل ما يصيبنا حتى ولو كان ذلك من الدولة صاحبة السيادة على مصر .

ليفهم ذلك حضرة السيد وليعلم مغبة كل عمل يعطى الانجليز هذه الحجة بغير أن يجنى مصرى فائدة ما لأننا لا نظن أن حضرة السيد يتصور ان انجلترا تضحى بدم جندى واحد من الانجليز من أجل عزيز ولا أكبر من عزيز ولا ألف عزيز ولا مليون عزيز .

ان الدم الانجليزى غال جدا لدى الأمة الانجليزية ، فهل يظن حضرة السيد ان نقطـة واحـدة منه تراق لأجـل المصريين ، فعـلام اذن يدافع حضرته عن فكرة توسيط لدول ؟

هل يريد حضرة السيد ان الانجليز يعملون لانقـاذ عزيز أكثر مما عملوه بالنسـبة للمسـتر بنتـون الذى قتله ثوار المكسيك أخـيرا ؟ اننا لم نر الدولة البريطانية تعبىء الجيوش وتحرك الأسـاطيل لذلك الشخص البريطانى فماذا الذى يتوهم انها تفعله لشخص مصرى ؟

ألا فليخفف حضرة السيد من حدته وليفكر فى المسألة طويلا وليعلم اننا دافعنا عن عزيز أكثر منه ولكن بغير تلك الطرق التى فضلا عن أنها لاتفيد عزيزا شيئا فانها تضرنا باعتبارنا أمة لانريد أن نكون من رعايا الانجليز ولا نرضى عن عمل يفيد أو يستفيد به الغير ضمنا للنداء باننا نقبل الرعوية الانجليزية ٠

هذا ما نعترض عليه بشدة وما يجب ان يعترض عليه حضرة السيد اذا كان يقول بأن مصر ليست للانجليز ٠

★★★

وكانت المعركة قد احتدمت بين المؤيد والشـعب حول موضـوع عزيز المصرى ، وقد سبق ان أشرنا الى ماكتبه الأستاذ أمين الرافعى عن هذه المعركة ٠

ونشـير اليـوم الى كلمـة أخـرى نشرها الرافعى فى الشـعب (٢٩ مارس ١٩١٤) عن موقف المؤيـد من الشعب وقد جـاء فى تلك الكلمة :

« وقف المؤيد فى مسالة عزيز بك وقفة من شأنها أن تسخط الرأى العام فلم تستطع التزام السكوت حيالها لسببين وجيهين :

أولا : ان الحملة التى يحملهـا لا تعـود على عزيز بك بفائدة ما بل تضره ٠

ثانيا : ان كتاباته لم تكن دائرة الا على نقطة واحدة هى الايقاع بين الدولة العلية ومصر والسعى بين شعبين تقضى جميع الظروف الدينيـة والسياسية بأن يعيشا أخوين متحابين ٠

★★★

ويكفى دليلا على اعترافه بأن الرأى العام ليس فى جانبه أنه بعد ان دعا جهـارا وصراحـة الى عدم الاحتفاء بالطيارين العثمانيين عـاد الى الموافقة على تكريمهما ٠

ولقد كنا نريد الدخول معه في مناقشة طويلة لولا أننا رأيناه يتبع المغالطة فى كتاباته ولا يظهر بمظهر الذى يرغب الوصول الى الحقيقة ٠

وكيف نناقش جريدة لا تحجم عن تغيير الحقائق وقلبها رأسا على عقب دون انتخشى فى هذا السبيل حكم الرأى العام عليها ٠

يظن المؤيد انه يستطيع طمس معالم الحقيقة بكلمة يخطها كأنه يكتب لقوم لا يقرأون ولا يفهمون ٠

يقول المؤيد « هالنا الحادث فاحتججنا عليه فقلنا كلمتنا وقد كنا نرى (الشعب) خلال ذلك لا ينطق بكلمة ولا يفوه ببنت شفة وانما كان ذلك لأن كل شيء يصدر عن الاتحاد فى نظرة مقدس » ٠

يقول المؤيد ذلك دون أن يخشى تكذيبا كأن الأقلام قد تحطمت فلا تستطيع ان تشير الى الواقع بكلمة واحدة ٠

يقول المؤيد ذلك وهو يعلم وكل الناس يعلمون اننا دافعنا عن عزيز بك قبل أن يكتب المؤيد حرفا واحدا فى هذه المسالة اللهم الا اذا كان يقصد بالدفاع التفريق بين المصريين وبين الخلافة والامتنان على الدولة ودعوة المصريين الى حبس المال عنها وتضحية عزيز بك على مذبح هذه الأغراض ٠

★★★

نعم اذا كان يقصد بالدفاع الكتابة في تلك المواضيع فاننا نقر له ونعترف بأننا لم نفه ببنت شفة بل لانستطيع ذلك ونعجز عن القيام به تاركين للمؤيد القادر ان يضرب فى هذا المجال بسهام لا يسهم فان له القدح المعلى فى ذلك المضمار ٠

وانما الذى نرجوه هو أن المؤيد (الاسلامى !!) يكون مسلما أكثر من جريدة الوطن التى قالت :

« أما كوننا نهدد الدولة العلية بأنها اذا لم تفعل كذا نقطع عنها الاعانة المالية فذلك ما لا يليق بنا ولا بكرامتنا لأن المصريين دفعوا الاعانات لا اكراما لخاطر زيد أو عبيد بل دفعوها حبا فى خلاص شعب عثمانى من مخالب دولة أجنبية فهم عملوا خيرا لمحض رغبتهم فى الخير ذاته لا لكى يشتروا بأموالهم ذمة رجال الدولة » ٠

.. " فليقرأ المؤيد (الاسلامى) هذه الحقيقة وليستمر اذا شـــاء على الكتابة مما يحط من كرامة الأمة ولكن الذى نطلبه منه هو أنه اذا أراد تغيير الحقائق فليعمد الى ما كان غير ظاهر منها ، أما الحقائق الملموسة باليد ـ كما اذا كنا كتبنا فى الموضوع أو لم نكتب ـ فليس من مصلحته أن يطبق عليها القاعدة العامة التى يسير عليها فى كتابته •

" بقيت علينــا كلمة نختم بها هذه العبارة وهى أن المؤيد حاول فى كتابته أن يظهر مظهر المهدد لنــا ثم قال « وأنا وان كنــا على اســتعداد لدفع ما عزاه الشعب بما هو أصرح من هذا وما يوجب الا يلام الا أن رغبتنا فى .. حالت بيننا وبين أن نجيبها بأكثر مما قلنا » •

ونحن نقول على ملأ من العالم بأسره بأننا نتحدى المؤيد الى ذكر كل ما يعلم عنا وليكشف الغطاء عن كل ما يزعم أنه يؤلمنــا • نعم .. نتحداه الى أن لا يبقى فى جعبته كلمــة الا ويكتبهـــا فما نحن بالذين يخشون ذكر الحقائق لأن الحقائق لا تؤلمنا وانما تؤلم غيرنا •

" اننا لا نخجل من عرض أعمالنا وكتاباتنا فهى كلها منسوجة على منوال واحد ومبدأ واحد لأننا نعجز عجزا تاما عن أن نتخذ لكل يـــوم لبوسا : نعجز عن ان نشهر بالمؤيد وصاحبه فى جريدتنا وننسب اليه كل قبيحة ثم اذا نحن انتقلنا الى المؤيد قلنا أنه من صحف الأبرار ورفعنا صاحبه الى أعلى عليين • نعم نعجز عن ذلك لأن هذا الانتقال الغريب يتطلب كفاءة خاصة لم تتوفر فينا والحمد لله •

★★★

وقد التقينا هنا بما كتبه أمين الرافعى لأنه ـ كما عود قراءه ـ يكتب وجهة النظر التى تختلف وإياها كاملة ثم يتولى الرد عليها ومن أجل ذلك يجيىء ما يكتبه فى مثـــل هذه الحالات يحمــــل الرأى والرأى الآخر بكل أمانة •

★★★

ومرة أخرى فى ـ ١٢ ابريل ١٩١٤ ـ يكتب الأستاذ أمين الرافعى عن : خدام السياسة الانجليزية ومسألة عزيز بك المصرى : الأمة بريئة مما ينسبون لها ..

« ترمى السياسة الانجليزية الى اظهار المصريين مظهر الراضين عن الاحتلال المتمسكين به المعتبرين اياه احتلالا شرعيا ولهذه السياسة خدام

معروفون فى مصر يقومون بوظيفتهم بواسطة صحفهم تارة وبواسطة ما يرسلونه الى الصحف الانجليزية تارة أخرى من الأكاذيب والاختلافات وتشويه الحقائق .

وقد عرف خدام تلك السياسة بانتهاز الفرص لتنفيذ خطتهم سواء أكان ذلك تطوعا منهم أم بايعاز من غيرهم وكانت حادثة عزيز بك المصرى ـ بكل أسف ـ فرصة سنحت لهم للسير فى هذا السبيل الممقوت .

ظهر أصبع السياسة الإنجليزية فى هذه الحادثة لأول مرة على صفحات جريدة التيمس ولو شئنا ان نذكر كيف تحرر تلك المقالات التى تكتب فى هذه المسألة وفى أى مكان يكون تحريرها لفعلنا غير مترددين كاشفين بذلك الستار عن المحركين لهذه الحملة الانجليزية .

على أننا نترك هذه المسألة جانبا الآن حتى يأتى الوقت المناسب للخوض فيها ونكتفى بتوجيه سؤال واحد الى الذين تغرهم تلك الحملة التى تقوم بها جريدة التيمس .

أيظن أولئك الذين تخدعهم الظواهر ان جريدة التيمس تدافع عن عزيز حبا فى عزيز أو رضاء للمصريين ؟

هل يهم التيمس أن يخرج عزيز من سجنه أو يبقى فيه طول عمره ؟ هل يهم التيمس أن تكتب كلمة فى مصلحة المصريين وهى التى طالما طعنت عليهم من الطعن واتهمتهم بمختلف التهم عندما حدثت مجزرة دنشواى ؟ لو كانت التيمس تعنى بدم المصرى وأرواح المصريين كما تتصنع ذلك الآن لما كانت كتبت الفصول الطوال دفاعا عن حادثة دنشواى وما وقع فيها من شنق وجلد وحبس اقشعر له العالم بأسره ؛ فعلام اذن ننسى اليوم كل شىء ويتوهم المخدوعون منا أن تلك الأقلام الانجليزية تكتب لمصلحتنا وهى التى حفيت فى كتابة ما أدمى أفئدتنا وفى تبرير تلك السياسة التى نئن منها ونألم لها ؟

***

نقول هذا القول بمناسبة ما نشره المقطم الانجليزى « من اجتماع فريق ـ لا ندرى من هم وما هو عددهم ـ فى سبلندد بار ؟ ... ـ وتقريرهم تأليف وفد للذهاب الى الوكالة البريطانية ومقابلة فخامة اللورد كتشنر ليعربوا عن شكر الأمة المصرية (كذا) على ما أظهرته الحكومة الانجليزية من العناية (كذا) بعزيز المصرى وليلتمسوا من فخامة اللورد كتشنر ارسال تلغراف الى جلالة ملك انجلترا يسترحمون

فيه باسم الأمة المصرية (كذا) توسط حكومته (كذا) لانقاذ حياة هذا البطل المظلوم وارسال تلغراف الى جريدة التيمس يشكرونها (كذا) فيه على المروءة ؟؟؟ .. التى أبدتها فى سبيل انصاف عزيز بك ويطلبون منها باسم الانسانية مواصلة هذه المساعى النافعة الخ الخ » .

وان أول ما نتساءل عنه هو أننا نريد معرفة أولئك الذين يجتمعون فى الخفاء وبلا دعوة سابقة ولا اعلان سابق ويزعمون أن الأمة المصرية وكلتهم فى ان يشكروا الحكومة الانجليزية ويوسطوا الحكومة الانجليزية ويشكروا جريدة التيمس الانجليزية ؟

★★★

نريد معرفتهم واحدا واحدا لنسألهم عن التوكيل الذى اتخذوه من الأمة لعمل هذه الأشياء باسمها .

نريد معرفتهم ولا ننخدع بقول المقطم الانجليزى « وقد ضاق المقام عن ذكر أسماء الفضلاء الذين شهدوا هذا الاجتماع وهم نخبة أهل الوجاهة والفضل » .

نعم لا ننخدع بذلك القول مطلقا لأنه اذا كان المقام قد ضاق عن ذكر أسمائهم فى يوم الجمعة فلا نظن إنه ضاق عن ذلك فى عدد يوم السبت فلماذا لم يذكر المقطم أسماء هؤلاء الذين نحلوا أنفسهم النيابة عن الأمة فيما يظهر المصريين أنهم رعايا ملك انجلترا يوسطونه لدى دولتهم العلية .

غريب والله ان يقوم قوم تجهلهم الأمة ويدعوا أنهم نوابها — حتى فى علاقتها مع الدول الأجنبية — ويجتمعوا فى « بار » من البارات ويكون ما يقرر فى هذا « البار » نافذا على الأمة من أدناها الى أقصاها .. !!

جرأة عجيبة ما سمعنا بها قبل اليوم أبدا ولا نظن أننا نسمع بها فى أى بلد من البلدان .

ما هذا ؟ أأصبحت البارات برلمانا للأمة المصرية تنعقد فيها الجلسات من أناس لا يجرأون على ذكر أسمائهم ثم تنشر الصحف الانجليزية ان ما دار فى هذا البار هو ما أقرته الأمة بأسرها ؟

★★★

لقد قرأنا فى المقطم ان الوفد الذى ذهب الى الوكالة البريطانية

للاعراب عن شكر الأمة المصرية مؤلف تحت رياسة السيد عبد الحميد المهدى وهذا هو الاسم الوحيد الذى سمعنا به فى ذلك البرلمان ؟ الذى أصدر كل تلك القرارات فنسأل حضرة السيد المذكور من الذى وكله فى ان يشكر الحكومة الانجليزية ويوسط ملك الانجليز ويدعو التيمس الى الاستمرار فى حملتها باسم الأمة المصرية وبأى حق يدعى ان ما يقوله انما هو صادر من الاثنى عشر مليونا من النفوس ؟

اذا أراد حضرته ان يفعل شيئا باسمه فليفعل ولكن ليس له ولا لغيره ان ينسب أى عمل الى الأمة التى يشهد ماضيها وحاضرها أنها تبرأ براءة تامة من كل تصرف يتخذه الانجليز حجة عليها فى أنها راغبة فى الرعوية الانجليزية •

***

اللهم ان أصبح السياسة الانجليزية ظاهرة فى هذه الحادثة ظهورا جليا واذا كان خدام تلك السياسة قد أخفوا أنفسهم بين جدران ذلك « البار » فان الحقيقة لن تخفى على طالبها وليست النيابة عن الأمم فى يد أشخاص مجهولين لا يجتمعون الا فى جنح الظلام بل ان فى الاجتماع على هذه الطريقة السرية ما ينطق بأن الأمة تأبى كل الاباء أن تقر عملهم والا لو كانوا يعلمون أنها ترضى به لعرضوا عليها الأمر قبل أن ينسبوه لها كذبا ولأظهروا أنفسهم أمامها ويدعوها الى مشاركتهم فى عملهم فليفهم ذلك خدام السياسة الانجليزية ومن يسير وراءهم طوعا أو كرها •

وكان المؤيد قد نشر فى ١١ ابريل ١٩١٤ تحت عنوان : لأجل عزيز المصرى • خبرا نصه :

« اجتمع فريق من أهل الوجاهة والفضل فى أعلى اسبلنديد بار مساء أول أمس وتداولوا فى الدور الذى دخلت فيه مسألة البطل المصرى المشهور عزيز بك على ، ثم قرروا ما يأتى :

ارسال تلغراف الى جلالة مولانا السلطان وآخر الى جلالة ملك الانكليز فى طلب العطف على مسألة عزيز بك والتوسط فى دفع كل حيف يمكن ان يناله بغير وجه قانونى تطمئن النفوس اليه •

***

وتأليف وفد برئاسة حضرة الوجيه الفاضل السيد عبد الحميد المهدى لمقابلة جناب اللورد كتشنر وتقديم الشكر للحكومة الانكليزية

على اهتمامها بسير هذه القضية ورغبتها فى أن لا ينال عزيزا ما لا يستحقه وأن يذهب هذا الوفد الى ادارات الصــحف الكبرى التى اهتمت بحادث اعتقال عزيز المصرى وشــكرها على ذلك • وارسال تلغراف الى جريدة التيمس شكرا لها على كتاباتها السابقة والتماس مواصلتها الكتابة فى ذلك واستلفات أنظار الشعوب الأوربية الى أن الشهود الذين جيىء بهم للشــهادة على عزيز كلهم من المتهمين بالجرائم والمطرودين من وظائفهــم أو الملوثة أسماؤهم بأمور أخرى وان من لم يكن كذلك ممن سمى شاهدا ضد عزيز أوذى وطرد من الجيش العثمانى لأنه ربأ بنفسه أن يقف فى هذا الموقف •

★★★

وعــاد « الشعب » فى ١٤ ابريــل ١٩١٤ الى الحديث عن نفس الموضوع كما يلى :

« يظهر أن الصــحف الاحتــلالية استمرأت مرعى التهديد وألفته ، فبالأمس كانت تهدد مصر نفسها بأنه اذا فتح نائب من نواب الأمة فمه بالسؤال عن تشغيل المسجونين المصريين فى أرض السودان ونفيهم الى تلك الأصقاع النائية بلا حكم قضــائى أنزلت الراية المصرية عن ربوع السودان وبقيت الراية الانكليزية وحدها وضاع كل حق اكتسبته مصر بأموالها ودماء أبنائها •

واليوم أخذت تلك الصــحف وفى طليعتهــا المقطم ترســل النذير تلو النذير والوعيــد أثر الوعيــد الى الدولة العلية باسم مصر مهددة اياها بالانفصال عنها •

فهل مصر التى لم تستطع فى عــرف أولئك المهددين أن يســأل نائب من نوابها عن سبب نفى الآلاف من المسجونين بغير حكم قضــائى أصبحت الآن فى نظرهم ــ مع أنه لم يمض على تهــديدهم الأول الا أيـام قلائل ــ قادرة على الغاء المعاهدات الدولية والفرامانات الشاهانية والتقاليد السياسية والروابط الدينية بناء على كلمات تخطهــا أقلام الاحتلاليين الذين لا يقلعون عن ايلام عواطف المصريين بكرة وعشيا •• !!

★★★

يقول المقطم فى ذلك المقال :

« ونحن لا نخشى أن القابضين على زمام حكومتنا (كذا) العثمانية الآن يرتكبون الخطأ الذى ارتكبــه الذين تقدموهم فجرت عليهم حرب

البلقان حديثا (كذا) ومصائب عديدة قديمـــا وذلك اذا ظلوا يصمون الآذان عن رجاء المحبين والأصدقاء ويغمضون الأجفـان عن رؤية العوامل التى تزداد قوة وشدة فى مسألة عزيز بك المصرى يوما فيوما » •

وقال أيضـــا :

« وأخيرا علم المصريون (كذا) ذلك فكبر على أحرارهم وأثار ثائرتهم حتى رأينا جمهورا منهم يقصد بالأمس الوكالة البريطانية ويأبى أن يقصد القوميسيرية العامة العثمانية وعلمنا أن بعض المقامات العالية (كذا) أبلغ القوميسيرية ما أشرنا اليه آنفا •

★★★

فرجاؤنا نحن العثمانيين والمتمصرين (كذا) ان القوميسيرية تطلع حكومة الاستانة على الحقيقة ليعلم رجالها أنهم لم يتلافوا مســـألة عزيز فى الحال (كذا) فقد تفتح باب شر عظيم (؟؟؟) فى الاستقبال وتكون سببا لحزن العثمانيين المتمصرين ليس مما يقع بين تركيا ومصر (؟؟) فقط بل مما يقع بين مصر وغير تركيا (؟؟) أيضا ، فهل يعتقد أولئك الكاتبون أنهم يخدمون عزيز بمثل هذا القول • لقد قلنـــا مرارا ان مسألة عزيز ليست الا مســـألة فردية والدفاع عنـه يجب ان يكون فى هذه الدائرة أما اتخاذ ذوى الأغراض مسألة ذريعة لنفث سمومهم وايقاظ الفتن فانما هو أمر يضر عزيز ولا ينفعـه ، وذوو الغـايات لا يأبهـون لمسألة عزيز ولا لشخص عزيز وكل همهم موجه الى الوصـول الى غرضهم ولو ضحوا بألف عزيز وعزيز •

ان الذين ينفخون فى ضرام تلك النـار لم يعهد فى تاريخهم أن يدافعوا عن مصر كلها نيلها وزراعتها وأهلها وكرامتها وشرفها فمن أين جاءت لهم تلك الغيرة من أجل شاب هجر مصر لضيق مدارسـها والتحق بمدارس الآستانة وتخرج فيها والتحق بجيشها فكان فيه رقيه وظهوره حتى اذا ما أوخذ بأمر نسب اليه كادوا يطبقون السماء على الأرض ان كان للصيحات مثل هذا التأثير •

فلم لاتترك مسألة عزيز فى الدائرة المعقولة وتجعل استشفاعنا فيه الى جلالة مولانا أمير المؤمنين والى الحكومة العثمانيـة نفسها دون سواها حتى لايخرج مركزها بتوسيط الأجانب بيننا وبينها •

لنفرض أن الحكومة العثمانيـة كان فى نفسها ان تجيب الرجاء

وتستمع الدعاء فلا يخالج ضميرها ان توسيط الأجانب يدعو الى القول بأنها أطلقت سراح عزيز خوفا من تلك الوساطة ؟

فهل يخطر على فكر معتوه قبل عاقل أن الانكليز يضحون بقدم عسكرى انكليزى من أجل آلاف من الأجانب عنهم ؟ فان لم يكن شيء من ذلك فعلام هذه الضجة والام تلك الثورة ؟

من ذا الذى يستطيع ان يغير الحالة السياسية التى لمصر ازاء الدولة العلية التى لاتملكها دولة منفردة مهما كان مركزها عظيما ٠

اننا نصرح بأعلى صوت أن مركز مصر مركز دولى لا قدرة لأحد على تغييره الا اذا اتحدت الدول كلها ومعها تركيا ومصر وقد رأينا مبلغ هذا الاتحاد فى الحرب البلقانية فان كان هذا هو الواقع ، فعلام هذه الضجة والام تلك الثورة ؟

وبعد هذا ٠٠ نرجع الى المقطم ونقول له : اذا كنت تقول (حكومتنا العثمانية) و (نحن العثمانيين) فلم تريد أن تحقر تلك العثمانية ان كنت عثمانيا صحيحا ؟ وكيف لاتحقرها وأنت تدعو الحكومة الى تضحية كرامتها تحت أقدام الأجانب الذين تستصرخ بهم ؟

وهل من العثمانية أن لا تقلع عن نصرة الأجانب فى كل أرض وفى كل مكان على هذه الحكومة المنكودة الحظ بأمثالك ؟ فان أنكرت ذلك فهذه أعداد المقطم تشهد بانتصارك للايطاليين على العثمانيين بل وللانكليز وغير الانكليز ممن تخدم أغراضهم وتنال رفدهم ٠

الا أن الأمم لتشقى بمن يلبسون أثواب الأصدقاء ويعملون أعمال الأعداء الألداء من نكد الدنيا أن يكون أولئك القوم من أبنائها ٠

وفى الختام نتوجه الى المقطم بالأسئلة الآتية :

ما هى العوامل التى تزداد قوة وشدة فى مسألة عزيز وما هو مصدرها ؟

من هم الأحرار المصريون الذين قصدوا الوكالة البريطانية من أجل هذه المسألة وأبوا أن يقصدوا القوميسيرية العثمانية ؟ وما هى سابقة أعمالهم فى الدفاع عن حقوق مصر ؟

ما هو الشر العظيم الذى سيفتح بابه على الدولة ومن هو طارق هذا الباب ؟ ومن هو الفاتح له ؟ وأى علاقة بين حرب البلقان وهذا الموضوع ؟ هذا ما نسأل عنه المقطم ٠ فليجب صراحة والا كان تهديده كلاما فى كلام ٠

ونتنقل هنا ـ لاستكمال الصورة ولتحقيق العدالة والانصاف ـ تنقل كلمات جاءت فى المؤيد فى ١٤ ، ١٥ ابريل ١٩١٤ على التوالى وقد جاء فى أول تلك الكلمات تحت عنوان : مسألة عزيز المصرى :

أمسك المؤيد القلم فى المدة الأخيرة عن الخوض فى مسألة عزيز بك المصرى مع أنه قد كان أول من رفع صوته طالبا من الحكومة العثمانية مراعاة كرامة الأمة المصرية وتقدير شعورها فيما يختص بمعاملتها لواحد من أبنائها • لأننا نعتقد أن عزيز بك المصرى مصرى مولدا ونشأة وتربية وشعورا • هذا ما يطلب من الانتساب للوطن ويعلم علم اليقين أن الرجل من أكفأ الرجال وأخلصهم فى خدمة الدولة • ونعلم كذلك أنه مظلوم وأنه ضحية أغراض شخصية • كل هذا نعرفه ولكن رأينا ان الحكومة العثمانية صمت آذانها عن كل احتجاج أو التماس ورأينا أيضا أنها مصممة على ايذاء الرجل لغرض فى نفسها • وقيل لنا أيضا ان الحكومة العثمانية كلما رأت اهتماما عظيما بهذا الرجل وظهر لها ما له من المكانة فى النفوس كلما عضت بالنواجذ على الفتك به • فالذين يريدون خدمة عزيز بك وخلاصة انما يقدمونه للقطع بأيديهم • هكذا قيل لنا من ذى مكانة عالية وخبرة حقيقية بالحالة النفسية للقائمين بالأمر على ضفاف البوسفور • ولهذا أمسكنا القلم عن مطالبة رجال الدولة باجراء العدل مجراه ، وكنا من آن لآخر ننشر آراء بعض الكتاب والصحف •

★★★

ولكن يظهر لنا أن المسألة أخذت دورا آخر لان فريقا من اخواننا الوطنيين المخلصين فى محبة دولتهم العثمانية والمتمسكين من اعتقاد بمبادئهم الوطنية بما لها من المساس بحقوق الدولة يذهبون الى ما تكتبه جريدة التيمس وينقله المقطم من التلغرافات ويطلبه بعض الناس من الوكالة البريطانية من طلب الوساطة ، يجعل لانكلترا صفة الحماية على مصر وأبناء مصر وان مسألة عزيز المصرى بأجمعها تؤدى الى اضعاف نفوذ الدولة العثمانية فى مصر وان الذين يجعلون لعزيز هذه الأهمية ويغالون فى الدفاع عنه يضرون مصلحة الارتباط السياسى بين مصر والدولة فنحن رأينا اليوم من واجبنا أن نقول أولا لاخواننا الوطنيين أن صفة انكلترا وحمايتها لمصر أو لأبناء مصر لا تتأثر ولا تتغير برسالات للتيمس ولا بتلغرافات للمقطم وأن نفوذ الدولة العثمانية أقوى فى هذه الديار لأسباب سياسية ودينية من أن توهنه مطالبة من جانب أمة أو فريق كبير منها باجراء العدل مجراه حيال شخص يعرف الذين ينصرون له كفاءته واخلاصه وبراءته •

واننا نجل اخواننا الوطنيين الذين تشير اليهم من أن ينتصروا للظام وتكتم الحقائق لمجرد اعتبارات يرونها ذات أهمية سياسية وليست من الأمور الجوهرية في شيء ٠

على أنه كانت معاملة رجال الدولة لعزيز بك المصرى قد أوجدت فى مصر من يجرؤ على اظهار النفور من الدولة العثمانية ، فالذنب فى هذا واقع على رؤوس رجال الحكومة الحاضرة في الآستانة لا على سواهم ٠

***

حقيقة ان بعض الصحف الأجنبية والمقطم أيضا قد غالت فى وصف تأثير شعور المصريين نحو الدولة من جراء هذا الحادث وهذه جريدة الاجبشان ميل تقول فى عددها الصادر اليوم ما نصه :

« ان الوثائق التى تربط مصر بتركيا في غاية الوهن » الى غير ذلك مما يراه القراء منشورا فى باب أقوال الصحف ، ولكن شعور المصريين وعواطفهم نحو الدولة العثمانية أكثر متانة ورسوخا من أن يتأثر بحادث لا يخرج عن كونه انتقادا علىحكومة حاضرة ومطالبة تلك الحكومة باجراء العدالة ، كما نطالب حكومتنا وننتقدها كل يوم ٠

وان استطاعت صحف انكلترا أو صحف العالم كله أن تنزع من نفوس الأمة المصرية الاحساس الدينى فعند ذلك يجوز أن نتصور ان مسألة كمسألة عزيز المصرى تكون سببا فى فصم عروة الميل من جانب المصريين الى اخوانهم العثمانيين ٠

وكانت الكلمة الثانية تحت عنوان : « عزيز المصرى ومسألته » وقد جاء فيها وكانت بتوقيع مسلم :

قرأت المؤيد أمس وقرأت قبله ومعه الجرائد التى تكلمت فى موضوع عزيز المصرى ومسألته فراقنى من المؤيد احكامه النقد وطول باعه في السياسة وتصرفه فى الدفاع عن ذلك المظلوم تصرفا لائقا بصحيفة المسلمين التى وقفت حياتها على تمكين عرى الرابطة بين الدولة ومصر ، وأعجبنى منه بنوع خاص عدم هلعه من انتؤثر حادثة فردية مثل حادثة عزيز المصرى فى العلاقات السياسية والرابطة الجنسية والدينية التى تربط مصر بالآستانة ووقوفه وقفة الشجاع فى طليعة الجرائد ليسكن خوف الخائفين ويهزأ بآراء المتشائمين أو الشامتين فللمؤيد على نعرته الوطنية وغيرته الاسلامية ألف حمد وثناء ٠

أعجبنى من المؤيد ما أعجبنى وهو ما كان مرجوا منه ومنتظرا من مدير سياسته الهمام ، ولكن ألا يرى المؤيد معنا استنتاجه لما رواه أمس « عن ذى مكانة عالية وخبرة حقيقية بالحالة النفسية للقائمين بالأمر على ضفاف البسفور • انهم كلما رأوا اهتماما عظيما بعزيز يعضون بالنواجذ عليه قصد الفتك به » •

ان الأمور فى دولة آل عثمان بناء على هذا تدار على الكيف والهوى وأنه لا أثر للانصاف فيها •

حقيقة لا يستنتج من عبارة المؤيد أمس غير هذا الاستنتاج واذا كانت الشئون العامة تجرى على غير نظام ثابت فى مملكة كبيرة مثل مملكتنا العلية وان الشخصيات هى صاحبة القول الفصل فى كل شيء فيها • فهل يلام مبغضو الحكومة التركية اذا هم بنوا على ذلك العلالى والقصور وجعلوا المسائل الفردية سببا لتحليل القضايا الكلية ؟

اننى وكل عاقل فى هذه الديار نوافق المؤيد الأغر على استنكاره لهجة الناقمين على الدولة العثمانية من أجل مسألة عزيز ، ولكنى مع ذلك أخشى أنه ان لم تلاحظ الدولة فى أمره كرامة مصر والمصريين ان يزيد عدد خصوم هذه الدولة فى مصر ويستعصى على المؤيد وغيره الوقوف أمام سيلهم المنهمر •

وخير حل لهذه النازلة الكبرى والمصيبة العظمى أن تطلق الحكومة سراح عزيز ، هذا سواء صح أنه حكم عليه أو لم يصح لتفتدى به شعبا مخلصا وأمة غيورة على مملكة آل عثمان من قديم الزمان •

مسلم

ويأبى المقطم الا أن يشترك فى المعركة — ولكن على طريقته وطبقا لسياسته — ففى عدده الصادر فى ١٣ ابريل ١٩١٤ تحت عنوان بين مصر وتركيا : مسألة عزيز بك المصرى ، خرجت من الطور الخصوصى ودخلت فى الطور العمومى ، وقد جاء فى ذلك ما يلى :

« قالت الحكماء : (ان الصغائر تولد الكبائر) وقال الشاعر : (ومعظم النار من مستصغر الشرر) واذا راجعنا تاريخ السلطنة العثمانية وجدنا أن كثيرا من المصائب العظمى التى أصابتها انما أصابتها باغفال الذين يقبضون على زمام حكومتها لتلك الحكمة وعدم اهتمامهم مثلا فى الحوادث فى أوائلها •

ونحن نخشى ان القائمين على زمام حكومتنا العثمانية الآن يرتكبون

الخطأ الذى ارتكبه الذين تقدموهم فجرت عليهم حرب البلقان حديثـــا ومصـــائب عديدة قديما وذلك اذا ظلوا يصمون الآذان عن سماع رجـاء المحبين والأصدقاء ويغمضون الأجفان عن رؤية العوامل التى تزداد قوة وشدة فى مسألة عزيز بك المصرى يوما فيوما ٠

ابتدأت هذه المسألة صغيرة لا يحتاج تلافيها الا الى عناية قليلـــة بمعاملة عزيز بك كما يعامل سواه أمام كل محكمة عادلة ٠ ولكنها تركتها تكبر وتذبح كان اهتمام الأمة المصرية وغيرها من الأمم العربية بأمر ذلك البطل لا يستحق التفاتا بل يستوجب معاملة عزيز المصرى معاملة مغايرة لمقتضى العدل ومخالفة لما يعامل به غيره ممن يتهم تهمته فضلا عن ذلك ان أخبار هذه المسألة شاعت فى أقطار الأرض طولا وعرضا فتناولتها الجرائد العربية فى كل البلاد التى يخفق عليها علم الحرية ٠

***

فالصحف العربية فى أمريكا غربا تأتينا حافلة بالمقالات عن عزيز بك بعبارة أحد ولهجة أشد مما تنشره صحف العـرب فى مصر وغيرها شرقا وكلها تنصح لحكومة الآستانة بوجوب اتباع العدل فيها وتحذرها من سوء عواقبها ٠

وذلك لم يقتصر على الصحف العربية بل عم صحف الافرنج أيضا فى مصر وأوروبا وأمريكا وخصوصا انكلترا فقد بزت صحف العرب بل فاقتها اهتماما بهذه المسألة ٠ وجرت جريدة التيمس فى طليعـــة صحف العـالم فى هذا المضمار فاصبح عزيز بك من أبعـد أهـل الشرق صـيتا وأصبحت مسألته من المسائل الكبرى التى أحاط العالم المتمدن بها علما ٠

ويستفاد من الرسائل الخصوصية الواردة من الأقطـار العربية أن هذه المسألة أثرت فى النفوس أسوأ تأثير حتى لقد اطلعنا على تلغراف طويل وارد من بلاد عربية قاصية سمع مرسله أن قوما يذيعون أنه انحاز الى أعداء عزيز بك فأرسل على جناح البرق يكذب ذلك ويحتج عليه ويبرأ الى الله منه بالاصالة عن نفسه والنيابة عن كل من كان من حزبه ٠

***

وهذا الاهتمام بأمر عزيز المصرى لم ينحصر فى العرب وحدهم من العثمانيين بل ان اخواننا الترك المترفعين عن الأغراض المقيمين عـلى ولاء الجامعة العثمانية الصادقين فى تأييد دولتنا العلية شاركـوا العرب فى استيائهم من هـذه المسألة وجاهر المطلعون على حقيقتهـا بكذب الشـهود

الذين شـهدوا على عزيز بك وقالوا ان أولئك الشـهود من أسفل الناس أخلاقا وأقلهم صدقا .

واليوم انتقلت مسألة عزيز بك من حيز الخصـوصيات الى حيز العموميات وخرجت من دورها القديم ودخـلت فى دور جـديد فبات العثمانيون المقيمون فى هذا القطر يخشون أن رجال الآستانة يوصلونها الى حد تكون عنده سببا فى شر مستطير بين تركيا ومصر ويخافون أن تحمى نارها ويطير شرارها حتى يجل الخطب ويتسع الحزن على الواقع فى بلاد العرب .. لا نقول ذلك على سبيل التهويل اذ ان القراء يعلمـون بغض المقطم للمبالغة وحبه للاعتدال وما نعنى بما نقول ما كتب من الآستانة الى بعض الصحف العربية المحلية من أن سفيـر انكلترا أنذر الحـكومة العثمانية بأن حكومته لا تسكت على ظلم عزيز بك فذلك أمر مفهوم وخبر معلوم ولكن نعنى أمرا آخر لا بد ان تكون قد علمته القوميسيرية العثمانية السامية فى هذه الآونة مما بلغها من ذوى المقامات العالية الذين اشتهروا بالصراحـة والحريـة واعلان الحقـائق مجردة عن الحواشى ومعراة عن الغواشى .

★★★

وقفت مصر من الآستانة فى مسألة عزيز بك موقف الابنة من أمها المتعلقة بعرشها الهائمة بحبها ترفع اليها يد الضراعة والرجاء لترفق بحال ابنها عزيز وتعامله بالعدل والانصاف فتطلق سراحه ان كان بريئا وتشمله برحمتها ان كان غير برىء ونشرت الاسترحام والاستعطاف على صفحـات جرائدها ورفعت عرايض الرجاء على جناح البرق وعقـدت الاجتماعـات برئاسة رئيسها شيخ الاسلام ورفعت آمالها وأمانيها الى الآستانة عـلى يده . ولزمت فى ذلك كله جانب التذلل والخضوع اظهارا لمزيد اجلالها لحكومة الآستانة وشديد حبها لها لكونها مشمولة بأنظار أمير المؤمنين جلالة المتبوع الأعظم الذى برهنت مصر غير مرة أنها تبذل أموالها وتهدر دماء رجالها تأييدا لعرشه .

ومن سوء الحظ أن بين سكان هذا القطر فئـة لا تقـدر العواقب ولا تدرك الأسباب التى تهيج الأم .. فهذه الفئة جعلت دأبها أن تكتب الى الآستانة عن كل حادثة بان لا تبالى بها زاعمة أنها حركة مصطنعة وان أهل مصر لا يهمهم عاش النابغون بينهم أو ماتوا وظلموا أو لم يظلموا فكانت أقوال هذه الفئة تؤثر تأثيرها الضار فى نفوس الملقاة اليهم مقاليد الأمور فى الآستانة فلا يعبأون بما يجرى فى مصر وسواها بل يزيـدون تشديدا على عزيز بك وشططا عن سبيل العدل والانصاف فى معاملته .

وأخيرا علم المصريون ذلك فكبر على أحرارهم وأثار ثائرتهم حتى رأينا جمهورا كبيرا منهم يقصد بالأمس الوكالة البريطانية ويأبى أن يقصد القوميسيرية السامية العثمانية وعلما أن بعض المقامات العلية أبلغ القوميسيرية العثمانية وبما أشرنا اليه آنفا ٠

***

فرجاؤنا نحن العثمانيين المتمصرين أن القوميسيرية تطلع حكومة الأستانة على الحقيقة ليعلم رجالها أنهم ان لم يتلافوا مسألة عزيز فى الحال فقد تفتح باب شر عظيم فى الاستقبال وتكون سببا لحزن العثمانيين المتمصرين ليس مما يقع بين تركيا ومصر فقط بل مما يقع بين مصر وغير تركيا أيضا وما على القوميسيرية العثمانية من حرج اذا أبلغت الخبر ٠ فقد أعذر من أنذر ٠ والسلام ٠

***

ويكتب فى المقطم (١٧ أبريل ١٩١٤) محمد الغنيمى التفتازانى قائلا :

حدثت مسألة عزيز بك المصرى ولم أحرك قلمى ، لا لأنى أعلم حقيقة المسألة وملابساتها ، ولا لأنى أجهل ما نصب لعزيز المسكين من الشراك التى وقع فيها ، بل لأنى وضعت نفسى موضع المنتظر الصابر الذى ينتظر النتيجة الا أن هذا الصبر قد نفد وسئمت الانتظار فرأيت أن أفرج عن قلبى كربة تكاد توقف حركاته بكتابة كلمتى هذه الى المقطم الأغر ٠

***

قالوا ان الحركة التى قامت فى مصر لأجل عزيز هى حركة مصطنعة ٠ وما أجهل ذلك الذى يصوب السهم بيده الى صميم فؤاده فيصرخ ويبرهن على أنه من أمة تحركها الأيدى كأنها عصا فى يد لاعب بها ، قالوا ان المقطم يغالى فى الكتابة عن مسألة عزيز وفى تقدير شعور المصريين بالنسبة لعزيز وأرى أن المقطم لا يكتب فى المسألة الا ما تعوده من الصراحة فى مثلها من مسائل ولا سيما مع رجال الدولة الحاليين والمقطم بلا شك قائم بواجبه نحو شعب يقيم بين أفراده ٠

بقى علينا أن نفحص الأدلة التى يقيمونها ، على أن المراد من كتابة المقطم فى مسألة عزيز ليس فصم روابط الألفة والمحبة بين العثمانيين

والمصريين (المقطم العثمانى قبل كل شيء) : ألا يذكرون موقف المقطم فى الحرب الطرابلسية والبلقانية وحضه المصريين على امداد دولتهم واخوانهم ٠

ليت أولئك الصائحون ناقضوا الحجة بالحجة وقرعوا الدليل بالدليل ٠٠ دليل المصريين على قيامهم بمظاهراتهم من أسوان الى رشيد طلبـــا للافراج عن عزيز : انه ابن يستصرخ أمه وأخا يستنصر اخوته ٠

ماذا يقولون وهم يعلمون خطورة موقف عزيز من أعداء مدفوعين الى عداوتهم بعوامل شخصية ٠

ماذا يقولون وقد رأوا رد أنور باشا على برقية مولانا شيخ الاسلام ٠

★★★

ماذا يقولون وقد رأوا نصرة الأتراك المخلصين لدولتهم لعزيز ودفاعهم عنه ، أبعـــد ذلك كله يصمون المصريين بأن يدا تحركهم وأن حـــركتهم مفتعلة ٠ كنت أريد أن أقول : ماذا جنى عزيز حتى يحاكم ، ولكنى أفضل أن أقول ان المسألة مسألة أمة تأمل من شقيقتها أملا وترجو منها تحقيقه٠٠ عزيز مصرى فلماذا يتصدى اليمانيون وأهل جزيرة العرب للدفاع عنــه بأشد مما دافع عنه اخوانه الذين تربطهم بالدولة رابطة أحكم من رابطتها بسواها ٠٠ عزيز برىء فلماذا يتهم وكلنا يقدر خدماته ٠ اذا كان اليمانيون الذين حقن عزيز دماءهم بابرامه اتفاقية الامام يحيى المشهورة التى ربحت منها الدولة رجالها وأموالها يرسلون الوفود الى الآستانة لتخليص عزيز والدفاع عنه ، فهل نقول عنهم أنهم مدفوعون الى ذلك بيد حركتهم من وراء ستار ٠ انكم تجنون على مصر وعلى الدولة معا من حيث لا تشعرون، اذكروا أحوال الثورة العرابية الأولى لما كان المندوب العثمانى فى مصر كلما يسأل عن أمر الثورة يقولون ان البلاد هادئة ، فماذا انفعنا بهذا الايهام ، الحركة حركة وطنية تدل دلالة واضحة على قوة تمسك المصريين بالدفاع عن أفرادهم ٠ أنا لا أقول التجئوا الى غــير الدولة ليخلص عزيز ولكن عزيز نفسه يقول اذا كان خلاصى ضرر بدولتى فانى أفضل الموت والقتل على أن أكون سبب ذلك الضرر ٠ فشعور فتى باسل وبطل كهذا تفقده الأغراض وتميته عوامل الحقد الشخصى حرام ومعرة ٠

★★★

ان جلالة متبوعنا الخليفة الأعظم أمير المؤمنين يعلم ولا شك أحوال المسألة وملابساتها ويذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) فعزيز أجدر بالاعزاز وبأن يكون عدة على الأعداء لا لهم ٠

ان ماضى عزيز كله نقى طاهر لا يشوبه دنس ولا تهمة ـ عزيز الذى يدفعه الشوق لأن يكون جنديا فى الجيش العثمانى ليحارب فيه مع توفر الأسباب المعيشية الهنيئة له فى بلاده لا يجب أن نفقده ـ عزيز الذى يقيم شعور العثمانيين لشخصه ويقعده لا يصغر شأنه ولا يهان ، فكيف به وقد أودع السجن فى أحوال كان يعتقد أنها مكافأة له وتعضيد .

★★★

بالغوا فى توخى الحكم فى كتابتكم ، اعتضدوا بالمبدأ الحق فيما تقولون ، لا تصغروا شأن أمتكم ولا دولتكم : انقضوا الدليل فيه فانكم لا تطلبون الا حقا ولا تنشدون الا عدلا . ثابروا على استرحام خليفتكم ودولتكم لتابع منكم ألقته يد البغضاء بين أنياب قوم يضمرون له الحقد ، أيدوا قوميتكم فقد اسقطكم الذين يقصدون النيابة عنكم مع أنهم هم المغرضون الذين تحركهم الأيدى التى تجهل مراكزكم وتستهين بجيشكم ، فلا شك أن دولتكم عالمة بحقيقتكم مجيبة لرغباتكم منقذة ذلك المظلوم البرىء الذى هو من خيرة أبنائكم وأندرهم مثالا . الوقت قصير وليس للمناقشة مجال فهبوا للعمل وليس العمل الا بالجد وليس الجد الا بتقويم المنهج .

★★★

أما الذين يقولون ان المصريين يقطعون علائقهم مع دولتهم فهم يهزمون بما جهلوا ، فدولتكم العلية أقدر على قدر شعوركم ولكن أين ميزان الصدق وأين رجال الحقيقة هناك خليفتنا الله ورسوله وآل بيته معك يا عزيز . والله كفيل بردك الينا حتى نرى بطلا ينجبه القرن العشرون فى مصر انه مجيب الدعاء .

★★★

ويكتب أحمد عبد الرحمن فى المؤيد (١٥ ابريل ١٩١٤) تحت عنوان : عزيز المصرى والشيخ جاويش والشيخ صالح التونسى : لماذا ينقم الشيخ جاويش على عزيز المصرى ، عبد اللطيف وعزيز بك فى طرابلس من بعد الشيخ صالح التونسى ؟ وقد جاء فى ذلك المقال :

« علم القراء مما جاء فى أنباء البرق بموضوع السعايات التى يقوم بها الشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ صالح التونسى للايقاع بالبطل عزيز بك المصرى وما يدبرانه من التهم انتقاما من هذا الضابط الشجاع ، مجاراة ارضاء من جهة وتزلفا لبعض ذوى السلطة فى الآستانة من جهة أخرى .

وعلموا أيضا ان الشيخ جاويش والشيخ صالح التونسى هما فرسا رهان هذه الرواية المحزنة التى اسخطت النفوس وأدمت القلوب ، ولما كنت أعلم من أسرار أدوار هذه القضية شيئا كثيرا وكنت أعرف كما يعـــرف الكثيرون من المصريين الذين شهدوا الحرب الطرابلسية ـ الأسباب التى تدعو لدخول هذين الشيخين فى موضـــوع السعايات والوشايات ، لذا رأيت أن أشرح للقراء بعض تلك الأسباب ليكون الرأى العام دائما على بينة من كل فروع وأوجه الدعوى فأقول :

لما نشبت الحرب الطرابلسية حضر أنور بك يومئذ للقاهرة قاصدا برقة وكان يقيم فى فندق « الكونتننتال » باسم حمدى بك مراسل احدى الصحف التركية ، فلما طلب رفيقا وخبيرا بطريق الصحراء ليذهب معه الى برقة بادر الشيخ جاويش بتقديم أخ له يدعى عبد اللطيف جاويش فاصطحبه هذا مع بعض أشخاص آخرين رافقوه حتى درنه • فأراد أنور بك أن يكافىء الشيخ جاويش على هذه الخدمة وكان أخوه قد هم بالعودة الى مصر مزودا بالمكافأة والأجر ففكر أنور بك فى أن يجلب الى المجاهدين من القطر المصرى بعض ما يحتـاجونه من البضـائع والأمتعـة والأقمشة واللوازم البيتية ـ فأعطى عبد اللطيف جاويش ٥٠٠ جنيه وتحويلا على القوميسيرية العثمانية فى القاهرة بألف جنيه وكلفه ان يشترى ما يحتاج اليه المجاهدون ، فعاد عبد اللطيف جاويش بعد ذلك بقافلة من الجمال محمولة عليها هذه الأشياء من الاسكندرية وأقام خيمة كبيرة فى معسكر درنة كحانوت للبيع والشراء فكان يبيع ما قيمتـــه قرش واحد بعشرة بلا ممانعة ولا مراقبة من قومندانية الجيش ، وتفضل أنور بك فكلفـــه بتقديم ما يلزم من البضائع للضباط والجنود فحصل على مبالغ طائلة من هذا الباب •

***

وما أزف وقت السفر ـ سفر أنور ـ حتى كان للجاويش عند الجيش العثمانى ديون تبلغ بضعة آلاف من الجنيهـات ، دفع أنور بك بعضها • فلما وضعت الحرب أوزارها وغادر أنور بك برقة أرض العرب وذهب الى مقدونيا وحل محله البطل عزيز بك ، وفى تلك الأثناء عاد عبد اللطيف جاويش فطالب عزيزا بهذه الألوف من الجنيهات التى يزعم أنها كانت باقية له فى ذمة الجيش ، فاعتذر له عزيز بك بان الاعانات التى ترد من مصر بعد ذهاب أنور بك صارت قليلة بحيث انها لا تكاد تكفى الا لسد بعض حاجة المجاهدين •

وزاد على ذلك أنه لا يعرف حقيقة تلك المبالغ وحساباتها وليس في طاقته مع الضيق الحاصل دفع تلك المبالغ الطائلة وقال لعبد اللطيف : انك تستطيع الحصول عليها من القوميسيرية العثمانية في القاهرة ، وكان لدى عبد اللطيف جاويش عدا ذلك كمية عظيمة من الأوراق المالية التي أحدثها أنور بك على مثال أوراق « البنك نوت » وكانت مطبوعة على مطبعه الغراء « الفيلوسجراف » وظهر فيها تزوير هائل ، ولما كان المال عند عزيز بك قليلا بحيث لا يكفي لصرف هذه الأوراق خصوصا وقد ظهر فيها التزوير • لم يقبل عزيز أن يبدلها لعبد اللطيف جاويش بنقود وأحاله على القوميسيرية العثمانية أيضا •

هذه الذنوب هي التي أثارت السخط في نفس عبد اللطيف جاويش على عزيز المصري ، فصار يكيد له المكائد ويدس له الدسائس بين بعض الضباط والعرب وكتب الى أخيه الشيخ في الآستانة تقريرا مستفيضا يبين له فيه مقدار الخسائر التي عادت اليه من جراء رفض عزيز بك دفع هذه المبالغ له ، واتهم عزيز بأنه كان يسبه وينسب له الحماقة والعمل على خراب الدولة • فأسرها الشيخ في نفسه الى أن عاد عزيز الى الآستانة •

★★★

أما الشيخ صالح التونسي الذي يعمل على الايقاع بعزيز مع شيخنا الجاويش ، فأصله من تونس ظهرت فيه حماقته وضعف ذمته واستعماله وسائل الدين غرضا لمنافعه الشخصية فنبذوه منها وأعلنوا انحطاطه فيها فجاء الى الآستانة في عهد حكمها الاستبدادي وهنالك تسلق بسرعة متدرجا في مناصب الجاسوسية فأرسلوه الى دمشق براتب حسن يتناوله لغير عمل رسمي ظاهر للناس فظل هناك مثابرا على ما عهد اليه الى أن أعلن الدستور فانقطع راتبه مع كل رواتب الجواسيس ، فأخذ يحرك العامة باسم الدين على رجال جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا يومئذ من فريق المصلحين ، وظل عدوا لهم الى أن تبدلت خطتهم ورجعوا الى سياسة التسلط ومعاداة الحرية وكم الأفواه وسحق المصلحين ، وحينئذ صار الشيخ صالح التونسي صديقا لهم ، وأخذ ينشر أحاديثه وأقاويله المضللة بان الاتحاديين خير من حكم بلاد آل عثمان وأفضل أمراء الاسلام ، فصدقه القوم وعلقوا الآمال على الاستفادة منه في عهدهم ، كما استفادت منه الحكومة السابقة •

★★★

واتفق أن سعادة الأمير على باشا نجل المجاهد العظيم المرحوم الأمير

عبد القادر الجزائرى أخذته الغيرة على بلاد طرابلس منذ الرحال اليها من دمشق للدفاع عنها وأخذ فى ركابه الشيخ صالح ٠

فكان هذا الأمير ينفق عليه ويحسن اليه فى مطلع كل شمس ، وقربه منه وكان يقيم معه فى خيمة واحدة ، لكنه بعد أن أقام معه بالمعسكر بضعة أيام علم بأنه وشى فى حقه لأنور بك وقال له ان هذا الأمير يريد زعامة العرب وأخذ السلطة وقيادة المجاهدين من يد أنور ، فغضب عليه الأمير على باشا وطرده من خيمته فالتجأ الى أنور فأحسن هذا اليه وأكرم مثواه ونصب له خيمة أمام باب خيمته ، فكان شأن الشيخ صالح التونسى مع أنور بك شأن كهنة المصريين القدماء أو العرافين والدجالين لدى أهالى الصين ، فلا يقضى أنور بك أمرا ولا يبرم شيئا الا بعد أخذ رأى الشيخ صالح التونسى وبعد أن كان يقوم الأخير بعمل الاستخارة اللازمة فطار صيت هذا الشيخ بين قبائل العرب وكانوا اذا أتوا لحاجة من أنور لزيارة المعسكر من أقاصى بلادهم يزورون الشيخ قبل زيارة أنور بك وقد استدعت هذه المعاملة من أنور بك خواطر السادة السنوسيين ـ مشايخ الزوايا السنوسية وتوجيه سهام اللوم والانتقاد على هذه المنزلة الرفيعة التى صارت للشيخ صالح على غير استحقاق وهم رجال الفقه والشريعة فى البلاد ٠ وحدث أن الشيخ صالح كان يخطب فى بعض المجتمعات لحث القوم على الجهاد فخرج فى خطبته عن الموضوع وأغرق فى مدح الترك واصلاحاتهم فى طرابلس وفضلهم على السابقين من أمراء الاسلام والعرب ، فقام عليه العرب قومة رجل واحد وأظهروا سخطهم واستياءهم من هذا الكلام ، فلم يعد بعد الى الخطابة قط خوفا على حياته من العرب ٠

★★★

ومما يذكر أن أنور باشا عندما وصل الى درنة حمل النشان العثمانى الأول والسيف المرصع الذى تكرم مولانا السلطان باهدائه للسيد السنوسى وألف أنور بك وفدا من كبراء الموظفين وأعيان العرب ومشايخهم للذهاب بهذه الهدية الى السيد السنوسى فى الكفرة ، وكان ضمن هذا الوفد الشيخ صالح التونسى بصفة أمام جيوش المجاهدين العثمانيين ٠٠ !! فحنق العرب لهذا الأمر وأظهروا سخطهم واستياءهم ودخل سيدى «العلمى» شيخ الزاوية البيضاء وزعيم قبيلة البراعصة الدينى على أنور بك وقال له : ليس مما يسر السادة السنوسيين ولا مجاهدى العرب ان يكون مع الوفد الذى يذهب بالهدية الى مولانا السنوسى رجل منافق زنديق ٠ وخرج من بين يدى أنور بك وعقد مجلسا حضره مشايخ الزوايا لاظهار احتجاجهم على هذا العمل وتبليغ استيائهم واستياء العرب الى أنور بك وباقى هيئة ضباط أركان

الحرب ، وحضر هذا الاجتماع الأمير شكيب ارسلان والدكتور عزت الجندى وكاتب هذه الأسطر وكثير من المصريين الذين كانوا فى بعثات الهلال الأحمر المتطوعين ، فاضطر أنور بك الى أن يخضع لهذه الارادة السامية وان يبعد الشيخ صالح عن هذا الوفد ٠

***

وقد كان عزيز بك فى بنغازى حينذاك وكان يعرف كل ما يجرى فى معسكر درنة فكان يضحك من هذه الأمور ويسخر من الشيخ صالح وادعائه علم الغيب ومواقيت الانتصار والخذلان فى الوقائع الحربيه فوصل الى علم الشيخ صالح كل ما وصل الى علم أنور بك من هذه الاخبار وكان بعض الضباط الذين يطردهم عزيز من معسكره فى بنغازى لخيانتهم أو لعـدم قيامهم بواجباتهم كما يجب ، يعودون الى درنة فيجسـمون هذه الاخبار ويفترون على عزيز بك افتراءات كاذبة ليوسـعوا الهوة بينـه وبين أنور وليثيروا سخط الشيخ صالح ـ وهو أقرب المقربين لأنور بك ـ على عزيز بك حتى تزداد النار اشتعالا عند أنور وليصوروا عزيزا بالعـدو العربى اللدود فوصلوا الى بغيتهم وحصلوا على ما أرادوا ٠

ومما يذكر أن الشيخ صالح ، نجم ذات مرة ـ أى قرأ الطالع ـ لأنور بك وقال له انه يوجد شخص زميل له يريد أن يأخذ منه السلطة ويعلن استقلاله فى البلاد ـ والقارىء قد علم من هو المقصود بهذا الكلام ـ فدعا هذا الى زيادة النفور بين أنور وعزيز والى الاسترسال فى سوء الظن والريبـة ٠٠

***

ومما يجب ذكره هنا ان الشيخ صالح كان يأخذ مرتبا شهريا من أموال المجاهدين قدره ثلاثون جنيها عدا الطعام والشراب فى خيمة الأكل مع أنور بك وباقى الضباط وعدا القهوة والشاى والأقمشة التى كانت توزع ، وعدا الهدايا التى كانت ترد عليه من ملتمسى الفائدة على يده ٠ وكان على خيمته اثنان من الجنود عدا الخدم والجوارى ، وقد جلب معه عند عودته لمصر جارية أهديت اليه ولكى يخلص من مراقبة قلم الرقيـق المصرى عقد عليها وأخذها معه الى الآستانة ٠

***

وكذلك كان عبد اللطيف جاويش فان أموال أنور بك وهى من دماء المصريين ومن حقوق المجاهدين دون غيرهم قد غمرته فصار يعيش معيشة

أهل الترف والنعيم ويلبس الملابس الحريرية ويرفل في الخز والديباج في معسكر درنه وتزوج بأربع زوجات من أجمل البنات عـــدا من كن له من المحظيات والجواري بشراء المال · ناهيك بالخدم والعبيد الذين كانوا تحت أمرته · كل هذه النعم كان يتنعم بها عبد اللطيف جاويش على حساب الأمة المصرية ·

***

ولم يكفه ذلك حتى أراد الانتقام بواسطة أخيه الفاضل ·· !! بانزال بطش الدولة العثمانية على شاب من أعز أبناء مصر على مصر ، كل ذلك لأنه لم يغمض عنه عينه وهو مسترسل في تيار مطامعه الأشعبية وشهواته ·

***

هذه صفحة صغيرة من تاريخ أبطال التهم الملفقة على بطـل برقـــة نشرناها لتكون بيانا للناس ·

وهناك أمور وأسرار أخرى أمسكنا القلم عنها الآن ريثما يعود القوم الى رشدهم والا زدنا فضائحهم بيانا ·

والســــلام ،،،،

***

وكما كان متوقعا فان الحكم بالاعدام قد صدر من المجلس العسكرى ضد عزيز بك المصرى ولكن أول من نشر نبأ الحكم على عزيز على المصرى جريدة التيمس البريطانية في برقية لمندوبها في الآستانة ، وقد أضـاف ذلك المندوب أن الحكومة خففت الحكم الى السجـــن ١٥ سنة ، ولم تنشر الصحف التركية في الآستانة لا الى القضية ولا الى الحكم من قريب أو من بعيد · كان اعلان الحكم في الساعة الثانية والدقيقة العاشرة من صباح يوم الأربعاء ١٥ ابريل ١٩١٤ وقد ذكرت نظارة الخارجية البريطانية أنها ستهتم اهتماما بالغا بالحكم وسوف يجرى السفير البريطاني في الآستانة مع وزارة الخارجيـة التركية مباحثات حـول القضية · وأذيع أن جـريدة التيمس البريطانية ستنشر اليوم مقالا عن الآثار السيئة التي سيتركها الحكم في مصر وكيف أن عطف مصر على تركيا سيتلاشى وكيف ان عرى الاتصال بين مصر وتركيا يمكن أن تنقطع بسبب هذا الحكم ·

وان جريدة التيمس ستقول ان الذين دبروا هذه المكيدة لعزيز بك هم أنور باشا ودعاة الجامعة الاسلامية في مصر وأنه يجدر بأولئك الكائدين أن يفهموا مبلغ الضرر الذى أحدثوه بتدبيرهم هذه المؤامرة ·

وتقول التيمس أيضا : إن العالم العــربى لن ينسى فى وقت قصير الظلم الذى حاق بالبطل المصرى المشهور بمكارم الأخلاق والغيرة على دولته وأمته •

وتنشر التيمس برقية من القاهرة تفيد أن الجــواسيس العثمانيين منتشرون فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية لجمع الأدلة الملفقة على الذين يعارضون خطة القوميسيرية العثمانية السامية وسياستها •

★★★

وفى ١٨ ابريل ١٩١٤ ينشر المقطم العديد من التلغرافات من بينهـا مثلا :

« لندن يوم السبت ١٨ ابريل الساعة ٢ والدقيقة ١٢ صباحـــا » (الموافق الساعة ٤ والدقيقة ١٥ من صباح اليوم بحساب الوقت فى مصر) •

اشتد اهتمــام الجمهور فى انكلترا اشتدادا عظيمـا بقضية عزيز بك المصرى بعد الذى نشرته صحف لندن الكبرى عنها •

وستنشر جريدة التيمس وجريدة الديلى ميل اللتان تصدران هذا الصباح ما تلقتاه من القاهرة عما جرى فيها أمس من زيارة وفد من أعيانها للوكالة البريطانية والمظاهرة التى أقيمت فيها عطفا على عزيز بك •

والمظنون فى الدوائر الرسمية الانكليزية أن عفو البــاب العــالى عن عزيز بك يوشك أن يكون فى حكم المقرر بسبب الضغط من القطر المصرى ولندن اذ أن الأستانة لا يسعها الاغضاء عن هياج الخواطر فيها •

وفى المقطم (١٩ ابريل ١٩١٤) نشر ما يلى :

علمت أمس أن بطل برقة عزيز بك المصرى دعى الى الديوان العسكرى بعد الانتهاء من محاكمته التى أجملتها فى رسالتى السابقة فقلق الجمهـور لهذا الخبر وقالوا ان وراء الاكمة ما وراءها وان أعداءه كادوا له مكيدة جديدة للتسويف فى أمره وابقائه فى سجنه زمنا طويلا وقد استطلعت مطلع الخبر من المصادر التى لا أرتاب فى صحة أقوالها فعلمت أنه انمـــا دعى أمس لاستجوابه عن أمور تتعلق ببنغازى وليس لاستماع شكايات جديدة • وان استنطاقه جاء مكذبا للتهم التى وجهت اليه حتى أن أكثر أعضاء المجلس اعتقدوا ببراءته رغم ما أودعه أعداؤه فى صدرهم من الحقد عليه والبغض له •

★★★

سألوا عزيز عن النقود التى اتهم بأخذها وعن طرق انفاقها وما كان

انهم تعجبهم لما تأكدوا أن الحكومة ما تزال مدينة له بنيف وألف ليرة عدا رواتبه مدة تسعة أشهر .

ومن غريب ما جرى أن الشركسي رشيدى ورمزى المهداوى هما اللذان اتهماه بمسألة النقود لأنه أبى أن يقتسم معهما مبلغ ثلاثة آلاف ليرة قبل مجيئه من بنغازى وقد صرح عزيز بك بذلك أمام المجلس العسكرى وأقام الأدلة الدامغة على براءته وصدق كلامه .

وقد انتهى المجلس من درس أوراق عزيز بك أمس الساعة الرابعة بعد الظهر ولكنه لم يصدر حكمه بعد . ويؤكد قوم أنه لم يخرج من سجنه اليوم أو غدا لأن المحاكم أظهرت براءته فنبية الجماعة تكون مما يسوء أصدقاءه ويسر أعداءه .

***

وتحت عنوان : ويأتيك بالاخبار من لم تزود .. يكتب المقطم (١٨ ابريل ١٩١٤) قائلا :

زار ادارة المقطم أمس رحالة شرقى طاف ببلاد برقة فى مدة الحرب الايطالية وقابل قوادها العثمانيين والايطاليين وتعرف بعزيز بك المصرى فيها وعاشره معاشرة الصديق للصديق ودون أهم ما رآه وسمعه وعلمه فيها فى مذكرات محفوظة لديه ، فلما قرأ ما أصاب عزيز بك فى هذه الأيام وعلم أنه جوزى جزاء سنمار وحكم عليه بالإعدام بتهم ما أنزل بها من سلطان ، كبر ذلك عليه وهاج غضبه على أعدائه وظالميه ، فتأبط مذكراته وطلب مواجهتنا والقاها بين أيدينا وقال : أرى أنهم يتهمون عزيز بك لخيانته والتواطؤ مع الايطاليين ويزعمون أن غيره كان أعظم منه وفاء وأصدق ولاء والله يعلم أنهم كاذبون .

خذوا هذه المذكرات التى خطتها يمينى سنة ١٩١٢ كما ترون من تواريخها ، واقرأوا بعض ما كتبته فيها عن عزيز بك وأنا فى بنغازى فقلبنا تلك المذكرات فوجدنا فيها أشياء كثيرة عن عزيز بك وغيره وعن بلاد برقة وأهلها والعساكر الايطالية . فنقلنا عنها ما يأتى فى هذه العجالة ، وربما نقلنا عنها فصولا أخرى فى فرص أخرى . قال فى ٩ كانون أول (ديسمبر) سنة ١٩١٢ .

***

اجتمعنا بقنصل ايطاليا وكان معه ترجمانه الأول نجيب بك فجعل يترجم بيننا ، ودار الحديث على أمور كثيرة وعلمت من القنصل أن قائد

بنغازى الايطالى كتب كتابين عقب الصلح وأرسلهما الى عزيز بك فلم يرد عزيز بك عليه قط وأما أنور بك فرد على ثلاثة كتب جاءته من قائد درنة وكان كلامه فيها بغاية اللطف والرقة ولم يقتصر على ذلك بل قابـــل الضابط الايطالى الذى أوفده اليه قائد درنة ولاطفه وأكرمه وأظهر القنصل مزيد العتب على عزيز بك وقال ان الآداب العسكرية تقضى على القائد أن يرد على زميـــله اذا خاطبه ولو كانا عدوين • فقلت للقنصـــل انى أعـرف عزيز بك وهو ليس ممن يقع منه قصور فى حفظ الآداب العسكريـــة ولكنى أظن أنه يحسب نفسه مجردا عن الصيغة العسكرية بعد عقد الصلح بين الحكومة العثمانية وايطاليا ولذلك لم ير لزوما للرد على القائد الايطالى لان العرب المجاهدين معه لا يستحسنون ذلك • فقال : وهل يتجرد عزيز بك عن الرتبة العسكرية ويتركها ؟ فقلت : نعم انه يفعل ذلك حبا بأبناء عمه العرب لأن من مبدئه الذى أعرفه تماما خدمة العرب وترويج مصالحهم وتكوين جامعة عربية فان مصالح العرب عنده مقدسة ومقدمة على سواها • وقد أدركت من محادثة القنصل أن ايطـاليا تهتم بأمر عزيز بك أكثر مما تهتم بأمر غيره كثيرا لأنه عربى ولأنه جندى شجاع لا يهاب الموت ولا تهمة التلفيق والشهرة والتظاهر بالباطل لاكتساب الصيت الواسع كما فعـــل غيره •••• انتهى •

★★★

فليتأمل اللبيب ، وليحكم المنصف •• هل يجوز أن تكون مكافأة هذا البطل الضرغام السجن والاتهام والحكم بالاعدام •

وكانت المقطـم قد نشرت فى اليـوم الســابق (١٧ ابريل ١٩١٤) برقيات عن اهتمام أمراء اليمن بأمر عزيز المصرى وعن سخط أهل اليمن عما أصابه • ومن بين تلك البرقيات :

حضرات ذوى الهمم الكرام خدمة المصلحة العامة أصحاب المقطم الأمجاد •

سلاما واحتراما ـ وبعد فهذه صورة ما كتبه الينا بعض من أكابر بلادنا اليمانية عن لسان أهل اليمن عموما بخصوص عزيز بك المصرى كما ترون ـ فاذا استحسنتم نشرها فافعلوا خدمة عامة للانسانية يشكركم عليها الملأ الأعلى والأسفل لأن لعزيز بك المصرى منزلة عالية وكرامة عظيمة عند أهل اليمن وهم لا ينسون نصائحه النافعة وخدمته العظيمة حتى تم الائتلاف الذى عقد بين سمو الامام يحيى وعزت باشا قومندان القوة اليمانيـــة بالنيابة عن الدولة العلية •

وصورة هذا الائتلاف مرسلة اليكم أيضا •

السيد عبد المحسن الحسنى اليمانى ناظر بقيع مزار
السيده صفيه النبوية بمحافظة مصر

صورة ما ورد من الأقاليم اليمانية بخصوص عزيز بك المصرى •

الحمد لله دافع الملمات

سلالة العلماء العاملين ونخبة الفضلاء المرشدين ، حضرة الحسيب النسيب حسام الاسلام السيد عبد المحسن الحسنى الرصاص جعل الله نصيبنا واياه من هذه الدنيا الخلاص آمين •

بعد سلام الله عليكم فانا نحمد الله اليكم ونصلى ونسلم على سيد الوجود وعلى آله الخلفاء وأصحابه الحنفاء الذين أوفوا بالعهود وبعد •• فالداعى لتحرير هذه السطور هو ما أحرج الصدور الا وهو ما نقلته الينا الصحف خصوصا خادم الانسانية المقطم الأغر بشأن محبس المخلص لدولته وملته حضرة عزيز بك المصرى بالآستانة العلية ثم وصلت الينا الأخبار ان مجلس الآستانة العسكرى حكم أو قارب الحكم على عزيز بك بما أغضب قلوب الأمة فى شرق البلاد وغربها خصوصا أهل بلادنا اليمانية لما عرفوه من اخلاص عزيز بك المصرى لخدمة الانسانية ومساعيه الخيرية فى ابرام الصلح بين سمو الامام يحيى ودولة قومندان العساكر الشاهانية باليمن ، فكان لعزيز بك المصرى اليد الطولى فى ابرام الصلح بعد استمرار الحروب فى بلادنا أربعين سنة ، وكذا تطوع عزيز بك المصرى فى الجهاد فى وجوه عساكر الطليان بطرابلس الغرب ، وجهاده أيضا مع الضباط العثمانيين فى ثورات البلقان جنبا لجنب ، ولقد أخذ الأسف عند الأمة منتهاه ورجعنا نقول ان كل من سار مع الحكومة العثمانية بالاخلاص كافأته بوضعه فى الأقفاص • فلا حول ولا قوة الا بالله • وهنا يا عزيزنا نسألك بالله وبحقوق الانسانية ان تفيدنا عن نقطة مهمة فى هذه المشكلة وهى : هل التهمة الموجهة من أولى الأمر الى عزيز بك المصرى هى عن وقائع الحرب الطرابلسية ؟ وهل ما نسب اليه هو قبل ابرام الصلح بين الدولة العلية وايطاليا أو بعده •

فان كان ما ينسب الى عزيز بك هو بعد تسليم وتنازل الدولة العلية عن طرابلس الغرب للطليان فكل من على وجه البسيطة يرى أن الحكومة العثمانية ظهرت فى هذه المسألة بمظهر الظلم الذى لا يرضاه لها كل انسان عدوا كان أو صديقا • وانا لمنتظرون الجواب بفارغ الصبر •

والسلام عليكم ورحمة الله ،،

تحريرا فى ٥ ربيع الثانى سنة ١٣٣٢

ناصر بن منجوت الأحمر بحاشد · السيد حسن بن قاسم حاكم شرعي بحاشد · درهم بن يحيى من الأمراء · مسعود الباز على من الأمراء · محمد بن اسحاق الرصاص من الأمراء ·

جميعهم من لسان أهل اليمن

وكان المقطم قد نشر أيضا ــ ١٥ ابريل ١٩١٤ ــ مقالا عن الحكم بالاعدام على عزيز بك المصرى تحت عنوان : التوسط الأجنبي في أمره ، الواجب على الصحف · وقد جاء في ذلك المقال ما يلي :

لا يهتم المقطم بأمر عزيز بك لغرض مراعاة شخصه لأنه لا يعرفه شخصيا ، ولا مراعاة لذويه وأقربائه ولأنه لم يعرف أقرباءه ولا من هم الا بعد الاهتمام بأمره مدة طويلة ، ولا مراعاة لحزب مصرى أو عربي لأنه لا ضلع له مع حزب من الأحزاب ، بل يكره التفريق بين العناصر العثمانية عربية كانت أو تركية ، مصرية أو كردية ، ولا مراعاة الدولة أو دول أجنبية لأنه عثماني يجب ان تكون دولته العلية أرقى من كل دولة أجنبية انكليزية كانت أو غير انكليزية ···

انما يهتم المقطم بأمر عزيز بك المصرى لغرض واحد شريف وهو القيام بما يفرضه واجب الصحافة على كل صحافى طاهر الذمة صادق الخدمة ــ فانه بعد ما علم المقطم أن عزيز بك شهم شجاع قضى سني شبابه في خدمة الدولة العلية وقضاء مصلحة الشعوب العربية وفعل أفعالا تفتخر بها الدولة العثمانية يرى عدم الاهتمام بما ناله من الظلم والجور تقصيرا يعيب كل جريدة أنشئت لخدمة الحق والعدل والانسانية · وعارا على جريدة مصرية أو عثمانية تدعى حب الدولة العلية ، وعيبا على كل جريدة عربية تدعى الغيرة على مصالح الأمة العربية ·

انما يهتم المقطم بأمر عزيز بك المصرى لأن كل ما ظهر حتى الآن يدل على أنه عومل معاملة غير دستورية والمقطم قضى كل ما مضى من عمره مجاهدا في سبيل الدستور متحملا الأذى والاضطهاد لأجل الشهادة للحق وانتصار الحرية والعدل ، فمعاذ الله أن يخالف اليوم مبدأه ويمالىء الذين يريدون أن يخرقوا حرمة الدستور ويطفئوا نور الحق والعدل ؛

لا يهتم المقطم بأمر عزيز بك المصرى الا انتظارا لذلك المبدأ السامي ومحافظة عليه ·· القوميسيرية العثمانية السامية تعلم اليوم كل ما أشرنا اليه أول أمس في مقالتنا عن عزيز بك المصرى ، وتعلم أكثر منه كثيرا أيضا ، فعسى أن تكون قد قامت بالواجب عليها وابلغته الى رجال الحكومة في الآستانة لأن الأقوال التى كتبها اليها وجوه الأمة المصرية وسراة مصر وأعيانها والأقوال الصريحة الواضحة التى أبلغتها أياها المقامات المصرية

السامية هي الأقوال التي تعبر عن رأي الأمة المصرية وهي التي يجب أن يعلمها رجال الحكومة العثمانية وهي التي يحسب العاقل حسابها ويقدر عواقبها • والمقطم لم يذكر ذلك في مقالته الماضية قصد الوعيد والتهديد لأنه ما ركب في زمانه متن الغرور حتى يغتر بنفسه هذه المدة ويسدد وهو يعلم انه عثماني لا حول له ولا قوة ولا سلاح ولا عدة بل ذكر ما ذكر قصد النصح والتحذير كما يجب على كل صحافي عثماني صادق الخدمة •

***

وردت أمس الأنباء البرقية الموثوق بصحتها علينا وعلى سوانا مثبتة أن المجلس العسكري حكم بالاعدام على عزيز بك المصري •

وورد تلغراف بعد ذلك من مصدر عثماني بالآستانة أن السفارة البريطانية تداخلت وأن الحكومة العثمانية ترضى الآن أن تستبدل حكم الاعدام بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة • ثم ورد أيضا ان السعي دائر الآن لجعل هذه الأشغال التي حكم بها أقل من ذلك •

***

فان كانت القوميسيرية العثمانية تستاء من التجاء المصريين الى الحكومة البريطانية ليوسطوها في مسألة أخيهم عزيز العربي فما عليها الا أن تغنيهم عن ذلك وأن نكسب كلمانه ونطوق أعناق العرب جميعهم جميلا بأن تبذل مساعيها الحسان في اطلاق سراح عزيز بك أو نفيه الى هذا القطر فلا تسمع بعد ذلك من المقطم وغير المقطم الا عبارات المدح والشكر، وأما الآن وقد قرع المصريون الأبواب مرارا ولم يلقوا مجيبا ولم يجدوا لهم سبيلا الى طلب المحافظة على العدل الا بقرع أبواب الانكليز ولا مدافع مسموع الصوت عن عزيز المظلوم الا جرائد الانكليز وفي مقدمتها جريدة التيمس فلا يسع كل معترف بالجميل غير الاعتراف به لذويه ولو كره ذلك الذين ينطقون عن هوى لا محافظة على مبدأ شريف •

وأما ان كانت القوميسيرية لا تفعل شيئا من ذلك ، ولا تراعي خاطر أمة عظيمة كالامة المصرية بل نرضى بما لا يستطيبه عقلاء مصر وما لا يخفى علينا أمره ، وتصدق أقوال الجواسيس الكاذبين الذين يبلغونها أن الجرائد المصرية الصادقة الولاء للدولة العلية توزع منشورات الثورة ضمن أعدادها فلا تعتب على المصريين اذا اضطروا ان يقرعوا أبواب غيرها لحفظ حياة عزيزهم وكف الظلم والحيف عنه فالناس في هذا العالم تعتمد على أهل الجد والكد والذين يهتمون بعظائم الأمور • وأما الاشتغال عن ذلك بأقوال الجواسيس وصغائر الأمور فلا يشيد لدولة مجدا ولا يحفظ لأمة عظمة •

يقول المؤيد ـ ١٤ ابريل ١٩١٤ ـ عن الحكم على عزيز بك المصرى ، ولم يكن الحكم قد صدر بعد وقد جاء فيما نشره المؤيد :

يغلب على الظن أنه لم يبق في شك أن المجلس العسكرى العالي في الآستانة العلية أصدر حكمه بالاعدام على عزيز بك المصرى وأن جلالة السلطان عدله بالحبس في احدى القلاع العثمانية خمسة عشر عاما ، فقد اتفقت المصادر كلها على أن الحكم صدر وعلى أن التعديل حصل ٠

ونحن حيال حكم كهذا صدر من هيئة عسكرية أدت اليمين القانونية بأن تحكم بالصدق والذمة لا يمكننا أن نقول شيئا عن حكمها ولا يجوز لنا أن نتهمها بالغرض أو التحيز ضد المحكوم عليه ، فهى قد سمعت ما قال شهود الاثبات عليه فحكمت بمقتضى ما قالوا ٠

★★★

هذا ما يجب علينا أن نقوله بخصوص من أصدروا حكم الاعدام على عزيز بك المصرى ولكن من يرجعون النتائج الى مقدماتها والمسببات الى أسبابها يلاحظون ان الذين أدوا الشهادة أمام المجلس العسكرى ضد عزيز بك اندفعوا الى تأديتها بعوامل شتى من خصومه ، أو بعوامل البغض له أيام كان قائدا عاما لجيش بنى غازى على ما رواه المؤيد أمس وانه لو أعطيت حرية الدفاع لعزيز بك لما أصدر المجلس العسكرى فيما نظن حكما كهذا جاء أكثر مما كان ينتظره خصومه ٠

نعم لو أعطيت حرية الدفاع لعزيز بك المصرى وأبيح له تجريح شهادة الشهود لما كان هناك أدنى شك فى أن المجلس العسكرى يصدر حكما بالبراءة ولكن مكاتبو الأهرام والمقطم فى الآستانة يؤكدون أن عزيزا لم يعط حرية الدفاع ، فهذا الحكم لا يفصل فى المسألة بل يبقى مجالا واسعا للشك فى أن الرجل ذهب ضحية خصومة وأنه فتح بابا لخصوم الدولة يدخلون منه لنفث سمومهم ضدها ٠

ان الذين يرجعون النتائج الى مقدماتها يلاحظون ذلك ، ويزيد عشاق الدولة منهم عليه أن التصرفات العملية والمعنوية التى انبعث فى قضية عزيز بك المصرى كان من شأنها أن تجعل الوهم حقيقة وان الرجل سيحكم عليه حتما ، سيما وان فريقا هنا من أشياع خصمه اللدود هناك كان يؤكد ذلك ويكد ويجتهد فى جمع الشبهات لتقديمها الى المجلس العسكرى ٠ فكان من جميع هذا وذاك أن المجلس تأثر فأصدر حكمه ٠ وهكذا الباطل يسطو على الحق ٠

صدر الحكم على عزيز بك المصرى بما صدر ، فأصبح من واجبنـــا الصحافي أن نقول لرجال الآستانة العلية أن الرأى العام المصرى قابل ذلك الحكم القاسي بالحزن الشديد لصدوره على رجل من أبناء مصر خدم الدولة بالصدق والاخلاص والهمة والشهامة خمسة عشر عاما ٠ ثم قابله بالأسف أيضا لان صدوره بمثل هذه الشدة قوى الاعتقاد بان القابضين على زمام الأمر فى الحكومة العثمانية لا يبالون بالرأى العام المصرى وأن مقالة أنور باشا فى تلغرافه لفضيلة شيخ الاسلام من هذا القبيل كان من كلمات الحق التى يراد بها الباطل ٠

★★★

حزن الرأى العام المصرى وأسف للحكم على عزيز بك لا فرق فى ذلك بين المسلمين والمسيحيين أو المتطرفين والمعتدلين لأنه كان ينتظر على الأقل عند صدور الحكم بالادانة ان يشفعه جلالة مولانا السلطان بالعفو رعايـة لخاطره مصرفا لميكروب هذه النازلة ان يفعل فى النفوس فعلا سيئا ، ولكن خاب الرجاء وفشل المخلصون الذين سعوا سعيا حثيثا فى ايقاف مسألة عزيز به عند حد محدود بصدور عفو عنه ، كما نجح الذين عملـــوا فى الآستانة على تصوير الرأى المصرى أمام الحكومة العثمانية حقيرا ذليلا لا يعتد به ولا يؤبه لرجائه ٠

★★★

وهنا جناية الشيخ عبد العزيز جاويش على مصر ــ وليس بـأول جناية عليها ــ فان هذا الرجل لم يكتف بالسعى فى الحاق الأذى بشاب نابغ بطل ، ولكنه كما اتصل بنا من مصدر عال بالآستانة كان اذا وصل الى أنور باشا نبأ احتجاج من مصر أو اجتماع من سادة أو أكابر فيها يقول له لا تعبأ بهؤلاء لأنهم ليسوا فى العير ولا فى النفير ، وان الرأى العام المصرى لا قيمة له ٠

على أننا الآن وقد صدر الحكم معدلا بحبس عزيز بك خمسة عشر عاما لا زلنا نلح على حكومة جلالة مولانا السلطان أن تستصدر عفوا عنه ان لم يكن للانتفاع بمواهبه فى صفوف الجيش العثمانى ، فاكرامـــا لتاريخه المجيـــد وحبا فى عدم تعكير الصفاء بين مصر والآستانة العليـة واقفالا لباب هذه المسألة وما ذلك بالشىء الكثير ولعـل وسطاء السوء فى الآستانة يكتفون بما تم لهم من الفوز ويكفرون عن سيئاتهم بالمساعدة على اصدار هذا العفو ، وحسب الحكومة العثمانية ما هى فيه من المشاغـل الأخرى ٠ والسلام ،،،،، ٠

أما الشعب ٠٠ فقد نشرت في ١٩١٤/٤/١٧ مقالا عن الحكم على عزيز المصري قالت فيه : « كنا نتمنى أن يصدر الحكم ببراءة عزيز بك المصري ، ولقد أعربنا عن هذه الأمنية في كثير من كتاباتنا ، ولكن وقد صدر الحكم بادانته فيجب أن نخضع لهذا الحكم الذى نطقت به هيئة نظامية حلف أعضاؤها اليمين باحترام القانون والعدل : يجب أن نحترم هذا الحكم كما نحترم كل حكم يصدر علينا وعلى أصدقائنا وعلى العاملين معنا لا سيما ونحن لم نطلع على الأدلة والظروف التى استنار بها هؤلاء القضاة فى حكمهم فكل من يحاول تجريح حكمهم انما يريد أن يتحكم فى الضمائر ويعتدى على ذمة أشخاص بغير أن يكون لديه من البراهين ما يبرر هذا الاعتداء ٠

ان قضاة عزيز حكموا عليه وهم يعلمون أنهم مسئولون عن حكمهم امام الله وأمام ضمائرهم فليس لنا الا أن نقول بأنهم حكموا بما أوحته اليهم ذمتهم واذا قلنا غير ذلك دون أن نعلم عن أمرهم شيئا ودون أن نطلع على ما اطلعوا عليه ، كنا ظالمين لهم وهذا ما نربأ بأنفسنا الوقوع فيه ٠

قد يقال لنا نحن نسلم بعدالة هذا الحكم ولكن كنا نرجو أن يصدر عفو عن عزيز أو على الأقل يستبدل الاعدام بعقوبة أقل من الأشغال الشاقة خمسة عشر عاما ونحن نجيب على ذلك بأنه كان هناك أمل كبير فى تحقيق تلك الأمنية لولا تلك الحملة المدبرة التى قام بها أولئك الذين أرادوا تضحية عزيز على مذابح أغراضهم السياسية ٠

نعم نحن نصرح بصوت عال ان ادخال هذه المسألة فى دور سياسى خطير هو الذى حال دون صدور العفو عن عزيز لأن أية حكومة تحتفظ بكرامتها لا يمكنها أن ترى اغراء الدول الأجنبية على أن تتداخل فى شئونها الداخلية ثم تقبل هذا التداخل وتذعن للنتائج التى تترتب عليه ٠

نحن نعلم ان هناك قاعدة دولية متفقا عليها وهى أن الدول لا تملك أن تتداخل فى أمور دولة أخرى حتى ولو كان المراد بهذا التداخل انقاذ الانسانية من الفظائع التى ترتكب ضدها ٠

وان الأمثلة التاريخية لا تنقصنا فى هذا الباب ففى سنة ١٩٠٣ وقعت فى مدينة كتشنيف بالروسيا مذابح اليهود التى ضج العالم بأسره من هولها ومع ذلك لما أرسلت حكومة الولايات المتحدة الى حكومة الروسيا بلاغا تلاحظ فيه فقط على هذا الأمر المستنكر ، أبت روسيا أن تتقبل هذه الملاحظات ورفضتها رفضا باتا ٠

وفى ١٩ أكتوبر ١٩٠٩ قام فى مجلس الشيوخ الفرنسى عضو

وسأل المسيو ليستون وزير الخارجية عن الخطة التى تنوى الحكومة الفرنسية انتهاجها حيال الحكومة الأسبانية على أثر اعدام (فرر) فقام وزير الخارجية وصرح : (بأن قاعدة عدم التداخل فى السياسة الداخلية للحكومات الأجنبية هى قاعدة عادلة وموافقة لحقوق الشعوب التى يتعلق بها وحدها حكم نفسها بالطريقة التى تتفق عليها) وبناء على ذلك طلب عدم النظر فى سؤال العضو ٠

فلماذا أراد الذين التجأوا الى قناصل الدول الأجنبية فى مسألة عزيز معاملة الدولة العلية بغير ما تعامل به الدول الأخرى ؟

لم أرادوا ارغامها على الخضوع لأمر الأجنبى ؟ وهل اجترأوا على فعل ذلك بالنسبة لفرنسا عندما سجنت ضابطاً من ضباطنا المصريين فى الدار البيضاء ٠ لقد انكرنا هذه الحركة لما رأيناه فيها من المساس باستقلال الدولة العلية ؟

★★★

نقول هذا ولا نزال نرفع صوتنا محذرين المضرمين لنار الفتنة من الاستمرار فى سياستهم الخرقاء فقد اتصل بنا أنهم سيتخذون الحكم على عزيز سلما يصعدون عليها للاشتداد فى حملتهم المدبرة ، ونحذرهم من بذر بذور التفريق بعد أن افتضح أمرهم وانكشفت أعمالهم ٠

واذا كنا نحذر المفسدين من شر أعمالهم فاننا نحذر كل مخلص من الوقوع فى حبائل تلك الحركة الخطيرة ٠

ان القوم يأتمرون على فصم عرى الخلافة الاسلامية ، يأتمرون على بيع البلاد للأجنبى ، يأتمرون على تحريك العرب ضد الترك والترك ضد العرب وهذه منشوراتهم التى توزع فى الخفاء تدعو الى تجريد السيوف وسفك الدماء فليت شعرى من الذى يستفيد من أهراق تلك الدماء غير الأجنبى ، وهل ينتفع الاسلام بشىء اذا انتحر أبناؤه بأيديهم ؟

تقول الجمعية الثورية العربية فى منشورها الذى أشرنا اليه مخاطبة العرب : لم تسمحون بدمائكم اذا أمركم الترك بسفكها فى قتال اخوانكم ، ولا تسمحون بها فى سبيل المحافظة على حقوقكم وشرف عنصركم كما فعل ويفعل الأرمن ، أنسيتم أنه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ـ حتى يراق على جوانبه الدم

فليحذر كل مصرى من الانخداع فهذا غرض القوم ظاهر واضح فهم لا يريدون الا فتنة تجرى الدماء فيها أنهارا وتفرق أجزاء الجسم الذى

تفقد متفككه كل شيء خشيناه من أثرها في نفوس أولياء الأمور العثمانية اذا مست الحاجة لاصدار عفو عن عزيز وقد وقع ما كنا نخشاه وما حذرنا منه القائمين بتلك الحركة ٠ واننا نعتبر فضيلة شيخ الاسلام مسئولا عن جزء من هذه النتيجة ، فباسمه طلب التداخل ، وتحت رياسته تقرر هذا الطلب لأول مرة فاندفع السفير الى تقليده ٠

ثم اننا نلقي بعض المسئولية على عاتق فضيلته أمام الله ومازلنا ندهش من رؤيتنا شيخ الاسلام يطلب من دولة مسيحية أن تتداخل في شئون حكومة اسلامية ؟

يقولون ان سفير انجلترا أنذر الباب العالى مطالبا بالافراج عن عزيز، فهل يريدون أن تظهر الحكومة العثمانية مظهر الخاضعة لتلك الانذارات الأجنبية وهل بمثل هذه الوسائل ينال العفو عن الناس ؟

اللهم ان أكثر المشتغلين بتلك الحركة لم يكن يهمهم أمر عزيز ولا مستقبله وانما هم وجدوا الفرصة سانحة لنفث سمومهم فانتهزوها ٠ فاذا أراد أصدقاء عزيز وأقاربه أن يصلوا الى نتيجة مرضية فليمنعوا ذوى الأغراض من الاستمرار في هذا الطريق الوخيم العاقبة وليعلموا أن الأمل لا يزال متسعا للعفو عن عزيز اذا سكنت هذه الثائرة التى ترمى الى التداخل الأجنبى واضرام نار الفتنة ، أما اذا ظل سلاح التهديد مرفوعا في وجه الدولة فلا أمل ولا رجاء ٠

هذه نصيحة نقدمها لكل من يريد مصلحة عزيز الحقيقية فنرجو أن تصادف مقنعا من القلوب ولنعتبر بالماضى ولنترك المخلصين للدولة يسعون سعيهم وسط الهدوء والسكينة فهذا السعى هو الذى يؤدى الى الغاية المنشودة أما المساعى التى يكون سداها ٠

★★★

ويعود المؤيد ــ مرة أخرى في ١٩ أبريل ١٩١٤ ــ الى الحديث عن موضوع عن عزيز علي المصرى فيقول في كلمة موجزة :

يعلم الناس كافة أن المؤيد كان ولا يزال لهذه الساعة من أكبر أنصار البطل عزيز المصرى لاننا فضلا عن معرفتنا الشخصية له فانا نقدر فيه المزايا الفاضلة ونعرف عن حقيقة ومعلومات صحيحة أنه برىء وأن هناك أغراضا شخصية وجهت للنكاية به ٠

الا اننا مع كل هذا ــ كما قلنا في كلمتنا أخيرا ــ نرى ان المسألة قد خرجت عن مكانها الطبيعى البسيط الى حال سياسة ما كنا نحب ان

تصل اليه مطلقا والذنب فى هذا واقع على رأس القابضين على زمام الأمور فى الآستانة .

★★★

ذلك لأن اتخاذ الصحف الانكليزية ميل الأمة المصرية وحنانها وعطفها على واحد مظلوم من أبنائها وسيلة للقول بأن علائق الولاء التى تربط المصريين بالعثمانيين قد انفرط عقدها أولا ولابد من تداخل الحكومة الانكليزية وسفيرها فى الآستانة ثانيا قد حول المسألة كما قلنا من حالة بسيطة الى حالة غير مرضية من الوجهة السياسية فنحن لهذا السبب نوافق رصفاءنا الذين راعهم هذا الانتقال ، ولكنا مع الأسف نخالفهم فى توجيه اللوم والانتقاد للمصريين الكرام الذين طالبوا بالافراج عن عزيز بك ولا يزالون اليوم يطالبون بالعفو عنه وما كنا لنستحسن من رصفائنا توجيه الانتقاد الى الشيخ الجليل فضيلة شيخ الاسلام وصرف وجه المسئولية فى تداخل الحكومة الانكليزية فى هذه المسألة الى فضيلته ، وانما الخطأ واقع فى الحقيقة على الذين لم يراعوا كرامة أمة مخلصة لهم غيورة على مصالحهم والذين لم يتفضلوا بالعفو والرعاية من جانبهم واختاروا خطأ منهم وسوء سياسة أن يجبروا لا أن يعفو وهم قادرون من تلقاء أنفسهم » .

★★★

وعن العفو عن عزيز المصرى كتب المؤيد فى ــ ٢١ أبريل ١٩١٤ ــ يقول :

« بشرتنا التلغرافات الخصوصية اليوم بان جلالة مولانا السلطان قد وقع العفو عن عزيز بك المصرى مراعاة مخاطر الأمة المصرية ووساطة الحكومة الانكليزية ، وان هذا النبأ قد أدخل السرور على جماهير المعجبين بعزيز بك من العرب والترك وان عزيز بك قد برح الآستانة اليوم قاصدا مصر .

والمؤيد يستقبل هذا النبأ بالسرور لأنه سيكون السبب فى اقفال باب خشى العقلاء من فتحه لان فى تكرار القول بتأثير المصريين وعدم رعاية خاطرهم من جانب الحكومة العثمانية ــ ما يؤدى الى تنفير القلوب واستخدام أولى الغايات ذلك النفور فى مآربهم السياسية .

فالمصريون اخوان العثمانيين مرتبطون بعرش الخلافة الاسلامية ارتباطا لا يشوبه انحراف بسبب من أسباب الخلافات التى تحدث من

جراء غلطات الحكومة الحاضرة أو سوء سياستها العمومية . ولذلك كنا آسفين كثيرا على أن رجال النفوذ في الآستانة لم يقدروا شعور المصريين حق قدره في انعطافهم وحنانهم نحو واحد من أبنائهم وكنا نتألم كلما رأينا السياسة الانكليزية تتخذ من هذه المسألة وسيلة لبسط نفوذها وتداخلها في أمورنا الخصوصية .

★★★

نقول هذا ولا نجد بدا من أن نقدم شكرنا لجناب المعتمد البريطاني اللورد كتشنر الذي بذل من المجهود والعناية بأمر عزيز بك المصري ما كان سببا في انهاء هذه المسألة وفي العفو عن هذا البطل المحبوب .

وسننشر غدا مقالا بليغا لمؤرخ فاضل لعل فيه من العظات ما يفيد اخواننا العثمانيين المتحكمين الآن في شئون الدولة ويبعثهم على الحكمة والرؤية في خدمة الدولة بتقريب العناصر المؤلفة لها .

★★★

وعن وصول عزيز علي المصري الى القاهرة نشر المؤيد (٢٦ ابريل ١٩١٤) :

« برح حضرة عزيز بك المصري ثغر الاسكندرية على قطار خاص في الساعة العاشرة وخمس عشرة دقيقة من صباح اليوم ويصل الى محطة العاصمة في الساعة الواحدة والنصف حيث يجرى له احتفال حافل » .

★★★

وبعد كتابة ما تقدم جاءنا من الاسكندرية التلغراف الآتي :

« وصلت الباخرة التي تقل البطل عزيز المصري ، وكان في انتظاره على الميناء جمهور عظيم من أعيان وفضلاء القاهرة والاسكندرية ومندوبو الصحف الأوربية المصورة ومندوبو الصحف المصرية وجم غفير من النزلاء الأجانب . وقد هتف له المجتمعون هتافا طويلا ونزل من الباخرة الساعة ٩ ونصف وركب القطار الخصوصي الذي أعـــدته له اللجنة التي كانت تتولى الدفاع عنه » .

★★★

وحول وصول عزيز المصري الى القاهرة .. كتب المؤيد في (٢٧ ابريل ١٩١٤) :

في منتصف الساعة الثانية بعد ظهر أمس وصل القطار الخاص المقل لحضرة البطل عزيز بك المصرى الى محطة العاصمة فاستقبله على أفريزها عدد عظيم من الوجهاء والأعيان والأصدقاء يربو على ألفى نسمة ولدى وصول القطار كثر التصفيق والهتاف بالدعاء لجلالة مولانا السلطان ولسمو مولانا الخديوى ونادى المحتفلون فلتحيا مصر ، وليحيا المصرى ٠

★★★

وبعد أن ترجل هو وأصدقاؤه الذين حضروا معه من ثغر الاسكندرية ازدحمت المناكب للسلام عليه وتهنئته بالعفو السلطاني الذى أنقذه من حكم المجلس العسكرى فتمكن من رد التحية لبعضهم ٠ ولما رأى أصدقاؤه تعذر مصافحته لهم جميعا أو القاء خطبة يشكر لهم فيها جميلهم معه ، أوسعوا له الطريق حتى ركب عربة كانت فى انتظاره بفناء المحطة وسارت به الى منزله بين التصفيق والهتاف والدعاء والقاء الزهور ٠

★★★

ونحن في وسط هذا الفوز الذي تكلل به جبين مصر نهنيء حضرة عزيز بك على المصري على نجاته نرجو فى الوقت نفسه من جمهور المصريين ان يوقفوا هذه الحادثة عند النقطة التى وصلت اليها لأن دقة العلاقات التى تربط مصر بالآستانة العلية خصوصا والمسلمين ببعضهم عموما تتطلب من كل غيور على مصلحة دولته وأمته أن يضحى فى سبيل ذلك شيئا كثيرا مما يجول بخاطره من مظنة العسف أو الجور فى قضية عزيز بك فان الحقوق العامة للأمم يجب أن تفنى فى جانبها وتندمج فى وسطها ذاتية الأفراد وتقديمها للأهم على المهم ٠

ويغلب على الظن أن وطنية عزيز بك ورجولته وما اشتهر عنه وعرف به من الغيرة الصحيحة على الدولة ستدفعه الى موافقتنا على هذا الرأى ٠ ونرجو الله سبحانه وتعالى أن لا تحرم الدولة العثمانية من خدمات رجل مخلص كفء ممثل وطنيتنا ابن مصر ٠

★★★

أما استقباله في الاسكندرية ــ مثل استقباله فى القاهرة ــ فقد كان احسن رد يدفع به قول القائلين ان الأمة المصرية كانت بمعزل عن الضجة الصحفية التى قامت بسببه ــ وأقطع برهان على أن الصحف المصرية التى دافعت عن عزيز بك وانتصرت له وقالت باهتمام الأمة به انما كانت تترجم فى كتاباتها عن شعور قرائها الذين كانوا يرون كل كتابة قليلة فى جانب

انقاذ بطل مصرى كريم وحمايته من أذى أعدائه والكائن له ۰ فما اقتربت الباخرة من مرساها حتى هتف المجتمعون هتافا طويلا وصاحوا : ليحيا خديوى مصر المعظم ـ ليحيا عزيز بك ـ ليحيا العدل ۰

وكان الزحام يفوق الوصف اذ ضاق فناء الميناء بالمستقبلين الذين تقاطروا من جوانب المدينة ليرحبوا بذلك القادم العزيز ، ولما نزل من الباخرة أحدق به كبراء المستقبلين من الفضلا والأعيان فعانقوه وهنأوه بالسلامة ۰ وقدموا له باقات الأزهار ثم أقبل عليه مندوبو الصحف الأجنبية الكبرى كالماتان والتان والتيمس وغيرهم يوجهون اليه بعض الأسئلة فشكرهم على عناية صحفهم بأمره واعتذر لهم عن الاجابة لضيق الوقت ۰ وكان مندوبو الصحف المصورة ومحال الصور المتحركة على أهبة لتصوير الاجتماع فرسموه من عدة أماكن وعلى عدة أشكال ۰

وسار عزيز بك بعد ذلك بين صفوف المستقبلين ورجال الشرطة الذين كانوا يحيونه ويحافظون على النظام يحيط به أعضاء الجمعية التى تولت الدفاع عنه وطائفة من أصدقائه والمعجبين بشجاعته يتقدمونه بباقات الزهور وأغصان الورود فكان كلما مر بفريق من المجتمعين ولا سيما السيدات الافرنجيات نثروا عليه الورد وهتفوا له حتى وصل الى القطار الذى أعد له فركبه بين التهليل والتصفيق ۰ وسار القطار من الميناء رأسا الى القاهرة فكان ينتظره فى المحطات كل من علموا بقدومه ولا سيما محطة طنطا وبنها ۰

وقد صحبه فى القطار بعض مندوبو الصحف الأوربية لينقلوا الى صحفهم أنباء الحفاوة التى تلقت بها مصر بطلها المردود اليها ۰

***

وتنشر الأهرام فى ٢٨ ابريل ١٩١٤ تحت عنوان : الحكم على عزيز بك على :

اذا لم يكن عزيز بك بطلا ، وهو بطل باعتراف خصومه فقد صيرته محاكمته ذلك البطل واذا كنا قد ألزمنا بعد الحكم عليه السكوت والصمت فليقيننا أن رجال الدولة الذين سمعوا وشايات الواشين به عرفوا بعد محاكمته الحقيقة واستبدلوا حكم الاعدام بحكم السجن ، وليقيننا أيضا بأنهم يستدرجون من حكم السجن الى العفو فالسكوت عن تجريحهم أولى وأجدر ۰ ولكننا نقول اليوم فى هذا الموضوع كلمة نمهد لها بتمنى العفو التام عن ذلك البطل الذى وهب دمه لدولته وترك مدرسة الحقوق الخديوية ليحمل السيف فى محاربة أعدائها ۰

وكلمتنا أنا سمعنا بعض الناس يعترضون على الذين يدافعون عن عزيز بك بقولهم : وماذا يعنيكم ؟ ٠٠ ضابط عثماني وجهت اليه التهمة فحوكم وحكم عليه فأي دخل للناس أجمعين في أمره ٠

فهذا القول كان يصح ايراده في القرن الثالث عشر لا في القرن العشرين ، ففي ذلك العهد كان الناس جميعا عبيدا للملوك والحاكمين يتصرفون بهم كما يشاءون ، أما الآن فان الملوك والحاكمين لا يملكون رقاب الرعايا ودماءها يتصرفون بها كما يشاء هواهم بل هل نواب الأمم في أوطانها وخدمتها ومهمتهم ان ينفذوا القانون الذي وضعته الأمة بواسطة نوابها فلكل فرد من أفراد الأمة ان يسهر على انفاذ ذلك القانون واذا رأى من حكومته الموكلة بانفاذ القانون خروجا عن حدوده أو مخالفة لأوامره ونواهيه هب في وجهها وطالبها بالعودة اليه فلا يصح اذن في هذا العصر أن يقال لشخص يعترض على الحكومة أو يخطيء الحكومة أو ينبه الحكومة أو يجرح سيرها في عمل من الأعمال (ماذا يعنيك) هذا من الوجهة الخاصة فبحكم هذه الوجهة يجوز لكل عثماني الاعتراض والنقد والبحث والتخطئة لحكومته العثمانية اذا اعتقد وأيقن بأنها تعمل عملا يخطأ أو ينفذ ونحن العثمانيين نعتقد بعد الدستور أو حكومتنا دستورية مختارة من الشعب لانفاذ القانون الذي يسنه الشعب لنفسه ويقيم الوزارة منه هيئة منفذة لذلك القانون الذي سنه : فالذين ينتقدون الحكومة بصرف النظر عن صحة انتقادهم أو خطأ ذلك الانتقاد لا يقال لهم ماذا يعنيكم الا اذا اتهمنا حكومتنا بأنها حكومة تسترقنا كالعبيد أو اتهمنا أنفسنا وأمتنا بأنها عبدة مسترقة لحكومتها ولتلك الحكومة أن تستبدل بها كما تشاء بلا حساب وهذا ما لا تريده الأمة لنفسها وهذا ما لا تريده الحكومة لأمتها ولنفسها ٠

★★★

أما من الوجهة العامة فقد باتت الأمم جميعها في هذا العصر متكافلة متضامنة تجمعها جامعة الانسانية ويشملها قانون عام لا تختلف فيه واحدة عن أخرى ، وبحكم هذا القانون العام ومنه العدل جوهر فرد لا يجزأ ـ يغضب الصيني للأمريكي ولا يجوز أن يقال له ماذا يعنيك ٠٠ ويغضب الأوربي للآسيوي والأفريقي ولا تسمح المدنية والعلم والحضارة بل النوعية الانسانية ان يقال لأحد منهم ماذا يعنيك من الآخر ٠ وأمامنا حادثة « بايليس » الاسرائيلي في « كييف » فانه اتهم بقتل طفل نصراني فاهتزت الأرض لتهمته وكانت صحف الآستانة تحمل على الحكام الروس حملات شديدة من أجله وتبرى أساقفة النصرانية لنفي تهمة قتل الأنفس

عن اليهود فلم يستطع روسي واحد ان يقول لشخص واحد من أحــد شعوب الأرض : ماذا يعنيك · وهذه مدام « كايو » قتلت صحفيا فانشطر العالم شطرين في أمرها ، فهل قال الفرنساويون لغريب عنهم تكلم عنها ، سواء أكان ممن خطؤوها أو صوبوا عملها ماذا يعنيك ·· كلا انهم لم يفعلوه وهذه صحفهم تأخذ أقوال الصحف الأجانب وتنتقل رواياتها لتؤيد في هذه الجريمة مذهبها ·

فكلمة « ماذا يعنيك » كلمة تؤلم نفس كل عثماني حر عاقل يريد أن تكون أمته ودولته في مصاف الأمم والدول المتمدنة ، فكل عثمـاني يعنيه ان يكون رقيبا على كل حاكم عثماني الا اذا قلنا في الحاكم العثماني الذي يجلس على كرسي الحكم ما قاله الربانيون بالخالق عز وجل عـلى العرش استوى ·

بقي أمر المحاكمة والحكم والعظة الواجب ان يستخلصها حكـامنا ، فهم خدعوا في اتهام ذلك الضابط وهم جدعوه بقدرة الواشين في لجم الأمة ، وهم خدعوا بسياستهم التي كانت من أولها لآخرها شرا ووبالا لا في مسألة عزيز بك على فقط بل مسائل أخرى أكبر وأهم تتناول المجموع لا الأفراد ، فقد مثلوا له قبــل اليوم طلاب الاصـلاح من العرب أعداء وحرضوهم على الفتك والتنكيل بهم ورد مطالبهم وأخذوا عـلى أنفسهم الوشاية بهم واتهامهم وتسويد صفحاتهم أمام الأمة التي ظهر لهم الحق وبان · واذا بطلان ذلك الاصلاح هم المخلصون المتحرقون المتفطرون غيرة على الدولة والأمة · واذا بأولئك الوشاة الدساسيين هم الأفاكون الذين يوشون بالمخلصين من أبناء الأمة لينالوا الأجر عن وشاياتهم ، وهم الكذابون الذين يريدون أن يصوروا للحكومة الأصدقاء أعداء ليقيموا أنفســهم في عيونهم مدافعين عنها وعن الوطن ·

« قاتلهم الله أنى يؤفكون »

اذا كانت التجارب أصدق معلم فنحن نأمل أن تكون جميع الحوادث التي تمر الآن برجالنا ويمرون بها خير معلم لهم وخير مرشد الى سواء السبيل ·

★ ★ ★

وأخيرا وليس آخرا ، تنشر المؤيد كلمة توجهها الى عزيز بك المصري في ٣٠ ابريل ١٩١٤ وتكون الكلمة بتوقيع « أبو عامر » وقد جاء في تلك الكلمة :

« ليكن فى ذمة الله والتاريخ ما قدمت من خير وفضل لدولتك وملتك يا عبد العزيز • وانى أمت اليك بشهامتك ومروءتك وبالروابط المصرية المقدسة والجامعة الاسلامية من خوفها لتؤاخذ دولتك بما فعل السفهاء منها وان تسدل الستار على تلك الرواية المحزنة المخجلة التى مثلوها على مسرح دار الخلافة العظمى وأبى عليهم تشددهم وعنادهم الا أن يجعلوك بطلها •

لعمر الحق يا عبد العزيز أن الدولة العثمانية لفى أشد الحالات بلاء أو محنة فهى تأتى القبيح وتراه حسنا » •

يقضى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

فاشفق عليها وحاذر ان تقطع بغير قصد منك فى حديث معك أو تصريح لك ، خيوط العلاقة التى بينها وبين شقيقتها مصر ، بل اسع جهدك بما أوتيت من شهرة حسنة وجاه عريض أن تجعل من تلك الخيوط الواهية حبالا ثقالا •

عسى الله أن يلهمها صوابا ويهديها صراطا مستقيما • ولا ييئسك يا عبد العزيز ما لاقيت فى الآستانة من غم وهم واعتساف ونكران جميل • فلقد رجعت الى وطنك الذى استقبلك بالتكبير والتهليل ولم يكن فى شعوره نحوك كالعائلة الجاهلة تؤهله برجلها الجانى عند خروجه من سجنه ولكنه كأمة ذات شعور حى واحساس رقيق تفرح وتهتز اعجابا وتيها اذا فك أسر بطلها ورافع مجدها ومظهر فخرها وثمرة أجيال كثيرة من عمرها •

رجعت سالما الى وطنك الذى يحبك ويعظمك وهو الجدير بأن يشرح لك صدرك ويرفع لك ذكرك ويحفظ لك جميلك ولا يلتك من عملك وفضلك شيئا •

فليطب خاطرك وليهدأ بالك ولتكن مطمئنا فلسوف يرضى عليك وترضى •

وعليك السلام من معجب بك وبشهامتك •

ويبقى بعد ذلك كله أن نفرد فصلا للعلاقات المصرية العثمانية على المستويات الشعبية والرسمية وأن نركز — أكثر — على موقف عزيز على المصرى من دولة الخلافة العثمانية قبل وبعد السلطان عبد الحميد ••

الفصل الثانى

العلاقات المصرية التركية شعبيا ورسميا

***

مواقف عزيز على المصرى من دولة الخلافة الاسلامية قبل وبعد السلطان عبد الحميد

عندما تكون الدولة أية دولة قوية فى الداخل تكون بالتبعية قوية فى الخارج ، وعندما تضعف الدولة أية دولة فى الداخل تضعف بالتبعية أيضا فى الخارج ٠٠ والدول كالبشر لها لحظات تولد فيها وأخرى تموت، وقد تؤد الدولة قبل أن تتاح لها فرص النمو والازدهار ، وقد تطول أعمار الدول وقد تصغر كالأفراد تماما ٠ ولابد ٠٠ طال المدى أو قصر ٠٠ من نهاية الدول ونهاية الأفراد ٠

وقد تكون نهايات الدول بأفعال من أبنائها وقد تكون النهايات بتداخلات خارجية وقد كانت دولة الخلافة الاسلامية قوية فى البداية ثم تسلل اليها الضعف فى الداخل أولا ثم امتد الضعف الى الخارج فدفع الدول الكبرى الى الاستفادة من هذا الضعف ٠٠ وكلما زاد الضعف فى الداخل كلما زادت معاملة الدولة والأفراد والقوى فى الخارج ٠

ولقد اتفقت ــ فى النهاية ــ الدول الأوروبية الكبرى بل والصغرى على التفكير فى تقسيم دولة الخلافة حتى الدول الأوروبية التى كانت تركيا قد تحالفت معها مثل ألمانيا ، كانت تشترك فى التآمر على دولة الخلافة الاسلامية مع بقية الدول الأوروبية الكبرى ، فقد كانت مصالح الألمان أولا ثم المصالح الأوروبية وبعد ان كان قد بقى شىء من المصالح ٠٠ هذا بالنسبة لألمانيا الحليفة الكبرى لدولة الخلافة العثمانية ٠

وقد كنت من زمن طويل أرى أن الدول الأوروبية الكبرى وهى تتآمر على دولة الخلافة الاســـلامية وتستعين ببعض أفراد من دولة الخــلافة الاسلامية ٠٠ وكان يعوزنى الدليل القاطع والبرهان الساطع الى أن كانت

مذكرات السلطان عبد الحميد ، كتبها الرجل قبل أن يلقى ربه ببضعة أعوام · وأكدت الأحداث فيما بعد وفاته أنه كان صادقا الى حد كبير فى مذكراته ·· أيدت هذه المذكرات وجود علاقات قوية بين كثير من المنفيين الأتراك فى أوروبا والذين شاركوا فى الثورة على السلطان عبد الحميد وبين كثير من الدول الأوروبية الكبرى وفى المقدمة بريطانيا ··· كما أكدت تلك المذكرات وجود علاقات قوية ووثيقة بين بعض المفكرين والثوار الأتراك الذين كانا يعيشون فى أوروبا وبين الماسونية ·

ولست أبالغ اذا ما قلت ان مذكرات السلطان عبد الحميد قد حلت الكثير من الألغاز التاريخية التى بقيت زمنا طويلا بدون حلول · ومما يؤكد ما جاء فى مذكرات السلطان عبد الحميد حول دور الدول الأوروبية الكبرى وخاصة بريطانيا والماسونية فى انزال الهزيمة بدولة الخلافة الاسلامية « رجل أوروبا المريض كما كان يسميه قيصر روسيا » ان دولة الخلافة الاسلامية قد تحللت وانهارت بعد بضع سنوات من نجاح الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ · ثم كانت النهاية الرسمية لدولة الخلافة الاسلامية قبل نهاية الحرب العالمية الأولى ·

***

وقد كان للصهيونية العالمية دورها الهام والخطير فى الاجهاز على دولة الخلافة الاسلامية وخاصة السلطان عبد الحميد الذى رفض أن يعطى للصهيونيين الحق فى اقامة دولة صهيونية فى فلسطين ···· على أن تلك العوامل الخارجية : الصهيونية والماسونية وتدخل الدول الأوروبية الكبرى، لا يقلل أبدا من خطورة الأوضاع الداخلية فى دولة الخلافة الاسلامية وما اتخذه السلطان عبد الحميد الثانى من وسائل الضغط والارهاب والقهر والاستبداد ، لم تصل الى الحد الذى وصلت اليه أيام حكم الثوار الأتراك (جماعة الاتحاد التركى) ·

***

ومن رأيى الشخصى وقد أبديته فى ملتقى الفكر الاسلامى بالجزائر أعوام ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ واننا ظلمنا دولة الخلافة الاسلامية الى حد كبير متأثرين بوجهات النظر الأوروبية التى كانت سائدة قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، وكان لها وقتئذ السيادة على فكرنا وعقلنا فى كثير من الأقطار العربية فيما عدا مصر والجزائر وتونس ·

ومن رأيى الشخصى أيضا ·· وقد أبديته فى مذكرات قدمتها الى تلك الملتقيات وأخذ برأيى فى النهاية ؛ أنه لابد من اعادة النظر فيما أبديناه

بالثلغة العربية خاصا بمواقفنا من دولة الخلافة الاسلامية وخاصة فى مرحلتها الأخيرة ومواقفها منا وأنه لابد من انصاف دولة الخلافة الإسلامية وعدم تحميلها أكثر مما يجب أن تحمل بل لابد من انصاف السلطان عبد الحميد اذا كان حقا يستحق الانصاف ٠ وهذا لا يتم الا اذا أبعدنا عن عيوننا وأذهاننا وعقولنا التسلط الأوروبى على فكرنا ٠ وعلينا أن لا ننكر أبدا خطورة الاستعباد فى العهد الحميدى وأن المذابح قد بلغت فى عهده أكثر ممن سبقه من السلاطين وان كثيرا من زعماء العرب قد سيقوا فيما بعد عهد السلطان عبد الحميد الى المشانق لأنهم كانوا يقومون بالدعوة للقومية العربية واستقلال بلادهم ، ولنا بل علينا أن نتساءل ٠٠ هل اختفى الجور والظلم والطغيان بعد عهد السلطان عبد الحميد ان بقى ٠٠ ؟ وبصورة أخطر فى العهد الذى بدأ بزوال السلطة عن السلطان عبد الحميد ٠٠ !!

ومن زاوية أخرى : هل كانت جرائم الحكام والسلاطين العثمانيين التى وقعت فى البلدان العربية أضعاف أضعاف الجرائم التى وقعت فى البلدان العربية بأيدى الانجليز وبأيدى الذين ادعوا أنهم كانوا يساعدوننا على الاستقلال أم لا ؟ ٠٠ لقد كانت الجرائم فى أيام عبد الحميد ومن جاء بعده جرائم فردية يمكن أن تعد على أصابع اليدين والقدمين ٠ غير أن جرائم الانجليز والفرنسيين بل والايطاليين فى الجزائر وتونس وليبيا وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية أضعاف أضعاف جرائم السلطان عبد الحميد ومن جاء بعده ٠

***

كانت جرائم جماعة الاتحاد والترقى بالعشرات بينما جرائم المستعمرين الفرنسيين والانجليز ، والايطاليين بالمئات بل بالألوف وربما بعشرات الألوف٠٠وأقولها بصدق وأمانة٠٠أنه مهما كانت جرائم السلطان عبد الحميد وجماعة الاصلاح والترقى فقد كان من الواجب علينا ألا نتآمر ضد دولة الخلافة الاسلامية ، بل لقد كان من الواجب علينا أن نقف معها فى محنتها ضد الأجراء الخارجيين الى أن تنتصر وبعدها تعمل على اصلاح الفساد من الداخل وعن طريقنا لا عن طريق الأجانب لتبقى دولة الخلافة الاسلامية رمزا للحكم الاسلامى وللقوة الاسلامية ٠ وأنه كان علينا بحق مقاومة الانحراف داخل تلك الدولة بدلا من العمل على انهيارها أو مساعدة أعدائها فى الخارج على انهيارها ٠

وربما كان موقف الحزب الوطنى فى مصر فى الثمانية عشر عاما الأولى فى القرن العشرين من دولة الخلافة الاسلامية أقرب الى النضج

السياسي من مواقف الأحزاب الأخرى · ورغم أن الكثيرين يعيبون على الحزب الوطني هذا الموقف ويعتبرونه مناهضا للدعوة الاستقلالية ، بل ان البعض يرى فيه نوعا من التبعية لدولة الخلافة العثمانية ·· الا أننا نعتبر هذا الموقف المبدئي ، لا الموقف الشخصي ، من أكثر المواقف السياسية والوطنية حكمة واتزانا ودعما للاستقلال ·

وقد تعرض الزعيم مصطفى كامل ، كمـــا تعرض الحزب الوطني لحملات ضارية · كما تعرض الزعيم محمد فريد والحزب الوطني برئاسته لحملات أقل ضراوة من تلك التي وجهت الى مصطفى كامل والحزب الوطني لمواقفهم من دولة الخلافة ·

ويهمني هنا في بداية هذا الفصل أن أوضح موقف الحزب الوطني من دولة الخلافة الاسلامية ، كما يهمني في نفس الوقت ان أوضح موقف حزب الأمة ومفكرة الأســتاذ أحمد لطفي السيد ، وكذلك موقف حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية برئاسة على يوسف صاحب المؤيد ·

وأذكر في البداية أن هذه المواقف كانت كلها مواقف مصرية وطنية وان اختلفت وجهـات النظر ، بل وان تباينت الى حـد كبير · وقد أولى الأستاذ عبد الرحمن الرافعي أهمية بالغة للحديث عن العلاقة بين مصطفى كامل رئيس الحزب الوطني وتركيـا ، وفند الاتهامات التي وجهت الى مصطفى كامل بأنه كان من أنصار السيادة العثمانية ·

***

يقول الأستاذ/ عبد الرحمن الرافعي :

« ان مركز مصر الشرعي لغاية الحرب العالمية الأولى كانت محددة بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والتي تعتبر حكما دوليا ، وأهم أحكام تلك المعاهدة ، الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول وضمان عرش مصر في أسرة محمد على وبقاء السيادة العثمانية عليها ، وكان الاحتلال البريطاني قد انتهك الاستقلال المعترف في تلك المعـاهدة ونزل بهـا الى مرتبـة المستعمرات التي للحاكم العام البريطاني فيما يتعلق بالتصرف في شئونها

فلما قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنية ، رأى بحق أن الجلاء هو الحل الحقيقي للاستقلال ، أما السيادة العثمانية فان التخلص منها من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتلال وبخاصة لأن هذه السيادة قد راحت مع الزمن وكانت سائرة بنفسها من نفسها نحو الفناء اذ لم يكن بقى من مظاهرها سوى الجزية التي كانت مرهونة للبيوت المالية الأجنبية لغاية

سنة ١٩٥٥ .. فموقف مصطفى كامل - عبد الرحمن الرافعي - من السيادة العثمانية كان موقفا قوميا حكيما وهو يشبه موقفه تجاه الامتيازات الأجنبية ، فلم يكن ينادى بالغائها بل كان يقول باحترامها حتى لا يستعدى الدول الأجنبية فى الوقت الذى يجاهد فيه الاحتلال وهو بنفسه موقف الوفد المصرى تجاه الامتيازات فيما بعد .

لقد كانت الدعوة الصادقة الى الجلاء توجب محاسبة تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بالغاء سيادتها على مصر وارجاء هذا الطلب حتى تنجو البلاد من العقبة الكئود التى تحول دون استغلالها وهى الاحتلال ومخاطره لأن تركيا منـــذ وقع الاحتلال البريطانى كانت لا تفتــأ تطالب انجلترا بالجـــلاء .

وقد كانت انجلترا ذاتها التى تحتل البلاد تحترم السيادة التركية الرسمية ولم تحاول الغاءها حتى ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى كما ورد فى تبليغ الحكومة البريطانية الى حسين كامل سنة ١٩١٤ وبذلك تكون القوة التى كانت لسلطان تركيا على بلاده قد سقطت وآلت الى جلالة بريطانيا العظمى .

وقد كتب مصطفى كامل الى مدام جوليت آدم مفصحا عن سياسته أن العلاقات يجب أن تكون حسنة مع تركيا ما دام الانجليز يحتلون وطننا العزيز .

وكانت العلاقات بين محمد فريد وتركيا الرسمية علاقات غير ثابته بل كان فى كثير من الحالات لا توجد علاقات طيبة على الاطلاق وربما كان مرد ذلك أن الحركة الوطنية المصرية قد انتقلت فى السنوات الأخيرة من حياة محمد فريد وخاصة تلك السنوات السبع التى قضاها محمد فريد منفيا فى أوروبا الى مرحلة أكثر تقدما ونضجا واستقلالية وتلك طبيعة الأشياء فكل من فى الوجود فيما عدا الجماد يتطور ويتغير وينمو وينزع الى الاستقلال عمن وعما حوله .. ولأن فى النية اذا ما امتد الأجل - انشاء الله - اصدار مؤلف خاص عن محمد فريد واننى - اذا شاءت ارادة الله - سأقدم فيه أكثر من ٢٠٠ خطاب خاص من محمد فريد بعث بها الى زوجته وأولاده وأصدقائه وتلاميذه من المنفى لم ير واحـدا منها النور على الاطلاق ، فلقد ظلت فى خزائن الأسرة - أسرة محمد فريد - الى أن أهداها الى ابنه المستشار عبد الخالق فريد .

★★★

وفى هذا الكتاب الذى انتهيت تقريبا من اعداده وبقى أن القى عليه نظرة أخيرة فاحصة أكثر من فصل عن علاقات محمد فريد بتركيا .

وأكتفي هنا بالاشارة بايجاز الى تلك العلاقة مستعينا بمذكرات محمد فريد وبعض خطاباته الى أهله من غير الـ ٢٠٠ خطاب التي لم تر النور بعد.

عندما زار محمد فريد الآستانة في ١٢ ابريل سنة ١٩٠٩ ، لأول مرة في حياته . كتب يقول : وصلت الآستانة في ١٢ ابريل وفي صبيحة ١٣ منه حصلت الحركة الارتجاعية المشهورة التي انتهت بعزل « السلطان » عبد الحميد بقوة حزب الاتحاد والترقي وهمة البطل محمد شوكت باشا .

ومن غريب المصادفات أنها حصلت صبيحة وصولي فأخذت أرسل الاخبار تلغرافيا للواء في اليوم مرتين أو ثلاثا وكانت أخباري أصدق أخبار الجرائد ، لأني كنت استقيها من اصدق المصادر حتى قال بعضهم اني كنت على علم بما سيحصل هناك ولذلك سافرت فجأة والحقيقة ان سفري كان لتوثيق الروابط بين حزبينا وبين رجال حزب الاتحاد .. بعد ذلك عدت لمصر .

وينتقل محمد فريد — في مذكراته — الى وصوله الى الآستانه — بعد أن قرر الهجرة من مصر — في ٣١ مارس سنة ١٩١٢ وكيف استقبله الاتحاديون أحسن استقبال ، وكتابته العديد من المقالات في صحيفة الهلال العثماني التي كان يصدرها الشيخ عبد العزيز جاويش بأموال حزب الاتحاد وكذلك صحيفة الجون ترك .

★★★

ثم يروي بصراحته المعهودة كيف كان مجتمعا بأحمد رضا بك يوم ان اجتمع بعض الضباط في استانبول مطالبين بحل مجلس النواب بدعوى حصول ضغط من الاتحاديين وقت الانتخاب وكيف قال انه من الأوفق الحكم على هؤلاء الضباط بالاعدام في أقرب وقت قبل استفحال الأمر ، وكيف ان رأيه لم يؤخذ به فتفاقمت الحركة وسقط الاتحاديون ، وتشكلت وزارة أحمد مختار باشا التي كان من بين أعضائها كامل باشا صديق الانجليز المشهور ، بوظيفة رئيس مجلس شورى الدولة .. ويقص فريد كيف داخله الخوف على نفسه لعلمه بعلاقة كامل باشا بالانجليز من جهة وبالخديو من جهة أخرى وكيف أخبر زوجته — التي كانت تعيش وقتئذ معه بالآستانة — وأفهمها أن صالحه يقضي عليه بالابتعاد عن تركيا حتى تتغير الأحوال « ثم يروي قصة رحيله من الآستانة وتفتيش منزله وعدم عثور البوليس على أي دليل ضده فيما عدا خطاب أرسله الى زوجته يخبرها فيه بعزمه على عدم العودة للآستانة ما دام حزب الارتجاع في الوزارة وبأنه يترك لها الخيار في البقاء في الآستانة أو العودة الى مصر » .

★★★

ويروى فريد بعد عودته الى الآستانة مرة أخرى فى مايو سنة ١٩١٣ ، واهتمامه بنادى الطلبة المصريين هناك ، ويقول ان محمود مظهر الذى أطلق الرصاص على الخديو ، فى ٢٥ يوليو - كما يغلب الظن - كان من بين أعضاء ذلك النادى ..

ثم يروى فريد كيف طلب مقابلة سعيد حليم باشا - الصدر الأعظم - وكيف ذهب بناء على موعد سابق الى الصدارة لمقابلته غير أنه لم يقابله « فانصرفت على أنى لا أعود ، وذلك لأنى تحققت بأن جيئته وخوفه من الخديو حملاه على عدم مقابلتى بعد أن وعد » .. وسعيد باشا - الصدر الأعظم - من أسرة محمد على وينتسب الى فرع حليم وقد كان يطمع فى خديوية مصر .. !! ويبذل كل جهده لكى يحكم مصر .

ويروى فريد مقابلاته لأنور باشا ، هو وعبد الحميد سعيد ليشرح الآخر له الحالة كى يزداد شجاعة على شجاعة فى مهاجمة الانكليز بمصر ، ثم مقابلته له مرة أخرى ، وكلمته فى سامى الصدر وما فاه به من العبارات الجارحة للأمة المصرية فأجابنى بما أجاب به الخديو بأن الرجل لا يهتم به مطلقا ولا لكلامه ، فشكرته وأعطيته خمس طلبات لطلبة مصريين يريدون الدخول فى المدرسة الحربية » .. وكان الصدر الأعظم قد قال للأمير ابراهيم حلمى باشا ، وسيف الله بك يسرى : « اذا تحرك الحزب الوطنى فى مصر أو رفع رأسه بعد دخول الجيش التركى فهو سيأمر بنفى ومعاقبة أعضاء الحزب وطبعا رئيسه فى المقدمة وأنه سيكون فى مصر سينوب لنفى الوطنيين المصريين ، كما توجد سينوب فى تركيا لنفى المعارضين للحكومة وان الصدر الأعظم قال لهما : انه نبه على طلعت بك وأنور باشا بعدم مقابلة فريد » ..

★★★

وتكلم محمد فريد - طويلا - فى مذكراته عن وجوده بتركيا فى بداية الحرب العالمية الأولى ، وسعيه الحثيث لارسال حملة تركية الى مصر لطرد الانجليز بمساعدة الشعب المصرى ومقابلاته العديدة لأنور باشا وزير الحربية وخليل بك رئيس مجلس النواب ، ثم يروى كيف ألقى خطبة فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٤ فى مسرح الشتاء بجنينة الملة كان بها عبارات يفهم منها أنه لا يخشى تهديدات سعيد حليم باشا الصدر الأعظم بالنفى الى سينوب اذا تكلم أو أتى عملا ضد السياسة التى ترمى الى اعادة مصر ، الى الحظيرة التركية ، كما أنه يزهو فى خطبته أنه لا سلطة لسعيد باشا فى الحكم وان كان صدرا أعظم ، ثم تحدث بافاضة عن محاولات

الأتراك – أو بعض ساسة الأتراك – لمداعبة الحزب الوطني ليساعدهم على فتح مصر ، وبعدها ينفذون سياستهم وارادتهم الاستبدادية في بلدنا ·

ثم يروى كيف نصحه الشيخ عبد العزيز جاويش ألا يحمل الدبوس الذي حملناه في جنيف والمكتوب عليه مصر للمصريين والذي قررنا أن يكون شعار المصريين المخلصين وقد قال لي الشيخ جاويش ان منظره في صدري وصدر اخواني يغيظهم كما يغيظهم محافظتي على قومية مصر ، في كل كلامي وكتاباتي ، وقال لي ان سليمان شكري بك وبهاء الدين مناسترلي الذين كانا معنا في اجتماعات القمسيون الأولى التي حررنا فيها بعض المنشورات تألما جدا من قولي اذ ذاك : يجب علينا الاحتراس في كتاباتنا حتى لا يقول أعداؤنا ان رجال الحزب الوطني يريدون تسليم مصر للأتراك « ·· ثم يروى فريد كيف سعى مرارا ، لاعادة العلاقات بين تركيا والخديو وكانت قد تأثرت كثيرا بسبب مساعي سعيد حليم باشا – الصدر الأعظم – لاغضابه حتى يستطيع أن يستولى على خديوية مصر ، وكيف انتقل الخديو من الآستانه الى فيينا هربا من مضايقات سعيد حليم ثم يروى محاولاته مع المانيا لكي تضغط على حليفتها تركيا لاصدار ارادة سنيه مؤداها ان القصد الوحيد للحملة الزاحفة على مصر هو ازالة السلطة الانجليزية واعادة مصر الى أبنائها يتدبرون أمرها وتحت امرة الخديو الذي يريدونه ، ثم يروى محاولاته مع الكثيرين لاخراج من تحالفها مع انجلترا واتفاقية مع تركيا ·

★★★

ثم يذكر تفاصيل العديد من محاولاته مع الساسة الأتراك وكيف قابل ذات مرة أنور باشا وتحدث معه في ضرورة لقائه بالصدر الأعظم وكيف اشترط على أنور باشا كذلك ان يحسن الصدر الأعظم مقابلتي لأني لا أتحمل أقل اهانة وعلى شرط أن أكون حاملا لشارة الحزب الوطني المكتوب عليها مصر للمصريين ، والتي كان غضب الصدر الأعظم بسببها فوعدني أنور باشا بكل ذلك · ويروى فريد مقابلته للصدر الأعظم في تريكوى « فأحسن مقابلتي جيدا » ثم يروى فريد مقابلته ليوسف صديق باشا ، والسيد كامل – من رجال الخديو – وكيف سأله ماذا يكون العمل فيما لو هزم الأتراك وانتصر الانجليز ؟ وقول فريد نجتهد حينئذ في تجهيز الثورة في مصر ، أما الاعتراف بالحماية مهما كان شكلها ومهما أعطانا الانجليز من الامتيازات فلن يمكن مطلقا ·

★★★

ويتحدث محمد فريد عما أشيع عنه فى الأوساط التركية من أنه اتفق مع الألمان ضد تركيا وكيف طالبه أصدقاؤه فى الآستانة بالعودة اليها لمحاربة الدسائس ضده وقطع ألسنة الدساسين ثم يقول :

« لما أتت الى هذه الأخبار ، هممت بالسفر الى الآستانة ولم يوافقنى اسماعيل لبيب لاعتقاده ان القصد تحريف نص على الذهاب اليها حتى أمنع من الخروج منها ثانيا الى الخارج حتى ينتقم منى بأى شكل آخر كأن أرسل الى الشام مثلا أو يدسون لى من يقتلنى كما فعلوا ذلك فى العام الماضى الجندى أفندى الذى كان يشتغل مع الادريسى ولكنى خاطرت بنفسى وصممت على السفر لأتأكد الحقيقة بنفسى حتى اذا أيقنت أنه حزب الاتحاد انقلب على بسبب تمسكى بحق مصر والدفاع عنهـا فأكون فى حل من الانفصال عنه بل ومن محاربته جهرا مرتاح الضمير ، وعلى ذلك سافرت وبمجرد وصولى الآستانة قابلت أحمد فريد ابن أختى زهرة هانم وكان بنفس الأوتيل الذى نزلت فيه فأكد لى كل هذه الاشاعات وشرح لى مساعى حزب الصـدر وقال لى ان الصـدر نفسه كلمه ضـدى وبخصوصى » .. ثم يروى فريد ، كيف ان الاشاعات قد أثرت على بعض رجال الحكومة وبالأخص على طلعت بك وكيف أنه حاول فى ٢ فبراير سنة ١٩١٥ مقابلة أنور باشا فى منزله فلم يستطع بالرغم من أن أنور باشا كان يقابله فى أى وقت يذهب اليه فى منزله . ويروى فريد كيف أنه ذهب الى دار الصدر الأعظم لتأدية الواجب السياسى « وبعد ان انتظرت وقدمت لى القهوة حضر أحد الخدم وأبلغنى سـلامه ، وقال لى أنه يشكرنى على زيارتى ، ويأسف لعدم امكانه مقابلتى لأنه أخذ مسهلا ولا يستطيع النزول اليـوم وأنه يرجـونى بأن أحضر فى أى وقت أريد ولعلمى ان هـذا العذر منتحل ، انصرفت على نية العودة وفعلا لم أحضر اليه بعد ذلك .

★★★

ويروى فريد ، أنه قابل الدكتور أحمد فؤاد وقال له : « انى أتعجب من ان الاتحاديين يضعون لمثـل هـذه الدسائس بعـد ما أديناه لهم من الخدمات فى مصر من سنتين مضت » .. ثم يتحدث محمد فريد بعد ذلك عن التقارير التى قدمت ضده وكيف أنه أصر على التمسك بحريته المطلقة فى زيارة من أريد وانى أعتبر هذه المراقبة اهانة لى ، ودليلا جديدا على عدم ثقة رجال الحكومة بى « ثم تحدث عن مقابلته لطلعت بك واحالة طلعت بك الموضوع برمته الى مدير الأمنية العمومية « الأمين العام » ، ويقول فريد : داخلنى الريب ، وقلت ان احالة المسألة على مدير الأمنية العمومية ،

تفيد أنهم يريدون استجوابي كمتهم وبما ان الحكومة عرفية فلا يبعد ان يحيلوني على المجلس العسكري لمحاكمتي بالخيانة » ٠

★★★

ولذلك لما عدت الى الفندق أخبرت أحمد فريد ابن أختي ما دار ولم أخف عنه تخوفي من غـدر هؤلاء الأشرار وأخبرته أني عزمت على اخبار سفارة ألمـانيا بكل ذلك لتحميني اذا قصـدوني بشر ، ولتسـاعدني على السفر من داخل الدولة ، وعلى اخبار جاويد بك لأنه يميل الى وربما يقدر على مساعدتي على الخروج من هذا الشرك ، وهكذا حصل : أخبرت البارون أو بتايم بكل ما لدى وقابلت جاويد بك في النادي التركي وقصصت عليه أعمال طلعت بك فوعدني بالتكلم معه ، وأخذ يهدىء خاطري ، وقلت له : ان لم أحضر باكر الى الساعة السادسة مساء فأخبر السفارة الألمانية وجاويد بغيابي اذ ربما أكون قد حجزت » ٠

ثم يفصـل محمد فريد ماذا بينه وبين عزيز بك بعد ذلك وكيف سأله : هل أخذت نقودا من الخديو عباس ؟ وكيف أجاب فريد : نعم ولا عيب في ذلك لأنه خديوي البلاد الشرعي ولا يعتبر أخذ فلوس منه خيانة ٠

س : هل أخذ نقودا من المانيا ؟

ج : أبدا ـ وقلت ذلك غاضبا ثم قلت ولم تسألني هذه الأسئلة الجارحة ، أنا متهم بالخيانة لألمانيا صديقتكم وعلى فرض أني أخذت منها نقودا فهل هي من الأعداء المحاربين « سكوت » ٠

س : مم تصرف الآن ؟

ج : اسأل أنور باشا فهو الذي يعطيني ما أعيش منه ٠

س : كم أعطاك ؟

ج : اذا كان ضروريا ذكر المبلغ فهو ٤٥٠ جنيها تركيا أعطاها لي في يونيو الماضي ، للصرف على بعض الأمور الصحفية وعلى نفسي ٠٠ !!

★★★

ثم يروي فريد كيف سأله عزيز بك عن خلافه مع أحمد فؤاد والشيخ جاويش وكيف رد على هذا السؤال بقوله أنه ليس على خلاف معه فهو صنيعه وهو الذي رباه وصرف عليه ولم يختلف معه في شيء أما الشيخ

فلا رأى له أعرفه وهو ليس من لجنتنا الادارية ولا من حزبنا بل كان كاتبا بالأجرة يكتب فى صالحنا ما نأمره به ، ثم سأله عزيز بك عن الحزب الوطنى والقول بأنه غير موجود ، وقد رد فريد على ذلك بقوله : ان حزبنا الآن بعضه مشتت فى أوروبا والبعض مختف فى مصر فحالة حزبنا الآن كحالة حزب الاتحاد أثناء اضطهاد عبد الحميد لكم ومع ذلك تريدون أن تقولوا ان الحزب الوطنى تشتت أو عدم بالمرة وبالتالى فلا معنى لأن أكون رئيسا لحزب غير موجود فأنا مستعد للاقرار بذلك بأنى متنازل عن الرئاسة لأنى شبعت شهرة فضلا عن أن مثل هذا التنازل لا يفيدكم بشىء لأن اسمى لا يزال هو المسموع فى أوروبا . وينهى فريد المقابلة بقوله : هاك ما عندى من الأقوال أرجوك ان تبلغها حرفا مع جميع ما قلته لك من الملحوظات الى طلعت بك ، وتبلغه استيائى من هذه المقابلة وهاتيك المراقبة الشديدة فان أراد بيانا أوضح فأنا تحت طلبه ومستعد للاجابة مع العلم بأنى أعتبر نفسى حرا فى ان أقابل من أريد رغما عن جواسيسكم العديدين مصريين وغير مصريين .

★★★

وينقل محمد فريد ما دار بينه وبين جاويد بك الذى أعطاه صورة مظلمة عن الأحوال فى تركية واضطرار تركيا الى قبول الصلح قبل نهاية عام ١٩١٦ وكيف أنهما تدارسا حالة مصر بعد الصلح وكيف قال له جاويد بك : اما ان ترجع الحالة الى ما كانت عليه قبل الحرب أى بقاء الاحتلال مع اعادة السيادة العثمانية واما الرجوع الى ما كانت عليه مصر قبل ١٨٨٢ ، أى جلاء الانجليز عنها مقابل جلاء الألمان عن بلجيكا — أو جعل مصر مستقلة تماما وعلى الحياد المطلق ، كما كانت بلجيكا قبل الحرب .

★★★

ويروى فريد أنه قال بضرورة بقاء قناة السويس الأسيوية فى قبضة الدولة حتى يمكننا الاستمرار على حركتنا الوطنية ويمكن للدولة مساعدتنا فى ادخال السلاح والاستعداد للثورة حتى تقوم عند سنوح الفرصة وأهم شرط ان يكون بمصر جيش قوى يمكنها الدفاع عن استقلالها ضد كل مهاجم أيا كان . ثم يعود فريد الى الحديث — مرة أخرى — عن مقابلة عزيز بك له وسؤاله عما نقل على لسانه بالحرف الواحد : احترسوا فى الكتابة حتى لا يقول اخواننا المصريون باننا سلمنا مصر للأتراك خصوصا ونحن متهمون بذلك من قبل : وقول فريد : نعم قلت ذلك ولم أزل أكرره لأن هذا اعتقادى ولم أتحول . ويعقب فريد على ذلك بقوله :

انى أذكر هذه المسائل لأبرهن على غدر الأتراك وعلى أنهم كانوا يراقبون حركاتى وأقوالى من أول الأمر رغما عن تأييداتهم الكاذبة بعدم الطمع فى مصر .

★★★

ويروى فريد مثلا على الجبهة ــ لقاؤه بجلال الدين عارف الذى كان يتمرن بمكتبه فى مصر ، وأصبح وقتئذ نقيبا للمحامين بالآستانة وأستاذا بمدرسة الحقوق ، ومن تلاميذ الصدر الأعظم : أنه لم يزرنى ولا مرة واحدة أثناء المدة الأخيرة ، التى قضيتها بالآستانة وهى ، أكثر من شهرين بخلاف عادته . وكيف ان عمر رضا المحرر القديم بجرائد الحزب الوطنى ، كتب مقالة فى ذكرى مصطفى كامل لتنشر فى صحيفة تصوير أفكار ومنع الرقيب العسكرى نشرها لأن الأتراك لا يريدون ان تذكر مصر فى جرائدهم بصفتها مطالبة بحريتهـا وذكر مصطفى كامل يجر حتما ذكر مطالب المصريين .

★★★

ثم ينتقل محمد فريد فى مذكراته الى علاقاته بالساسة الأتراك بعد سقوط وزارة سعيد حليم ومجىء وزارة طلعت باشا « بك سابقا » وقوله للحاج عادل بك على ذكر سعد حليم ، العائلة الخديوية لا يخرج منها لسان طيب ذكرا كان أو أنثى ولا فرع حليم لأنهم جميعا فاسدون مفسدون » ويذكر فريد كيف أرسل المصريون المقيمون فى ألمانيا برقيات تهنئة لطلعت باشا للتشفى فى حليم انهم بذكر عدم اهتمـام الأتراك بضياع البلاد العربية منهم ، ثم يقص كيف جاء الصدر عنه كلامه عن زيارته لجاويد بك ناظر المالية العثمانية عند زيارته لبرلين فى سبتمبر سنة ١٩١٧ : ان معاملة رجال الدولة نحوى قد تغيرت كثيرا أى تحسنت من عهد انتصار الانجليز عليهم وابعادهم عن مصر نحو غزة « الشام » لأنهم فقدوا أو كادوا يفقدون الأمل فى فتح مصر وجعلها ولاية عثمانية كما كان يتمنى سعيد حليم وأحمد جمال باشا أو كما كانوا يمنون أنفسهم فى فتحها لأنفسهم ، هـذه الفكرة المشئومة التى جعلتهم وحكومتهم يحاربوننى بواسطة الجاويش والغلمان لأنى ما زلت ولن أزل مصريا على أن مصر للمصريين » ويضع محمد فريد خطا على الجملة الأخيرة . ويقول محمد فريد عند الكلام عن جمال باشا ــ السفاح الأعظم : هذا الرجل طامع فى فتح مصر لنفسه ويكره المصريين الأحرار وبالطبع أنا فى مقدمتهم لاعلانى دائما حقوق مصر ، ومجاهرتى بمقاومة كل من يقول بغير ذلك أيا كان » وبذلك تنتهى العلاقة ... !!

★★★

ومن خلال السطور السابقة يتبين لنا ان العلاقة بين محمد فريد والقادة الأتراك كانت تمثل فى بعض الأحيان صراعا عنيفا ، وتمثل فى أحيان أخرى صراعا مستترا ·· محمد فريد ـ بكلمة موجزة ـ كان يريد بقاء الدولة العثمانية حرة مستقلة ، كما أنه كان من أنصار استقلال مصر استقلالا تاما ـ وعندما كانت المطالبة بالاستقلال لمصر تتعارض مع السياسة التركية ، كان محمد فريد يفضل بطبيعة الحال استقلال مصر ، استقلالا تاما · كان العدو الرئيسى من وجهة نظر فريد بك الاحتلال البريطانى ، وما عداه كان عدوا ثانويا ·

وقد كان حزب الأمة (المصرى) وأعضاؤه يطلقون على أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية فى مصر على علاقة طيبة ببريطانيا العظمى الدولة التى تحتل مصر ، وعلى علاقة سيئة بدولة الخلافة الاسلامية التى لا تحتل مصر · وما اكثر ما عبر الأستاذ أحمد لطفى السيد ـ فيلسوف ذلك الحزب ـ عن تلك السياسة ، وما اكثر ما حمل على الذين ينادون بأن تكون العلاقات المصرية التركية جيدة بل كان يتهمهم ـ كما فعل بالنسبة للحزب الوطنى ـ بالتبعية · ومذكراته فى بداية الحرب الايطالية الطرابلسية وبينما الشعب المصرى كله منغمر فى تأييد دولة الخلافة وتأييد المجاهدين العرب فى طرابلس خرج الأستاذ لطفى السيد برأى معارض تماما داعيا الى أن تكون سياستنا سياسة مصالح لا سياسة عواطف · وقد غضب الشعب لما كتبه أحمد لطفى السيد ، وتخلى حزب الأمة عن فيلسوفه ، وجاء الحزب بالدكتور حسين هيكل ليرضى الشعب بمقالات تؤيد دولة الخلافة العثمانية ، ويعلن الوقوف الى جانب المناضلين العرب فى طرابلس ، وقد غضب الأستاذ لطفى السيد وانزوى فى « برقين » ـ بلدته ـ لأنه لم يوافق حزبه على سياسته ، ولأنه وجد فى تخلى حزبه ـ حزب الأمة ـ عنه نوعا من الانتهازية ·

***

وما أكثر ما خطب أحمد لطفى السيد ـ قبل ان يعتزل العمل فى بلدته «برقين» مناديا بالانفصال التام عن تركيا وان كان دائما وأبدا يعترف بالسيادة العثمانية · فى احدى محاضراته التى ألقاها فى نادى الحزب بسراى البارودى بشارع غيط العدة بجوار باب الخلق وكان عنوانها : الحالة الحاضرة » · رحب أحمد لطفى السيد بفرحته وابتهاجه بصدور الدستور العثمانى لأنه بشرى للدستور فى مصر ، ويناقش أحمد لطفى السيد فكرة أن يكون لمصر ممثلوها فى مجلس المبعوثان (برلمان دولة الخلافة العثمانية) فيعارض الفكرة لأن قبولها يضيع علينا حقنا فى الاستقلال ، واذا كان الأتراك يعتبروننا رأسا فلا يجب ان نعتبر نحن أنفسنا ذنبا · ويعترف

أحمد لطفي السيد بحق السيادة التركية علينا ولكن في حدود معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفي حدود الفرمانات التي صدرت بعدها .

***

ونستأذن في الاطالة في الحديث عن موقف جريدة المؤيد ــ كبرى الصحف المصرية يومئذ ــ وعن موقف حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية الذي كان يرأسه الشيخ على يوسف لأن هــذا الموقف هو نفس موقف الخديو عباس حلمي الثاني : يقول المؤيد ضمن مقال مطول نشره في ١٧ أغسطس ١٩٠٨ يشير في بدايته الى فرحة أهل بيروت قائلا : أصبح أهالي بيروت ــ وكان وقتئذ صاحب المؤيد هناك ــ بعد عرس الحرية ، يفكرون في طريق انتفاعهم منا وهم حائرون بماذا يبدأون وسيظلون كذلك زمنا لأن سلطة الدستور لم تقم بينهم ولأن السلطة المطلقة لم تذهب صورتها من مخيلاتهم بل لم يذهب الا القليل من مظاهرها ولا تزال أبواب الدستور مرتجة سيفتحها العمل بعدما يستقر الأمر للحكومة وتثبت أقدامها خصوصا وان سلطة العسكرية تنمو الآن شيئا فشيئا منفردة بالأعمال آنا فآنا والناس يخافون العسكرية خوفا غريزيا فيهم ولذلك يهمس بعضهم قائلا انا ودعنا الاستبداد الملكي ونخشى ان نقع في قبضة الاستبداد العسكرية . على أن للعسكريين عذرا في قولهم أننا نتولى الأمور حتى يجتمع مجلس المبعوثان ويتولى ادارة المملكة لأنهم يخشون أن يعبث العابثون بنتائج انتصارهم فينقلب الحال شرا من الماضي . ونحن نقول . ان العسكرية لم تحدث حتى الآن حدثا كبيرا في المملكة حتى نسيء الظن بها وأن العقلاء لا يزالون يؤملون ان تحافظ على سلوكها القويم الذي اشتهرت به منذ قبضت على زمام الأعمال حتى يستلم الأمور مجلس المبعوثان ويصبح ما لقيصر لقيصر وما لله لله . كما أننا نؤمل ان يحتاطوا للخطة السلمية الشريفة التي رسموها لأنفسهم بالحكمة والنزاهة وان يكون الاعتدال كما يعلنون على الدوام رايتهم التي يرفعونها على رؤوس الأمة العثمانية لأن آفة الانقلابات الكبرى للأمم والحكومات ان ينتقم زعماؤها من الماضي والأحقاد الشخصية وان يطمعوا في المستقبل بالأنانية الذاتية » .

***

وجاء في الخطبة التي ألقاها صاحب المؤيد في حديقة بيروت مساء أول أغسطس سنة ١٩٠٨ أي عقب اعلان الدستور في بيروت بخمسة أيام على مسمع عدة الوف في مقدمتهم ضباط الجيش ما نصه بالحرف الواحد :

« ولكن اسمحوا لي أيهـا السادة ان أقول هنا كلمة أخرى فانه اذا كانت الوظيفة المقدسـة للجيش هي انقـاذ الوطن والدولة من كل خطر

يتهددهما وهذا الجيش العثمانى السامى قد وفقه الله الى أداء وظيفته الآن بكمال الحزم والحمية فليبق كذلك وليقف عند هذا الحد من عمله العظيم وليكن حارسا من بعيد على شرف الدستور الذى أبرزته حميته للوجود وللحرية المقدسة التى أصبحت ملكا للشعب ولا يقترب منهما كثيرا « فان السيف والحرية والدستور لا يبيتون فى قراب واحد » ٠

★★★

ومن ذلك التاريخ جرى المؤيد فى خطته على هذين المبدأين مبدأ تأييد الدستور والحذر من استمرار تسلط الحزب العسكرى على أمور الدولة مخافة ان يدب دبيب فساد السياسة الى الجيش ٠ وان يكون بذلك القضاء على الدستور ٠ وعلى هذين المبدأين كان المؤيد ينتقد على الدوام جمعية الاتحاد والترقى التى تستمد قوتها من الجيش وتستبد بأمور الدولة حتى آل الأمر أخيرا الى وجود الحكومة العرفية فى الآستانة بلا قرار من مجلس المبعوثان وهى الآن الحاكمة المطلقة فى الآستانة وسلطتها كثيرا ما تتعداها ٠ فهل المؤيد معارض للدستور العثمانى وهو يفضل عهد السلطان السابق عليه ؟ ذلك ما أشاعه الوشاة المتملقون لجمعية الاتحاد والترقى ولكن المؤيد ينفيه ويرده على أصحابه بالحجج الدامغة ٠

ففى شهر يناير الماضى نشرت « صباح » التركية عبارة تحت عنوان (خديو مصر والدستور العثمانى » ترجمتها عنها جريدة الأهرام فى عددها الصادر بتاريخ ١٧ يناير سنة ١٩٠٩ جاء فيها ما يلى :

★★★

« منذ نشر الدستور العثمانى ذاعت اشاعات غريبة عن سمو خديو مصر الذى اظهر قبل الآن ميلا كبيرا نحو تركيا فقد قالوا ان هذا الخديو الذى كان على عهد السلطة المطلقة فى جانب تركيا ضد انكلترا التى لم يكن يتفق معها ليس راضيا عن الحكم الدستورى فى تركيا وأنه اتفق مع عزت باشا العابد على انشاء جريدة فى الآستانة بواسطة جريدة المؤيد التى تصدر فى القاهرة لتدافع عن الحكم المطلق وقد أعطى صاحب المؤيد من أموال الأوقاف مبلغ ألفى جنيه بالاتفاق مع خليل باشا حمادة الذى عينه الخديو مديرا للأوقاف لهذا الغرض فحملوا أوقاف المسلمين على نفقة هذا العمل المضر » ٠

وروت هذا الخبر جريدة طنين فى ذلك الوقت وزادت عليه أن المؤيد يشتغل بايعاز من الخديو ومن عزت باشا لاحياء مسألة الخلافة العربية ٠

وفى العدد ٤٠ من جريدة طنين نشرت رسالة لكاتب تركى حمل فيها حملة منكرة على المصريين بأجمعهم وطلب الغاء المحمل المصرى لأنه يذكرهم بعهد الخلافة فى بلادهم . ثم قال هذا الكاتب ما يأتى « نحن لا نعلم لماذا يوجد عند المصريين غل لا ينطفىء يحملهم على انتقاد حكومتنا وطرز حياتنا بما يهيج علينا أفكار العرب ويحرك كوامن نفوسهم » .

***

وتنشر صحيفة « دى غرى بول » من جرائد الاتحاد والترقى فى ٢٤ ابريل ١٩٠٩ حديثا لمصرى رفض ذكر اسمه على النحو التالى :

« المحرر : ما رأيكم فى حزب التقهقر الذى جعل مركزه مصر الآن ؟

ج : انى لا أعلم شيئا كثيرا عن هذا الحزب لعدم اختلاطى بأعضائه ولا بمن يلوذون به ولكن الذى سمعته هو أن عزت باشا العابد أوفد ولده أو ولديه الى مصر لشراء أطيان ويقال انهم اشتروا قسما عظيما من أسهم جريدة المؤيد ليجعلوها لسان حالهم بمصر ويقال ان لهذه الحركة علاقة بمسألة الخلافة العربية التى يشتغل بها أصحاب المطابع منذ سنين باتفاق مع أعداء الاسلام الذين يريدون قصم ظهر الدولة العلية وشطرها . الى ان قال : « ويقول العارفون ان مركز هذه الحركة موجود الآن بالقاهرة ورسل السوء تغدو وتروح بين مصر والآستانة لهذا الغرض » .

ويجرى مستر لوسيان دولف ـ من كبار الانجليز ـ حديثا ينشره فى جريدة وستمنستر ـ احدى الجرائد الانجليزية ـ الشهرية وقتذاك ـ فى ١٥ يونيو ١٩٠٩ حديثا مع عزت باشا العابد ، وكان قد اتهم بأنه شريك فى صحيفة المؤيد التى تعارض الحكم التركى وأن له علاقات وثيقة بمعارضى نظام الحكم التركى وقد ورد على لسان عزت باشا « اننى مقتنع تمام الاقتناع بأن انفصال العرب عن السلطة على أى شكل كان ليس فى مصلحتنا لأنهم لو تركوا وشأنهم يحكمون أنفسهم لكانت النتيجة الفوضى ولقام اثنا عشر خليفة صغيرا بدلا من خليفة واحد فلا أمان لهم الا فى ظل الهلال وفى طاعة الدستور » .

***

ولما سأله المحرر عما يعزى اليه من تأييد دعوى الامام يحيى بالخلافة فى اليمن أجاب بما يأتى :

« انى أنا صاحب سكة حديد الحجاز التى فعلت فى تعزيز سلطة الأتراك على اليمن ما لم تفعله الجيوش التى وجهت اليها منذ فتح الآستانة

ولما عرضت ذلك المشروع على السلطان السابق واقنعته بانفاذه لم أكن أفكر فى راحة الحجاج فقط بل فى وحدة السلطنة بوجه خاص ولا يزال ذلك رأيي بلا تغيير فانى من رعايا محمد الخامس المخلصين كما كنت لعبد الحميد ولست أحب أن أرى تقلصا لظل نفوذه فى اليمن ولا فى غيرها » .

ورد الشيخ على يوسف على اتهامه بأنه على اتصال بعزت باشا عابد فيقول : ان المؤيد يتحاشى دائما ذكر اسم عزت باشا الا منقولا عن الجرائد التركية وأنه — عزت باشا — ليس شريكا فى المؤيد فجميع الشركاء فى المؤيد قد سجلت أسماؤهم فى قلم عقود محكمة مصر المختلطة وليس بينهم غير مصرى الجنسية وسورى عثمانى استوطن مصر منذ ثلاث سنوات » .

★★★

ويلخص الشيخ على يوسف خطة المؤيد تجاه دولة الخلافة الاسلامية (المؤيد ٢ يوليو ١٩٠٩) مشيرا الى أن مجلس ادارة شركة المؤيد اتخذ فى ٣ يوليو ١٩٠٩ القرار التالى :

« قرر مجلس ادارة شركة المؤيد باتحاد الآراء أن الخطة التى جرى عليها المؤيد بازاء الحالة الحاضرة فى الآستانة العلية خطة مبنية على الصدق والاخلاص فى خدمة الدولة والملة ولو أنه خرج عن هـذه الخطة القويمة لخالف مبادئه النزيهة التى اشتهر بها فى خدمة الدولة العلية والجامعة العثمانية والخلافة الاسلامية » .

ان المؤيد يرى وجود جمعية سرية تستمد قوتها من الجيش بجانب الحكومة ومسيطرة عليها خطرا كبيرا على سلامة السلطنة نظهر بوادره الآن من وجود الحكم العرفى فى دار الخلافة مستمرا منذ شهرين متسلطا على كل شيء وقد شملت أحكامه الذين اشتركوا فى فتنة ١٣ أبريل الماضى وغيرهم وامتدت سلطته الى الحرية الشخصية حتى خافها كل فرد على نفسه وتملقها المتملقون وصار لها مداح من الكتاب يقولون اليوم على رؤوس الأشهاد « ليت هذه المجالس العسكرية تدوم لأنها اذاقتنا طعم الهناء الذى لم نكن نعرفه فى معيشتنا من قبل » .

ولقد أزعج هذا التملق بعض كبار النفوس والعقول فكتب الدكتور شبلى شميل رسالة نشرتها جريدة المحروسة يوم ٢٣ يونيو الحالى يصف فيها كاتبا مملقا للهيئة الجديدة حيث يقول :

« بل رأيته كلما ذكر ذلك أن يقرنه بحمد الهيئة الجديدة (والمقدسة كمـا يقولون) . كمـا أنه يخشى اذا أغفل التسبيح ان يندم المحسنون

فينقلبون أو يتألمون فينقمون — الى أن قال — ذكرني هذا بعهد عبد الحميد حيث كان الناس لا يصلون ولا يأكلون ولا ينامون ولا يقولون ولا يقعدون ولا ... يموتون الا وهم شاكرون حامدون . فاشتبهت الحقيقة على من هنا ومن هناك وباتت تتراوح بي ما بين هذا وذاك . فقلت هل نحن على صغارنا القديم باقون أو الى الجد الجديد متنقلون » .

★★★

هذا ما قاله الدكتور شبلي في موضوع خاص يكاد ينطبق الآن على كل شيء يجري في الآستانة وكأنما الناس بعد ان حلموا بالدستور وحريته عادوا الى روح الاستبداد فالقوا منها أشد انفعالاتها خطرا على الأمم وهو حكم المجالس العسكرية ثم أصبحوا يتمنون أن يتولى عليهم حكاما غير العسكريين .

ودونك ما قاله مندوب المقطم الخصوصي في الآستانة منشورا في عدده (٦١٥٢) الصادر يوم الخميس ٢٤ يونيو سنة ١٩٠٩ بالحرف الواحد ..

« يذكر القراء الكرام انني تمنيت منذ ١٥ يوما أن تعين الحكومة معظم رجال الادارة من الضباط الذين تخرجوا في مدارس أوروبا لقلة استعداد رجالنا الملكيين ولقد علمت الآن ان الحكومة قررت تعيين كبار الضباط ولاة في بعض الولايات التي ترى موجبا لتعيينهم فيها واطلاق يدهم في ذلك كان يعينوا بعض القائمقامين من الضباط أيضا على أنني وان كنت لا أود مداخلة العسكرية في الشئون الملكية فانني أعترف بأن الضرورة تقضي باتخاذ مثل هذا القرار والسلام » .

وما قاله مندوب المقطم هذا قاله كثيرون من كاتبي الصحف في الآستانة وقاله كاتبو المؤيد أيضا حكاية عن كثيرين وكله دليل على أن أهل الآستانة تعودوا على السلطة العسكرية حتى صاروا يألفونها .

ومن المحزن أن يكون حكم الصحافة التي تنطق كثيرا بلسان جمعية الاتحاد والترقي على الأمة شديدا وقاسيا الى هذا الحد . « لأنهم لم يكونوا يودون أن تتداخل العسكرية في الشؤون الادارية ولكن للضرورة أحكام » .

★★★

فهذه العاطفة الجديدة التي ظهرت عند طبقة كبيرة من أهل الاستانة والمقيمين فيها تفضل السلطة العسكرية في ادارة شئون البلاد للضرورة

القاسرة · وهذه المجالس العسكرية التي تصدر كل يوم أحكامها بالشنق والسجن والأشغال الشاقة والتغريب ومصـــادرة الأموال على مسمع من مجلس المبعوثان الذى يمثل سلطة الدستور وحكم الأمة بنوابها · وتلك الصيحات التى تنادى على رؤوس الأشهاد وتقول « ان أهل الاســـتانة لم يذوقوا طعم الهناء فى معيشتهم منذ أعلن الدســـتور الا بواســـطة الأحكام العرفية » ·

كل هذه المظاهر والأقوال تدلنا فى النتيجة على شيء واحد هو أنهم جربوا ادارة لولب العمل بالدستور فى صمامه حكومة الدولة فلم يدر فأداروا لولب الاســـتبداد فدار (واللولب اذا دار الدورة الأولى دار الدورة الأخيرة) ·

وكان الشيخ على يوسف قد بعث الى جريدته ـ من مصنعه فى بيروت ـ برسالة نشرت بالمؤيد فى ١٧ أغسطس ١٩٠٩ خاطب فيها أبطال الانقلاب المحبوب متوسلا اليهم من صميم قلبه ـ كما قال ـ وقد جاء فى تلك الكلمة : « اننا نؤمل منهم ان يحتاطوا للخطة السلمية الشريفة التى سموها لأنفسهم بالحكمة والنزاهة وان يكون الاعتدال كما يعلنون على الدوام رايتهم التى يرفعونها على رؤوس الأمة العثمانية لأن آفة الانقلابات الكبرى للأمم والحكومات أن ينتقم زعماؤها من الماضى بالأحقاد الشخصية وأن يطمعوا فى المستقبل بالأنانية الذاتية » ·

★★★

وينشر المؤيد ـ فى ٢٥ مايو ١٩٠٩ ـ رسالة لصديق هو عضو فى مجلس المبعوثان يسجل فيه انحراف المؤيد عن خطته تجاه دور الخلافة الاسلامية مما أدى الى مصادرته داخـــل تلك الدولة وكيف قال الصدر الأعظم لذلك الصديق عندما ناقشه فى أمر المصادرة : لقد كنت أجـــل صاحب المؤيد كثيرا ولكننى متعجب للغاية من انحراف المؤيد عن خطته · ويقول الصديق أنه جزع لتلك الخلافات التى نشبت بين أبناء الوطن وأنه ـ الصديق ـ ينادى بأن نختلف فى المشارب والمذاهب على شريطة ألا يثور الخلاف أبدا حول عرش الخلافة ·

ويرد الشيخ على يوسف على رسالة الصديق ببيان ينشره المؤيد مؤكدا ان المؤيد لم ينحرف عن خطته وأكد البيان ان للمؤيد حق الانتقاد والاعتراض على ما يجرى فى الدولة العلية · وقد جاء فى ذلك البيان ·

« اننى لم أقف من الانقلاب موقف المعترض لأننى أعتقد أنه كان ضروريا : لم يقف المؤيد من الانقلاب الدستورى موقف الاعتراض من

ناحية الشكل . أما من ناحية الموضوع فانى آراه ضروريا ولازما لحياة الدولة العلية وحفظ سياج الخلافة الاسلامية . أرى ان هذا الانقلاب كان ضروريا لأن هذا العصر الذى يتقلص فيه ظل الحكم المطلق من كل مكان لم يكن يسمح ببقائه فى الممالك العثمانية الا والحوادث تمزقها كل ممزق. ولذلك فرحت مع الفرحين من صميم قلبى لحدوث ذلك الانقلاب المحبوب فى صيف العام الماضى وقدرت الأبطال المجاهدين فى سبيل حصوله حق قدرهم وكتبت المقالات التى أشرت اليها فى اطراء محدثى هذا الانقلاب وتقدير فوائده للدولة والملة ولكنى فى كل ما كتبت لم أغفل عن الاشارة لما كنت أخشاه وقد تحقق بعضه .

***

ففى الخطبة التى القيتها فى بيروت بعد اعلان الدستور بخمسة أيام شكرت الجيش أجزل الشكر على عمله ولكنى أشرت الى وجوب وقوفه بعد ذلك بعيدا عن الدستور موقف الحارس الأمين فلا يقترب رجاله من الأعمال السياسية والادارية قائلا (ان السيف والحرية والدستور لا يبيتون فى قراب واحد) ولعلكم لاتخالفوننى اذا قلت أن الجيش بعد ذلك الانقلاب ظل قريبا من العمل بل مباشرا له لأن ضباطه أخذوا يتداخلون فى أمور السياسة والادارة بصفتهم أعضاء جمعية الاتحاد او مانحى الدستور فكانت النتيجة الطبيعية لهذا التدخل ألا وهى فقدان التوازن بين الحزبين السياسيين اللذين وجدا فى مجلس المبعوثان . وفقدان التوازن قد حصر السلطة فى يد فريق من الفريقين المتنافسين عليها فى وقت لم تتشبع فيه النفوس من المبادىء الدستورية الحقيقية فكان التذابح الذى وجد بين ذينك الحزبين وقد كتبت وقتئذ فى المؤيد أنتقد عملهما معا بلهجة شديدة لأننى أيقنت ان هذا التذابح فى بلد حديث عهد بالدستور سيكون خطرا عليه بل على الدولة بأجمعها .

***

ولذلك اعتقدت أن حوادث ١٣ ابريل كانت نتيجة طبيعية لذلك التذابح ومهما اختلفت الأيدى العاملة ومهما قيل عن وجهة المحرضين فان وجود اليد العسكرية متداخلة فى شئون الادارة والسياسة من قبل جعلت الحزب الذى فقد هذه القوة الاضافية اليه يبحث عن طريق توصله الى حظه منها . فلما رأى الضباط فى جانب خصمه تسرب الى العساكر من الطريق الذى رآه موصلا واقتطع قطعة من تلك القوة ليحارب بها خصمه .

ويخشى أن يكون الخطر على الدولة من هذا القبيل باقيا مادام الجيش مصدر قوة الحزب المتغلب الآن على كل شىء .

فانا اذا انتقدت على الانقلاب الأخير فان انتقادى عليه من وجهة أنه فتح طريق الخطر المستقبل على الدولة اذ لا يبعد أن ينشق حزب الاتحاديين على أنفسهم أو يشق الجيش على نفسه من هذا السبيل فيكون الخطر الأكبر على الدولة معاذ الله ٠

★★★

وأذكر أنه لما زار القطر المصرى فى أول الشتاء الماضى الجراح العثمانى الشهير (جميل باشا) وهو على ما أظن من جمعية الاتحاد سألته فى منزلى وسأله معى سعادة سعد باشا زغلول ناظر المعارف العمومية المصرية هذا السؤال « هل تبقى جمعية الاتحاد عاملة مسيطرة بعد انعقاد مجلس المبعوثان ؟ » فقال : « نعم تبقى كرقيب على المجلس حتى يستقر أمر الدستور على حالة وطيدة » ٠

سألناه ألا تكون هذه الرقابة ماسة بكرامة المجلس ومضعفة للثقة العامة بنواب الأمة ؟ فأجاب بعد سكوت طويل — « لا أظن أن الجمعية تستعمل رقابة على المجلس يشعر بها ، ولا أظن أنها تتظاهر بسلطة لها على الحكومة أيضا مع وجود المجلس » ٠

ومعنى هذا الجواب أنه لا يرى حكمة ولا علة معقولة لبقاء جمعية الاتحاد قائمة ذات سلطة مستقلة محسوسة للناس بعد مباشرة مجلس المبعوثان عمله لأن ذلك يؤذن بعدم الثقة بالمجلس وبنواب الأمة ٠

★★★

ولو ان جمعية الاتحاد بعيدة عن الجيش الذى هو قوة القوى للدولة لما كان هناك أدنى خوف من وجود تلك الجمعية بل تكون بمثابة حزب سياسى لازم وجوده فى البلاد لنشر روح الدستور وتقوية مبادئه بجانب المجلس ٠ أما وجود الجمعية مستقوية بالجيش فمعناه اضعاف تلك المبادىء بل ازهاق تلك الروح وفقدان الثقة بالمرة فى المجلس وبعبارة أخرى تكون الحكومة المطلقة قد انتقلت من فرد مستبد الى جمعية مستبدة وذلك الفرد هو صاحب التاج الذى أخذه بالارث والاستحقاق وأما الجمعية فمؤلفة كما هو معروف من خليط عدة طبقات من الناس لكل فرد منهم مناظرون عالون ودانون وحساد من طبقته فلا يطيق أولئك المناظرون والحساد سيادة واحد عليهم من طبقتهم أو أعلى بقليل أو أدنى بكثير كأنه السلطان لحكمه فيهم واستبداده بهم ؛ وعلى هذا كان بقاء الجمعية بعد انعقاد مجلس المبعوثان مرتبطة بالجيش ومستمدة قوتها

منه حتى فى المناظرات الحزبيــــة علة خطر كبير قد عرفنا مقدماته من حادث ١٣ ابريل والله أعلم وحده بنتائجها ٠

فاذا كان الانقلاب الذى جرى بعد ذلك قد خلع سلطانا مســتبدا فانه أيد استبداد جماعة لايمكن ان تبقى للأمة وحدتها ومعهم ان استمر استبدادهم بشؤون الحكومة والأمة وبهذا نخشى ان يقضى العمل الذى أريد به تأييد الدستور الى تمزيق شمل الأمة لا قدر الله ٠

★★★

لا يبعد ان أكون مخطئا فى تصـــــوراتى هذه وأنــا أتمنى ذلك ٠ ولكن مادامت هذه التصورات مالئة وجدانى وأفكارى فهل أضرب بهــــا عرض الحائط وأسير فى هذا التيار الذى جرف أكثر الصحافيين وجعلهم يطرون القوة ويطربون منها كلما انفعلت بحركة ٠ أما عن الانقـــلاب الأخير فانى لم أكتب على أثره كلمة واحدة اعتراضـــا على خلع السلطان عبد الحميد بعد ما تم أمره ولم أطعن فى الفتوى التى أصــــدرها شيخ الاسلام وبنت عليها الجمعية العمومية تقــرير ذلك الخلع وكل ما عزته الصحف للمؤيد من ذلك كذب وتضليل ٠ كذلك لم أكتب فى كل أدوار هذه الحوادث كلمة يفهم منها أنى أفضـــــل الحــكم المطلق السابق على الدستور ومذهبى فى ذلك معروف وكيف يكون هذا والمؤيد هو الجريدة الوحيـــــدة التى تجاسرت فى العهد الماضى على طبع كتاب (طبـــــائع الاستبداد) الذى نشره المرحوم الشيخ الكواكبى مقالات متواليــــة على صفحات المؤيد ثم جمعه بعد ذلك ٠٠ وهذا دولة الغازى مختار باشا الذى بعث لى برسول فى ذلك الوقت يطلب منى أن أقطع سلسلة هذه المقالات ولا أنشر بقيتها فلما أبين رفع الأمر الى المابين الهمــــايونى فصــــدرت الارادة الشاهانية بمنع دخول المؤيد الممالك المحروسة فى ذلك العهد كما منع مرات عديدة قبل ذلك وبعده ٠ وكيف أفضــــــل حــكم الخاقان المخلوع على الدستور وأنا أول مطالب به فى مصر بل أنا الشخص الوحيد الذى أخذ قــرار الجمعيــــة العمومية على طلب الدستور مرتين فى سنتى ١٩٠٤ و ١٩٠٧ فكيف أناقض نفسى وأفضل حكما مطلقـــا متناهيا فى الاستبداد على حكم دستورى ٠ ان الذين يســـــندون الى هذا محرفون للكلم أو كاذبون ٠

★★★

ولكنى مع هذا انتقدت بشـــدة تلك الجرائد التى أكثرت من هجو السلطان عبد الحميد بعد خلعه وصارت لا تذكر له الا السيئات مكبرة

وهو لا يخلو من الحسنات أيضا . ثم شددت النكير على الذين طلبوا محاكمته واعدامه ونددت بسوء معاملته بنـــاء على ما كان يردنا تباعا من الأخبار .

وانما فعلت ذلك لأمرين : الأول أنني أرى الخلع جزاء كافيا لسلطان ورث الحكم المطلق عن آبائه وأجداده فلم يكن مبتدعا له مهما كانت جرائمه فيه . والثاني أني أعتقد ان السلطان عبد الحميد ربى في نفوس جميع المسلمين وخصوصا غير المحكومين بحكمه ميلا قويا لتمسكه بأهداب الخلافة وظهوره بمظهر الحامي للدين الاسلامي في العالم أجمع . وربما كان هو أول سلطان عثماني صار عند المسلمين خليفة كبيرا . وزد على ذلك أن دول أوروبا تآمرت عليه عدة مرات باسم المسيحية فكان يحل عرى تآمرها باقتدار فائق فيعلم المسلمون بعد ذلك أنه ابلى بلاء حسنا في الذود عن بيضة الاسلام واذا غلبه المتآمرون في مشكل من المشاكل الدولية عرف الناس أجمع أنه لم يغلب الا باجتماع القوى الكبرى عليه .

★★★

والمؤيد الذي خدم الدولة والملة عشرين سنة خدمة خالصه لوجه الله تعالى ولحقوق الجامعتين العثمانية والاسلامية يعرف هذا ويعرف ان الغلو في اهانة السلطان المخلوع أو سوء معاملته مما يوجب رد فعل في نفوس المسلمين ان لم تفض حوادثه الى نتائج خطيرة على الدولة فانها توهنها وتسيء سمعتها اتقاء للمضار التي تنشأ عن كثرة هجو السلطان المخلوع وعن اشاعة سوء معاملته فلماذا ينكر على المؤيد التزام هذه الخطة الرشيدة .

ولقد أنكر المؤيد استمرار الأحكام العرفية ولا يزال هو ينكرها لأن الأحكام العرفية معناها اطلاق العنان للسلطة المطلقة تحكم بما تشتهي وتهوى بلا مراعاة نظام عادل ولا قانون منظم بل معناها الرجوع الى سلطة الجبارين في أدوار الجاهلية والفوضى وقد اصطلحت عليها الحكومات زمن الفتن والاضطرابات تلطيفا لشراهة الجنود المتغلبة التي كانت تستبيح المدن التي تفتحها من بلاد الأعداء أياما معدودات . فوجود هذه الأحكام مناف للعدالة الالهية والوضعية وانما تلتجيء اليها الحكومات زمن الاضطرابات والفتن كبحا لجماح المتمردين والمفسدين وليتغلب جبروت الحاكمين على أرباب الفساد بالرهبة والحديد بالحديد يفلح . ولكن متى سكنت الفتن ورجعت النفوس الى هدوئها لا تلبث تلك الأحكام أن تلغى ويحل

محلهـــا القانون العام الذى يكون قادرا والحالة هذه على ضبط الأمور وتأييد الأمن العام ومعاقبة كل أثيم بما يستحق ٠

***

أما اذا بقيت الأحكام العرفية بعد ذلك ارضـــاء لشهوات المنتقمين فان نتيجتها يكون زيادة الأضغان ونمو السخائم فى نفوس الأمة بعضها على البعض ٠

ولهذا كان هناك فرق كبير بين ان يظلم الناس سلطان جائر وبين أن يظلمهم أفراد مكنهم حسن حظهم أن يتسلطوا عليهم ٠ هنالك ينتظر المظلومون فى الغالب ان يذهب الله عنهم سلطة الملك الجائر وان يولى عليهم غيره عادلا أو ان يثوروا عليه فيخلعوه ويولوا سواه ٠ وهنا لا يكون الا كمون نـــار البغضـــاء التى تنفجر وقت القـــدرة على الانفجـــار فلا تبقى ولا تذر ٠

ويؤكد الشيخ على يوسف ان الحكومة الحاضرة فى الاستانة اليوم كحكومة السلطان المخلوع لا تختلف عنها الا فى الاسم ٠

ويخيل لى ان بعض رجال الصحافة فى الآستانة لو رجعوا الى حديث نفوسهم وأصغوا اليها فى الخفاء لفضلوا عهد السلطان عبد الحميد الذى كان يقطع ألسنتهم ويخرس صرير أقلامهـم بالمال الذى ينفحهم به كل شهر على عهد الحكومة الحاضرة التى يخشـــون أن تجلبهم الى المحكمة العسكرية ان خالفوا رأيها لتحكم عليهم بالاعدام أو النفى ٠ ولولا ذلك لكانوا أشد لهجة فى انتقادها من المؤيد ألف مرة ٠ اذ لافرق بين ان يحكم على جريدة بالنفى من الممالك العثمانية لأنها لا تطرى أعمـال الحاكمين ولا ترغبيهم بترتيل أناشيد الثنـاء عليهم وأن يحكم على صاحب جريدة بمثل ذلك ٠

وقد كان الشيخ على يوسف فى رده على صديقه رائعا للغاية وصريحا الى أبعد حد ولعله ــ فيما يتعلق عن الأحكام العرفية وعن حكم الضباط الأتراك ــ قد سبق زمانه بمائة عام على الأقل ٠

وقد كان الشعراء المصريون ألسنة حق وصدق فى تصور العلاقات الطيبة التى تربط الشعب المصرى بدولة الخلافة الاســـلامية ٠ ولو تم دراسة الشعر الذى قيل فى دولة الخلافة الاسلامية تمجيدا فى السلطان عبد الحميد وابتهاجا بنزوله عن العرش وفى كل الانتصارات التى حققها

آل عثمان في حروبهم مع أوروبا بل وفى الهزائم أيضا لكانت دراسة ممتعة بحق ٠

وكان أحمد شوقي ــ لا جدال ــ هو الفارس المجلى فى هذا ٠ وقد حفظ الكثيرون فى رائعته التى قالها عقب عزل السلطان عبد الحميد ومطلعها :

سل يلدزا ذات القصور — هل جاءها نبأ البدور
لو تستطيع اجابة — لبكتك بالدمع الغزير
ودها الجزيرة بعد — اسماعيل والملك الكثير
ذهب الجميع فلا القصور — ترى ولا أهل القصور
فلك يدور سعودة — ونحوسه بيد المدير

الى أن يقول أحمد شوقي :

ونراه عند مصابه — أولى ببكاك أو عذير
ونصونه ونجله — بين الشماتة والنكير
عبد الحميد حساب مثلك — فى يد المولى النصير
سدت الثلاثين الطوال — ولسن بالحكم القصير
تنهى وتأمر ما بدا — لك فى الكبير وفى الصغير
ماذا دهاك من الأمور — وكنت داهية الأمور

الى ان يقول :

دخلوا السرير عليك — يحكمون فى رب السرير
أعظم بهم بين أسر — وبالخليفة من أسير
أسد هصور نشب الأظافر — فى أسد هصور

ويخاطب فى الخليفة الجديد محمد رشاد قائلا :

أنت الكبير يقلدونك — سيف عثمان الكبير
شيخ الغزاة الفاتحين — حسامه شيخ الذكور

★★★

وكان أحمد شوقي قد هنأ السلطان عبد الحميد بنجاته من قذيفة في ٥ سبتمبر ١٩٠٥ فقال :

هنيئا أمير المؤمنين فانما — نجاتك للدين الحنيف نجاة

هنيئا لطه والكتاب وأمة — بقاؤك ابقاء لها وحياة

« ويلدز بالتركية اسم نجم . والخورنق : قصر كان في الحيرة للملك النعمان أحد ملوك بني منذر . وكذلك الخورنق كان من قصور المناذرة وشنيغ الذكور يعني : شنيخ الأسلحة » .

ومن القصائد غير المعروفة لخليل أفندى مطران تلك التى كانت تحمل عنوان « عتاب واستصراخ » وكانت قد قيلت بمناسبة الحرب الايطالية الطرابلسية . وكان مطلعها :

صدقت في عليكم أو بصدق الشمم — لا المجد دعوى ولا آياته كلم

يا امتي حسبنا بالله سخرية — منا ومما تقاضى أهلها الذمم

انه كان من نجدة ومنا تفجعنا — فليكفنا ذلنا ولتسعنا السقم

الى ان يقول خليل مطران :

بأى جهل غدونا أمه همـلا — وأى عقل تولت رعيتنا الأمم

لا تنكروا عذلي هذا فمعذرتي — جرح بقلبى دام ليس يلتئم

لولا تقاولنا لولا تخاذلنا — لولا نواكلنا تالله ما اقتحموا

الى ان يقول أيضا :

تالله لو طار فوق النسر طائرهم — وذللت لهم الابحار فلكهم

وسخرت كل آيات الفضاء لهم — حتى الخوارق والارياح والرجم

يا أيها الوطن الداعى لنجدته — لبيك مصر ولبى القدس والحرم

أموالنا لك وقف والنفوس فدى — وعش ولا عاش فى نعماك متهم

★★★

وتحت عنوان « السيف العثماني » هتف مصطفى صادق الرافعي :

من الصـــواعق لا يبقي ولا يذر ... اذا ارتضــاه لأهل القمــة القدر
يرمي به الله رحما لاتقوم له ... هام الشـياطين الا ريث ينحـدر

ويقول الرافعي :

فكلمــا بلى التاريخ جــدده ... وكلما كاد ينسى أهلهـا ذكروا
سيف الطبيعة بل سيف الفجيعة ... بل سيف الشريفة فيه العدل والعبر
في كف كل فتى صبت سواعده ... صب الحديد فلا وهن ولا خــور
فلا كلال ولا صـــد .ولا هرب ... ولا ملال ولا خــوف ولا حــذر

وعن جيش الطليان يقول مصطفى لطفي المنفلوطي :

خاطوا لأجسامهم من نفعنــا كفنا ... فان أســـيافهم في حربنـا ابــر
اسطولهم أم كلاب البحر تنبحنا ... أم الضفادع قد ضجت بها القدر
ان البعوضة في الصحراء أضخم من ... اسطولهم ولهـــا من دونه أثــر

ويقول أيضا عن الجيش الايطالي :

يا للرجولة من قوم اذا انفردوا ... بالطفل يلعب ردوا الطفل يحتضر
يا للمروءة من قــوم اذا نظروا ... للمستغيث بهم في موته سخروا
يا أمة النحت والتصوير ويحكم ... حتى جنودكم الأنصاب والصــور

وعن موقف عزيز المصري من دولة الخلافة ودوره والظـروف التي أثرت فيه تذكر العديد من الروايات التي تواترت عن هـذا الموقف مهما تكررت النصـوص وذلك من أجل اجلاء الحقيقة ومن أجل اثبـات بعض الروايات .

وفي المقدمة ننقل رواية لمجيد خدوري ـ وهو من الكتاب العرب المجيدين الذى اختطفه الغرب منا اذ يقول :

ولد عزيز علي في القاهرة عام ١٨٧٩ / ١٨٨٠ اى انه نشأ في عهد كرومر (١٨٨٣ ـ ١٩٠٧) وقد كانت سياسته في مصر قائمة على الأسس التالية :

اولا : أن سكان مصر لا يكونون أمة وانمــا هم خليط من العنـاصر البشرية المختلفة .

ثانيا : أن شعوب مصر والهند من الشعوب الخاضعة التى لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها وان الانجليز هم المسئولون عن الحكم فى البلدين وعن ادخال الحضارة الحديثة بين شعبيهما ٠

ثالثا : أن الانجليز عليهم مسئولية ادخال الحضارة الاوربية فى مصر لاقالتها من عثرتها على أيديهم أو بواسطة جماعات مصرية عايشت التقاليد الاسلامية والمصرية ٠ ومن ثم يجب أن تكون الحضارة الجديدة التى سيدخلها الانجليز وعملاؤهم حضارة انجليزية مسيحية ٠

رابعا : ان الفلاح المصرى يجب أن يرتبط بالحكم الانجليزى لا بالزعامات الوطنية كيما يشعر الفلاح بأن أحواله تحسنت على يد الانجليز ٠

واننى على يقين بان القارىء يؤمن الآن بان مصر تعرضت لتخريب قومى على يد كرومر بقصد تحطيم وحدة البلاد وتحت هذه السياسة عاش عزيز على ٠ وكان منذ صغره ناقدا طموحا فاشمأز من الاحتلال الانجليزى وعندما أصبح يافعا بحث عن الوسيلة التى يمكن بها تخليص البلاد من الاستعمار البريطانى ٠

ويمضى مجيد خورى قائلا : لقد تأكد الكثير من الوطنيين ان سياسة عبد الحميد ستؤدى الى انهيار كامل للدولة العثمانية ان لم ترتفع بسرعة الى مستوى الدول الحديثة ٠ فظهرت منظمات عديدة تعمل على التخلص من عبد الحميد واعادة الحياة الدستورية الى الدولة ونشر المساواة بين كل من العناصر والقوميات التى تضمها الدولة ٠

★★★

فى هذه الظروف وصل عزيز على الى الاستانة ٠ والتحق بالمدرسة الحربية وقد تخرج فيها فى ١٩٠٤ واشترك فى القتال فى البلقان ٠ وخلال ذلك كان يستمع الى أحاديث زملائه الأتراك عن مساوىء عبد الحميد الثانى وكانت مبادىء جمعية الاتحاد والترقى المناهضة لسياسة عبد الحميد والداعية الى اصدار دستور للبلاد والى المساواة بين مختلف القوميات آخذة فى الانتشار بسرعة بين صفوف ضباط الجيش العثمانى حتى اذا اكتملت قوة الثوار زحفوا الى الاستانة ١٩٠٨ وكان معهم عزيز ٠

وانحنى عبد الحميد للعاصفة وأصدر الدستور فورا ٠ ورحبت كل القوميات الموجودة فى الدولة بتلك الثورة وكذلك كل الشعوب الواقعة تحت الاستعمار الأجنبى ، ومن ذلك ان الحزب الوطنى فى مصر

بزعامة محمد فريد تطلع الى ان يمد رجال تركيا الفتاة يد العون الى مصر لتخلصها من الاحتلال البريطانى ·

وأخذ اسم عزيز على المصرى يظهر على المسرح السياسى بقوة منذ ذلك الحين · فقد كان صديقا للزعماء الثلاثة الذين سيطروا على مقدرات البلاد منذ الثورة ، وهم (أنور وطلعت وجمال) ·

وكانت لكل واحد من هؤلاء سياسة وفلسفة خاصة :

١ ـ كان أنور يدعو الى الجامعة الاسلامية ·

٢ ـ كان طلعت يدعو الى جامعة عثمانية ·

٣ ـ أما جمال فكان تركيا قوميا ·

ووقف « عزيز على » من هذه السياسات المتضاربة موقف الساعى للتوفيق بينها · ولكن كان التوفيق أمرا صعبا للغاية · بل تفوقت السياسة القومية على الحكومة العثمانية تلك السياسة الهادفة الى تتريك الدولة العثمانية بأسرها · ان معنى التتريك هو ان يتخلى العرب عن عروبتهم وعن لغتهم وان يصبحوا أتراكا ولهذا قاوم العرب هذه الاتجاهات فى كل المجالات فاتهموا الأتراك بأنهم :

١ ـ زوروا الانتخابات لتصبح الأغلبية من القوميين الأتراك ·

٢ ـ باعوا فلسطين لليهود ·

٣ ـ باعوا العراق لشركة لينش الاحتكارية الانجليزية ·

٤ ـ قسوا على اليمنيين لمجرد ان اليمنيين عرب ·

★★★

لم يصبر عزيز على المصرى على هذا التطور الخطير فى العلاقات العربية التركية ، وأصبح يشعر تماما ان الأتراك انحرفوا عن الأهداف السامية التى نادوا بها قبل الثورة ، فقرر ان يشترك فى الحركات السرية العربية · فاشترك فى جمعية سرية عربية أسسها المجاهد العربى سليم الجزائرى ، وهى (الجمعية القحطانية) فى ١٩٠٩ ، وفى ١٩١٢ أسس هو نفسه جمعية سرية أخرى ذات طابع عسكرى عربى وهى (جمعية العهد) ·

ولقد قام جدل كبير حول أهداف الجمعيتين· فجورج أنطونيوس ـ الحجة فى تاريخ الحركة القومية العربية ـ يقول ان هدف عزيز على

المصرى من المشاركة فى أعمال الجمعية القحطانيـــة ومن تأسيس جمعية العهد هو العمل على أن يحصل العرب على قدر أكبر من سلطة تصريف أمورهم ، عن طريق تعديل نظام الحكم فى الدولة العثمانية بحيث تصبح ذات تابعين واحـد للعرب والآخر للترك على غرار دولة النمســا والمجر حينذاك ٠

ولكن الدراسات الأخيرة أثبتت ان عزيز على المصرى لم يرم الى هذا الهدف ، وانما كان يرمى الى المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، وفى الوقت نفسه كان يهدف الى المحافظة على كيان القوميات المختلفة فى اطار الدولة عن طريق تطبيق نظام الحكم اللامركزى أو الفيدرالى فى كل ولاية ذات قومية ٠

وكان عزيز يعتقـد أنه بذلك يعطى للأقليـــات التى فى الدولة العثمانية قدرا من المشاركة فى الحكم لا يعرض الدولة للتفكك ٠ ولكن مثل هذه الأفكار كانت غير مقبولة لدى حكام تركيا حينذاك ٠ فمن كان يطالب باللامركزية كان كمن يخون الدولة ٠ ولكن لماذا ؟ قيل ان عزيز على المصرى كان يعمل من أجل القومية العربية مادام كان يعمل فى الوقت نفسه من أجل تماسك الدولة العثمانية ٠ فالمعروف أن تماسـك الدولة العثمانية يتطلب نظريا عدم تشجيع القوميات على الحصول على أى لون من ألوان الاستقلال ٠

الواقع ان عزيز على المصرى كان يعمل من أجل حقوق الانسان فى الدولة العثمانية بل فى الشرق بأسره ٠

★★★

كان عزيز يرى ان تماسك الدولة العثمانيـــة هو الحاجز الذى يمنع من تدفق الاستعمار الأوربى على الشرق ٠ وكان يرى أن حرية الفرد هى أساس من أسس الدولة الحديثة ٠ ومن ثم يجب احترام كل فرد فى الدولة بغض النظر عن قوميته ٠ بل يجب ان يحافظ على قوميته فى اطار الدولة ، أما اذا انفصلت القوميات بعضها عن بعض فان ذلك سيؤدى الى سقوط الدولة بعربها وتركها ووقوعها فى تبعية الاستعمار الأوربى ٠ ولما كان الأتـراك هم الشعب المسيطر ، فان الواجب هو رفـع مستوى العرب الى مستوى الأتراك ٠ وهذا لايتم الا بالثورة على الأتراك الحكام ٠ وبهذا نستطيع ان نفسر تأسيسه لجمعية العهد السرية العسكرية ضد الأتراك ومجهوداته الناجحة فى وقف المذابح التركية لليمنيين الثائرين

على الدولة العثمانية واستماتته في الدفاع عن ليبيا ضد الاستعمار الايطالى (١٩١١ ـ ١٩١٣) ٠

***

ان تلك الفلسفة التى آمن بها عزيز المصرى كفيلة أيضا بتفسير موقفين مهمين له ازاء المؤتمر العربى الذى عقد فى ١٩١٣ وازاء الثورة العربية ١٩١٦ ٠

لما طفح الكيل بالعرب من جراء الاستبداد التركى قرر العرب عقد مؤتمر لهم فى باريس للتداول فى السياسة التى يجب على العرب ان يتخذوها ضد الترك ٠ وفعلا عقد المؤتمر فى باريس ١٩١٣ ٠ فلحق بهم رجال الحكومة التركية وتفاهموا مع الزعماء العرب على تلبية مطالبهم وخاصة احترام كيان العرب ولغتهم وثقافتهم وفتح مجال الوظائف العليا أمام العرب وعدم نقل الضباط العرب بعيدا عن الولايات التى ينتمون اليها ٠ ورحب عزيز على المصرى بهذا الانفاق ولكنه انتقد الزعماء العرب لأنهم عقدوا المؤتمر فى دولة استعمارية ٠ ففرنسا التى خانت قضية مصر الوطنية من أجل أطماعها ليست جديرة بأن تكون مقرا للحركة التحررية العربية ٠ كذلك انتقد عزيز المصرى الزعماء العرب لأنهم قبلوا الوظائف العليا من أيدى الأتراك ، فى الوقت الذى كان الأتراك يماطلون فى تنفيذ اتفاقيتهم مع العرب ، بل اقتنع عزيز بأن الأتراك ما أعطوا الزعماء العرب بعض الوظائف الا لشراء سكوت هؤلاء الزعماء ٠

***

ولاشك أن رجلا كهذا لابد ان تخشاه الحكومة التركية فدبر له (أنور) تهمة مزيفة واعتقله ثم صدر ضده حكم بالاعدام ٠ وما ان شاع بين الناس هذا الخبر حتى عمت المظاهرات البلاد مطالبة الحكومة التركية بالافراج عن عزيز المصرى ، وكان الزعماء العرب أقوى العناصر المدافعة عن عزيز ٠ وتحت ضغط الرأى العام العربى أطلق الأتراك سراح عزيز ٠ فشد عزيز رحاله الى القاهرة حيث عاش أدق فترات التاريخ سنة ١٩١٤ وهى السنة التى نشبت فيها الحرب العالمية الأولى ، وقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا والنمسا ضد انجلترا وفرنسا وروسيا ٠ وكانت بريطانية فى حاجة الى تجميع أكبر قدر ممكن من الزعماء العرب فى صفها لتواجه بهم الدعوة الى الجهاد التى نادى بها السلطان العثمانى ٠

فاتصل الانجليز بالزعماء العرب وعلى رأسهم دعاة القومية العربية فى الشام ، وبالشريف حسين فى الحجاز ، وبطالب النقيب فى العراق ، وبعزيز المصرى ورشيد رضا فى مصر ، وبعبد العزيز بن سعود ، وحثهم الانجليز على الثورة على الأتراك ، وكانت أهم الاتصالات تلك التى جرت فكان طبيعيا ان تلهب مشـــاعره كلمات وخطب مصطفى كامل الوطنية وان تدعوه هذه الكلمات الى العمل ضد الانجليز ٠

★★★

كان عزيز على يريد ان يكمل دراسته العالية فى الخارج لا سيما فى فرنسا بالذات ٠ كما تعلم مصطفى كامل ليعود من هنـــاك وطنيا من الطراز الأول ٠ هذا الى أن فرنســـا كانت الدولة الكبرى التى تطـالب انجلترا بالجلاء عن مصر ٠

وكانت فرنسا فى نظر الكثيرين هى رمز الحرية والداعية الأولى الى الحرية والمساواة والاخاء ٠ ولكن الناس لم لم يروا يومئذ الوجه الآخر البشع لفرنسا ، حينما كانت تنكل شر تنكيل بعرب الجزائر وشعوب الشرق الأقصى فى الهند الصينية الفرنسية وشعوب افريقيا الغربية ٠

وعن دور عزيز المصرى فى انشاء الجمعيات والأحزاب العربية وعن مكانته فى دولة الخلافة يقول الأستاذ أنور الجندى :

« الحق ان (عزيز المصرى) يمثـل نموذجـا فذا من قادة الشرق والأمة العربية على نحو غير مسبوق فهو رجـــل الحرب والجيش المؤمن بقدرة الثورة العسكرية على تحقيق الأهداف التى تعجز الأمة عن تحقيقها عن طريق دعاة الاصلاح والرأى والفكر ٠

ويمكن القول بأنه أول مصرى حمل لواء الدعوة الى (الوحدة العربية) وجهر بها ، فقد ألف جمعية العهد التى ضمت كل زعماء العرب ٠

ومن أجل هذا الهدف اتجه الى الكلية العســـكرية : يقول كانت أمنيتى من التحاقى بالكليـــة العسكرية ان أطرد الانجليز من مصر وقد ظلت هذه الفكرة هى القوة التى تدفعنى طوال حياتى ٠

★★★

وعندما تخرج عام ١٩٠٤ فى مدرسة أركان الحرب بالقسطنطينية (تركيا) عمل فى هيئة أركان حرب الجيش التركى فى مقدونيـــا ٠

ثم لم يلبث اسمه ان لمع خلال عمليات حربية متعددة وعنـــدما شكلت جماعة (تركيا الفتاة) السرية من ضباط الجيش ، لم تلبث ان تحولت الى جمعية (الاتحاد والترقى) وانضم اليها الضــابط عزيز على المصرى وجماعة كبيرة من زملائه العرب مطالبين بدستور صالح للامبراطورية ٠ واستطاعت هذه الجمعية ان تحقق نجاحا عندما صدر الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ وكان (عزيز) بارز الجهد فى هذا العمل ، ولذلك فقد قبض عليه مع غيره عندما حاول السلطان عبد الحميد استرداد الدستور وكان ذلك علامة على نهـــاية حــكم السلطان الذى عزل عام ١٩٠٩ ، وكان عزيز المصرى أحــد الذين اشتركوا فى تخليـــة السلطان مع القائـد محمود شوكت الذى كان أيضا عربيا ومن مصر ٠

★★★

غير ان عبد الحميد لم يكن هو الخطر ضد العـرب وانمـــا كان الاتحاديون هم خصوم الوحدة العربية فقد تحولت (الاتحاد والترقى) للدعوة الى العنصرية التركية باسم (الجامعـــة الطورانيـــة) محاولة (تتريك) العناصر العربية فى الامبراطورية ٠

وهنا بدأت نقطـــة التحول فى تاريـخ العـــرب وفى تاريـــخ عزيز المصرى ٠

وقد أخذ العرب يعملون للتحرر من الســـيادة العثمانيـه بالدعوة الى (اللامركزية) ولم يلبث (عزيز المصرى) ان كون جمعية عربيـــة خالصه تحمل لواء المحافظة على الكيـــان العربى وتحريره من المحاولة الطورانية : هى (الجمعية القحطانيه) وكان عزيز اذ ذاك أسنادا فى كلية أركان الحرب وفى سن الثلاثين ٠ وقد اشتق اسم الجمعية من اســـم قبيلة (قحطان) التى تمثل جذور الأصل العربى ٠

★★★

ويقول الأستاذ أنور الجندى ان فى مقدمة التهم التى وجهت الى عزيز على المصرى ومن أجلها ومن أجل غيرها شكل مجلس عسكرى عال لمحاكمته فى مارس (آذار) ١٩١٤ لسعيه لاقامة مملكة عربية فى شمال أفريقيا يتولى سيادتها ٠

ومن بين ما ذكره الأستاذ محمد على رفاعى وهو حجة فى الشئون العربية وكان على صلات وثيقة بكبـــار الشخصيات العربية المعاصرة ان

عزيز على المصرى ألف جمعيات ثورية فى مصر والشرق وبث الدعوة الى نيل الاستقلال والفوز بالحرية في وقت كانت الامبراطورية العثمانية فيه تمتد شرقا وغربا وتسيطر شمالا وجنوبا ، فهى تحـــكم العرب كلهم ، والأرمن والروم والبلغار .. ثم هى ـ فى الوقت نفسه ـ ترسل جيشها الى العرب والمسلمين ليعمل فيهم تقتيلا وتعذيبا ..

وعزيز على المصرى رافع لواء المطالبـة بالانفصال عن هذه الدولة الظالمة الباغية ، غير هياب ولا وجل فى غير كلل ولا ملل .

لقد اشترك فى تأسيس الجمعية القحطانية فى الآستانة ـ وكان يومذاك برتبة البكباشى أركان حرب مع طائفة من خيرة رجال العرب فى شتى أوطانهم .

هم : خليل حمادة باشـــا وعبد الحميد الزهراوى بك وسـليم الجزائرى بك وحقى العظم بك وحسن حمادة بك وعزت الجندى بك ، « وغايتها نشر الفكرة بترقى العـرب واصـــلاح حالهم وانهاضـهم بأيه واسطة كانت » .

ومن هذه الجمعية نشأت فى البلاد العربية ثلاث آخر كانت أهمها : « جمعية العهد » التى انشأها عزيز لتبث الدعاية لاستقلال العرب بين ضباط الجيش ، فقبض عليه ولكنه استطاع الهرب الى القـاهرة حيث أنشأ « جمعية الثورة العربية » .

ويؤصل الأستاذ جورج انطونيوس موضـــوع اعتقال عزيز على المصرى فيقول :

« فى اليوم التاسع من شهر فبراير بينما كان المقدم (البكباشى) عزيز على المصرى وهو من ضباط أركان الحرب ، يغـادر فنـــدق طوقا طليان بعد الغداء اعترضه ثلاثة من رجـــال الشرطة السرية ودعوه الى دائرة الشرطة المركزية فى القسطنطينية حيث اعتقل دون ان توجـه له تهمة ما ، فأخذت الشائعـات تنتشر وهى تقول بأنه ســيحاكم بتهمة الخيانة ، وقابل العرب نبأ اعتقاله بدهشة شديدة ما لبثت أن تحولت الى غضب أعربوا عنه بالمظاهرات الشعبية التى قاموا بها فى الشوارع .

★★★

كان عزيز على ، وهو فى الخامسة والثلاثين من العمـر ، رجـــلا معـروفا ، ولد فى القـــاهرة حيث يقيم والده وتلقى علومه فى الكليـــة

العسكرية بالقسطنطينية ، ثم فى مدرسة الأركان حيث تخرج بتفوق عام ١٩٠٤ وعين فى هيئة أركان حرب الجيش الثالث فى مقدونية حيث انتسب الى جمعية الاتحاد والترقى وكان من الضباط الذين نظموا الثورة العسكرية عام ١٩٠٨ ثم اشتركوا بالسير على القسطنطينية فى شهر ابريل من السنة التى تلتها ٠ ولكن انتسابه لجمعية الاتحاد والترقى لم يكن ناشئا عن رغبته الصادقة فى صلاح المملكة العثمانية فحسب بل كان كذلك نتيجة لايمانه بالمثل العليا القومية العربية ، فلما وقعت الثورة المعاكسة عام ١٩٠٩ وأدرك خلال الشهور التى أعقبتها ان سياسة الاتحاديين ترمى الى مقاومة الحركة العربية والى سوء ادارة المملكة أخذ يبحث عن أنصار ذوى قيمة أكبر ليعمل معهم ٠

★★★

كان عزيز على يتمتع بنفوذ أكبر من النفوذ الذى يتمتع به عادة ضابط برتبته وذلك لأنه كان فى وقت من الأوقات يلقى محاضرات فى مدرسة الأركان فاستطاع خلال تلك الأشهر أن يجذب اليه قلوب الضباط الشباب من أبناء الجيل المقبل ٠ أما فى السلك العسكرى فقد برز بخلقه وأقدامه وحكمته وكان تشبثه واندفاعه القوى فى وطنيته يحملان من هم أكبر منه فى السن على القبول بزعامته ، وهو الذى قام بتأسيس (الجمعية القحطانية) يساعده فى ذلك زميله الضابط سليم الجزائرى وكان برنامجه يستهدف العمل على اقامة ملك مزدوج يحقق للعرب أمانيهم مع الاحتفاظ بالولاء للملكة العثمانية ، وفى عام ١٩١٠ أرسل فى الخدمة الفعلية الى اليمن حيث أصاب نجاحا اذ أقنع الامام بلزوم تسوية خلافاته مع الباب العالى وفى السنة ذاتها تطوع للخدمة فى ليبية حيث لمع نجمه بقيادته للقوى العربية التى كانت تقاوم العدوان الايطالى ، وفى عام ١٩١٣ عاد الى القسطنطينية ليشاهد بأم عينه المساعى المبذولة خلال الأشهر التى أعقبت مؤتمر باريس للقضاء على آمال العرب قضاء بطيئا ٠ وقد وجد الفوضى والفساد سائدين فى وزارة الحربية وعلم برغبة القائمين على الأمر فيها الانتقاص من شأن أعماله الباهرة فى أفريقية مدفوعين بدافع الحسد ، كما لمس ميل الاتحاديين الى اصدار الأوامر بنقل جميع الضباط العرب ، وهو بضمنهم ، من العاصمة للخدمة فى الحاميات البعيدة فى الأقاليم فاشمأزت نفسه مما رأى واستقال ٠

★★★

قام عزيز على فى أوائل عام ١٩١٤ بتنفيذ مشروع مازال ينمو وينضج منذ أيام (الجمعية القحطانية) حين أدى اكتشافه لوجود خائن

بين اعضائها الى زوال اهتمامه بها فقرر ان يحولهـــا الى هيئـة لا تضم الا ضباط الجيش ، فشكل منظمة أخرى مستقلة عن الأولى ولكن برنامج الاثنتين متشابه وسمى المنظمة الجدية (جمعية العهد) وكانت أهدافها هى نفس أهداف (الجمعية القحطانية) ولكن برنامجها فى هذه المرة صيغ بلغة عسكرية ولم يسمح لغير العسكريين بالانتساب اليها باستثناء اثنين من المدنيين فتح لهما الباب بسبب الثقة التامة بوطنيتهما وكان أحدهمـــا وهو الأمير أمين أرسلان من المؤسسين الأول للجمعية الأولى ·
كان المراقبون يشــكلون أكبر عنصر فى الجيش العثمانى ولهذا كان عددهم كبيرا فى (جمعية العهـــد) وقد أسسوا فـروعا فى بغــداد والموصل لها ، وتبوأت هذه الجمعية بالنسبة للعسكريين نفس المركز الذى احتلته (جمعية الفتاة) بالنسبة للمدنيين وبالرغم من ان كل واحدة منها كانت تجهل وجود الأخرى فى بداية الأمر الا أن نشاطهما ــ كل واحدة فى حقلها الخاص ــ أصبح بعضـــه متمما للبعض الآخـر · وفى عام ١٩١٥ اتصلت الجمعيتان فى دمشـق ووحدتا مواردهمـا لاعـداد الثورة العربية ·

***

ومن الأوراق التى نشرها الأســتاذ عمر أبو النصر ــ بيروت ــ ان عزيز على المصرى ، الضابط العربى المصرى قد أنشأ فى ٢٨ تشرين الأول «أكتوبر» ١٩١٣ ــ جمعية العهد ــ بعد ما ضم اليه نخبة من ضباط العرب فى الجيش العثمانى كمحمد اسماعيل الطباخ ، ومصطفى وصفى ، وسـليم الجزائرى ، ونورى السعيد ، ويحيى كاظـم أبـو الشرف ، وعارف التوام ، وعلى النشاشيبى ، وياسين الهاشـمى ، وطه الهاشمى وجميل المدفعى ، وتحسين على ، ومولود مخلص وغيرهم من كبار قواد العرب ، وكانت هذه الجمعية سرية أقسم أعضاؤها أن لايبوحوا بشىء عنها ، والى القارىء نص برنامجها :

١ ــ جمعية العهد جمعية سرية انشئت فى الاستانة رغبتها السعى للاستقلال الداخلى لبلاد العرب على ان تظل متحدة مع حـكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا ·· الخ ، الخ ·

***

ولقد أحدث انشاء هذه الجمعية أهمية عظيمة فى دوائر الآستانة لما عرف به منشؤها من الصلابة والقوة ولأنها نشأت فى فترة من الزمـن

توترت فيها العلاقات بين الاتحاديين والشبيبة العربية توترا قويا كان من أثره تأييد الشبان والضباط العرب للجمعية والتفافهم حولها ، حتى انهم انشأوا لها فرعا في بغداد وآخر في الموصل • وهذا ما جعل الحكومة الاتحادية تخشاها وتحسب حسابها وتعمل على تفريق رجالها قبل اشتداد ساعدها وتبسطها •

وفي ٢٤ كانون الثاني سنه ١٩١٤ عقد أجتماع خاص في وزارة الحربية بالآستانة ، حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، ومحافظ الاستانة العسكرية أحمد جمال باشا ـ وذلك قبل أن يعين وزيرا للبحرية ـ ومدير الأمن العام عزمي بك ، فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية خاصة ، وجمعية العهد عامة ، وقرروا سبق الاشارة اليها مثل :

١ ـ اقصاء ضباط العرب المقيمين في الآستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطا ينتمي ٣١٥ منهم لجمعية العهد الى المناطق التركية ، وهي تراقيا والأناضول فلا يعود بامكانهم الاتصال باخوانهم العرب ولا القيام بأي عمل يعزز فكرتهم ويروجها •

٢ ـ توليه القيادة في البلاد العربية الى الضباط الترك واقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الامكان •

٣ ـ الاسراع في تنفيذ سياسة تتريك العناصر •

٤ ـ يعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتتريك العناصر •

٥ ـ مقاومه الحركة الاصلاحية التي ظهرت في بيروت وباريس •

٦ ـ الغاء الأحزاب العربية كلها ، وتاليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تشرف على الشئون العربية وتدبير الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وترقب حركاتهم بدقة زائدة •

٧ ـ اقصاء العرب الذين يعملون ضد الأتراك من الآستانة واستمالة كل من يمكن استمالته منهم •

٨ ـ تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العربية والاكثار من المنتسبين الى أنديتها •

★★★

ولم تقف الحكومة الاتحادية عند حد اقصاء الضباط العرب ـ وقد اقصوا فعلا غداة صدور هذا القرار ـ بل أصدرت في ٩ شباط سنة ١٩١٤

أمرا بالقبض على عزيز بك على واحالته الى المحكمة العسكرية بتهمة أنـه أساء التصرف فى ٣٠ ألف ليرة عثمـانية تسلمها من أنور باشـــا حين مغادرته طرابلس الغرب ٠٠ الى آخر ماجاء بتلك الاتهامات ٠

★★★

أما الأستاذ محمد صبيح ـ وكان على علاقة وثيقة بعزيز على المصرى ـ فقد كتب عن جمعية العهد ٠

« فى سنة ١٩٠٩ أنسأ الشباب العربى فى « دار السعادة » كما كانت تسمى الآستانة ، ناديا اسمه « المنتدى الأدبى » ليكون بمثابة رابطة ثقافية بين الطلاب العرب ٠ ولكن ما أن أحس العرب بان الثورة التركية بدأت تتنكر لأمانى قومهم ، حتى تحول النادى الى العمـــل السياسى ٠ وأحس الأتراك ـ عن طريق جواسيسهم ـ بروح التذمر بين المجموعـة العربية ، حتى كثرت زياراتهم له ، وكان من الزوار الدائمين : أنور ، وطلعت ، وفتحى وغيرهم ٠

★★★

وكان من بين العرب المترددين على هذا النادى شخصيات تجـــلى دورها فيما بعد من أمثال : سليم الجزائرى ، وعبد الكريم الخليـــل ، ورفيق سلوم (مسيحى) ، وأسعد داغر (مسيحى) ، وعارف الشهابى وسيف الدين الخطيب ، وشكرى العسلى ، وعبد الوهاب الانجليزى ، وعزيز المصرى ، وشـــكرى القوتلى ، والأمـــير عادل أرســلان ، وجعفـر العسكرى ، وسعيد حيدر ، ونجيب شقير ونخبة من آل الصلح والعظـم ومـــردم ٠

وكان هذا المنتدى على صلة بحزب اللامركزية الـذى انســـأه فى القاهرة رفيق بك العظم ٠ كما كان على صلة بجمعيات مشابهة نشأت فى بيروت والبصرة ٠

ولاحظ عزيز المصرى بحـكم وجـوده فى الوسط العســـكرى أن اتجاهات الضباط الأتراك من زعماء تركيا الفتاة ميالة الى استعمال الشدة مع العرب ، فقرر أن ينشىء تنظيما عسكريا سريا أسماه جمعية « العهد » يلتحق بها الضباط فقط ٠

★★★

تكونت هذه الجمعية السرية فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣ برياســـة البكباشى عزيز المصرى ، وكان من بين أعضائها الضباط : سليم الجزائرى،

ونورى السعيد ، وعلى النشاشيبى ، وياسين الهاشمى ، وطه الهاشمى ، وجميل المدفعى ، وتحسين على ، ومولود مخلص ، وعلى جودت الأيوبى ومئات غيرهم من الضباط العرب وقد أقسم أعضاؤها ألا يبوحوا بشيء عنها . وتحددت أغراض الجمعية على النحو التالى :

١ ـ جمعيـة العهد ، جمعيـة سرية ، أنشئت فى الآستانة ، وغايتها السعى للاستقلال الداخلى للبلاد العربية على أن تظل متحدة مع حكومـة الآستانة مثل اتحاد المجر مع النمسا .

٢ ـ ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الاسلامية وديعة مقدسة بايدى آل عثمان .

٣ ـ لما كانت الجمعية تعتقد أن الآستانة رأس الشرق وأن الشرق لا يعيش اذا اقتطعتها دولة أجنبية فهى تعنى عناية خاصـة بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها .

٤ ـ لما كان الترك يؤلفون منذ ٦٠٠ سنة المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب فعلى العرب ان يعملوا للحصول على ما يؤهلهم لأن يكونـوا القوى الاحتياطية الصالحة لهذه المخافر .

٥ ـ على رجال العهـد أن يفرغوا قصـارى جهدهم فى انماء المزايا المحمودة وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة ، فالأمـة لا تحتفـظ بكيانها السياسى القومى ما لم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة القويمة » .

★★★

وفى كتاب « ايضاحات » الذى أصدره جمال باشا (السفاح) قائد الجيش الرابع التركى ، وحاكم سورية ، نبذة مفيدة عن جمعية العهد . قال : « ان « عزيز على » لما عاد الى الآستانة من حرب طرابلس الغرب رأى من الموافق انقسام الجمعية القحطانية الى قسمين : فجمعيـة العهد هى القسم الذى تأسس ليسعى وراء الأهداف العربية بين أفراد الجيش » .

★★★

وقد نظم الضابط سليم بك الجزائرى نشيدا لجمعية العهد آخر مقاطعه :

يشعل نـار الحـرب ـــ لدى عنـق الكلب !

ونيل عـز العـرب ـــ من أمـة تركيـة

ويقول عبد الغني العريسي أحد أقطاب الحركات العربيـــة ، في التحقيق الذى أجراه بعد ذلك جمال باشا (السفاح) : كانت جمعيـــة العهد بأول أمرها لا تريد ان تخابر حزب اللامركزية (مقره فى القاهرة) بوجه من الوجوه ، لأنها تعد نفسها أقوى من الحزب فى البلاد العربيـــة بدرجات • لأن القوة الاجرائية (أى التنفيذية) بيدهـــا وكان حزب اللامركزية يسعى الى ضم جمعية العهد له ، ثم جاء زمن نظر فيه الفريقان الى بعضهما ، فوجدا نفسيهما أقوياء • فكان حزب اللامركزية ، يريد ان تذوب فيه جمعيـة العهـد • وجمعيـة العهـد تريد عكس ذلك • واشتد الخلاف بينهما زمنا • وقد أخبرني داود بركات (رئيس تحرير الأهرام بعد ذلك) يوم جاء الى بيروت قبل دخول الدولة الحرب ، ان الطرفين اتفقا وأصبحا كيانا واحدا •

ويقول أسعد داغر في مذكراته عن عزيز المصرى فى هذه المرحلة :

« عزيز علي هو أبو الفكرة العربية وحامل لوائها ، فمن حق التاريخ على أن أقول كلمة عنه ، وقد عرفته ورافقته مدة طويلة واستطعت أن أقدر فضله على الأمة العربية ورجالها ، وعلى أنا بنوع خاص ، لأنه هو الذى غرس فى الشعور الوطنى ورباني على فهم الواجب والقيام به •

كان عزيز قدوة لجميع عارفيه فى كل شيء • لم يذكر أحد أنه رآه يشرب الخمر أو يلعب الميسر أو يندفع وراء الملذات ، أو يكذب على أحد أو يخل بوعد أو يتملق كبيرا • وكان يوزع دخل أملاكـه فى مصر عـــلى المحتاجين من الضباط والطلبة فى اسطنبول • ويبذل كل جهوده لترويـــة أخلاقهم ومكافحة عيوبهم بكل رفق وكياسة • وينشر حوله الأخـــلاق الفاضلة ويعلم أصدقاءه آداب السلوك وحسن الذوق • يمثله الصالح أولا ثم بالقول والفعــل •

وكانت علاقته بشبان المنتدى الأدبى علاقة المعلم بتلامذته أو الاب ببنيه يبث فيهم الفكرة العربية والروح الوطنية والأخلاق الكريمة الفاضلة• ويعلمهم تاريخ العرب فى مختلف أدواره موضحا ما فى كل منها من مفاخر، سواء فى العلوم والفنون والآداب أو فى السياسة والادارة والحـــرب • وسائر مظاهر الحضارة من اكتشافات واختراعات • وحرص الى جانب ذلك على تنمية حسن الذوق فى أولئك الشبان وتعليمهم آداب السلوك فى المجتمعات الراقية • وكان يفعل ذلك كله بمنتهى الكياسة • وقد زرته مرة فى غرفته وكان رباط رقبتي لا يتفق مع لون ملابسى ، ففتح خزانة ملابسه ، ودعانى الى اختيار الرباط الملائم لى • وكان يمزج الجد بالهزل ، فتحدث عن الألوان وما يتلاءم منها وما يتنافر ، وعن الملابس التى اعتاد

الناس أن يرتدوها فى المناسبات الرسمية وشبه الرسمية ، وعن الموضوعات التى يحسن أو لا يحسن طرحها على بساط البحث فى أمثال تلك المناسبات والاجتماعات ، وانى أعلن هنا بكل صراحة أن ما يتوهمـــه فى بعض أصدقائى من المزايا الخلقية أو الاجتماعية ، انما هو مستمد من عزيز على المصرى أستاذى فى الوطنية كما هو أستاذى فى الأخلاق والأداب الخلقية والاجتماعية .

★★★

وفى الدراسة الجادة التى كتبها د. محمد عبد الرحمن برج عن عزيز على المصرى والحركة العربية ١٦٠٨ ــ ١٩١٦ اشارات ومقتطفات هامـة لكثير من الدارسين والباحثين والسياسيين عن عزيز على ودوره فى ايقاظ شعلة القومية العربية ، من بينها ــ مثلا ــ ما ذكره الأستاذ محمد طاهر العمرى فى كتابه « مقدرات العراق السياسية » ان عزيز على كان يخيف العصابات البلغارية واليونانية والالبانية التى خرجت على الدولة العثمانية وعندما عين فى الجيش الثالث فى مقدونيا وتقلد مرارا قيادة عدة مفرزات أوقع بالعصابات الثائرة أبلغ الضرر وخاصة ــ كما يقول جمال باشا ــ فى أقضية بترك وتمانية ومقدونيا . ويذكر جمال باشا ان عزيز عـلى انضم الى جمعية الاتحاد والترقى قبل اعلان الدستور وقدم لها خـدمات جليلة وأنه لما زحف الجيش على الآستانة بعد الثورة الرجعية فى ١٣ ابريل كان عزيز بك على رأس احدى فصائله فهاجم ثكنة تويهوس بعد الاستيلاء على كوبرى غلطة وأظهر مهارة عظيمة فى مطاردة المعادين للثورة ولم أكن أعرف الى تلك اللحظة ــ جمال باشا ــ أن له صلة بالعرب .

ويقول محمد طاهر العمرى : لقـد خـدم عزيز على المصرى الدولة العثمانية فى اليمن بعقده الصلح بين الحكومة التركية والامـــام يحيى فعزيز على هو بطل ذلك الاتفاق وعزيز على ــ محمد طاهر العربى ــ من أصدق الرجال الذين خدموا الدولة والأمة معا .

★★★

وكنموذج لما كان عليه عزيز على من صراحة وجرأة وتمسك بالقومية العربية ما ذكره جمال باشا فى مذكراته « فى غضون وجودى فى منصب حاكم أطنه » وكنت قد ذهبت الى الآستانة ــ قابلت عزيز على بك فتبادلنا بضع ملاحظات عن الخطابات الشهيرة من بيروت وسورية التى نشرها شريف بك مراسل جريدة أقدام . ولما ذكرت له أن تلك الخطابات الشهيرة تثير عواطف مضرة بالوحدة العثمانية وسلطة الخلافة الاسلامية فى الولايات

العربية أجابني عزيز بك بلهجة الكبرياء قائلا : ان العرب لعلى حق فليت شعري ماذا صنعتم أيها الأتراك لنا سوى سعيكم فى افنائنا واحتقارنا حتى تتوقعوا المعاملة الودية من جانبينا · هل نسيتم أنكم فى الآستانة اذا ناديتم كلبا ناديتموه بلفظ عربى عربى وان أردتم ان تصفوا شيئا عويصا غامضا قلتم أنه يشبه شعر العربى وكأنكم لم يكفكم هذا فتعمدتم فى اليوم التالى لاعلان الدستور اثارة خواطر العرب · أفلم تعينوا فى الجيش السورى مشيرا من سلالة هولاكو ورجلا يحتقر بغداد والعراق تتريا لا خلاق له ورسول الجحيم ؟ أنكم تعلمون حق العلم كيف يسخط العرب على التتر فليس ثمة معنى لتعيين عثمان باشا لقيادة الجيش الخامس الا اذلال العرب » · فعرتني الدهشة لسماع مثل هذه السخافات من رجل نابه كعزيز بك وعزوت قذفه فى عثمان باشا الى حقد شخصى قد يكون ناشئا عن خلاف قام بينهما وهما فى مقدونيا · اذ فى ذلك الحين كان عزيز بك يعمل فى أحدى المصالح العسكرية فى كوتشانا · وبينما عثمان باشا حاكم جبهة اسكوب كان قائما بأعمال التفتيش اذ خاطب عزيز بلهجة قاسية · ولما كان من عادة الباشا التهكم فى الخطاب أجابه عزيز بك جوابا حادا · فذهل الباشا لصدور مثل هذا الرد علنا فقرر احتفاظا بكرامته استعمال الشدة مع عزيز بك · وأصدر أمره بالقبض عليه · ومنذ ذلك الحين تولدت البغضاء فى نفس عزيز بك ضد عثمان باشا · فأجبت عزيز بك بأن الأتراك الأناضول ينظرون بعين الاكبار الى العرب وان من الخطأ الارتياب فى ذلك لمجرد ترديد بضعة أقوال مألوفة · وان أشخاصا مثله متعلمين اذا سمحوا لأنفسهم بالتأثر بالضغينة الشخصية كانت النتيجة اذا أن يصبح الأمر فوضى وفى ذلك الخطر كل الخطر على العالم التركى ·

★★★

يقول تحسين العسكرى : أما فى الآستانة فقد نشطت الحركة العربية بكل شدة وحماسة فقرر عزيز على بك المصرى وجوب انذار عبد الحميد الزهراوى بالكف عن الدعاية للحكومة ومغادرة الآستانة الى سورية · وأوفد الضباط العراقيون جميل المدفعى ويوسف العزاوى وسعيد التكريتى الى عبد الحميد الزهراوى فأنذروه فوافقهم خوفا ورعبا منهم على أثر ذلك تأسست الجمعية السرية العسكرية التى أسسها عزيز على بك المصرى فى الآستانة بمعاضدة ضباط الركن المقدم مسلم الجزائرى وضباط الركن نورى السعيد البغدادى وذلك فى تشرين الأول ١٩١٣ باسم جمعية العهد ·

ويورد تحسين العسكرى بعض من ضمتهم جمعية العهد (ومنهم عدد كبير من الضباط العراقيين أمثال جميل المدفعى وطه الهاشمى ويوسف

العزاوى وسعيد التكريتى وصبيح نجيب وأنا ونورى مفتـــاح وآخرون لا أتذكر أسماءهم ومن الضباط السوريين ضابط الركن مصطفى وصفى ويحيى كاظم وتوفيق الجندى ومحيى الدين الجبان ، وأمين لطفى ، وعلى النشاشيبى ، ومن ضباط عرب طرابلس الغرب محمود حلمى وصبحى ومن الملكيين مزاحم الأمين وعبد الكريم الخليل وعاصم الجلبى واسماعيــل الصفار الطيب وأسعد داغر وفائق شاكر الطيب وثابت عبد النور وغيرهم» أما الاتحاديون فقرروا :

★★★

١ ـ أبعاد الضباط العرب المقيمين فى الآستانة الى مختلف البلاد التركية .

٢ ـ تولية الضباط الأتراك القيادات العليا فى البلاد العربيــة والاستغناء بقدر الامكان عن الضباط العرب فى المناطق النائية .

٣ ـ تنفيذ سياسة تتريك العناصر .

٤ ـ مقاومة الحركة الاصلاحية التى بدأت فى مؤتمر بيروت ومؤتمر باريس .

٥ ـ الغاء الأحزاب العربية وتأليف شعبة سياسية فى وزارة الداخلية تشرف على الشئون العربية ومقاومة الانفصال عن العرب .

٦ ـ ابعاد من فى الآستانة من العرب الذين يعملون ضد الحكومة .

٧ ـ تقوية نفوذ جمعية الاتحاد فى البلاد العربية وتكثير أعضائها .

ويمضى تحسين العسكرى فيقول فى مذكراته : هــذا ما قرره الاتحاديون فلما وقف شباب العرب على هذه المؤامرة وثقوا ان الاتحاديين لا يمكن ان تصدق وعودهم وانهم لا يبغون الا السوء للعرب .

★★★

وقد أدرك عزيز على المصرى نيات الاتحاد السيئة ضد الضبـاط الداعين للقومية العربية فاستقال وهو برتبة مقدم ضابط ركن فى الجيش وانصرف الى الاشتغال بالقضية بكل جد ونشاط ، فأمرت الحكومة دائرة الشرطة بمراقبته اذ كانت داره ملتقى الشبان الضباط فأخذت الجواسيس تحوم حولها وتقدم تقاريرها الى الحكومة حتى ساورها القلق من اجتماعات هؤلاء الضباط بعزيز على بك فرأت ان تنتقم منه شر انتقام وكان بينه وبين أنور عداء فقبضت عليه الشرطة فى فبراير ١٩١٤ .

★★★

وعن جمعية العهد يقول عزيز على انها كانت جمعية عامة تشترك فيها جميع القوميات العثمانية وقد وضعت الجمعية فيدرالية بشكل يضم كل مناطق شرق البحر الأبيض المتوسط ٠ ويقول عزيز أنه لم يكن يبغى تقليد النظام العسكرى المجرى وانما رغب فى تأسيس نظام يكون فيه لكل عنصر كيانه الادارى المستقل على أن يجمع الاتحاد الفيدرالى جميع هـذه الكيانات ٠

★★★

ويقول عزيز على المصرى أن نظريته لم تكن تقتصر على الأتراك والعرب بل تمتد على الأتراك والعرب والألبان والبلغار وجميع العناصر التى بقيت تحت حكم السلطنة أو استقلت عنها بعد حرب البلقان أو قبلها وحتى مصر والسودان وطرابلس الغرب وتونس يكون ضمنها بحيث تكون حديقة شرق البحر الأبيض المتوسط يكون السلطان العثمانى أو من تنتخبـه رئيسا رمزيا حاكما فعليا لها كما هو الأمر فى انجلترا ٠ وتكون الآستانة أو غيرها من المدن عاصمة الاتحاد ٠ أما من ناحية اللغة فكل وحدة من وحدات الاتحاد الفيدرالى تتكلم ما تشاء ، أما اللغة العثمانية فهى اللغـة الرسمية الى ان تتفق هذه الدويلات المتحدة على لغة رسمية عامة لها وقد تكون غير التركية ٠ أما بشأن الدين فقد قال عزيز المصرى بوجـوب التسامح الدينى الى أبعد حد فى النظام الجديد وان معرفة الله من قبل جميع الطوائف يمكن أن يكون القاسم المشترك بينها فيستغنى عن بقيـة التفاصيل مع الزمن ٠

★★★

ويقول أحمد قدرى فى كتابه « مذكراتى عن الثورة العربية » : لم يكن وضع البلدان العربية خافيا على مثقفى الضباط العرب أيضا ، فاخذوا بدورهم يفكرون بواجبهم نحو وطنهم وانتهوا الى تأليف جمعية العهد عام ١٩١٣ وهى جمعية سرية كان من خيرة رجالها عزيز على المصرى وياسين الهاشمى ونورى السعيد ومولود مخلص ومحمد اسماعيل الطباخ وسليم الجزائرى وعلى النشاشيبى ٠

وكان عزيز على يرى ضرورة ان تدار الدولـة العثمانية كولايات متحدة لكل منها برلمانها ولها برلمان اتحـادى حتى يمكن انقاذهـا من الانقراض ٠

وسنعود مرة أخرى الى تكملة الحديث عن العلاقات المصرية التركية رسميا وشعبيا ٠٠ كما سنعود مرة أخرى الى الحديث عن موقف عزيز على المصرى من دولة الخلافة الاسلامية بعد زوال سلطة السلطان عبد الحميد٠

البـــاب الخـامس

الفصل الأول

قبل ان تقوم الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن على

رغم ان كتابنا هذا عن عزيز على المصرى وصحبه ، بناة القومية العربية والاسلامية الا أننا آثرنا منذ البداية أن يكون الكتاب شاملا للعصر الذى ولد وعاش فيه عزيز على المصرى ، لا انطلاقا من القاعدة الاجتماعية التى تقول بأن الانسان ابن عصره وحسب ، وانما رغبة منا فى تأريخ تلك المرحلة من مراحل الصراع العربى التركى وبناء القومية العربية على أساس جديد تأثر بحركة القوميات التى قامت فى أوروبا وكان لها صداها فى كثير من أرجاء البلدان العربية والأفريقية والآسيوية . ولأننى ككاتب وقارىء فى نفس الوقت بل كقارىء قبل أن أكون كاتبا .. كنت أحس بفقر فى المعلومات التى لدينا عن تلك المراحل على أساس أننا كنا فى مصر ننظر الى تركيا ــ دولة الخلافة الاسلامية ــ نظرة مخالفة لنظرة كثير من الأشقاء فى سورية ولبنان والعراق وفلسطين . وكان ما ورد الينا من معلومات عن تلك المراحل ، أما عن طريق الكتاب الفرنسيين والانجليز أو من يمت اليهم بصلة القربى أو التعاطف أو التعاون . وأما عن طريق بعض الاخوة السوريين أو اللبنانيين أو العراقيين الذين كانوا ضد دولة الخلافة الاسلامية فى مرحلتها الأخيرة .

وكان عدد الكتاب المصريين الذين تناولوا تلك المراحل بالتاريخ من القلة بمكان الى الدرجة التى جعلتنى وأنا أكتب هذا الكتاب فى أمس الحاجة الى معرفة آراء أخرى غير آراء من سبقت الاشارة اليهم من الانجليز والفرنسيين ومن الأشقاء السوريين اللبنانيين والعراقيين الذين تعاملوا ــ من وجهة نظرى الخاصة ــ على دولة الخلافة الاسلامية فى مرحلتها الأخيرة متأثرين بعوامل اقليمية ضيقة أو بعوامل شخصية بحتة ، أو حتى بأفكار وآراء موروثة .. وليس معنى ذلك أبدا أننا لم نجد كتابا أجانب أو سوريين أو لبنانيين أو عراقيين قد وقفوا من الصراع العربى التركى ــ

فى سورية ولبنان والعراق ــ موقفا محايدا فمــا أكثر الكتاب الاجانب الذين أعطوا دولة الخلافة الاسلامية حقها من النقد ومن الاشادة معا دون تحيز من ناحية الجنس أو من ناحية الدين ٠

وما أكثر الكتاب العرب الذين لم ينفعلوا أكثر ممــا يجب بخطايا الحكام الأتراك فى الحرب العالمية الأولى وانمــا كانوا منصـــــفين للعرب وللأتراك معــا ٠

وأعتذر للقارىء وللقارئة معا ، اذا كنت فى بعض الأحيان اسرف فى النقل عن هذا المصدر أو ذاك لاستكمال الصورة التى أريد تقديمها ، وربما كان فى مقدمة ما يخفف من ذلك مسئولية ذلك الاسراف ــ من وجهة نظرى ــ أننى وقعت على مصادر كثيرة لا أعتقد ان غيرى اليوم يملكها ، كما وقعت على مصادر أخرى ربما كانت موجودة منذ سبعين عاما لدى البعض ولكنها ــ كما أتصور ــ انقرضت أو تلاشت أو أصبح تواجدها محدودا للغاية ومما آخذه على نفسى أننى عندما أقع على أى مصدر غير متــداول أحرص على أن أقدمه للقراء أو أن أقدم زبدته وحصيلته ، لأننى وقد فرحت بالوقوع عليه أعتقد ان قراء كثيرين سوف يفرحون عندما أقدمه لهم ٠

★★★

وفيما يتعلق بهذا الفصل بالذات « مقدمات الثورة العربية التى قادها الشريف حسين بن على بمعاونة الانجليز ــ » أرى ان معظم ما كتب عن تلك الثورة كان من طرف واحد وأن كثيرين منا لم يحــاولوا بل لم يجرؤوا ــ لظروف خاصة بهم وبالحكم العربى فى بعض البلدان العربية ــ أن يتحدثوا عن تلك الثورة بصراحة فيقولون بصراحة تامة ما لها وما عليها٠

وقبل الدخول فى تفاصيل الحديث عن تلك الثورة لابد وان نتحدث بافاضة عن الأسباب التى أدت اليها وأن نناقش فى نفس الوقت الأسباب التى زعموا أنها أدت اليها ولم تكن تلك من الأسباب الحقيقية لقيامها ٠

كما أنه من وجهة نظرى الخاصة ٠٠ لابد من الاسترسال فى الحديث عن الأوضاع القائمة فى دولة الخلافة الاسلامية قبل أن تقوم تلك الثورة ، وكذلك الأوضاع القائمة فى الأقطار العربية الشقيقة التى اندلعت منها تلك الثورة ٠٠ بالاضافة الى ضرورة الاسترسال فى الحديث عن الشخصيات التى مهدت لقيام تلك الثورة ولم تتح لها الفرصة للمشاركة فيها ٠ ولابد لى أيضا ، من الاشارة ــ ولو فى ايجاز شديد ــ لقلة المعلومات وعدم توافر المصادر الموثوق بها والتى يمكن أن تفيدنا فى هذا الموضوع ، الى الأسباب التى دفعت عزيز على المصرى الى الانتقال من صفوف المدافعين

عن دولة الخلافة الاسلامية الى جيفوف الثائرين عليها والاشارة أيضا — في ايجاز — يكاد يكون مخلا الى الاتصـــالات التي جرت بين الانجليز والشريف حسين بن علي وبين عزيز على المصرى من أجل الاشتراك في تلك الثورة ·

وربما كان موقف عزيز على المصرى هذا من المواقف التي أغضبت الكثيرين من المصريين الذين كانوا يرون الثورة على دولة الخلافة الاسلامية خطأ كبيرا لا يمكن السكوت عليه خاصـــه عندما ترتبط الثـورة على دولة الخلافة الاسلامية بالانجليز الذين كان شعب مصر قد قاسي منهم الويلات ، لا منذ احتلالهم لمصر في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وحسب ، وانما قبل ذلك بكثير عندما كان الانجليز يتآمرون اقتصاديا وسياسيا على مصر ، وهذا التآمر هو الذى أدى الى الاحتلال البريطانى لمصر ·

★★★

وأقولها بكل أمانة وصدق انه قد يجوز للشريف حسين بن على ألا يرتاب في الانجليز لأنه لم يتعامل معهم من قبل ، ولأنه لم يجرب تآمرهم عليه وعلى بلاده ، وقد يجوز كذلك للاخوة في سورية والعراق ولبنان وفلسطين أن يفضلوا التعامل مع الانجليز على التعامل مع الأتراك بل أن يتفقوا مع الانجليز على الثورة ضـد الأتراك لأنهم جربوا الأتراك وجربوا الانجليز معا ، بعكس الحال بالنسبة للاخوة المصريين الذين جربوا الأتراك وجربوا الانجليز معا ، ووجدوا ان نار الأتراك مهما تكن حامية أهون بكثير من جنة الانجليز إن كان للانجليز جنة ·· !!

★★★

وعندما كنت في ملتقى الفكر الاسلامى بالجزائر عام ١٩٧٣ أقول هذا الكلام في احدى اللجان الفرعية التي كنت أرأســـها وكانت خاصة بالاعلام الاسلامى ، تصدى لى بعض الاخوة معترضين على رأيى هذا ، فما كان منى الا أن حددت بالأرقام والأسماء والوقائع ويلات الحكم العثمانى لمصر مقارنا اياها بويلات الحكم الانجليزى لمصر فمالت كفة الحكم العثمانى ، وكان أن أقرنى الاخوة المؤتمرون فيما بعد — على ما ذهبت اليه وما ادعوا اليه ، بل ألح على الدعوة عليه باســـتمرار وهو ضرورة اعادة النظر فى رؤيتنا الى الحكم التركى على ضوء رؤيتنا للحكم الانجليزى والفرنسى لنرى أيهما كان أخف ضررا : الحكم التركى أم الحكم الانجليزى أم الفرنسى ·

ولا اريد ابدا أن استبق الحديث عن نتائج الثورة العربية فأقول مثلا : ان جناية الانجليز على الثورة العربية وخلفهم لكل ما وعدوا به ،

وتنكرهم لكل ما التزموا به ، ثم احتلالهم البغيض للبلدان التى كانوا يساعدونها على الاستقلال ، كانت أخطر بمراحل من كل الجنايات التى ارتكبها الحكم التركى فى السنوات الأولى من القرن العشرين (من ١٩٠٠ حتى ١٩١٦) .

وحتى لا أستدرج فى الدخول الى تفاصيل لا أريد الآن الحديث عنها .. استسمح فى الحديث عن دولة الخلافة الاسلامية قبل أن تقوم الثورة العربية ، وعن الجرائم التى ارتكبها فى سوريا ولبنان جمال باشا الوالى التركى وقائد الجيش الرابع المرابط فى تلك البلدان .

★★★

كانت تركيا بعد عزل السلطان عبد الحميد ــ على ما يروى داجوبرت فون ميكوش ــ مؤلف كتاب « مصطفى كمال المثل الأعلى » ــ مطبعة الوفاء بيروت ــ أشبه بحالة روما قبل ظهور قيصر .. حروب أهلية ومنازعات حزبية .. اذ ان المعارك لم تكن كلامية بل كانت قوى الأمة الحربية فى اصطدام عنيف تحاول كل منها هدم الأخرى ، وكان أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب « الاتحاديين الأحرار » تمييزا لهم عن « المعتدلين » من أنصار تركيا الفتاة ، لا يريدون شيئا غير الدكتاتورية الحزبية .

كان الحزب الاتحادى يبعث الوفود الى المناطق المهمة فى البلاد ، وكان هؤلاء المبعوثون من عمال التلغراف أحيانا ومن الضباط أحيانا أخرى ... وكانت المهام المطلوبة منهم لا تخرج عن تشديد الرقابة على الموظفين ، وعد أنفاسهم ، وبث الروح الوطنية فى نفوس الأهلين ، ونشر الدعاية الواسعة للمدنية الاوربية بين سواد الشعب ، ولم يكن القائمون بنشر هذه الدعاية العريضة من الرجال الذين يفتقرون الى الذكاء أو الذين يحجمون عن تنفيذ ما يطلب منهم بدقة واخلاص ، ولكن الزعامة الحقيقية كانت مفقودة فلم يكن بين الاتحاديين من له شخصية لينين الثورية ولا عبقريته الفذة . وكان فى كل مرة يقترب الحزب من النجاح وجمع السلطة فى يده ــ هذا ولا شك لمصلحة البلاد ذاتها ــ تقوم المعضلات فى وجهه ، ويبدأ الأوربيون مناوراتهم التهديدية التى كانت تضيع معها مهابة الثائرين والتى كانت تشل قواهم وتضعف عزائمهم . وعلى هذا ترجع السلطة العليا للخصوم والناقمين على الأحرار .

★★★

كانت البلاد فى اضطراب وأى اضطراب .. أبواب البرلمان لا تفتح الا لكى تغلق .. وزراء يجلسون على مقاعدهم وهم لا يدرون ان ينهضوا

منها الى النفي والتشريد أو الى بيوتهم لينزووا فيها حرصا على رقابهم ٠٠ كثرت الاشاعات ٠٠ راجت الأقاويل ٠٠ عمت الفوضى ٠ وكان إعضاء الأندية السياسية يجمعون سرا ويحكمون اغلاق الأبواب درءا للطوارىء ودفعا لتطفل الجواسيس الذين كان لا يحلو لهم الا ازعاج هؤلاء الأعضاء والقاء الرهبة والفزع فى قلوبهم ٠ وكان لا يقبل العضو الا بعد أن يفوه بكلمة « السر » وكانت كلمة السر تتبدل بعد كل جلسة ٠ ويكفى أن نذكر ان العضو كان يعود فى بعض الأحايين مع جاره لينام بعد ، فيجد هذا الجار الذى يسير معه قد خر أمامه جثة هامدة وان القاتل ولى الأدبار ٠

وكانت الجملة التى يكثر الأتراك من ترديدها فى ذلك الحين هى ان محمود شوكت باشا هو الذى قهر السلطان عبد الحميد ، وكان رجال الجيش يلاقونه بالهتاف الشديد ، وكانت الخطوة التالية ــ لو كان فعل ــ توصله حتما الى الدكتاتورية ولكنه خاف من العواقب وتهيب الموقف فتراجع ثم اختفى ٠

وقد انتهت الحياة التى كان يتمتع بها الجدى ، أى حياة السكون والنعاس والكسل والخمول ٠

وبعد ان كانت لا تقضى الحامية فى التمرينات اليومية غير مدة وجيزة ، أصبحت تسير المسافات الطويلة المرهقة التى كانت تستغرق النهار بطوله ، تؤدى المناورات العسكرية ٠

وكان الجنود يتمرنون باستمرار على اطلاق الرصاص ، واستعمال المدافع ، وكان ذلك محرما فى العهد الحميدى ٠٠ !!

***

وكان سير الجيوش فى الشوارع مع فرقها الموسيقية الحربية مدعاة لسرور الأهلين الذى لا يوصف ، وكان اغتباطهم هذا ينسيهم الفوضى التى استحكمت حلقاتها ، ويريحهم من الاضطراب الفكرى الذى كان يتجسم فى أوضح أشكاله فى الفصول المضطربة التى كانت تنشرها الصحف التركية فى ذلك الحين ٠

وبدلا من تحسن الحالة بعد اعلان الدستور ازدادت سوءا : كانت هناك حالة منظورة واحدة هى التى تتصرف فى الأمور ، ولكن بعد اعلان الدستور ضاعت هيبة السلطة وأصبحت الفوضى متفشية فى البلاد ٠٠٠ عادت عناصر الجيش المتجزئة الى التناحر والتنابذ ٠

وكان حزب الإتحاد يزداد قوة ، ومع القوة تهديدا ووعيدا .. وكان يعتمد فى قوته على الجيش ولهذا كان يقربمن يود تقريبهم ويدفع بهم الى الوظائف العالية ليشغلوها . وانتعشت حركة التآمر والدس من جديد .

***

وفى مذكراته ، التى أملاها الغازى مصطفى كمال باشا (آتاتورك) على صحيفتى « حاكميت ملية ، وفكيت » اللتين كانتا تصدران فى أنقرة والآستانة صورة حية لما آلت اليه الأمور فى دولة الخلافة الاسلامية فى سنواتها الأخيرة .

فى ليلة من الليالى التى ازدحمت فيها أرجاء « يونيون بار » قصدت غرفة صغيرة فى ركن من أركانه واقتربت من خوان جلس حوله بعض أشخاص من المعروفين بانهم من رجال الانقلاب وكان بعضهم يشرب جعة وكان بعضهم يشرب « العرقى » وكان حديثهم يدور حول الانقلاب ومن الزعيم الذى يصلح للزعامة . وأذكر أن أحدهم صاح بأعلى صوته : أريد أن أكون مثل جمـال . فصاح الآخرون : مرحى مثل جمـال ، وانتظر الجالسون أن أؤيد ظنونهم فى جمال الذى كنت على اتصال به مساء كل يوم ، ولا أذكر أننى أومأت اليهم باشارة تدفعهم الى الاطمئنان .. كل ما أذكره ، أنه مرت فى نفسى هذه الملاحظة : لا يرون فى نظرى الرجل الذى يبحث عن العظمة والمجد والرجل الذى يظن أن نجاة البلاد يتوقف على وجود الرجل العظيم ويبحث عن القدوة ليتشبه به معتقدا أن انقاذ البلاد لا يتم الا بهذه الصفة مثل هذا الرجل ليس رجلا فى نظرى .

***

ويمضى مصطفى كمـال قائلا : أظن أننى لو أبديت هـذه الملاحظة لاخوانى الجالسين معى على خوان واحد فى تلك الليلة لحكموا على حكما سلبيا وربما كانوا قد قالوا فى معرض التدليل على حكمهم ... ما لهذا الأفندى القليل الدراية بالأمور أنه ليرى نفسه عظيما جـدا حتى لتضيق دائرة نظرته بحيث لا يرى العظمة .. مثل هذا لا يصلح أن يكون بين رفقائنا .

فى تلك الليلة ــ مصطفى كمال ــ تبلورت فكرتان بتأثير بنت الحان على تلك المائدة واحـدة ايجابية وأخرى سلبية ؛ الأولى تذهب الى ايجاد الزعامة أولا ثم تخليص البلاد ، والثانية ان الزعامة ليست الأقوال الجوفاء بل يجب أولا انقاذ البلاد وليس للزعامة حتى يعد ذلك مكان للبحث .

ويقول مصطفى كمال ـ أتاتورك ـ ان جمال بك كان قد حرر مقالة في احدى صحف سلانيك نشرت بدون توقيع وأنه بعد أن خرج جمال بك من دائرة العمل وأخذ الترام في الطريق الى نادي أوليمبوس ناوله جمال الصحيفة وسأله أن يقرأ الافتتاحية ، فلما قرأها سأله جمال بك عن رأيه فيها فقال أنها افتتاحية عادية لصحفي عادي وقال جمال بك لمصطفى : « ما هذا التعالي انها بقلمي » وقال مصطفى كمال ، أنه قال لجمال بك : « أرجوك الصفح ، ما كنت أعلم ذلك ، وكنت أتمنى ألا يكون ذلك . اياكم يا جمال بك والسير في طريق اكتساب اعجاب بعض صغار الأحلام بأمثال هذا الأمر وأشباهه ، فانه ليس لهذا العمل قيمة ولا قدر : عليكم أن تنعموا النظر في موقف الحاضر ، وعليكم أن تعتقدوا أنه من الضروري على المرء أن يتفانى ، فاذا تنازلتم الى استمداد القوة من رضى هذا واعجاب ذاك ، فلا أدري ماذا يكون حالكم وانما أؤكد أن مستقبلكم لا يكون على أساس متين ، لأن امامنا عالما واسعا لم يتصادم بعد بالحقائق ، وفي هذا العالم كثيرون متشبعون بخيالات لم تنضج بعد .. العظمة هي أن تسير في طريقك دون أن تلتفت الى أحد .. دون أن تلجأ الى اغواء أحد .. ضع نصب عينيك الكمال الذي تطلبه البلاد ، وسدد سهام جهودك لهذا الغرض .

***

وينتقل مصطفى كمال ـ في مذكراته ـ الى الحديث عن اعتماد الجيش التركي على الألمان فيقول : لم أكن على ثقة من أن الحرب العامة ستعود بنتائج حسنة على حلفائنا ، وكان أكثر ما أثر في نفسي القاء أزمة الجيش الى هيئة عسكرية أجنبية ، ولا أريد هنا أن أنتقد الألمان والهيئة العسكرية الألمانية ، وانما الجديرون بالنقد هم بطبيعة الحال رئيس حكومتنا ورجال الدولة لأنهم هم الذين ذهبوا بأنفسهم الى تلك الهيئة يدعونها في شيء كثير من الرجاء والاستعطاف بالقدوم الى بلادنا بفكرة أن الجيش التركي عاجز ليس على شيء من الأهلية والاستعداد ، لقد تحدثوا الى تلك الهيئة بصراحة عن ضعف الأمة التركية وعجزها وطلبوا منها أن تشخص الينا لتهذيبنا وترقيتنا ، ولشدة ما كنت متأثرا من تسليم الجيش وجميع أسراره الى الهيئة العسكرية الألمانية بلا قيد ولا شرط ، وعندما وقفت على هذا الحادث بطريق الصدفة قبل اتخاذ قرار ما بشأنه ، رأيت من واجبي رفع صوت الاعتراض الى المقامات التي يستطيع صوتي أن يصل اليها ، ولكني لم أجد من يهتم باعتراضي أو يعيره أدنى التفات . لم أفتأ أذكر ما ستجره علينا الحرب من العواقب السيئة بعد دخولنا غمرات الحرب العامة ، فقد ثارت ثائرتي ضد حملة القنال ، ورميت أول الأمر بوابل من الانتقادات عندما عرضت على قيادة الجيوش المسافرة للحجاز ، تلك الانتقادات التي لم تثمر

رغم تمكني من اقناعهم بوجوب اعتبارها . وأعقب هذه الانتقادات والتمردات حوادث أخرى جادلت فيها مجادلة عنيفة ويعلم الناس الحوادث التي تمت في عهد قيادتي للفرقة المسماة « بيدوم » الصاعقة .

وعلى ما أذكر . . ان أول تمرد في نفسي لم أستطع كبح جماحه ، كان أثناء تلك الحوادث ، اذ كنت أدركت أنه قد مضى أوان السكوت والتواضع وكنت أرى المصائب تتوالى على تركيا متدفقة كالسيل الجارف فكيف أطيق صبرا وأحتمل السكوت بعد ذلك .

★★★

فوضعت نصب عيني كل احتمال وعاقبة وقدمت استقالتي من قيادة الفرقة بعد تعيين وكيلي (وقد كان على رضا باشا وهو من القواد المعروفين) وكان هذا العمل لا يتمشى مع الأصول والقواعد المتبعة وفيه شيء من روح التمرد والعصيان ، وعندما أتممت ما اعترضت عليه وأخطرت المقامات العالية بهذا الأمر الواقع أرسل الى الجنرال فلكنهاين خطابا خاصا ليثنيني عن عزيمتي ، وأرسل الى وكيل القائد العام وقائد الفرقة الرابعة ، وقد كان بعض المهتمين بهذه الحالة يتوسط بالتأثير على في الرجوع عن قصدي ، غير أن هذه الحالة دلتني على أن الحقيقة اما أن تكون غير مفهومة من قبل أصحاب النفوذ ، واما أنهم يحاولون كتمانها بوسائل تبعث في النفس الحزن والأسى .

★★★

وكنموذج لما كان يلجأ اليه الحلفاء لتركيا (الألمان) من استخدام رشوة كبار الضباط يقول مصطفى كمال : عندما سلكت طريق الاستقالة وعولت على ترك وظيفتي ومنصبي في مدينة حلب ، لم أكن أعلم أنني لا أمتلك من النقود ما يوازي السفر بالسكة الحديدية من حلب الى الآستانة . ويستذكر مصطفى كمال واقعة حدثت له عندما قرر التوجه الى الآستانة والى حلب ـ أي عند تعيينه قائدا للفرقة « السابعة » : حضر ضابط ألماني شاب يصطحبه ضابط تركي في معسكر فلكهاين الى محل اقامتي في رقم ٧٦ في (العقارات) وأخبراني أنهما أحضرا لي بعض أشياء من قبل فلكنهاين داخل صناديق مزخرفة ، فأمرتهما بفتح تلك الأشياء في الغرفة التي قابلتهما بها وبعد مدة قصيرة وجدت صناديق صغيرة موضوعة بترتيب على مقربة من باب الصالة فسألت مندهشا : ما هذه الأشياء ؟ فأجابني الضابط الألماني : أرسل اليكم المارشال فالكنهاين مقدارا من الذهب بمناسبة سفركم » .

ولما كنت لم أتحدث الى أي انسان باحتياج من احتياجاتي ظننت أن المارشال قد أرسل هذه النقود لصرفها في احتياجات الجيش ولذلك خاطبت الضابط التركي الذي كان يقوم بالترجمة بيني وبين الضابط الألماني فقلت له : هذه الصناديق وردت الى خطأ بعد أن قمت باستلامها خطأ وأمضيت على استلامها خطأ بإيصال مني ، اذ كان يجب ارسالها لرئيس المهمات وحفظها طرفي غير داخل في اختصاصي • وعندما ترجم الضابط التركي أقوال الضابط الألماني أجاب : كلا يا سيدي ما يخص الفرقة غير هذا المقدار • وقلت لضابطنا أن يقول للضابطين الألمانيين : اسمعا جيدا •• انني آمركما أن تذهبا ثانية الى حيث فلكنهاين لتقولا له أن الذهب المرسل منكم محفوظ كما هو وقد أعطينا لكم ايصالا عند استلامه وادعاء عدم وجود الايصال لا ينفي وجود الذهب ؛ وقد يجوز أنكم فقدتم الوثيقة فنحن نعيد اليكم الذهب نظير سند منكم يفيد باسترداد المال ، ثم تقولون له ؟ كان عليكم أن تدركوا من مدة طويلة أن القائد الذي أوفدنا اليه ليس من الأشخاص الذين يتسامحون في مصالح البلاد مقابل الذهب : واذ كنتم في شك من ذلك الى الآن فان قائدنا يستطيع أن يثبت لكم وللرأي العام هذا الأمر بشكل آخر • ان نقودكم لم تزل على حالها وانما لا يمكن أن يبقى لديكم امضاء (مصطفى كمال) وهو أثمن وأعظم قدرا من هذه النقود هذا ما يجب أن تقولاه ولا أريد أن أراكما قبل الحصول على نتيجة ايجابية •

أن رفيقي اللذين أصدرت اليهما أمري كانا يجهلان فلكنهاين الا أنهما كانا يعرفان أسلوبي في التعامل ولذلك عادا الى بعد ساعة يحملان الورقة التي تشتمل على امضائي •

ويمكن أن يعلم الانسان من هذه الحادثة أن المارشال فلكنهاين كان يسلك هذا السبيل ، سبيل اغوائي واغواء كثيرين غيري بمثل هذه الصناديق الملأى ذهبا •

★★★

ويدل مصطفى كمال ترك على حاجته للمال بعد أن استقال فيقول أنه اضطر لعرض خيول له للبيع حتى يستطيع السفر الى الآستانة ، فلم يجد مشتريا لأن الضباط الأتراك لم يكونوا في سعة من المال تمكنهم من من شراء مثل هذه الخيول ، كما أن أعيان حلب رفضوا شراءها خوفا من أن يستولي الجيش على كل ما لديهم من الحيوانات بسبب ظروف الحرب •
وتقابل مصطفى كمال مع ناظر البحرية قائد الفيلق الرابع وكان يخصه ـ يخص مصطفى كمال ـ بمحبة خاصة وعلاقة متينة ، وعرض ناظر البحرية الخيول على البياطرة لتقدير قيمتها ثم نقده الفان من الجنيهات الذهبية

صفقة واحدة فقبلها وتمكن من السفر الى الآستانة . وبينما كان بالآستانة قابله واصف باشا مستشار وزارة البحرية وقال له : لقد باع جمال باشا خيولك بخمسة آلاف جنيه وسيرسل لك الثلاثة آلاف الباقية . وقد فعل ذلك جمال باشا حتى لا يصيبني الغبن كما قال .

وكان النفوذ الألماني قد طغى على الحكومة التركية في الأشهر الأولى من عام ١٩١٤ وكان ليمان فون سندرس ، رئيس البعثة الألمانية العسكرية قد وصل الى الآستانة وأصبح صاحب اليد الطولى في ادارة شئون الجيش التركي : وينظم فرقه ويدرب ضباطه ، وقد أحدث ليمان فون أندرس أزمة سياسية عندما دعى الى حفلة في السفارة الأمريكية عومل فيها كرئيس بعثة عسكرية ، ولكنه احتج لدى الحكومة التركية على معاملته تلك فقرر مجلس الوزراء أن يكون وضعه في البروتوكول مثل السفراء ، وعندما علم السفراء الأجانب في الاستانة بذلك رفعوا احتجاجا قوى اللهجة لدى وزارة الخارجية التركية بعد ان عزموا على ترك الحفلات الرسمية معا .اذا جعل مركز ليمان فون سندرس أرفع من مراكزهم ، وكانت النتيجة ان فون سندرس لم يدع الى حفلة رسمية مطلقا ، وقد ظهر ان ليمان فون سندرس لم يكن رئيس بعثة عسكرية لدى دولة صديقة وانما كان ممثلا شخصيا انتقى بمهارة لامبروطور المانيا .

***

وقد استنتج بعض السفراء الأجانب في تركيا من هذه الواقعة ـ واقعة اختيار ليمان فون سندرس ممثلا شخصيا لامبراطور ألمانيا ـ ان تركيا ستقف الى جانب الألمان في أية حرب قادمة . وكان وحيد الدين ـ ولى العهد الذى ولى العرش فيما بعد ـ قد دعى لزيارة ألمانيا واستقبل هناك في ألمانيا ـ استقبالا حافلا ولقى امبراطور ألمانيا أكثر من مرة ، كما زار جبهة القتال والمعسكرات الألمانية ، ومصانع كروب و.. و.. وكان يرافقه في تلك الزيارة الضابط مصطفى كمال بك .

ويروى مصطفى كمال ـ انه عندما استقبله وحيد الدين بعد أن أصبح سلطانا ، وبعد أن تطورت الأمور في الحرب لغير صالح تركيا ، أصر على استقباله مع وجود ضابطين ألمانيين في حضرته .

***

وفي هذه المقابلة ـ على ما يروى مصطفى كمال ـ عرض عليه السلطان أن يكون قائدا لسوريا لأنه ـ مصطفى كمال ـ القائد الذى يستطيع ان ينفذ أقواله (أقوال السلطان) .

ولم يقتنع مصطفى كمال بهذا التعيين ، لأن قيادة جيش مهزوم تمثل انتقاما (بديعا) منه ولأنه كان قد استقال من الجيش التركي لأسباب يعتقد أنه على حق فيها • وكانت الحكومة الثلاثية (أنور • طلعت • جمال) قد سيطرت على الأمور بعد ان تمكن الثلاثة من القضاء على ما بينهم من خلاف ولكن فيما بعد ــ وبعد أن ظهرت ميول جمال نحو فرنسا ولأسباب أخرى ــ تم التخلص من جمال بارساله الى الشام ليكون حاكمها المطلق وقائدا للجيش الرابع •

وكان على فؤاد شكرى ملحقا عسكريا فى السفارة التركية فى باريس ثم أصبح ــ فيما بعد ــ رئيسا لأركان حرب جمال باشا وقائدا للفيلق الثامن ، وقد وصف الحال فى تركيا قبل اعلان الحرب فقال :

« كان معسكر الجيش الثانى يومئذ فى الاسبانة • وكان يقود الجيش الأول فون ستورس باشا ويتـــولى شعبة الأعمـــال الحربيه فيه القائد عصمت بك •

وقد عرف جمال باشا بأنه رجل سياسى أكثر منه رجل حرب وقيادة الجيوش ولذلك وقع اختيار القيادة العامة عليه حتى لا يكون الجيش الثانى أقل من الأول شأنا ولا أعز مكانة ومركزا •

★★★

وعند وصولى الى الأستانة استلفت نظرى قرار الوزارة بانشاء قيادة عامة ، ومثل هذا الأمر يستبق الأعمال الحربية عادة • وقد قيل لى فى ذلك الوقت ان الغاية الوحيدة من انشاء مثل هذه القيادة هو ان تكون التدابير العسكرية التى بدأوا فيها يوم اعلان النفير العام فى قبضة شخص واحد يوجهها فى الجهة التى يريدها ، والغاية التى يرغبها •

وقد كان من واجبى كملحق عسكرى قدم من باريس حديثا أن أزور أنور باشا وكيل القائد العام وزرته فعلا فرأيت أن الرجل الذى تركته لأشهر خلت فى منزله الصغير فى بشكطاش ضابطا شابا متواضعا لين الجانب رقيــق الوجه ، قد أصبح شخصـــا آخـــر فى قصره الجـــديد واذا هو يبدو لى كحاكم طاغية غاضت بشاشته واكفهرت أسارير وجهه ، ولاحت عليه امارات السيطرة والقوة •

★★★

والواقع أن أنور باشا قد أصبح رجلا جديدا بكل ما في الكلمة من معنى ، وقد أدرك مركزه العظيم هذا بسرعة متناهية ولعل في ذلك ما يفسر لنا تبدله العجيب وانقلابه الغريب ٠

حدثته بما رأيته في باريس من أمور عسكرية وسياسية ، وأشرت له في كثير من اللباقة الى الفوائد التي تربحها تركيا من التزامها الحياد في هذه الحرب العظيمة ؛

فما ارتاح لكلامي ، ولا سره حديثي ، وسبب ذلك أن أنور كان يرى ان الله خلقه ليجري على يديه خوارق العادات ٠ وكان الى ذلك يعتقد ان هذه الحرب هي أفضل وسيلة يبلغ بواسطتها مطامعه وشهواته ٠

***

وزرت جمالا في صبيحة اليوم التالي فرأيت فيه انقباضا وحشمة أكثر من أي وقت رأيته فيه قبلا ٠ وبعد أن تحدثت اليه عن الشريف العظيم الذي نالني بالالتحاق في معيته ، وذكرت له حديث مستشار السفارة في باريس بضرورة اجتناب تركيا للحرب ، ووقوفها على الحياد ، وقلت له اني أرى رأيه ، فقال لي جمال باشا :

ــ وأنا على هذا الرأي ولا أرى أن تقذف بالمملكة الى هذا البحر الذي ليس له قرار ، قبل أن تظهر لنا حقيقة الموقف ، وسأبذل جهدي لتأجيل اعلان الحرب ، ولكن يتعين على اذا رأيت روسيا ــ عدوتنا اللدودة ــ على مقربة من الهلاك ان أكون صاحب الضربة الأخيرة ٠

وكان معنى حديث جمال باشا ان تركيا ستدخل الحرب حتما مع المانيا والنمسا ، ولكنها ستعمل لاختيار الوقت اللازم ٠

***

لقد كانت المملكة العثمانية في قبضة الاتحاديين ، وكان الاتحاديون في قبضة المركز العام للحزب ، وكان المركز العام في قبضة أنور يسوقهم سوقا عنيفا ٠ أما مقام السلطنة ، والقوى التشريعية ، وحزب الاتحاد والترقي ، والحكومة الرسمية ، والرأي العام فلم تكن غير خيالات مصورة ٠

وكان جمال باشا موصوفا بشيء من الاعتدال من بين القابضين على زمام الامور ، فلما وجدته على هذا الرأي أدركت أنه لم يبق له فسحة من الرجاء في حياد دولي ٠ وكان حديثي معه آخر عمل سياسي تستدعيه وظيفتي القديمة ، وهي تنتهي متى تقلدت وظيفتي الجديدة في الجيش ٠

وقد صحت عزيمتي على أن أحبس جهودي وكل ما أوتيت من قوة أدبية ومادية على القيام بواجباتي في وظيفتي العسكرية ، وقد أمضيت في اقرار هذا الواجب مدة الحرب كلها ٠

***

وكان وداع جمال باشا وهو في طريقه الى دمشق في أوائل نوفمبر ١٩١٤ رائعا وعظيما ، ولم يسبق له - كما قيل يومئذ - مثيل ، في محطة حيدر باشا في الآستانة كان جميع أعضاء الوزارة مع جمع غفير من علية القوم في وداع جمال باشا وزير البحرية وأحد الثلاثة الذين يديرون دفة الملك في تركيا ، وكان الجيش يهتف له ويحييه كمنقذ لمصر من الاحتلال البريطاني ٠ وقبل ان يقوم القطار قال جمال باشا الذي كان في طريقه لتسلم قيادة الجيش الرابع ، أنه عقد النية على ألا يرجع الى الآستانة قبل افتتاح مصر ٠

وقيل ان طلعت وأنور ومن معهما من رجال جمعية الاتحاد والترقي قد زينوا لجمال باشا فتح مصر لأنه كان يزيد - كأنور وطلعت - الانفراد بالحكم ٠ وكان جمال باشا الرجل الوحيد الذي لم يقع تحت دائرة التأثير الألماني وكانت سياسته « تركيا » للأتراك ٠ وكان مجرد تعيين وزير في الوزارة قائدا للجيش الرابع دليلا على مدى الفوضى التي كانت قد بدأت تجتاح نظام الحكم في تركيا فمكان الوزير في العاصمة لا في الصحراء المحرقة ٠

وكان جمال باشا يتظاهر بضرورة التفاهم مع العرب ، وكان على اتصال بعبد الكريم الخليل ، وعن طريق عبد الكريم الخليل اتصل بالدكتور عبد الرحمن الشاهبندر الذي اقتنع بصدق جمال باشا والذي رأى من حسن السياسة أن يكسب تأييده للقضية العربية ٠

وبمشورة من الأمير سعيد الجزائري استمال جمال باشا - في بداية تولية منصبه - الدروز تحسبا من ثورة الموارنة على الأتراك ٠

وقد لجأ جمال باشا - في بداية حكمه - الى استخدام الأوسمة والألقاب كوسيلة للتقرب من القيادات العربية ٠

***

وهناك من يرى ان جمال باشا لم يغير سياسته من العرب الا بعد أن فشلت حملته على مصر ذلك ان الموقف البارد الذي وقفه العرب - كما

قال هؤلاء الذين يرون هذا الرأى ـ من الجملة التركية على مصر كان دليلا على عدم ثقة العرب فى الأتراك وعلى كرههم لتركيا .

***

. وفجأة ظهرت بعض الوثائق والأوراق التى اعتقد جمال باشا أنها تدين بعض القيادات السورية واللبنانية ثم راح يتتبع كل زعيم عربى يعرف أن له نفوذا فى منطقته .

ويقول المدافعون عن جمال باشا أنه ما غير سياسته التى جاء بها الا لانه أحس بأن خطرا يهدد الجيش وان تدخله انما جاء لدرء الخطر ووضع حد لكل ثورة يمكن أن تحصل فى البلاد التى هو مكلف بالمحافظة على سلامتها .. ؟

وكان جمال باشا قبل ان يغير سياسته فى سورية ولبنان قد عهد الى الولايات والألوية فى سورية وفلسطين ان تختار وفدا من العلماء والفضلاء يذهب الى الآستانة : وقد اختارت دمشق ، وحماه ، وحمص ، وحوران وبيروت ، وعكا ، واللاذقية ، ويافا ، وجبل لبنان ممثليهم فى هذا الوفد ، كما اختار الجيش الرابع ممثله أيضا وانضم الى وفد الصداقة هذا : عبد الباسط أفندى الأنسى صاحب جريدة الاقبال ، وحسين الجمال صاحب جريدة ابابيل ، وحمد أفندى باقر صاحب جريدة البلاغ ، ومحمد أفندى كرد على صاحب المقتبس وغادر الوفد دمشق على القطار الحديدى فى طريقه الى الآستانة فى منتصف سبتمبر ١٩١٥ ، واختير لمرافقة الوفد القائمقام جواد بك قائد مركز الآستانة ووفد كبير على مستوى عال ، وقد قابل أعضاء الوفد السلطان الذى تحدث اليهم معربا عن سعادته بلقائهم مؤكدا أنه من يمن الطالع أن تكون مصادفة قدوم الوفد لدار الخلافة قرب ختم قراءة البخارى الشريف . وطلب من الوفد أن يزوروا حجرة المخلفات النبوية ويشتركوا فى الدعوات السبحانية عند ختم تلاوة البخارى الشريف ، وكان السلطان قد علق ختم البخارى حتى قدوم الوفد .

***

وزار الوفد صاحب الدولة والنجابة يوسف عز الدين أفندى ولى العهد ، الذى أكد على اتحاد العرب والترك لأجل العمل فى سبيل انتصار الأمة الاسلامية . كما زار الوفد المتحف الهمايونى ـ فى سراى طوب قبو ـ وباحدى قاعاته رداء أسود من شعر الابل كان يضعه النبى صلى الله عليه وسلم على منكبيه وبعض شعرات من لحيته الشريفة وسن من أسنانه ،

وبعض المصاحف القديمة المكتوبة بخطوط الصحابة ، والراية النبوية التى كان قد أخذها السلطان سليم الأول من مصر عند فتحه لها ، وكذلك راية الامام على رضى الله عنه .

كما زار الوفد شيخ الاسلام ونظارات الداخلية حيث استقبلهم فيها طلعت بك أفندى ، والبحرية حيث استقبلهم جمال باشا ناظر البحرية وأنور باشا ناظر الحربية ، وكما أولم السلطان وليمة غداء لهم ، أولم كذلك ولى العهد .

وبالجملة .. فقد لقى الوفد العربى من الحفاوة رسميا وشعبيا ، ما لم يلقه أى وفد عربى آخر من الحكومة التركية والشعب التركى .

★★★

وقد نشر الوفد فى بيروت ١٣٣٤ ــ ١٩١٦ كتابا عن أعمال هذا الوفد وزيارته بعنوان : البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية ــ كتبه الأساتذة محمد الباقر ومحمد كرد على ، وحسن الجبال وعبد الباسط الأنسى . وقد خاطب الشيخ على ريماوى القدسى ، عقب عودة الوفد ، صاحب الدولة والاقبال أحمد جمال باشا بقصيدة رائعة كان مطلعها :

سرى وفدك الغازى ومثلك موفد   وعاد بملء البشر والعود أحمد
سرى منك مضمون النجاح مسير   وطالعه بالكوكب السعد أسعد

(وأسعد هذا هو رئيس الوفد « أسعد أفندى الشقيرى ») .

الى أن يقول الشيخ ريماوى :

رأيت (جمال) الملك رأيك والذى تراه هو الرأى الصواب المسدد
نعم يا جمال الملك لم تنس أننا   ذهبنا لدار الحرب والبحر مزبد
ذهبنا وصفحات السيوف بوارق   تصل وأفواه المدافع ترعد
أأنت حكيم الخلق أم أنت قائد   شمائل ، ليست عند غيرك توجد
لقد كان (واشنطون) مثلك مصلحا   ورب حسام للعدو مجرد
فان قلت لا زلت المجال فأنته   ولا زلت محمودا فانك أحمد
وان قلت زانت مجدك البريق التى   زهت بك قدرا انت نوز أمجد
فدم خير مصلاح ودم خير قائد   على يدك الرايات بالنصر تعقد

★★★

وكان جمال باشا قد أشاد في مذكراته بالحفاوة العربية الطيبة التى استقبله بها الشعب العربى في سورية : ان أهالى سورية أظهروا وطنية كبرى واخلاصا ، وقد امتلأ قلبى سرورا اذ رأيت وشعرت أن غالبية العرب لا يتوانون عن بذل ما يطلب منهم من التضحيات فى تلك الحرب لتحرير الخلافة الاسلامية » وربما كان أكبر خطأ ارتكبه جمال باشا في سورية أنه أنشأ ما أسماه بالديوان العرفى لمحاكمة المتهمين فى القضايا السياسية • وكان الديوان يتألف من هيئتين : أولاهما هيئة تحقيق يرأسها أحد الضباط واسمه صلاح الدين ، والثانية : هيئة قضاة يرأسها قائمقام اسمه أحمد شكرى • ولم يكن الديوان العرفى يسير على أى قانون ، وانما كان يصدر أحكامه حسبما يرى شكرى بك نفسه رئيس الديوان ، وكان أعضاء الديوان يدرسون نفسية كل من يتقدم اليهم متهما ، كما يدرسون اخلاقه وأطوار حياته ، فاذا تبينوا أنه من الأذكياء الذين يخشى جانبهم أشاروا الى ذلك في جانب اسمه فيأمر الباشا باعدامه• ويقال ان معظم الذين نجوا من قبضة الديوان هم من الذين تظاهروا بالبله ، أو انكروا عروبتهم ، أو قدموا هدايا ثمينة لرجال التحقيق •

ومن بين اعترافات شكرى بك رئيس الديوان حول أهم القضايا التى عرضت على الديوان • والتى حكم فيها باعدام عدد من الزعماء العرب ، ان الحكم في القضية الكبرى قد عدل أربع مرات بأمر جمال باشا ، فكان فى كل مرة يخرج أناسا من قائمة المحكوم عليهم بالاعدام ويدخل غيرهم وفى ٥ مارس — أى قبل الاعدام بيوم واحد فقط — اتخذ القرار شكله النهائى وأرسل للتنفيذ •

ويدافع جمال باشا عن سياسته الهمجية تلك فيقول فى مذكراته : « يوم دخولى دمشق أخبرنى فلوحى بك والى سورية ان لديه أمورا خطيرة يريد محادثتى فيها ، فجاء معنا فى مساء اليوم نفسه وسلمنى وثائق ذات شأن وجدت فى دار القنصلية الفرنسية ، وقال « انها تجعل عددا من رجال سوريا ومن كبار موظفى العرب مسئولين ، وانه لم يعمد الى اتخاذ تدابير ضدهم بل أرجأ ذلك الى ما بعد حضورى •

« ومع ان الأدلة التى وجدتها تجعل كثيرين من كبار السوريين مسئولين الا أننى فكرت فى أن هؤلاء سيدركون فى المستقبل ان الحرب العظمى ليست الا مسألة حياة أو موت العالم الاسلامى ، وانهم سيقلعون عن أعمالهم فلذلك قررت ألا أتخذ اجراءات ضدهم ، وبما أنى كنت شخصيا موافقا مبدئيا على استعمال اللغة العربية وعلى منح العرب امتيازات فى الشئون الادارية فقد اجتمعت بعبد الكريم الخليل أحد زعماء الحركة

العربيـة فلاطفته ثم اجتمعت بواسطته بالدكتـور عبـد الرحمن شهبندر وبعبد الغنى العريسى وبمحمد كرد على وغيرهم فبسطت لهم خطة الحكومة وأكدت لهم ان تحرير العالم الاسلامي من النير الأجنبي ممكن التحقيـق لو انتصرنا ، فوافقوا على صدق كلامى ، وأقسموا بالله وبشرفهم ان يظل عرب سورية على الولاء للدولة ما دامت الحرب ، وقد اعطيت عبد الكريم الخليل ومحمد كرد على وعبد الغنى العريسى أموالا طائلة بناء على طلبهم وما أظهروه من الاحتياج فأصبحوا بعد ذلك مطيعين لأوامرى . وفى شهر يوليو ١٩١٥ زارنى الشيخ أسعد الشقيرى مفتى الجيش الرابع ، وقال ان الثورة بدت علاماتها فى سورية ، وان فى استطاعة كامل بك الأسعـد نائب بيروت اعطائى المعلومات عنها فأحضرته فقال لى :

ـ انكم وضعتم ثقة كبيرة فى جماعة الاصلاح وخولتموهم حريـة مطلقة فى البلاد ولكننى أخشى أن يكونوا أساؤوا استعمال تلك الثقـة ، فان رضـا بك الصلح وعبد الكريم الخليل ينظمان عصيانا فى الطيبـة ولو تفضلتم باجراء تحقيق لتبينتم صحة كلامى .

« وقد أمرت باجراء تحقيق أثبت صحة ما قيل ، فأمرت بالقبض على رضا الصلح وعبد الكريم وشركائهما .

★★★

وعثر موظفو المراقبـة على كتب واردة من القـاهرة تحث متنورى العرب على الثورة ، لأن تركيا سوف تخرج من الحرب محطمـة القوى فتصبح البلاد العربية عرضة لاستيلاء الأجانب ، فيجب والحالة هذه ان يذود العرب عن استقلالهم ، وقد استنتجت من كل هذا ان جماعة الاصلاح لم يعدلوا عن العصيان فى سورية وفلسطين كما عجبت لما أظهره عبد الكريم وجماعته من الولاء للحكومة منذ اعلان الحرب حتى الآن » .

وأرجو أن تؤخذ أقوال جمال باشا بشيء غير قليل من التحفظ .

ويذكر على فؤاد باشا ـ وكان قريب الصلة بجمال باشا : لم يكن جمال باشا مخطئا فى اجراءاته الخاصة بتنفيذ حكم الاعدام برجال القافلة الأولى ، فقد كان فى موقف حرج يبرر عمله ، ولو لم يقدم على عمل ما عمله لما استطاع السيطرة على الموقف ، ولا استطاع ان يحول دون اتساع نطاق الثورة وكانت تهدد البلاد العثمانية فى البقعة العربية منها ..

« ولقد كان عليه ان يقف عند هذا الحد ، خصوصا وقد لمس تأثير عمله فى البلاد فقد هابه رجال الحركة الثورية ، ووقفوا جانبا ، ولكنه لم

يفعل ذلك ، بل واصل الكتابة الى أنور باشا وطلعت باشا ملحا بطلب تخويله السلطة الآن لمحاكمة جميع الذين وردت أسماؤهم فى الأوراق التى صودرت فى القنصلية الفرنسية ، وهذا خطأ فادح ارتكبه وجعل العرب يمقتونه حتى لقبوه بالسفاح وهم على حق .. » .

ووجهة نظر « على فؤاد باشا » أيضا تتطلب أكثر من وقفة .. !!

★★★

وأستسمح فى أن أنقل هنا رسالة بعث بها رفيق رزق سلوم ، أحد الذين نفذ فيهم حكم الاعدام ، الى والدته وقد جاء فيها : سيدتى الوالدة الفاضلة وأخوى العزيزين قبلان وشاكر واخواتى المصونات جميلة وذكية وثمينة ونديمة وناهدة صانهم المولى جميعا .

سلام وتحية ، وبعد فهذه قصتى اليكم أحببت ان أذكر لكم تاريخ سجنى باختصار وأوصيكم ببعض أمور لا بد منها لأننى متيقن من زمن غير بعيد أن وقت الموت قد قرب ، وأنه لا بد ان تشيع بعض اشاعات لا صحة لها لذلك أحببت أن أذكر لكم كل شيء كما وقع تماما : »

★★★

القت الحكومة القبض على فى ١٤ « أيلول شرقى » قبل الظهر بساعة وأوقفتنى بسجن الضابط ، وبقيت هنالك خمسة أيام . لا أعرف سبب سجنى ويوم الجمعة صباحا أخذونى الى عاليه للاستنطاق فسألونى عن تاريخ حياتى فى الآستانة وتاريخ حياتى فى دمشق وعن علاقتى مع المرحوم عبد الكريم ، لأنهم ادعوا بأننى كاتم أسراره وأننى كاتب عبد الحميد الزهراوى الخاص ، وان لى قصائد وأناشيد وطنية أحض فيها الناشئة العربية على طلب الاستقلال ، هذه هى التهم الموجهة الى ، وقد دفعت هذه التهم بالحجة القاطعة وعرفت الذين وشوا بى من بيروت ومن طرابلس الشام ثم زاد الطين بلة أحد رفاقى المسجونين معى وهو رشدى من غزة فكان يتظاهر أمامنا بالصداقة ويذهب الى الديوان العرفى فيفترى على بعض أمور لكى يظهر اخلاصه للحكومة ويخلص من الاعدام لأنه اعترف عن نفسه صراحة ولم يبق له وسيلة ينقذ حياته بها الا التجسس .

ثم بعد ذلك جاء أخى العزيز شاكر الى عاليه وأرسلنى ديوان الحرب الى القدس لأنهم لم يجدوا على دليلا يثبت دعواهم وقالوا ان الذى أمر بتوقيفى جمال باشا ، وان مسألتى تتعلق به رأسا ، فحبسونى بالقدس خمسة أيام عند قومندان المركز ، ثم استدعانى الباشا والقى على نفس

الأسئلة التى ألقيت فى الديوان وتهددنى بالضرب وأنواع العذاب ، فأجبته نفس الأسئلة التى أجبتها فى الديوان فغضب على كثيرا ، ثم استدعانى اليه ثانية وحاول أن يقنعني لأقص عليه شيئا عما قام فى ذهنه من الخيالات الوهمية ، فأكدت له أننى بعيد عن السياسة بعد السماء عن الأرض ، وحينئذ أمرهم بان يعذبونى ، فأخذنى الضابط نور الدين ومعه بايرام وجندى آخر الى غرفة خصوصية وربطوا يدى ورجلى بالحبـــال ، وبدأوا يضربونى ضربا أليما ، وأغمى على من شدة الضرب • ثم أفقت فعادوا الى ضربى ثانية فاغمى على ثانية ، ثم أفقت فعادوا الى ضربى حتى تكسرت فى أيديهم عدة عصى ، وأغمى على ثالثة ، وأنا أقول لهم لا أعرف شيئا .

★★★

ثم أعطانى الضابط نور الدين قلما وورقة وكلفنى أن أعترف وأعطانى فرصة مقدار ساعة وقال لى : اذا لم تعترف أحضر آلة لقلع الأظافر فأقلع أظافرك وأطيل عذابك حتى تموت وأطرحك فى الوادى للوحـوش ، فرأيت أن اصرارى بهذه الصورة يجعلهم يتوهمون أننى عالم ببعض الأمور وأصر على انكارها فوعدته أننى عزمت على الاعتراف ورجوت أن يمهلنى الى الصباح لأن رشدى ضاع من شدة الألم ، فأخذت وكتبت له بالورقة بأن المرحوم عبد الكريم كان كلفنى من ست سنوات الدخـــول فى جمعيته فرفضت طلبه ، وأننى لا أعلم شيئا غير ذلك وذكرت له فى الورقة تاريخ الاصلاحات وأنى كنت من حزب عبد الحميد صديق الحكومة الذى رضى بالاصـــلاح بالرغم من معارضة الآخرين •

★★★

وبعد ان قرأ الورقة ضربها فى وجهى وقال هذا لا يكفى ، فقلت له ان لى علاقة بجمعية أخرى ولكنها ليست سياسية ومقصدها تشويق الطلاب ليذهبو الى أوروبا ويتعلموا فيها ، وليس فى ذلك ما يخالف قانون الحكومة أو ادارتها ثم ذكرت له أننى استعفيت من هذه الجمعية أيضا وقـــدمت استعفائى الى صديقى سيف الدين الخطيب وهذا أرسل استعفائى الى توفيق أفندى الناطور فى بيروت ، وكان سيف الدين حاضرا فاعترف أمام الباشا أننى استعفيت وان الجمعية المذكورة لا تشتغل بالسياسة • وبعد هذا الحادث بيومين رجعت الى عاليه وبقينا نحو خمسة وثلاثين يومـــا ما سألونى عن شىء • • •

وحضر جمال باشا فامر أن يستنطقونا من جديد وشرعوا يتهددوننا بالضرب لأنهم رغبوا أن توافقهم على بعض الاقرارات فرفضنا بتاتا وهكذا

استنطقونا ولاقينا أثناء الاستنطاق من العذاب ما يشيب له رأس الطفل وكانت الحكومة فى أثناء ذلك توسع دائرة التحقيقات بواسطة جواسيسها وهم ·· وغيرهم من الجواسيس وقضينا هذه المدة ننتظر الاعدام يوما فيوما ، أما عن حمص فلم تسألني الحكومة شيئا لأني قلت لهم أني خرجت من حمص صغيرا ولا معرفة لى بأحد منها أبدا وقد صار لى من اليوم ستة أشهر وثمانية أيام ونحن ننتظر الاعدام يوما فيوما لأن الحكومة لا تطبق قوانينها ، بل لها سياسة خاصة فى هذه الحالة والا فانه لا يوجد جرم فى الحقيقة أبدا ، ولكن هى السياسة قاتلها الله ·

★★★

هذا تاريخ حالتى عن حياتى فى السجون وكنت أتلقى كل هذه الأمور بصدر رحب وكنت أضحك من هذه الأوهام وأنظر الى الموت كما ينظر العطشان الى الماء لأنى مؤمن بالله وبالآخرة ومعتقد ان الآخرة أحسن من الدنيا واذا كان فى الموت فراق الأحباب ففى الآخرة اجتمع بوالدى وأختى وأخى وكثيرين من أقاربى وأصحابى ولا يؤلمنى الا أمر واحد ، وهو انكم تعبتم كثيرا لأجلي ولم تحصدوا شيئا من تعبكم ولكن استشهادى هو أعظم وأشرف نتيجة تحصدونها فتصوروا أنى مسافر الى أميركا وانى ناجح فى أعمالى وهل نجاح أعظم من هذا النجاح ؟ أنتم الآن لا تدركون معنى هذا النجاح ولكن المستقبل سيعرف حقيقتى وحينئذ ترفعون رؤوسكم افتخارا · أما من جهة المعيشة فلا أخاف عليكم لانكم جميعا قادرون على تحصيل معاشكم ولا يوجد عندكم أولاد صغار وعجز ، فاياكم والحزن لأنى أكره الحزن والحزانى ، وثقوا بأن روحى ترفرف دائما فوقكم فأرى كل حركة من حركاتكم فأراكم ولا تروننى فاذا حزنتم أهرب من عندكم وأياكم ان تغيروا ثيابكم أو عادة من عاداتكم ولقد تركت لكم أثرا من بعدى أذكر منه كتاب الاقتصاد واذا وجدتم فرصة فاطبعوا كتاب حقوق الدول الذى نشرته فى المهذب ثم اجمعوا المقالات التى كتبتها فى المقتطف فى رسالات خصوصية وانى أحمد الله لأننى عشت شريفا وأموت شريفا أما الجواسيس الذين تكلموا عنى فاننى أسامحهم ، واكتبوا على قبرى هذه الأبيات :

وان الذى بينى وبين بنى أبى — وبين بنى عمى لمختلف جدا
فان أكلوا لحمى وفرت لحومهم — وان هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وان ضيعوا عينى حفظت عيونهم — وان هم هووا غيا هويت لهم رشدا
وان زجروا طيرا بنحس تمر بى — زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم — وليس شريف القوم من يحمل الحقدا

ثم اننى لا أنسى الجميل والالتفات الذى لقيته فى بيت عمى بالشام وأشكر جميع الأصدقاء الذين ساعدونى فى سجنى سواء مادة أو معنى • سلام لجميع الأقارب وعليكم أن تعتنوا بتربية أولاد أخى الثلاثة على المبادىء القومية وعلموهم ان يعيشوا ويموتوا لأجل الوطن • أما الدين الذى على فهو خمسمائة ليرة عثمانية لأخى شاكر جزاه الله عنى خيرا ولا حاجة أن أوصيك يا أخى فى العائلة وأن لا يكون موتى سببا ليأسك بل كن رجلا كبيرا كما عرفتك وما الحياة الا منام أو خيال ينقضى فلنجتمع فى أحضان ساره وابراهيم وحيث ندرك أن الدنيا لم تكن سوى منام رأيناه وانقضى وليكن الله معك •

فى ٢٢ مارس ١٩١٦ « رفيق رزق سلوم »

★★★

وعن السجن كتب الشيخ سعد الكافى يقول : « مضى علينا ثلاثة أيام مع لياليها ولم يحدث ما هو جدير بالذكر سوى وحشتنا لانتقالنا من دمشق الى عالم جديد ، وقلقنا خوفا من سوء المصير •

وفى اليوم الرابع قدم الضيف الجديد صديقنا الحميم نجيب بك شقير الذى جيىء به من الآستانة ولم يضيقوا عليه فى بادىء الأمر ، بل وضعوه فى غرفة فريد باشا اليافى ، ولم يحظروا عليه وعلينا مخالطته ، فأسفنا لاعتقاله وآنسنا باقباله ، فأحطنا به احاطة السوار بالمعصم أو الهالة بالقمر نتلمس أخباره اذ هو قادم من العاصمة ينبوع الأخبار ، ونحن فى سجننا الأصم الأبكم ، فلم يذر شاردة ولا واردة الا أوردها ، فأخبرنا بما نجهله وفصل مجمل ما نعلمه • فهذا ما كان نهار قدومه وليلة مبيته ولكنهم فى اليوم الثانى نقلوه بعنف الى سجن آخر ، وضيقوا عليه الخناق تضييقا نادر النظير وادعوا ان قائد الحرس غلط ، فوضعه مع غيره ولم يمنع مخالطته ، فى حين أنه وضعه بأمرهم • ولكن الحقيقة ان الطاغية كان على اتصال تام بديوان عاليه ، فلا يفوته شىء من أخبار السجناء فما من كبيرة أو صغيرة تحدث فى السجون الا ويلقيها سلك الهاتف فى أذنيه •

ولعل مرد ذلك أنه حصر اهتمامه بقيادة جبهة عالية بعد فشله بانهزام الحملة المصرية التى تولى قيادتها وبعد افلاسه من أمانيه وأحلامه بتبوء أريكة عزيز مصر • وأضحى شغلة الشاغل محاربة القضية العربية، ومهاجمة المشتغلين بها العزل من كل سلاح سوى رسوخ الايمان وصلابة المبادىء • فغضب وزمجر لتخفيف تضييقهم على نجيب شقير ، وأمر

زبانية عالية تشفيا وانتقاما ان يضيقوا أقصى التضييق على من شق علينا فراقه بعد أن آنسنا بلقائه عشية وضحاها · فقد قلت عقب انتقاله لليافي باشا :

« فرحت بالأمس لك بمجاورة ذلك النابغة الجديد بمسامرة الأمراء والملوك ، والآن أسفت لفراقه ، فقد حرمنا نحن من لقائه ، وحرمت أنت من جواره » فأجابني بقوله : أما أنا فقد فرحت بانصرافه عني · فقلت له : ولماذا ، وما الذي لقيته منه ؟ فقال : يا ويحه مشتبك بعشرين قضية يا أخي ، ائتلافي ، اصلاحي ، لا مركزي ، مناهض الصهيونية ، ذو اتصال بالمنتدى الأدبي ، وبعزيز بك علي ، ومن جماعة أحمد عـزت باشا العابد ، وهلمجرا من القضايا السيئة المغبة التي قصها على البارحة» ·

***

ونجيب شقير من الأسر الوجيهة في جبل لبنان وهو على جـانب عظيم من الذكاء والأناة والتعقل وسعة الصدر ، ورحابة الوجه ، ورقة الشمائل ، وحسن العشرة ، وعذوبة الحديث ، وكرم اليد الحاتمية ، وهو ذو خبرة واسعة بالشئون الدولية الأوربية · وأوسع منها خبرته بشئون الدولة العثمانية وقد أصدر في الآستانة في عهد الحكومة الاتحادية جريدة « بيام » المعارضة · وقد عرفته وعرفني حينما وافى دمشق في عهـد الوزارة العثمانية الرشيدة التي كان رئيسها وصدر الأعظم المشير المختار أحمد باشا الغازي · وقد كانت أداة التعريف رابطة غشيان الاخـوان غرفة جريدة المقتبس ·

ويغلب على ظني أنه كان في سن الخمسين يوم سيق الى عاليه ، وقد انقذ بمنع المحاكمة ، فعاد الى مقره في الآستانة وعكف على شغله الخاص ولزم الحياد بالطبع ، وأم دمشق في عهد الحكومة العربية ، وأخيرا هبط مصر واتخذها دار اقامته ، وشرع يعالج القضية الوطنية مع رفاقه أعضاء اللجنة التنفيذية ، وكان من أقطاب الوفد الذي وفد على فخـامة المفوض السامي السابق مسيو هنري دي جوفنيل في الاسكندرية لعرض أمـاني البلاد حينما كانت الثورة الشامية حامية الوطيس ، وظل مثابرا على خطته المثلى حتى توفاه الله تعالى فجأة في مصر ·

وكان في عداد الرفاق الذين سبقونا الى سجون عاليه محيي الدين بك فريحه ، وهو من المغاربة وأسرته وجيهة في بلدتها الجزائرية ·

***

ومن أعجب العجائب انخراط هذا الرجل بين المعتقلين في سجـون عاليه على حساب السياسة ، اذ لايخفى أن الهدف الذى يرمى اليه مبتدعو تأليف هذه المحكمة هو مقاومة النهضة العربية بالقضاء على نوابغ العـرب سواء أكانوا منتظمين بسلك حزب علني أو جمعية سرية أو غير منتظمين، وسواء عثرت الحكومة على وثائق تتسلح بها وتتخذها وسيلة لاعتقالهم والبطش بهم أم لم تعثر ، بل تلجأ المحكمة الغاشمة الى طريقة ثانيــة لاعتقال من يريدون الفتك به ولا يجدون وثيقة مخطوطة عليه ٠ أما هذه الطريقة فهى ارهاق الناشئة المعتقلين بضروب الترويع والتعذيب ليكرهوهم على الافتراء وشهادة الزور على من لا يجدون سبيلا للحكم عليه الا بتلفيق شهادات المكرهين على تزويرها ٠

★★★

أما هذا الرفيق السيد فريحة فهو من الجماعات الذين ما عرفــوا السياسة ولا عرفتهم ، ولا عالجوها ولا عركتهم ، كما أنه لم يكن من علماء الاجتماع ، أو من الخطباء أو الكتاب أو الصحفيين ، أو من أرباب اللسان القئول ، أو المغرمين فى الدخول والفضــول ، أو من أصحاب الحركات والسكنات ، أو من المنتمين الى الاحزاب العلنية أو الجمعيات السرية ، أو من متقلدى أسمى الوظائف الخطيرات الكبيرات التى يحسـده عليهــا اتحاديو الأتراك ويعدونها عليه من أعظم الجنايات ، بل كان متقلدا رئاسة مائة جندى من أفراد الدرك « يوزباشي جندرمه » وهى من الوظـائف الصغيرات ٠

وهنا يتساءل القارىء الكريم : اذا كان هذا الرجل خاليا من جميع ما ذكر من الصفات والأقوال والأفعال فلماذا اعتقلوه وساقوه الى مجزرة نوابغ رجال العرب ، ولا دخان بدون عود وحطب ، ولا بد لكل حدث يحدث من سبب ٠

وقد ظهر لى وقتئذ ان السبب كون هذا الرفيق من اختـان أسرة الأمير عبد القادر التى ظل أغلب أفرادها يتقاضون رواتبهم من الخزينـة الفرنسية ، ولعله حينما كان يغشى دار الاعتماد الفرنسى لتقاضى راتب أهل بيته بدرت منه احدى المرات كلمة لسست بذات بال فسجلت ، وبنى عليها القصور والعلالى ، حتى جاء وقت الحساب ٠٠

ويحتمل ان الطاغية أوعز باعتقال هذا الرفيق الحيادى على سبيل المغالطة درءا لتهمة تشفى الحكومة الاتحادية من الأمير عمر ، وقد وجـد بين رفاقنا المعتقلين بعض أشخاص ليسوا بالعير ولا بالنفير ٠

★★★

ويغلب على ظني ــ وان كان بعد الظن اثم ــ انهم اعتقلوه ليتسقط منه قضاة محكمة عاليه أخبار الشهيد الأمير عمر ، وأخبار بقية أسرته كما هو دأبهم في تسقط الأخبار وتلفيقها باكراه الأذكياء على الافتراء بالارهاق واضلال الأغبياء بالمراوغة والمكر . ولا مانع من توفر الأسباب الثلاثة لاعتقال الرفيق الساذج السيد محيي الدين الذى أطلق سراحه مع رفاقه الذين أفرج عنهم بمنع المحاكمة وغرب مكرما الى الآستانة بحالة استثنائية لأن أعيان البلاد الشامية الذين كتب عليهم الجلاء الى بلاد الاناضول لم يكتب لهم أن يكون منفاهم الى مدينة القسطنطينية التى امتاز بها رفيقنا هذا الا من ندر .

فهذه نبذة وجيزة من سيرة رفاقنا السابقين الى سجون عاليه ، ما عدا الأخ توفيق الذى لم يكن يوم سوقنا الى عاليه فى سجونها ، بل كان سجينا في بعض المستشفيات لمعالجة رجله الجريحة برصاصة بندقية جندى من جنود الحرس . وهو الأستاذ توفيق الناطور أحد نوابغ شبان بيروت المتعلمين الراقين علما وفكرا ، ومن فتيان أحرار العرب الوطنيين المتفانين بقوميتهم العربية ، وهو من خريجى مدرسة الحقوق فى العاصمة العثمانية ومن مؤسسى جمعية الفتاة العربية السرية التى تشرفت بالاتصال بالمنقذ الأعظم صاحب الجلالة الهاشمية بواسطة نجله متبوىء عرشى القطرين الشقيقين جلالة الملك فيصل المعظم .

***

أما مصيبته برجله فلها سببان الأول باطنى والآخر ظاهرى لم يكن الأخ توفيق بك هدفه ــ كما أخبرنا الرفاق السابقون بعد أن سمح لهم بالاختلاط معنا ــ أما السبب الأول فهو منبعث عن قسر المحكمة المعتقلين على الايواء الى فرشهم وتناومهم وان لم يغشهم النعــــاس ، حينما يؤذن البــوق العســكرى بالاذن للجنود بالانصراف الى نومهم ، فكان السجناء يأوون الى فرشهم عقب مناداة البوق طوعا أو كرها . وبعد أن اتكأ الأخ توفيق ذات ليلة أخذ ينشد بيتا من الشعر بصوت خــافت ، فارغى وازبد الجندى القائم بالحراسة ، وطلب اليه بعنف ان يسكت وينام فأجابه صاحبنا بما معناه : « اكرهنا على ما هو بوسعنا من الاتكاء والتناوم وقــد اتكأت ولم أكلم أحدا بل أخاطب نفسى ببيت شعر أشكو به رزيتى » .

***

فلم يكن جواب الجندى الأعجمى المتنمر كالوحش الكاسر ســـوى تفريغ البندقية عليه التى أضرت برجله ــ وحسبنا اللــه ــ وأخطــأت قتله ــ والحمد لله ــ .

وخليق بالقارىء الكريم ان يأخذ العجب منه كل مأخذ بعد اطلاعه على هذه القصة ، لان مخالفة طفيفة كهذه لا تقتضي العقاب بتسديد البنادق وتعمد القتل ، ولكن اذا ظهر السبب بطل العجب وأعني به السبب الباطني الذي أخطأ في تنفيذه هذا الجندي البهيم ، لأن الأخ الناطور لم يكن الهدف ، لكنه كان بدلا عنه بالغلط .

***

. . لم يكن هدف زبانية عاليه الأستاذ الناطور ، بل كان هدفهم الشهيد سليم بك الجزائري ، ولكن الجندي الغبي أخطأ المرمى المقصود ، فكانت رصاصة بندقيته نصيب قدم الأخ توفيق الناطور دون جثمان الشهيد الجزائري .

أما الأخ الأستاذ الناطور فقد لطف الله تعالى به لأن مصيبة جلة استبدلت بالحكم عليه بالشنق الحكم عليه بالسجن عشر سنين (قلعة بند) . وقد جاء في كتاب الايضاحات السياسية ما نصه : يوسف سليمان المخيبر ، توفيق الناطور : هذان كانا في عادات متمادية بين الشبان العرب واسماهما مذكوران على التوالي وفي متن الكتاب أنه حكم عليهما بالأشغال الشاقة المؤقتة .

ذكرت أنهم وضعوني عند الرفيق أمين توفيق في غرفة باردة لسعتها وكثرة نوافذها المطلة على الطريق ولم يكن بها ما يدرأ صبارة البرد القارص من وسائل التدفئة لأن السجين لا يمكنه وضع مواقد الحطب كما أنه لا ينسى لسجين منذ ساعة سجنه تداركه ليلا كل ما يحتاج اليه كالفحم وكانونه وملقطه ، والبرد برد كانون والسجن في هضاب لبنان ، والاكراه على فتح مصراعي باب الغرفة ضغث على ابالة في منازل نزلناها لم ينشئها أربابها سجونا لأحرار العرب في الشتاء ، بل أنشئوها قصورا لاصطياف أهل الأقاليم الحارة في الصيف ، ولكن أرباب السلطات العسكرية وضعوا يدهم على هذه القصور الفخمة الشاهقة باسم (تكاليف حربية) واتخذوها سجونا للتنكيل والانتقام .

أخذتني الرعدة من البرد ، ولولا حرماني من النوم في الليلة المنصرمة في دائرة الشرطة ، ولولا تضعضع جثماني من حركات القطار وسكناته ، ودوراته ولفتاته ، وطلعاته ونزلاته ، لحال السهاد دون الرقاد الذي أوغلت به أول الليل ، ولكن أيقظني في نصفه الثاني أو ثلثه الأخير ما أشكوه من وجع معدتي وألم ضيق صدري وحرقة وانحباس نفسي بتأثير برد الغرفة ، فجلست مؤملا بجلستي تنفيس كربتي واذا بالجندي التركي

صاحب نوبة الحراسة ساعتئذ يشير الى بيده أن أضطجع ، فأزعجنى هذا المنظر الرهيب ، ولم أدر أفى يقظة أنا أم فى منام لغلبة النعاس ، فلم أعبأ باشارته التى أكدها بقوله الذى أزعجنى ونبهنى ، فأدركت وقتئذ أنى سجين ، وأن هذه الليلة أول منزلة من منازل عاليه • فأجبته بالقول والاشارة بأنى وجع • فما كان منه الا تسديد بندقيته على صدرى ، وما كان منى الا الخضوع لأمره المطاع وارادته القاهرة • فاستلقيت والتحفت مسجيا وجهى ، وأنا أقول بنفسى سيفعلها ورب الكعبة • فجنحت الى ترجيح أخف الضررين وهو الاضطجاع مع وجع الصدر والمعدة على الجمع بينه وبين ألم الجثمان بجرح رصاص البنادق ، ولا سيما اذا أصاب المقاتل •

فلا عجب والحال هذه اذ حذرت تهديد الجندى ، وخضعت لأمره ، وتناومت على مضض ، فكان فرط النعاس وشدة الألم فى جلاد مستمر ، فتارة تتغلب سنة النوم ، وتارة تتغلب يقظة الألم حتى أصبح الصباح ، اذ داويت نازلة البرد بالاستحمام فى حمام سجننا أحد قصور الاصطياف، ثم غشيت غرفة رفاقى الأربعة ، فقصصت عليهم نازلتى ، فأخبرونى أنهم ناموا بهدوء وسكون اذ لم يحدث عندهم ما حدث عندى ، ثم غشيت الغرفة الصغرى التى انفرد بها فريد باشا اليافى وأخبرته بقصتى • فقال لى : قد حاق بى ما هو أفظع اذ بينما كنت مغرقا بالنوم — وأنت تعلم أننا لم ننم ليلة الأمس فى دائرة الشرطة — سمعت كلاما لم أفهمه تمام الفهم لغلبة النعاس ، ففتحت عينى فرأيت اثنين فوق رأسى يلمسان جسدى بيديهما ، فخيل الى من غلبة النوم أننى دفين القبر حديثا وأن هذين الجنديين المدججين بالسلاح هما الملكان منكر ونكير المنوط بهما سؤال العبد فى قبره ساعة لحده •• فقلت لهما :

— ما شأنكما وماذا تريدان منى ؟

فلم يردا على بكلمة خير أو شر ، بل قال أحدهما للآخر :

— تسلمه فقد اسلمتك اياه ••

ثم شرع الجندى الجديد الذى نيطت به حراستى يؤنبنى بقوله : كيف تغلق الباب يا هذا ، وتطفىء نور المصباح الضئيل ؟ أتظن أنك حر فى دارك ؟ ألم تعلم أنك سجين فى سجن الديوان العرفى ؟ فحينئذ تم تيقظى ، وادركت أنى سجين فى سجون عاليه ، واعتذرت له بأننى حديث عهد ابن هذه الليلة هنا ، ولا علم لى بهذا التعامل • فقال : اياك بعد الآن ان تعود الى مثلها أبدا •

فأجبته بقولى : سمعا وطاعة •

ثم اغرورقت عينا ـ فريد باشا اليافي ـ وهو يقول : ما هذا البلاء العظيم ؟ وما هذه المصيبة العظمى ؟ برد كانون ولبنان ، والبعد عن السكن وفراق السكان • وشدة الغلاء هنا مع ضيق ذات اليد ولا سيما في هذا الوقت العصيب الذي تهددنا فيه المجاعة • ونحن معتقلون في ديوان عرفي لا كبقية الدواوين العرفية ، بل هو ديوان محكمة جمال باشا وما الذي يرمي اليه دولة الباشا • وحسبنا بعد هذا كله جهلنا سواء المصير ، فما قولك يا أخي ؟

وقد أجبته بقولي : اسـأله تعالى أن يجيرنا مما هو أعظم ، فقد كنا في دائرة الشرطة أنعم حالا منا ونحن هنا ، والآن لا نزال أحسن حالا منا هنا فيما اذا قضى علينا ـ لا سمح الله تعالى ـ بالسجن في أحـد سجون الأناضوليين الشرقي أو الغربي وأنا أرجح القتل شنقا على السجن في تلك الانحاء المترامية الاطراف » •

★★★

أما عن تنفيذ حكم الاعدام في الوجبة الأولى فلقد أجمع الرواة على أن خبرا انطلق من عاليه ـ في لبنان ـ ان عددا من المسجونين بأوامر من الديوان العرفي سوف يعدمون ، ومن عاليه انتقل الخبر الى بيروت ثم الى أنحاء البلاد كلها • وفي اليوم العشرين من أغسطس أخرج من سجن عاليه أحد عشر شخصا كان قد اتهمهم الديوان العرفي بارتكاب الجرائم المضرة بسلامة الدولة التركية ، وقد اركبوهم عربات اقلتهم الى بيروت تحت حراسة مشددة ، وكان ذلك في المساء • وقبل انتصاف الليل مرت السيارة في شوارع بيروت متجنبة ساحة البرج متجهة الى دائرة البوليس على جسر بيروت ، وبدأ العاملون بحفر الأرض لتركيب أعواد المشانـق بينما كانت كتائب الجند بالسلاح الكامل تأخذ أماكنها في كل الطرق المؤدية الى ساحة البرج ولمنع الأهالي من المرور فيها حتى الصباح وفي دائرة البوليس أبلغ المتهمون بأحكام الاعدام وأوقفوا في غرفـة واحدة طوقها البوليس من الخارج ، وكان المتهمون الذين أبلغوا بأحكام الاعدام هم :

عبد الكريم الخليل ، صالح حيدر ، محمد محمصاني ، عبد القادر خرسا ، نور الدين القاضي ، على الارمنازي ، ، سليم الأحمد ، عبد الهادي محمود العجم ، نايف تللو ، ومسلم عابدين •

وتقدم عبد الكريم الخليل من قوميسير البوليس الواقف أمامـه وقال له :

ـ ألا يحضر الوالى اعدامنا ؟

ـ كلا فيما أظن ٠

ـ ومن يحضر اذن ؟

ـ رضا باشا ومدير البوليس محيى الدين ٠

ـ أتريد أن تدعو لى مدير البوليس ؟

ـ بطيبة خاطر ٠

وذهب القوميسير الى مدير البوليس وقال له :

ـ ان عبد الكريم الخليل يود ان يقابلك قبل ان يموت ٠ فهل تريد أن تلبى طلبه ؟

فأسرع محيى الدين مقبلا نحو عبد الكريم ٠ وكان عبد الكريم أثناء وجوده فى الآستانة أنقذ محيى الدين من السجن مرتين ٠ فلما تقابلا قال له عبد الكريم بصوت ملؤه الشهامة :

ـ اتذكر يا محيى الدين أننى أنقذتك من السجن مرتين ؟

ـ أذكر ذلك جيدا غير أننى عاجز الآن عن مكافاتــك على حسن صنيعك فقد حكم عليك من يد هى فوق يدى ٠

ـ أنا لا أطلب منك الآن أن تنقذنى لأنى أعرف الحد الذى يبلغ اليه عرفان الجميل عند أمثالكم ٠ وانى لواثق انك لو كلفت أن تضع بيدك حبل المشنقة فى عنقى لما تأخرت ولفاخرت اقرانك بعملك هذا ٠

فاضطرب محيى الدين وقال :

ـ والآن ماذا تطلب يا عبد الكريم ؟

ـ أطلب مواجهة الوالى ٠

ـ يستحيل علينا ذلك ٠

ـ أتمنعون عن محكوم بالاعدام رغبة يرجوها قبل موته ؟

ـ قل ما تريد أن يعرفه الوالى وأنا أبلغه كلامك حرفا بحرف ٠

ـ لا أريد الا مقابلته وجها لوجه ٠ فان كان لا يجسر ان يقــابلنى فلا بأس ، غير أنى أطلب اليك أن تمنع كل تركى من الدخول على وهذه هى ارادتى الأخيرة ٠

قال ذلك وعاد الى غرفته وأخذ يتمشى فيها بسرعة وهو واضع يديه بجيوبه ·

***

ومنع مدير البوليس كل المأمورين الأتراك من الدخول الى غرفة عبد الكريم في تلك الساعة الرهيبة التي سبقت الاعدام ·

وكان المحكومون يسمعون في تلك الليلة من حين الى آخر وقع حوافر الخيل وصلصلة السلاح وأوامر الضباط لفرقهم أن يذهبوا الى هنا وهناك ·

وجاء الى غرفة المحكومين نفر من البوليس يحمل حبرا وأقلاما وورقا وقالوا لهم :

ــ اكتبوا وصاياكم اذا شئتم ·

وخرجوا بعد أن تركوا لهم الأدوات على طاولة كبيرة موضوعة في تلك الغرفة ·

فجلس شهداء العرب يخطون على الورق آخر ما تمليه عليهم قلوبهم وعواطفهم قبل ساعة الاعدام ·

كتب كل منهم وصيته وتركها وديعة في يد دائرة البوليس لتسلمها الى عائلته ·

وأعلنت الساعة الرهيبة فصدرت الأوامر الى الجنود بالوقوف شاكي سلاحهم ، ونادى منادي الموت في المحكومين فوقفوا يتأهبون له ، وفتح باب الغرفة وتقدم رجال البوليس بسلاحهم يخرجون المحكومين اثنين اثنين ويذهبون بهم بين صفوف الجنود المتراصة المسلحة الى ساحة الاعدام ·

***

وكانت تلك الساحة خالية في ذاك الوقت ، وقد طوقت من كل جهاتها بصفوف المشاة والخيالة ، وكان في صدرها رضا باشا قائد فرقة عاليه ومحيي الدين مدير بوليس بيروت وأعضاء الديوان العرفي وكان أول من صعد الى منصة الاعدام عبد الكريم الخليل وكانت الساعة تقرب من الرابعة صباحا · فوقف ذاك الشهيد الثبت الجنان ونادى بصوته الجهوري قائلا :

ـ قوانين العالم كلها تجيز للمحكوم عليه بالاعدام أن يقول ارادته الأخيرة قبل موته . فهل يجيز لى قانونكم أيها الباشا « رضا باشا » ان أتكلم قبل أن يوضع الحبل فى عنقى ؟

فوقف رضا باشا قليلا لا يعطى جوابا ثم رفع رأسه وقال للشهيد :

ـ تكلم . لا بأس .

قال عبد الكريم :

ـ يا أبناء أمتى وأهل بلادى . يريد الأتراك أن يخنقوا أصوات حريتنا فى صدورنا . يريدون أن يمنعونا عن الكلام . ولكننا سنتكلم . سنعلن للملأ أننا أمة تريد الاستقلال . اننا أمة تسعى الى الخلاص من نير الأتراك .

« أنت يا أرض الوطن احفظى تذكارنا وأنت يا سماء بلادى احملى الى كل سورى بل بل الى كل عربى سلام هؤلاء الشهداء ورددى عليهم مأساتنا وكلامنا . قولى لهم أننا عشنا لأجل الاستقلال وها نحن نموت فى سبيل الاستقلال » .

وتقطع هنا صوت ذلك الشهيد لأن الكرسى كانت قد هوت من تحت أقدامه . فاختلج قليلا ثم مات .

واقتيد الاخوان محمد ومحمود محمصانى الى المشنقة فاعتنقا هنالك طويلا وأخذ كل منهما يشجع الآخر على الموت ، وصعدا معا الى منصة الاعدام بقدم ثابتة ووجه بسام . وكانت عين الواحد منطبعة فى عين شقيقه .

والتفت محمد الى المأمور الموكل بتنفيذ الاعدام وقال له :

ـ « لى رجاء اليك قبل موتى وهو أن تتكرم وتنفذ الاعدام بى وبأخى فى وقت واحد حتى لا يتعذب الواحد منا بمرأى أخيه يموت أمامه » .

ولما وقف محمد أمام المشنقة صاح بالجمع الذى كان هناك قائلا :

« يشهد الله أنى لم أخن وطنى دقيقة واحدة ، يشهد الله أن ما فعلته وقمت به من الحركات التى اتهمت بها انما كان عن اعتقاد ثابت لا يتزعزع بأنى أخدم بلادى وأنجيها . انى أموت شهيدا ، فلتحيا أمتى وليحيا العرب . . !! » .

ورفست الطاولتان بحركة واحدة من تحت أقدام الأخوين ، فقضيا •

★★★

وجيىء بالمرحومين عبد القادر الخرسا ونور الدين القـاضي فوقف نور الدين على منصة المشنقة وقال :

ـ « اني بريء يا ناس مما اتهمت به واني أرجوكم أن تبلغوا أخي سلامي • وقولوا له أن لا يتأثر ولا يبكي علي لأني مت ميتة الأبطال ، لم أسود لاسمي صحيفة لا في الحياة ولا في الممات » •

وهوى الكرسي من تحته فقضى مثل رفاقه •

ولما وصل عبد القادر الخرسا الى المنصة قال :

« ـ حكم علينا بالاعدام لمجرد الرغبة في أعدامنا فقط • وليس الديوان العرفي الذي حكم علينا بل جمال باشا الذي طلب اعدامنـا • سلموا يا اخوان على عائلتي وقولوا لاخوتي أن يقبلوا عني يدي والدتي الحنون • قولوا لهم ليترحموا على • الوداع •• ! •• وهوى فقضى ••

وعند الساعة الرابعة من الصباح كان كل شيء قد انتهى وكانت أرواح أحد عشر شهيدا من أبناء هذه البلاد صعدت تلاقي ربها •

وبعد ذلك جيء باحدى عشر عجلة فانزلت جثث الشهداء عن أعواد المشانق ووضع كل واحد منهم في عربة وجلس عن جانبيه نفـران من البوليس وأخذ الجميع الى الرمل حيث حفروا لكل منهم حفـــرة وواروه فيها •

أما الاخوان محمد ومحمود محمصاني فقد وضعا معا في حفرة واحدة•

وأبقت تلك الحكومة البائدة فرقة من رجال البوليس والجندرمـة حيال قبور أولئك الشهداء حذرا من سرقة أجسامهم •

غير أن عائلة حيدر رشت البوليس المحافظ على حفرة فقيدها صالح ، وأخذت جثته بعد دفنه بيوم واحد •

★★★

وفي أوائل شهر مارس سنة ١٩١٦ اضطربت البلاد العربية مرة ثانية لما شاع أنه سيصار الى أعدام قافلة ثانية من الشهداء قريبا ••

وفي اليوم الخامس من ذلك الشهر اقتيد الى دمشق عبد الحميد الزهراوي ، وشفيق المؤيد والأمير عمر الجزائري ، وشكري العسلي ، وعبد الوهاب الانكليزي ، ورشدي الشمعة ، ورفيق رزق سلوم .

وقد تحدث شاهد عيان عن اعدامهم فقال :

« كانت ابنة المرحوم رشدي بك الشمعة مصابة بالحمى المعوية قبيل صدور الحكم على والدها ، فأمر جمال باشا بابعادها مع بقية أفراد العائلة قبيل التنفيذ بنحو اسبوع ولكن الطبيب استرحم وأظهر ما في هذا الأمر من الخطر على حياتها ، الا أن أحمد جمال باشا أصر على رأيه وأصدر الأمر بنفي أسرة شكري بك الشمعة مهما يكن مرض كريمته خطرا ، فحملت على ظهور الرجال ، وسيقت هي ووالدتها واخوتها الى محطة البرامكة ومنها الى محطة رياق حيث أطل أخوها الصغير من الشباك عرضا ، فرأى أباه في قطار بيروت آتيا من عاليه ليشنق في دمشق مع من سيشنق في ذلك اليوم ، فصرخ الولد صراخ الفطيم عندما رأى مرضعه الحنون وصار ينادي « أبي أبي .. ! » ومدت مريضتنا رأسها من الشباك لتتحقق هذا الحلم بنفسها فرأت والدها يبتسم في وجه ولده ابتسام المحروق على تقبيله ، فصاحت من شدة الانفعال وارادت أن تودعه الوداع الأخير ونطلب رضساه ، ولكن الجندرمة الموكول اليهم حماية « الصغار » في هذا « الجهاد المقدس » لكموها على وجهها فسقطت على المقعد أمام عيني أبيها الذي ظل مبتسما ابتسامة الاحتقار ، وما أمسى المساء حتى فارقت الحياة قبيل وصولها الى حماه وهي تشير بيديها وفمها من غير وعي كأنها تقبل الأيدي التي طالما حملتها في صغرها .

وقد عرف المشنوقون صدور الأمر عليهم بالاعدام قبل التبليغ بأربعة أيام ، وكان وداع الشاب الضابط جلال البخاري لوالده الشيخ المسن الأستاذ سليم البخاري الذي كان مسجونا مثله يفطر القلوب . وقد شجع الشاب أباه تشجيعا مؤثرا ، فقال له « يا أبت لا تخف ولا تجزع ، ان لي أخوة يعزونك عن فقدي ، واذا مت فان أمتي ما ماتت ولن تموت ، والذي أرجوه لك وحرمت نفسي منه أن يطيل الله عمرك حتى ترى بعينيك مصرع الباغين وعاقبة أهل الظلم والفساد ... » .

فسقط الوالد المسكين فاقدا صوابه ..

***

« ونقل الذين شنقوا في بيروت بالسيارات من عاليه الى بيروت ، وكان منظرهم يفتت الاكباد . وظلوا ينشدون الأناشيد الحماسية طوال

طريقهم ويترنمون بالاهازيج القومية كمن شعر بقيامه بواجبه وعرف أن دمه سيكون سببا لتسديد عرى الرابطة القومية وتحرير البلاد من الأشرار ·

أما الذين شنقوا فى دمشق فقد سيقوا اليها فى قطار الركاب الاعتيادى الذى يسافر بين بيروت والشام مرتين ، ولما وصل القطار الى محطة الزبدانى نزل منه المرحوم الأمير عمر الجزائرى والمرحوم عبد الوهاب المليجى « الانكليزى » لاراحة الجسم من عناء الجلوس والتمتع بآخر نظرة من ربى « بلودان » فرآهما فى المحطة صديق لهما وقال « خير انشاء الله » فأجابه عبد الوهاب بك بأن وضع يده على عنقه ، وضعها كمن يخنق شيئا ، اشارة الى المشنقة التى ستنصب لهما ولرفاقهما الليلة ·

وقد وصل المحكوم عليهم الى دمشق فى مساء ذلك اليوم وانزلوا فى الثكنة العسكرية فى البرامكة ، وفى منتصف الليل سيقوا الى ساحة المرجة حيث أعدت لهم السدد حول العمود التذكارى الحميدى ، وأتى جمال باشا الى نزل أمريكا المطل على تلك البقعة ليمتع نظره بمشانق علماء سورية وأفاضلها ويشفى غلته من الأمة العربية ·

« تقدموا كلهم الى المشانق برباطة جأش نادرة المثال ، وكان فى مقدمتهم شفيق بك المؤيد ، وهو أكبرهم سنا ، فألقى خطبة بليغة مختصرة بين فيها الغاية الشريفة التى كان يسعى الى تحقيقها رجال العرب والاصلاح الأساسى الذى كانوا ينشدونه للبلاد العثمانية ، ثم طلب ان يكون الختام الفاتحة الشريفة » ·

وسمع رشدى بك العسلى يقول على سدة المشنقة ــ وهو آخر كلام نطق به ــ « ولا تحسبن الله بغافل عما يعمل الظالمون » ·

ولما أزيح الكرسى من تحت أقدام المرحوم السيد الزهراوى لم يحمله الحبل فانقطع به فرفع ثانية وشد من رجليه شدا قويا حتى مات ··

★★★

وروى شاهد عيان آخر كيف صار أعدام شهداء دمشق فقال :

« لما وصل قطار الشام الى البرامكة منع الجند جميع الناس من الوقوف هناك ثم أوصلوا المحكوم عليهم الى دائرة الشرطة واحضروا الشيخ « ح· ن » ليؤهبهم للموت ويشجعهم ويعزيهم ، ففهم المرحوم عبد الوهاب أفندى الغرض من مجيىء الشيخ ، فاستدناه منه وقال :

ـ بعثوا بك لتؤهبنا للموت ؟ اذهب لا أم لك ، فلا حاجة لنا بك .

ورفسه برجله فافترش الأرض على بعد مترين .

وفى الساعة السابعة من صباح ٦ مارس أنيرت ساحة الاعـــدام بالكمرات الكهربائية ، وأمروا السـيد شماس صـاحب زهرة دمشق أن يشعل كمرات القهوة التى تعطى نورها على الساحة حتى أصبحت شعلة نور ، ثم أحضر المحكوم عليهم فى ثياب الاعدام البيضاء . وعلى صدورهم خلاصة الحكم ، وبدىء التنفيذ بشفيق بك المؤيد ، فطلب أن يمهلـوه ريثما يتلوا الفاتحة فأمهلوه ولما جاء عبد الحميد الزهراوى قال : لينتقم الله من الظالم للمظلوم .

وأخذوا الأمير عمر فقال : ان مقتل ابن الأمير يعود على الدولـــة بالوبال .

وقدموا شكرى العسلى فقال : ان الله بالمرصاد سينتقم من الكفرة الظالمين .

وأمسكوا عبد الوهاب الانكليزى فلعن الاتحاديين وسبهم وقال : ان الله فى موقف العدل . ولما جاء دور رفيق سلوم قال : « يالكم من قوم ظلام » وانتهوا الى رشدى الشمعة فقال : الله ينتقم لنا ..

هكذا أنزل الموت بهؤلاء السبعة الرجال معلقين بين الأرض والسماء فلبست الشام ثوب الحداد وعم الحزن كل البلاد فما ترى اينما توجهت الا قلوبا خاشعة وعيونا دامعة ، وبث الأتراك الأرصاد بين الناس فوقع الرعب فى القلوب .

وفى ذلك اليوم المشئوم انطلق جمال الى الغيارة فى غوطة دمشق موعزا الى الحكومة أن ترسل اليه باقة زهر بعد تنفيذ حكم الموت بالشهداء ففعلت .

وفى اليوم الذى اقتيد فيه شهداء سورية الى دمشـــق ، أنزل الى بيروت كل من :

عمر بن مصطفى حمد ، محمد حسين الشنطى ، عبد الغنى العريسى ، عارف الشهابى ، توفيق البساط ، سيف الدين الخطيب ، الشيخ أحمد طباره ، سعيد عقل ، باترو باولى ، جورج موسى الحداد ، سليم محمد ، سعيد الجزائرى ، على حاجى عمر ، أمين لطفى بن محمد الحافظ ، جلال ابن سليم البخارى .

وقبل أن يصلوا الى بيروت كان البوليس قد أنذر الأهالى الجالسين فى المحلات العمومية ان يغادروها وأوجب على أصحابها اقفالها • وعند انتصاف الليل ـ ٦ مارس ـ تفرقت فرق الجنود فى كل النقاط الموصلة الى ساحة البرج ، ولم يعد يسمع فى ذلك الليل الهائل غير وقع المعاول فى الأرض ، لتركيز أعواد المشانق •

وبعد قليل سمعت طقطقة العربات التى كانت تقل الشهداء الى دوائر البوليس حيث بلغوا حكم الاعدام •

وأتوهم بأدوات الكتابة ولوازمها ووضعوها على طاولة واسعة فى احدى غرف الدائرة حيث جمعوهم كلهم وقالوا لهم أن يكتبوا وصاياهم •

جلس البعض من أولئك الشهداء يكتبون بينما كان آخرون يتمشون فى تلك الغرفة وهم يشتمون •• !!

وصاح أمين لطفى بمأمورى البوليس قائلا :

ـ أين هى هيئة الديوان العرفى ؟ كيف نبلغ حكم اعدامنا بدون أن يحاكمونا أو يسمعوا أقوالنا ؟ ماذا جنينا يا ناس ؟ أهذا هو جزاء خدمتنا للدولة ؟

وكان سليم بك الجزائرى يقول :

ـ أهكذا تحكم الدولة بالاعدام على من خدمها العمر كله ، ولبس ثوبها العسكرى الذى هو شرفها ؟ أهكذا يعاملون الضباط وأركان الحرب ؟

ولما انتهى الشهداء من كتابة وصاياهم جاء بعض رجال البوليس وأخذوها منهم • ثم سألهم أحد القوميسيرية ماذا يريدون قبل أن يعدموا فطلبوا شيخا وكاهنا •

وأتوهم بشيخ وكاهن • ولما وصل الشيخ الى عبد الغنى العريسى قال له :

« ـ استشهد يا عبد الغنى » •

فوقف وقال بصوت عال :

« أشهد ان لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأشهد أن الخلافة للعرب ان شاء الله » •

وتقدم كل من المرحومين سعيد عقل وباترو باولى وجورج الحداد وركعوا أمام الكاهن واعترفوا له بكل رباطة جأش •

★★★

وبعد ما انتهوا كلهم من اتمام واجباتهم الدينية جاءهم البوليس وأنزل قسما منهم الى الدائرة ، وقبل ان يفترقوا ذلك الفراق الأبدي التفت أمين لطفي الى رجال البوليس والى الجنود الواقفين أمامهم وقال :

ـ أنتم يا أبناء هذه البلاد التعسة ربوا أولادكم على بيع الخضر وصنع الفول والحمص وأياكم ان تدخلوهم في خدمة الدولة العثمانية انسحبوا أنتم من وظائفكم واشتغلوا بمسح الأحذية والعتالة وباقي الحرف فذلك أفضل لكم وأضمن لحياتكم من أن يصيبكم ما أصابنا نحن الآن ٠

« كنا نخدم الدولة بأرواحنا وأجسامنا وعقولنا ٠ فاذا هي تأتي بنا من بين الخنادق والقنابل حيث كنا نحارب للدفاع عنها وتضع الحبل في أعناقنا للأعدام ٠ لعنات الله عليها وبئس الجزاء جزاء خدمتها » ٠

وبعد ذلك أحضر البوليس القمصان البيضاء التي كانوا أعدوها للشهداء وأعطوا كلا منهم قميصا ٠

وجمع عمر حمد رفاقه وأخذوا يرددون بصوت عال وبنغم واحد وهم يتمشون في الغرفة :

نحن أبناء العلى شادوا مجدا وعلا

وعند الساعة الثالثة بعد أنتصاف ذلك الليل الرهيب أستعد الجنود ورجال البوليس لتنفيذ الحكم ودخل نفر من البوليس الى غرفة الشهداء فنادى ثلاثة منهم : سعيد عقل وباترو باولي وجرجي الحداد ٠ فلما سمع الشهداء صوت البوليس علا ضجيجهم وأخذوا ينادون بأعلى الصوت :

« خذونا كلنا معا الى المشنقة ٠ ما أحلى الموت في سبيل الوطن ، ما أعذب المشنقة في سبيل الوطن ، ما أعذب المشنقة في سبيل الاستقلال والحرية » ٠

***

أخذ الجنود الثلاثة مكبلين بالقيود الى ساحة الاعدام وكان الظلام دامسا والسكينة المخيفة تغمر بيروت وخصوصا تلك الساحة التي لم يكن يسمع فيها الا صدى أصوات الشهداء الذين كانوا يرددون نشيدهم « نحن أبناء العلى شادوا مجدا وعلا » أو صهيل جواد جندي ، أو طقطقة سيف ضابط على بلاط الشارع ٠

تقدم الثلاثة الى الصف الأول من صفوف المشانق التي كانت منصوبة في الجهة الغربية من ساحة البرج ففحص الطبيب أجسامهم (لأن القانون

لا يجيز اعدام المريض) وكان ضابط من ضباط الديوان العرفي يتلو نص الحكم بالاعدام ٠

وغضب بترو باولي وصرخ بمن كان حاضرا من المأمـــورين قائلا : « عجلوا بتنفيذ حكمكم وخلصونا من وجوهكم القبيحة ٠ كان الأولى بكم بدلا من أن تفحصوا أجسامنا بدقة أن تحاكمونا بعدل ، تأكدوا أننا لا نخاف الموت ولا نهاب المشنقة ٠ خلصونا ٠٠٠ !! عجلوا ٠٠٠ !! » ٠

★★★

وصعد من نفيسه الى منصة المشنقة ورفس الكرسي برجله فهـوى وقضى ٠

وجاء دور جرجي الحداد ، فصعد الى المشنقة بجرأة ورفس الكرسي فقضى دون أن ينبس ببنت شفة ٠ ولما وقف سعيد عقل على منصة المشنقة التفت الى الواقفين حوله قائلا :

ـ غفر الله لمن ظلمني ٠ واني اسأل ربي أن يكون دمي الذى يراق الآن لآخر نقطـة منه ، سببا فى المستقبل لحيـاة بلادي وشرفا لعـائلتى وأولادي ٠

ثم التفت الى الطبيب الواقف أمامه وقال له :

ـ « وجائي اليك وأنت من أهل بلادي أن تهوى بكل قوتك على حال تعليقي لأن خفة جسمي تمنع انقطاع حبل حياتى بسرعة » ٠

★★★

وبعد بضعة أيام اجتمع ذاك الطبيب بأحد معارفه فقال له والتأثير باد فى عينيه :

ـ « لم تدمع عيني أمام المشانق الا عند سماع كلام المرحوم سعيد عقل ٠ واني لأستشهد الله وأنبياءه على براءته وطهارة ضميره ٠ فرحمات الله عليه وعلى جميع رفقائه الشهداء » ٠

وأتى الجنود بعد ذلك بعمر وعبد الغنى العريسى والأمير عـــارف الشهابى ٠ وكان البوليس قد أخرج أولا من الـدائرة عبد الغنى وعمـــر حمد فقط ٠

فالتفت اليه عبد الغنى قائلا :

ـ « اذهب الى رئيسك وقل له ان عبد الغنى يطلب أن يعدم مع رفيقه الأمير عارف • اننى عشت معه ولست أحب أن افترق عنه فى الممات » •

فذهب البوليس ثم عاد فقال لعبد الغنى :

ـ « لا بأس • فسيذهب الأمير معك » •

ولما وقف عمر حمد على منصة المشنقة خاطب رضا باشا ومدير البوليس باللغة الفرنسية بما تعريبه :

ـ « انى أخاطبكما باللغة الفرنسية لانكما لا تفهمان العربية • بلغوا حكومتكما التركية الظالمة أن العمل الذى يعمله رجالها الآن سيكون سببا لخرابها وتقويض أساساتها » •

ثم التفت الى بقية الحاضرين وقال بالعربية :

ـ « انى أموت غير خائف ولا وجل • أموت فداء الأمة العربية • خسفت يا هلال وشلت يمينك يا جمال • فليسقط الخونة وليحيا العرب •• ! » •

★★★

ولما وصل الشهيد الى كلمة ، « فليسقط الخونة » غضب منه الموكل بأمر تنفيذ الاعدام ، فضرب الكرسى من تحته قبل أن يتمكن الحبل من عنقه ، فهوى الى الأرض وهو بين حى وميت ، فما كان من هذا الموظف الا أن وخزه بسيفه شاتما لاعنا ووضع الحبل فى عنقه رغما من سيلان الدم بغزارة من جرح بليغ كان قد أصابه فى رأسه من جراء سقطته •

★★★

والتفت عبد الغنى عند هذا الحادث الفظيع الى الواقفين من مأمورى الحكومة وقال لهم :

ـ « عار عليكم أن تعذبوا المحكوم عليه بالاعدام الى هذه الدرجة • ان الانسانية ستنتقم منكم على هذه الأعمال » •

وجاء دور عبد الغنى العريسى فوقف على منصة المشنقة وحاول البوليس ان يسرع فى وضع الجبلة فى عنقه ليعدمه فالتفت اليه عبد الغنى وقال له باشمئزاز :

ـ دعنا نتكلم يا هذا واحترم ارادة رجل يموت •

وكأن قلب ذلك الرجل قد من صخر فأجابه هازئا : « ولماذا الكلام ؟ ومن يسمعك ويعتبر كلامك الآن يا عبد الغني ؟ » وأراد أن يضع الحبل بسرعة في عنق الشهيد فنفر منه والتفت الى الناس وقال بصوت جهوري :

ـ « بلغوا جمال باشا ان الملتقى قريب • ان الدول تبنى على غير الجماجم وان جماجمنا ستكون أساسا لاستقلال بلادنا » • وكانت الكرسي قد هوت من تحته فتغلغل صوته في صدره وقضى •

وعجل البوليس باعدام الأمير عارف الشهابي قبل ان يتمكن من أن ينطق بكلمة واحدة •

★★★

ونفذ الحكم بعد ذلك بالشيخ أحمد طباره ومحمد الشنطي ، وحان دور توفيق البساط فوصل الى أمام الساحة وكان الفجـــر بدأ يكشف بأنواره سواد الليل المشئوم فرفع نظره نحو السماء ورأى على أعـــواد المشنقة أحد عشر شهيدا من نخبة أبناء الوطن كانوا من ساعة يكلمونه ، واذا هم الآن جثث لا حراك بها ولا حياة • شاهد المنظر المرعب المؤثر فتجسمت فيه روح الشجاعة والبطولة فصاح بصوت جهوري مخاطبا تلك الأرواح العزيزة وتلك الآلة التي اعدمتهم :

ـ « مرحبا يا أرجوحة الشرف •• مرحبا يا أرجوحة الأبطال •• ! مرحبا بالعمد التي تستند اليها الشعوب في استقلالها •• ! مرحبا بالموت في سبيل الوطن الحر •• ! » •

وكان أثناء كلامه هذا يمشي الى المشنقة بسرعة الطير • وما انجز كلمته الأخيرة حتى كان قد اعتلى منصة المشنقة فوضع بيده الحبل بعنقه وبسرعة البرق رفس الكرسي من تحته وقضى شهيدا مثل رفاقه •

وعندئذ التفت رضا باشا الى البوليس وقال له :

ـ « الضابطان سليم الجزائري وأمين لطفي » •

وكان المذكوران من كبار ضباط الجيش العثماني ومن أركان حربه •

فنهض اذ ذاك رضـــا باشا مسرعا الى دائرة البـــوليس حيث قابل الشهيدين ودامت المقابلة نصف ساعة •

★★★

وكان أمين لطفي يقول لرضا باشا :

ـ « ليقل لنا الديوان العرفي على الأقل كيف حكم علينا بالاعدام . كيف أنهم لم يستنطقونا ولماذا لم يسمعوا كلامنا ؟ هذا هو جزاء خدمتنا للدولة ؟ .. » .

فقال لهما رضا باشا : « سأخابر الآن القيادة العليا بشأن العفو عنكما » وجلس حالا الى التليفون وطلب مخابرة جمال باشا فأجيب أنه متغيب وان فخري باشا وحده في القيادة . فطلب مخابرته . وطالت بينهما المخابرة بدون جدوى لان الجواب كان يرن دائما من بوق التليفون بهذه الكلمة : « اولماز » « غير ممكن » .

فالتفت اذ ذاك رضا باشا الى الضابطين وهو كئيب وقال لهما :

ـ « ما بيدي حيلة . فان شئتما تفضلا الى التليفون وخابرا أنتما فخري باشا » .

فتقدم سليم الجزائري وأخذ بوق التليفون وكلم فخري باشا بلهجة الشجاعة والبطولة . غير أن هذا كان يجاوب دائما : « أولماز » . أخيرا رمى الجزائري بوق التليفون على الأرض وكسره شاتما الدولة ورجالها الظلام .

★★★

ومشى الضابطان معا « الجزائري ولطفي » بثيابهما العسكرية فوصلا الى أمام المشانق وكان قد مضى على اعدام الاثنى عشر شهيدا أكثر من ساعة . وصلا الى هناك وأنوار النهار انبسطت على بيروت الحزينة .

وقد أراد البوليس أن ينزع قبعة الشهيدين عن رأسهما والشارات العسكرية عن اكتافهما فرفضا . وأمر رضا باشا البوليس ان يتركهما على حالهما .

فصعد الجزائري أولا الى منصة المشنقة ونظر الى الحاضرين قائلا لرضا باشا :

« قل لهذا الخنزير الكلب جمال باشا أن لا يفرح بموتي فان روحي ستظل حية وستعلم أبناء البلاد من وراء القبر درس الوطنية الحرة » .

وجاء البوليس ليضع الحبل في عنقه محاولا أن ينزع نظارتيه عن عينيه فمانع الشهيد قائلا له بنبرة الأمر : « اعدمني على حالي كما عشت

لأني لا أريد أن أموت وفي شيء ناقص » وهكذا قضى ذاك البطل .
وأعدموا بعده رفيقه أمين لطفي الذي صعد الى منطقة المشنقة بوجه ضحوك
مرددا النكات الهزلية .

***

وعند الصباح نقلت جثث لأربعة عشر شهيدا الى الرمل قرب
أخوانهم الذين أعدموا قبلهم .

وقد روى أن العديد من الشهداء ترنموا بأبيات من الشعر بعد أن
تأكد لهم أنهم سيعدمون لا محالة قال الشيخ فيليب الخازن :

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن اذا متنا أشد تغانينا

وقال سيف الدين الخطيب :

لا مرحبا بغد ولا أهلا به ان كان تفريق الأحبة في غد

وقال عمر حمد وقد رأى في شعره شيبا وهو ما يزال فتى :

من لم يقم بالحق قبل مشيبه وضمور جمرته فليس بقائم

وقال سليم الجزائري :

ولي عزم كحد السيف ماض ولكن الليالي من خصومي

وقال رفيق رزق سلوم يوقظ رفيقه من نومه :

لا تنم واغتنم سحابة عيش ان تحت التراب نوما طويلا

وقال باترو باولي :

تقضى زمان لعبنا به وهذا زمان بنا يلعب

وقال أيضا :

يفرح هذا الورى بعيدهم ونحن أعيادنا مآتمنا

وقال أمين بك لطفي :

ولي أمل قطعت به الليالي أراني قد فنيت به ودام

وقال محمد الشنطى :

ومن حكم المولى التى تبهر النهى طبيب يداوى الناس وهو عليل

وقال جلال البخارى :

اما فى أهلها رجـــل لبيب يحس ويشتكى الم الجـــراح

وقال عبد الوهاب « الانكليزى » :

تحدثنا الظنون بما يكـــــون كأن الظن عــــــلام الغيوب

وقال توفيق البساط :

اذا ما سمائى جاد بالذل عيشها أبيت عليها ان تكون سمائيـا

وقال رشدى بك الشمعة وكأنه تنبأ عن التقائه بعائلته فى رياق فكان الوداع بالاشارة :

لست أنسى ســـاعة البين ومـا هى الا صك روح من جســـد
رمت فيها الصبر لكن لم أطـق وحبست الدمع لكن لم يكـد
ليتنى فارقت عينى والحشـــا قبل ما فارقت أهلا وولـــــد
أودعونى عندمـــا ودعتهـــــم حسرة كانت من الموت أشـــد

★★★

ومن سوريا ، ولبنـان حيث نبتت بذور الثورة العربية ضـد الحكم العثمانى وحيث أعدم جمال باشا العديد من الشهداء ، العرب ، ننتقل الى الجزيرة العربية الى مكة والمدينة موطن أول ثورة استهدفت الحكم العثمانى بعد قيام الحرب العالمية الأولى ٠

ونبدأ الحديث عن شريف مكة الذى قاد تلك الثورة ، ثم عن الظروف الشخصية والظروف العامة التى دفعت شريف مكة للتفكير فى الثورة على الأستانة ٠

منصـــب شريف مكة ـ للعـــلم ـ من المناصب الخطيرة فى الدولة العثمانية ويأتى بعد الصدر الأعظم وخديو مصر ، ويتصل بمقام الصدارة العظمى مباشرة ٠ وشريف مكة هو المرجع الأول فى الحجاز للعرب وصاحب

الكلمة العليا في تصريف أمور باديته • وقد انحصر هـــذا المنصب في أواخر العهد العثماني في الأشراف من آل أبي نمي ، ثم انتقل اليهم من ذوي زيد على يد محمد علي باشا الكبير أبان الحملة المصرية على الحجاز سنة ١٨١٢ وظل فيهم يتوارثونه حتى اعلان الدستور العثماني وكـــان تبوؤه الشريف علي باشا ابن عبد الله بن محمد عبد المعين الذي استقال خوفا من فتك الاتحاديين به • وغادر الحجاز على عجل فعينت الحكومـة التركية الشريف عبد الاله خلفا له ، وقد مات بعد تعيينه بيومين وقبل ان يتسلم منصبه •

وجاء الدور على الشريف حسين بن علي بن عون ، وقد ولد بالآستانة عام ١٨٥٣ وعندما اسندت امارة مكة الى جده الشريف محمد بن عون سنة ١٨٥٥ قدم أبوه علي الى مكة مع ابنه الحسين ثم عاد الى الآستانة بعد ان مات جده • ولما اسندت أمارة مكة الى عمه الشريف عبد الله بن عون ، فانضم الحسين اليه يعيش في كنفه حتى ولي الامارة الشريف عون في ٢٤ ذو القعدة سنة ١٢٩٩ فعمل على ابعاده من مكة لما كان يأتيه الحسين من التأليب عليه والكيد له في الخفاء حتى تغلب الشريف عون عليه وألجأه الى الرحيل من مكة الى الآستانة •

أقام الحسين كما يقول الأستاذ عواد نصيف في كتابه عن الحجاز يعمل ليومه الذي يرجوه ويسعى لتحقيق فكرته التي ملأت رأسه ، والتي كان يعتقد أن تحقيقها لا يتم الا على يد أوربية فمن ثم أخذ يتصل بالأوربيين السياسيين في الأستانة ويستعين بهم على مآربه • وقد تبين واضحا ما كان يحمله الحسين في نفسه من الثقة بالأوربيين في الحرب العالميـة حين استعان بالحلفاء أستعانة كان خيرها لهم وشرها له وللعرب وللمسلمين •

لم يخف على الباب العالي صلة الحسـين بالأوربيين وسـعيهم معه ، خصوصا وقد كان أغلب من يحيط به من جواسيس عبد الحميد • الذي كان يعتني بفن الجاسوسية كل العناية •

وآلت الامارة الى الشريف علي باشا ولم تزد امارته على سنتين عزل بعدهما • وتولى بعده الشريف عبد الاله ولكن المنية عاجلته قبل أن يستلم عمله الجديد ، وقد حامت حول موته فجأة الشكوك ورأى الحسين الفرصة سانحة لكي يتولى امارة مكة •

ويذكر مؤلف كتاب « مقدرات العراق السياسية » ان السلطـــان عبد الحميد كان مترددا في أمر تعيين الحسين وقد وافق أخيرا وبعـد الحاح قائلا : اني راض بتعيينه أميرا لمكة اذا اكتفى بذلك فقط بل اني

اعتقد أنه لا يكتفي بالامارة فحسب بل يطمع لأكبر منها ويهدد يوما ما عرشي » • وأصدر السلطان عبد الحميد فرمانه بتولية الحسين امارة مكة على مضض في السادس من شوال سنة ١٣٢٦ السنة التي أعلن فيها الدستور •

وكانت الدولة العثمانية تجعل بجانب أمير مكة واليا من قبلها مقره الحميدية بجانب الحرم الشريف والتكية المصرية ، وقد بنتها الحكومة العثمانية مقرا لمن تبعث به من الولاة ، وكان الوالي أيام الشريف حسين وهيب باشا وكانت بينهما معارك عنيفة •

ولأهمية الفرمان الخاص بتولية الشريف حسين ننقل فقرات منه فيما يلي :

(أنه لما تجلى صاحب القدرة الأزلية القائل سبحانه للشيء كن فكان ناظم أمور الكون والمكان • تحيرت عن ادراك أسرار حكمته عقول الخلائق والأذهان الذي جعل عتبة مرحمتنا مرجع المحتاجين وباب خلافة سلطتنا متكأ لأصحاب العز والشأن وزين طغراء مناشير اجلالنا الهمايوني بوجوب الطاعة والانقياد لأجل أحكام الشرع المتين ودوام معالم الدين المبين ومكن الحق المبين أوامرنا العلية غاية التمكين وجعل مناقب دولتنا العلية ومفاخر سلطتنا السنية حماية للدين المبين واعلاء للواء شرع سيد المرسلين ولاسيما بالخدمة الشريفة للبلدين المنيفتين منزل أنوار الوحي المبين ومهبط جناب جبريل الأمين المتضمنة الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم : (وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) •

من بين سلطات شريف أن « يكون الناظر على توزيع وتقسيم الصرة الهمايونية المرسلة من طرف سلطتنا السنية الى أربابها بواسطة المأمورين بموجب الدفاتر الموجودة وان يستجلب من العموم الدعــوات الخيريــة لجانبنا الشاهاني وان يهتم في توفيق الأمور والمصالح الواقعة والجاريــة بالعدل والحقانية متحدا مع وزيرنا سمير المعالي الحامل للنيشان المرصع العثماني والمرصع المجيدي أحد ياوراتنا الكرام الشاهانية والي ولاية الحجاز وقوميدان فرقتنا الهمايونية كاظم باشا أدام الله تعالى اجلاله ويشمر عن ساعد الجد في حسن ايفائها وتسويتها وان لا يمكن تعدي فرد من الافراد على أحد بما يخالف الشرع الشريف وان تكون حركته دائما وفق الشرع القويم فيلزم على كل من الأشراف الكرام والسادات ذوي الاحترام والعلماء والصلحاء والأئمة والخطباء وسائر من يأتي من كل فج عميق لزيارة البيت العتيق والأهالي الصغير والكبير والوضيع والرفيع ان يعرفوا أن سيادة

الشريف المشار اليه هو أمير مكة المكرمة وأن يحترموه ويوقروه وأيضـا يلزم على سيادة المشار اليه أن يعتنى مزيد الاعتناء لرعاية أصحاب السداد والصواب بحسب درجاتهم وأن يدارم فى الغد الآصال بالدعاء لدوام عمر دولتنا وارتقاء شوكتنا الملوكانية فأعلموا هذا واعتمدوا على علامتنا الشريفة تحريرا فى اليوم السادس من شهر شوال المـكرم لسنة ستة وعشرين وثلاثمائة وألف .

★★★

ومنذ بداية الحرب العالمية الأولى والشريف حسين يفاوض الانجليز سرا ، كما يفاوض الأتراك أيضا فى نفس الوقت ، وعندما كان جمال باشا يطلب منه مساعدة الدولة العلية بارسال المتطوعين، كان الحسين يجيب اجابات غامضة وعندما أرسل الحسين بعض المتطوعين الى المدينة المنورة وطلب من جمال باشا ارسال دراهم وأسلحة لمساعدة المتطوعين الآخرين جاءه من الدولة خمسون أو ستون ألف جنيه وعلى أثر ذلك أبرق الحسين الى أنور باشا قائلا : اذا كنت حقا ترغب فى التزامى لجـانب الهدوء والسكينة فينبغى الاعتراف باستقلالى فى سائر الحجاز من تبوك الى مكة وجعلى أميرا وراثيا فيها كما ينبغى أيضا العدول عن محاكمة العرب المتهمين واعـلان العفو العام فى سوريا والعراق) فأرسل أنور باشا هذه البرقية الى جمال باشا الذى كتب للحسين : لقد نمى الى خبر برقيتك الى أنور باشا فأنت تطلب ان تكون الامارة وراثية فى أسرتك وان يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهانى بعد ان قامت البراهين على خيانتهم للوطن والملة وليس من المستطاع اجابة هذا الطلب الثانى والا أدى ذلك الى ضرر شديد فى مسألة لها تعلق وارتباط بالمصلحة العامة فان الحكومة التى تصفح عن الخونة خليقة بان يتهمها الجمهور بالضعف بل قد يغرى ذلك الصفح كثيرا من الناس بالخيانة وطعن الدولة والملة طعنة نجلاء فلو عرفت محتويات الوثائق التى ظهرت فى المحكمة لرأيت الى أى حد من الخيانة قد تسفل اليه أولئك المتهمون أما فيما يختص بمسألة جعل الامارة وراثية فى أسرتك فانى يخيل لى وأظنك تسامحنى فى ذلك الرأى ان الفرصة ليست مناسبة للمطالبـة بذلك الطلب ـ فانى فى وقت الحرب الذى تتعرض فيه كل قوى الانسان العقلية والجسمية لأشد العناء والنصب أراك تعترف معى بان الاعراب عن مثل تلك الرغبات من شخص يشغل مركز أمام وفى أهم بقعة من بقاع الدولة العثمانية .. بقعة هى أكثر تعرضا للاخطار عما عداها ـ لا بد ان يكون له أسوأ وقع فى نفوس الجمهور والذى اعتقده أنه ما كان ينبغى لك أن تطلب مثل ذلك الطلب حتى لو كان لك الحق فى طلبه ـ فان موارد الأمر بأسرها ينبغى أن تحشد اليوم لغرض واحد لا ثانى له ألا وهو احراز النصر النهائى »[1] .

ويجب أيضا أن تلفت نظرك الى الوجهة التالية من وجهات النظـــر للمسألة ٠ وهى أننا نفرض جدلا ان الحكومة لبت طلبك لمجرد الرغبة فى الابتعاد بك عن المشاغبة فى هذه الأوقات العصيبة التى نقطعها وفرضنا أيضا أن النصر كان فى النهاية حليفنا فما الذى يمنع الحكومة ان تعاملك بمنتهى الشدة حتى تضع الحرب أوزارها ان الرجال الذين يكونون الحكومة الحـاضرة والذين تجرأوا على القيـام فى وجه عبد الحميـد الذى أمضك استبداده لن يصفحوا عمن يجترئون على شل أيديهم فى هذه الحرب التى دخلوها لمصلحة العالم الاسلامى ومن جهة أخرى لن يقعدوا عن أن يحصلوا من جلالة الخليفة على جزيل الاحسان وعظيم المكافأة لكل من عمل ابتغاء مرضاة الله فى تحقيق غايتنا المقدسة) وكان الشريف قد بعث الى الصدر الأعظم جوابا يقول فيه : أنه لا يعرف أى الرجلين يصدق ؟ أهذا السياسى الذى يتعامل معه مبـــاشرة ولطالما أظهر له المجاملة والود أم ذاك الذى استعمل معه ألفاظا جارحة مهينة » ٠

ويقول الشريف أنه يرى نفسه مضطرا الى قطع العلاقات مع الحكومة حتى تجاب المطالب التى طلبها من أنور باشا منذ شهرين ٠ كما أرسل الشريف الى جمال باشا برقية بهذا المعنى ٠

***

أما المتطوعون الذين جاءوا من مكة فقد أخذهم على وفيصل أبناء جلالة الملك من المدينة خلسة قبل الثورة بيومين ، وقد كتب على الى فخرى باشا يقول له :

(بناء على الأوامر الصادرة من أبى سيقف نقل المتطوعين الى فلسطين ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا وانى آسف، لاضطرارى الى الرحيل بدون أن أودعك فالمرجو قبول عذرى) ٠

أما جلالة الشريف الحسين فقد كتب بعد خروج المتطوعين من المدينة الى جمال باشا والى الصدر الأعظم ما خلاصته ، أنه يعتذر عن عدم استطاعته الاشتراك فى الحملة على القناة الى أن تجاب الطلبـــات التى طلبهـا فى برقيته ٠

وهناك اتجاه الى تأكيد وجهة النظر القائلة بان هناك عاملا شخصيا أو عوامل شخصية دفعت الشريف حسين بن على الى عدم الثقة بالأتراك أو بالأحرى الاتحاديين الذين نزعوا ثقتهم فيه وفى بيته خاصة وقد كان على ثقة مطلقة من أن الاتحاديين يتحينون الفرصة للاطاحة به واستبداله

بآخر ، وكان اختيار وهيب باشا بالذات واليا للحجاز لتقليم أظافر حسين ابن على وللقضاء على نفوذه ٠

★★★

وقد كانت حكومة الآستانة ـ كما ذكر جمال باشا فى مذكراته ـ تنوى فعلا اجابة طلب جمال باشا ارسال فرقتين من الجند لانقاذ مشروع وضعه جمال باشا ولو لم تعلن الحرب على حين غرة لكان الترك نفذوا المشروع الرهيب وفضوا على الحسين القضاء المبرم ٠ هذا الى أنه كان للشريف ـ على ما قيل ـ عيون فى ديوان الحكومة بمكة وفى دائرة برقها وفى الباب العالى نفسه ، كانوا يوافونه بكل ما يدور بشأنه من المراسلات بين حكومتى مكة والآستانة ، ويطلعونه على جميع الخطط والتدابير ٠

★★★

ولم يكن بطوق الاتحاديين ان يعلموا شيئا من أسراره ومشاريعه اذ كان شديد الحذر والتكتم ، وقد ظل يلاطفهم حتى حملهم على استبدال وهيب باشا بغالب باشا فى مستهل الحرب ، فارتاح من خصم لدود وخلا له الجو فى مكة ففعل ما شاء واستطاع ان يستولى على كمية كبيرة من السلاح فى خلال السنتين الأوليين من سنى الحرب ، وان يأخذ من جمال باشا مبلغا كبيرا صرفه فى تعزيز سلاحه وتقوية ذخائره ، ولعل خوفه من حقد الترك عليه هو الذى أهاب به ان يشترط على الاتحاديين فى أثناء المفاوضات التى دارت بينه وبينهم جعل الامارة وراثية فى انجاله فقد خشى أن ينفوه فى أول فرصة تسنح لهم ، فشاء ان ينال من حكومة الآستانة عهدا بابقاء الامارة فى ذريته فيطمئن بالا ، ولكن الاتحاديين أبوا عليه ذلك ٠

★★★

ذلك هو العامل الشخصى ويليه فى الأهمية العامل المحلى وكان مصدره مركز الحجاز الاقتصادى فى ابان الحرب ٠ فالحجاز قطر مجدب أو هو واد غير ذى زرع ـ كما وصفه القرآن ـ وقد تعود سكانه ان يعيشوا بما يدره عليهم موسم الحج ، فاذا كان خصبا نعموا وحسنت حالهم ، وادخروا لعامهم المقبل ما يدفع عنهم غائلة الفاقة والجوع ، وبالعكس اذا كان الموسم ضئيل المواد ٠

ومن المعلوم ان الحرب العظمى أعلنت فى شهر رمضان سنة ١٣٣٢ أى قبل موسم الحج بثلاثة أشهر تقريبا ٠ وكان الانكليز غير واثقين من

اخلاص الدولة العثمانية لهم ليقينهم أنها متحالفة مع الألمان وأنه لا بد أن تخوض الحرب الى جانبهم ، فضربوا الحصار البحرى على سواحلها ومنهـا سواحل الحجاز فى البحر الأحمر فتعطل بذلـك موسم الحج ولم يؤم الحجاز غير عدد قليل من الحجاج فأحس الحجازيون بالضائقة ولـكنهم صبروا على أمل ان تنتهى الحرب فى السنة الآتية فيصار الى رفع الحصار البحرى وتقبل وفود الحجاج بكثرة فيعوضوا ما خسروه فى الموسم الفائت. ولكن أملهم خاب اذ حل الموسم الجديد وانتهى والحرب ما تزال مستمرة تزيد فى ضيقهم وقد نفد كل ما ادخروه فى اليوم الأبيض ليومهم الأسود. فتعالت أصـواتهم بالتذمر وطلب الاغاثة وتألموا من الجـوع وقد عضهم بأنيابه .. !!

★★★

فكتب الشريف الى حكومة الآستانة باسطا لها الحال المؤلمة وما يقاسيه أهل مكة وجدة من جوع وفاقة بسبب الجدب الذى أصاب موسم الحج ، أما الحكومة فاعتذرت بسوء الحالة وبحاجة الجيش الى القوت ولم ترسل الى القوم ما يخفف عنهم المجاعة حتى أن بعضهم انتزع أبواب بيته وأخشاب سقوفه وباعها ليقتات بثمنها . ولمـا ضاقوا ذرعا بهذه الحال جاءوا الى الشريف متوسلين اليه لكي ينقذهم من الضيق الذى هم فيه ويبعد عنهـم شبح الموت الماثل أمامهم بعد أن رفضت الدولة مساعدتهم . ومن البديهى ان الطريقة الوحيدة للخلاص من تلك الحال المخيفة انما كانت بمحالفـة الانكليز والتفاهم معهم لالغاء الحصار البحرى فتعود البواخـر الى ارتياد سواحل الحجاز حاملة اليه الحجاج والأموال .

ذلك كان العامل المحلى وهو خطير الشأن ، كما لا يخفى .. وقد كان من أهم عوامل الثورة لان الفاقة والجوع والضيق كثيرا ما تدفع الشعوب الى الثورات الدامية ، على ما يدلنا التاريخ قديما وحديثا .

★★★

ويجيء بعده العامل القومى . ومجمل القول فيه هو أن الشريف عظم عليه ، وهو المنظور اليه كأكبر زعيم عربى فى ذلك الزمن ، أن تساق الحرائر العربيات الى الأناضول سبايا تحت ستار الأبعـاد ، وان يعدم فريق من مفكرى العرب وكبارهم ويشتت الآخرون تحت كل كوكب لا لجريمة اقترفوها بل لأنهم هبوا يطالبون الدولة باصلاح بلادهم خشية ان يؤول الاهمال الى تدخل الدول الكبرى فى شؤونها باسم الاصلاح — كما حدث سابقا فى البلقـان — ثم يتحول هذا التدخـل الى احتـلال

أو استعمار • وقد كان أولئك الزعماء المخلصون يخشون مثل هذا الأمر ويبذلون الجهود الجبارة لاتقائه ، فكان نصيب بعضهم الاعدام ونصيب البعض الآخر السجن والابعاد • ولما رأى الشريف ان توسطه للعفو عنهم ورفع الضيم النازل بهم لم يلق أى اعتبار لدى الحكومة الاتحادية قرر اعلان الثورة انتقاما لهم وانقاذا للذين ظلوا على قيد الحياة وقد كانوا مهددين بالموت الأحمر فى كل ساعة •

***

وقد أجمع الباحثون فى القضايا العربية على أن الشريف حسين أحسن عملا باسراعه فى اعلان الثورة بعد اعدام القافلة الثانية من الشهداء فحمل بذلك الاتحاديين على تبديل سياستهم وعزل جمال باشا من وظيفته فى سوريا واستدعائه الى الاستانة فرجع اليها رجوع المنكسر الفاشل وقد تلاشت احلامه فى تاسيس عرش له فى دمشق يتمتع به فى حياته ثم يورثه لأولاده بعد مماته •

ومن الجهة الأخرى كان الاعتقاد سائدا بين المفكرين ان الفوز الأخير سيكون من نصيب الانكليز وحلفائهم وان الدائرة لابد وان تدور على الألمان والأتراك فتزول الامبراطورية العثمانية ويقتسم أراضيها ومن جملتها البلاد العربية ، فتكون النتيجة وخيمة على العرب وهذا ما كانوا يعملون لاجتنابه • ولذا لم يكن للحسين مندوحة عن مفاوضة خصوم الأتراك وعقد المواثيق معهم لانقاذ بلاد العرب واقامة الامبراطورية العربية الكبرى فتحل فى الشرق محل الدولة العثمانية المضمحلة وتبعث دولة العرب ومجدهم من جديد •

***

وفى رواية لجورج انطونيوس •• ان الشريف عبد الله — بصفته ابن الشريف حسين ويده اليمنى — ذهب الى كتشنر فى الأسبوع الأول من شهر فبراير ١٩١٤ — وكان كتشنر وقتئذ المعتمد البريطانى فى مصر ، وكان عبد الله مارا بالقاهرة فى طريقه من مكة الى القسطنطينية فزاره ردا لزيارته ، وقد أطلع عبد الله كتشنر على توتر العلاقات بين السلطات التركية والشريف وكان المستر (السير) رونالد ستورز السكرتير الشرقى فى دار الاعتماد البريطانية حاضرا ، وكان عبد الله على علم من ان الاتحاديين اتخذوا قرارا سريا يقضى بعزل والده فأفهم كتشنر بأنهم اذا نفذوا ما قرروه فيحتمل ان تقوم ثورة فى الحجاز ثم حاول وهو

متحفظ فى ألفاظه ان يفهم من كتشنر موقف الحكومة البريطانية فى حالة نشوب نزاع علنى بين الترك والعرب • لم يأت جواب كتشنر مشجعا وان كان لا يربط قائله بشيء سلبى أو ايجابى فقد قال أنه يرى أن السياسة البريطانية التقليدية هى سياسة صداقة مع تراكيا ولهذا فهو لا يتوقع أن تتدخل فى حالة كهذه • وفى الوقت ذاته أدرك كتشنر بأن لدى زائره من الحديث ما لا تتسع له زيارة رسمية فطلب من ستورز أن يرد الزيارة بعد يومين ويفسح المجال أمام عبد الله للافصاح عن أفكاره بشكل أتم •

***

كان حديث عبد الله مع ستورز أكثر وضوحا فقد كان ستورز يتكلم العربية قليلا وكان من خصائصه أنه يستطيع استخراج الكثير من القليل كما كان يجمعه بعبد الله ميل واحد مشترك على الأقل وهو الولع بلعبة الشطرنج فتصادق الرجلان فى هذا الجو من الود الخالص الذى يندر وجوده بين انكليزى وعربى فاطمأن عبد الله واخذ يتكلم بحرية فتحدث مع زائره حديثا أطول بكثير من حديثه مع كتشنر فأخبره بخطورة الحالة فى الحجاز واطلعه على الاستعدادات التى يقوم بها والده ليواجه القطيعة النهائية التى خيل اليه أن لا مفر من وقوعها كما تحدث طويلا عن أهداف الحركة العربية وآمال زعمائها ويأسهم الآخذ فى الازدياد • وبعد ذلك ابتدر محدثه باستفهام ينم عن الصراحة التى يتصف بها فسأله عما اذا كان كتشنر على استعداد لمساعدة الشريف فى الحصول على مدافع رشاشة •

***

كان من الطبيعى أن يأتى جواب ستورز كجواب كتشنر مثبطا للعزم وبهذا انتهى الحديث بين الاثنين • وفى أواخر ابريل مر عبد الله ثانية بالقاهرة دون أن يقابل كتشنر ولكنه التقى مجددا بستورز الذى قال له فى صراحة لا تقبل الشك أنه لا يجوز له أن ينتظر أية مساعدة من جانب بريطانيا العظمى وعلى هذا عاد عبد الله الى الحجاز • وبالرغم من أن هذه الأحاديث لم تنته الى شيء الا أنها كانت ذات أثر فعال فى توجيه الأمور لأنها نبهت كتشنر الى قوة العداء القائم بين الترك والعرب وعمقه وافهمته كذلك رغبة العرب الحقة فى الاستقلال كما حملته على ان يتخذ بعد أشهر قليلة بعض التدابير التى استمرت حتى أدت فى النهاية الى ادخال العرب فى الحرب كحلفاء الى جانب انكلترة ضد تركية •

تعود قيمة هذه الأحاديث الى ان محاولات عبد الله جاءت عن طريق الصدفة فى وقت اضطرب فيه ذهن كتشنر ببعض الأفكار والتكهنات التى كانت تشغله فهو بصفته معتمدا بريطانيا فى القاهرة كان مسئولا بالدرجة الأولى عن مصر والسودان ولكن خياله ذهب به الى ما وراء حدود عمله المباشر فان حروبه فى السودان والمدة التى قضاها كقائد عام فى الهند والمعرفة الوثيقة التى اكتسبها هناك بنتيجة المشاكل القائمة على الحدود الشمالية الغربية وفى الأفغان ـ ان كل هذه العوامل أوجدت صلة مباشرة بينه وبين بعض القوى المجاهدة فى الاسلام ونمت فى نفسه احساسا دقيقا بالقيمة العظيمة التى تتمتع بها الرابطة الدينية فى الاسلام • وخلال السنوات الثلاث التى قضاها فى القاهرة كانت عيناه ترمقان القسطنطينيه مركز الخلافة بقلق بالغ وكان يرقب كذلك نمو النفوذ الألمانى والتقدم المشئوم فى مشروع سكة حديد بغداد حتى أدرك ادراكا عميقا ما ينطوى عليه هذا الأمر من تهديد لمركز بريطانيا فى خليج « فارس » ـ هكذا فى الأصل ـ وفى الهند وكاد هذا الوعى أن يتحول فى رأسه الى هوس مستقر وطاغ • وكان يقول لأصفيائه القليلين بصراحة أنه يعتقد بأن الدبلوماسية البريطانية ارتكبت خطـأ لا يغتفر بسماحها لألمانيا بالتفوق السياسى والعسكرى فى عاصمة المملكة العثمانية ، وكان التفكير بالأساليب التى تدرأ الأخطار الناجمة عن هذا الوضع من الأمور التى تشغل فكره باستمرار •

***

كان كتشنر يفكر بحلول مختلفة ومن جملتها أن يفصل عن المملكة العثمانية بمرور الزمن ذلك الجزء من بلاد الشام الذى يبـدأ من خليج حيفا وعكا على البحر الأبيض المتوسـط وينتهى فى خليج العقبة على البحر الأحمر فيوضع تحت حماية بريطانية يؤمن امتداد النفوذ البريطانى بدون انقطاع من مصر الى خليج فارس • ومن تلك الحلول كذلك تشجيع الأجزاء العربية فى المملكة العثمانية على تشكيل دولة ، أو عدد من الدول ، مستقلة استقلالا ذاتيا ومرتبطة مع بريطانية العظمى بروابط الصـداقة لأن هذه المناطق تقع على الطريق كله من ساحل البحر الأبيض المتوسط فى الغرب الى حدود فارس فى الشرق وبهذا يقام سـد عربى انكليزى لمقاومة التيار الألمانى التركى • وبعبارة أخرى نقول ان كتشنر توصل عن طريق تفكيره المستقل الى تخيـل تلك الاحتمالات بعينها التى كان الزعماء العرب أنفسهم يفكرون فيها • وبينما كان ذهنه منهمكا فى هذه التكهنات زاره الأمير عبد الله الذى كان هو نفسـه عضـوا فى احدى

الجمعيات السرية ومن المؤمنين بفكرة التفاهم المثمر بين الانكليز والعرب والمتحمسين له • وفي هذه الزيارة زوده بمادة جديدة للتفكير •

***

وعن تلك الأحاديث يقول الأمير عبد الله :

كان كتشنر يقضي أجازته في انكلترة لما اشتعلت نار الحرب في شهر أغسطس فتوجه فورا الى مقر عمله ولكنه ما كاد يبلغ دوفر حتى استدعاه رئيس الوزراء وسمي وزيرا للحربية فوجد أمامه فعلا بين عشية وضحاها مهمة خلق جيش بريطاني كبير على مقياس لم يسبق له مثيل وبينما كان منصرفا بكليته الى انجاز مهمته ظل جزء من تفكيره منحصرا في الأخطار الناجمة عن سيطرة المانية الدبلوماسية كما ظل جزء آخر من ذهنه مأخوذا بمسألة ايجاد الطريقة المناسبة لمواجهة تلك الأخطار • فكانت تركيا في الظاهر مصممة على اتباع سياسة الحياد أو على الأقل هذا ما كان رجال جمعية الاتحاد والترقي ـ وهو الحزب الحاكم في ذلك الوقت ـ يرددونه على الدوام ولكن لم يكن من المعقول أن يصدق كتشنر هذا الادعاء بسبب القلق الذي كان يساوره فقد شعر بان التصديق قد يعرض البلاد لأخطار جمة ولهذا عمل على اقناع مجلس الوزراء باتخاذ بعض التدابير على اثر تلقيه اقتراحا من ستورز في أواسط أيلول (سبتمبر) •

كان ستورز يعمل بنشاط منذ عودته الى مصر وحده بدون رئيسه• فان الصراحة التي حدثه بها عبد الله قبل أشهر قليلة نبهت ذهنه الحاد الى المعاني البعيدة التي تبني على تذمر العرب وأدرك بوضـــوح ادراكا لم يتوصل اليه سواه في ذلك الوقت امكان الاستفادة من ذلك التذمر وقد ازداد تمسكا بهذا الرأي بنتيجة الأبحـــاث التي تهيأ له اجراؤها كسكرتير شرقي مع عدد كبير من الزعماء العرب المقيمين في مصر فأرسل كتابا خاصا الى كتشنر طلب فيه السماح له بالتأكد من عبد الله عن الجهة التي سيثب العرب الى جانبها فيما اذا دخلت تركيا الحرب كما ذكر أنهم اذا وقفوا الى جانب بريطانية حسنوا الوضـــع الحربي تحسينا بالغـا بتقويتهم أطراف الجيش وهذا بالاضافة الى الاعتبارات الثانية الكبرى ، ولعله لم يستعمل في ماكتب هذه الكلمات بعينها ولكن هذا معنى ما خطه•

***

تبنى كتشنر هذا الاقتراح فورا وأبرق الى ستورز بتعليماته بعد ان أخذ رأي مجلس الوزراء فطلب الى ستورز بصورة خاصة أن يستفهم من

عبد الله عما اذا كان أمير مكة يود السير في خطوات تركيا أم أنه سيقف في صف بريطانيا في حال اقناع ألمانيا لتركيا بدخول الحرب الى جانبها • وقد أرسلت هذه التعليمات في آخر أسبوع من شهر سبتمبر أى قبل أن تعلن تركيا الحرب بستة أشهر وقضى ستورز بضعة أيام في البحث عن رسول أمين يمكن الاعتماد عليه للسفر الى الحجاز سرا وهناك يجد لنفسه طريقة يتسرب بواسطتها الى مجلس عبد الله دون ان يلفت النظر الى شخصه • وفي أواسط أكتوبر بلغ الرسول – وهو مصرى يعرف باسم على أفندي – مكة حيث أدى رسالته وعاد مزودا بجواب خطى من عبد الله •

وضعت رسالة كتشنر ، أمير مكة في موقف دقيق بل فائق في الدقة فقد كان يعمل على تثبيت سلطته في الحجاز ولو أدى ذلك الى منازلة الترك وكان هذا قبل نشوب الحرب بأشهر عديدة في وقت لم يدر فيه في خلد أحد أن حربا عالمية ستقع وأن تركيا ستدخلها ، وهو عهد كان فيه الخلاف بين الحسين والترك ناشئا عن قضايا تتعلق بالحجاز ومنحصرا فيها أما الآن وقد وقعت الحرب بالفعل وأصبح دخول تركيا فيها قريب الاحتمال فقد توسع الموضوع وأصبح ذا صلة بمستقبل جميع الأجزاء العربية في المملكة العثمانية • أما اذا دخلت تركية الحرب بالفعل وانصرفت بكليتها اليها أفلا ينشأ عن ذلك أخيرا سنوح الفرصة التى كان العرب ينتظرونها من زمن بعيد ؟ وقد خيل للعرب ان أمامهم طريقين : فاما الوقوف الى جانب تركيا في ساعة حاجتها وبهذا يكسبون عطفها كنتيجة لاعترافها بجميلهم معها ، واما الثورة عليها والفوز بحريتهم بحد السيف • فأى واحد من هذين الطريقين يسلكون ؟

أبدى ولدا الحسين اللذان استشارهما في الأمر رأيين متعارضين : أما فيصل فكان يحبذ الطريق الأول لاعتقاده الجازم بأن لفرنسا وانكلترة أطماعا : الأولى في الشام والثانية في المناطق الجنوبية من العراق ولم يجد عرض كتشنر أى ضمانة تبدد المخاوف الناجمة عن هذه الأطماع ، وبالاضافة الى ذلك فان العرب في نظره غير مستعدين للأمر استعدادا كافيا مما جعله يخشى على الثورة من الفشل • وأما عبد الله فكان يرى غير هذا الرأى لأنه بانتسابه الى احدى الجمعيات السرية أطلع على دخائلها ففهم قوة الشعور الثورى السائد ، ولما كان من المتفائلين بطبعه فانه كان على ثقة من أن كلا من دمشق وبغداد ستلبي نداء الثورة حالا • وقد شعر بأن الاسلوب الواجب اتباعه هو عدم رفض ما عرضه كتشنر بداعى أنه

عرض ناقص بل التوصل عن طريق المفاوضة الى معرفة ما اذا كان هذا العرض ينطوى على ضمانة كاملة لاستقلال العرب •

★★★

وتمسك كل واحد من الأخوين برأيه تمسكا عنيدا ولم يحيدا قيد أنملة عن موقفهما هذا في الاجتماعات التى كان يدعوهما اليها والدهما للمداولة الهامسة • وكان الحسين ميالا على وجه العموم الى الأخذ برأى فيصل القائل بعدم استعداد العرب فى المناطق الأخرى ومع ذلك فان الحاج عبد الله جعله يتريث ويفكر حتى اتخذ في النهاية قرارا وسطا : ان يقوم من جهة بارسال الرسل الى بلاد الشام والى كبار أمراء العرب ليكشفوا حقيقة الشعور القومى ومبلغ الاستعداد للعمل ويجسوا نبض الزعماء ، ومن جهة ثانية ان يتحف كتشنر بجواب يحوى مقدارا قليلا من التشجيع ، دون أية زيادة يكفى لاستمرار الأمل فى نفسه باكتساب العرب • فانشأ رسالة موجهة الى ستورز وقعها عبد الله وقد أبدى فيها ميله الى التفاهم مع بريطانيا العظمى وأشار الى عدم تمكنه فى الوقت الحاضر من تغيير موقفه الحيادى الذى يرغمه مركزه فى الاسـلام على اتخاذه • وقد حصر ملاحظاته فى الحجاز متجنبا بكل دقة وحذر الادلاء بما يستشم منه أنه ينطق باسم سائر أجزاء العالم العربى ملمحا بأنه قد يستطيع دفع أنصاره القريبين منه مباشرة الى الثورة فى حال قيام الترك بعمل نهائى فى الموضوع وعلى شرط الحصول من بريطانيا على وعد ببذل المساعدة الفعلية •

★★★

تلقى ستورز هذه الرسالة قبل نهاية أكتوبر فأرسل بها برقية الى لندن على الفور ولا شك ان كتشنر اسـتلم نصها فى وقت قريب من استلامه كتابا من صديقه القديم السير جون ماكسويل الذى كان فى ذلك الوقت يقود القوات البريطانية فى مصر وكان كتابه مؤرخا فى ١٦ أكتوبر وفيه يقول مقترحا : « ••• لست بمطلع على سياسة وزارة الخارجيـة ولكنى أرى ان نتصل بالعرب فى مكة واليمن ونحملهم على القيام فى وجه الترك » •

★★★

كانت المدة التى خدم فيها ماكسويل فى الشرق طويلة وكان لرأيه وزن عند كتشنر ففى ٣١ أكتوبر أبرق كتشنر الى دار الاعتماد البريطانية

فى القاهرة نص رسالة جوابية موجهة الى عبد الله • بدأت الرسالة باعلام المخاطب بدخول تركيا الحرب وحوت وعدا قاطعا للحسين بأنه اذا انحاز مع مريديه الى جانب انكلترة ضد تركيا فان الحكومة البريطانية تضمن بقاءه فى منصبه كأمير لمكة مع احتفاظه بجميع الحقوق والميزات المتصلة به • كما تعهدت بالدفاع عنه ضد كل اعداء خارجي وتضمنت الرسالة كذلك وعدا موجها للعرب بصورة عامة بمساعدتهم فى محاولتهم الوصول الى الحرية شريطة ان يرتبطوا بانكلترة • وختمت الرسالة باشارة تلمح الى أن الشريف يستطيع الاعتماد على اعتراف بريطانيا به فى حال مبايعته خليفة للمسلمين •

★★★

استلم عبد الله هذه الرسالة فى ١٦ نوفمبر فى وقت حرج كما سيتضح لنا فيما بعد فنالت لديه أطيب القبول لأنها أعطت الحسين الضمانة التى كان يطلبها بعينها فيما يتعلق بالحجاز وأما فى موضوع المناطق العربية لأخرى فقد فتحت باب أمل يغرى بمستقبل بهى من التحرر القومى • لقد صيغت الرسالة بألفاظ مدروسة دراسة دقيقة بقصد ابقائها عامة فى مدلولها ولكن النص كما وصل الى يد عبد الله حوى عبارات مثل « الأمة العربية » و « تحرير العرب » ومهما كانت المعانى التى قصدها كتشنر حين كتب هذه العبارات وهو مستغرق فى وسط مهامه الجسيمة فانها فى نظر الشريف كانت تنطوى على دعوة لا شك فيها الى تهيئة ثورة يقوم بها جميع العرب • هذا هو التفسير الذى فسر به الكتاب الموجه الى ابن الحسين باسم كتشنر وكان كتشنر يتمتع بشهرة فى بلاد الشرق تفوق شهرة أى انكليزى معاصر وكانت كلمته تحمل على محمل الصدق بدون أدنى تردد ولهذا شرع الحسين يوجه همه نحو تحقيق تلك الغاية •

★★★

أجاب عبد الله بناء على أمر الحسين بكتاب أرسله الى القاهرة وتعهد فيه باسم ابيه بان يسير فى سياسة تحالف سرى مع انكلترة • وقد أكد عبد الله مرة ثانية عدم استطاعة الشريف القيام بأى عمل عدائى مكشوف ضد الترك قبل أن يتم جميع استعداداته ولهذا طلب منحه مهلة يتمكن خلالها من دراسة وضعه الحقيقى وجمع قواه حتى تجيء الفرصة المواتية لاعلان العداء ، كما وعد ستورز بأن يبعث له برسالة ثانية فى المستقبل • وصل جواب عبد الله القاهرة فى أوائل ديسمبر وبه يختم الجزء الأول من المؤامرة التى اشترك فيها الانكليز والعرب •

وأما الجزء الثاني فانه سيستهل بعد ثمانية أشهر أى فى يولية القادم ، فور انتهاء الحسين من استجواب الزعماء العرب والمفاوضة معهم وكانت فاتحة هذا الجزء المذكرة التى كتبها الحسين الى السير هنرى مكماهون وهى الأولى فى سلسلة من المذكرات الدبلوماسية التى تؤلف ما هو معروف باسم مراسلات مكماهون ٠

★★★

كانت النتيجة الطبيعية والفورية لدخول المملكة العثمانيــــة فى الحرب الى جانب الدول الوسطى ان قضية أماني العرب القومية لابد لها من الانجذاب الى قلب دائرة السياسة الأوربيــــة ، فقد أصبح موقف العرب أمرا ذا أهمية مباشرة للحلفاء وبصورة خاصة لبريطانية العظمى لأن تركية كانت فى مركز تستطيع معه ان تهدد المصالح البريطانية فى نقطتين حيويتين وذلك بفضل استيلائها على الشام والعراق ٠ أما النقطتان فهما قناة السويس ورأس خليج فارس حيث تقع آبـار النفط القيمـة التابعة للشركة الانكليزية الفارسية ٠ ولا يجوز انكار الخطر الذى يهدد بريطانيا فى الجزيرة العربية نفسهـا ، فان الأتراك كانوا يسـتطيعون استعمال شاطىء البحر الأحمر الطويل لاتخاذ مراكز عديدة وضعته فيه لبث الألغام أو لارسال الرسل الى مصر والسودان وداخل افريقيـا لتوزيع السلاح أو اثارة الثورة ، وكان فى اليمن حامية مؤلفة من فرقتين تكفى قوتهما لتهديد عدن ٠ أما فى الحقل السياسى فان الخليفة السلطان اذا أعلن الجهاد ونال تأييد شريف مكة له فيه تمكن من تحويل الحجاز الى مركز لبث الدعاية المهيجة التى تنبعث منه لا لتثير البلاد العربية فحسب بل لتحرك كذلك الأقوام الكثيرة الاسلامية وغير العربية التى تعيش تحت حكم الحلفاء أو على أطراف المناطق التابعة لهم ٠

كان خطـر الدعوة الى الجهاد أكثر هذه الأخطـار هولا وكان من المسلم به أنه من ضمن الأعمال الأولى التى ستقوم بها تركيا اذا دخلت الحرب الى جانب الدول الوسطى لكى تثير العالم الاسلامى ضد الحلفاء ، وفى هذه الحال يعلن السلطان بصفته خليفة المسلمين وأمامهم الأعلى ان تركيا وهى أكبر دولة اسلامية وفيها مقر الخلافة تحـارب دولا مسيحية تريد خرابهـا وان الأماكن المقدسـة باتت فى خطر وان واجب جميـع المؤمنين الصادقين فى ايمانهم يدعوهم الى الالتفات حول راية الدين ٠ ولم يكن من السـهل على المرء أن يقدر سـلفا مبلغ الأثر الذى سـتحدثه هذه الدعوة فلم يسبق فى العهود الحديثة أن أعلن الجهاد على هذا المقيـاس

الواسع الذى يشمل العالم كله وكان لا بد لدعوة كهذه تصدر عن تركية من أن يصيبها شيىء من الضعف بسبب تحالف تلك الدولة نفسهـا مع دول مسيحية • ومن جهـة ثانية فان الشعور بتضـامن الأمم الاسـلامية الذى بذل عبد الحميد قصارى جهده لتنميته كان عاملا • أن تعذر ادراك حقيقته ادراكا صحيحا ، فلم يكن من الجائز انكاره •

★★★

وهناك رواية أخرى عن المحادثات بين الشريف حسين بن على جاءت فى أوراق نشرها الأستاذ / عمر أبو النصر وطبعت فى بيروت قبل قيام الحرب العالمية الثانية عن الحرب العالمية الأولى وقد جاء فى تلك الرواية :

وأول سياسى بريطانى سعى لايجاد علاقات طيبة بين الشريف وآله وبين الانكليـز ، هو اللـورد كتشنـر ، وقد كان قبيل الحرب معتمـد بريطانيـا فى مصر • وكان من عادة الأمير عبد الله ممثل مكة فى مجلس المبعوثان التركى أن يعرج على القـاهرة فى ذهابه الى الاستانة ورجوعه منها ، فيقضى فيها بضعة أيام وينزل ضيفا على الخديوى عباس حلمى فى قصر عابدين • فاغتنم اللورد كتشنر سنة ١٩١٣ فرصة وجود الأمير فى مصر فزاره فى القصر المذكور عن غير موعد سابق ، مصطحبا معه المستر ستورس الســكرتير الشرقى للوكالة البريطـانية فى ذلك الحين • أما الأمير فتردد فى استقباله تجنبا للقيل والقال ، ولكن الخديوى أقنعه بقبول استقبال اللورد ، وكان ذلك بالاتفاق بينه وبين الأخير •

★★★

وتمت المقابلة فقال اللورد للأمـير بعد السـلام والتعارف : أنه اغتنم فرصة مروره بالقاهرة فجاء ليبلغه شكر حكومته على ما يلقاه الحجاج الهنـود رعاياها من الرعاية الحسنة من أبيه حين قيـامهم بتأدية فريضة الحج ، وقال أنه وحكومته مغتبطون لهذا التبدل فى معاملة الحجاج •

فأعرب له الأمير عن شكره لزيارته ومجاملته ووعده بابلاغ والده ما سمعه منه ، وتوجه على الأثر الى دار الوكالة العثمانية فاجتمع بالمفوض السامى العثمانى وروى له ما كان من أمر زيارة اللورد كتشنر ورجا منه ان يبلغ الباب العالى ذلك منعا لأى تأويل • وقصد فى اليوم التالى الى قصر الدوبارة برفقة رئيس تشريفات الخديوى ووضع بطاقة زيارته فى

مكتب المعتمد البريطاني ردا لزيارته ، وقد فعل ذلك في وقت يكون اللورد كتشنر غائبا فيه عن مكتبه •

***

وعرج الأمير عبد الله مرة أخـــرى على القاهرة فى أوائـل تموز سنة ١٩١٤ ، يوم كانت المشادة على أشدها بين الشريف ووهيب باشا الوالى والقائد العسكرى الجديد للحجاز ، وقد عين مكان الوالى كامل بك والفريق خير باشا ، أى أنه جمع السلطتين فى يده لينفذ تلك الخطة التى دبرها الاتحاديون للقضاء على الحسين وبنيه كما ذكرنا فى فصل سابق - وقد اصطحب معه سبع أورطات وأرطة مدفعية لتنفيذ السياسة التركية الجديدة فى الحجاز وهى مقاومة الشريف وقتل نفوذه ، وتطبيق قانون الولايات الجديد فى الحجاز بابطال العرف القديم القاضى باعفاء الحجازيين من الضرائب والخدمة العسكرية وتشييد سكة حديدية بين مكة والمدينة •

***

وبدأ وهيب باشا عمله بأن كتب الى الحسين طالبا منه ان يسلم السلطة العسكرية مئة بندقية كان يسلح بها حرســـه ، فلم يجبه على كتابه ، وألح الوالى الجديد فى طلبه وأصر الشريف على عدم الجواب ، وكانت النتيجة أن اصطدام الجند التركى بحـرس الشريف وتبـــادل الفريقان اطلاق الرصاص ، وأسفر الاصطدام على سقوط عدد من القتلى ، فخيل للناس آنذاك أن الفتنة قد ذر قرنها خصوصا بعد اعلان الاضراب العام فى مكة وجدة احتجاجا على مسلك وهيب باشا وخططه •

وأدرك الاتحاديون فى الاستانة أن وهيبا تعجل فى تصرفاته وأن الثورة تكاد تندلع فأشاروا عليه بالتريث وأعلنوا أن الحكومة دلت عن تنفيذ ما عهــدت به الى الوالى الجديد ، فعادت الأمور الى الاســـتقرار ، وهدأت النفوس ، ولكنها ظلت منطوية على الحقد والضغينة •

***

وتفاقمت الأزمة يوم كان الأمير عبد الله فى القــاهرة ينتظر مجيىء باخرة البريد ليسافر عليها الى الاستانة واجتمع يومذاك باللورد كتشنر والمستر ستورس ، فسلمه هذا كتابا وقال له : ان المستر فيتر موريس رئيس تراجمة السفارة البريطانية فى الاستانة سيأتى الى أزمير ليقابله فى الباخرة ويستلم منه الكتاب ، وأنه سيضع تحت تصرفه باخرة خاصة

ليبحر عليهـا من الآستانة متى أراد • فأخذ الأمير الكتاب وسلمه للمستر فيتر ولم يضطر لطلب الباخرة •

وجرى في هذه المقابلة حديث بين الأمير واللورد حول السـياسة التي ستتبعها بريطانيا حيال العرب فصرح هذا الأخير : بأن انكلترا تريد الحرص على ابقاء صلاتها ودية بالترك وانها تساعد العرب ضمن هذه الدائرة مراعاة لتقاليدها القديمة •

ولم يمض وقت طويل على وصول الأمير الى الآستانة حتى أعلنت الحرب العظمى وانحل مجلس المبعوثان وأهمل كل مشروع يتعلق بالبلاد العربية سواء من جهة الاصلاح أو من انشاء امارة في مكة • وبرح الأمير عبد الله الآستانة في ١٨ آب سنة ١٩١٤ وبرفقته أخوه الأمير فيصل ـ وكان نائبا عن جده في المجلس المتقدم ذكره ـ فوصلا الى القاهرة في الثاني والعشرين من الشهر المذكور ونزلا ضيفين في قصر عابدين • وزار المستر ستورس الأمير عبد الله في هذا القصر وأعطاه كتابا من الحكومة البريطانية الى والده لتشكره فيه على حسن قيامه بخدمة الأماكن المقدسة وسهره على راحة الحجاج » وتقول فيه أيضاً « انها لا تعارض في ارجاع الخلافة الى العرب » • ولم يقابل الأمير اللورد كتشنر اذ كان في ذلك الحين قد ذهب الى انكلترا ليتقلد وزارة الحربية •

★★★

وبدأت المراسـلات بين الشريف والانكليز في شـهر أيلول سنة ١٩١٤ • ففي أواخر هذا الشهر قدم الى مكة تاجر مصري من حي « الجمالية » يدعى علي أصغر وسلم الأمير عبد الله كتابا من المستر ستورس هذا مضمونه :

« أمرني اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانيـة ان أكتب الى سيادتكم وأسألكم فيما اذا كان سيادة والدكم لا تزالون على رأيكم الأول الخاص بالدفاع عن حقوق العرب » وقد سبق له أن أجابكم بعدم امكانه مساعدتكم في تحقيقها • أما الآن ففي استطاعة حكومة جلالة الملك ان تقدم لكم المساعدات اللازمة لأن الحكومة التركية قد عزمت على الدخـول في صف الأعداء وخرق الصداقة القديمة بين البلدين » •

فأخفى الأمير هذا الكتاب على أبيه ليقينه من صلابة عوده واخلاصه للدولة ورفضه الاتصال بالأجانب ، وصرف رسوله دون ما جواب •

وبعد أسبوعين عاد الرسول ومعه كتاب آخر للأمير من ستورس ، هذا فحواه :

« بما أن الأتراك عزموا عزما أكيـدا على دخول الحرب الى جانب الألمان ، وبما ان الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب فاني آسف لتركِكم كتابي بلا جواب وأرجو الاسراع في ارسال الرد على سؤالي » ٠

فلم ير الأمير عندئذ مناصا من اطلاع والده على الكتابين وسؤاله بما يجيب عليهما ٠ فضـحك الحسين وقال : « أكتب له في الصـيف ضيعت اللبن ٠٠٠ » ٠

ففعل الأمير ذلك وسلم تلك الجملة الى الرسول فحملها الى القاهرة ٠

ولم يقنط ستورس من مفاوضة الحسين بل أعاد الرسول نفسه الى الحجاز في شهر تشرين الثاني ــ أى بعد دخول تركيـا الحرب ــ وزوده برسالة ثالثة الى الأمير عبد الله هذا ما جاء فيها :

« بمـا ان الأتراك دخلوا الحرب الى جانب الأعـداء فنحن على أتم الاستعداد لمساعدة شريف مكة في قضيته وتقديم كل ما يريده من معونة » ٠

ولما اطلع الأمير والده على هذه الرسالة قال له :

« لا يمكنني أن أعمل شيئا قبل أن استشير العرب وأسألهم رأيهم » ٠

***

فأرسل الأمير الى المستر ستورس جوابا بهذا المعنى واعدا بتقديم مقترحات معينة في المستقبل ٠ وراح الحسين في هذه الآونة يدرس الموقف وينعم النظر في ما يجب عمله فرأى أن يوفد نجله فيصـلا الى دمشق فالآستانة ليشرف على الحالة فيهما ويتصل برجال العرب والأتراك ، وقد فعل ذلك على ما أشرنا اليه في فصل سابق ، ثم قفل عائدا الى مكة فأطلع والده وأخوته على كل ما عرفه وجرى له ٠ وعلى الأثر توجـه الشريف وأبناؤه الى الطائف وعقدوا مؤتمرهم في تشرين الأول سنة ١٩١٥ فقرروا فيـه اعـلان الثورة بالاتفـاق مع الانكليز على أسـاس تحرير العرب واستقلالهم ، وقرروا فوق ذلك ان يرجع فيصل الى دمشق ليتصل برجال العرب فيها الذين كان من رأيهم اعلان الثورة في الشام ، ويتفق معهم على الخطط الواجب اتخاذها لجعل الثورة عامة في الحجاز والشام معا ، وأن يتوجه على الى المدينة ويقيم فيها بحجة قيـادة المتطوعين فيتفق مع

شيوخ القبائل وينظم أمرهم تأهبا للثورة ، وان يتولى الأمير عبد الله تنظيم القبائل فى مكة وجوارها ويهيىء معدات العمل ويشترك مع أبيه فى المراسلات التى ستدور بينه وبين الانكليز · ولما عادوا من الطائف انصرف كل منهم الى القيام بعمله الخاص · محرضين المسلمين على تلبية نداء سيدهم ، ولا ريب بأن الحجاز نظرا لموقعها الجغرافى واحتوائها للحرمين الشريفين ، كان من الممكن أن تكون لها القائدة لهذه الدعاوى أو الحائلة دونها · وفاقا لاخلاص الشريف الحسين وتصرفاته · ومن المؤكد ان دعوة الى الجهاد توافق عليها مكة يكون لها فى العالم الاسلامى وقع أشد من وقع دعوة صادرة عن السلطة الدينية التركية وحدها ·

وقد كان الحسين يتمتع بنفوذ أعظم من نفوذ الزعماء الآخرين الذين ذكرناهم ، لا لأنه الوارث لحراسة الأماكن المقدسة وشاطىء الحج ، وسليل الأسرة الهاشمية العظيمة فحسب ، بل لأن بلاده ·

وفيما كانت المراسلات السرية قائمة بين شريف مكة ودار الحماية البريطانية فى مصر ، كان المستر ستورس يفاوض زعماء حزب اللامركزية فى القاهرة ، وقد باحثهم وسألهم عما سيفعلونه فيما اذا دخلت تركيا الحرب ، وعما سيكون موقفهم فيما اذا عمل الحلفاء على استقلال العرب ، كما سألهم هل يستطيع العرب مساعدة الحلفاء لتحقيق هذا الأمر وهل يمكنهم القيام بأعباء استقلالهم ؟

فردوا عليه بأن العرب يتوقون الى الاستقلال واعادة أمجادهم الغابرة ، هذا اذا انهارت دولة الأتراك ، وأعيبوا عن استعدادهم لعضد كل حركة ترمى الى تحرير العرب مهما كان شأنهم ·

***

وبعد مفاوضات كثيرة اتفق الفريقان على ان يكتب أقطاب الحرب المذكورة شروطهم الخاصة باستقلال العرب ويرسلوها الى اللورد كتشنر ليعرضها على حكومته ، فاذا وافقت عليها اذاعتها رسميا بواسطة شركة « روتر » البرقية ليطلع عليها العالم ، بشرط أن تتعهد بريطانيا العظمى بحمل حلفائها على قبول هذه الشروط حتى لا يكون فى المستقبل مجال للطمع فى الأقطار العربية · وفى مقابل ذلك تتعهد الهيئات العربية السياسية ببذل الجهود لاشعال الثورات فى البلدان العربية لشل حركة الجيش العثمانى ·

وفى الواقع كتبت تلك الشروط وأرسلت الى حكومة لندن ·

وكان لابد لحزب اللامركزية من أن يوفد بعض مندوبيه الموثوق بهم الى الأقطار العربية ليدرسوا أحوالهــا ويتصلوا بزعمائهــا ومفكريهــا فيطلعوهم على الاتفاق المذكور ، وتكفلت دار الحماية بدفع النفقات ٠

***

وفى الواقع سافر محب الدين الخطيب الى البصرة ، والشيخ محمد القلقيلي الى سوريا وفلسطين ، وذلك بالطبع قبل دخول تركيا الحرب ٠ بيد ان القلقيلي لم يمكث طويلا فى دمشق وبيروت وعاد بلا ابطاء الى القاهرة لخوفه من سوء العاقبة ، وأما محب الدين الخطيب فكان نصيبه ان أعتقله الانكليز فى البصرة وزجوا به فى السجن مدة عشرة أشهر ٠ وعاد بعد أسابيع بيان الحزب اللامركزى من لندن مشوها مبتورا فلم يقبل بذلك اللامركزيون وقطعوا المحادثات مع الانكليز وكفوا عن العمل ٠

ويبقى فى هذا المجال ــ مجال الحديث عن المفاوضات والمباحثات التى قامت بين الانجليز والشريف حسين بن على ــ الرواية التى رواها الأمير عبد الله نجل الشريف حسين بن على فى مذكراته ٠ ونستأذن فى الاطالة فى هذه الرواية ، لأن مذكرات الأمير عبد الله ــ الملك عبد الله فيما بعد ــ قد تميزت بالدقة والشمولية وازاحة الستار عن كثير من الأسرار التى كانت خافية علينا :

ويقول الأمير عبد الله ــ أنه بينما كان خديو مصر ــ عباس حلمى الثانى يؤدى فريضة الحج ، كان هو ــ عبد الله ــ مصابا بمرض التيفوئيد فلما شفى منه سافر الى مصر فى طريقه الى الآستانة ، ولما وصــلت الباخرة السويس ، وجدت فى انتظارى على رصيف الميناء محافظ السويس والشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، وعلى بك شاهين تشريفاتى الخديوى ، وقد أوفدهم الخديوى المرحوم للتحية والدعوة للنزول ضيفا عليه بقصر رأس التين بالاسكندرية ، فشكرتهم ورجوتهم أن يبلغوا سموه امتنانى وقبول الدعوة الكريمة مع الشكر العميق ، ثم أبرقت لسموه بهذا المعنى ٠

***

ولقد كان الوالد المرحوم جعلنى فى رفقة سموه مدة الحج ، فعرفنى حق المعرفة ومال الى بكليته ، فسافرنا من السويس فى قطار خاص الى الاسكندرية ، وكان الغداء والعشاء فى القطار ٠ أما هؤلاء الذوات فبعد أن أدوا واجبهم تخلفوا فى القاهرة ، ماعدا على بك شاهين والشيخ حازم ابن مليحم مقوم الحج المصرى ، فانهما سافرا معى الى رأس التين ٠ ونفضل

سموه فقابلني في اليوم الثاني ، بذلك القصر الفخم الذى كان يزداد بهاء بطلعة سموه المشرقة ، اسكنه الله فسيح الجنة وأبدله دارا خيرا من داره ، فانه الغريب الشهيد ٠

ولما رآني قال مبهوتا : « مالك ؟ دانت خسيت ٠٠٠ جرى ايه ؟ » ٠

فأجبته : ما من شيء يا أفندينا ؟ وانما حمى أصابتني بعد سفر سموك من المدينة ، واستعرت بي أكثر من خمسة وعشرين يوما ثم زالت ٠

فقال : متى تسافر ؟ فقلت : ان أذن سموك فالسفر غدا انشاء الله ٠

فأجاب : « ما يصحش قبل أن يفحصنك الدكتور كاوسكى بك فنرى المرض ده هو أيه » ٠٠ وبعد المعاينة بأخذ الدم من اصبعى ، قال الطبيب كاوسكى ان مرضى كانت الحمى التيفودية ، ورتب علاجا استعمله ٠

★★★

ويقول عبد الله فى مكان آخر من مذكراته : انه بينما كان فى لقاء مع الخديو عباس حلمى الثانى ، دخل رئيس التشريفات وأخبر الخديو بأن اللورد كتشنر قد حضر ، فقمت مستأذنا فقال الخديو أنه قد علم أنك هنا وليس من اللياقة أن تخرج فاصبر لأعرفك بـه ، فدخل اللورد بقـامته الطويلة سلم على الخديو ٠ فقال له الخديو : هذا الأمير عبد الله بن أمير مكة الحسين بن على ثم قال لى : هذا اللورد كتشنر قنصل عام بريطانيا بمصر ، فتصافحنا ٠ ثم قال له : هذا يد والده الفعالة ، وقد أصيب بجراح فى احدى غزواته ٠ فأشار اللورد كتشنر الى عنقه وقال : وهذه اصابة أصابتنى فى حرب السودان ٠ فقلت مازحا : انك يا فخامة الرئيس لهدف لا يخطأ ٠ ولكننى أقصر منك قامة فكيف أصابنى ذلك البدوى ؟

وكنت نازلا فى قصر عابدين ، وبعد وصولى اليه جاءنى التشريفاتى على بك شاهين وقال : اللورد كتشنر هنا وقد جاء لزيارتك ٠ وكانت مباغتة خفت عاقبتها على سياسة والدى من الأتراك ٠

ويقول عبد الله ان كتشنر دخل ومعه رونالد ستورس السكرتير الشرقى فى دار المعتمدية البريطانيـة فى مصر وقـد أبلغ كتشنر الأمير عبد الله رضاء الحكومة البريطانية عن الحالة الراهنة فى الحجاز حيث الأمن وراحة الحجاج كما أبلغه ان يبلغ والده بأن حكومة بريطانيا لا ترضى بأى تغيير فى الحجاز ٠ ٠٠

★★★

واقترح الخديو عباس حلمي على الأمير عبد الله أن يرد الزيارة للورد كتشنر ، وقد استأذن عبد الله من المندوب السامي التركي في ذلك فوافق على الزيارة ، وقد قرر عبد الله ان يزور دار المعتمدية في وقت لا يوجد بها كتشنر حتى يكتفي بترك بطاقة له ٠ ولكنه ـ كتشنر ـ كان موجودا بالدار وقت الزيارة ٠ وقد حاول كتشنر في تلك المقابلة أن يتحدث عن التغييرات المرتقبة في السياسة ولكن عبد الله كان محتاطا في الأمر فانتقل بالحديث عن الكويت وتدخل حكام الهند في أمورها ٠

ويقول الأمير عبد الله : ان علي أفندي البزار وهو مصري الأصل قد جاء الى الطائف وأراد مقابلته واذا به يحمل كتابا من ستورس يقول فيه : ان الدولة العثمانية قد ضربت عرض الحائط بصداقتها التقليدية من بريطانيا العظمى وانضمت الى صفوف الألمان ٠ فان بريطانيا العظمى ترى نفسها في حل من تلك التقاليد التي كانت تربطها بتركيا . وتساءل ستورز : هل أنتم وسمو والدكم مازلتم على رأيكم الأول في القيام بما يجر الى استقلال العرب استقلالا تاما ؟ فان كنتم وسموه على ذلك الرأي الى الآن فان بريطانيا على استعداد لامداد الحركة العربية بما هي في حاجة اليه ٠

ويعرض عبد الله الرسالة على والده فيطلب منه ان يكتب لهم بوصول الرسالة وبأنه على غير استعداد في الوقت الحاضر للمطالبة بحق العرب ٠

ويعود البزار بعد شهر يحمل رسالة من ستورز وبها رسالة من مكماهون الى الشريف حسين بن علي ٠ ويرد الحسين بن علي : لقد ضيعت الصيف اللبن ٠٠

ثم تتابعت رسائل مكماهون الى الشريف الحسين بن علي ورسائل الشريف الحسين بن علي الى مكماهون وتتوالى الأحداث بسرعة في الحجاز وفي كافة أرجاء الخلافة العثمانية ٠

***

وعن الاتصالات بعزيز المصري ٠ يقول محمد صبيح : ان الانجليز كانوا ـ مع بدايات الحرب العالمية الأولى ـ يبحثون عن طاقات يستفيدون بها بالاضافة الى الشريف حسين وأسرته وكان لديهم في مصر رجل لا يكفون عن التفكير في شأنه في تدقيق شديد وعناية بالغة ، وهذا الرجل هو عزيز علي المصري فهم يعلمون عن معين قدراته ونفوذه عن كل

الشخصيات العربية التى عاشت فى المحيط العثمانى · وقد تفرقوا الآن بين الأقطار العربية ، وان كان بعضهم قد استشهد فى مشانق جمال السفاح ، وأهم زملاء ، بل أعز زملاء ، سليم الحجازى ، وأمين لطفى ، وكانا مثل عزيز من كبار ضباط الجيش العثمانى ، وقد ظل ـ محمد صبيح ـ كلما جاء ذكر هذين الشهيدين غاية وجهة فى سحابة من الحزن النبيل ، وكان عزيز قد أدار ظهره نهائيا للدولة الاتحادية فى تركيا · وقد كانت مآسى السفاح جمال فى سورية عاملا هاما نزع من نفس عزيز المصرى كل عطف على أتراك الاتحاد والترقى · ولكن هل هذه المآسى ، ومنها مأساة عزيز نفسه مع أنور باشا ·· هل كانت كافية لتحول عزيزا الى عدو للأتراك وقد أقام معهم سبعة عشر عاما هى زهرة أيام الشباب ؟

★★★

الحقيقة ان عزيزا ـ كان وظل طول حياته ـ يقدر للأتراك كشعب مناضل فضائله ··· وكان يذكرنا دائما بأن اربعة قرون كاملة وقف الأتراك فيها على خط القتال ضد أوروبا وروسيا ، وسفكوا فيها دماء الملايين من أبنائهم ··· هزموا وانتصروا ، ولكنهم صدوا عن أنفسهم وعن المنطقة العربية تجدد الغزو الصليبى ، وكان طريقه عبر البسفور · ولولا حروب الأتراك ، ونقلهم المعارك الى قرب أوروبا ، حتى لقد طرقوا أبواب فيينا ، لكنا فى الشرق الأوسط نتكلم الآن لغة غير عربية ·· ربما كانت روسية ، ربما كانت المانية ·· من يدرى ؟ !!

★★★

ونحن لا ننكر أن بعضنا كان يتكلم التركية ، ومنا عزيز المصرى · ومنا مئات ، بل آلاف القادة العرب الذين تصدوا للكفاح من أجل الاستقلال · ولكنها كانت لغة الخلافة ·· لغة اسلامية ، أو قل لغة شرقية نقبلها ·· ونرفضها حسب الظروف ، وحسب تقلب الأيام · ولكنها لم تعتمد على لغتنا الأصلية اللغة العربية · بل لعل اللغة العربية غزت جوانب من حياة الأتراك أنفسهم ، لأنها لغة العثمانيين ·

وفى حوارنا المستمر مع عزيز المصرى ، وافق على نقطة واحدة ، وكان نادرا ما يقتنع بالرأى الآخر ! ··· وافق على أن خطيئة العثمانيين الكبرى ، هى أنهم لم يتعلموا اللغة العربية ولم يفرضوها على منطقة البلقان التى دانت لهم أمدا طويلا ·· ولو أنهم فعلوا ـ وقد أسلمت منهم ملايين كثيرة ـ لو أنهم فعلوا ، لصان القرآن لسانهم ، ولما وقعوا فى حيرة حائرة بعد أن ارتد الأتراك عن بلدانهم ·

لقد ترك العثمانيون بلغراد عاصمة يوجوسلافيا ، وفيها ٣٠٠ مسجد ، يتلى فيها القرآن ، وتقام فيها الصلاة ، بلكنة تركية ، ومع مضى الأيام ، وتغير الحكام ، أخذت هذه المساجد تتهدم ، فلا تجد من يعنى باقامتها ، وأخذت الآيات من القرآن التي تؤدى بها الصلاة تبهت من ألسنة وأفئدة المسلمين هناك ، حتى لم يبق الا مسجد واحد ، تحول الى متحف ، ثم أعيد مسجدا ‥ مجاملة لمصر ٠ وكل ذلك لأن اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ، ولغة هذا القرآن ، لم تتقرر كلغة ثانية ، فى تركيا أولا ، ثم فى البلقان ثانية ٠

وهنا قال عزيز :

ـ ولماذا لم ينفذ عمر بن الخطاب ما تقول وهو أبو الفتوحات العربية الكبرى ؟ ـ فأجبته :

ـ ليته فعل ٠

★★★

نعود بعد هذا الاستطراد لنقول ان عزيز المصرى كره الحكم والحاكمين فى تركيا ، وقرر أن يبذل جهده ـ كل جهده ـ للعمل على استقلال المنطقة العربية ، فى الحدود التى وردت فى ميثاق جمعيته ـ العهد ـ مع اضافة مصر اليها ، بعد الفراغ من الاحتلال التركى ٠

وما كان يمكن لعزيز أن يهمل وطنه الأم ، وقد عاد الى أحضانه ، ووجد الاحتلال البريطانى ينشب أظافره فيه ، بكل ما فيه من دهاء وافتراس ٠ ولكن مشكلة مصر تحتاج الى وقت ٠ أما مشكلة المنطقة العربية الآسيوية فقد فتح موضوعها على مصراعيه ‥

عرضت العناصر العربية الوطنية على عزيز ان يسافر الى الحجاز ، ليتولى قيادة الجيش العربى ‥ فقد أعلن الشريف حسين الثورة ، بأن أطلق من مسدسه طلقة فى اتجاه المعسكر التركى ٠ وتمكن ابنه فيصل من الهرب من دمشق بتدبير محكم ‥ وكم تأسف « سفاحنا » جمال باشا لافلات الطائر من قفصه ، ولعدم القبض على أخيه على ، وكان فى المدينة المنورة ، والحامية التركية فيها قوية ، ولعدم ارسال قوة الى مكة لتقبض على الشريف نفسه ٠

قال جمال فى مذكراته : وانى وأيم والله لو علمت وقتئذ (ترقب الشريف الفرصة الملائمة للقيام بالثورة) لكنت أمرت غير متراخ بالقبض

على فيصل فى دمشق ، وعلى أخيه فى المدينة ، ولأرسلت فرقة تركية على جناح السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين وأولاده على تلك الثورة المشئومة فى مهدها ٠ ولكن ماذا عساى كنت أفعل فى تلك الظروف ، ولم تكن لدى بعد البراهين الكتابية على التدابير الجنائية التى كان يقوم بها أولئك ٠

★★★

وتشير الدراسة التى كتبها الأستاذ مجيد خدرى الى تآمر أنور باشا ومن معه ضد عزيز على المصرى والحكم عليه بالاعدام بتهمة ملفقة ، مزيفة ، وأثر ذلك الحكم فى الرأى العام العربى ٠ « لقد عمت ــ مجيد خدورى ــ المظاهرات البلاد مطالبة الحكومة التركية بالافراج عن عزيز المصرى ، وكان الزعماء العرب أقوى العناصر المدافعة عن عزيز وتحت ضغط الرأى العام العربى وأطلق الأتراك سراح عزيز ٠ فشد عزيز رحاله الى القاهرة حيث عاش أدق فترات التاريخ ٠ فسنة ١٩١٤ وهى السنة التى نشبت فيها الحرب العالمية الأولى ، وقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا والنمسا ضد انجلترا وفرنسا وروسيا ٠ وكانت بريطانيا فى حاجة الى تجميع أكبر قدر ممكن من الزعماء العرب فى صفها لتواجه بهم الدعوة الى الجهاد التى نادى بها السلطان العثمانى ٠

فاتصل الانجليز بالزعماء العرب وعلى رأسهم دعاة القومية العربية فى الشام ، وبالشريف حسين فى الحجاز ، وبطالب النقيب فى العراق وبعزيز المصرى ورشيد رضا فى مصر ، وبعبد العزيز بن سعود وحثهم الانجليز على الثورة على الأتراك ، وكانت أهم الاتصالات تلك التى جرت بين مكماهون والشريف حسين ٠ وانتهت مفاوضات الحسين / مكماهون بموافقة الأول على اعلان الثورة دون الحصول على تأكيدات واضحة من الانجليز بحصول البلاد العربية على الاستقلال بعد الحرب ٠

وعندما اتصل الانجليز بعزيز على المصرى وجدوا أمامهم رجلا على مستوى الموقف مدركا لمقدراتهم على التغرير بالزعماء ، ولهذا أبدى عزيز استعداده للتعاون مع الانجليز اذا ما أصدروا تصريحا واضحا يعترفون فيه باستقلال البلاد العربية استقلالا تاما بعد الحرب ٠ كذلك طالب عزيز الانجليز بعدم انزال أية قوات انجليزية فى العراق أو سورية وقال لهم أنه كفيل بأن يحرر العراق من الأتراك أو أمده الانجليز بالسلاح ٠ ولكن الانجليز لم يضمروا للعرب الا الاستعمار فرفضوا هذه المطالب ٠

والجدير بالذكر أن مثل هذا الموقف حدث بين رشيد رضا والانجليز وكذلك بين الانجليز والزعيم العربى العراقى طالب النقيب · ذلك لأن هؤلاء الزعماء (عزيز على وطالب النقيب ورشيد رضا) كانوا أدرى من الشريف حسين بنيات الانجليز نحو البلاد العربية · ومن وجهة نظر الانجليز كان الشريف حسين هو الرجل الملائم للثورة العربية ، لأنه يعيش بعقلية متخلفة لا تستطيع ان تقف موقفا قويا فى وجه الدبلوماسية الانجليزية ·

***

ويقول الأستاذ أنيس صايغ عند كلامه عن اتصال الانكليز بالقيادات العربية ـ فى مطلع الحرب العالمية الأولى ـ للثورة ضد الحكام الأتراك حصر المسئولون الانجليز اتصالاتهم بزعماء الحركة الوطنية ، وكان معظمهم اما من ضباط الجيش أو من المثقفين الشبان أو من الأثرياء الوجهاء أصحاب النفوذ الواسع · وكان ذلك عكس ما حصل فى عام ١٨٤٠ لما أثار الانجليز السوريين ضد الحكم المصرى · اتصلوا آنذاك بالأوساط الشعبية نفسها وتوددوا اليها واستعملوا كل وسيلة واغراء لاثارتها · لم يخافوا من رد فعل شعبى ضدهم لأنهم لم يكونوا يفكرون باحتلال سورية · أما فى عام ١٩١٦ فقد اختلفت الأوضاع · كانت نيتهم احتلال البلاد العربية احتلالا مباشرا من بعد طرد العثمانيين · لذلك انحصر الاتصال بجماعة محدودة من العسكريين والسياسيين ممن سهل على الانجليز ـ فيما بعد ـ استمالة معظمهم الى جانب الاحتلال أو الانتداب · مكن ذلك الاجراء الانجليز من تنفيذ مخططهم الذى لم يخشوا عليه الا من وعى الشعب القومى ·

ثم يقول : انحصر الاتصال ، مقابل عزل الشعب هذا ، بنفر من قادة الحركة الوطنية من الهاربين الى مصر ، وكانت الحكومة البريطانية تطلع على نشاطهم وتعرف أخبارهم ، وكانت العلاقات بينها وبين الأحزاب العربية « ودية » ·

لم يكن موقف الوطنيين العرب مشجعا فى بادىء الأمر · أبدى معظمهم تمنعا وتصلبا أمام الاغراءات البريطانية · وقد حرضهم عزيز المصرى على ذلك وتزعمهم ، وهو المناضل الذى لم تنطل عليه الحيل الأجنبية فقد خشى أن يؤدى التسرع فى موالات الخلفاء والثورة على الأتراك الى ايجاد فراغ يسده الانجليز قبل أن تسده الحركة العربية ذاتها · وخشى أن ينزلق العرب بواسطة القائمين على شئونهم السياسية الى أحضان

الامبراطورية دون ان يدركوا ماذا يعملون ، بسبب عدائهم الشديد للأتراك ، وخشى ان تكون الثورة ابدال مستعمر بآخر ٠

أوعز المصرى الى أعوانه فى حزب العهد فى سورية والعراق ومصر بأن يتصلبوا أمام المفاوضين الانجليز وألا يتعهدوا لهم بشيء ما لم يحصلوا على وعد أكيد بأن يستقل العرب فى آسيا ويتحدوا استقلالا ووحدة كاملين ٠ وأصدر تعليماته بهذا الخصوص أثر وصوله الى القاهرة بعد أن أفرج الأتراك عنه وأعيد الى القاهرة تحت نقمة الرأى العربى العام على اعتقاله وتدخل الانجليز ، وقد ظن الانجليز أن التدخل لصالحه قد يفيد فى استمالته ٠ وظهر لهم بعد أشهر ان الرجل لا يساوم على أهداف الحركة التى كان من مؤسسيها ٠

★★★

بدأ الانجليز يجسون نبض المصرى ورفاقه فى أواخر ١٩١٤ بواسطة الخبيرين البريطانيين بالشئون العربية ستورز وكليتن ، وأصر المفاوضون العرب على ان تتعهد الحكومة البريطانية رسميا بأن لا مطمع لها فى أى قطر عربى وانها لا تمانع فى استقلال العرب واتحادهم ان وقف العرب الى جانبها فى الحرب كما طالبوا بألا يشترك فى العمليات الحربية جنود فرنسيون فى الجبهة السورية ولا جنود بريطانيون فى الجبهة العراقية ٠

★★★

وقد أراد المصرى من هـذا التحفظ ان يقطع الطريق على ما توقع حصوله من مؤامرات ٠ وعوضا عن الجنود الانجليز والفرنسيين تعهد المصرى بأن يؤلب أحرار سوريا والعراق ويجندهم للقضية بالاتفاق مع الزعماء الوطنيين فى البلدين ٠ زعم المفاوضان الانجليزيان أنهما يوافقان على هذه المطالب وأخذ المصرى يستعد للسفر الى العراق ليحضر للثورة من هناك الى أن أذيع خبر نزول القوات البريطانية فى البصرة ٠ ومع ان رجال السياسة البريطانية فى مصر ادعوا أنهم كانوا يجهلون الأمر قرر المصرى وبعض أصحابه مقاطعة المفاوضات مع الانجليز ، وأخذوا يترقبون الأحداث من بعيد ، خاصة ان اعلان « الحماية » على مصر زاد فى فضح النيات البريطانية ٠

★★★

غير ان أغلبية الوطنيين السوريين فى مصر رأت تحذيرات المصرى مبالغة فى التشاؤم ، واعتبرت موقفه موقفا سلبيا أكثر من اللزوم ٠

وخرج أفرادها عن نصيحته وتابعوا اتصـــالاتهم مع المسئولين الانجليز متأملين التوصل الى حل وسط يرضى الانجليز ولا يتنكر للأهداف العربية. وكان هؤلاء ممن استضافهم الانجليز عند لجوئهم الى مصر هاربين من جور الأتراك وكان عداؤهم للحكم التركي يحجب عن أنظارهم مخاطر التسرع بالاتفاق مع أعداء الأتراك .

وحينما أخذ عزيز المصري يعد رسائله الى رجال حزبي العهد والفتاة في سورية ، يشير فيها عليهم بالتمهل قبل اتخاذ أي موقف حاسم ، كان رجال الحركة الوطنية في سورية ، من مختلف الأحزاب قد بدأوا بالاتصال بالشريف حسين وأرسلوا أحد وجهائهم ، فوزي البكري ، ليعرض على أمير مكة فكرة الثورة على الأتراك بعد أن كانوا قد فشلوا في مباحثاتهم مع أمراء آخرين في شبه الجزيرة . وكانت تلك المباحثات قد بدأت اثر صدور الحكم باعدام عزيز المصري . فخشي الأحرار ان يستمر الأتراك في تعقب المناضلين العرب . وقرروا أن يثوروا قبل ان يفوته الأوان . فاتصلوا بابن سعود وسلطان مسقط وعلي حيدر . ولكن محاولاتهم باءت بالفشل .

***

وقبل أن تصل توجيهات عزيز المصري الى زعماء سورية كان موفدهم الى الحسين قد وصل الحجاز في يناير ١٩١٥ وبدأ مباحثاته ، غير ان الحسين لم يلب الدعوة ولم يشجع الفكرة . ورفض أن يجيب الطلبـات وكانت رسائل ستورز وكتشنر قد بدأت ترد عليه — كما مر بنا — ووجد ان القضية جدية وان كلا الطرفين يدعوه لاتخاذ موقف حاسم فقرر — ازاء ارتباكه — ان يرسل ثالث أنجاله الى دمشق والآستانة ليدرس الموضوع فيهما من ناحيتيه المتناقضتين وليطلع على وجهتي النظر العربية والتركية .

ثم يلخص الأستاذ أنيس الصايغ الاتصالات البريطانية بقوله : ان الانجليز فعلوا جهدهم للحصول على تأييد الحسين دون أن يتنازلوا عن مصالحهم في المنطقة ، بل انهم فعلوا ذلك لحماية مصالحهم . وأخذوا الى جانب اتصالاتهم مع الحسين ، يضـغطون على أحرار العرب في مصر ، وجلهم من السوريين ، ليتفاهموا معه ومعهم وليتفقوا على الثورة . وواجه كل من ستورز وكلايتون وكوكولس صعوبة في اقنـــاع عـدد من هؤلاء المناضلين ممن لم يبرأوا من شكوكهم بالحسين والانجليز من أصدقاء عزيز المصري أو زملائه في حزب العهد (وبينهم أسعد داغر وعبد الرحمن شهبندر ومحمد شريف الفاروقي) .. وقد دعا هؤلاء الى مساعدة العراقيين والسوريين ليثوروا على الأتراك دون فرض ثورة معينة عليهم من خارج

البلدين قيادتها الاسمية فى أيدى عائلة لم تشترك بالجهاد قبلا ، وقيادتها الفعلية فى أيدى الطامعين بالبلدين طمعا مفضوحا ٠

***

هنا يظهر نورى السعيد على مسرح الأحداث من باب مجهول ليقوم بدور رئيسى ٠ كان ذلك الضابط العراقى فى ذلك الحين عضوا فى حزب العهد السورى وواحدا من عشرات الضباط العرب الناقمين على الأتراك وكان عضوا عاملا فى معظم المشاريع التى قام بها الضباط لتحقيق المطالب القومية ٠

وما أن أذيع نبأ اعتقال عزيز على المصرى ، مؤسس العهد ورئيسه ، حتى هرب السعيد الى العراق ونزل فى حمى طالب النقيب ٠ وأخذ يتصل بأمراء شبه الجزيرة من البصرة يطلب تأييدهم للنضال العربى ولابد أن عاملا ما دعا السلطات البريطانية الى الوثوق به والتعاون معه بالرغم من قيام المسئولين فى الهند باعتقال وطنى البصرة أواخر ١٩١٤ ٠ فبينما نفى طالب النقيب الى سيلان خوفا من ميوله التحررية ترك نورى السعيد حرا وسمح له بمزاولة نشاطه السياسى ، ثم استضافه الانجليز فى الهند عدة أسابيع ضيفا مكرما الى ان حملته احدى سفنهم الحربية الى مصر حيث أقام أشهرا ، برغد وبحبوحة ينفق المال على أصحابه المناضلين السوريين والعراقيين بسعة ٠

ويمضى الأستاذ أنيس صايغ قائلا ٠٠ : نقل السعيد الى مصر فى ديسمبر ١٩١٥ ، أى فى الوقت الذى اقترب الانجليز فيه من التفاهم مع الحسين ، وأصبح عليهم أن يزيلوا معارضة بعض المعارضين العرب له من داخل صفوف هؤلاء فى سورية ومصر فأخذ السعيد يتزعم تيارا يعمل لصالح الحسين ويهاجم معارضة عزيز المصرى ورفاقه وحجته ان لابد من القبول بالأمراء الهاشميين بعد أن عجز المناضلون عن استمالة الأمراء الآخرين ٠ وانضم الى السعيد فى هذه المحاولة زميل له عراقى كان الانجليز قد أسروه فى طرابلس الغرب وهو جعفر العسكرى ٠

***

مر الثلث الأول من ١٩١٦ والصراع شديد حول الموضوع : صراع بين مدرستى الهند ومصر من جهة ، وصراع آخر بين جناحى المصرى والسعيد فى صفوف الحركة العربية ٠ ومع تقارب وجهات النظر بين جناح السعيد والمدرسة المصرية جمع بينهما كانت العلاقات مقطوعة تماما بين

جناح المصرى والمدرسة الهندية . وكانت أسهم الحسين ترتفع وتنخفض مع تطورات ذلك الصراع وتقلباته ، الى ان حمل شهر مايو من تلك السنة ما دعم رأى المدرسة المصرية أمام السلطات البريطانية ودعم رأى الجناح السعيدى فى الحركة العربية . فقد اندحرت فى أواخر ابريل القوات البريطانية فى العراق وتعرضت لخسائر كبيرة ، ثم اعتقل جمال باشا ، حاكم سورية العسكرى وقائد الجيش العثمانى الرابع ، العشرات من المناضلين العرب فى سوريا وعلقهم على أعواد المشانق فى بيروت ودمشق فى الأسبوع الأول من مايو ـ وكان أحرار سوريا قد رضخوا لنصائح عزيز المصرى وتعليماته بالتروى فى علاقاتهم مع الهاشميين والانجليز ، بعد مباحثات جرت بينهم فى ١٩١٥ . غير ان ذلك لم يمنعهم من مواصلة نشاطهم الدعاوى للقضية العربية ، مما أوقعهم فى قبضة الأتراك .

ويرى الأستاذ أنيس صايغ ـ ومعه الحق فيما يرى ـ أن الرأى العام المصرى كان فى الحرب العالمية الأولى الذى عادى الانجليز واستنكر احتلالهم وادى النيل منذ ١٨٨٢ يتطلع الى الأتراك بعين العطف .

على رأس المصريين القلائل الذين شذوا عن التيار الفطرى فى مصر ، وقلبوا مشاعرهم الوطنية فى اتجاه عربى الضابط عزيز المصرى .. فمنذ ١٩٠٨ وهو يعمل مع الحركة الوطنية العربية ، حينما اشترك فى تلك السنة بتأسيس جمعية العربية الفتاة مع نفر من الضباط العرب . ثم أسس الجمعية القحطانية وحزب العهد . وقد تولت هذه المؤسسات الثلاث النضال ضد الأتراك منذ ١٩١٣ نضالا شديدا ، وطالبت باستقلال تام بعد أن لمست خديعة رجال تركيا الفتاة بالعرب . وكانت شوكة فى جانب الحكم التركى أقلقت بال رجال ذلك الحكم مدة طويلة .

★★★

عرف عزيز المصرى بالتمسك بعقيدته وعدم التساهل أمام الاغراءات أو الصعوبات وعرف بحذره الشديد من الأتراك ومن الانجليز والفرنسيين على السواء . وذكر جمال باشا ـ الملقب بالسفاح ـ فى مذكراته أن المصرى كان يتهم كل عربى يقبل بما هو أقل من الاستقلال بالخيانة . وذكر أيضا ان المصرى قال له مرة بجرأة « ماذا عمل الأتراك لنا نحن العرب غير محاولة ابادتنا واستعبادنا واهانتنا ، حتى تتوقعوا أن نكون أصدقاء لكم ؟ » . فى الوقت الذى تباهى الهاشميون وغيرهم بصداقتهم مع الأتراك وولائهم لهم . كان المصرى يجاهر بعدائه ويبث أفكاره القومية بين اخوانه من الضباط لتأسيس دولة عربية موحدة .

أوقعه هذا الجهاد الذى لم يكن صامتا فى جميع الأحيان فى ورطة كبيرة حينما اكتشف الأتراك بعض أسرار حزبه واعتقلوه ، وحكمت المحكمة العسكرية عليه بالاعدام • غير ان الرأى العربى العام هب ضد الحكم • وحرصت الحكومة البريطانية أن تستغل المناسبة لكسب ود العرب فتدخلت لمصلحته مما جعل الحكومة التركية تستبدل الاعدام بالنفى • وكان ثلاثمائة ضابط قد هددوا بالعصيان ان أعـــدم زميلهم . حسب بعض الروايات وضغطت الأحزاب العربية العلنية على حزب تركية الفتاة • ودعت الجمعية الاصلاحية فى البصرة الى الانفصال عن السلطنة • ومن جهة أخرى أملت السلطات البريطانية ان يتيح لها عطفها على « المصرى » السيطرة على حزبه ثم على الحركة العربية بوجه عام بواسطته •

★★★

غير ان عزيزا لم يكن سياسيا رخيصا يباع ويشترى • ولم تكن المناصب تبدل عقيدته • وقد احتفظ بصفاته هذه طيلة حياته • ولم تحل الوظائف الكبرى التى استلمها بين ١٩١٦ و ١٩٥٦ دون أن يمارس واجباته القومية حتى وان تعارضت مع المسئولين فى بلاده • لذلك رفض ان يوالى الانجليز عندما اشتعلت نيران الحرب العـــالمية الأولى بعد نقله الى مصر بأشهر قليلة • واشترط قبل اتخاذ أى موقف حاسم ، ان يتعهد الانجليز بتحقيق المطالب العربية كلها • وسبق ان استعرضنا هذا الموقف وما جرى له من تعديلات بسبب لجوء الأتراك الى سياسة تعسفية فى سورية لم يصبر الأحرار عليها مما أدى الى تلاقى الحركة العربية مع الدعوة البريطانية للتعاون والى اتفاق الطرفين على عمل موحد فى الحجاز •

★★★

بقى المصرى حتى ذلك الحين متمسـكا برأيه بسبب مخاوفه من الأطماع البريطانيـة فى الشرق الأوســـط وشـكوكه بقدرة الهاشميين واخلاصهم • واستمر يدعو الى حياد العرب فى الحرب مؤقتا الى أن بايع معظم رفاقه الحسين واتصـــلوا بالانجليز ووضـعوا الخطط السياسية والعسكرية المشتركة • وتعرض لضغط معنوى شديد والحاح متواصل من اخوانه فى الحزب والجيش من الأحرار المقيمين فى مصر • فقبل أخيرا ان يشترك بالثورة شرط ان تظل كما أريد منها ان تكون ، مرحلة من مراحل النضال القومى الصرف بعيدة عن المصالح الفردية والأجنبية • وكان اخوانه خلال ذلك الوقت قد بذلوا ضغطا والحاحا مماثلين على السلطان البريطانية وعلى الشريف حسين لدعوة المصرى للعمل فى الثورة • ولكنهم رفضوا فى

بادىء الأمر ، رفض الانجليز المصرى قائدا فعليا للثورة لأنهم لم يجهلوا موقفه منهم ومن مشاريعهم . فكان قد فاتح سنورز بشكوكه منذ ١٩١٤ ، وارتابوا من نتائج احتكاكه مع زملائه الضباط وتأثيره فيهم وصلابته أمام تدخلات ضباطهم ومؤامرات سياسييهم وخافوا ـ بنوع خاص ـ أن تسهل قيادته للحركة العربية اقحاما فى الجهاد العربى واخراجها عن عزلتها التى عمل الانجليز على ابقائها فيها ، وخافوا ، أخيرا أن تعطل قيادته الزعامة الهاشمية وتفتضح ارتباطاتها بالانجليز .

***

أما الحسين فقد أعلن عن تحفظه تجاه استقدام الضباط السوريين والعراقيين المعروفين بنضالهم الوطنى منذ البدء . وكان يماطل فى ارسال الدعوات لهم ولا يفعل ذلك الا تحت ضغط أحرار العرب الذين ذهبوا الى الحجاز منذ أيام الثورة الأولى ، كان يخشى ان ينسب اليهم فضل الثورة ونجاحها وان يحول اشتراكهم بها دون تسميتها ثورة هاشمية . عارض ـ لهذا السبب ـ فكرة الاستعانة بعزيز المصرى ، وظل يرفض اقتراحات وكيله فى مصر بوجوب دعوة المصرى للحجاز الى آخر لحظة نظرا لما له (أى للمصرى) من الحياة السياسية العجيبة ومن العزم والثبات بأفكاره ، كما كتب ناشر مذكرات وكيل الحسين فى مصر .

ونستأذن فى العودة الى الحديث مرة أخرى عن الاستعداد للثورة العربية فى بداية الفصل التالى .

الفصل الثاني

الثورة العربية والدور المتواضع لعزيز علي المصري في اشعال نيرانها

هل أخطأ حسين بن علي شريف مكة عندما أعلن الثورة على دولة الخلافة الاسلامية من أجل استقلال بلاده ، بينما الدولة تخوض ضد الحلفاء ـ انجلترا وفرنسا ـ معركة الحياة أو الموت ؟

وهل أخطأ حسين بن علي شريف مكة عندما تحالف مع بريطانيا وفرنسا ضد دولة الخلافة الاسلامية وتاريخهما الأسود في تونس والجزائر ومراكش ومصر والسودان ، معروف غير مستور ؟

سؤالان هامان للغاية ، لم يجدا ـ حتى هذه اللحظة التى أكتب فيها هذا الفصل ـ ما يستحقان من عناية ورعاية واهتمام ، لقد أجيب على هذين السؤالين ـ أكثر من مرة ـ اجابات غير شافية ، وغير كافية ، فى بعض الحالات .. وفى حالات أخرى ، أجيب على هذين السؤالين اجابات غير منصفة ، تأخذ مرة جانب الخلافة الاسلامية ، ومرات تأخذ جانب الحسين ابن علي ، وكلها أو غالبيتها ، لا يمكن أن يطمئن اليها ضمير القاضي المؤرخ .

ولست أنكر أنني قضيت فترة طويلة أبحث ، وأنقب ، وأدرس ، وأستقصى . أقرأ الوثائق التى تناولت هذا الموضوع ـ موضوع الثورة العربية ـ وأستمع الى كثيرين ممن عاشوا أو عايشوا تلك الثورة أو كانوا على صلات وثيقة ببعض رجالاتها ، في كثير من زياراتي للعراق ، وللأردن ، ولسوريا ، ولبنان ، وللمملكة العربية السعودية ، كنت أقتطع جزءا من وقتي هناك للبحث عن جوهر تلك القضية الهامة . وكما هى العادة اختلفت الآراء اختلافا بينا : البعض أيد وجهة نظر الحسين بن علي فى اعلان ثورته على دولة الخلافة الاسلامية مؤكدا أن دولة الخلافة الاسلامية فى أعوامها الأخيرة ، فى أيام السلطان عبد الحميد ، وفى أيام الاتحاديين ، أسرفت

في معاداتها للعرب ، وأنه كان لابد للعرب من أن ينتهزوا فرصة ضعف الدولة العثمانية للانقضاض عليها والحصول على استقلالهم بالقوة · والبعض أخذ وجهة نظر الشريف حسين بن علي في تحالفه مع الانجليز والفرنسيين ضد دولة الخلافة الاسلامية على أساس ان عدو عدوى صديقي وأنه من أجل الحصول على الاستقلال لابد من التحالف حتى مع الشيطان ·

★★★

وهناك وجهات نظر معارضة لوجهات النظر تلك من بينها مثلا : ان طلب الاستقلال ضروري وهام بل هو مقدس · اما التحالف مع الاستعمار الفرنسي والاستعمار البريطاني وهما خصمان تقليديان للاسلام وللعروبة ، فامر غير مقبول ·· لقد احتلت فرنسا – مثلا – الجزائر في عام ١٨٨٢ ، وارتكبت فيها من الجرائم ما يفوق – مئات المرات – وحشية جرائم الدولة العثمانية ، وأثبتت بكل البراهين عداوتها الشديدة للعرب وللمسلمين ، وما كان يمكن لفرنسا – وذلك تاريخها الأسود – أن تنقلب بين عشية وضحاها ، فتريد الخير للعرب وللمسلمين ·· وكذلك الحال بالنسبة لانجلترا ، لقد احتلت في نفس العام الذى احتلت فيه فرنسا مصر (١٨٨٢) وارتكبت في مصر ، أبشع الجرائم ، واستبدت بشعب مصر أشنع استبداد ، ثم أنها قدمت عشرات من العهود والوعود بأنها ستجلو عن مصر ، بل وحددت أكثر من مرة مواعيد لهذا الجلاء ، دون أن يتحقق أى وعد من تلك الوعود ·

★★★

ثم ان انجلترا كانت قد احتلت مصر ، وأعلنت حمايتها عليها في ديسمبر ١٩١٤ بدعوى ان الخديو عباس حلمي – وهو الذى يصدر تعيينه بفرمان من سلطان تركيا – قد وقف الى جانب تركيا في الحرب ولو كانت انجلترا تريد الخير لمصر ، لأعلنت استقلالها التام ، واكتفت بأن تتخذها – بعد زوال الدولة التركية الاسمية عليها – حليفة وصديقة ·· !!

وهناك من يقول ، أنه كان واجبا على الشريف حسين بن علي ألا يطعن دولة الخلافة العثمانية من ظهرها ، وهو الذى كان يناصرها ويؤيدها ، وكان عليه أن ينتظر الى أن تنتهى الحرب فيقوم بثورته كما فعلت مصر ، عندما أعلنت انجلترا الفرصة في الحرب العالمية الأولى وفي الحرب العالمية الثانية ثم ثارت بعد انتهاء الحرب ثورة كبرى في ١٩١٩ ، وثورة صغرى في ١٩٤٦ ·

وأيا كانت الحجج التي قدمها هذا الفريق أو ذاك لتأييد وجهة نظره .. فأنني أوافق القائلين بأن الشريف حسين بن علي ، لم يخطيء عندما أعلن ثورته طلبا للاستقلال ، بينما أخطأ ـ وأخطأ خطأ فاحشا ـ عندما تحالف مع انجلترا وفرنسا ضد دولة الخلافة الاسلامية . وسوف نؤيد وجهة نظرنا بما لدينا من أدلة وبراهين عندما تجيء الفرصة في هذا الفصل الذي خصصناه للحديث عن الثـورة العربيـة بقيـادة الشريف الحسين ابن ناصر .

★★★

وفي بداية هذا الفصل ، لابد من ان نشير الى أن معظم القادة العرب قد أثبتوا للملأ اخلاصهم للاتحاديين قبل الحرب الأوروبية وبعدها ، ولكن هذا الاخلاص العظيم لم يظهر بأتم مظاهره الا بعد دخول الدولة العثمانية في الحرب ، فقد تناسى العرب حينئذ كل خلافهم مع الترك وانضموا اليهم قلبا وقالبا دفاعا عن الوطن المشترك ، فخاض جنودهم غمار المعارك في العراق والقوقاز والدردنيل والقنال ومات منهم عشرات الألوف في ميادين القتال ، واشـتركت الأمة العربية مع جميع الشعوب العثمانية في دفع الضرائب والأموال بحيث يمكن القول استنادا الى احصاء رسمي ان ما دفعه العرب من الضرائب والتبرعات الحربية عن طيب خاطر كان أضعاف ما ضرب على الأمة التركية وما تبرع به الترك في هذه الحرب .

هذا بعض ما فعله العرب العثمـانيون ، أما أمـراء العرب في شبه الجزيرة وجنـوب العـراق وسوريا ، فقد مدوا الى الدولة يد المسـاعدة باخلاص وتناسـوا خلافهم معها وتطوع عدد كبير من رجالهم في جيشها وأرسلوا اليها ما تحتاجه من الجمال ، وشدوا أزرها في ميادين القتال ولا سيما في العراق والقنال وجهات عدن وكانوا يعملون بهمة لا تني على خوض غمار الحرب في جانبها بكل ما عندهم من الرجال .

★★★

أما الجمعيات العربية فقد حلت كلهـا بعـد اعلان الحرب العثمانية واتجهت أفكار العرب قاطبة الى الدفاع عن الدولة واعلاء شأنها وبلغت منهم الحماسة أقصى درجاتها وصار أشدهم كرها للاتحاديين أعظم غيرة عليهم ورغبة في تأييدهم .

ولم يكن سيادة شريف مكة جاهلا لما ينويه الاتحاديون له ولبيته الكريم ومع ذلك فانه ظل على ولائه لهم الى أن طفح الكيل وتفاقم الخطب وعم البـلاء .

أما السيد الادريسي ، أشد أمراء العرب كرها للاتحاديين ، فقد كان مع كرهه لهم واعتقاده بسوء سياستهم ميالا الى الاتفاق معهم وراغبا فى ذلك الاتفاق بدليل سكوته عنهم فى ابان شدائدهم والمساعى التى بذلها لحسم المشاكل التى كانت سببا فى حروب عديدة بينه وبينهم ..

ولم تكن سياسة الاتحاديين مع السيد الادريسى غير سياستهم مع سائر أمراء العرب ، فقد كانت سياسة خداع ونفاق وكذب واعتداء لم يألفها العرب فى زمن من الأزمان ، ولكنهم قابلوها بالصبر والحكمة واللين للأسباب التى ورد ذكرها فى الفصول السابقة وأهمها رغبتهم فى رفع منار الاسلام والمحافظة على كيانهم القومى ..

نعم ان فريقا من أمراء العرب حارب الدولة غير مرة فى السنوات الأخيرة ، ولكنه حاربها دفاعا عن نفسه ولأسباب حيوية وكان دائما يهادنها أو يصالحها كلما وقعت فى مأزق حرج أو خاضت غمار حرب خارجية .

أما الأحزاب العربية فقد أخلصت للاتحاديين اخلاصا عظيما وكانت أعظم تساهلا معهم من أمراء العرب فى شبه الجزيرة وأكبر دليل على ذلك ما سبق ذكره عن خطتها وأعمالها وقراراتها وأقوال زعمائها وما سنثبته فى هذا الفصل من الكتب السياسية السرية التى تبودلت بين بعض الزعماء وأصحاب الرأى الذين أعدموا فى سوريا والعراق وبعض أصدقائهم السياسيين الذين لم تصل اليهم يد السفاحين . وهذه هى الكتب بنصها لم يحذف منها الا أسماء الأحياء وما ليس له علاقة بالسياسة .

***

وفيما يلى رسائل بعض القادة العرب يؤكدون فيها اخلاصهم لدولة الخلافة الاسلامية ..

☆☆☆

كتب الضابط سليم بك الجزائرى الى أحد أصدقائه السياسيين فى ١٥ كانون الثانى ما نصه :

« عزيزى ...

« لقد أخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك فى اخلاصهم لنا . نعم ان الاتفاق الذى أبرموه مع الزهراوى وعبد الكريم لا يسعدنا وليس فيه كل ما نحتاج اليه من الاصلاحات وان زعم فريق من الأصدقاء أنه « كجراب

الكردي » يحتوي على كل شيء ولكن ما العمــل ؟ أيجوز لنا إن نخطيء الزهراوي وننتقده على هذا الاتفاق ؟ أنا لست على هذا الرأي لان الزهراوي لو لم يتفق مع الحكومة لكنا الآن في أشد المآزق حرجا فاما أن نقوم بعمل يهدد استقلال الدولة العلية ويؤدي الى عكس الغاية التي نرمي اليها وهي نيل حقوقنا من اخواننا الترك ومشاركتهم في كل ما يؤول الى تقوية الدولة واسعاد سكانها أو أن نخلد الى السكينة بعد كل هذه « القرقعة » فيهزأ العالم بنا ويحتقرنا الاتحاديون أنفسهم ونصير مثلا بين الناس .

« ان الحــال السياسية حرجة جــدا أيهــا العزيز فبقدر ما يسيء الاتحاديون الينا الآن يجب أن نحسن اليهم حرصا على كيان هذه الدولة المنكودة الحظ » .

★★★

وكتب مختار بيهم الى أحد أصدقائه السياسيين في مصر في ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٤ أي قبل دخول الدولة العثمانية في الحرب بخمسة أيام فقط ما نصه حرفيا :

« أخي العزيز ..

« يخيل الي أن الحرب واقعة لا محالة بين الدولة العلية ودول الحلفاء والأمل عظيم جدا بأن تكون حربا قومية ظافرة تعيض الدولة من الخسارة التي منيت بها في السنوات الأخيرة وترفع شأن العثمانيين في نظر العالم ، وقد الغينــا أحزابنا السياسية وتناسينا خلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشتركة تقضي بذلك وسوف يرى اخواننا الترك ولا سيما الاتحاديون من أعمالنا في هذه الحرب ما يظهر لهم عظم اخلاصنا للعرش العثماني وتفانينا في خدمة الوطن المشترك . ونحن الآن على أحسن ما يرام مع حزب الحكومة الذي أظهر وطنية عظيمة في هذه الأزمة الشديدة وسنظل كذلك انشاء الله الى الأبد . فكن على ثقة بأن سوريا ستكون في ابان الحرب أحسن منها قبلها فلا يقع ما يكدر من جانب الأهلين ما زلنا أحياء » .

★★★

وكتب عبد الكريم الخليل الى أحد أصدقائه في ١٦ أغسطس سنة ١٩١٤ ما نصــــه :

« أيها العزيز ..

« أنا على وشك السفر الى سوريا ، لان التدابير التي اضطرت حكومتنا السنية الى اتخاذها درءا لخطر الحرب العظمى تقضي على كل عثماني مخلص

لدولته وأمته أن يبــذل جهده فى سبيل تنفيــذها على أحسن ما يرام • وستكون مهمتي في سوريا جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة والسعي لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية • وقد وعدتني الحكومة بأن تشد أزري في هذه المهمة وتجيبني الى كل المطالب العادلة التي أطلبها منها باسم الأمة العربية أو باسم الأفراد من أبنائها ، فلنكن كلنا يدا واحدة لانقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوروبية واظهار الوحدة العثمانية في أتم مظاهرها لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا ، والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأنا ، وأعلى مقاما » •

***

وقال المرحوم محمد الحمصاني الى بعض أصدقائه الذين نصحوه بالبقاء في مصر بعد اعلان التعبئة العامة في الدولة العثمانية : « ان الوطن في حاجة الى كل فرد من أبنائه في هذا الأوان العصيب فمن الخيــانة أن لا نقوم بالواجب علينا نحوه » •

وكتب عبد الحميد الزهراوي الى صديقه الأستاذ السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية وأحد أركان حزب اللامركزية كتابا سريا مطولا في ١٦ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٤ كتب في أعلاه « مكتوم كله عن كل أحد » وضمنه كل آرائه السياسية وأعرب فيه عن ثقته التامة بالاتحاديين ووجوب الاخلاص لهم فرأينا أن ننشر الكتاب برمته في هذا المقام ليدرك القارىء عظم الجناية التي اقترفها الاتحاديون باعدام هذا الرجل الحسن النية الطيب السريرة الذي عرض نفسه لانتقاد أصحابه وحقد أمته عليه رغبة منه في التوفيــق بين العرب والترك وانقــاذ الدولة من أعظم مشاكلها الداخلية • وهذا نص الكتاب بعد المقدمة :

***

« كنت قد فصلت لكم اذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فوضى وكيف تعبنا في ستر الأمر وايجاد المؤتمر ، وبعــد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذي لفق تلفيقــا ، ثم بعد قليل نفــذ صبر البيروتيين فذهبوا الى بلادهم عن طريق استانبول ، وبقيت يا عزيزي وحدي أمثل الفكرة ، وبقي خليل زينيه وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشروب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة ، حتى ولا من الجامعة السورية ، وانما همهما بيروت وحدها لا شريك لها •

« لو عجلت تلك الأيام ورجعت على الفور الى مصر لبقيت المسألة مقطوعة بتراء ، فيكثر استهزاء الأفراد والجمـاعات والأقوام بأشخاصنا وبجماعتنا وقومنا ، لكن الله عز وجل سلمني من هذا ، وقدرني على الصبر هناك ممثلا للفكرة مدة خمسة أشهر ـ وما هي بالقليلة ولا الكثيرة ـ ونعمت المدة كانت ، وفقت فيها كثيرا وعظم فيها اختباري لأوروبا ، وما أحوجنا الى مثل هذا الاختبار ·

***

« جئت بعد ذلك الى استانبول لأرى ما جد فيها لان المعرفة بالقديم لا تغني ، والمعرفة عن بعد كثير من مآخذها غير صحيح ، وما أضر العلم المبني على مأخذ غير صحيح ·

« بعد وصولي بقليل عرفت كثيرا من الأحوال الحاضرة هنا ، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر وكدت أظنني اكتفيت وأحطت كل الاحاطة ، ولكن الآن تبين لي أنه لولا الصبر والتأني اللذين مكنني الفاطر سبحانه منهما لرجعت بمعرفة غير كافية ، ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت احاطتي وانما أقول أصبح يجوز لي أن أفصل بشيء من الطمأنينة ، وان تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع وجاء اليوم في وقته ·

***

والشرح ها هنا يتعلق بثلاثة مواضيع « أو موضوعات » :

١ ـ أوروبا والعثمانية ·

٢ ـ الاتحاديون وغيرهم ·

٣ ـ رجال الاصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الأخرى ·

« واني أبدأ بالأول لقصر البحث فيه ، وأشفع بالثاني ، وأخرت الثالث لطوله وطولته لتوقف التفاهم وكثير من أعمالنا على الاحاطة بهذه الحقائق المشروحة فيه ·

« **أوروبا والعثمانية** : لقـد كشفت أوروبا آخـر ستار من ستر السياسـة في المسألة العثمانية وقررت التداخل في سائر شئونها وانما لا يزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التدخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم وليس في أوروبا اليوم موضوع مقرب على هذا الموضوع، ولا تمضي ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالي فتلد ذلك الشكل الجديد الذي يتفقون عليه ، والذي أظنه أن الدولة ستبقى معه وتعيش أحسن مما كانت

عائشة لان بعض التداخل طيب ، ولست مغاليا اذا ذهبت الى أن الموت أقرب اليهما مع عدم التدخل البتة منه مع شيء من ذلك ، فانا اذا قلنا بعدم التدخل البتة فحينئذ تخلق كل واحدة سببا لانشاب الحرب عليها فتؤخذ بداء السكتة دفعة واحدة ٠

***

« الاتحاديون معروفون فمن غيرهم ؟

« لا يوجد الآن حزب سياسى آخر الا أن يكون خفيا ولم أشتم شيئا من هذا ، وحينئذ لا تجد مقابل الاتحاديين الا جماعات الأجناس كجماعات الروم وجماعات الأرمن وجماعات العرب ٠

« نعرف ان للروم جماعات وللأرمن جماعات فهل للعرب مثل هذا ؟ هلم ننظر :

« الروم كلهم جماعة واحدة يرأسهم البطرك ولكيلا يستبد ربطوه بمجلسين روحانى وجسمانى ، وهكذا الأرمن أما العرب فليس لهم مثل ذلك ، وثانيا : الروم والأرمن لهم جمعيات سياسية منظمة مرتبة غنية وليس للعرب مثل ذلك ، اللهم الا جماعتنا فى مصر وجماعتنا فى بيروت ، اذن غير الاتحاديين هم الروم والأرمن وجماعتنا فى مصر وجماعتنا فى بيروت ٠

***

« فالاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة ، وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية وناوون نية قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف ، ويشتهون أن يخلص اليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم فى هذا السبيل ، ويعترفون بخطيئتهم الماضية ويودون أن لا يعودوا الى مثلها بقدر الامكان ، أنا مؤمن بنياتهم وأقوالهم هذه كل الايمان لأدلة كثيرة ظهرت لى ، ولكننى مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية ، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم ، ويرجى به أن تقوى قابليتهم فان شئتم أن تخطئونى بتحسين الظن الى هذه الدرجة — كما أشرتم الى ذلك فى كتاب ٠٠٠ — فانى لا أخطئكم بالتخطئة لأنى أجل رأيكم أكثر من رأيى ، وانما أرجو أن يكون فى أخطائى شيء من البركة ، أرجو ذلك من مصداق قوله سبحانه « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ٠

« هذا وصف الاتحاديين بما هم عليه اليوم . أما الروم فقد قلوا في المملكة وقصاراهم أن يحافظوا على ما بيدهم من امتيازات البطركية وحق المبعوثية وسيقل الالتفات اليهم ، وأما الأرمن فهم آلة بيد روسية وسيتم لهم في المبعوثية حظ قريب مما يأملون ، وأما نحن معشر العرب فان أخاكم الآن يعتبر ممثــل جماعتنا ، وقد فصلت ما تم على يدى فى الكتاب الذى أرسلته الى الأخ الرفيق فى البريد الماضى وها هنا سأزيد .

ـ ما أظنكم ـ أستغفر الله ـ ما أعتقد أنكم فى حاجة الى بيان ان رجال الاصلاح الحقيقيين غير كثيرين ، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة ، وأعنى برجال الاصلاح الحقيقيين من جمعوا فى موضوع الاصلاح بين صدق النظر وصدق العمل ، من كثرت تجاربهم ومرنت رؤيتهم وصحت عزيمتهم وشهد لهم ماضيهم من كثرة اختلاطهم بمختلف الطبقات ، ووقوفهم على متباين النزعات ، وصبرهم على متنوع العقبات ، من امتزجت روحهم بحب النظام الذى يحبه الله وكره الفساد الذى يكرهه الله وامتزجت سيرتهم بأخبار معاملة الجهاد الاصلاحي ومن أشربت أفكارهم فهموا معنى الرابطة وأفئدتهم محبتها وتعشقها تكثيرهم ، والحاجة الى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطبيعتهم ، ثم نحن مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمــام حاجتين عظيمتي الحاجة : الأول الثبات الذى فيه الأمة ، والثاني الجشع الذى أوروبا فيه .

« أترك تفصيل هذا الاجمال لحكمتكم وحسبنا هى فى كل موضوع ، وآخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا لأنكم علقتم الأمل على صنف منهم ها هنا .

« العرب هنا ثلاثة أصــناف : متــاجرون ومتعلمون ومأمورون ، فالصنف الأول لا فى العير ولا فى النفير من جهة السياسة والاصلاح ثم هو فى غاية القلة ، والصنف الثانى أولاد فى ناشئة العمر لا يليقون للسياسة ولا تليق لهم ، والصــنف الثالث أربعة أقســام : الضباط والمأمورون المنصوبون فى بعض الوظائف والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا والمأمورون المعزولون الذين جاروا لينصبوا .

***

« فاما الضباط فلا تجربة لهم فى هذه المسالك البتة والأولى عــدم دخولهم فيها ، فان هذه التجربة القليلة التى سأقصها الآن زهدتنى فى كل سياسة يشترك فيها الضباط منا ، ذلك ان (....) ناقم اليوم على

الحكومة فيشتهى لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفا ، وهو لأجل ذلك ناقم على التلافنا مع الحكومة ومضاد له ولأنه على زعمه يؤخر حركات العرب ، ولا أدرى ما هى حركات العرب وأين تسير وأن ترسى ، وهذا يجتهد أن يجمع حوله بعض أولئك الأولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا ولكن لا ينجح بحوله تعالى ، ومن جهة أخرى فهو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا ، وقد أردت اختباره فرأيته يجنح الى مصالحة أولياء الأمور وحينئذ يرضى عن كل شيء ، فانظر يا عزيزى الى الذين يعدون أنفسهم فى مصاف رجالنا ٠

« وأما المأمورون المتقاعدون فمثلهم كمثل العجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء ٠

« وأما المأمورون المنصوبون فلا هم لهم الا حفظ المنصب » ٠

« وأما طلاب المأموريات فجياع لا يفهمون من الاصلاح الا المأمورية ، ان جاءت فقد جاء الاصلاح وان لم تجيء فقد منع الاصلاح ٠٠

***

« ومن هذا التفصيل يظهر لك ان العاصمة فى حالتها الحاضرة ليس فيها عرب تستطيع جماعتنا أن تعتمد على أحد منهم ، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد منهم ، اللهم الا أن يكون « فلان وفلان » وكل ما أخبركم عنه « فلان » هو سراب بقيعة جاءه أخوكم الظمآن فلم يجده شيئا ٠ وبعض أولئك الأولاد يحسدون الشاب عبد الكريم ، وبعضهم لم ينمكن اناتهم اربا لأبيهم أو أخيهم أو ابن عمهم مثلا ، ومن ها هنا أكثروا عليه من قيل وقال وكله هراء وهراء ٠

***

« وأما العرب فى الجهات الأخرى فهم أهل سوريا وأهل العراق وأهل الجزيرة الخلص ٠ فالسوريون والعراقيون حضر قد ألفوا الذل وتعودوا الاستجداء والاستكانة ، لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا ، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا ، لا يهبون ولا يروق لهم أن يوقظوا ٠ وأما أهل الجزيرة الخلص فهم الأهل وفاهم الله الخير وشد سواعدهم ، أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها مع الحضر على قلة غنائهم ٠

« قد فهمت من كتاب الأخ « فلان » كثيرا واستنبطت كثيرا ، ولو كان فى وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة لكان روحى أوزاعا على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضرموت ولكن نظرية الصوفية فى هذا الباب لا يمكن تطبيقها ٠

« انظر يا عزيزى أنا لازم لهناك كما تشير ولازم الى هنا ، فان هنا محل عمل ليس بقليل ، فانى أرجو أن يكثر بوجودى هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم ، فان رضيت عن هذا الرأى فعليك عملان معجلان وعمل يمشى مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر ، فالأول من المعجلين تبشيرى بتليغراف عن رضائك خاصة وهو الأهم ، ورضاء الرفاق عامة وهو مهم . والثانى منهما حملك الرفاق على تقديم تليغراف للصدارة يحبذون فيه هذا التعيين ويجعلونه دليل اقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارات رقيقة تشويقية . أما الثالث فهو ما بيننا من أمر ايجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والمكان لبث الاصلاح العلمى والعملى ..

« وان لم ترض عن هذا الرأى فاكتب الى مفصلا ومبينا من كل جهة من جهات الموضوع ، وأنا من عهدت من يدع رأيه أسيرا الى رأى وليه .

« هذه هي الخلاصة المفصلة واليك خلاصة الخلاصة وهى : ان اليأس لا يجوز فى حال من الأحوال ولكن الأمة فى كل أطرافها ليست بحالة يعتمد عليها فى شىء . وأنه مع هذا لا يجوز اهمالها ، وكذا لا يجوز اهمال من بيدهم أمر المملكة وتركهم وحدهم ، وأنه لابد لنا ها هنا من رجال ، وان أكثر ما يتصرف به الرواة غير صحيح ، وانى منتظر أمركم بسرعة ، وان شوقى لعظيم ... » .

***

وننتقل الى مرحلة هامة من مراحل الصراع بين حكام تركيا وشريف مكة . ونبدأ بالحديث عن رحلات الأمير فيصل أكثر من مرة الى الشام والآستانة ، وتعرفه الى زعماء الحركات العربية السرية فى الشام ..

***

« بينما كان الشريف حسين يتعرف الى حقيقة وضعه وامكاناته ، هبط عليه فوزى البكرى موفدا من جمعية الفتاة التى أصبحت دمشق ـ جورج أنطونيوس ـ مقرا لها فى ذلك الوقت . وفوزى ينتمى الى أسرة سامية معروفة بالخدمة فى الجيش التركى . وكانت له وظيفة اسمية فى حرس الشريف ، وكان المبرر لتعيينه فى الظاهر ، أنه امتياز منح لفتى من أسرة كبيرة . فلما كانت الصداقة بين الحسين وعطا الله باشا عميد أسرة البكرى قديمة ، كان من السهل على الشريف أن يتوصل الى تحقيق هذا التعيين بطلبه من الترك الذين كانوا حريصين على مبرراته . وكان نسيب أخو فوزى الأكبر عضوا فى جمعية « الفتاة » وهو الذى طالب بهذا

التعيين بالاتفاق مع الرجال أصحاب العقول المفكرة التي كانت تدير الجمعية فلما تلقى فوزى الأمر بالسفر الى الحجاز أطلعوه على سر الجمعية فورا وأقسم اليمين كعضو فيها وحمل رسالة شفوية للشريف يتلخص مضمونها فى أن الزعماء القوميين فى الشام والعراق ومنهم الضباط العرب أصحاب الرتب الرفيعة فى الجيش التركى يحبذون القيام بثورة لتحقيق استقلال العرب ، فهل يقبل الشريف قيادتها واذا قبل فهل يرغب فى استقبال وفد يأتى الى مكة أو يفضل تفويض مندوب أمين عنه يزور دمشق وذلك بقصد احداث اتصال ينتج عنه توحيد الجهود ؟

***

وصل فوزى مكة فى آخر أسبوع من يناير وأدى رسالته همسا فى أذن الشريف الذى لم ينطق بأى جواب ولم يوجه أى سؤال لأن حذره الشديد منعه من البحث فى موضوع مؤامرة أمام شخص غريب فأخذ ينظر من النافذة وكأنه لم يسمع ما قيل . على أن العرض الذى حوته هذه الرسالة أثلج قلبه لأنه من النوع الذى كان يبحث عنه بعينه .

***

ولكن الحسين كان مضطرا الى انتظار نتيجة بعض الأبحاث التى كانت تشغله فى ذلك الحين . فقد طرأ على موقف الوالى وهيب بك منه تغيير ملحوظ فى المدة الأخيرة وكان لدى الحسين ما يحمله على الاعتقاد بأن هذا التغيير ناشىء عن تعليمات خفية تلقاها وهيب فأوعز الى عماله بمراقبته . وفى أوائل فبراير بينما كان الوالى مسافرا الى المدينة اختفت حقيبة كانت بين أشيائه الخاصة فلما استلمها الحسين وجد فيها بعض الوثائق التى اتضح لدى فحصها انها تثبت وجود مؤامرة تعدها الحكومة لاغتياله .

عند ذلك شرع الحسين بالعمل فأبرق الى الصدر الأعظم يعلمه أن لديه أمورا خطيرة يود عرضها ويستأذن فى ارسال أحد أولاده الى القسطنطينية ليتكلم فيها باسمه فصدر الاذن المطلوب فورا واختار الحسين فيصلا للقيام بهذه المهمة التى قضى الساعات الطويلة فى تدريبه عليها .

وكان الغرض الظاهر من رحلة فيصل بسط شكوى والده من الوالى أمام الصدر الأعظم والسلطان وتأييدها بشرح شفوى .

وأما الغرض الحقيقى فكان الاتصال بزعماء العرب فى دمشق لمعرفة موقفهم من عروض انكلترا وفهم درجة حماسهم فى هذا الموضوع ومبلغ استعدادهم له .

الى أن يقول جورج أنطونيوس ... وصل فيصل دمشق في يوم ٢٦ مارس وبقي فيها ستة أسابيع قبل أن يستأنف سفره الى القسطنطينية فتلقاه جمال باشا بحرارة ودعاه الى الاقامة معه في مقر قيادته ولكنه اعتذر عن ذلك اذ كان مرتبطا بوعد سابق للنزول في ضيافة آل البكري .

★★★

تم اطلاع فيصل على أسرار الحركة العربية القومية في زيارته هذه لدمشق . لم ينقطع سيل الزائرين عن دار البكري في الأيام الأولى من اقامته فيهـا فلما فرغ من زيارات القادمين للسلام عليه وعادت الحيـاة الخاصة في المنزل الى حالة قريبة من الاعتيادية نسبيا بدأت المشاورات السياسية وكانت عملا دقيقا وشاقا في تلك الظروف فكان أول من اجتمع بفيصل الأعضاء البارزون في (جمعية الفتاة) ولكنهم لم يكلموه بصراحة في البدء لأنه كان غريبا عنهم ومعروفا بميله الى التعاون مع الترك فسارت الأبحاث بتحفظ الى أن أطلعهم فيصل على حقيقة أفكاره وأوضح أن تقضبله الترك ناشيء عن خوفه من أوروبا فأحدثت هذه الملاحظة تغييرا أساسيا في المباحثـات أدى الى اكتشـاف الجميع أنهم متفقون تماما في الشعور مع فيصـل .

★★★

وكانت اللجنة العليا (لجمعية الفتاة) عقدت اجتماعا قبل أشهر عديدة اتخذت فيه هذا القرار :

« ينتج عن دخول تركيا الحرب أن مصير الأجزاء العربية في المملكة العثمانية باتت مهددة بخطر شديد فيجب بذل أقصى جهد لضمان تحريرها واستقلالها . وقد تقرر كذلك أنه في حالة ظهور مطامع أوروبية في هذه الأجزاء ينبغي على الجمعية أن تعمل الى جانب تركيا في سبيل مقـاومة النفوذ الأجنبي مهما كان نوعه وشكله » .

كان الطرفان يسـتندان الى أساس واحـد في اختيارهما أسلوبين مختلفين فلما اكتشفا وحدة المنشأ تقربت وجهات نظرهما فارتدت الأحاديث بين فيصل وأعضاء (الفتـاة) طابعا وديا للغاية فاطلعوه على سر الجمعية وسموه عضوا فيها بعد أن أقسم اليمين . وبعد ذلك اتصل فيصل بأعضاء (جمعية العهد) عن طريق شخص ينتسب الى الجمعيتين ، و (جمعية العهد) هذه هي المنظمة السرية لضباط الجيش فلمس فيصـل تجانسا في موقف الجمعيتين : فكانت هناك رغبـة في الخلاص من الترك ولكن

الخوف من مطامع فرنسا وبريطانيا وايطاليا وروسيا كان يحد من هذه الرغبـــة ٠

ولم تكن المخاوف من المطامع الأوربية واقعية فحسب بل كان لها كذلك ما يبررها فان فرنسا لم تخف ادعاءها بما نسميه « حقوقها » فى ســوريا وكان المعروف عن روسيا أنها تنافس فرنسا فى ذلك منافسة شـديدة ٠

★★★

وهناك رواية (جديدة) عن الخلاف بين الاتحاديين وبين الشريف حسين بن على وعن التصرفات التى كان يقوم بها الشريف بن على لاغضاب الاتحاديين وما أعقب تلك التصرفات : لقـد رأى ـ مثلا ـ المركز العام لجمعية الاتحاد والترقى وقد أوجس شرا من شدة شكيمة شريف مكة أن يهاجم بواسطة أمير الحج الشامى ، وكان يومذاك عبد الرحمن اليوسف ، فأذاع هذا سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩) ان طريق دمشق المدينة المنورة غير مأمونة ، واقترح تجنبا لاعتداء العربان ، أن يعود المحمل الشامى بطريق البحر ، فيستقل البواخر من جدة الى مرافىء الشام ٠ فعارض الشريف فى تنفيذ هذا الاقتراح لأنه يعنى عجزه عن توطيد الأمن داخل الحجاز ، وهذا فى مقدمة مهامه ، وفقده كل نفوذ على العربان ، وهذا ما لا يرضاه ٠

★★★

وانتهت هذه المشادة بأن تولى الشريف بنفسه ارسال المحمل الشامى بطريق المدينة المنورة الى دمشق ، وقد عهد بقيادته والسهر عليه الى شقيقه الشريف ناصر باشا ، والى نجله الأمير عبد الله وصهره عبد الله باشا بن محمد والشريف شاكر بن زيد ، معلنا أنه يتحمل كل تبعة تنشأ عن هذا التدبير وسافر المحمل برا الى دمشق فوصلها دون ما حادث ونزل الأمراء العرب ضيوفا على عطا باشا البكرى فى منزل خاص أعده لهم ، واحتفلت دمشق بمقدمهم احتفالا عظيما وأقيمت على شرفهم المآدب الكثيرة ٠ ولما وصل عبد الرحمن اليوسف أمير الحج الى دمشق عائدا اليها بطريق البحر دعا الأمراء الى وليمة عشاء فاعتذروا عن قبول الدعوة ٠

وتمكنت أواصر العلاقات بين آل الحسينى وبنى البكرى على اثر هذه الزيارة ٠ وكان من نتيجتها أن الشريف حسين سعى لاستصدار ادارة سنية تجيز لشبان آل البكرى أن يؤدوا الخدمة العسكرية فى مكة عندما يدعون اليها ٠ وفى الواقع ان أحمد فوزى بك البكرى كبير أنجال عطا باشا

سافر الى مكة في صيف سنة ١٩١٤ ، على اثر اعلان النفير العام ، ليؤدى خدمته العسكرية هناك عملا بالادارة المشار اليها فحل ضيفا على الحسين وأفضى اليه بأن هناك جمعيات عربية قوية منظمة في سوريا تعمل لاستقلال العرب ونيل حقوقهم ٠

وتكملة هذه الرواية التي جاءت في أوراق عمر أبو النصر ـ بيروت ـ والتي لها ما يؤيدها في مذكرات الملك عبد الله ، وتبدأ تلك النبعية بزيارة الأمير فيصل الى دمشق لأول مرة في ٢٠ سبتمبر ١٩١٥ ونزوله ضيفا على بني البكري وأنه لم يلبث أن توجه الى الآستانه ليقابل ولاة الأمر فيهـا ويطلعهم على تصرفات وهيب باشا والمكاتبات والوثائق التي عثر عليها والده ٠

★★★

ولهذه الوثائق حكاية جديرة بالذكر ، وخلاصتها أن الأمير على بن الحسين كان مسافرا الى المدينة المنورة بصحبة وهيب باشا قائد الحجاز وواليه ، في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٥ ، وكانت وجهتهما قناة السويس ليشتركا في حملة جمـال باشا على القناة فيتولى الأمير قيادة العربان ووهيب باشا قيادة الجند العثماني الذي كان في الحجاز ، وقد صدرت اليه الأوامر بالاشتراك في الحملة المذكورة ٠

وكان وهيب باشا قد ائتمن السيد محمد نائب الحرم ، وهو حجازى اشتهر بتزلفه للاتحاديين وتاييده لهم حتى نال ثقتهم التامة ، على محفظة أوراقه السرية ٠ وفي الطريق سقطت المحفظة ولم ينتبه حاملها لسقوطها ، فوجدها أحـد رجال الأمير على وجاءه بهـا ، ففضها الأمير وعثر فيهـا على مراسلات سرية كانت تدور بين حكومة الآستانة والوالي لاغتيال الشريف وأنجاله والقضاء على استقلال الحجاز الذاتي ، وعلى وثائق تتضمن الخطط والتدابير لتنفيذ هذه المؤامرة وقد حال دون تنفيذها اعلان الحرب العظمى وانهماك الدولة العثمانية بها دون شيء آخر ٠

★★★

وامتنع الأمير على عن متابعة السفر بعد عثوره على تلك الوثائق الهامة وانتحل بعض الأعذار ومكث في المدينة المنورة ثم قفل عائدا الى مكة ومعه الوثائق فسلمها لأبيه ٠ وبعد أن تمعن الحسين في مضامينها قرر أن يوفد من قبله الى الآستانة نجله الثالث الأمير فيصل ليقابل رجال حكومتها ويسعى للتفاهم معهم ، وكان من المشهور عن فيصل أنه يميل الى الأتراك

ويحرص على استبقاء صداقتهم ، فغادر الأمير مكة ميمما وجهه شطر العاصمة التركية وعرج فى طريقه على دمشق كما ذكرنا سابقا ·

★★★

ولما وصل الى الآستانة زار فورا الصدر الأعظم وأطلعه على تلك الوثائق والكتب التى عثروا عليها بطريق العرض وشكا من مسلك الاتحاديين حيالهم · وقال انهم يعملون للتنكيل بهم ، الأمر الذى حملهم على عدم الثقة بالاتحاديين · وقابل بعد ذلك طلعت وأنور وحدثهما نفس الحديث ، وكانت النتيجة أن الثلاثة طيبوا خاطره وأصدروا أمرا بنقل وهيب باشا من الحجاز ارضاء لآل الحسين ، وعينوا مكانه الجنرال غالب باشا الذى كان مشهورا بطيب سريرته وحبه للمسالمة ، وأفهموه أن يتقرب الى الشريف ويعمل على ايجاد علاقات طيبة معه ·

وقد ذكر على فؤاد باشا ، رئيس أركان حرب الجيش الرابع فى مذكراته ما كان من نتيجة زيارة الأمير فيصل للآستانة ، قال :

« أخبر الأمير فيصل أقطاب الحكومة الاتحادية أنه مستعد للذهاب على رأس قوة حجازية ليشترك فى الحملة الثانية على القناة وحادث أنور باشا بخصوص رجال العرب المعتقلين فى عاليه (وهم رجال القافلة الثانية التى أعدمت فى ٦ آيار (مايو) سنة ١٩١٦) وطال اطلاق سراحهم والعفو عنهم فوعده أنور خيرا وحمل الأمير على سياسة جمال حملة شعواء ووصفها بأنها سياسة عداء للعرب · وقال ان العرب لا يمكنهم السكوت عنها · وسلم الى سعيد حليم باشا الصدر الأعظم ، لكونه صديقا لبيتهم وسليل أسرة كبيرة مستعربة ، مذكرة ضمنها مطالب العرب ورغبتهم فى الحرية والاستقلال ، وذكر فيها أنهم مستعدون لتأييد الدولة اذا اعترفت باستقلال الحجاز على أساس اللامركزية وبالشريف حسين أميرا عليها ، على أن تكون الامارة ارثا لبنيه من بعده وقد أطلع الصدر الأعظم زملاءه الوزراء على هذه المذكرة » ·

★★★

ولم يمكث الأمير فيصل طويلا فى الآستانة بعد أن فاز بعزل وهيب باشا ، فبرحها الى دمشق فى شهر تشرين الثانى ليكون على مقربة من جمال باشا وليقود متطوعة الحجاز · وفى الواقع أن أنور باشا أبرق الى جمال موعزا اليه بأن يستقبل الأمير بحفاوة بالغة وأن يحل آراءه المحل اللائق بها · وكذلك أبرق طلعت وزير الداخلية الى جمال يخبره بما كان من

شكوى الأمير عليه وشجبه لسياسته ، ويطلب اليه أن يستميله ويعمل على كسب مودته .

وكان من أثر هذه التوصيات أن جمالا ذهب بنفسه الى المخطة ليستقبل فيصلا عند وصوله الى دمشق وأعد له حفلة استقبال رائعة فى مقر القيادة حضرها أمراء الجيش وكبار القوم ، وأولم له فى المساء وليمة عشاء فاخرة وبالغ فى التودد اليه والحفاوة به .

ونزل الأمير ضيفا على آل البكرى ، ولم يلبث أن برح دمشق الى القدس بصحبة جمال وأقام فى ضيافة مقر قيادة الجيش ثم زار ميدان الحرب فى سيناء وخطب فى المأدبة التى أقيمت لتكريمه وحضرها الضباط والقادة خطبة مستفيضة . وقد قال فيها :

« يجب على الأمة العربية أن تشترك فى الجهاد ، وأنا ذاهب الى الحجاز لأعود على رأس جيش كبير من المتطوعة فيشترك فى الحملة الثانية » .

وعاد بعد ذلك الى دمشق وسافر منها الى الحجاز بعد أن اتفق مع جمال على أن يعود بألف وخمسمائة متطوع .

★★★

وفى دمشق اتصل الأمير فيصل لأول مرة برجال الجمعيات العربية السرية ، وعلى الخصوص رجال جمعيتى الفتاة والعهد ، وقد اجتمع بهم خفية فى بيت آل البكرى ، وكانوا يأتون اليه بين الساعة الحادية عشرة والواحدة بعد نصف الليل خوفا من الرقباء .

وقد أشرنا فى فصل سابق الى جمعية الفتاة وكيف تم انشاؤها وذكرنا أنها كانت تضم نخبة مختارة من رجال العرب العاملين وأنها نقلت مركزها بعد اعلان الحرب العظمى من بيروت الى دمشق ، وان رجالها كانوا يجتمعون سرا فى تلك الأيام لبحث الحالة وللنظر فى ما يجب عمله ، لا سيما بعد أن ظهرت نيات الترك بجلاء واتضح أنهم يتربصون الدوائر فى رجال العرب ويدبرون لهم الدسائس والمكائد ...

★★★

وغدت الأفكار فى دمشق قلقة لا تستقر على حال ، وكانت هناك نزعة الى الاستمرار على معاضدة الدولة لانقاذ البلاد من الفتح الأجنبى

وما يؤول اليه من الحماية أو الاستعمار ، وذلك قبل اشتداد المظالم ونصب المشانق • فقد عقد في شهر آذار (مارس) سنة ١٩١٥ اجتماع سري في منزل شكري باشا الأيوبي ، وقد حضره فيمن حضره الدكتور عبد الرحمن شهبندر وسليم الشمعة وخالد الحكيم وعبد الكريم الخليل والشيخ تاج الدين الحسني وسواهم ، فتباحثوا بالموقف من سائر نواحيه وأجمعت كلمتهم في النهاية على وجوب معاونة الدولة في حربها ، وتأليف عصابات من أهل البلاد للدفاع عنها يوم يضطر الأتراك الى اخلائها • وقد جرى هذا كله قبل أن يحسر الاتحاديون القناع عن مقاصدهم ويظهروا بمظهر الأعداء الألداء للعرب •

وكذلك عقدت جمعية الفتاة اجتماعا في دمر برئاسة رضا باشا الركابي ، قررت فيه انتداب الشيخ كامل القصاب للسفر الى مصر والاتصال برجال الحركة العربية فيها والاتفاق معهم على خطة معينة فسافر بحرا في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٤ أي قبل دخول الدولة الحرب • وبعد أن اتصل بالرجال المشار اليهم غادر مصر دون أن يفعل شيئا معينا • وأنزلته الباخرة في أضاليا ، ومنها سافر الى دمشق •

ولما علمت السلطة العسكرية بقدومه بادرت الى اعتقاله ، ثم أرسلته الى الديوان العرفي في عاليه للتحقيق معه • بيد أن المحققين لم يستطيعوا أن يقفوا منه على شيء ، فاطلق سراحه بعد أن قضى في السجن حقبة من الزمن •

***

ولما عاد فيصل من الآستانة الى دمشق في طريقه الى مكة ، كان رجال العرب يبحثون عن ذريعة تعينهم على الخروج من المأزق الذي صاروا اليه وتخفف من استبداد جمال وبطشه ، اذ كان قد فتك بالقافلة الأولى من الشهداء ، وشرع باعتقال رجال القافلة الثانية رهن التحقيق • فراحوا يجتمعون به سرا ويتبادلون معه الآراء ويدرسون التدابير الواجب اتخاذها ، وكان في طليعة الذين اتصلوا به الدكتور أحمد قدري ، معتمد جمعية الفتاة وأحد مؤسسيها ، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، وياسين الهاشمي (وكان يومئذ رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر) ومحمد الشريقي وعلي رضا الركابي وسواهم • وقد ابتهج الأمير فيصل بما سمعه من تصريحاتهم وما لمسه من غيرتهم وحماستهم •

***

والجدير بالذكر أن زعماء سوريا كانوا يسعون حتى ذاك اليوم لجعل الثورة سورية تعلن فى سوريا لا فى الحجاز ، فاتصلوا بزعماء القبائل وذوى المكانة وضموهم الى صفوفهم فكان من رجال الجمعية المذكورة ، نواف بن نورى الشعلان شيخ قبائل الرولا من عنزه ، وفرحان الميدا شيخ مداين صالح ، ونسيب الأطرش من كبار مشايخ الدروز ، وأبو سليم فرحان المغوش شيخ قرية خلخلة فى الجبل الدرزى ، وسواهم من أصحاب النفوذ فى البلاد السورية على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم ٠

ورجع فيصل الى مكة فى شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٥ ، وكله نشاط وحماسة لما شاهده من الروح القومية فى دمشق ، وقد حمل الى والده ختمى الشيخ بدر الدين الحسنى وعلى رضا باشا الركابى كعلامة لموافقتهما على اعلان الثورة ، وبعد وصوله الى مكة أفضى الى أبيه بما رأى وسمع فى دمشق وبما قر عليه رأى رجال العرب فيها من اشعال نار الثورة فى بلاد الشام لانقاذ العرب وتأسيس المملكة العربية المنشودة ٠

ولم يلبث الأمير فيصل أن برح مكة الى الطائف ثم وافاه اليها أبوه وشقيقاه على وعبد الله ، وعقد الأربعة مؤتمرا عائليا سريا بعيدين عن أعين جواسيس الترك الذين كانوا يحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم ، واتفقوا فيما بينهم أن يتعهدوا أمر الثورة وأن ينجزوا الاتفاق مع الانكليز ٠ وكان رسل هؤلاء يختلفون الى الحجاز لمفاوضة الشريف واقناعه بالانضمام الى صفوفهم ، قاطعين له الوعود بأن يؤيدوه فى سياسته الرامية الى انقاذ العرب وتحريرهم ٠

ورجع الأربعة الى مكة بعد أن اتفقوا على الثورة وصرف الأمير فيصل بضعة أيام وهو يستعد للعودة الى دمشق ليكون على صلة برجال الثورة وليراقب سكنات الأتراك وحركاتهم ٠

***

وصل الأمير فيصل الى دمشق فى شهر كانون الثانى (يناير) من سنة ١٩١٦ ، مصطحبا معه خمسين فارسا من اتباعه بينهم بعض الأشراف فحل واياهم ضيوفا على آل البكرى ، هو فى المدينة وهم فى قرية القابون من ضواحيها ٠ وعاد للاتصال برجال العرب ومفكريهم وراح يدرس معهم الخطط والاستعدادات للثورة ٠ وفى شباط (فبراير) من السنة المذكورة جاء الى دمشق أنور باشا وكيل القائد العام ، ومنها توجه الى الحجاز وبرفقته جمال باشا والأمير فيصل ، وعلى اثر وصوله الى المدينة المنورة

طلب الى الشريف حسين أن يوافيه اليها لرغبته فى الاجتماع به ، وقد قيل ان الأتراك كانوا ينوون اعتقاله وابعاده لو أجاب دعوة أنور ، ولكنه اعتذر عن عدم امكانه المجيء وبعث بهدايا ثمينة الى أنور وجمال فسلمها فيصل اليهما وعاد بصحبتهما الى دمشق . وكان الديوان العرفى فى عاليه آنذاك منهمكا فى محاكمة المعتقلين من زعماء العرب وأحرارهم فبذل الأمير فيصل جهوده لاعتاقهم والعفو عنهم ، ولما فشل فى مسعاه هذا أنبأ بذلك والده .

★★★

وفى شهر آذار طير الشريف الى أنور البرقية التالية :

« ان خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من ميادين القتال فى بلادهم ، وعلى تأييدهم لها قلبا وقالبا فى نضالها .

« ويلوح لى أن ارضاء الشعب العربى يتوقف على مداواة قلبه الذى جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتى :

١ ـ اعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين .

٢ ـ انالة سوريا ما تطلبه من نظام لامركزى .

٣ ـ جعل امارة مكة وراثيـة فى أولادى وابقاؤها على حالتها الحاضرة .

« فاذا قبلت هذه المطالب فأنعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائى فى ميدان العراق وميدان فلسطين ، واذا لم تقبل فأرجوكم أن لا تنتظروا منى شيئا سوى الابتهال للحق جل وعلا بأن يهب الدولة النصر والتوفيق » .

★★★

فأرسل اليه أنور الجواب التالى :

« وصلت برقيتكم الهاشمية القائلة ان احراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلبا وقالبا .

« ولما كان طلب اعلان العفو عن بعض المتهمين وتطبيق نظام اللامركزية فى سوريا واستبقاء امارة مكة فى شخصكم السامى وفى أولادكم ، خارجا عن اختصاص سيادتكم فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم فى شيء .

« وانى أبلغكم بأنه لابد من أن ينال المعتقلون عقابهم كما ان حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستظل فى الحجاز على ما كانت عليه ، وكما هى فى جميع الممالك الشاهانية ، وأوصيكم ملحا بأن تستدعوا ولدكم عليا الموجود فى المدينة الى مكة فورا وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم الى دمشق ليكونا بقيادة ولدكم فيصل بك ، وبديهى أنه سيظل ضيفا على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب . والأمر لمن له الأمر سيدى » .

فبعث له الشريف بالرد الآتى :

« لقــد أرسلت نجلى فيصــلا الى دمشق اعتمادا على شرف الدولة ولست أرجو أن يعود الى الآن ، على أن سوق المتطوعة الى دمشق يتوقف على وصوله الى المدينة ورؤية هؤلاء له . وسيدعى نجلى على الى مكة قريبا » .

***

ذكر جمال باشا فى مذكراته عن هذا الحادث ما يلى :

« استمرت محاكمة المعتقلين الى ما بعد عودة أنور باشا الى الآستانة وعندئذ ظهر الشريف حسين بمظهره الحقيقى فبعث اليه برقية أبلغنى اياها أنور باشا وهذا مضمونها : « اذا كنت ترغب فى التزامى جانب الهدوء والسكينة فيجب الاعتراف باستقلالى فى الحجاز من تبوك حتى مكة وحصر الامارة فى أبنائى والعدول عن محاكمة أحرار العرب ، واعلان عفو عام فى سوريا والعراق » .

***

« وعلى أثر استلامى هذه البرقية بعثت فى طلب فيصل واستدعيت على فؤاد باشا ليكون شاهدا على محادثاتنا ، وقلت للأول : « لما سمعت حين رجوعى من المدينة بأن شقيقك عليا يتدخل فى شئون الحكومة ويدعى لنفسه حقوقا ليست له ، أبلغت المحافظ أن يطلب اليه الكف عن هــذه الأعمال ، لاعتقادى أنه لم يقدم عليها لحداثة سنه وقلة تجاربه ، وأبلغت والدك أن يردعه ، وقلت لك فى محادثاتنا أننى أبذل ما فى وسعى للمحافظة على منصب والدك وقد أبلغته ذلك شخصيا كما أخبرك وكتب الى معربا عن عظيم شكره وامتنانه . ولا أظنك تجهل أن لأبيك خصوما لا يستهان بهم من أبناء عمومته فى الآستانة ، وهم يعملون لايغار صدر الحكومة عليه فخير لكم وأبقى الاقلاع عن الاتيان بأى عمل يكون حجة لخصومكم » ثم لما أطلعته على برقية أبيه الى أنور باشا أعرب عن ارتيابه فيها وقال ان ما وقع ليس سوى سوء تفاهم ، فوالدى لا يقصد شيئا ضارا ولست تجهل أنه

لا يحسن اللغة التركية ويلوح لى أن هذه البرقية ترجمها مترجم عاجز عن فهم النص العربى فحرفها . ثم وعد بأن يكتب الى والده حالا طالبا منه العدول عن مطالبه . وأرسلت أنا الى الشريف البرقية التالية :

« لقد اتصل بى خبر برقيتكم الى أنور باشا ، فأنتم تطلبون أن تكون الامارة وراثية فى أسرتكم وأن يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهانى بعد أن قامت البراهين على خيانتهم للأمة والوطن .

« وليس بالامكان اجابة الجـزء الثانى من طلبكم لضرره بالمصـالح العامة ، فالحكومة التى تصفح عن الخونة جديرة بأن تتهم بالضعف ، كما أن عفوها يغرى كثيرين على الخيانة . ولو انك اطلعت على الوثائق التى ظهرت فى المحكمة لرأيت الى أى حد وصل أولئك المتهمون .

★★★

« وأما فيما يختص بجعل الامارة وراثية فى أسرتك فالفرصة ليست مناسـبة للمطالبة بذلك ، وأظنكم تعترفون بأن الاعـراب عن مثل هذه الرغبات ونحن فى ابان الحرب — حيث نستهدف جميع قوى الانسـان عقلية وجسدية لأشد العناء — من رجل يتبوأ مركز الشرافة وفى أعظم بقعة فى بقاع الدولة العثمانية ، ان مثل هذا الاعراب لابد أن يكون له أسوأ الوقع فى نفوس الجمهور . وأعتقد أنه ما كان ينبغى لكم أن تطلبوا مثل هذا الطلب ولو كنتم على حق ، فموارد الأمة ينبغى أن تحشد لغرض واحد وهو احراز النصر النهائى .

« ولو فرضنا ان الحكومة لبت طلبك لمجرد الرغبة فى الحصول على مصادقتك فى هذه الأوقات العصيبة فماذا يمنعها من أن تعاملك بالشدة والقسوة لو انتصرت فى نهاية الحرب وعلى كل يجب أن نعلم أن الرجال الذين أسسوا الحكومة وتجرأوا على القيام فى وجه السلطان عبد الحميد لا يصفحون عمن يجترىء على شل حركتهم فى هذه الحرب . وقد خاضوا غمارها لمصلحة العالم الاسلامى . وهم فى الوقت نفسـه لا يتأخرون عن نيل الأنعام الجزيلة من جلالة الخليفة لكل من عمل ابتغاء رضى الله وتحقيق غاياتنا المقدسة » .

★★★

ثم يقول جمال باشا فى مذكراته :

« وأصدرت محكمة عاليه «الديوان العرفى» حكمها فى القضية الكبرى (قضية ٦ مارس سنة ١٩١٦) ونحن لا نزال نتبادل الرسائل مع الحسين،

فبذل فيصل جهده لينال عفوا للمحكوم عليهم . وكان يزورني كل يوم ويحول مجرى الكلام الى قضية العفو - وسمعت أنه كان يعنف أعيان دمشق الذين يزورونه لعدم سعيهم لانقاذ مواطنيهم . ودعاني ذات يوم لتناول الغداء معه في القابون (قصر آل البكري وقد دمره الفرنسيون أثناء الثورة السورية سنة ١٩٢٥ بالديناميت) وكان ذلك في أوائل شهر نيسان ، فدار الحديث حول موضوع العفو فسألته : هل عرفت تفاصيل ما فعله هؤلاء ، فقال : كلا ، فقلت : لو عرفت التفاصيل لأسفت اشد الأسف على توسطك لنيل العفو عنهم .

« واستلمت بعد أيام رد الشريف حسين علي برقيتي اليه . وبه يلح في اصدار العفو لأن صدوره في مصلحة الحكومة ، ويشكو من تصرفات حاكم المدينة بصري باشا ويقول انه يأبى أن نسلب منه حقوق منحه اياها الخليفة .

« وازدادت في الوقت نفسه شكاوى بصري باشا من تصرفات الشريف علي (وكان يقيم معه في المدينة) ومساعاه لتأليب العربان واستمالتهم ، فدعوت فيصلا وأطلعته على رد والده وسلوك شقيقه وقلت له : لا أستطيع ادراك غرض والدك من استعماله هذه اللهجة التي يستعملها في هذه الأيام ، ولا غاية أخيك من الخطة التي يسير عليها في المدينة ، فمن الجهة الواحدة تعلنون انكم عاملون على تجهيز المتطوعين وارسالهم للاشتراك في حملة القناة فتمدكم الحكومة بالمال والرجال ، ومن الجهة الأخرى تدل أعمالكم على ميلكم الى الانفصال وقد بدرت بوادره من ناحية أبيك وأخيك . فاذا أردتم أن تظلوا أصدقاءنا فيجب ان تراعوا قوانين الصداقة والا فاعلنوا ثورتكم واحملوا سلاحكم ، واذا كنتم لا تضمرون الشر فاكتب الى شقيقك ليحضر الى هنا حالا وليكف عن الاعتداء على سلطة المحافظ . فأجابني بأنه سيعمل على تسوية الخلاف بين هذا وأخيه وأنه سيدعوا شقيقه الى دمشق وأنكر ما نسمته اليهم من الميل الى الثورة » .

★★★

أما جمال فكان يبغي من استقدام الأمير علي الى دمشق ان يضمه الى شقيقه الأمير فيصل فيبقى الاثنان رهينة عنده ، يمنعان والدهما من القيام بأي حركة معاكسه للدولة . وتلك كانت الغاية من استقدام فيصل . ولم يخف هذا الأمر عليه فراح يعمل الفكرة مع اخوانه في دمشق لايجاد وسيلة يندرع فيها لينجو من الشرك ويشترك مع اخوانه في الحركة المقبلة ، لأنه من المحال اضرام نار الثورة في الشام بعد ان شتت جمال باشا ضباط

العرب وقذف بهم الى كل ميـدان سحيق من ميـادين القتـال وملأ سوريا بجنود استجلبهم من الأناضول كما اعتقل نخبة من رجالات سوريا ونفاهم الى تلك الأصقاع ، وعليه تحولت الأنظار في هذه المرحلة الى الحجاز ٠

★★★

وفي هذه الغضون كانت المراسلات السرية تجرى بلا انقطاع بين فيصل ووالده وأشقائه ، فيوافيهم بكل ما يقع في دمشق وما يدور بينه وبين الترك ، ويوافونه هم بما عندهم ٠ وأخيرا اتفقوا على أن يوعز الشريف علي الى المتطوعين الذين جاءوا معه من الحجاز وكان يقودهم بنفسه ويقيم واياهم في المدينة ريثما يتكامل عددهم فيسير بهم الى القناة ، بأن يقترحوا استقدام فيصل من دمشق ليذهب معهم الى جبهة القتال ٠ وفي الواقع أبلغ زعماء المتطوعة الحكام الترك أنهم يتوقون الى الزحف ويرجون أن يكون فيصل على رأسهم كما جاء في برقية أبيه وقام فيصل بمثل هذه الحركة في دمشق فزار جمالا وأبلغه ان شقيقه عليا تلقى أمرا من والده بأن يسافر الى القناة وأنه يريد الذهاب الى المدينة فيأتي مع أخيه والمتطوعين الى القدس، فقبل جمال بذلك وقال له : « سر على رأس وفد واستقبلهم باسمي وأرجع معهم واسع للتوفيق والاصلاح » ٠

★★★

وسافر الوفد بسكة الحجاز الى المدينة المنورة في منتصف شـــهر مارس (أي بعد اعدام القافلة الثانية من الشهداء بتسعة أيام) وكان مؤلفا من الأمير فيصل رئيسا وكامل بك مفتش المنزل وآصف بك المستشار العدلي للجيش الرابع ونسيب بك البكري والشيخ عبد القادر الخطيب ، وكاد فيصل يطير فرحا لأنه أفلت من القفص وتخلص من قبضة الأتراك ٠ وجرى له في المدينة استقبال رائع ، وأنضم الى شقيقه وأقام في منزله ٠ وقد صرح نسيب بك البكري بأن آصف بك قابل فيصلا في الحرم النبوي غداة وصولهم وقال له والدموع تنهمر على خديه : « اذا كنت تستطيع النجاة بنفسك فافعل ولا ترجع الى دمشق لأن الأتراك يضمرون لك السوء وأنا أقول لك هذا اكرام لجدك الراقد في هذه الروضة » ٠

★★★

ولم يكد فيصل يستقر في المدينة حتى جاء اليها فخري باشا وكيل قيادة الجيش الرابع منتدبا من قبل جمال باشا ليشرف على الحالة ويتولى بنفسه قيادة القوة العسكرية فيها وقد كانت مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي

ولكن الأتراك عززوها بنجدات جديدة تحت ستار ـ ارسالها الى اليمن ، مما زاد في مخاوف الشريف وأبنائه ليقينهم ان حشد هذه القوة الكبرى في المدينة وتوالي قدوم النجدات اليها معناهما ان الترك يبغون الفتك بهم وانزال الضربة القاضية عليهم ، فيزحفون بهذا الجيش الى مكة ـ بحجة السفر الى اليمن ـ ويستولون عليها بالاتفاق مع القوة التركية الباقية فيها ، فتنهار بذلك آمال الشريف وبنيه ويضعف مركزه ، هذا اذا لم تصبح حياته عرضة للخطر .

***

وعليه قرر الحسين بالاسراع باعلان الثورة رغم أنه لم يكن قد أتم الاستعداد لها لخوفه من مفاجأة يفاجئه بها الأتراك . وكتب بهذا المعنى الى ولده فيصل ـ وكان هذا لا يزال في المدينة ـ فأرسل اليه تقريرا مسهبا طلب فيه تأجيل اعلان الثورة حتى شهر أغسطس (كانت المخابرة في شهر مارس سنة ١٩١٦) بحجة أن المواسم الزراعية تكون في ذلك التاريخ قد انتهت وادخر العرب مؤونتهم من الحبوب فيشتركون جميعا في الثورة فتكون عامة شاملة لأهل الحجاز والشام الا أن الشريف أجابه مصرا على ضرورة الاسراع في العمل معهما مهما كانت الظروف والاعتبارات اذ لم يبق مجال للانتصار .

***

ونزل فيصل عند ارادة أبيه وقرر أن لا يعود الى دمشق مع أعضاء الوفد الذين جاءوا بصحبته لاستقبال وفود المجاهدين باسم الجيش الرابع ، واعتذر اليهم عن عدم تمكنه من العودة بحجة ان مشاغل ضرورية تضطره للبقاء بضعة أيام أخرى مع شقيقه ، وأنه ما زال يفاوض جمالا بشأن المتطوعين أيسافرون بالقطار الى دمشق أم يذهبون رأسا الى القناة وقال لهم ان لا ينتظروه ، وأنه متى انتهت مفاوضاته مع جمال عاد الى دمشق . فرجع أعضاء الوفد وبينهم نسيب البكري وقد اتفق سرا مع فيصل على أن يبعث له اذا تم الاتفاق على اعلان الثورة ، هذه البرقية : « ارسلوا الفرس الشقراء ... » .

وعمد نسيب بك على أثر وصوله الى دمشق ، الى تسفير عائلته بقطار سكة الحديد تحسبا للطوارىء ، وراح هو نفسه يستعد للسفر . وما انقضت ثلاثة أيام حتى استلم البرقية المتفق عليها ، وكان ذلك في الاسبوع الأخير من شهر مارس سنة ١٩١٦ ، فأيقن ان كل شيء قد انتهى ، وفي التو توجه الى قرية « القابون » وكان لا يزال فيها أولئك الفرسان الذين جاءوا برفقة فيصل يوم قدومه من مكة الى دمشق ، فأبلغهم نبأ

اعلان الثورة وهرب واياهم في منتصف تلك الليلة الى الحجاز وانضم اليهم خالد الحكيم ، وقد سلك بهم دليلهم طريق العراق ٠

***

وكان جمال باشا يومئذ غائبا في بيروت ، فلما عاد الى دمشق بعد يومين وعرف بسفرهم أصدر الأمر بمطاردتهم ، ولكن القوات المختلفة التى قامت بهذه المهمة لم تجد لهم أثرا ٠

وبعد أن تم الاتفاق على اعلان الثورة قابل على وفيصل فخرى باشا يوم ٣٠ مارس وأطلعاه على مضمون البرقية الأخيرة التى بعثها أنور باشا الى أبيهما وقد توعده فيها بقوله : « يجب على كل موظف أن يلزم حدود وظيفته فلا يتجاوزها ولا يتدخل فى شئون الدولة والا اضطر الى اتخاذ الاجراءات اللازمة في مثل تلك الأحوال ٠ ويجب ارسال المتطوعين بلا تردد واستدعاء على من مكة » وأفهماه أنهما بعد تلك البرقية لم يعد باستطاعتهما المداومة على العمل ، وان أحدهما عليا سيرجع الى مكة عمــــلا باشـــارة الشريف ٠

فاعتذر فخرى باشا قائلا ان ما ورد في البرقية نتيجة تسرع وأنه لابد من تسوية هذه الأمور في المستقبل ثم تقرر أن يبقى فيصل فى المدينة ليقود المجاهدين ويسير بهم الى القناة بدلا من شقيقه ٠

***

وبرح على المدينة في أول يونيه وتوجه الى « سيدنا حمزة » حيث معسكر المتطوعين على أن يبيت فيه ليلته ثم يسافر فى الصباح الى مكة ، ورافقه أخوه لوداعه على أن يرجع بعد سفره الى مقره فى المدينة ٠ فقضى الاخوان ليلتهما تلك فى ذلك المعسكر وفى الصباح التالى (٢ يونية) كتبا كتابا مشتركا الى فخرى باشا وبصرى باشا وسلماه الى مرافق فيصل وهو ضابط تركى ، وهذا مضمون الكتاب :

« حيث ان رجال الحكومة أساءوا فينا الظن ، ولما كان ذلك يحول بيننا وبين الاستمرار فى التعاون مع الحكومة فقد عدنا الى مكة بناء على البرقية التى تلقيناها من والدنا لعدم استطاعتنا البقاء » ٠

وعلى الأثر ركبا وحاشيتهما و ٢٠٠ هجان الى مكة ، سالكين الطريق الشرقى الى أن وصلا الى « الخانق » - احدى المراحل على طريق المدينة مكة - فنزلا فيها ثم غادراها فى صباح ٣ يونيو الى الحمراء « بيار على » قرب المدينة . ووجها الرسل الى القبائل يدعوانها الى الانضواء تحت

لواء الجهاد ، وما انقضى أسبوع حتى وافاهم نحو ستة آلاف مقاتل فهاجما السكة الحديدية من محطة المدينة ومحطة المحيط لقتالهم وعاد العرب فى اليوم التالى الى محطة المحيط ذاتها فخرج فخرى باشا بنفسه لمقاتلتهم على رأس قوته ، واستمر القتال حتى الظهر وانتهى بتراجع العرب حتى « بير الماشى » لنفاد ذخائرهم ، ومنها ارتدوا حتى الغدير ، وهنا افترق الأخوان فسار فيصل الى « ينبع » ، وبقى على وحده ، وشمر عن ساعد الاستعداد للنضال قبل اعلان الثورة بصورة رسمية ٠

★★★

ولكن ماذا فى مذكرات جمال باشا عن المقدمات التى سبقت الثورة ٠٠ كتب جمال باشا يقول :

« لما بلغ فيصل المدينة كتب الى معربا عن سروره لأن شقيقه عليا سيقابلنى قريبا ، وبما أن الشريف حسينا سألنى ان أرسل اليه مبلغا من المال لانفاقه على المجاهدين أبرقت الى محافظ المدينة بأن يسلمه ما طلب وذلك قبل اعلان الثورة بيوم أو يومين » ٠

« وبينما كنت فى بيروت يوم ٢ يونيو سنة ١٩١٦ دعانى فخرى باشا من المدينة وحادثنى بالتليفون قائلا : « ما زالت العلاقات حسنة مع الشريفين على وفيصل منذ وصولى الى هنا ، وقد دعوانى أمس الأول لزيارة مقام « سيدنا حمزة » — فى ضاحية المدينة — حيث معسكر المتطوعين ٠ فذهبت وتغدينا معـا وقام هؤلاء بالألعاب الفروسية وأنشدوا الأناشيد الحماسية ٠ ودعيت مساء أمس الى منزل الشريف على فقضيت فيه وقتا ٠ ومع اننا اتفقنا على ان تسافر أول كتيبة من كتائب المتطوعين فى هذين اليومين الى درعا فقد تبدل الموقف صباح اليوم تبدلا عظيما ، اذ حمل الى أحد رجال الشريف على ثلاثة كتب ، الأول لى والثانى والثالث من الشريف حسين ، أحدهما لك والثانى للصدر الأعظم ٠ وبما أنهما مكتوبان بالأرقام فقد بادرت بارسالهما اليك ٠ أما الكتاب المرسل لى فهذا فحواه :
« بناء على الأوامر الصادرة من والدى سيقف نقل المتطوعين الى فلسطين ، ولهذا عقدت النية على العودة بالموجودين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا ٠ وانى آسف لاضطرارى الى الرحيل دون ان أودعك فأرجو قبول عذرى » ٠

★★★

ويذكر جمال باشا ان الشريف الحسين قال فى كتابه اليه : « انه يعتذر عن عدم استطاعته الاشتراك فى حملة القناة قبل ان تجاب المطالب التى طلبها فى برقيته وقبل ان تكف الحكومة عن خطة الايهام حوله » ٠

« وكان الحسين قد كتب الى الصدر الأعظم قائلا :

« أنا لا أعرف أى الرجلين أصدق أهذا السياسى الذى أتعامل معه مباشرة (يعنى به جمال باشا) ولطالما أظهر المجاملة والود ، أم ذاك الذى استعمل معى ألفاظا جارحة ؟ (يعنى به أنور باشا) ، فانى لذلك مضطر لقطع العلاقات مع الحكومة حتى تجاب المطالب التى طلبتها من أنور باشا قبل شهرين » ٠

★★★

وذكر جمال أيضا انه أخذ رسالة بالأرقام من الأمير فيصل ، وكان قد أعطاه مفتاحا لها قبل رحيله الى المدينة ، قال له فيها :

« لقد صدر الأمر بوقف نقل المتطوعين الى سوريا لأسباب أرجو أن أبسطها لك شخصيا فى اجتماعنا المقبل ٠ وقد ساءتنى جدا الحالة الجديدة التى نشأت ، ولما كان من بواعث الألم أن لا تقع عينى عليك ثانية قبل تسوية الأمور تسوية مرضية فأتشرف باعلامك اننى ذاهب الى مكة لقضاء بعض الوقت » ٠

ونعود الى الحديث عن التطورات التى طرأت على الساحة العربية والتركية قبيل دخول تركيا الحرب الى جانب الألمان ٠

★★★

« وما كاد الاحتمال بدخول تركيا الحرب يتأكد — جورج أنطونيوس — حتى أرسل عزيز على من معزله فى مصر رسالة قاطعة الى الأعضاء البارزين فى (جمعية العهد) يناشدهم فيها بألا يغريهم أحد للوقوف من تركيا موقف العداء لأنها اذا غدت محاربة تعرضت ولاياتها العربية الى الغزو الأجنبى ، ويؤكد لهم ان واجبهم يقضى بالبقاء فى صف تركيا ما داموا غير حائزين على ضمانة قوية تبدد محاولتهم نحو أطماع أوروبا ٠ وقام زعماء (جمعية الفتاة) من جانبهم باتخاذ قرارهم المماثل ٠ وعلى هذا اتحد رأى الجمعيتين وأصبح همهما الأول معرفة مبلغ نجاحهما فى انتهاز الفرصة التى أتاحتها الحرب للحصول على ضمانات ملزمة تحقق للعرب استقلالهم فى المستقبل . وكان الأعضاء يجهلون آنئذ تبادل الرسائل بين كتشنر والشريف ٠

★★★

كان هذا اتجاه زعماء العرب عندما زار فيصل دمشق وانتسب بعد حلف اليمين الى الجمعيتين الواحدة بعد الأخرى فأعجب اعجابا شديدا

بالتنظيم فى (جمعية العهد) اذ كان فى مقدور زعمائها اثارة الجيش فى الوقت الذى يختارونه ، فان الفرق العثمانية المرابطة فى الشام فى تلك البرهة كانت مؤلفة من كثرة غالبة من العرب وكان ضباطها ، وأكثرهم من أعضاء الجمعية ، على استعداد لأن يقوموا مع رجالهم عند أول اشارة ٠ وقال جمال باشا فى مذكراته التى نشرت بعد الحرب : « ان الدسائس الأجنبية لو نجحت فى اشعال الثورة لما وجدنا طريقا لقمعها وكانت الدولة تخسر بنتيجة ذلك جميع ولاياتها العربية » ٠

كان الخوف من أن تؤدى الثورة الى ابدال الحكم الأجنبى بآخر مثله يحمل الزعماء على الأعراض عنها ٠ وانتسب فيصل الى الجمعيتين تدفعه حرارة المؤمن الذى اهتدى حديثا لأن تمسكه بالاتراك كان ناشئا عن هذا الخوف نفسه وعن عدم وثوقه من استعداد العرب استعدادا كافيا ٠ واطلع الزعماء على عروض كتشنر واختلاف الرأى بينه وبين عبد الله وسياسة الحذر التى يتبعها الحسين وبعد ذلك تركهم ليقلبوا الأمر على ضوء هذه المعلومات الجديدة واستأنف سيره الى القسطنطينية فبلغها يوم ٢٣ ابريل لانجاز القسم الظاهر من مهمته ٠

***

أقام فيصل فى القسطنطينية أقل من شهر فكان موضع رعاية والتفات بالغين وفسح له المجال لبسط وجهة نظر أبيه بكاملها فجرت مباحثات كثيرة بينه وبين الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم وطلعت بك وزير الداخلية وأنور باشا وزير الحربية وحظى مرتين بالمثول أمام السلطان ٠ فأظهر الجميع عطفهم على قضيته ولكنهم أفهموه بأن العلاج فى يد والده نفسه فما عليه الا أن يعلن موافقته على الجهاد حتى يسهل تعديل الموقف فى الحجاز لصالحه وعندئذ يستطيع أن يفوز بترضية تامة ٠ وكتب كل من الصدر الأعظم وأنور وطلعت الى الشريف بهذا المعنى وكان كتاب أنور المؤرخ فى ٨ مارس أشد الثلاثة اذ شرح للشريف الوضع الحربى فى الدردنيل وأوضح انتصار ألمانيا والنمسا فى دوينتز بشىء من المبالغة والادعاء وأكد الصبغة الدينية للحرب مصرا على الحسين بلزوم تأييد الجهاد ٠

***

عاد فيصل الى دمشق يوم ٢٣ مارس فوجد أن زملاءه أعضاء جمعيتى (الفتاة) و (العهد) قد اتفقوا فى غيابه على خطة موحدة للعمل وأعدوا بيانا بالمطالب التى يتوقف على تحقيقها تعاون الزعماء العرب مع بريطانيا العظمى ضد تركيا واقترحوا أن يحمل فيصل البيان الى مكة ويطلب من

أبيه أن يستوضح الحكومة البريطانية عما اذا كانت محتوياته مقبولة لديها للبدء بالعمل المشترك . وبالنظر الى أهمية البيان نثبته فيما يلى كاملا :

« اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

سمالا : خط مرسين - أضنة حتى درجة ٣٧ شمالا ومنها على امتداد خط بريجيك - أورفه - ماردين - مديات - جزيرة ابن عمر - عماديه حتى حدود فارس .

شرقا : الحدود الفارسية حتى خليج فارس .

جنوبا : المحيط الهندى (خلا عدن التى تحافظ على وضعها الحالى) .

غربا : البحر الأحمر والبحر الأبيض حتى مرسين .

الغاء الامتيازات الأجنبية :

عقد تحالف دفاعى بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة العتيدة . منح بريطانيا الأفضلية فى الشئون الاقتصادية :

هذه هى الشروط التى اذا تحققت كان زعماء العرب على استعداد لتأييد ثورة عربية يعلنها شريف مكة فيبذلون كل ما فى وسعهم لمساعدة قضية الحلفاء .

يعتبر هذا البيان الذى أعد فى دمشق وثيقة هامة جدا لا بالنظر الى محتوياته فحسب بل كذلك بسبب الدور الذى لعبه فيما بعد حين استفاد منه الحسين فى مفاوضاته مع بريطانيا العظمى التى استؤنفت فى شهر يولية المقبل .

***

لقد صيغت هذه الوثيقة بعبارات مقتضبة بالقدر الذى يسمح به مؤداها واتخذت شكل بيان مختصر بالمبادىء العامة وذلك كله ناتج عن الكتمان الشديد الواجب احاطتها به ومع ذلك فقد كانت صريحة جدا فى أمرين :

استقلال العرب والتحالف مع انجلترا . ولعل قيمتها الرئيسية كوثيقة تاريخية نشأت عن أنها كشفت موقف العرب من دول الغرب . كان الاستقلال هدفهم وهو استقلال تام متحرر من كل تدخل أجنبى بما

فى ذلك التدخل المعروف باسم الامتيازات الأجنبية فاذا تعهدت انجلترا بالاعتراف باستقلال العرب فانهم يرحبون بحلف يعقد معها ·

أعرب فيصل فى المناقشات التى جرت بعد وصوله دمشق عن شكه فى قبول الحلفاء هذه الشروط لأنه كان شديد الارتياب بنواياهم ولكنه وافق على انها تمثل الحد الأدنى لمطالب العرب التى يمكن أن تبرر الدعوة الى الثورة ووعد بالاسراع فى العودة الى مكه لعرضها على والده ونيل موافقته · وبعد ذلك أقسم الزعماء الستة البارزون يمين الاخلاص التى تعهدوا فيها بالاعتراف بالحسين كوكيل للدفاع عن قضية العرب كما تعهدوا بأن تثور جميع الفرق العسكرية المرابطة فى الشام حالما يتوصل الحسين الى الاتفاق مع بريطانيا على أساس البيان ، وفى سبيل دعم هذا التعهد سلم الشيخ بدر الدين الحسينى ، وهو كبير علماء الدين فى دمشق ، فيصلا ختمه ليحمله الى الشريف كدليل على ثقة الشام به ·

وأخذت الحوادث تسابقهم فقد أمر الترك بنقل احدى الفرق العربية المرابطة فى الشام الى جناق قلعة وكان يخشى نقل غيرها مثلها ولكن سفر فيصل لا يتم بدون مقابلة جمال باشا الذى كان غائبا فى رحلة تفتيشية فى جنوب سوريا ·

وبدلا من انتظار عودة جمال توجه فيصل الى بيت المقدس حيث استأذنه بالسفر ثم عاد الى دمشق ومنها استقل القطار الى المدينة ومعه نسخة عن البيان مكتوبة بخط صغير جدا وقد خيطت فى داخل حذاء أحد أتباعه ·

***

وفى يوم ٢٠ يونيو وصل مكة وقدم لوالده تقريرا مفصلا بنتيجة مهمته شارحا كيفية اقتناعه بفكرة الثورة فى حالة قبول المطالب المذكورة ·

واستجوبه الحسين استجوابا دقيقا بصرامته المشهورة مع أولاده وقد قال فيصل فيما بعد : « كان ذلك الأسبوع من أشد أسابيع حياتى على » ·

وفى هذه الفترة قامت السلطات البريطانية فى مصر بما يمكن لدرء الخطر الناجم عن الدعوة الى الجهاد وكان الشخصان الرئيسيان العاملان فى هذا المضمار فى البدء هما السكرتير الشرقى المستر رونالد ستورز ورئيس الاستخبارات العسكرية نائب الزعيم (الليوتنان كولونيل) ج·ف كلايتون · وفى يناير عام ١٩١٥ باشر السير هنرى مكماهون عمله كمندوب

سام في مصر والسودان وكان السير رجينالد وينغيت ، كما ذكرنا سابقا ، حاكما عاما للسودان فاشترك هؤلاء الأربعة في وضع أساس العمل ٠

***

شرع ستورز وكلايتون بأحاديث مع قادة العرب المقيمين في مصر وفي مقدمتهم عزيز علي ومعه السيد رشيد رضا وهو فقيه مشهور وسياسي ومصلح ومن الدعاة المتحمسين للنهضة الاسلامية العربية فكان محور هذه الأحاديث رسائل كتشنر الى الشريف وهدفها اقناع العرب بأن مستقبلهم يتوقف على تحالفهم مع انجلترا ثم توسعت دائرة هذه المشاورات بمرور الأيام فلم تترك فكرة أو ميلا الا وسجلته سواء أكان صاحبه متبرعا به أو مدعوا لابدائه ٠ ولكن الأحاديث لم تنته الى اتفاق وهذا أمر متوقع لأن هؤلاء القادة أمثال عزيز علي ورشيد رضا الذين يتمتعون بنفوذ يكفي للتأثير في أنصارهم في الشام والعراق طلبوا ضمانة استقلال العرب كشرط أساسي للدعوة الى ثورة عربية ولم يكن اعطاء ضمانة كهذه في مقدور أي شخص من الأشخاص الموجودين في مصر ٠

***

ومع ذلك فلم تذهب هذه المشاورات عبثا لأنها أقنعت السلطات البريطانية بأن سعيها الى اكتساب العرب دون اعطائهم تعهدات معينة هو سعي عقيم وقد وصل السير رجينالد وينغيت الى هذه النتيجة من جانبه اذ قام بمشاورات مع السيد علي الميرغني وغيره من كبار المسلمين في السودان وبحث الموضوع من وجهة نظر اسلامية فأدرك أن لابد من الاسراع في اصدار بلاغ يحوي تأكيدات صريحة عن مستقبل بلاد العرب ومصير الخلافة ٠ وأخيرا أثمرت مساعي وينغيت التي أيدها كتشنر بقوة فخولت الحكومة البريطانية مكماهون سلطة اذاعة بلاغ عام بهذا المعنى ٠

كان القصد من هذا البلاغ تبديد مخاوف المسلمين أكثر من تحقيق أماني العرب السياسية فقد تعهدت فيه بريطانيا بأن تجعل الاعتراف بجزيرة العرب كدولة مستقلة تتمتع بالسيادة التامة في أراضي الاسلام المقدسة شرطا من شروط الصلح وأشارت الى استعداد الحكومة البريطانية للترحيب بقيام خلافة عربية ، نشر هذا البلاغ في أوائل شهر يونيو وطبع على كميات كبيرة من المناشير التي وزعت في جميع أنحاء مصر والسودان وهربت الى الشام كما أن الطائرات البريطانية ألقت نسخا عنها فوق الوجه وينبع ورابغ وجدة ٠

***

تجاوزت الحكومة البريطانية في هذا البلاغ التأكيدات التي أعطاها كتشنر في ٣١ أكتوبر عام ١٩١٤ من ناحية واحدة فقد وعد كتشنر الشريف بحماية جزيرة العرب من الهجوم الخارجي بينما منح البلاغ أكثر من ذلك اذ تعهد بالاعتراف بالدولة العربية المستقلة في الجزيرة وبضمان سلامتها ولكنه سكت عن مطلب أساسي من مطالب العرب وهو أن تشمل الضمانة بلاد الشام والعراق بالاضافة الى الجزيرة • وبعد ذلك أخذت الأحاديث التي بدأها ستورز وكلايتون في الخريف تفتر فاذا ما حل فصل الصيف ذبلت تماما » •

***

وكان جمال باشا قد سعى سعيا حثيثا للظفر بمساهمة أهل الشام ـ والمسلمون منهم بصورة خاصة ـ مساهمة تامة في الحرب التي قال ، ولعله كان يعتقد ذلك بالفعل ، بأنها قائمة للدفاع عن الاسلام • وكانت مهمته الأولى حين تولى قيادة الجيش الرابع تنظيم الحملة على مصر ولما كان معظم الجنود الموضوعين تحت قيادته من العرب فكر بأن الحكمة تقضي بعدم اعطائهم مجالا للتذمر وكان عند وصوله سورية يجهل وجود الجمعيات القومية السرية أو يعرف عنها القليل فلما أطلعوه على الوثائق التي ضبطت في القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق قرر اهمالها ولاسيما أن الأشخاص المتهمين فيها هم من المسلمين ذوي المكانة • وكان نخله مطران باشا وهو مسيحي معروف الشخص الوحيد الذي اضطهده لأسباب سياسية اذ ثبتت عليه تهمة محاولة الحصول على مساعدة فرنسا لضم بعلبك الى لبنان فحكم عليه بالنفي المؤبد وعرض في شوارع دمشق ثم توفي وهو في طريق المنفى ولم تخل الوفاة من مساهمة الحكومة فيها •

***

ولما فشلت الحملة على مصر بسبب سوء تقدير جمال بالدرجة الأولى عاد من جبهة سيناء وهو شاعر بالذل في دخيلة نفسه فزاد هذا الشعور حدة في مزاجه تظهر عادة في صغار الرجال بعد خيبة يمنون بها ، فلما عرضت عليه أوراق تجرم قسا مارونيا في لبنان وهو معروف بميله الشديد لفرنسا واسمه يوسف حايك لتبادله رسائل تحوي عناصر الخيانة مع المسيو ديشانيل رئيس مجلس النواب الفرنسي آنئذ ، وقع الحكم باعدامه بلا تردد فشنق هذا القس المنكود الحظ علنا في دمشق يوم ٢٢ مارس عام ١٩١٥ •

***

ثم أخذت التقارير ترد بالتدريج وهي تنبيء بصورة متزايدة بوجود الدلائل على نشاط الحركات الوطنية بالسر وأن الجيش مملوء بالمراكز التي تعمل من أجل الثورة وأن انجلترا وفرنسا لهما عمال في البلاد يسعون لاثارة الفتنة وأن نزول الحلفاء في سواحل سوريا بات قريبا وأن الضباط العرب في الجيش وعدوا بمساعدة هذا النزول ، فوقعت هيئة أركان الجيش الرابع في الخطأ الذي تقع فيه دوما دوائر الاستخبارات العسكرية عندما تحاول اقتفاء أثر حركة سياسية فكانت أذناها متفتحتين لسماع الشائعات ولكن أنفها لم يميز رائحتها • فصدقت أنباء هذه التقارير ولكنها لم تهتد الى المتآمرين الحقيقيين فأثارت مخاوف جمال وجعلته حاقدا راغبا في الانتقام ولكنه وقف ازاء ذلك مرتبكا مثله فيه مثل بوليفيموس الذي أراد انزال الضربة ولكنه لم يعرف بمن ينزلها • وفي تلك الأثناء أي في يونيو عام ١٩١٥ طلب اليه أنور أن يمده بالجند لجبهة جناق قلعة فأرسل له الفرقة الخامسة والعشرين المؤلفة كلها من العرب وكانت من الدعائم الرئيسية في خطة (جمعية العهد) للثورة • وأخذ جمال بعد ذلك ينتهز الفرص لاخراج الوحدات العربية من سوريا واحلال طوابير تركيا محلها •

ثم وجه اهتمامه الى المنظمات الملكية فقرر ملاحظة الأشخاص الذين تجرمهم الوثائق المضبوطة في القنصليتين الفرنسيتين فألقى القبض على عدد كبير من الناس وأحضروا أمام محكمة مشؤومة في عالية بلبنان حيث جرى استجوابهم وعذبوا ثم حوكموا فحكم على ثلاثة عشر شخصا منهم وجاهيا بالاعدام وحكم على خمسة وأربعين شخصا غيرهم ممن فروا أو كانوا في الخارج غيابيا بالاعدام وبعقوبات مختلفة من حبس وابعاد وكانوا جميعا من ذوي المكانة وكان بعضهم من الشخصيات البارزة المعروفة في سائر أنحاء العالم العربي •

***

وجد فيصل لدى وصوله دمشق في أوائل شهر يناير التالي أن الأمور تغيرت تغيرا كليا فقد كانت الغاية المحددة لرحلته تحريك الفرق العربية في الجيش التركي للثورة واثارة الأهلين بمجموعهم ليشعلوا نار الفتنة وذلك بناء على اشارة يتلقاها من والده • وقد رافقه حرس خاص مؤلف من أربعين شخصا تقريبا كانوا جميعا مختارين وكلهم من ذوي العزم الصادق وكان الكثيرون منهم من آل الشريف نفسه وقد وضعوا أرواحهم في أكفهم مثله • وعلل فيصل وجودهم لجمال بقوله انهم يؤلفون مقدمة القوة التي طولب الشريف بتشكيلها في الحجاز فقبل جمال التفسير على

ظاهره ورحب بهم فأقيمت الولائم والحفلات على شرفه واحتفاء بوصول هذه المقدمة فلما انتهت الاحتفالات ووجد فيصل متسعا من الوقت لدراسة الوضع ألفى نفسه أمام حالة من أعجب الحالات ٠

***

فقد تم نقل آخر الفرق العربية وفيها معظم أصدقائه أعضاء (العهد) وجيء بطوابير تركيا حلت محلها كما أبعد المتبينون من الملكيين بالمئات الى جهات الأناضول النائية وبدأت المجاعة التي انتشرت فيما بعد بشكل مفزع أودى بحياة عدد كبير من الناس وكان هم السكان منحصرا في اتقاء الجوع بعد أن أفقرتهم المصادرات العسكرية وتدني النقد وقلة الغذاء ٠ ومما زاد في الخوف العام أن السلطة اعتقلت عددا جديدا وأكبر من سابقه من الوجهاء المسلمين والنصارى الذين حجزوا في حلب بانتظار محاكمتهم بتهمة الخيانة ٠

***

ضمت هذه الزمرة بعض الأسماء التي كان أصحابها من أشهر رجال الشام وأوسعهم نفوذا مما دل على أن جمالا قد طرح سياسة الرفق جانبا ودامت المحاكمات عدة شهور وسارت بصرامة مقصودة يرافقها التنديد بأشكاله المختلفة من معاملة سيئة وتعذيب وتوسط الشريف ببرقيات أرسلها الى جمال والصدر الأعظم والسلطان مطالبا بالا يتجاوز الحكم السجن المؤبد اذا ثبتت التهمة ومضيفا بشيء من الوعيد أن هذا الأمر اذا لم يتم فان الدماء المراقة سيعقبها دماء ٠ وتوسل فيصل بذاته لدى جمال باشا ولكن وساطتهما كانت عقيمة ٠

كان جوزيف هاني أول الضحايا وهو من سكان بيروت المتبينين فشنق علنا يوم ٥ ابريل وبعد شهر أعدم واحد وعشرون شخصا بالشكل ذاته ، سبعة في دمشق وأربعة عشر في بيروت وكان بينهم عضو مجلس الأعيان عبد الحميد الزهراوي وهو من حمص وقد ترأس المؤتمر العربي في باريس ، وثلاثة من مبعوثي دمشق هم شفيق المؤيد وشكري العسلي ورشدي الشمعة ، وضباط قدير باسل في الجيش التركي هو سليم الجزائري ، والقاضي سيف الدين الخطيب من حيفا ، والمحامي الشاب ذو المستقبل الباهر الأمير عارف الشهابي من حاصبيا ، وأحمد طباره من بيروت هو كاتب وصاحب جريدة وكان من الموفدين الى مؤتمر باريس العربي ، وعلي عمر النشاشيبي من القدس ومحمد الشنطي من يافا وجورج حداد من لبنان ويتمتع ثلاثتهم بشهرة واسعة بمحبة الناس لهم ، والأمير

عمر الجزائري وهو دمشقي من سلالة الأمير عبد القــادر المشهور ومن المسلمين سبعة عشر شخصا والباقون من النصارى .

★★★

لم تعلن الأحكام في حينها بل دخل سجان قاعة السجن في عالية ليلة التنفيذ وقرأ أسماء واحد وعشرين شخصا من المتهمين ورجاهم بأن يرتدوا ملابسهم ويتبعوه فنقل الذين تقرر اعدامهم في دمشــق بالقطـار وعنــد وصولهم سيقوا الى ساحة المرجة وهي أكبر ميدان في المدينة حيث نصبت سبع مشانق ونقل الآخرون في عربات الى بيروت فعرفوا مصيرهم بالحدس وراحوا يقتلون ساعات الظلام بالأناشيد الوطنية التي تتغنى بحرية العرب فكانت كل جماعة تجيب الأخرى من عربتها حتى وصلوا ساحة الحرية عند الفجر وما كادت تدق الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم السادس من شهر مارس حتى كانت المجزرة منتهية ، ولم تمض عليها ساعتان حتى صــدر عدد خاص من جريدة (الشرق) وزع مجانا وفيه بيـان بالتهم والمحاكمة والأحكام وتنفيذها وقد ذكرت كلمة دفعة واحدة ووصفت التهم بأنها اشتراك في أعمال خيانة غايتها فصل سوريا وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية لتشكل دولة مستقلة .

★★★

سرت في البلاد قشعريرة من الاشمئزاز اذ لم يتوقع أحد من جمال بطشا كهذا حتى الذين يعرفون ما يخفيه في أعماق نفسه من وحشية . ومما زاد في فظاعة الأمر أن الأحكام نزلت بالأبرياء والمذنبين على السواء فقد كان معروفا عن الكثيرين من الشهداء أنهم بعيدون تمام البعد عن كل ما يتصل بالخيانة فاستولى الفزع على عامة الناس فورا وأصيب الزعماء القليلون الذين لم تتعرض لهم السلطة بالذهول لأنهم لم يتوقعوا حتى في أحرج الأوقات أن يحكم على هذا العدد الكبير من زملائهم بالموت ولما أدركوا أنهم عاجزون عن العمل فاضت قلوبهم بالألم وهم يشـاهدون حرياتهم المخنوقة وفكروا بالواجب الذي يدعوهم الى التحرر لا رغبة في ذلك لذاته فحسب بل أيضا كوسيلة للانتقام . وتأثر فيصل كثيرا فتجاوز حدود الحكمة اذ حاول اقناع جمال بضرورة انقاذ أحرار العرب ، واذا بقي في نفسه أي شك في صحة الثورة على الترك فان شعوره الهائج واشمئزازه قضيا على ذلك الشك فأرسل حين سمع باعدام أولئك الأحرار صيحة ما لبثت أن اتخذت نداء حربيا للثورة العربية .

كان الأمير فيصل مقيما فى مزرعة آل البكرى فى القابون يوم شنق الأحرار وهى قرية تبعد خمسة أميال عن دمشق وكان يتناول طعام الصباح مع مضيفه فى الحديقة حين تلقوا النبأ على يد رسول سلمهم العدد الخاص من جريدة (الشرق) الذى حوى الحكاية البشعة فقرأه أحد أبناء البكرى بصوت مرتفع وأخذ السامعون يتنبهون الى فداحة الخطب كلما اهتز المكان حزنا عند ذكر اسم من أسماء الواحد والعشرين شخصا وبقيت رنة الأسى متعلقة بالفضاء الساكن فى صباح ذلك اليوم من أيام الربيع فى غوطة دمشق وكأنها نحيب مفجوع · ومرت الدقائق الطويلة والجمع فى صمت رهيب لا يقطعه الا تمتمة بدعاء والا الرحمة يستنزلونها همسا على روح الشهداء وقرأ الفاتحة أحد الحاضرين ثم وثب فيصل واقفا كمن أصابه فجأة مس من الجنون وانتزع كوفيته من رأسه وألقاها على الأرض ودانها بعنف وهو يصيح : طاب الموت يا عرب ·

***

شرع الحسين بالعمل فور تلقيه نبأ شنق الشهداء فقد كان دائبا بنشاط على اتمام استعداداته ولاسيما منذ أن أعلمه جمال بأن قوة قوامها ٣٫٥٠٠ من الجند ستمر بالحجاز فى طريقها الى اليمن وكانت هذه القوة التى يقودها خيرى بك مؤلفة من جند مختارين ومجهزين تجهيزا خاصا وهى موجهة لتعمل بالتعاون مع بعثة المانية حربية يقودها البارون أوثمارفون ستوتزينغن ولم يكن فى نية الحسين أن يسمح لعدد كهذا بأن يمد الحامية التركية فى الجزيرة ولذلك سعى أن يقطع عليه الطريق قبل وصوله ·

***

كانت القبائل على استعداد للثورة بعد أن فاتح الحسين شيوخها بالأمر فتعهدوا بمؤازرته ولكن معظم أفراد هذه القبائل لم يكونوا مجهزين تجهيزا كافيا وكان الحسين يراسل مكماهون بشأن ارسال المال والبنادق والعتاد وطلب أن ترسل هذه الأشياء الى بورسودان حيث تنتظر اشارة منه فتحملها المراكب الصغيرة الى مكان أمين ترسو فيه على ساحل الحجاز وطلب كذلك أن تضرب البوارج البريطانية الحصار على موانىء الحجاز لكى يضغط بشكل غير مباشر على التجار وغيرهم من السكان الذين ما زالوا مترددين فى اتجاههم السياسى · وكان مستمرا فى محاولته اثارة الفتن فى الشام لكى تقوم فى وقت اعلان ثورته فى الحجاز ·

***

تلقى فيصل الأمر بالعودة بعد شنق الشهداء فى مارس بأيام قليلة وكانت صيغة هذا الأمر تدل على قرب قيام الثورة بحسب الرمز المتفق عليه بين الأب وابنه فكانت المشكلة التى تجابهه الآن هى كيفية العودة الى مكة واعداد ما يلزم لعودة حرسه دون اثارة شكوك الترك ٠

★★★

لعب فيصل لعبته ببراعة تامة فقد طلب موعدا لمقابلة جمال وفاتحه بشأن المجندين فى الحجاز وأعلمه أن عددا كبيرا من الذين لبوا دعوة أبيه قد حشدوا فى المدينة استعدادا للسفر الى دمشق وسأله رأيه فى مجىء أحد أبناء الشريف على رأسهم لكى يضفى على حضورهم حلة من الجلال فوقع الباشا فى الفخ ولم يكتف بقبول الفكرة بل اقترح أن يكون فيصل نفسه على رأس هؤلاء المجندين ممثلا للشريف ورغب فيصل فى احكام اللعبة فاعترض على ذلك موضحا أن للحسين ولدين أكبر منه سنا فيجب تقديمهما عليه ولاسيما أن وجودهما الآن فى الحجاز يساعدهما على جلب حاشية من أعيان الحجاز ورجال الدين فيه فأجاب جمال : « ولكنى أرجوك أن تذهب على كل حال وليأت أحد أخويك اذا استطاع ولكن ذهابك الى المدينة ضرورى لتعجيل الاستعدادات وسترافقك حاشيتك الخاصة » ٠

عمل فيصل اللازم لبقاء حرسه فى القابون كضيوف على آل البكرى واختار نسيبا البكرى ليرافقه الى المـدينة ويعود ومعه التعليمات البـاتة عن وقت مغادرتهم وكيفية حركتهم ٠

غادر فيصل دمشق يوم ١٦ مارس وبرفقته نسيب وثلاثة أو أربعة من الوجهاء أوفدهم جمال معه وكان أخوه على اتصـال دائم بأبيه وعلى علم بقرب قيام الثورة التى يحتمل أن تقع قبل الوقت الذى عينه الشريف لأن القوة الخاصة بقيادة خيرى بك وصلت المدينة وكانت التعليمات الموجهة الى على تقضى بلزوم منعها من السير على مكة مهما كلف الأمر أما بعثة فون ستوتزينغن وهى المتممة لتلك القوة فقد اضطرت لترك القطار فى محطة العلا التى لا يجوز لغير المسلمين تجاوزها وتوجهت غربا نحو الوجه لكى تسير منه بطريق الساحل الى جدة وقنفده ٠

تلقى على يوم ٢٤ مارس تعليمات جديدة من والده يقول له فيها :

انه لم يبق ما يدعو الى التأجيل بعد عودة فيصل وأن عليه تعيين يوم قيام الثورة فى المدينة واعلام أبيه به فى الوقت المناسب ويترتب عليه كذلك اخبار رؤساء العشائر ٠ فبحث الاخوان هـذا الأمر وحددا يوم

الاثنين ٥ يونيو وبعثا بالنبأ الى أبيهما مع مطالبته ، بناء على اقتراح فيصل ، باعادة الكرة على الحلفاء وأن يلح فى طلب قيامهم بظاهرة حربية على سواحل سوريا . ومن ثم أرسل على الرسل الى رؤساء العشائر وأوفد فيصل نسيبا الى دمشق على جناح السرعة ليهيىء خلاص الحرس .

***

وفى صباح ٥ يونيو خرج الاخوان عند الشروق راكبين الى قبر حمزة حيث معسكر الألف والخمسمائة رجل الذين جندهم الشريف وأعلنا تحرر العرب من حكم الترك باسم شريف مكة ومن ثم أطلقا لفرسيهما العنان وفى أسرهما المجندون من رجال القبائل فى المكان المعين من جنوب شرق المدينة .

وتنتقى بعض الصور الهامة من مذكرات الأمير (الملك) عبد الله لتبيان تطور العلاقة بين شريف مكة الحسين بن على وبين دولة الخلافة العثمانية .

ونبدأ بصورة للقاء الملك عبد الله وأنور باشا سبقه لقاء عاصف فى مكتب أنور باشا مع الشيخ عبد العزيز جاويش (شاويش) كما جاء فى مذكرات الأمير (الملك) عبد الله .

***

وكان الأمير عبد الله قد دخل على أنور باشا فحياه ولما جلس قال له ما هذا ؟ نحن نريد لو استطعنا ان نخلق من الشجر رجالا لنضيفهم على أعدادنا ، والحجاز يقتل فيه رجال الأمن ، كما وقع على مدير الجندرمه والدفتردار ولكن والحمد لله انتهت الأزمة ، فنرجو منك السعى لاستبعاد كل أثر سيىء فى قلب والدك ،فانه فى منتهى درجات الاعتماد والحرمة لدى الدولة .

فقلت له :

انك تقلب بقهرمان الأمة ، ومع ذلك فأنا لم أستطع الدخول اليك الا بعد أن أخذت الى أكثر من مكان وطلبت منى بطاقات وأوراق هوية . ثم اننى وجدت هنا فى غرفة الانتظار الشيخ عبد العزيز شاويش ، فأخذ يهاجمنى بما يقارب أقوال الوزير الآن ، ويعرض وساطته فى تسوية الأمر بين الدولة والشريف ، وهو عبد العزيز شاويش ، فأخذ يهاجمنى بما

يقارب أقوال الوزير الآن ، ويعرض وساطته في تسوية الأمر بين الدولة والشريف ، وهو عبد العزيز شاويش ، والشريف يرث الصداقة بينه وبين السلاطين العظام من عهد أبي نمي والسلطان سليم الى اليوم • فاذا كانت الأمور انقلبت الى هذا الحد ، فلا سبيل الى ما تريد • وبالنسبة لما وقع في الحجاز ، ما الذى تظنه أن يقع من رجل كوهيب بك ، يرسل الى بلاد مقدسة لها تقاليدها وحقها ، فيريد الاعتداء على تلك التقاليد وذلك الحق ؟ لقد أرسلتم هذا الرجل ليقع ما وقع • وأنا على علم من أنه رفض ولاية البصرة خوفا من السيد طالب النقيب • فهو كما قال الشاعر :

أسد على وفى الحروب نعامـــة ربداء تجفل من صفير الصـــافر

★★★

قال أنور باشا وعلائم الدهشة على وجهه :

حسبى الله ونعم الوكيل • ما لهذا الانسان لا يعرف حده ؟ أرجوك أن لا تؤاخذه وأما ما رأيت من حراسة وتحوط فالذى حدث للصدر الأعظم محمود شوكت باشا أوجب على المسئولين عن الأمن العام أن يتخذوا هذه الاجراءات فعذرا • واننا دائما نحب أن نعمل بنصائح سيادة الشريف واشارته • أما وهيب بك فأنا لم أطلب أن يكون واليا على الحجاز •

وأنهى حديثه الى بأنه يرغب في لقائى في كل فرصة ممكنة ، فقلت له بأن اجتماعنا يكون مفيدا جدا ، ثم قمت مستأذنا وخرجت •

وفى اليوم التالى كنت عند الصدر الأعظم فى داره ، واذا بطلعت باشا هناك ــ وهو وزير الداخلية وقد ولى الصدارة بعد ذلك أثناء الحرب العامة ــ واذا بهما على غير ما رأيتهما بالأمس ، فقد كانت تبدو على وجهيهما آثار الغضب ورأيتهما ينظران الى شزرا •

★★★

وتكلم طلعت باشا يخاطبنى قائلا :

اسمع ، انه لا يهمنا تغيير الولاة فى كل شهر ، ولكن الذى يهمنا هو انشاء الخط الحديدى من المدينة الى مكة ومن جدة الى مكة ومن ينبع الى المدينة فان قام والدك بمسئولياته فى هذا الباب عملنا له كل ما يريد • وان رفض فلا وداد ولا بقاء • اليك هذه الشروط للشريف •

ثلث دخل الخط يصرفه كما يشاء ، وله الامارة مدى الحياة ومن بعده لأولاده • وستوضع تحت أمره القوة الكافية لتأمين التنفيذ ، وستصغى

الدولة الى مشاريعه في هذا الباب ، وستضع تحت يده ربع مليون ليرة ذهبا ينفقها على العربان .

فسافر في أول باخرة بهذه الاقتراحات ، ونحن ننتظر الجواب ، فان رضي وبلغنا بالرضا ، تسافر أنت عندئذ الى المدينة المنورة لتجد شيخ الاسلام خيري أفندي ينتظرك هناك لتباشر وضع أساس الخط ، وان رفض فلا عتب .

***

قلت : هل لي أن أجيب ؟ فقال : هذا قرار الدولة . قلت :

سأبلغ سيادته وسيرفض ، لأنه سيعتبر هـذه الأقوال رشوة وحقارة ، وهو لا تهمه الامارة ولا تهمه الدراهم ولا عليه أن يتولى أبناؤه الأمر من بعده أو غيرهم ولكن بلغوه أن يكتب اليكم برأيه اقامة الخط وما ينبغي له ، وسترون أنه سيدلي لكم بخير النصائح .

وهنا قال انه سيطلب لجنة للتحقيق ، ثم استدرك مستشهدا بقول نابليون واذا أردت اعاقة أمر فأحله الى اللجان » .

ونهضنا واقفين فوقفت ، وسألني سعيد حليم باشا قائلا : متى تسافر ؟ فقلت : في أول باخرة . وكان السفر في اليوم التالي على الباخرة الرومانية « كارول » .

***

وعدت الى الحجاز أحمل الشروط المغرية . ولما وصلت جدة علمت أن الوالد بالطائف فسافرت اليها على التو ، وعرضت على والدي الأمر بالتفصيل ، فقال : هل يرشونني ؟ صدق من قال ان المرء ينظر الى غيره بعين نفسه .

وأبرق اليهم :

وصل ابني عبد الله ونقل التنسيبات والمقررات العلية من الصدر الأعظم بخصوص تمديد الخط الحديدي الحجازي الى مكة المكرمة . ليس هنالك ما يستحق التفكير فيما يخصني ، وأنا متنعم بنعم الخـلافة . وانني سأبعث اليكم مع ابني وفي أول فرصة بما يلوح لي عن امكان اتمام هذا الغرض السامي دون أن يمس ذلك مدار معيشة العشائر سكان البلاد المقدسة .

ثم خرج الوالد الى مران للنزهة والترويح عن النفس • ومران هذه الى ناحية الشرق من الطريق الشرقى وسطا بين مكة والمدينة ، وهى على حد سهل من جبل جميلة المناخ عذبة الماء •

ومن ثم أمر بغزو الدواسر ووجهنى على رأس الحملة •

ولما عدت الى مكة المكرمة وجدت البرقيات من الصدارة تلح فى طلبى الى استانبول •

فسافرت بلا ابطاء •• واستقبلنى أخى فيصل على رصيف استانبول ــ وكان حين ذاك مبعوث جدة ــ فألفيته غير مرتاح الى الوضع بين الوالد والباب العالى ، وقال لى ان تأخرك أغضبهم : فقلت له : لا عليك•

وكان البوليس اقتحم الباخرة وفتشها وألقى القبض على عدة رجال من الأرمن كانوا يعملون وقادين فى السفينة ، بينما هم فدائيون أرسلهم حزب الحرية والائتلاف من مصر للفتك بأنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا • ولقد ساورنى القلق اذ ذاك ، لما كان لى من يد مع هذا الحزب فى هذه المسألة ••

★★★

وفى اليوم التالى ذهبت الى الصدر الأعظم وقلت له ان والدى يقرئكم السلام ويقول انه خادم الخليفة ولا يعارض فيما يراه جلالته من مشاريع ، وانه مستعد للتنفيذ حالا ، ولكن اذا كان انصرام بناء الخط وتأمين ولاء العشائر ومعاشهم هو ما يريده جلالته وتريده الحكومة ، فلذلك وسائل لا تقتضى ربع النفقات التى بينتموها لى • غير أن والدى يرى من المناسب أن تؤلف لذلك لجنة يرأسها هو ويكون فيها صاحب السماحة شيخ الاسلام وأى وزير من الوزراء • وان كانت الرغبة منصرفة الى اقامة الانشاء تحت أى شرط يكون فينبغى توظيف فرقة عسكرية بكاملها على طريق السكة واشغال المياه والقرى بين المدينتين ، ثم بعد ذلك تكون البداية فى العمل •

عدت الى الحجاز وأطلعت الوالد على حقائق الأمور ، فكتب رسالة السلطان محمد رشاد وبعث بها الى (المابين همايون) أى البلاد الملكى ، ذكر فيها حالة أوروبا ، وصور الاتفاق المثنى بين روسيا وفرنسا ، والمعاهدة الثلاثية بين المانيا والنمسا وايطاليا ، وللتفاهم الثلاثى بعد دخول انجلترا الحرب الى جانب الفرنسيين والروس بسبب اجتياح الألمان لبلجيكا •

★★★

قال شريف مكة فى رسالته الى السلطان محمد رشاد :

تعلمون جلالتكم أن الحرب البلقانية قد انتهت على ما انتهت عليه وان الدولة الآن فى حاجة الى تجهيزات واستكمالات حربية لم تتم الى الآن ، وانه فى الدخول الى جانب المانيا الخطر العظيم ، حيث أسلحة الدولة كلها من المانيا وكذلك عتاد هذه الأسلحة ، وان المعامل العثمانية لا تكفى لامداد الجيوش بالعتاد اللازم ، ولا تستطيع امداد الجيوش بما يمكن ان تخسره من مدافع وأنواع الأسلحة الأخرى .

ثم ان الأقطار المترامية الى الجنوب من جسم الدولة ، كالبصرة واليمن والحجاز ، محوطة من كل ناحية بقوات مستعدة من الدول المعادية البحرية وستصبح فى أحرج المواقف . وربما اتكلت الدولة فى الدفاع على حمية أهلها وهم ليسو منظمين ولا مسلحين بالشكل الذى يستطيعون معه مقابلة جيوش أوروبا المنظمة .

وعليه فاننى أستحلف جلالتكم بالله أن لا تدخلوا الحرب ، وأن تعلموا بأننى أعتقد فى كل من يرى الحرب الى جانب الألمان عدم التمييز أو الخيانة الكبرى .

★★★

وقد وصل هذا الكتاب قبل اعلان الحرب . وفى شهر رمضان زار الوالى وهيب بك الأمير بالطائف ، وقال له : ورد لى برقيـــا من وزارة الداخلية ووزارة الحربية بأن استطلع رأيكم السامى فى اشهار الحرب على روسيا وانجلترا .

فرد عليه الأمير قائلا : أنا لا أرى أن أجيب على هذا بشىء بل ليرد الى السؤال برقيا فيسجل ويسجل جوابى عليه ، ولكننى أقول لك كجندى شريف انى لست بالحائن حتى أشير على الدولة بأن تدخل هذه الحرب التى لا ناقة لها فيها ولا جمل فنحن محاطون هنا بالدول العظمى البحرية ، وأنتم ستشغلكم جيوش روسيا وجيوش الانجليز بمصر ، مع أنكم غير متصلين بحليفتكم المانيا من البر ، وصربيا معادية ورومانيا معادية .

فقال الوالى بعد أن مس لحيته بيده ــ وكان ملتحيا ــ (هى ورقة تريد أن نقذف بها على مائدة الميسر) .. فقال له الأمير : عجيب .. أبالأمة تقامرون ؟ ! .....

★★★

وبعد أربع وعشرين ساعة وردت برقية من الصدر الأعظم وبرقية من وزير الحربية أنور باشا بالسؤال نفسه • فأجابهم رحمه الله بأنه قد قدم رأيه ونصيحته الى جلالة السلطان بعريضة خاصة مفصلة وأنه يكرر النصح بعدم دخول الحرب ضد روسيا وفرنسا وانجلترا ، ويعتبر الدخول في الحرب خيانة للأمانة على الأمة ، وأنهم ان كانوا عزموا على هذا ، فقبل نشوب الحرب يجب عليهم أن يزودوا الجيش الخامس باليمن بما يكفيه لثلاث سنوات وباحتياطى لما يطلب من مجاهدين ، وكذلك يجب أن يفعلوا للفرقة العسكرية بعسير وبالحجاز • وانه يجب الاسراع في هذه المدة بخزن المؤن في هذه الولايات لمدة لا تقل عن خمس سنوات ، وان لم يفعلوا هذا فانهم يضعون هذه البلاد في أحرج مركز قد يفضى بهم الى ما لا تحمد عقباه •

فجاءت برقيات جوابية بأن الدولة قد فكرت في في كل شيء وأنها تشكر لسيادته نصائحه •

ثالث تلك الصور •• وكان قبل وصولى الآسنانة بيوم ، قتل ولى عهد النمسا وزوجته بسراجيفو ، وتوترت الحال بين روسيا والنمسا ، واضطر الامبراطور غليوم الثانى أن يعود الى برلين من رحلته البحرية فى البلطيق •

فى تلك الأثناء زرت الصدر الأعظم لأتلقى الجواب ، فقال انه مسافر الى لاهاى ليجتمع هناك بالمسيو فنزيلوس رئيس وزراء اليونان لحل بعض المسائل المعلقة بين الدولتين ، وأمرنى بأن انتظر أوبته • فقلت : يسر الله لفخامتك كل عسير ، ولكن هل تسافر الى أوروبا وهى فى هذه الظروف ؟ فقال : ما أظن أن الشعوب الأوروبية تشهر الحرب من أجل رجل وامرأة ، فتسفك الدماء وتخرب الديار •• فاستأذنت وانصرفت •

***

وفى اليوم التالى تبودلت الانذارات النهائية بين روسيا والنمسا ، واشتعلت الحرب العظمى • وزرته فى الباب العالى فقال لى : صدق ظنك فقد تأخرت بسبب الحرب فقلت له : أريد النتيجة لما جئت من الحجاز لأجله • فكلمنى وزير الداخلية بالهاتف وذهبت اليه •

وقابلت طلعت باشا وسألته عن المقتضى فأجابنى « وهل هذا وقت تفكير فى انشاء خطوط حديدية ؟ ومن أين القضبان والساحبات ومواد البناء والحرب قد أشهرت ؟ ولكن نريدك أن تسافر حالا الى الحجاز لجلب

المتطوعة ، اذ من الممكن دخول الدولة الحرب مضطرة . وهذه سيارتى اذهب بها الى أنور باشا لتتذاكر معه فى هذا الشأن » .

★★★

فذهبت الى أنور باشا وقلت له : يظهر ان الحرب قد تشمل الدولة العلية ، وأن مشروع الخط الحديدى قد يؤخر الى ما بعد انتهاء الحرب . قال : بالطبع ولكن نريد متطوعة من العرب ليشتركوا فى الجهاد . قلت : أين والعدو من الجهتين ؟ قال ألا تريد أن نسترد ما أضعناه فى القفقاس ؟ ثم ألا تريد أن نسترد مصر ؟ قلت : أريد دفع الأعداء الى ما وراء أدرنة ، والقفقاس شاقة حربها بعيدة عن حاجة الامداد لمن يقاتل فيها ، ومصر كيف تستردها وهى لها صفة خاصة ؟ قال باخراج الانجليز منها . وقلت : هذا هو التعبير الصحيح .

فقال : كم يمكن أن يكون عدد المتطوعة من أهل الحجاز ؟ قلت : والله لا أدرى . فقال : قل بالقدر الذى يمكنكم ان تكسوه وتطعموه .

فقلت : وهو كذلك ، ولكن فى الجبهات ؟ قال : سنجعل القوة المنظمة فى جبهة الروم ايلى وجبهة مصر ، أما جبهة قفقاسيا فسنخصص لها علاوة على الجيش الذى بأرض روم كافة المتطوعين . قلت : متطوعة العرب يجب أن يقاتلوا فى جبهة مصر ، وأما المنطقة الباردة فمهلكة لهم ، ولا أدرى من عدو للدولة فى الروم ايلى ما دامت بلغاريا والنمسا وألمانيا خلفاء للدولة . قال : الصرب ورومانيا . قلت : أنا أفهم من هذا أنكم تريدون امداد حلفائكم بالقوات المنظمة .

فاحمر وجهه وقال : يجب أن تسافر بأى وسيلة من أجل التطوع والسعى لايجاد من يقوم بهذه الخدمة المقدسة . فخرجت من عنده والطبول تدق والمنادى ينادى بالتعبئة العامة ، وأنه يجب على كل انسان أن يذهب الى دائرة أخذ العسكر فيقيد نفسه وسنه وولادته وصنفه .

ولما رجعت الى الباب العالى ودخلت على الصدر الأعظم وأخبرته بما سمعت ، دهش وقال : وهل قالوا سيتأخر بأمر الشمندفير ؟ فقلت : نعم ويطلبون سفرى من أجل المتطوعة . فقال : على بركة الله وقبل أيادى الشريف وقل له قد تأخر ما كان فيه تعبه .

وفى تلك الأثناء استعدت الأفكار العربية للحركة ، بسبب انقطاع موارد البحر والغلاء وتبين أن ليس للعرب فى متابعة هذه الحرب نتيجة واحدة وهى أنهم سيبقون تحت ربقة الحكم ان انتصر الترك والألمان . وكان

لابد من اعلان الحركة العربيـة والتخلص بالحرب من عواقب الأستانة لتحكم الغير .

ولم تجب استانبول مطالب والى اليمن ومتصرف عسير بما طلباه من نقود . وكذلك فعلت بالحجاز .

وتغلغلت الجيوش الانجليزية في العراق ، وتجاوزت حدود ولاية البصرة في طريقها الى بغداد . ثم هزم أحمد جمال باشا بالترعة المصرية .

***

على أنه قبل اتخاذ أى عمل أو قرار مع الانجليز ، طلب والدى ـ بوساطة الأمير فيصل ـ الى أحمد جمال باشا ، ألا تكون البـلاد العربية مضغوطا عليها ، وان تبر الدولة بوعدهـا للسوريين في منحهم الادارة اللامركزية التي طلبوها . وقد صادف هذا الطلب اشمئزازا من أحمد جمال باشا ، فألح من ارسال المجاهدين من الحجاز .

ثم بعد ذلك ، وفي أثناء وجود الأمير فيصل بالشام ، زار أنور باشا وزير الحربية ومعه وكيل القـائد العـام سوريا وفلسطين ، وزار المدينة المنورة . وقد أهدى الأخ فيصل لكل واحد منهما سيفا مرصعا منقوشا عليه اسم والدى واسم المهدى اليه .

ثم أقبل الصيف ، وجاء الطلب مرة أخرى بارسال المجاهدين ، كما جاء الطلب باعلان الجهاد المقدس في أقطار الاسلام ، من مكة باسم الخليفة ، على روسيا وانجلترا وفرنسا .

***

فأجاب والدى برقيا ، بأنه لأجل اعلان الجهاد وارسال المجاهدين ينبغي ارضاء العرب بما تتوق اليه نفوسهم من الوصول الى حقوقهم ، وان أول ذلك اعلان العفو العام عن المحكومين السياسيين ومنح سوريا ادارة لامركزية وكذلك العراق ، واعتبار الشرافة بمكة معترفا لها بحقها الموروث والمتفق عليه من عهد السلطان سليم وأن تكون وراثية فمقابل هذا تقوم الأمة العربية بواجبها باخلاص . وذكر أنه سيبعث بالمجاهدين الى الأمير فيصل بالشام ، وأنه سيرسل أحد بنيه الى الجبهة الأخرى بالعراق ، بعد أن يقضى على أى زعامة غير موالية بشرقى الحجاز ، وأن على الدولة التأثير على ابن رشيد بأن ينضم الى الجهاد . وأنه بدون هذا لا يستطيع التقدم بالأمة العربية في حرب نصح بأن لا تثار وان لا تشهر ، بل سيكتفى بوظيفة الدعاء للدولة بالنصر والظفر .

***

وجاء الرد من الصدر الأعظم فى برقية يقول فيها :

ان التحدث فى مثل ما بينتموه عن الحرب والعرب ليس من حقوقكم ، وان من بالشام من المجرمين سينالون الجزاء العادل ، وان ما بينتموه لا تكون نتيجة بحقكم سارة ، وعليه فسوف لا ترون نجلكم فيصل مرة أخرى قبل أن تبعثوا بالمجاهدين الى الجبهة كما وعدتم وان لم تنفذوا هذا فالنتيجة بحقكم لا تكون خيرا ٠

وجئت بهذه البرقية لوالدى بعد أن حللت رموزها ، وكان الوقت ليلا وهو فى الخارجية بمكة ، وقدمتها اليه وأنا حامل الشمعة ، فقال اقرأها ٠٠ قلت : لا أقرؤها ٠٠ فتناولها ووضع المنظرة على عينيه . وبعد أن تلاها نظر الى وقال : أيهددنى ؟ وذكر بيت الشعر :

سوف ترى اذا انجلى الغبار أفـــرس تحتك أم حمـــار

ثم قال اكتب الجواب التالى الى الصدر الأعظم :

ليس لى ما أقوله سوى النصيحة الأخيرة فى برقيتى وبها ضمان انحياز العرب الى صفوفكم بقلوبهم ٠ أما ابنى فيصل فلم أبعثه اليكم وأنا أعتقد انى أراه مرة أخرى فافعلوا ما شئتم ٠

وبعد يومين وردت البرقية التالية من الصدر الأعظم :

بعد التأمل رأينا شكر سيادتكم على أجوبتكم فاذا بعثتم بالمجاهدين الى الشام فقد أشعرنا جمال باشا ليذاكر نجلكم الشريف فيصل بك فيما يتعلق بالمجرمين السياسيين ٠

فأجابه والدى :

اننى ممتن على تلطفكم بالجواب ٠ أما المجاهدون فقد أصروا على عدم السفر الا اذا حضر فيصل ليأخذهم ، فان كانت الرغبة حقيقية فابعثوا به ليستصحبهم ٠

فجاء الرد على الفور :

سيتوجه الشريف فيصل بك الى المدينة ليستصحب المجاهدين ويعود بهم الى الشام ، ونرجو أن تسترجعوا نجلكم الشريف على بك من المدينة المنورة الى مكة المكرمة لعدم انسجامه مع المحافظ ٠

★★★

فأجابه والدى على الفور :

عند وصول الشريف فيصل بك سيترك الشريف على بك المدينة المنورة ٠

ولما وصل الأخ فيصل الى المدينة ، وكان فخر الدين باشا قائد القوى السفرية قد حضر اليها بقواته ، وكانت القوى العربية مهيأة بالمدينة ، تقرر استدعاء الأخ على الى مكة ، فودع فخر الدين باشا والمحافظ وخرج الى بئر الماشى ـ وهى على طريق مكة ـ وخرج معه فيصل لوداعه ٠ ولما وصل الى بئر الماشى ، وكان ذلك اليوم الثامن من شعبان ، كتب الى جمال باشا الانذار التالى : ـ

ان المطالب العربية المعتدلة قد رفضتها الدولة العثمانية ، وبما أن الجند الذى تهيأ للجهاد سوف لايرى عليه أن يضحى لغير مسألة العرب والاسلام ٠ فاذا لم تنفذ الشروط المعروضة من شريف مكة حالا فلا لزوم لبيان قطع أى علاقة بين الأمة العربية والأمة التركية وأنه بعد وصول هذا الكتاب بأربع وعشرين ساعة ستكون حالة الحرب قائمة بين الأمتين ٠

وبعد مضى ساعات كان الخط الحديدى بين الشام والمدينة يقتلع ويهاجم ٠

صورة رابعة وأخيرة من مذكرات (الملك) عبد الله ، عن المحادثات التى جرت بينه وبين بعض المسئولين البريطانيين غير ما أشرنا اليه من قبل ـ فى الفصل السابق ٠

★★★

قال الملك عبد الله :

نزلت الجيوش البريطانية العراق وفشلت حملة جمال باشا لغزو مصر ٠

وفى تلك الأثناء جاء الى الطائف على أفندى البزار ـ مصرى الأصل ـ وأحب أن يقابلنى فقابلته ، واذا به يحمل كتابا من سير ستورز ـ الكاتب الشرقى فى القنصلية البريطانية بمصر ـ يقول فيه :

الى الشريف عبد الله بك :

بما أن الدولة العثمانية قد ضربت عرض الحائط بصداقتها التقليدية مع بريطانيا العظمى وانضمت الى صفوف الألمان ، فان بريطانيا

العظمى ترى نفسها فى حل من تلك التقاليد التى كانت تربطها بتركيا منذ القديم ٠

فهل أنكم وسمو والدكم مازلتم على رأيكم الأول فى القيام بما يجر الى استقلال العرب استقلالا تاما ؟ فان كنتم وسموه على ذلك الرأى الى الآن ، فان بريطانيا العظمى على استعداد لامداد الحركة العربية بكل ما هى فى حاجة اليه ٠

وبالطبع لم ابتهج بهذه الرسالة ، للخطر المحقق الذى كانت تجر اليه ، لو عرف عنهـا أو سقطت فى يد غـير أمينة أو تفوه ناقلها بشىء أو باع نفسه ٠

وأخذت الرسالة الى الوالد وعرضتها عليه ، فابتسم وقال : أكتب اليهم بوصول الرسالة وقل « بأنا على غير اسـتعداد البته فى الوقت الحاضر للمطالبة بحق العرب » واصرف الرسول أمينا مكرما ٠ ففعلت ٠

***

وبعد شهر عاد على البزاز برسـالة أخرى من سير ستورز الى ، وفيها رسالة من سير هنرى مكماهون الى سـمو الشريف ٠ أما كتـاب ستورز الى فقد اقتصر على رجائه الى فى أن أقدم الرسالة الى الشريف ٠ وقدمتها ، وكان فيها صيغ من التعرف والاكرام وبيان حسن نية بريطانيا نحو العرب ، وانها قد انفكت من تقاليدها الودية مع تركيا ٠

فبعث بوساطتى الى ستورز متمثلا : « فى الصيف ضيعت اللبن » ٠

ثم تتابعت مراسلات مكماهون المعروفة ٠ وخلاصتها أن بريطانيا العظمى ستساعد العرب فى حربهم التحررية ، بكل ما سيحتاجون اليه ، حتى يتم جلاء الأتراك والألمان عن البلاد العربية ، التى حددها وفق ما جاء من الهيئة المركزية لحزب الفتاة العربية فى سوريا من حدود وهى : من اسكندرونه جنوبا الى الحدود المصرية برفح ثم التيه فالبحر الأحمر غربا حتى باب المندب ، ثم يشرق مارا بمسقط وعمان وينحرف الى الشمال محترفا حدود البحرين والكويت ، ثم يشرق مع حدود ولاية البصرة فحدود ايران ثم يشمل الى التقاء البلاد العربية ببلاد الكرد ٠ ثم يغرب فيدخل الجزيرة والموصـل ويترك ولاية حلب الى الجنـوب فينتهى عنـد الاسكندرونه ٠

***

وقد قال «مكماهون فى احدى رسائله عن حكومته ، انها ستثابر على الحرب والمساعدة حتى يتم تحرير هذه الأقطار • وان انجلترا لاتستثنى أى منطقة عربية لها فيها نفوذ ، ماعدا الامارات الواقعة على خليج فارس والبحر الهندى تلك البلدان التى لها صلات عهد بحكومة الهند من القديم ، وهى امارة الأمير عبد العزيز العبد الرحمن الفيصل آل سعود وامارة الكويت وامارة البحرية وسلطنة مسقط وعمان ومشيخات حضرموت وسلطنة لحج • ثم انها لاتقول بمحض عروبة أضنة ومرسين وغرب ولاية الشام ــ وقد عنت بذلك لبنان الصغير بالطبع ــ وقال : ان لحليفتنا فرنسا فيها حقوقا •

ثم سأل فى احدى رسائله عن الكيفية التى ستدار بها البلاد المقدسة : فلسطين متى صارت فى الحوزة العربية ، فأجيب بأن النية منصرفة الى ادارتها على حرية الديانات الثلاث • فجاء الرد بالشكر على ذلك ، وأن بريطانيا العظمى ترحب بالخلافة الاسلامية ان هى عادت الى الدوحة الهاشمية مرة أخرى •

***

وفيما يلى المزيد من المعلومات عن الاتصالات التى أجراها الانجليز بعزيز المصرى والمصادر التى لدينا ــ من ناحية هذا الموضوع •• شحيحة من جانب عزيز المصرى (وكان يحرص على عدم التحدث فى هذا الموضوع، خاصة بعد أن فشلت الثورة العربية وبعد أن كشر الانجليز بنيابهم ضد العرب الذين ساعدوهم ووقفوا الى جانبهم ضد دولة الخلافة الاسلامية كما أنه ــ وتلك رؤية شخصية بحتة ــ كان يخشى أن يتهمه المصريون بالخروج على اجماعهم الذى يختلفون فيه عن اجماع الجماهير العربية فى سوريا ، والعراق وفلسطين ، أثناء قيام الحرب العالمية الأولى ورفعوننا بين المصريين للأتراك وبعضهم ضد الانجليز (أما الجانب البريطانى فان لديه الكثير من المعلومات عن اتصالات عزيز على المصرى بهم قبل أن تعلن الحرب • وبالتالى قبل أن تدخل تركيا الحرب الى جانب الألمان ضد الحلفاء) انجلترا وفرنسا (وألست بحاجة الى تأكيد وجهة نظرى الخاصة بالوثائق الأجنبية ــ أية وثائق أجنبية ــ وهى أنها ليست حجة الا على الجهة أو الجهات التى صدرت عنها ــ دون أن يكون هناك الزام ، بقبول ما جاء فى تلك الوثائق بخصوص آخرين ، غير الجهات التى صدرت عنها بصفة الحال ، اللهم الا أنه توجد تلك الوثائق على سبيل الاستدلال النى ولا أقل •

***

وقد أشار الى بعض ماجاء فى الوثائق البريطانيـــة الاتفـاق على شبكته فى كتاب العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الأولى وكذلك د · محمد عبد الرحمن برج فى دراسة عن عزيز المصرى والحركة العربية (٩٠٨ ـ ١٩١٦) (وسوف أتناول التعليق على ما جاء فى تلك الوثائق من وجهة نظر شخصية بحتة على ضوء دراستى لآراء ، وأفكار واقتراحات وتوجهات عزيز المصرى فى تلك المرحلة (١٩١٤ ـ ١٩١٦) وقد قام بهذه الاتصالات مع عزيز على المصرى اللفتنانت كولونيل كلايتون رئيس المخابرات الانجليزية فى القاهرة ورئيس الاستخبارات العسكرية فى نفس الوقت وبعض المسئولين البريطانيين الآخـرين (١٦ أغسطس ١٩١٤ ، ٣٠ أكتوبر ١٩١٤ ، ١٦ نوفمبر ١٩١٦ ·

والخص هنا فى البداية ، وجهات نظر الجانب البريطانى : بريطانيا لاتملك اتخاذ اجراءات ضد تركيا ، قبل أن تدخل تركيا الحرب الى جانب الألمان ·

٢ ــ اعترضت بريطانيا على المشروع الذى قدمه عزيز المصرى وهو يعتمد على ثورة عربية تقوم فى العراق ·

٣ ــ وافقت بريطانيـــا على ارســال عزيز المصرى الى العـــراق اذا ما رأت الجهات البريطانية المسئولة فى القاهرة فائدة على أن يعطى الفى جنيه أو حوالى ذلك ·

***

أما وجهات نظر عزيز المصرى ــ ترتيبا على ما جاء فى تلك الوثائق فهى فيما يلى :

كان عزيز على المصرى يتحدث فى أول الاتصالات بصفته منتدبا من لجنة مركزية مقرها بغداد بهدف تلمس موقف الحكومة البريطانية نحو الدعاية لاقامة دولة عربية متحدة مستقلة عن تركيا ولا ارتباط لها بأى دولة أخرى ماعدا بريطانيا التى تطلب رعايتها وتمارس السياسة الخارجية لهذه الدولة العربية نيابة عنها · ويعرف عزيز المصرى بلاد العرب بأنها الأقاليم التى تتحدث اللسان العربى وتمتد حدودها الشمالية بخط يمر بالاسكندرية والموصل الى الحدود الايرانية · وهذه الحركة لا ارتباط لها بالجامعة الاسلامية والخلافة العربية ولذلك لم يطلب القائمون بأمر الدعوة تأييد المتعصبين أمثال الشيخ رشيد رضا ولكنهم فى الوقت نفسه يدركون أهمية تأييدهم اذا ماكانوا على اســتعداد للخروج من آفاقهم

الضيقة • ويعتقدون أن قوة الحركة تتمركز فى بغداد ونجد وسوريا • أما الجنوب العربى فهو مشحون بالخلافات الداخلية مما يباعد بينه وبين التأييد الفورى لها • ولم يذكر عزيز فى هذه المقابلة اسم زعيم لهذه الحركة •

★★★

قال عزيز على المصرى : ان حسن نية انجلترا وحيادها لايكفيان بل لابد من عون فعال فى صورة أموال وأسلحة حديثة تسلم سريا فى العراق أو فى أى مكان آخر ويتعامل ذلك يضمن انجلترا لنفسها •

عدم الاعتداء عليها الى الأبد فى الهند عبر الأراضى الايرانية ، وتكون لها افضلية خاصة فى المعاملات التجارية مع هذه الدولة العربية •

ـ عندما سأل كلانيون عزيز المصرى عما اذا قام الأتراك باعلان الحرب الى جانب الحلفاء ، أو الألمان قال عزيز المصرى • ان السيطرة العامة فى تركيا فى يد أنور باشا وفريقه وهم يؤمنون بأن مصالح تركيا تتمشى مع مصالح المانيا وان أنور باشا ينادى بأفكار فريق السلام ، وخاصة رئيس الوزراء وهم الذين ليس لهم نفوذ ـ وقد أكدت الأيام ـ فيما بعد ـ وجهة نظر عزيز المصرى •

★★★

ـ قال عزيز على المصرى فيما يتعلق بموقف العرب ، انهم غير منظمين ولا توجد قيادة معروفة وسوف ينحازون للفريق الأقوى ـ وفى هذا الوقت (أكتوبر عام ١٩٢٤) فانهم يعتبرون الأتراك الفريق الأقوى خاصة وأن الأتراك بذلوا جهودا ـ فى الفترة الأخيرة ـ لكسب العرب بهداياهم للزعماء وبذلهم الوعود •

ـ حدد عزيز المصرى مشروعه بقوله لنجاح برنامج القومية العربية للتحرر من السيطرة التركية ثورة لها تنظيمها مسنوده بقوة قليلة نسبيا لكنها معدة أحسن اعداد ـ ويمكن الحصول على نواة هذه القوة من جيش العراق ويمكن تجهيز ١٥ ألف رجل يتخذون موقعا مناسبا مما يجعل تقدم الأتراك بطيئا وصعبا وهذا هو المركز الذى يتجمع حوله قوات زعماء العرب •

ـ حدد عزيز المصرى دور بريطانيا فيما يلى بالضبط : ـ

ضمان تجهيز المال والبنادق والذخيرة والمدفعية وكل المعدات المطلوبة لتسليح هذه النواه ؛

ـ يحدد عزيز المصرى من أرسال أية قوات بريطانية الى أى مكان بالأرض العربية لأن أرسال تلك القوات سوف يترك انطباعا بنية ضـــم الأراضى ٠

ـ فى برقية صدرت من القاهرة من مستر شيتهام الى وزارة الخارجية البريطانية فى ١٣ نوفمبر ١٩١٤ فى لندن ٠

عزيز بك المصرى عنصر هام ـ فى الثورة ـ خاصة فى مناطق العراق وبين الضباط العرب فى الجيش التركى ، ولكنه يفتقر الى المال لتنفيذ مشروعه ورأينا هو أن يبدأ فى العراق فعززه بقوة صغيرة ولكنها كاملة التجهيز والقوة التى يحتمل تكوينها بين أربعين ألفا وخمسين ألفا ٠

***

واقترح عزيز المصرى أن يقوم القنصـــل البريطانى فى المحمرة بالتأكيد من وجود المكان الذى ينتحل فيه ضابط عربى فى الجيش التركى اسم نورى السعيد ٠ واذا لم يتيسر ذلك ، عليه التحقق من عربى باسم مزاحم الأمين أو الدكتور عبد الله ٠ واذا لم يعثر على هؤلاء هناك طالب بك النقيب فى البصرة ٠ وعندما يحدث التأكد من وجود هؤلاء أو بعضـــهم يقال لهم ان صديقهم فى مصر يود أن يعرف حقيقة الموقف وعليهم اعطائه المعلومات اللازمة من كل الأوجه ويحضرون الى المحمرة ـ على أن تكون عملية البحث والاتصال بهؤلاء سرية للغاية ـ ويقترح عزيز على المصرى امدادهم بالمال اذا ما طلبوا للصرف منه على سفرهم ٠

***

ـ أبرقت وزارة الخارجية البريطانية بكل هـــذا الى وزارة الهنـــد وكان رد نائب المالك فى الهند (٨ ديسمبر ١٩١٤ ان السيد طالب ذهب لابن السعود ولاثقة فيه مطلقا وكذلك انحاز دكتور عبد الله لابن سعود ، أما مزاحـــم الأمين ونورى السعيد فانهمـــا فى البصرة ٠ وقد تقابـــل سير برسى كوكس مع نورى السعيد وانطباعاته عنه أنه عربى تأثر لحد بعيد متأثر بالحياة الأوروبية ويميل الى الحياة الناعمة وانعزالى يبلغ من العمر حوالى ٢٥ سنة ويبدو عليه أنه يميل الى الاشتراكية النظرية ٠ وهدف حزبه هو رفع مستوى الأمة العربية الى حياة أفضـــل تنالها حسب اعتقادهم بالطريق السهل تحت حكم الليبرالية البريطانية ٠ وعنـــدما ســـئل نوري السعيد عن خططه الحالية أجاب بأنه اذا ما رأت بريطانيا التقدم

فى العراق تستطيع بمرور الوقت تحويل ضباط جاويد باشا وكذلك الحصول على اقناع بعض مشايخ قبائل وادى الفرات باعتناق أفكاره اذا ما سافر الى هناك • ويعلن نائب الملك بقوله ان المشروع سوف لايكتب له النجاح نظرا لنوعية الزعماء ولأن رجال القبائل ومشايخهم المشار اليهم متخلفون الى حد بعيد وعليه سوف لايعيرون انتباها لدعاية شاب عربى وحسب رأى نائب الملك فان الكثير يعتمد على موقف ابن السعود فاذا ما بدا أن هناك ثورة عربية تحت زعامته وشيكة الظهور يجب تأييدها ومساعدتها بالمال • ويختم نائب الملك رسالته بأنه فى الوقت الحاضر يعتبر معاونة بريطانيا سابقة لأوانها حتى يتضح الموقف •

***

التقى مستر جريفس مراسل صحيفة التيمس فى القاهرة بعزيز على المصرى في يوم ٦ ديسمبر ١٩١٤ وكانت انجلترا قد احتلت البصرة وبدأت تفكر فى التقدم نحو بغداد ولابد لها أن تستطلع زعماء العرب عن مدى تعاون الهيئات العربية هنـــاك • ويبدو أن الجهات الرسمية امتنعت عن التحدث مع عزيز على فى هذا الأمر حتى لايظن أنها تفاوضه لعلمها بأن حكومة الهند اعترضت على ادخـــال عناصر من الخارج فى المسألة العراقية أمثال عزيز على المصرى ، لذلك لجأت السلطات الانجليزية الى هذا اللقاء غير الرسمى لمعرفة رأى عزيز عن امكانيـــة اســـتخدام السلطات العسكرية البريطانية له فى العراق •

***

وكانت اجابة عزيز صريحة وواضحة عندما فاتحه جريفس فى هذا الأمر حيث قال ان ضميره لا يسمح له بتأدية خدمات للسلطات العسكرية فى العراق اذا ما كانت نية بريطانيا هى ضم العراق لامبراطوريتها لأنه مرتبط بالحركة العربية التى تدعـو لنيـل حريتهـا من الأتـراك •• فالمسألة فى أساسها مسألة شرف • أما اذا كانت فى النية تكوين دولة محايدة تمنع الاصطدام بين الخليج وربما روسيا وأرمنيا والأناضول وفى النية مساعدة سكانها العرب كما ســاعدت روســيا بلغاريا فى سنين ١٨٧٩ ــ ١٨٨٣ على خلق دولة بتنظيم حديث ومؤسســات حديثـــة ، اذا كانت هذه السياسة المرتقبة فانه يخدم ما استطاع الى ذلك سبيلا •

***

« وقال عزيز انه يدرك تماما أن بناء دولة كهذه يتطلب عملا ضخما وأن احتلال العراق عسكريا سيكون ضرورة لمدة طويلة وأن هذه الدولة الحديثة لابد لها أن تعتمد اعتمادا كليا اقتصاديا وماليا على الهند البريطانية الى أن تنمو مواردها . وعليه فانه لأسباب عدة يشعر بأن سياسة تكوين الدولة المحايدة يفضل من كل الأوجه سياسة الضم وفى اعتقاده أن انجلترا لاتود حدودا تجاور منطقة روسيا لأنه يعتقد أن روسيا فى هذه الحرب ستحتل الاسكندرونة وديار بكر بعد قليل من الوقت . فوجود دولة عربية تعداد سكانها مليونان على أحسن الحالات وفى أسوأ حالات الفقر سوف لايكون مصدر تهديد لقرون قادمة . وختم عزيز مناقشته لهذه المسألة بأن كرر ما قاله من قبل وهو أنه على استعداد لبيذل أقصى مافى وسعه من جهد للمساعدة اذا ماكانت إنجلترا توافق وتسعى لاقامة دولة عربية كهذه فى العراق » .

***

« ثم تطرق الحديث للطرق العملية التى يستطيع عزيز بها تقديم مساعدة . بدأ عزيز اجابته بأنه يفترض نية القوة الهندية البريطانية للتقدم نحو بغداد . ففى هذه الحالة يعتقد عزيز أن المقاومة لهذه القوة ستكون أشد من المقاومة التى لاقتها فى البصرة وفى ذات الوقت سيصطف الاكراد وربما قوات مجندة من العرب والقوات النظامية من الموصل لتقاوم تقدم القوات البريطانية » .

***

فاذا كانت البصرة ومنطقة الفاو حسب اتصالهما المستمر بالهند وبشيخى الكويت والمحمرة قبلت الغزو كما يبدو وربما عن رضاء تام لا يتعين على وجه التحديد أن يفعل العرب وخاصة الضباط العرب فى الشمال مثلما قام به زملاؤهم فى البصرة . فالجيش الغازى شىء كريه فى حد ذاته أحيانا مهما كانت درجة حسن سلوكه ومهما كانت مظالم وشكاوى البلاد التى يغزوها من حكومتهم . فاذا ما اعتقد الضباط العرب فى بغداد فى وجهة نظر خاطئة عن الموقف فربما يثيرون الاضطرابات بقطع طرق المواصلات فى طريق القوة الغازية بما لهم من علاقات مع الكثير من زعماء القبائل فى العراق . وبعض هؤلاء الزعماء يستطيعون حشد قوة ضخمة لحرب العصابات .

« وفى رأى عزيز أنه ليس من المؤكد ولو أنه من المحتمل اتحـــاد ابن السعود مع البريطانيين • وسيبذل الأتراك الوعود للضباط العرب الذين يرتجى منهم فائدة ما للتأثير على الزعماء للانحياز لجانب تركيا » •

***

وانتهى عزيز من هذه المناقشـــة الى أنه يستطيع تأدية مساعدات ضخمة بالاتصال بهؤلاء الضباط العرب والقبائل • ووسيلته لذلك هى اغراء واقناع الجيوش العربية بالفرار من الجيش التركى والانحيـــاز للجانب البريطانى وباثارة شعور القومية العربية ضد الأتراك المكروهين فى جميع أنحاء العراق •

وختم جريفس مذكرته عن هذا اللقاء بما يلى : بالشروط السالفة الذكر وهى أننا لاننوى ضم العراق للامبراطورية البريطانية ولكننا ننوى اقامة نوع من حكومة محايدة تحت احتلال بريطانى لسنين قادمة وبعون بريطانى لتقدمها فانه سيبذل أقصى مافى وسعه لمساعدتنا اذا ما طلب منه ذلك •

***

وفى ١٣ ديسمبر بعث شيتام رسالة للندن مرفقة بهذا التقرير لتصل فى ٢٨ منه ولاحظ شيتام أن آراء عزيز على المصرى تتفق عموما مع آراء شريف مكة وآراء زعماء العرب الآخرين الذين لهم وكلاء على اتصال مع السلطات البريطانية فى مصر •

وكان الانجليز يبغون أيضا اثارة اعتصاب ــ اضراب ــ فى صفوف الجنود والضباط العرب فى الجيوش العثمانية • ورأوا أن أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو الاتفاق مع جمعية العهد التى يمثلها عزيز والفاروقى • وركز الانجليز اهتمامهم للاستعانة بهذين الرجلين لاثارة الاعتصاب بوجه خاص فى العراق •

ولكن عزيز المصرى والفاروقى طلبا « تأكيـــدا محددا للسياسة البريطانية تجـــاه بلاد العـــرب » ونلاحظ أن مكماهون يستعمل كلمـــة أى جزيرة العرب وهو يبعث بهذه الأخبار لوزارة الخارجية بينما المقصود بلاد العرب • كان عزيز والفاروقى يعتقدان أن تأكيدا من هذا النوع هو مســـألة ضرورية لنجاح مساعيهما مع العناصر العربيـــة فى الجيش العثمانى فى العـــراق • وعبر مكماهون عن اعتقـــاده بأن عزيز المصرى والفاروقى سوف يرضيان بالتأكيدات التى أعطت للشريف •

***

وقد أجابت وزارة الخارجيـــة فى ٢٢ مارس ١٩١٥ بأن اللورد كتشنر كان قد اقترح بأن يرسل الفاروقى الى العراق ولكن كلايتون عارض ذلك • وأنه بالامكان ارسال الفاروقى الآن اذا لم يكن لكلايتون اعتراض • وفيما بعد يمكن ارسال عزيز المصرى اذا رأى كلايتون فائدة فى ذلك رغم أن كتشنر يشك فى امكان الاســـتفادة من عزيز على • وفوضت وزارة الخارجية مكماهون باعطاء التأكيدات شريطة أن لاتتجاوز التأكيدات التى أعطيت للشريف •

ولكن وزارة الخارجيـــة البريطانيـة عادت تحذر مكماهون فى ٥ ابريل ١٩١٦ من مغبة اعطـاء تأكيـدات تعطى لأفراد لايعـرف مدى نفوذهم ، ومعاملتهم كنظراء للشريف والذى قال فى رسالته المؤرخة فى أول يناير ١٩١٦ انه يمثل قرارات ورغبات قومه وأنه ينطق باسمهم • وقالت وزارة الخارجية ان تأكيدات تعطى لأفراد مثل عزيز والفاروقى سنجعل من الصعب على الشريف أن ينجح فى فصل العرب فى الجيش العثمانى عن الأتراك وجلبهم الى جانبه بأعداد كبيرة •

وفى مارس ١٩١٦ ذهب لورنس من القـاهرة الى البصرة لبحث امكانات العمل على قيـــام ثورة عربيـة فى العراق وتباحث لورنس مع كوكس فوجده (جاهلا كل الجهل بموضـوع الجمعيات العربية والسياسات التركية • وسمع كوكس يشكو من أن مكماهون بحث موضوع العراق مع الشريف • وأبدى كوكس معارضة شديدة فى مجىء الزعماء العرب من مصر الى العراق •

★★★

فى البصرة أخذ لورنس يبحث عن رجـال الأحزاب العرب بقصد تشجيعهم على القيام بحركة ضـــد الأتراك • وقادة البحث الى سليمان فيضى عضو مجلس المبعوثان وسكرتير الجمعية الاصلاحيـــة فاستدعاه وعرض عليه العمل على تنظيم ثورة عربية بعد أن أكد له أن بريطانيـا « بدون شك عازمة على افســـاح المجـال للشعوب العربية كى تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها ، بشرط أن يساهم العرب أنفسهم فى الحصول على ذلك الاستقلال وأن يبرهنوا على رغبتهم فيه • وهناك على ما أعتقد وسيلة واحدة لتحقيق ذلك ، الا وهى الثورة ، فاذا أعلن العرب الثورة على الأتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية فسيكون لهم الاستقلال والحرية • أما اذا قبعوا فى دورهم ، آملين أن تمنحهم بريطانيا الاستقلال بعد نصرها ، فذلك أمر غير معقول ، خاصة لأن بريطانيا مسئولة أمام

حلفائها عن تصرفاتها تجاه الشعوب الخاضعة للحكم العثمانى • اذن فلابد من الثورة لتنال البلاد العربية استقلالها » •

★★★

ولكن تحريضات لورنس ووعوده بأن يقـــدم له الأموال الطائلة والأسلحة لكى يجمع المحاربين حوله • لم تكن مجدية ، اذ اعتذر سليمان فيضى بأنه رجل حضرى لاتعضده عشيرة ولا زعامة تقليدية له ، وبأنه شخصيا لايرى « مبررا الى الانتقام من الترك اذ ليس بيننا وبينهم عداء ، وانما العداء مستحكم بينهم وبينكم فحسب » ، وأن العرب كانوا يطالبون بالاصلاحات الداخلية ولم يكونوا يطلبون الانفصال عن الترك • وقال ان العراقيين أصبحوا يكنون شعور العداء لبريطانيا « بعد الذى لمسوه من معاملة سيئة وازدراء مشين على أيدى رجالهـا العسكريين » وبناء على نصيحة لورنس استشار سليمان فيضى أصـــدقاءه مولود مخلص وعلى جودت وعبد الله الدليمى (ضباط عراقيون من أعضاء حزب العهد وقد وقعوا فى أسر القوات البريطانية) فوافقوه على صـــواب الخطـة التى اتخذها برفض القبول بتكليف لورنس • وعندما اقترح سليمان فيضى على لورنس أن يتصـــل بطلب النقيب لأنه أقدر من يقوم بهذه المهمة فى جهات البصرة أجابه هذا بأن الحكومة البريطانية لاترغب فى ذلك •

★★★

ـ اقتنعت وزارتا الخارجية والحربية بأنه سيكون بمقدور الشريف فصل العناصر العربية فى الجيش العثمانى فى سوريا والجزيرة العربية وجلبها الى جانبه ، ومن هنا رأتا أن من المرغوب فيه القيام بحركة مماثلة فى العراق • وقد أوكلت هذه المهمة الى لورنس الى حـد ما • وسمحت وزارة الخارجية فى مارس ١٩١٦ بذهاب عزيز على والفاروقى الى البصرة للعمـــل على تحقيق تلك الغـــاية • ولكن الجنرال ليك لم يوافق على حضـــورهما بحجة أن وجـودهما فى العـراق ســيكون « مربكا وغـير مرغوب فيه » ، وأن الآراء التى يحملانها « تقدمية كثيرا » بحيث لاتناسب منطقة تخضع للاحتلال العسكرى •

★★★

ـ رأت وزارة الخارجية أن يستدعى طالب النقيب من الهند الى البصرة لأن تعاونه « أمر حيوى لتحقيق النجاح » ولكن حكومة الهند لم توافق على ذلك • وأثناء المباحثات التى جرت فى القاهرة مع المسئولين

البريطانيين من جهة ومع عزيز على ونورى السعيد والفاروقى والشهبندر ورشيد رضا من جهة أخرى ، قيل لهؤلاء ان بريطانيا « غير مستعدة فى الوقت الحاضر أن تفعل أكثر من اعطاء تأكيدات عامة حول الاستقلال العربى » وأن بريطانيا تريد أولا أن ترى طبيعة الحكومة التى ستقوم فى العراق ومقدرتها على تنفيذ « التأكيدات التى يمكن أن تعطيها لنا » واقتصر الأمر على اعطاء « وعد بسيط بأن نفعل كل ما بوسعنا لمساعدة الاستقلال العربى » .

***

وأخيرا قر القرار أن يذهب عزيز على ونورى السعيد والشهبندر الى البصرة لكى يتعاونوا مع لورنس على ايجاد حركة عربية تعمل فى المجال العسكرى عملا يساعد عمليات الجيش البريطانى . ولكن كل هذه المشاريع فشلت أمام تصلب حكومة الهند ورفضها التعاون مع العرب .

يقول محمد طاهر العربى : بعد ثورة الشريف اقترح قاضى قضاة الحجاز الشيخ عبد الله سراج على الحسين جلب عزيز من مصر لينظم الجيش فوافق وكتب السراج الى عزيز يدعوه . ومن المعروف أن الشريف كان مترددا فى ذلك . تحرك عزيز من مصر فى ٨ ذى القعدة ١٣٣٤ قاصدا مكة فعينه الحسين وكيلا لوزارة الحربية وذهب الى رابغ وأخذ يضع الخطط لينظم الجيش وكان نورى السعيد قد سبقه الى هناك حدث خلاف بينه وبين الرئيس المدفعى رشيد باشا حاكم منطقة عمان لأسباب تافهة قد يكون أهمها حب الجاه رغما أن رشيد لم يكن بمقدرة عزيز . روى كثير من الضباط العراقيين أن رشيد اتفق مع الضباط السوريين وقاموا يحرضون الملك حسين وأنجاله ضد عزيز وانتهى الأمر بتحويل رشيد الى الجيش الشرقى وبقى عزيز يبذل جهده فى تنظيم الجيش العربى الى أن تم على عهده تأليف ثلاثة أفواج مشاة ، ثلاث بطاريات مدفعية ، فوج رشاش ، فوج هجانه (٤٠٠ هجان) سرية استحكام وذلك فى ثلاثة شهور » .

***

هذا بينما يذكر نورى السعيد فى كتابه : محاضرات عن الحركة العسكرية للجيش العربى فى الحجاز وسورية أن عزيزا وصل الى وظل عزيز المصرى يعمل مع قوات الشريف بهمة لاتعرف الكلل ونشاط مستمر دائب . لكن الخلاف حدث بينه وبين الشريف حسين . يقول طاهر

العمرى : لم ينل عزيز ثقة الحسين لأسباب عديدة أهمها عدم تعوده على الطاعة العمياء واصراره على تنفيذ خطته التى يراها ولما وشى به رشيد والسوريون أنه يتصل بالأتراك ووعد بالالتحاق بهم اذا اعترفوا باستقلال البلاد العربية ، وأن الحسين عرف ذلك فغضب عليه فصدر أمر بتنحيته عن الجيش . فعاد عزيز الى مصر .

★★★

ـ ويرى سلمان موسى ان السبب فى الخلاف الذى نشب بين عزيز والشريف أنه طالب بانشاء قيادة عسكرية مستقلة . وقد كتب الكولونيل ولسن الى الشريف يقترح عليه منح عزيز صلاحيات لانشاء قوة نظامية وأن يخصص له ميزانية خاصة (١٥ الف جنيه شهريا) ينفق منها على انشاء تلك القوة . ولكن الشريف لم يوافق على ذلك لأنه كان يخشى أن يكرر معه ماحدث مع السلطان عبد الحميد من انقلاب العسكريين عليه . وقد طلب عزيز من الانجليز أن يخصصوا له مبلغا من المال والأسلحة والتجهيزات وأن يمنحوه صلاحية الاتصال المباشر بهم وليس عن طريق الشريف من أجل أن يتسنى له انشاء القوة النظامية اللازمة . ولكن الانجليز لم يوافقوا على ذلك .

ـ فى ١٢ ديسمبر ١٩١٦ عينه الشريف وزيرا للحربية ، ولكن الخلاف دب بين عزيز والشريف فقد أبلغ ضابطا الأمير على أن عزيزا يبحث مسائل سياسية مع الضباط ويتحدث معهم فى مشروعه القديم القائل بانشاء دولة ثنائية من الأتراك والعرب تحت سيادة السلطان على نحو ماهو معمول به فى النمسا والمجر . وبلغ الخوف من نفس الأمير على أنه أمر بارتداد قواته التى كانت تهاجم المدينة بقيادة عزيز خوفا من اتصال عزيز بفخرى باشا ومن هنا توترت العلاقات بين الأمير وعزيز .

يدل على هذا ما جاء فى رسالة من ولسن الى الشريف بأن جعفر العسكرى يضع كل اهتماماته بعمله ولا يتدخل فى الأمور السياسية كما فعل ، وفى مارس ١٩١٧ ذهب عزيز الى مصر فى أجازة ولم يعد بعدها الى الحجاز .

★★★

ـ وكان عزيز قد التقى فى مارس ١٩١٧ بالكولونيل نيوكمب وتطرق الحديث الى اتفاق بريطانيا وفرنسا بشأن سوريا واعتزام سايكس وبيكو

المجيء الى مصر لتنسيق الاتفاق وقد بادر عزيز لابلاغ الشريف حسين بما سمعه من نيوكمب . ولم يهمل الشريف الموضوع فكتب الى ولسون رسالة بتاريخ ١٦ مارس ١٩١٧ أشار فيها الى عزيز وقال (أرجو أن تكونوا قد علمتم بما دار بينه وبين الكولونيل نيوكمب من حديث . أما اذا لم يبلغكم شيء فأرجو أن تحققوا وتعلمونى حتى أحصل على الحقائق الصحيحة بوضوح » .

وأجاب ولسون في اليوم التالى على رسالة الشريف بقوله ان الكولونيل نيوكمب انبأه عن اجتماعه مع عزيز وانهما بحثا فى الوضع العسكرى وأن عزيز حاول أن يتحدث فى السياسة معه ، ولكنى لا أذكر التفاصيل . وقد أعطيت تعليمات للكولونيل نيوكمب أن عليه عند وقوفه في رابغ ان يقول لعزيز ان عنده من الواجبات العسكرية ما يكفى وان عليه الا يشغل نفسه بالسياسة . وأن جميع المسائل السياسية على أية حال خاصة بسموك والحكومة البريطانية .

***

وقد قلت للكولونيل نيوكمب أيضا أن يبلغ عزيز أن سموك حليف بريطانيا العظمى التى سوف تعاضدك فى المستقبل كما عاضدتك فى الماضى بكل وسيلة . وان بريطانيا العظمى وحلفاءها مصممون في أن لا يعقدوا الصلح الا بعد أن تهزم ألمانيا تماما

وفى ١٧ مارس أبرق ولسون الى كلاينون يحيطه علما برسالة الشريف وبجوابه وهو يقول « هذا بالضبط ما كنت أخشاه .. انه لموقف دقيق تحتاج معالجته الى الحذر » .

ثم يقدم ولسون توصيته الشخصية بأن يجرى اطلاع الشريف على الهدف الحقيقى لبعثة سايكس بيكو ، وكان من ثقة الشريف بصدق أقوال الانجليز أنه وافق على ما قاله له ولسون وقال انه لا يصدق ما بلغه من عزيز . وليس من المستبعد أن يكون لسفر عزيز الى مصر بعد هذه الحادثة وعدم رجوعه الى الحجاز علاقة وطيدة برغبة الانجليز فى كتمان أمر اتفاقية سايكس بيكو التى تسرع نيوكمب وحدث عزيز بشأنها .

وهناك روايات كثيرة عن الثورة نستأذن القراء والقارئات فى اختيار بعضها مع الحرص على التوسع فى الحديث عن الروايات المختارة حتى ولو حدث بعض التكرار ، (كما أردنا — على الله — اعطاء صورة صادقة

وأمينة لمختلف الآراء عن تلك الثورة التى كانت أول ثورة عربية بل غير عربية قامت أثناء الحرب العالمية الأولى) .

***

يقول جورج أنطونيوس فى كتابه « يقظة العرب » .. حدد يوم السبت الواقع فى ١٠ يونيو موعدا لبدء الثورة فى مكة التى لم يكن فيها الا جزء من حاميتها الاعتيادية يبلغ مجموعه ١٤٠٠ جندى لأن الوالى ومعه القسم الأكبر من الجنود انتقلوا للطائف فى بداية الحر وهى مصيف الحجاز فأعطى الامير الاشارة وقت الفجر بتوجيه نيران البنادق على الثكنات ومواقع الحامية اذ لم يكن لدى القوات العربية مدافع قدام تبادل اطلاق النار بعنف ثلاثة أيام استسلمت فى نهايتها المواقع الصغيرة بينما استمرت مقاومة الثكنات الرئيسية وقلعة جياد ثلاثة أسابيع أخرى لأنها مجهزة بمدفعية ضخمة وكان السير رجينالد وينغيت خلال ذلك قد عجل بارسال سريتى مدفعية من الجيش المصرى المرابط فى السودان فوصل مدفعان الى مكة وأرغما باقى القوات التركية على التسليم .

***

لقد وجدنا أن أحسن وصف لسقوط مكة هو الذى نشرته جريدة (القبلة) التى أخذت تصدر فى مكة بعد مدة قصيرة وها نحن ندرج أدناه ما ورد فى أعداد ١٥ الى ١٨ شوال أى ١٤ الى ١٧ أغسطس عام ١٩١٦ :

« فى الساعة الثالثة والنصف من صباح السبت ٩ شعبان (١٠ يونيو) أى قبل الشروق بدأ اطلاق النار باستمرار على ثكنات مكة وعلى بناء الحميدية الذى تقع فيه دوائر الحكومة وحوصرت جميع القوات التركية فى حصونها المختلفة وأخذت قلعة جياد الواقعة على قمة جبل شاهق والمشرفة على جميع أحياء المدينة تطلق النيران باستمرار على مواقع البدو واستحكاماتهم وعلى جميع المساكن وبصورة خاصة على القصر الشريفى الذى كان هدفا لأكثر قنابلهم وهكذا ظل الطرفان يتبادلان اطلاق البنادق بمصاحبة نيران مدفعية القلعة حتى الساعة التاسعة صباحا .

***

« وعندئذ خاطب الضباط الذين يتولون القيادة فى ثكنات جرول القصر الشريفى بالهاتف وطلبوا وقف القتال ورجو ايفاد ممثل الادارة الملكية المحلى ليشرح لهم سبب هذه الفتنة ويتداول معهم فى التدابير

الواجب اتخاذها لاخمادها تجنبا لاستمرار التقتيل وسفك الدماء ، فارسل ممثل الادارة الملكية تلبية لطلبهم واعلمهم بأن البلاد قد اعلنت استقلالها وأن الاصطدام لا ينتهي الا باخلائهم الثكنات وتسليمهم أسلحتهم بكاملها الى القائد العربي ولكن الضباط لم يصغوا الى هذا الاقتراح بل قرروا المقاومة والدفاع عن النفس وأمروا قائد القلعة بأن يستأنف اطلاق القنابل على الناس بشدة متزايدة فلما أعلم ممثل الادارة الشريف بذلك أصدر أوامره باستئناف القتال فتم ذلك بشكل يفوق الحالة السابقة للمفاوضات شدة واستمرت الحالة على هذا الشكل حتى المساء اذ فتر القتال .. وقدرت خسائر الترك خلال الحركات بمائة وخمسين قتيلا أو جريحا بينما أصيب ثمانية من العرب بين قتيل وجريح .

« استؤنف القتال صباح الأحد (١١ يونيو) بعد الفجر بقليل يوافقه اطلاق البنادق والمدافع حول جميع المواقع التي تحتلها الحامية وفي الساعة الحادية عشرة هاجمت قوات الشريف مواقع باش قراقول قرب الصفا فاخترقته واستولت عليه وأسرت حاميته .

★★★

سار القتال يوم الاثنين (١٢ يونيو) على غرار اليومين السابقين ولكنه اشتد بصورة خاصة حول دوائر الحكومة في الحميدية حيث اعتصم وكيل الوالي وهو من ضباط الجيش ومعه حامية عسكرية وأخذوا يصوبون نار بنادقهم على غير هدى فيردون المارين بدون تمييز بين المسنين والعجزة والنساء والمصلين في الحرم الشريف فشنت مفرزة من القوات الشريفية هجوما عنيفا على ذلك الموقع واخترقته وارغمت حاميته على التسليم فسيق الجميع ومعهم وكيل الوالي والضباط التابعون له الى القصر الشريفي مع المحافظة على مقامهم العسكري وهناك وضعوا في الجناح المخصص للأسرى وعوملوا بالاحترام والرعاية الواجبين تجاه من كان في مقامهم ... ولما وصل وكيل الوالي ومعه باقي الاسرى الى القصر واطلع على الوقائع وعلى أسباب الثورة وأهدافها كتب بخط يده الى كل واحد من قواد الثكنات الرئيسية والقلعة يعلمهم بما حل به وينصحهم بالتسليم ويظهر أن كتبه لم يكن لها أي تأثير اذ عمدت الثكنات الى التأجيل والتسويف بينما ربطت القلعة مصيرها بمصير الثكنات وأخذت نطاق نيران البنادق والمدافع على الناس والبيوت وعلى الحرم الشريف بشكل أصبحت معه الصلاة مستحيلة ولم يعد في امكان الناس دخول الحرم للطواف أو الصلاة أو حتى الدنو منه سواء كانوا منفردين أم مجتمعين .. ولم تقف وقاحة الحامية عند هذا الحد بل تجاوزته بقذفها الكعبة الشريفة نفسها بقنبلتين ومقام ابراهيم

بنالثة فهرعت ألوف المصلين تحت وابل من الرصاص وشظايا القنابل المتفجرة لاخماد النار التى شبت فى سقف الكعبة الشريفة ·

★★★

« واستمرت الأمور فى الثكنات الرئيسية والقلعة على هذا النحو أياما طويلة اذ لم يكن عند العرب مدفعية يسلطونها على الترك المحصنين تحصينا قويا هذا من جهة ومن جهة ثانية لم يتجرأ الترك على الخروج من استحكاماتهم ولو الى مسافة قليلة وفيما بعد وصلت بعض المدافع من جدة ومعها جنودها فشرعت تقذف القلعة حتى فتحت ثغرة فى جانبها استفاد منها العرب فهاجموها بسجاعة فائقة وهم معرضون لنار البنادق والمدافع حتى أخذوها عنوة بعد قتل ضابطين تركيين وجندى ولم نصب القوة المهاجمة الا بجريح واحد ·

« وهكذا سقطت قلعة جياد يوم الثلاثاء ٤ رمضان (٤ يوليو) فى يد القوات الشريفية التى استولت كذلك على مدفعين كبيرين وثلاثة مدافع صغيرة وما يقارب ٨٠٠٠ بندقية من أنواع مختلفة قديمة وحديثة مع كمية كبيرة من العتاد والمواد الحربية كان مجموع المدة التى تحملها الحصار خمسة وعشرين يوما رأت الحامية خلالها أن ترتكب الفظائع التى وصفناها ·

★★★

« وبعد أن أسكتت مدافعنا بطاريات القلعة وحققت استسلامها وجهت الى ثكنات جروال ونصبت الى جانب القوات المحاصرة وأخذت تقذف قنابلها مستهدفة فتح ثغرة فيها لولوجها وكانت الحامية التركية كلما اشتد عليها الحال تسعى الى مخادعة القوات الشريفية برفع علم أبيض وطلب مفاوضة القائد ولكنها سلمت أخيرا بالفعل اذ خرج عدد من الضباط يحملون علما أبيض الى وسط المعسكر العربى لمقابلة القائد ومفاوضته فسيقوا ثانية الى ثكناتهم حيث حملوا على تسليم جميع أسلحتهم وعتادهم وتجهيزاتهم وكل ما فى الثكنات خلا الأشياء الشخصية الخاصة بالضباط والجنود أى دراهمهم وحقائبهم وحتى خيولهم لان التعليمات قضت بلزوم تسليمهم هذه الأشياء ·

« بهذا الشكل سلمت الثكنات الرئيسية لقوات الشريف مساء الأحد فى ٩ رمضان (٩ يولية) بعد أن خيم الظلام وتقدر خسائر الترك فى هذا الحصار بواحد وعشرين قتيلا وبستة وسبعين جريحا وهذا فيما عدا خسائرهم فى الجزء الأول من الحركات وسيق الذين نجوا الى الأماكن التى

خصصت لهم وبعضها فى حى الشهداء والبعض الآخر فى منازل مختلفة داخل المدينة وكان عددهم ثلاثين ضابطا و ١٢٠٠ جندى برتب مختلفة ٠ وبسقوط الثكنات زالت سلطة الاتراك من مكة اذ تمكنت قوات الشريف من احتلال سائر مواقع الحامية ومراكز الحرس ودوائر الحكومة وكذلك جميع الأحياء والأبنية الرسمية فى المدينة » ٠

***

هوجمت جدة من الخارج يوم قيام الثورة فى مكة ٠ فان قوة مؤلفة من ٣٥٠٠ اعرابى ينتمون الى عشائر حرب الكبرى بقيادة الشريف محسن حاولت الدخول عنوة الى المدينة ولكن فقدان المدفعية هنا أيضا جعلهم يقفون عاجزين امام الحامية التركية المؤلفة من ١٥٠٠ جندى والتى كانت متفوقة بتجهيزاتها فأضطر الى اللجوء لخطة الحصار الذى اشترك فيه الفاروقى ، وقد أوفد من القاهرة ٠ وقذفت البوارج البريطانية مراكز الترك الخارجية كما أن الطيارات البحرية ألقت قنابلها خارج نطاق المدينة وبعد أيام قليلة تلقت الحامية رسالة من القائد التركى فى مكة يقول فيها أنه لا يستطيع نجدتها فاستسلمت فى ١٦ يونيو ٠

وخلال ذلك حاصرت الطائف قوة يقودها الأمير عبد الله بينما توجهت قوة ثانية شمالا فاستولت على رابغ وينبع وسقطت قنفذه بمساعدة الاسطول البريطانى على أن حصار الطائف امتد زمنا طويلا اذ لم يخامر عبد الله الشك فى أنه سيأخذها فى النهاية فلم يشأ مهاجمتها بالرغم من وجود البطاريات المصرية معه وكان حكيما اذ رفض عروض الترك لعقد هدنة وانتظر حتى سلمت الحامية بلا قيد يوم ٢١ سبتمبر ومعها الغنيمة الكبرى : والى الحجاز غالب باشا ٠

***

كانت الثورة قد ثبتت قدمها حتى ذلك التاريخ اذ استولى الشريف على ٦٠٠٠ أسير وكمية كبيرة من المواد الحربية ووقعت مدن الحجاز الكبرى خلا المدينة المنورة فى يده ٠

أخفى نبأ الثورة فى تركيا والمانيا فاختفى عن الجمهور أسابيع عديدة وكانت البلاغات التركية حتى فى تاريخ متأخر ـ ٢٦ يونيو ـ تكذب نبأ قيام أية ثورة فى الحجاز وصدر أول اعتراف ، اذ أمكن تسميته اعترافا فى ٢٩ يونيو اذ اذاعت جريدة (الشرق) الرسمية فى دمشق بيانا قالت فيه ان افخاذ بعض القبائل هاجمت عددا ضئيلا من المواقع بجوار المدينة

ولم تشر الى احتلال مكة وجدة ولم تتعرض للشريف الذي ورد ذكره للمرة الأولى يوم ٢ يولية اذ نشرت ارادة سنية تقضي بعزله وتنصيب الشريف علي حيدر أميرا على مكة دون بيان الأسباب . ولا يسمح بنشر شيء عن الثورة قبل ٢٦ يولية حين أتت جريدة (طنين) الصادرة في القسطنطينية على وصف الثورة وصفا مشوها بقصد الاقـــلال من شأنها ثم استمرت الصحافة خلال شهور عديدة تنعت بحركة الشريف حسين بأنها عصيـان شخص بدافع الدسائس البريطانية وان الحكومة آخذة في قمعها بمساعدة أهل الحجاز ورجال عشائره وقد ظلوا جميعا مخلصين للخلافة ولتعاليم الرسول التي فرضت الجهاد على المسلمين .

***

وصرف الترك جهودا خاصة في الشام لتسوية ثورة الشريف وتصغير شأنها فقامت صفحات (الشرق) بعد صمتها في الأسابيع القليلة الأولى بالمقالات الموعز بها والاخبار المختلفة فنشرت في عدد ١٩ سبتمبر تقريرا ادعت انه صادر عن القائد التركي العام في المدينة يقول فيه ان عددا كبيرا من رجال عشائر الحجاز قدموا الطاعة وأن فيصلا لجأ الى بارجة بريطانية بعد هزيمته وان أخاه عليا هائم على وجهه لانه ضائع وحيران . وفي يوم ٢٤ سبتمبر أي بعد سقوط الطائف بثلاثة أيام نشرت بلاغا رسميا يعلن هدوء الحالة في الطائف حيث صد هجوم قام به الأمير عبد الله على رأس بعض البدو فتكبد خسائر جسيمة ولم يسمح للصحف بنشر أي شيء آخر .

***

لم يقف غضب جمال عند حد فراح يتشـــفى ممن تبقى من زعماء العرب القليلين الذين نجوا حتى ذلك الوقت من براثنه فأصدر الأوامـر باعتقال الناس جملة وأخذت شرطته العسكرية تلقي شباكها على غير حصر فقبضت في دمشق وحدها على أربعين شخصا تقريبا من الوجهاء الباقين فزجتهم في السجن وسامتهم أنواع العذاب الشنيع ، من ذلك أنهم جلدوا شكري باشا الأيوبي وهو رجل مسن ووقور جلد يوميا جلدا مبرحا حتى كادوا يقتلونه ووضعوا عبد الحميد باشا القلطقجي وهو أمير لواء في الجيش التركي ، وزكي بك العظمة وهو ضابط من رتبة عالية ، وفارس الخوري وهو مبعوث مسيحي في البرلمان العثماني ، في غرف منفردة حيث جلدوا وحرموا الطعام . ولكن أحدا من هؤلاء لم يعترف ولم يبح بسر من أسرار الحركة العربية حتى أن شكري القوتلي وهو من أصغر أعضاء (الفتاة) سنا وأكثرهم حماسا حاول الانتحار بقطع شريانه بسكين عادية ومثلمـة وعندما بلغوا في ضربه حدا مزقوا معه جلده فخشي أن يفقد وعيه ويعترف

بما لا تجوز اباحته من أسرار الجمعية ، وفى الوقت ذاته أخذ الترك يلفقون التهم لكى يوجدوا عذرا ظاهرا يبرر الحكم بالاعدام ، ولا شك أن ، الموت كان يصيب الكثيرين لو لم يتدخل فيصل فى الوقت المناسب اذ أنذر جمال بأنه سيثأر لكل منهم يعدم أو يموت بنتيجة المعاملة السيئة من الضباط الاتراك الأسرى فى مكة والطائف فيقتل عشرة منهم رميا بالرصاص بلا تردد مقابل كل عربى يذهب ضحية ارهاب جمال فكان لهذا التهديد أثره اذ أطلق سراح المتهمين ووضعوا تحت رقابة شديدة ٠

★★★

وفى تلك الفترة قبض على مائة وعشرين رجلا من وجهاء العرب فى مختلف أنحاء الشام وأبعدوا الى الأناضول ثم اتخذت تدابير قمعية زادت فى هول الأحكام العرفية وفى أكتوبر الغيت الامتيازات الخاصة والحكم الذاتى الذى منح للبنان عام ١٨٦٤ وتولت الادارة التركية حكمه مباشرة بما عرف عنها من أساليب العسف ٠

مر على الشريف ستة شهور من القلق قبل أن يتمكن من تركيز شأنه على أثر انتصاراته انه لم ينجح فى أخذ المدينة ولكنه فيما عدا ذلك حقق جميع أهدافه الحربية المباشرة بسقوط الطائف فى النصف الأخير من شهر سبتمبر ٠

كانت الشهور الثلاثة التى أعقبت ذلك أسوأ عهد فى تاريخ الحملة العربية ، فكان الترك المحصورون بالمدينة والذين بلغ مجموع قوتهم بعد انضمام خيرى بك ١٤٠٠٠ جندى مجهزين بمدفعية قوية ، يخرجون كثيرا فى هجمات عكسية حتى أنهم فى احدى المرات دحروا بفضل مدافعهم الداوية العرب المسلحين بالبنادق فخيل للناظر أنهم على وشك استرجاع رابغ والسير على مكة فقام جدال طويل اشترك فيه جميع الذين لهم صلة بالثورة حول انزال لواء واحد من جيوش الحلفاء فى رابغ لكى يرابط على طريق مكة ويقف فى وجه أية محاولة تركية ولكن الحكمة قضت بنبذ هذه الفكرة كما أن خطر السير على مكة لم يتحقق قط وقضى على كل أمل فيه نهائيا فى يناير من السنة التالية بتقدم أحد جيوش الشريف بقيادة فيصل نحو الشمال واحتلاله ميناء الوجه بمساندة الاسطول البريطانى ٠

★★★

وخلال هذه الشهور استقرت بعثات بريطانية وفرنسية فى جدة فكان أول الحاضرين نائب الزعيم (الليوتنان كولونيل) ويلسون التابع

للادارة السياسية فى السودان والذى أرسل ليكون معتمدا بريطانيا لدى الشريف فأصبح الوسيط الأول بينه وبين السلطان البريطانية فى السودان ومصر • وفى سبتمبر أتت بعثة فرنسية برئاسة الزعيم (الكولونيل) بريمون وبعد ذلك حضر ضباط آخرون بمهام معينة ومختلفة خلا واحدا واسمه لورنس حضر فى زيارة بدافع حب الاستطلاع ثم بقى كما هو معلوم ليقوم بأعمال أثارت دهشة العالم • كانت مهمة هؤلاء الضباط استشارية وعين وينغيت قائدا أعلى للحركات فى الحجاز فى سبيل تنسيق أعمالهم ولم يترتب على هذه التسمية قيامه بقيادة قوات الشريف بل كان القصد منها جعله مسئولا عن تأمين المساعدة البريطانية الموجهة للعرب خلال الحرب بشكل مرض سواء أكانت باعطاء الرأى أم بتقديم المعدات وفى نهاية السنة عندما خلف وينغيت مكماهون كمندوب سام فى القاهرة أصبح مسئولا عن الجهة السياسية بالاضافة الى الناحية العسكرية من التعاون الانجليزى العربى •

★★★

وعن عزيز على المصرى ودوره فى القتال •• قال جورك انطونيوس :

عهد فى بداية الأمر الى عزيز على الاشراف الفعلى على الحركات العسكرية العربية فقد تطوع لهذا العمل وكان أهلا له أكثر من غيره •

كان عزيز على يرقب الأمور ويتحين الفرص ونحن نذكر كيف اتصل به الانجليز فى القاهرة على أثر دخول تركيا الحرب وكيف قطع المباحثات معهم وعاد الى عزلته لما اكتشف أن بريطانيا العظمى لم تكن مستعدة فى ذلك الوقت لأن تقطع على نفسها عهدا صريحا وباتا بصيانة استقلال العرب، ولكنهم أسروا له فيما بعد بفحوى • مراسلات مكماهون فانحاز فورا الى جانب التعاون الانجليزى العربى وعرض خدماته •

وصل عزيز على الى جدة فى شهر سبتمبر ليتولى القيادة فشرع يعمل بهمته المعتادة على خلق نواة لجيش نظامى •• وهذا عمل شاق جدا ، ولكنه لم يبق فى القيادة مدة طويلة اذ كان لا بد من حدوث الاحتكاك بين رئيس صعب المزاج كالحسين ومرؤوس يتعشق الكفاءة ولا يتساهل فى أمرها البتة كعزيز على فترك القيادة التى خلفه فيها فيما بعد جعفر العسكرى •

★★★

وكان جعفر هو الآخر مترددا على الالتحاق بالثورة أول الأمر فلما بلغه نبأ اعدام الشهداء فى ٦ مارس وهو فى المعتقل تأثر تأثرا عميقا وراح يصب اللعنات على كل عربى يبقى فى خدمة الترك بعد هذه الوحشية التى بدرت منهم فتطوع للخدمة مع الشريف وفى الوقت نفسه وبناء على اقتراح الفاروقى أخذت السلطات تبحث بين معسكرات الأسرى فى مصر والهند عن الضباط والجنود العرب وتعرض عليهم فكرة الالتحاق بالحرب القائمة لتحرير العرب فوصل عدد من الضباط والجنود الذين اطلق سراحهم بنتيجة ذلك الى ينبع والوجه والتحقوا بالجيش النظامى الذى كان فى دور التشكيل ومن هؤلاء نورى السعيد ومولود مخلص وكلاهما عراقى وعضو فى (العهد) وقد برزا فيما بعد بأعمالهما فى الحملة العربية ٠

★★★

ونستأذن فى نشر بعض الوثائق ، التى يرى بعضها النور ـ كما هى ـ لأول مرة (ومن بين تلك الوثائق صورة المنشور الذى اذاعه الشريف حسين بن على والذى فجر به الثورة) ونعتقد أن هذا المنشور الذى اعتمدنا عليه هو أقرب المنشورات الى الحقيقة وفيما يلى نص المنشور الذى بدأت به الثورة :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

هذا منشورنا العام الى كافة اخواننا المسلمين

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين

كل يعلم بأن أول من اعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وأمرائه امراء مكه المكرمة رغبة منهم فى جمع كلمة المسلمين وتحكيما لعرى جامعتهم والتمسك بسلاطينها من آل عثمان العظام طاب ثراهم وجعل دار الخلد مثواهم بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وتفانيهم فى انقاذ احكامهما ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة لا يزال الأمراء المشار اليهم محافظين عليها فانى حملت بالعرب على العرب فى سنة ١٣٢٧ ألف وثلثماية سبعة وعشرين (الصواب ألف وثلثمائة وتسعة وعشرين) لفك حصار أبها محافظة لشرف الدولة وفى السنة التى أعقبتها جرت عين هذه الحركة تحت قيادة أحد أبنائى (فيصل) الى غير ذلك مما هو فى هذا المعنى كما هو مشهود ومعهود الى أن نشبأت فى الدولة جمعية الاتحاد وتوصلت الى قبض ادارتها وكافة شئونها بما كانت نتيجته انتقاصها من الممالك ما قوض عظمتها مما عرفه أفراد العالم وخصوصا

بخوضهم بها غمرات الحروب الحاضرة وإيقافهم اياها اليوم فى موقف الهلكة التى لا تحتاج لبيان كل هذا لمحض غايات معلومة تأبى احساساتنا البحث فيها وتستدعى تفطر قلوب مسلمى المعمورة أسى وحزنا على دولة الاسلام وتمزيق ما بقى من سكان ممالكها بلا تفرقة بين مسلمهم وذميمهم فريق منهم بالصلب وأنواع الاعدام والآخر باجلائه عن وطنه على الصورة المعهودة والحالة المشهودة علاوة على ما اصيبوا به فى أموالهم وأنفسهم من آفات الحرب ولا سيما هذه الحرب الأخيرة التى كان للأرض المقدسة النصيب الأعظم كما يعلم مختصرا من أضرار العموم حتى الدرجة الثانية من الأهالى على بيع أبواب دورهم ودواليبهم وأخشاب سقفها بعد بيعهم لكافة موجوداتهم وذلك للحصول على سد الرمق كل هذا وكان جمعية الاتحاد لم تره كافيا لغرضها كما يظهر من تجاوزها على اخلال الرابطة الوحيدة بين السلطنة السنية العثمانية وكافة مسلمى المعمورة ألا وهى التمسك بالكتاب والسنة فقد وصفت أحد صحفها الموسومة بالاجتهاد الصادرة فى دار السلطنة السنية سيرة صلوات الله عليه وسلامه بشر السير نسأل الله العافية . وهذا بمرأى ومسمع من وزير الدولة الأعظم وشيخ اسلامها وسائر علمائها ووزرائها وأعيان رجالها وشفعت هذه الجرأة بلغو قوله تعالى (للذكر مثل حظ الأنثيين) فساوتهما فى الميراث وعززتهما بالطامة الكبرى وهى هدم أحد أركان الاسلام الخمس وهو صوم رمضان بالأمر بفطره على الجند المقيم بالمدينة المنورة أو بمكة المكرمة أو الشام مثلا بدعوى أن زميله الجندى الآخر يقاتل فى حدود الروس ولفقت لهذا أقاويل المعارضة صراحة قوله تعالى « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » الى غير ذلك مما يمس أساسات الاسلامية من الاقدامات المشتهرة صراحة أحكام مرتكبها بعد أن ضربت على يد شوكة السلطان المعظم وسلبته حتى الاقتدار على انتخاب رئيس كتاب ما بين سلطنته الشريفة أو رئيس خاصة المبجلة المنيفة فضلا عن النظر فى أمور المسلمين ومصالح البلاد والعباد وما فى هذا من اسقاطهم لشروط الخلافة المطالبين بها المسلمين ووجوب البراءة منها والحالة هذه مما لا مشاحة فيه مع هذا فمازلنا نتأول صحة هذه الجرأة هربا وحذرا من نسبة تهمة التفرقة وبواعث الاختلاف حتى ظهر الخفا وانكشف الغطا واتضح بأن الدولة أصبحت فى يد أنور باشا وجمال باشا وطلعت بيك يحكمون فيها بما يشاءون ويفعلون بها ما يريدون وأبسط دليل على صحة هذا ما ورد أخيرا لقاضي محكمة مكة الشرعية بأن لا يحكم الا بالشهادة التى تحررت فى محكمته وبين يديه ولا يلتفت للشهادة التى يكتبها المسلمون فيما بينهم غير مبالين بما فى آية البقرة.

***

بداية هذا كله من جهة ومن أخرى صلبهم في آن واحد للواحد والعشرين رجلا من عظماء أفاضل المسلمين وكبراء نوابغ العرب عدا من صلبوه من قبل وهم الأمير عمر الجزائرى والأمير عارف الشهابى وشفيق بيك المؤيد وشكرى بك العسلى وعبد الوهاب وتوفيق بك البساط وعبد الحميد الزهاوى وعبد الغنى المريسى ورفاقهم المعلومون ولا ريب أنه يصعب حتى على ذوى القلوب القاسية ازهاق نفوس مثل هذا العدد فى آن واحد ولو كانوا من بهائم الانعام وهب أننا التمسنا لهم عذرا وانتحلنا لهم مسوغا فى قتل هؤلاء الأفاضل فما المسوغ لنفى عائلتهم البئيسة البريئة من كل ذنب وفيهما من الأطفال والشيوخ وربات الخدور من تتفطر لهم القلوب وتذهب الأنفس حسرات عليهم وذاقتهم أنواع العذاب فوق ما قد أجرعوه من سم المصيبة باتلاف عميدهم الذى خربت بفقده منازلهم والله تعالى يقول « لا تزروا وازرة وزر أخرى » واذا انتحلنا لهذه مسوغا أيضا فمن الذى يسوغ لهم مصادرة أملاكهم وأموالهم التى يأوون اليها ويتعيشون بها بعد أن قضوا على عزيزهم وسلبوا من أيديهم أسباب عزهم واذا ـ تغاضينا عن هذا كله أيضا وقلنا ربما كان لهم مسوغ اليه فكيف يمكن أن تنتحل مسوغا لجراءتهم على قبر الأمير الأبر والمجاهد التقى الزاهد مولانا الشريف عبد القادر الجزائرى الحسنى واهانته وتحقيره هذا ما أبدوه من الأعمال أتينا به مختصر تاركين الحكم فيه للعالم الانسانى عموما والعالم الاسلامى خصوصا وحسبنا برهانا على ما تكنه صدورهم نحو الدين والعرب ورميهم للبيت العتيق الذى أضافته العزة الأحدية لذاتها السبحانية فى قوله تعالى « وطهر بيتى للطائفين » وهى قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقنبلتين من قنابل مدافعهم التى بحصن جياد أثناء قيام البلاد بالمطالبة باستقلالها وقعت احداها فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع التهبت بنارهما أستار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لاطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب واضطرهم الحال الى فتح باب البيت والصعود الى سطحه للتمكن من اطفاء اللهيب · وما انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنين بثلاثة فى مقام ابراهيم · وهذا عدا ما وقع منها فى بقية المسجد الذى اتخذوه هدفهم الوحيد فى غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص ومازالوا يقتلون الثلاثة والأربعة فى نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب من البيت · وفى هذا من الاستخفاف والازدراء بالبيت وتعظيمه وحرمته ما نترك القول والحكم فيه أيضا لعموم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها · نعم نترك الحكم فى هذا الاستخفاف وازدراء للعالم الاسلامى ولكننا لا نترك كياننا الدينى والقومى العوبة فى أيدى الاتحاديين وقد يسر الله للبلاد نهضتها كما وفقها بحوله وقوته لاخذ استقلالها وتكليل مساعيها بالفوز والنجاح بعد أن ضربت على أيدى

موظفيها بيننا (كذا) ورجال حاميتها فاستقلت فعلا وانفصلت عن البلاد التى لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالا تاما مطلقا بكل معانى الاستقلال الذى لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجى جاعلة غايتها ومبادئها نصرة دين الاسلام والسعى لاعلاء شأن المسلمين وقائمة فى كل أعمالها على أساس أحكام الشرع الشريف الذى لا يكون لنا مرجع سواه ولا مستند الا اياه فى سائر الأحكام وكافة أصول القضاء وفروعه . مع استعدادها لقبول كل ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الرقى الحديث وأسباب النهضة الصحيحة . باذلة كل ما فى الجهد والطاقة لاعزاز العام وتعميمه بين الناس وعلى اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد .

هذا ما قد قمنا به لاداء الواجب الدينى علينا راجين من كافة اخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يؤيدوا كذلك ما يرونه واجبا لنا عليهم بالنسبة لتحكيم روابط الاخاء الاسلامى رافعين أكف الضراعة لرب الأرباب متوسلين برسول الملك الوهاب أن يتولانا بالتوفيق ويمدنا بالهداية الى ما فيه خير الاسلام والمسلمين والاعتماد على الله العلى الكبير وهو حسبنا ونعم النصير .

فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٤

شريف مكة واميرها

الحسين بن على

★★★

منشور آخر القته احدى الطائرات البريطانية بتوقيع الحكومة البريطانية .. وبعنوان : وماربك بظلام للعبيد .

وهذا نص المنشور

الى سعادة قائد القوات التركية وحضرات ضباطه الكرام بخط الدفاع بجدة أعلمكم علم اليقين واخبركم بالحقيقة التى لامراء فيها أن مكة المكرمة والطائف أصبحتا فى يدى دولة أمير مكة المعظم الشريف حسين بن على وانتصاراته على الجيوش التركية متوالية فقد أصبحت أرض الحجاز خالية بالمرة من دوائر الحكومة الاتحادية . مع اعلامكم بأن الحركة لم تكن الا لتأسيس دولة خلافة عربية اسلامية وأن العرب لا يكرهون الترك حيث هم لأنهم مسلمون مثلهم وانما يريدون التخلص من الحكومة

الاتحادية الجائرة التى تلعب بها الألمان والله على ما أقول شهيد • فبدلا من وقوفكم فى وجه العرب الذين لكثرة عددهم وعدتهم سيحرزون النصر المبين ان شـاء الله بعـد ازهاق الكثير من الأرواح وبدلا من المقـاومة التى لانتيجة لها • أنصح لكم أن تسلموا بدلا من أن تبيـدوا عن آخـركم ومهلتكم هى مجرد وصول هذا اليكم ، لأنكم بعد رفضكم لهذا النصح تصب عليكم القنابل من السفن الهوائيـة ومن البحر والبر • حيث استعد لكم العرب بالمدافع الجبلية السريعـة ومدافع الميدان الحديثـة والرشاشات السريعة وعلى كل حال فأنا لا نعد ذلك جبنا منكم ولا أهانة لشرف رايتكم • ولكن الرجل المضطر يركب الصعب من الأمر وهو عالم بركوبه ويتجاوز الأدب وهو كاره لتجاوزه فلا تلقوا بأنفسكم الى التهلكه وحسن رعايتكم بعد التسليم مضمون والعاقبة للمتقين •

الحكومة الانجليزية

مرسومان أصـدرهما الشريف الحسين بن على فى ٧ ذى الحجة سنة ١٣٣٢ ـ أحدهمـا بتأليف مجلس الوكلاء ، والآخـر بتأليف مجلس الشورى •

وفيما يلى نص المرسوم الأول :

حضرة العالم الكامل الشيخ عبد الله سراج

انه لما كانت مصالح الرعايا وانتظام شؤون المجتمع وتوفر أسباب العمران لابد لها من دواوين يتوزع عليها النظر فى الحكومة وما هو فى معنى ذلك من المصالح العامة والخاصة ويتعين بها أساس الوظائف التى تنبنى عليه المسئولية وتكوين حكومة لبـلادنا المحروسـة وبالنظر الى ما تحققناه فيكم من الكفاءة ـ والاستقامة عزمنـا بعد الاستعانة بعد الله عز وجل على توجيه منصب قاضى القضـاه لعهدتكم وتعيينكم وكيلا عن رئيس الوكلاء العظام وقد اخترنا لبقية الوكالات حضرات الذوات الآتية أسماؤهم وهم ولدنا عبد الله بن الحسين لوكالة الخارجية ويكون وكيلا عن وكيل الداخليـة وعبد العزيز بن على رئيس أركان حـرب ووكيلا عن وكيل رئاسة الجند مع ترفيع درجته عن رتبته الحاضرة والشيخ على مالكى وكيلا للمعـارف والشيخ يوسف بن سـالم رئيس البلدية سابقا وكيلا للمنافع العمومية والشيخ محمد أمين مدير الحرم الشريف سابقا وكيلا للأوقاف مع بقائه فى نظارة أمور الحرم وكلما يتعلق فى وظيفته الشريفة والشيخ أحمد بن عبد الرحمن باناجه وكيلا للمالية • وذلك مما توسمناه من درايتهم واستعدادهم للسهر على مصالح البلاد وأهلها عن ما يرضى الله

وانتا ننتظر منكم المبادرة الى تأسيس الدوائر والدواوين الرسمية وتعيين العمال والموظفين لها وأرجو الله سبحانه أن يجعلنا مظهر توفيقه وهداه فى كل ما يحبه ويرضاه) ·

فى ٧ ذى الحجة سنة ١٣٣٤ ·

حسين

***

أما أعضاء مجلس الوكلاء (الوزراء) الذين صدر بتعيينهم المنشور السابق فهم :

أما أعضاء مجلس الوكلاء (الوزارة) الذين صدر بتعيينهم المنشور السالف فهم :

الرئيس : الأمير على بن الحسين ثم عين أمير المدينة فخلفه الشيخ عبد الله سراج مع وظيفة قاضى القضاة ·

الخارجية : الأمير عبد الله بن الحسين ، ثم ذهب الى شرق الأردن فخلفه بالنيابة الشريف شرف بن عبد المحسن البركاتى ، ثم مساعد اليافى ، ثم فوزى البكرى ، ثم الشيخ فؤاد الخطاب وهذا الأخير بقى يشغل وكالة الخارجية حتى خرج الحسين من مكة ·

الحربية : عبد العزيز على ولم يمكث الا قليلا من الأشهر لخلاف وقع بينه وبين الحسين فى مسألة التجنيد الجبرى التى كان يراها عزيز بك . وادخال النظم العسكرية الحديثة ، فخلفه محمود بك القيسونى المصرى ، من الضباط الذين ذهبوا الى الحجاز لتدريب الجيش الحجازى · فصبرى بك البغدادى ·

المعارف : الشيخ على المالكى ، ثم الشيخ كامل القصاب الفلسطينى ثم السيد عبد الله الزواوى ·

النافعة : الشيخ يوسف قطان ·

الأوقاف : السيد محمد أمين مدير الحرم ، وهو تركى الأصل ، ثم الشريف ناصر بن شاكر ·

المالية : الشيخ أحمد باناجه ·

البرق والبريد : الشيخ عبد القادر غزاوى ·

الداخلية : الشريف عبد الله باشا بن محمد زوج ابنة الحسين ·

الصحة : الدكتور نديم ، فخليل الحسينى ، فمحمد الحسينى ·

أما السيطرة والتنفيذ فكلها بيد الملك حسين ولقد كان القصد الأول من تكوين هذه الهيئة أن يكون الحجاز ذا مظهر حكومى ، تقليدا للأتراك أو للحكومة الأخرى ·

★★★

أما المرسوم الخاص بتشكيل مجلس الشيوخ فهذا نصه :

وكيل رئيس الوكلاء وقاضي القضاة مولانا وفقه الله

بما أننا قد استنسبنا تعيين هيئة أطلقنا عليها اسم مجلس الشيوخ وجعلنا وظيفة هذا المجلس النظر فى كل ما يتعلق بمنافع البلاد والمراقبة على أعمال الدواوين والدوائر الرسمية وابداء الرأى فيما تعرضه الدوائر على مقام وكيل رئيس الوكلاء سيقرر فيما بعد صلاحية هذا المجلس العالى وقد جعلنا رئيسا له جناب الفاضل الأجل فاتح بيت الله الحرام الشيخ محمد صالح الشيبى وأعضائه حضرات الأفاضل الأجلاء مفتى الشافعية السيد عبد الله بن محمد صالح الزواوى ومفتى المالكية عابدين حسين والشيخ عبد القادر بن على الشيبى ونائب الحرم السيد ابراهيم بن على ووكيل شيخ السادة السيد محمد بن علوى السقاف والشيخ عبد الله على رضا والشيخ على بن عبد الله الشرباصي والشيخ أبو بكر بن محمد خوقير وذوى السيادة والشرف حمزة بن عبد الله الفعر وفتن بن محسن وسليمان بن أحمد بن سعيد · وناصر بن شكر ولنبلغهم ما ذكر بنص تحريره ·

★★★

وتبقى الوثائق الخاصة بالمعاهدة البريطانية العربية ·

فى شهر رمضان سنة ١٣٤١ وصلت احدى البوارج الحربية الانجليزية مقلة الدكتور ناجى الأصيل مندوب الملك الحسين فى لندن حاملا المعاهدة البريطانية العربية · وقد ألقى رئيس الديوان العالى الخطاب الملكى الهاشمى التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

(نصرح فى هذا العيد المبارك بمال المعاهدة العربية البريطانيــة المؤسسة) .

(على مقرراتنــا الأساســية والتى يعترف بها صاحب الجلالة البريطــانية لنا باستقلال العــرب بجزيرتهم وســائر بلادهم ويتعهد لنــا حشمته الملوكية بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل هذه البلاد بما فيها العراق وفلسطين وشرق الأردن وسائر البلاد العربية فى جزيرة العرب ماخلا عدن فنأمر أن يعتبر هذا اليــوم المبــارك عيد الاعتراف باستقلال الأمة العربية والله ولى التوفيق .

وعقبه خطاب مندوب الحكومة بلندن .

مولاى : نحمده تعالى وأشكره على هــذه الوقفة الفريدة التى منتم يامولاى على بها لأقف بين يدى جلالتكم فى هذا اليوم العظيم لأقول كلمتى على المعاهدة العربية البريطانية التى انتهت والحمد لله باعتراف بريطانيا باستقلال العرب فى جزيرتهم وسائر بلادهم ويتعهدها لجلالتكم بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العربية .

ان بداية هذا الانقلاب الكبير فى تاريخ الأمة العربية ظهر يوم نادى جلالتكم بأمته متصرخا اياها لنهوض وفك القيود لاعادة حريتها القديمة واستقلالها المغصوب فيالها من نهضة مباركة قامت فحطمت سلاسل الغل والاستعباد وجاءت اليوم بالاستقلال والاتخاذ لأمة عرفها التاريخ بفتوحها العظيمة ومجدها المشيد فالأمة العربية مديونة لكم يامولاى فى نهضتها مديونة لكم . فى العهود التى قطعتموها لحفظها وصيانتها من مصائب الحرب ونتائجها مديونة لكم فى هذا الاعتراف باستقلالها ووحدتهــا ، فكما أنى ماقمت الا بواجب الوطنى يوم لبيت فتركت الجيش التركى والتحقت بجيوش جلالتكم لاشترك بالدفاع باســتقلال بلادى العربية فى تلك المعركة الكبرى فاليوم أيضا يامولاى بذهابى الى لوزان حسب تنسيب جلالتكم للدفاع عن القضية العربية أمام المؤتمر وثم الى عاصمة بريطانيا لمطالبتها بايفاء العهود لم أقم الا بنفس ذلك الواجب السامى الذى يفديه كل عربى صميم بروحه وماله وما تملكه يداه اســأله تعالى أن يؤيد جلالة مولاى المنقذ الأكبر ويبقيه ذخــرا للأمة العربيــة وأن يجعل هذا اليوم بدء كل خير لصالح الأمة العربية) .

***

نشرت حكومة فلسطين بلاغا رسميا قالت فيه :

فيما يلى خلاصة المعاهدة التى جرت المفاوضة بشأنها بين حكومة جلالة ملك بريطانيا وجلالة ملك الحجاز .. أما المعاهدة فلم تبرم نهائيا حتى الآن وقد اقترح جلالة الملك حسين تعديلات صغيرة لم تعرف تفاصيلها تماما والبحث جار فيها :

المادة الأولى : تنص على وجود سلم بين الحكومتين وعلى منع استعمال بلاد الحكومة الواحدة قاعدة لأعمال موجبة ضد الحكومة الأخرى .

المادة الثانية : يتعهد جلالة ملك بريطانيا بأن يعترف باستقلال العرب فى العراق وشرقى الأردن والدولة العربية فى شبه جزيرة العرب ماخلا عدن وأن يعضد هذا الاستقلال . وأما فيما يتعلق بفلسطين فقد تعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن لايجرى شىء فى هذه البلاد مما يمكن أن يجحف بحقوق الأهالى العرب المدنية أو الدينية . وأما اذا أبدت احدى هاته الحكومات أو كلها رغبة فى الاشتراك فى الجمارك أو خلاف ذلك بقصد ايجاد حلف فيما بعد فان صاحب الجلالة البريطانية يسعى لترويج رغبتهم اذا طلب اليه ذلك المتعاقدون ذوو الشأن ويعترف صاحب الجلالة الهاشمية بالمركز الخاص الذى لجلالته البريطانية فى العراق وشرق الأردن وفلسطين ويتعهد بأن يبذل غاية جهده فى التعاون مع جلالته البريطانية على القيام بتعهداته فى المسائل التى تقع ضمن نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد .

***

فى المادة الثالثة : يتعهد جلالة ملك الحجاز بالمحافظة على العلاقات الودية التى وجدت قبل الحرب بين جلالته وبين حاكم عسير وحاكم نجد .

وفى المادة الرابعة : يتعهد صاحب الجلالة الهاشمية بأن تسعى فى تسوية المنازعات بشأن الحدود بين بلاده وبين حاكمى العسير ونجد بمخابرات ودية ويتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يسعى فى المساعدة بتسوية منازعات كهذه عندما يرغب ذلك .

فى المادة الخامسة : يتعهد صاحب الجلالة البريطانيـة بأن يصد بجميع الوسائل السلمية والممكنة أى اعتداء يقع على بلاد جلالته الهاشمية ضمن الحدود التى تقر نهائيا .

المادة السادسة : تنص على تعيينى وكيلا من قبل جلالته الهاشمية فى لندن وعلى تعيين وكيل من قبل جلالته البريطانية فى جده أو أى مدينة ساحلية أخرى ، ويجوز لجلالته أن يعين أيضا قناصل من قبله فى انجلترا وغيرها من المدن الساحلية ٠

وفى المادة السابعة : يتعهد صاحب الجلالة الهاشمية بالترتيبات الصحية والكورنتينات الموضوعة مؤقتا من قبل صاحب الجلالة البريطانية فى خمران ٠

وفى المادة الثامنة : يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن لايتدخل فى التدابير التى يتخذها صاحب الجلالة الهاشمية للاعتناء بالحجاج ويتعهد صاحب الجلالة الهاشمية أن يعضد المساعى التى يبذلها الرعايا البريطانيون المسلمون لمساعدة الحجاج فى الحجاز ٠

المادة التاسعة : تنص على تعيين مبلغ محدود كى يدفعه كل حاج وعلى نشر المبلغ المبين سنويا ٠

***

وتنص العاشرة أيضا على الاعتراف بالصفة الهاشمية التى لرعايا جلالته الهاشمية فى بلاد جلالة البريطانية وكذلك تنص على الاعتراف من قبل جلالته الهاشمية بالصفة البريطانية التى لرعايا جلالته فى بلاد جلالته الهاشمية ٠

المادة ١١ : تنص على تسليم أموال الرعايا البريطانيين ممن يموتون فى بلاد جلالته الهاشمية الى المعتمدين البريطانيين فى تلك البلاد ويصير التصرف بأموال كهذه وفقا للقانون السارى على ظروف كهذه ٠

المادة ١٢ : تنص على حضور قنصل بريطانى فى محاكم جلالته الهاشمية عندما تنظر هذه المحاكم فى قضية يكون فيها أحد الرعايا البريطانيين مدعيا أو مدعى عليه وعلى تأجيل حكم اذا رغب المعتمد البريطانى فى اجراء المخابرات طلبا للعدالة ٠ ولاتسرى نصوص هذه المادة على حالة الرعايا البريطانيين أو الأشخاص الذين يتمتعون بحماية جلالته البريطانية القاطنين فى بلاد جلالته الهاشمية بصورة دائمة ٠

***

المادة ١٣ : تنص على تسليم صاحب الجلالة الهاشـــمية الرعايا البريطانيين الذين يتلقى عليهم القبض من قبل السلطات الهاشمية الى القناصل البريطانيين بشرط أن يعطى هؤلاء ضـــمانا لاحضـارهم عند الاقتضاء وتسرى نصوص هذه المادة على الرعايا المقيمين بصورة دائمـة فى بلاد الحكومة الهاشمية خارج جدة وغيرها من المرافىء التى قد يعين لصاحب الجلالة البريطانية قناصل فيها ٠

المادة ١٤ : تنص على رؤية دعاوى البريطانيين التى لاتمس فيها مصالح رعايا الحكومة الهاشمية من قبل القناصل البريطانيين ٠

المادة ١٥ : تنص على التنازل من قبل جلالته البريطانية عن جميع الامتيازات والاستثناءات خلاف المنصوص عليها فى هذه المعاهدة التى كان يتمتع بها الرعايا البريطانيـــة بمقتضى الامتيـازات بين بريطانيـــا العظمى وتركيا ٠

المادة ١٦ : تنص على اعلام جلالتـــه الهاشمية المعتمد البريطانى عندما يرغب جلالته فى ابعاد أحد الرعايا البريطانيين ٠

المادة ١٧ : تعالج الشروط التى بموجبها يعترف صاحب الجلالة البريطانية بعلم جلالته الهاشمية ٠

المادة ١٨ : تصرح بانه لايجوز لأى الفريقين المتعاقدين الساميين أن يعقد أى معاهدة أو اتفـاق مع فريق ثالث ضد مصالح الفريق المتعاقد السامى الآخر ٠

المادة ١٩ : تنص على أن لاشىء فى هذه المعاهدة يبطل أى تعهد قد تعهـد به أو قد يتعهـد به فى المستقبل فى أحـــد الفريقين المتعاقدين الساميين بمقتضى عهد جمعية الأمم ٠

المادة ٢٠ : تنص على تصديق هذه المعاهدة وأنها نافذة الفعل لمدة سنوات اعتبارا من اليوم الذى توضع فيه موضع العمل ٠

***

هذه هى خلاصة المعاهدة نقلا عن جريدة القبلة ، ومجلة المنار ، وان كانت لم توضع موضع العمل والتنفيذ ، لأن الحسين لم يوقعها من طرفه ، بل طلب تعديل بعض مـوادها ، وزيادة مـواد أخـرى عليهـا ، لم توافق عليها طبعا الجهة الأخرى ٠ وقد نشرتها أغلب صحف العالم ،

وتناولتها بالبحث والتدقيق وكان منها المحبذ لها ، المتفائل من ورائها الخير . والأغلب كان ينتقدها ويرى فيها كل أنواع الشر والقضاء على مستقبل العرب والاسلام . والذى أغرى أولئك المنتقدين بنقدها وتوجيه اللوم للحسين من أجلها ـ وأن جريدة القبلة حين نشرت خلاصتها علقت عليها بأنها وضعت موضع التنفيذ ، ووصفتها بأنها عيد على عيد . ولقد أثارت هذه المعاهدة عاصفة شـديدة فى كثير من الهيئـات والجماعات الاسلامية حتى ورد على الحسين عدة كتب واحتجاجات من مختلف الجهات يقرعون فيها على هذه المعاهدة . ولقد كان لهذه الاحتجاجات أثر كبير ، اذ نكث الحسين عنها ونفض يده منها ، ولم ينفذ ولا مادة منها .

ولكن ماذا كانت أصداء الثورة العربية عند الاتحاديين ـ فى تركيا ـ وفى مصر وسوريا ـ لقد ارتعد زعماء الاتحاديين فرقا وذعرا عندما بلغتهم الثورة العربية فى الحجاز ، وكان جمال باشا أشدهم تألما وتأسفا . اذ أدرك أنه كان مخدوعا وأنه لم يحسن السلوك مع الشريف وأنجاله الذين تمكنوا من النجاه من شره وأول من تنبه الى هذه الحقيقة بصرى باشا محافظ المدينة فراح يدعو الى اغتيـال الحسين وأولاده ، ويقول باتباع سياسة الشدة فى الحجاز ، وقد قال كلمته المأثورة :

« لقد انتصر الذكاء العربى فى هذه المعركة على الذكاء التركى وفاز عليـه » .

* * *

وقد استطاع فخرى باشا أن يقبض على ناصـية الحال فى المدينة فورا ، وتولى بنفسه قيادة الجنود المرابطين فيها ، وشرع بالاسـتعداد لمنازلة العرب الذين بادروه بالقتال بلا هوادة ولا انقطاع ، وأصدر اليه جمال التعليمات بأن يعجل فى قمع الثورة ، كما أصدر أوامره الى بعض الاورطات المقيمة فى دمشق بالسفر الى الحجـاز والانضـمام الى قوات فخرى باشا ، وأرسل على الفور وفدا مؤلفـا من محمـد فوزى العظم وعبد الرحمن اليوسف والشيخ أسعد الشقيرى الى المدينة ليقابل شيوخ القبائل ويقنعهم بالعدول عن العصيان والبقاء على الولاء للدولة ومساعدة جيوشـها .

وقرر الاتحاديون بعد ذلك أن يضربوا العـرب بالعـرب ويمزقوا الأمة العربية تمزيقا ببث الشقاق والبغضاء بين جماعاتها ، فعينوا الشريف على حيدر باشا فى منصب الشراقة بدلا من الشريف حسين وأرسلوه من

بالاستانة الى دمشق على قطار خاص ومنها سافر الى المدينـة المنـورة وقد تقرر أن يتخذها مقرا له وعاصمة لامارته ، فوصل اليها فى أوائل سبتمبر سنة ١٩١٦ وبصحبته شقيقه الشريف جعفر باشا وكان الشريف الجديد قبل تعيينه وكيلا لرئاسة مجلس الأعيـان العثمانى ووزيرا سابقـا للأوقاف ٠

★★★

وكان نبأ الثورة العربية قد نشر فى دمشـق قبل نشره فى مصر بأسبوع وكان بيان الحكومة الدمشقية كما يلى :

« اعتدت بعض العصـابات المؤلفة من ذوى الطمع والفساد ومن بعض العربان الذين صسار استمالتهم بالمال على بعض المخافر المجـاورة للمدينة المنورة بالسلاح وضربوا التلغراف وسـكة الحديد ، فبادرت القوى العسكرية الى التنكيل بهذه العصابات الواقفة بالطريق وتمكنت من دخول المدينة وشرعت فى اصلاح السكة كمـا انشأت دارا للمخابرات اللاسلكية فى المدينة لتجرى المخابرات بواسطتها :

وفى الليلة البارحة زحفت قوانا على العصاة المجتمعين والمتحصنين فى موقع الحسا أول مرحلة من المدينة الى مكة تبعد عن الأولى ثلاث ساعات وتسمى أيضا بين على بجوار المدينة واستولت على المواقع التى كان قد امتنع لها العصاة المذكورون وطردتهم منها بعد تبديد شملهم ٠

★★★

« وقد تبلغنا برقية من محافظ المدينة المنورة تشعر بأن أهل المدينة المنورة سروا سرورا عظيما بما وقع ٠ وهذا نصها :

« لقـد سر أهل البلدة الطيبـة قلبـا وقالبا بمحو القبـائل الباغية والتنكيل بها فى المعركة الشـديدة التى دارت أمس وعادت الراحـة الى ربوعها ، كما هول الحادثة قد أثر تأثيرا عظيما فى العربان المجاورة ، ونبتهل الى الله تعالى بدوام توفيقاتكم » ٠

★★★

« أما فى القاهرة فقد أذاعت شركة روتر فى ٢٢ حزيران برقيـة صادرة من لندن هذا نصها :

« وصلت أنباء موثوق بصحتها أن دولة شريف مكة جاهر باستقلال العرب وخروجهم على الاتراك الذين أوصلوا البلاد بتهاونهم الى أقصى درجات الانحطاط .. » .

***

ونشر قلم المطبوعات في مصر البلاغ الرسمي التالي :

« تأكدت رسميا الأخبار التي أذاعتها شركة روتر بتاريخ ٢٢ يونيو عن قيام عربان الحجاز بقيادة شريف مكة ، وقد زال حكم الأتراك في هذه الولاية وأصبحت مكة وجدة والطايف في قبضة يده ، وسقطت أيضا بلدة الليث بعد أن أسرت حاميتها ، ولا يزال حسن صغير بمكة وآخر بالطايف تقاوم حاميتها ولكن تسليمها ينتظر من ساعة الى أخرى » .

ولم ينشر خبر الثورة رسميا في لندن الا في ٢٨ يوليو ، أى بعد مضى سبعة أسابيع تقريبا على اعلانها . وهذا مضمون البلاغ الرسمي :
« منذ سنين والعرب المعذبون لسوء الحكم التركي ينتظرون اليوم الذي يتمكنون فيه من استرجاع حريتهم السابقة وقد قاموا في الماضي بثورات عديدة ضد الحكم التركي في البلاد العربية .

« وقد أدى سوء تصرف الحكومة الحالية في الاستانة وخضوعها التام لسلطة الألمان الى دخول تركيا مضطرة في حرب مشئومة أوصلت الأحوال فيها الى حد النهاية فرأى شريف مكة وغيره من الزعماء في البلاد العربية أن الأوان قد آن لخلع النير التركي والمناداة باستقلالهم .

***

« وكانت بريطانيا العظمى تعطف دائما على العرب ولكن صداقتها التقليدية لتركيا اضطرتها في الماضي الى البقاء على الحياد .

أما الآن وقد انضمت تركيا الى صف الدول الوسطى (ألمانيا والنمسا) فقد أصبحت بريطانيا العظمى حرة في اظهار عطفها على العرب الذين انخرطوا في عداد الحلفاء ضد العدو المشترك .

« على أن بريطانيا العظمى ستبقى محافظة على سياستها السابقة في الابتعاد عن أية مداخلة في الشؤون الدينية وعلى بذل غاية جهدها في ابقاء الأماكن المقدسة أمينة من كل طارئ خارجي .

« ومن القواعد الجوهرية في سياسة انجلترا العظمى التى لا تقبل التغيير والتبديل أن تبقى هذه الأماكن المقدسة فى يد حكومة اسـلامية منسـتقلة ٠

ولا يخفى أن أحوال الحرب الحاضرة تلقى العقبات الكثيرة والأخطار فى سبيل الذين يرغبون فى القيام بفريضة الحج ولكن العمل الذى قام به شريف مكة يجعل الأمل كبيرا فى اتخـاذ التدابير اللازمة التى تمـكن الحجاج فى المستقبل من زيارة الأراضى المقدسة بسلام واطمئنان » ٠

***

وفى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٦ ألقى اللورد كرومر فى مجلس اللوردات البريطانى خطابا عن الثورة ، قال فيه :

« ان الانباء التى أذاعتها الصحف عما حدث فى جزيرة العرب عظيمة الشأن جدا ومن رأيى أنها داعية الى الارتياح أيضا ، ومما يزيدها وقعا فى النفوس انها حدثت على حين غرة وبلا انتظار ٠

أما كونها خطيرة الشأن فلأن كل ما يختص بالمواطن المقدسة يثير اهتمام العالم الاسلامى كله تقريبا ٠ وأما كونها داعية الى الارتياح فلأن فى العمل الذى قام به الشريف وسائر المشتركين معه دليـلا على ثقتهم التامة فى الاعلان الذى أصابت حكومة جلالة الملك فى نشره فى مستهل الحرب ، وهو أنها لاتنوى التدخل فى شـئون ادارة أهل الحجـاز واستقلالهم ٠

« قلت ان هذه الحركة لم تكن منتظرة ، ومع أن جزيرة العرب كانت فى ثورة مزمنة فى السنين العديدة الماضية فلو سئل المطلع على شئون الشرق لنفى احتمال حدوث ثورة فيها وقد كانت ظواهر الحال تدل على أن الفوز الذى أحرزه الترك العثمانيون فى كوت العمـارة يكفى لخنق فكرة الثورة فى بلاد العرب قبل اكتمالها ولكن الحقيقة جاءت مناقضة لها فكان لها من ذلك عبرة جديدة تضاف الى مئات العبر التى تقدمتها وهى انه يستحيل على أوروبى أن يتنبأ بما سيقع فى الشرق اذ جل مانعرفه عنه هو أن يتوقع فيه حدوث ماليس فى الحسبان » ٠

فأجـاب المركيز كرو على خطبـة كرومر باسـم الحـكومة البريطانية بقوله :

« لا يمكنني أن أزيد على مانشرته الصحف عن سير الحالة فى جزيرة العرب شيئا يذكر سوى ان حكومة جلالة الملك لم تؤخذ باخبار بلاد العرب على غرة ، فقد كانت خطتها من البداية الى النهاية المحافظة على الأراضى المقدسة فى الحجاز والعراق العربى تحت سلطة اسلامية ، على أنه لما ظهر أن الدولة العثمانية أخذت تفقد منزلتها كالدولة الممثلة للدين الاسلامى والعالم الاسلامى الحقيقى بفعل النفوذ الأجنبى والسيطرة الألمانية . انضح أن حدوث ثورة كالثـورة التى جرت الآن لم يكن بعيـد الاحتمال • فان الحكومة العثمانية أخذت تضيع حقها كممثلة للاسلام منذ مدة طويلة ، ولذلك لم يبق مجال للدهشة والاستغراب مما قام به قوم يعدون أنفسهم الممثلين الحقيقيين للدين الاسلامى • ولايسع أحـد أن يتمالك عن اظهار العطف والميل الى أولئك الذين يفرغون قصارى جهـــدهم فى نزع النير الأجنبى عنهم •

***

« أما العامل الآخر الذى يحملنا على العطف على المساعى التى يبذلها العرب لتحرير أنفسهم من ربقة السيادة التركية فهو أن هذه الحرب أثرت فى موسم الحج تأثيرا عظيما أوجبته الضرورة الحربية على كره منا • وقد كان الوف والوف من رعايا جلالة الملك يحجون من الهند وما وراءها شرقا الى الأماكن المقدسة • ويحتمل أن ما جرى الآن يسهل اعادة موسم الحج الذى قضت الضرورة بالتدخل فى شـأنه بسبب حصر الموانى العثمانية على سواحل جزيرة العرب وينشطه تنشيطا عظيما •

***

« وعنـد الحكومة ما يؤيد صـحة الأخبـار عن حالة سوريا المفتتة للأكباد ، فقد أطلق الأتراك فى ظل جمال باشا عقال الجور فيها ومدوا يـد الشدة والقسوة الى أعيان السوريين الذين وقعت عليهـم الشبهة عند الحكومة الاتحادية ، وقد أعدم عشرون على الأقل من أصحاب المكانة والوجاهة ونفى كثيرون سواهم أو سجنوا • وفوق ذلك ان فى سوريا الآن تلك الحالة المرعبة التى أشـار اليها اللورد بريس ، فقد ضرب الترك نطاقا محكما على لبنــان وأخذوا يجوعون أهله بهذا الحصـار ويحرمونهم من حاجات المعيشة •

***

وقد خاطبت الحكومة الأمريكية الحكومة العثمانية ، أو هى تخاطبها الآن ، مشيرة الى مافى هذا العمل من المخالفة للعرف المألوف الذى تسير عليه الحكومة المتمدنة ولا بدع اذا قلقنا أشد القلق لسوء المصير الذى سيحيق بسكان سوريا بعد الذى رسخ فى الأذهان مما نزل بارمينيا . والفرنسيون يهتمون بمصير المسلمين السوريين أيضا ومن البديهى ان مستقبل سوريا يشغل بال الحكومة جدا ، ورجاؤها الوحيد أن الفوز الذى يمكن احرازه فى أنحاء العالم المختلفة من الوجهة الحربية قد يساعد على حل هذا المشكل » .

أما الأوساط الفرنسية فقد قابلت اعلان الثورة بالارتياح وبادرت الحكومة الفرنسية الى تأليف وفد من مسلمى أفريقيا الشمالية برح مرسيليا الى جدة فى ٦ سبتمبر سنة ١٩١٦ على رأس عدد من الحجاج المسلمين من تونس والجزائر وقد حمل رئيس الوفد الى قدور بن غبريط كتابا رقيقا من المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسية الى الشريف الحسين مع مليون وربع مليون من الفرنكات سلمهما الكولونيل بريمون مندوب فرنسا فى الحجاز الى الشريف محسن بن أحمد منصور فى جده مع هدايا خاصة الى الملك وعلى أثر وصول الوفد الى مكة بعث الحسين الى المسيو بوانكاره البرقية التالية :

***

« ابشركم بفرح لا مزيد عليه بوصول الوفد الاسلامى الفرنسى المؤلف من ملكيين وعسكريين ، فقد استقبله الاهلون استقبالا فخما يليق بمقامه . فأهلا ومرحبا به . وانى لشاكر من صميم الفؤاد للذين أوفدوه الينا ونعرب للأمة الفرنسية عن اعجابنا بعملها فى هذا الوقت الذى تدافع به هى وحلفائها عن المدنية وحقوق الأمم . وما خلا ذلك فان التاريخ لأكبر شاهد على العواطف الكريمة التى أظهرتها الأمة الفرنسية للاسلام والمسلمين . لهذا أتمنى من صميم فؤادى دوام هذه العواطف ، وأعرب لحضرتكم عن أخلص عواطفى لشخصكم الكريم وللأمة الفرنسية » .

***

فأجابه المسيو بوانكاره بهذه البرقية :

(أشكر لعظمتكم تفضلكم بالذات باخبارى عن وصول الوفد الذى انتدبته لحضرتكم حكومة الجمهورية الفرنسية ، ولم يكن عندى أقل شك

بالمقابلة الودية التى اقمتموها له ، وليكن لعظمتكم تمام الثقة بأن الحكومة الفرنسية تتمنى بمنتهى الاخلاص النصر المبين لجيوشكم • وانى أشاطرها هذه العواطف وأتمنى لعظمتكم الفوز) •

ولما سقطت الطائف بيد الجيش العربى كتبت جريدة الطان لسان حال الحكومة الفرنسية ما يأتى :

« ان الانتصار الجديد الذى ناله جنود الشريف قد وسع الدائرة التى قامت على أساس ثورة مكة لاعادة استقلال العرب ، ولم يعترف أمراء مكة بسلطة الدولة العثمانية الا لرغبتهم فى تعزيز شأن الاسلام ، ولذلك أبوا اليوم ان يخضعوا لنفوذ حكومة تركيا بيعت للأجنبى يديرها ملحدون وزنادقة ، ولما وقف الشريف الأكبر ـ وهو حفيد النبى ـ على مجرى السياسة فى العالم ورأى ضغط اليد الألمانية على الاستانة وازدياد هذا الضغط يوما عن يوم ، أخذ يحاذر المطامع الألمانية التى اكتشفها تحت ستار مواثيق الامبراطور غليوم ، فنشأ عنها ذلك العهد الجديد الذى حمل امبراطور ألمانيا شيخ اسلام الاستانة عليه •

« ان الحركة العربية التى نشأت فى مكة ذات شأن رغم انها لاتزال محلية للآن • والفوز الذى يؤيد هذه الحركة التى قام بها شعب مظلوم ، ينتزع من يد سلطان الاستانة المقام الذى أكسبه اياه بسط نفوذه على أرض الحجاز فالسلطنة العثمانية التى كسرت فى أرمينيا ، والتى ستقطع صلاتها غدا بأوروبا ، أخذت منذ اليوم تنهار فى الجهة الجنوبية من بلادها ، فالثورة تتمخض الآن فى صدور العرب الأباة بعد أن لبثت منذ ربع قرن ، أى منذ ثورة الوهابيين ، تظهر للوجود الفينة بعد الفينة فى ثورات اليمن المتوالية •

***

« لقد استردت أرض الحجاز المقدسة استقلالها ، وتبادل الأمير حسين الشريف الأكبر الرسائل البرقية مع رئيس الجمهورية وهى بمثابة اعتراف بهذه الحكومة الاسلامية الناشئة صديقة فرنسا وقد شكر الشريف رئيس الحكومة على ارسال البعثة الاسلامية الملكية العسكرية التى ذهبت لتحيته والاعراب له عن صداقة فرنسا للعالم الاسلامى واخلاصها له • ويمكن للمسلمين اليوم أن يزوروا مكة بحرية تامة بعد أن ارتفع عنها نير الاتحاديين • ويسر فرنسا أن تعرب عن صداقتها لهم بمساعدتها لهم على الحج وأن تحيي الرئيس الديني والمدني الذى أعاد الى

قلب بلاد العرب حكومة عربية مستقلة لا يزعجها أى تدخل أجنبى ، ولا يظلها أى سلطة أجنبية » .

***

وألقى السى قدور بن غبريط رئيس الوفد المسلم الفرنسى خطابا طويلا بين يدى الحسين فى مكة ، قال فيه : « لقد شرفنا رئيس جمهوريتنا بالمثول بين يديكم الكريمتين مع بقية الوفد لتبليغ مراسيم التهانى الصادرة من صميم الافئدة الدالة على خلوص المودة القلبية فى استرجاع حقوق أسلافكم الكريمة اليكم فى منابعها الأصلية وان نهضتكم المشكورة واعلانكم استقلالكم قد أدخلا سرورا كبيرا على حكومة فرنسا حيث رأت فى ذلك القضاء على المظالم الفادحة التى ارتكبها ذوو الأغراض من حزب فتيان الأتراك الذين استحوذ عليهم حزب الشيطان وغرهم حتى نبذوا الايمان وراء ظهورهم ونظروا للعرب أينما كانوا بعين البغض وأحلوا محو اللغة العربية ونفى أهلها من كل أرض » .

***

وقال : « ولقد أثرت هذه النهضة القومية فى نفوس الملايين من المسلمين سكان أفريقيا ، فاستبشروا وانشرحوا بنهضتكم القومية بعدما كانوا فى خوف وكدر على مصير هذه الديار اذ تحققوا تحرير القطر الحجازى بوجودكم من كل تدخل أجنبى » .

ولما عاد السيد قدور الى فرنسا حمل الى المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسية كتابا من الشريف بخط يده شكره فيه على كتابه اليه ، كما أنه أهدى اليه بعض الجياد العربية .

***

أما الألمان فقد تلقوا نبأ الثورة العربية بقلق لايقل عن قلق الأتراك ، يؤيد هذا ما نشرته الصحف اللندنية يومئذ ، وهو ان حكومة برلين حظرت على جرائد بلادها نشر أى خبر من أخبار الثورة الحجازية كما كلفت السفير العثمانى فى عاصمتها أن يطلب الى حكومته موافاتها بمعلومات وافية عن الثورة وعواملها وأسبابها .

وعلى أثر اعلان الثورة زار القنصل الالمانى والقنصل النمسوى فى دمشق جمال باشا وتحدثا اليه بشأنها فقال لهما :

« هذه حادثة موضعية بسيطة لاتلبث أن تقمع » .

ثم قال لهما أيضـا : انه أصدر أوامره الى قواده في الحجاز بأن يعجلوا في القضاء عليها ، وأنه يأمل أن يزف اليهما بعد بضعة أيام بشرى زوالها والقبض على الشريف حسين فيأتى به الى دمشـــق ويشنقه على أبوابها ـ كذا !! ـ فانصرفا من عنده وهما مطمئنان الى تصريحاته لاعتقادهما أن قائدا مسؤولا مثله لايلقى الكلام على عواهنه وكتبا بما سمعاه منه الى حكومتيهما ٠

***

ومن الراهن ان تأثير الثورة المعنوى على الألمان فاق تأثيرها المادى ، فقد صرح أحد قوادهم العسكريين فى دمشق بقوله :

« نحن لم نستتمل الأتراك ولا بذلنا ما بذلناه ولا تحملنا ما تحملناه الا لأن الخلافة الاسلامية فيهم ولانهم موضع احترام العالم الاســلامى بسببها ، أما وقد خسروها وأضاعوا هذه المزية بانتقاض الشريف عليهم ، وهو أكبر زعيم مسلم وسليل أعظم بيت فى الاسلام فالألمان سيعيدون النظر فى موقفهم الجديد ، ويسعون للخلاص من الأتراك » ٠

وربما كانت الصورة ، التى ذكرها الأستاذ حسين محمد نصيف ، عن الثورة من أصدق الصور ، لكاتبها من الكتاب الحجازيين الأصلاء وهو ابن واحد من زعماء الحجاز فى ذلك الوقت ٠٠ وقد جاء فى تلك الصورة :

***

كان يوم الثورة يوافق يوم السبت ٩ شعبان ســـنة ١٣٣٤ فقبل الثورة بيوم أى يوم الجمعة بعد الصلاة زار الحسين الدور الرســمية ولاطفهم وحثهم على المواظبة فى أشغالهم وأظهر لهم مودته للحـكومة ٠ حتى اذا سمعوا أنه يريد الثورة لايصـدقون وما كادت تغرب شـمس يوم السبت ويتولى ثلثا الليل منه (أى الساعة التاسعة والدقيقة اثنا عشر ليلا قبل الفجر) حتى بدأ الشريف الحسين بتنفيذ برنامجه وأطلق بنفسه عيارا ناريا كان علامة القيام ، فقامت على أثـره البـدو وبعض الأهالى يطلقون النار مع الجهات الأربع فأتخذ الأتراك التدابير وثبتوا فى مراكزهم فلم ينجح الشريف فى أسرهم أو الاستيلاء على شىء منهم ٠ وأخيرا بعد تسليم جده كما سيلى أرسلت له الحـكومة الانجليزية جنـودا مصرية وساعدته فبعد أخذ ورد سلمت آخر نقطة منها وهى قلعة اجياد ٠

***

وقد اتفق الحسين مع الحكومة الانجليزية على ضرب جـدة يـوم السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ فضربت بوارج الانجليز جدة الساعة الثالثة ليلا من اليوم المذكور وألقت قنابل مدافعها على الثكنة العسكرية وبعض مراكز الجيش التركى بارشاد رسـل الشريف ، وقد دخلت قنـابل البوارج البلدة ٠ وكان بجدة من جند الأتراك ما يقارب الخمسمائة وقد استمر الحصار من البر والبحر ٠ برا من جند الشريف تحت قيـادة الشريف محسن بن منصور وبحرا بالبـوارج الانجليزية ومدافعها وكان يظن أن مسألة جدة لاتقوى على الحصار بل تسلم بعد يومين فلما طالت مدة الحصار خابر الانجليز فى ارسال طيارات فأرسلت له على ظهر احدى البوارج فطارت منها وقذفت على جدة ومراكز الجيش قنابلها ومناشيرها تنصحهم وتحـذرهم فذعر الأهالى وضجت على أثر المنشـور الذى ألقى فعند ذلك خابر الشريف أعيان البلاد وقال لهم ان الانجليز يريدون ضرب جدة رأسا وأنه ليس له دخل أو مسئولية اذا لم يسلموا له فذهب بعضهم الى ولاة الأمر من الأتراك وأخبروهم أنهم يخشون على الأهالى من الخطر والضرر ، فقبلوا ذلك ثم سلموا جده فى ليلة ١٥ شعبان سـنة ١٣٣٤ فدخل جيش الحسين جدة على رأسه الشريف محسن بن منصور ونزلت بحارة البوارج الى جدة تروح وتغدو آمنـة مطمئنة ٠ أما جيش الحسين فقد هاج وماج فى جدة بعد سقوطها فنهب كل ما يحمله الجندى التركى من ألبسة خاصة وسرق حقائب الأسرى ثم بعد أيام قلائل هجم على دار أحد أعيان جده الشيخ أحمد الهزاز ونهب كل مالديه حتى جعل الدار قاعا صفصفا وقد سبق أن أصيب الشيخ أحمد الهزاز برصاصة فى يده اليمنى وذلك فى زمن الحكم التركى يقولون انهـا بايعـاز من الحسين لعداء بينهما ٠

ولم تسلم مكة بسرعة ، عجز الشريف عن الاسـتيلاء على المواقع التركية ولكنه انتظر حتى سلمت جدة فطلب من الانجليز ارسال جنود مصرية فأرسلها له فوصلت مكة ٠

وتوالى الضرب من الطرفين وكان القصر الهـاشمى مرمى قذائف وقنابل الأتراك ، وقد أصيبت الكعبة ببعض القذائف لوقوعها أمام موقع من المواقع الهاشمية ثم سقطت آخر المواقع وهى ثكنة أجياد فى ٩ رمضان سنة ١٣٣٤ الساعة الرابعة صباحا وهناك بعد سقوط القلعة هجم البـدو وبعض من الأهالى على القلعة وقتلوا كل ما فى القلعة من جند وذهبوا بعد ذلك الى كل محل تركى سواء كان عسكريا أو ملكيا ونهبوا ما فيه من أثاث ورياش وأموال ٠

***

وكان الأمير عبد الله بن الحسين يقيم فى الطائف قبيل الحركة بأيام فأتت اليه التعاليم من والده أن يخرج ويقيم فى جبالها فخرج قبل الحركة بثلاثة أيام ثم لما ثارت مكة ثار هو فى ذلك اليوم الذى ثارت فيه أى ٩ شعبان وزحف الى الطائف ومعه جند من البدو ومن حضر اليه من والده من الجنود المصرية المرسلة معونة من الانجليز فحاصرها مضيقا عليها الحصار • ولكن كان بالطائف عدد من الجنود التركية والضباط غير هين فدام الحال بين الاقدام والاحجام الى أن نفدت الأرزاق من يد الاتراك فسلمت بعد دفاع أربعة شهور من ابتداء ٩ شعبان الى يوم الاثنين ٢٦ ذو القعدة سنة ١٣٣٤ وأرسلت الى جدة وكان معها والى الحجاز غالب باشا ثم صعدوا على ظهر احدى البوارج لتنقلهم الى معتقلهم •

***

وكان الأمير على بن الحسين قبل الثورة فى المدينة المنورة • وكان يمهد لها بالتدخل فى الشئون الادارية والأعمال التى لا علاقة له بها ويضايق بذلك بصرى باشا حاكمها وقد شكى الأخير من تصرف الأمير على الى جمال باشا وطلب منه أن ينبه على الأمير على بالكف عن التدخل فى هذه الأمور ففعل جمال باشا ذلك بواسطة والده وأخيه فيصل حين كان الأخير فى سوريا ، ولما أراد الحسين أن ينفذ خطته فى الثورة أرسل لابنه فيصل فى سوريا يخبره بما سيحصل ورسم له خطة الانسحاب من سوريا فاستأذن الأمير فيصل جمال بالخروج من سوريا والذهاب الى المدينة ليأتى بالمتطوعين من الحجاز الى سوريا فاذن له وحين وصل فيصل الى المدينة اجتمع بأخيه على واتفقا على مغادرة المدينة ففعلا وخرجا منها ليضموا حولهم القبائل وليستعدوا لحصارها وكان جمال باشا قد لحظ أن بوادر النهضة قرب وقتها فأرسل فخرى باشا الى المدينة ليكون قائدا عسكريا ويبقى بصرى باشا حاكما اداريا فقط • وعندما وصل فخرى باشا للمدينة أرسل الأمير على اليه كتابا نصه (بناء على الأوامر الصادرة من أبى سيقف نقل المتطوعين الى فلسطين ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا وانى آسف لاضطرارى الى الرحيل بدون أن أودعك فالمرجو قبول عذرى) وفى الحال تحول بمن معه من مكانهم الى جهة غير معلومة لفخرى باشا فلما وصل الكتاب لفخرى باشا أسرع الى مكان نزل الشريف على وأخوه ومن معهما فلم يجد أحدا ، ووضح له حينئذ جيدا ما يجول بنفس الحسين وأولاده من الثورة وأنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى لما يرون من سنوح الفرصة بالحرب القائمة • اتضح لفخرى باشا جيدا هذا وعلم أن الحسين وأولاده لا بد قائمون فى الحجاز بالثورة فأخذ لذلك عدته وحصنها بأقصى ما استطاع وجلب اليها

من الأقوات والأرزاق ما أمكن ٠ وما هي الا عشية أو ضحاها حتى اشتعلت نار الفتنة وقام الحسين بنهضته في مكة وجدة والطائف فقام أبناه علي وفيصل بمهاجمة المدينة فوجدوا فخري باشا قد استعد للقاء استعدادا مهما ووقعت بينهم مواقع ارتد فيها جيش الشريف مرارا عدة حتى أن الجيش التركي في احدى وقائعه ما زال يطاردهم حتى أوصلهم الى ينبع النخل ولولا قنابل مدافع الدراعات الانجليزية التي كانت راسية في هذا الميناء لقضى عليه ٠

★★★

كانت المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام قبل الحرب العامة خير بلاد الحجاز وأكثرها عناية والتفاتا من الدولة العثمانية وملوكها وأفرادها ، ومن علامات هذا الالتفات والاعتناء وصلها بالشام بالسكة الحديد الحجازية ، التي أنشأتها الدولة من مالها ومن الأموال التي جمعت من المسلمين الذين سارعوا الى ذلك عند أول دعوة وظهرت عاطفتهم نحو المدينة بما كان من سخائهم وبذل كل على قدر طاقته ٠

★★★

ولقد كان لهذه السكة الحديدية شأن كبير جدا في اتساع عمران المدينة المنورة بما سهلت من أسباب الرفاهة ورغد العيش لأهلها بما كانت تجلب من الشام وغيره من مواد الحياة وما كانت تنقل من زوار كثيرين جدا لمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكثر المهاجرون اليها من الحجاز والأقطار الأخرى حتى أصبح عدد سكانها كبيرا جدا ٠ والذي ساعد على ذلك قابلية المدينة بجوها المعتدل ومناخها الذي يخالف مكة كل المخالفة ، وكثرة مياهها العذبة ولقد كان من عناية الاتراك بالمدينة أن فكروا أخيرا في تأسيس كلية علمية اسلامية بها لشباب الحجاز وغيرهم على أساس فكرة الوحدة الاسلامية ، التي كان يفكر فيها وقتئذ ويعمل لها الشيخ عبد العزيز جاويش والأمير شكيب أرسلان وغيرهما ولذا فانهم ذهبوا الى المدينة موفدين من قبل جمعية الاتحاد والترقي لارتياد المكان اللائق لبناء هذه الكلية الاسلامية ، وفعلا وجد المكان وشرع في البناء حتى تم منه جزء بسيط حالت الحرب دون اكمال هذا البناء وتنفيذ هذه الفكرة التي كانت المدينة والحجاز بلا شك ستنتفع بها انتفاعا عظيما ٠

★★★

من هذا كله يتبين أن مركز المدينة المادي والأدبي يخالف بكثير جدا مراكز البلاد الحجازية الأخرى ، بل لم يكن هناك نسبة تقريبا ،

ويتبين أيضا السر في طول مدة الحرب في المدينة بين الاتراك والاشراف فانها دامت من أول النهضة في ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ الى اليوم الثامن من ربيع الثانى سنة ١٣٣٤ وقد استطاعت حامية المدينة بقيادة فخرى باشا أن تصابر جيش الشريف كل هذه الثلاث السنين بدون كلل ولا ملل ، مع أن جيش الشريف كان به الجنود المصرية والمغربية والضباط والانجليز والفرنسيون وغيرهم عدد غير قليل ، وكان مجهزا بأقصى مايمكن من مدافع الحصار ومعدات الحرب العتيدة ، ومع أن جيش الشريف وبدوه كانوا قطعوا خط السكة الحديد ، حتى انقطع ورود الارزاق والأقوات والسلاح والمدد عن المدينة بتاتا ، ولذا فان فخرى باشا حين رأى ذلك وأن الارزاق قد انقطع موردها ، وأيقن باصرار جيش الحسين بمعاونة الحلفاء على فتح المدينة والاستيلاء عليها خصوصا وقد علم بما حل بالاتراك في مكة والطائف وجدة ، أصر هو أيضا كل الاصرار على الدفاع الى آخر لحظة من حياتهم ولكن رأى خطر المجاعة المهلكة محدقا بالمدينة ومن فيها من جيش وأهال فأخذ يخفف وطأة المجاعة بترحيل الأهالى منها وكان ذلك قبل أن يقطع الخط الحديدى ، فكان في كل يوم عدد عديد يذهب بهم القطار الى الشام مرة ، ومرة يذهبون الى العراق ومرة الى غير ذلك ، ولم يكن الجيش الهاشمى يتعرض لهم بل كان يترك القطار يذهب حيث يشاء اذا كان من به من أهالى الحجاز الراحلين عن المدينة ، وبعضهم ذهب الى مكة وغيرها من بلاد الحجاز وقراه ، حتى تشتت أهل المدينة أى شتات ،

***

وكان هذا التشتيت أمرا لا مفر منه أمام المجاعة المريعة التى وقعت بوادرها في المدينة أثر الحصار ، فان الازواد والأقوات كانت قد فرغت من بيوت الأهالى ومن الأسواق وكان يوزع عليهم فخرى باشا كل يوم شيئا قليلا ، وقد مات بعض أهل المدينة جوعا ، فلولا هذا الترحيل لكانت المصيبة أخطر وأعظم . ومع شدة الحصار وتضييقه فانه ما كان يمنع فخرى باشا من تعمير ما كان يخرب من المنازل بقنابل الجيش الهاشمى التى كان يرميها من حين الى آخر على المدينة . ويعمر دورا ومنازل أخرى في أثناء الحصار الى أن نفذ القضاء . فسلمت المدينة بعد أن عقدت الهدنة بين الحلفاء بثلاثة أشهر وبعد حرب دامت ثلاث سنين . كتب فيها لفخرى باشا صحيفة من الشجاعة والثبات لا تمحى مدى الأيام .

أما السواحل الحجازية فقد سلم أغلبها أو كلها على أثر سقوط جدة . بعضها سلم والبعض الآخر بعد حرب بسيطة .

***

ومما هو جدير بالذكر أنه قد اشتركت الطيارات فى حرب المدينة وأكثر السواحل وذلك أن تركيا قد بعثت طيارات قوادها ألمان ونمساويون • فقابلهم الشريف الحسين بمثل عملهم واستمد الحلفاء فأمدوه بطيارات بقيادة ضباط انجليز • وقد تعدى الألمان والنمساويون والانجليز حدود الحرم • وخالف بذلك قواد الاتراك الذين كانوا السبب نصوص الشرع الاسلامى الذى يحظر على غير المسلم مجاوزة هذه الحدود •

★★★

لما خرج على وفيصل من المدينة وترك فيصل أخاه عليا لمحاصرة المدينة وذهب لينضم لجيش الحلفاء الذى كان يحارب فى سوريا فكان فيصل بجيش من العرب والمصريين والمغربيين وغيرهم يطوق الجيش التركى من جهة (شرق الأردن) والحلفاء يشاغلونه من جهة قنال السويس وفلسطين وهناك أبدى الجيش التركى بسالة وشجاعة فى رد هذه الجيوش المتضافرة من أجناس شتى والتى تحيط به من جميع جهاته تقريبا وضربهم ضربات أوقفتهم عند حدهم مرات عديدة • وحملت الحلفاء خسائر فادحة وأخيرا بعد حرب وكفاح دخل الشريف فيصل دمشق مع جيش الحلفاء فاقيمت المهرجانات ومعالم المسيرات بقدومه وذلك فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ ودخلها فى ٢٧ منه •

★★★

لما دخل الأمير فيصل الى دمشق يوم ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ وهدأت الخواطر بدأت الأمة السورية تفكر فى مصلحة وطنها وبلادها وذلك لا يكون الا بالاستقلال التام والحرية المطلقة • فبدأت تعمل للوصول الى غرضها وعلى رأسها الأمير فيصل يطرقون الأبواب ويواصلون السعى مع الساسة من رجال الحلفاء الذين كان لهم الشأن فى ادارة سياسة العالم بعد ظفرهم فى الحرب العامة فمن باريس الى لندن ومن لندن الى سوريا مرات عديدة • ولكن تكاثر الأحزاب وتعدد المشارب أوقعها فى الشرك وعاقها عن الوصول الى أمنيتها • حزب يطلب الاستقلال تحت الحماية • وحزب يطلب الاستقلال الناجز بدون شرط ولا قيد • وحزب يطلب احتلال فرنسا لسوريا بقيت سوريا هائجة والفوضى السياسية ضاربة أطنابها عليها واختلاف المشارب عقبة كئود فى سبيل آمال عقلاء السوريين وأمنيتهم الوحيدة •

ولما رأت بعض الأحزاب تلاعب السياسة الفرنسية أعلنت تتويج فيصل ملكا دستوريا عليها فى ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ فغاظ ذلك

السياسة الفرنسية وأخذوا يكيدون للملك فيصل والسوريين ٠ ويستعينون على سياستهم بذوى الأغراض والنزعات الفاسدة وممالأة انجلترا لها حتى استفحل أمرها وأحرجت مركز الملك فيصل ، ففى ٦ من ذى القعدة سنة ١٣٣٨ أبلغت فرنسا فيصلا شروطا مجحفة ، وضربت له موعدا ضيقا لاحراجه وارغامه ليعترف بها فوقع فى الارتباك والحيرة لكثرة الآراء حول الشروط ولغوغاء الاحزاب نحوها وأخيرا بعد أن انتهت مدة الشروط أو كادت أخطرته فرنسا بالخروج من سوريا فى مدى ٤٨ ساعة فبارحها والحزن يكاد يزهق نفسه لانهدام صروح الآمال التى كان يحلم بها من ملك عريض وأبهة وعظمة فأحتلت فرنسا سوريا بعد مبارحته لها وحصول حوادث يشيب لهولها الولدان ولا ينسى اخواننا السوريون أثرها على الدهور والأيام ٠

***

وهناك روايتان جديدتان عن الثورة ٠٠ وجاء فى أولاهما :

غادر الاميران على وفيصل والعربان المتطوعون معسكر « سيدنا حمزة » فى صباح أول يونيو سنة ١٩١٦ وكان ذلك أول نذير أنذر به الترك بانتقاض العرب عليهم ٠

***

وتوجه الاخوان بعد براحهما المعسكر الى الخانق سالكين الطريق الشرقى ، ثم رجعا فى الصباح التالى الى « بيار على » الواقعة الى الغرب الجنوبى من المدينة فضربا خيامهما فيها واتصلا بالقبائل وأخذا يجمعان القوى والاعوان ٠ ومن المعلوم أن الأمير عليا انشأ أثناء اقامته فى المدينة المنورة صلات وثيقة مع شيوخ حرب وجهينه وبلى وبنى سالم ومسروح ، وأخذ عليهم العهود بأن ينضموا الى الثورة ويقاتلوا مع الشريف ، وهذا هو السر فى شكاوى الترك منه والحاحهم على والده باستدعائه ، اذا لم يكن خافيا عليهم ما كان يفعله ٠

وهجم على وفيصل فى ٨ يونيو بستة آلاف مقاتل على محطة المحيط واشتبك رجالهما مع حاميتها فكان هذا الاصطدام أول معركة بين العرب والترك ٠

***

واستأنف الأميران الهجوم فى الصباح التالى فأغارا على « الحسا » وخرج للقائهما فخرى باشا على رأس قوة تركية كبيرة ، وجرت موقعة بين الفريقين أسفرت عن انهزام العرب ٠

وبعد الانهزام افترق الاخوان وتولى فيصل قيادة قسم من القبائل وسلك بها الطريق الغربي أي أنه اختص بالعمل على طريق المدينة ــ ينبع، وتولى علي قيادة القسم الآخر وتوجه به سالكا الطريق الشرقي أي أنــه اختص بالعمل عن طريق مكة ــ المدينة ٠

★★★

وهكذا ابتدأت المعارك حول المدينة بين العرب والاتراك قبل اعلان الثورة بصورة رسمية ٠ أما في منطقة الطايف التي اختص بالعمل فيهــا الأمير عبد الله ، فقد بدأ القتال في مساء يوم الجمعــــة ٩ يوليو (٨ شعبان) ، وكان الامير قد استعد له سرا من قبل وعقد المواثيق مع قبائل عتيبة وهذيل وبنى الحارث وسبيع وثقيف وذلك أنه بعد أن تم الاتفاق على اعلان الثورة ، برح مكة بحجة أنه ذاهب لتأديب قبيلة « البقـــوم » المتمردة ، وبلغ الطايف في ٥ شعبان وكان يصطاف فيها غالب باشا والى الحجاز وقائده العسكري العام ، وأحمد بك قائد الفرقة العسكرية ، وأكثر ضباط هذه الفرقة مع عدد من الجند لا يقل عن ٣٥٠٠ جندى ٠

★★★

وأحس الاتراك في الطايف بما يدبره الامير عبد الله في طي الخفاء وأيقنوا أن القضية ليست تأديب البقوم ، وطلب القائد أحمد بك الى الوالى غالب باشا أن يصدر أوامره بالقبض على الأمير خوفا من نتائج حركته ، فرفض ذلك قائلا : « ان القبض عليه يثير القوم علينا ونحن بغنى عن ذلك » ٠

وبقى القواد الترك مترددين حتى يوم ٨ شعبان ، ففى ذلك اليوم أذاع الأمير أنه سينصرف بعد صلاة الجمعة الى تأديب البقوم وكانت العادة المتبعة أن يأتى لتوديع الوالى قبل رحيله ، فاختلف رجال حاشيته حول هذا الأمر ، اذ كانوا لا يجهلون حالة الترك النفسية وما بين رؤسائهــم من اختلاف ، فقال فريق منهم بأن لا يذهب الأمير لوداع الوالى خوفا من اعتقاله فتفسد الخطة المبيتة ، وقال فريق آخر بأن ذهاب الأمــير يبعث الاطمئنان في نفوس الاتراك فتهدأ ثائرتهم ٠

★★★

وبعد أخذ ورد قرر الامير أن يذهب ويودع الــوالى مهما نتج عن ذلك ٠ فقصد الى مقره ، وكان عليه أن يخترق الثكنة الحربية لبلوغه ٠ وكان الضباط الاتراك مجتمعين فيها فدهشوا لما شاهدوا الأمير داخــلا

عليهم وحده وحيوه التحية العسكرية ولم يتعرضوا له فتابع طريقه الى مكتب الوالى فاستقبله هذا بالترحاب وأبدى ارتياحه لزيارته . وابلغــه الأمير أنه ذاهب بعد الظهر للقيام بمهمته ، فتمنى له النجاح ونهض لوداعه فتعانقا وبكى الوالى وكان المشهد مؤثرا ! ..

وهكذا رجع الأمير الى مركزه ســالما ، وترك الطائف فى الســاعة الثانية بعد الظهر متجها برجاله الى ناحية الشرق ، ولما أصبح خارجهـــا أمر بتقطيع اسلاك التلفون فامتثلوا أمره وهجموا فى المســـاء ــ مساء ٨ شعبان ــ على الاتراك .

أما فى مكة فقد بدأت الثورة يوم السبت فى ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ (١٠ يونيو سنة ١٩١٦) ، وذلك ان الحسين أصدر الأمر الى رجاله ــ وكان قد أعدهم من قبل كما جرى فى المدينة والطائف ــ بأن يهجموا على الثكنة العسكرية فى « جرول » . وكان الجنود الاتراك الموجودون فيها غافلين عما يدبره الشريف ضدهم ، وكان يقودهم البكباشى درويش بك ، أما القادة والضباط الكبار فكانوا غائبين فى الطايف حيث يصطافون .

***

ففى الصباح المذكور بدأ الشريف نفسه الثورة باطلاق رصاصة من قصره على ثكنة الجنود الترك ، فكانت هذه الرصاصة بمثابة اعلان رسمى للثورة العربية الكبرى ، كما كانت الاشارة المتفق عليها بينه وبين رجاله للشروع بالهجوم على أثرها وقد احتشدوا قبل الفجر فى مكان قريب .

ورأى درويش بك حراجة الموقف وادرك أن جنـــوده صائرون الى الهلاك اذ كانوا خارج الثكنة يقومون بالتمرينات الرياضية المعتادة وليس لديهم سلاح . فعمد الى الخديعة لانقاذهم من موت محتم فخاطب الشريف بالتلفون وسأله عن السبب فيما حـدث فرد عليه بقوله : « ان العرب لا يرضونكم حكاما عليهم بعد أن فتكتم بهم وأهنتموهم وعاديتموهم » .

فأجابه القائد التركى بدهاء : « مادام الأمر كذلك فأرسل من قبلك من تعتمد عليه لنسلمه السلاح والجند ، فنحن لا نريد سفك الدمـــاء بلا طائل » .

***

وعلى الأثر توجه الشريف عبد المحسن البركاتى لمقابلـــة القائـــد واستلام التكنة ومن فيها ، فقال له هذا :

« لا بد من دخول الجنود الى الثكنة لاتمام عملية التسليم ربما أن ذلك غير مستطاع قبل أن يكف الثوار عن اطلاق النار ويرفعوا الحصار ، فانى أرجو منك أن توعزوا اليهم بالانصراف فندخل معا ونجرى العملية المطلوبة ، فانطلت الحيلة على الشريف عبد المحسن وأمر الثوار بالتفرق ، وعندئذ دخل الجنود الى الثكنة وتقلدوا السلاح فورا وتأهبوا للقتال • وحذر أحد الضباط العرب الشريف فنجا بنفسه •

★★★

واغار فى صباح الأحد (١٠ يوليو) الشريف محسن بن أحمد منصور ، شيخ قبائل حرب ، على جدة بقوة يبلغ عددها أربعة آلاف محارب ، فتحصنت حاميتها التركية فى جهتيها الشمالية والجنوبية واستعدت للدفاع ، وقد ساهمت ثلاث دوارع انجليزية وهى دفرانو وفوكس وهاردنج ، فى هذه الاغارة يوم ١٣ يونيو ، فأمطرت المراكز التركية وابلا من قنابلها •

وفى ١٤ يونيو حلقت الطيارات الثمانى الانجليزية فى سماء جدة وألقت على المعسكر التركى المنشور التالى :

« وما ربك بظلام للعبيد » •• الى سعادة قائد القوات التركية وحضرات ضباطه الكرام فى خط الدفاع بجدة :

« اعلمكم علم اليقين وأخبركم بالحقيقة التى لا مراء فيها وهى أن مكة المكرمة والطائف أصبحت فى يد دولة أمير مكة المعظم الشريف حسين ابن على وانتصاراته على الجيوش التركية متوالية ، فقد أصبحت أرض الحجاز خالية بالمرة من دوائر الحكومة الاتحادية وكذلك أعلمكم أن الحركة لم تكن لتأسيس دولة خلافة عربية اسلامية وأن العرب لا يكرهون الترك من حيث هم لانهم مسلمون مثلهم ، وانما يريدون التخلص من الحكومة الاتحادية الجائرة التى تلعب بها ألمانيا والله على ما أقول شهيد • فبدلا من وقوفكم فى وجه العرب الذين لكثرة عددهم وعدتهم سيحرزون النصر المبين ان شاء الله بعد ازهاق الكثير من الأرواح ، وبدلا من المقاومة التى لا نتيجة لها أنصح لكم أن تسلموا بدلا من أن تبيدوا عن آخركم ومهلتكم هى مجرد وصول هذا اليكم لانكم بعد رفضكم لهذا النصح تصب عليكم القنابل من السفن الهوائية ومن البحر والبر حيث استعد لكم العرب بالمدافع الجبلية السريعة ومدافع الميدان الحديثة والرشاشات السريعة • وعلى كل حال فانا لا نعد ذلك جبنا منكم ولا اهانة لشرف رايتكم ، ولكن الرجل المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ويتجاوز الأدب

وهو كاره لتجاوزه فلا تلقوا بأنفسكم الى التهلكة ، وحسن رعايتكم بعد التسليم مضمون ، والعاقبة للمتقين ·

ـ الحكومة الانجليزية ـ

وفى ١٦ يوليو نصبت حامية جدة راية التسليم · فأنذرت اذ ذاك بأن لا تتلف مدافعها وأسلحتها · وبلغ عدد الجنود الذين استسلموا ١٣٤٦ جنديا و ٤٧ ضابطا · أما الغنائم فكانت عشرة مدافع سهلية وأربعة مدافع جبلية وأربعة مدافع رشاشة وكمية كبيرة من البنادق والذخائر ·

ووصل الى جدة فى ٢٧ يوليو الكولونيل ولسن باشا حاكم بورسودان ،منتدبا من قبل السردار فى السودان السير وينجت ، وقد حمل منه الى الحسين كتابا يهنئه فيه بالنصر والاستقلال ويعرب عن اعجابه به وبرجولته ويقول انه من الانجليز الذين يحبون الشرق ولا سيما العرب منذ نعومة أظفارهم ، وأنه أرسل مع هذه التحية قوة بسيطة بقيادة اللواء السيد علي بك من قبل المساعدة عدد رجالها ٣٢٠ جنديا ولديهم ٢٤٠ دبابة و ٣٠٠٠ بندقية ومدفعية للسهل وأخرى من نوع « مكسيم » ·

★★★

والمقول ان الحسين رفض فى بادىء الأمر السلاح المرسل قائلا انه ليس بحاجة اليه لأن المسألة بسيطة ، وأنه سيطلبه عند حاجته اليه · ولكنه قبل بعد الحاح أن يصار الى ارسال أربعة مدافع الى رابغ وابقاء اثنين فى جدة ، أما مدافع مكسيم فيحتفظ بها فى بورسودان لحين الحاجة اليها ·

★★★

وقد جاء فى الرواية الأخرى (الثانية) :

رفع الحسين علم الثورة العربية ضد تركيا فى ٥ يونيو « حزيران » سنة ١٩١٥ وذلك باعلان استقلاله فى مكة ·· ولقد أثيرت العواطف بشتى الطرق ، واخمدت ـ الاختلافات القبائلية ، ان لم يكن قد قضى عليها ، بعد حرب استغرقت أكثر من سنتين فى الصحراء ، بتغذية الفكرة الرامية الى الاستقلال الوطنى وابقائها حية فى القلوب ، وكان العرب يفضلون الاتراك بسرعة الحركة ، ومعرفة البلاد معرفة تامة · وكان عددهم يزيد على عدد الحاميات التركية في المدن البالغ عدد رجالها ٢٠ ألفا

الا أن الترك كانوا أقوياء بالمدافع والتدريب العسكرى ، بينما كان العرب لا يملكون الا النزر القليل من المدافع ، وكانوا غير مدربين على الأساليب الحربية الحديثة ٠

★★★

وبدأت الحملة فى مكة وأخذ الأتراك على حين غرة فاضطروا أن يقاتلوا دفاعا عن أنفسهم ٠وأدرك الحسين أن الدعامة الوحيدة لمطالبته بالاستقلال انما هى مقدرته على استقبال الحجاج الآتين الى المدينة المقدسة وصيانة حياتهم ٠ فكان لا بد له والحالة هذه من أن يصبح السيد ليس على مكة فقط بل على ميناء جدة والأماكن المتخللة بينهما ٠ وقد قسم قواته من المشاة والهجانه والخيالة الى أربع فرق ، فرقة بقيت فى مكة ، وتوجهت الفرق الثلاث الباقية تحت قيادة أنجاله ، غربا الى جدة ، وشمالا الى المدينة، وجنوبا الى الطايف ٠٠ وأشرف الحسين بنفسه على الهجوم على مكة ولما أعلن استقلاله فى ٥ يونيو وافقه على ذلك جميع سكان مكة بلا تردد ، وأبت الحامية التركية أن تستسلم ، واستولى العرب على السوق الكبرى ومسكن الحاكم التركى وبنايات الحكومة والمسجد الحرام ٠ وكانت الحصون الثلاثة المشيدة على التلال المطلة على مكة محمية بالجنود القوقاسيين المأجورين ونخبة مختارة من الجنود الترك ففتحوا نيران مدافعهم على الجامع الحرام مما أثار غضب العرب وحملهم على الاستماتة فى القتال حتى كتب لهم الفوز المبين ٠

وترينا كلمات الشريف أى دور عظيم لعبه الدين فى هذه الحملة ، والاستياء الشديد الذى سببه هذا العمل ، قال الحسين :

★★★

« وماذا يمكننا أن نبتغى برهانا على كفرهم وشعورهم العدائى نحو العرب أقوى من ضربهم ذلك البيت القديم الذى اختاره الله بيتا له ٠٠٠ ولما نشبت الثورة ضربوه من حصن « جياد » وسقطت القنبلة الأولى على بعد يردة ونصف يردة فوق « الحجر الأسود » وسقطت قنابل أخرى فى ساحات الجامع التى كانت هدفا لمدافعهم فكانوا يصرعون كل يوم ثلاثة أو أربعة من المصلين فى الجامع حتى منعوا الناس من دخوله للعبادة ٠٠ وهذا يدل على انهم احتقروا بيت الله أشد الاحتقار وحرموه الاكرام الذى كان يؤديه له المؤمنون ٠

★★★

واستولى الحسين فى مكة على ١١٠٠ جندى تركى و ٢٨ ضابطـا وأربعة مدافع ، ولكن الأهم من كل ذلك الهيبة التى كسبها بطرده الاتراك من المدينة المقدسة لدى المسلمين ٠

وبلغ نبأ الثورة العربية أوروبا ببرقية طيرت من القاهرة فى ٢١ يونيو يوم أعلن سقوط جدة وقد ساعدت البوارج الانجليزية المختصـة بخفر السواحل القوات العربية التى هزمتها مدافع الحـامية التركية فى أول المعركة ٠ وألقت الطيارات المائية قنابلها على المراكز التركية المختلفة ، وضربت البارجة الهندية « هاردينج » والطراد الخفيف « فوكس » المعاقل القائمة فى شمال المدينة واضطرت الحامية التركية للاستسـلام بشروط معينة بعد أن حاصرها العرب من البر والدروع الانجليزية من البحـر الأحمر مدة أسبوعين ــ وأسر العرب ١٤٠٠ جندى و ٤٥ ضابطا وغنموا ١٦ مدفعا عاديا ورشاشا ٠

وقد شددت المرحلة الأولى من الحملة آمال العرب فى الاستقـلال وآمال الفرنسيين والانجليز فى التغلب على الاتراك ٠٠ ووضعت انتصارات الحسين حدا لمساعى المشتغلين فى سبيـل مصـالح الترك فى مصر ، واستؤنفت التجارة على الأثر بين السويس وسواكن وجدة وتعاون السير (ونغايت) الحاكم العام فى السودان مع حكومة الحجاز الجديدة عـلى اعادة تنظيم الادارة ، وكان من أثر هذا العمل انشاء دائرة للأشـغال العامة وفتح بعض المدارس واصدار جريدة أسبوعية باسم « القبلة » ٠

وتلاشى النفوذ التركى على شواطىء البحر الأحمر ، ففى ١٠ يوليو استولى الادريسى على « كنفيدة » وهى الميناء والمدينة الرئيسية فى امارة عسير ٠ وأخذ العرب أيضا « ريحه » التى تبعد مئة ميل عن جدة شمالا ٠ وأغارت فى ٢٧ يوليو قوة مكية من مكة آتية من شمال جدة بالقوارب على ينبع فجأة واستولت عليها بمساعدة بارجة انجليزية واضطرت بعثة ألمانية كانت مكلفة بانشاء محطة لاسلكية على الشاطىء لمخابرة الألمان فى شرق أفريقيا للانسحاب من ينبع الى دمشق ٠ ولم يبق فى أيدى الاتراك سوى العقبة ٠

***

ولاقت القوة العربية التى حاصرت الطايف بقيادة الأمير عبد اللـه مقاومة عنيدة وكانت حامية الطايف مؤلفة من ٣٠٠٠ آلاف جندى ولديها عشرة مدافع ألمانية من نوع « كروب » عيارها ٧٥ مليمتر وهى لم تستسلم

الا بعد وصول الجنود المصريين الذين هدموا بمدافعهم المعقل التركى • واسفر سقوط الطايف عن اغتنام عشرة مدافع و ١٧٦٠ بندقية حربيـة و ٨٠٠ قنبلة ، وأسر ٨٣ ضابطا ، ١٩٨٢ جنديا • وبسقوط الطايف أصبح الحجاز كله ماخلا السكة الحديدية والمدينة ، خاليا من الجنود الترك •

وصمم الاتراك بعد انهزامهم من مكة أن يحتفظوا بالمدينة مهما كلفهم الأمر ، وقد تأخر وصول القوات التركية من دمشق بسبب نسف قسم من السكة الحديدية بالقرب من (القلع) ، وطرد العرب طلائع القوة التركية من جنان وقصور المدينة وأجبروهم على الالتجاء وراء أسوارها • الا أن الأمير فيصل الذى حاصر المدينة رأى نفسه أمام عدو يفوق العرب تدريبا وتجهيزا ، وقـد ارتد فى ٣ يوليو على أثر غـارة شنهـا عليه الأتراك المحاصرون (بفتح الصاد) الذين عادوا فاستردوا منه ضاحية (العوالى) وعقب هذا الفوز تمزيق المدافع التركية للقوة العربيـة المتضعضعة التى حاولت اقتحام المعقل العظيم المشرف على المدينة •

***

وفى ٣ أغسطس أضطر على شقيق فيصل ، الذى استولى على جـزء من السكة الحديدية فى الشمال واشترك فى المعركة التى حاول بها العرب وضع يدهم على طريق مكة ، للتراجع الى (غدير ربح) على مسافة عشرين ميلا من جنوب المدينة • وعليه فقد بقيت المدينة حتى نهاية سنة ١٩١٦ بيد الترك وقد أخذت آمال العرب تخيب ومكنت هذه الخيبة التى أصابتهم الأتراك من اصـلاح السـكة الحـديدية التى تربطهم بدمشق واستجلاب النجدات من سوريا وبينها جنود من النمسويين والألمان •

وكان بقاء المدينة فى أيدى الأتراك أهم شىء عندهم لأنهم يستطيعون بواسطتها الاصرار على الادعاء المقبول بأنهم ما يزالون أصحاب السيادة فى العالم الاسلامى • على أن تأخرهم فى حشد النجدات فى المدينة أتاح للعرب فرصة لتحويل أنفسهم الى جيش مدرب • وقد عين السـير « ونغايت » مستشارا للشريف وشحنت البنادق الحربية الى الحجاز وأعيـد تنظيم القوات العربية • فسيرت قوتان الى المدينة ، احداهما الى شرقها وشمالها الشرقى بقيادة الأمير عبد الله وعدد رجالها ٤٠٠٠ ، والثانيه الى جنوبهـا بقيادة الأمير على وعدد رجالها ٨٠٠٠ ، وعهد الى الأمير فيصل بقيادة قوة متمركزة فى ينبع وعدد جنودها ٨٠٠٠ •

***

وفي كانون الأول سنة ١٩١٦ تمركز الاتراك في المدينة بينما جرى التعاون الفعلي بين العرب وقوات الحلفاء في مصر واعترفت رسميا في ذلك الوقت العصيب حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وايطـاليا بالشريف الكبير ملكا على الحجاز ، وقد اتخذ لنفسه هذا اللقب في ١٦ ديسمبر سنة ١٩١٦ ، وزار جدة بصحبة وزرائه وتلقى التهاني من قواد الطرادات الانجليزية والفرنسية في البحر الأحمر ٠

وأنعش الكولونيل لورانس معنـويات العـرب ، وقد أذنت له في الخريف هيئة أركان الحرب العامة في القاهرة أن يأتي للعمل معهم وهو الذي وضع الخطط الحربيـة لمنع الترك المتمركزين في المدينـة من القيام بزحف ناجح على (الوجه) وهي ميناء على البحر الأحمر كائنة الى شمال ينبع ، وكان يحرسها ١٠٠٠ جندي تركي ٠

وغدا موقف العرب في ديسمبر حرجا جدا على أثر انكسارهم في الجنوب الغربي من المدينة مما مكن الترك من تعزيز مركزهم في التـلال القائمة في منتصف الطريق بين المدينة وربح ٠

★★★

وبذلك فصل جيش فيصل المتمركز في ينبع عن قـوة الأمير عـلى المتحصنة في ربح بيد أن الغارة التي شنها فيصل ولورنس على (الوجه) في يناير سنة ١٩١٧ أسفرت عن أسر ثلثي حاميتها ، والهجمات التي قامت بها قوات الأمير عبد الله في نفس الوقت على المدينة من الناحية الشمالية الشرقية اذهلت القيادة التركية وانقذت مكة من مهاجمة الاتراك لها ٠

وكان لسقوط « الوجه » تأثير عظيم في تعزيز موقف العرب ، وقد ساعدت عليه البواخر المخصصة لنقل الجنود والدروع الانجليزية فبعـد ضرب المعقل التركي الرئيسي من البحـر هاجمت قوة من العـرب أنزلتها البواخر الى البر ، الحامية التركية ، كما هاجمتها في الوقت نفسه قـوة اخرى اقبلت من الصحراء ٠

ولم يصادف المهاجمون من البحر الا مقاومة ضئيلة جـدا ، وبادر الحاكم التركي الى الفرار على جواده ، ولم يعمد الى المقاومة سوى ٢٠٠ من المشاة الترك ولكن سرعان ما تغلب عليهم الجنود العرب ٠

وتحمس العرب القادمون من الصحراء لأخبار الانتصارات فاندفعوا الى الامام كتلة واحدة ولكنهم هم أيضا لم يصادفوا مقاومة الا من بعض فلول الاتراك ٠ ويقول لورنس :

« انهم ساروا سيرا حثيثا قاطعين من الأرض ستة أميال تقريبا في الساعة وكانوا صامتين كأن على رؤوسهم الطير ، وبلغوا المرتفع وتسلقوه دون أن يطلقوا رصاصة واحدة • فعلمنا عندئذ أن القوة البحرية والفرق التي أنزلتها الى البر قد أنجزت لنا العمل » •

★★★

وقد أشرف على أعمال القوة البحرية السير « روسلن ويميس » من بارجته « اوريالوس » وقد تأثر الشريف الكبير بمقــدرة الاسطــول البريطاني فقال مشيرا الى الامبراطورية البريطانية : « انها البحر الكبير وأنا السمكة أسبح فيه ، ولكم عظم البحر كلما سمنت السمكة » •

غير أنه لا بد من القول ان مساعدة الفرنسيين في الحجاز كان لها نصيب في كسر الاتراك كسرا نهائيا ، ففي سبتمبر سنة ١٩١٦ وصــل الكولونيل « بريموند » على رأس بعثة عسكرية فرنسية الى جدة • وهو يشدد على أهمية الدور الذي مثله الجنود الفرنسيون ويقول عن لورانس بتهكم : « ان رجلا يأتي بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ ليرة انجليزية أو يجلب ٢٠٠٠ جمل محملين بالبضائع والمؤن لا يستحق غير الاعجاب العام » •

★★★

وفي خلال ١٩١٧ أفلح فيصل في لم شتات العرب في الشمال الذين كانوا منقسمين لضغائن عشائرية ، لمد يد المعونة له ، وكان بينهم شيخ (الكويت) ومن شباط فصاعدا راح العرب يغيرون على سكة الحجــاز اغارات متوالية منظمة •

ولا يتبقى لنا الا الاطالة في النقل عن مذكرات الابن (الملك عبد الله) وذلك لأهمية تلك المذكرات وعدم اطلاع كثيرين عليها • يقول الملــك (عبد الله) :

وفي اليوم التاسع من شعبان ١٣٣٤ الموافق ١٠ حزيــران ١٩١٦ أعلنت الثورة العربية في مكة والطائف وجدة وينبع والوجه وسائر مدن الحجاز ، وصدر البيان بذلك من لدن صاحب السيادة العظمى الشريف حسين بن علي •

وابتدأت الأمة العربية تتحمل مسئوليتها بنفسها وتسعى لانقــاذ حريتها واستقلالها بسلاحها وجهاد بنيها • وكانت في ذلك الوقت قادرة على ذلك ، فان بلاد الشــام بأجمعهـــا وكذلك البـــلاد العراقية كانت

واعية عسكريا واداريا وعدليا . وكان رجالات العرب فى ذلــك الحين يمارسون المناصب والمأموريات على اختلاف أنواعها ودرجـــاتها كالترك أنفسهم ما عدا الوزارة فان الأغلبية كانت فيها تركية دائما . وكان الجيش العثمانى الخامس فى مركزه بدمشق ، وكان الجيش الرابع فى مركزه ببغداد وقوامه العرب . فالعرب سلكوا هذا المسلك فى هـــذين البلدين وقبلوا التوظف لا التطوع فيهما .

أما من حيث الثقافة ، فقد كان الانفتاح فى التعليم بسوريا ولبنان يفوق ما كان فى تركيا العثمانية نفسها ، وسببه أن المدارس العثمانيـــة فى بلاد الترك كانت ملكية وعسكرية لتخريج الموظفين ، وكذلك مدرســة الحقوق والمدرسة الطبية ولكن العرب فى سوريا ولبنان كانوا يحصلون العلوم فى مدارس أجنبية ، وكان يرحل بعضهم الى أوروبا أو الى أمريكا . لذا فنسبة التعليم فى العرب بمدنهم وقراهم كانت بنسبة عشرة بالمائــة زيادة على التحصـيل التركى فى مـدن الأناضـول وقراه ، ومـدن الروم وقراه أيضا .

***

هذه ملحوظة لتقرير الفرق فى ذلك الزمن . فان التحصيل الرسمى على الطراز العثمانى ــ مضافا اليه التحصيل الذاتى فيما ذكرناه من جهات ضمن للعرب حين ذاك أفضلية الحال فى الثقافة .

أما الحركات فى الحجاز ، فقد استولى العرب على الحاميات التركية بمكة المكرمة فى أول يـوم ، وبقى الجيش العثمانى محصورا فى ثكنة جرول وقلعــة جيـاد ، وكان من بهـذه القلعـة من الجنود العثمانيين يضربون مكة بمدافعهم . وقد أصابت قنبلة البيت الشريف من فوق الحجر الأسود واشتعلت النـار فى الستار المبـارك ولكنها أطفئت فى الحال . وأصابت قنبلة أخرى أحد عقود الأروقة ، ومن غريب التصادف أنها وقعت على اسم عثمان بن عفان فأزالته ، وكانت هذه الاصابة من الأدلة على زوال دولة آل عثمان .

***

وقد سقطت جدة فى اليوم الثالث من الثورة ، وسقطت قلعة جرول فى اليوم التاسع وأسر فيها ألف ومائتا جندى وضابط . وأما قلعة جياد فقد هوجمت وأخذت عنوة بعد جرأة قائدها اليوزباشى كامل أفندى وضربه البيت الحرام .

وفي جدة كان الأسطول البريطاني يساعد من البحر على ضرب الثكنات العسكرية بضربات تخويفية ٠

وأما الطائف ففيه كانت الفرقة العثمانية النظامية التي يقودها الوالي والكومندان الفريق غالب باشا ، وكان يقود القوات العربية المحاصرة صاحب هذه المذكرات ٠

★★★

وهنا نرجع قليلا الى ما قبل اندلاع الثورة لنقول انه لما تقرر أن يكون اليوم التاسع من شعبان هو يوم النهضة ، أمرت بالسفر الى الطائف كي أقوم بأهم واجب في تلك الحركة ، وهو حصر فرقة عسكرية ، كانت أقرب القوات العثمانية الى مكة المكرمة مركز الحركة ومقر الشرافة وعاصمة الاسلام ٠ فوصلت الى الطائف في أول شعبان وليس معي سوى سبعين هجانا ، اذ أن كل القوات الهاشمية كانت أرسلت الى المدينة المنورة مع الأميرين علي وفيصل ٠

وقد قابلني الوالي مقابلة معتادة ، وأخبرته انني سأخرج لتأديب قبيلة البقوم وان الشريف لم يتعين بعد وقت طلوعه الى الطائف حسب المعتاد ٠ وكان الأمير على الطائف يوم ذاك شرف بن راجح بن فواز بن ناصر، يساعده الشريف حسين الجودي أحد شرفاء ذوي جود الله ٠

★★★

وكنت أستند في حركة حصر الفرقة وأخذها ، على العشائر المحلية كعتيبة بني سعد وكان الرئيس على هذه القبيلة وعلى من ينتسب اليها من الثبته الشيخ تركي بن هليل — وعلى الفخيذة الثانية من هذه العشيرة — عشيرة البطنين — وعلى هذيل ، وعلى تثقيف آل سعد وآل منصور ، وعلى عشيرة النمور ، وعلى عشائر الرقعة أهل الحرة ، ثم على من بقي ممن لم يلتحق بالقوات الهاشمية بالمدينة من عشيرة عتيبة من الكثمة والجوازي من الثبتة ، والعصرمة أهل ركبة والنفعة منهم أيضا ، ثم على عشيرتي وقدان وثمالة ، وعشيرتي البقوم ابن الحارث ، ثم على سبيع أهل الخرما وسبيع أهل رنية وأشرافهم ٠

★★★

وفي الاجتماع الذي وقع قبل الثورة بليال ، وحضره كبار الأشراف والشيوخ بعد تمهيد قام به الشريف شرف ، لم يتعبني سوى الشريف حمزة الفعر وآخر هو شيخ آل بطنين من آل سعد ، فانهما أظهرا أشد

النفور والخوف من نتائج هذه الحركة ولقد كدت آمر بالقبض عليهما لولا خشية شيوع ما ينبغي كتمانه .

وكان الوالي يسكن بقرواء خارج سور الطائف ، وكان يشتكي من مرض الكلية ، فزرته مرتين . وكان قائد الفرقة الأميرالاى أحمد بك يزورني الليلة بعد الليلة . وكان اشد الرجال العسكريين البكباشي سليمان بك ، الكثير الاختلاط بالناس والقديم في الحجاز ـ ولعله شعر بشيء مما سيقع ـ وقد قيل لي ان أحمد بك قائد الفرقة وسليمان بك هذا يقولان : نكاد نأخذ أسلحتنا بأيدينا حتى نرى الشريف عبد الله فيذهب عنا كل شك كان يساورنا .

وفي اليوم الثامن من شعبان ، وقد أزمعت الخروج فيه بدعوى غزو البقوم استدعاني الوالي ، وكان لدى الشريف شرف بن راجح والشيخ عبد الله سراج مفتي مكة المكرمة . فقالا : لا تذهب فانا نخشى أن يلقى عليك القبض ، فقلت : بل سأذهب . ففي عدم الذهاب ما يخشى عقباه ، وميعاد الثورة لم يحن بعد .

★★★

فركبت اليه ومعي أربعة : الشيخ فاجر بن شليويح أحد فرسان الروقة والشيخ هوصان بن عصاى وهو أيضا من شيوخ تلك العشيرة وأحد الرجال الذين أثق بهم ، وأحد خواصي هوصان بن عفار المقاطي ، وفرج حامل المظلة الملكية وتوجهت الى دار الوالي بقرواء ، وتعمدت الدخول من الثكنة بالطائف ، مما أدهش الترك والعرب معا ، حيث قالوا : لو كانت الشوائع حقيقة لما مر بنا على هذا الشكل .

ولما أقبلت على دار الوالي ، قلت لفرج : ابق عند الخيل ، وقلت لهوصان ابن عفار : كن على رأس الدرج ، وقلت للشيخين فاجر وهوصان : قوما على باب الغرفة التي أنا بداخلها . فان أراد الأتراك أن يلقوا القبض علينا ، فعلي أنا القضاء على الوالي في الغرفة وعليكم أنتم القضاء على من يأتيكم من الدرج حتى نخرج فقالا : اتكل على الله .

★★★

ودخلت .. وبعد أن رحب بي قال : الى أين تذهب ؟ قلت : كما تعلم أمرت بأن أؤدب البقوم . فقال ليس هذا بالوقت المناسب ، فلو أخرت خروجك الى حين لكان أنسب . وفي البلاد شائعات لابد أنها لم تخف

عليك ، فالنـاس يقولون أن ثورة ستقع ، وهـذا أنت ترى أهل الطائف يرحلون بأمتعتهم وأطفالهم • فقلت : وماذا عليك من رحيلهم ؟ اننى ان أخرت الغزو بعد شيوعه لتأكدت المخاوف ، وفى السفر تهدئة الخواطر وسيرجع الناس الى محلاتهم • أما سبب هذه الحوادث فقال الناس عن مصادر تركية انه سيقع تبديل فى الشرافة وأن الشريف حيدر بن جابر قادم الى المدينة ، وقد تقول بهذا رجال منهم سليمان بك ، فقال مسائلا نفسه : لم تركت مكة وطلعت الى الطائف ؟ ليتنى لم افعل ! •• لا عليك •

ثم تناول مصحفا شريفا عنده ، وقال لى : هل تعرف هذا ؟ قلت : نعم •• كتاب الله ، كوفى الخط ، وهو مهدى الى والدى منى وقد أهداه الى دولتك •

فقال : هل تشك فى اسلامى ؟ قلت : معاذ الله أما الظاهر فانك من خيار المسلمين ولا يعلم السرائر الا الله • فوضع يده على الكتاب وقال : والله انى لمعكم ولست عليكم • فأصدقنى الخبر عن هذه الشوائع • فقلت : شوائع الثورة ؟ قال : نعم • قلت : هى لا تعدو ثلاثة احتمالات : اما انها مكذوبة ، أو أنها عليكم وعلينا ، أو انها عليكم من الشرافة والناس ••• ولو كان هذا الأخير لما حضرت الآن بين يديك وقد تفعل بى ما تشاء •

★★★

وعندئذ دخل أحمد بك قائد الفرقة وسليمان بك فارتخيا عليه وقالا ما لم أسمعه فانتهرهما فخرجا ــ ولقد علمت بعد أن وقعوا جميعا بأسرى أنهما طلبا اليه أن يأمر بالقبض على ــ فقمت مودعا فودعنى وقال : لا تقطع الاتصال بى ، فقلت ألست على اتصال بمكة بالتليفون ؟ قال : بلى • قلت له : فى هذه الكفاية وسآمر قائمقام الطائف بأن ينادى بالأمان للناس حتى يرجع كل واحد الى بيته ، وفى هذا التكذيب ما يكفى • فقال : هذا حسن وسأفعل أنا أيضا •

★★★

وعن أول لقاء مع عبد الله للوالى غالب باشا •• يقول عبد الله : لم أرغب فى لقائه أول ليلة لصـداع شديد ألم بى ، فبقيت بالمساء وبعثت سماحة الشيخ عبد الله سراج مفتى مكة المكرمة والشريف بن راجع اليه • فلما أنه لم يجدنى ارتبك وظهرت عليه علامات القلق ، فارسل الى الشيخ عبد الله يرجونى القدوم ، فاتيت ولما رآنى استبشر وضحك ، فجلسنا فى البهو الكبير بقصر شبرا ومعه خمسة وسبعون ضابطا من مختلف الرتب •

★★★

وخرجت من عنده فوجدت أحمد بك وسليمان بك في الصفة ومعهما الأميرالاى حيدر بك متصرف عسير السابق ، فلم يحتفلوا بى ولم أحتفل بهم • وبعد أن استوينا على ظهور خيلنا يممنا قصر شبرا ، وبها العلم الهاشمى والقوات • ووجدت الشريف حسين الجندى على وعد منى عند العسكرمية ، فقلت له : اذهب الآن الى الوالى وقل انك تلقيت منى أمرا بالأمان ، ثم عد وابعث من يقطع أسلاك التلغراف من مركز معشى الى الكر ، وامنع كل من يسافر الى مكة منع قتل وابادة •

ثم تحركت بالقوة الى المركز الهاشمى للحركة ، وهو عند سفح جبل سواقه على يسار الطريق الذاهب الى مكة من ناحية العرفية :

وفى تلك الليلة تلقيت المذكرة التالية من الوالى غالب باشا :

الى صاحب السعادة الشريف عبد الله بك ـ بعد توجهكم انقطعت الخطوط التلغرافية بين مكة والطائف وأن الموظفين الذين أرسلوا لاصلاحه لم يعودوا ، وقد شاعت الشوائع بأن المعتدين على الخطوط التلغرافية قد سجنوهم ، ولذلك أطلب اليكم الرجوع حالا الى الطائف ، فان تأديب عشيرة البقوم ليست من الأهمية بشىء ازاء الحالة الراهنة •

فأجبته بالآتى :

حضرة صاحب السعادة الوالى والكومندان بالطائف ـ لقد تلقيت مذكرتكم ليلا ولم يبلغنى خبر ما حصل على الخطوط التلغرافية • وان وكيل قائمقام الطائف تحت أمركم لتنفيذ رغباتكم • أما أنا فسأكون بطرفكم بعد غد السبت ان شاء الله •

وفى ٩ شعبان كانت الثورة فى البلاد الحجازية ، ما عدا الطائف فان الهجوم قد وقع عليه فى الحادى عشر من شعبان ، بسبب بعض النواقص • وفى ليلة السبت الحادى عشر من شعبان ، فى نصف الليل ، ابتدأ الهجوم من الجبهة الشمالية التى كنت أدير حركتها بذاتى •

★★★

وكان الاتراك قد أحكموا سور البلدة ، وحفروا الخندقا من بستان الرياض متجها من الشرق الى ناحية الغرب الى مكان يسمى معشى ، ثم انحرف الى الجنوب الى هضبة أم السكارى وبها أحد مراكزهم القوية وبها مدفعان ، ثم انحرف مشرقا مرة أخرى الى أن حاذى برج غلفة ثم مال الى

الشمال وخالط وادى وج ، ثم انحرف مشرقا الى الجنوب حتى اتصل بصفاة تسمى دقاق اللوز ، ثم مال الى الغرب مرة أخرى واتصل بالخندق الأساسى، وقد وصل هـذا الخندق بخنادق فرعية تربط نواحيه الأربع بالمركز فى خطوط متعرجة تحجب السائر فيها ٠

***

أما الهجوم فقد وقع بعنف شديد ، وفى الجبهة الشمالية بالقلب ٠ وكانت تتقـدم الحملة البواردية الخواص وهم الرماة ، يتقـدمهم راقى ابن عفار ، ثم من كان من الحملة من الثبته الجوازى ومن الكثمة الغشاشمه والروانية ثم بنو سعد ، عليهم الشريف سلطان بن راجح : فعاد المهاجمون ببعض الأسرى والأسلاب ٠

وعنـد بزوغ الشمس ابتـدأت المدفعيـة التركية ترمى بشـدة على المهاجمين ، ولم أدر لماذا لم يعزز القائد التركى المدفعية بهجوم من المشاة ٠ هكذا لم يتمكن بنو سعد من الوصول الى أهدافهم ، واضطروا الى التراجع الى نواحى شبرا ، ثم انصرفوا بشىء من عدم الطاعة الى بلادهم ٠ وقد جاءنى من قائدهم الشريف سلطان ما يفيد بذلك فأمرته أن يتركهم ٠

***

وانصرف همى الى انقاذ الرماة الخاصة الذين حجزوا فى العكرمية وفى أسفل شرقرق ــ وهو جبل بين مسرة وشبرا ــ وفى تلك الأثناء كان الى جانبى الشيخ فاجر بن شليويح والشريف حمزة الفعر ، واذا بالأتراك يحرقون قصور الامارة السبعة فقلت لمن معى : لا ترهبوهم فانما أرادوا بهذا اخافتكم ، ولو كانوا كما يقال لهاجمونا هجوما معاكسا ، وهذه البيوت تبنى ان شاء الله بأسرع ما يمكن ٠

وطال الاشتباك وقل العتاد فلم يؤذن لأحد بأن يرمى الا هدفا معينا مرئيا ٠ وعند الظهيرة وقد اشتد الظمأ ، ابتدأ الهجوم من الشريف فهد ابن شاكر من الناحية الغربية والجنوبية ، بعشائر النمور وهذيل وبنى سفيان ، وكنا نسمع تكبيرهم وصياحهم ٠ واتجه ضرب المدفعية الى تلك الناحية ، فتمكن عندها رجالى الخاصة من التراجع سالمين ٠ فأمرت بتحصين جبل شرقرق ، وأقمت بقصر شبرا قوة كافية ، وانسحبت بالقوى العمومية الى سواقه ، وكان العتاد قد نفد بأجمعه ٠

ثم بعثت بأوامر مستعجلة الى الشريف فهد بأن يكفف قواته وأن يميل الى طريق عقبة كرى ، لئلا تخرج القوة من الطائف عامدة مكة ٠ وأصبح

همى الأول حجز هذه القوة للتغلب عليها ، ولكن ذلك لم يكن بالمتيسر فى مدة وجيزة ولا سيما فى قلعة حصينة كالطائف وبها فرقة نظامية ٠ ففعل الشريف فهد ما أردت ٠ ولو خرج الوالى والقائد بتلك القوة لكان وصل الى مكة بسلام لنفاد العتاد الحربى لدينا كليا ٠

★★★

وفى الوقت نفسه بعثت بكتب الى رجال العشائر التى تراجعت ، أخبرتهم فيها بان هجوم عشائر هذيل وثقيف والنمور أنقذ الموقف وانا كررنا على الأعداء وحصرناهم ، وطلبت اليهم الرجوع بعد أسبوع لنوزع عليهم السلاح الجديد ونقيد أسماءهم فى دفاتر العطاء ، مع تعيين ما يخص الرؤساء ومن يليهم من الأفراد ٠ فجاءتنى الأجوبة بلبيك لبيك ٠

ثم أوقدت النيران فى تلك الليلة على كل جبل مشرف على الطائف ، وكثر الصياح الحماسى ، ودقت الطبول ، واستمر رمى البنادق أمهات الفتيل الى الصبح مما أوجب الوهم الشديد فى قلوب الأتراك عن اجتماعات عشائرية ٠

ووردت الأسلحة الجديدة ، وكانت بنادق للمشاة شبيهة ببنادق مصنع استير قيل عنها انها يابانية ، وكانت بعيدة المرمى شديدة الاصابة لا يخطىء بها من يرمى الا أنه كان ينفجر بعضها ٠

★★★

وبعد أن وزعت هذه الأسلحة ، ولحسن الحظ ، هجم الأتراك على نواحى دقاق اللوز ، وشهار ، وحواية ، لأخذ البيادر التى كانت بها حيث قرروا الدفاع وصادف أن كانت هذيل وبنو سفيان عادوا من المعسكر بالأسلحة الجديدة ، وكان خروج الأتراك انصب على عشيرة وقدان بدقاق اللوز وبقملة ، فنشبت المعركة وردت هذه الهجمة الفاشلة بخسائر فادحة ٠

وفى تلك الليلة هاجمت هذيل وبنو سفيان هضبة أم السكارى وقضت على حاميتها واستولت على مدفعين هناك للأتراك وكان الهجوم بالخناجر والحراب ، ولم ينج من الأتراك أحد ، ولما حدث هذا تراجع الأتراك عن هضبة أم الشيخ ، ومن شرقرق الذى كانوا استولوا عليه ، الى جبل أبى صحفة وخنادقهم القديمة ، وتقدمت القوات العربية الى مراكزهم يوم بدء الهجوم ٠

وقد استولى الحرس الأمامي على رسول من القائد التركي بالطائف الى القائد التركي بمكة ، ومعه رسائل موجهة بأوامر الى القواد والى قائد القوة الامدادية بالمدينة .

★★★

وقد جاء فيها أن الشريف حسين قد أعلن العصيان ، وأن قلعة الطائف والفرقة العثمانية تقاتل ببسالة ضد هجمات العرب الذين يقودهم الشريف عبد الله النجل الثاني للشريف حسين ، وأن مسئولية هذه الحركة تقع على الشريف وأنجاله ، ثم يقول القائد التركي حاضا جنوده : قاتلوا في مراكزكم ببسالة حتى ترد الامدادات من الشام والمدينة المنورة .. قاتلوا كما يقاتل هؤلاء العصاة واذكروا أسلافكم من آل عثمان ، ولا تهابوا صولة هؤلاء العرب الذين تقدموا بأكمامهم البيض وسداريهم الحمر مستخفين بالموت في سبيل أميرهم . قاتلوهم في سبيل السلطان والملة ، واذا رأيتم راياتهم كروا عليهم واسحقوهم بأقدامكم ولا توفروا منهم أحدا .

★★★

وظلت الحالة بين الحاصر والمحصور متكافئة ، الى أن جاءت بطاريات جديدة جبلية من مكة وجاءت المفرزة المصرية ـ ومعها أربعة مدافع جبلية كذلك ـ وعليها الأميرالاى سيد بك علي . وبعد ذلك وصلت الى القوة مدافع الهاوزر فحصل الرجحان ، ولكنى لم أكن بالمسرف في الضرب حيث كانت النتيجة عندى معروفة فكان الابقاء على النفوس من الجانبين ملتزما لدى .

وفي العاشر من ذى القعدة تلقيت كتابا من القائد الوالى هذا نصه :

الى الشريف عبد الله بك نجل الشريف حسين باشا : لكي نثبت للغرب مزايا الشرق ، أقترح عليك أن تسمح للقوى المحصورة بالسفر الى المدينة المنورة بجميع أسلحتها وبمن معها من عائلات الضباط ومن يرغب في السفر من الجالية التركية . فاذا وافقتم على ذلك وهو المعلوم ننتظر الجواب كي نشعركم بوسائط النقل اللازمة وعدد الجمال .

فاجبته أن هذا ليس بيدى ، وان الحالة الراهنة لا تكفل سلامة وصول هذه القوى المتراجعة الى المدينة ، وأن من خيركم أن تستسلموا جميعا ثم ترحلوا الى المكان المناسب .

ولما كانت قوات فخرى باشا قد تمكنت من التضييق على الأميرين علي وفيصل فدفعت الأول الى رابغ ودفعت الثاني الى ينبع البحر ، أخذت

الأوامر ترد الى مشددة بلزوم اسقاط الطائف وتصويب نار المدفعية الثقيلة على مركز القيادة • ولم يلبث القائد الوالى أن بعث الى بهذا الكتاب بعد هزيع من الليل :

الى قائد الجيوش العربية الشرقية الشريف عبد الله بن الحسين انه بالرغم من كثرة العتاد والذخيرة رأيت لزوم حقن الدماء ، ولذلك أرجو قبول هيئة منا لنتذاكر معكم فى معاملة التسليم والتسلم وفق حقوق الحرب الدولية أو تتكرموا بارسال هيئة منكم الينا •

الامضاء : كومندان القوة العثمانية المحصورة

(فريق غالب)

★★★

فأجبته بالقبول وأن يبعث بالهيئة التى يريدها • فأرسل القائد سليمان بك ومعه رئيس أركان الحرب ناظم بك وعليهما الأميرالاى حيدر بك قائد ومتصرف عسير سابقا • وحضروا الى قصر الشريف فتن بن محسن بالميساء ، وكان يرأس الهيئة العربية القائد سعيد المدفعى ومعه الرئيس فؤاد والملازم أحمد حلمى • وتقرر التسليم على الآتى :

١ ـ يخرج الوالى والقائد والأمراء العسكريون حتى رتبة بكباشى فى تلك الليلة الى قصر شبرا •

٢ ـ الطوابير تترك تحت قيادة الرؤساء اليوزباشية والملازمين الأولين والملازمين الثانين •

٣ ـ تتراجع هذه الطوابير فى منتصف الليل الى الثكنة الكبرى وتترك على الأبواب الخفراء ، وفى تلك الساعة تتقدم القوات الراكبة العربية ، بقيادة الشرفاء فهد بن شاكر وسلطان بن راجح وحسين الجودى ، لتحتل الأبواب وتؤمن السلام والأمن العام •

٤ ـ مع الفجر يتقدم القائد سعيد بك ومن معه ، ليضعوا أيديهم على الأسلحة والمدافع فتودع فى مخازنها وتمهر بالشمع الأحمر •

٥ ـ تتكفل القيادة العربية بالاعاشة والتموين •

٦ ـ تصرف للهيئة المستسلمة مرتبات ثلاثة أشهر •

٧ ـ تنتظر الأوامر بالتوجه حالا الى الجهة المقتضية •

وقد تم كل هذا بهدوء وسلام ، ومنحنا الكثيرين من العشائر فرصة للراحة ليعودوا بعد مدة ٠

***

وفي اليوم التالي جرى انزال العلم العثماني عن القلعة ، ورفع العلم العربي بالتحية الرسمية لكلا العلمين ، وكان منظرا مؤثرا ٠٠ فان العلم السابق كان العلم بالأمس ، والعلم اللاحق هو العلم اليوم ، والأمس أمسنا واليوم يومنا ، ولكن الذنب على كل من سعى لترك الصبغة الاسلامية الشرقية والهروع الى الحظيرة الغربية الافرنجية ٠ ومع الأسف فان تلك الحركة الانفصالية لم تحل بيننا وبين ما أصبحنا عليه اليوم من أشكال متعددة ونزعات متفاوتة ، لنا من كل قوم متبوع ، وفي كل بيت مئة لسان ٠

ونعود الى سقوط الطائف ٠ فبعد اتمام معاملة التسليم والتسلم وفق الشروط الدولية ٠ قمنا بترحيل القائد والوالي والجنود الى مكة المكرمة مكرمين معززين وقد صرفت لهم مرتبات ثلاثة أشهر ٠

وبعد حوالي ثلاث دقائق من صمت ران على المجلس ، تكلم غالب باشا فقال : هذه فاجعة ٠٠ بعد أن كنا اخوانا أصبحنا أعداء ٠

***

وقد شعرت أنه قد زال عني بعض الاستحياء منه والتكريم له ، قلت : نعم لكي يعود السيد لسيادته ويتحرر من رق من أخرجهم من الظلمات الى النور والشر بالشر والبادي أظلم ٠

فاصفر لونه ثم قال : انني كنت واثقا من أن الأمة العربية ستنفصل يوما ما عنا ، ولكن ما كنت آمل أن يكون الانفصال على هذا الشكل وبهذه السرعة ٠

***

فقلت له : صدقت لقد أسرعنا ومن منفعتنا الاسراع ، أما الشكل فلا دخل له ولو أنكم أبقيتم سلطة الخلافة المطلقة لما تغيرنا عليكم ، ولكن ارادتكم المشروطة هذه التي أحببتم بها السيطرة على السلطان وعلى الأمة كانت السبب ٠

ثم قلت : ولم هذا البحث الآن ؟ تفضلوا تناولوا شيئا من الفاكهة فقد طال عليكم الحصر وحرمتم الكثير منها ٠٠ وأخذتهم الى غرفة الطعام

حيث كانت أعـدت لهم تعتيمة فاخرة فيها أنواع أطعمـة الليل الشهية : العنب والدراق والكمثرى والرمان ، وتركتهم الى غرفتى معتذرا بصداعى ٠

وتوجه هو صباح الغد الى مكة ، ولما وصل جدة بعث الى بسيفه ، وكانت تلك الالتفاتة منه جد نبيلة ٠

ثم توجهت الى مكة بعد أن تم تنظيم الأحوال فى الطائف وبقى به الشريف حسين الجودى وكيلا عن الشريف شرف ٠ ثم أمر سيدنا الوالد أن يتوكل امارة الطائف الشريف حمود بن زيد بن فواز ٠

ووجدت بمكة السادة أهل الشام ولبنان : الشيخ كامل القصاب ، والشيخ فؤاد الخطيب صاحب القصيدة المعروفة « حى الشريف وحى البيت والعلما » والسيد محيى الدين الخطيب ٠ والسيد نسيب البكرى واخوانه ٠

***

وأمرته بأن لا يصبح الا وهو قد احتل « حجر » واستأصل حسـين ابن مبيريك ٠ وبعثت بجواب الى الأمير على مع رسول الى رابغ أعلمه فيه بأن لا حجر ولا ابن مبيريك بيد الترك بعد اليوم ٠ وبعثت الشريف عبد الله ابن ثواب الحارثى بمثل تلك القوة الى المدينة المنورة ، وأمرته بأن يشن الغارة على مخافر الترك بجبل وعيرة وجبل أحد ، وأن يوقد نيرانا كثيرة بالجبال والمرتفعات ويكثر الصياح وأن ياسر كل محتطب أو ذا حاجة أو تاجر من تجار نجد ممن يخرج من المدينة أو يدخل اليها ، وأن يطلق سراح الراجعين الى المدينة بعد أن يتحقق عن هوايتهم ، وأن يزودهم بكتب الى العشـائر بغربى المدينة ممن التحق بالأتراك والشريف حيـدر ويهددهم بالصياح اذا هم لم يتراجعوا الى الأميرين بينبع ورابغ ويقول انه فى مقدمة الجيش الشرقى وقد نفذ ما عليه ، كأن حجر قد احتلت فى الوقت المعين ٠

وتوجهت بالقوة الأصلية الى ناحية الحناكية ، وأقمت بها ثلاثة أيام فالتحقت بى هنـاك كل عشائر هتيم وحرب ،وأصبحت القوى عشرين الف راكب ٠

***

فتوجهت بهـا نحـو الغرب لأعبر السـكة الحجازية ما بين محطتى أبا النعم وهدية وفى طريقنا بالحرة ، ولشدة الحر يومئذ وللتخلص من وعورة الحرة ، تقدمت ومعى هجانان واذا بقاع صحصح فيه دوحة عظيمة

وغدير أفيح ، فأنخت وأمرت بشيء من القهوة في انتظار قدوم عيون القوة ، فكان كل من رآني هناك ينيخ · ولتأخر القوة قررت أن تكون تلك الدوحة منزلة الظهيرة · وكان عندي حينذاك الشريف شاكر بن زيد وخالد بن لؤي والشيخ ناهس الذويبي شيخ مشايخ حرب ·

وبينما أنا جالس معهم دخل رئيس عشيرة ولد ، محمد رجا بن خلوي ، وأشار الي فقمت اليه ، فأشار الى تل لا يبعد عنا بأكثر من خمسمائة متر وقال : هل ترى هذا التل ؟ قلت : أراه · قال : ان به قوة تركية · قلت : كيف ؟ قال : اسمع من هذا الغلام ·· واذ بغلام يفع تتقد عيناه يقول لي : يا سيدي عان الترك عانهم أي أنظر الى الترك أنظر اليهم · قلت : كيف ؟

قال الفتى : « انني أنا وأخي زميلان للشيخ رجا بن خلوي ، ذهبنا في مقدمة القوم نحتش حشيشا فألقى الترك القبض علينا ، وقال كبيرهم لنا من أنتما ومن هؤلاء القوم ؟ فقلت أنا مبادرا : هؤلاء هتيم وشيخهم سمران بن سمرة ونحن منهم قد بلغه أن الشريف عبد الله نزل الحناكية فرحل عن طريقه لاجئا الى خيبر · فقال : لا تكذب · فقلت : ولم الكذب أطلقني ان أردت واحتبس أخي وأنا آتيك بسمران بن سمرة ، فاحتبس أخي وأطلقني · ولكن عاد يا سيدي الترك عانهم » ! · فقلت : هل رأيت كثرتهم ؟ قال : هم كثير ولكن نحن أكثر ، ابعث بي أدل القوم ·

★★★

فانتحيت ناحية وقسمت الخيل الى ثلاثة أقسام : القسم الأوسط وعليه الشيخ هوصان بن عفار ، والأيمن وعليه أخوه الشيخ راقي بن عفار ، والأيسر وعليه الشيخ عبد الله بن مسفر ، وأمرتهم أن يحيطوا بهذه القوة وأن يوغلوا الى ما وراءها حتى يقفوا على حقيقة الحال ·· هل لهؤلاء من مدد أو قوة كاملة ؟!

فتوجهت الخيل ، ثم بعثت بمشاة العشائر من اليمين بقيادة الشريف خالد بن منصور ، وبعشائر هذيل بقيادة الشريف فائز الحارث ، وبعثت بعشائر ثقيف وابن الحارث وهذيل الشام بقيادة الشريف شاكر بن زيد من الميسرة ، فتبعوا الخيل · ولم تمض الا دقائق حتى كان الاشتباك الشديد ، واذا برشاشاتهم تلعلع ومتفجراتهم ترعد فينعكس صوتها بين حلي الحرة وهضابها ، فلم يقف انسان بمحله بل حملوا حملة صادقة فأبادوا القوة التركيـة بأجمعها ، وأتوا بقـائدها الأميرالاي أشرف بك ، وأتوا بالمدافع وبالرشاشات وبغنائم لا تحصى ، وبهدايا الى الأمير ابن رشيد والى الأمير ابن سعود والى امام اليمن ، وكان من جملة الغنائم ثمانية وثلاثون ألف

جنيه ذهبا عثمانيا ، والأطعمة المجففة وسائر البسكوتات مما أغنانا أياما عن الزاد ، ولقد كنا في حاجة شديدة حتى الى الملح ·

★★★

وسرنا لنعبر السكة قبل أن تأتي قوة تركية تمنع العبور ونحن في مفازة قتاله · ثم احتلت قواتنا ما بين هدية وأبا النعم ، الخط الى أبار أبا الحلو غربي السكة · واستمر العبور أربع ساعات ونصفا على ثمانية خطوط · ثم اقتلعت أعمدة البرق وانتزعت قضبان السكة ·

وقد كتب أشرف بك مصيره في تقرير علق على قضبان البرق · وكتبت أنا كتابا الى فخر الدين باشا أبلغته فيه أسفنا لما وقع على أشرف بك وحملته وعجبنا من ارساله تلك القوة بهذه الأموال في بلاد ثائرة وذكرت له ان الثورة قد انتقلت الى ما بين الشام والمدينة ·

وتراجع فخر الدين باشا من ينبع النخل ومن وادى الصفراء ومن بئر سعيد الى بير درويش · وجناحه الأيمن الذى كان يعمل ضد الأمير فيصل رجع من بير قاظى وسطح الغاير ومن برام وعبود الى غدير مجز ومجزان وآبار على · وجناحه الأيسر الذى كان يعمل ضـــد الأمير على تراجع أيضـا ·

★★★

وتقدمت فنزلت بوادى العيص بربيعان ، وكررت على الخط الحديدى اهاجمه ليل نهار ، فتحررت قوة الأمير فيصل واتجهت عن طريق الساحل الى الوجه ، وقد كان بيد الأتراك ، وكان قائمقام القضاء في الوجه صديقنا العزيز عبد السلام بك كمال أحد أفراد دار كمال المعروفين بالقدس ، وكان عثمانى المذهب ، شديد التمسك بالترك · وكان معه الاميرالاى أحمد بك على قوة نظامية عثمانية مؤلفة من مدفعية ساحلية وبطارية جبل وطابور أفراده ألف ومئتا جندى غير الجندرمة · كما كان في الوجه هجانة من عقيل أهل نجد مؤلفة من ثمانمئة هجان ·

ولدى نزولى بوادى العيص كتبت الى هؤلاء العرب أنصحهم بالانضمام الى الثورة العربية قبل أن ينالهم التنكيل ، فوردت أجوبتهم بالموافقة · وبعد أن استلموا معاشاتهم تركوا الأسلحة حيث هى وخرجوا ثم التحقوا بالثورة ·

وتقدم الأمير فيصل من الساحل فاستولى على أملج • ثم ضرب الأسطول البريطاني الوجه • وعند وصول طلائع قوى الأمير فيصل ، تراجع القائم مقام والاميرالاى بقواتهما الى العلا ، ودخل جيش الأمير فيصل الوجه بدون مقاومة تذكر • أما ابن رفادة ، شيخ الوجه وأحد رؤساء بلى ، فقد فر والتحق بأحمد جمال باشا في الشمال •

★★★

وكتبت الى شيخ عشائر عنزة :

من عبـــد الله بن الحسين بن على الى الشيخ فرحان الأيدى والى الشيخ شهاب الفقير ــ أما بعد •• فقد بلغكم عبورنا السكة الحجازية بعد أن ظفرنا بأشرف بك في الجنبلة بالحرة ، ونزلنا بالمربع بوادى العيص • وكتابنا هذا كتاب دعوة لكم للالتحاق بالثورة العربية في مهلة لا تتجاوز العشرة الأيام ، تقدمون البت قبل مضيها مقدمين الطاعة مع البرهان بأن تهاجموا خط السكة وتأتوا بأسرى وغنائم • فان لم تفعلوا ومضت المدة فلا لوم علينا ان نحن استعنا بالله عليكم وصبحناكم •

فجاء الشيخ فرحان الأيدى سامعا مطيعا ، بعد أن هجم على محطة من محطات سكة الحديد تسمى (البلغلة) وظفر بمن فيها ، وجاء معه مدفعان جبليان اغتنمهما وقد عينته قائدا في أراضى عنزة في الجهينة الى حدود الفقير •

أما شهاب الفقير فكان غائبا عند وصول كتابنا ، فحضر أخوه الشيخ متعب الفقير بالنيابة عنه سامعا مطيعا ، وقد وعد بأن تبتدىء الحركات في جبهة الفقرة عند وصول الشيخ شهاب من الشام • فلم أقبل منه ذلك وقلت له :

★★★

« لا بأس على شهاب ما دام لدى الأتراك ، ولا لوم عليكم انتم بعد التهديد » •

وبينما هو يتجهز للرجوع واذا بخبر عودة شهاب الى عشيرته وأنه قد سمع وأطاع وباشر في الحركات •

وهكذا ابتدأ الجيش الشرقي يعمل وقد لفت اليه الأنظار ، وكان لأسر أشرف بك صدى عظيم في مكة وفي المعسكرات العربية برابغ وينبع ولدى المحافل البريطانية ، لشهرة أشرف هذا وفرقته اذ هو الذى كان

صحب فرقة البرنس موريس البلغارى اثناء حرب البلقان وأوقع فيهـا وشتتها .

ثم اننا قطعنا الخط الحديدى بين محطه ابا النعم وهدية ، وهيأنا القوة الكافية للكمون بطرف بئر عروة بالمدينة المنورة فى أيام الجمعة ، لاختطاف الأمير الشريف حيدر الذى اعتاد ان يتنزه هناك بعد ظهر كل جمعة . وقد وصلت تلك القوة بالفعل الى مكمنها ، ولكن الشريف كان قد أخرج من المدينـة الى لبنـان خوفا من وقوعه فى الأسر اذا حوصرت المدينة . وكان رحمه الله يخـدم القضية العربية بأن يقول لكل شـيخ يجيئه : اذهبوا وسأقابلكم بمكة متى وصلتم . وقد أسر لمن يثق به منهم بأن أعينوا أمراءكم فان حصل أى فشل فاننى سأجتهد للتخفيف عنكم .

***

وهكذا فان الحركة العربية أخذت تلاقى نجاحا بعد سلوكى الطريق الشرقية واستكملت أسباب حصار المدينة بعد ذلك رويدا رويدا . وقد تحركت القوى الأصلية الهاشمية من رابغ يقودها الأمير على وأمراؤها من النظاميين : نورى باشا السعيد وعلى جودت بك الأيوبى وحامد باشا الوادى وابراهيم بك الراوى . وأما العشائر فحرب وبنو سعد وسليم وهذيل والأشراف ، وقد قصدوا قوى الترك الأصلية ببئر درويش وبمجز وبمجزان وكان سمو الأمير زيد يقود الجناح الأيمن . واستمر القتال بين القوتين ثلاثة أيام ظفر فيها الجيش العربى الهاشمى ببئر درويش وبمجز ومجزان . وتراجع فخرى باشا الى الجفر والى آبار على . وقد قال فى تقريره لجنوده « انكم تقاتلون الآن قوة منظمة هى كفء لكم وليست المجادلة الآن شقاوة أو حرب عصابات » .

***

وقصر فخرى باشا خط دفاعه وخندق واستحكم . وكانت بالمدينة القوى السفرية تدافع الى حد تبوك بفرقة ونصف . وكان الجيش الشرقى الذى أقوده بالعيص يدأب على قطع مواصلات القوى السفرية قطعا مستمرا بتدمير سكة الحديد الحجازية . ثم تقدم الأمير فيصل من الوجه الى جيدة ـ موقع يقـابل العلا بأرض بلى ـ متخذا المركز العسام له مدينة الوجه الساحلية . وأخذت هجمات الجيش الشمالى بقيادة فيصل تتسع الى ذات حاج .

وكان السبب الأكبر فى دوام محافظة الأتراك على الخط ، هو قدرتهم على الدفاع من جهة ، وعدم وجود قوات مدربة نظامية معنا من جهة أخرى .

أما التجهيزات فلم يكن يقدم منها للجيش الشرقي أي شيء سوى سلاح المحارب الراجل ، أما المدافع وما الى ذلك مما يستعمل ضد القلاع والاستحكامات فلم يظهر منها شيء • وكان يتألف الجيش الشرقي من الفارين العرب من الجيش التركي ، من جنود وضباط برتب صغيرة وكان لدى جيش الأمير علي ــ الجيش الجنوبي ــ من مدافع الصحراء ومدافع الهاوزر ما تفوق به على الأتراك •

وأما العناية بالتجهيزات فكانت مصروفة للجيش الشمالي الذي كان يقوده الأمير فيصل ، فلقد كانت معه سيارات مدرعة ومدافع كثيرة جبلية وصحراوية ومدافع حصار وكان كل الجنود المتطوعين من العرب والضباط يرسلون الى ذلك الجيش ، كجعفر باشا ونوري باشاوأمثالهما •

★★★

وكان من رأيي الاستيلاء على الخط ثم الاستيلاء على المدينة المنورة بالجيوش العربية الثلاثة : الجنوبي والشرقي والشمالي • ولكن لسوء حظ العرب انتشر الضغط على الأتراك على طول الخط الحديدي • ثم تقدم جيش الأمير فيصل واحتل العقبة ومنها أخذ يضيق على معان •

فلو أسقطت المدينة المنورة في عام ١٩١٧ لكانت الجيوش العربية الثلاثة تفرغت بمجموعها لفتح سوريا والاشتراك في محاربات العراق ، ولكن مال الآخرون الى هذه الخطة •

ولما هزم جيش اللورد اللنبي الأتراك في الناصرة ، تقدمت مفارز من الجيش العربي الشمالي الى الأزرق ودرعا ودخلت الشام • وعلى الشام رفعت الرايات العربية بوساطة الأيوبي باشا وموافقة أحمد جمال باشا القائد التركي المعروف ، وبارادة سلطانية تعلن الاعتراف باستقلال البلاد العربية • وكانت القوى العثمانية المدافعة عن معان لا تزال فيها لم تمس بسوء ، أشبه ما تكون بالجيوش الألمانية في فرنسا عند غزو الحلفاء القارة الأوربية في الحرب العالمية الثانية •

ولكن فخري باشا بقي في المدينة يدافع عنها باصرار ، فلم يكن ضروريا أن يظل الجيش الشرقي بوادي العيص وبلاد جهينة • وبعد المخابرة مع الأمير علي تحركت بالجيش الشرقي الى الجفر ــ وهو موقع شمال المدينة المنورة بغرب يبعد حوالي ٢٠ كيلو مترا عنها ــ وبعد التضييق عليه ابتدأت الحركات الدالة على عدم الطاقة في المحصورين •

★★★

وورد كتاب من السير وينجت ـ المندوب السامى بمصر اذ ذاك ـ الى فخرى باشا ، يخبره فيه أن الأتراك قد هزموا ، وأن الشام قد احتلت ، وان مسئولية الدماء من بعد ذلك ستقع على فخرى باشا شخصيا ان لم يسلم • فاجابه فخرى باشا بالتركية : « الى جناب الجنرال ريجلاند وينجت بمصر : أنا عثمانى أنا محمدى ، وأنا ابن بالى بك ، وأنا جندى ، وارخ » •• ثم بعث فخرى باشا بعد ذلك بكتاب الى الأمير على ، يقول له فيه انه بعد هذا الجدال الطويل ، لم يبق أى سبب للدفاع ، وأنه قد أرسل الميرالاى على نجيب بك والميرالاى صبرى بك والأركان حرب اليوزباشى كمال بك لأجل التذاكر فى كيفية تخليه عن المدينة وكيفية اجلاء الجنود الذين يمتد خطهم من تبوك الى المدينة على سكة الحجاز •

***

فبعث الأمير على الى اشارة تلفونية يطلبنى من الجفر ، فحضرت اليه حالا •

ولما ترجلت عن فرسى عند باب خيمة القيادة ، خيمة الأمير على ، تلقانى وهو يقول : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله • فقلت : أعلم انك من أهل الاسلام • ثم دخلنا وطلب على نجيب بك سرعة المذاكرة ، فلما ابتدأنا فيها طلب أن تسمح للقوات التركية بأن تخرج بأسلحتها الى ينبع البحر والى الوجه فتقرر رد طلبه ثم تقرر ما يلى : ـ

أولا : يسلم فخرى باشا نفسه •

ثانيا : يسلم كل الآلاى فى الجبهات حيث هو ومن ثم يؤخذون الى الساحل بقوافل محروسة من الجيش العربى •

ثالثا : كذلك القوات التى بالمدينة المنورة تسلم كل قوة فى مركزها وتخرج •

رابعا : والقوات التى فى العلا وتبوك تسلم هناك وتؤخذ بقوافل الى الوجه والى ظبا وأما الأمتعة الخاصة بالضباط تكون تحت تصرفهم اذا ارادوا بيعها أو أخذها معهم •

خامسا : يجرى تسليم الأسلحة العسكرية الخفيفة والثقيلة بموجب الدفاتر والسجلات المحفوظة •

سادسا : يجرى التسليم فورا •

***

وبعد تنظيم هذه المواد ، جرى التوقيع منا ومنهم ، وعادوا الى المدينة المنورة ٠

وفى الصباح التالى أمر الأمير علي نورى بك الكويرى والشريف أحمد ابن منصور أمير حرب ، بأن يذهبا لتسلم فخرى باشا حسب الشروط فذهبا ، وبقينا فى انتظاره معهما حتى المساء ، فلم يأتيا ٠

وبعد غروب الشمس بنحو نصف ساعة ، دعانى الأمير على الى خيمته وقال لى : لقد عاد أحمد بن منصور ونورى الكويرى وحدهما ، أما فخرى باشا فانه لما علم بالشرط الأول دخل الحجرة النبوية وهدد قائلا : ان أردتم اخراجى عنوة فسأشعل النار فى كل العتاد الذى فى المسجد ــ وكان الأتراك قد وضعوا المتفجرات فى المسجد خشية الطيارات ــ وأنه فى الحالة هذه لا يمكن أخذه عنوة ، وأنهم على استعداد لتنفيذ سائر الشروط ٠

وكان سموه مرتبكا ، فقلت : لنتركه فى محله ، فقال : انه لا يؤمن وأنه ما دام هناك فالخطر منه قائم ٠

***

وفى الحقيقة كانت الحالة مربكة ، وتجلى علينا الصمت الى وقت العشاء ، فلما دعينا الى العشاء وانتصف الأكل واذا بنا نسمع دمدمة كأن شيئا قد ثار أو انهدم فقام رحمه الله واقفا وقال : لقد أشعل الخبيث النار فى المسجد ! اركب الآن الى جليجلة وأفهم الحقيقة ، واعمل على أخذه مهما كلف الأمر ٠

فقلت : أفعل ٠ وطلبت تجهيز الخيل ٠

وبعد العشاء ، ركبت الى جلبجلة ، وبها مركز الآلاى الأول التركى ، وتقع فى أرض جبلية ، وكنا سبعة عشر خيالا ، وكان معى الشريف بن راجح وعبد الله المصايفى والشيخ هوصان بن عفار أمير الخيالة بالجيش الشرقى وأمير اللواء السيد حلمى قائد الفرقة النظامية للجيش الشرقى ٠

وبعد أن سرنا مدة ثلاث ساعات ، بلغنا المكان ، واذا ضوء على باب محل محكم واذا الغفير يصيح : من هذا ؟ فدفعت فرسى واندفع من معى نحوه ، فارتبك فأخذناه وسألناه أين مركز الآلاى ؟ فقال : هو هذا وفيه الاميرالاى اسماعيل شكرى بك ٠ فيخرج واذا هو ، فقلت له أنا الأمير عبد الله ٠

فدهش ٠٠ فقلت : لا عليك ان لزمت السكينة ٠٠ أين التلفون ؟ واطلب به على نجيب بك فقال : تفضل ٠

***

فدخلت وأحضر على نجيب بك على التليفون ، فقال : من المتكلم ؟ قلت : الأمير عبد الله بن الحسين ، قال : كيف ومن أين تكلمنى ؟ قلت : من جليجلة طبعا • قال : والآلاى ؟ قلت الآلاى وقع بيدى • فقال : سبحان الله ! فقلت : هذا بفضل الله ، ولكن أين فخرى باشا ؟ وكان اليوم موعد تسليمه حسب الشروط ؟ قال : انه كما أخبركم الشريف أحمد بن منصور ونورى بك الكويرى ، دخل الحجرة وهدد بأن ينسفهـا ان نحن حاولنا أخذه عنوة •

قلت : لا أعتقد ذلك • فقال : أتريد أن تقع نكبـة فى الحجرة ؟ قلت : لا بالطبع ولكن أريد تنفيـذ الشروط ، أليست لديكم حرمة لتواقيعكم ؟ فقال : أتريد أن يقتل من يدخل عليه فى ذلك المحل ؟ قلت : الذنب عليه وقد قتل عمر بن الخطاب بين المنبر والقبر • فقال : أتريد أن ينسف المسجد ؟ فأجبته : قـد احترق المسجد النبوى فى التاريـخ مرتين ، وان وقع شيء من هذا فسيكون لنا حجة عليكم أنتم الأتراك والآن انت تكلم خصمك ، فان لم تنفذ الشروط فسيكون الموقف جد حرج ، حيث تقرر استئصال كل من بالمدينة منكم •

فقال : أمهلنى نصف ساعة •

وبعد نصف ساعة اتصـــل بى وقال : بعد المذاكرة تقرر اخراج فخرى باشا بأية صورة كانت ، صباحا الساعة الحادية عشرة • فانتظرنا الى الصباح ، وفى الساعة المحددة خاطبنى بالتليفون يقول : بعون الله ومدد من روحانية رسول الله وبعزم رفاقى الكرام ، تم اخراج فخرى باشا من الحجرة بدون حادث ، وسيق اليكم مع الاميرالاى صبرى بك فى سيارة محروسة ، وسيصل اليكم بعد ساعة وربع •

***

وبعد ساعة وربع ، وصل فخرى باشا الى جليجلة وكنت فى مركز القيادة ، فقابله حلمى باشا ومعه الشريف شرف لدى سيارته وأخذاه الى • فقال له صبرى بك — بعد أن قدمه لى — هـذا الأمير عبد الله • فحيانى رافعا يده الى صدره تحية الدراويش ، فحييته بمثلها ، وأخذته الى الغرفة فجلس جلسة المغيظ المحنق ، فبـادرته قائلا : لقد عهدناك شجاعا فى الحرب واثناء الحصار ، وانه ليسرنا أن نراك صبورا فى مصيبة الأسر • ففرك بيديه وقال : لا أعارض وان تشكلت حكومة عربية • قلت : لقد عارضت وانتهت المعارضة ، والآن فان سمو ولى العهد الأمير على فى انتظارنا ، فاذا سمحت نركب اليه وبعد أن تتناول الشاى وترتاح قليلا •

ثم خرجت من عنده وتركت القائد ابراهيم الراوى معه ، فقال له : هل كنت معنا ؟ أجابه : كنت معكم الى أن أعلن استقلال البلاد العربية فالتحقت بأمتى ، ثم رجعت واذا به قد أتم تناول الشاى ، وهو كالنمر الهائج ينظر ما حوله فلا يرى مخرجا • فقلت : لنركب ، فقام معى فنزلنا واذا بسيارته هناك ، فقلت : أركب ــ وعمدت الى فرسى ــ فقال : بل تركب معى •

***

فركبت معه ، ثم اكتنفت الخيل السيارة التى توجهت بنا نحو المدينة المنورة فلما اجتزنا جليجلة واذا باستحكامات ، فقلت له ، هل هـــذه الخطوط الأمامية لكم ؟ فقـــال : لقد نسيت • فاستحمقت نفسى واستثقلت سؤالى وهو صامت ، ثم قلت له مازحا : لقد أتحفتم الأميرين على وفيصل بناظورين عندما قدمتم المدينة المنورة فأين حصتى ؟ فضرب يدا بيد ثم مد يده الى معطفه وراءه وتناول ناظوره فقدمه الى ، فخجلت جدا وقبلت الناظور على شرط أن يأخذ هو ساعتى تذكارا ، فشكر ذلك منى فدفعت اليه الساعة وكانت ثمينة ، ظريفة • أما كونها ثمينة فلأنها من أخى على أنعم على بها ، وأما ظرافتها فلكونها رقيقة مذهبة وغطاؤها مغلف بالميناء الأزرق ، وفى طرفها الأعلى لون وردى كأشعة الشمس عند الغروب ، مكتوب على أحـــد وجهيهـــا بخط النسخ الجميل وبذهب مطعم (لا اله الا أنت ســبحانك انى كنت من الظـــالمين) وعلى الطرف الآخر (لى خمسة أطفيء بها حر الجحيم الحاطمة : المصطفى والمرتضى وأبناهما وفاطمة) فسر غاية السرور • وهو على ما علمت فيما بعد بكتاشى الطريقة . والبكتاشيون شيعيون •• ثم تبسط معى ، وسرى عنه ما كان عليه من غم •

***

ثم انفجرت احدى اطارات السيارة فوقفنا لتعميرها ، واذا ببدويين يمران ومعهما بعض ما اشترياه من السوق ببئر درويش ، فقال أحدهما للآخر : من هؤلاء فقال الثانى : هذا عبد الله بن سيدنا ، والآخر لعله فخرى باشا • ثم تقـــدما مسرعين نحـــونا ، وبعد أن حيبانى قالا عن فم واحد : هذا فخرى باشا ؟ فقلت : انه هو • فالتفت اليه أحدهما وقال : أأنت فخرى باشا ؟ قال : نعم • قال امدد يدك أصافحك ، فأنت الشجاع الباسل الذى صمدنا عن المدينة المنورة شهورا عديدة • فصافحهما ، ثم قال لى : ان هذه لأكبر مكافأة لى من رجلين لا يؤملان منى أى صلة أو جاه ، فاذا هى الحقيقة وبها الشرف لى ــ وامتلأت عيناه بالدمع فقلت : انهما من العرب ، والعرب أمة شريفة تقدر الرجال حق قدرهم •

***

وتم اصلاح السيارة ، فتابعنا المسير ، واذا بقوة عربية نظامية من راكبي البغال عددها مئتان وخمسون بغالا ، يقودها القائد شكرى بك الشوربجى ، مصطفة للتحية وقد جاءت للاستقبال من بئر درويش بأمر من سمو الأمير على وقد علم بقدومنا من الشيخ عبد الله بن مسفر المضايفى الذى كنت بعثته حين وصول فخرى باشا ليخبر سموه بأن المشار اليه قد أصبح فى يدى — فالتفت وقال : هذه القوة عربية ؟ قلت : نعم فوازن نفسه وزرر معطفه ثم قابل التحية بتحية عسكرية وقال « هرشي أولمش بتمش » أى أن كل شىء حصل وانتهى • وبدا عليه السرور مما رأى ، وفى هذا نكاية ، فانه كان يظن أن العرب لا يحسنون تنظيم أنفسهم •

★★★

واستمرت بنا الطريق ، ووصلنا الى المضرب الهاشمى فى بئر درويش فى الساعة الخامسة أى قبل الظهر بساعة — وكانت الساعة حين ذاك عربية — فترجلنا وكانت جموع الناس مجتمعة لترى فخرى باشا ، فدخل بعد أن صافحنى قائلا : اننى سعيد لقبولى فى ضيافتكم • واتجه نحو أخى الأمير على وكان قد عرفه قبلا •

أما لقاؤهما فكان مزيجا من العتب والعداء والبرود • فانسحبت من الباب الى خيمتى المعدة لى هناك وقبل أن أغسل وجهى طلبت للمثول بين يدى سمو الأمير على فلما حضرت قال : سعادة الباشا لا يسره فراقك •

★★★

وجاءت القوة ، وكان فى المضرب كبار الأمراء العسكريين والشرفاء ورؤساء البعثات العسكرية المحالفة • ثم جاء المضايفى وقال : ان خيام الضيف معدة فنهض فخرى باشا وهو يقول : لعلها بجوار الأمير عبد الله ؟ فقيل له : نعم فخرج وخرجت معه ، وقلت : هل يأمر الباشا بأن نحضر اليه من يحب من الضباط الذين كان يألفهم ؟ فقال : اترك هؤلاء الخائنين ، لا أريد منهم أحدا فافترقنا كل الى خيمته • وبعد قليل طلبنى الأمير على فجئته فقبل رأسى وقال : ان هذه خدمة لا تنسى لك • فقبلت يده •

ورغب فخرى باشا فى السفر عاجلا وسافر فى اليوم الثانى الى ينبع بسيارته ومنها بطرادة خاصة الى المعتقل بمصر •

أما أنا فعدت الى معسكرى بالجفر ، وأخذت معاملات التسليم تتم وفق الشروط ثم استدعانى سمو الأمير على وأمرنى بالذهاب الى المدينة المنورة لأتولى حفظ الأمن الذى اختل هناك • فجئته الى بئر درويش ،

وبعد مبيت ليلة سافرت منها الى المدينة ومعى العدد الكافى من الجيش الشرقى لاحتلال الأماكن المقتضية لحفظ الأمن . فدخلت المدينة المنورة صباحا وأممت المسجد النبوى ، وكان شعورى الروحى فى درجة أعجز عن وصفها .

***

ثم نزلت فى مركز القيادة العثمانية ، وكان الحرس من الأتراك ، وكنت أجلس معهم للفطور والغداء والعشاء ، وأصبحت قائدا مسئولا عن الجبهتين المسلمة والمتسلمة ، وكأنه لم يحدث بيننا وبينهم أى شىء . فجرى التسليم وفق الترتيب المقرر وكان ترحيل أفواج القوى السفرية العثمانية من الداخل الى الساحل يجرى فى الأوقات المعينة بالدقة التامة ، ولقد سافرت براحة وشكران .

وجدير بالذكر أننى حاولت استبقاء العساكر العرب فى الخدمة العسكرية بالحجاز ولكن الشوق فى العودة الى أوطانهم غلب عليهم ، ولما قلت لهم : لا سبيل لكم الى الذهاب لأوطانكم فورا الا بالانضمام الى الجيش العربى الهاشمى ، وان أنتم لم تفعلوا هذا فستنقلون الى المعتقلات ، ومتى تتيسر لكم العودة منها عدتم وهذا مجهول التاريخ ، نكص بكل واحد منهم عن السفر ، وطلبوا الرجوع الى أوطانهم ، فأعيدوا مكرمين عن طريق السكة الى معان فالشام .

***

ولم يقع من الحوادث المخلة بالأمن شىء مهم ، غير أن بعض اللصوص ألقى القبض عليهم وهم متلبسون بجريمتهم ، فحوكموا للحال وكان قصاصهم الموت فانتهت كل مفسدة .

ثم نظم أمر الادارة وعادت المياه الى مجاريها ، وعين سمو الأمير على ابن الحسين أميرا للمدينة المنورة وشيخا للحرم النبوى الشريف وقائدا عاما لها .

رواية أخرى عن اعلان الاستقلال جاءت فى مذكرات الملك عبد الله عندما قال :

وكان لابد من اعلان استقلال البلاد العربية بأجمعها والبيعة للحسين ابن على ملكا على العرب . فالأتراك كانوا يعتبروننا عصاة خارجين ،

وأعداؤهم كانوا ينظرون الينا كثوار لا أقل ولا أكثر ، وفى هذا ما فيه من الخطر على مستقبل الأمة ٠

***

فذاكرت زملائى الوزراء ـ ماعدا الأميرين على وفيصل فانهما كانا فى الجبهة ـ ذاكرت الشيخ عبد الله سراج قاضى القضاة ونائب رئيس الوزراء ، والشيخ يوسف قطان وزير النافعة ، وحافظ محمد أمين أفندى ناظر الأوقاف ، وعزيز بك على المصرى رئيس أركان الجيش العربى ، وعلماء مكة ومفتيها ومن حضر من رجالات الشام والعراق الذين منهم الشيخ كامل القصاب والسيد محب الدين الخطيب وآل البكرى والشيخ فؤاد الخطيب وكان معاونا للخارجية ـ وآل الداعوق وحضرات الضباط العراقيين ٠٠٠ فوافقوا جميعهم على الرأى وألحوا فى سرعة التنفيذ ٠

***

فدخلت وعرضت الأمر على سيدى الوالد فرفض بشدة قائلا : أنا لا أعمل للملك ولا أقبل هذا الأمر الذى تعرضونه على ٠ فتقدمت ولثمت ركبته وقلت : هذه العريضة مقدمة من علماء الحجاز ومن حضر من سائر بلاد العرب وهم يلتمسون قبول عرضهم فقال : ليس عندى سوى ما قلته لك ٠ فقلت : لسنا جميعا على استعداد لخدمة الثورة الا على شرط قبول ما عرضناه ، فاعمل ما تشاء مع سوانا فقال : هل بلغت بكم الحال الى هذه الدرجة ؟ فقلت نعم : فقال : قف ، فوقفت ، ثم أمر بحضورهم جميعا ٠

فلما جاءوا سألهم : أصحيح ما يقول ؟ قالوا : لا يجرؤ أحد على أن يعرض على سيدنا ما لا صحة له ٠ قال : هل عزمتم على عدم الاستمرار فى الثورة ان لم أقبل ما عرضتموه ؟ قالوا : نعم سننسحب كلنا ٠ فقال : افعلوا ما شئتم والتبعة عليكم فاننى أقبل ما عرضتموه منفذا لرغبتكم لا موافقا عليها ٠ قالوا : اذن وفقك الله ، وستكون البيعة يوم الاثنين أول محرم سنة ١٣٣٥ فى المسجد الحرام ، فقال : على بركة الله ٠

***

وكانت البيعة عامة ٠٠ وقف الناس يبايعونه من ضحوة النهار الى ان أذن ـ الظهر ، أربع ساعات تامة ٠ وبعد ان عاد الى القصر الملكى ودخل الحجرة الخاصة تقدمت مهنئا فقلت: هذه هى البيعة العلنية،أما البيعة السرية فكانت والأتراك فى البلاد ، وقد أخذتها من أحد عشر ألف رجل بمكة ،

كلهم بايعنى على أن اختار لهم ملكا هاشميا يسـير بهم على ما أمر الله ورسوله ، وكانت باذن جلالتك • فقال : تذكرت تذكرت ، فقلت : وأنا الآن ذكرت أبا مسلم الخراســاني ، ولكن أرجو الله أن لا تكون عاقبتك عاقبته • فقال : خسىء الأعجمى •

ثم أبرقت بصفتي وزيرا للخارجية لكل وزراء الخارجية من دول الحلفاء والدول المحايدة ، واستمر العمل ذلك اليوم من بعد الظهر الى ما بعد نصف الليل وكان يعمل معى الشيخ فؤاد الخطيب عمل المخلص المتفانى ولا نكران لذلك •

★★★

وفى اليوم الثانى طلب الى المعتمد البريطانى الكولونيــل ولسن والمعتمد الفرنسى الكولونيل بريمون مقــابلتى فظننت انهما سـيقدمان التهنئة على ما وقع واذا بهما على عكس ذلك يقولان : لم فعلتم هذا الأمر قبل الرجوع الى رأى حلفائكم ؟

فقلت لهما : عجيب ما تقولانه •• اننا نقاتل بسيوفنا فى سبيل الله واعلاء كلمته وارجاع حقنا القومى الى نصابه ، فمن ساعدنا وأيدنا فهو صديقنا ، ومن نكص عنا وأحب أن يفت فى عزائمنا فهو لا يريد بنا الخير ، ونحن لا نسفك الدماء الا فى حقها ، فاذا رأيتم أننا على خطأ فأنتم تضمرون لنا غــير ما تعلنــون • واننى لأنتظر رد حكوماتكم ، لا ردودكم الشخصية ، وأنا أعتقد أن الترك وحلفــاءهم اليوم سيقرون ما فعلنــاه ويقبلون الصلح وهذا أمر نحبه •• فقالوا : هل تشك سموك فى اخلاصنا ؟ قلت : لا ، ولكن نحن أعلم بما ينبغى لنا أن نفعله من أجل أنفسنا •

وفى اليوم الثانى جاءنى الرد من المستر ستورمر وزير خارجيــة روسيا القيصرية وقد اعترف باستقلال البلاد العربية وبملكية صاحب الجلالة الهاشمية الحسين بن على ملكا على الأمة العربية ، مقدما تحيات جلالة القيصر نيقولا الثانى الى جلالته وتحياته هو الى والى الحكومة • فبلغت هذه البرقية الى دول الحلفاء قراءة • فقال الكولونيل ولسن : أتعد هذا اعترافا منه يا سمو الأمير ؟ قلت : وكيف يكون الاعتراف اذن ؟ فقال : تكرم اذن بقبول تهانى الشخصية على أن أقدم التهانى الرسمية بعد تلقى الاعتراف من حكومتى •

★★★

ونتهى هذا الفصل برأى الأستاذ/ محمد صبيح أوفى تلاميذ عزيز المصرى والأستاذ أنيس صائغ أحد كبار المتخصصين فى قضايانا القومية العربية والنضال العربى ٠

عن الثورة العربية ودور عزيز على المصرى فيما يقول الأستاذ / محمد صبيح :

كان تاريخ طلقة الثورة الأولى ، فجر ١٠ يونيو سنة ١٩١٦ ٠٠ وعلى أثرها هاجم أتباع الشريف ، بقيادة ابنه الأمير زيد المعسكرات التركية المتناثرة حول مكة المكرمة ٠٠ وكان الأتراك يملكون مدفعية ، ولم يكن هذا السلاح قد وصل بعد ٠ وفى احتدام المعارك وصل ضابط اسمه الفاروقى ، موفدا من القاهرة ، ومعه مدفعان وبعض الذخيرة ، فقوى شأن الجيش الشريفى ٠ وبعد عشرين يوما وصل الى جدة سلاح قوى تحت اشراف الضابط المصرى الاميرالاى سيد على ٠ وتولى قيادة المعركة وتمكن بالمدافع البعيدة المدى التى أحضرها معه ، من أن يفتح ثغرة فى قلعة جياد التى كانت أمنع معاقل الأتراك ، تسلل منها جنود الشريف ٠ وما لبثت هذه القلعة ، وباقى الثكنات أن سلمت بعد شهر من القتال ٠ وما لبثت المدن الساحلية أن سلمت بدورها ، فقد كانت واقعة تحت قصف مدافع الاسطول البريطانى ٠

★★★

وكان الملازم أول/محمد شريف الفاروقى من قوة الجيش العثمانى فى غاليبولى وسلم نفسه للقوات البريطانية وطلب نقله فورا الى مصر لأن لديه معلومات سياسية هامة (وفى القاهرة التقى مع مدير المخابرات كلايتون مرات عديدة ، وكتب كلايتون تقريرا لخصه كتاب الحركة العربية فيما يلى : —

« تحدث الفاروقى عن جمعيتى « العربية الفتاة » و « العهد » وتنظيماتهما وعن أعضاء هاتين الجمعيتين أقسموا اليمين « على أنهم سوف يحققون هدفهم وينشئوا خلافة عربية فى شبه الجزيرة العربية وسورية والعراق مهما كان الثمن وتحت أية ظروف مضحين فى سبيل ذلك بكل جهودهم وبكل ما يملكون ، وبحياتهم اذا اقتضى الأمر » ٠ وقال الفاروقى ان جمعية الفتاة ذات قوة كبيرة ونفوذ عظيم فى جميع أنحاء الأقطار العثمانية وأنه لا الأتراك ولا الألمان تجاسروا على قمع نشاط الجناح العسكرى (العهد) منها برغم علمهم أن ذلك الجناح يقف موقفا سلبيا منهم ٠ وقال الفاروقى ان أعضاء الجمعية قرروا أنهم لا يستطيعون

التريث أكثر مما تريثوا ، ولذلك عقدوا العزم على أن يعرضوا على انجلترا تعاونهم الفعال مقابل أن تتعهد انجلترا بمعاضدتهم فى مسعاهم لتحقيق الاستقلال .

***

ولكن الفاروقى لم يلتزم بطلب الاستقلال التام ، فقال ان أعضاء الجمعية يطلبون أن تساعدهم انجلترا « كى يحصلوا على قدر معقول من الاستقلال والحكم الذاتى فى تلك الأقطار العربية التى تستطيع انجلترا الادعاء بأن مصالحها فيها أعظم من مصالح حلفائها » ، وانه لن يرضيهم استقلال شبه الجزيرة العربية وحدها ، ولكن من المحتمل أن ينال رضاهم أن يحصل العراق وفلسطين على الحكم الذاتى « تحت ارشاد وسيطرة بريطانيا » . أما بشأن سورية فان أعضاء الجمعية يعرفون مطامع فرنسا فيها ولكن السكان المسلمين سيقاومون بشدة احتلالا فرنسيا وأنهم سيطلبون وساطة انجلترا فى الحصول على أفضل الشروط ، ومن المؤكد أن يتشددوا فى أن تكون دمشق وحلب وحماه وحمص داخلة فى الاتحاد العربى . وعلى حد قول الفاروقى « ان مشروعنا يضم جميع الأقطار العربية ومن جملتها سوريا والعراق ، ولكن اذا لم نستطع الحصول على الكل فاننا نريد الحصول على أكثر ما يمكننا الحصول عليه » وأوضح الفاروقى ميل العرب للانجليز وثقتهم بهم أكثر من ثقتهم بالألمان والأتراك ثم قال « ونحن نفضل أن نحصل من انجلترا على وعد بالنصف على أن نحصل من تركيا وألمانيا على وعد بالكل . اننا سوف نقبل شروطا معقولة من انجلترا ولكننا لن نرضى من أية دولة أخرى الا القبول ببرنامجنا كاملا . أما اذا أصمت انجلترا أسماعها عن المطالب العربية فان العرب لا يستطيعون البقاء على الحياد وسيرمون بثقلهم الى جانب تركيا وألمانيا ليؤمنوا أفضل الشروط التى يمكن تأمينها .

***

وقد أشار كلايتون فى مذكرته الى ضرورة حصول بريطانيا على صداقة الرأى العام الاسلامى وأن « الجهاد » فشل نتيجة لموقف العرب السلبى منه . وقال ان مقترحات الشريف تشبه مقترحات الفاروقى وأن الجواب التملصى الذى وصله أثار الشكوك فى ذهنه فرد عليه بسرعة غير عادية معبرا عن دهشته لتردد السلطات البريطانية فى بحث مسألة الحدود . « وليس من شك فى أن موقف الشريف هو موقف أكثرية الشعوب العربية » ثم أشار الى أن اعطاء جواب ملائم على المقترحات العربية يحتمل أن يضمن صداقتهم على الأقل . وأن الجمعية العربية سوف تعمل

على توسيع عمليات الشريف في الحجاز حتى تمتد الى سورية وفلسطين والى بغداد والموصل ٠

هذا خلاصة ما جاء في مذكرة كلايتون ٠ ومن الواضح أن الفاروقى كان وثيق الاطلاع على تشكيلات جمعيتى « العربية الفتاة » و «العهد» وعلى برنامجهما ولكنه لم يكن مفوضا من قبلهما باجراء أية محادثات بل فرد من الجيش العثمانى وسلم نفسه للجيش البريطانى بدافع من مبادئه الشخصية ٠

★★★

وما ذكره كلايتون صحيح ٠ فان رئيس جمعية العهد قريب — فى القاهرة وهو عزيز المصرى ٠ وقد دارت بينه وبين عزيز مداولات كثيرة ، وصلت الى كتشنر وكتشنر رجل استعمارى فذ ٠ وقد وضع خطا أسود تحت اسم عزيز ، وذكر أنه رجل خطر لا ينبغى أن تغفل عنه عين الرقابة العسكرية !

نقول ان العناصر العربية مشجعة من الانجليز طالبت بأن يسافر عزيز الى الحجاز ، ليتولى انشاء وقيادة الجيش العربى هناك ٠ وعرض كلايتون عليه الفى جنيه كنفقات سفر واقامة ، فرفض أن يأخذها ، وباع قطعة أرض ، دبر منها نفقاته ٠ وقال انه مسافر الى الحجاز لدراسة الموقف أولا قبل أن يتولى أية مسئولية » ٠ روى لورنس ، فى كتابه : أعمدة الحكمة السبعة ، قصة هذه الرحلة ٠ قال ان الباخرة « لاما » أقلته من ميناء السويس إلى جدة ، وكان على ظهرها عزيز المصرى وستورز فى مناقشات كنت تسمع فيها اللغات الألمانية والفرنسية والعربية ٠ وعند الوصول الى جدة اصطف طابور شرف عسكرى ٠ لتحية القائد العام لقوات الشريف ، ولم يكن أحد غير عزيز ٠ ولا ينسى لورنس أن يذكرنا بأن « بدلة » ستورز البيضاء ، اقتبست من ظهرها اللون البنى من المقعد الذى كان جالسا عليه ٠٠ ولم ينس أنه حدث ذات مرة أن طلب عزيز المصرى من فرقة موسيقية أن تعزف مقطوعة المانية دفعا للملل ٠ فاذا القطعة التى عزفتها ، والتى لم تكن تعرف غيرها : المانيا ٠٠ فوق الجميع ! والى جانب ملاحظات أخرى تافهة دونها لورنس عن عزيز المصرى لا تكاد تعثر فيها على شىء يستحق الذكر ٠

★★★

وهنا يجب أن نلاحظ أن الانجليز عندما وافقوا على سفر عزيز ليقود جيش الحجاز بعثوا أحد دهاتهم وهو « ستورز » لكى يرافقه ، كما زادوا

عليه جاسوسا مقيما بعد لورانس وذلك لأن الريبة كانت تملأ قلوبهم من عزيز على المصرى » .

وعن الطريقة التى تخلصوا بها ـ فى الثورة العربية ـ من عزيز على المصرى ينقل الأستاذ / محمد صبيح ـ عن الأستاذ / أسـعد داغر ، ما يلى :

« اتجهت الأنظار حينئذ الى عزيز على . فدعى للسفر الى الحجاز والعمل مع الضباط الذين سبقوه اليه على وضع نواة صالحة لهذا الجيش . فوافق عزيز على السفر لدرس الحالة لا للاشتراك فى الثورة أو تولى قيادتها . وأبى الا أن يكون سفره على نفقته الخاصة . فباع بعض أملاكه بمصر وسافر الى مكة . ولكن الذين لم تكن لهم مصلحة فى تقوية الجيش العربى اقاموا فى طريقه عقبات لا تذلل فبقى شهرا كاملا فى مكة قبل أن يتمكن من التفاهم مع الشريف حسين أو الاجتماع به اجتماعا طويلا . فساء الأمر الوطنيين الذين كانوا فى مكة . ورجوا من الشريف بالحاح أن يسلم عزيزا قيادة الجيش أو يتركه يعود الى مصر . ولم يكن الحسين أقل رغبة من سواه فى تعزيز الجيش والاستفادة من عزيز . ولكن أحوالا قاهرة اضطرته الى التردد فلما جاءه الوطنيون بذلك الالحاح خرج عن تردده وولى عزيزا قيادة الجيش ضاربا بما كان لديه من الاعتبارات عرض الحائط .

★★★

ووفق عزيز فى المدة القصيرة التى قضاها فى الحجاز الى جمع كلمة الضباط حوله ووضع أساس صالح لنظام جيش قوى . فأثار بذلك بعض المخاوف وبدأت الدسائس تدس حوله الى أن جاء لتفقد الجيش فى جهات رابغ وكان جميع ضباطه تقريبا من حزب العهد ، فدعاهم اليه وسمـع شكاواهم ولا سيما ما يتعلق منها بحالة التسلح والعقبات التى تقـام فى طريق تعزيز الجيش . وقد اتفقوا على أن يجعلوا غرضهم الأسـاسى من أعمالهم تأليف جيش منظم قوى يكفل لهم ما لا تكفله العهود والوعود .

★★★

وعقد حينئذ اجتماع كبير فى رابغ حضره جميع ضباط الجيش . فبسط لهم عزيز الموقف بصراحته المعهودة ، وقال لهم : « اننا لا نحارب رغبة فى الحرب ولا كرها بالترك أو حبا بالانجليز . بل نحارب من أجل تحرير بلادنا وتأمين استقلالها ، فهل تعتقدون أننا نستطيع تحقيق هذه الأمنية بالقوات التى لدينا الآن ؟ هل تقبلون أن تدخلوا سورية بهذا الجيش

الذى لا قوة له ولا نظام فيه ؟ وكيف يقابلنا سكانها اذا نحن جئناهم للسلب والنهب والتدمير والتخريب ؟ فقبل التفكير فى الزحف الى الشمال يجب علينا على الاقل أن نعمل على ايجاد جيش منظم يمكن الاعتماد عليه فى حفظ الأمن والنظام فى البلاد العربية التى نحتلها » ·

وتطوع أحد الضباط الذين حضروا هذا الاجتماع ـ ويظن عزيز أنه نورى السعيد بنقل حديث عزيز هذا الى الانجليز فاشتدت نقمتهم عليه وقرروا التخلص منه بأى شكل كان ·

★★★

وأصيب عزيز حينئذ بانحراف بسيط فى صحته فجاء أحد كبار الضباط الانجليز لزيارته فى مخيمه وتحدث معه طويلا فى موضوعات شتى ثم خرج الى سرادق الشريف فيصل حيث نسى أو تناسى دفتر يومياته · وقد عزا فيه الى عزيز آراء غريبة كان من مصلحة الراغبين فى عدم تقوية الجيش والعاملين على خنقه فى المهد أن يعرفها الحسين ويعتقد بصدورها عن قائد جيشه ·

وكان فى مخيم الشريف فيصل حينئذ نحو عشرين من أعوانه لم تقع أنظارهم على يوميات الضابط الانجليزى حتى أكبوا على مطالعتها لاطلاع الشريف على ما جاء فيها ·

★★★

وقد روى فيصل هذه الحادثة أمامى بعد أن صار ملكا على سورية · فقال ان جهله باللغة الانجليزية حينئذ حمله على تسليمها الى الذين يجيدون هذه اللغة فقرأوا فيها ما خلاصته :

« زرت الآن عزيز على وهو مريض وتحدثت معه طويلا عن الثورة العربية وأهدافها ونتائجها ومما قاله لى أنه لا يوجد خيرا من الاشراف ولا من هذه الثورة مادامو مسيطرين عليها · ولذلك قرر الانسحاب منها والعودة الى مصر · ولما سألته عما يمكن عمله لاصلاح الحالة · قال انه يستطيع طرد الترك من سورية فى أسابيع قليلة اذا تخلت انجلترا عن الاشراف وحل هو واصدقاؤه محلهم فى ادارة الثورة » ·

وأضاف الملك فيصل الى ذلك قوله : « لو كنت أعرف الانجليزية لما اطلع غيرى على مذكرات هذا الضابط الانجليزى · ولو لم يطلع عليها عشرون شخصا من أصدقائى لما أخبرت والدى بها لعلمى بأنها كانت

دسيسة يقصد منها اخراج عزيز من الثورة أو ايجاد الخلاف فى الجيش. وفى اعتقادى ان ابعاد عزيز على من الحجاز نشأ عن سلسلة من الدسائس كانت هذه واحدة منها » .

***

وبعد مضى خمسة أيام على هذا الحادث تلقى عزيز أمرا من الشريف حسين بوجوب السفر الى مصر لاختيار الأسلحة التى يراها لازمة للجيش . فسر بذلك سرورا عظيما وأسرع الى مصر فى أول باخرة صادفها .

وعرف الدكتور نمر أن عزيزا قادم الى مصر وأنه فى طريقه اليها وقد أخبرنى أن الانجليز معجبون به اعجابا شديدا وأنهم يرون فيه قائدا من أكفأ قواد الميدان الغربى ... الخ .. الخ .. ثم قال لى انه فخور به ويريد أن يقابله حين وصوله .

وسرنى بطبيعة الحال أن أسمع مثل هذا الثناء العظيم على رجل أحبه . وقد نقلته اليه فى اجتماعى الأول به عقب وصوله فأطرق قليلا ثم قال :

ـ الانجليز لا يبالغون فى الثناء على رجل الا اذا كانوا عازمين على ضربه .

***

وقد أصاب فيما قاله لأنه بعد بضعة أيام تلقى أمرا بأن لا يعود الى الحجاز ثم أمرا آخر بوجوب الخروج من مصر ، وقد خير بين السفر الى سويسرا أو الى أسبانيا فاختار أسبانيا لسببين : الأول رغبته فى زيارة الآثار العربية فيها ـ والثانى اعتقاده بأنه لو اختار سويسرا لكان قد اعتقل فى مالطه .

لم يعرف الانجليز كيف يرضون عزيز المصرى ، قبل أن يقرروا التخلص منه لقد دارت مباحثات طويلة بينه وبين كلايتون بشأن العراق . وكانت خطة عزيز أن يسافر الى البصرة ـ على حسابه ـ وأن يتعاون مع طالب النقيب زعيمها وبعض أركان جمعية العهد هناك ، لتأليف قوة عراقية صرفه تنهى الوجود التركى فى العراق ، واشترط عزيز ، الا تنزل فى العراق أى قوة انجليزية ، واذا احتاج الأمر الى مدد ، فليكن بقوة فرنسية (لم يكن لفرنسا أطماع فى العراق) كما قدر عزيز فى ذلك الوقت .

***

وجاء تصريح من انجلترا لرجالها فى مصر ، وقـــد أحست بحرج الموقف ، بالموافقة على الاستعانة بكل الأفكار الوطنية ، مادامت تؤدى الى انهاء الوجود التركى · وطلب من عزيز أن يستعد للسفر الى البصرة · وقبيل سفره جاءه كلايتون ، يزف اليه « بشرى » نزول القوات البريطانية فى البصرة !! ويستحثه على السفر ·· وكان هذا خلافا لكل اتفاق تم بحثه ·· فما أن سمع عزيز بهذا النبأ ، حتى وقف ، دون أن يعقب بكلمة قائلا لكلايتون : مع السلامة ·

وأراد الانجليز أن يدوروا حول عزيز المصرى من طريق آخر ··

كانوا يعرفون مقام عزيز المصرى فى اليمن بعد أن تدخل فى ايقـاف الحرب بين الأتراك بقيادة عزت باشا ، وبين اليمنيين بقيادة الامام يحيى حميد الدين واقرار الصلح بينهم ·· وبمقتضى هذا الصلح بين الجانبين ظلت القوات التركية فى اليمن ، وهو أمر مقلق لخطط الانجليز ·· وهو تهديد لمواصلاتهم عبر البحر الأحمر ، وخطر على اتفاقياتهم مع أمير عسير · فى شمال اليمن ·· جاء كلايتون مرة أخرى ، وقابل عزيز المصرى ودار بينهما الحوار التالى :

ـ ان لدى عرضا سخيا جدا لك ؟ ·

ـ قل ما عندك ··

ـ أنت تعلم أن فى اليمن قوات تركية ، وان من الواجب تصفيتها ·

ـ ·· ثم ماذا ؟ ·

ـ هل توافق على السفر الى هناك ، وتقود قوات الامام للقضـــاء عليها ؟ ·

ـ لماذا أفعل ذلك ؟ ·

ـ أنت تعلم أن انجلترا كان لها دور كبير فى انقاذك من حـــكم الاعدام الذى استصدره أنور باشا ضدك ·· ولهذا فأنت ترى أن صداقتنا لا شك فيها · واستمرارا لهذه الصداقة ، فاننا نعرض عليك هذه المهمـة الجديدة ، مع مساعداتنا لك فى انجازها وعند اتمامها فى وسعـــك أن تتخلص من الامام يحيى حميد الدين ، وتصبح ملكا لليمن !! فرد عزيز فى دهشة :

ـ ولكن عرش اليمنيين ملك لهم ، وليس ملكا للانجليز · فكيـف تعرضون على ما لا تملكون ؟ ·

***

وانتهت المقابلة بفتور تام ، ولهذا كان لا بد من التخلص من عزيز المصرى فكان العرض البريطانى الأخير ، وهو أن يختار المكان الذى يود السفر اليه فى أوروبا ٠٠ فأختار أسبانيا ٠

★★★

وعن الصدام بين عزيز المصرى والانجليز ، والشريف حسين ٠٠ يقول الأستاذ أنيس صايغ :

فرض الوطنيون عزيز المصرى على الحسين والانجليز قائدا للجيش العربى ووكيلا (أى وزيرا) لشئون الدفاع بعد أن بدأت الثورة بدايتها الفوضوية المحزنة ٠ فتوجه الى الحاجز وبرفقته لورنس وستورز يحاولان غسل دماغه وتطعيم تفكيره بالأقوال المعسولة والوعود البراقة والحجج الماكرة التى استطاعت أن تبدل آراء ومواقف أحرار عرب كثيرين ، قبله وبعده ٠ واستلم الرجل مهماته وحاول أن يبدد مخاوفه وأن يتغلب على شكوكه ، فأخذ يعمل باخلاص ٠ وسعى لتحويل الجماعة المحاربة الى جيش حديث منظم هو الأول من نوعه فى تاريخنا المعاصر ٠ وكان هدفه أن يتمكن هذا الجيش بعد أن يطرد الأتراك من سورية ، من حماية الدولة العتيدة التى حلم هو واخوانه بها منذ سنوات ٠

★★★

الا أن آماله تحطمت فى وقت قصير وعادت اليه شكوكه ومخاوفه مستندة هذه المرة ، بالوقائع والاثباتات المؤلمة ٠ اتضح له أن الانجليز والفرنسيين يعطلون أعمال الثورة فى بعض النواحى قدر الامكان ويؤخرون سرعتها واجراءاتها وتنظيماتها لتنفيذ مخططهم السرى للمنطقة دون أن يتقيدوا بالوعود القديمة للعرب ٠ كانوا يقترون فى السلاح على العرب كثيرا ولا يسلمونها الا أسوأ أنواعه وأقدمها ــ وكان بعضه من بقايا الحرب الروسية ــ اليابانية فى مطلع القرن ٠ وكان بعضه ينفجر فى وجه الجنود عند استعماله ٠ وقد روى أكثر من ضابط كيف قتل جنود عرب كثيرون بسبب فساد السلاح الذى وزع عليهم وفى سجلات الثورة العشرات من البرقيات التى أرسلها الضباط العرب الى القيادة البريطانية فى مصر والسودان يطلبون فيها المزيد من السلاح الحديث لمجابهة الاتراك ٠ ولكن استغاثاتهم ذهبت دون جدوى ٠ وكاد الجيش يفنى فى معركة رابغ وينبع سنة ١٩١٦ بسبب ندرة العتاد ٠

★★★

وكان المسئولون البريطانيون يعرقلون مساعي عزيز المصرى بتدريب الجنود البدو وتعويدهم على النظام . كانوا يصرون على تركهم على فوضويتهم البدائية التى تحول دون تحويلهم الى جنود حقيقيين . وكانوا يمنعون الضباط العرب من الاطلاع على الخطط الحربية التى هى من اختصاصهم وكانوا يكتمون هذه الخطط حتى عن القائد العام . بل انهم تعمدوا تأخير انتظار العرب واجلاء الأتراك عن سوريا الى أن تتمكن قواتهم من تحويل الانتصار لصالحها ، وقد قام لورنس فى سنة ١٩١٧ بمغامرته الأسطورية ليذهب الى القابون من أعمال دمشق ويجتمع الى قائد حاميتها، رضا الركابى ويطلب منه أن يمنع الوطنيين فى سورية من الثورة وأن يركن الجميع الى الهدوء وموالاة الاتراك الى أن يطيب للانجليز أن يدخلوا دمشق .

وقد اصطدم لورنس وغيره من الضباط الانجليز مع الضباط العرب الأحرار من زملاء المصرى عدة مرات بسبب مماطلة الانجليز فى تحرير سورية وانقاذها من المجاعة والارهاب التركى وبسبب تعنتهم . وقد طالب أولئك الضباط بالتوجه من العقبة الى أواسط سورية بدلا من البقاء خاملين مدة طويلة فى جنوب الأردن واعتبروا ابقاءهم هناك محاولة لمنع تحرير دمشق وتأخيره قدر الامكان حتى أن أحدهم ، مولود مخلص ، أعلن العصيان وعوقب بالسجن وقد اعترف أحد مؤرخي حياة لورنس ، ادورد روبنس ، وأن الانجليز كانوا يتعمدون تأخير الامدادات عن العرب ويتذرعون بحجة سوء الطقس .

★★★

واصطدم عزيز المصرى ، من جهة أخرى ، بالحسين وأبنائه ، اصطدام الضابط المتمرس فى الفنون العسكرية النظامية بشيخ بدوى لا يفكر الا بمصالحه وتقاليده البالية . فكان الحسين وأبناؤه يسمحون للجنود بمخالفة أوامر قيادة الجيش ويشجعونهم على عصيان الضباط العرب . وكانوا يرفضون طلبات القواد العرب ويردونها دون جواب وكانوا يكتلون الضباط المعتدلين حولهم ضد القوات الوطنيين ، وينشرون الشائعات والتهم بين الجنود ــ وكانوا يضعون العراقيل أمام القيادة ثم يحاسبونها ان فشلت أو تأخرت .

لم يجهل عزيز المصرى سر هذه الاجراءات . كان يعلم أن الانجليز والهاشميين على اطلاع على شكه بنواياهم . كان أحد مرؤوسيه ، نورى السعيد صاحب الحظوة الكبرى عند الهاشميين والانجليز من قبل اعلان الثورة ، يتحدث دائما عن عناد عزيز المصرى وشكوكه .

انتهت قيادة المصرى للجيش العربى بعد وقت قصير حينما لم يعد الانجليز والهاشميون يحتملون وجوده ومراقبته لهم . أعطوه أجازة طويلة جبرية ونقلوه الى مصر شبه موقوف (وهناك وصله أمر العاهل الهاشمى بفصله من الجيش العربى) ، ومعه أمر آخر ، من القيادة البريطانية بطرده من مصر . تركوا له أمر اختيار المكان الذى يجب أن ينفى اليه خارج الوطن العربى . فاختار أسبانيا ، أرض التراث وبلد الأمجاد والذكريات وبذلك سقط أول شهيد من قافلة شهداء الحلف البريطانى الهاشمى ، التى تضم ، فيمن تضم ، محمد شريف الفاروقى من الموصل وطالب النقيب من البصرة وحفيدى عبد القادر الجزائرى من دمشق ، أما قيادة الجيش العربى فقد رشح نورى السعيد اليها صهره جعفر العسكرى . وكان كلاهما يقف وراء مأساة المصرى .

★★★

ارتاع الأحرار لمصير زميلهم وزعيمهم وتناقلوا قصة خلافه مع المسئولين الهاشميين والانجليز . وترحموا على الحلم الذى لم يعش سنة واحدة ورأوا الحكم الهاشمى الجديد تتمة لسير العشرات من الحكم العربى من قبل ممن قطعوا أعناق أعوانهم الذين أوصلوهم الى الحكم وأخذ أحد الأحرار ينسحب بالتدريج ويبتعد عن العائلة الحاكمة دون أن يتخلى عن مبادىء الثورة ، أسعد داغر أحد هؤلاء . وهو شاهد عيان صادق لتلك الفترة . وهو يكذب فى مذكراته خرافة ترامى الضباط العرب على أقدام الهاشميين ، ويصف تردد الكثيرين منهم فى العمل فى الحجاز تحت القيادة الهاشمية . وقد التقى بعض هؤلاء فى القاهرة وأسسوا حزبا للوحدة السورية لمقاومة استغلال الحسين للقضية العربية » .

وبعد كل هذه الاطالة وبعد نقل كل هذه الروايات الكثيرة المتضاربة فى بعض الأحيان وبعد نشر كثير من المذكرات الجديدة التى يرى بعضها النور لأول مرة بعد هذه الاكتشافات التاريخية فى موضوع كانت له مكانته الكبيرة والخطيرة فى العشرين عاما الأولى من القرن العشرين ـ موضوع الثورة العربية ضد الأتراك ، نقف عند هذا الحد ، على أن نكمل حديثنا بمشيئة الله عن تلك الثورة وعن بقية صفحات حياة عزيز على المصرى وزملائه رواد الوحدة العربية والاسلامية فى الجزء الثانى والأخير بمشيئة الله تعالى .

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦١٥/١٩٩٠

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢٣٣١ ـ ٥

ليس هذا الكتاب ـ كما يقول مؤلفه صبرى ابو المجد ـ من كتب دراسة الشخصيات وإنما هو من كتب دراسة المراحل . وإذا كان المؤلف قد اختار الشخصية الاسطورية شخصية عزيز على (المصرى) لتكون محورا لهذا الكتاب فما ذلك الا لأن شخصية عزيز على (المصرى) بما فيها من جوانب متعددة تمثل المرحلة التى رغب المؤلف فى دراستها اصدق تمثيل

اختار المؤلف ـ لدراسة دولة الخلافة الاسلامية والدول العربية والاسلامية الفترة التى تمتد من أخريات القرن التاسع عشر ، والست عشرة سنة الأولى من القرن العشرين لتكون موضوعا لمؤلفه هذا مع تركيز على تاريخ دولة الخلافة الاسلامية والدول الاسلامية والعربية فى تلك المرحلة وكذلك على الحروب التى خاضتها مركزا ايضا على انبثاق حركة الوحدة العربية والاسلامية والذين مهدوا لها ودفعوا حياتهم ثمنا لاعلان قيامها .

وقد ركز المؤلف ـ ايضا ـ على دور الصهيونية فى اسقاط دولة الخلافة الاسلامية وفى خلع السلطان عبد الحميد الذى رفض منح فلسطين لتكون وطنا قوميا لليهود

والكتاب ـ اولا وأخيرا ـ كتاب وثائق ، كانت المكتبة العربية فى أمس الحاجة اليه وسوف يكون لهذا الجزء من الكتاب بقية فى جزء آخر يتناول بالتفصيل بقية حياة عزيز على المصرى التى كانت بحق حياة اسطورية .

الثمن ١٥ جنيهاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب